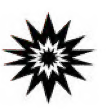
المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ النساء:١. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ آل عمران:١٠٢. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ الأحزاب:٧٠/٧١.



أما بعد.

فقد خلق الله الإنسان لعبادته، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ الذاريات:٥٦/٥٨.

وبين الله تعالى أنه خلقه ليخوله في الأرض ويستخلفه فيها على وجه الابتلاء والامتحان، فقال: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ

خَلِيفَةً﴾ البقرة:٣٠. وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ الأنعام:٩٤.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ الإنسان:٢/٣.

كما أن الله وكل الإنسان واسترعاه واستأمنه وهداه إلى ما يصلحه، روى مسلم من حديث ابنِ عمر ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: (كُلكُمْ رَاعٍ، وَكُلكُمْ مَسْئُول عَنْ رَعِيَّتِه) [1].

- توافق العلل والغايات التي بينها القرآن في وجود العالم والإنسان.

لقد قامت العلة من خلق الإنسان على مجموعة من الغايات والمفاهيم القرآنية التي تفسر حقيقة البشرية في جلاء ووضوح، وهي مفهوم الأمانة والخلافة والابتلاء، فكل واحد منها يفسر العلاقة بين الله والإنسان والعالم، تلك العلاقة التي وردت في كتاب الله ﷻ واضحة جلية، ما تركت شاردة ولا خفية من أمور الدنيا والآخرة إلا ولها صلة بها من وجه ما، وهذه الأمور الثلاثة يكشف لنا مجموعها عن حقيقة التوحيد والعبادة، وكيف وضعت للإنسان في الأرض السيادة؟ وكيف نفسر من خلالها معنى الشهادة؟

إن العلاقة بين الله والإنسان والعالم تفسرها هذه المفاهيم القرآنية

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن ١/٣٠٤ (٨٥٣)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية ٣/١٤٥٩ (١٨٢٩).

الثلاثة في يسر ووضوح، فالله ﷻ مالك الأمانة وصاحبها على الحقيقة وهو المستخلِفُ المبتلي، والإنسان أمين عليها مستخلَفٌ مبتلَى فيها، والعالم هو موضوع الأمانة، وفيه الأرض مستخلَفٌ عليها مبتلى بها، إذ أن العالم مهيأ بقسميه عالم الغيب وعالم الشهادة لتحقيق ذلك.

وكل أنواع الأدلة والبراهين سواء كانت نقلية أو عقلية أو فطرية، كلها تكشف عن مقامات اليقين عند المسلمين والمؤمنين والمحسنين، كل على قدر منزلته، وإدراكه لمعنى كونهم مستأمنين مستخلفين مبتلين.

لقد بينت هذه المفاهيم القرآنية والنبوية أن الإنسان متميز عن غيره باستخلافه في الأرض، فهو خليفة عن الله ﷻ على وجه الابتلاء والكمال، لأنه الوحيد الذي قبل الأمانة حين رفضتها الكائنات، وأنه سبحانه بعدله سخر من رفضها لمن قبلها، واستخلفه في الأرض بينها، وذلك بعد تخييرها في التسخير والإتيان طوعا أو كرها لأمر الله ﷻ بحيث تنفعل للإنسان.

كما أن قضية الاستخلاف نتج عنها وجود عالمين على سبيل ابتلاء الإنسان، عالم الغيب وعالم الشهادة، وهما في العلم عند الله سيان، لكنهما مختلفان بالنسبة للإنسان، وكذلك ظهر على إثر استخلاف الإنسان في الأرض نوعان من توحيد الله ﷻ، توحيد العبودية وتوحيد الربوبية، فتوحيد العبودية أن يكون المستخلَف مقيدا بالخضوع للتكليف وإظهار العبودية، والعمل في أرض الله بالإرادة الشرعية، ومراعاة الأمانة وتحمل المسئولية، وليس استخلاف الإنسان في الأرض نيابة عن الله في معنى من معاني الربوبية، أو تخويلا لغيره في إرادته الكونية.

سبحانه أن يتخذ شريكا له في ملكه، أو يتخذ وليا من الذل وينعزل عن خلقه، قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ الإسراء:١١١. وقال سبحانه وتعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ فاطر:٤١. والذين نفوا أن يكون الإنسان خليفة عن الله ﷻ في أرضه كشيخ الإسلام ابن تيمية ومن قال بقوله إنما أرادوا هذا المعنى؛ لأن إطلاق لفظ الخليفة دون تقييد يشمله.

- حقيقة الابتلاء تحقق معاني الحكمة في وجود الشرائع والأحكام.

إنما جعل الابتلاء ليحقق معاني الحكمة الإلهية، ويبين حقيقة العدل في استخلاف الله للإنسانية، فتتحقق الشرائع والأحكام ويتميز الحلال من الحرام، ويكون دين الإسلام هو الدين الذي لا يقبل الله دينا سواه، فالابتلاء له في الحقيقة شقان: الأول فعل الله ﷻ بخلقه وتقديره وقدره المحتوم على الإنسان، والثاني موقفنا من فعله سواء بالطاعة والإيمان، أو الكفر والعصيان، فمن أجل الابتلاء أخفى الله موعد الموت والانتقال إلى دار الجزاء، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ طه:١٥.

ومن أجل الابتلاء جعل الله سائر الناس متفاوتين في الآجال والملك والمال، وسائر الأرزاق والأخلاق كما قال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ الأنعام:١٦٥.

قال ابن القيم رحمه الله: (العبد في هذه الدار مفتون بشهواته ونفسه

الأمارة، وشيطانه المغوي المزين وقرنائه، وما يراه ويشاهده مما يعجز صبره عنه، ويتفق مع ذلك ضعف الإيمان واليقين، وضعف القلب ومرارة الصبر، وذوق حلاوة العاجل، وميل النفس إلى زهرة الحياة الدنيا، وكون العوض مؤجلا في دار أخرى غير هذه الدار التي خلق فيها، وفيها نشأ، فهو مكلف بأن يترك شهوته الحاضرة المشاهدة لغيب طلب منه الإيمان به) [(١)].

ومن أجل الابتلاء حجب الله عنا عالم الغيب، فلا نرى الله ﷻ، ولا نرى ملائكته، ولا نرى الجنة أو النار، ولا نسمع صراخ المعذبين في القبور، فالإنسان يسمع ويرى ولكن في حدود معينة، فإن تجاوزها أصبح قوله رجما بالغيب، وقولا على الله بلا علم، وكذلك القول فيما لا نراه من الملائكة والجن أو الجنة والنار؛ فإن الله حجب عنا ذلك تحقيقا لمعنى الابتلاء، فكيف سنكلف بالإيمان بهذه الأشياء ونحن نراها بمداركنا، فلا معنى عند ذلك لوجود الرسل والشرائع، ولا معنى أن يكون المؤمنون بالغيب هم المفلحون.

ومن ثم فإن الابتلاء يفسر لنا قصور أجهزة المكلفين، وتمام الحكمة في خلق المستخلفين؛ فالإنسان وإن كان مخلوقا عارفا مدركا إلا أن مدركاتِه قاصرة على العالم المحسوس فقط، فليس من المعقول أن يكون على الأرض ابتلاء والإنسان المبتلى يمكن أن يرى النار وعذابها، أو يسمع شهيقها وزفيرها، فإن هذا يناقض الحكمة والكمال، وليس ذلك وصف رب العزة والجلال.

---

(١) إغاثة اللهفان ٢/١٦٤.

ومن ثم فإن الله ﷻ حجب الذرية تحت غطاء كوني شامل يحجب عالم الشهادة عن عالم الغيب، ويمنع عن الإنسانية معرفة الأمور الغيبية التي تقع على الأرض، وإلا لن يكون هناك فضل لاجتهادهم، أو المسارعة إلى الإيمان بربهم، إذ الكل في كشف الغطاء والحجاب سواء، ولذلك فإن هذا الغطاء يرفع عن الإنسان بمجرد الانتهاء من فترة الابتلاء والانتقال إلى دار الجزاء، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴿٢١﴾ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾﴾ق:٢٠/٢٢.

- موقف الناس من تحقيق توحيد العبادة وحقيقة الإيمان.

من المعلوم أن أحكام الإسلام والعبودية أو أوامر الله التكليفية الشرعية توجه الإنسان إلى الأفضل دائما، وتقلل من الفوارق بين الناس ما دام الإنسان ملتزما بتنفيذ مراد الله ﷻ في أمانته، محافظا بين الخلق على مكانته، موفقا فيما يمتحنه من أنواع الابتلاء، سعيدا بما سيناله في الآخرة عند اللقاء، ومن أجل ذلك ابتلى الله الإنسانية جمعاء في أن يراعي كل إنسان مكانة أخيه الإنسان، ليحيى حياة كريمة تشعره بالأمن والأمان، وتتناسب مع كونه خليفة الله على وجه الكمال.

وهذا منطق الإسلام في الدعوة إلى حقوق الإنسان، فلن تتحقق حقوق الإنسان على وجه الكمال إلا بتطبيق منهج الله تطبيقا شاملا، وقيام كل راع بما عليه قياما كاملا، وأن يكون فعالا مؤثرا في الحياة ولا يكون خاملا ولا متواكلا، بل متوكلا على الله ﷻ آخذا بالأسباب.

وقد بين الله تعالى أن الإنسان في سباق مستمر لاكتساب أحسن

العمل في ابتلاءات الحياة، وأن هذا السياق الذي يسير فيه مبني على حكمة الله في وجود الإنسان بين الحياة والموت، وبين التوحيد والشرك، وبين العبادة والعلو في الأرض وبين الإيمان والكفر.

ولما كانت الحياة وسيلة لطلب الفوز بالحياة الباقية التي لا خسار فيها ولا بوار، كانت دوافع العمل عند أهل اليقين والإيمان التمسك بالحق الذي نزل على سيد الخلق ﷺ، وتعلق القلوب بمالك الملك، والاستعانة به في الثبات على الإيمان وتنفيذ الأمر، والسعي في طلب المزيد من الأجر، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ فاطر:٢٩/٣٠.

وصَف الذين يرجون تجارة لن تبور بأنهم يتلون كتاب الله ويتبعونه في أوامره فيمتثلونها، وفي نواهيه فيتركونها، وفي أخباره فيصدقونها ويعتقدونها، ولا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال، هذا وصف الصادقين الراغبين في النجاة، الذين يرجون بذلك تجارة لن تبور، ولن تكسد ولن تفسد، بل تجارة هي أجل التجارات وأعلاها وأفضلها، ألا وهي رضا ربهم، والفوز بجزيل ثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه، فحصل لهم ما رجوه من ربهم، فوفاهم أجورهم، وزادهم من فضله زيادة عن أجورهم، فغفر لهم وشكر لهم (١).

لقد أخبر الله تعالى نبيه ﷺ بأصناف الناس من بعده في موقفهم من دعوته إلى توحيد العبادة لله والإيمان بما أخبر الله مما سيحدث لهم في

---

(١) تفسير السعدي ٦٨٩/١ بتصرف.

الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ فاطر: ٢٩/٣٨.

قسَّم أتباع محمد ﷺ إلى ثلاثة أصناف، منهم ظالم لنفسه بالمعاصي التي هي دون الكفر، ومنهم مقتصد مقتصر على ما يجب عليه، تارك للمحرم، ومنهم مجتهد سابق بالخيرات مسارع فيها، وهو المؤدي للفرائض، المكثر من النوافل، التارك للمحرم والمكروه، فكلهم اصطفاه الله تعالى لوراثة هذا الكتاب وإن تفاوتت مراتبهم، وتميزت أحوالهم، فلكل منهم قسط من وراثته حتى الظالم لنفسه، فإن ما معه من أصل الإيمان وعلوم الإيمان وأعمال الإيمان من وراثة الكتاب، لأن المراد بوراثة الكتاب وراثة علمه وعمله، ودراسة ألفاظه واستخراج معانيه، كلهم يدخلون الجنة ابتداء أو انتهاء بمشيئة الله وإذنه، وتوفيق الله ومعونته، فذلك هو الفضل الكبير، أي وراثة الكتاب الجليل لمن اصطفى تعالى من عباده، فجميع النعم بالنسبة إليه كالعدم، فأجلّ النعم على الإطلاق وأكبر الفضل وراثة هذا الكتاب.

ثم ذكر الله تعالى الصنف الباقي من الناس وهم الذين كفروا بالنبي محمد ﷺ ورسالته، وأصروا على الإعراض ولم يستجيبوا لدعوته بعد أن سمعوا عنها، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ

فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ فاطر:٢٩/٣٨.

ورد الله سبحانه الأمر في وقوع ما أخبر عنه إلى علمه الذي سبق وجود العالم بالتقدير لوقوع المقادير، فهو سبحانه عالم غيب السماوات والأرض، علم ما كان وما هو كائن وما سيكون، وما لم يكن ولو كان كيف يكون، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ﴾ فاطر:٣٨.

- المنطلق في دورة منة الرحمن في توحيد العبادة لله وحقيقة الإيمان.

دورة منة الرحمن في توحيد العبادة وحقيقة الإيمان ننطلق فيها بمنة الله انطلاقا باعثه التصنيف القرآني السابق لأنواع الناس بعد موت النبي ﷺ وموقفهم من دعوته، فأصناف أهل الجنة هم المقتصدون الذين يفعلون الواجبات وينتهون عن المحرمات، وكذلك السابقون بالخيرات الذين يزيدون فعل الواجبات والانتهاء عن المحرمات، وفعل المستحبات المندوبات، وينتهون عن المكروهات وما اشتبه من المباحات، فهؤلاء هم أصحاب الدرجات في أعالي الجنات، وهم السائرون إلى الله حقا في منازل إياك نعبد وإياك نستعين.

وهذا هو طريق السالكين في منازل توحيد العبادة ومقامات الإيمان واليقين، وهو طريق قرآني نبوي خالص في بيان حقيقة الدين، كما علمه جبريل لسيد الأنبياء والمرسلين، وهو طريق مغاير للطريق البدعي

أو طريق المبتدعين من الصوفية في تصنيفهم لمقامات السالكين إلى طريق للعابدين، وآخر للمريدين، وثالث للعارفين، لا مستند له غير مواجيد المغالين، وأذواق الحلولين، وفلسفات الاتحاديين المارقين.

وكذلك من أصناف الجنة ولو بعد حين أصحاب الكبائر الظالمون لأنفسهم ممن أورثوا الكتاب، والذين هم تحت المشيئة الإلهية، ففيهم من الإيمان مع بعض النقصان ما يوجب لهم، إما دخول الجنة ابتداء برحمته، وإما يعذبون في النار بعدله وحكمته حتى يتطهروا من ذنوبهم وآثامهم، غير أنهم لا يخلدون فيها، بل يدخلون الجنة ولو بعد حين، كما وردت بذلك النصوص النقلية الصحيحة في شفاعة سيد الأنبياء والمرسلين.

أما الصنف الرابع من الناس الذين ذكرهم الله بعد موت النبي ﷺ فهم المشركون الكافرون المخلدون في العذاب، ومن ثم سوف نتحدث عن الشرك وأنواعه وأسبابه، وما تعلق منه بالقلب واللسان والجوارح سواء كان شركا أكبر أم شركا أصغر، ثم نتحدث عن أنواع الكفر والكافرين، وما يقابلها من أركان الإيمان وأنواع المؤمنين بحسب العمل وقوة الإيمان واليقين.

- توصيف دورة منة الرحمن وموقعها من الدورات العلمية.

لقد بينا في دورة أصول العقيدة أن الهدف الأساسي من الدورات العلمية في العقيدة الإسلامية هو العناية بنشر التوحيد الذي كان عليه سلفنا الصالح، وترسيخ العقيدة الصحيحة، والمبادئ والقيم الإسلامية

المبنية عليها بأساليب علمية، وصيانتها من الضلالات والأفكار البدعية، وغرس الروح الإسلامية والأخلاق الكريمة في طلاب العلم للحفاظ على تلك القيم من غزو الأسلحة الفكرية، والانحرافات العقدية والسلوكية، بحيث يبقى طالب العلم عضوا صالحا نافعا في مجتمعه، محافظا على دينه حريصا على بلده.

وهذا الهدف كما كان ممتدا في دورة منة القدير، فإنه متواصل أيضا في دورة منة الرحمن في توحيد العبادة وحقيقة الإيمان، والمسلك فيها أيضا اتباع نظام التعليم عن بعد، بحيث يكون الأمر سهلا ميسورا، يتمكن من خلاله جميع فئات المثقفين في المجتمع من التعرف على العقيدة الصحيحة بنظام التعليم الذي يتجاوز حدود الزمان والمكان.

وقد علمنا أن الطالب الراغب في حمل أمانة تلك العقيدة وتدريسها مستقبلا بصورة كافية، تمكنه من التأهل لنشرها بعد مراعاة المتطلبات العلمية الأخرى، لا بد له من دراسة أربع دورات علمية، أولها دورة أصول العقيدة في التعرف على منهج أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، وكل ما جاء في النقل الصحيح من أخبار عن الغيبيات، وهذه قد تمت بحمد الله وتوفيقه، ولاقت قبولا واسعا ظهر أثره فيمن درسوها وأتقنوها من الدعاة وطلاب العلم.

وكذلك تمت الدورة العلمية الثانية والتي عرفت بدورة منة القدير في التعرف على منهج أهل السنة والجماعة في توحيد الربوبية ومسائل الإيمان بالقضاء والقدر والحكمة والتدبير، وما يتبعها من أركان الإيمان

بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وقد تمت بحمد الله ولاقت بمنته وتوفيقه قبولا كبيرا ظهر أثره في واقع من درسها.

وها هي دورة منة الرحمن في التعرف على منهج أهل السنة والجماعة في توحيد العبادة وحقيقة الإيمان، فصلنا فيها أحكام العبودية والطريقة القرآنية والنبوية لمقامات الدين ومنازل إياك نعبد وإياك نستعين، وبينا فيها أنواع الشرك في الإلوهية، وخطورته على الأمة الإسلامية، وحقيقة العمل وأركان الإيمان، وما يقابله من أنواع الكفر والعصيان، وأسأل الله أن تكون سببا في اجتماع المسلمين وخروجهم من الاختلافات الواسعة التي انتشرت في الآونة الأخيرة حول قضية الإيمان ومسماه.

وكذلك نسأله سبحانه أن يعيننا على إتمام دورة كفاية الطالبين في بيان أصول فرق المسلمين المتقدمين، ومذاهب المعاصرين المنحرفين، وأديان المخالفين لسيد الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ.

وننبه مرة أخرى على أن طالب العلم لكي يتقن أحد الدورات العلمية السابقة لا ينبغي أن يكتفي بمجرد القراءة في الكتاب، فلابد له أولا أن يلتزم حضور الدورات العلمية، أو مشاهدة المحاضرات المسجلة على الوسائط المتعددة، والملحقة بالكتاب المقرر لكل دورة، بحيث لا تقل نسبة المتابعة في كل دورة عن ستين ساعة مرئية سماعا مباشرا في مجموع الجلسات العلمية، وأن يقوم بعمل التلخيصات والأبحاث المطلوبة حول موضوع كل محاضرة.

- المحاور العلمية التي يدور حولها المنهج المقرر في منة الرحمن .

دورة منة الرحمن القصد منها أن نتعرف على منهج أهل السنة والجماعة في توحيد العبادة وحقيقة الإيمان بحيث يتمكن طالب العلم بعد دراستها دراسة دقيقة من الإلمام بعدة جوانب أو محاور أساسية:

المحور الأول: يدور حول الطريق القرآني النبوي لسلوك العابدين الذين أورثوا الكتاب من المقتصدين والسابقين المقربين، وبيان حالهم في منازل إياك نعبد وإياك نستعين، وكذلك التحذير من الطريق البدعي الصوفي، وفي هذا المحور تناولنا الحديث عن المقصود بتوحيد العبادة وبيان مثل المؤمن في شجرة الإيمان، ومقامات الصوفية وتقسيماتهم البدعية في توحيد العبودية، ومنازل السائرين وخطورة القول بفناء المريدين والعارفين، ثم تفصيل مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين من خلال بيان أحكام العبودية المتعلقة بالقلب واللازمة للمقتصدين والسابقين، ثم عبوديات القلب وأحكامها وعلاماتها الظاهرة في الأبدان، ثم أحكام العبودية المتعلقة باللسان وأثرها في فهم حقيقة الإيمان، وكذلك أحكام العبودية المتعلقة بالجوارح.

المحور الثاني: يدور حول بيان وصف المخالفين من أصحاب الكبائر الظالمين لأنفسهم ممن أورثوا الكتاب من أمة محمد ﷺ، وتناولنا الحديث عن الكبائر وضوابطها وأنواعها المفصلة والمتعلقة بالقلب واللسان والجوارح، وبيان وصف أصحاب الجحيم المخلدين من المشركين والتمييز بينهم وبين من وقع في الشرك من المسلمين، وتناولنا الحديث في

هذا المحور عن الشرك وحقيقته وأسبابه وأنواعه المقابلة لأنواع التوحيد، وأنواع الشرك المتعلقة بالقلب بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر، وكذلك أنواع الشرك المتعلق باللسان والجوارح بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر، وبيان الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وأن هذا الفرقان هو التزام الصراط المستقيم.

المحور الثالث: يدور حول أصول الكفر وأنواعه التي تقابل أصول الإيمان وأنواعه، وضوابط القول في مسألة العذر بالجهل ومسئولية الإنسان عن تجاهل العلم، وكفر الجهل والتكذيب بين الإعراض عن معرفة الرسالة وتعطيل نصوصها، وبيان صلاح القلب وتعلق الظاهر من أعمال الإيمان بأعمال القلب في الإنسان ثم أثر انتفاء عمل القلب في وجود النفاق وتردده بين الأكبر والأصغر، ثم الحديث عن قول اللسان وتحقيق شهادة التوحيد والإيمان، وأثر انتفاء قول اللسان في وجود كفر الجحود وتنوع درجاته المتعلقة بكتمان الحق، ثم عمل الجوارح وموقعه في مسمى الإيمان، وعلاقته بعمل القلب في الإنسان، وأثر انتفاء عمل الجوارح في وجود الاستكبار والعناد، ثم الحديث عن زيادة الإيمان ونقصانه وأثرها في الحكم بإيمان الإنسان وكفرانه والرد على الخوارج والمرجئة، ثم التحذير من خطر التكفير بلا تفصيل، وتفصيل نواقض الإسلام الاعتقادية والعملية، وتناولنا في هذا المحور أيضا حقيقة الولاء والبراء وأحكام الهجر ولزوم الجماعة وطاعة أولي الأمر في غير معصية الله، ثم ختمنا الكلام بضرورة التوبة إلى الله وأنها بداية الإيمان ونهايته،

وأول المنازل في توحيد العبودية وأوسطها وآخرها، وقد وقفنا وقفة إيمانية مع النظرة الأشعرية الصوفية الشيعية للطريقة السلفية، ثم بينا أن أصول الإيمان عند السلف توافق الفطرة في نقائها وسلامتها، ويقبلها العقل في منطقيتها وبساطتها.

- مفردات المنهج المقرر في الدورة العلمية الثالثة منة الرحمن .

وقد تناول المنهج في دورة منة الرحمن ثلاثين مطلبا مشروحا شرحا ميسرا، وبتوسع زائد في الكتاب عن المحاضرات المرئية، بحيث يستطيع الطالب أن يجد بين يديه ما يصبو إليه مما يغطي له كل فقرة في المطلب، أو موضوع المحاضرة، وأما بيان مفردات تلك المطالب في دورة منة الرحمن مرتبة على ما سبق تقسيمه من المحاور والجوانب الأساسية فهو على النحو التالي:

• المطلب الأول.

المقصود بتوحيد العبادة وبيان مثل المؤمن في شجرة الإيمان.

- توحيد العبادة هو الإسلام وهو الإيمان في باب الأمر والطلب.
- الإيمان في باب الأمر والطلب له ثلاثة أركان.
- الإيمان في حديث سفيان له ركنان أساسيان.
- معاني كلمة العبادة وأصول اشتقاقاتها اللغوية.
- العبادة في المفهوم الاصطلاحي للأصول القرآنية والنبوية.
- أحكام العبودية وتعلقها بتوحيد الإلوهية .

- الوسطية والشمولية في تطبيق أحكام العبودية.
- الأدلة النقلية على تشبيه الإيمان بالشجرة الحسية.
- الشجرة الطيبة شجرة الإيمان وتوحيد العبودية.
- الحكمة في تشبيه المؤمن بالشجرة الطيبة والكافر بالخبيثة.

• المطلب الثاني.

مقامات الصوفية وتقسيماتهم البدعية في توحيد العبودية.

- توحيد العبودية وأهمية بيانه وتحقيق أركانه.
- العبادة في الإسلام لا تقبل عند الله إلا بشرطين.
- العابدون أدنى أنواع السالكين عند أوائل الصوفية.
- المريدون من أنواع السالكين هم المتوسطون عند الصوفية.
- العارفون أرقى أنواع السالكين عند الصوفية.
- طريق السلوك الصوفي للعابدين والمريدين والعارفين.
- المقامات الصوفية ووصف طريق العابدين الزاهدين.
- الأحوال الصوفية ووصف طريق المريدين المحبين.
- طريق العارفين يبدأ بعد انتهاء طريق المريدين المحبين.

• المطلب الثالث.

منازل السائرين وخطورة القول بفناء المريدين والعارفين.

- التقسيم البدعي للسالكين يدور حول ثلاثة أنواع.
- تعريف بكتاب منازل السائرين لعبد الله الهروي.

- تقسيمات الشيخ الهروي لمنازل السائرين.
- تعقيب ابن أبي العز على تقسيمات الصوفية لتوحيد العبودية.
- رد ابن تيمية على توحيد الهروي في منازل السائرين.
- معنى كلمة الفناء ومشتقاتها في أدلة القرآن والسنة.
- مصطلح الفناء بدعي لا بد من تحقيقه بأدلة المنقول.
- فناء أصحاب الحلول والوحدة زندقة تهدم الكتاب والسنة.
- تحقيق شيخ الإسلام ابن تيمية لمعنى الفناء وأنواعه.
- التقسيم السني للسالكين مبني على أدلة المنقول.
- أولياء الله السالكون إما مقربون أو مقتصدون.

- المطلب الرابع.

مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين.

- أعمال القلوب من أصول الإيمان وقواعد الدين.
- الظالم لنفسه فيه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه.
- من كان معه إيمان حقيقي فمعه من الأعمال بقدر إيمانه.
- أعمال القلوب ليست مرتبة كالمقامات في السير الحسي.
- الصدق والإخلاص لازمان لجميع شعب الإيمان.
- أعمال القلوب كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة
- ترتيب المقامات ترتيب المشروط المتوقف على شرطه.
- الاختلاف بين الصوفية في عدد المقامات وترتيبها.
- التزام عقد الإسلام التزام بلوازمه الظاهرة والباطنة.

- النعمة المطلقة لأهل الإيمان ومطلق النعمة للمؤمن والكافر.
- الناس في العبادة والاستعانة أربعة أقسام.
- لا يكون العبد متحققا بتوحيد العبودية إلا بأصلين عظيمين.
- أهل مقام إياك نعبد لهم في أفضل العبادة وأنفعها أربع طرق
- مبني توحيد العبودية القول والعمل ظاهرا وباطنا

• المطلب الخامس.

أحكام العبودية المتعلقة بالقلب واللازمة للمقتصدين والسابقين.

- أعمال القلوب وحتمية تعلقها بالعبادة أو تعلقها بضدها.
- الإخلاص واجب مستحق لدرجة المقربين والسابقين.
- العلامات الدالة على قيام الإخلاص لله في القلب.
- ارتباط الإخلاص بالنية والإرادة لدى المقتصدين والمقربين.
- محبة الله من أعمال القلوب الواجبة وهي شرط التوحيد.
- المحبة الواجبة هي المحبة لله وفي الله أما المحبة معه فشركية.
- أعمال الجوارح الدالة على وجود المحبة في القلب.
- أبرز علامات الجوارح الدالة على المحبة طاعة المحبوب.

• المطلب السادس.

أحكام العبودية المتعلقة بالقلب بين الواجب والمستحب.

- اليقين من أعمال القلوب اللازمة للمقتصدين والسابقين.
- الدليل على أن اليقين لا بد أن ينفي الوهم والشك والظن.

- ضعف اليقين وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين.
- العلامات الدالة على وجود اليقين وقوته في القلب.
- الصدق من أعمال القلوب اللازمة للمقتصدين والسابقين.
- كيف يكون الصدق شرطا من شروط كلمة التوحيد؟
- مثال لمن ابتلي في الصدق في عصر النبوة ابتلاء شديدا.
- علامة الصدق في الخبر اليقين وعلامته في الأمر الطاعة.
- الكمال في الصدق وحكم المعاريض والتورية.
- الخوف والرهبة والوجل والخشية من أعمال الإيمان.
- العلامات الظاهرة الدالة على وجود الخوف في القلوب.
- الرجاء من أعمال القلوب وهو لازم للمقتصدين والسابقين.
- رد ابن القيم على الهروي في اعتباره الرجاء معارضة واعتراض.
- الهروي وقوله إن الرجاء ليس إلا ليبرد حرارة الخوف.

• المطلب السابع .

عبوديات القلب وأحكامها وعلاماتها الظاهرة في البدن.

- من عبوديات القلب وأعماله الواجبة بإجماع الصبر.
- القرآن نوع في أساليب الدعوة إلى الصبر لبيان أهميته.
- الرد على من زعم أن الصبر من أنكر المنكر في طريق التوحيد.
- التوكل من أعمال القلوب الواجبة على المقتصدين والسابقين.
- حقيقة التوكل على الله ودرجاته وأركانه التي لا يتم إلا بها .

- المتوكل على الله حقا لا بد له من الرضا بما يفعله وكيله.
- الرضا من عبوديات القلب المترددة بين الواجب والمستحب.
- أعظم أسباب حصول الرضا التزام ما جعل الله رضاه فيه.
- الرضا المتعلق بالإلوهية أكمل من الرضا المتعلق بالربوبية .
- الفرق بين الرضا بالله والرضا عن الله والرضا بقضاء الله.
- كيف يشاء الله ويريد أمرا يبغضه ولا يرضاه ولا يحبه؟
- أثار الرضا على العبد وعلاماته الظاهرة والباطنة.
- إجمال أحكام العبودية المتعلقة بالقلب بين الواجب والمستحب.

• المطلب الثامن .

أحكام العبودية المتعلقة باللسان وأثرها في فهم حقيقة الإيمان .

- موقع اللسان في توحيد العبادة وحقيقة الإيمان.
- هل في حق اللسان كلام مباح متساوي الطرفين؟
- حصائد اللسان تجمع من مخرجين اثنين يمثلان وظيفتي اللسان.
- لغة التخاطب وما يقوم مقام اللسان في الإنسان.
- النطق بالشهادتين أول العبوديات المتعلقة باللسان.
- الدعاء والنداء والاستغاثة من العبوديات المتعلقة باللسان.
- دعاء المسألة ودعاء العبادة من عبوديات اللسان أو بدائله.
- عظمة دور اللسان في عبودية دعاء المسألة والعبادة.
- الرد على قول القائل حسبي من سؤالي علمه بحالي.

• المطلب التاسع.

أحكام العبودية المتعلقة بالجوارح وأثرها في فهم حقيقة الإيمان.

- موقع الجوارح في توحيد العبادة وحقيقة الإيمان.
- الجزاء واقع على العمل وأعمال الجوارح ركن فيه.
- التكليف وتعلقه بأعمال الجوارح والاستطاعة والوسع.
- أحكام العبودية المتعلقة بحاسة السمع من الجوارح.
- أحكام العبودية المتعلقة بحاسة البصر من الجوارح.
- أحكام العبودية المتعلقة بحاسة التذوق من الجوارح.
- أحكام العبودية المتعلقة بحاسة الشم من الجوارح.
- أحكام العبودية المتعلقة بحاسة اللمس من الجوارح.
- أعمال الجوارح مرتبطة بالقلب واللسان في تحقيق أحكام العبودية.
- أعمال الجوارح لا يتصور وجود الإيمان مع انتفائها بالكلية.
- التلازم بين أعمال القلب والجوارح عند ابن تيمية وابن القيم.

• المطلب العاشر.

الكبائر وضوابطها وأنواعها المتعلقة بالقلب واللسان والجوارح.

- الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر بنص القرآن والسنة.
- لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار.
- تعريف الكبيرة وماهيتها وما ورد في النقل من ضوابطها.
- أجناس المحرمات التي لا توبة للعبد إلا بالتخلص منها.

- الكبائر المتعلقة بالقلب وما يكون منها في منطقة الكسب.
- الكبائر المتعلقة باللسان والأدلة على حرمتها من القرآن والسنة .
- الكبائر المتعلقة بالجوارح والأدلة على حرمتها من القرآن والسنة .

• المطلب الحادي عشر.

الشرك حقيقته وأسبابه وأنواعه المقابلة لأنواع التوحيد.

- الشرك ومدلولاته اللغوية في الأصول القرآنية والنبوية.
- الشرك بالله تعطيل لمعاني الواحدية والأحدية والوترية.
- العلة في كون الشرك بجميع أنواعه هو الظلم العظيم.
- حقيقة الشرك والضوابط اللازمة لتمييزه والتعرف على أنواعه.
- التشبه بالخالق والشرك الذي ينافي توحيد الربوبية.
- حقيقة الطاغوت وعلاقته بالشرك في الربوبية.
- صفة الاستعلاء الفرعونية شرك في الربوبية وادعاء للإلوهية.
- شرك النمرود والملك الذي أحرق أصحاب الأخدود.
- شرك غلاة أئمة الصوفية وبعض الطوائف المارقة.
- تشبه المخلوق بالخالق وحقيقة الشرك التي تنافي توحيد العبادة.
- تشبيه الخالق بالمخلوق وحقيقة الشرك في الأسماء الصفات.

• المطلب الثاني عشر.

أنواع الشرك المتعلقة بالقلب بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر.

- العقائد الشركية القائمة بالقلب تهدم حقيقة التوحيد.

- عقيدة الشرك فرع عن تصور القلب للخرافة وتصديقها.
- قوة الإخلاص في القلب تحدد مقدار الشرك ونوعه.
- الشرك في المحبة من أنواع الشرك الأكبر المتعلق بالقلب.
- من المحبة الشركية الإبليسية محبة الصوفية الحلولية والاتحادية.
- الخوف الشركي هو خوف السر المتعلق بالقلب.
- الشرك في الرجاء متعلق بالقلب وهو من الشرك الأكبر.
- الشرك في التوبة متعلق بالقلب وهو من الشرك الأكبر.
- من الشرك الأكبر المتعلق بالقلب الشرك في التوكل.
- شرك الإرادة والنية والقصد من الشرك المتعلق بالقلب.
- الشرك الأصغر المتعلق بالقلب من مقدمات الشرك الأكبر.

• المطلب الثالث عشر

الشرك المتعلق باللسان بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر.

- الشرك المتعلق باللسان مرتبط باعتقادات القلب الشركية.
- توحيد الله في الدعاء بالقلب واللسان والجوارح.
- دعاء الأنداد وندائهم من الشرك الأكبر المتعلق باللسان.
- الاستعانة والاستغاثة بالأنداد من الشرك الأكبر.
- التوسل المشروع هو ما نص عليه الكتاب والسنة.
- التوسل الممنوع يتردد بين الشرك الأكبر والأصغر.
- شبهات يوردها المخالفون في تبرير التوسل الباطل والجواب عليها.
- حديث الضرير ليس فيه حجة للتوسل إلى الله بالذات النبوية .

- الاستشفاع بالأنداد من أنواع الشرك المتعلق باللسان.
- بيان الشرك الأصغر المتعلق بقول اللسان .

• المطلب الرابع عشر.

الشرك المتعلق بالجوارح بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر.

- الشرك في الجوارح باعثه الاعتقادات الشركية القائمة بالقلب.
- الشيطان وإمكانية تجسده لفتنة القبوريين وعباد الأوثان.
- حكم اتخاذ القبور مساجد وسد الذرائع إلى الشرك الأكبر.
- إقامة الموالد من البدع الشركية المتعلقة بالجوارح.
- الزيارة الشركية إلى الأضرحة من الشرك المتعلق بالجوارح.
- الرد على زعمهم بأن من نهى عن اتخاذ القبر عيدا فقد تنقصه.
- الطقوس الصوفية والمكاء والتصدية من الشرك المتعلق بالجوارح.
- النذر لغير الله من الشرك الأكبر المتعلق بالجوارح.
- السجود لغير الله كقبور الموتى وأضرحتهم من الشرك الأكبر.
- الطواف بقبور الموتى وأضرحتهم من الشرك الأكبر.
- الذبح لغير الله من الشرك الأكبر المتعلق بالجوارح.
- حقيقة الشرك الأصغر وأنواعه المتعلقة بالجوارح.

• المطلب الخامس عشر.

الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان التزام الصراط المستقيم.

- كيف يمكن التمييز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

- عبادة الأوثان استمرت إلى عصرنا بحجة تعظيم أولياء الرحمن.
- أولياء الله في مصر والسودان وما يجاورهم من الزور والبهتان.
- أولياء الله المعظمين في بلاد الشام والأردن والعراق.
- أولياء الله عند العامة في ليبيا وبلاد المغرب العربي.
- أولياء الله في تركيا وباكستان والهند وبنجلادش وإريتريا.
- براءة أولياء الله الصالحين من أفعال الشرك والمشركين.
- من زعم أنه يطلع على اللوح المحفوظ فلا يمكن أن يكون وليا.
- الفرق بين كرامات أولياء الرحمن وسحر أولياء الشيطان.
- كتاب دلائل الخيرات وما فيه من ابتداعات وشركيات.
- بطلان اعتقاد الصوفية في أنهم يرون الرسول يقظة.
- الولاية ولاية التقوى والإيمان وأولياء الله متفاضلون فيها.
- أولياء الله ليس لهم شيء في المظهر يتميزون به عن الناس.
- الكرامات حق يكرم الله بها أولياءه المتقين المهتدين بشرعه.
- الأحوال الشيطانية والكرامات المزعومة لأولياء الشيطان.

• المطلب السادس عشر.

أصول الكفر وأنواعه التي تقابل أصول الإيمان وأنواعه.

- تحقيق الإيمان بالله لا يكون إلا بنفي ضده من أنواع الكفر.
- قصة حاطب بن أبي بلتعة والإلزام بالبراءة من الكفر.
- كان المشركون يعلمون أن شرط الإيمان هو الكفر بالطاغوت.
- قبول ما جاء به الرسول ينفي كفر الإعراض بجميع أنواعه.

- أصل الإيمان القبول والانقياد وأصل الكفر التولي والإعراض.
- أصول الكفر وأنواعه وتقسيماته المتعلقة بالخبر والطلب.
- الأصل الأول للإيمان المتعلق بتنفيذ الأمر هو قول القلب.
- الأصل الثاني المتعلق بتنفيذ الأمر الشرعي هو عمل القلب.
- الأصل الثالث المتعلق بتنفيذ الأمر الشرعي هو قول اللسان.
- الأصل الرابع المتعلق بتنفيذ الأمر الشرعي هو عمل الجوارح.
- شعب الإيمان تتناول جميع الأركان من القول والعمل.

• المطلب السابع عشر

ضوابط القول في مسألة العذر بالجهل ومسئولية الإنسان عن تجاهل العلم

- مفهوم الجهل في المعاني اللغوية والاصطلاحات الشرعية.
- ذم الراغبين عن العلم الراغبين في البقاء على الجهل .
- قلة العلم وظهور الجهل من علامات الساعة الصغرى.
- الجاهل معذور بجهله إذا لم يكن الجهل من كسبه وسعيه.
- ما جاء في زيد بن عمرو بن نفيل ومصير والدي النبي.
- قد يجتمع في المسلم علم وجهل كما يجتمع فيه طاعة ومعصية.
- الأدلة النقلية على العذر بالجهل في الأمور الاعتقادية.
- حديث الرجل الذي أسرف على نفسه وجهل قدرة ربه.
- العذر بالجهل وحكم التقليد عند ظهور الدليل على خلافه.
- حكم أهل البدع من الفرق وحكم التقليد في الاعتقاد.

- هل يعذر بالجهل من وقع في الكفر تقليدا واتباعا؟
- قيام العذر وانتفاء المؤاخذة عن المستفتي عند فقد المفتي.
- حكم من تلفظ من الصوفية بكلام ظاهره رد للشريعة.
- بدعة التقسيم إلى أصول لا يعذر بالجهل فيها وفروع يعذر فيها.

• المطلب الثامن عشر.

كفر الجهل والتكذيب بين الإعراض عن معرفة الرسالة وتعطيل نصوصها.

- قيام الحجة على الناس أجمعين ببعثة سيد الأنبياء والمرسلين.
- الكفر الناشئ عن الجهل والإعراض عن الرسالة.
- الكفر الناشئ عن التكذيب والإعراض عن الرسالة.
- حكم من لم تبلغه الدعوة ولم يسمع بنبي الإسلام أو رسالته.
- كفر الجهل وانتفاء قول اللسان وعمل القلب والجوارح.
- الجاهلية في القرآن والسنة تقابل معرفة الحق وقبوله والانقياد له.
- مظاهر انتشار سنن الجاهلية في المجتمعات الإسلامية المعاصرة.
- كفر الجهل والإعراض يجتمع فيه جهل النفس تزيين الشيطان.
- حكم الجاهل الذي يعيش بين المسلمين ولا يفهم خطاب الشرع.
- كفر الجهل والتكذيب قد يكون كفرا أصغر لا يخرج عن الملة.
- أسباب قبول النفوس الجاهلة لتعطيل كلام الله والإعراض عنه.
- لوازم التعطيل هي بذاتها لوازم الإعراض والجهل والتكذيب.
- تأويلات المتكلمين أتباع الجهمية تهدم أصول الإيمان والإسلام.

- لا يجوز تكفير الأشاعرة والمتكلمين وإخراجهم من الملة.

- **المطلب التاسع عشر.**

صلاح القلب وتعلق الظاهر من أعمال الإيمان بأعمال القلب في الإنسان.

- دلالة مصطلح تصديق القلب عند السلف والمرجئة.
- عمل القلب هو محور الإيمان أو عدمه في توجه الإنسان .
- معرفة دلالة الألفاظ في مسألة الإيمان والإسلام من أنفع الأمور.
- الجهمية ظنت أن الإيمان هو تصديق القلب وعلمه دون عمله.
- الرد على زعم مرجئة الجهمية أن كل كافر إنما كفر لعدم العلم.
- إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة.
- الإيمان الذي فرضه الله على عباده ليس متماثلا في حقهم جميعا.
- الرد على المرجئة في قولهم إن الله فرق بين الإيمان والعمل.
- القرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه.
- الإيمان القلبي لا يكون إيمانا بمجرد التصديق دون عمل القلب.

- **المطلب العشرون.**

أثر انتفاء عمل القلب في وجود النفاق وتردده بين النفاق الأكبر والأصغر.

- حقيقة النفاق في المعاني اللغوية والاصطلاحية الشرعية.
- النفاق الأكبر من أشد أنواع الزندقة التي يجب الحذر منها.
- مرض القلب وانتفاء أصل الإيمان هو أخبث أوصاف المنافقين.

- النفاق الأكبر والنفاق الأصغر والنفاق الاعتقادي والنفاق العملي.
- حقيقة النفاق الذي كان الصحابة يخافونه على أنفسهم.
- المنافق تجري عليه أحكام المسلمين وإن انتفى عمل القلب.
- لا يجتمع في الرجل انعدام الطاعة وهو مؤمن في الباطن أو منافق.
- أصل الإيمان النافي للنفاق قوة العلم والبصيرة وقوة العمل والمحبة.
- نفاق التقية وأثره في انتشار ضلالات الشيعة وغلاة الصوفية.
- الصفات القولية والفعلية التي تتردد بين النفاق الأصغر والأكبر.

• المطلب الواحد والعشرون.

قول اللسان وتحقيق شهادة التوحيد والإيمان وأثرهما في تكامل أركان الإيمان.

- شهادة ألا إله إلا الله قول باللسان مرتبط ببقية أركان الإيمان.
- الشهادة ربما يعبر عنها بتوحيد العبادة أو القول مع مقتضاه .
- شهادة التوحيد إعلام بدخول الإسلام وتوحيد العبادة لله.
- شأن قول اللسان كنور السراج وشعاعه في بدن الإنسان.
- الشهادة بقول اللسان علم وفصل وحكم وإخبار وإعلام وإلزام.
- تقرير ابن تيمية أن الشهادة تتضمن إقرار الشاهد وقوله وخبره.
- الشهادة هي أصل الإسلام الذي يتميز به أهل الإيمان والكفر.
- الشهادة بقول اللسان تقتضي الالتزام بشروط لا إله إلا الله.
- الشهادتان هما الركن الأعظم في الإسلام وتحقيق الإيمان.
- الرد على من احتج بنطق الشهادة على تحقيق الإيمان الواجب.

- ذكر الله بالاسم المفرد مثل الله وحي وهو لا يغني عن الشهادة.

• المطلب الثاني والعشرون.

أثر انتفاء قول اللسان في وجود كفر الجحود وتنوع درجاته المتعلقة بكتمان الحق.

- معنى الجحود في المعاني اللغوية والأصول القرآنية والنبوية .
- أركان كفر الجحود الأكبر المخرج للإنسان عن الملة.
- من أمثلة كفر الجحود الأكبر المخرج من الملة كفر اليهود.
- كفر فرعون وهرقل وأبي طالب وأغلب قريش كفر جحود.
- انتفاء قول اللسان بسب الدين أو سب الله ورسوله.
- كفر الجحود يتردد بين الكفر الأكبر والكفر الأصغر.
- كيف يكون التعطيل جحودا مترددا بين الكفر الأكبر والأصغر؟
- لا يكفر من أكره على كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان .
- حكم من عطل شهادة التوحيد كأول واجب على العبيد.
- نقد مقولة لا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه.

• المطلب الثالث والعشرون.

عمل الجوارح وموقعه في مسمى الإيمان وعلاقته بعمل القلب في الإنسان.

- الأدلة القرآنية على أن الإيمان يدل على عمل الجوارح بالتضمن.
- الأدلة من السنة النبوية على أن العمل داخل في مسمى الإيمان.
- كلام السلف في أن العمل ركن داخل في مسمى الإيمان.

- معتقد ابن تيمية وتلميذه ابن القيم في أن العمل من الإيمان.
- العمل هو عبادة الله عن محبته ولا إيمان بلا توحيد الله في عبادته.
- دخول الإسلام أو الخروج منه لا يتوقف على الإقرار والجحود.
- موقف المخالفين لأهل السنة من دخول العمل في مسمى الإيمان.
- موطن الخلل في تقسيم العمل إلى شرط صحة وشرط كمال.
- هل الخلاف بين السلف ومرجئة الفقهاء خلاف صوري لفظي؟

• المطلب الرابع والعشرون.

أثر انتفاء عمل الجوارح في وجود الاستكبار والعناد وتردده بين الكفر الأكبر والأصغر.

- معنى العناد والاستكبار في المعاني اللغوية القرآنية والنبوية .
- أركان كفر العناد والاستكبار المخرج عن الملة.
- الفرق بين ترك الصلاة عمدا وتكاسلا وتحقيق مصطلح التكاسل.
- دلالة النقل على أن تارك الصلاة بالكلية كافر مرتد.
- النظر في رأي الطحاوي أن تارك الصلاة لا يكفر إلا بجحودها.
- رد ابن تيمية على من قال برأي الطحاوي في تارك الصلاة .
- المراد من الأحاديث الواردة في شأن من لم يعمل خيرا قط.
- كفر من لم يحكم بما أنزل الله وتردده بين الأكبر والأصغر.
- يجب على الإمام أن يقاتل الطائفة الممتنعة عن تنفيذ أمر الله.
- هل يلزم من قتال الطائفة الممتنعة الحكم بكفرها كفرا أكبر؟
- مصطلح تارك جنس العمل ورده إلى تحقيق أركان الإيمان.

- السلف اشتد نكيرهم على المرجئة لما أخرجوا العمل من الإيمان.
- انتفاء عمل الجوارح متلازم مع انتفاء عمل القلب كلا وجزءا.

• المطلب الخامس والعشرون.

زيادة الإيمان ونقصانه وأثرها في الحكم بإيمان الإنسان وكفرانه والرد على الخوارج والمرجئة.

- الزيادة والنقصان في أركان الإيمان هي أساس الفهم السلفي.
- كل ركن من الإيمان يقبل الزيادة والنقصان بتكامل النسب.
- تقرير ابن تيمية للسبب في ضلال المرجئة والخوارج.
- ابن تيمية يسوق الأدلة التي تبطل مذهب الخوارج والمرجئة.
- زيادة الإيمان الذي أمر الله به عباده يكون فيهم من وجوه.
- هل يلزم من نفي الإيمان المطلق عن الإنسان خروجه عن الملة؟
- هل شعب الإيمان متلازمة في الانتفاء والثبوت أو غير متلازمة ؟
- الإيمان في درجاته كاختلاف درجات اللون الواحد.
- شعب الإيمان قد تتلازم عند القوة ولا تتلازم عند الضعف.
- جواز الاستثناء في الإيمان على ما يوافق أصول الكتاب والسنة.
- المرجئة يحرمون الاستثناء في الإيمان لإخراجه العمل من مسماه.

• المطلب السادس والعشرون.

التحذير من خطر التكفير بلا تفصيل وتفصيل نواقض الإسلام الاعتقادية والعملية .

- أصول التكفير مصدرها من المبتدعة وتكفيرهم من خالفهم.
- أهل السنة لا يكفرون من خالفهم وإن كان المخالف يكفرهم.
- الإمام أحمد والأئمة لم يكفروا شخصا بعينه إلا بضوابط محققة.
- الأدلة النقلية على أن إطلاق التكفير لا يلزم منه تكفير المعين.
- من أقيم عليه الحد في الدنيا لا يلزم أن يكون معذبا في الآخرة.
- الكفر الأكبر والأصغر يتناول الكفر الاعتقادي والكفر العملي.
- نواقض الإسلام العشرة المنتشرة والمشتهرة هي بعض النواقض.
- انتفاء أحد أنواع التوحيد من نواقض الإسلام القولية والعملية.
- من نواقض الإسلام القولية أو العملية انتفاء أحد أركان الإيمان.
- قول الطحاوي ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله.
- قول الطحاوي ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة.

• المطلب السابع والعشرون.

حقيقة الولاء والبراء وأحكام الهجر ولزوم الجماعة والطاعة في غير معصية الله.

- مفهوم الولاء والبراء في المعاني اللغوية والأصول القرآنية والنبوية.
- الأدلة النقلية على وجوب الولاء للمؤمنين والبراء من الكافرين.
- الهجر الشرعي يكون لترك للمنكرات أو العقوبة عليها.
- عقيدة الولاء والبراء وتأثيرها في أركان الإيمان قوة وضعفا.
- الولاء والبراء يحتم التعامل مع غير المسلمين بآداب الإسلام.
- الغلو في الولاء والبراء مظاهره وخطورته وبراءة السلف منه.

- حب الصحابة رضي الله عنهم إيمان وبغضهم نفاق وكفران.
- محبة أهل البيت من الإيمان وعبادتهم شرك وكفر وخسران.
- ما يجب لولاة الأمر من الطاعة في غير معصية الله.
- لزوم اتباع منهج أهل السنة والجماعة وتجنب الخلاف والفرقة.
- القول في المهدي المنتظر وبطلان اعتقاد الرافضة وضلالهم فيه.

• المطلب الثامن والعشرون.

التوبة إلى الله بداية الإيمان ونهايته وأول المنازل في توحيد العبودية وأوسطها وآخرها.

- أصناف الناس في القرآن وأنواعهم في توحيد العبادة والإيمان.
- صلاح الإنسانية في توحيد العبادة لله وتحقيق الإيمان والاستقامة.
- الخذلان أن يكلك إلى نفسك والتوفيق التوبة إليه والاعتصام به.
- شرائط التوبة ثلاثة الندم على الذنب والإقلاع والاعتذار.
- علامات التوبة المقبولة الصحيحة التي تظهر على التائب ولابد.
- التوبة تتضمن العزم الجازم على فعل المأمور والإتيان به.
- المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور ولا يجوز تأخيرها.
- أسباب رفع العقوبة عن العبد كما دلت عليها النصوص النقلية.
- من أسباب رفع العقوبة ومغفرة الذنب للعبد الاستغفار.
- الابتلاء والشفاعة والدعاء للمؤمنين من أسباب رفع العقوبة .
- هل يرجع التائب من الذنب إلى ما كان عليه من الدرجة.

• مصطلح التوبة من التوبة وما يحمل في طياته من أنواع الضلال.

• المطلب التاسع والعشرون.

وقفة إيمانية مع النظرة الأشعرية الصوفية الشيعية للطريقة السلفية.

• الاختلاف بين المسلمين واقع كونا محرم شرعا.

• مشروعية النقد البناء لرد شبهات الباطل والدفاع عن الحق.

• وقفة إيمانية مع النظرة الأشعرية ولماذا يبغضون منهج السلفية؟

• ماذا يريد مشايخ الطرق الصوفية من المتمسكين بالطريقة السلفية؟

• ماذا يريد الشيعة الإمامية من أصحاب الطريقة السلفية.

• القواعد العلمية التي يعتمد عليها ابن تيميه في تقويم الرجال.

• رأي ابن تيمية في أبي الحسن الأشعري وابن حزم والغزالي.

• لماذا لم نجد النقد الذاتي لدى الصوفية كما وجدناه عند ابن تيمية.

• بعض الأمثلة العملية لتسامح شيخ الإسلام ابن تيمية مع خصومه.

• هل صحيح ما ذكره ابن بطوطة عن ابن تيمية في تجسيد النزول؟

• المطلب الثلاثون.

أصول الإيمان عند السلف الصالح توافق الفطرة في نقائها وسلامتها ويقبلها العقل في منطقيتها وبساطتها.

• منهج السلف في الإيمان هو الواقع العملي للقرآن والسنة.

• أصول الإيمان مردها إلى الإيمان في حديث سفيان؟

• تصديق الخبر وأصول الإيمان وتصنيفاته التي تتعلق به.

- تنفيذ الأمر وأصول الإيمان وتصنيفاته التي تتعلق به.
- البدع مردها إلى تقديم العقل في باب الخبر وباب الأمر.
- تقرير شيخ الإسلام ابن تيمية لطريقة السلف في الإيمان.
- ابن تيمية يقرر أن أهل البدع قدموا العقل فضلوا في الإيمان.
- الحكم على الأشياء بالحسن والقبح كما قررها ابن تيمية.
- شعب الإيمان تتعلق بالجنان واللسان وعمل الجوارح والأركان.

تلك مفردات دورة منة الرحمن التي تتناول عقيد أهل السنة والجماعة في توحيد العبادة وحقيقة الإيمان، أتبعناها بوضع اختبار تجريبي مركز، يمكن من خلاله قياس قدرة الطالب على تمييز الاعتقاد الحق، وانتقاء الصواب من خيارات متعددة باطلة أو خاطئة أو تحتمل شيئا من الصواب والخطأ معا، وقد وضعناه في خاتمة الكتاب ليتمكن طلاب العلم من قياس درجة الفهم لما ورد في المنهج من مفردات.

- **دعاء وعرفان وافتقار إلى الله في أن يغفر لنا بمنة الرحمن.**

الحمد لله الذي وفق إلى إتمام المنهج في دورة منة الرحمن التي تتناول عقيد أهل السنة والجماعة في توحيد العبادة وحقيقة الإيمان، ونظرا لأنني توسعت في صياغة مفردات المادة من مراجع متعددة على رأسها تراث شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وكذلك ما كتبه كثير من الإخوة الكرام الذين تناولوا الحديث عما يوافق مفردات متفرقة في هذه الدورة، فأنبه إلى أنني أعدت صياغة أغلب كلامهم بتصرف كان القصد منه أن يسهل للطلاب سرعة الاستيعاب أولا، مع توضيح الفكرة الموافقة لمنهج السلف ثانيا، فالمسئولية في الكلام لو فرض وأخطأت في

صياغة بعض العبارات عن غير عمد لا تكون عليهم، بل هو خطأ مني واعتذار إليهم، وأسأل الله أن يعفو عني وعنهم، وأن يلهمني وإياهم الصواب في القول والعمل، وأن يحسن لنا ولهم الخاتمة عند اللقاء، وأسأل الله أن يجعل ما قدموه في ميزان حسناتهم.

كما أسأل الله لإخواني الدعاة، وطلاب العلم أن يجعل هذا العمل في ميزان حسناتنا وحسناتهم يوم نلقاه، وأذكرهم ونفسي بتقوى الله، وأذكرهم بما رواه البخاري من حديث سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قَال لعَلي ﷺ: (فَوَاللهِ لأَن يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً، خَيْرٌ لكَ مِن أن يَكُون لكَ حُمْرُ النعَمِ) [1].

وإني لأتوجه في ختام هذه المقدمة بالشكر إلى الإخوة الأئمة والدعاة وطلاب العلم المشرفين على متابعة الدورات العلمية، وكذلك المشرفين على موقع الرضوانية دار العقيدة المصرية.

كما أسأله سبحانه أن يبارك في الأستاذ الأمين أحمد أمين الذي بذل جهدا كبيرا في مراجعة كتاب منة الرحمن في توحيد العبادة وحقيقة الإيمان، وتحقيق المراجع والتثبت من الأحاديث بتخريجاتها العلمية.

وكذلك أشكر فريق العمل القائمين على تسجيل المحاضرات الصوتية والمرئية بما استطاعوا من إمكانياتهم المتواضعة، ثم تفريغها وبرمجتها وإخراجها على النحو المرفق بالكتاب.

وفي الختام أسأل الله أن يجعل هذه الدورات العلمية سببا في عز

(١) البخاري في الجهاد، باب فضل من أسلم على يديه رجل ٣/١٠٩٦(٢٨٤٧).

الإسلام والمسلمين، وأن يعيننا على إنجاز الدورة العلمية الرابعة كفاية الطالبين، حتى نغطي جميع المفردات المقررة في المناهج الجامعية المعنية بدراسة العقيدة وأصول الدين في العالم الإسلامي.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾ ﴾ آل عمران:٨/٩.

وكتبه

أ.د/ محمود عبد الرازق الرضواني

أستاذ العقيدة والأديان والفرق والمذاهب المعاصرة
والعضو المؤسس للجمعية العلمية لعلوم العقيدة والأديان والفرق
والمذاهب المعاصرة بكلية الدعوة وأصول الدين
بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة



المطلب الأول

المقصود بتوحيد العبادة وبيان مثل المؤمن في شجرة الإيمان



الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، ولا إله إلا الله إله الأولين والآخرين، وقيوم السماوات والأرضين، ومالك يوم الدين، الذي لا فوز إلا في طاعته، ولا عز إلا في التذلل لعظمته، ولا غنى إلا في الافتقار إلى رحمته، ولا هدى إلا في الاستهداء بنوره، ولا حياة إلا في رضاه، ولا نعيم إلا في قربه، ولا صلاح للقلب ولا فلاح إلا في الإخلاص له وتوحيد حبه، الذي إذا أطيع شكر، وإذا عصي تاب وغفر[1].

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد.. فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

نتحدث في هذه المطلب بإذن الله تعالى عن المقصود بتوحيد العبادة وبيان المثل الذي ورد في الأصول القرآنية والنبوية، والذي يبين حال المؤمن في التوحيد والعبودية من خلال تشبيهه بالشجرة الطيبة النافعة

---

(١) من مقدمة زاد المعاد لابن القيم ١/٣٥، نشر مؤسسة الرسالة.

الحسية، وأثر هذا المثل في التعرف على توحيد العبودية والزيادة الإيمانية.

- **توحيد العبادة هو الإسلام وهو الإيمان في باب الأمر والطلب.**

حقيقة الإيمان في القرون الفاضلة قبل قيام الفرق والمذاهب كانت ممثلة في تصديق الصحابة ﷺ لخبر الله وتنفيذ أمره، فتصديق الخبر هو معنى الإيمان، وتنفيذ الأمر هو معنى الإسلام، ذلك المبدأ، أعني مبدأ تصديق الخبر وتنفيذ الأمر، بعيدا عن الفلسفات العقلية والآراء الكلامية التي أحدثتها مختلف الفرق الإسلامية، هو غاية من جاء بعدهم، وسلك دربهم في مختلف العصور، مهما تنوعت كلماته، أو بدت اعتقاداته في توحيد الله ﷻ، والعمل بأحكامه.

لقد كان المسلم في عصر خير القرون عندما يشهد ألا إله إلا الله؛ فإنه يكون قد عقد في نفسه عقدا أن الله ﷻ هو المعبود الحق الذي يصدق في خبره دون تكذيب، والذي يطاع في أمره دون عصيان، وتلك حقيقة الإيمان التي نزل بها القرآن، وفهمها أصحاب اللسان.

ولما كان الصحابة ﷺ هم أهل الفصاحة واللسان، وقد خاطبهم الله ﷻ بنوعي الكلام في القرآن؛ فإن منهجهم في مسائل التوحيد والإيمان هو تصديق الخبر، وتنفيذ الأمر، فلو أخبرهم الله ﷻ عن شيء صدقوه تصديقا جازما يبلغ حد اليقين.

وهذا ما عرف لاحقا عند المتمسكين بمنهج السلف الصالح بتوحيد العلم والخبر، أو توحيد المعرفة والإثبات، أو توحيد الربوبية والأسماء والصفات، أو غير ذلك من مسميات واصطلاحات، تتنوع في دلالتها وتتكامل في بيان حقيقتها، ولا تتضارب في معانيها.

ولو أمر الرسول ﷺ صحابته ﷺ بشيء نفذوه تنفيذا كاملا بالقلب واللسان والجوارح، وهو ما عرف لاحقا بتوحيد العبادة، أو توحيد الإلوهية، أو توحيد القصد والطلب؛ لأن غاية التوحيد العظمى، وطريقة السلف المثلى، التي جاهدوا المخالفين لإلزامهم بها، أن يثبتوا لله ﷻ ما أثبته الله ﷻ لنفسه بتصديق خبره، وأن يطيعوا الله ﷻ فيما أمر به على لسان نبيه ﷺ .

وقد أجمع الصحابة ﷺ إجماعا سكوتيا دون مخالف، أن يصدقوا خبر ربهم وبلاغ نبيهم، وأن ينفذوا أمر معبودهم عن خضوع وتسليم، ومحبة وتعظيم، ولم يكن بينهم من دان بغير ذلك، ومن شك في ذلك فما قدرهم حق قدرهم، فهم كما صدقوا نبيهم ﷺ في كل ما أخبرهم عن الله ﷻ، فإنهم أيضا أطاعوه في كل ما أمر، وكانوا يبايعونه على ذلك.

روى الإمام البخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (عَلَى المَرْءِ المُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، فِيمَا أَحَبَ وَكَرِهَ، إِلا أَن يؤْمَرَ بمَعْصِيةٍ، فَإِن أُمِرَ بمَعْصِيةٍ، فَلا سَمْعَ وَلا طَاعَةَ) (١).

وكان ذلك حال السلف أيضا روى الإمام مالك عَن ابن أَبي مُليكَةَ أَن عُمَرَ ﷺ مَرَّ بامْرَأَةٍ مَجْذومَةٍ وَهِي تطُوفُ بالبيت، فَقَال لهَا: يا أَمَةَ اللهِ لا تؤْذي الناسَ، لوْ جَلسْت فِي بيتكِ فَجَلسَت؟ فَمَرَّ بهَا رَجُل بعْد ذلكَ

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ٢٦١٢/٦ (٦٧٢٥)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ١٤٦٩/٣ (١٨٣٩) واللفظ لمسلم.

فَقَال لهَا: إن الذي كَان قَد نهَاكِ قَد مَات، فَاخرُجِي، فَقَالت: مَا كُنت لأُطِيعَهُ حيَا، وأَعْصِيه مَيتا [١].

- **الإيمان في باب الأمر والطلب له ثلاثة أركان.**

وكما أن الإيمان له في باب الأخبار ستة أركان، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، كذلك فإن الإيمان له ثلاثة أركان في باب الأمر، وهي تصديق بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالجوارح والأركان، وهي تتعلق بتنفيذ الأمر ظاهرا وباطنا، والسعي في تحقيق المطلوب وإرضاء المحبوب، وهذا توحيد العبودية لله ﷻ، أو توحيد القصد والطلب.

قال ابن القيم: (رحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة، من كملها كمل مراتب العبودية، وبيانها أن العبودية منقسمة على القلب واللسان والجوارح، وعلى كل منها عبودية تخصه، والأحكام التي للعبودية خمسة، واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح، وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح) [٢].

وهذا الكلام من أدق وأشمل ما قيل في معنى العبودية التي يجب على المسلم أن يوحد الله فيها، لأن أركان الإيمان الأساسية باعتبار تنفيذ أحكام العبودية عند السلف ثلاثة أركان، وهي تصديق بالجنان وقول

---

(١) رواه مالك في الموطأ، كتاب الحج، باب جامع الحج ١/٤٢٤ (٩٥٠).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم ١/١٠٩، تحقيق محمد حامد الفقي، نشر دار الكتاب العربي بيروت.

باللسان وعمل بالأركان [1].

قال العلامة ابن منده (ت:٣٩٥هـ): (الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالأركان، يزيد وينقص) [2].

وكل واحد من هذه الأركان يستقل بتنفيذ أحكام العبودية بأنواعها الخمسة، وقد يشترك القلب مع اللسان فقط في تنفيذ حكم واحد، أو يشترك القلب مع الجوارح، أو يشترك القلب واللسان والجوارح جميعا في تحقيق أحكام العبودية، وسوف يأتي لذلك مزيد بيان إن شاء الله.

- **الإيمان في حديث سفيان له ركنان أساسيان.**

روى مسلم في صحيحه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي ﷺ أنه قال: (قُلت: يا رَسُول اللهِ، قُل لي فِي الإِسْلاَمِ قَوْلاً لاَ أَسْأَل عَنهُ أَحَدا بعْدكَ؟ وَفِي حَديث أَبي أُسَامَةَ، غيرَك، قَال: قُل آمَنت بِاللهِ فَاسْتقِمْ) [3].

أصل الاستقامة الاعتدال على الطريق الذي رسمه النبي ﷺ لأصحابه في خط مستقيم، ولا يكون الاعتدال إلا بشمولية الإيمان بكل ما ورد عن الله ورسوله ﷺ من أخبار، والتسليم لكل ما جاء عنهما من تشريعات وأوامر؛ فإن التقصير في جانب سيؤدي إلى المبالغة أو

---

(١) انظر الاستذكار لابن عبد البر ٣/١٠٤، نشر دار الكتب العلمية بيروت، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/٢٨ نشر دار الشعب القاهرة.

(٢) انظر الإيمان لابن منده ١/٣٤١ تحقيق د.علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، نشر مؤسسة الرسالة بيروت.

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام ١/٦٥ (٣٨).

الانحراف في جانب آخر.

روى الإمام أحمد وصححه الشيخ الألباني من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: (خَطَّ لنا رَسُول اللهِ ﷺ خطًّا ثمَّ قَال: هَذا سَبيل اللهِ، ثمَّ خَطَّ خُطُوطاً عَن يمينهِ وعَن شِمَاله، ثمَّ قَال: هَذهِ سُبل عَلى كُل سَبيل مِنهَا شَيطَان يدعُو إليهِ، ثمَّ قَرأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الأنعام:١٥٣) [(١)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الكلام في باب التوحيد والصفات هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات، والكلام في الشرع والقدر هو من باب الطلب والإرادة، الدائر بين الإرادة والمحبة، وبين الكراهة والبغض، نفيا وإثباتا[(٢)].

وقد ظل أمر السلف الصالح في القرون الفاضلة على نهج الوسطية والاعتدال والشمولية، يسيرون بفضل الله على درب نبيهم ﷺ، يلتزمون بالسنة لا يقصرون فيها، ولا يهونون منها، ويحذرون من البدعة، وينبهون على خطورتها.

وقد كان القرآن يتنزل على رسول الله ﷺ ثم يبلغه ويبينه لهم، وهم يتلقونه بالقبول، ويفهمونه ويؤمنون به، ولم يعرف عن أحد منهم أنه تردد أو استشكل شيئا من ذلك.

---

(١) رواه أحمد في المسند ٤٣٥/١ (٤١٤٢)، والنسائي في سننه في كتاب التفسير، سورة الأنعام ٣٤٣/٦ (١١١٧٤)، وحسنه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح، كتاب الإيمان، باب الاعتصام بالكتاب والسنة (١٦٦).

(٢) الرسالة التدمرية ضمن مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢/٣.

قال ابن عباس ﷺ: (ما رأيت خيرا من أصحاب رسول الله ﷺ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض ﷺ، كلهن في القرآن، يسألونك عن المحيض، ويسألونك عن الشهر الحرام، ويسألونك عن اليتامى، ما كانوا يسألونه إلا عما ينفعهم) (١).

• معاني كلمة العبادة وأصول اشتقاقاتها اللغوية.

العَبْدُ هو الإنسان، حُرّاً كان أو رَقيقا، ذكَرا كان أو أُنثى على اعتبار معنى الربوبية التي انفرد بها الله ﷻ والعبودية التي هي وصف من سواه، فكل ما سوى الله مربوب لبارئه، وعلى هذا المعنى جاء قول الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ مريم:٩٣.

والعَبْدُ هو المَمْلوكُ خلافُ الحُرِّ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ﴾ البقرة:١٧٨.

وقد عبر القرآن عن العبد المملوك بمصطلح الفتى والرقبة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ٦٠﴾ الكهف:٦٠. وقوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣﴾ البلد: ١١/١٣.

والعبد يجمع على أوجه كثيرة جمعها الشيخُ ابن مالكٍ في قوله:

عِبادٌ عَبِيدٌ جمْع عَبْدٍ وأَعْبُدٌ .. أَعابِدُ مَعْبُوداءُ مَعْبَدَةٌ عُبُدْ

---

(١) سنن الدارمي، المقدمة، باب كراهية الفتيا ١/٦٣ (١٢٥)، وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٢/١٤١ نشر دار الكتب العلمية بيروت، ومجمع الزوائد للهيثمي ١/١٥٨ نشر دار الريان للتراث القاهرة.

كذلك عُبْدَان وعِبْدَان اثبِتَن ..

كذلكَ العِبِدَّى وامدُدِ إن شِئتَ أَن تَمُدّ

واستَدركَ عليه الإمام جلال الدين السُّوطي فقال:

وقد زِيدَ أَعْبَادُ عُبُودٌ عِبِدَّةٌ .. وخَفِّفْ بِفَتْحٍ والعِبِدَّان إِن تَشُدّ

وأَعْبِدةٌ عَبْدُون ثمَّتَ بَعْدَهَا..

عَبِيدُون مَعْبُودَى بِقَصْرٍ فخُذ تَسُدْ(١)

والبعيرُ المُعَبَّدُ هو الذلول المدهون بالقَطِران، وهو الذي أفرد فلا يدنو منه أحد، كما قال قائلهم: وأُفْرِدْتُ إفرادَ البعيرِ المعبّد.. والمعبّد كل طريق مذلل مسلوك يكثر فيه مرور الناس، والعَبْدِيَةُ والعُبودِيةُ والعُبودَةُ والعِبادَةُ كلها بمعنى الطَّاعَةُ(٢).

- العبادة في المفهوم الاصطلاحي للأصول القرآنية والنبوية.

العبادة التزام المكلف بمنهج الله ﷻ وشرعه تعظيما لربه، وإن كان على خلاف هوى نفسه. وقيل: العبادة تعظيم العبد لله بامتثال أمره عن اختياره وحبه (٣).

والعبادة هي الغاية التي خلق الله العباد من أجلها، وبها أرسل الرسل

(١) انظر تاج العروس للمرتضى الزبيدي ٣٢٩/٨ نشر دار الهداية.

(٢) انظر بتصرف القاموس المحيط للفيروز أبادي٣٧٨/١ نشر مؤسسة الرسالة بيروت، وتاج العروس للزبيدي ٣٢٩/٨ نشر دار الهداية، وكتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ٤٨/٢ نشر دار ومكتبة الهلال.

(٣) التعاريف على مهمات التعاريف للمناوي ص٤٩٨ نشر دار الفكر بيروت.

وأنزل الكتب، وهي اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته، وكمال الذل لله ﷻ ونهايته، فالحب الذي يخلو عن ذل، والذل الذي يخلو عن حب لا يكون عبادة، وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين معا، ولهذا كانت العبادة لا تصلح إلا لله ﷻ، وهي وإن كانت منفعتها للعبد، والله غني عن العالمين فهي لله من جهة محبته لها ورضاه بها، ولهذا كان الله أشد فرحا بتوبة العبد من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في أرض جرداء مهلكة إذا نام آيسا منها، ثم استيقظ فوجدها، فالله ﷻ أشد فرحا بتوبة عبده من هذا براحلته [1].

روى مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (لَلهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِن من رَجُل في أَرْضٍ دَوِّيةٍ مَهْلَكَةٍ، معه رَاحِلَتُهُ عليها طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنامَ فَاسْتَيقَظَ وقد ذهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حتى أَدْرَكَهُ العَطَشُ، ثمَّ قال: أَرْجِعُ إلى مَكَاني الذي كنت فيه فَأَنامُ حتى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ على سَاعِدِهِ ليمُوتَ، فَاسْتَيقَظَ وَعِندَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَليها زَادُهُ، وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ العَبْدِ المُؤْمِنِ من هذا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ) [2].

والعبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، والجهاد في سبيل الله، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإحسان إلى

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠/١٩.

(٢) رواه مسلم في كتاب التوبة، باب فى الحض على التوبة ٤/٢١٠٣ (٢٧٤٤).

الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل، والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والقراءة، وأمثال ذلك من أمور العبادة، وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه وقدره التوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه، وأمثال ذلك من العبادة لله [1].

وذلك أن العبادة لله ﷻ هي الغاية المحبوبة المرضية له، والتي خلق الخلق من أجلها كما قال سبحانه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ الذاريات:٥٦.

والعبادة المعنية في الآية هي عبادة الاختيار دون الاضطرار، وهي العبادة التي يترتب عليها ظهور الحكمة في تشريع الأحكام، وتمييز الحلال من الحرام، والدخول في دين الإسلام، وترتيب الثواب والعقاب وصحة العرض والحساب.

وأصل كلمة العبد المعبد وهو الذي عبده الله ﷻ فذلله ودبر أمره وصرفه، وهذا التدبير قد يكون على المعنى الكوني أو المعنى الشرعي، فعلى الاعتبار الكوني فإن الخلق كلهم عباد الله من الأبرار والفجار، والمؤمنين والكفار، وأهل الجنة وأهل النار، إذ هو ربهم كلهم ومليكهم لا يخرجون عن مشيئته وقدرته وكلماته التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، فما شاء كان وإن لم يشاءوا، وما شاءوا إن لم يشأه لم يكن.

كما قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠/١٤٩ بتصرف.

وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ آل عمران:٨٣. فهو سبحانه رب العالمين وخالقهم ورازقهم ومحييهم، ومقلب قلوبهم، ومصرف أمورهم، لا رب لهم غيره، ولا مالك لهم سواه، ولا خالق إلا الله، سواء اعترفوا بذلك أو نكروه، وسواء علموا ذلك أو جهلوه.

لكن أهل العبادة والإيمان منهم عرفوا ذلك واعترفوا به، واختاروا لأنفسهم هديه عن طواعية منهم، بخلاف من كان جاهلا بذلك أو جاحدا له مستكبرا على ربه، ولا يقر ولا يخضع له مع علمه بأن الله ﷻ ربه وخالقه، فالمعرفة بالحق إذا كانت مع الاستكبار عن قبوله والجحد له كانت عذابا على صاحبها كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ النمل:١٤.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ البقرة:١٤٦.

وقال تعالى: ﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ الأنعام:٣٣.

أما إن اعترف العبد أن الله ﷻ ربه وخالقه، وأنه مفتقر إليه محتاج إليه، عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله، وهذا العبد يسأل ربه فيتضرع إليه ويتوكل عليه، لكن قد يطيع أمره وقد يعصيه، وقد يعبده ويعبد مع ذلك الشيطان والأصنام، ومثل هذه العبودية لا تفرق بين أهل الجنة والنار، ولا يصير بها الرجل مؤمنا.

والعبادة أصل معناها الذل أيضا يقال: طريق معبد إذا كان مذللا قد

وطئته الأقدام، لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل، ومعنى الحب فهي تتضمن غاية الذل لله، بغاية المحبة له، فإن آخر مراتب الحب هو التتيم، وأوله العلاقة لتعلق القلب بالمحبوب، ثم الصبابة لانصباب القلب إليه، ثم الغرام وهو الحب اللازم للقلب، ثم العشق وآخرها التتيم، يقال: تيم الله، أي: عبد الله، فالمتيم المعبد لمحبوبه، ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدا له، ولو أحب شيئا ولم يخضع له لم يكن عابدا له، كما قد يحب ولده وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله ﷻ أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله، وكل من أحب لغير الله فمحبته فاسدة، وما عظم بغير أمر الله ﷻ كان تعظيمه باطلا [1].

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ التوبة:٢٤ .

• الفرق بين مفهوم عبادة الله وتوحيد العبادة لله.

لا بد هنا من بيان الفرق بين معنى العبادة وتوحيد العبادة، فالعبادة هي الخضوع التام المقترن بالإرادة وتعظيم المحبوب، فإن كان الخضوع والطاعة بغير إرادة فلا تسمى عند ذلك عبادة .

---

(١) انظر بتصرف مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٥٣/١٠.

وقد علمنا مما سبق في تعريف العبادة الذي ذكره ابن تيمية رحمه الله أنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة) [(١)] . أو هي طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة الرسل [(٢)].

وأن الإله هو الذي تألهه القلوب وتعبده بالمحبة والإجلال والتعظيم، والذل والخضوع، والعبادة لا تصح إلا له وحده، وهي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل[(٣)].

أما توحيد العبادة لله فيعني إفراده بها، وهذا يمنع الشرك وتشبيه المخلوق بالخالق، ولذلك كان من شروط لا إله إلا الله الإخلاص لله وحده، فالمخلص لا يشبه غير الله بالله، لأن أصل الشرك في العبادة تشبيه المخلوق بالخالق، فيعظمه كتعظيم الله، ويحبه كمحبته له كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ البقرة:١٦٥.

ولما عذبوا في جهنم قالوا عن علة عذابهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ الشعراء:٩٦/٩٨.

وقد كان المشركون في الجاهلية يعلمون حقيقة الإخلاص وتوحيد العبادة، ولذلك رفضوا كلمة التوحيد: ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠/١٤٩، والفتاوى الكبرى ٥/١٥٥ .
(٢) انظر بتصرف مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠/٤٠٠.
(٣) انظر بتصرف الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم ١/١٦٤، نشر دار الكتب العلمية بيروت.

ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾ ص:٤/٦.

والمشركون أنفسهم كانوا يصرون على الشرك عند النعمة والرخاء، ويوحدون الله ﷻ عند الشدائد وحدوث البلاء، وقليل منهم من دان بالإخلاص وتحرى الخلاص من الشرك.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ العنكبوت:٦٥.

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ الإسراء:٦٧/٦٩ .

وروى النسائي وصححه الشيخ الألباني من حديث مُصْعَبِ بْن سَعْدٍ عن أَبِيهِ ﷺ أنه قال: (لَمَّا كَانَ يومُ فَتْحِ مَكَّةَ أَمَّنَ رَسُول اللهِ ﷺ الناسَ إلاَّ أَرْبَعَةَ نفَرٍ وَامْرَأَتَين، وقَال: اقْتُلوهُمْ وَإِن وَجَدتُمُوهُمْ مُتَعَلِقِين بِأَسْتَارِ الكَعْبَةِ. عِكْرِمَةُ بْن أَبِي جهْل، وَعَبْدُ اللهِ بْن خطَل، وَمقِيسُ بْن صُبَابَةَ وَعَبْدُ اللهِ بْن سَعْدِ بْن أَبِي السَّرْحِ، فَأَمَّا عَبْدُ اللهِ بْن خَطَل فَأُدْرِك وَهُوَ مُتَعَلقٌ بِأَسْتَارِ الكَعْبَةِ، فَاسْتَبَقَ إليهِ سَعِيدُ بْن حُرَيث وَعَمَّارُ بْن ياسِرِ، فَسَبَقَ سَعِيدٌ عَمَّارًا وكَان أَشَبَّ الرَّجُلين فقَتَلهُ، وَأَمَّا مِقيسُ بْن صُبَابَةَ فَأَدْرَكهُ الناسُ فِي السُّوقِ فقَتَلوهُ. وَأَمَّا عِكْرِمَةُ فرَكِبَ البَحْرَ فَأَصَابَتْهُمْ

عَاصِفٌ فَقَال أَصْحَابُ السَّفِينةِ: أَخْلصُوا فَإِن آلِهَتَكُمْ لاَ تُغْنى عَنكُمْ شَيْئًا هَا هُنا. فَقَال عِكْرِمَةُ: وَاللهِ لئِن لمْ ينجِّني مِن البَحْرِ إلاَّ الإِخْلاَصُ لاَ ينجِّيني فِي البَرِّ غَيرُهُ، اللهُمَّ إن لكَ عَلي عَهْدًا إن أَنتَ عَافَيتَني مِمَّا أَنا فِيهِ أَن آتِي مُحَمَّدًا ﷺ حَتَّى أَضَعَ يدِي فِي يدِهِ فَلأَجِدَنهُ عَفُوًّا كَرِيمًا. فَجَاءَ فَأَسْلمَ، وَأَمَّا عَبْدُ اللهِ بْن سَعْدِ بْن أَبِي السَّرْحِ فَإِنهُ اخْتَبَأَ عِندَ عُثْمَان بْن عَفَّان، فَلمَّا دَعَا رَسُول اللهِ ﷺ الناسَ إلى البَيعَةِ جَاءَ بِهِ حَتَّى أَوْقَفَهُ عَلى النبِي ﷺ قَال: يا رَسُول اللهِ بَايِعْ عَبْدَ اللهِ. قَال: فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَنظَرَ إليهِ ثلاَثًا كُل ذلكَ يأبَى فَبَايعَهُ بَعْدَ ثلاَث ثمَّ أَقْبَل عَلى أَصْحَابِهِ فَقَال: أَمَا كَان فِيكُمْ رَجُل رَشِيدٌ يقُومُ إلى هَذا حَيث رَآني كَفَفْتُ يدِي عَن بَيعَتِهِ فَيقْتُلهُ. فَقَالوا: وَمَا يدْرِينا يا رَسُول اللهِ مَا فِي نفْسِكَ هَلاَّ أَوْمَأْتَ إلينا بِعَينكَ. قَال: إنهُ لاَ ينبَغِي لنبِي أَن يكُون لهُ خَائِنةُ أَعْين) [(١)].

ومعنى قول أصحاب السفينة أخلصوا أي وحدوا ربكم في الدعاء والاستغاثة، وقد كانوا يلجئون في الرخاء إلى اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وعند الشدائد يوحدون.

وهكذا دعاء الأموات وتأليه قبور الصالحين ينافي التوحيد والإخلاص ويستلزم أن تجعل من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا مشابها لمن كانت أزمة الأمور بيديه، ومرجعها إليه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؟ فالذي يدعو الأموات يثبت لهم بصورة حتمية أوصاف الربوبية التي انفرد الله بها، فيثبت أنه يسمع ويبصر ويعلم ويقدر، وأنه غني يدعى

(١) رواه النسائي في كتاب تحريم الدم، باب الحكم في المرتد ٧/١٠٥ (٤٠٦٧) نشر مكتب المطبوعات الإسلامية حلب، وانظر صحيح أبي داود (٢٣٣٤).

ويقصد، وهذا هو الشرك في العبادة، أما توحيد العبادة فمبناه على الإخلاص لله وحده، هذا الإخلاص الذي يطهر العبد من دنس الشرك ويشعره بنور التوحيد في قلبه، فلا يدعو غير الله، ولا يطلب المدد من سواه، ولا يستعن إلا بالله، ويجعل الطواف مقصورا ببيت الله، ولا يقبل ضريحا أو مقصورة أو حجرا إلا حجرا واحدا أمرنا الله ﷻ بتعظيمه، ولا يذبح إلا لله، ويذبح باسم الله وحده، ولا يجعل النذر لسواه، ولا يتخذا على القبر مسجدا، ولا يقم فيه أبدا.

- **أحكام العبودية وتعلقها بتوحيد الإلوهية .**

أحكام العبودية هي درجات الأمر التكليفي من حيث إلزام العبد بها أو تخيره فيها سواء بالفعل أو الترك، وهى الأحكام الشرعية الدينية التي دل عليها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقد صنفها علماء الأصول إلى خمسة أنواع:

١ـ الواجب أو الفرض: فإذا أمر الله عباده بأمر معين فإنه ملزم لهم ويتحتم عليهم تنفيذه، وإذا امتنع العبد كان عرضة للعقاب، لأن الإنسان في الأصل عبد مخلوق مملوك، ونعم الله عليه لا تحصى ولا تعد، فلكونه عبد يجب عليه طاعة معبوده، فإذا أمرنا الله ﷻ بأمر فالأصل فيه الوجوب والحتم والإلزام، وذلك أول أحكام العبودية ويسمى بالفرض أو الواجب ولا فرق بينهما عند الجمهور [(١)] .

ويمكن التعرف على صيغ الأمر الملزم التي تدل على الوجوب من

---

(١) انظر بتصرف الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني ٢/٢٧٤، وشرح النووي على صحيح مسلم ٥/٧٤ نشر دار إحياء التراث العربي بيروت.

خلال فعل الأمر المجرد، أو يعبر عن الطلب بلفظ كتب؛ فإنه يدل على الفرض أو الوجوب، أو يصرح النص بلفظ فرض أو وجب، فإنه مصرح بدرجة الحكم وهى الفرضية أو الوجوب، أو تكون الصيغة التي تدل على طلب الفعل مقترنة في تركه بوعيد كعذاب أو غضب أو لعن على ترك الفعل .

٢ـ المندوب أو المستحب: فقد يأمر الله ﷻ بأمر، ولا يريد الحتم والإلزام، وإنما أراد به الاستحباب أو الندب، بمعنى أن الله يريد فعل ما يثاب عليه العبد فيكثر من حسناته ولا يعاقبه على تركه للفعل، وهذا هو معنى المستحب أو المندوب من أحكام العبودية، فالمستحب هو ما أمر به الشارع لا على وجه الحتم والإلزام، أو ما ندب الشارع إلى فعله دون إلزام أو عقاب، ويعرف أيضا بأنه ما يثاب على فعله، ولا يعاقب على تركه.

٣ـ المباح أو الجائز: قد يخرج الأمر عن الوجوب إلى الإباحة لدليل يقتضى ذلك، وأكثر ما يقع ذلك إذا ورد بعد الحظر، أو جوابا لما يتوقع أنه ممنوع، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ المائدة:٢ . أي بعد أن تتحللوا من إحرامكم للحج أباح لكم الاصطياد، فاصطادوا أو لا تصطادوا، فالأمر على وجه التخيير والإباحة، بعد أن كان محرما أثناء الحج، والمباح قد لا يتعلق بأمر أو نهى، ويترك الخيار للعبد في الفعل أو الترك، ويسمى أيضا بالحلال أو الجائز.

٤ـ المكروه: ويقابل المستحب هو ما نهى عنه الشارع لا على وجه الحتم والإلزام، أو هو ما يثاب تاركه، ولا يعاقب فاعله، ومن أمثلته

مباشرة الرجل زوجته دون الجماع وهى حائض بدون ثوب.

٥ـ المحرم: ويقابل الواجب، ومعناه في اللغة الممنوع، ويقصد به في أحكام العبودية ما نهى عنه الشارع على وجه الحتم والإلزام، ويعرف الحرام إذا ورد النص بصيغة النهى المجرد عن القرائن كالمضارع المقرون بلا الناهية، نحو: ولا تقربوا. ويعرف الحرام أيضا إذا ورد التصريح بلفظ التحريم. ويعرف أيضا بأن تكون الصيغة التي تدل على طلب الترك مقترنة بوعيد وعقاب كالمنع من الجنة، أو الدخول في النار، أو اللعن أو الغضب أو الذم أو القبح أو ما شابه ذلك [١] .

- **الوسطية والشمولية في تطبيق أحكام العبودية.**

مفهوم العبادة كما قررها المتبعون لنهج السلف تعني الطاعة لله ﷻ بالتزام ما أمر به على ألسنة الرسل [٢].

وما أمر الله به يتعلق بالقلب واللسان والجوارح، ويتنوع أيضا حسب الأحكام التكليفية إلى خمسة أنواع هي الواجب والمستحب والمباح والمكروه والمحرم، ومن ثم فإن قواعد العبادة الحقة مبنية على خمس

---

(١) يمكن الرجوع في معرفة أحكام العبودية أو الأحكام التكليفية إلى المستصفى في علم الأصول لأبى حامد الغزالي من ص٥٤ إلى ص٧٢ نشر دار الكتب العلمية بيروت، والمحصول في علم الأصول لمحمد بن عمر بن الحسين الرازي ١/١٠٧ وما بعدها، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض، وأصول السرخسي ١/١١ نشر دار المعرفة بيروت، والموافقات في أصول الفقه، لإبراهيم بن موسى اللخمي ١/١٠٩ نشر دار المعرفة بيروت.

(٢) انظر مدارج السالكين لابن القيم ١/٧٤، ٢/١٨٢، والجواب الكافي ١/١٦٤ ومجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠/١٥٧.

عشرة قاعدة تتصف بالشمولية والتناسب العام في جميع الأحكام، وأي تشدد أو خلل في جانب منها سوف يؤثر سلبا على الجانب الآخر .

وقد تقدم كلام ابن القيم عندما حاول أن يحصي قواعد العبادة في الأعمال البدنية والقلبية برؤية سلفية تحدد بدقة وشمولية أركان العبودية لله ﷻ وكيف يحققها الإنسان في الحياة، فبين أن رحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة من كملها كمل مراتب العبودية [1] .

وكل قاعدة من تلك الأعمال الظاهرة والباطنة لها علم وفقه، وبيان وفهم، ولها شواهد كثيرة من الكتاب والسنة، وقد جمعها ابن القيم على وجه التفصيل وبين أحكامها كما جاء في التنزيل [2] .

أما الغلو في العبادة وعدم التزام الوسطية والشمولية في تطبيق أحكام العبودية كما حدث عند كثير من الصوفية فإنه يؤدي إلى الخلل في منهج العبودية، فكثير من الصوفية نظر إلى أحكام العبودية على معنى الاضطرار الذي لا مساغ فيه بحيث لا يجد العبد مجالا للمستحبات والمباحات، أو خيارا مقبولا لو وقع في المكروهات.

قال عبد الله بن محمد بن مُنازِل وهو من كبار الصوفية (ت:٣٢٩هـ): (العبودية اضطرارا لا اختيار فيه) [3] .

وهو يعني بذلك الصيام الدائم والقيام المستمر، والشهوة الموصدة والفقر المدقع. أو كما قال إبراهيم الخواص (ت:٢٩٩هـ): (من ادعي

(١) انظر مدارج السالكين لابن القيم ١/١٠٩.
(٢) انظر السابق ١/١١٠ وما بعدها.
(٣) طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ص٣٦٨.

العبودية وله مراد باق فيه، فهو كاذب في دعواه) [١] .

وهذا يعني أن كثيرا من أوائل الصوفية أسقطوا من قواعد العبادة كل ما فيه مندوحة للإنسان من أحكام التكليف المتعلقة بالمستحبات والمباحات والمكروهات رغبة في الوصول إلى التحرر من كل ما سوى الله، والعمل في مرضاته على وجه الاضطرار، فيجعلون المستحب في منزلة الواجب، والمكروه في منزلة المحرم، كل الأحكام عندهم على سبيل الحتم والإلزام بدعوى التحرر من قيود الشهوة .

قال أبو بكر الشبلي (ت:٣٣٤هـ): (كنت في أول بدايتي إذا غلبني النوم أكتحل بالملح، فإذا زاد علي الأمر أحميت الميل فأكتحل به) [٢] .

وقال إبراهيم بن شيبان لأبي بكر الشبلي: (كم في خمس من الإبل؟ أي مقدار الزكاة فيها؟ فقال الشبلي: في واجب الأمر شاة ـ أي حكم الشرع عند عامة المسلمين شاة ـ وفيما يلزمنا كلها ـ أي في عرف الصوفية يخرجونها كلها) [٣] .

ونجد أيضا بين صوفية القرن الثالث الهجري من يحرم على نفسه أكل ما أباح الله له من أنواع الطعام، حتى إنه ليقول لمريد من مريديه قد مد يده إلى قشر البطيخ يريد أن يأكل منه شيئا: (أنت لا يصلح لك

---

(١) السابق ص٤٤، ٢٤٥.

(٢) اللمع في التصوف لأبي نصر السراج الطوسي ص ٢٠٤. والميل عود يوضع في وعاء الكحل تكتحل به المرأة، انظر لسان العرب لابن منظور الأفريقي ١١/٦٣٩.

(٣) السابق ص٢١٠.

التصوف الزم السوق) [(١)].

كما نجد ما هو أشد من ذلك لأبي الحسين أحمد بن محمد النوري (ت:٢٩٥هـ) حيث صعد قنطرة وأخذ يرمي ثلاثمائة دينار في الماء واحدا واحدا، ثمن عقار بيع له، وهو يقول مخاطبا ربه: (حبيبي تريد أن تخدعني منك بمثل هذا) [(٢)].

وعطش رويم بن أحمد البغدادي (ت:٣٠٣هـ) عطشا شديدا فاستسقى جارية، فقالت: (ويحك صوفي يشرب بالنهار، فاستحى منها، ونذر ألا يفطر أبدا) [(٣)].

وهذا وإن دل على علو الهمة، ولم يكن منهم عن سوء نية، لكن ذلك هو بعينه الغلو في العبادة الذي حذر منه النبي ﷺ.

روى البخاري من حديث أنس ﷺ أنه قال: (جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إلى بُيوتِ أَزْوَاجِ النبي ﷺ يسْأَلون عَن عِبَادَةِ النبي ﷺ؟ فَلمَّا أُخْبِرُوا كَأَنهُمْ تَقَالوهَا فَقَالوا: وَأَين نَحْن مِن النبِي ﷺ قَدْ غُفِرَ لهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذنبِهِ وَمَا تَأَخرَّ؟ قَال أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنا فَإِني أُصَلي الليل أَبَدًا. وَقَال آخرُ: أَنا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَال آخرُ: أَنا أَعْتَزِل النسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُول اللهِ ﷺ فَقَال: أَنتُمُ الذين قُلتُمْ كَذا وَكَذا، أَمَا وَاللهِ إني لأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتقَاكُمْ له، لكِني أَصُومُ وَأُفطِرُ، وَأُصَلي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النسَاءَ، فَمَن

(١) الرسالة القشيرية ١/١٠٩، والقائل هو أبو تراب النخشبي (ت٢٤٥هـ).
(٢) اللمع في التصوف لأبي نصر السراج الطوسي ص٤٩٣.
(٣) الرسالة القشيرية ١/١٢٨.

رَغِبَ عَن سُنتِي فَليسَ مِني) [(١)].

وما فعله رويم بن أحمد البغدادي يناقض الحديث، فعندما نذر ألا يفطر أبدا وعزم على الوصال في الصيام إنما كان رد فعل لما انقدح في ذهن الجارية التي طلب منها الماء أن الصوفي هو من يصوم الدهر ولا يفطر، فقالت له منكرة كما تقدم: صوفي يشرب بالنهار ؟ .

وما فعله أبو بكر الشبلي عندما أكتحل بالملح، أو لسع عينه بالميل بعد أن وضعه في النار رغبة منه في المداومة على قيام الليل مخالف لما رواه البخاري من حديث أنس ﷺ أنه قال: (دَخَل النبِي ﷺ فَإِذا حَبْل مَمْدُودٌ بَين السَّاريتَين فَقَال: مَا هَذا الحَبْل؟ قَالوا: هَذا حَبْل لزَينبَ، فَإِذا فَتَرَتْ تَعَلقَتْ، فَقَال النبِي ﷺ: لاَ، حُلوهُ، ليصَل أَحَدُكُمْ نشَاطَهُ، فَإِذا فَتَرَ فَليقْعُدْ) [(٢)].

ولو أمرها النبي ﷺ بالاكتحال كما فعل الشبلي أو قال لها: جزاك الله خيرا أحسنت صنعا، لوقعت المشقة التي يعز على العبد أن يداوم عليها إلا على حساب التقصير في أمور أخرى سوف تؤدي إليها الضرورة الفطرية في خلق الإنسان، ولو سمح النبي ﷺ بمثل هذه الأفعال لظهر التصوف في عصر النبوة منذ وقت مبكر .

---

(١) رواه البخاري في النكاح، باب الترغيب في النكاح ٥/١٩٤٩ (٤٧٧٦)، ومسلم في كتاب، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ٢/١٠٢٠ (١٤٠١).

(٢) رواه البخاري في أبواب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة ١/٣٨٦ (١٠٩٩)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب أمر من نعس فى صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد أو يقعد حتى يذهب عنه ذلك ١/٥٤١ (٧٨٤)، ومعنى فترت أي ضعفت وتكاسلت.

ولا شك أيضا أن الضرورة قد تدعو المسلم إلى التضحية بما يملك في بعض الأوقات والأزمات كما فعل أبو بكر الصديق ﷺ، لكن التضحية على الدوام، وفي أوقات الرخاء بكل ما يملكه الإنسان ويغنيه عن الناس مخالفة صريحة لسنة النبي ﷺ لما ثبت عند البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ أنه قال: (عَادَني النبِي ﷺ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ مِن وَجَعٍ ، أَشْفَيتُ مِنهُ عَلى المَوْتِ، فَقُلتُ: يا رَسُول اللهِ بَلغَ بِي مِن الوَجَعِ مَا تَرَى، وَأَنا ذو مَال وَلاَ يرثني إلاَّ ابْنَةٌ لي وَاحِدَةٌ، أَفأَتَصَدَّقُ بِثلثي مَالي؟ قَال: لاَ، قُلتُ: أَفأَتَصدَّقُ بِشَطْرِهِ قَال: لاَ، قُلتُ: فَالثلث، قَال: وَالثلث كَثيرٌ، إِنكَ أَن تَذرَ وَرَثَتَكَ أَغْنياءَ خَيرٌ مِن أَن تَذرَهُمْ عَالةً يتَكَفَّفُون الناسَ، وَلَسْتَ تُنفِقُ نفقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلاَّ أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى اللقْمَةَ تَجْعَلهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ) [1] .

والشاهد أنه لو كان خروج سعد ﷺ من جميع المال فيه صلاح له لأمره النبي ﷺ بذلك، فأين هذا من فعل أبي الحسين النوري عندما صعد القنطرة ورمى الدنانير في الماء واحدا واحدا وسمي ذلك خروجا من خداع الله له بالمال؟

ومن ثم فإن السنة فيها مراعاة للضروريات بالقدر الذي يتناسب مع ماهية الإنسان وفقره الذاتي، فالإنسان لا يعتاد شيئا إلا ويشعر بالسآمة، وقد جعل الله فطرة الإنسان وعلاقته بمن حوله ميدانا تظهر فيه آثار ربوبيته وأسمائه وصفاته، وجعل المنهج النبوي ميدانا لتحقيق العبودية

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب حجة الوداع ٤/١٦٠٠ (٤١٤٧)، ومسلم في كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث ٣/١٢٥٠ (١٦٢٨) .

ومقياسا دقيقا عند صدق النية، فمن المعلوم أن الشمولية في فهم العبادة وصف لا يلحق إلا من سلك مسلك النبي ﷺ في كل متعلقات الحياة، فالتوازن قائم ومنسجم في كل النواحي المتعلقة بأحكام العبودية، فإذا بالغ العبد في آداء جانب سيظهر تقصيره في جانب آخر دون أن يشعر، فالطاقة والوسع مجالهما محدود فيما منحه الله للإنسان .

ومن ثم فإن كثيرا من أوائل الصوفية لما بالغوا في تحقيق العبودية وتكلفوا أمور الاستحباب على وجه الحتم والإلزام، وأسقطوا النظر إلى درجات التكليف في الأحكام، لم تطرد المبالغة أو تنسحب على كل مفردات الإسلام، ومن ثم برز جانب على حساب آخر، ففي الوقت الذي ظهرت المغالاة في بعض العبادات كالصلاة والصيام والذكر وبعض النواحي الأخرى، لم تظهر همتهم في تعبيد الدنيا لله ﷻ وإعداد أسبابها للدعوة وإرهاب العدو، والجهاد في سبيل الله وتنظيم الروابط الأسرية والاجتماعية، بل أثروا الرباط والخلوة والسياحة في البوادي وقام بالأمور الأخرى غيرهم.

- **الأدلة النقلية على تشبيه الإيمان بالشجرة الحسية.**

ورد في الكتاب والسنة وتشبيه الإيمان بالشجرة، وأن المؤمن في نمائه وعطائه كالشجرة الطيبة في نموها ونفعها وعطائها ومن ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ

﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾ إبراهيم: ٢٤/ ٢٧.

٢- وروى البخاري من حديث ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إِن مِن الشَّجَرِ شَجَرَةً لا يسْقُطُ ورَقُهَا، وَإِنها مَثَل المُسْلِمِ. فَحَدِّثوني مَا هِي؟ فوَقَعَ الناسُ فِي شَجَرِ البَوَادِي. قَال عَبْدُ اللهِ: ووَقَعَ فِي نفْسِي أَنها النخْلةُ. فَاستَحْيَيتُ. ثمَّ قَالوا: حَدِّثنا مَا هِي يا رَسُول اللهِ؟ قَال: هِي النخْلةُ) (١).

٣- وفي لفظ آخر عند البخاري من حديث ابن عمر ﷺ أنه قال: (كُنتُ عِندَ النبِي ﷺ وَهُوَ يأْكُل جُمَّارًا، فَقَال: مِن الشَّجَرِ شَجَرَةٌ كَالرَّجُل المُؤْمِن. فَأَرَدْتُ أَن أَقُول هِي النخْلةُ، فَإِذا أَنا أَحْدَثهُمْ. قَال: هِي النخْلةُ) (٢).

٤- وعند البخاري أيضا من حديث ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: (مَثل المُؤمِن كَمَثل شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ، لا يسْقُطُ ورَقُهَا، ولا يتَحاتُّ. فقَال القَوْمُ: هِي شَجَرَةُ كَذا، هِي شَجَرَةُ كَذا. فَأَرَدْتُ أَن أَقُول هِي النخْلةُ وَأَنا غُلامٌ شَابٌّ، فَاستَحْيَيتُ. فقَال: هِي النخْلةُ) (٣).

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب قول المحدث حدثنا أو أخبرنا وأنبأنا ١/ ٣٤ (٦١)، ورواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب مثل المؤمن مثل النخلة ٤/ ٢١٦٤ (٢٨١١).

(٢) رواه البخاري في كتاب البيوع، باب بيع الجمار وأكله ٢/ ٧٦٨ (٢٠٩٥).

(٣) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب ما لا يستحيا من الحق للتفقه في الدين ٥/ ٢٢٦٨ (٥٧٧١).

٥- وروى البخاري من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مَثل المُؤْمِن الذي يقْرأُ القُرْآن كَمَثل الأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيبٌ وَطَعْمُهَا طَيبٌ. ومَثل المُؤْمِن الذي لا يقْرأُ القُرْآن كَمَثل التَّمْرَةِ، لا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلوٌ. وَمَثل المُنافِقِ الذي يقْرأُ القُرْآن مَثل الرَّيحَانةِ، رِيحُهَا طَيبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ. وَمَثل المُنافِقِ الذي لا يقْرأُ القُرْآن كَمَثل الحَنظَلَةِ، ليسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ) (١).

٦- وروى البخاري من حديث كعب بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: (مَثل المُؤْمِن كَالخَامَةِ مِن الزَّرْعِ، تُفَيئُهَا الرِّيحُ مَرَّةً وَتَعْدِلهَا مَرَّةً. وَمَثل المُنافِقِ كَالأَرْزَةِ، لا تَزَال حَتَّى يكُون انجِعَافُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً) (٢).

٧- وفي لفظ عند مسلم من حديث كعب بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مَثل المُؤْمِن كَمَثل الخَامَةِ مِن الزَّرْعِ تُفِيئُهَا الرِّيحُ، تَصرَعُهَا مَرَّةً وَتَعْدِلهَا أُخْرَى حَتَّى تَهِيجَ. وَمَثل الكَافِرِ كَمَثل الأَرْزَةِ المُجْذِيةِ عَلى أَصْلِهَا لا يفِيئُهَا شَيءٌ حَتَّى يكُون انجِعَافُهَا مَرَّةً وَاحِدَةً) (٣).

٨- وروى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ

(١) رواه البخاري في كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام ٥/٢٠٧٠ (٥١١١)، والأترجة ثمرة تشبه الحجم الصغير من القرع العسلي.

(٢) رواه البخاري في كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرضى ٥/٢١٣٧ (٥٣١٩). كالخامة أي كالغض الرطب من النبات أول ما ينبت، ومعنى تفيئها تميلها، وتعدلها ترفعها، ومعنى انجعافها انقلاعها.

(٣) رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب مثل المؤمن كالزرع ومثل الكافر كشجر الأرز ٤/٢١٦٣ (٢٨١٠) والمجذية الثابتة المنتصبة، انظر لسان العرب لابن منظور الأفريقي ١٤/١٣٧.

قال: (مَثل المُؤْمِن كَمَثل الخَامَةِ مِن الزَّرْعِ مِن حَيث أَتَتْهَا الرِّيحُ كَفَأَتْهَا فَإِذا اعْتَدَلَتْ تَكَفَّأُ بِالبَلاءِ. وَالفَاجِرُ كَالأَرْزَةِ صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً حَتَّى يقْصِمَهَا اللهُ إِذا شَاءَ) [1].

٩- وعند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مَثل المُؤْمِن كَمَثل خَامَةِ الزَّرْعِ، يفِيءُ وَرَقُهُ مِن حَيث أَتَتْهَا الرِّيحُ تُكَفِّئُهَا، فَإِذا سَكَنَتْ اعْتَدَلَتْ، وَكَذلك المُؤْمِن يكَفأُ بِالبَلاءِ. وَمَثل الكَافِرِ كَمَثل الأَرْزَةِ صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً حَتَّى يقْصِمَهَا اللهُ إِذا شَاءَ) [2].

١٠-وعند الترمذي وصححه الألباني من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مثل المؤمن كمثل الزرع، لا تزال الرياح تفيئه، ولا يزال المؤمن يصيبه بلاء، ومثل المنافق مثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد) [3].

• الشجرة الطيبة شجرة الإيمان وتوحيد العبودية.

---

(١) رواه البخاري في كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المرضى ٢١٣٨/٥ (٥٣٢٠). ومعنى كفأتها أمالتها، وتكفأ بالبلاء أي تقلب بالمصيبة أي أن المؤمن إذا أصابه بلاء رضي بقدر الله تعالى فإذا زال عنه قام واعتدل بشكر الله تعالى فانقلب البلاء خيرا ورحمة، ومنى صماء أي صلبة شديدة، ومعنى يقصمها من القصم وهو الكسر مع الإبانة، أي فصل الأجزاء عن بعضها.

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب في المشيئة والإرادة، وما تشاءون إلا أن يشاء الله ٢٧١٦/٦ (٧٠٢٨).

(٣) رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب مثل المؤمن كالزرع ومثل الكافر كشجر الأرز ٢١٦٣/٤ (٢٨٠٩)، والترمذي في كتاب الأمثال، باب ما جاء في مثل المؤمن القارئ للقرآن وغير القارئ ١٥٠/٥.

مما ورد من النصوص النقلية نجد أن نماء توحيد العبودية في القلب يشبه الشجرة الطيبة في نمائها، وثبات أصلها، وعلو فروعها، وقوة نفعها وكثرة ثمارها، وطيب ريحها، ومرونتها مع العوامل الخارجية، وأنها لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين.

وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب التي فروعها من الأعمال الصالحة، الصاعدة إلى السماء، ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حق رعايتها، فمن رسخت حقيقة هذه الكلمة في قلبه، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله، ويشهد بها لسانه، وتصدقها جوارحه، ونفى تلك حقيقة التوحيد ولوازمها عن كل ما سوى الله، واتفق قلبه ولسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد لله بالوحدانية، طائعة سالكة سبل ربها ذللا، غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلا، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلا، فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب، على هذا اللسان، لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الله كل وقت.

وهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلاما كثيرا طيبا يقارنه عمل صالح، فيرفع العمل الصالح ويصعد مع الكلم الطيب كما قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ

يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾ فاطر: ١٠.

أخبر سبحانه أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وأخبر أن الكلمة الطيبة تثمر لقائلها عملا صالحا كل وقت.

والمقصود أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفا بمعناها وحقيقتها نفيا وإثباتا، متصفا بموجبها، قائما قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا الشاهد، أصلها ثابت راسخ في قلبه، وفروعها متصلة بالسماء، وهي مخرجة لثمرتها كل وقت [1].

كما أن الكلمة أصل العقيدة، فإن الاعتقاد هو الكلمة التي يعتقدها المرء، وأطيب الكلام والعقائد كلمة التوحيد، واعتقاد أن لا إله إلا الله، وأخبث الكلام والعقائد كلمة الشرك، وهو اتخاذ إله مع الله، فإن ذلك باطل لا حقيقة له، ولهذا قال سبحانه: ما لها من قرار. ولهذا كان كلما بحث الباحث وعمل العامل على هذه الكلمات والعقائد الخبيثة لا يزداد إلا ضلالا وبعدا عن الحق، وعلما ببطلانها، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ النور: ٣٩/ ٤٠ .

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى مثلين: أحدهما مثل الكفر والجهل

---

(١) إعلام الموقعين لابن القيم ١/ ١٧٣ نشر دار الجيل بيروت.

المركب الذي يحسبه صاحبه موجودا، وفي الواقع يكون خيالا معدوما كالسراب، وأن القلب عطشان إلى الحق كعطش الجسد إلى الماء، فإذا طلب ما ظنه ماءا وجده سرابا، ووجد الله عنده فوفاه حسابه، وهكذا تجد عامة هؤلاء الخارجين عن السنة والجماعة.

والمثل الثاني مثل الكفر والجهل البسيط، الذي لا يتبين فيه صاحبه حقا، ولا يرى فيه هدى، والكفر المركب مستلزم للبسيط، وكل كفر فلا بد فيه من جهل مركب.

ضرب الله سبحانه المثلين بذلك ليبين حال الاعتقاد الفاسد، ويبين حال عدم معرفة الحق، وهو يشبه حال المغضوب عليهم والضالين، حال المصمم على الباطل حتى يحل به العذاب، وحال الضال الذي لا يرى طريق الهدى[1].

وقد ذكر شيخ الإسلام أنه إذا قام بالقلب التصديق بالحق والمحبة له لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة، فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولازمه، ودليله ومعلوله.

كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له أيضا تأثير فيما في القلب، فكل منهما يؤثر في الآخر، لكن القلب هو الأصل والبدن فرع له، والفرع يستمد من أصله، والأصل يثبت ويقوى بفرعه كما في الشجرة التي يضرب بها المثل لكلمة الإيمان، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، وهي كلمة التوحيد.

---

(١) انظر بتصرف مجموع الفتاوى لابن تيمية ٤/٧٤ وما بعدها.

والشجرة كلما قوي أصلها وعرقها وروي، قويت فروعها، وفروعها أيضا إذا اغتذت بالمطر والريح أثر ذلك في أصلها، وكذلك الإيمان في القلب، والإسلام علانية.

ولما كانت الأقوال والأعمال الظاهرة لازمة ومستلزمة للأقوال والأعمال الباطنة، كان يستدل بها عليها كما في قوله تعالى:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾ المجادلة:٢٢ .

فأخبر أن من كان مؤمنا بالله واليوم الآخر، لا يوجدون موادين لأعداء الله ورسوله ﷺ، بل نفس الإيمان ينافي مودتهم، فإذا حصلت الموادة دل ذلك على خلل الإيمان.

وكذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠)﴾ المائدة:٨٠. وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)﴾ الحجرات:١٥ .

أخبر الله تعالى أن هؤلاء هم الصادقون في قولهم آمنا، ودل ذلك على أن الناس في قولهم آمنا منهم صادق وكاذب، والكاذب فيه نفاق

بحسب كذبه (١).

لقد ضرب الله مثل الكلمة الطيبة التي في قلوب المؤمنين، ومثل الكلمة الخبيثة التي في قلوب الكافرين، والكلمة هي قضية جازمة، وعقيدة جامعة، ونبينا ﷺ أوتى فواتح الكلام وخواتمه وجوامعه، فبعث بالعلوم الكلية والعلوم الأولية والآخرية على أتم قضية، فالكلمة الطيبة في قلوب المؤمنين وهى العقيدة الإيمانية التوحيدية كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، فأصل أصول الايمان ثابت في قلب المؤمن كثبات أصل الشجرة الطيبة، وفرعها في السماء كما قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فاطر:١٠.

والله سبحانه مثّل الكلمة الطيبة أي كلمة التوحيد بشجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، فبين بذلك أن الكلمة الطيبة لها أصل ثابت في قلب المؤمن، ولها فرع عال، وهي ثابتة في قلب ثابت، كما قال: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾ إبراهيم:٢٧ .

إن المؤمن عنده يقين وطمأنينة، والإيمان في قلبه ثابت مستقر، وهو في نفسه ثابت على الايمان مستقر، لا يتحول عنه، والكلمة الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض أي استؤصلت كما يقطع الشيء ويجتث من فوق الأرض.

ومعنى ما لها من قرار، إما أنها لا مكان لها تستقر فيه، أو لا استقرار

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/٥٤١ بتصرف.

لها في المكان، فان القرار يراد به مكان الاستقرار، كما قال تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ إبراهيم:٢٩. وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾غافر:٦٤.

ويقال: فلان ما له قرار، أي ثبات، وقد فسر القرار في الآية بهذا وهذا، فالمبطل ليس قوله ثابتا في قلبه، ولا هو ثابت فيه ولا يستقر، كما قال تعالى في المثل الآخر: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ﴾ الرعد:١٧. فإنه وإن اعتقده مدة، فانه عند الحقيقة يخونه، كالذي يشرك بالله فعند الحقيقة يضل عنه ما كان يدعو من دون الله.

وكذلك الأفعال الباطلة التي يعتقدها الإنسان عند الحقيقة تخونه ولا تنفعه، بل هي كالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فمن كان معه إيمان وكلمة طيبة أصلها ثابت، كان له فرع في السماء يوصله إلى الله ﷻ، فانه سبحانه إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه، ومن لم يكن معه أصل ثابت فإنه يحرم الوصول لأنه ضيع الأصول.

ولهذا تجد أهل البدع والشبهات لا يصلون إلى غاية محمودة، كما قال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ۚ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾﴾ الرعد:١٤.

والله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب بأن يكون هو المعبود وحده لا شريك له، وإنما يعبد بما أمر به على ألسنة رسله، وأصل عبادته معرفته بما وصف به نفسه في كتابه وما وصفه به رسله، ولهذا كان

مذهب السلف أنهم يصفون الله ﷻ بما وصف به نفسه وما وصفه به رسله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل، والذين ينكرون بعض ذلك ما قدروا الله حق قدره، وما عرفوه حق معرفته، ولا وصفوه حق صفته، ولا عبدوه حق عبادته.

والله سبحانه قد ذكر هذه الكلمة ما قدروا الله حق قدره في ثلاثة مواضع ليثبت عظمته في نفسه، وما يستحقه من الصفات، وليثبت وحدانيته، وأنه لا يستحق العبادة إلا هو، وليثبت ما أنزله على رسله، فقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١)﴾ الأنعام:٩١.

وقال: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)﴾ الحج:٧٤.

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧)﴾ الزمر:٦٧.

وفي المواضع الثلاثة ذم الذين ما قدروه حق قدره من الكفار، فدل ذلك على أنه يجب على المؤمن أن يقدر الله حق قدره، كما يجب عليه أن يتقيه حق تقاته، وأن يجاهد فيه حق جهاده، قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ الحج:٧٨. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)﴾ آل عمران:١٠٢.

ومن ثم وجب على المؤمنين أن يصدقوا الرسول ﷺ فيما أخبر، وأن

يطيعوه فيما أوجب وأمر، وأما ما يخرج عن طاقة البشر، فذلك لا يذم أحد على تركه [1].

• **الحكمة في تشبيه المؤمن بالشجرة الطيبة والكافر بالخبيثة.**

في هذا المثل من الأسرار والعلوم والمعارف ما يليق به، ويقتضيه علم الله الذي تكلم به، وحكمته البالغة وحجته الدامغة فمن ذلك:

١- أن الشجرة لا بد لها من عروق، وساق، وفروع، وورق، وثمر، فكذلك شجرة الإيمان والإسلام ليطابق المشبه المشبه به، فعروقها العلم والمعرفة واليقين، وساقها الإخلاص، وفروعها الأعمال، وثمرتها ما توجبه الأعمال الصالحة من الآثار الحميدة، والصفات الممدوحة، والأخلاق الزكية، والسمت الصالح، فيستدل على غرس جذور هذه الشجرة في القلب، وثبوتها فيه بهذه الأمور، فإذا كان العلم صحيحا مطابقا لمعلومه الذي أنزل الله ﷻ كتابه به، والاعتقاد مطابقا لما أخبر به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله، والإخلاص قائم في القلب، والأعمال موافقة للأمر والنهي، إذا كان ذلك مشابه لهذه الأصول مناسب لها، علم أن شجرة الإيمان في القلب أصلها ثابت وفرعها في السماء، وإذا كان الأمر بالعكس علم أن القائم بالقلب إنما هو الشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

٢- ومن الحِكم أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميها،

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٣/١٦٠ بتصرف.

فإذا قطع عنها ما ء السقي أوشكت أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب، إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت، بالعلم النافع والعمل الصالح، والعود بالتذكر على التفكر، والتفكر على التذكر وإلا أوشك أن تيبس، فالإيمان يزيد وينقص، والغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك. ومن هنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله ﷻ به من العبادات على تعاقب الأوقات، وعظيم رحمته، وتمام نعمته، وإحسانه إلى عباده، بأن وظفها عليها، وجعلها مادة لسقي غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم.

٣- ومن الحِكَم أن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة أنه لا بد أن يخالطه نبت غريب، ليس من جنسه، ولا نفع فيه يشاركه ماء سقياه ومادة غذاه، فإن تعاهده صاحبه ونقاه، وقلعه ونظف المكان وسواه، استكمل الزرع نماءه واستوى وتم نباته، وكان أوفر لثمرته، وأطيب وأزكى في منفعته. وإن تركه أوشك أن يغلب النبت الغريب على الغرس والزرع، ويكون الحكم له، أو يضعف الأصل ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة، بحسب كثرته وقلته، ومن لم يكن له فقه ومعرفة في هذه الزراعة، فإنه يضعف محصوله، ويفوته ربح كثير وهو لا يشعر، فالمؤمن دائما سعيه في شيئين: سقي هذه الشجرة بماء العلم واليقين وأعمال الإيمان، وتنقية ما حولها من خواطر الهوى وشبهات الشيطان، فبسقيها تبقى وتدوم، وبتنقية ما حولها تكمل وتتم .

٤- ومن الحِكَم أن الشجرة يؤثر أصلها على فروعها، فلو انقطع

بعض جذورها أو انكسر ساقها تأثرت أوراقها وذبلت أو ماتت وييست، وتؤثر فروعها على أصلها فلو حجبت عن ضوء الشمس أو كثر عليها غبار الطريق تأثر أصلها وضعفت وضعف محصولها، كذلك المؤمن إن مُنع أو امتنع من الذكر والطاعة وتحصيل العلم وأعمال الإيمان ينقص أصله ويتأثر قلبه.

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ البقرة:١١٤.

قال تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ المطففين:١٤.

٥- ومن الحِكَم أن الشجرة تنفي أي عضو معطوب فيها لا ينفعها، فالورقة تسقط إن لم تكن فعالة، والفروع تتهاوى إن تكن قوية حمالة، لتبقى الشجرة مرنة مع الرياح، كذلك المؤمن إذا أذنب ذنبا، أو أصاب مالا حراما، أو أصيب بالبلاء والمحن، استغفر ربه وطهر ماله وزكى قلبه، وجدد إيمانه، حتى يكون طيب الرائحة كثير النفع له ولغيره كما هو حال الشجرة الطيبة في نفعها، ريحها طيبة، وثمراتها طيبة. وينتفع بكل جزء منها، ساقا وفروعا وأوراقا، وأزهارا وجمارا وثمارا.

٦- ومن الحِكَم أن الشجرة الخبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فلا عروق ثابتة، ولا فروع عالية، ولا ثمار زكية، فلا ظل لمستظل، ولا ساق تنمو ولا عرق، فتجتث من فوق الأرض للوقود

والحرق، كذلك المشرك والمجرم والكافر، والمنافق والكذاب والفاجر، ما يلبث أن يراوغ، ويكذب ويتحرى الكذب، ويؤذي الآخرين، ويأكل أموال الناس بالباطل، ولو كانوا فقراء مساكين، حتى ينال عقابه، فتقطع يده أو يسجن أو يقتل أو يرجم، أو توافيه المنية على كفره وشركه ليحرق في جهنم وبئس المصير.



المطلب الثاني

مقامات الصوفية وتقسيماتهم البدعية
في توحيد العبودية



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن توحيد العبادة وأنه يمثل معنى الإسلام أو الإيمان في باب الأمر والطلب، وعلمنا أن الإيمان في باب الأمر والطلب له ثلاثة أركان، تصديق بالجنان وقول باللسان وعمل بالجوارح والأركان، وأن الإيمان في حديث سفيان له ركنان أساسيان، أحدهما يتعلق بتصديق الخبر، والآخر يتعلق بتنفيذ الأمر.

كما بينا معاني كلمة العبادة وأصول اشتقاقاتها اللغوية، وكذلك العبادة في المفهوم الاصطلاحي للأصول القرآنية والنبوية، وعلمنا أن أحكام العبودية وتعلقها بتوحيد الإلوهية تتسم بالوسطية والشمولية، كما بينا الأدلة النقلية على تشبيه الإيمان بالشجرة الحسية، وأن الشجرة الطيبة هي شجرة الإيمان وتوحيد العبودية، كما علمنا الحكمة في تشبيه المؤمن بالشجرة الطيبة، وتشبيه الكافر بالشجرة الخبيثة.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن توحيد العبودية والمراحل الإيمانية التي يتنقل فيها المسلم بين مدارج السالكين ومنازل السائرين.

• توحيد العبودية وأهمية بيانه وتحقيق أركانه.

لما كان توحيد العبودية لله ﷻ له من المكانة والأهمية ما أجمعت عليه النصوص القرآنية والنبوية، كان لابد من تفصيل أركانه، وكشف جوهره وبيانه، وتفصيل معالم الطريقة السلفية، وبيان زيغ الطرق البدعية التي سلكها الصوفية وغيرهم.

ومما لا ريب فيه أن توحيد الإلوهية هو أعظم الأصول على الإطلاق وأكملها وأفضلها، وألزمها لصلاح الإنسانية، وهو الذي خلق الله ﷻ الجن والإنس من أجله، وخلق المخلوقات وشرع الشرائع لقيامه، وبوجوده يكون صلاح العباد، وبفقده يكون الشر والفساد، ولذا كان هذا التوحيد هو لب مجاهدات الرسل وغايتهم وأساس جهادهم في دعوتهم.

لقد تضافرت النصوص القرآنية وتظاهرت الأدلة النبوية على وجوب إفراد الله بالإلوهية، وتنوعت في دلالتها على ذلك إما بالأمر به تارة كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾الإسراء:٢٣. وقال سبحانه وتعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ المائدة:١١٧.

أو ببيان أن توحيد العبادة هو المقصود من بعثة الرسل جميعا كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ النحل:٣٦.

وإما ببيان أنه العلة من وجود الخلائق فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ الذاريات:٥٦. أو هو المقصود من إنزال الكتب الإلهية كما في قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ النحل:٢.

يل وصف الله عظيم الثواب لأهل العبادة والتوحيد، وما أعد لهم في الجنة من النعيم والمزيد فقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ الأنعام:٨٢ .

كما حذر المشركين يوم الوعيد من عذاب شديد فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ ق:٢٦.

وقال المسيح عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ المائدة:٧٢.

والسنة النبوية فيها من الأدلة النقلية ما يدل على أهمية توحيد العبودية لله. روى البخاري من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: (بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النبي ﷺ لَيْسَ بيني وَبَيْنَهُ إلاَّ آخرة الرَّحْل، فَقَال: يَا مُعَاذ، قُلتُ: لَبَّيْك رَسُول اللهِ وَسَعْدَيْكَ، ثمَّ سَارَ سَاعَةً ثمَّ قَال: يَا مُعَاذ، قُلتُ: لَبَّيْكَ رَسُول اللهِ وَسَعْدَيْك، ثمَّ سَارَ سَاعَةً ثمَّ قَال: يَا مُعَاذ، قُلتُ: لَبَّيْك رَسُول اللهِ وَسَعْدَيْكَ، قَال: هَل تَدْرِى مَا حَقُّ اللهِ عَلى عِبَادِهِ ؟ قُلتُ: اللهُ وَرَسُولهُ أَعْلمُ، قَال: حَقُّ اللهِ عَلى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، ثمَّ سَارَ سَاعَةً ثمَّ قَال: يَا مُعَاذ بْنَ جَبَل، قُلتُ: لَبَّيْك رَسُول اللهِ

وَسَعْدَيْكَ، فَقَال: هَل تَدْرِى مَا حَقُّ العِبَادِ عَلى اللهِ إذا فَعَلوهُ؟ قُلتُ: اللهُ وَرَسُولهُ أَعْلمُ، قَال: حَقُّ العِبَادِ عَلى اللهِ أَنْ لاَ يُعَذبَهُمْ) (١).

• العبادة في الإسلام لا تقبل عند الله إلا بشرطين.

لما كانت العبادة وصف الإنسان على وجه الإضرار، وكان فقره الذاتي موجب لطلب لحاجة وسد هذا الفقر الذاتي، فإن الموحدين أتباع المرسلين توجهوا إلى الله الغني وعبدوه وحده دون سواه، وتوجه المشركون إلى غير الله طمعا في سد فقرهم وقضاء حاجتهم، ومن ثم كان توحيد العبادة لله ﷻ محور الخصومة بين الرسل وأممهم، فالأنبياء يدعونهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، وهم يصرون على الشرك وعبادة ما سواه، ومن هنا كانت العبادة المقبولة في الإسلام لها شرطان أساسيان يحققان معنى شهادة التوحيد:

١- الشرط الأول: الإخلاص الذي هو معني الركن الأول من الشهادة، شهادة ألا إله إلا الله. قال تعالى:﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ البينة:٥.

وقد روى مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال عن رب العزة: (أَنَا أَغْنَي الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِل عَمَلا أَشْرَكَ فِيهِ

---

(١) رواه البخاري في كتاب اللباس، باب إرداف الرجل خلف الرجل ٥/٢٢٢٤ (٥٦٢٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا ١/٥٨ (٣٠). وآخرة الرحل هي العودة التي يستند إليها الراكب من خلفه، وهو مبالغة في شدة قربه منه.

مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)[١].

وفي رواية: (فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ للذي أَشْرَكَ)[٢]. فالإخلاص لله شرط في قبول العمل، ولا يقبل عمل بغيره، وبغير التوكل على الله وحده في إتمامه، ولا يشعر المؤمن بلذة عبادته إلا بإياك نعبد وإياك نستعين، فمن وجد حقيقة الإخلاص، والتوكل على الله، والالتجاء إليه، والاستعانة به، وقطع التعلق بما سواه، وجرب من نفسه أنه إذا تعلق بالمخلوقين، ورجاهم وطمع فيهم، أن يجلبوا له منفعة أو يدفعوا عنه مضره، فإنه يخذل من جهتهم ولا يحصل مقصوده.

بل قد يبذل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما يرجو أن ينفعوه وقت حاجته إليهم فلا ينفعونه، إما لعجزهم وإما لانصراف قلوبهم عنه، وإذا توجه إلى الله ﷻ بصدق الافتقار إليه واستغاث به مخلصا له الدين أجاب دعاءه، وأزال ضرره، وفتح له أبواب الرحمة، فمثل هذا قد ذاق من حقيقة التوكل والدعاء لله ﷻ ما لم يذق غيره، وكذلك من ذاق طعم إخلاص الدين لله وإرادة وجهه دون ما سواه يجد من الأحوال والنتائج والفوائد ما لا يجده من لم يكن كذلك.

بل من اتبع هواه في مثل طلب الرئاسة والعلو وتعلقه بالصور

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله ٤/٢٢٨٩ (٢٩٨٥).

(٢) رواه ابن ماجة في كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة ٢/١٤٠٥ (٤٢٠٢)، وأحمد في المسند ٢/٣٠١ (٧٩٨٦) وصححه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/٨ (٣٤)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

الجميلة، أو جمعه للمال يجد في أثناء ذلك من الهموم والغموم والأحزان والآلام وضيق الصدر ما لا يعبر عنه، وربما لا يطاوعه قلبه على ترك الهوى، ولا يحصل له ما يسره، بل هو في خوف وحزن دائما، إن كان طالبا لما يهواه فهو قبل إدراكه حزين متألم حيث لم يحصل، فإذا أدركه كان خائفا من زواله وفراقه، وأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فإذا ذاق حلاوة الإخلاص لله ﷻ والعبادة له، وحلاوة ذكره ومناجاته، وفهم كتابه، وأسلم وجهه لله وهو محسن، بحيث يكون عمله صالحا ويكون لوجه الله خالصا، فإنه يجد من السرور واللذة والفرح ما هو أعظم مما يجده الداعي المتوكل الذي نال بدعائه وتوكله ما ينفعه من الدنيا، أو اندفع عنه ما يضره، فإن حلاوة ذلك هي بحسب ما حصل له من توجه إلى الله ﷻ بصدق الافتقار إليه، واستغاث به مخلصا له الدين أجاب دعاءه، وأزال ضرره، وفتح له أبواب الرحمة، فمثل هذا قد ذاق من حقيقة التوكل والدعاء لله ﷻ ما لم يذق غيره.

وكذلك من ذاق طعم إخلاص الدين لله، وإرادة وجهه دون ما سواه، يجد من الأحوال والنتائج والفوائد ما لا يجده من لم يكن كذلك. فلا أنفع للقلب من التوحيد وإخلاص الدين لله، ولا أضر عليه من الإشراك فإذا وجد حقيقة الإخلاص التي هي حقيقة إياك نعبد مع حقيقة التوكل التي هي حقيقة إياك نستعين كان هذا فوق ما يجده كل أحد لم يجد مثل هذا.

٢- الشرط الثاني: المتابعة لرسول الله ﷺ، والتي هي معنى الركن الثاني من الشهادة، وهي شهادة أن محمدا رسول الله، وقد بينه النبي ﷺ

في حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها حيث قال: (مَنْ عَمِلَ عَمَلا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ) [١]. وفي رواية أخري: (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ) [٢].

والله تعالى إنما يعبد بما شرع، ولا يعبد بالبدع، قال الله تعالى:﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾الشورى:٢١. إن الله ﷻ لم يأمر عباده أن يعبدوه بأهوائهم، أو بغير ما شرع، بل أمر أن لا يعبدوه إلا بمتابعة نبيه ﷺ.

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ النساء:٦٥.

وقال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ النساء:٦٩.

وقال سبحانه تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾ النساء:٨٠.

ومن ثم فإن السالك طريق الزهد والعبادة، إذا كان متبعا للشريعة

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ٣/١٣٤٣ (١٧١٨).

(٢) هذا اللفظ عند مسلم في كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور ٣/١٣٤٣ (١٧١٨)، والحديث أيضا عند البخاري في كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ٢/٩٥٩ (٢٥٥٠) بلفظ: من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد.

في الظاهر وقصد الرياء والسمعة وتعظيم الناس له كان عمله باطلا لا إخلاص فيه ولا يقبله الله ﷻ، وإن كان خالصا في نيته لكنه يتعبد بغير العبادات المشروعة مثل الذي يصمت دائما، أو يقوم في الشمس، أو على السطح دائما، أو يتعرى من الثياب دائما، أو يلازم لبس الصوف، أو لبس الليف ونحوه، أو يغطي وجهه باللثام دائما، أو يمتنع من أكل الخبز أو اللحم، أو شرب الماء ونحو ذلك، كانت هذه العبادات باطلة ومردودة، وليست على هدي النبي ﷺ، ومن رغب عن سنته فليس منه.

والله ﷻ إنما تعبد المسلم بطاعته وطاعة رسوله، فلا عبادة إلا ما هو واجب أو مستحب في دين الله، وما سوى ذلك فضلال عن سبيله، وفي حديث العرباض بن سارية ﷺ الذي رواه أصحاب السنن وصححه الترمذي أن النبي ﷺ قال: (إنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة) [(١)].

والنفوس أحوج إلى معرفة ما جاء به النبي ﷺ واتباعه منها إلى الطعام والشراب، فإن هذا إذا فات حصل الموت في الدنيا، وذاك إذا مات حصل العذاب، فحق على كل أحد بذل جهده واستطاعته في

---

(١) رواه أبو داود في كتاب السنة، باب في لزوم السنة ٤/٢٠٠ (٤٦٠٧)، وأحمد في المسند ٤/١٢٦ (١٧١٨٤)، والترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في الاخذ بالسنة واجتناب البدع ٥/٤٤ (٢٦٧٦)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٢٧٣٥)، وإرواء الغليل (٢٤٥٥).

معرفة ما جاء به وطاعته، إذ هذا طريق النجاة من العذاب الأليم والسعادة في دار النعيم، والطريق إلى ذلك الرواية والنقل، إذ لا يكفي من ذلك مجرد العقل، بل كما أن نور العين لا يرى إلا مع ظهور نور أمامه، فكذلك نور العقل لا يهتدي إلا إذا طلعت عليه شمس الرسالة، ولهذا كان تبليغ الدين من أعظم فرائض الإسلام، وكان معرفة ما أمر الله به رسوله ﷺ واجبا على جميع الأنام.

ومن ثم فإنه لا بد من إخلاص الدين لله تعالى حتى لا يكون في القلب تأله لغيره، فمتى كان في القلب تأله لغير الله ﷻ فذاك شرك يقدح في تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، ولا بد من الشهادة بأن محمدا رسول الله، وذلك يتضمن تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته فيما أمر به، ومن الآيات الجامعة لهذين الشرطين قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ الكهف:١١٠.

• العابدون أدنى أنواع السالكين عند أوائل الصوفية.

يقسم أوائل الصوفية أنواع السالكين إلى ثلاثة أنواع، عابدين ومريدين وعارفين، وقد ارتبط هذا التقسيم بالمراحل الفكرية المختلفة التي مر بها التصوف ولا زال حتى عصرنا، فهم ثلاثة أنواع:

النوع الأول: العابدون وهم الزاهدون في الدنيا المعرضون عن زخرفها وجاهها، المقبلون على الله ﷻ بقلوبهم، قد أحكموا أركان الإسلام وحفظوا الحدود، وتمسكوا بالسنن، وبحثوا في أنواع الطاعات

والآداب والعبادات والأخلاق الشريفة، والأحوال المرضية، وطالبوا أنفسهم بمتابعة رسول الله ﷺ والأسوة به، واقتفاء أثره، بما بلغهم من آدابه وأخلاقه، وأفعاله، وأحواله فعظموا ما عظم، وصغروا ما صغر، وقللوا ما قلل، وكثروا ما كثر، وكرهوا ما كره، واختاروا ما اختار، وتركوا ما ترك، وصبروا على ما صبر، وعادوا من عادى، ووالوا من والى، وفضلوا من فضل، ورغبوا فيما رغب وحذروا مما حذر.

وعالجوا أمورهم في التوبة والمراقبة، والتقوى والمجاهدة، والخوف والرجاء، والتوكل والشكر، واليقين والصبر، وترك الشهوة والحزن والخشوع، والقناعة والتواضع والخضوع، والإخلاص والمراقبة والصدق والفقر، والجود والسخاء، والحياء والذكر، والمحبة والإرادة والتوحيد والاستقامة، والرضا والدعاء، والمداراة والغيرة، وآداب السفر، والموقف من الموت، ومخالفة هوى النفس وإصلاح عيوبها، وترك الحسد والغيبة، والنميمة والتباغض، واحتمال الأذى، والتجاوز والعفو، ومقابلة السيئة بالحسنة، والبشر وطلاقة الوجه، والإنفاق من غير إقتار، وغير ذلك من السلوكيات الحميدة [١].

أو إن شئت قل في العابد هو كل متلمس لأخلاق القرآن، وما ورد في سنة النبي ﷺ من أحكام الإيمان، بحيث يكون واقعا لما رسمته مصطلحات القرآن التي كان يفهمها الصحابة ﷺ ويعملون بها،

(١) انظر بتصرف الحياة الروحية في الإسلام للدكتور مصطفي حلمي ص١٥، اللمع في التصوف لأبي نصر السراج الطوسي ص١٣٢، ص١٣٣، وعوارف المعارف لعبد القادر السهروردي ص٢٩٩، طبعة بيروت ١٩٦٦م.

فالتقوى عند العابد هي ما ورد به النقل من حفظ النفس عما يؤثم، وذلك بترك المحذور، وفعل المأمور، والمتقي هو الذي يجعل طاعته لله وامتثاله لأوامره وقاية له من عذابه، ويتم ذلك أيضا بترك بعض المباحات المشتبهات حتى لا يقع في الحرام.

ومن أمثلة ما نقل عن بعض العابدين ما ينسب لأحمد بن عطاء الآدمي (ت:٣١١هـ): (للتقوى ظاهر وباطن، فظاهرها محافظة الحدود، وباطنها النية والإخلاص) [١].

وروي عن أبي الحسن الوراق النيسابوري (ت:٣٢٠هـ) أنه قال: (أجل شيء يفتح الله تعالى به على عبده التقوى، فإن منها تتشعب جميع الخيرات، وأسباب القرب والتقرب، وأصل التقوى الإخلاص وحقيقتها التخلي عن كل شيء إلا ممن إليه تقواك) [٢].

ولأبي القاسم النصرباذي (ت:٣٦٧هـ) أيضا في التبصير بمعنى التقوى عند العابدين: (من لزم التقوى اشتاق إلى مفارقة الدنيا، لأن الله يقول: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢)﴾ الأنعام:٣٢) [٣].

وقال السراج الطوسي (ت:٣٨٧هـ) في بيان ما حث الله تعالى عباده من حقيقة التقوى: (معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ آل عمران:١٠٢. راجع إلى قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٠٨.
(٢) طبقات الصوفية ص٣٠٠.
(٣) الرسالة القشيرية ١/٣٠٧.

﴿وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ التغابن:١٦) [1].

وقال أبو القاسم عبد الكريم القشيري (ت:٤٦٥هـ): (أصل التقوى، اتقاء الشرك، ثم بعده اتقاء المعاصي والسيئات، ثم بعده اتقاء الشبهات، ثم يدع بعده الفضلات) [2].

ومن سمع العابد يتكلم في الذكر، فإنه يعني به ما ورد في القرآن والسنة من حضور الشيء في القلب، وتذكره وذكره وفق ما ورد في سنة النبي ﷺ، وهو عند العابدين ركن قوي في طريق العبودية، والوصول إلى مرضاة الحق ومحبته، بل هو عمدة الأمر، وعلامة من علامات الحب، بل ما من وقت من الأوقات إلا والعابد مأمور بذكر الله، إما فرضا وإما ندبا.

- المريدون من أنواع السالكين هم المتوسطون عند الصوفية.

النوع الثاني من السالكين عند الصوفية هم المريدون، وهم الذين جعلوا النفس سجينة في البدن، ولا مراد لهم إلا محبة ربهم، فمن ادعى العبودية منهم، وله مراد باق فيها فهو كاذب في دعواه، فلا يريد في محبته عوضا من الدنيا أو من الآخرة، لا يريد جنة ولا خوفا من النار، بل يمارس الرقابة على نفسه طالبا محبة الله وقربه، فلا مناص من المراقبة بلا هوادة في النظر والسمع والقول والحركة والفعل، والعمل على

---

(١) اللمع في التصوف لأبي نصر السراج الطوسي ص١٢٢.
(٢) الرسالة القشيرية ١/٣٠٦.

الانتصار على النفس في تحطيم مراداتها وتعلقها بطلب العوض في العمل حتى لو كان العوض دخول الجنة.

وهؤلاء يظنون أن طلب الجنة مراد النفس، ولا بد للمرء من إغلاق الأبواب على ذاته وتركيز اهتماماته في تنفيذ مراد محبوبه ابتغاءً للمحبة المجردة من أي مراد له.

ولم يعد طريق السالكين لدى المريد مجرد التزام بالأمر أو الانتهاء عند الزجر، بل أصبح طريق السالكين مقامات متتالية رسمت خطوات الطريق للمريدين وتدرجهم في منازل السائرين، وترتيب المقامات والأحوال عند المتحققين، فلم تعد قضية الاكتفاء بممارسة الطاعة العملية لإبراز الوجهة الحقيقية لتوحيد العبودية، بل تطور الأمر عند المريدين إلى ما هو أعلى من مجرد الزهد في الدنيا، وترك المألوفات والمستحسنات، فأصبح أمرهم نتاجا فكريا مرتبا على ما رآه ومر به في طور العابدين الزاهدين حتى انتقل إلى طور المحبين المتجردين للمحبة، وأطلقوا عليه مقامات السائرين وأحوال المتحققين.

وقد بدا عند المريد ملمح جديد لم يظهر لدى العابدين من قبل، وهو ابتعاد المريد عند سلوكه طريق المحبة عن إلحاحه في طلب الجنة باعتبارها الجزاء الأوفى الذي كانت تتجه إليه مجاهدات العابدين، وانصرف تركيزه على إرادته محبة الذات العلية، وأنها عنده غاية الغايات الأبدية.

قال أبو يزيد البسطامي: (إن الله تعالى أمر العباد ونهاهم فأطاعوه، فخلع عليهم خلعة من خلعة، فاشتغلوا بالخلع عنه، وإني لا أريد من الله

إلا الله) [١].

وهو يقصد أنهم اشتغلوا بالتفكير في الجنة التي أعطاهم الله إياها وتركوا ذكره هو، وأنه مشغل بربه عنها، وليس لديه وقت أو حتى مجرد لحظة ينصرف فيها ذهنه إلى التفكير في الجنة ونعيمها. قال البسطامي: (الجنة لا خطر لها عند المحبين، وأهل المحبة محجوبون بمحبتهم، وإن لله خواصا من عباده، لو حجبهم في الجنة عن رؤيته لاستغاثوا بالخروج من الجنة، كما يستغيث أهل النار بالخروج من النار) [٢] .

ويشاركه أبو بكر الشبلي (ت:٣٣٤هـ) ويصرح بأنه لا يخاف من النار، ولا تمثل عنده شيئا يلتفت إليه فقال: (إن لله عبادا لو بزقوا على جهنم لأطفئوها) [٣]. وقال أيضا: (لو خطر ببالي أن الجحيم بنيرانها وسعيرها تحرق مني شعره، لكنت مشركا) [٤].

ولما سمع قارئا يقرأ قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ المؤمنون:١٠٨. قال: ليتني كنت منهم [٥].

ومن ثم فإن الأمور لم تعد تعالج عند المريدين من خلال النظرة إلى طبيعتها المألوفة التي اعتاد عليها العابدون كما فعل الصحابة ﷺ والتابعون وعامة سلف الأمة، فقد كان من سبق منهم يغمره إحساس

(١) طبقات الصوفية ص٧٠.
(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ٣٤/١٠ نشر دار الكتاب العربي بيروت.
(٣) اللمع في التصوف لأبي نصر السراج الطوسي ص٤٩٠.
(٤) السابق ص٤٩١.
(٥) السابق ص٤٩١ .

بالخوف من عذاب الحريق الذي يصعق سمعه عندما يتلى عليه قول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ المعارج:١٥/١٨. حيث يضطرب إشفاقا على نفسه من ذنبه الذي أحاط به، ذلك لم يعد نافعا أو ذا جدوى عند هؤلاء المريدين. فهناك بعد جديد يظهر حسب زعمهم عبر الاتصال بالذات الإلهية دون النظر إلى مسألة الحساب، أو الترغيب في الثواب، أو الترهيب من العقاب كأساس قامت عليها الشرائع، ونزل من أجلها الوحي، فالغاية عندهم هي الحرص على الوصول إلى رب الجنة، وليس إلى الجنة، والخوف من إعراض رب النار، وليس من حريقها، هاتان الغايتان مرتبتان أعلى عند هؤلاء من مرتبة التجارة، أو مرتبة العامة من العابدين التي كان ينظر بها للعلاقة بين العبد وربه [1].

وهنا تغيرت النظرة إلى ألفاظ القرآن والسنة، فالمريد حين يتحدث عن التقوى فإن المعاني تختلف عن حديث العابدين، بل تنتقل من دلالة قرآنية ونبوية عامة تتناول سائر الناس إلى دلالة تفرق بين العامة والخاصة وخاصة الخاصة، وأنواع أخرى متزايدة، وتتسع لتشمل إطارات مركبة وحدود مفصلة، فمعنى التقوى عند المريدين تعددت درجاته وتباينت أنواعه، فهناك تقوى العوام وهي التي تقدمت في وصف تقوى العابدين، وتتمثل في طاعة العبد لربه فيما أمر ونهي. وتقوى الخواص وهي موافقة العبد لربه فيما قدر وقضى، فالكل محبوب له.

ومصطلح الذكر تحول عند المريدين من لفظ ورد في القرآن والسنة

(١) انظر بتصرف التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي ص١٦١: ١٨٤.

بمعني تذكر القلب بلا نسيان، ثم ذكره وترديده على اللسان وسائر الأركان، كما كان في ذكر العابدين إلى ذكر المريدين وهو من تلقين شيوخ الطريق العارفين يلقنونه للمريد ليغيب بترديده عن كل مراد سوى المحبوب، وينشغل عن كل خاطر سوى المطلوب، لا ينشغل بطلب جنة أو نار، ولا يكون لديه وقت لمثل هذه الأفكار.

• **العارفون أرقى أنواع السالكين عند الصوفية.**

وهم أصحاب الفناء الذين قطعوا الطريق واجتازوا المضيق، قال رويم: رياء العارفين أفضل من أخلاص المريدين[١].

وانتقل الواحد منهم من مجرد عابد سالك، أو متوكل مريد يجعل كده وجهده في مزيد من التأسي والمجاهدة، ثم المعاملة على المحبة فردا لفرد بلا عوض إلى عارف يتجاوز الإحساس بالعبادة والإرادة، فيفني عن نفسه وإحساسه للبقاء في المشاهدة، ويذهب القلب عن مشاهدة المشاهدة، ثم يذهب عن ذهابه، والذهاب عن الذهاب، يتواصل بلا نهاية، ومن ثم يتحول الفناء عن الحواس إلى فقدان الإحساس ويصبح الصوفي فاقدا لوعيه فقدانا تاما [٢].

والمعرفة عند الصوفية توجب غيبة العبد عن نفسه، لاستيلاء ذكر الحق سبحانه عليه، فلا يشهد غير الله ﷻ [٣]. وقال أبو يزيد: للخلق

(١) الرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري ١/٢٤٣.

(٢) الصوفية في الإسلام لنيكلسون ص١٣٩، وانظر اللمع في التصوف لأبي نصر السراج الطوسي ص٤٢٣.

(٣) الرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري ١/٣٤٣.

أحوال، ولا حال للعارف؛ لأنه محيت رسومه، وفنيت هويته بهوية غيره، وغيبت آثاره بآثار غيره [١].

وقال أبو بكر الواسطي: (لا تصح المعرفة وفي العبد استغناء بالله وافتقار إليه)[٢].

وسبب ذلك عنده أن الافتقار والاستغناء من أمارات صحو العبد وبقاء رسومه لأنهما من صفاته، والعارف محو في معرفته، فكيف يصح له ذلك، وهو لاستهلاكه في وجوده، أو لاستغراقه في شهوده، إن لم يبلغ الوجود مختطف عن إحساسه بكل وصف هو له [٣].

وقال رويم بن أحمد البغدادي: المعرفة للعارف مرآة إذا نظر فيها تجلى له مولاه[٤]. وسئل بن يزدانيار: متى يشهد العارف الحقَّ سبحانه؟ فقال: (إذا بدا الشاهد، وفني الشواهد وذهب الحواس واضمحل الإخلاص)[٥].

وقال أبو يعقوب النهرجوري: قلت لأبي يعقوب السوسي هل يتأسف العارف على شيء غير الله ﷻ؟ فقال: وهل يرى غيره فيتأسف عليه؟! قلت: فبأي عين ينظر إلى الأشياء؟ فقال: بعين الفناء والزوال [٦].

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٤٣.
(٢) الرسالة ١/٣٤٣.
(٣) السابق ١/٣٤٣.
(٤) الرسالة القشيرية ١/٣٤٤.
(٥) السابق ١/٣٤٤.
(٦) السابق ١/٣٤٥.

وقال أبو يزيد: العارف طيار، والزاهد سيار[١]. وسئل أبو يزيد عن العارف، فقال: لا يرى في نومه غير الله، ولا في يقظته غير الله، ولا يطالع غير الله تعالى [٢]. وقال أبو علي الدقاق: العارف مستهلك في بحار التحقيق؛ كما قال قائلهم: المعرفة ول أمواج تغطّ. ترفع وتحط[٣].

هذا وصف العارف عندهم لا يتوقف عند حدود مراسم العابدين والمريدين وقطع مدارج السالكين في مقاماتهم وأحوالهم، فالزهد والعبادة، ولبس المرقعات، والإقبال على السياحة، وترك لذائذ الحياة العاجلة للوصول إلى المحبوب غير كاف للعارف. قال أبو يزيد البسطامي: (طلقت الدنيا ثلاثا ثلاثا، بتاتا لا رجعة فيها، وصرت إلى ربي وحدي، فناديته بالاستغاثة إلهي أدعوك دعاء من لم يبق له غيرك، فلما عرف صدق الدعاء من قلبي، والإياس من نفسي، كان أول ما ورد على من إجابة هذا الدعاء أن أنساني نفسي بالكلية، ونصب الخلائق بين يدي مع إعراضي عنهم) [٤].

ويعبر أبو يزيد عن حال فنائه واتحاده بمحبوبه فينطق بشطحات الصوفية وضلالاتهم المعروفة عنهم، ويقول عن نفسه: (إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني) [٥]. وقال: (سبحاني ما أعظم شأني)[٦]. وقال:

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٣٤٥.
(٢) السابق ١/٣٤٦.
(٣) السابق ١/٣٤٦.
(٤) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ١٠/٣٦.
(٥) تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار ١/١٣٧.
(٦) السابق ١/١٦٠.

(خرجت من بايزيديتي كما تخرج الحية من جلدها، ونظرت فإذا العاشق والمعشوق والعشق واحد، لأن الكل واحد في عالم التوحيد[1].

وسئل ما هو العرش ؟ فأجاب: أنا هو، وما هو الكرسي؟ فأجاب: أنا هو، وما هو اللوح والقلم ؟ فأجاب: أنا هو[2] .

• طريق السلوك الصوفي للعابدين والمريدين والعارفين.

رسم الصوفية طريقا للعابدين الزاهدين ينتهي ببداية طريق المريدين المحبين، ويبدأ طريق العارفين المحققين عندما ينتهي طريق المريدين، فبداية طريق العابدين اجتياز المقامات وهي عندهم تبدأ بالتوبة ثم الورع يعقبه الزهد ثم الصبر ثم التوكل ثم الرضا، وينتهي الطريق بالحرية، فالحرية عندهم آخر مقامات العابدين، وهي تعني بلوغ الصوفي تمام العبودية، روى عن أحمد بن خضرويه (ت:٢٤٠هـ) أنه قال: (في الحرية تمام العبودية، وفي تحقيق العبودية تمام الحرية) [3] .

وإذا وصل العابدون إلى الحرية أصبحوا مريدين يجنون ثمار الزهد والمجاهدة التي بذلوها حتى وصلوا إلى الحرية، أو الدرجة الرفيعة في مقام العبودية، فأول ثمار الحرية التي ينالها المريد أن يسلك طريق الحب الإلهي، وهذا الطريق رسموا له بداية ونهاية، فالبداية تكون بالخوف والرجاء، يعقبها القبض والبسط، ثم الهيبة والأنس، ثم التواجد والوجد

---

(١) السابق ١/١٦٠.

(٢) السابق ١/١٧١.

(٣) اللمع في التصوف للسراج الطوسي ص٤٤٨، وطبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ص١٠٤.

والوجود، ثم ينتهي عندهم ببداية طريق الفناء الصوفي الذي يسلكه العارفون المحققون على زعمهم. فالطريق الثالث بدايته عند نهاية طريق المريدين المحبين، وفيه يتقلب الصوفي بين ممارسة الفناء والبقاء، ثم الجمع والفرق، ثم الغيبة والحضور، ثم المحو والإثبات، ثم التلوين والتمكين، حتى يصل إلى التحقق بالفناء عن شهود السِّوَى، وهو الحقل الذي ينبت فيه الحلول والاتحاد، فإذا وصل إلى التحقق وصل إلى الكمال في جني المحصول الصوفي، وهو ما يسمي بلوغ الصوفي درجة الحقيقة التي تقابل الشريعة في عرفهم [(١)].

وهي الدرجة التي عبر عنها الشيخ الهروي بقوله:

ما وحد الواحد من واحد ... إذ كل من وحده جاحد
توحيد من ينطق عن نعته ... عارية أبطلها الواحد
توحيده إياه توحيده ... ونعت من ينعته لاحد

ويشرح ابن القيم مراده بقوله: (قوله: ما وحد الواحد من واحد. يعني ما وحد الله ﷻ أحد سواه، وكل من وحد الله فهو جاحد لحقيقة توحيده، فإن توحيده يتضمن شهود ذات الواحد وانفراده، وتلك إثنينية ظاهرة، بخلاف توحيده لنفسه، فإنه يكون هو الموحد والموحد، والتوحيد صفته، وكلامه القائم به، فما ثم غير، فلا إثنينية ولا تعدد. وأيضا فمن وحده من الخلق فلا بد أن يصفه بصفة، وذلك يتضمن جحد حقه الذي هو عدم انحصاره تحت الأوصاف، فمن وصفه فقد

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب الإمام القشيري سيرته آثاره مذهبه في التصوف د.إبراهيم بسيوني، مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧٢م، ص٢٣٠: ص٣٠٠.

جحد إطلاقه عن قيود الصفات. وقوله: توحيد من ينطق عن نعته عارية أبطلها الواحد. يعني توحيد الناطقين عنه عارية أبطلها الواحد، يعني عارية مردودة، كما تسترد العواري. إشارة إلى أن توحيدهم عارية لا ملك لهم، بل الحق أعارهم إياه، كما يعير المعير متاعه لغيره ينتفع به، ويكون ملكا للمعير لا للمستعير. وقوله: أبطلها الواحد. أي الواحد المطلق من كل الوجوه، وحدته تبطل هذه العارية وتردها إلى مالكها الحق. فإن الوحدة المطلقة من جميع الوجوه تنافي ملك الغير لشيء من الأشياء، بل المالك لتلك العارية، هو الواحد فقط. فلذلك أبطلت الوحدة هذه العارية. وقوله: توحيده إياه توحيده. أي توحيده الحقيقي هو توحيده لنفسه بنفسه من غير أثر للسِّوَى بوجه، بل لا سوَى هناك. وقوله: ونعت من ينعته لاحد. أي نعت الناعت له إلحاد، وهو عدول عما يستحقه من كمال التوحيد، فإنه أسند إلى نزاهة الحق مالا يليق به إسناده، فإن عين الأولية تأبى نطق الحدث. ومحض التوحيد يأبى أن يكون للسوي أثر ألبتة) [1].

وكلام الهروي هنا كلام باطل يثبت فيه طلاقة القدرة وتوحيد الربوبية، وينفي حقيقة الأسباب المظهرة للحكمة وتوحيد العبودية وقد أبطلا كلامه شيخ الإسلام ابن تيمية وشبهه بكلام النصارى في حلول اللاهوت بالناسوت، وسيأتي مزيد بيان لهذا إن شاء الله.

غير أن ما يعنينا الآن أن معني الفناء الصوفي تطور فأصبح بمعني التجريد العقلي، وعدم الالتفات إلى المدركات والأفكار والأفعال

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ٣/٥١٤.

والأحاسيس، وذلك بانحصاره في التفكير في الله. فناء بمعني إبطال قوى الفكر الواعي حتى لا يدرك في الفناء الفناء، وهو ما يدعي بفناء الفناء كخطوة نهائية لحلول الله في الذات الصوفية. فأتت طريقة العرافين على صفاء المفاهيم وأصالة المعاني القرآنية فزلزلت استقرارها، وحولت المفاهيم إلى أوضاع معكوسة، لكل ما تعارف عليه الناس واصطلحوا عليه فالتقوى لم تعد هي التقوى، فلو مارس العبد تقواه، لم يوحد الله في أعين هؤلاء، لأنه أثبت الغير، والذكر لم يعد هو الذكر، لأن الذاكر هو الله، ولا أثر لسواه البتة حتى يذكره.

وقد أطلق الصوفية تسميات خاصة على المعرفة التي يتوصلون إلى الفناء فيها في تصوفهم فعرفوها بعلم الحقيقة، وعلم الباطن، وعلم الوراثة، وعلم الدراية في مقابل علم الظاهر وعلم الشريعة وعلم الدراسة وعلم الرواية [(١)].

وأصبحت كلمة طريقة عند الصوفية تمثل منهجا منظما يشير إلى مجموعة الآداب والأخلاق والسلوك التي يتمسك بها العابدون الزاهدون والمريدون المحبون والعارفون المتحققون من الصوفية. يروى عن أبي على الدقاق أنه قال: (الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق، لكن لا تثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفسا فنفسا، فهو عابد هواه لا يجد نفاذا) [(٢)].

---

(١) انظر مدخل إلى التصوف الإسلامي، د. أبو الوفا التفتازاني ص٩٥ بتصرف.
(٢) الرسالة القشيرية ٢/٧٣٥.

• **المقامات الصوفية ووصف طريق العابدين الزاهدين.**

ارتبط اصطلاح المقامات عند الصوفية بالبدايات التي يسلكها العابدون والزاهدون في أول الطريق، كما ارتبط اصطلاح الأحوال بالمؤثرات التي تظهر على المريدين والعارفين في منازل السائرين إلى الحقيقة الصوفية، فالمقام من الإقامة، وهو عندهم عمل كسبي يقوم به العابد، ويلتزم به، ولا يتجاوزه إلى مقام آخر إلا إذا استوفى شروط إقامته به (١).

ويستمر العابد في انتقاله بين منازل السائرين كلما انتقل إلى منزل جديد علت عبوديته وازدادت حريته من الأغيار، وقلت قيوده إلى أن يصل إلى آخر مقام له وهو مقام الحرية من الأغيار. فانتقاله بين هذه الدرجات يكون بقدر المجاهدة، وبذل الهمة في الترقي إلى أعلى مقام ممكن للوصول إلى درجة المريدين المحبين.

أما الأحوال الصوفية فهي عندهم ثمرة للجهد الكسبي المبذول في المقامات، وهي لوائح تحل بالقلب وسرعان ما تزول. قال الجرجاني: (الحال عند أهل الحق - ويقصد بهم الصوفية- معني يرد على القلب من غير تصنع ولا اجتلاب ولا اكتساب من طرب أو حزن أو قبض أو بسط أو هيبة، ويزول بظهور صفات النفس، فإذا دام وصار ملكة يسمي مقاما، فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب، والأحوال تأتي من عين الجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود) (٢).

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٢٠٤.

(٢) التعريفات لعلي بن محمد بن على الجرجاني ١/١١٠.

ويمكن وصف طريق العابدين الزاهدين في مجاهداتهم والانتقال في مقاماتهم بصورة تقريبية على النحو التالي:

المقام الأول مقام التوبة: وهي أول منازل الطريق عندهم، وأول مقام من مقامات الطالبين في تعبير القشيري[1]. وأول مقام من مقامات المنقطعين إلى الله في تعبير السراج الطوسي[2].

قال القشيري: (أول التوبة انتباه القلب عن رقدة الغفلة ورؤية العبد ما هو عليه من سوء الحال، أما التوبة فبدايتها الحقيقية الندم، وترك الزلة في الحال، والعزم على ألا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصي) [3].

وقال السراج الطوسي: (شتان بين تائب وتائب، فتائب يتوب عن الذنوب والسيئات، وتائب يتوب من الزلل والغفلات، وتائب يتوب من رؤية الحسنات والطاعات) [4].

المقام الثاني مقام الورع: لما كانت التوبة مفتاح باب المقامات التي يسلكها العابد عند الصوفية، فإنه ينتقل إلى المقام الذي يليه إذا استوفى مقام التوبة ووصل إلى نهاية الطريق فيه، وهو مقام الورع. قال السراج الطوسي: (والتوبة تقتضي الورع) [5].

والورع عندهم مقام بين التوبة والزهد، فبعد أن سلم المرء نفسه لله

---

(١) الرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري ١/١٢٦.
(٢) اللمع في التصوف للسراج الطوسي ص٦٨.
(٣) الرسالة ١/١٢٧.
(٤) اللمع ص ٦٩.
(٥) اللمع ص٧٠، وانظر الصدق لأبي سعيد الخراز ص٢٩.

بالتوبة الصادقة والأسى على ماض ضاع منه في معصية الله يعزم عزما أكيدا على تجنب ما حرم الله، والتمسك بما أحل وأباح وبعدئذ يرتقي درجة إيمانية أخرى وهي أن يعتاد قياس الحلال والحرام بمقاييس فيها شدة وقوة، فليس كل الحلال في نظر الورع سواء، فهناك حلال لا يعصي الله فيه، وحلال لا ينسي الله فيه، وهناك حلال بين، وحلال فيه اشتباه، وينبغي على العبد أن يتورع عن كل ما فيه دخن [1].

والورع درجات في موطنه يقسمها السراج الطوسي إلى ثلاث مراحل ذاتية يقطعها العابد لينتقل من مقام التوبة إلى المقام الذي يليه وهو مقام الزهد.

المقام الثالث مقام الزهد: وهو مقام ضمن ما رسموه للعابدين يعقب الورع لأن الورع عندهم يقتضي الزهد[2]. والزهد هو أشهر المقامات الصوفية لأنه يتوسطها، فهو عندهم بمثابة المرحلة الوسط في طريق العبودية، فكل ما سبقه من تيقظ وتوبة وورع يجعل العبد طموحا في التخلي عن متع الدنيا، والتقليل من طيبها رغبة في تصفية النفس، وكل ما يتلوه من صبر وتوكل ورضا هي بمثابة الضمانات التي تحفظ هذه النتيجة. ومقام الزهد مقترن بالنظرة إلى الدنيا، فهي ليست سوى بلاء، الاشتغال به يبعد عن الله، والتحرر منه وسيلة إلى التقرب من الله والتفرغ لعبادته، فلا قيمة للدنيا في الحقيقة ولذا وجب الزهد فيها [3].

---

(١) الرسالة ١/٢٨٧ بتصرف.

(٢) اللمع في التصوف للسراج الطوسي ص ٧١.

(٣) أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبي د.عبد الحليم محمود ص٢٩٣.

وإذا كان رأي أغلب الأوائل من الصوفية في مسألة الزهد قريبا من معاني الزهد في الإسلام، فإن بعضهم جعل الزهد في صورة تبرز نوعا من الغلو والرهبانية التي لم تكتب علينا، فخلط بين الاستمتاع بنصيب من الدنيا لسد الضروريات، وبين التكالب عليها مما دفعهم إلى التنحي عنها وعن ضرورياتها بالكلية، فهذا أبو بكر الشبلي من أوائل الصوفية ربما يلبس الثياب المثمنة ثم ينزعها ويضعها فوق النار أو يأخذ السكر واللوز ويحرقهما بالنار [1].

وهذا أبو الحسين النوري يأخذ ثلاثمائة دينار ثمن عقار بيع له، ثم يصعد قنطرة ويرمي بها واحدا واحدا إلى الماء قائلا: حبيبي تريد أن تخدعني منك بمثل هذا [2].

وقد علمنا نهي النبي ﷺ عن الغلو والمسالك المتشددة من تعذيب بعض العابدين لأبدانهم وعزوفهم عن الزواج والنوم والطعام فنهاهم عن ذلك وحذرهم من البعد عن سنته. وأبسط نتائجه الغلو في الزهد أن يزبل العود وينحل الجسم وتضعف القوة، ويمد الإنسان يده بالسؤال ترده اللقمة واللقمتان، ونحن نري في عصرنا اجتماعا لمثل هذه النوعية حول المساجد والأضرحة، لا يعملون ولا يضربون في الأرض بالسعي على أرزاقهم ومعاشهم، متظاهرين بالتنسك والتعبد مدعين التزهد والتصوف حيث أصبحوا عالة على المجتمع.

---

(١) اللمع ص٤٨٣.

(٢) اللمع في التصوف للسراج الطوسي ص٤٩٣.

المقام الرابع مقام الصبر: إذا قطع العابد الصوفي عندهم مرحلة الزهد في رحلة العبودية انتقل إلى مقام الصبر، وأن يختبر مدى احتماله لمشقة الرحلة، فالرحلة قام بها الكثير، ولكن القليل هم الذين استمروا فيها، ووصلوا إلى منتهاها. والبلايا التي تلم بالعبد لا تقصد لذاتها ولكن لاختبار مدى القدرة على الاحتمال ولتجديد العزيمة وشحذ الهمة على مواصلة السير في طريق العبودية والتقوى. والصبر عندهم له درجات في موطنه فالصبر درجات يقطع الصوفي فيه أشواطا يلتزم فيها بالثبات والثقة مع الله وهو مقام صعب المنال سريع الزوال إلا على من ثبت الله قلبه تقوى. فإذا صبر وثبت قطع مرحلة أخرى في طريق العبودية ينتقل بعدها إلى تفويض الأمور لله.

المقام الخامس مقام التوكل: وهو الاستعانة بالله في الثبات على طريق العبودية، فيختار الله وكيلا له، ولن يكون هذا إلا بقطع التعلق بالدنيا والخلوص منها إلى الثقة التامة في كفيله ووكيله حيث يتولي الله أحواله ويصرفها على ما يشاء ويختار، وإذا تولي أمر عبد بجميل عنايته كفاه كل شغل وأغناه عن كل غير، فلا يستكثر العبد حوائجه لعلمه أن كافيه مولاه، ومن جعل الله عز وجل وكيله لزمه أن يكون وكيلا لله على نفسه في إقامة حقوقه وفرائضه وكل ما يلزمه فيخاصم نفسه في ذلك ليلا ونهارا لا يفتر لحظة ولا يقصر طرفه [1].

وفي هذا سأل رجل ذا النون المصري: ما التوكل؟ قال: خلع الأرباب

---

(١) الصدق لأبي سعيد الخراز ص٤٨ بتصرف.

وقطع الأسباب. فقال السائل: زدني؟ فقال: إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية [(١)]. ويعني أن التوكل ترك السكون إلى أسباب الدنيا ونفي الطمع من المخلوقين والإياس منهم لأنهم لا وصف لهم بالربوبية فالمنفرد بالخلق والتدبير هو الله. والتوكل عندهم درجات في موطنه يقطعها الصوفي بالمجاهدة ليصل إلى المقام الأعلى الذي يليه وهو مقام الرضا.

المقام السادس مقام الرضا: وهو يقع عند كثير من أوائل الصوفية بعد التوكل، فالعابد لما صدق مع الله فيما سبق ووقع بينه وبين الله التسليم والتفويض زالت عن قلبه التهم وسكن إلى حسن اختيار الله له، ونزل في حسن تدبيره وذاق طعم الوجود به، فامتلاء قلبه فرحا ونعما وسرورا، فغلب ذلك ألم المصائب والمكروه والبلوى.

ويصف القشيري المشاعر التي تحدث لصاحب الرضا بأنه يحصل له فوائد ولطائف لا تحصل لمن دونه من الحلاوة عند وجود المقصود وهو لا يجد الراحة في المنع فقط بل يشعر بزوائد الأنس ونسيان كل حاجة وحلاوة الطاعة تتصاغر عند حلول لذة الرضا حتى يؤخذ العبد عن جملته بالكلية وهذا عندهم عين التوحيد والعبودية [(٢)].

ويتضح جليا أن مقام الرضا ينهي سلسلة المقامات، فالرضا نهاية الجهود، وبذل المجهود من العابد ليصبح في بداية درجة الإرادة والمريدين

---

(١) الرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري ص٢٠٢ بتصرف.

(٢) الرسالة ١/٤٢٣ بتصرف.

وتبدأ رحلة جديدة من الأحوال.

• **الأحوال الصوفية ووصف طريق المريدين المحبين.**

مقامات الصوفية السابقة كانت بمثابة الإعداد الذي يهيئ العابد من خلال المجاهدات لكي تصح بدايته وتنصقل إرادته على زعمهم، وهذه المهمة تعد وصفا للمبتدئين والمريدين عند أوائل الصوفية، ولأبي مصر للسراج الطوسي عبارة يمكن أن تلخص تلك المرحلة حيث يوضح تدرج المبتدئ فيقول: (المبتدئ هو الذي يبتدئ بقوة العزم في سلوك طريق المنقطعين إلى الله ويتكلف لآداب ذلك، ويتأهب بالخدمة والقبول من الذي يعرف الحال الذي ابتدأ به وأشرف عليه من بدايته إلى نهايته والمريد هو الذي صح له الابتداء ودخل في جماعة جملة المنقطعين إلى الله تعالى وشهدت له قلوب الصادقين بصحة الإرادة) [(١)].

والمريد هو الذي دخل طريق الحب وأحواله، ويبدأ بعد تمام الرضا، أو قبيل أن يتم الرضا بوقت لأن بداية الرضا عندهم من المقامات ونهايته من الأحوال، فإذا اجتاز العابد منطقة الرضا أصبح من المريدين المحبين، وثبت حبه على أساس يلتقي فيه الصدق واليقين والتجرد عما سوى الله، وأصبح جديرا بأن تنهال عليه أحوال المحبين.

وكل حال يؤدي بالمريد إلى الابتلاء يعقبه حال من الرخاء وكشف البلاء، فبعد الهجر وصل، وبعد القبض بسط، وبعد الهيبة أنس، وبعد الخوف رجاء، وبعد الفقر وجد، وبعد البعد قرب، وهكذا

(١) اللمع في التصوف للسراج الطوسي ص ٤٧: ٤٨.

مجموعة من الثنائيات تتسمي بحسب التغيرات النفسية التي تعقبها وتتفاوت فيها المسميات، وتختلف فيها أنظار المريدين، فكل يعبر عن حاله وعن إحساسه وشعوره.

ويمكن أن نصل إلى ترتيب الأحوال عند أوائل الصوفية بصورة تقريبية على النحو التالي:

أولا الخوف والرجاء: ويعتبرهما القشيري من أحوال البداية أي من أحوال الدرجة الأولى في مجال الحب، إذ ما يزال المريد يخاف من العقوبة ويرجوا من الله المثوبة [١].

وقد كان الخوف والرجاء عند العابد كجناحي الطائر إذا استويا استوي الطائر وتم الطيران، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت [٢].

غير أن المريد منهم ينتقل من درجة إلى درجة أعلى في حال الحب، وعندها يأخذ الخوف والرجاء معان جديدة تتفق عندهم وهذا الانتقال. وفي ذلك يقول أبو بكر الواسطي: (إذا ظهر الحق على السرائر، لا يبقي فيها فضيلة لرجاء أو لخوف) [٣].

ثانيا القبض والبسط: وهما حالان بعد ترقي العبد عن حال الخوف والرجاء، ومن اجتهادهم في الفصل بين القبض والخوف والبسط

---

(١) الرسالة ١/١١٠ بتصرف.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١٦٩ بتصرف.

(٣) السابق ١/١٦٥.

والرجاء أن الخوف إنما يكون من شئ في المستقبل إما أن يخاف من فوت محبوب أو هجوم محذور وكذلك الرجاء إنما يكون بتأميل محبوب في المستقبل أو بتطلع زوال محذور وكفاية مكروه في المريد المستأنف، أما القبض فلمعنى حاصل في الوقت وكذلك البسط، فصاحب الخوف والرجاء تعلق قلبه في حالتيه بآجله وصاحب القبض والبسط أخذ وقته بوارد غلب عليه عاجله [1].

وتتفاوت أوصافهم في القبض والبسط حسب تفاوتهم في أحوالهم، فمن وارد يوجب قبضا، ولكنه يُبقي مساغا للأشياء الأُخر لأنه غير مستوف، ومن مقبوض لا مساغ لغير وارد فيه، لأنه مأخوذ عنه بالكلية بوادره. وذلك كما قال بعضهم: أنا ردم. بمعنى مردوم أي لا مساغ فيه[2]. وكذلك المبسوط قد يكون فيه بسط يسع الخلق فلا يستوحش من أكثر الأشياء ويكون مبسوطا لا يؤثر فيه شئ بحال من الأحوال[3].

ثالثا الهيبة والأنس: وهما درجتان في أحوال الحب أعلى قدرا من الخوف والرجاء ومن القبض والبسط، فالهيبة أعلى من القبض وحق الهيبة عند القشيري الغيبة، فكل هائب غائب، والأنس أتم من البسط وحق الأنس صحو بحق، فكل مستأنس صاح، ثم يتباينون حسب تباينهم في الشرب[4]. قال الجنيد: (كنت أسمع السري السقطي يقول:

---

(١) السابق ص٩٣، اللمع في التصوف للسراج الطوسي ص٤١٩.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٩٤.

(٣) السابق ١/٩٤.

(٤) السابق ١/٩٥.

يبلغ العبد إلى ربه إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لم يشعر. وكان في قلبي منه شئ حتى بان لي أن الأمر كذلك) [١].

فالهيبة تنشأ من القبض الناشئ من الخوف لأن من خاف الله وعرف تقصيره في حقه تعالى انقبض قلبه، وبقي مشغولا بالله فتحصل له الهيبة منه، ومن أمل وصوله إلى الخير بالرخاء انبسط قلبه، وبقي مشغولا بالله، فيحصل له الأنس به، وحال الهيبة والإنس وإن جلتا، فأهل الحقيقة يعدونهما نقصا لتضمنهما تغير العبد، فإن أهل التمكين سمت أحوالهم عن التغيير والتلوين[٢].

رابعا التواجد والوجد والوجود: فالتواجد استدعاء الوجد بضرب اختيار، وليس لصاحبه كمال الوجد إذ لو كان، لكان واجدا[٣]. فهو أقرب ما يكون إلى الكسبيات التي تؤدي إلى الأحوال، وفي هذا يذكر القشيري حديثا نبويا ضعيفا: (ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا) [٤].

والوجد هو ما يصادف القلب ويرد عليك بلا تعهد ولا كلفة، وهو يعقب التواجد في الدرجة. ويربط الدقاق بين الوارد والورد أي بين الباطن والظاهر ليثبت ارتباط مذاقات الحب بالطاعات، وبأن الكسبيات وسائل لاستجلاب الوهبيات فيقول: (من لا ورد له بظاهره،

---

(١) الرسالة القشيرية ١/٩٥.

(٢) السابق ١/٩٦.

(٣) السابق ١/٩٦، وانظر اللمع في التصوف للسراج الطوسي ١/ ٤١٨.

(٤) رواه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء ٢/١٤٠٣ (٤١٩٦)، وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف ابن ماجة (٤١٩٦).

لا وارد له في سرائره، وكما أن ما يتكلفه العبد من معاملات ظاهرة يوجب له حلاوة الطاعات، فما ينازله من أحكام باطنة يوجب له المواجيد، فالحلاوة ثمرات المعاملات، والمواجيد نتائج المنازلات)[1].

أما الوجود فهو عندهم حالة أرقى من الوجد، ولا يكون وجود الحق إلا بعد خمود البشرية، لأنه لا يكون للبشرية بقاء عند ظهور سلطان الحقيقة. وهذه الدرجات الثلاث يشبهها القشيري بمن شهد البحر، ثم ركب البحر، ثم غرق في البحر، فالتواجد بداية والوجود نهاية والوجد واسطة بين البداية والنهاية[2]. فالمريد هنا يغرق بعد بحار الحب في الفناء حتى يصل إلى الطريق الأخير وهو طريق العارفين.

• **طريق العارفين يبدأ بعد انتهاء طريق المريدين المحبين.**

إذا وصل المريدون عند الصوفية إلى درجة الحب التي يغرق في بحارها، أصبح في المقابل عارفا ترى فيه خمود البشرية وفنائها، فالعابد عندهم قد يكون عالما بالتوحيد من خلال الاستدلال بالآثار، ولا يكون واجدا له، مستشعرا لحلاوته في القلب، فوجوده الحقيقي لا يبقي للعبد معه إحساس بنفسه، فضلا عن علمه به، واستدلاله عليه، فترتيب أمر الأحوال للوصول إلى المعرفة بتوحيد الله يفصح عنه القشيري بقوله: وترتيب هذا الأمر: قصود ثم ورود، ثم شهود، ثم جمود، ثم خمود، وبمقدار الوجود يحصل الخمود.

---

(١) لطائف الإعلام ٢/٢٧٢.

(٢) الرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري ١/٩٨.

وصاحب الوجود له صحو ومحو، فحال صحوه بقاؤه بالحق وحال محوه فناؤه بالحق، وهاتان الحالتان أبدا متعاقبتان عليه، فإذا غلب عليه الصحو بالحق، فبه يصول، وبه يقول، وبه يجول، وهذا الكلام يعني أنه بمقدار تضاؤل إحساس العارف بنفسه يكون الوجود الحق. ويوضح القشيري هذا التدرج الصوفي التضاؤلي في نفي الإحساس الذاتي شيئا فشيئا، فيعرض نماذج من الأحوال التي تتآلف كأحوال الحب من أزواج تبدأ من الفناء وتنتهي عند التحقق.

أولها الفناء والبقاء: فهو فناء في الأحوال، وفلسفته أن من شاهد الربوبية في جريان القدر وتصاريف الأحكام فني عن أي حسبان، فإذا فني عن توهم الآثار من الأغيار بقي بصفات الحق، فلا يشهد من الأغيار عينا ولا أثرا ولا رسما ولا طللا لانعدام أثرها عليه وعند ذلك يقال في عرفهم: (إنه فني عن الخلق وبقي بالحق) [١].

ويعبر القشيري عن وصف فناء العارف بقوله: (أن يكون شبحا بين يدي الله سبحانه وتعالى، تجري عليه تصاريف تدبيره في مجاري أحكام قدرته، في لجج بحار توحيده بالفناء عن نفسه وعن دعوي الخلق له، وعن استجابته بحقائق وجوده ووحدانيته في حقيقة قربه بذهاب حسه وحركته لقيام الحق سبحانه فيما أراد منه) [٢].

ثانيها الجمع والفرق: فالجمع في تعريف أبي على الدقاق ما سلب

---

(١) السابق ص١٠٣ بتصرف، وانظر التعرف ص١٥٢.

(٢) الرسالة القشيرية ١/٣٣١.

عنك، والفرق ما نسب إليك [١].

ومعني ذلك أن ما يكون كسبا للعبد من إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق، وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع، فمن أشهده الحق سبحانه وتعالى أفعاله من طاعاته وانتقاء مخالفاته فهو عبد بوصف التفرقة، ومن أشهده الحق ما يوليه من أفعال فهو عبد بشاهد الجمع، فإثبات الخلق من باب التفرقة، وإثبات الحق نعت الجمع، ولا بد للعبد من الجمع والفرق، فإن من لا تفرقة له لا عبودية له ومن لا جمع له لا معرفة له [٢].

قال القشيري: (فالفرق صفة العبودية والجمع نعت الربوبية، وكل فرق لم يكن مضمنا بجمع وكل جمع لم يكن في صفة العبد مؤيدا بفرق فصاحبه غير سديد الوتيرة، وإن الحق سبحانه وتعالى يكل الأغيار إلى ظنونهم فيتيهون في أودية الحسبان ويتوهمون أنهم منفردون بإجراء ما منهم وذلك منه سبحانه وتعالى مكر بهم) [٣].

وقد ضل بسبب الجمع والفرق كثير من الصوفية وغلطوا في عين الجمع فلم يضيفوا إلى الخلق ما أضاف الله تعالى إليهم، ولم يصفوا أنفسهم بالحركة فيما تحركوا فيه وظنوا أن ذلك منهم احتراز حتى لا يكون مع الله شئ سوى الله ﷻ فأداهم ذلك إلى الخروج من الملة وترك حدود الشريعة لقولهم إنهم مجبورون على حركاتهم حتى أسقطوا

(١) السابق ١/١٠٠.
(٢) السابق ١/١٠٠ بتصرف.
(٣) السابق ١/٢٢٦.

اللائمة عن أنفسهم عند مجاوزة الحدود ومخالفة الاتباع ومنهم من أخرجه ذلك إلى الجسارة على التعدي والبطالة وطمعته نفسه على أنه معذور فيما هو عليه مجبور(١).

ثالثها الغيبة والحضور: وهما حالان متقابلان أرقى مما سبق، فالغيبة هي غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق، لاشتغال الحس بما ورد عليه، ثم قد يغيب إحساسه بنفسه وغيره بوادر من تذكر ثواب أو تفكر عقاب والحضور قد يكون حاضرا بالحق لأنه إذا غاب عن الخلق حضر بالحق على معنى أنه يكون كأنه حاضر، وذلك لاستيلاء ذكر الحق على قلبه فهو حاضر بقلبه بين يدي ربه.

وعلى حسب غيبته عن الخلق يكون حضوره بالحق، فإن غاب بالكلية كان الحضور على حسب الغيبة ويكون مكاشفا في حضوره على حسب رتبته بمعان يخصه الحق سبحانه بها (٢).

رابعها المحو والإثبات: حقيقة المحو والإثبات في الأحوال صادرة عندهم عن القدرة، فالمحو ما ستره الحق ونفاه، الإثبات ما أظهره الحق وأبداه، والمحو والإثبات مقصورات على المشيئة (٣).

قال أبو الحسين النوري: (الخاص والعام في قميص العبودية إلا من يكون منهم أرفع، جذبهم الحق ومحاهم عن نفوسهم في حركاتهم

---

(١) السابق ١/٥٤٩، ٥٥٠.
(٢) الرسالة القشيرية ١/١٠٦.
(٣) السابق ١/١٠٩.

وأثبتهم عند نفسه بنظرهم إلى قيام الله لهم في أفعالهم وحركاتهم) [١].

خامسها التلوين والتمكين: وهما حالان يلقيان الضوء على أرباب المرحلة الختامية من مراحل السفر في تجربة العارفين الإيمانية لأوائل الصوفية، فالتلوين صفة أرباب الأحوال، والتمكين صفة أهل الحقائق، فما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين، لأنه يرتقي من حال إلى حال وينتقل من وصف إلى وصف، ويخرج إلى مرحلة أخرى، فإذا وصل تمكن واتصل، وأمارة أنه اتصل عندهم أنه بالكلية عن كليته بطل [٢].

قال الهجويري مشبها حال التمكين وما قبله: (الماء يجري في مجري النهر حتى يصل إلى المحيط، فإذا وصل إلى المحيط وقف تياره وتغير طعمه، فمن طلب الماء لشربه ابتعد عنه، أما في طلب اللؤلؤ فإنه يجاهد نفسه ويضع حبل الطلب في رأسه ويغوص تحت الماء برأسه مجدا في نيل اللؤلؤ فإما يجده وإما يفقد نفسه العزيزة) [٣].

ويوضح الهجويري موقع مرحلة الفناء بالنسبة للمراحل التي تسبقه والتي تليه في السلسلة المتدرجة للتصوف فيقول: (الفناء درجة كمال يبلغها العارفون الذين تحرروا من آلام المجاهدات وخلصوا من سجن المقامات والأحوال وانتهى بهم الطلب إلى الكشف والحقيقة فرأوا كل مرئي وسمعوا كل مسموع وأدركوا كل أسرار القلب وأعرضوا عن

---

(١) اللمع في التصوف للسراج الطوسي ص٤٣١.

(٢) الرسالة القشيرية ١/١١٤.

(٣) كشف المحجوب للهجويري ص٤٥٠.

كل شئ وفنوا عن مقصدهم، فثبت في هذا المقصد كل مقاصدهم حتى ظهر فيهم قوله: كنت له سمعا وكنت له بصرا) [(١)].

فالفناء للعارفين بدايته نهاية طريق الحب ويزداد بالأحوال السابقة قوة حتى تذهب المحدثات في الشهود وتغيب في أفق العدم كما كانت قبل أن توجد ويبقي الحق تعالى كما لم يزل.

سادسا الحقيقة والشريعة: تتضح ملامح الشخصية النموذجية التي يسعى أوائل الصوفية لتحقيقها من خلال الترابط بين الحقيقة والشريعة، فالشريعة أمر بالتزام العبودية، والحقيقة مشاهدة الربوبية، والشريعة أن تعبده والحقيقة أن تشهده، والشريعة قيام بما أمر والحقيقة شهود لما قضي وقدر، فإذا صار العبد من الخلق أجنبيا، ومن آفات النفس بريا، ومن المساكنات والملاحظات نقيا، وصار ملهما من قبل الحق سبحانه وتعالى بمعرفة أسراره فيما يجريه من تصاريف أقداره، فإنه يسمي عند ذلك عارفا، وتسمى حالته معرفة [(٢)].

قال القشيرى: (كل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول كل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصول، والشريعة جاءت بتكليف الخلق والحقيقة إنباء عن تصريف الحق، وإذا علم أن الشريعة حقيقة من حيث أنها وجبت بأمره، فالحقيقة أيضا شريعة من حيث أن المعارف به سبحانه وتعالى وجبت بأمره) [(٣)].

---

(١) السابق ص٢٤٣.
(٢) الرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري ١/٣٤٢.
(٣) الرسالة ١/٢٦١.

المطلب الثالث

منازل السائرين وخطورة القول بفناء المريدين والعارفين



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن توحيد العبودية وأهمية بيانه وتحقيق أركانه، وعلمنا أن العبادة في الإسلام لا تقبل عند الله ﷻ إلا بشرطين، وأن العابدين هم أدنى أنواع السالكين عند أوائل الصوفية، وكذلك المريدون من أنواع السالكين هم المتوسطون، والعارفون هم أرقى أنواع السالكين عند الصوفية.

كما بينا ماهية الطريق الصوفي للسالكين من العابدين والمريدين والعارفين، وأن المقامات الصوفية فيها وصف طريق العابدين الزاهدين، وأن الأحوال الصوفية فيها وصف طريق المريدين المحبين، كما علمنا أن طريق العارفين يبدأ بعد انتهاء طريق المريدين المحبين.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن منازل السائرين، وما أسسه الشيخ الهروي في مقامات السالكين التي شرحها ابن القيم في مدارج السالكين وخطورة القول بفناء المريدين والعارفين.

• التقسيم البدعي للسالكين يدور حول ثلاثة أنواع.

رسم بياني للتقسيم البدعي لطريق السالكين في وصول العارفين إلى الحقيقة التي تقابل الشريعة

(الحقيقة نهاية العارفين في الطريق الصوفي)

طريق العارفين إلى الحقيقة والاضمحلال

[٦] ــــــ الحقيقة والشريعة
[٥] ــــــ التلوين والتمكين
[٤] ــــــ المحو والإثبات
[٣] ــــــ الغيبة والحضور
[٢] ــــــ الجمع والفرق
[١] ــــــ الفناء والبقاء

(أول طريق العارفين نهاية طريق المحبين)

****

طريق المريدين إلى الحب والعشق

[٥] ــــــ الفناء والبقاء
[٤] ــــــ التواجد والوجد والوجود
[٣] ــــــ الهيبة والأنس
[٢] ــــــ القبض والبسط
[١] ــــــ الخوف والرجاء

(أول طريق المريدين هو طريق الحب المجرد من العوض)

****

طريق العابدين إلى مقام الحرية

[٧] ــــــ الحرية
[٦] ــــــ الرضا
[٥] ــــــ التوكل
[٤] ــــــ الصبر
[٣] ــــــ الزهد
[٢] ــــــ الورع
[١] ــــــ التوبة

(بداية منازل السائرين إلى الله في الطريق البدعي الصوفي)

****

يعد تصنيف الصوفية البدعي لطريق السالكين الذي رسموه

للعابدين ووصفوهم بأنهم الملتزمون بالأحكام، والزاهدون في الحياة، الطالبون للجنة والطامعون فيما عند الله، وأن هؤلاء عندهم هم أدنى أنواع السالكين، ثم طريق المريدين من السالكين، وهم الذين عبدوا الله لمحبة الذات بلا عوض، ثم العارفون الذين هم أرقى أنواع السالكين عند الصوفية، هذا التصنيف يعد أساسا ساريا في كلامهم، وكلام من تأثر بهم من الطوائف المختلفة، إما تصريحا أو تلميحا، إما ظاهرا أو باطنا، إما بارزا أو مستترا.

رُوى عن مالك بن دينار والحسن البصري وشقيق البلخي أنهم ذهبوا لزيارة رابعة العدوية (ت:١٣٥هـ) في مرضها، فقال لها الحسن: ليس بصادق في دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه، فقالت رابعة: هذا كلام يشم فيه رائحة الأنانية. فقال شقيق: ليس بصادق في دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه، فقالت رابعة: يجب أن يكون أحسن من هذا. فقال مالك: ليس بصادق في دعواه من لم يتلذذ بضرب مولاه. فقالت رابعة: يجب أن يقال أحسن من هذا. فقالوا لها: تكلمي أنت يا رابعة. فقالت: ليس بصادق في دعواه من لم ينس الضرب في مشاهدة مولاه [1].

وقد ظهر في الحوار أنواع السالكين وطرقهم منذ وقت مبكر، فقد توفيت رابعة العدوية قبل منتصف القرن الثاني الهجري، واستمر الحال حتى أصبح الأمر فكرا منظما عند أبي نصر السراج الطوسي (ت:٣٧٨هـ) صاحب اللمع في التصوف، وأبي بكر محمد الكلاباذي

(١) تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار ١/٧١.

(ت:٣٨٠هـ) صاحب التعرف لمذهب أهل التصوف، وأبي طالب المكي صاحب قوت القلوب في معاملة المحبوب (ت:٣٨٦هـ)، وأبي الحسن على بن عثمان الهجويري (ت:٤٦٥هـ) صاحب كشف المحجوب، وأبي حامد الغزالي (ت:٥٠٥هـ) صاحب إحياء علوم الدين، والسهروردي صاحب عوارف المعارف (ت:٦٣٢هـ)، وتجد ترتيب هذه المقامات والأحوال في تراث عبد الكريم القشيري (ت:٤٦٥هـ) صاحب الرسالة القشيرية [1].

وقد أثر هذا الاتجاه في كثير من أهل السنة وبان واضحا على الشيخ أبي إسماعيل الأنصاري الهروي حيث قال: (واعتصموا بالله هو مولاكم، الاعتصام بحبل الله هو المحافظة على طاعته، مراقبا لأمره والاعتصام بالله هو الترقي عن كل موهوم، والتخلص من كل تردد، والاعتصام على ثلاث درجات: اعتصام العامة بالخبر استسلاما وإذعانا بتصديق الوعد والوعيد، وتعظيم الأمر والنهي، وتأسيس المعاملة على اليقين والإنصاف، وهو الاعتصام بحبل الله. واعتصام الخاصة بالانقطاع، وهو صون الإرادة قبضا، وإسبال الخلق على الخلق بسطا، ورفض العلائق عزما وهو التمسك بالعروة الوثقى، واعتصام خاصة الخاصة بالاتصال، وهو شهود الحق تفريدا) [2].

وقال الهروي: (باب الرياضة، قال الله ﷻ: والذين يؤتون ما آتوا

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب الإمام القشيري سيرته آثاره مذهبه في التصوف، للدكتور إبراهيم بسيوني ص٢٣٠ : ص٣٠٠.

(٢) منازل السائرين للهروي ص٢١ نشر دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٨.

وقلوبهم وجلة. الرياضة تمرين النفس على قبول الصدق، وهي على ثلاث درجات، رياضة العامة، تهذيب الأخلاق بالعلم، وتصفية الأعمال بالإخلاص، وتوفير الحقوق في المعاملة، ورياضة الخاصة، حسم التفرق، وقطع الالتفات إلى المقام الذي جاوزه، وإبقاء العلم يجري مجاريه، ورياضة خاصة الخاصة، تجريد الشهود، والصعود إلى الجمع، ورفض المعارضات والمعاوضات) [١].

وقال محمد الغرناطي الكلبي (ت:٧٤١هـ): (والناس في الخوف على ثلاث مقامات: فخوف العامة من الذنوب، وخوف الخاصة من الخاتمة، وخوف خاصة الخاصة من السابقة، فإن الخاتمة مبنية عليها، والرجاء على ثلاث درجات: الأولى: رجاء رحمة الله مع التسبب فيها بفعل طاعة وترك معصية، فهذا هو الرجاء المحمود، والثانية: الرجاء مع التفريط والعصيان فهذا غرور، والثالثة: أن يقوي الرجاء حتى يبلغ الأمن فهذا حرام، والناس في الرجاء على ثلاث مقامات: فمقام العامة رجاء ثواب الله، ومقام الخاصة رجاء رضوان الله، ومقام خاصة الخاصة رجاء لقاء الله حبا فيه وشوقا إليه، إن رحمت الله قريب من المحسنين) [٢].

وقال الهروي: (التوحيد على ثلاثة وجوه، الوجه الأول: توحيد العامة الذي يصح بالشواهد، والوجه الثاني: توحيد الخاصة وهو الذي

---

(١) السابق ص٢٣.

(٢) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل لمحمد بن أحمد الغرناطي الكلبي ٢/٣٥، نشر دار الكتاب العربي لبنان ١٤٠٣هـ.

يثبت بالحقائق، والوجه الثالث: توحيد قائم بالقدم، وهو توحيد خاصة الخاصة، فأما التوحيد الأول فهو شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، هذا هو التوحيد الظاهر الجلي الذي نفى الشرك الأعظم، وعليه نصبت القبلة، وبه وجبت الذمة، وبه حقنت الدماء والأموال، وانفصلت دار الإسلام من دار الكفر، وصحت به الملة للعامة، وإن لم يقوموا بحق الاستدلال بعد أن سلموا من الشبهة والحيرة والريبة، بصدق شهادة صححها قبول القلب، هذا توحيد العامة الذي يصح بالشواهد والشواهد هي الرسالة والصنائع، يجب بالسمع ويوجد بتبصير الحق وينمو على مشاهدة الشواهد.

وأما التوحيد الثاني الذي يثبت بالحقائق، فهو توحيد الخاصة، وهو إسقاط الأسباب الظاهرة، والصعود عن منازعات العقول، وعن التعلق بالشواهد، وهو أن لا تشهد في التوحيد دليلا، ولا في التوكل سببا، ولا للنجاة وسيلة، فتكون مشاهدا سبق الحق بحكمه وعلمه، ووضعه الأشياء مواضعها، وتعليقه إياها بأحايينها، وإخافة إياها في رسومها، وتحقق معرفة العلل وتسلك سبيل إسقاط الحدث، هذا توحيد الخاصة الذي يصح بعلم الفناء، ويصفو في علم الجمع، ويجذب إلى توحيد أرباب الجمع.

وأما التوحيد الثالث فهو توحيد اختصه الحق لنفسه، واستحقه بقدره، وألاح منه لائحا إلى أسرار طائفة من صفوته، وأخرسهم عن نعته، وأعجزهم عن بثه، والذي يشار به إليه على ألسن المشيرين أنه

إسقاط الحدث وإثبات القدم، على أن هذا الرمز في ذلك التوحيد علة، لا يصح ذلك التوحيد إلا بإسقاطها، هذا قطب الإشارة إليه على ألسن علماء هذا الطريق، وإن زخرفوا له نعوتا، وفصلوه فصولا، فإن ذلك التوحيد تزيده العبارة خفاء، والصفة نفورا، والبسط صعوبة، وإلى هذا التوحيد شخص أهل الرياضة، وأرباب الأحوال، وله قصد أهل التعظيم، وإياه عني المتكلمون في عين الجمع، وعليه تصطلم الإشارات، ثم لم ينطق عنه لسان، ولم تشر إليه عبارة، فإن التوحيد وراء ما يشير إليه مكون، أو يتعاطاه حين، أو يقله سبب، وقد أجبت في سالف الزمان سائلا سألني عن توحيد الصوفية بهذه القوافي الثلاث: ما وحد الواحد من واحد، إذ كل من وحده جاحد. توحيد من ينطق عن نعته، عارية أبطلها الواحد. توحيده إياه توحيده، ونعت من ينعته لاحد) [(١)].

• تعريف بكتاب منازل السائرين لعبد الله إسماعيل الهروي.

منازل السائرين إلى الحق المبين للشيخ عبد الله بن محمد بن إسماعيل الأنصاري الهروي الصوفي المتوفى سنة ٤٨١هـ إحدى وثمانين وأربعمائة، وهو كتاب في أحوال السلوك، ألفه حين سأله جماعة من الراغبين في الوقوف على منازل السائرين إلى الحق من أهل هراة، فأجابهم ورتب لهم فصولا وأبوابا، فجعله مائة مقام، مقسومة على عشرة أقسام، كل منها يحتوى على عشر مقامات.

وعلة التقسيم ربما أراد الشيخ الهروي فيها ملاحظة درجات الجنة التي وردت فيما رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول

(١) منازل السائرين للهروي ص١٣٥: ص١٣٩.

الله ﷺ قال: (مَن آمَن بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَصَامَ رَمَضَان، كَان حَقًّا عَلى اللهِ أَن يُدْخِلَهُ الجَنةَ، جَاهَدَ فِي سَبِيل اللهِ، أَوْ جَلسَ فِي أَرْضِهِ التِي وُلدَ فِيهَا. فَقَالوا: يَا رَسُول اللهِ، أَفَلا نبَشِّرُ الناس؟ قال: إن فِي الجَنةِ مِائةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ للمُجَاهِدِين فِي سَبيل اللهِ، مَا بَيْن الدَّرَجَتَيْن كَمَا بَيْن السَّمَاءِ وَالأرْضِ، فَإذا سَأَلتُمُ اللهَ فَاسْأَلوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإنهُ أَوْسَطُ الجَنةِ، وَأَعْلى الجَنةِ، أُرَاهُ فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَن، وَمِنهُ تَفَجَّرُ أَنهَارُ الجَنةِ) [1].

وقد شرحه جماعة منهم الشيخ كمال الدين عبد الرزاق الكاشاني المتوفى سنة ٧٣٠هـ ثلاثين وسبعمائة، وشرحه المولى شمس الدين محمد الطوسي المتوفى سنة ٨٩١هـ وهو شرح ممزوج بالفارسية، سماه تسنيم المقربين في شرح منازل السائرين، وشرحه محمود بن محمد الدركزيني المتوفى سنة ٧٤٣هـ سماه تنزيل المسافرين، وشرحه أحمد بن إبراهيم الواسطي المتوفى سنة٧١١هـ .

وعلق عليه أبو طاهر محمد بن أحمد القيسي المتوفى سنة ٧٤٧هـ وترجمه الشيخ مصلح الدين المعروف بابن نور الدين المتوفى سنة ٩٨١هـ بالتركية، واختصرته الشيخة عائشة بنت يوسف الدمشقية وسمته الإشارات الخفية في المنازل العلية.

وشرحه الشيخ عبد الغني التلمساني، وشرحه أيضا الشيخ سليمان بن علي بن عبد الله التلمساني الصوفي المتوفى سنة ٦٩٠هـ بأمر الشيخ الزاهد ناصر الدين أبي بكر بن فليح، وشرحه شمس الدين محمد بن أبي

---

(١) البخاري في الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله ١٠٢٨/٣ (٢٦٣٧).

بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي المتوفى سنة٧٥١هـ سماه مدارج السالكين، وهو شرح مبسوط [١].

قال الهروي في مقدمة كتابه: (الحمد لله الواحد الأحد القيوم الصمد اللطيف القريب، الذي أمطر سرائر العارفين كرائم الكلم من غمائم الحكم، وألاح لهم لوائح القدم في صفائح العدم، ودلهم على أقرب السبل إلى المنهاج الأول، وردهم من تفرق العلل إلى عين الأزل، وبث فيهم ذخائره، وأودعهم سرائره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الأول الآخر الظاهر الباطن، الذي مد ظل التلوين على الخليفة مدا طويلا، ثم جعل شمس التمكين لصفوته عليه دليلا، ثم قبض ظل التفرقة عنهم إليه قبضا يسيرا، وصلاته وسلامه على صفيه الذي أقسم به في إقامة حقه، محمد وآله كثيرا وبعد) [٢].

- تقسيمات الشيخ الهروي لمنازل السائرين.

قال الهروي: (فإن جماعة من الراغبين في الوقوف على منازل السائرين إلى الحق عز اسمه من الفقراء من أهل هراة والغرباء، طال علي مسألتهم إياي زمانا، أن أبين لهم في معرفتها بيانا يكون على معالمها عنوانا، فأجبتهم بذلك بعد استخارتي الله، واستعانتي به، وسألوني أن أرتبها لهم ترتيبا يشير إلى تواليها، ويدل على الفروع التي تليها، وأن أخليه من كلام غيري، وأختصره ليكون ألطف في اللفظ، وأخف

---

(١) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لمصطفى بن عبدالله القسطنطيني الرومي الحنفي الحاجي خليفة ١٨٢٨/٢ نشر دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) منازل السائرين للهروي ص٣.

للحفظ، وإني خفت أني إن أخذت في شرح قول أبي بكر الكتاني: إن بين العبد والحق ألف مقام من نور وظلمة، طولت علي وعليهم، فذكرت أبنية تلك المقامات التي تشير إلى تمامها، وتدل على مرامها، وأرجو لهم بعد صدق قصدهم ما قال أبو عبيد البسري: إن لله عبادا يريهم في بداياتهم ما في نهاياتهم، ثم إني رتبته لهم فصولا وأبوابا، يغني ذلك الترتيب عن التطويل المؤدي إلى الملال، ويكون مندوحة عن التسآل، فجعلته مائة مقام مقسومة على عشرة أقسام، وقد قال الجنيد: قد ينقل العبد من حال إلى حال أرفع منها، وقد بقي عليه من التي نقل عنها بقية، فيشرف عليها من الحالة الثانية فيصلحها، وعندي أن العبد لا يصح له مقام حتى يرتفع عنه، ثم يشرف عليه فيصححه) [1].

ثم بين الهروي أن السائرين في هذه المقامات على اختلاف مفظع، لا يجمعهم ترتيب قاطع، ولا يقفهم منتهى جامع، وقد صنف جماعة من المتقدمين والمتأخرين في هذا الباب تصانيف، عساك لا تراها أو أكثرها على حسنها مغنية كافية، منهم من أشار إلى الأصول ولم يف بالتفصيل، ومنهم من جمع الحكايات ولم يلخصها تلخيصا، ولم يخصص النكتة تخصيصا، ومنهم من لم يميز بين مقامات الخاصة وضرورات العامة، ومنهم من عد شطح المغلوب مقاما، وجعل بوح الواجد ورمز المتمكن شيئا عاما، وأكثرهم لم ينطق عن الدرجات.

واعلم أن العامة من علماء هذه الطائفة، والمشيرين إلى هذه الطريقة اتفقوا على أن النهايات لا تصح إلا بتصحيح البدايات، كما أن الأبنية

---

(١) المصدر السابق ص٤: ص٥.

لا تقوم إلا على الأساس، وتصحيح البدايات هو إقامة الأمر على مشاهدة الإخلاص ومتابعة السنة، وتعظيم النهي على مشاهدة الخوف، ورعاية الحرمة والشفقة على العالم ببذل النصيحة، وكف المؤنة، ومجانبة كل صاحب يفسد الوقت، وكل سبب يفتن القلب على أن الناس في هذا الشأن ثلاثة نفر: رجل يعمل بين الخوف والرجاء، شاخصا إلى الحب مع صحبة الحياء، فهذا هو الذي يسمى المريد، ورجل مختطف من وادي التفرق إلى وادي الجمع، وهو الذي يقال له المراد، ومن سواهما مدع مفتون مخدوع، وجميع هذه المقامات تجمعها رتب ثلاث:

الرتبة الأولى: أخذ القاصد في السير .

الرتبة الثانية: دخوله في الغربة.

الرتبة الثالثة: حصوله على المشاهدة الجاذبة إلى عين التوحيد في طريق الفناء .

وإني مفصل لك درجات كل مقام منها لتعرف درجة العامة منه، ثم درجة السالك، ثم درجة المحقق، ولكل منهم شرعة ومنهاج، ووجهة هو مولاها، قد نصب له علم هو له مبعوث، وأتيح له غاية هو إليها محثوث، وإني أسأل الله أن يجعلني في قصدي مصحوبا لا محجوبا، وأن يجعل لي سلطانا مبينا إنه سميع قريب.

واعلم أن الأقسام العشرة التي ذكرتها في صدر هذا الكتاب هي قسم البدايات، ثم قسم الأخلاق، ثم قسم الأحوال، ثم قسم الأبواب، ثم قسم الأصول، ثم قسم الولايات، ثم قسم النهايات، ثم قسم المعاملات، ثم قسم الأودية، ثم قسم الحقائق، فأما قسم البدايات فهو

عشرة أبواب وهي اليقظة والتوبة والمحاسبة والإنابة والتفكر والتذكر والاعتصام والفرار والرياضة والسماع) [١].

- **تعقيب ابن أبي العز على تقسيمات الصوفية لتوحيد العبودية.**

ذكر ابن أبي العز أن توحيد الإلهية إذا عرف أنه هو التوحيد الذي أرسلت به الرسل، وأنزلت به الكتب، فلا يلتفت إلى قول من قسم التوحيد إلى ثلاثة أنواع، وجعل هذا النوع توحيد العامة، والنوع الثاني توحيد الخاصة، وهو الذي يثبت بالحقائق، والنوع الثالث توحيد قائم بالقدم، وهو توحيد خاصة الخاصة، فإن أكمل الناس توحيدا لله هم الأنبياء صلوات الله عليهم، والمرسلون منهم أكمل في ذلك، وأولو العزم من الرسل أكملهم توحيدا، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله وسلم عليهم أجمعين، وأكملهم توحيدا الخليلان محمد وإبراهيم صلوات الله عليهما وسلامه، فإنهما قاما من التوحيد بما لم يقم به غيرهما، علما ومعرفة وحالا ،ودعوة للخلق وجهادا، فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل، ودعوا إليه، وجاهدوا الأمم عليه، ولهذا أمر سبحانه نبيه أن يُقتدي بهم فيه كما قال تعالى بعد ذكر مناظرة إبراهيم لقومه في بطلان الشرك وصحة التوحيد وذكر الأنبياء من ذريته: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠﴾ الأنعام: ٩٠.

فلا أكمل من توحيد من أمر رسول الله ﷺ أن يقتدي بهم، وكان ﷺ يعلم أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا: أصبحنا على فطرة الإسلام،

---

(١) المصدر السابق ص٦ : ص١١.

وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد ﷺ، وملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين، فملة إبراهيم التوحيد ودين محمد ﷺ ما جاء به من عند الله قولا وعملا واعتقادا، وكلمة الإخلاص هي شهادة أن لا إله إلا الله، وفطرة الإسلام، هي ما فطر عليه عباده من محبته، وعبادته وحده لا شريك له، والاستسلام له، عبودية وذلا وانقيادا وإنابة، فهذا توحيد خاصة الخاصة الذي من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾البقرة: ١٣٠/١٣١.

وكل من له حس سليم، وعقل يميز به لا يحتاج في الاستدلال إلى أوضاع أهل الكلام والجدل واصطلاحهم وطرقهم البتة، بل ربما يقع بسببها في شكوك، وشبه يحصل له بها الحيرة والضلال والريبة، فإن التوحيد إنما ينفع إذا سلم قلب صاحبه من ذلك، وهذا هو القلب السليم الذي لا يفلح إلا من أتى الله به.

ولا شك أن النوع الثاني والثالث من التوحيد الذي ادعوا أنه توحيد الخاصة وخاصة الخاصة ينتهي إلى الفناء الذي يشمر إليه غالب الصوفية، وهو درب خطر يفضي إلى الاتحاد، انظر إلى ما أنشد شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري رحمه الله تعالى حيث يقول:

ما وحد الواحد من واحد ... إذ كل من وحده جاحد
توحيد من ينطق عن نعته ... عارية أبطلها الواحد
توحيده إياه توحيده ... ونعت من ينعته لاحد

وإن كان قائله رحمه الله لم يرد به الإتحاد، لكن ذكر لفظا مجملا محتملا، جذبه به الاتحادي إليه، وأقسم بالله جهد أيمانه أنه معه، ولو سلك الألفاظ الشرعية التي لا أجمال فيها كان أحق، مع أن المعنى الذي حام حوله لو كان مطلوبا منا لنبه الشارع عليه، ودعا الناس إليه وبينه، فإن على الرسول البلاغ المبين، فأين قال الرسول: هذا توحيد العامة وهذا توحيد الخاصة، وهذا توحيد خاصة الخاصة؟ أو ما يقرب من هذا المعنى؟ أو أشار إلى هذه النقول، والعقول حاضرة، فهذا كلام الله المنزل على رسوله ﷺ وهذه سنة الرسول، وهذا كلام خير القرون بعد الرسول، وسادات العارفين من الأئمة، هل جاء ذكر الفناء فيها، أو جاء هذا التقسيم عن أحد منهم؟ وإنما حصل هذا من زيادة الغلو في الدين المشبه لغلو الخوارج بل لغلو النصارى في دينهم[1].

وقد ذم الله تعالى الغلو في الدين ونهى عنه فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ النساء: ١٧١.

وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾ المائدة: ٧٧ .

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٩٦: ص٩٨ بتصرف.

وروى ابن ماجة وصححه الألباني من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (يَا أَيُّهَا الناسُ إِيَّاكُمْ وَالغُلوَّ فِي الدِّين، فَإِنهُ أَهْلكَ مَن كَان قَبْلكُمْ الغُلوُّ فِي الدِّين) (١).

- **رد ابن تيمية على توحيد الهروي في منازل السائرين.**

قال ابن تيمية رحمه الله: (وقد ذكر في كتابه منازل السائرين أشياء حسنة نافعة وأشياء باطلة، ولكن هو فيه ينتهي إلى الفناء في توحيد الربوبية، ثم إلى التوحيد الذي هو حقيقة الإتحاد؛ ولهذا قال: باب التوحيد قال الله تعالى: شهد الله أنه لا إله إلا هو، التوحيد تنزيه الله عن الحدث، قال: وإنما نطق العلماء بما نطقوا به وأشار المحققون إلى ما أشاروا إليه في هذا الطريق لقصد تصحيح التوحيد، وما سواه من حال أو مقام فكله مصحوب العلل. قال: والتوحيد على ثلاثة أوجه، الأول: توحيد العامة الذي يصح بالشواهد. والثاني: توحيد الخاصة وهو الذي يثبت بالحقائق. والوجه الثالث: توحيد قائم بالقدم وهو توحيد خاصة الخاصة) (٢).

وقال ابن تيمية أيضا: (وحقيقة قول هؤلاء الإتحاد والحلول الخاص من جنس قول النصارى في المسيح، وهو أن يكون الموحد هو الموحد، ولا يوحد الله إلا الله، وكل من جعل غير الله يوحد الله، فهو جاحد

---

(١) رواه ابن ماجه في المناسك، باب قدر حصى الرمي ٢/١٠٠٨ (٣٠٢٩)، والنسائي في الحج، باب التقاط الحصى ٢/٤٣٥ (٤٠٦٣)، وأحمد في المسند ١/٢١٥ (١٨٥١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٨٣)، وظلال الجنة (٩٨).

(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٥/٣٤٢ نشر مؤسسة قرطبة.

عندهم كما قال ما وحد الواحد من واحد. أي من واحد غيره، إذ كل من وحده جاحد. فإنه على قولهم هو الموحد والموحد، ولهذا قال: توحيد من ينطق عن نعته. عارية أبطلها الواحد. يعني إذا تكلم العبد بالتوحيد وهو يرى أنه المتكلم، فإنما ينطق عن نعت نفسه، فيستعير ما ليس له، فيتكلم به، وهذه عارية أبطلها الواحد، ولكن إذا فني عن شهود نفسه، وكان الحق هو المتكلم على لسانه حيث فني من لم يكن، وبقي من لم يزل، فيكون الحق هو الناطق بنعت نفسه، لا بنعت العبد، ويكون هو الموحِّد وهو الموحَّد، ولهذا قال: توحيده إياه توحيده، أي توحيد الحق إياه، أي نفسه، هو توحيده هو، لا توحيد المخلوقين له، فإنه لا يوحده عندهم مخلوق، بمعنى أنه هو الناطق بالتوحيد على لسان خاصته، ليس الناطق هو المخلوق، كما يقوله النصارى في المسيح إن اللاهوت تكلم بلسان الناسوت)[1].

وقال ابن تيمية: (والنصارى مع كثرتهم يقولون إن المسيح هو الله، وفي المنتسبين إلى القبلة خلق كثير يقولون ذلك في كثير من المشايخ وأهل البيت، حتى إن كثيرا من أكابر شيوخ المعرفة والتصوف يجعلون هذا نهاية التحقيق والتوحيد، وهو أن يكون الموحِّد هو الموحَّد، وينشدون: ما وحد الواحد من واحد، إذ كل من وحده جاحد) [2].

وذكر ابن تيمية أن الفناء الذي يذكره صاحب المنازل، فهو الفناء في توحيد الربوبية لا في توحيد الإلهية، وهو يثبت توحيد الربوبية مع

(١) المصدر السابق ٥/٣٧١.

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ٣/٣٢٥.

نفي الأسباب والحِكَم، كما قول القدرية المجبرة كالجهم بن صفوان ومن اتبعه والأشعري وغيره.

وشيخ الإسلام الهروي وإن كان رحمه الله من أشد الناس مباينة للجهمية في الصفات، وقد صنف كتابه الفاروق في الفرق بين المثبتة والمعطلة، وصنف كتاب تكفير الجهمية، وصنف كتاب ذم الكلام وأهله، وزاد في هذا الباب حتى صار يوصف بالغلو في الإثبات للصفات، لكنه في القدر على رأي الجهمية نفاة الحِكَم والأسباب.

والكلام في الصفات نوع، والكلام في القدر نوع، وهذا الفناء عنده لا يجامع البقاء، فإنه نفي لكل ما سوى حكم الرب، بإرادته الشاملة التي تخصص أحد المتماثلين بلا مخصص، ولهذا قال في باب التوبة في لطائف أسرار التوبة: اللطيفة الثالثة أن مشاهدة العبد الحكم لم تدع له استحسان حسنة ولا استقباح سيئة، لصعوده من جميع المعاني إلى معنى الحكْم، أي الحكم القدري، وهو خلقه لكل شئ بقدرته وإرادته، فإن من لم يثبت في الوجود فرقا بالنسبة إلى الرب، بل يقول: كل ما سواه محبوب له، مرضي له، مراد له، كله سواء بالنسبة إليه، ليس يحب شيئا ويبغض شيئا، فإن مشاهدة هذا لا يكون معها استحسان حسنة، ولا استقباح سيئة بالنسبة إلى الرب، إذ الاستحسان والاستقباح على هذا المذهب لا يكون إلا بالنسبة إلى العبد، يستحسن ما يلائمه، ويستقبح ما ينافيه، وفي عين الفناء لا يشهد نفسه ولا غيره، بل لا يشهد إلا فعل ربه، فعند هذه المشاهدة، لا يستحسن شيئا ويستقبح آخر على قول هؤلاء القدرية الجبرية، المتبعين لجهم بن صفوان وأمثاله، وهؤلاء وافقوا

القدرية في أن مشيئة الرب وإرادته ومحبته ورضاه سواء، ثم قالت القدرية النفاة: وهو لا يحب الكفر والفسوق والعصيان، فهو لا يريده ولا يشاؤه، فيكون في ملكه ما لا يشاء، وقالت الجهمية المجبرة: بل هو يشاء كل شيء، فهو يريده ويحبه ويرضاه، وأما السلف وأتباعهم فيفرقون بين المشيئة والمحبة، وأما الإرادة فتكون تارة بمعنى المشيئة وتارة بمعنى المحبة [١].

• معنى كلمة الفناء ومشتقاتها في أدلة القرآن والسنة.

ورد استعمال كلمة الفناء ومشتقاتها في بعض النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على عدة معان:

١- الفناء بمعنى الموت والهلاك، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ الرحمن:٢٦/٢٧.

وعند أحمد من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (أسرع قبائل العرب فناء قريش، ويوشك أن تمر المرأة بالنعل، فتقول: إن هذا نعل قرشي) [٢].

وعند أحمد من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ قال: (فناء أمتي بالطعن والطاعون. قالت فقلت: يا رسول الله هذا الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: غدة كغدة الإبل، المقيم فيها كالشهيد، والفار منها كالفار من الزحف) [٣].

---

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٥/٣٥٩.
(٢) رواه أحمد ٢/٣٣٦ (٨٤١٨) وقال شعيب: إسناده صحيح على شرط مسلم.
(٣) رواه أحمد في المسند ٦/٢٥٥ (٢٦٢٢٥) وقال شعيب: إسناده جيد.

٢- وقد يراد بالفناء نفاذ المحصول، أو انتهاء الشيء، سواء كان في المحسوسات أو الغيبيات، فمن الأول ما رواه البخاري من حديث جابر بن عبد الله ﷺ أنه قال: (بعث رسول الله ﷺ بعثا قبل الساحل، فأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلاث مائة وأنا فيهم، فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فني الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش، فجمع ذلك كله فكان مزودي تمر، فكان يقوتنا كل يوم قليلا قليلا حتى فني، فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمرة، فقلت وما تغني تمرة؟ فقال: لقد وجدنا فقدها حين فنيت) [(١)].

وروى البخاري من حديث ابن عباس ﷺ أنه قال: (قالت أم إسماعيل: يا إبراهيم إلى من تتركنا؟ قال: إلى الله. قالت: رضيت بالله؟ قال: فرجعت فجعلت تشرب من الشنة، ويدر لبنها على صبيها حتى لما فني الماء، قالت: لو ذهبت فنظرت لعلى أحس أحدا) [(٢)].

ومن الثاني ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (أتدرون ما المفلس ؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن

---

(١) رواه البخاري في كتاب الشركة، باب الشركة في الطعام ٢/٨٧٩ (٢٣٥١) ومعنى مزودي تمر، مثنى مزود وهو جراب يجعل فيه الزاد، ويقوتنا يطعمنا، ومعنى وجدنا فقدها، أي كان فقدها مؤثرا شاقا علينا ولقد حزنا لفقدها.

(٢) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب يزفون ٣/١٢٣٠ (٣١٨٥).

فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه ثم طرح في النار) [(١)].

وروى مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلي ثيابه، ولا يفني شبابه) [(٢)].

وروى الترمذي وصححه الألباني من حديث أبي برزة الأسلمي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة، حتى يسأل عن عمره فيما أفناه؟ وعن علمه فيم عمل فيه؟ وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه ؟ وعن جسمه فيم أبلاه؟) [(٣)].

- مصطلح الفناء بدعي لا بد من تحقيقه بأدلة المنقول.

أما الفناء في الاصطلاح الصوفي فإنه على يرد على درجات السالكين ومنازل السائرين وهي ثلاثة أنواع:

١- النوع الأول فناء العامة: ويسمونه فناء عن عبادة السِّوَى، وهو فناء العابدين الزاهدين، ومعناه زوال الأوصاف المذمومة وبقاء الأوصاف المحمودة، وفناء الجهل بالعلم، وفناء الغفلة بالذكر، وهذه المعاني إلى هذا الحد لها أصول قرآنية ونبوية. يُروى عن إبراهيم بن شيبان

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم ٤/١٩٩٧ (٢٥٨١).

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فى دوام نعيم أهل الجنة ٤/٢١٨١ (٢٨٣٦).

(٣) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب في القيامة ٤/٦١٢ (٢٤١٧)، والدارمي في المقدمة، باب من كره الشهرة والمعرفة ١/١٤٤ (٥٣٧)، وصححه الألباني، انظر صحيح الترغيب والترهيب (١٢٦).

(ت:٣٣٠هـ) أنه قال: (علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية وصحة العبودية، وما كان غير هذا فهو من المغاليط والزندقة) [(١)].

ويذكر أبو القاسم القشيري (ت:٤٦٥هـ) أن القوم أشاروا بالفناء إلى سقوط الأوصاف المذمومة، وقيام الأوصاف المحمودة، فمن ترك مذموم أفعاله بلسان الشريعة، يقال: إنه فني عن شهواته، فإذا فني عن شهواته، بقي بنيته وإخلاصه في عبوديته، ومن زهد في دنياه بقلبه، فني في رغبته، فإذا فني عن رغبته فيها، بقي بصدق إنابته، ومن عالج أخلاقه، فنفي عن قلبه الحسد والحقد والبخل والشح والغضب والكبر، وأمثال هذا من رعونات النفس يقال في عرفهم: فني عن سوء الخلق، فإذا فني عن سوء الخلق، بقي بالصدق في ضدها) [(٢)].

ويقول محي الدين بن عربي (ت:٦٣٨هـ) وهو يتكلم بلسان العوام ومنطق أهل الظاهر: (الفناء أن تفني الخصال المذمومة عن الرجل، والبقاء أن تبقي وتثبت الخصال المحمودة في الرجل، فالسالكون يتفاوتون في الفناء والبقاء، فبعضهم فني عن شهوته يعني ما يشتهيه من الدنيا،

---

(١) طبقات الصوفية ص٤٠٤، ومن الجدير بالذكر أن مصطلح البقاء والفناء، لم يعرف في مرحلة التصوف الأولي البسيط، وإنما ظهر في بداية مرحلة التصوف الأولي المركب فحمله المعتدلون من الصوفية على المعني البسيط، الموافق للأصول القرآنية، كما هي عبارة إبراهيم ابن شيبان، لكنه حمل على معنى بدعي معقد ظهر في المراحل التالية، انظر المعجم الصوفي د.محمود عبد الرازق الرضواني، ونشأة التصوف الإسلامي للدكتور إبراهيم بسيوني، طبعة دار المعارف بمصر ص٢٢٨، والتصوف الإسلامي الخالص، محمود أبو الفيض المنوفي، طبعة دار نهضة مصر ص١٥٨.

(٢) الرسالة القشيرية لأبي القاسم عبد الكريم ص١٠٣.

فإذا فنيت شهوته بقيت فيه نيته، وإخلاصه في عبوديته، ومن فني عن أخلاقه الذميمة كالحسد والكبر والبغض وغير ذلك، بقي في الفتوة والصدق) [١].

٢- النوع الثاني فناء الخاصة: وهو فناء عن شهود السوى، وهو فناء المريدين المحبين الذي يفني فيه في حب الذات بلا عوض أو نظر إلى مآل الأسباب. قال أبو بكر الكلاباذي (ت:٣٨٠هـ) في وصفه: (الفناء هو أن يفني عنه الحظوظ، فلا يكون له في شيء من ذلك حظ، ويسقط عنه التمييز فناء عن الأشياء كلها، وشغلا بما فني به، والحق يتولي تصريفه) [٢]. وقال عبد القادر الجيلاني: (علامة فنائك عن إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مرادا قط، ولا يكون لك غرض، ولا يبقي لك حاجة ولا مرام، فتفني عن أخلاق البشرية) [٣].

ويعرف السهروردي (ت:٦٣٢هـ) الفناء بقوله: (أن يفني عن الحظوظ فلا يكون له في شيء حظ، بل يفني عن الأشياء كلها شغلا بمن فني فيه، وقيل الفناء هو الغيبة عن الأشياء كما كان فناء موسي حين تجلي ربه للجبل) [٤].

---

(١) كتاب الإرشاد، مخطوط الأحمدية حلب ٧٩٧، ورقة ١٤٨ب، وانظر الفتوحات المكية لابن عربي ٢/٥١٥ نشر دار صادر.

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي ص١٢٣.

(٣) فتوح الغيب لعبد القادر الجيلاني ص١٢ طبعة الحلبي، القاهرة، ١٩٧٣م.

(٤) عوارف المعارف للسهروردي ص٥٢٠ وانظر في الفناء أيضا نشأة التصوف الإسلامي د.إبراهيم بسيوني ص١٤٧: ١٥٧، التصوف الإسلامي الخالص، لمحمود أبو الفيض المنوفي، ص١٥٨:١٦١، وفي التصوف الإسلامي لنيكلسون ص٣٣.

وعرفه عبد الرزاق الكاشاني بأنه فناء المتحقق بالحق وهو المشتغل بالحق عن الخلق، ومثل هذا لا يعد راغبا عن شيء إلى شيء، لأن الحق لا يسع معه سواه، فلهذا سمي هذا الشخص بالفاني بالحق عما سواه[1].

٣- النوع الثالث فناء خاصة الخاصة: وهو فناء عن وجود السوى وهو فناء العارفين المتحققين المضمحلين الغائبين في بحار الحلول والاتحاد والوحدة. فيذكر الكاشاني من فناء العارفين الغائبين فناء من فني بالحق، وهو الذي تكون نفسه موجودة والخلق موجودين، إلا أنه لا علم له بهم، ولا نفسه ولا إحساس ولا خبر، ويكون ذلك لاستهلاكه في حضرات القرب، فهو لا يسعه إدراكه لنفسه، فضلا عن غيره من العالمين، ومثاله من دخل على ذي سلطان عظيم، فأذهله عن نفسه، وعن أهل مجلسه، بل وربما أذهله استعظام ذلك العظيم عن رؤيته له، بحيث إذا خرج من عنده، لم يمكنه استثبات شيء مما كان في ذلك المجلس، حتى لو سئل عن هيئة المجلس وملابس أهله وترتبهم فيه، لم يدر ما يقول، وكثيرا ما يقع مثل هذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ يوسف: ٣١ .

قالوا فإذا كن لم يجدن عند مشاهدة جمال يوسف ألم قطع الأيدي، وهو جمال صورة مقيدة بتعين جزئي من تعينات مطلق الجمال، فما

(١) لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام لكمال الدين عبد الرزاق الكاشاني السمرقندي ٢/٢١٧، تحقيق سعيد عبد الفتاح، نشر دار الكتب المصرية ١٩٩٦م، والكاشاني صوفي كبير مؤلف يرجح انتماؤه إلى الشيعة الإمامية.

شأنك بمن شاهد كمال صورة الجمال المطلق عن الإطلاق والتقييد، فبالأولى أن لا يجد مع شهوده غيره، فإن من استولى عليه سلطان الحقيقة، لم يتسع معها أن يشهد من الأغيار لا عينا ولا أثرا ولا رسما ولا طللا، وهذا هو الذي فني عن الخلق ببقائه بالحق، فيرى كل ما سوى الله بالله لا بغيره (١).

وفناء الحلول والاتحاد هو فناء الفناء، وهو الفناء عن شهود هذا الفناء، وهو فناء الوجود في الوجود، ويقال: فناء الشهود في الشهود، ويقال: اتصال الوجود، ومعناه فناء اسم الموجود في الوجود الحق، فيفني من لم يكن، ويبقي من لم يزل، وهذا إنما يكون بعد الفناء عن الفناء، كما قالوا: فنيت عن الفناء وعن فنائي: فناء في وجودك عن وجودي(٢).

- فناء أصحاب الحلول والوحدة زندقة تهدم الكتاب والسنة.

ذكر الذهبي في ترجمة ابن الفارض أنه عمر بن علي بن مرشد بن علي، الأديب البليغ، شرف الدين، أبو القاسم، الحموي الأصل، المصري المولد والدار، ابن الشيخ أبي الحسن الفارض سيد شعراء العصر، وشيخ الاتحادية، ديوان شعره مشهورٌ، وهو في غاية الحسن واللطافة، والبراعة والبلاغة، لولا ما شانه بالتصريح بالاتحاد الملعون في ألذ عبارة، وأرق استعارة، كالفالوذج سمه سم الأفاعي، وها أنا أذكر لك منه أبياتا لتشهد بصدق دعواي، فإنه قال: تعالى الله عما يقول:

---

(١) المصد السابق ٢/٢٢٠.

(٢) المصد السابق ٢/٢٢١.

وكل الجهات السِّتِّ نحوي مشيرةٌ.. بما تم من نسكٍ وحجٍّ وعمرة. لها صلواتي بالمقام أقيمها.. وأشهد فيها أنها لي صلت. كلانا مصل واحدٌ ساجدٌ إلى.. حقيقته بالجمع في كل سجدة. وما كان لي صلى سواي ولم تكن.. صلاتي لغيري في أداء كل ركعة. إلى كم أواخي السِّتر ها قد هتكته.. وحل أواخي الحجب في عقد بيعتي. وها أنا أبدي في اتِّحادي مبدئي.. وأنهي انتهائي فيتواضع رفعتي. فإن لم يجوِّز رؤية اثنين واحداً.. حجاك ولم يثبت لبعد تثبُّت. فبي موقفي لا بل إليَّ توجُّهي.. ولكن صلاتي لي ومني كعبتي. فلا تك مفتوناً بحسِّك معجباً.. بنفسك موقوفاً على لبس غرَّة. وفارق ضلال الفرق فالجمع منتجٌ.. هدى فرقةٍ بالاتِّحاد تحدَّت. وصرِّح بإطلاق الجمال ولا تقل.. بتقييده ميلاً لزخرف زينة. فكل مليحٍ حسنه من جمالها.. معارٌ له أو حسن كل مليحة. وما ذاك إلاَّ أن بدت بمظاهرٍ.. فظنُّوا سواها وهي فيهم تجلت. وما زلت إيَّاها وإيَّاي لم تزل.. ولا فرق بل ذاتي لذاتي أحبَّت. وليس معي في الملك شيءٌ سواي وال.. معيَّة لم تخطر على ألمعيَّتي. وها دحيةٌ وافى الأمين نبيَّنا.. بصورته في بدء وحي النبوَّة. أجبريل قل لي كان إذ بدا.. لمهدي الهدى في صورةٍ بشريَّة.. ولا تك ممّن طيّشته دروسه.. بحيث استقلت عقله فاستقرّت. فثمّ وراء النقل علمٌ يدقّ عن.. مدارك غايات العقول السّليمة. تلقّيته عني ومني أخذته.. ونفسي كانت من عطائي ممدّتي. ولا تك باللاهي عن اللهو جملة.. فهزل الملاهي جدّ نفسٍ مجدّة. تنزّهت في آثار صنعي منزّها.. عن الشّرك بالأغيار جمعي وألفتي. فبي مجلس الأذكار سمع مطالعٍ.. ولي حانة الخمّار عين طليعتي. وما عقد الزنار حكماً سوى يدي.. وإن حل

بالإقرار بي فهي حلت. وإن خرّ للأحجار في البدّ عاكفٌ.. فلا تعد بالإنكار بالعصبيّة. قد عبد الدينار معنى منزهٌ.. عن العار بالإشراك بالوثنية. وما زاغت الأبصار من كل ملةٍ.. وما زاغت الأفكار في كل نحلة. وما حار من للشّمس عن غرّة صبا.. وإشراقها من نور إسفار غرّتي. وإن عبد النار المجوس وما انطفت.. كما جاء في الأخبار في ألف حجّة. فما قصدوا غيري وإن كان قصدهم.. سواي وإن لم يظهروا عقد نيّة. رأوا ضوء نوري مرّةً فتوهموا.. نارا فضلوا في الهدى بالأشعّة.

توفي ابن الفارض عليه من الله ما يستحق في جمادى الأولى ٦٠٥هـ، ثاني يوم منه بمصر، وقد جاور بمكة زمانا. وأنشدنا غير واحد له أنه قال عند الموت هذين البيتين لما انكشف له الغطاء: إن كان منزلتي في الحبّ عندكم.. ما قد لقيت فقد ضيّعت أيّامي. أمنيّةٌ وثقت نفسي بها زمناً.. واليوم أحسبها أضغاث أحلام(١).

• تحقيق شيخ الإسلام ابن تيمية لمعنى الفناء الصوفي وأنواعه.

ذكر ابن تيمية فناء الصوفية، وبين أنه ثلاثة أقسام فناء عن وجود السِّوى، وفناء عن شهود السوى، وفناء عن عبادة السوى:

فالأول وهو فناء أهل الوحدة الملاحدة كما فسروا به كلام الحلاج وهو أن يجعل الوجود وجوداً واحداً (٢).

وكذلك ابن الفارض في قصيدته المشهورة التي يقول فيها: لها

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ٤٦/١٠٩، نشر دار الكتاب العربي بيروت .

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢/٣١٣.

صلواتي بالمقام أقيمها. وأشهد فيها أنها لي صلت. كلانا مصل واحد ساجد إلى. حقيقته بالجمع في كل سجدة.

إلى أن قال: وما زلت إياها وإياي لم تزل.. ولا فرق بل ذاتي لذاتي أحبت. إليَّ رسولا كنت مني مرسلا.. وذاتي بآياتي عليَّ استدلال. فإن دعيت كنت المجيب وإن أكن.. منادي أجابت من دعاني ولبت. وقد رفعت تاء المخاطب بيننا.. وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعتي. وفارق ضلال الفرق فالجمع منتج.. هدى فرقةٍ بالاتحاد تحدت.

إن العارف المحقق من هؤلاء يقول: أرسل من نفسه إلى نفسه رسولا بنفسه، فهو المرسل والمرسل إليه والرسول، ويقول من هو من أكبر من أضلوه من أهل الزهادة والعبادة مع الصدق في تسبيحاته وأذكاره: الوجود واحد وهو الله، ولا أرى الواحد ولا أرى الله. ويقول أيضا: نطق الكتاب والسنة بثنوية الوجود، والوجود واحد لا ثنوية فيه، ويكرر ذلك كما يكرر المسلمون: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وعنده أن هذا غاية التحقيق والعرفان. ويجيء من هو من أفضل المتكلمين من النفاة للعلو يعتقد في مثل هذا أنه كان من أفضل أهل الأرض أو أفضلهم، ويأخذ ورقة فيها سر مذهبه، ويرقي بها المرضي كما يرقي المسلمون بفاتحة الكتاب، كما أخبرنا بذلك الثقاة وهم يقدمون تلك الرقية على فاتحة الكتاب[1].

وأما الثاني وهو الفناء عن شهود السوى، فهذا هو الذي يعرض

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١٦٩/٦.

لكثير من السالكين كما يحكي عن أبي يزيد وأمثاله، وهو مقام الاصطلام، وهو أن يغيب بموجوده عن وجوده، وبمعبوده عن عبادته، وبمشهوده عن شهادته، وبمذكوره عن ذكره، فيفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل، وهذا كما يحكى أن رجلاً يحب آخر فألقى المحبوب نفسه في الماء، فألقى المحب نفسه خلفه، فقال: أنا وقعت فلم وقعت أنت؟ فقال: غبت بك عني، فظننت أنك أني. فهذا حال من عجز عن شيء من المخلوقات إذا شهد قلبه وجود الخالق، وهو أمر يعرض لطائفة من السالكين، ومن الناس من يجعل هذا من السلوك، ومنهم من يجعله غاية السلوك حتى يجعلوا الغاية هو الفناء في توحيد الربوبية، فلا يفرقون بين المأمور والمحظور، والمحبوب والمكروه، وهذا غلط عظيم غلطوا فيه بشهود القدر وإحكام الربوبية عن شهود الشرع والأمر والنهي وعبادة الله وحده وطاعة رسوله ﷺ، فمن طلب رفع إنيته بهذا الاعتبار لم يكن محمودا على هذا، ولكن قد يكون معذورا.

وأما النوع الثالث وهو الفناء عن عبادة السوى، فهذا حال النبيين وأتباعهم، وهو أن يفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه، وبحبه عن حب ما سواه، وبخشيته عن خشية ما سواه، وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه، فهذا تحقيق توحيد الله وحده لا شريك له، وهو الحنيفية ملة إبراهيم، ويدخل في هذا أن يفنى عن اتباع هواه بطاعة الله، فلا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يعطي إلا لله، ولا يمنع إلا لله، فهذا هو الفناء الديني الشرعي الذي بعث الله رسله وانزل به كتبه(١).

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢/٣١٣ بتصرف.

• **التقسيم السني للسالكين مبني على أدلة المنقول.**

وردت أدلة المنقول في الكتاب والسنة بتقسيم السالكين إلى نوعين الإسلام والإيمان، ولازم كل منهما الإخلاص والمراقبة والإحسان، روى مسلم من حديث عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: (بَينمَا نَحْن عِندَ رَسول اللهِ ﷺ ذاتَ يومٍ، إذ طَلَعَ علينا رَجُل، شدِيدُ بَياضِ الثياب، شدِيدُ سوَادِ الشعَر، لا يرَى عَليهِ أثرُ السفَر، ولا يعْرفُهُ مِنا أحَدٌ، حَتَّى جَلس إلى النبي ﷺ، فأَسندَ رُكبَتَيهِ إلى رُكبَتَيهِ، ووَضعَ كفَّيهِ على فَخِذيهِ، وقَال: يا مُحَمَّدُ، أَخبِرْني عَن الإسلام؟ فَقَال رَسول اللهِ ﷺ: الإسلامُ أن تَشهَدَ أن لا إلهَ إلا اللهُ، وأن مُحَمَّدًا رَسول اللهِ ﷺ، وتُقِيمَ الصَّلاةَ، وتُؤْتِي الزَّكاةَ، وتَصُومَ رَمَضان، وتَحُجَّ البَيتَ، إن استَطَعْتَ إليهِ سبيلا. قَال: صَدَقْتَ. قَال: فعَجِبْنا لهُ يسألهُ ويصَدِّقُهُ. قَال: فَأَخبِرْني عَن الإيمَان؟ قَال: أن تُؤْمِن بِاللهِ ومَلائكتِهِ وكُتُبِهِ ورُسلهِ واليوْمِ الآخِرِ وتُؤْمِن بِالقَدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ. قَال: صَدَقْتَ)[1].

أما الأدلة على أن لازم الإسلام والإيمان الإخلاص والمراقبة والإحسان، فهو ما بينه النبي ﷺ في حديث جبريل عليه السلام من تعريف الإحسان وجعله على درجتين، درجة المقربين ودرجة أصحاب اليمين حيث ورد في الحديث: (قَال: فَأخبِرْني عَن الإحْسان؟ قَال: أن تَعبُدَ اللهَ كَأَنكَ تَرَاهُ فَإن لم تَكُن تَرَاهُ فَإنهُ يرَاكَ. قَال: فَأَخبِرْني عَن الساعَةِ؟ قَال: مَا المَسئُول عَنها بِأعْلمَ مِن السائِل. قَال: فَأخبِرْني عَن أمَارَتِها؟ قَال: أن تَلدَ الأمَةُ رَبَّتَها وأن تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالةَ، رِعَاءَ الشاءِ

(١) مسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١/٣٦ (٨).

يتطَاولون فِي البُنيان. قَال: ثمَّ انطَلقَ، فَلبِثتُ مَليا، ثمَّ قَال لي: يا عُمَرُ أَتَدْري مَن السائِل؟ قُلتُ: اللهُ وَرَسولهُ أَعْلمُ. قَال: فَإِنهُ جِبْرِيل أَتَاكُمْ يعَلمُكُمْ دِينكُمْ) [١].

ولذلك ربط الله تعالى الإحسان بالتقوى، وجعل التقوى لازمة لصحة إسلام المسلمين أصحاب اليمين، وصحة إيمان المؤمنين المقربين، فشرط صحة النوعين الإخلاص والمراقبة والإحسان، والأدلة على ذلك من القرآن:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (٤٤)﴾ المرسلات: ٤١/٤٤.

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٥) ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ (١٩)﴾ الذاريات: ١٥/١٩.

٣- وقال: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٣٥)﴾ الزمر: ٣٣/٣٥.

٤- قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (١٢٩) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)﴾ الصافات: ١٢٧/١٣٢.

---

(١) تكملة الحديث السابق الذي رواه مسلم.

٥- قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ الصافات: ١١٤/١٢٢.

٦- قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ الصافات: ١٠٣/١١١.

٧- قال تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ الصافات: ٧٥/٨١.

٨- قال تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ لقمان: ٢٢.

٩- قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾ لقمان: ١/٥.

١٠- وقال: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ

ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ الحج:٣٧/٣٨.

١١- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾﴾ النساء:١٢٤/١٢٥.

١٢- قال سبحانه وتعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ آل عمران:١٣٣/١٣٤.

١٣- وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ البقرة:١١١/١١٢.

١٤- قال تعالى: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ المائدة:٩٣.

- **أولياء الله السالكون إما مقربون أو مقتصدون.**

وقد بين الله في القرآن الكريم أن السعداء في الدنيا والآخرة هم أولياء الله، وهم أهل الجنة، وهم نوعان: أبرار مقتصدون، ومقربون سابقون،

فالدرجة الأولى تحصل بالعدل وهي أداء الواجبات وترك المحرمات، والثانية لا تحصل إلا بالفضل، وهو أداء الواجبات والمستحبات وترك المحرمات والمكروهات [1].

والدليل على ذلك ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إن اللهَ قال: من عادَى لي وَلَيّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترَضْته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبه، فإذا أحبَبته كنت سمعه الذي يسمع به وبَصرَه الذي يبصر به ويدَه التي يبطِش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددتُ عن شيء أنا فاعله تردُّدي عن نفسِ المؤمن يكرَه الموتَ وأنا أكرَه مَساءته) [2].

والشاهد أن أنواع الولاية ودرجات السالكين مرتبطة بأسباب محبة الله لهم، وهي في الحديث محصورة في أمرين:

الأول منهما: أداء فرائضه والتقرب إليه بنوافله، وأخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب شيء مما تقرب إليه المتقربون.

الثاني بعدها: النوافل وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوبا لله، فإذا صار محبوبا لله، زاده الله ﷻ بفضله محبة أخرى فوق المحبة الأولى، فإن سمع سمع لمحبوبه، وإن أبصر أبصر به، وإن بطش بطش به، وإن مشى مشى به .

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ٥/٥٩.
(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع ٥/٢٣٨٤ (٦١٣٧).

وقد قسم القرآن السالكين في ولاية الله والملتزمين الطريق إليها على طبقتين: سابقين مقربين، وأصحاب يمين أبرار مقتصدين، ذكرهم الله سبحانه في عدة مواضع من كتابه منها، قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ الواقعة:٧/١٤.

وقال تعالى: ﴿﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ الواقعة:٨٧/٩١.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ فاطر: ٣١/٣٣.

قال الشيخ السعدي: (يذكر تعالى أن الكتاب الذي أوحاه إلى رسوله هُوَ الحَقُّ من كثرة ما اشتمل عليه من الحق، كأن الحق منحصر فيه، فلا يكن في قلوبكم حرج منه، ولا تتبرموا منه، ولا تستهينوا به، فإذا كان هو الحق لزم أن كل ما دل عليه من المسائل الإلهية والغيبية وغيرها، مطابق لما في الواقع، فلا يجوز أن يراد به ما يخالف ظاهره وما دل عليه. مُصَدِّقًا لَمَا بَيْنَ يَدَيْهِ من الكتب والرسل، لأنها أخبرت به، فلما وجد وظهر، ظهر به صدقها. فهي بشرت به وأخبرت، وهو صدقها، ولهذا لا يمكن أحدا أن يؤمن بالكتب السابقة، وهو كافر بالقرآن أبدا، لأن كفره به، ينقض إيمانه بها، لأن من جملة أخبارها الخبر عن القرآن،

ولأن أخبارها مطابقة لأخبار القرآن. إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ فيعطي كل أمة وكل شخص، ما هو اللائق بحاله. ومن ذلك أن الشرائع السابقة لا تليق إلا بوقتها وزمانها، ولهذا، ما زال الله يرسل الرسل رسولا بعد رسول، حتى ختمهم بمحمد ﷺ، فجاء بهذا الشرع، الذي يصلح لمصالح الخلق إلى يوم القيامة، ويتكفل بما هو الخير في كل وقت.

ولهذا لما كانت هذه الأمة أكمل الأمم عقولا وأحسنهم أفكارا، وأرقهم قلوبا، وأزكاهم أنفسا، اصطفاهم الله تعالى، واصطفى لهم دين الإسلام، وأورثهم الكتاب المهيمن على سائر الكتب، ولهذا قال: ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا وهم هذه الأمة. فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ بالمعاصي التي هي دون الكفر. وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ مقتصر على ما يجب عليه تارك للمحرم. وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ أي سارع فيها واجتهد، فسبق غيره، وهو المؤدي للفرائض، المكثر من النوافل، التارك للمحرم والمكروه. فكلهم اصطفاه الله تعالى، لوراثة هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم، وتميزت أحوالهم، فلكل منهم قسط من وراثته، حتى الظالم لنفسه، فإن ما معه من أصل الإيمان، وعلوم الإيمان، وأعمال الإيمان، من وراثة الكتاب، لأن المراد بوراثة الكتاب، وراثة علمه وعمله، ودراسة ألفاظه، واستخراج معانيه.

وقوله بِإِذْنِ اللَّهِ راجع إلى السابق إلى الخيرات، لئلا يغتر بعمله، بل ما سبق إلى الخيرات إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته، فينبغي له أن يشتغل بشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه) [1].

---

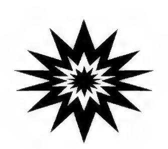
(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص٦٨٩.

وقد فضل الله عباده في درجات طاعتهم وأعمالهم وجعلهم على درجتين أساسيتين، كل منهما يتفاضل من حيث درجة التقوى، والأكرم عند الله هو الأفضل في الطاعة والأتقى:

١- وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ الحديد: ١٠ .

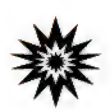
٢- قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ النساء: ٩٥/٩٦.

٣- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ المجادلة: ١١.



المطلب الرابع

مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن التقسيم البدعي للسالكين، وأنه يدور حول ثلاثة أنواع من السلوك، سلوك العامة والخاصة وخاصة الخاصة، ثم تعرفنا على كتاب منازل السائرين لعبد الله الهروي، وكيفية تقسيمه لمنازل السائرين، ثم تحدثنا عن تعقيب ابن أبي العز الحنفي على تقسيمات الصوفية لتوحيد العبودية، ورد شيخ الإسلام ابن تيمية على تقسيم الهروي للتوحيد في منازل السائرين.

وبينا معنى كلمة الفناء ومشتقاتها في أدلة القرآن والسنة، وأن مصطلح الفناء مصطلح بدعي لم يرد في الكتاب والسنة، ولا بد من تحقيقه بأدلة المنقول، وعلمنا أن فناء أصحاب الحلول والاتحاد ووحدة الوجود زندقة تهدم الكتاب والسنة، ثم بينا تحقيق شيخ الإسلام ابن تيمية لمعنى الفناء وأنواعه، وعلمنا أن التقسيم السني للسالكين مبني على أدلة المنقول، وأن أولياء الله السالكين إما سابقون مقربون، أو أصحاب يمين مقتصدون.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن منهج القرآن والسنة في بيان مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين.

• أعمال القلوب من أصول الإيمان وقواعد الدين.

ذكر ابن تيمية رحمه الله أن أعمال القلوب التي تسمى عند الصوفية بالمقامات والأحوال هي من أصول الإيمان وقواعد الدين، مثل محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له، وما يتبع ذلك.

هذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق المأمورين في الأصل باتفاق أئمة الدين، والناس في هذا كما نص القرآن على ثلاث درجات، كما هم في أعمال الأبدان على ثلاث درجات:

١- ظالم لنفسه وهو العاصي بترك مأمور أو فعل محظور.

٢- المقتصد وهو المؤدي الواجبات والتارك المحرمات.

٣- السابق بالخيرات وهو المتقرب إلى الله بما يقدر عليه من واجب ومسنون، والتارك للمحرم والمكروه (١).

وإن كان كل من المقتصد والسابق بالخيرات، قد تكون له ذنوب تمحى عنه بتوبة، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين، إما بحسنات ماحية، وإما بمصائب مكفرة، وإما بغير ذلك.

وكل من الصنفين سواء المقتصدون أو السابقون من أولياء الله

(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبية لابن تيمية ص٣٧ بتصرف، نشر المطبعة السلفية القاهرة، وانظر مجموع الفتاوى ١٠/٦.

الصالحين الذي ذكرهم في كتابه فقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ يونس:٦٢/٦٤ . فأولياء الله هم المؤمنون المتقون، ولكن ذلك ينقسم إلى عام وهم المقتصدون، وخاص وهم السابقون، وإن كان السابقون هم الأعلى في الدرجات كالأنبياء والصديقين.

وقد ذكر النبي ﷺ القسمين في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إن اللهَ قال: من عادَى لي وَلَيّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افتَرَضْته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبه، فإذا أحبَبته كنت سمعه الذي يسمع به وبَصرَه الذي يبصر به ويدَه التي يبطِش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأُعطينه، ولئن استعاذ بي لأُعيذنه، وما ترددتُ عن شيء أنا فاعله ترَدُّدي عن نفسِ المؤمن يكرَه الموتَ وأنا أكرَه مَساءته ولا بد له منه) [1].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ فاطر:٣٢.

- الظالم لنفسه فيه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه.

وأما الظالم لنفسه من أهل الإيمان ففيه من ولاية الله بقدر إيمانه

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع ٥/٢٣٨٤ (٦١٣٧).

وتقواه، كما معه من ضد ذلك بقدر فجوره، فالشخص الواحد قد تجتمع فيه الحسنات المقتضية للثواب، والسيئات المقتضية للعقاب، فيثاب على ما قدم من خير، ويعاقب على ما قدم من شر، وهذا قول أصحاب رسول الله ﷺ وأئمة الإسلام وأهل السنة والجماعة الذين يقولون: إنه لا يخلد في النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وأما القائلون بالتخليد كالخوارج، أو المعتزلة القائلين أنه لا يخرج من النار من دخلها من أهل القبلة، وأنه لا شفاعة للرسول ﷺ ولا لغيره في أهل الكبائر، لا قبل دخول النار ولا بعدها، فعندهم لا يجتمع في الشخص الواحد ثواب وعقاب، وحسنات وسيئات، بل من أثيب لا يعاقب، ومن عوقب لم يثب.

وما دل عليه الكتاب والسنة وإجماع الأمة أن الرجل قد يجتمع فيه كفر وإيمان، وشرك وتوحيد، وتقوى وفجور، ونفاق وإيمان، وهذا من أعظم أصول أهل السنة، ومسألة خروج أهل الكبائر من النار وتخليدهم فيها مبنية على هذا الأصل.

١- قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ١٠٦﴾ يوسف:١٠٦، فأثبت لهم إيمانا به سبحانه مع الشرك.

٢- وقال تعالى: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٤﴾ الحجرات: ١٤. فأثبت لهم إسلاما وطاعة لله ورسوله ﷺ مع نفي الإيمان عنهم، فليس لديهم الإيمان المطلق الذي يستحقون معه اسم

المؤمن إذا أطلقه الله عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ الحجرات: ١٥ .

وهؤلاء الأعراب مسلمون بما معهم من طاعة الله ورسوله، وليسوا مؤمنين، وإن كان معهم جزء من الإيمان أخرجهم من الكفر.

٣- وروى البخاري من حديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ﷺ أن النَّبِي ﷺ قَال: (أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا، أَوْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا، إذا حَدَّثَ كَذبَ، وإذا وَعَدَ أَخْلفَ، وإذا عَاهَدَ غَدَرَ، وإذا خَاصَمَ فَجَرَ) [(١)]. فدل الحديث على أنه يجتمع في الرجل نفاق وإسلام.

• من كان معه إيمان حقيقي فمعه من الأعمال بقدر إيمانه.

من كان معه إيمان حقيقي، فلا بد أن يكون معه من هذه الأعمال بقدر إيمانه، وإن كان له ذنوب، كما روى البخاري في صحيحه من حديث عمر ﷺ أَنَّ رَجُلا عَلى عَهْدِ النَّبِي ﷺ، كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللهِ كَانَ يُلقَّبُ حِمَارًا، وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُول اللهِ ﷺ، وَكَانَ النَّبِي ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ، فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا، فَأَمَرَ بِهِ فَجُلدَ، فَقَال رَجُل مِنَ القَوْمِ: اللهُمَّ العَنْهُ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ، فَقَال النبي ﷺ: لا تَلعَنُوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلمْتُ إلا

(١) رواه البخاري في كتاب المظالم، باب إذا خاصم فجر ٢/٨٦٨ (٢٣٢٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق ١/٧٨ (٥٨).

إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ[(١)].

وعند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: (أُتِيَ النَّبِي ﷺ بِسَكْرَانَ، فَأَمَرَ بِضَرْبِهِ، فَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُهُ بِيَدِهِ، وَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُهُ بِنَعْلِهِ، وَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُهُ بِثَوْبِهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ، قَالَ رَجُل: مَا لَهُ أَخْزَاهُ اللَّهُ، فَقَالَ رَسُول اللَّهِ ﷺ: لا تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ)[(٢)].

والشاهد من هذا الحديث أن المذنب بالشراب وغيره قد يكون محبا لله ورسوله ﷺ، وحب الله رسوله أوثق عرى الإيمان.كما أن العابد الزاهد على علو زهده وعبادته، قد يكون في قلبه بدعة ونفاق، وهو مسخوط عند الله ورسوله ﷺ من ذلك الوجه البدعي، أو من هذا النفاق القلبي.

كما ورد عند البخاري من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أنه قال: (بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَقْسِمُ، جَاءَ عَبْدُ اللهِ بْنُ ذي الخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِيُّ فَقَال: اعْدِل يَا رَسُول اللهِ، فَقَال: وَيْلكَ، وَمَنْ يَعْدِل إِذا لمْ أَعْدِل. قَال عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَهُ. قَال: دَعْهُ، فَإِنَّ لهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاتَهُ مَعَ صَلاتِهِ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِ، يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ فِي قُذذِهِ، فَلا يُوجَدُ فِيهِ

---

(١) رواه البخاري في الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة ٦/٢٤٨٩ (٦٣٩٨) .

(٢) رواه البخاري في كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة ٦/٢٤٨٩ (٦٣٩٩)، وانظر شرح صحيح البخاري لابن بطال ٨/٣٩٨ نشر مكتبة الرشد الرياض.

شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ فِي نَصْلِهِ، فَلا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ فِي رِصَافِهِ، فَلا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ فِي نَضِيِّهِ، فَلا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، قَدْ سَبَقَ الفَرْث وَالدَّمَ، آيَتُهُمْ رَجُل، إِحْدَى يَدَيْهِ، أَوْ قَال ثَدْيَيْهِ مِثل ثَدْيِ المَرْأَةِ، أَوْ قَال مِثل البَضْعَةِ تَدَرْدَرُ، يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنْ النَّاسِ، قَال أَبُو سَعِيدٍ: أَشْهَدُ سَمِعْتُ مِنْ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيًّا قَتَلهُمْ وَأَنَا مَعَهُ، جِيءَ بِالرَّجُل عَلَى النَّعْتِ الذي نَعَتَهُ النَّبِيُّ ﷺ، قَال فَنَزَلتْ فِيهِ: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨ ﴾ التوبة:٥٨[1].

---

(١) رواه البخاري في كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب من ترك قتال الخوارج للتألف ولئلا ينفر الناس عنه ٦/٢٥٤٠ (٦٥٣٤)، وأخرجه مسلم في الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم ٢/٧٤٤ (١٠٦٤). ومعنى يحقر أحدكم صلاته يجدها قليلة، ويظنها أقل ثوابا وقبولا إذا قارنها بصلاتهم. وفي رواية يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، أي لا يتعداها، والتراقي جمع ترقوة، والمراد لا يفقهون معناه ولا تخشع له قلوبهم، ولا يؤثر في نفوسهم، فلا يعملون بمقتضاه، يمرقون من الدين أي يخرجون منه سريعا دون أن يستفيدوا منه، وشبه مروقهم من الدين بمروق السهم الذي يصيب الصيد، فيدخل فيه ويخرج منه دون أن يعلق به شيء من الحيوان الذي صاده لشدة سرعته وخروجه نظيفا، فلو نظرت إلى نصل السهم وهي الحديدة القاتلة، فلن تجد شيئا من الصيد متعلقا بها، وكذلك لو نظرت إلى جميع مكونات السهم وهي القذذ والرصاف والنضي، والقذة تعني الريشة التي تعلق على السهم، والرصافة الحديدة الملتوية فوق مدخل النصل، والنضي نصل السهم، وعنى قد سبق الفرث والدم، أي لم يتعلق به شيء منهما لشدة سرعته، والفرث ما يجتمع في الكرش مما تأكله ذوات الكروش، ومعنى البضعة قطعة اللحم، وتدردر أي تتحرك وتضطرب وتذهب وتجيء.

وهؤلاء هم أصحاب رسول الله ﷺ مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بأمر النبي ﷺ، وقال النبي ﷺ فيهم: (تَمْرُقُ مَارِقَةٌ عِنْدَ فُرْقَةٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، يَقْتُلُهَا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ) (١).

● أعمال القلوب ليست مرتبة كالمقامات في السير الحسي.

يشعر الناظر إلى مقامات العابدين وطريق المريدين والعارفين الذي وضعه الصوفية للسالكين أنه يسير في منازل ومقامات كل منها يتلو الآخر بحيث لا ينتقل السالك إلى مقام إلا إذا فارق السابق، فيقطع المقام ويستوفيه ثم يفارقه وينتقل إلى الثاني كمنازل السير الحسي، والأمر في أعمال القلوب ليس كذلك، بل هذا محال كما ذكر ابن القيم رحمه الله، فاليقظة وعدم الغفلة مثلا عمل من أعمال القلوب لا بد أن يكون مع المؤمن في كل مقام لا تفارقه.

وكذلك البصيرة والإرادة والعزم. وكذلك التوبة فإنها أول المقامات وآخرها، بل هي في كل أعمال القلوب مُستصحبَة، ولهذا جعلها الله تعالى آخر مقامات خاصته، فقال تعالى في غزوة تبوك وهي آخر الغزوات: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ التوبة:١١٧ .

لقد جعل التوبة أول أمرهم وآخره، كما قال في سورة النصر التي

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم ٢/٧٤٥ (١٠٦٤).

بينت قرب أجل رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ النصر: ١/٣ .

وعند البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُول فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبْحَانَكَ اللهمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللهمَّ اغْفِرْ لي، يَتَأَوَّل القُرْآنَ) [1]. فالتوبة هي نهاية كل سالك، وكل ولي لله، وهي الغاية التي يشمر إليها الموحدون العابدون وما ينبغي له قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾﴾ الأحزاب:٧٢/٧٣ . فجعل سبحانه التوبة غاية كل مؤمن ومؤمنة [2].

وكذلك الإخلاص فإنه حقيقة الإسلام، وأساس جميع الأعمال إذ الإسلام هو الاستسلام لله لا لغيره، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ الزمر:٢٩. فمن لم يستسلم له فقد استكبر، ومن استسلم لله ولغيره فقد أشرك، وكل من الكبر والشرك ضد الإسلام، والإسلام ضد

---

(١) البخاري في صفة الصلاة، باب التسبيح والدعاء في السجود ١/٢٨١ (٧٨٤)، ومسلم في كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود ١/٣٥٠ (٤٨٤).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١/١٣٤ بتصرف.

الشرك والكبر، وذلك في القرآن كثير.

ولهذا كان الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، وهي متضمنة عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، وهو الإسلام العام الذي لا يقبل الله من أحد من الأولين والآخرين دينا سواه.

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ آل عمران:٨٥.

وقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ آل عمران:١٨/١٩. وقال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ غافر:٦٥ .

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ البينة:٥. فالإخلاص لازم لجميع أعمال القلوب والجوارح، ولا يصح أي عمل إلا به.

- الصدق والإخلاص لازمان لجميع شعب الإيمان.

وكذلك الصدق لازم لقول العبد لا إله إلا الله، فلابد أن يتفق القلب واللسان والجوارح على عبادة الله وحده في جميع شعب الإيمان ومقامات الدين، ولا يشك عبد لحظة أن الله هو المعبود بحق الذي يصدق في خبره دون تكذيب ويطاع في أمره دون عصيان. روى البخاري من حديث عبد الله ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي

إِلى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلى الجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلى الفُجُورِ وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَابًا» (١).

أخبر النبي ﷺ أن الصدق يستلزم البر، وأن الكذب يستلزم الفجور، والبر وصف البررة والأبرار، وقد قال الله تعالى في سورة الانفطار: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ الانفطار:١٣/١٤.

والصدق والإخلاص هما تحقيق الإيمان والإسلام، فإن المظهرين للإسلام ينقسمون إلى مؤمن ومنافق، فالفارق بين المؤمن والمنافق هو الصدق كما في قوله تعالى:

﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ الحجرات:١٤/١٥.

وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ الحشر:٨.

أخبر أن الصادقين في دعوى الإيمان هم المؤمنون الذين جاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم، وذلك أن هذا هو العهد المأخوذ على الأولين

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب قول الله تعالى {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين} ٢٢٦١/٥ (٥٧٤٣)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق ٢٠١٢/٤ (٢٦٠٧).

والآخرين كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ آل عمران: ٨١ .

قال ابن عباس رضي الله عنه: ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ليؤمنن به ولينصرنه [1].

وكذلك وصف الصادقين في دعوى البر الذي هو جماع الدين في قوله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ البقرة: ١٧٧.

وأما المنافقون فوصفهم بالكذب في آيات متعددة كقوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ البقرة: ١٠. وقوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ المنافقون: ١.

وقال: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٧٩ نشر دار الفكر بيروت، وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٢/١٠، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٢/١٢٠.

كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ التوبة:٧٧.

ومما ينبغي أن يعرف أن الصدق والتصديق يكون في الأقوال والأعمال، كما ورد عند أحمد من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لِكُلِّ بَنِي آدَمَ حَظٌّ مِنْ الزِّنَا، فَالعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ، وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَاليَدَانِ تَزْنِيَانِ، وَزِنَاهُمَا البَطْشُ، وَالرِّجْلانِ يَزْنِيَانِ، وَزِنَاهُمَا المَشْيُ، وَالفَمُ يَزْنِي وَزِنَاهُ القُبَلُ، وَالقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَالفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ)[1].

ويقال حملوا على العدو حملة صادقة، إذا كانت إرادتهم للقتال ثابتة صادقة، ويقال: فلان صادق الحب والمودة ونحو ذلك. ولهذا يراد بالصادق، الصادق في إرادته وقصده وطلبه، وهو الصادق في عمله، ويريدون الصادق في خبره وكلامه، والمنافق ضد المؤمن الصادق، وهو الذي يكون كاذبا في خبره، أو كاذبا في عمله كالمرائي في عمله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ النساء:١٤٢/١٤٣.

ومعلوم أن من صدق الله في جميع الأمور، صدق في التوكل عليه وصح الإخلاص لديه، وصدق في خوفه من الله وحده، ونجاه الله عند

---

(١) رواه أحمد في المسند ٢/٣٤٣ (٨٥٠٧)، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب النكاح، باب تحريم النظر إلى الأجنبيات من غير سبب مبيح ٧/٨٩ (١٣٢٨٩) وذكر شعيب الأرنئوط أن إسناده صحيح على شرط مسلم.

البلاء، ورفع عنه أسباب الشقاء.

روي أن الحجاج بن يوسف الثقفي خطب فأطال في الخطبة، فقام رجل من المسلمين فقال: الصلاة يا حجاج، فان الوقت لا ينتظرك، والرب لا يعذرك، فأمر الحجاج بحبسه، فأتاه قومه، وزعموا أنه مجنون وسألوه أن يخلي سبيله، فقال الحجاج: إن أقر بالجنون خليت سبيله، فقالوا للمسجون: قل للحجاج إنك مجنون، فقال: معاذ الله، والله لا أزعم أن الله ابتلاني وقد عافاني، فبلغ ذلك الحجاج فقال: عفوت عنه لصدقه [1].

وخطب بلال ﷺ لأخيه امرأة من قريش، فقال لأهلها: نحن من قد عرفتم، كنا عبدين فأعتقنا الله تعالى، وكنا ضالين فهدانا الله تعالى، وكنا فقيرين فأغنانا الله تعالى، وأنا أخطب إليكم ابنتكم لأخي، فان تنكحوها له فالحمد لله تعالى، وإن تردونا فالله أكبر، فأقبل بعضهم على بعض، فقالوا: بلال ممن عرفتم سابقته، وعلمتم مكانته من رسول الله ﷺ، فزوجوا أخاه فزوجوه، فلما انصرفوا قال له أخوه: يغفر الله لك يا بلال، أما كنت تذكر سوابقنا ومشاهدنا مع رسول الله ﷺ، وتترك ما عدا ذلك ؟ فقال: مه يا أخي، إنما صدقتُ فأنكحك الصدق [2].

---

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/٤٠ نشر دار الثقافة لبنان.

(٢) انظر سنن سعيد بن منصور ١/١٨٩ تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي نشر الدار السلفية الهند ١٤٠٣هـ ١٩٨٢م، وأسد الغابة لابن الأثير ٢/١١٥ نشر دار إحياء التراث العربي بيروت، والطبقات الكبرى لابن سعد ٣/٢٣٧ نشر دار صادر بيروت.

• أعمال القلوب كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة.

لا تنفع الأعمال الظاهرة بدون الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، بل علم القلب وعمله هو أصل الدين في الحقيقة، كما ورد عند البخاري من حديث النعمان بن بشير ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (الحَلال بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى المُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلا وَإِنَّ لكُل مَلكٍ حِمًى، أَلا إِنَّ حِمَى اللهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلحَتْ صَلحَ الجَسَدُ كُلهُ، وَإِذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلهُ أَلا وَهِيَ القَلْبُ)(١).

وهذه الأعمال الباطنة كمحبة الله والإخلاص له والتوكل عليه والرضا عنه ونحو ذلك، كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة لا يكون تركها محمودا في حال واحد، وإن ارتقى مقامه. وأما الحزن الذي يلازم طريق السالكين من العابدين والمريدين والعارفين، فلم يأمر الله به ولا رسوله ﷺ، بل قد نهى عنه في مواضع كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ آل عمران:١٣٩.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا

---

(١) رواه البخاري في الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه ١/٢٨ (٥٢)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ٣/١٢١٩ (١٥٩٩).

تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ النحل:١٢٦/١٢٨.

وقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ الحديد:٢٢/٢٣.

وأمثال ذلك كثير، وذلك أنه لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة، ولا فائدة فيه، ومالا فائدة فيه لا يأمر الله به. نعم لا يأثم صاحبه إذا لم يقترن بحزنه محرم كما يحزن على المصائب.

وقد ورد عند البخاري من حديث أنس بن مالك ﷺ أنه قال: (دَخلنَا مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ عَلى أَبِي سَيْفٍ القَيْنِ، وَكَانَ ظِئْرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَليْهِ السَّلام، فَأَخَذَ رَسُول اللهِ ﷺ إِبْرَاهِيمَ فَقبَّلَهُ وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخلنَا عَليْهِ بَعْدَ ذَلكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنفْسِهِ، فَجَعَلتْ عَيْنَا رَسُول اللهِ ﷺ تَذْرفَان، فَقَال لهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ﷺ: وَأَنْتَ يَا رَسُول اللهِ؟ فَقَال: يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَال ﷺ: إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلبَ يَحْزَنُ، وَلا نَقُول إِلا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمحْزُونُونَ) [(١)].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: إنا بك لمحزونون ٤٣٩/١ (١٢٤١)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ بالصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك ١٨٠٧/٤ (٢٣١٥). والظئر زوج مرضعته وهي خولة بنت المنذر الأنصارية النجارية، تذرفان يجري دمعهما.

﴿مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ۝٨٤﴾ يوسف:٨٤ .

وقد يقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه، ويكون محمودا من تلك الجهة لا من جهة الحزن، كالحزين على مصيبة في دينه، وعلى مصائب المسلمين عموما، فهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير وبغض الشر وتوابع ذلك. ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمور من الصبر، والجهاد، وجلب منفعة، ودفع مضرة منهي عنها، وإلا كان حسب صاحبه رفع الإثم عنه من جهة الحزن، وأما إن أفضى إلى ضعف القلب واشتغاله به عن فعل ما أمر الله ورسوله به، كان مذموما عليه من تلك الجهة، وإن كان محمودا من جهة أخرى[1].

وأما المحبة لله والتوكل والإخلاص له ونحو ذلك فهذه كلها خير محض، وهي حسنة محبوبة في حق كل النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ومن قال: إن هذه المقامات تكون للعامة دون الخاصة، فقد غلط في ذلك إن أراد خروج الخاصة عنها، فإن هذه لا يخرج عنها مؤمن قط، وإنما يخرج عنها الكافر والمنافق، وهذه المقامات ينقسم الناس فيها إلى خصوص وعموم فللخاصة خاصها، وللعامة عامها [2].

- ترتيب المقامات ترتيب المشروط المتوقف على شرطه.

ذكر ابن القيم أن مقامات السالكين في ترتيبها إنما هو ترتيب

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠/١٧ بتصرف .
(٢) السابق ١٠/١٧ بتصرف .

المشروط المتوقف على شرطه المصاحب له، ومثال ذلك أن الرضا مترتب على الصبر لتوقف الرضا عليه، واستحالة ثبوته بدونه. فإذا قيل: إن مقام الرضا بعد مقام الصبر لا يعني به أنه يفارق الصبر، وينتقل إلى الرضا، وإنما يعني أنه لا يحصل له مقام الرضا حتى يتقدم له قبله مقام الصبر، ولا بد من فهم هذا الترتيب في مقامات العبودية.

وإذا كان الأمر كذلك علمت أن القصد والعزم متقدم على سائر المقامات والمنازل ومصاحب له فلا وجه لتأخيره، وعلمت بذلك أن المحاسبة متقدمة على التوبة بالرتبة أيضا، فإنه إذا حاسب العبد نفسه خرج مما عليه، وهي حقيقة التوبة، وأن منزلة التوكل قبل منزلة الإنابة لأنه يتوكل في حصولها، فالتوكل وسيلة والإنابة غاية.

وقد روى البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يتهجد قال: (اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت) [(١)].

وكذلك مقام التوحيد أولى المقامات أن يبدأ به كما أنه أول دعوة الرسل كلهم. وقد روى البخاري من حديث ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ لما بعث معاذ بن جبل ﷺ إلى اليمن قال له: (إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّل مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالى، فَإِذا عَرَفُوا ذلكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي

(١) رواه البخاري في التهجد، باب التهجد بالليل ١/٣٧٧ (١٠٦٩)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه ١/٥٣٢ (٧٦٩).

يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ) [(١)]. وفي رواية عند البخاري: (إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، عِبَادَةُ اللهِ) [(٢)].

وفي رواية ثالثة: (ادْعُهُمْ إلى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلهَ إلا اللهُ وَأَنِّي رَسُول اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لذلكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ) [(٣)].

ولأنه لا يصح مقام من المقامات، ولا حال من الأحوال إلا بالتوحيد فلا وجه لجعله آخر المقامات، كما فعل صاحب المنازل، وهو مفتاح دعوة الرسل، وأول فرض فرضه الله على العباد، وما عدا هذا من الأقوال فخطأ كقول من يقول: أول الفروض النظر، أو القصد إلى النظر، أو المعرفة، أو الشك الذي يوجب النظر[(٤)].

وكل هذه الأقوال خطأ، بل أول الواجبات مفتاح دعوة المرسلين كلهم وهو أول ما دعا إليه فاتحهم نوح فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾ الأعراف:٥٩. وهو أول ما دعا إليه خاتمهم محمد ﷺ.

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ٦/٢٦٨٥ (٦٩٣٧).

(٢) البخاري في الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس ٢/٥٢٩ (١٣٨٩).

(٣) رواه البخاري في كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة ٢/٥٠٥ (١٣٣١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ١/٥٠ (١٩).

(٤) مدارج السالكين لابن القيم ١/١٣٥ بتصرف.

• **الاختلاف بين الصوفية في عدد المقامات وترتيبها.**

ذكر ابن القيم أن أرباب السلوك اختلفوا في عدد المقامات وترتيبها اختلافا كثيرا، وسبب الاختلاف أن كل واحد منهم يصف منازل سيره، وحال سلوكه وتجربته، ثم يجعل ذلك قاعدة عامة يطبقها على الآخرين، فلهم اختلاف في بعض منازل السير: هل هي من قسم الأحوال أو المقامات؟ ويفرق بعضهم بينهما بأن المقامات كسبية والأحوال وهبية، ومنهم من يقول: الأحوال من نتائج المقامات، والمقامات نتائج الأعمال، فكل من كان أصلح عملا كان أعلى مقاما، وكل من كان أعلى مقاما كان أعظم حالا. فمما اختلفوا فيه الرضا، هل هو حال أو مقام؟ فيه خلاف بين الخراسانيين والعراقيين.

ومن المقامات عندهم ما يكون جامعا لمقامين، ومنها ما يكون جامعا لأكثر من ذلك. ومنها ما يندرج فيه جميع المقامات فلا يستحق صاحبه اسمه إلا عند استجماع جميع المقامات فيه، فالتوبة عند بعضهم جامعة لمقام المحاسبة ومقام الخوف.

وقد يعد كلام بعضهم وجها مقبولا كمقام المحبة فإنه جامع لمقام المعرفة والخوف والرجاء والإرادة، فالمحبة معنى يلتئم من هذه الأربعة وبها تحققها، ومقام الخشية جامع لمقام المعرفة بالله والمعرفة بحق عبوديته، فمتى عرف الله، وعرف حقه اشتدت خشيته له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ فاطر:٢٨. فالعلماء به وبأمره هم أهل خشيته.

ومقام الشكر جامع لجميع مقامات الإيمان، ولذلك كان الشكر

أرفعها وأعلاها، ويتضمن التوكل والإنابة والحب والإخبات والخشوع والرجاء، فجميع المقامات مندرجة فيه لا يستحق صاحبه اسمه على الإطلاق إلا باستجماع المقامات له، ولهذا كان الإيمان نصفين نصف صبر ونصف شكر، والصبر داخل في الشكر، فرجع الإيمان كله شكرا، والشاكرون هم أقل العباد كما قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ سبأ:١٣.

وكل مقام من هذه المقامات فالسالكون بالنسبة إليه نوعان، أبرار ومقربون، وهكذا مراتب الإيمان جميعها، غير أن الترتيب الذي يشير إليه كل مرتب للمنازل لا يخلو عن تحكم ودعوى من غير مطابقة، فإن العبد إذا التزم عقد الإسلام ودخل فيه كله فقد التزم لوازمه الظاهرة والباطنة، ومقاماته وأحواله، وله في كل عقد من عقوده وواجب من واجباته أحوال ومقامات، لا يكون موفيا لذلك العقد والواجب إلا بها، وكلما وفى واجبا أشرف على واجب آخر بعده، وكلما قطع منزلة استقبل أخرى [1].

- التزام عقد الإسلام التزام بلوازمه الظاهرة والباطنة.

ويذكر ابن القيم أن السابقين من العابدين تكلموا على أعمال القلوب وعلى الأحوال كلاما مفصلا جامعا مبينا مطلقا من غير ترتيب ولا حصر للمقامات بعدد معلوم، فإنهم كانوا أجل من هذا، وهمهم أعلى وأشرف، إنما هم حائمون على اقتباس الحكمة والمعرفة وطهارة

(١) السابق ١/١٣٨ بتصرف.

القلوب وزكاة النفوس وتصحيح المعاملة، ولهذا كان كلامهم قليل فيه البركة، وكلام المتأخرين كثير طويل قليل البركة.

والأولى في توحيد العبودية بنا أن نذكر منازل العبودية الواردة في القرآن والسنة، ونشير إلى معرفة حدودها ومراتبها، إذ معرفة ذلك من تمام معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله ﷺ، وقد وصف الله تعالى من لم يعرفها بالجهل والنفاق فقال تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ التوبة:٩٧. فبمعرفة حدودها دراية، والقيام بها رعاية، يستكمل العبد الإيمان ويكون من أهل إياك نعبد وإياك نستعين[(١)].

ولما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح، وهما الهدى ودين الحق، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ العصر:١/٣.

أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما والتواصي بهما، كان حقيقا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره، بل أنفاسه فيما ينال به المطالب العالية، ويخلص به من الخسران المبين، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره، واستخراج

(١) السابق ١/١٣٩ بتصرف.

كنوزه، وإثارة دفائنه، وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمة عليه، فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والموصل لهم إلى سبيل الرشاد، فالحقيقة والطريقة والأذواق والمواجيد الصحيحة كلها لا تقتبس إلا من مشكاته، ولا تستثمر إلا من شجراته [(١)].

وذكر ابن القيم رحمه الله أن الناس انقسموا بحسب معرفة الحق والعمل به، إلى ثلاثة أقسام، لأن العبد إما أن يكون عالما بالحق أو جاهلا به، والعالم بالحق إما أن يكون عاملا بموجبه أو مخالفا له، فهذه أقسام المكلفين لا يخرجون عنها البتة، فالعالم بالحق العامل به هو المنعم عليه، وهو الذي زكى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وهو المفلح، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ الشمس:٩.

والعالم به المتبع هواه هو المغضوب عليه، والجاهل بالحق هو الضال، والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل، والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل، فكل منهما ضال مغضوب عليه، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به [(٢)].

- النعمة المطلقة لأهل الإيمان ومطلق النعمة للمؤمن والكافر.

ذكر ابن القيم أن النعمة من جنس الإحسان، بل هي الإحسان، والرب تعالى إحسانه على البر والفاجر والمؤمن والكافر، وأما الإحسان المطلق، فللذين اتقوا والذين هم محسنون.

---

(١) السابق ١/٦: ٧ بتصرف.

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١/١١ بتصرف.

وبيان ذلك أن مطلق النعمة تعود على المؤمن والكافر فكل الخلق في نعمه.قال تعالى عن مطلق النعمة: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾ النحل:١٨. وقال تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣)﴾ الزخرف:١٣. وقال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣)﴾ النحل:٥٣.

أما النعمة المطلقة فهي لأهل الإيمان لأنها موجبة للفلاح الدائم، كما قال تعالى عن النعمة المطلقة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)﴾ المائدة:١١.

وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣)﴾ الأنفال:٥٣. وقال: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧)﴾ الصافات:٥٤/٥٧.

إن الإنعام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية التي هي العلم النافع والعمل الصالح، وهي الهدى ودين الحق ويتضمن كمال الإنعام بحسن الثواب والجزاء فهذا تمام النعمة [1].

- العلة في تقديم العبادة على الاستعانة.

قرن الله العبادة بالاستعانة وجعلهما محور التوحيد لكل من أراد أن

---

(١) السابق ١/١٣ بتصرف.

يتبع النهج الأسمى في السلوك والعبادة، وقد ذكر ابن القيم أن تقديم العبادة على الاستعانة لعلل عظيمة من أبرزها:

١- أن تقديم العبادة على الاستعانة من باب تقديم الغايات على الوسائل، إذ العبادة هي الغاية التي خلق العباد من أجلها، والاستعانة وسيلة إلي تحصيلها.

٢- أن العبادة في إياك نعبد متعلقة بإلوهية الله واسمه الله، والاستعانة في إياك نستعين متعلقة بربوبيته واسمه الرب، فقدم إياك نعبد على إياك نستعين كما قدم اسم الله على الرب لأن توحيد الإلوهية متضمن لتوحيد الربوبية.

٣- أن العبادة في قول العبد: إياك نعبد، قسم الرب، فكان من الشطر الأول الذي هو ثناء على الله تعالى لكونه أولى به، وإياك نستعين قسم العبد، فكان من الشطر الذي له وهو اهدنا الصراط المستقيم إلى آخر السورة روى مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (قال اللهُ تعالى قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدِي نِصفين ولِعبدِي ما سأل فإذا قال العبدُ: الحمدُ للهِ رب العالمِين، قال اللهُ تعالى: حمِدني عبدِي، وإذا قال: الرحمنِ الرحِيم، قال اللهُ تعالى: أثنى عليٍّ عبدِي، وإذا قال: مالِكِ يومِ الدينِ، قال: مجدنِي عبدِي، وقال مرة: فوض إلي عبدِي، فإذا قال: إياك نعبُدُ وإياك نستعِينُ، قال: هذا بيني وبين عبدِي ولِعبدِي ما سأل، فإذا قال: اهدِنا الصراط المُستقِيم صِراط الذِين أنعمت عليهِم غيرِ المغضُوبِ عليهِم ولا الضالين، قال: هذا لِعبدِي

ولِعبدِي ما سأل) [(١)].

٤- أن العبادة المطلقة تتضمن الاستعانة من غير عكس، فكل عابد لله عبودية تامة مستعين به، ولا ينعكس لأن صاحب الأغراض والشهوات، قد يستعين به على شهواته، فكانت العبادة أكمل وأتم، ولهذا كانت قسم الرب، ولأن الاستعانة جزء من العبادة من غير عكس ولأن الاستعانة طلب منه والعبادة طلب له، ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص والاستعانة تكون من مخلص ومن غير مخلص.

٥- ولأن العبادة حقه الذي أوجبه عليك، والاستعانة طلب العون على العبادة، وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك، وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته، ولأن العبادة شكر نعمته عليك، والله يحب أن يشكر، والإعانة فعله بك، وتوفيقه لك، فإذا التزمت عبوديته ودخلت تحت رقها أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رقها سببا لنيل الإعانة، وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم. والعبودية محفوفة بإعانتين إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى وهكذا أبدا حتى يقضي العبد نحبه.

٦- أن إياك نعبد هو حق الله وهو متعلق بمحبته ورضاه، وإياك نستعين طلب فعله وهو متعلق بمشيئته، وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته، فإن الكون كله متعلق بمشيئته والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار والطاعات والمعاصي. أما المتعلق بمحبته طاعاتهم وإيمانهم، فالكفار أهل مشيئته، والمؤمنون أهل محبته، ولهذا لا يستقر في

(١) مسلم في الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة ١/٢٩٦ (٣٩٥).

النار شيء لله أبدا، وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته. فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم إياك نعبد على إياك نستعين[1].

• الناس في العبادة والاستعانة أربعة أقسام.

لما كانت العبادة والاستعانة هما مدار توحيد العبودية لله تعالى، فإن أصناف الناس بحسب هذين الأصلين الشريفين أربعة أقسام بالضرورة، وقد بين ابن القيم حال كل قسم منهم على النحو التالي:

١- القسم الأول وهو أجلها وأفضلها، هم أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مرادهم، وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها، ولهذا كان من أفضل ما يسأل الرب تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته، وهو الذي علمه النبي لمعاذ بن جبل ﷺ فقال: (يا معاذ، والله إني لأحبك، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)[2].

فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته، وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه فتأملها.

٢- القسم الثاني وهو الذي يقابل هؤلاء، وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة ولا استعانة، بل إن سأله أحدهم

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/٧٧ بتصرف.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الوتر، باب في الاستغفار ٢/٨٦ (١٥٢٢)، وأحمد في المسند ٥/٢٤٤ (٢٢١٧٢)، وصححه الشيخ الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٩٤٩)، وصحيح الترغيب والترهيب (١٥٩٦).

واستعان به، فعلى حظوظه وشهواته لا على مرضاة ربه وحقوقه، فإنه سبحانه يسأله من في السموات والأرض، يسأله أولياؤه وأعداؤه، ويمد هؤلاء وهؤلاء، وأبغض خلقه عدوه إبليس، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها، ومتعه بها، ولكن لما لم تكن عونا له على مرضاته، كانت زيادة له في شقوته وبعده عن الله، وطرده عنه.

وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه ولم يكن عونا على طاعته كان مبعدا له عن مرضاته، قاطعا له عنه ولا بد، وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه، ومحبته له، فيمنعه حماية، وصيانة وحفظا لا بخلا، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه، فيظن بجهله أن الله لا يحبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه، ويصبح هذا حشو قلبه، ولا يشعر به، والمعصوم من عصمه الله، والإنسان على نفسه بصيرة، وعلامة هذا حمله على الأقدار، وعتابه الباطن لها، فلو كشف عن حاصله وسره لرأي هناك معاتبة القدر واتهامه، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتي والأمر ليس إلي، والعاقل خصم نفسه، والجاهل خصم أقدار ربه. فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئا معينا خيرته وعاقبته مغيبة عنك، وإذا لم تجد من سؤاله بدا، فعلقه على شرط علمه تعالى، ففيه الخيرة، وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له بمصالحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى

تفاصيلها، ولا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، بل إن وكل إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره[1].

٣- القسم الثالث من له نوع عبادة بلا استعانة، كالقدرية القائلين بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل، فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها، وتعريف الطريق وإرسال الرسل، وتمكينه من الفعل، فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها، بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة، فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء، ولكن أولياءه اختاروا لنفوسهم الإيمان، وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد أوجب لهم الإيمان، وخذل هؤلاء بأمر آخر أوجب لهم الكفر، فهولاء لهم نصيب منقوص من العبادة لا استعانة معه، فهم موكولون إلى أنفسهم، مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد، فالإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده.

٤- القسم الرابع وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن ،ولم يدر مع ما يحبه ويرضاه، فتوكل عليه واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه، وطلبها منه، وأنزلها به فقضيت له، وأسعف بها، سواء كانت أموالا أو رياسة أو جاها عند الخلق، أو أحوالا من كشف وتأثير وقوة وتمكين، ولكن لا عاقبة له فإنها من جنس الملْك الظاهر والأموال، لا تستلزم الإسلام ،فضلا عن

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/٧٨: ٧٩ بتصرف.

الولاية والقرب من الله، فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر والمؤمن والكافر، فمن استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه، وأنه من أوليائه المقربين فهو من أجهل الجاهلين، وأبعدهم عن معرفة الله، ومعرفة دينه، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه ويكرهه ويسخطه [١].

• **لا يكون العبد متحققا بتوحيد العبودية إلا بأصلين عظيمين.**

إن العبد لا يكون متحققا بإياك نعبد إلا بأصلين عظيمين، أحدهما متابعة الرسول، والثاني الإخلاص للمعبود، وقد تقدم الحديث عن هذين الأصلين، غير أن ما يعنينا هو ما ذكره ابن القيم في تقسيم لأنواع الناس بحسب هذين الأصلين إلى أربعة أقسام:

الضرب الأول: أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة، وهم أهل إياك نعبد حقيقة، فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله، وعطاؤهم لله، ومنعهم لله، وحبهم لله، وبغضهم لله، فمعاملتهم ظاهرا وباطنا لوجه الله وحده، لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكورا، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة والمنزلة في قلوبهم، ولا هربا من ذمهم، بل قد عدوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، فالعمل لأجل الناس وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجائهم للضر والنفع منهم لا يكون من عارف بهم البتة، بل من جاهل بشأنهم، وجاهل بربه، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم، ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه، ولا

---

(١) المصدر السابق ١/ ٨٠ ٨٢ بتصرف.

يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله، وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم. وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله، ولما يحبه ويرضاه، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه، وهو الذي بَلا عباده بالموت والحياة لأجله كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ الملك:٢. فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه على متابعة أمره وما عدا ذلك فهو مردود على عامله يرد عليه أحوج ما هو إليه هباء منثورا.

الضرب الثاني: من لا إخلاص له ولا متابعة فليس عمله موافقا لشرعه، وليس هو خالصا للمعبود كأعمال المتزينين للناس المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله، وهؤلاء شرار الخلق وأمقتهم إلى الله ﷻ، ولهم أوفر نصيب من قوله تعالى:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ آل عمران:١٨٨.

يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك، ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص، وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف من المنتسبين إلى العلم والفقر والعبادة عن الصراط المستقيم، فإنهم يرتكبون البدع والضلالات والرياء والسمعة، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الإتباع والإخلاص والعلم، فهم أهل الغضب والضلال.

الضرب الثالث: من هو مخلص في أعماله لكنها على غير متابعة الأمر، كجهال العباد والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر، وكل من عبد

الله بغير أمره، واعتقد عبادته هذه قربة إلى الله فهذا حاله، كمن يظن أن سماع المكاء والتصدية قربة، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة، وأمثال ذلك.

الضرب الرابع: من أعماله على متابعة الأمر لكنها لغير الله، كطاعة المرائين وكالرجل يقاتل رياء وحمية وشجاعة، ويحج ليقال حج، ويقرأ القرآن ليقال قارئ، فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها لكنها غير صالحة فلا تقبل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ البينة:٥. فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر، والإخلاص له في العبادة، وهم أهل إياك نعبد وإياك نستعين [(١)].

• أهل مقام إياك نعبد لهم في أفضل العبادة وأنفعها أربع طرق.

أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص في مقام إياك نعبد تنوع الناس فيها وانقسموا إلى أربعة أصناف:

الصنف الأول: أنفع العبادات عندهم وأفضلها أشقها على النفوس وأصعبها، قالوا لأنه أبعد الأشياء عن هواها وهو حقيقة التعبد، قالوا والأجر على قدر المشقة، ورووا حديثا لا أصل له: أفضل الأعمال أحمرها أي أصعبها وأشقها. وهؤلاء هم أهل المجاهدات والجور على النفوس، قالوا وإنما تستقيم النفوس بذلك إذ طبعها الكسل والمهانة والإخلاد إلى الأرض فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

---

(١) المصدر السابق ١/٨٣ ٨٥ بتصرف.

الصنف الثاني: قالوا أفضل العبادات التجرد والزهد في الدنيا والتقلل منها غاية الإمكان، وطرح الاهتمام بها، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها، ثم هؤلاء قسمان: فعوامهم ظنوا أن هذا غاية، فشمروا إليه وعملوا عليه، ودعوا الناس إليه، وقالوا: هو أفضل من درجة العلم والعبادة، فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها، وخواصهم رأوا هذا مقصودا لغيره، وأن المقصود به عكوف القلب على طاعة الله، وجمع الهمة عليه، وتفريغ القلب لمحبته، والإنابة إليه والتوكل عليه والاشتغال بمرضاته، فرأوا أن أفضل العبادات في الجمعية على الله ودوام ذكره بالقلب واللسان والاشتغال بمراقبته دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له.

ثم هؤلاء قسمان: فالعارفون المتبعون منهم إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه، ولو فرقهم وأذهب جمعيتهم، والمنحرفون منهم يقولون: المقصود من العبادة جمعية القلب على الله، فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفت إليه، وربما يقول قائلهم: يطالب بالأوراد من كان غافلا، فكيف بقلب كل أوقاته ورد. ثم هؤلاء المنحرفون أيضا قسمان: منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته، ومنهم من يقوم بها ويترك السنن والنوافل وتعلم العلم النافع لجمعيته، وسأل بعض هؤلاء شيخا عارفا، فقال: إذا أذن المؤذن وأنا في جمعيتي على الله، فإن قمت وخرجت تفرقت، وإن بقيت على حالي بقيت على جمعيتي فما الأفضل في حقي؟ فقال: إذا أذن المؤذن وأنت تحت العرش فقم وأجب داعي الله، ثم عد إلى موضعك وهذا لأن الجمعية على الله حظ الروح والقلب، وإجابة الداعي حق الرب، ومن آثر حظ روحه على حق ربه، فليس من

أهل إياك نعبد.

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعد، فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر، فرأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس، وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل، فتصدوا له وعملوا عليه، واحتجوا بحديث ضعيف وهو قول النبي ﷺ: (الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله) [(١)].

واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه، وعمل النفاع متعد إلى الغير، وأين أحدهما من الآخر؟ قالوا: ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، قالوا: وقد قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: (لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم) [(٢)]. وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدي. واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله وصاحب النفع لا ينقطع عمله ما دام نفعه الذي نسب إليه، واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم، ونفعهم في معاشهم ومعادهم، لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب، ولهذا أنكر النبي

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ٨٦/١٠ (١٠٠٣٣)، والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس بن مالك رضي الله عنه ٤٣/٦ (٧٤٤٧)، وانظر الجامع الصغير وزيادته ٦٧٠/١ (٦٦٩١)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف جدا، انظر ضعيف الجامع (٢٩٤٦)، والسلسلة الضعيفة (٣٥٩٠).

(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة ١٠٧٧/٣ (٢٧٨٣).

ﷺ على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد، وترك مخالطة الناس، ورأى هؤلاء التفرق في أمر الله ونفع عباده، والإحسان إليهم أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك(١).

الصنف الرابع: قالوا إن أفضل العبادة العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته، فأفضل العبادات في وقت الجهاد الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض كما في حالة الحذر والأمن من مكر الأعداء كصلاة الخوف.

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلا القيام بحقه والاشتغال به عن الورد المستحب، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل، والأفضل في أوقات السحر الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار. والأفضل في وقت استرشاد الطالب وتعليم الجاهل الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل في أوقات الأذان ترك ما هو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن، والأفضل في أوقات الصلوات الخمس الجد والنصح في إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبادرة إليها في أول الوقت، والخروج إلى الجامع وإن بعد كان أفضل.

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه، أو البدن، أو المال الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك. والأفضل في وقت قراءة القرآن جمعية القلب والهمة على

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/٨٥ ٨٨ بتصرف.

تدبره وتفهمه ،حتى كأن الله تعالى يخاطبك به، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره.

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك. والأفضل في أيام عشر ذي الحجة الإكثار من التعبد لاسيما التكبير والتهليل والتحميد، فهو أفضل من الجهاد غير المتعين، والأفضل في العشر الأخير من رمضان لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم وإقرائهم القرآن عند كثير من العلماء.

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته عيادته وحضور جنازته وتشييعه وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك. والأفضل في وقت نزول النوازل وأذية الناس لك أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم دون الهرب منهم، فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه. والأفضل خلطتهم في الخير فهي خير من اعتزالهم فيه واعتزالهم في الشر فهو أفضل من خلطتهم فيه، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم، فالأفضل في كل وقت وحال إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه.

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق، والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد، فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته، فهو يعبد الله على وجه واحد، وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره، بل

غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت، فمدار تعبده عليها، فهو لا يزال متنقلا في منازل العبودية، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى، فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره، فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العباد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم، فهذا هو العبد المطلق الذي لم تملكه الرسوم، ولم تقيده القيود، ولم يكن عمله على مراد نفسه، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات، بل هو على مراد ربه ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه.

هذا هو المتحقق بإياك نعبد وإياك نستعين حقا، القائم بهما صدقا، ملبسه ما تهيأ، ومأكله ما تيسر، واشتغاله بما أمر الله به في كل وقت بوقته، ومجلسه حيث انتهى به المكان، ووجده خاليا لا تملكه إشارة، ولا يتعبده قيد، ولا يستولي عليه رسم، حر مجرد، دائر مع الأمر حيث دار، يدين بدين من أمره أني توجهت ركائبه، ويدور معه حيث استقلت مضاربه، يأنس به كل محق، ويستوحش منه كل مبطل، كالغيث حيث وقع نفع، وكالنخلة لا يسقط ورقها، وكلها منفعة حتى شوكها، وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله، والغضب إذا انتهكت محارم الله، فهو لله وبالله ومع الله(١).

- **مبني توحيد العبودية والإيمان القول والعمل ظاهرا وباطنا.**

ومبنى إياك نعبد على أربع قواعد، التحقق بما يحبه الله ورسوله

---

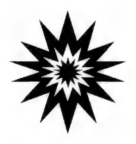
(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/٨٨ ٩٠ بتصرف.

ويرضاه من قول اللسان والقلب وعمل القلب والجوارح، فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع، فأصحاب إياك نعبد حقا هم أصحابها، فقول القلب هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته، وإلقائه على لسان رسله.

وقول اللسان هو الإخبار عنه بذلك، والدعوة إليه، والذب عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره وتبليغ أوامره.

وعمل القلب كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره وعن نواهيه وعلى أقداره والرضا به وعنه، والموالاة فيه والمعاداة فيه والذل له والخضوع والإخبات إليه، والطمأنينة به وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها أوجب من أعمال الجوارح، ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

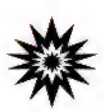
وأعمال الجوارح كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك. فإياك نعبد التزام لأحكام هذه الأربعة، وإقرار بها، وإياك نستعين طلب للإعانة عليها والتوفيق لها، واهدنا الصراط المستقيم متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل، وإلهام القيام بهما وسلوك، طريق السالكين إلى الله بها [1].



(١) السابق ١/١٠١ بتصرف.

المطلب الخامس

أحكام العبودية المتعلقة بالقلب واللازمة للمقتصدين والسابقين



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن أعمال القلوب وكونها من أصول الإيمان وقواعد الدين، وبينا أن الظالم لنفسه ممن أورثوا الكتاب فيه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه، ومن كان معه إيمان حقيقي فمعه من الأعمال بقدر إيمانه.

وعلمنا أن أعمال القلوب ليست مرتبة كالمقامات في السير الحسي، فالصدق والإخلاص لازمان لجميع شعب الإيمان، وأعمال القلوب كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة، كما أن ترتيب المقامات ترتيب المشروط المتوقف على شرطه.

وبينا أن الاختلاف بين الصوفية في عدد المقامات وترتيبها اختلاف شديد، وأن التزام عقد الإسلام إنما هو التزام بلوازمه الظاهرة والباطنة، وفرقنا بين النعمة المطلقة لأهل الإيمان ومطلق النعمة للمؤمن والكافر، وأن الناس في العبادة والاستعانة أربعة أقسام، وأنه لا يكون العبد متحققا بتوحيد العبودية إلا بأصلين عظيمين، كما أن أهل مقام إياك

نعبد لهم في أفضل العبادة وأنفعها أربعة طرق، وأن مبني توحيد العبودية القول والعمل ظاهرا وباطنا.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن أحكام العبودية المتعلقة بالقلب واللازمة للمقتصدين والسابقين.

• أعمال القلوب وحتمية تعلقها بالعبادة أو تعلقها بضدها.

لما كان القلب هو أساس صلاح الإنسان أو فساده كما ورد النص على ذلك عند البخاري من حديث النعمان بن بشير ﷺ أن رسول اللهِ ﷺ قال: (أَلا وإن فِي الجسد مُضْغَة، إذا صَلَحت صَلَح الجسد كُلهُ، وإذا فَسدت فَسد الجسد كُلهُ، أَلا وهِي القَلب) [١]. فإن صلاحه يكون بصلاح أعماله، وفساده يكون بفساد أعماله، فأعماله لا محالة بين نجدين متقابلين.

والقلب هو سلطان البدن والأعضاء الأخرى كالرعية، ولما كانت منطقة الكسب في القلب هي المسيطرة على الخواطر في حديث النفس من جهة، وهي المسيطرة أيضا على الجوارح في سائر أعضاء البدن من جهة أخرى، كان القلب بالنسبة لهذه الأركان والأعضاء كالملك المتصرف في الجنود الذي تصدر كلها عن أمره، ويستعملها فيما شاء، فكلها تحت سلطانه وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله، فالقلب فيه مشيئة العبد ونيته وإرادته وسائر أعمال القلوب، والأعضاء منفذة لما يأمرها به، قابلة لما يأتيها من هديته،

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه ١/٢٨ (٥٢)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ٣/١٢١٩ (١٥٩٩).

ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته، وهو المسئول عنها كلها، لأن كل راع مسئول عن رعيته [(١)].

وكل ما يحدث في أعمال الجوارح إنما هو آثار ناتجة عن أعمال القلب، ولا يمكن أن تنعدم أعمال الجوارح في المكلفين أبدا إلا بالنوم أو فقدان الوعي. وكما كانت أعمال الجوارح في الإنسان مترددة بين الطاعة والعصيان، فكذلك أعمال القلب التي تحركها مترددة بين الطاعة والعصيان، فلن نجد إلا عملا صالحا أو طالحا، أو بنسبة تتردد بينهما إن مال إلى الصلاح بقدر ابتعد عن الآخر بالنسبة التي تقابله.

ولذلك لما علم عدو الله إبليس أن مدار المسئولية على القلب قارنه وعكف عليه بالوسواس ليلقي فيه جميع أنواع الشبهات، ويقوي جميع أنواع الشهوات، ويزين له من الأحوال والأعمال ما يصده به عن سواء الطريق، ويمده من أسباب الغي بما يقطع عليه عن أسباب التوفيق.

والإنسان في جميع أعماله القلبية مخير بين عبادتين، بين عبادة الله وحده لا شريك له وعبادة الطاغوت، والطاغوت هو الشيطان ومن تبعه من بني الإنسان، ومعلوم أن الشيطان لما نزل إلى الأرض نصب لنفسه عرشا على الماء ليتشبه باستواء الله على عرشه في السماء، بحيث يكون هو المعبود بالباطل والشرك في مقابل الإله المعبود بحق، فجعل نفسه إلها لأتباعه، وقرب إليه من كان من بني جنسه، أو كان من حزبه وطريقته.

---

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم ١/٥ بتصرف.

روى مسلم من حديث جابر بن عبد الله ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إِن إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلى المَاءِ، ثمَّ يَبْعَث سَرَايَاهُ) [1].

وقد أصبح الشيطان رأس الطواغيت ومؤسس سبل الطغيان لكل ملك ظالم من بني الإنسان، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾ النساء:٧٦.

وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ٦٠﴾ النساء:٦٠.

والإنسان بالخيار بين عبودية الملك الحق الذي استوى على عرشه في السماء وعرشه على الماء، وعبودية الطاغوت والشيطان الذي استوى على عرشه في الأرض وعرشه على الماء.

قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾ البقرة:٢٥٦/٢٥٧.

ومن ثم فإن الإنسان لا محالة بين عبوديتين إن أن يكون عبدا لله أو

---

(١) رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قرينا ٤/٢١٦٧ (٢٨١٣).

عبدا لشيطانه وهواه، وأعمال الجوارح في الإنسان إما تتحرك طاعة الله وإما تتحرك طاعة لغيره، وكذلك فإن أعمال القلوب إما أن تنصرف إلى عبودية الله، أو تنصرف إلى عبودية ما سواه، فالنية والإرادة والعزم والقصد والحرص والرغبة والاختيار والمشيئة كلها أعمال للقلب تدور حول صدق التوجه إما إلى الله ورسوله، وإما إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، بل يتحدد بمقدار تلك الأعمال القلبية قوة هذا التوجه في أعمال الإنسان وحركاته وسكناته.

روى البخاري من حديث عمر بن الخطاب ﷺ أنه سمع رسول اللهِ ﷺ يقول: (إنما الأعْمَال بالنيات، وإنمَا لكُل امْرِىءٍ ما نوَى: فَمَن كانت هِجْرَته إلى دُنيَا يُصِيبُها، أَوْ إِلى امْرَأَةٍ يَنكِحُها، فَهِجْرَته إِلى ما هاجَرَ إِليه)[1].

وكذلك الإخلاص في القلب والصدق والصفاء، والطهارة والنقاء، والمحبة والخوف والرجاء، والتفويض والتوكل والالتجاء، والصبر والغيرة والهيبة والحياء، كلها أعمال للقلب متلازمة تدور حول قوة الاعتقاد واليقين والتقوى الباعثة لحركة البدن في اتقاء ما يؤدي إلى هلكة الإنسان أو العمل على نجاته من النيران.

روى مسلم من حديث أبي مالك الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَان، وَالحَمْدُ للهِ تمْلأُ المِيزَان، وَسُبْحَان اللهِ

---

(١) البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي ١/٣ (١)، ومسلم في الإمارة، باب قوله ﷺ إنما الأعمال بالنية ٣/١٥١٥ (١٩٠٧).

وَالحَمْدُ للهِ تمْلآَن أَوْ تمْلأُ مَا بَيْن السَّمَاوَات وَالأَرْض، وَالصَّلاَةُ نورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَان، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالقُرْآن حُجَّةٌ لكَ أَوْ عَلَيْك، كُل الناسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نفْسَهُ فَمُعْتقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا) (١).

وكذلك التفكر والبصيرة، والمعرفة واليقظة والمحاسبة، والتوبة والورع والتواضع، والتسليم والرضا والسكينة، والزهد والإنابة والإخبات، والخشوع والخشية والمراقبة، والإيثار والثقة بالله كلها أعمال للقلب مترابطة تدل على مقدار الاعتصام بالله، وقوة اليقين والثبات على الاختيار، والتمسك بحبل الله في دار الابتلاء والاختبار.

- الإخلاص واجب مستحق لدرجة المقربين والسابقين.

حقيقة الإخلاص أن تجعل جميع أقوالك وأفعالك الظاهرة والباطنة صادرة عن إرادة خالصة لله، ونية وقصد وعزم واختيار تريد به تحقيق التوحيد في العبادة ووسيلة وغاية.

والخالص كالصافي إلا أن الخالص هو ما زالت عنه شوائبه بعد أن كانت فيه، كقول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ النحل:٦٦. والصافي قد يقال لما لا شائبة فيه (٢).

وروى البخاري من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبي ﷺ قال:

---

(١) مسلم في الطهارة، باب فضل الوضوء ١/٢٠٣ (٢٢٣) وموبقها مُهْلكها.

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني ص١٥٤، ولسان العرب ٧/٢٦، والقاموس المحيط للفيروز آبادي ١/٧٩٦.

(أربع من كن فيه، كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها) [(١)]. ومعنى خلصوا في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ﴾ يوسف:٨٠. أي انفردوا خالصين عن غيرهم.

وإخلاص المسلمين لربهم يعني أنهم أفردوا الله بعبادتهم لا يشركون به شيئا، وتبرؤوا مما يدعيه اليهود من التشبيه، والنصارى من التثليث.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ البينة:٥.

وروى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قبل نفسه) [(٢)]. وروى النسائي وصححه الألباني من حديث قيس بن عباد ﷺ أنه قال: (صَلى عَمَّارُ بْن يَاسِرِ بِالقَوْمِ صَلاةً أَخَفَّهَا فَكَأَنهُمْ أَنكَرُوهَا، فَقَال: أَلَمْ أُتِمَّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ؟ قَالوا: بَلى. قَال: أَمَا إِني دَعَوْت فِيهَا بِدُعَاءٍ كَان النبِيُّ ﷺ يَدْعُو بِهِ: اللهُمَّ بِعِلمِكَ الغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلى الخَلقِ، أَحْيِنِي مَا عَلمْت الحَيَاةَ خَيْرًا لي، وَتوَفَّنِي إِذا عَلمْت الوَفَاةَ خَيْرًا لي، وَأَسْأَلكَ خَشْيَتكَ فِي الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَكَلمَةَ الإِخْلاصِ فِي الرِّضَا وَالغَضَبِ، وَأَسْأَلكَ نعِيمًا لا يَنفَدُ، وَقُرَّةَ عَيْن لا تنقَطِعُ، وَأَسْأَلكَ الرِّضَاءَ بِالقَضَاءِ، ، وَلذةَ النظَرِ إِلى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب علامة المنافق ١/٢١ (٣٤)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق ١/٧٨ (٥٨).

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار ٥/٢٤٠٢ (٦٢٠١).

إلى لقَائِكَ، وَأَعُوذ بِكَ مِن ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَفِتنةٍ مُضِلةٍ، اللهُمَّ زَيِّنا بِزِينةِ الإِيمَان، واجْعَلنا هُدَاةً مُهْتَدِين)[١].

وروى النسائي وصححه الألباني من حديث مُصْعَبِ بْن سَعْدٍ عن أَبِيهِ ﷺ أنه قال في شأن عِكْرِمَةَ بْن أَبِي جَهْل لما أهدر النبي ﷺ دمه: (وَأَمَّا عِكْرِمَةُ فَرَكِبَ البَحْرَ فَأَصَابَتهُمْ عَاصِفٌ فقَال أَصْحَابُ السَّفِينةِ: أَخْلصُوا فَإِن آلهَتكُمْ لاَ تغْنى عَنكُمْ شَيئًا هَا هُنا. فَقَال عِكْرِمَةُ: وَاللهِ لئِن لمْ ينجِّني مِن البَحْرِ إلاَّ الإِخْلاَصُ لاَ ينجِّيني فِي البَرِّ غَيرُهُ، اللهُمَّ إن لك عَلي عَهْدًا إن أَنت عَافَيتني مِمَّا أَنا فِيهِ أَن آتي مُحَمَّدًا ﷺ حَتى أَضَعَ يدِي فِي يدِهِ فَلأَجِدَنهُ عَفُوًّا كَرِيمًا. فَجَاءَ فَأَسْلمَ)[٢].

ومعنى قول أصحاب السفينة أخلصوا أي وحدوا ربكم في الدعاء والاستغاثة، وقد كانوا يلجئون في الرخاء إلى اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وعند الشدائد يوحدون.

- العلامات الدالة على قيام الإخلاص لله في القلب.

جعل الله لأعمال القلوب أثارا وعلامات ظاهرة في البدن تدل على وجود كل عمل من أعمال القلوب لا محالة، بحيث يعجز الشخص عن

---

(١) رواه النسائي في كتاب صفة الصلاة ١/٣٨٨ (١٢٢٩)، وأحمد في المسند ٤/٢٦٤ (١٨٣٥١)، قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح، وصححه الشيخ الألباني في ظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم (١٢٩).

(٢) رواه النسائي في كتاب تحريم الدم، باب الحكم في المرتد ٢/٣٠٢ (٣٥٣٠)، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/٢٠٥ (١٦٦٥٦)، وصححه الشيخ الألباني، انظر صحيح أبي داود (٢٣٣٤) .

إخفائها مع طول الزمن، وقد جعلها الله دليلا يكشف عن حال المخلصين والمنافقين، وهذا الذي دعا أهل السنة إلى ربط العمل بالإيمان وجعلهم العمل ركنا فيه فلا إيمان إلا بعمل .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (لا إيمان إلا بعمل، ولا عمل إلا بعقد، ومثل ذلك مثل العمل الظاهر والباطن أحدهما مرتبط بصاحبه من أعمال القلوب وعمل الجوارح، ومثله قول رسول الله ﷺ: إنما الأعمال بالنيات. أي لا عمل إلا بعقد وقصد، لأن إنما، تحقيق للشيء ونفى لما سواه، فأثبت بذلك عمل الجوارح من المعاملات وعمل القلوب من النيات، فمثل العمل من الإيمان كمثل الشفتين من اللسان، لا يصح الكلام إلا بهما، لأن الشفتين تجمع الحروف، واللسان يظهر الكلام، وفى سقوط أحدهما بطلان الكلام، وكذلك في سقوط العمل ذهاب الإيمان، ولذلك حين عدد الله نعمه على الإنسان بالكلام ذكر الشفتين مع اللسان في قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾ البلد:٨/٩. بمعنى ألم نجعله ناظرا متكلما فعبر عن الكلام باللسان والشفتين لأنهما مكان له، وذكر الشفتين لأن الكلام الذي جرت به النعمة لا يتم إلا بهما) (١).

وقال أيضا: (ومثل الإيمان والإسلام أيضا كفسطاط قائم في الأرض له ظاهر وأطناب، وله عمود في باطنه، فالفسطاط مثل الإسلام له أركان من أعمال العلانية والجوارح وهو الأطناب التي تمسك أرجاء الفسطاط، والعمود الذي في وسط الفسطاط مثله كالإيمان لا قوام للفسطاط إلا به، فقد احتاج الفسطاط إليها إذ لا قوام له ولا قوة إلا بهما، كذلك الإسلام

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/٣٣٤.

في أعمال الجوارح لا قوام له إلا بالإيمان، والإيمان من أعمال القلوب لا نفع له إلا بالإسلام، وهو صالح الأعمال. وأيضا فإن الله قد جعل ضد الإسلام والإيمان واحدا، فلولا أنهما كشيء واحد في الحكم والمعنى ما كان ضدهما واحدا: فقال: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ آل عمران:٨٦. وقال ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ آل عمران: ٨٠. فجعل ضدهما الكفر. وعلى مثل هذا أخبر رسول الله ﷺ عن الإيمان والإسلام من صنف واحد، فقال في حديث ابن عمر: بنى الإسلام على خمس. وقال في حديث ابن عباس عن وفد عبد القيس أنهم سألوه عن الإيمان؟ فذكر هذه الأوصاف. فدل بذلك على أنه لا إيمان باطن إلا بإسلام ظاهر ولا إسلام ظاهر علانية ألا بإيمان سر، وأن الإيمان والعمل قرينان، لا ينفع أحدهما بدون صاحبه) [(١)].

ولو تلمسنا العلامات الظاهرة الدالة على وجود الإخلاص لله في القلب من خلال ما ورد في الكتاب والسنة، فيمكن ذكر ما تيسر منها على النحو التالي:

١- دوام الاستقامة على الموافقة والطاعة، فالإخلاص يعرف بدوام الاستقامة على الاتباع والطاعة في كل وقت، لأن المنافق قد يدعي الاستقامة في الظاهر وقلبه خال من الإخلاص لكنه لا يستطيع أن يداوم عليها في كل وقت، ولا يقوى على الثبات فيها، بل إن أظهر الاستقامة أظهرها رياء وطلبا لغرض في نفسه لا لله ﷻ، أما دوام الاستقامة في كل وقت فلا تكون إلا من مخلص موافق للاتباع في الطاعة لربه.

---

(١) السابق ٧/٣٣٥.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ النساء:١٤٢.

ولما كان قبول العمل عند الله ﷻ قائما على الإخلاص والمتابعة كان دوام الاستقامة على السنة في كل وقت دليلا على الإخلاص لله ﷻ، لأن المبتدع لديه إخلاص مشوب باتباعه لتنفيذ مراد غير الله وإن حسبه خيرا فلا بد من الإخلاص والمتابعة معا.

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾الأعراف:٢٩.

قال ابن كثير: (قل أمر ربي بالقسط أي بالعدل والاستقامة، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين، أي أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله وما جاءوا به من الشرائع، وبالإخلاص له في عبادته فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين أن يكون صوابا موافقا للشريعة وأن يكون خالصا من الشرك) [١].

٢- ومن علامات الإخلاص الجرأة في قول الحق، والغيرة من الوقوع في الحرمة والشرك، والخوف من الله وحده، وقطع الرجاء فيمن سواه من الخلق، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ المائدة:٥٤. قال تعالى: ﴿قُلْ

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٠٩.

﴿إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾﴾ الزمر: ١١/١٤.

روى أبو نعيم أن عمر بن هبيرة الذي ولي إمارة العراق في عهد الأمير يزيد بن عبد الملك بن مروان أرسل إلى أبي سعيد الحسن البصري وأبي عمر الشعبي واستضافهما شهرا، وفي يوم دخل عليهما وهو يتوكأ على عصاه، ثم جلس بينهما موقرا لهما، وقال لهما: إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يرسل إليَّ كتبا وأوامر، أعرف أن في تنفيذها الهلكة، فإن أطعته عصيت الله، وإن عصيته أطعت الله ﷻ، فهل تجداني لي معه مخرجا؟ فقال الحسن البصري للشعبي: يا أبا عمرو أجب الأمير؟ فتكلم الشعبي بكلام فيه شيء من نفاق، وأوصاه أن يفعل ما يرضي أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك. فقال عمر: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ فقال: أيها الأمير، قد قال الشعبي ما قد سمعت، فعاد عمر بن هبيرة كلامه وقال: ما تقول أنت يا أبا سعيد، فقال: أقول يا ابن هبيرة، يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ لا يعصى الله ما أمره، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، يا بن هبيرة، إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك، ولا يعصمك يزيد بن عبد الملك من الله ﷻ، يا عمر بن هبيرة، لا تأمن أن ينظر الله إليك نظرة مقت وأنت تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك، فيغلق بها باب المغفرة دونك. يا عمر بن هبيرة لقد أدركت ناسا من صدر هذه الأمة كانوا والله على الدنيا وهي مقبلة أشد إدبارا من إقبالكم عليها وهي مدبرة، يا ابن هبيرة إني أخوفك مقاما خوفكه الله فقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ إبراهيم: ١٤.

يا ابن هبيرة إن تك مع الله تعالى في طاعته كفاك بائقة يزيد بن عبد الملك، وإن تك مع يزيد بن عبد الملك على معاصي الله وكلك الله إليه، فبكى عمر بن هبيرة وقام بعبرته، فلما كان من الغد أرسل إليهما بجائزة، فكانت جائزة الحسن البصري أكبر من جائزة الشعبي، فخرج الشعبي إلى المسجد يصيح: أيها الناس من استطاع منكم أن يؤثر الله تعالى على خلقه فليفعل، فوالذي نفسي بيده ما قال الحسن البصري للأمير شيئا أجهله، ولكني أردت وجه الأمير فأقصاني الله منه [(١)].

٣- ومن علامات الإخلاص الزهد في متاع الغرور، وطلب الكفاية في الأمور، والتعامل مع الأسباب كطريق للتجاوز والمرور، والحرص على فعل المأمور وترك المحذور، وبغض الظهور مع الحضور. وروى البخاري من حديث أَبِي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (تَعِسَ عَبْدُ الدِّينارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إن أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِن لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تعِسَ وَانتكَسَ، وَإِذا شِيكَ فَلا انتقش طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذ بِعِنان فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ أَشْعَث رَأْسُهُ مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إن كَان فِي الحِرَاسَةِ كَان فِي الحِرَاسَةِ، وَإِن كَان فِي السَّاقَةِ كَان فِي السَّاقَةِ، إن اسْتَأْذن لَمْ يُؤْذن لهُ، وَإِن شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ) [(٢)].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني ١٤٩/٢ بتصرف، وانظر تهذيب الكمال للمزي ١١٣/٦.

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو ١٠٥٧/٣ (٢٧٣٠). ومعنى تعس شقي وهلك، عبد الدينار الحريص على تحمل الذلة من أجله، فمن بالغ في طلب شيء وانصرف عمله كله إليه صار كالعابد له، القطيفة دثار مخمل والدثار ما يلبس فوق الشعار، والشعار ما لامس الجسد من الثياب، والخميصة كساء أسود

٤- ومن علامات الإخلاص صدق الحديث وعدم الغدر، والوفاء بالوعد، وانتفاء الحقد وعدم التجاوز في الخصومة، فالمخلص لا يحقد على أحد، ولا يحسد أحدا، بل يغبطه ويتمنى له الخير، فلا مأرب له في الحياة إلا أن ينال رضا الله، ومن ثم يتمنى السعادة للآخرين في الدنيا والآخرة. وروى البخاري من حديث عَبْدِ اللهِ بْن عَمْرٍو ﵁ أن النبي ﷺ قَال: (أَرْبَعٌ مَن كُن فِيهِ كَان مُنافِقًا، أَوْ كَانت فِيهِ خَصْلَةٌ مِن أَرْبَعَةٍ كَانت فِيهِ خَصْلَةٌ مِن النفَاقِ حَتى يَدَعَهَا، إِذا حَدَّث كَذبَ، وَإِذا وَعَدَ أَخْلفَ، وَإِذا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذا خَاصَمَ فَجَرَ) [1].

والإخلاص واجب مستحق لدرجة المقربين والسابقين، فليس فيه واجب أو مستحب، بل المقابل للإخلاص الشرك والنفاق، وهو محرم سواء كان الشرك شركا أكبر، أو شركا أصغر وكذلك النفاق، لكن الإخلاص قد يتأثر من حيث القوة والضعف بحسب اقترانه بقوة النية والقصد والإرادة والعزم، وجميع بواعث الفعل وعلله، من ثم كان الإخلاص شرطا من شروط لا إله إلا الله.

مربع له خطوط، وانتكس انقلب على رأسه دعاء عليه بالخيبة والخسران، وشيك أصابته شوكة، فلا انتقش فلا قدر على إخراجها بالمنقاش ولا خرجت، والمراد إذا أصيب بأقل أذى فلا وجد معينا على الخلاص منه، والعنان اللجام، أشعث متفرق الشعر غير مسرح، إن كان في الحراسة جعل في مقدمة الجيش ليحرسه من العدو، كان في الحراسة قام بها راضيا، الساقة مؤخرة الجيش.

(١) رواه البخاري في كتاب المظالم، باب إذا خاصم فجر٢/٨٦٨ (٢٣٢٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق ١/٧٨ (٥٨).

• ارتباط الإخلاص بالنية والإرادة لدى المقتصدين والمقربين.

أصل الإرادة من راد يرود إذا سعي في طلب الشيء، والإرادة عمل قائم بالقلب جعلت اسما لشروع النفس إلى الشيء مع الحكم فيه بأنه ينبغي أن يفعل أولا يفعل، فالإرادة يراد بها معنى القصد والنية والعزم على الفعل [1].

كقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾الإسراء:١٨/١٩.

وعند البخاري من حديث ابن عمر ﷺ أنه قال: (كنا عِندَ النبي ﷺ فأتي بِجُمَّارَةٍ فقال: إن مِن الشَّجَرِ شَجَرَةً مَثلهَا كَمَثَلِ الرَّجُلِ المُسْلِمِ، فَأَرَدْت أَن أَقُول هي النخْلَة، فَنظَرْت فإذا أنا أَصْغَرُ القَوْمِ فَسَكَت، فقال رسول اللهِ: ﷺ هي النخْلَة) [2].

والإرادة تعددت معانيها بين أهل السنة ومخالفيهم، أو بين المعنى القرآني الداعي إلى الجانب الإيجابي في إخلاص العمل لله وزيادة الإيمان، والتخلص من عبودية هوى النفس والشيطان، وبين معاني الجبر ومخالفة الشرع وإسقاط اللائمة عن أفعال العصيان في الإنسان، فبعضهم

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني ص٢٠٦،٢٠٧.

(٢) الحديث بهذا اللفظ عند أحمد في المسند ١٢/٢ (٤٥٩٩)، ورواه أيضا البخاري في كتاب العلم، باب الفهم في العلم ٣٩/١ (٧٢)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب مثل المؤمن مثل النخلة ٢١٦٤/٤ (٢٨١١).
والجمارة هي قلب النخلة وشحمتها.

جعل الإرادة إرادة القدر فقط ولا إرادة لغير الله.

وقد ذكر السراج الطوسي (ت:٣٨٧هـ) أن جماعة من الصوفية، خالفوا الشرع والاتباع حيث لم يضيفوا إلى الخلق ما أضاف الله تعالى إليهم، ولم يصفوا أنفسهم بالحركة فيما تحركوا فيه، بل نسبوها إلى الله، ومن ثم أسقطوا اللائمة عن أنفسهم، وادعوا الجبر في حركاتهم وسكناتهم، وخالفوا الشرع والاتباع [1]. وهؤلاء يعبرون عن مذهب الجبرية الخالصة، كما قال ابن تيمية: (وقد أفضي بغلاة الصوفية والمنحرفين منهم إلى عدم التمييز بين الأمر الشرعي وبين ما يكون من الأحوال التي تجري على أيدي الكفار والفجار، فيشهدون وجه الجمع بقضاء الله وقدره وإرادته العامة، وأنه داخل في ملكة ولا يشهدون وجه الفرق بين أوليائه وأعدائه) [2].

وقد جعل عبد الكريم الجيلي (ت:٨٢٩هـ) الإرادة المخلوقة فينا عين إرادة الحق سبحانه وتعالى، وزعم أن الإرادة لما نسبت إلينا وكان الحدوث لازما لوصفنا، قيل بأن الإرادة مخلوقة وإلا فهي بنسبتها إلى الله تعالى قديمة [3]. وعلى شاكلته أيضا ما ذكره عبد الرزاق الكاشاني (ت:٧٣٥هـ) فقد زعم أن الإرادة هي التخلص عن البقية بطمس الاثنينية والتحقق بمشيئة الله، وهو يعني بذلك تساوي المشيئتين [4].

---

(١) اللمع في التصوف للسراج الطوسي ص٥٤٩.

(٢) انظر التحفة العراقية لابن تيمية ص٤٨، ومجموع الفتاوى ١٠/٢٨.

(٣) الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل لعبد الكريم بن إبراهيم الجيلي ١/٤٨، طبعة مصطفي البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٦م، ١٣٧٥هـ.

(٤) معجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني ص٢٧٠ ٢٧١.

وهذه المعاني المخالفة عند كثير من الصوفية والتي هي من قبيل الزندقة لا تمت بصلة إلى معنى الإرادة كعمل من أعمال القلوب، بل ما يعنيه كل من تكلم عن الإرادة من علماء السلف الصالح تلك الإرادة التي تقترن بالنية والإخلاص وصدق العزيمة على الطاعة، وأنه ينبغي لمن أراد شيئا من الطاعات وإن قل أن يستحضر النية، وهو أن يقصد بعمله رضا الله ﷻ، وتكون نيته قبل الفعل وحال العمل، ويدخل في هذا جميع العبادات من الصلاة والصوم والوضوء والتيمم والاعتكاف والحج والزكاة والصدقة، وقضاء الحوائج وعيادة المريض واتباع الجنائز وابتداء السلام ورده، وتشميت العاطس وإنكار المنكر والأمر بالمعروف، وإجابة الدعوة وحضور مجالس العلم، والأذكار وزيارة الأخيار، والنفقة على الأهل والضيف، وإكرام أهل الود وذوي الأرحام، ومذاكرة العلم والمناظرة فيه، وتكراره وتدريسه وتعليمه ومطالعته وكتابته وتصنيفه والفتاوى، وكذلك ما أشبه هذه الأعمال حتى لا ينبغي له إذا أكل أو شرب أو نام إلا أن يقصد بذلك التقوى على طاعة الله، أو راحة البدن للتنشيط للطاعة، وكذلك إذا أراد جماع زوجته يقصد إيصالها حقها، وتحصيل ولد صالح يعبد الله تعالى، وإعفاف نفسه وصيانتها من التطلع إلى حرام والفكر فيه، فمن حرم النية والإرادة والإخلاص في هذه الأعمال فقد حرم خيرا عظيما كثيرا، ومن وفق لها فقد أعطى فضلا كبيرا (١).

(١) انظر بستان العارفين للنووي، فصل في وجوب استحضار النية ص٦٧٦٩ تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي، نشر دار ابن حزم بيروت ١٤٢٤هـ.

ودلائل هذه القاعدة حديث عمر بن الخطاب ﷺ أنه سمع رسول اللهِ ﷺ يَقول: (إِنما الأعْمَال بالنيات، وإِنمَا لكُل امْرِىءٍ ما نوَى) (١).

قال العلماء من أهل اللغة والأصول والفقه: إنما للحصر تفيد تحصيل المذكور، ونفي ما سواه. قال الشافعي: (وددت أن الخلق تعلموا هذا على أن لا ينسب إلى حرف منه.. وما ناظرت أحدا قط على الغلبة، ووددت إذا ناظرت أحدا أن يظهر الحق على يديه..وما كلمت أحدا قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعاون، ويكون عليه رعاية من الله تعالى وحفظ) (٢).

وقال أبو يوسف صاحب أبي حنيفة رحمهما الله تعالى: (اطلبوا بعلمكم وجه الله تعالى، فإني لم أجلس في مجلس قط أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم، ولم أجلس مجلسا قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أفتضح) (٣).

- محبة الله من أعمال القلوب الواجبة وهي من شروط التوحيد.

الحب عمل القلب وهو نقِيض البُغْضِ، والحُبُّ الودادُ، وتحَبَّبَ إليه تودد، واسْتحَبَّهُ عليه أي آثره عليه واختاره، وتحَابُّوا أحب كل واحد

---

(١) البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي ﷺ ٣/١ (١)، ومسلم في الإمارة، باب قوله ﷺ إنما الأعمال بالنية ١٥١٥/٣ (١٩٠٧).

(٢) بستان العارفين للنووي ص٧٠، وانظر سير أعلام النبلاء للذهبي ٧٦/١٠، وتاريخ دمشق لابن عساكر ٤٣٢/٥١.

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه ٤٩/٢ نشر دار ابن الجوزي السعودية ١٤٢١هـ، وانظر بستان العارفين للنووي ص٧٠ .

منهم صاحبه، وأصل الحب من حَبَّةُ القلب وهي سويداؤه وقيل: هي ثمرته[(١)].

وقد جعل الله ﷻ المحبة في القلوب نورا للعابدين، وجعل لها في الأبدان دليلا على صدق المحبين، وسببا في رفعة أوليائه الصالحين، ابتلاء العباد بحكمته، ليبقى الفائزون برحمته في جنته، ويشقى الخاسرون في العذاب بنقمته .

والحب شيء في القلب يدفع النفس إلى السعي في رضا المحبوب أو الحصول على المرغوب، والمحبة عمل من أعمال القلوب، فعند مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (قَلبُ الشَّيْخِ شَابٌّ على حُبِّ اثنتيْن طُول الحَيَاةِ وَحُبُّ المَال) [(٢)]. والشاهد أن النبي ﷺ نسب الحب إلى القلب، فالحب عمل من أعمال القلوب يعرف بآثاره على اللسان، أو بعلاماته في ظاهر الأبدان، فالحب وإن كان مخفيا في القلب إلا أن البدن يفضحه بآثاره وعلاماته.

وقلب الإنسان وعاء قد يمتلأ بحب الله أو يمتلأ بحب غيره، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ البقرة: ١٦٥ . فالقلب له الخيار في نوعية الحب ومقدار التعلق بالمحبوب، والمحبة شرط في التوحيد وهي واجبة على المقتصدين والمقربين، فلا يصح قول اللسان ولا يصلح ركن من أركان الإيمان إلا

---

(١) لسان العرب ١/٢٨٩، ومختار الصحاح ص٥١ بتصرف.
(٢) مسلم في الزكاة، باب كراهة الحرص على الدنيا ٢/٧٢٤ (١٠٤٦).

بإفراد الله بالمحبة. روى البخاري من حديث أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: (لا يُؤْمِن أَحَدُكُمْ حتى أَكُون أَحَبَّ إِلَيْهِ مِن وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالناسِ أَجْمَعِين) (١). ومن حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ أقسم على ذلك فقال: (وَالذي نفْسِي بِيَدِهِ لا يُؤْمِن أَحَدُكُمْ حتى أَكُون أَحَبَّ إِلَيْهِ مِن وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ) (٢).

والمحبة درجات تنموا في القلب كلما ازداد مقدار الحب، وإذا تعلقت بالمخلوق فلها أسماء متعددة منها الهوى والغرام والشوق والهيام والشغف والعشق والوجد والكمد والحرق حتى تصل المحبة إلى أعلى درجاتها وهي درجة العبادة، فالتعبد هو غاية الحب مع غاية الذل للمحبوب، يقال: عبَّده الحب أي ذلله، وطريق معبد بالأقدام أي مذلل، وكذلك المحب قد ذلله حبه.

ومن ثم فإن المحبة التي تصل إلى درجة العبودية لا تصلح إلا لله وحده ﷻ ولا تجوز لغيره أبدا، وهي أشرف أنواع المحبة وهي حق الله على عباده، ولا يصح فيها الشرك أبدا، ولذلك كانت شرطا من شروط لا إله إلا الله (٣). روى البخاري من حديث معاذ ﷺ أنه قال: (بَيْنا أَنا رَدِيفُ النبِيِّ ﷺ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلا آخِرَةُ الرَّحْلِ فَقَال: يَا مُعَاذ بْن جَبَل، قُلت: لَبَّيْكَ رَسُول اللهِ وَسَعْدَيْكَ، قَال: هَل تدْرِي مَا حَقُّ اللهِ على

(١) البخاري في الإيمان، حب الرسول ﷺ من الإيمان ١/١٤ (١٥)، ومسلم في الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل ١/٦٧ (٤٤).
(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان، حب الرسول ﷺ من الإيمان ١/١٤ (١٤).
(٣) روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم ص٥٢ بتصرف.

عِبَادِهِ؟ قُلت: اللهُ وَرَسُولهُ أَعْلَمُ، قَال: حَقُّ اللهِ على عِبَادِهِ أَن يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، ثمَّ سَارَ سَاعَةً ثمَّ قَال: يَا مُعَاذ بْن جبَل، قُلت: لبَّيْكَ رَسُول اللهِ وَسَعْدَيْك، فقَال: هَل تدْرِي مَا حَقُّ العِبَادِ على اللهِ إذا فَعَلوهُ، قُلت: اللهُ وَرَسُولهُ أَعْلَمُ، قَال: حَقُّ العِبَادِ على اللهِ أَن لا يُعَذبَهُمْ) [(١)].

قال ابن القيم: (وأصل العبادة وتمامها وكمالها هو المحبة وإفراد الرب سبحانه بها، فلا يشرك العبد به فيها غيره) [(٢)]. وقد ذكر أيضا أنه لما كانت المحبة جنسا تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف كان أغلب ما يذكر فيها في حق الله تعالى ما يختص به ويليق به كالعبادة والإنابة والإخبات، ولهذا لا يذكر فيها لفظ العشق والغرام والصبابة والشغف والهوى، ولكن يذكر لفظ المحبة. ومدار كتب الله تعالى المنزلة من أولها إلى آخرها على الأمر بتلك المحبة ولوازمها، والنهي عن محبة ما يضادها وملازمتها، وضرب الأمثال والمقاييس لأهل المحبتين، وذكر قصصهم ومآلهم ومنازلهم وثوابهم وعقابهم، ولا يجد حلاوة الإيمان، بل لا يذوق طعمه إلا من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فمحبة الله ﷻ هي أصل المحاب المحمودة في قلوب العبيد، وأصل الإيمان بالله والتوحيد، وأصل دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم[(٣)].

وفي صحيح البخاري عن عَبْدَ اللهِ بْن هِشَامٍ ﷺ أنه قَال: (كُنا مَعَ

---

(١) البخاري في اللباس، باب إرداف الرجل خلف الرجل ٥/٢٢٢٤ (٥٦٢٢)، ومسلم في الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد ١/٥٨ (٣٠).

(٢) إغاثة اللهفان لابن القيم ٢/١٣٤ .

(٣) السابق لابن القيم ٢/١٣٣ بتصرف.

النبيِّ ﷺ وَهوَ آخذ بِيَدِ عُمَر بْن الخَطَّابِ فَقَال لهُ عُمَرُ: يَا رَسُول اللهِ لأنت أَحَبُّ إلى مِن كُل شَيْءٍ إلا مِن نفْسِي، فقَال النبِيُّ ﷺ: لا وَالذي نفْسِي بِيَدِهِ حتى أَكُون أَحَبَّ إِلَيْكَ مِن نفْسِكَ، فقَال لهُ عُمَرُ: فَإِنهُ الآن وَاللهِ لأَنت أَحَبُّ إلى مِن نفْسِي، فَقَال النبِيُّ ﷺ: الآن يَا عُمَرُ) (١). فإذا كان هذا شأن محبة الرسول ﷺ فما ظنك بمحبة مرسله.

روى البخاري من حديث أبي هُرَيْرَة ﷺ أنه قال: (بَعَث النبِيُّ ﷺ خَيْلا قِبَل نجْدٍ، فَجَاءَت بِرَجُل مِن بَني حَنيفَةَ يُقَال لهُ ثمَامَةُ بْن أُثال، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِن سَوَارِي المَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النبِيُّ ﷺ فَقَال: مَا عِندَكَ يَا ثمَامَةُ؟ فَقَال: عِندِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ، إن تقْتلني تقْتل ذا دَمٍ، وَإِن تنعِمْ تنعِمْ على شَاكِرٍ وَإِن كُنت تريدُ المَال فَسَل مِنهُ مَا شئت، فَترَكَ حتى كَان الغَدُ، ثمَّ قَال لهُ النبِيُّ ﷺ: مَا عِندَكَ يَا ثمَامَةُ؟ قَال: مَا قُلت لكَ يَا مُحَمَّدُ إن تنعِمْ تنعِمْ على شَاكِرٍ، فَترَكَهُ حتى كَان بَعْدَ الغَدِ فَقَال: مَا عِندَكَ يَا ثمَامَةُ؟ فقَال: عِندِي مَا قُلت لكَ، فقَال: أَطْلقُوا ثمَامَةَ فَانطَلقَ إلى نخْلٍ قَرِيبٍ مِن المَسْجِدِ، فَاغتَسَل ثمَّ دَخَل المَسْجِدَ فَقَال: أَشْهَدُ أَن لا إِلهَ إلا اللهُ وَأَشْهَدُ أَن مُحَمَّدًا رَسُول اللهِ، يَا مُحَمَّدُ وَاللهِ مَا كَان على الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إلى مِن وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الوُجُوهِ إلي، وَاللهِ مَا كَان مِن دِين أَبْغَضَ إلي مِن دِينكَ، فَأَصْبَحَ دِينكَ أَحَبَّ الدِّين إلي. وَاللهِ مَا كَان مِن بَلدٍ أَبْغَضُ إلي مِن بَلدِكَ فَأَصْبَح بَلدُكَ أَحَبَّ البِلادِ إلي، وَإِن خَيْلكَ أَخَذتني وَأَنا أُرِيدُ العُمْرَةَ، فَمَاذا ترَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُول اللهِ ﷺ وَأَمَرَهُ أَن يَعْتمِرَ، فَلمَّا قَدِمَ مَكَّةَ، قَال لهُ

(١) البخاري في الأيمان والنذور، باب يمين النبي ٦/٢٤٤٥ (٦٢٥٧).

قَائِل: صَبَوْت؟ قَال: لا، وَلَكِن أَسْلَمْت مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُول اللهِ ﷺ، وَلا وَاللهِ لا يَأْتِيكُمْ مِن اليَمَامَةِ حَبَّةُ حِنطَةٍ حتى يَأْذن فِيهَا النبِيُّ ﷺ)[١].

وعند البخاري من حديث أَنس ﷺ أن النبِيِّ ﷺ أنه قال: (ثلاث مَن كُن فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمان، أَن يَكُون اللهُ وَرَسُولهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَن يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا للهِ، وَأَن يَكْرَهَ أَن يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَن يُقْذفَ فِي النارِ)[٢].

• المحبة الواجبة هي المحبة لله وفي الله أما المحبة معه فمحبة شركية.

ذكر ابن القيم رحمه الله أن المحبة تتنوع بين محبة لله وفيه، والمحبة معه، فالمحبة له وفيه من تمام محبته وموجباتها لا من قواطعها، فإن محبة الحبيب تقتضي محبة ما يحب، ومحبة ما يعين على حبه ويوصل إلى مرضاته وقربه، وكيف لا يحب المؤمن ما يستعين به على مرضاة ربه، ويتوصل به إلى حبه وقربه.

وعند الترمذي وصححه من حديث معاذ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلك فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، وَإِذا أَرَدْتَ فِتْنَةَ قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ، أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى

---

(١) البخاري في كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة ١٥٨٩/٤ (٤١١٤)، ومسلم في الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه ١٣٨٦/٣ (١٧٦٤).

(٢) رواه البخاري في الإيمان، باب حلاوة الإيمان ١٤/١ (١٦)، ومسلم في الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان ٦٦/١ (٤٣).

حُبِّكَ) [١].

وأما المحبة مع الله فهي المحبة الشركية وهي كمحبة أهل الأنداد لمعبوداتهم وهي أصل الشرك الذي لا يغفره الله، فإن المشركين لم يزعموا أن آلهتهم وأوثانهم شاركت الرب سبحانه في خلق السموات والأرض، وإنما كان شركهم بها من جهة محبتها مع الله، فوالوا عليها وعادوا عليها وتألهوها، وزعموا أنها آلهة صغار تقربهم إلى الإله الأعظم، ففرق بين محبة الله أصلا، والمحبة له تبعا والمحبة مع شركا، وعليك بتحقيق هذا الموضع فإنه مفرق الطرق بين أهل التوحيد وأهل الشرك .

قال ابن القيم: (وههنا أربعة أنواع من المحبة يجب التفريق بينها، وإنما ضل من ضل بعدم التمييز بينها: أحدها محبة الله ولا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله . والثاني محبة ما يحب الله، وهذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من الكفر، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة، وأشدهم فيها. الثالث الحب لله وفيه، وهي من لوازم محبة ما يحب الله. الرابع المحبة مع الله، وهي المحبة الشركية، وكل من أحب شيئاً مع الله، لا لله ولا من أجله ولا فيه، فقد اتخذه نداًّ من دون الله، وهذه محبة المشركين، وبقى قسم خامس ليس مما نحن فيه، وهى المحبة الطبيعية وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه، كمحبة العطشان للماء، والجائع

---

(١) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب سورة ص ٣٦٨/٥ (٣٢٣٥)، وأحمد في المسند ٢٤٣/٥ (٢٢١٦٢)، وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٧٤٨)، وصحيح الجامع (٥٩).

للطعام، ومحبة النوم والزوجة والولد، فتلك لا تذم إلا إن ألهت عن ذكر الله وشغلته عن محبته كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ المنافقون:٩. وقال تعالى: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧﴾ النور:٣٧) [١].

ومن المحبة المحمودة محبة ما يعين على طاعة الله تعالى واجتناب معصيته، فمحبة ما يحبه الله من تمام محبة الله، كما روى أبو داود وصححه الشيخ الألباني أن رَسُول اللهِ ﷺ قَال: (مَن أَحَبَّ للهِ، وَأَبْغَضَ للهِ، وَأَعْطَى للهِ، وَمَنعَ للهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإيمان) [٢].

وكذلك محبة كلام الله وأسمائه وصفاته، روى البخاري عَن أَنسِ بْن مَالكٍ رضي الله عنه أنه قال: (كَان رَجُل مِن الأَنصَارِ يَؤُمُّهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ، وَكَان كُلمَا افْتتحَ سُورَةً يَقْرَأُ بِهَا لَهُمْ فِي الصَّلَاةِ، افْتتحَ بِقُل هُوَ اللهُ أَحَدٌ حتى يَفْرُغَ مِنهَا، ثمَّ يَقْرَأُ سُورَةً أخرى مَعَهَا، وَكَان يَصْنعُ ذلكَ فِي كُل رَكْعَةٍ فَكَلَمَهُ أَصْحَابُهُ، فَقَالوا: إِنكَ تفْتتحُ بِهَذِهِ السُّورَةِ ثمَّ لا ترَى أَنها تجْزِئُك حتى تقْرَأَ بِأخرى، فَإِمَّا تقْرَأُ بِهَا، وَإِمَّا أَن تدَعَهَا وَتَقْرَأَ بِأخرى، فَقَال: مَا أَنا بِتارِكِهَا، إِن أَحْبَبْتمْ أَن أَؤُمَّكُمْ بِذلكَ فَعَلت، وَإِن كَرِهْتمْ ترَكْتكُمْ، وَكَانوا يَرَوْن أَنهُ مِن أَفْضَلهِمْ وَكَرِهُوا أَن يَؤُمَّهُمْ غَيْرُهُ، فَلَمَّا أَتاهُمُ النبِيُّ ﷺ أَخْبَرُوهُ الخَبَرَ، فَقَال: يَا فُلَان مَا يَمْنعُكَ أَن تفعَل مَا

(١) الجواب الكافي لابن القيم ص١٣٤.

(٢) رواه أبو داود في السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ٤/٢٢٠ (٤٦٨١)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٣٨٠) .

يَأْمُرُكَ بِهِ أَصْحَابُكَ وَمَا يَحْمِلكَ على لزُومِ هَذهِ السُّورَةِ فِي كُل رَكْعَةٍ؟ فَقَال: إِني أُحِبُّهَا، فقَال: حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلكَ الجَنةَ) (١).

وعند البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن النبِي ﷺ قَال: (سَبْعَةٌ يُظِلهُمُ اللهُ فِي ظِلهِ يَوْمَ لا ظِل إِلا ظِلهُ، وذكر منهم رَجُلان تحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَليْهِ وَتفرَّقَا عَليْه) (٢).

وروى مسلم من حديث سُهَيْل بْن أَبِي صَالحٍ أنه قَال: (كُنا بِعَرَفَة فَمَرَّ عُمَرُ بْن عَبْدِ العَزِيزِ وَهُوَ على المَوْسِمِ أمير، فَقَامَ الناسُ يَنظُرُون إِليْهِ، فَقُلت لأَبِي: يَا أَبَت إِني أَرَى اللهَ يُحِبُّ عُمَرَ بْن عَبْدِ العَزِيزِ قَال: وَمَا ذاكَ؟ قُلت: لمَا لهُ مِن الحُبِّ فِي قُلوبِ الناسِ، فقال: يا بني قَال رَسُول اللهِ ﷺ: إن اللهَ إذا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيل فقَال: إِني أُحِبُّ فُلانا فَأَحِبَّهُ، قَال: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيل ثمَّ يُنادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُول: إن اللهَ يُحِبُّ فُلانا فَأَحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْل السَّمَاءِ، قَال: ثمَّ يُوضَعُ لهُ القَبُول فِي الأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيل فَيَقُول: إِني أُبْغِضُ فُلانا فَأَبْغِضْهُ؟ قَال: فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيل ثمَّ يُنادِي فِي أَهْل السَّمَاءِ: إِن اللهَ يُبْغِضُ فُلانا فَأَبْغِضُوهُ، قَال: فَيُبْغِضُونهُ ثمَّ توضَعُ لهُ البَغْضَاءُ فِي الأَرْضِ) (٣).

- أعمال الجوارح الدالة على وجود المحبة في القلب.

من الأمور الهامة التي تطرح نفسها في فهم المحبة كشرط للتوحيد

---

(١) البخاري في صفة الصلاة، باب الجمع بين السورتين ١/٢٦٨(٧٤١) .

(٢) البخاري في الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ١/٢٣٤ (٦٢٩)، ومسلم في الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة ٢/٧١٥ (١٠٣١).

(١) رواه مسلم في البر، باب إذا أحب الله عبدا ٤/٢٠٣٠ (٢٦٣٧).

هي كيفية معرفه العبد أنه يحب الله رسوله ﷺ، وأنه حقق المحبة الواجبة والمستحبة؟ أو ما هي الدلائل التي نتعرف من خلالها على وجود الحب في القلب؟ لقد جعل الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه علامات في أعمال الجوارح تظهر الدليل على صدق المحبين، وهي علامات تظهر بالضرورة على الأبدان لا تخفى على الناظرين، تلك العلامات مفصحة عن الحب وكاشفة عن وجوده في القلب، لا يستطيع الإنسان دفعها مهما قاوم أو حاول:

١- التطلع إلى رؤية المحبوب، وإقبال البصر عليه، فإن العين باب القلب وهي المعبرة عن أفكاره والكاشفة عن أسراره، وهي أبلغ في ذلك من كلام اللسان وحركة الأبدان، فترى نظر المحب يدور مع محبوبه كيفما دار، ويتابعه أينما سار، بل ربما يعز على بعض المحبين أن يحرك جفونه حتى لا يغيبَ المحبوبُ عن بصره، فالمحب نظره متعلق بمحبوبه إذا رآه، وإذا غاب عنه تلهف لرؤياه[1]. ومن هنا بدت علامة العبودية والمحبة على الموحدين، فالموحد يعبد الله كأنه يراه وينعم بذكره في الصلاة والمناجاة، ويتطلع إلى أن ينعم عليه برؤياه، وهذا والله أعلم هو السر الذي طلب به موسى عليه السلام رؤية الله، طلبها بباعث الحب وظهور علاماته، وفهمه عليه السلام لأسماء الله وصفاته.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ

---

(١) انظر تفصيل علامات المحبة في كتاب روضة المحبين ص٢٦٢ نشر دار الكتب العلمية بيروت، وقد ذكرناها مختصرة بتصرف وإضافة.

﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ الأعراف:١٤٣.

طلب موسى الرؤية شوقا وعبادة، وطاعة وقربا ورغبة وحبا، ولهذا كانت أعظم نعمة ينالها المؤمن في الدنيا نعمة المراقبة لله، وأن يعبد الله كأنه يراه، وكذلك فإن النظر إلى الله عند لقائه أعظمُ نعمة يوم القيامة ينعم بها الموحدون، فالمؤمنون يتلذذون بالنظر إلى وجهه الكريم وهم مخلدون في جنات النعيم.

وقال الله تعالى في شأن أوليائه عند لقائه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ القيامة:٢٢/٢٣. وعند الترمذي وصححه في هذه الآيَة: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ يونس:٢٦. وقَال: إذا دَخَل أَهْل الجَنةِ الجَنة وأَهْل النارِ النارَ، نادَى مُنادٍ: يَا أَهْل الجَنةِ، إن لكُمْ عِندَ اللهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَن يُنجِزَكُمُوهُ، فيَقُولون: ومَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّل اللهُ مَوَازِيننا ويُبَيِّضْ وُجُوهَنا ويُدْخِلنا الجَنةَ ويُنجِنا مِن النار؟ قَال: فَيَكْشِفُ الحِجَابَ فَيَنظُرُون إليْهِ، فَوَاللهِ مَا أَعطَاهُمُ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِليْهِم مِن النظَرِ إِليْهِ، ولا أَقَرَّ لأَعْيُنِهِمْ)[1].

٢- ومن علامات المحبة الغيرة للمحبوب، فالغيرة للمحبوب أن يكره

(١) رواه الترمذي في كتاب التفسير، باب ومن سورة يونس ٥/٢٨٦ (٣١٠٥)، وأحمد في المسند ٤/٣٣٣ (١٨٩٦١)، وصححه الألباني، انظر ظلال الجنة (٤٧٢) وانظر صحيح الجامع (٥٢٢).

ما يكرهه المحبوب، ويغار إذا عصي في كل مطلوب، فيغار العبد لربه إذا انتهكت حرماته وضيعت كلماته، فهذه غيرة المحب على معبوده حقا، ودين الله يندرج تحتها صدقا، فأقوى الناس دينا أعظمهم غيرة لله، روى البخاري أن سَعْدَ بْن عُبَادَة ﷺ قال: (لوْ رَأَيْت رَجُلا مَعَ امْرَأَتي لضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفَح، فَبَلَغَ ذلكَ رَسُول اللهِ ﷺ فَقَال: أَتعْجَبُون مِن غَيْرَةِ سَعْدٍ، وَاللهِ لأَنا أَغْيَرُ مِنهُ وَاللهُ أَغْيَرُ مِني، وَمِن أَجْل غَيْرَةِ اللهِ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنهَا وَمَا بَطَن)[1].

ومن قال لا إله إلا الله بحق وأحب الله ورسوله ﷺ بصدق يغار لله ويغار لرسوله ﷺ على قدر محبته وإجلاله، وإذا انعدمت الغيرة لله ولرسوله ﷺ من القلب انعدم الحب فيه، وإن زعم أنه من المحبين فهو كاذب، فإذا كان من ادعى محبة إنسان ورأى غيره منتهكا لحرمته، ويسعى في أذيته، ويخوض في عرضه وذمته، وهو ساكن لا يتحرك قلبه، بل قلبه قلب بارد لا يغار لصديقه ومحبوبه، فإنه عند الجميع كاذب في حبه، منافق في ادعاء قربه، لعلمهم أن الغيرة للمحبوب من علامات المحبة الصادقة، فكيف يصح لعبد أن يدعي محبة الله وهو لا يغار لمحارمه إذا انتهكت ولا لحقوقه إذا ضيعت، فأضعف الإيمان أن يغار لله من هواه الداعي إلى الشهوة، ومن شيطانه وطغيانه الداعي إلى الشبهة، فيغار لمحبوبه من تفريطه في حقه وارتكابه لمعصيته، وإذا ذهبت هذه الغيرة من

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ لا شخص أغير من الله٦/٢٦٩٨ (٦٩٨٠)، ومسلم في كتاب اللعان ١١٣٦/٢ (١٤٩٩) ومعنى غير مصفح أي ضربته بحد السيف لا بصفحه وهو عرضه.

القلب ذهب منه الحب، وسقط شرط من شروط لا إله إلا الله، بل ذهب منه الدين وأصوله، وإن بقيت آثاره وأطلاله. وهذه الغيرة هي أصل الجهاد الأكبر، وأصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن خلت هذه الغيرة من القلب لم يجاهد الإنسان، ولم يأمر بالطاعة والإيمان، ولم ينه عن المنكر والعصيان.

وأما الغيرة على المحبوب كغيرة الإنسان على زوجته وغيرته على أمه وابنته، فيغار أن يتعرض أحد لذكرهن أو المساس بعرضهن، فإن هذه الغيرة تختص بالمخلوق، ولا يجوز تصورها في حق الخالق، لأن المحب الصادق يحب أن الناس كلهم يحبون الله، ويذكرونه ويعبدونه ويحمدونه ويشكرونه، ولا شيء أقر لعين المؤمن من ذلك، بل هو يدعو إلى ذلك بقوله وعمله .

وكثير من الصوفية لم يفرقوا بين الغيرة لله والغيرة على الله، فضلوا وشبهوا غيرتهم على الله بغيرتهم على نسائهم، حتى وقع في كلامهم غلط عظيم وبهتان جسيم، وكان بعض جهلتهم إذا رأى من يذكر الله أو يحبه يغار منه، وربما أسكته إن أمكنه، ويقول: غيرة حبي على ربي تحملني على هذا، وإنما ذلك حسد وعصيان وبغي وعدوان ونوع معادة للرحمن، أخرجوها في قالب الغيرة وشبهوا محبة الله بمحبة المخلوقين.

٣- ومن علامات المحبة بذل المحب كل ما في وسعه وطاقته لرضا لمحبوبه كما كان الصحابة ﭫ يدافعون عن رسول الله ﷺ في الحرب

بنفوسهم حتى ولو أدى ذلك لهلاكهم وذلك من فرط حبهم له ﷺ، ومعلوم أن من آثر محبوبه بنفسه بذل ما في وسعه من ماله وملكه، والصحابة ﷺ سلموا أنفسهم ووضعوا أموالهم لما يراه رسول الله ﷺ، فقالوا هذه أموالنا نقدمها إليك وهذه نفوسنا بين يديك فاحكم فيها بما شئت يا رسول الله، لو خضت بنا البحر لخضناه معك، نقاتل بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك.

روى البخاري عَن عَبْدِ اللهِ بن مسعود ﷺ أن المِقْدَادُ بن الأسود قال يَوْمَ بَدْرٍ: (يَا رَسُولَ اللهِ إنا لا نقُول لكَ كَمَا قَالت بَنو إِسْرَائِيل لموسى: ﴿ فَاذهَبْ أَنت وَرَبُّكَ فقَاتلا إنا هَا هُنا قَاعِدُون ﴾ [المائدة:٢٤]، ولَكِن امْضِ يَا رَسُولَ اللهِ وَنحْن مَعَكَ مقاتلون) (١).

أراد رجل أن يختبر امرأته في حسن تصرفها ادعائها أنها تحبه، فنظر إليها وهي صاعدة على درجات السلم، فقال لها: أنت طالق إن صعدت، وطالق إن نزلت، وطالق إن وقفت، فرمت نفسها على الأرض، فقال لها: فداك أبي وأمي، والله إن مات الإمام مالك، احتاج إليك أهل المدينة في التعرف على أحكامهم(٢).

٤- ومن علامات المحبة التي تكشف مقدار الحب في القلب سرور المحب بما يسر به محبوبه كائنا ما كان، وإن كرهته نفس الإنسان،

(١) رواه البخاري في التفسير، باب تفسير سورة المائدة ٤/١٦٨٤ (٤٣٣٣).
(٢) المستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين الأبشيهي ٤٩/١ تحقيق مفيد محمد قميحة، نشر دار الكتب العلمية بيروت١٤٠٦هـ.

فيكون عنده بمنزلة الدواء الذي يحبه لما فيه من الشفاء، وهكذا المحب مع محبوبه، يسره ما يرضيه على أي حال، روى مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ لَمَّا نزلت على رَسُول اللهِ ﷺ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)﴾البقرة:٢٨٤. اشْتَدَّ ذلكَ على أَصْحَابِ رَسُول اللهِ ﷺ، فَأَتَوْا رَسُول اللهِ ﷺ ثمَّ بَرَكُوا على الرُّكَبِ فَقَالوا: أَيْ رَسُول اللهِ كُلفنْا مِن الأَعْمَال مَا نطِيقُ الصَّلاةَ وَالصِّيَامَ وَالجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ وَقَدْ أُنزلت عَليْكَ هَذهِ الآيَةُ وَلا نطِيقُهَا، قَال رَسُول اللهِ ﷺ: أَتريدُون أَن تقُولوا كَمَا قَال أَهْل الكِتابَيْن مِن قَبْلكُمْ سَمِعْنا وَعَصَيْنا، بَل قُولوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرَانكَ رَبَّنا وَإِليْكَ المَصِيرُ، فقَالوا: سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرَانكَ رَبَّنا وَإِليْكَ المَصِيرُ، فَأَنزَل اللهُ فِي إِثرِهَا .. آمَن الرَّسُول بِمَا أُنزل إِليْهِ مِن رَبِّهِ.. الآيات) [(١)]. هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ لما ابتلاهم الله بمراده كائنا ما كان وإن كرهته نفس الإنسان، رفع الحرج عنهم وغفر ما كان منهم، أما من كان واقفا مع ما تشتهيه نفسه من الرخص في الأحكام متتبعا لفتاوى أهل الكلام فليست محبته لله محبة صادقة، بل هي محبة عليلة ناقصة .

٥- ومن علامات المحبة كثرة ذكر المحبوب والاستمتاع بحديثه، فمن أحب شيئا أكثر من ذكره واطمئن إليه بقلبه، وشتان بين أن تذكر الله لأنك مضطر إلى ذكره وحياتك قائمة على أمره، وبين من يكثر من

---

(١) مسلم في الإيمان، باب بيان أنه لم يكلف إلا ما يطاق ١/١١٥(١٢٥).

ذكره رغبة في حبه وقربه، ولهذا أمر الله عباده بذكره على جميع الأحوال، وأمرهم بذكره حتى وهم عند القتال فقال عَجَّلَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥ ﴾ الأنفال:٤٥ . وأمرهم بذكره بعد الصلاة على كل حال فقال تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ ﴾ الجمعة:١٠.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢﴾ الأحزاب:٤١/٤٢.

ومدح الله سبحانه الذاكرين الله كثيرا والذاكرات فقال في وصفهم: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥﴾ الأحزاب:٣٥.

وذم الشعراء واستثنى المؤمنين الذاكرين فقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ٢٢٧ ﴾ الشعراء:٢٢٧ .

٦- ومن علامات المحبة الصادقة النظر إلى أفعال المحبوب فإن كانت نقصا سترها وإن كانت كمالا أذاعها ونشرها، ألا ترى الوالد مع ولده، من محبته يرفع من شأنه ودرجته، ويهون من نقصه وعيبته، فما بالنا إذا كان ربنا ومحبوبنا أفعاله كمال من كل وجه، ولا نقص فيها بوجه من الوجوه، ألا يحتم ذلك علينا مدحَه والنظرَ في صنعه والمداومةَ على

شكره وذكره، ومن هنا وبدافع الحب الذي هيمن على القلب أراد إبراهيم عليه السلام مزيدا من القرب برؤيته لفعل الله في إحياء الموتى فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)﴾ البقرة: ٢٦٠ .

قال أغلب المفسرين[(١)]: أمره أن يأخذ غرابا وحمامة وديكا ويمامة، ثم قال له: أوثقهن واذبحهن وقطعهن، فقطعهن ونتف ريشهن ومزقهن، وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن وجعل على كل جبل منهن جزءا، وأخذ رؤوسهن بيده، ثم أمره الله تعالى أن يدعوهن فدعاهن، فجعل ينظر إلى الريش والدم والعظم يلتحم بالعظم، واللحم يلتصق باللحم، كل طائر أجزاؤه تلتئم وتنضم حتى اكتمل بدنه وتم، وقام كل طائر يسعى بين يديه، كل ذلك وإبراهيم عليه السلام ينظر إلى فعل الله وقدرته، ويتعجب من حكمته وقوته، ومن هنا كانت آيات الله في خلقه داعية للمحبين إلى التفكر في الآثار والنظر والاعتبار: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١)﴾ آل عمران: ١٩٠/ ١٩١.

- أبرز علامات الجوارح الدالة على المحبة طاعة المحبوب.

٧- ومن أهم علامات المحبة التي هي شرط من شروط لا إله إلا الله

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١/٣١٦.

طاعة المحبوب والانقياد لأمره والتصديق بخبره، وهذا يحصل فقط بالمتابعة لنبيه ﷺ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ آل عمران: ٣١. فجعل سبحانه وتعالى متابعة رسوله ﷺ سببا لمحبتهم وغفران ذلتهم، فالطاعة للمحبوب عنوان محبته كما قيل:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه : هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته : إن المحب لمن أحب مطيع[1]

٨- ومن علامات المحبة ترديد كلام المحبوب والإقبال على حديثه وإلقاء السمع إليه، روى البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (قَال لي النبيُّ ﷺ: اقْرَأْ على القرآن، قُلت: يَا رَسُول اللهِ أقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنزل؟ قَال: نعَمْ، فَقَرَأْت سُورَةَ النسَاءِ حتى أَتَيْت إلى قوله: فَكَيْفَ إذا جِئْنا مِن كُل أُمَّةٍ بِشَهيدٍ وَجِئْنا بِكَ على هَؤُلاءِ شَهيدًا، قَال: حَسْبُكَ الآن، فَالتفَت إِلَيْهِ فَإِذا عَيْناهُ تذرِفَان) [2]. وعند البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رَسُول اللهِ ﷺ قال: (لَيْسَ مِنا مَن لمْ يَتغَن بِالقُرْآن) [3].

(١) انظر قاعدة في المحبة لابن تيمية ص٧٣، وروضة المحبين لابن القيم ص٢٦٦، وجامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص٣٨٩.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب فضائل القرآن، باب قوله المقرئ للقارئ حسبك ٤/١٩٢٥ (٤٧٦٣).

(٣) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ٦/٢٧٣٧ (٧٠٨٩).

٩- ومن علامات المحبة محبة بيت المحبوب، وانشراح الصدر لرؤيته، وشد الرحال لزيارته، وهذا هو السر الذي من أجله تعلقت القلوب بالبيت الحرام وكعبته حتى هجروا الأوطان وتحملوا السفر بمشقته طمعا في حب الله وعبادته، ركبوا الأخطار وجابوا المفاوز والقفار، واحتملوا في الوصول إلى البيت مشقة الأسفار، وسر هذه المحبة هي إضافة البيت إلى نفسه سبحانه وتعالى كما قال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)﴾ البقرة:١٢٥.

١٠ - ومن علامات المحبة توافق المحب مع محبوبه في المنطق والكلام والتحية والسلام، فتتوافق السلامات بينهما في نفس الأوقات، وتتوافق الكلمات بينهما في إخراج العبارات.

انظر إلى التوافق العجيب بين النبي ﷺ وأبي بكر الصديق ﷺ في ردهما على عمر بن الخطاب ﷺ، فقد روى الإمام البخاري في صحيحه أن قريشا في صلح الحديبية ألزمت رسول الله ﷺ بأشياء لم يرغب فيها عمر بن الخطاب ﷺ فقَال عمر للنبي ﷺ: (أَلسْت نبِيَّ اللهِ حَقًّا؟ قَال: بَلي، قال: قُلت: أَلسْنا على الحَقِّ وَعَدُوُّنا على البَاطِلِ؟ قَال: بَلي، قُلت: فَلمَ نعْطِي الدَّنيَّةَ فِي دِيننا إذا؟ قَال: إني رَسُول اللهِ وَلسْت أَعْصِيهِ يا عمر وَهُوَ ناصِرِي، قُلت: أَوَلَيْسَ كُنت تحَدِّثنا أَنا سَنأْتي البَيْت فَنطُوفُ بِهِ؟ قَال: بَلي، لكن هل أَخبَرْتك أَنا سنأْتيهِ هذا العَامَ؟ فقَال عمر ﷺ: لا. قَال: فَإِنك آتيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ، قَال عمر بن الخطاب: فَأَتيْت

أَبَا بَكْرٍ فَقُلت: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذا نبِيَّ اللهِ حَقًّا فقَال أبو بكر: بَلي، قال عمر: أَلسْنا على الحَقِّ وَعَدُوُّنا على البَاطِلِ؟ قَال: بَلي، قُلت: فَلمَ نعْطِي الدَّنيَّةَ فِي دِيننا إذا؟ قَال: أَيُّهَا الرَّجُل إنهُ لرَسُول اللهِ ﷺ ولَيْسَ يعصى رَبَّهُ وَهُوَ ناصِرُهُ فَاستَمْسِكْ بِغَرْزِهِ فوَاللهِ إنهُ على الحقِّ قُلت: أَلَيْسَ كَان يُحَدِّثنا أَنا سَنأْتي البَيْت ونَطُوفُ بِهِ؟ قَال: بَلى أَفأَخبَرَكَ أَنكَ ستأْتيهِ هذا العَامَ؟ قُلت: لا، قَال: فَإِنكَ آتيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِه) (١). فأجاب أبو بكر عمر رضي الله عنهما بجواب رسول الله ﷺ حرفا بحرف، توافقا بين المحب ومحبوبه .

١١- ومن علامات المحبة بكاء المحب من شدة الفرح بمحبوبه فقد روى مسلم عَن أَنس ﷺ أَن رَسُول اللهِ ﷺ قَال لأُبَي بن كعب ﷺ: (إن اللهَ أَمَرَني أَن أَقْرَأَ عَلَيْكَ القرآن، قَال: آللهُ سَمَّاني لكَ؟ قَال: اللهُ سَمَّاكَ لي، فَجَعَل أُبَيٌّ يَبْكِي من شدة الفرح) (٢).

وفي رواية أحمد: (لما نزلت سورة البينة: لَمْ يَكُن الذين كَفَرُوا مِن أَهْلِ الكِتابِ. قال جبريل ﷺ: يا محمد إن ربك يأمرك أن تقرئ هذه السورة أبي بن كعب، فقال النبي ﷺ: يا أبي إن ربي ﷻ أمرني أن أقرئك هذه السورة قَال: آللهُ سَمَّاني لكَ؟ قَال: نعَمْ، قَال: قَدْ ذكِرْت

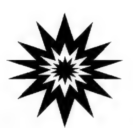
---

(١) رواه البخاري في كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد ٢/٩٧٤ (٢٥٨١)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية ٣/١٤١١ (١٧٨٥).

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب سورة البينة ٤/١٨٩٦ (٤٦٧٦)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب قراءة القرآن على أهل الفضل والحذاق فيه ١/٥٥٠ (٧٩٩).

عِندَ رَبِّ العَالِمين؟ قَال: نعَمْ، فَذرَفَت عَيْناه) (١).

١٢- ومن العلامات الدالة على صدق المحبة في القلب أن ينام المحب على ذكر محبوبه، يذكره بلسانه عند نيامه وقيامه، ولذلك كان رسول الله ﷺ ينام وآخر كلامه ذكر الله، ويقوم وأول كلامه ذكر الله، روى البخاري عَن حُذيْفَةَ رضي الله عنه أنه قَال: (كَان النبِيُّ ﷺ إذا أَرَادَ أَن يَنامَ قَال: بِاسْمِكَ اللهُمَّ أَمُوت وَأَحْيَا، وَإذا اسْتيْقَظَ مِن مَنامِهِ قَال: الحَمْدُ للهِ الذي أَحْيَانا بَعْدَ مَا أَمَاتنا وَإِليْهِ النشُورُ) (٢).



(١) رواه أحمد في المسند ٢١٨/٣ (١٣٣١٠).

(٢) رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا أصبح ٢٣٣٠/٥ (٥٩٦٥)، ورواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ٢٠٨٣/٤ (٢٧١١).

المطلب السادس

أحكام العبودية المتعلقة بالقلب بين الواجب والمستحب



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن بعض أحكام العبودية المتعلقة بالقلب واللازمة للمقصدين والسابقين، وبينا أن أعمال القلوب لها حتمية في التعلق بالعبادة أو التعلق بضدها، وتحدثنا عن الإخلاص وأنه واجب مستحق لدرجة المقربين والسابقين، وعلمنا أن الله ﷻ جعل في البدن علامات دالة على قيام الإخلاص لله في القلب ولا بد.

كما بينا ارتباط الإخلاص بالنية والإرادة لدى المقتصدين والمقربين، وبينا أيضا أن محبة الله من أعمال القلوب الواجبة وهي شرط التوحيد، وأن المحبة الواجبة هي المحبة لله وفي الله، أما المحبة مع الله فمحبة شركية، كما فصلنا أعمال اللسان والجوارح الدالة على وجود المحبة في القلب، وكان من أبرزها طاعة المحب للمحبوب.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن بعض أحكام العبودية المتعلقة بالقلب بن الواجب والمستحب في درجة المقتصدين والسابقين.

• اليقين من أعمال القلوب اللازمة للمقتصدين والسابقين.

اليقين عمل من أعمال القلوب يقابل الوهم والشك والظن وهو شرط لازم لصحة توحيد العبادة لله ﷻ بحيث لا يصح إسلام ولا إيمان إلا به، فلا بد أن يكون العبد على يقين قلبي ينفي به الوهم والشك والظن كما قال الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ الحجرات:١٥. فاشترط في صدق إيمانهم بالله وسوله ﷺ ألا يرتابوا، أي لا يشكوا ولا يترددوا في يقينهم، فالمرتابون هم المنافقون الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ التوبة:٤٥.

قال ابن جرير في معنى لم يرتابوا: (ثم لم يشكوا في وحدانية الله، ولا في نبوة نبيه ﷺ، وألزم نفسه طاعة الله وطاعة رسوله، والعمل بما وجب عليه من فرائض الله بغير شك منه في وجوب ذلك عليه) (١).

وعند البخاري من حديث أَسْمَاءَ بنت أبي بكر رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قَال: (أُوحِيَ إِلي أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ مِثل فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّال، يُقَال للميت: مَا عِلمُكَ بِهَذا الرَّجُل؟ فَأَمَّا المُؤْمِنُ أَوِ المُوقِنُ فَيَقُول: هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُول الله جَاءَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَالهُدَي فَأَجَبْنَا وَاتبَعْنَا، هُوَ مُحَمَّدٌ ثلاثا، فَيُقَال: نَمْ صَالحًا قَدْ عَلمْنَا إِنْ كُنْتَ لُموقِنًا بِهِ، وَأَمَّا المُنَافِقُ

(١) تفسير الطبري ١٤٤/٢٦ نشر دار الفكر بيروت .

أَوِ الْمُرْتَابُ فَيَقُول: لا أَدْرِي سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ) [(١)].

وروى مسلم من حديث أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أنه قَال: (كُنَّا قُعُودًا حَوْل رَسُول الله ﷺ مَعَنَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فِي نَفَرٍ من الصحابة، فَقَامَ رَسُول الله ﷺ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا فَأَبْطَأَ عَلَيْنَا وَخَشِينَا أَنْ يُقْتَطَعَ دُونَنَا وَفَزِعْنَا فَقُمْنَا فَكُنْتُ أَوَّل مَنْ فَزِعَ فَخَرَجْتُ أَبْتَغِي رَسُول الله ﷺ حتى أَتَيْتُ حَائِطًا للأَنْصَارِ لبَنِي النَّجَّارِ [(٢)]، فَدُرْتُ بِهِ هَل أَجِدُ لهُ بَابًا فَلمْ أَجِدْ، فَإِذا رَبِيعٌ يَدْخُل فِي جَوْفِ الحَائِطِ مِنْ بِئْرٍ خَارِجَةٍ [(٣)]، فَاحْتَفَزْتُ كَمَا يَحْتَفِزُ الثعْلبُ[(٤)]، فَدَخَلتُ على رَسُول الله ﷺ فَقَال: أَبُو هُرَيْرَةَ؟ فَقُلتُ: نَعَمْ يَا رَسُول الله، قَال: مَا شَأْنُك؟ قُلتُ: كُنْتَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا فَقُمْتَ فَأَبْطَأْتَ عَليْنَا فَخَشِينَا أَنْ تُقْتَطَعَ دُونَنَا فَفَزِعْنَا فَكُنْتُ أَوَّل مِنْ فَزِعَ فَأَتَيْتُ هَذا الحَائِطَ فَاحْتَفَزْتُ كَمَا يَحْتَفِزُ الثعْلبُ وَهَؤُلاءِ النَّاسُ وَرَائِي، فَقَال: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَأَعْطَانِي نَعْليْهِ، قَال: اذهَبْ بِنَعلي هَاتَيْنِ، فَمَنْ لقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذا الحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلهَ إِلا الله مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلبُهُ فَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ، فَكَانَ أَوَّل مَنْ لقِيتُ عُمَر بن الخطاب، فَقَال: مَا هَاتَان النَّعْلان يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ فَقُلتُ: هَاتَان نَعْلا رَسُول الله ﷺ بَعَثنِي بِهِمَا، مَنْ لقِيتُ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلهَ إِلا الله مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلبُهُ بَشَّرْتُهُ بِالجَنَّةِ، فَضَرَبَ عُمَرُ بِيَدِهِ بَيْنَ ثدْيَيَّ

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس ٤٤/١ (٨٦)، ومسلم في كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبى ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار ٦٢٤/٢ (٩٠٥).

(٢) الحائط هو السور المقام حول المزرعة .

(٣) الرَّبِيعُ الجَدْوَل أو قناة الماء الصغيرة .

(٤) احتفز تضامم ليسعه المدخل.

فَخَرَرْتُ لإسْتِي. فَقَال: ارْجِعْ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، فَرَجَعْتُ إلى رَسُول الله ﷺ فَأَجْهَشْتُ بُكَاءً وَرَكِبَنِي عُمَرُ [١]، فَإذا هُوَ على أَثري، فَقَال لي رَسُول الله ﷺ: مَا لكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قُلتُ: لَقِيتُ عُمَرَ فَأَخْبَرْتُهُ بِالذي بَعَثْتَنِي بِهِ فَضَرَبَ بَيْنَ ثَدْيَيَّ ضَرْبَةً خَرَرْتُ لإسْتِي، قَال: ارْجِعْ فَقَال لهُ رَسُول الله: يَا عُمَرُ مَا حَمَلكَ على مَا فَعَلتَ؟ قَال: يَا رَسُول الله بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَبَعَثْتَ أَبَا هُرَيْرَةَ بِنَعْليْكَ مَنْ لقِيَ يَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا الله مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلبُهُ بَشَّرَهُ بِالجَنَّةِ؟ قَال: نَعَمْ، قَال: فَلا تَفْعَل، فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَتكِل النَّاسُ عَليْهَا، فَخَلهِمْ يَعْمَلونَ، قَال رَسُول الله ﷺ: فَخَلهِمْ [٢] .

- **الدليل على أن اليقين لا بد أن ينفي الوهم والشك والظن.**

والحديث ظاهر في أن اليقين من أعمال القلوب اللازمة لصحة التوحيد والعبادة، وهو متعلق بالخبر والأمر، وبين ذلك أن الخبر دائر بين التصديق والتكذيب، فإذا أخبرك أحد لأول مرة عن شيء كقولهم: إن الأرض تدور حول نفسها مرة كل يوم، فإما أن تصدقه وإما أن تكذبه، فإن كان تكذيب القلب لهذا الخبر أكبر من التصديق سمي ذلك عند علماء الأصول وهما، كالذي يقول: كيف أن الأرض تدور وليس هذا بمأثور ولا مذكور، ونحن في أماكننا لا نقع؟ أنا أستبعد هذا الخبر، فالوهم مقتضاه أن يكون عدم ثبات الأمر في القلب أرجح من ثباته، أو

---

(١) يعني وقع على مقعدته ثم تبعه عمر ﷺ في المسير .

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا ٥٩/١ (٣١) .

كما عرفه الفيروزآبادي: (بأنه مَرْجوحُ طَرَفَيِ المُتَرَدَّدِ فيه)[(١)].

وهو يشبه النسيان إلى حد كبير، ولذلك سميت سجدة السهو بسجدة الوهم كما ورد عند البخاري من حديث عبد الله بن مالك ﷺ: (أن رسول الله ﷺ، صَلى بِهِمُ الظُّهْرَ، فَقامَ فِي الرَّكْعَتَيْنِ الأُولَيَيْنِ ولَمْ يَجْلِسْ، فَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ، حتى إذا قَضَى الصَّلاةَ وَانْتَظَرَ النَّاسُ تَسْليمَهُ، كَبَّرَ وَهُوَ جَالِسٌ، فَسَجَدَ سَجدتين قَبْلَ أَنْ يُسَلمَ ثمَّ سَلمَ)[(٢)].

وفي رواية الطبراني من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ صلى الظهر فسهى، فسجد سجدتي الوهم وهو جالس[(٣)]. والمقصود هنا سجدتا السهو عند انعدام اليقين، فالوهم أن يكون عدم ثبات الأمر في القلب أكبر من ثباته، واليقين ينفي الوهم .

أما لو تساوت نسبة التكذيب في القلب مع نسبة التصديق، واعتدل الترجيح بينهما في ثبوت الخبر سمي ذلك شكا كما ورد عند أبي داود من حديث أبي نملة الأنصاري ﷺ أن رسول اللهِ ﷺ قال: (مَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الكِتَابِ فَلا تُصَدِّقُوهُمْ وَلا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولوا: آمَنَّا بِاللهِ وَرُسُلِه، فَإِنْ كَانَ بَاطِلا لَمْ تُصَدِّقُوهُ، وَإِنْ كَانَ حَقًّا لَمْ تُكَذِّبُوه)[(٤)] .

---

(١) القاموس المحيط لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي ص١٥٠٧.
(٢) البخاري في صفة الصلاة، باب من لم ير التشهد الأول واجبا ٢٨٥/١ (٧٩٥)، ومسلم في المساجد، باب السهو فى الصلاة والسجود له ٣٩٩/١ (٥٧٠).
(٣) رواه الطبراني في مسند الشاميين ٨١/٤ (٢٧٨٥).
(٤) أبو داود في العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب ٣١٨/٣ (٣٦٤٤)، وأحمد ١٣٦/٤ (١٧٢٦٤)، وحسنه شعيب، وانظر السلسلة الصحيحة (٢٨٠٠).

وقد روى النسائي وصححه الشيخ الألباني من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (إذا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلاتِهِ فَلْيُلْغِ الشَّكَّ ولَيَبْنِ على اليَقِينِ، فَإذا اسْتَيْقَنَ بِالتمَام فَلْيَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ وَهُوَ قَاعِدٌ، فَإِنْ كَانَ صَلى خَمْسًا شَفَعَتَا لهُ صَلاتَهُ، وَإِنْ صَلى أَرْبَعًا كَانَتَا تَرْغِيمًا لِلشَّيْطَانِ) [1].

وعند الترمذي وصححه الألباني من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إذا كَانَ أَحَدُكُمْ فِي المَسْجِدِ فَوَجَدَ رِيحًا بَيْنَ أَلْيَتَيْهِ فَلا يَخْرُجْ حتى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا) [2]. قَال عَبْدُ اللهِ بْنُ المُبَارَكِ في معني الحديث: (إذا شَكَّ فِي الحَدَث، فَإِنَّهُ لا يَجِبُ عَلَيْهِ الوُضُوءُ حتى يَسْتَيْقِنَ اسْتِيقَانًا يَقْدِرُ أَنْ يَحْلفَ عَلَيْهِ) [3].

والشك يحدث الريبة في القلب ولازم نفيها وجود اليقين كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ (٣٤)﴾ غافر:٣٤ .

وقوم صالح: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ

---

(١) النسائي في كتاب السهو، باب إتمام المصلي على ما ذكر إذا شك ٢٧/٣ (١٢٣٨)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء فيمن شك في صلاته فرجع إلى اليقين ٣٨٢/١ (١٢١٠) وصححه الألباني، انظر إرواء الغليل (٤١١).

(٢) الترمذي في كتاب الطهارة، باب ما جاء في الوضوء من الريح ١٠٩/١ (٧٥)، وصححه الألباني انظر صحيح الجامع (٧٥١) .

(٣) عون المعبود لمحمد شمس الحق العظيم آبادي ٢٠٧/١.

ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ هود:٦٢ .

وقال تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ ﴾ النساء:١٥٧.

والآيات دلت على أن اليقين ينفي الشك والظن، فالشك أن يكون عدم ثبات الأمر في القلب مستويا مع ثبوته. أما الظن فهو زيادة التصديق في القلب على التكذيب حتى لو امتلأ القلب بالتصديق وبقي فيه من التكذيب شيء يسير، فإنه يسمى ظنا ولا يبلغ حد اليقين اللازم للإيمان، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ الجاثية:٣٢.

هؤلاء ذكروا في وصفهم لأنفسهم وهم في الدنيا أن تكذيبهم بذلك اليوم أمر وارد على قلوبهم، لكنهم لما انتقلوا إلى ربهم، ورأوا العذاب بأبصارهم، اعترفوا بذنبهم، وندموا على ظنهم، وتمنوا العودة إلى الدنيا ليبلغوا درجة اليقين اللازمة لكلمة لا إله إلا الله، والمنجية من عذاب الله فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ السجدة:١٢. فهؤلاء ذكروا أن تكذيبهم بذلك اليوم أمر وارد على قلوبهم، ولما انتقلوا إلى ربهم ورأوا العذاب بأبصارهم اعترفوا بذنبهم وندموا على ظنهم وتمنوا العودة إلى الدنيا ليبلغوا علم اليقين اللازم لكلمة لا إله إلا الله.

اليقين ينفي الوهم والشك والظن، فإذا صدقت بقلبك تصديقا

جازما كاملا، لا مجال للتكذيب فيه، فإن ذلك يسمى يقينا، وهو المسمى في النصوص القرآنية والنبوية بعلم اليقين كما في قوله: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ﴾ التكاثر:٥/٦.

• ضعف اليقين وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين.

الظالم لنفسه من المسلمين لا يخرج عن حد اليقين، ولو خرج عن اليقين لانتفى عنه الإيمان، وإنما قد يضعف اليقين في قلبه فيقترف بعض المعاصي ظلما لنفسه، ومن ثم فإن علم اليقين شرط من شروط لا إله إلا الله، لأن تصديق خبر الله ورسوله ﷺ تصديقا كاملا، يمحو التكذيب محوا شاملا من القلب بدرجاته المختلفة وهو أساس الإيمان. كما قال عَبد الله بنَ رَوَاحَةَ رضي الله عنه:

وَفِينَا رَسُول الله يتلو كِتابهُ : إِذا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الفَجْرِ سَاطِعُ
أَرَانَا الهدي بعْد العَمى فَقُلوبنا: بـهِ مُوقِنَـات أَنَّ مَا قَـال وَاقِـعُ
يبيت يجَافِي جَنْبهُ عَنْ فِرَاشِهِ : إِذا استْثقَلت بالمُشْرِكِينَ المَضَـاجِعُ(١)

والمسلم لا يكون مسلما إلا بعلم اليقين، ولا يخرج عن اليقين، ولا يمكن أن ينزل إلى درجة الظن، أو الشك، أو الوهم؛ لأنه إن اتصف بشيء مما ينافي اليقين انتفى شرط توحيد العبادة. وربما يضعف نور اليقين في قلب المسلم، وربما يسكن اليقين ويتمكن فيبصر حقائق الأمور بذلك النور. ومن هنا كان تصنيف اليقين في القلب على ثلاث درجات: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، فالأولى كعلمك

(١) البخاري في التهجد، باب فضل من تعار من الليل فصلى ١/٣٨٧ (١١٠٤).

بوجود العسل، وعين اليقين كرؤيتك له، وحق اليقين كشربك منه، وهي درجات تتقلب عند الموقنين حسب أوقاتهم المتعلقة بأحكام العبودية، وقد ورد علم اليقين في قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾ التكاثر: ١/٥.

والتكاثر هو جمع متاع الدنيا، حتى زُرْتمْ المَقَابر تنبيها على أن الزائر لابد أن ينتقل عن مزاره، فهو تنبيه على الموت والبعث، ثم بين سبحانه أن الناس سيعلمون، إما باختبار أو اضطرار. فعلم اليقين هو العلم الذي يصل به صاحبه إلى حقائق الأمور بنفي الوهم والشك والظن، فلا يماري في صحتها، ولا يرتاب في ثبوتها، كعلم اليقين بالجنة والنار، وتيقنه أن الجنة دار المتقين، وفيها خلود المؤمنين، وأن النار دار المكذبين، وفيها خلود الكافرين والمشركين، وأن الرسل أخبروا عنها بلاغا عن ربهم، وأنهم بينوا للناس أمرها، فهذه الدرجة تسمى درجة علم اليقين.

أما عين اليقين فهي درجة تعادل عبودية الإنسان لربه كأنه يراه وكذلك يقينه بما أخبر الله كأنه يراه، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ التكاثر:٧. وبين هذه الدرجة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة، فاليقين للسمع، وعين اليقين للبصر، وليس الخبر كالمعاينة .

وتلك الحالة التي كانت تحدث للصحابة الأخيار ﷺ إذا ذكرهم النبي ﷺ بالجنة أو النار، فقد روى مسلم من حديث حنظله الأسِّيدي

ﷺ أنه قَال: (لقِينِي أَبو بكْرٍ الصديق فَقَال: كَيفَ أَنْت يا حَنْظَلَةُ؟ قُلت: نَافَقَ حنظله. قَال سُبحَانَ اللهِ مَا تقُول؟ قُلت: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يا أبا بكر، نَكُونُ عِنْد رَسُول الله ﷺ يذكِّرُنَا بالنَّارِ وَالجَنَّةِ حتى كَأَنَّا رَأْيِ عَينٍ، فَإذا خرَجْنَا مِنْ عِنْد رَسُول الله ﷺ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاد وَالضَّيَّعَات، فَنَسِينَا كَثيرًا. قَال أَبو بكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لنَلقَي مِثل هَذا. فَانْطَلَقْت أَنَا وَأَبو بكْرٍ حتى دخلَنَا على رَسُول الله ﷺ. قُلت: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يا رَسُول الله. فَقَال رَسُول الله ﷺ: وَمَا ذاكَ؟ قُلت: يا رَسُول الله نَكُونُ عِنْدكَ تذكِّرُنَا بالنَّارِ وَالجَنَّةِ حتى كَأَنَّا رَأْيِ عَينٍ، فَإذا خرَجْنَا مِنْ عِنْدكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاد وَالضَّيَّعَات نَسِينَا كَثيرًا. فَقَال رَسُول الله ﷺ: وَالذي نَفْسِي بيدهِ لوْ تدومُونَ على مَا تكُونُونَ عِنْدي وَفِي الذكْر، لصَافَحَتكُمُ المَلائِكَةُ على فُرُشِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، وَلَكِنْ يا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، وَلَكِنْ يا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً) [1].

ومعنى ساعة وساعة أي يتقلب في تلك الأوقات بين منازل اليقين، فتارة في علم اليقين ليتابع حياته في البيع والشراء، وابتلاء الله ﷻ له بالسراء والضراء، وتارة في عين اليقين ينظر إلى ملكوت السماوات، ويعتبر بما فيها من حكم وآيات، وتارة في الذكر والصلاة يشعر بلذة القرب في الطاعة والمناجاة.

وأما حق اليقين فهو منتهى درجات السابقين المقربين، وعليها يحمل ما ورد عند البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: (يا أُمَّةَ مُحَمَّد، وَاللهِ لوْ تعْلمُونَ مَا أَعْلمُ، لضَحِكْتمْ قَليلا، وَلَبكَيتمْ

(١) رواه مسلم في كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر ٤/٢١٠٦ (٢٧٥٠).

كَثيرًا)[1]. وفي رواية: (وَمَا تلذذتمْ بالنِّسَاءِ على الفُرُشَات، وَلخَرَجْتمْ إلى الصُّعُدات تجْأَرُونَ إلى اللهِ)[2].

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾ الواقعة:٨١/٩٥.

وليس بعد مرتبة حق اليقين إلا الخشوع التام وتسبيح الموحدين الموقنين فقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ الواقعة:٩٦.

وعلى المنهج ذاته في آيات سورة الواقعة جاءت آيات سورة الحاقة فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾ الحاقة:٣٨/٥١.

- **العلامات الدالة على وجود اليقين وقوته في القلب.**

١- أول العلامات الدالة على وجود اليقين صلاح اللسان وأعمال الجوارح، فمن كانت أعماله صالحة كان من أصحاب اليقين، قال تعالى في وصف المجرمين بعد أن عذبهم في الجحيم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ

(١) البخاري في كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف ١/٣٥٤ (٩٩٧)، ومسلم في كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف ٢/٦١٨ (٩٠١).

(٢) جزء من حديث رواه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء ٢/١٤٠٢ (٤١٩٠)، وأحمد في المسند ٥/١٧٣ (٢١٥٥٥)، وحسنه الألباني انظر السلسلة الصحيحة (١٧٢٢).

نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ السجدة:١٢ . وبمفهوم المخالفة فإن أهل اليقين هم الذين عملوا الصالحات، والعمل الصالح في القرآن هو عمل اللسان والجوارح الناتج عن الإيمان وأعمال القلوب، فالعمل الصالح كما نص القرآن دليل الإيمان والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وكثرة الإنفاق وطهارة المأكل والمشرب، وسرعة الاستجابة لله ورسوله ﷺ، وحب الدعوة إلى الله، وطلب العلم والإخبات، والإنابة والقنوت ودوام الخشوع.

٢- الدعوة إلى العمل بشريعة الإسلام والالتزام بتطبيق الأحكام، فليس بموقن من دعا إلى تطبيق القوانين الوضعية كبديل كلي أو جزئي للشريعة الإسلامية، فالقاضي بين الناس ليس بموقن إذا حكم في أي قضية بغير أحكام الشريعة الإسلامية، وليس بموقن من زعم أن الأصول الإسلامية القرآنية والنبوية أصول نظرية غير تطبيقية ولا عملية، وإنما هي أمور شخصية، كما زعمت فلول العلمانية الذين يتعمدون إطلاق مصطلح النظرية للتهوين من شأن الأحكام الشرعية، وأنها من الأمور التي لا تتوقف حياة المسلمين وتقدمهم على تطبيقها، فيحاربون تطبيق الشريعة الإسلامية والداعين إليه، وفي المقابل يدعون إلى تطبيق المنهاج والقوانين العلمانية وأحكام الحياة الانحلالية الجاهلية في كل نواحي الحياة. ومن ثم فإن الدعوة إلى تطبيق الأحكام والعمل بشريعة الإسلام دليل على وجود اليقين وقوته في القلب والعكس صحيح، قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ المائدة: ٥٠.

روى البخاري من حديث عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيرِ ﷺ أَنَّ رَجُلا مِنْ

الأَنْصَارِ خَاصَمَ الزُّبَيرَ ﷺ فِي شِرَاجٍ مِنْ الحَرَّةِ، يسْقِي بِهَا النَّخْلَ، فَقَال رَسُول اللهِ ﷺ: اسْقِ يا زُبَيرُ، فَأَمَرَهُ بِالمَعْرُوفِ ثم أَرْسِل إلى جَارِكَ، فقَال الأَنْصَارِي: أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِك، فَتلوَّنَ وَجْهُ رَسُول اللهِ ﷺ، ثمَّ قَال: اسْقِ ثمَّ احْبِسْ يرْجِعَ المَاءُ إِلى الجَدْرِ، واسْتَوْعَى لهُ حَقَّهُ، فَقَال الزُّبيرُ: وَاللهِ إنَّ هَذهِ الآية أُنْزِلتْ فِي ذلكَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ النساء:٦٥ [1].

٣- من علامات اليقين الصبر والثبات على الحق، وعدم الجزع من إعراض الخلق، وقوة الثبات عند المحك قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ الروم:٦٠.

وروى مسلم من حديث صهيب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (فَأُتِيَ المَلكُ فَقِيل لهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذرُ، قَدْ وَاللهِ نَزَل بِكَ حَذرُك، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ، وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ وَقَال: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيل لهُ: اقْتَحِمْ، فَفعَلوا، حَتَّى جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لها، فَتقَاعَسَتْ أَنْ تَقعَ فِيهَا، فَقَال لها: الغُلامُ يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلى الحَقِّ) [2].

(١) البخاري في المساقاة، باب شرب الأعلى إلى الكعبين ٨٣٢/٢ (٢٢٣٣)، ومسلم في الفضائل، باب وجوب اتباعه ﷺ ١٨٢٩/٤ (٢٣٥٧)، وشراج جمع شرج وهو مسيل الماء من المرتفع إلى السهل، والحرة الأرض الصلبة الغليظة ذات الحجارة السوداء وفي المدينة حرتان، الجدر هو ما رفع حول المزرعة كالجدار.

(٢) مسلم في الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الإخدود ٢٢٩٩/٤ (٣٠٠٥).

وروى الترمذي وحسنه الشيخ الألباني من حديث عبد الله بن عمر ﭬ أنه قال: قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: (اللهمَّ اقْسِمْ لنا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُول بَيْننَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلينَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا) [١].

وعند ابن ماجة وصححه الألباني من حديث أَبي هُرَيرَة ﭬ أن النَّبي ﷺ قال: (إِنَّ المَيت يصِيرُ إِلى القَبرِ، فَيجْلسُ الرَّجُل الصَّالحُ فِي قَبرهِ غَيرَ فَزِعٍ وَلا مَشْعُوفٍ.. وَيقَال لهُ: عَلى اليقِينِ كُنْت، وَعَليهِ مُت، وَعَليهِ تبعَث إِنْ شَاءَ اللهُ. وَيجْلسُ الرَّجُل السُّوءُ فِي قَبرهِ فَزعًا مَشْعُوفًا، فَيقَال لهُ: فِيمَ كُنْت؟ فَيقُول لا أَدري، فَيقَال لهُ: .. عَلى الشَّكّ كُنْت، وَعَليهِ مُت، وَعَليهِ تبعَث إِنْ شَاءَ اللهُ تعَالى) [٢].

٤- من علامات اليقين حب الدعوة إلى الله وتبني مسئوليتها قولا وفعلا والصبر عليها، فالصبر على مشاق الدعوة وتحمل أذى الخلق لله وحده، وعدم التأثر بكثرة الأتباع أو قلتهم، واعتبار الدليل النصي والأمر الشرعي التوقيفي معيارا لمعرفة الحق أو الباطل، وليس كثرة الأتباع، كل ذلك دليل على وجود اليقين وقوته في قلوب الموقنين، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات ٥/٥٢٨ (٣٥٠٢)، وحسنه الألباني، انظر صحيح الجامع (١٢٦٨).

(٢) رواه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى ٢/١٤٢٦ (٤٢٦٨)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١٣٩).

﴿يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ السجدة:٢٤.

٥- ومن علامات اليقين قلة الوساوس في القلب، وعدم التأثر بوسوسة الشياطين وترك الالتفات إلى الشبهات، وكثرة الاستعاذة منها، لأن دور الشيطان إلقاء الشبهات التي تحدث الريبة والتردد والشك في القلب، واليقين ينفي الوهم والشك والظن، فلا تؤثر وسوسة الشيطان في قلوب الموقنين.

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُول: مَنْ خَلقَ كَذا، مَنْ خَلقَ كَذا، حَتَّى يَقُول: مَنْ خَلقَ رَبَّك، فَإِذا بَلغَهُ فَلْيَسْتَعِذ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ) [(١)].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ سبأ:٢٠/٢١.

قال ابن القيم رحمه الله: (وفتنة الشبهات تدفع باليقين، وفتنة الشهوات تدفع بالصبر، ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ السجدة:٢٤. فدل على أنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين) [(٢)].

---

(١) البخاري في بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده ٣/١١٩٤ (٣١٠٢)، ومسلم في الإيمان، باب بيان الوسوسة فى الإيمان وما يقوله من وجدها ١/١٢٠ (١٣٤).
(٢) إغاثة اللهفان لابن القيم ٢/١٦٧ بتصرف.

• الصدق من أعمال القلوب اللازمة للمقتصدين والسابقين.

أصل الصدق من الموافقة والمصادقة والمصاحبة والمطابقة، وسمي الصاحب صاحبا لمصادقته صحبه في أغلب الأمور، ومناصحته بالصدق في الشدة والسرور، فالمصادقة هي الموافقة والملاقاة[1].

وإذا توافق قول الجنان مع قول اللسان وفعل الجنان مع حركة الأبدان ظهرت معاني الصدق في الإنسان، وإن اختلف قول القلب عن قول اللسان وفعل القلب عن فعل الأبدان ظهرت حقيقة الكذب والخيانة والنفاق والغدر وانعدام الأمانة، فالصدق مطابقة القول والفعل الظاهري للقول والفعل الباطني، فإن إخوة يوسف عليه السلام لم يصدقوا عندما: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ يوسف:١٧. وهم لم يصدقوا لأن العلم الذي هو قول الجنان خالف الشهادة التي هي قول اللسان، ولكن لما توافق العلم مع الشهادة، وتطابق قول الجنان مع قول اللسان ظهر صدقهم في قولهم: ﴿ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ يوسف:٨١/٨٢.

وكذلك كذب تسعة رهط من قوم صالح لما اجتمع رأيهم على قتله وأرادوا القضاء على أهله كما قال تعالى في شأنهم وادعائهم لصدقهم: ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟

(١) انظر لسان العرب لابن منظور ١٠/١٩٣ بتصرف.

تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ النمل: ٤٨/٤٩ .

أما إن اتفق فعل القلب الذي هو النية والإرادة مع فعل البدن الذي يحقق القدر والاستطاعة، وتوافق الفعل الظاهر مع الفعل الباطن ظهر الصدق في الأفعال، كما روي عن ابن عباس ﷺ أنه قال: (مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَشْبَهَ بِاللمَمِ مِمَّا قَال أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: (إِنَّ اللهَ كَتَبَ على ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا أَدْرَكَ ذلكَ لا مَحَالَةَ فزِنَا العَيْنِ النَّظَرُ وَزِنَا اللسَانِ المَنْطِقُ وَالنَّفْسُ تتَمَنَّي وتَشْتَهِي وَالفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلكَ كُلهُ وَيُكَذبُه) [1].

وقال تعالى عن إسماعيل ﵇: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ ﴾ مريم: ٥٤.

ومن معاني الصدق مطابقة الخبر للحقيقة ووقوعه على نحو يتوافق معها، فعند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ قَال: (شَهدْنَا خَيْبَرَ فقَال رَسُول اللهِ ﷺ لرَجُل مِمَّنْ مَعَهُ يَدَّعِي الإِسْلامَ: هَذا مِنْ أَهْل النَّار، فَلمَّا حَضرَ القِتَال، قَاتَل الرَّجُل أَشَدَّ القِتَال حتى كَثرَتْ بِهِ الجِرَاحَةُ، فكَادَ بَعْضُ النَّاسِ يَرْتَابُ، فَوَجَدَ الرَّجُل أَلَمَ الجِرَاحَةِ، فَأَهوى بِيَدِهِ إِلى كِنَانَتِهِ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهَا أَسْهُمًا فَنحَرَ بِهَا نَفْسَهُ، فَاشْتَدَّ رجَال مِنَ المُسْلمِينَ، فَقَالوا: يَا رَسُول اللهِ صَدَّقَ اللهُ حَدِيثك، انْتَحَرَ فُلانٌ فقتَل نَفْسَهُ، فقَال: قُمْ يَا فُلانُ، فَأَذنْ أَنَّهُ لا يَدْخُل الجَنَّةَ إِلا مُؤْمِنٌ، إِنَّ اللهَ يُؤَيِّدُ الدِّينَ

---

(١) البخاري في الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج ٥/٢٣٠٤ (٥٨٨٩)، ومسلم في القدر، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره ٤/٢٠٤٦ (٢٦٥٧).

بِالرَّجُل الفَاجِرِ)(١).

وعند البخاري من حديث مسروق عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (دَخَلتْ عَلَيَّ عَجُوزَان مِنْ عُجُزِ يَهُودِ المَدِينَةِ فَقَالَتَا لي إنَّ أَهْلَ القُبُورِ يُعَذبُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَكَذبْتُهُمَا، وَلَمْ أُنْعِمْ أَنْ أُصَدِّقَهُمَا، فَخَرَجَتَا وَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقُلتُ لهُ: يَا رَسُول اللهِ إنَّ عَجُوزَيْن وَذكَرْتُ لهُ، فَقَال: صَدَقَتَا، إنَّهُمْ يُعَذبُونَ عَذابًا تَسْمَعُهُ البَهَائِمُ كُلهَا. فَمَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ فِي صَلاَةٍ إِلاَّ تَعَوَّذ مِنْ عَذابِ القَبْرِ)(٢).

- **كيف يكون الصدق شرطا من شروط كلمة التوحيد؟**

الصدق المنافي للكذب الذي هو شرط من شروط لا إله إلا الله يقصد به الوفاء بالعهد الذي قطعه المسلم على نفسه عند قوله لا إله إلا الله، فيصدق مع الله في توحيده، ويحقق مقتضى الشهادة من خلال الصدق في قوله وفعله، فلا بد من تنفيذ الوعد ومطابقة القول والفعل لما تم في شروط العقد، وإن لم يفعل كان كاذبا منافقا، ولم يكن في عهده صادقا، قال تعالى عمن قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧)﴾ آل عمران:١٦٧. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا

---

(١) رواه البخاري في المغازي، باب غزوة خيبر ٤/١٥٤٠ (٣٩٦٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه ١/١٠٥ (١١١).

(٢) رواه البخاري في الدعوات، باب التعوذ من عذاب القبر ٥/٢٣٤١ (٦٠٠٥)، ومسلم في كتاب المساجد، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر ١/٤١١ (٥٨٦).

يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ المرسلات:٤٨/٤٩.

وعند البخاري عن طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ ﷺ قال: (جَاءَ رَجُلٌ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ، ثَائِرَ الرَّأْسِ يُسْمَعُ دَوِيُّ صَوْتِهِ، وَلا يُفْقَهُ مَا يَقُولُ، حتى دَنَا، فَإِذا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الإِسْلامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، فَقَالَ: هَلْ على غَيْرُهَا؟ قَالَ: لا إِلا أَنْ تَطَوَّعَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَصِيَامُ رَمَضَانَ، قَالَ: هَلْ على غَيْرُهُ؟ قَالَ: لا إِلا أَنْ تَطَوَّعَ، قَالَ: وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الزَّكَاةَ، قَالَ: هَلْ على غَيْرُهَا؟ قَالَ: لا إِلا أَنْ تَطَوَّعَ، قَالَ: فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللهِ لا أَزِيدُ على هَذَا وَلا أَنْقُصُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ) (١).

وروي البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: (لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ، أُهْدِيَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ شَاةٌ فِيهَا سُمٌّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اجْمَعُوا إلى مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ، فَجُمِعُوا لَهُ، فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ، فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ أَبُوكُمْ؟ قَالُوا: فُلانٌ، فَقَالَ: كَذَبْتُمْ بَلْ أَبُوكُمْ فُلانٌ، قَالُوا: صَدَقْتَ، قَالَ: فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ، فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا القَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي أَبِينَا، فَقَالَ لَهُمْ: مَنْ أَهْلُ النَّارِ، قَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا ثُمَّ تَخْلُفُونَا فِيهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: اخْسَئُوا فِيهَا، وَاللهِ لا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا، ثُمَّ قَالَ: هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ، فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا القَاسِمِ، قَالَ: هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ:

---

(١) البخاري في كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام ١/٢٥ (٤٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات التى هى أحد أركان الإسلام ١/٤٠ (١١).

مَا حَمَلَكُمْ على ذلكَ؟ قَالوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَاذبًا نَسْتَرِيحُ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ)[1].

ويلزم من قول العبد لا إله إلا الله صدقا من قلبه أن يتفق القلب واللسان والجوارح على عبادة الله وطاعته عند النطق بها، ويرسخ في اعتقاده التصدق بها، ومهما ابتلي في الحياة فلن يشك في أن الله هو المعبود بحق الذي يصدق في خبره دون تكذيب ويطاع في أمره دون عصيان. قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ الأحزاب:٢٣/٢٤ . وقال ﷻ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ العنكبوت:١/٣.

وقال تعالى في شأن المنافقين الذين قالوا لا إله إلا الله بأفواههم ولم يصدقوا في إيمانهم: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ التوبة:٧٥/٧٧.

وعند البخاري من حديث أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: (يَا

(١) رواه البخاري في أبواب الجزية والموادعة، باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم ٣/١١٥٦ (٢٩٩٨).

مُعَاذ بْنَ جَبَل، وَمُعَاذ رَدِيفُهُ عَلَى الرَّحْل، قَال: لَبَّيْكَ يَا رَسُول اللهِ وَسَعْدَيْكَ، قَال: يَا مُعَاذ قَال: لَبَّيْكَ يَا رَسُول اللهِ وَسَعْدَيْكَ، ثلاَثا، قَال: مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول اللهِ صِدْقًا مِنْ قَلبِهِ إِلاَّ حَرَّمَهُ اللهُ عَلى النَّار، قَال: يَا رَسُول اللهِ، أَفَلاَ أُخْبِرُ بِهِ النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا، قَال: إِذا يَتَّكِلوا، وَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثمًا) [(١)].

والشاهد من الحديث أن النبي ﷺ اشترط لقائلها حتى ينجو من النار أن يقولها صدقا من قلبه، وعزما على تنفيذ أمره، فلا ينفعه مجرد اللفظ بدون مواطأة القلب، فلا بد في الصدق من تنفيذ العهد الذي قطعه العبد على نفسه بشهادة التوحيد والوعد الذي سيؤدي فيه حق الله على العبيد أن يعبد الله ولا يشرك به شيئا.

وكيف يكون صادقا في شهادته ألا إله إلا الله محمد رسول الله من تتشبه بحزب الشيطان ودافع عن أهل الفسق والعصيان من اليهود والنصارى فسار خلفهم شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب دخله خلفهم، ولبس لباسهم وتعرى مثلهم، وشرب خمرهم وألف سكرهم، وطعم بيسراه طعامهم، ورقص رقصهم، وتغنى بفسقهم وانحلالهم وأذاع غناءهم في قنوات فضائية تنشر الفاحشة في الذين آمنوا، وخرج عن وصفه ووالاهم على بني جنسه، ثم سمى ذلك حضارة وتحررا واستنارة، أيكذب على نفسه أم يستهزأ بربه؟ أين الصدق في

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم ٥٩/١ (١٢٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ٦١/١ (٣٢).

عهده ووعده؟ لا إله إلا الله ليست مجردَ كلمة خرجت من اللسان، لا شروط لها ولا أركان، فمن شروطها الصدق المنافي للكذب.

• مثال لمن ابتلي في الصدق في عصر النبوة ابتلاءا شديدا.

إن عبدا قلبه عامر بالإيمان لما وقع في شيء من العصيان خاصمه المصطفى عليه الصلاة والسلام قرابة الشهرين حتى صدق في توبته وكفر عن ذنبه وخطيئته، روى البخاري من حديث كَعْبِ بْنَ مَالكٍ ﷺ حِينَ تَخلَفَ عَنْ غزوة تَبُوكَ، أن النبي ﷺ قال له: (أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذ وَلَدَتْك أُمُّك، قَال قُلتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُول اللهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ؟، قَال: لا بَل مِنْ عِنْدِ اللهِ) [١].

وَكَانَ رَسُول اللهِ ﷺ إذا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حتى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذلكَ مِنْهُ، فَلمَّا جَلسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، قُلتُ يَا رَسُول اللهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلعَ مِنْ مَالي صَدَقَةً إلى اللهِ وَإِلي رَسُول اللهِ، قَال رَسُول اللهِ ﷺ أَمْسِكْ عَليْكَ بَعْضَ مَالكَ فَهُوَ خَيْرٌ لكَ، قُلتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الذي بِخَيْبَرَ، فَقُلتُ يَا رَسُول اللهِ إِنَّ اللهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْق وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لا أُحَدِّث إلا صِدْقًا مَا بَقِيتُ، فَو اللهِ مَا أَعْلمُ أَحَدًا مِنَ المُسْلمِينَ أَبْلاهُ اللهُ فِي صِدْق الحَدِيث، مُنْذ ذَكَرْتُ ذلكَ لرَسُول اللهِ ﷺ، أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلانِي، مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذ ذَكَرْتُ ذلكَ لرَسُول اللهِ ﷺ إلى يَوْمِي هَذا كَذِبًا، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللهُ فِيمَا بَقِيتُ، وَأَنْزَل اللهُ على رَسُولهِ ﷺ: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ

---

(١) البخاري في المغازي، باب حديث كعب بن مالك ٤/١٦٠٣ (٤١٥٦)، ومسلم في التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ٤/٢١٢٠ (٢٧٦٩).

ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ التوبة:١١٧/١١٩.

قال كعب ﷺ: فَوَاللهِ مَا أَنْعَمَ اللهُ على مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ، بَعْدَ أَنْ هَدَانِي للإِسْلام أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لرَسُول اللهِ ﷺ، أَنْ لا أَكُونَ كَذَبْتُهُ، فَأَهْلك كَمَا هَلكَ الذين كَذبُوا، فَإِنَّ اللهَ قَال للذين كَذبُوا حِين أَنْزَل الوَحْيَ شَرَّ مَا قَال لأَحَدٍ فقَال تَبَارَكَ وتعالي: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْۖ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْۖ إِنَّهُمْ رِجْسٞۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ التوبة:٩٤/٩٦.

إن من أسوا ما يقع فيه المرء أن يصدق في وعده مع الناس ولا يصدق مع ملك الناس، فيستخفي منهم ولا يستخفي من الله، قال تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ النساء:١٠٨.

روى أبو داود وحسنه الشيخ الألباني أن أم عبد الله بن عامر قالت

لولدها: (تعالى أعطيك، تعني أعطيك حلوي، فَقَال لَهَا رَسُول ﷺ: وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيهِ؟ قَالتْ: أُعْطِيهِ تَمْرًا، فَقَال لَهَا رَسُول اللهِ ﷺ: أَمَا إِنَّكِ لوْ لمْ تُعْطِهِ شَيْئًا كُتِبَتْ عَلَيْكِ كِذبَةٌ)[١].

• علامة الصدق في الخبر اليقين وعلامته في الأمر الطاعة.

ذكر ابن تيمية أن الدين جماعه شيئان تصديق الخبر، وطاعة الأمر، ومعلوم أن التنعم بالخبر بحسب شرفه وصدقه، والمؤمن معه من الخبر الصادق عن الله وعن مخلوقاته ما ليس مع غيره، فهو من أعظم الناس نعيما بذلك، بخلاف من يكثر في أخبارهم الكذب. وأما طاعة الأمر فإن من كان ما يؤمر به صلاحا وعدلا ونافعا يكون تنعمه به أعظم من تنعم من يؤمر بما ليس بصلاح ولا عدل ولا نافع، وهذا من الفرق بين الحق والباطل[٢].

وعلامة الصدق إن تعلق بالخبر فهو تصديقه تصديقا يقينيا، وعلامته إن تعلق بالأمر تنفيذه تنفيذا كاملا، ومما ورد في الجمع بين الأمرين ما رواه البخاري من حديث أَبي سَعِيد الخدري ﷺ أَنَّ رَجُلا أَتى النَّبي ﷺ فَقَال: (أَخِي يشْتكِي بطْنَهُ؟ فَقَال: اسْقِهِ عَسَلا، ثمَّ أَتى الثانيةَ فقَال: اسْقِهِ عَسَلا، ثمَّ أَتاهُ الثالثةَ، فَقَال: اسْقِهِ عَسَلا، ثمَّ أَتاهُ فقَال: قَد فَعَلت، فقَال: صَدقَ اللهُ، وكَذب بطْنُ أَخِيكَ اسْقِهِ عَسَلا، فَسقَاهُ فبرأَ)[٣].

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب في التشديد في الكذب ٤/٢٩٨ (٤٩٩١)، وحسنه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٧٤٨).

(٢) قاعدة في المحبة لابن تيمية ص١٥٥بتصرف.

(٣) البخاري في الطب، باب الدواء بالعسل ٥/٢١٥٢ (٥٣٦٠).

وفي رواية: (جَاءَ رَجُل إلى النَّبي ﷺ فقَال: إنَّ أَخِي اسْتطْلَقَ بطْنُهُ فَقَال: اسْقِهِ عَسَلا، فَسقَاهُ، فقَال: إنِّي سَقَيتهُ فَلَمْ يزِدهُ إِلا اسْتطْلاقًا، فَقَال: صَدقَ اللهُ وكَذب بطْنُ أَخِيكَ) (١).

والرسول ﷺ يعني التصديق بقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ النحل:٦٩.

بل كان رسول الله ﷺ يذكر في فضل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أنهما يؤمنان بكل ما أخبر به النبي ﷺ ثقة منه فيهما، كما ورد في الصحيحين من حديث أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه أنه قال: (صَلى رَسُول اللهِ ﷺ صَلاةَ الصُّبحِ، ثمَّ أَقْبل عَلى النَّاسِ فَقَال: بينَا رَجُل يسُوقُ بقَرَةً، إذ رَكِبهَا فَضَرَبهَا، فقَالت: إنَّا لمْ نُخلَقْ لهَذا، إنَّمَا خُلقْنَا للحَرْث. فقَال النَّاسُ: سُبحَانَ اللهِ، بقَرَةٌ تكَلمُ؟ فقَال: فَإنِّي أُومِنُ بهَذا، أَنَا وَأَبو بكْرٍ وَعُمَرُ، وَمَا هُمَا ثمَّ؟ وَبينَمَا رَجُل فِي غَنَمِهِ إذ عَدا الذئْب، فَذهَب مِنْهَا بشَاةٍ، فَطلَب حَتى كَأَنَّهُ اسْتنْقَذهَا مِنْهُ، فقَال لهُ الذئْب: هَذا اسْتنْقَذتها مِنِّي، فَمَنْ لهَا يوْمَ السَّبعِ، يوْمَ لا رَاعِي لهَا غَيري، فَقَال النَّاسُ: سُبحَانَ اللهِ ذئْب يتكَلمُ؟ قَال: فَإنِّي أُومِنُ بهَذا أَنَا وَأَبو بكْرٍ وَعُمَرُ، وَمَا هُمَا ثمَّ) (٢).

وعند أحمد من حديث أُم سَلمَةَ رضي الله عنها أن جَعْفر بن أَبي

(١) رواه البخاري في كتاب الطب، باب دواء المبطون ٥/٢١٦١ (٥٣٨٦).
(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأنبياء، باب أم حسبت أن أصحاب الكهف ٣/١٢٨٠ (٣٢٨٤)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر ٤/١٨٥٧ (٢٣٨٨).

طَالب ﷺ كلم النجاشي فقال له: (أَيهَا المَلكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْل جَاهِلِيةٍ، نَعْبد الأَصْنَامَ، وَنَأْكُل المَيتة، وَنَأْتي الفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الجِوَارَ، يأْكُل القَوي مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا على ذلكَ حتى بعَث اللهُ إِلينَا رَسُولا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسبَهُ، وَصِدقَهُ، وَأَمَانَتهُ، وَعَفَافَهُ، فَدعَانَا إلى اللهِ لنُوَحِّدهُ وَنَعْبدهُ، وَنَخْلعَ مَا كُنَّا نَعْبد نَحْنُ وَآباؤُنَا مِنْ دونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالأَوْثان، وَأَمَرَنَا بصِدق الحَديث، وَأَداءِ الأَمَانَةِ، وَصِلةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الجِوَارِ، وَالكَفِّ عَنِ المَحَارِمِ وَالدمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الفَوَاحِشِ، وَقَوْل الزُّورِ، وَأَكْل مَال اليتيم، وَقَذْفِ المُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبد اللهَ وَحْدهُ، لا نُشْرِكُ بهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيام، وعَدد عَليهِ أُمُورَ الإِسْلامِ، فَصَدقْنَاهُ وَآمَنَّا بهِ، وَاتبعْنَاهُ على مَا جَاءَ بهِ، فَعَبدنَا اللهَ وَحْدهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلينَا، وَأَحْللنَا مَا أَحَل لنَا، فَعَدا عَلينَا قَوْمُنَا، فَعَذبونَا، وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا ليرُدونَا إلى عِبادةِ الأَوْثانِ مِنْ عِبادةِ اللهِ، وَأَنْ نَسْتحِل مَا كُنَّا نَسْتحِل مِنَ الخَبَائِث) (١).

والصدق عماد الإيمان، وبه قيامه وفيه تمامه ونظامه، والصديقون يعقبون النبيين، وأقل الصدق استواء السر والعلانية، والصادق من صدق في أقواله، والصديق من صدق في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩ ﴾ التوبة:١١٩. فليس للعبد شيء، أنفعُ من الصدق مع ربه، والصدق في تنفيذ أمره، قال تعالى: ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ

(١) رواه أحمد في المسند ٢٠١/١ (١٧٤٠)، وانظر فقه السيرة للشيخ الغزالي ص١١٥ تحقيق العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني نشر دار القلم دمشق.

لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ ﴾ محمد:٢١.

والعبد سعادته في صدق عزيته، ثم صدق حركته وسكنته، فصدق العزيمة جمعها وجزمها بحيث لا يشوبها تردد، فإذا صدق في عزيمته بقى عليه الصدق في حركته وسكنته، فيستفرغ وسعه في رضا الله وطاعته، ويبذل جهده في ابتغاء قربه ومحبته، وألا يتخلف عن عبوديته بشيء من ظاهره أو سريرته، فعزيمة القصد تمنعه من ضعف إرادته، وصدق الفعل يمنعه من فتور همته. ومن صدق الله في جميع الأمور، صدق في التوكل عليه وصح الإخلاص لديه، ونجاه الله عند البلاء، ورفع عنه أسباب الشقاء .

وعند البخاري من حديث أنس بن مالك ﷺ أنه قَال: (غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ القِتَال فِي بَدْر، فَقَال: يَا رَسُول اللهِ غِبْتُ عَنْ أَوَّل قِتَال قَاتَلتَ المُشْرِكِينَ فيه، لئِنِ اللهُ أَشْهَدَنِي قِتَال المُشْرِكِينَ، ليَرَيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَعُ، فَلمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَشَفَ المُسْلمُونَ، قَال: اللهم إِنِّي أَعْتَذرُ إِليْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاءِ يعني جيش المؤمنين، وَأَبْرَأُ إِليْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاءِ المُشْرِكِينَ، ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذ، فَقَال: يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذ، الجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ، إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُون أُحُدٍ، قَال: سَعْدٌ فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُول اللهِ مَا صَنَعَ، قَال أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ، أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِل، وَقَدْ مَثل بِهِ المُشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ) (١). فنزل فيه قوله

(١) البخاري في الجهاد والسير، باب قول من المؤمنين رجال صدقوا ١٠٣٢/٣ (٢٦٥١)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد ١٥١٢/٣ (١٩٠٣).

تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ الأحزاب:٢٣.

وروي الإمام مسلم بسنده عن أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ قَال: (إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ مِنَ الأُفُقِ مِنَ المَشْرِق أَوِ المَغْرِبِ، لتَفَاضُل مَا بَيْنَهُمْ قَالوا: يَا رَسُول اللهِ تِلكَ مَنَازِل الأَنْبِيَاءِ لا يَبْلغُهَا غَيْرُهُمْ، قَال: وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَال آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلينَ) [(١)].

• الكمال في الصدق وحكم المعاريض والتورية.

الواجب على كل مسلم أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها، فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق، والكمال في صدقه الاحتراز عن المعاريض، فقد قيل في المعاريض مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب، إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال كتأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم، وفي الحذر من الظلمة، وفي قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على الأسرار، فمن اضطر إلى شيء من ذلك فصدقه أن يكون نطقه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدين، فإذا نطق به فهو صادق وإن كان

---

(١) البخاري في بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ٣/١١٨٨ (٣٠٨٣)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف ٤/٢١٧٧ (٢٨٣١). والغابر الذاهب أو الباقي بعد انتشار ضوء الفجر.

كلامه مفهما غير ما هو عليه، لأن الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه، فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه، نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعاريض ما وجد إليه سبيلا.

وعند البخاري من حديث كعب ﷺ قال: (كَانَ رَسُول اللهِ ﷺ قَلمَا يُرِيدُ غَزْوَةً يَغْزُوهَا إِلاَّ وَرَّى بِغَيْرِهَا) [(١)]. وذلك كي لا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد وليس هذا من الكذب في شيء.

وعند أبي داود وصححه الشيخ الألباني من حديث أم كلثوم بنت عقبة أَنَّ النَّبِيَ ﷺ قَال: (لَيْسَ بِالكَاذبِ مَنْ أَصْلحَ بَيْنَ النَّاسِ فَقَال خَيْرًا أَوْ نَمَى خَيْرًا) [(٢)].

والصدق ههنا يتحول إلى النية، فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير، فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير إرادته صار صادقا وصديقا كيفما كان لفظه، ثم التعريض فيه أولى. وطريقه ما حكى عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره فقال لزوجته: خطي بأصبعك دائرة وضعي الأصبع على الدائرة وقولي: ليس هو ههنا، واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه، فكان قوله صدق، وأفهم الظالم أنه ليس في الدار[(٣)].

---

(١) البخاري في الجهاد، باب من أراد غزوة فورى بغيرها ٣/١٠٧٨ (٢٧٨٨).

(٢) أبو داود في الأدب، باب فى إصلاح ذات البين ٤/٢٨٠ (٤٩٢٠)، وأحمد في المسند ٦/٤٠٣ (٢٧٣١٤) وصححه الألباني، انظر صحيح الترغيب والترهيب ٣/٤٥(٢٨١٥).

(٣) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ٤/٣٨٨ بتصرف.

• الخوف والرهبة والوجل والخشية من أعمال الإيمان.

الخوف من الله تعالى فرض على جميع المكلفين وسائر المقتصدين والسابقين، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ آل عمران:١٧٥. وقال تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ النحل:٥١ . وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ المائدة:٤٤ .

ومدح الله أهله في كتابه وأثنى عليهم فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ المؤمنون:٥٧/٦٠.

إن المؤمن جمع في إيمانه إحسانا وخشية والمنافق جمع في نفاقه إساءة وأمنا، والخوف والخشية والرهبة والوجل ألفاظ متقاربة، وهي صفات مقارنة لحالة الخوف، فإن اقترن بالعلم والسكينة كانت الخشية، وإن اقترن بالتعظيم والإكبار كانت الرهبة، وإن اقترن بالشكر على النعمة كان الوجل وهكذا.

قال ابن القيم: (والخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره والخشية أخص من الخوف فإن الخشية للعلماء بالله، فهي خوف مقرون بمعرفة .. وأما الرهبة فهي الإمعان في الهرب من المكروه وهي ضد الرغبة .. وأما الوجل فرجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته أو لرؤيته وأما الهيبة فخوف مقارن للتعظيم والإجلال، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة والإجلال تعظيم مقرون

بالحب)[1].

والخوف ليس مقصودا لذاته، بل هو مقصود لغيره قصد الوسائل ولهذا يزول بزوال السبب المخوف، فإن أهل الجنة إذا زحزحوا عن النار ودخلوا الجنة فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ الزخرف:٦٧/٧٠.

قال ابن القيم: (القلب في سيره إلى الله ﷻ بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطير جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف)[2].

• العلامات الظاهرة الدالة على وجود الخوف في القلوب.

١- الترقب وطلب النجاة، وهو علامة تبدوا على الخائف خوفا شديدا لا يستطيع دفعها كما قال تعالى في شأن موسى عليه السلام: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ القصص:١٨. وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ

(١) مدارج السالكين لابن القيم ٥١٢/١.
(٢) السابق ٥١٧/١.

يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ القصص: ٢٠/٢١.

وعلامة الخائفين كثرة المراقبة لله، والاستعداد للرحيل عن الحياة، والتعلق بما ينال به النجاة، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ الأنعام: ٥١.

٢- ومن علامات الخوف تقلب البصر، وكثرة دورانه إلى درجة قد تصل على عدم التمييز بين الأشياء فيتخبط في قوله وفعله، وهي صفة فطرية تظهر على الخائفين دو شعور كما قال تعالى: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٩﴾﴾ الأحزاب: ١٨/١٩.

وعلامتها في المقتصدين طلب الراحة المؤدي لتمام الواجب، وفي السابقين لتمام الواجب والمستحب. روى أبو داود وصححه الألباني من حديث سالم بن أبي الجعد أنه قال: (قَال رَجُل مِنْ خُزَاعَةَ: لَيْتَنِي صَلَيْتُ فَاسْتَرَحْتُ، فَكَأَنَّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذلكَ، فَقَال: سَمِعْتُ رَسُول اللهِ ﷺ يَقُول: يَا بِلال أَقِمْ الصَّلاةَ أَرِحْنَا بِهَا) (١).

وقال تعالى: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب فى صلاة العتمة ٤/٢٩٦ (٤٩٨٥) وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (١٢٥٣).

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ النور:٣٧.

٣- ومن علامات الخوف الفرار والتولي مما يخاف وعدم الالتفات إليه، قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ النمل:١٠. وقال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ القصص:٣١. وقال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ غافر:٣٢/٣٣.

وروى مسلم من حديث أنس ﷺ أن رسول اللهِ ﷺ قال: (وَالذي نفْسُ مُحَمَّدٍ بيده لو رَأَيْتُمْ ما رأيت، لضَحِكْتُمْ قليلا ولَبَكَيْتُمْ كَثيراً قالوا: وما رَأَيْتَ يا رَسُول اللهِ؟ قال: رأيت الجَنةَ وَالنارَ) [١].

وروى مسلم من حديث جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (يا أَيُّهَا الناس إنما الشَّمْسُ وَالقَمَرُ آيَتَان من آياتِ اللهِ، وَإنهُمَا لا يَنكَسِفَان لَمْوْتِ أَحَدٍ من الناس، فإذا رَأَيْتُمْ شيئا من ذلك فَصَلوا حتى تَنجَلِيَ، ما من شَيْءٍ تُوعَدُونهُ إلا قد رَأَيْتُهُ في صَلاتِي هذه، لقد جِيءَ بِالنارِ وَذلكُمْ حين رَأَيْتمُوني تَأَخَّرْتُ مَخَافَةَ أَن يُصِيبَنِي من لفْحِهَا) [٢].

٤- ومن علامات الخوف الطاعة والخضوع سواء لله أو لغيره، قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن

---

(١) مسلم في الصلاة، باب النهى عن سبق الإمام ١/٣٢٠ (٤٢٦).

(٢) رواه مسلم في كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبي في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار ٢/٦٢٣ (٩٠٤).

يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ
يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ
فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ المائدة: ٥١/٥٢.

وقال تعالى: □□□□□ □□□□ □ □ □ □ □□

كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ
عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا
تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ النساء: ٧٧.

والخوف المحمود الصادق هو ما حال بين صاحبه وبين محارم الله ﷻ، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط.. قال ابن القيم: (سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله) [(١)].

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ
عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ الأنعام: ١٥/١٦.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا
يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن
تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ
عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ يونس: ١٥.

٥- ومن علامات الخوف، قلة النوم وعدم الغفلة ودوام الفكرة،

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/٥١٤.

قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ السجدة:١٦.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾ آل عمران:١٥٤.

٦- ومن علامات الخوف الغشية وانقباض القلب والصدر، وذهاب العقل عن لازم القول والفعل، كما قال الله تعالى: ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ الأحزاب:١٠/١١.

روى البخاري من حديث حذيفة أن النبي ﷺ قال: (كَانَ رَجُل مِمَّنْ كَانَ قَبْلكُمْ يُسِيءُ الظَّنَّ بِعَمَلِه، فقَال لأَهْلِه: إذا أَنَا مُتُّ، فَخُذونِي فَذرُّونِي فِي البَحْرِ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، ففَعَلوا بِهِ، فَجَمَعَهُ اللهُ ثمَّ قَال: مَا حَمَلَك عَلى الذي صَنَعْتَ؟ قَال: مَا حَمَلَنِي إلا مَخَافَتُك فَغَفَرَ لهُ) [1].

- الرجاء من أعمال القلوب وهو لازم للمقتصدين والسابقين.

الرجاء رغبة تقتضي حصول ما فيه مسرة من حصول نعمة أو دفع نقمة، وهو يضاد الخوف ويلازمه قال الله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب الخوف من الله ٥/٢٣٧٧ (٦١١٥).

رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ الإسراء:٥٧. فابتغاء الوسيلة إليه طلب القرب منه بالعبودية والمحبة، فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه الحب والخوف والرجاء، والرجاء دافع يدفع القلوب إلى إرضاء الدار الآخرة فلا يصح الرجاء إلا مع العمل فعلامة صحة الرجاء حسن الطاعة.

روى ابن ماجة وحسنه الألباني من حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: كيف تجدك ؟ قال: أرجو الله يا رسول الله، وأخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن، إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف[1].

والرجاء في الكتاب والسنة يدور حول معني الرغبة والتمني والطلب وكثرة الإلحاح في الدعاء، فمن حديث النعمان بن بشير ﷺ أنه ﷺ قال عن أصحاب الغار: (فقال رجل منهم.. فلما رأت ذلك أسلمت إلى نفسها، فلما تكشفتها وهممت بها، ارتعدت من تحتي، فقلت لها: ما شأنك؟ قالت: أخاف الله رب العالمين، قلت لها: خفتيه في الشدة ولم أخفه في الرجاء، فتركتها وأعطيتها ما يحق علي بما تكشفتها)[2].

وعند البخاري من حديث أنس بن مالك ﷺ أنه قال: (لما أنزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ آل عمران:٩٢. قام أبو طلحة ﷺ إلى رسول الله ﷺ فقال: وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ

---

(١) الترمذي في الجنائز ٣/٣١١ (٩٨٣)، وابن ماجة في كتاب الزهد، باب ذكر الموت ٢/١٤٢٣ (٤٢٦١)، وحسنه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (١٦١٢).

(٢) رواه أحمد ٤/٢٧٤ (١٨٤٤١) واللفظ له، وأصل الحديث عند البخاري في الإجارة، باب من استأجر أجيرا فترك أجره فعمل فيه المستأجر فزاد ٢/٧٩٣ (٢١٥٢).

أَرْجُو بِرَّهَا وَذخْرَهَا عِنْدَ اللهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُول اللهِ حَيْث أَرَاكَ اللهُ، قَال فَقَال رَسُول اللهِ ﷺ: بَخٍ ذلكَ مَال رَابِحٌ، ذلكَ مَال رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلهَا فِي الأَقْرَبِين) [1].

وعند البخاري من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (أَرْبَعُونَ خَصْلةً أَعْلاهُنَّ مَنِيحَةُ العَنْزِ، مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَل بِخَصْلةٍ مِنْهَا رَجَاءَ ثَوَابِهَا وَتَصْدِيقَ مَوْعُودِهَا إِلا أَدْخَلهُ اللهُ بِهَا الجَنَّةَ، قَال حَسَّانُ: فَعَدَدْنَا مَا دُونَ مَنِيحَةِ العَنْزِ مِنْ رَدِّ السَّلامِ، وَتَشْمِيتِ العَاطِسِ، وَإِمَاطَةِ الأَذى عَنْ الطَّرِيقِ وَنَحْوِهِ فَمَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَبْلغَ خَمْسَ عَشْرَةَ خَصْلةً) [2].

قال ابن القيم: (والرجاء ثلاثة أنواع، نوعان محمودان، ونوع غرور مذموم، فالأولان رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله فهو راج لثوابه. ورجل أذنب ذنوب إثم تاب منها فهو راج لمغفرة الله تعالى وعفوه وإحسانه وجوده وحلمه وكرمه. والثالث رجل متماد في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب) [3].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب ٢/٥٣٠ (١٣٩٢)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد والوالدين ولو كانوا مشركين ٢/٦٩٣ (٩٩٨)، وبيرحاء اسم بستان، ومعنى أرجو برها وذخرها أي أطمع وآمل من الله تعالى أن يدخر لي أجرها وثوابها لأجده يوم القيامة، وبخ كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء .

(٢) رواه البخاري في كتاب الهبة وفضلها، باب فضل المنيحة ٢/٩٢٧ (٢٤٨٨) ومنيحة العنز أنثى العنز تستعار لينتفع بلبنها ثم ترد.

(٣) مدارج السالكين لابن القيم ٢/٣٦.

• رد ابن القيم على الهروي في اعتباره الرجاء معارضة واعتراض.

قال الشيخ الهروي: (الرجاء أضعف منازل المريدين، لأنه معارضة من وجه، واعتراض من وجه، وهو وقوع في الرعونة في مذهب هذه الطائفة، وفائدة واحدة نطق بها التنزيل والسنة، وتلك الفائدة هي كونه يبرد حرارة الخوف حتى لا يفضي بصاحبه إلى اليأس) (١).

قال ابن القيم في رده عليه: (شيخ الإسلام حبيب إلينا، والحق أحب إلينا منه، وكل من عدا المعصوم فمأخوذ من قوله ومتروك) (٢).

ثم ذكر أن الرجاء ضروري للمريد السالك والعارف لو فارقه لحظة لتلف أو كاد، فإنه دائر بين ذنب يرجو غفرانه، وعيب يرجو إصلاحه، وعمل صالح يرجو قبوله، واستقامة يرجو حصولها ودوامها، وقرب من الله ومنزلة عنده يرجو وصوله إليها، ولا ينفك أحد من السالكين عن هذه الأمور أو بعضها، فكيف يكون الرجاء من أضعف منازله وهذا حاله، وأما حديث المعارضة والاعتراض فباطل، فإن الراجي ليس معارضا ولا معترضا، بل راغبا راهبا مؤملا لفضل ربه، محسن الظن به متعلق الأمل ببره وجوده، عابدا له بأسمائه المحسن البر المعطي الحليم الغفور الجواد الوهاب الرزاق، والله سبحانه وتعالى يحب من عبده أن يرجوه، ولذلك كان عند رجاء العبد له وظنه به، والرجاء من الأسباب التي ينال بها العبد ما يرجوه من ربه، بل هو من أقوى الأسباب، ولو تضمن معارضة واعتراضا لكان ذلك في الدعاء والمسألة أولى، فكان

---

(١) منازل السائرين للهروي ص٣٣، وانظر مدارج السالكين ٢/٣٧.

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ٢/٣٧.

دعاء العبد ربه وسؤاله أن يهديه ويوفقه ويسدده ويعينه على طاعته ويجنبه معصيته ويغفر ذنوبه ويدخله الجنة وينجيه من النار معارضة واعتراضا، لأن الداعي راج وطالب ما يرجوه، فهو أولى حينئذ بالمعارضة والاعتراض[١].

ثم بين ابن القيم أن الذي أوجب للشيخ الهروي هذا القدر هو شهود السِّوى، وهو الاسترسال في النظر إلى القضاء والقدر، والفناء في شهود الجبر والحقيقة الكونية، فإن الهروي من الراسخين في الجبر وشهود السِّوى، الذين لا تأخذهم فيه لومة لائم، وهو شديد في إنكار الأسباب، وهذا موضع زلت فيه أقدام أئمة أعلام[٢].

ثم بين أن الرجاء ليس فيه ولا في الدعاء معارضة لتصرف المالك في ملكه، فإنه إنما يرجو تصرفه في ملكه أيضا بما هو أولى وأحب الأمرين إليه، فإن الفضل أحب إليه من العدل، والعفو أحب إليه من الانتقام والمسامحة أحب إليه من الاستقصاء، والترك أحب إليه من الاستيفاء ورحمته غلبت غضبه، فالراجي علق رجاءه بتصرفه المحبوب له المرضي له فلم يوجب رجاؤه خروجه عن تصرفه في ملكه، بل اقتضى عبوديته وحصول أحب التصرفين إليه.

وهو سبحانه وتعالى لا ينتفع باستيفاء حقه وعقوبة عبده حتى يكون رجاؤه مبطلا لذلك، وإنما العبد استوجب العقوبة لشركه بالله وكفره به، واجتهاده في غضبه، ولغضبه موجبات وآثار ومقتضيات، والعبد

---

(١) السابق ٢/٤٣ بتصرف.

(٢) السابق ٢/٤٤ بتصرف.

مؤثر لها ساع في تحصيلها عامل عليها بإيثاره إياها، وسعيه في أسبابها، فهو المهلك لنفسه وربه، يحذره ويبصره ويناديه: هلم إليّ أحْمِك وأصُنْك وأنْجِك مما تحذر، وأؤمنك من كل ما تخاف، وهو يأبى إلا شرودا عليه، ونفارا عنه، ومصالحة لعدوه، ومظاهرة له على ربه، متطلب لمرضاة خلقه بمساخطه، رضا المخلوق آثر عنده من رضا خالقه، وحقه آكد عنده من حقه، وخوفه ورجاؤه وحبه في قلبه أعظم من خوفه من الله ورجائه وحبه، فلم يدع لفضل ربه وكرامته وثوابه إليه طريقا، بل سد دونه طرق مجاريها بجهده، وأعطى بيده لعدوه، فصالحه وسمع له، وأطاع وانقاد إلى مرضاته، فجاء من الظلم بأقبحه وأشده، فهو الذي عارض مراده به منه بمراده وهواه وشهوته، واعترض لمحابه ومراضيه بالدفع، ولم يأذن لها في الدخول عليه، فأضاع حظه، وبخس حقه، وظلم نفسه، وعادى حبيبه، ووالى عدوه، وأسخط من حياته في رضاه، وأرضى من حياته في سخطه، وجاد بنفسه لعدوه، وبخل بها عن حبيبه ووليه.

والرب تبارك وتعالى ليس له ثأر عند عبده فيدركه بعقوبته، ولا يتشفي بعقابه، ولا يزيد ذلك في ملكه مثقال ذرة، ولا ينقص مغفرته، ولو غفر لأهل الأرض كلهم لما نقص مثقال ذرة من ملكه، كيف والرحمة أوسع من العقوبة، وأسبق من الغضب وأغلب له، وهو قد كتب على نفسه الرحمة، فرجاء العبد له لا ينقص شيئا من حكمته، ولا ينقص ذرة من ملكه، ولا يخرجه عن كمال تصرفه، ولا يوجب خلاف الكمال ولا تعطيل الأسماء والأوصاف والأفعال، ولولا أن العبد هو

الذي سد على نفسه طرق الخيرات، وأغلق دونها أبواب الرحمة بسوء اختياره لنفسه، لكان ربه له فوق رجائه وفوق أمله(١).

وأما استسلام العبد لربه واستسلامه بانطراحه بين يديه ورضاه بمواقع حكمه فيه، فما ذاك إلا رجاء منه أن يرحمه، ويقيله عثرته ويعفو عنه، ويقبل حسناته مع عيوب أعماله وآفاتها، ويتجاوز عن سيئاته، فقوة رجائه أوجبت له هذا الاستسلام والانقياد، والانطراح بالباب، ولا يتصور هذا بدون الرجاء البتة، فالرجاء حياة الطلب، والإرادة روحها، وأما رضاه بمراده منه وإن عذبه، فهذا هو الرعونة كل الرعونة، فإن مراده سبحانه نوعان:

١- مراد يحبه ويرضاه ويمدح فاعله ويواليه، فموافقته في هذا المراد هي عين محبته وإرادة خلافه رعونة ومعارضة واعتراض.

٢- مراد يبغضه ويكرهه ويمقت فاعله ويعاديه، فموافقته في هذا المراد عين مشاقته ومعاداته ومخالفته والتعرض لمقته وسخطه.

فهذا الموضع موضع فرقان، فالموافقة كل الموافقة معارضة هذا المراد، واعتراضه بالدفع والرد بالمراد الآخر، فالعبودية الحق معارضة مراده بمراده، ومزاحمة أحكامه بأحكامه، فاستسلامه لهذا المراد المكروه المسخوط وما يوجبه ويقتضيه عين الرعونة والخروج عن العبودية، وهو عين الدعوى الكاذبة إذ لو كان مصدر ذلك الاستسلام والموافقة وترك الاعتراض والمعارضة لكان ذلك مخصوصا بمحابه ومراضيه، وأوامره

---

(١) السابق ٢/٤٥ بتصرف.

التي الاستسلام لها والموافقة فيها وترك معارضتها والاعتراض عليها هو عين المحبة والموالاة [(١)].

وأما الفناء بمراد ربه فقد تقدم أن المحمود من هو ذلك الفناء بمراده الديني الأمري لا الكوني القدري، فإن الكون كله مراده القدري خيره وشره.

وأما كون الرجاء اعتراضا على ما سبق به الحكم فليس كذلك، بل تعلقا بما سبق به الحكم، فإنه إنما يرجو فضلا وإحسانا ورحمة سبق بها القضاء والقدر، وجعل الرجاء أحد أسباب حصولها، فليس الرجاء اعتراضا على القدر ولا معارضة للقدر، بل طلبا لما سبق به القدر، وأما اعتراضه إذا لم يحصل له مرجوه فهذا نقص في العبودية، وجهل بحق الربوبية فإن الراجي والداعي يرجو ويدعو فضلا لا يستحقه ولا يستوجبه بمعاوضة، فإن أعطيه فمحض المنة والصدقة عليه، وإن منعه فلم يمنع حقا هو له، فاعتراضه رعونة وجهالة، ولا يلزم من فوات المرجو، أو عدم حصول المدعو به في حق العبد الصادق معارضة، ولا اعتراض. وقد سأل رسول الله ﷺ ربه تبارك وتعالى ثلاث خصال لأمته فأعطاه اثنتين ومنعه واحدة، فرضي بما أعطاه، ولم يعترض فيما منعه، بل رضي وسلم[(٢)].

روى مسلم من حديث عامر بن سعد عن أبيه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (سَأَلْتُ رَبِّي ثلاثا فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي

(١) السابق ٢/٤٦ بتصرف.
(٢) السابق ٢/٤٦ بتصرف.

أَنْ لا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لا يَجْعَل بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا) [1].

وأما كون الرجاء وقوفا مع الحظ وأصحاب هذه الطريقة قد خرجوا عن نفوسهم فكيف حظوظهم كما زعم الهروي. فيا لله العجب أي رعونة فيمن يجعل رجاء العبد ربه وطمعه في بره وإحسانه وفضله وسؤاله ذلك بقلبه ولسانه! فإن الرجاء هو استشراف القلب لنيل ما يرجوه، فإذا كان العبد دائما مستشرفا بقلبه، سائلا بلسانه، طالبا لفضل ربه، فأي رعونة ههنا؟ وهل الرعونة كل الرعونة إلا خلاف ذلك؟

ومن العجب دعواهم خروجهم عن نفوسهم، وهم أعظم الناس عبادة لنفوسهم، وليس الخارج عن نفسه إلا من جعلها حبسا على مراد الله الديني الأمري النبوي، وبذلها لله في إقامة دينه، وتنفيذه بين أهل العناد والمعارضة والبغي، فانغمس فيهم يمزقون أديمه، ويرمونه بالعظائم ويخيفونه بأنواع المخاوف، ويتطلبون دمه بجهدهم، لا تأخذه في جهادهم في الله لومة لائم، يصدع بالحق عند من يخافه ويرجوه، قد زهد في مدحهم وثنائهم وتعظيمهم وتشييخهم له، وتقبيل يده، وقضاء حوائجه، يصيح فيهم بالنصائح جهارا، ويعلن لهم بها ويسر لهم إسرارا، قد تجرد عن الأوضاع والقيود والرسوم، وتعلق بمراضي الحي القيوم، مقامه ساعة في جهاد أعداء الله ورباطه ليلة على ثغر الإيمان آثر عنده وأحب إليه من فناء ومشاهدات وأحوال هي أعظم عيش النفس، وأعلى قوتها، وأوفر حظها، ويزعم أنه قد خرج عن نفسه، فكيف حظها؟

---

(١) مسلم في الفتن، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ٤/٢٢١٦ (٢٨٩٠).

ولعله قد خرج عن مراد ربه من عبوديته إلى عين مراده وهو حظه، ولو فتش نفسه لرأى ذلك فيها عيانا، وهل الرعونة كل الرعونة إلا دعواه أنه يحب ربه لعذابه لا لثوابه، وأنه إذا أحبه وأطاعه للثواب، كان ذلك حظا وإيثارا لمراد النفس بخلاف ما إذا أحبه وأطاعه ليعذبه فإنه لاحظ للنفس في ذلك، فوالله ليس في أنواع الرعونة والحماقة أقبح من هذا ولا أسمج، وماذا يلعب الشيطان بالنفوس؟ وإن نفسا وصل بها تلبيس الشيطان إلى هذه الحالة لمحتاجة إلى سؤال المعافاة [(١)].

ويقصد ابن القيم المعنى الذي تناقله الصوفية في أحوالهم على مثل ما أشار إليه الحسين بن منصور الحلاج بقول:

أريدك لا أريدك للثواب : ولكني أريدك للعقاب
فكل مآربي قد نلت منها : سوي ملذوذ قلبي بالعذاب[(٢)].

وقال الكاشاني: (فجعل غاية مطلوبه أن يتلذذ بالعذاب، وليس أن مقصوده من العذاب التلذذ به، وإلا لكان ذلك رعونة من جهة طلب اللذة، ومن جهة الاقتراح بتخصيصها، ومن جهة طلب خرق العادة الذي هو حصول اللذة في محل الإيلام، بل إنما أراد بذلك أن يري حسن رضاه بأحكام مولاه، بما ليس للنفس فيه حظ بوجه) [(٣)].

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ٢/٤٧.

(٢) ديوان الحلاج طبعة مكتبة الكليات الأزهرية ص٧٠، وانظر البداية والنهاية لابن كثير ١١/١٣٤.

(٣) لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام لكمال الدين عبد الرزاق بن جمال الدين الكاشاني السمرقندي ١/٤٨٢.

ويسمي الكاشاني الرجاء القرآني رجاء المجازاة، ويعني به الرجاء الذي يبعث العامل على الاجتهاد وتلذذه عند الخدمة ويوجب له سماحة نفسه بترك الملاهي، وهو ما يتوقعه من المجازاة على قيامه بالأمر الذي وعد بالثواب عليه، وترك النهي الذي توعد بالعقاب على فعله، ومثل هذا إنما ينشط في عمل الطاعات، وترك الخطيئات لأجل ما يرجوه في الجنان، عوضا عما بذل من مراد نفسه وحظوظها، فهو يترك ما يترك من المناهي التي هي مثل شرب الخمر والزنا وأشباه ذلك من المحرمات الملذة عند مقترفيها، لما يرجوه من الرحيق المختوم والحور العين وغير ذلك مما وعد الحق به في دار الرضوان، فهو لولا ذلك، لما هان عليه ترك مصائد الشيطان، فلهذا صار هذا الرجاء ضعيفا في نظر هذه الطائفة، إذ كان العامل عليه إنما ينشط في عمل رجاء الجزاء، كمثل الصبي الذي ينشط إلى حفظ تلقينه رغبة فيما وعد عليه من الحلوي[1].

وقد بين ابن القيم أن رجاء الأنبياء هو أكمل الرجاء، وأنه ينبغي على الموحدين لله في عبادته إلى أن يزنوا أحوال الأنبياء والرسل والصديقين وسؤالهم ربهم على أحوال هؤلاء الغالطين الذين مرجت بهم نفوسهم، ثم قايس بينهما وانظر التفاوت، فأين هذا من دعاء النبي ﷺ: (اللهُمَّ أَعُوذ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذ بِكَ مِنْكَ، لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ) [2].

وروى البخاري من حديث أبي بكرٍ رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: (عَلمْنِي

(١) السابق ١/٤٨٢.

(٢) مسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود ١/٣٥٢ (٤٨٦).

دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلاَتِي، قَال: قُل اللهمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلمًا كَثيرًا وَلاَ يَغْفِرُ الذنُوبَ إلاَّ أَنْتَ فَاغْفِرْ لي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ) [١].

وعند ابن ماجة وصححه الألباني من حديث عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالتْ: (يَا رَسُول اللهِ أَرَأَيْتَ إِنْ وَافَقْتُ لَيْلَةَ القَدْرِ مَا أَدْعُو؟ قَال: تَقُولينَ: اللهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي) [٢].

وعند البخاري من حديث أنس بن مالك ﷺ أنه قال: (كَانَ أَكْثَرُ دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ: اللهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذابَ النَّارِ) [٣].

وقد أثنى الله تعالى على خاصته وهم أولو الألباب بأنهم سألوه أن يقيهم عذاب النار فقالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ آل عمران:١٩١ . وقال سبحانه في بيان أوصاف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ الفرقان:٦٥/٦٦ .

---

(١) البخاري في صفة الصلاة، باب الدعاء قبل السلام ١/٢٨٦ (٧٩٩)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب خفض الصوت بالذكر ٤/٢٠٧٨ (٢٧٠٥).

(٢) ابن ماجه في الدعاء، باب الدعاء بالعفو والعافية ٢/١٢٦٥ (٣٨٥٠)، وأحمد في المسند ٦/٢٠٨ (٢٥٧٨٢)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٠٩١).

(٣) رواه البخاري في الدعوات، باب قول النبي ﷺ: ربنا آتنا في الدنيا حسنة ٥/٢٣٤٧ (٦٠٢٦)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الدعاء باللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ٤/٢٠٧٠ (٢٦٩٠).

وعند أبي داود وصححه الشيخ الألباني عَن بَعْضِ أَصْحَابِ النبي ﷺ قال: (قال النبِي ﷺ لرجل: كَيف تقول في الصَّلاة؟ قال: أَتشَهَّدُ وَأَقول: اللهُم إِني أَسْأَلكَ الجنة وَأَعُوذ بِكَ من النار، أَما إِني لا أُحْسِن دَندَنتكَ وَلا دَندَنة معَاذ، فقال النبِي ﷺ حَوْلَهَا ندَندِن) (١).

أين هذا من حال من قال: لا أحبك لثوابك لأنه عين حظي وإنما أحبك لعقابك لأنه لاحظ لي فيه، والرجاء عين الحظ ونحن قد خرجنا عن نفوسنا فما لنا وللرجاء، فهذا وأمثاله أحسن ما يقال فيهم: إنه شطح قد يعذر فيه صاحبه إذا كان مغلوبا على عقله كالسكران ونحوه، ولا تهدر محاسنه ومعاملاته وأحواله وزهده، ولكن الذي ينكر كون هذا من الأحوال الصحيحة والمقامات العلية التي يتعاطاها العبد ويشمر إليها (٢).

• الهروي وقوله إن الرجاء ليس إلا ليبرد حرارة الخوف.

وأما قول الشيخ الهروي: وإنما نطق به التنزيل لفائدة، وهي كونه يبرد حرارة الخوف، فيقال بل لفوائد كثيرة أخر مشاهدة:

١- منها إظهار العبودية والفاقة والحاجة إلى ما يرجوه من ربه ويستشرفه من إحسانه، وأنه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين.

٢- ومنها أنه سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه، ويسألوه

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الصلاة، باب في تخفيف الصلاة ١/٢١٠ (٧٩٢)، وأحمد في المسند ٣/٤٧٤ (١٥٩٣٩)، وصححه الألباني في صفة صلاة النبي ﷺ ص١٨٥.

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ٢/٤٩ بتصرف.

من فضله لأنه الملك الحق الجواد، أجود من سئل، وأوسع من أعطى، وأحب ما إلى الجواد أن يرجى ويؤمل ويسأل، وفي الحديث من لم يسأل الله يغضب عليه، والسائل راج وطالب فمن لم يرج الله يغضب عليه فهذه فائدة أخرى من فوائد الرجاء وهي التخلص به من غضب الله.

٣- ومنها أن الرجاء حاد يحدو به في سيره إلى الله، ويطيّب له المسير ويحثه عليه، ويبعثه على ملازمته، فلولا الرجاء لما سار أحد فإن الخوف وحده لا يحرك العبد، وإنما يحركه الحب، ويزعجه الخوف، ويحدوه الرجاء.

٤- ومنها أن الرجاء يطرحه على عتبة المحبة، ويلقيه في دهليزها، فإنه كلما اشتد رجاؤه وحصل له ما يرجوه ازداد حبا لله تعالى وشكرا له ورضا به وعنه، والرجاء يبعثه على أعلى المقامات وهو مقام الشكر الذي هو خلاصة العبودية فإنه إذا حصل له مرجوه كان أدعى لشكره.

٥- ومنها أنه يوجب له المزيد من معرفة الله وأسمائه ومعانيها والتعلق بها، فإن الراجي متعلق بأسمائه الحسنى متعبد بها وداع بها، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ الأعراف:١٨٠. فلا ينبغي أن يعطل دعاؤه بأسمائه الحسنى التي هي أعظم ما يدعو بها الداعي، فالقدح في مقام الرجاء تعطيل لعبودية هذه الأسماء وتعطيل للدعاء بها.

٦- ومنها أن المحبة لا تنفك عن الرجاء كما تقدم، فكل واحد منهما يمد الآخر ويقويه.

٧- ومنها أن الخوف مستلزم للرجاء والرجاء مستلزم للخوف،

فكل راج خائف وكل خائف راج، ولأجل هذا حسن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف، قال الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ نوح:١٣. قال كثير من المفسرين: المعنى مالكم لا تخافون لله عظمة، والرجاء بمعنى الخوف، والتحقيق أنه ملازم له، فكل راج خائف من فوات مرجوه، والخوف بلا رجاء يأس وقنوط.

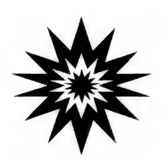
٨- ومنها أن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه فأعطاه ما رجاه، كان ذلك ألطف موقعا، وأحلى عند العبد، وأبلغ من حصول ما لم يرجه، وهذا أحد الأسباب والحكم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذه الدار، فعلى قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوهم واندفاع مخوفهم.

٩- ومنها أن الله سبحانه وتعالى يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته، من الذل والانكسار والتوكل والاستعانة والخوف والرجاء والصبر والشكر والرضا والإنابة وغيرها، ولهذا قدر عليه الذنب وابتلاه به لتكمل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحب عبوديات عبده إليه، فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف.

١٠- ومنها أن في الرجاء من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله ما يوجب تعلق القلب بذكره، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته، وتنقل القلب في رياضها الأنيقة، وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة، فإذا فني عن ذلك وغاب عنه فاته حظه ونصيبه من معاني هذه الأسماء والصفات، إلى فوائد أخرى كثيرة يطالعها من أحسن تأمله

وتفكره في استخراجها وبالله التوفيق(١).

ثم قال ابن القيم بعد أن رد على الهروي: (والله يشكر لشيخ الإسلام الهروي سعيه، ويعلي درجته، ويجزيه أفضل جزائه، ويجمع بيننا وبينه في محل كرامته، فلو وجد مريده سعة وفسحة في ترك الاعتراض عليه واعتراض كلامه لما فعل؟ كيف وقد نفعه الله بكلامه، وجلس بين يديه مجلس التلميذ من أستاذه، وهو أحد من كان على يديه فتحه يقظة ومناما، وهذا غاية جهد المقل في هذا الموضع، فمن كان عنده فضل علم فليجد به أو فليعذر، ولا يبادر إلى الإنكار، فكم بين الهدهد ونبي الله سليمان وهو يقول له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ النمل:٢٢. وليس شيخ الإسلام أعلم من نبي الله ولا المعترض) (٢).

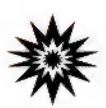


(١) السابق ٢/٥١ بتصرف.

(٢) السابق ٢/٥٢ بتصرف.

المطلب السابع

عبوديات القلب وأحكامها وعلاماتها الظاهرة في البدن



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن بعض أحكام العبودية المتعلقة بالقلب بين الواجب والمستحب، وعلمنا أن اليقين من أعمال القلوب اللازمة للمقتصدين والسابقين، ثم بينا الدليل على أن اليقين لا بد أن ينفي الوهم والشك والظن، وتحدثنا عن ضعف اليقين، وعلم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، وذكرنا أغلب العلامات الدالة على وجود اليقين وقوته في القلب.

كما تحدثنا عن الصدق وعن كونه من أعمال القلوب اللازمة للمقتصدين والسابقين، وبينا كيف يكون الصدق شرطا من شروط كلمة التوحيد؟ وضربنا مثالا لمن ابتلي في الصدق في عصر النبوة ابتلاء شديدا، وعلمنا أن علامة الصدق في الخبر اليقين، وأن علامته في الأمر الطاعة، وتناولنا حقيقة الكمال في الصدق، وحكم المعاريض والتورية، كما علمنا أن الخوف والرهبة والوجل والخشية من أعمال الإيمان، وتناولنا العلامات الظاهرة الدالة على وجود الخوف في القلوب، وبينا أن الرجاء من أعمال القلوب اللازمة للمقتصدين والسابقين، وتحدثنا

عن رد ابن القيم على شيخه الهروي في اعتباره الرجاء معارضة واعتراض، وأن الرجاء ليس إلا ليبرد حرارة الخوف.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن بقية عبوديات القلب وأحكامها، وأبرز علامتها الظاهرة في البدن.

- من عبوديات القلب وأعماله الواجبة بإجماع الصبر.

الصبر في اللغة الحبس والكف[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ الكهف:٢٨. أي احبس نفسك معهم .

الصبر من أعمال القلوب الواجبة، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها، وقوام أمرها، وهو خلق فاضل من أخلاقها، يمنع من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وقد ورد في القرآن في أكثر من تسعين موضعا، وهو واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر[2].

والصبر على المصائب واجب باتفاق أئمة الدين، وإنما اختلفوا في وجوب الرضا، وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على امتحان الله، فالأولان صبر على ما يتعلق

---

(١) انظر تاج العروس للمرتضى الزبيدي ٢٧٢/١٢ نشر دار الهداية.

(٢) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، لمحمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي ٤١٠/٢ تحقيق محمد عبد العزيز الخالدي، نشر دار الكتب العلمية بيروت، وانظر مدارج السالكين لابن القيم ١٥٣/٢ بتصرف.

بالكسب، والثالث صبر على ما لا كسب للعبد فيه، وقد يصنف الصبر إلى ثلاثة أنواع باعتبار آخر، وهي صبر بالله، وصبر لله، وصبر مع الله، وبيانها كما يلي:

١- الصبر بالله وهو أول الاستعانة به، فيرى الصابر أن الله وهو الذي يصبره، وأن صبره قائم بربه لا بنفسه، كما قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ النحل:١٢٧. يعني إن لم يصبرك هو لم تصبر.

٢- الصبر لله وهو أن يكون الباعث له على الصبر الإخلاص لله ومحبته، وإرادة وجهه والتقرب إليه، لا لإظهار قوة النفس، والاستحماد إلى الخلق، وغير ذلك من أعراض الدنيا.

٣- الصبر مع الله وهو دوران العبد مع موافقة شرع الله ومراده الديني منه، ومع أحكامه الدينية، صابرا نفسه على الالتزام بها في أي زمان أو مكان، لا يفارق شريعة الله وأوامرها، فهذا معنى كونه صابرا مع الله أي قد جعل نفسه وقفا على أوامره ومحابه، وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها وهو صبر الصديقين[1].

قال ابن القيم: (سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: كان صبر يوسف عليه السلام عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره، لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضا

(١) مدارج السالكين لابن القيم ٢/١٥٧ بتصرف.

ومحاربة للنفس، ولاسيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة، فإنه كان شابا، وداعية الشباب إليها قوية، وعزبا ليس له ما يعوضه ويرد شهوته، وغريبا والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله، ومملوكا والمملوك أيضا ليس وازعه كوازع الحر، والمرأة جميلة وذات منصب، وهي سيدته، وقد غاب الرقيب، وهي الداعية له إلى نفسها، والحريصة على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل بالسجن والصغار، ومع هذه الدواعي كلها صبر اختيارا وإيثارا لما عند الله، وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه؟ وكان يقول: الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل، فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعصية) [(١)].

- القرآن نوع في أساليب الدعوة إلى الصبر لبيان أهميته.

لما كان الصبر من أعمال القلوب الواجبة، وهي عبودية يجب صرفها لله وحده، فإنه قد وردت الدعوة إليه في القرآن بأنواع متعددة وأساليب مختلفة، فصلها ابن القيم رحمه الله وبينها بيانا شافيا، ومن أبرزها ما يلي:

١- الأمر به نحو قول الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ البقرة:٤٥. وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ آل عمران:٢٠٠.

(١) السابق ٢/١٥٦.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣ ﴾ البقرة:١٥٣ .

٢– النهي عن ضده كقوله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ

Ŗ ŏ Ŏ ō Ō ▪ ; U%ÁŒ; I NPLŐ]œ ˙ \; □ æ Æ á

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥ ﴾ الأنفال:١٥. فإن تولية الأدبار ترك للصبر والمصابرة. وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٣ ﴾ محمد:٣٣ . فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها.

٣– الثناء على أهله كقوله تعالى: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧ ﴾ آل عمران:١٧. وقوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧ ﴾ البقرة:١٧٧. وهو كثير في القرآن.

٤– إيجابه سبحانه محبته لهم كقوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ ﴾ آل عمران:١٤٦.

٥– إيجاب معيته لهم، وهي معية خاصة تتضمن حفظهم ونصرهم وتأييدهم، وليست معية عامة بمعنى معية العلم والإحاطة كقوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦ ﴾ الأنفال:٤٦.

٦– إخباره بأن الصبر خير لأصحابه كقوله: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ

بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ النحل:١٢٦.
وقوله: ﴿ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ النساء:٢٥.

٧- إيجاب الجزاء للصابرين بأحسن أعمالهم كقوله تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ النحل:٩٦. وإيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب كقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ الزمر:١٠.

٨- إطلاق البشرى لأهل الصبر دون تقييد كقوله: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ البقرة: ١٥٥.

٩- ضمان النصر والمدد لهم كقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ آل عمران:١٢٥. ومنه قول النبي ﷺ: (واعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مع الصَّبْرِ، وأَنَّ الفَرَجَ مع الكَرْبِ، وأَنَّ مع العُسْرِ يُسْرًا) [١].

١٠- الإخبار بأن أهل الصبر هم أهل العزائم كقوله تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ الشورى:٤٣. وأنه ما يلقى الأعمال

---

(١) جزء من حديث عبد الله بن عباس رواه أحمد في المسند ١/٣٠٧ (٢٨٠٤) والطبراني المعجم الكبير ١١/١٢٣ (١١٢٤٣)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٢٣٨٢)، وصحيح الجامع (٦٨٠٦).

الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر، وأنه إنما ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر.

١١- الإخبار بأن الفوز المطلوب المحبوب والنجاة من المكروه المرهوب ودخول الجنة إنما نالوه بالصبر كقوله تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ الرعد:٢٣/٢٤.

١٢- أن الصبر يورث صاحبه درجة الإمامة فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين قال تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ السجدة:٢٤.

وقد اقترن الصبر بمقامات الإسلام والإيمان، كما قرنه الله سبحانه باليقين وبالإيمان وبالتقوى والتوكل وبالشكر والعمل الصالح والرحمة، ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له، كما أنه لا جسد لمن لا رأس له.

وقد أمر النبي ﷺ الأنصار ﵃ بأن يصبروا على الأثرة التي يلقونها بعده حتى يلقوه على الحوض، وأمر عند ملاقاة العدو بالصبر، وأمر بالصبر عند المصيبة، وأخبر أن الصبر إنما يكون عند الصدمة الأولى، وأمر المصاب بأنفع الأمور له وهو الصبر والاحتساب، فإن ذلك يخفف مصيبته ويوفر أجره، والجزع والتسخط والتشكي يزيد في المصيبة ويذهب الأجر، وأخبر أن الصبر خير كله [١].

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ٢/١٥٣: ١٥٥ بتصرف .

- الرد على من زعم أن الصبر من أنكر المنكر في طريق التوحيد.

قال الشيخ الهروي: (الصبر حبس النفس على المكروه، وعقل اللسان عن الشكوى، وهو من أصعب المنازل على العامة، وأوحشها في طريق المحبة، وأنكرها في طريق التوحيد) [١].

ثم يعلل صعوبة الصبر على العامة بأن العامي عابد مبتدىء في الطريق، وليس له تدريب في السلوك ولا تهذيب ولا تجربة، أو لا تعود له على منازل العبودية، فإذا أصابته المحن أدركه الجزع، وصعب عليه احتمال البلاء، وعز عليه وجدان الصبر، وكذلك العامي ليس من المريدين أهل المحبة حتى يلتذ بالبلاء في رضا محبوبه.

كما يعلل الهروي كون الصبر عنده وحشة في طريق المحبة بأنها تقتضي التذاذ المحب بامتحان محبوبه له، وأن الصبر يقتضي كراهيته لذلك، وحبس نفسه عليه كرها، فهو وحشة في طريق المحبة.

وأما كون الصبر عنده أنكر الأشياء في طريق التوحيد فيعلل الهروي ذلك بأن الصبر فيه قوة الدعوى، لأن الصابر يدعي بحاله قوة الثبات، وذلك ادعاء منه لنفسه بأنه ذو قوة عظيمة، وهذه مصادمة لتجريد التوحيد، إذ ليس لأحد قوة ألبتة، بل القوة لله جميعا، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فهذا السبب هو الذي جعل الهروي يعتبر الصبر منكرا في طريق التوحيد، بل من أنكر المنكر، فالتوحيد عنده أن ترد الأشياء إلى الله، والصبر عنده أن ترد الأشياء إلى النفس، وإثبات النفس في التوحيد

---

(١) منازل السائرين للهروي ص٤٩، وانظر مدارج السالكين لابن القيم ٢/١٦١.

منكر عند الهروي [١].

ويعقب ابن القيم بأن هذا الكلام الذي ذكره الشيخ الهروي هو المنكر الحقيقي، ثم يقول: (بل الصبر من آكد المنازل في طريق المحبة، وألزمها للمحبين، وهم أحوج إلى منزلته من كل منزلة، وهو من أعرف المنازل في طريق التوحيد وأبينها، وحاجة المحب إليه ضرورية، فإن قيل: كيف تكون حاجة المحب إليه ضرورية مع منافاته لكمال المحبة، فإنه لا يكون إلا مع منازعات النفس لمراد المحبوب، قيل: هذه هي النكتة التي لأجلها كان من آكد المنازل في طريق المحبة، وأعلقها بها، وبه يعلم صحيح المحبة من معلولها، وصادقها من كاذبها، فإنه بقوة الصبر على المكاره في مراد المحبوب يعلم صحة محبته، ومن ههنا كانت محبة أكثر الناس كاذبة لأنهم كلهم ادعوا محبة الله تعالى، فحين امتحنهم بالمكاره انخلعوا عن حقيقة المحبة، ولم يثبت معه إلا الصابرون، فلولا تحمل المشاق وتجشم المكاره بالصبر لما ثبتت صحة محبتهم، وقد تبين بذلك أن أعظمهم محبة أشدهم صبرا) [٢].

وقد وصف الله تعالى خاصة أوليائه وأحبابه بالصبر فقال عن حبيبه أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ ص:٤. ثم أثنى عليه فقال: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ ص:٤٤.

وأمر أحب الخلق إليه بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره بالله، فقال

(١) مدارج السالكين لابن القيم ٢/١٦١ بتصرف.
(٢) السابق ٢/١٦٢.

تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾النحل:١٢٧ . وأثنى على الصابرين أحسن الثناء، وضمن لهم أعظم الجزاء، وجعل أجر غيرهم محسوبا، وأجرهم بغير حساب، وقرن الصبر بمقامات الإسلام والإيمان والإحسان، فجعله قرين اليقين والتوكل والإيمان والأعمال والتقوى، وأخبر أن آياته إنما ينتفع بها أولو الصبر، وأخبر أن الصبر خير لأهله، وأن الملائكة تسلم عليهم في الجنة بصبرهم.

وليس في كره النفس لألم تشعر به ولا تصبر عليه ما يقدح في محبتها ولا توحيدها، فإن إحساسها بالألم ونفرتها منه أمر طبيعي لها كاقتضائها للغذاء من الطعام والشراب، وتألمها بفقده، فلوازم النفس لا سبيل إلى إعدامها أو تعطيلها بالكلية، وإلا لم تكن نفسا إنسانية، ولارتفعت المحنة، ولكانا في عالم آخر.

والصبر والمحبة لا يتناقضان بل يتواخيان ويتصاحبان، والمحب صبور بل علة الصبر التي تناقض المحبة والتوحيد أن يكون الباعث على الصبر إرادة غير المحبوب، وطلب الرضا من غير المحبوب، هذه هي وحشة الصبر ونكارته، أما من رأى صبره بالله، وصبره لله، وصبره مع الله، مشاهدا أن صبره بالله تعالى لا بنفسه، فهذا لا تلحق محبته وحشة، ولا توحيده نكارة [1].

- التوكل من أعمال القلوب الواجبة على المقتصدين والسابقين.

التوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة، فإن الدين استعانة

---

(١) السابق ٢/١٦٣بتصرف.

وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة، ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال معمورة بالنازلين لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين، وعموم التوكل ووقوعه من المؤمنين والكفار والأبرار والفجار، والطير والوحش والبهائم، فأهل السموات والأرض المكلفون وغيرهم في مقام التوكل، وإن تباين متعلق توكلهم، فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في حصول ما عليه في الإيمان، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه، وفي محابه وتنفيذ أوامره.

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في استقامته في نفسه، وحفظ حاله مع الله فارغا عن الناس، ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه من رزق أو عافية أو نصر على عدو أو زوجة أو ولد ونحو ذلك، ودون هؤلاء من يتوكل عليه في حصول الإثم والفواحش، فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالونها غالبا إلا باستعانتهم بالله، وتوكلهم عليه، بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات، ولهذا يلقون أنفسهم في المتآلف والمهالك معتمدين على الله أن يسلمهم ويظفرهم بمطالبهم.

وأفضل التوكل هو التوكل في الواجب، أعني واجب الحق وواجب الخلق، وواجب النفس، وأوسعه وأنفعه التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية، أو في دفع مفسدة دينية، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكل ورثتهم من أتباعهم، ثم الناس بعد ذلك في التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم، فمن متوكل على الله في حصول الملك، ومن متوكل في حصول رغيف الخبز، ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله، فإن كان محبوبا

له مرضيا كانت له فيه العاقبة المحمودة، وإن كان مسخوطا مبغوضا كان ما حصل له بتوكله مضرة عليه (١).

• حقيقة التوكل على الله ودرجاته وأركانه التي لا يتم إلا بها .

التوكل عمل القلب، ومعنى ذلك أنه عمل قلبي، ليس بقول اللسان ولا عمل الجوارح، ولا هو من باب العلوم والإدراكات، ومن الناس من يجعله من باب المعارف والعلوم، فيقول هو علم القلب بكفاية الرب للعبد، ومنهم من يفسره بالسكون وخمود حركة القلب فيجعل التوكل انطراح القلب بين يدي الرب كانطراح الميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء وهو ترك الاختيار والاسترسال مع مجاري الأقدار، ومنهم من يفسره بالرضا بالمقدور، والتوكل حال مركب من أمور لا تتم حقيقة التوكل إلا بها:

١- معرفة بالرب وصفاته من قدرته وكفايته وقيوميته، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته وقدرته، وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل، ولذلك لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف، ولا من القدرية النفاة القائلين بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء، ولا يستقيم أيضا من الجهمية النفاة لصفات الله، ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات، فأي توكل لمن يعتقد أن الله لا يعلم جزئيات العالم سفليه وعلويه، ولا هو فاعل باختياره، ولا له إرادة ومشيئة، ولا يقوم به صفة، فكل من كان بالله وصفاته أعلم وأعرف

---

(١) السابق ٢/١١٤ بتصرف.

كان توكله أصح وأقوى[1].

٢- الأخذ بالأسباب والمسببات، فإن من نفاها وزعم أن إثبات الأسباب يقدح في التوكل وأن نفيها هو تمام التوكل، فتوكله باطل أو منقوص، لا يستقيم لهم توكل البتة، لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكَل فيه، فهو كالدعاء الذي جعله الله سببا في حصول المدعو به، فإذا اعتقد العبد أن توكله لم يجعله الله سببا، ولا جعل دعاءه سببا لنيل شيء، فإن المتوكل فيه المدعو بحصوله، إن كان قد قدر حصل، توكل أو لم يتوكل، دعا أو لم يدع، وإن لم يقدر لم يحصل توكل أيضا أو ترك التوكل، وصرح هؤلاء أن التوكل والدعاء عبودية محضة لا فائدة لهما إلا ذلك، ولو ترك العبد التوكل والدعاء ما فاته شيء مما قدر له، ومن غلاتهم من يجعل الدعاء بعدم المؤاخذة على الخطأ والنسيان عديم الفائدة، إذ هو مضمون الحصول، وهذا باطل فلم يزل المسلمون من عهد نبيهم وإلى الآن يدعون به في مقامات الدعاء، وهو من أفضل الدعوات، فالله ﷻ قضى بحصول الشيء عند حصول سببه من التوكل والدعاء، فنصب الدعاء والتوكل سببين لحصول المطلوب، وقضى بحصوله إذا فعل العبد سببه، فإذا لم يأت بالسبب امتنع المسبب، وهذا كما قضى بحصول الولد إذا جامع الرجل من يحبلها، فإذا لم يجامع لم يخلق الولد، وقضى بحصول الشبع إذا أكل، والري إذا شرب، فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو، وقضى بحصول الحج والوصول إلى مكة إذا سافر وركب الطريق، فإذا جلس في بيته لم يصل إلى مكة، وقضى بدخول

(١) السابق ١١٨/٢ بتصرف.

الجنة إذا أسلم وأتى بالأعمال الصالحة، فإذا ترك الإسلام ولم يعمل صالحا لم يدخلها أبدا، وقضى بإنضاج الطعام بإيقاد النار تحته، وقضى بطلوع الحبوب التي تزرع بشق الأرض وإلقاء البذر فيها، فما لم يأت بذلك لم يحصل إلا الخيبة، فوزان ما قاله منكرو الأسباب أن يترك كل من هؤلاء السبب الموصل ويقول: إن كان قضى لي وسبق في الأزل حصول الولد والشبع والري والحج ونحوها فلا بد أن يصل إلي تحركت أو سكنت وتزوجت أو تركت سافرت أو قعدت، وإن لم يكن قد قضى لي لم يحصل لي، فهل يعد أحد هذا من جملة العقلاء؟ وهل البهائم إلا أفقه منه؟ فإن البهيمة تسعى في السبب بالهداية العامة، فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب ويندفع بها المكروه فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل[1].

ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب، وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها، فالأسباب محل حكمة الله وأمره ودينه، والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره، فلا تقوم عبودية الأسباب إلا على ساق التوكل، ولا يقوم ساق التوكل إلا على قدم العبودية.

٣- رسوخ القلب في مقام توحيد التوكل، فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده، بل حقيقة التوكل توحيد القلب، فما دامت فيه علائق الشرك فتوكله معلول، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات

---

(١) السابق ٢/١١٩ بتصرف.

شعبة من شعب قلبه، فنقص من توكله على الله بقدر ذهاب تلك الشعبة، ومن ههنا ظن من ظن أن التوكل لا يصح إلا برفض الأسباب، وهذا حق لكن رفضها عن القلب لا عن الجوارح، فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب، وتعلق الجوارح بها، فيكون منقطعا منها متصلا بها(١).

٤- اعتماد القلب على الله، واستناده إليه، وسكونه إليه، بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب، ولا سكون إليها، بل يخلع السكون إليها من قلبه، ويلبسه السكون إلى خالقها، وعلامة هذا أنه لا يبالي بإقبالها وإدبارها، ولا يضطرب قلبه ويخفق عند إدبار ما يحب منها، وإقبال ما يكره، لأن اعتماده على الله وسكونه إليه واستناده إليه قد حصنه من خوفها ورجائها، فحاله حال من خرج عليه عدو عظيم لا طاقة له به، فرأى حصنا مفتوحا فأدخله ربه إليه، وأغلق عليه باب الحصن، فهو يشاهد عدوه خارج الحصن، فاضطراب قلبه وخوفه من عدوه في هذه الحال لا معنى له. وكذلك حال من أعطاه ملك درهما فسرق منه، فقال له الملك: عندي أضعافه، فلا تهتم متى جئت إلي أعطيتك من خزائني أضعافه، فإذا علم صحة قول الملك، ووثق به واطمأن إليه، وعلم أن خزائنه مليئة بذلك لم يحزنه فوته.

٥- حسن الظن بالله ﷻ فعلى قدر حسن ظنك بربك، ورجائك له يكون توكلك عليه، ولذلك فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله، والتحقيق أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه، إذ لا يتصور

---

(١) السابق ٢/١٢٠ بتصرف.

التوكل على من ساء ظنك به، ولا التوكل على من لا ترجوه.

٦- استسلام القلب له قبل الأخذ بالأسباب وبعده، وانجذاب دواعيه كلها إليه، وقطع منازعاته، وهو التفويض، وهو روح التوكل ولبه وحقيقته، وهو إلقاء أموره كلها إلى الله وإنزالها به طلبا واختيارا، لا كرها واضطرارا، ومثاله بقياس الأولى تفويض العاجز الضعيف المغلوب على أمره كل أموره إلى أبيه العالم بشفقته عليه ورحمته وتمام كفايته وحسن ولايته له وتدبيره له، فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه، وقيامه بمصالحه وتوليه لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليه لها، فلا يجد له أصلح ولا أرفق من تفويضه أموره كلها إلى أبيه، وراحته من حمل كلفتها، وثقل حملها مع عجزه عنها، وجهله بوجوه المصالح فيها، وعلمه بكمال علم من فوض إليه وقدرته وشفقته، فإذا كان هذا حال المخلوق في تفويضه للمخلوق، فكيف يكون تفويض المخلوق للخالق الذي ليس كمثله شيء؟ (١).

• المتوكل على الله حقا لا بد له من الرضا بما يفعله وكيله.

الرضا بالله وهو ثمرة التوكل، فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله، فالمقدور يكتنفه أمران: التوكل قبله، والرضا بعده، فمن توكل على الله قبل الفعل، ورضي بالمقضي له بعد الفعل، فقد قام بالعبودية، وهذا معنى دعاء الاستخارة، روى البخاري من حديث جابر بن عبد الله ﷺ أنه قال: (كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخَارَةَ في الأُمورِ كلها كما يعلمنا السورَةَ من القرآن، يقول: إِذا هم أَحدُكم

---

(١) السابق ٢/١٢٢ بتصرف.

بالأمرِ، فليرْكع ركعتين من غَيرِ الفرِيضَةِ، ثم ليقل: اللهم إِني أَستخِيرُك بعلمك، وأَستقدِرُك بقدْرَتك، وأَسأَلك من فضْلك العظِيم، فإِنك تقدِرُ ولا أَقدِرُ، وتعلم ولا أَعلم، وأَنت علام الغُيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأَمرَ خَيرٌ لي في دِيني ومعاشِي وعاقبةِ أَمرِي، أَوْ قال: عاجِل أَمرِي وآجِله، فاقدُرْه لي، ويسرْه لي، ثم بارِك لي فيه، وإِن كنت تعلم أَن هذا الأمرَ شَرٌّ لي في دِيني ومعاشِي وعاقبةِ أَمرِي، أَوْ قال: عاجِل أَمرِي وآجِله فاصرِفه عني، واصرِفني عنه، واقدُرْ لي الخَيرَ حيث كان، ثم رَضِّني به، ويسمي حاجَته) (١).

وقول النبي ﷺ في دعاء الاستخارة: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم. فيه توكل وتفويض، وقوله: فإنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علام الغيوب. فيه تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة، وتوسل إليه سبحانه بصفاته التي هي أحب ما توسل إليه بها المتوسلون، ثم سأل ﷺ ربه أن يقضي له ذلك الأمر، إن كان فيه مصلحته عاجلا أو آجلا، وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته عاجلا أو آجلا، فهذا هو حاجته التي سألها، فلم يبق عليه إلا الرضا بما يقضيه له. فقال: واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به.

هذا الدعاء قد اشتمل على هذه المعارف الإلهية والحقائق الإيمانية التي من جملتها التوكل والتفويض قبل وقوع المقدور، والرضا بعده وهو ثمرة التوكل، والتفويض علامة صحته، فإن لم يرض بما قضى له

(١) البخاري في التطوع، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى ١/٣٩١ (١١٠٩).

فتفويضه معلول فاسد، فباستكمال هذه الدرجات يستكمل العبد حقيقة التوكل وتثبت قدمه فيه.

وكثيرا ما يحدث اشتباه في التوكل المحمود الكامل بالمذموم الناقص، فيشتبه التفويض بالتواكل والإضاعة، فيضيع العبد حظه ظنا منه أن ذلك تفويض وتوكل، وإنما هو تضييع لا تفويض، فالتضييع في حق الله، والتفويض في حقك.

ومنه اشتباه التوكل بالراحة وإلقاء الأحمال، فيظن صاحبه أنه متوكل وإنما هو على غير ذلك، لأن علامة المتوكل أنه مجتهد في الأسباب المأمور بها غاية الاجتهاد، فتعطيلها إلحاد وزندقة، لكنه يخلعها من قلبه ويعتمد على ربه.

قال الله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ آل عمران:١٦٠.

وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ آل عمران:١٥٩. وقال له: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ النمل:٧٩.

روى البخاري من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (خَرَجَ علينا النبي ﷺ يَوْمًا، فقال: عُرِضَت عَلي الأُمَمُ، فَجَعَل يَمُرُّ النبي معه الرَّجُل، وَالنبِيُّ معه الرَّجُلان، وَالنبِيُّ معه الرَّهْطُ، وَالنبِيُّ ليس معه أَحَدٌ. وَرَأَيت سَوَادًا كَثيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَرَجَوْت أَن يكون أُمَّتي، فَقِيل: هذا مُوسَى وَقَوْمُهُ. ثمَّ قِيل لي: انظُرْ، فَرَأَيت سَوَادًا كَثيرًا

سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيل لي: انظُرْ هَكَذَا وهَكَذَا، فَرَأَيْت سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيل: هَؤُلاءِ أُمَّتك، وَمَعَ هَؤُلاءِ سَبْعُون أَلفًا يَدْخُلون الجَنةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فتفرَّقَ الناس، ولم يُبَين لهم، فتذَاكَرَ أَصْحَابُ النبي ﷺ، فَقَالوا: أَمَّا نحْن فَوُلدْنا في الشِّرْكِ، ولَكِنا آمَنا بِاللهِ ورَسُولِه، ولَكِن هَؤُلاءِ هُمْ أَبْنَاؤُنا، فَبَلَغَ النبي ﷺ، فقال: هُمْ الذِين لا يَتطَيرُون، ولا يَسْتَرْقُون، ولا يَكْتوُون، وعَلى ربِّهِمْ يَتوَكَّلون، فَقَامَ عُكَّاشَةُ بن مِحْصَن فقال: أَمِنهُمْ أنا يا رَسُول اللهِ؟ قال: نعم، فَقَامَ آخرُ فقال: أَمِنهُمْ أنا؟ فقال: سَبَقَكَ بها عُكَاشَةُ) [1].

- **الرضا من عبوديات القلب المترددة بين الواجب والمستحب.**

أجمع العلماء على أن الرضا بالقضاء مستحب، واستحبابه مؤكد، واختلفوا في وجوبه على قولين، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يذهب إلى القول باستحبابه، لأنه لم يجيء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر، وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم.

ولا بد أن نفرق بين الرضا بالقضاء والقدر أو الرضا بأفعال الله من جهة، والرضا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ رسولا من جهة أخرى، فهذا لا يسع أحد عدم الرضا به، ولازمه القبول به والانقياد له.

روى مسلم من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ

(١) البخاري في الطب، باب من لم يرق ٥/٢١٧٠ (٥٤٢٠)، ومسلم في الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ١/١٩٩ (٢٢٠).

رَسُولا) (١).

وروى مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ أن النبي ﷺ قال: (مَنْ قَال حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولهُ، رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولا، وَبِالإِسْلامِ دِينًا غُفِرَ لهُ ذَنْبُهُ) (٢).

وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين وإليهما ينتهي، وقد تضمنا الرضا بربوبيته سبحانه وإلوهيته، والرضا برسوله، والانقياد له والرضا بدينه، والتسليم له، ومن اجتمعت له هذه الأمور فهو الصديق حقا، وهي سهلة بالدعوى واللسان، لكنها من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان، لاسيما إذا جاء فيها ما يخالف هوى النفس ومرادها (٣).

واعلم أن الرضا بإلهيته هو الرضا بمقتضى حكمته وهو يتضمن الرضا بمحبته وحده، وخوفه ورجائه، والإنابة إليه، والتبتل إليه، وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه، وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضا بربوبيته هو الرضا بمقتضى قدرته وهو يتضمن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة به،

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً فهو مؤمن ٦٢/١ (٣٤).
(٢) مسلم في الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن ٢٩٠/١ (٣٨٦) .
(٣) مدارج السالكين لابن القيم ١٧٢/٢ بتصرف.

والاعتماد عليه، وأن يكون راضيا بكل ما يفعل به، فالأول يتضمن رضاه بشرعه وما يؤمر به، والثاني يتضمن رضاه بما يُقَدِّر عليه.

وأما الرضا بنبيه رسولا، فيتضمن كمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يرضى بحكم غيره البتة، لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله، ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه، لا يرضى في ذلك بحكم غيره، ولا يرضى إلا بحكمه سبحانه، فإن عجز عنه، كان تحكيمه غيره من باب غذاء المضطر إذا لم يجد ما يقيته إلا من الميتة والدم، وأحسن أحواله أن يكون من باب التراب الذي يتيمم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور.

وأما الرضا بدينه فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى، رضي كل الرضا، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه، وسلم له تسليما، ولو كان مخالفا لمراد نفسه، أو هواها، أو قول مقلده وشيخه وطائفته، فإياك أن تستوحش من الاغتراب والتفرد، فإنه والله عين العزة والصحبة مع الله ورسوله، والرضا بالله ربا وبمحمد رسولا وبالإسلام دينا.

بل الصادق كلما وجد مس الاغتراب وذاق حلاوته وتنسم روحه قال: اللهم زدني اغترابا ووحشة من العالم، وقربا منك، ومحبة لك، فإذا انقضت الدنيا وانقطعت الأسباب وحقت الحقائق، وبعثر ما في القبور، وحصل ما في الصدور، وبليت السرائر، لم يجد من دون الله من قوة ولا ناصر، لأنه رضي بالله ورسوله، وأدرك مواقع الربح والخسران، وما

الذي يخف، أو يرجح به الميزان [(١)].

• أعظم أسباب حصول الرضا التزام ما جعل الله رضاه فيه.

من أعظم أسباب حصول الرضا أن يلزم الراضي ما جعل الله رضاه فيه، فإنه يوصله إلى مقام الرضا.

وليس الرضا والمحبة كالرجاء والخوف، فإن الرضا والمحبة حالان من أحوال أهل الجنة، لا يفارقان المتلبس بهما في الدنيا، ولا في البرزخ، ولا في الآخرة، بخلاف الخوف والرجاء فإنهما يفارقان أهل الجنة بحصول ما كانوا يرجونه، وأمنهم مما كانوا يخافونه، وإن كان رجاؤهم لما ينالون من كرامته دائما، لكنه ليس رجاء مشوبا بشك، بل هو رجاء واثق بوعد صادق، من رب قادر، فهذا لون ورجاؤهم في الدنيا لون آخر.

وليس من شرط الرضا ألا يحس بالألم والمكاره، بل ألا يعترض على الحكم ولا يتسخطه، ولهذا أشكل على بعض الناس الرضا بالمكروه وطعنوا فيه، وقالوا: هذا ممتنع على الطبيعة، وإنما هو الصبر، وإلا فكيف يجتمع الرضا والكراهية وهما ضدان.

والصواب أنه لا تناقض بينهما، وأن وجود التألم وكراهة النفس له لا ينافي الرضا، كرضا المريض بشرب الدواء الكريه، ورضا الصائم في اليوم الشديد الحر بما يناله من ألم الجوع والظمأ، ورضا المجاهد بما يحصل له في سبيل الله من ألم الجراح وغيرها.

وطريق الرضا طريق مختصرة قريبة جدا، موصلة إلى أجل غاية،

---

(١) السابق ١٧٣/٢ بتصرف.

وهي رضا الله عنه، ولكن فيها مشقة، ومع هذا فليست مشقتها بأصعب من مشقة طريق المجاهدة، ولا فيها من العقبات والمفاوز ما فيها، وإنما عقبتها همة عالية، ونفس زكية، وتوطين النفس على كل ما يَرِد عليها من الله ﷻ [١].

وإنما كان الرضا قطب رحى الدين لأن جميع العقائد والأعمال والأحوال إنما تنبني على توحيد الله ﷻ في العبادة، وبغض عبادة ما سواه، فمن لم يكن له هذا القطب لم يكن له رحى تدور عليه، ومن حصل له هذا القطب ثبتت له الرحى، ودارت على ذلك القطب، فيخرج حينئذ من دائرة الشرك إلى دائرة الإسلام، فتدور رحى إسلامه وإيمانه على قطبها الثابت اللازم.

وأيضا فإن الله ﷻ جعل حصول هذه الدرجة من الرضا موقوفا على أن يكون الله الذي رضي به العبد ربا ومعبودا أحب إليه من كل شيء، وأولى الأشياء بالتعظيم، وأحق الأشياء بالطاعة، ومعلوم أن هذا يجمع قواعد العبودية، وينتظم عليها جميع فروعها وشعبها. ولما كانت المحبة التامة ميل القلب بكليته إلى المحبوب كان ذلك الميل حاملا على طاعته وتعظيمه، وكلما كان الميل أقوى كانت الطاعة أتم والتعظيم أوفر، وهذا الميل يلازم الإيمان، بل هو روح الإيمان ولبه، فأي شيء يكون أعلى من أمر يتضمن أن يكون الله سبحانه أحب الأشياء إلى العبد، وأولى الأشياء بالتعظيم، وأحق الأشياء بالطاعة [٢].

---

(١) السابق ٢/١٧٥ بتصرف.

(٢) السابق ٢/١٨٦ بتصرف.

وبهذا يجد العبد حلاوة الإيمان كما في صحيح البخاري من حديث أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: (ثلاث مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَان، أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ)[(١)]. فعلق ذوق الإيمان بالرضا بالله ربا، وعلق وجود حلاوته بما هو موقوف عليه ولا يتم إلا به، وهو كونه سبحانه أحب الأشياء إلى العبد، هو ورسوله ﷺ، ولما كان هذا الحب التام والإخلاص الذي هو ثمرته أعلى من مجرد الرضا بربوبيته سبحانه كانت ثمرته أعلى، وهي وجود حلاوة الإيمان، وثمرة الرضا ذوق طعم الإيمان، فمن رضي بالله ربا رضيه الله له عبدا، ومن رضي عنه في عطائه ومنعه، وبلائه وعافيته، لم ينل بذلك درجة رضا الرب عنه، إن لم يرض به ربا، وبنبيه رسولا، وبالإسلام دينا، فإن العبد قد يرضى عن الله ربا فيما أعطاه ومنعه، ولكن لا يرضى به وحده معبودا وإلها[(٢)].

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ الفجر:٢٧/٣٠.

فالرضا اسم للوقوف الصادق مع مراد الرب تبارك وتعالى الديني من غير تردد في ذلك ولا معارضة[(٣)].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان ١٤/١ (١٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان ٦٦/١ (٤٣).

(٢) مدارج السالكين ١٨٧/٢ بتصرف.

(٣) السابق ١٧٩/٢ بتصرف.

• الرضا المتعلق بالإلوهية أكمل من الرضا المتعلق بالربوبية .

جعل الشيخ الهروي الرضا ثلاثة أقسام، رضا العوام بما قسمه الله وأعطاه من أمور العبودية، ورضا الخواص بما قدره وقضاه، ورضا خواص الخواص به بدلا من كل ما سواه [1].

ورضا العامة الذي يعنيه الهروي هو الرضا بشرع الله، وهو الرضا بالله ربا ومعبودا، وتسخط عبادة ما دونه، وقد جعله رضا العوام على الرغم من كونه قطب رحى الإسلام الذي يطهر من الشرك الأكبر، والرضا بالله ربا أن لا يتخذ ربا غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره، وينزل به حوائجه قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ ﴾ الأنعام:١٦٤. وقال في أول السورة: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ الأنعام:١٤ . يعني هل أتخذ غيره معبودا وناصرا ومعينا وملجأ؟ وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة. وقال في وسطها: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ الأنعام:١١٤ . أي أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه، وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه، وقد أنزله مفصلا مبينا كافيا شافيا [2].

---

(١) السابق ٢/١٧٧ بتصرف.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ١٨١ بتصرف.

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل رأيتها هي نفس الرضا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا، ورأيت الحديث يترجم عنها، ومشتق منها، فكثير من الناس يرضى بالله ربا، ولا يبغي ربا سواه، لكنه لا يرضى به وحده وليا وناصرا، بل يوالي من دونه أولياء ظنا منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك، وهذا عين الشرك، بل التوحيد أن لا يتخذ من دونه أولياء، والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء، وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين فيه، فإن هذا من تمام الإيمان، ومن تمام موالاته، فموالاة أوليائه لون، واتخاذ الولي من دونه لون، ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه، فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكما يتحاكم إليه، ويخاصم إليه ويرضى بحكمه، وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد، أن لا يتخذ سواه ربا، ولا إلها، ولا غيره حكما، وتفسير الرضا بالله ربا أن يسخط عبادة ما دونه، هذا هو الرضا بالله إلها، وهو من تمام الرضا بالله ربا، فمن أعطى الرضا به ربا حقه سخط عبادة ما دونه قطعا، لأن الرضا بتجريد ربوبيته يستلزم تجريد عبادته، كما أن العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الإلهية، وهذا الرضا يطهر من الشرك الأكبر، فالشرك نوعان أكبر وأصغر فهذا الرضا يطهر صاحبه من الأكبر، وأما الأصغر فيطهر منه نزوله منزلة إياك نعبد وإياك نستعين[1].

---

(١) السابق ١٨٢/٢ بتصرف.

ولازمه أن يكون الله وحده المحبوب المعظم المطاع، فمن لم يحبه ولم يطعه ولم يعظمه فهو متكبر عليه، ومتى أحب معه سواه، وعظم معه سواه، وأطاع معه سواه فهو مشرك، ومتى أفرده وحده بالحب والتعظيم والطاعة فهو عبد موحد [(١)].

أما الدرجة الثانية من الرضا وهي الرضا عن الله في كل ما قضى وقدر، والتي اعتبرها الهروي من أوائل مسالك أهل الخصوص، وأنها أعلى من الدرجة التي قبلها، فهي الرضا عنه في أحكامه وأقضيته، وهي مقدمة للخروج عن حظوظ نفسه ووقوفه مع مراد الله ﷻ لا مع مراد نفسه. ويعقب ابن القيم بأن كلام الشيخ الهروي فيه نظر لا يخفى لأنه جعل الرضا بالقدر والإرادة الكونية أعلى من الرضا بالعبودية والإرادة الشرعية وهو نظير جعله الصبر بالله ﷻ أعلى من الصبر لله.

والذي ينبغي في المفاضلة أن تكون الدرجة الأولى وهي الرضا بالعبودية والإرادة الشرعية أعلى شأنا، وأرفع قدرا، فإنها مختصة بالمؤمنين العابدين، أما الرضا بالقضاء فدرجة مشتركة تصح من المؤمنين والكافرين، وغايته التسليم لقضاء الله وقدره، فأين هذا من الرضا به ربا وإلها ومعبودا؟

وأيضا فالرضا به ربا فرض، بل هو من آكد الفروض باتفاق الأمة، فمن لم يرض به ربا لم يصح له إسلام ولا عمل ولا حال، وأما الرضا بقضائه فأكثر الناس على أنه مستحب وليس بواجب، وقيل: بل هو واجب، وهما قولان في مذهب أحمد، فالفرق بين الدرجتين فرق ما بين

---

(١) السابق ٢/١٨٣ بتصرف.

الفرض والندب[1].

وفي الحديث الإلهي الذي رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِليَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِليَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَال عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِليَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ) [2]. فدل على أن التقرب إليه سبحانه بأداء فرائضه أفضل وأعلى من التقرب إليه بالنوافل.

وأيضا فإن الرضا به ربا يتضمن الرضا عنه ويستلزمه، فإن الرضا بربوبيته هو رضا العبد بما يأمره به، وينهاه عنه، ويقسمه له، ويقدره عليه، ويعطيه إياه، ويمنعه منه، فمتى لم يرض بذلك كله لم يكن قد رضي به ربا من جميع الوجوه، وإن كان راضيا به ربا من بعضها، فالرضا به ربا من كل وجه يستلزم الرضا عنه ويتضمنه بلا ريب.

وأيضا فالرضا به ربا متعلق بذاته وصفاته وأسمائه وربوبيته العامة والخاصة، فهو الرضا به خالقا ومدبرا، وآمرا وناهيا، وملكا معطيا وحكما وكيلا، ووليا ناصرا، وحسيبا رقيبا، وقابضا باسطا إلى غير ذلك من صفات ربوبيته. وأما الرضا عنه فهو رضا العبد بما يفعله الله به، ويعطيه إياه، ولهذا لا يجيء إلا في الثواب والجزاء كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾﴾ الفجر:٢٧/٢٨. فهذا برضاها عنه لما حصل لها من كرامته كقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ

---

(١) السابق ٢/١٨٤ بتصرف.

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع ٥/٢٣٨٤ (٦١٣٧).

رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ البينة:٨.

والرضا بالله أصل الرضا عنه، والرضا عنه ثمرة الرضا به، وسر المسألة أن الرضا به متعلق بأسمائه وصفاته ومقتضاها، والرضا عنه متعلق بثوابه وجزائه، وأيضا فإن النبي ﷺ علق ذوق طعم الإيمان بمن رضي بالله ربا، ولم يعلقه بمن رضي عنه، كما قال: (ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولا) [1]. فجعل الرضا به قرين الرضا بدينه ونبيه، وهذه الثلاثة هي أصول الإسلام التي لا يقوم إلا بها وعليها. وأيضا فالرضا به ربا يتضمن توحيده وعبادته والإنابة إليه، والتوكل عليه، وخوفه ورجاءه ومحبته، والصبر له وبه، والشكر على نعمه يتضمن رؤية كل ما منه نعمة وإحسانا، وإن ساء عبده، فالرضا به يتضمن شهادة أن لا إله إلا الله، والرضا بمحمد رسولا يتضمن شهادة أن محمدا رسول الله، والرضا بالإسلام دينا يتضمن التزام عبوديته وطاعته وطاعة رسوله، فجمعت هذه الثلاثة الدين كله [2].

- الفرق بين الرضاء بالله والرضا عن الله والرضا بقضاء الله.

لا بد من التمييز بين ثلاثة أمور في الرضا، وهي الرضاء بالله، والرضا عن الله، والرضا بقضاء الله، فالرضا به فرض، والرضا عنه وإن كان من أجل الأمور وأشرف أنواع العبودية، فلم يطالب به العموم لعجزهم عنه

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً فهو مؤمن ١/٦٢ (٣٤).

(٢) مدارج السالكين ٢/١٨٥ بتصرف.

ومشقته عليهم، وأوجبته طائفة كما أوجبوا الرضا به. وينبغي أن يعلم أن اختيار الرب تعالى لعبده نوعان:

أحدهما: اختيار ديني شرعي فالواجب على العبد أن لا يختار في هذا النوع غير ما اختاره له سيده قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦)﴾ الأحزاب:٣٦ . فاختيار العبد خلاف ذلك مناف لإيمانه وتسليمه ورضاه بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا.

النوع الثاني: اختيار كوني قدري لا يسخطه الرب كالمصائب التي يبتلى الله بها عبده، فهذا لا يضره فراره منها إلى القدر الذي يرفعها عنه ويدفعها ويكشفها، وليس في ذلك منازعة للربوبية وإن كان فيه منازعة للقدر بالقدر، فهذا يكون تارة واجبا، وتارة يكون مستحبا، وتارة يكون مباحا مستوى الطرفين، وتارة يكون مكروها وتارة يكون حراما[١].

وأما القدر الذي لا يحبه ولا يرضاه مثل قدر المعائب والذنوب، فالعبد مأمور بسخطها ومنهي عن الرضا بها. وهذا هو التفصيل الواجب في الرضا بالقضاء، وقد اضطرب الناس في ذلك اضطرابا عظيما، ونجا منه أصحاب التحقيق والتفصيل، فإن لفظ الرضا بالقضاء لفظ محمود مأمور به، وهو من مقامات الصديقين، فصارت له حرمة أوجبت لطائفة قبوله من غير تفصيل، وظنوا أن كل ما كان مخلوقا

(١) السابق ١٨٩/٢ بتصرف.

للرب تعالى فهو مقضي مرضي مخلوقا له، ينبغي له الرضا به، ويقولون: إن كل ما شاءه وقضاه فقد أحبه ورضيه، وإذا كان الكون محبوبا له مرضيا فنحن نحب ما أحبه، ونرضى ما رضيه [1].

وقد أنكر الله تعالى على من جعل مشيئته وقضاءه مستلزمان لمحبته ورضاه، فكيف بمن جعل ذلك شيئا واحدا، قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾الأنعام:١٤٨. فهم استدلوا على محبته لشركهم ورضاه عنه بمشيئته لذلك، وعارضوا بهذا الدليل أمره ونهيه، فالإشكال إنما نشأ من جعلهم المشيئة نفس المحبة[2].

قال ابن القيم: (والذي يكشف هذه الغمة، ويبصر من هذه العماية، وينجي من هذه الورطة، إنما هو التفريق بين ما فرق الله بينه وهو المشيئة والمحبة، فإنهما ليسا واحدا، ولا هما متلازمين، بل قد يشاء ما لا يحبه، ويحب ما لا يشاء كونه، فالأول كمشيئته لوجود إبليس وجنوده، ومشيئته العامة لجميع ما في الكون مع بغضه لبعضه، والثاني كمحبته إيمان الكفار وطاعات الفجار وعدل الظالمين وتوبة الفاسقين، ولو شاء ذلك لوجد كله وكان جميعه، فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فإذا تقرر هذا الأصل، وأن الفعل غير المفعول، والقضاء غير المقضي، وأن الله سبحانه لم يأمر عباده بالرضا بكل ما خلقه وشاءه، زالت

(١) السابق ٢/١٩٠ بتصرف.
(٢) السابق ٢/١٩٢ بتصرف.

الشبهات وانحلت الإشكالات ولله الحمد، ولم يبق بين شرع الرب وقدره تناقض بحيث يظن إبطال أحدهما للآخر، بل القدر ينصر الشرع، والشرع يصدق القدر، وكل منهما يحقق الآخر)[١].

إذا عرف هذا فالرضا بالقضاء الديني الشرعي واجب، وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان، فيجب على العبد أن يكون راضيا به بلا حرج ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض.

وقد أقسم الله على أن كل أتباع محمد ﷺ لا يؤمنون حتى يحكموه فيما شجر بينهم، وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه، وحتى يسلموا لحكمه تسليما، وهذا حقيقة الرضا بحكمه، فالتحكيم في مقام الإسلام وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان، ومتى خالط القلب بشاشة الإيمان واكتحلت بصيرته بحقيقة اليقين، وحيي بروح الوحي، وتمهدت طبيعته، وانقلبت النفس الأمارة مطمئنة راضية وادعة، وتلقى أحكام الرب تعالى بصدر واسع منشرح مسلم، فقد رضي كل الرضا بهذا القضاء الديني المحبوب لله ولرسوله.

والرضا بالقضاء الكوني القدري الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه من الصحة والغنى والعافية واللذة أمر لازم بمقتضى الطبيعة، لأنه ملائم للعبد محبوب له، فليس في الرضا به عبودية، بل العبودية في مقابلته بالشكر والاعتراف بالمنة، ووضع النعمة مواضعها التي يحب الله أن توضع فيها، وأن لا يعصى من أنعم بها، وأن يرى التقصير في جميع ذلك والرضا بالقضاء الكوني القدري الجاري على خلاف مراد العبد

---

(١) السابق ٢/١٩٢ بتصرف.

ومحبته مما لا يلائمه، ولا يدخل تحت اختياره مستحب، وهو من مقامات أهل الإيمان وفي وجوبه قولان، وهذا كالمرض والفقر وأذى الخلق له والحر والبرد والآلام ونحو ذلك.

والرضا بالقدر الجاري عليه باختياره مما يكرهه الله، ويسخطه وينهى عنه، كأنواع الظلم والفسوق والعصيان حرام يعاقب عليه، وهو مخالفة لربه تعالى فإن الله ﷻ لا يرضى بذلك ولا يحبه، فكيف تتفق المحبة ورضا ما يسخطه الحبيب ويبغضه؟ (١).

- **كيف يشاء الله ويريد أمرا يبغضه ولا يرضاه ولا يحبه؟**

إن قال قائل: كيف يريد الله سبحانه أمرا لا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاؤه ويكونه؟ وكيف تجتمع إرادة الله له وبغضه وكراهيته؟ قيل هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقا، وتباينت عنده طرقهم وأقوالهم، فاعلم أن المراد في حق المخلوق نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره، فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته، ولما فيه من الخير، ومثال ذلك بين الناس حب الطيبات من أصناف المطعومات وحب النعم والخيرات، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد(٢).

أما المراد لغيره فقد لا يكون في نفسه مقصودا للمريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد له من حيث إفضاؤه وإيصاله

---

(١) السابق ٢/١٩٣ بتصرف.

(٢) السابق ٢/١٩٤ بتصرف.

إلى مراده، فيجتمع فيه الأمران بغضه وإرادته، ولا يتنافيان لاختلاف متعلقهما، وهذا كالدواء المتناهي في الكراهة، إذا علم متناوله أن فيه شفاءه، وكقطع العضو المتآكل، إذا علم أن في قطعه بقاء جسده، وكقطع المسافة الشاقة جدا إذا علم أنها توصله إلى مراده ومحبوبه، بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته وطويت عنه مغبته، فكيف بمن لا تخفى عليه العواقب؟

إذا كان ذلك في حق المخلوق فهو سبحانه وتعالى له المثل الأعلى يكره الشيء ويبغضه في ذاته، ولا ينافي ذلك إرادته لغيره، وكونه سببا إلى ما هو أحب إليه من فوته، مثال أنه سبحانه خلق إبليس الذي هو مادة لفساد الأديان والاعتقادات، والأعمال والإرادات، وهو سبب شقاوة العبيد وعملهم بما يغضب الرب تبارك وتعالى، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه بكل طريق وكل حيلة، فهو مبغوض للرب سبحانه وتعالى مسخوط له، لعنه الله ومقته، وغضب عليه، ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى، ترتبت على خلقه وجودها وهي أحب إليه من عدمها، فمن ذلك:

١- أن تظهر للعباد قدرة الله على خلق المتضادات المتقابلات، فخلق هذه الذات التي هي أخبث الذوات وشرها، وهي سبب كل شر في مقابلة ذات جبريل التي هي أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها، وهي مادة كل خير، فتبارك الله خالق هذا وهذا، كما ظهرت لهم قدرته التامة في خلق الليل والنهار، والضياء والظلام، والداء والدواء، والحياة والموت، والحر والبرد، والحسن والقبيح، والأرض والسماء، والذكر

والأنثى، والماء والنار، والخير والشر. وذلك من أدل الدلائل على كمال قدرته وعزته وسلطانه وملكه، فإنه خلق هذه المتضادات، وقابل بعضها ببعض، وسلط بعضها على بعض، وجعلها محال تصرفه وتدبيره وحكمته، فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير مملكته [(١)].

٢- ومنها ظهور آثار أسمائه القهرية مثل القهار القادر الجبار القوي القدير وشديد العقاب وسريع الحساب، فإن هذه الأسماء والأفعال كمال فلا بد من وجود متعلقها، ولو كان الخلق كلهم على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال.

٣- ومنها ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه، ومغفرته وستره، وتجاوزه عن حقه، وعتقه لمن شاء من عبيده، فلولا خلق ما يكره من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (وَالَّذِي نَفْسِي بيده، لو لم تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لهم) [(٢)].

٤- ومنها ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة، فإنه سبحانه الحكيم الخبير الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشيء في غير موضعه، ولا ينزله غير منزلته التي يقتضيها كمال علمه وحكمته، وخبرته فلا يضع الحرمان والمنع موضع العطاء

---

(١) مدارج السالكين ٢/١٩٥ بتصرف.

(٢) مسلم في التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة ٤/٢١٠٦ (٢٧٤٩) .

والفضل، ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع، ولا الثواب موضع العقاب، ولا العقاب موضع الثواب، ولا الخفض موضع الرفع، ولا الرفع موضع الخفض، ولا العز مكان الذل، ولا الذل مكان العز، ولا يأمر بما ينبغي النهي عنه، ولا ينهى عما ينبغي الأمر به، فهو أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلم بمن يصلح لقبولها، ويشكره على انتهائها إليه ووصولها، وأعلم بمن لا يصلح لذلك، وأحكم من أن يمنعها أهلها، وأن يضعها عند غير أهلها، فلو قدر عدم الأسباب المكروهة البغيضة له لتعطلت هذه الآثار، ولم تظهر لخلقه، ولفاتت الحكم والمصالح المترتبة عليها، وفواتها شر من حصول تلك الأسباب، فلو عطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب، وهذا كالشمس والمطر والرياح التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر والضرر، فلو قدر تعطيلها لئلا يحصل منها ذلك الشر الجزئي لتعطل من الخير ما هو أعظم من ذلك الشر بما لا نسبة بينه وبينه [1].

٥- ومنها حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت، ولكان الحاصل بعضها لا كلها، فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها، من الموالاة فيه سبحانه، والمعاداة فيه، والحب فيه، والبغض فيه، وبذل النفس له في محاربة عدوه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى،

(١) مدارج السالكين ١٩٦/٢ بتصرف.

وإيثار محاب الرب على محاب النفس وعبودية بالتوبة والرجوع إليه واستغفاره، فإنه سبحانه يحب التوابين ويحب توبتهم، فلو عطلت الأسباب التي يتاب منها لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها.

٦- ومنها عبودية مخالفة عدوه، ومراغمته في الله، وإغاظته فيه، وهي من أحب أنواع العبودية إليه، فإنه سبحانه يحب من وليه أن يغيظ عدوه، ويراغمه ويسوءه، وهذه عبودية لا يتفطن لها إلا الأكياس، وكذلك عبودية الاستعاذة من عدوه، وسؤاله أن يجيره منه، ويعصمه من كيده وأذاه، وكذلك يشتد خوفهم أولياء الله وحذرهم إذا رأوا ما حل بعدوه بمخالفته، وسقوطه من المرتبة الملكية إلى المرتبة الشيطانية، فلا يخلدون إلى غرور الأمل بعد ذلك.

٧- ومنها أنهم ينالون ثواب مخالفته ومعاداته الذي حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة فأكثر عبادات القلوب والجوارح مرتبة على مخالفته، كما أن نفس اتخاذه عدوا من أكبر أنواع العبودية، وأجلها قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ فاطر:٦. فاتخاذه عدوا أنفع شيء للعبد وهو محبوب للرب.

٨- ومنها أن الطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر، والطيب والخبيث، وذلك كامن فيها كمون النار في أسباب تولدها، فخلق الشيطان مستخرجا لما في طبائع أهل الشر من القوة إلى الفعل، وأرسلت الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلى الفعل، فاستخرج أحكم الحاكمين ما في قوى هؤلاء من الخير الكامن فيها ليترتب عليه آثاره، وما في قوى أولئك من الشر ليترتب عليه آثاره، وتظهر حكمته

في الفريقين، وينفذ حكمه فيهما ويظهر ما كان معلوما له مطابقا لعلمه السابق، وهذا هو السؤال الذي سألته ملائكته حين قالوا: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ البقرة:٣٠. فظنت الملائكة أن وجود من يسبح بحمده ويطيعه ويعبده، أولى من وجود من يعصيه ويخالفه، فأجابهم سبحانه بأنه يعلم من الحكم والمصالح والغايات المحمودة في خلق هذا النوع ما لا تعلمه الملائكة [1].

٩- ومنها أن ظهور كثير من آياته وعجائب صنعه حصل بسبب وقوع الكفر والشر من النفوس الكافرة الظالمة، كآية الطوفان، وآية الريح، وآية إهلاك ثمود وقوم لوط، وآية انقلاب النار على إبراهيم بردا وسلاما، والآيات التي أجراها الله تعالى على يد موسى، وغير ذلك من آياته التي يقول سبحانه عقيب ذكر كل آية منها في سورة الشعراء: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ الشعراء:١٠٣/١٠٤. فلولا كفر الكافرين وعناد الجاحدين، لما ظهرت هذه الآيات الباهرة التي يتحدث بها الناس جيلا بعد جيل إلى الأبد.

١٠- ومنها أن خلق الأسباب المتقابلة التي يقهر بعضها بعضا، ويكسر بعضها بعضا، هو من شأن كمال الربوبية والقدرة النافذة، والحكمة التامة، والملك الكامل، وإن كان شأن الربوبية كاملا في نفسه، ولو لم تخلق هذه الأسباب، لكن خلقها من لوازم كماله وملكه

---

(١) مدارج السالكين ٢/١٩٧: ١٩٨ بتصرف.

وقدرته وحكمته، فظهور تأثيرها وأحكامها في عالم الشهادة تحقيق لذلك الكمال، وموجب من موجباته، فتعمير مراتب الغيب والشهادة بأحكام الصفات من آثار الكمال الإلهي المطلق بجميع وجوهه وأقسامه وغاياته، وبالجملة فالعبودية والآيات والعجائب التي ترتبت على خلق ما لا يحبه ولا يرضاه وتقديره ومشيئته، أحب إليه سبحانه وتعالى من فواتها وتعطيلها بتعطيل أسبابها، فإن قال قائل: فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب؟ قيل له: هذا سؤال باطل إذ هو فرض وجود الملزوم بدون لازمه، كفرض وجود الابن بدون الأب، والحركة بدون المتحرك، والتوبة بدون التائب [1].

• أثار الرضا على العبد وعلاماته الظاهرة والباطنة.

علامة الراضي الموافق للإرادة الشرعية وتوحيد العبودية أن تستوي عنده النعمة والبلية، وذلك يكون في رضاه بحسن اختيار الله له شرعا وكونا، وليس المراد استواؤها عنده في ملاءمته ومنافرته للألم الحاصل أو اللذة، فإن هذا خلاف الطبع البشري، بل خلاف الطبع الحيواني، فالإنسان يتألم بالمرض، ويستريح بالصحة.

وليس المراد أيضا استواء الحالات عنده في الطاعة والمعصية، فإن هذا مناف للعبودية من كل وجه، وإنما تستوي النعمة والبلية عنده في الرضا بهما، وبإرادة الله الكونية لوجوه:

١- أنه مستخلف في أرض الله، أمين في ملكه، مفوض من قبله، والمفوض راض بكل ما اختاره له من فوض إليه، ولا سيما إذا علم

(١) السابق ٢/١٩٨ بتصرف.

كمال حكمته ورحمته ولطفه وحسن اختياره له.

٢- أنه جازم بأنه لا تبديل لكلمات الله، ولا راد لحكمه وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فهو يعلم أن كلا من البلية والنعمة بقضاء سابق وقدر حتم، وأنه عبد محض والعبد المحض لا يسخط جريان أحكام سيده المحسن المعطي البر الرحيم، بل يتلقاها كلها بالرضا به وعنه، كما أنه محب والمحب الصادق من رضي بما يعامله به حبيبه، وهو أيضا جاهل بعواقب الأمور وسيده أعلم بمصلحته وبما ينفعه.

٣- أن العبد لا يريد مصلحة نفسه، ولو عرف أسبابها فهو جاهل ظالم، وربه تعالى يريد مصلحته ويسوق إليه أسبابها، ومن أعظم أسبابها ما يكرهه العبد، فإن مصلحته فيما يكره أضعاف أضعاف مصلحته فيما يحب، قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ البقرة:٢١٦ . وقال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ النساء:١٩ .

٤- أنه مسلم والمسلم من قد سلم نفسه لله، ولم يعترض عليه في جريان أحكامه عليه ولم يسخط ذلك، لا في الرضا بأحكامه الشرعية ولا في الرضا بأحكامه الكونية، وهو أيضا يحسن الظن بربه لا يتهمه فيما يجريه عليه من أقضيته وأقداره، فحسن ظنه به يوجب له استواء الحالات عنده، ورضاه بما يختاره له سيده، وأن حظه من المقدور ما يتلقاه به من رضي وسخط، فلا بد له منه، فإن رضي فله الرضا، وإن سخط فله السخط، فيعلم أنه إذا رضي بالبلية انقلبت في حقه نعمة

ومنحة، وخف عليه حملها، وأعين عليه، وإذا سخطه تضاعف عليه ثقله ولم يزدد إلا شدة، فلو أن السخط يجدي عليه شيئا لكان له فيه راحة أنفع له من الرضا به[1].

٥- أن يعلم أن تمام عبوديته في جريان ما يكرهه من الأحكام عليه، ولو لم يجر عليه منها إلا ما يحب لكان أبعد شيء عن عبودية ربه، فلا تتم له عبوديته من الصبر والتوكل والرضا والتضرع والافتقار والذل والخضوع وغيرها إلا بجريان القدر له بما يكرهه، وليس الشأن في الرضا بالقضاء الملائم للطبيعة، إنما الشأن في القضاء المؤلم المنافر للطبع، كما أن رضاه عن ربه سبحانه وتعالى في جميع الحالات يثمر رضا ربه عنه، فإذا رضي عنه بالقليل من الرزق رضي ربه عنه بالقليل من العمل، وإذا رضي عنه في جميع الحالات واستوت عنده، وجده أسرع شيء إلى رضاه إذا ترضاه وتملقه.

٦- أن الرضا يوجب له الطمأنينة وبرد القلب وسكونه وقراره والسخط يوجب اضطراب قلبه وريبته وانزعاجه وعدم قراره، وأن الرضا ينزل عليه السكينة التي لا أنفع له منها، ومتى نزلت عليه السكينة استقام وصلحت أحواله وصلح باله، والسخط يبعده منها بحسب قلته وكثرته، وإذا ترحلت عنه السكينة ترحل عنه السرور والأمن والدعة والراحة وطيب العيش، فمن أعظم نعم الله على عبده تنزل السكينة عليه، ومن أعظم أسبابها الرضا عنه في جميع الحالات، والرضا كذلك يفتح له باب السلامة، فيجعل قلبه سليما نقيا من الغش والحقد الغل ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم، كذلك وتستحيل

---

(١) السابق ٢/٢٠٦ بتصرف.

سلامة القلب مع السخط وعدم الرضا، وكلما كان العبد أشد رضا كان قلبه أسلم، فالخبث والغش قرين السخط، وسلامة القلب وبره ونصحه قرين الرضا، وكذلك الحسد هو من ثمرات السخط، وسلامة القلب منه من ثمرات الرضا[(١)].

٧- أن السخط يوجب تلون العبد، وعدم ثباته مع الله، فإنه لا يرضى إلا بما يلائم طبعه ونفسه، والمقادير تجري دائما بما يلائمه وبما لا يلائمه، وكلما جرى عليه منها ما لا يلائمه أسخطه، فلا تثبت له قدم على العبودية، فإذا رضي عن ربه في جميع الحالات استقرت قدمه في مقام العبودية، فلا يزيل التلون عن العبد شيء مثل الرضا، كما أن السخط يفتح عليه باب الشك في الله وقضائه وقدره وحكمته وعلمه فقل أن يسلم الساخط من شك يداخل قلبه ويتغلغل فيه، وإن كان لا يشعر به، فلو فتش نفسه غاية التفتيش لوجد يقينه معلولا مدخولا، فإن الرضا واليقين أخوان مصطحبان، والشك والسخط قرينان[(٢)].

٨- أن الرضا بالمقدور من سعادة ابن آدم، وسخطه من شقاوته، ومن سعادة ابن آدم استخارة الله ﷻ، ومن شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله، فالرضا بالقضاء من أسباب السعادة والتسخط على القضاء من أسباب الشقاوة، والرضا يوجب له أن لا يأسى على ما فاته ولا يفرح بما آتاه، وذلك من أفضل الإيمان، أما عدم أساه على الفائت فظاهر، وأما عدم فرحه بما آتاه، فلأنه يعلم أن المصيبة فيه مكتوبة من قبل حصوله، فكيف يفرح بشيء يعلم أن له فيه مصيبة منتظرة ولا بد، كما

---

(١) مدارج السالكين ٢/٢٠٧ بتصرف.

(٢) السابق ٢/٢٠٨ بتصرف.

أن العبد إذا ملأ قلبه من الرضا بالقدر ملأ الله صدره غنى وأمنا وقناعة، وفرغ قلبه لمحبته والإنابة إليه والتوكل عليه، ومن فاته حظه من الرضا امتلأ قلبه بضد ذلك، واشتغل عما فيه سعادته وفلاحه، فالرضا يفرغ القلب لله والسخط يفرغ القلب من الله.

٩- أن الرضا يثمر الشكر الذي هو من أعلى مقامات الإيمان، بل هو حقيقة الإيمان، والسخط يثمر ضده، وهو كفر النعم، وربما أثمر له الكفر بمن أنعم بها، فإذا رضي العبد عن ربه في جميع الحالات أوجب له ذلك شكره، فيكون من الراضين الشاكرين، وإذا فاته الرضا كان من الساخطين وسلك سبيل الكافرين، والرضا ينفي عن العبد آفات الحرص والتكالب على الدنيا، وذلك رأس كل خطيئة، وأصل كل بلية، وأساس كل رزية، فرضاه عن ربه في جميع الحالات ينفي عنه مادة هذه الآفات.

١٠- أن الشيطان إنما يظفر بالإنسان غالبا عند السخط والشهوة، فهناك يصطاده، ولا سيما إذا استحكم سخطه، فإنه يقول ما لا يرضى الرب، ويفعل مالا يرضيه، وينوي مالا يرضيه، ولهذا قال النبي ﷺ عند موت ابنه إبراهيم: يحزن القلب وتدمع العين ولا نقول إلا ما يرضي الرب[1]، فإن موت البنين من العوارض التي توجب للعبد السخط على القدر، فأخبر النبي ﷺ أنه لا يقول في مثل هذا المقام الذي يسخطه أكثر الناس فيتكلمون بما لا يرضي الله، ويفعلون ما لا يرضيه لا يقول إلا ما يرضي ربه تبارك وتعالى[2].

---

(١) البخاري في الجنائز، باب قول النبي ﷺ إنا بك لمحزونون ١/٤٣٩ (١٢٤١).

(٢) مدارج السالكين ٢/٢٠٩ بتصرف.

١١- أن المخالفات كلها أصلها من عدم الرضا، والطاعات كلها أصلها من الرضا، وهذا إنما يعرفه حق المعرفة من عرف صفات نفسه وما يتولد عنها من الطاعات والمعاصي، كما أن الرضا يخرج الهوى من القلب، فالراضي هواه تبع لمراد ربه منه، أعني المراد الذي يحبه ربه ويرضاه، فلا يجتمع الرضا واتباع الهوى في القلب أبدا، وإن كان معه شعبة من هذا وشعبة من هذا، فهو للغالب عليه منهما، كما أن الرضا بالقضاء أشق شيء على النفس، بل هو ذبحها في الحقيقة، فإنه مخالفة هواها وطبعها وإرادتها، ولا تصير مطمئنة قط حتى ترضى بالقضاء، فحينئذ تستحق أن يقال لها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ الفجر:٢٧/٣٠.

١٢- أن عدم الرضا يفتح باب البدعة، والرضا يغلق عنه ذلك الباب، ولو تأملت بدع الروافض والنواصب والخوارج لرأيتها ناشئة من عدم الرضا بالحكم الكوني أو الديني أو كليهما. كما أن أول معصية عصي الله بها في هذا العالم إنما نشأت من عدم الرضا، فإبليس لم يرض بحكم الله الذي حكم به كونا من تفضيل آدم وتكريمه، ولا بحكمه الديني من أمره بالسجود لآدم، وآدم لم يرض بما أبيح له من الجنة حتى ضم إليه الأكل من شجرة الحمى، ثم ترتبت معاصي الذرية على عدم الصبر وعدم الرضا [1].

• إجمال أحكام العبودية المتعلقة بالقلب بين الواجب والمستحب.

ذكر ابن القيم أن واجب القلب منه ما هو متفق على وجوبه، ومنه

---

(١) السابق ٢/٢١٤ بتصرف.

ما هو مختلف فيه، فالمتفق على وجوبه كالإخلاص والتوكل والمحبة والصبر والإنابة والخوف والرجاء، والتصديق الجازم، والنية في العبادة، وهذه قدر زائد على الإخلاص، فإن الإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره، وكذلك الصدق، واتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة، وأغلب الواجبات القلبية لها طرفان: واجب مستحق وهو مرتبة أصحاب اليمين، وكمال مستحب وهو مرتبة المقربين، وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة، وله طرفان أيضا واجب مستحق وكمال مستحب.

وأما المختلف فيه كالرضا بالقضاء والقدر، فإن في وجوبه قولين، فمن أوجبه قال السخط حرام، ولا خلاص عنه إلا بالرضا، وما لا خلاص عن الحرام إلا به فهو واجب، ومن قال هو مستحب قال لم يجيء الأمر به في القرآن ولا في السنة بخلاف الصبر التوكل والإنابة والإخلاص والخوف والصدق والمحبة وهي أفرض الواجبات إذ هي قلب العبادة المأمور بها ومخها وروحها، وأما الرضا فإنما جاء في القرآن مدح أهله والثناء عليهم لا الأمر به.

وأما ما ذكر من أنه لا خلاص عن السخط إلا به فليس بلازم فإن مراتب الناس في المقدور ثلاثة، الرضا وهو أعلاها، والسخط وهو أسفلها، والصبر عليه بدون الرضا به، وهو أوسطها فالأولى للمقربين السابقين، والثالثة للمقتصدين، والثانية للظالمين، وكثير من الناس يصبر على المقدور فلا يسخط وهو غير راض به، فالرضا أمر آخر، فالمريض الشارب للدواء الكريه متألم به راض به، والصائم في شهر رمضان في شدة الحر متألم بصومه راض به، فالتألم كما لا ينافي الصبر لا ينافي

الرضا به، وهذا الخلاف بينهم إنما هو في الرضا بقضائه الكوني، وأما الرضا به ربا وإلها والرضا بأمره الديني فمتفق على فرضيته بل لا يصير العبد مسلما إلا بهذا الرضا أن يرضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا. ومن هذا أيضا اختلافهم في الخشوع في الصلاة وفيه قولان للفقهاء وعلى القولين اختلافهم في وجوب الإعادة على من غلب عليه الوسواس في صلاته، فأوجبها البعض ولم يوجبها أكثر الفقهاء، واحتجوا بأن النبي ﷺ أمر من سها في صلاته بسجدتي السهو، ولم يأمره بالإعادة ، وقد صح أن الشيطان يأتي في الصلاة فيقول اذكر كذا اذكر كذا لما لم يكن يذكر حتى يضل الرجل ولا يدري كم صلى، ولكن لا نزاع أن هذه الصلاة لا يثاب على شيء منها إلا بقدر حضور قلبه وخضوعه[1].

والقصد أن هذه الأعمال واجبها ومستحبها هي عبودية القلب فمن عطلها فقد عطل العبادة، ومن لم يوحد الله فيها لم يوحد الله في العبادة، فالقلب ملك الأعضاء وفي صلاحه صلاح الجسد وصلاح الإنسانية جمعاء، وقد صح عند البخاري من حديث النعمان بن بشير ﷺ أن رسول اللهِ ﷺ قال: (أَلا وإِن فِي الجسد مُضْغَة، إذا صَلحت صَلح الجسد كُلهُ، وإِذا فَسدت فَسد الجسد كُلهُ، أَلا وهِي القَلبُ) [2].

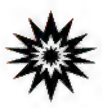


(١) مدارج السالكين ١/١١٢ بتصرف.

(٢) البخاري في الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه ١/٢٨ (٥٢)، ومسلم في المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ٣/١٢١٩ (١٥٩٩).

المطلب الثامن

أحكام العبودية المتعلقة باللسان وأثرها في فهم حقيقة الإيمان



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن الصبر، وأنه من عبوديات القلب وأعماله الواجبة بإجماع، وبينا أن القرآن نوع في أساليب الدعوة إلى الصبر لبيان أهميته، وعلمنا وجه الرد على من زعم أن الصبر من أنكر المنكر في طريق التوحيد.

ثم بينا أن التوكل من أعمال القلوب الواجبة على المقتصدين والسابقين، وعلمنا حقيقة التوكل على الله ودرجاته وأركانه التي لا يتم إلا بها، وأن المتوكل على الله حقا لا بد له من الرضا بما يفعله وكيله، كما بينا أن الرضا من عبوديات القلب المترددة بين الواجب والمستحب، وأن من أعظم أسباب حصول الرضا التزام ما جعل الله رضاه فيه، وأن الرضا المتعلق بالإلوهية أكمل من الرضا المتعلق بالربوبية.

وبينا الفرق بين الرضا بالله، والرضا عن الله، والرضا بقضاء الله، وكيف يشاء الله أمرا يبغضه ولا يرضاه ولا يحبه؟ ثم تحدثنا عن أثار الرضا على العبد وعلاماته الظاهرة والباطنة، وأجملنا الحديث عن أحكام العبودية المتعلقة بالقلب بين الواجب والمستحب.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن أحكام العبودية المتعلقة باللسان وأثرها في فهم حقيقة الإيمان.

• موقع اللسان في توحيد العبادة وحقيقة الإيمان.

اللسان جارحة من جوارح البدن يتميز بأنه أساس التخاطب بين الناس، فاللغات تقوم في حقيقتها على الحركات والسكنات التي تحدث في اللسان وفم الإنسان، والتي تتنوع من لغة إلى أخرى، وكذلك فإن اللغات مركبة من ألفاظ وكلمات تحمل معان ومدلولات يحدث من خلالها انتقال المعلومات بين العقلاء. وقد ذكر الله ﷻ منته على الإنسان بوجود الشفتين واللسان، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾ البلد:٨/٩.

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ۝٢٢﴾ الروم:٢٢.

واللسان له عبوديات لا بد من أدائها والقيام بها، لأنه مفطور على العبودية من باب إلحاق الفرع بالأصل، فلما كان الإنسان بن نجدين وطريقين في الحياة، إما أن يكون عبدا لله أو عبدا لسواه، فكذلك اللسان إما أن يكون في عبودية الله أو عبودية غيره، فإذا لم يكن في الطاعة والتوحيد والإيمان كان في الشرك والكفر والعصيان، وإن لم يحفظ الإنسان اللسان فهو سبب الهلكة والخسران.

روى الترمذي وصححه الألباني من حديث معاذ ﷺ أن النبي ﷺ قال له: (أَلا أُخْبِرُكَ بِمَلاكِ ذلكَ كُلِهِ، قُلتُ: بَلى يَا نبيَّ اللهِ، فَأَخَذ

بِلسَانهِ قَال: كُفَّ عَلَيْكَ هَذا، فَقُلتُ: يَا نبِيَّ اللهِ، وَإنا لَمُؤَاخَذون بِمَا نتَكَلَمُ بِهِ؟ فقَال: ثكِلتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذ، وَهَل يَكُبُّ النَاسَ فِي النارِ عَلى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلى مَناخِرِهِمْ إلا حَصَائِدُ أَلسِنتِهِمْ!) [(١)].

واللسان له دور أساسي في بيان الخير والحق أو التمادي في الشر والباطل بالكتمان والتلبيس والتأويل والتحريف والكذب والتدليس، كما قال تعالى عن اليهود: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ آل عمران:٧٨. وقال: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ النساء:٤٦.

وقال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ النور:١٥.

وحفظ اللسان أن لا يخرج لفظة ضائعة، بل لا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة في دينه، فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر، هل فيها ربح أو فائدة أم لا؟ فان لم يكن فيها ربح أمسك عنها، وإن كان فيها ربح نظر، هل تفوته بها كلمة هي أربح منها فلا يضيعها بهذه؟ [(٢)].

---

(١) رواه الترمذي في الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة ٥/١١ (٢٦١٦) وأحمد ٥/٢٣١ (٢٢٠٦٩)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (١١٢٢).

(٢) الجواب الكافي لابن القيم ص١١٠ بتصرف.

قال ابن القيم: (الساكت عن الحق شيطان أخرس، عاص لله، مراء مداهن إذا لم يخف على نفسه، والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاص لله، وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته، فهم بين هذين النوعين، وأهل الوسط، وهم أهل الصراط المستقيم كفوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة، فلا يرى أحدهم أنه يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة، فضلا أن تضره في آخرته، وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها، ويأتي بسيئات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله ﷻ وما اتصل به) [(١)].

ومثال المتكلم بالباطل الذي يشبه الشيطان الناطق ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ النحل:٦٢. وقوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ ﴾ الفتح:١١.

وإذا أردت أن تستدل على ما في القلوب فاستدل عليه بحركة اللسان، فإنه يطلعك على ما في القلب، شاء صاحبه أم أبى، قال يحيى بن معاذ: (القلب كالقدور تغلي بما فيها، وألسنتها مغارفها، فانظر إلى الرجل حين يتكلم، فإن لسانه يغترف لك به مما في قلبه، حلو وحامض

---

(١) السابق ص١١٣ بتصرف.

وعذب وأجاج وغير ذلك، ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه)[١]. أي كما تطعم بلسانك فتذوق ما في قلبه من لسانه، كما تذوق ما في القدر بلسانك[٢].

• هل في حق اللسان كلام مباح متساوي الطرفين؟

قال ابن القيم: (اختلف السلف هل في حق اللسان كلام مباح متساوي الطرفين؟ على قولين: أحدهما أنه لا يخلو كل ما يتكلم به، إما أن يكون له أو عليه، وليس في حقه شيء لا له ولا عليه، واحتجوا بالحديث المشهور، وهو كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ما كان من ذكر الله وما والاه [٣]، واحتجوا بأنه يكتب كلامه كله، ولا يكتب إلا الخير والشر. وقالت طائفة: بل هذا الكلام مباح لا له ولا عليه، كما في حركات الجوارح، قالوا لأن كثيرا من الكلام لا يتعلق به أمر ولا نهي، وهذا شأن المباح، والتحقيق أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين، بل إما راجحة، وإما مرجوحة، لأن للسان شأنا ليس لسائر الجوارح، وإذا أصبح ابن آدم، فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان تقول: اتق الله، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا، وأكثر ما يكب الناس على مناخرهم في النار حصائد

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ١٠/٦٣.
(٢) الجواب الكافي لابن القيم ص١١٠ بتصرف.
(٣) روى الترمذي في كتاب الزهد ٤/٥٦١ (٢٣٢٢) عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم. وحسنه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٥١٧٦).

ألسنتهم، وكل ما يتلفظ به اللسان، فإما أن يكون مما يرضى الله ورسوله أو لا، فإن كان كذلك فهو الراجح، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح، وهذا بخلاف سائر الجوارح، فإن صاحبها ينتفع بتحريكها في المباح المستوى الطرفين لما له في ذلك من الراحة والمنفعة، فأبيح له استعمالها فيما فيه منفعة له، ولا مضرة عليه فيه في الآخرة، وأما حركة اللسان بما لا ينتفع به فلا يكون إلا مضرة فتأمله. فإن قيل: فقد يتحرك بما فيه منفعة دنيوية مباحة مستوية الطرفين، فيكون حكم حركته حكم ذلك الفعل، قيل: حركته بها عند الحاجة إليها راجحة، وعند عدم الحاجة إليها مرجوحة لا تفيده، فتكون عليه لا له. فإن قيل: فإذا كان الفعل متساوي الطرفين كانت حركة اللسان التي هي الوسيلة إليه كذلك إذ الوسائل تابعة للمقصود في الحكم. قيل: لا يلزم ذلك فقد يكون الشيء مباحا بل واجبا ووسيلته مكروهة، كالوفاء بالطاعة المنذورة هو واجب مع أن وسيلته وهو النذر مكروه منهي عنه) [(١)].

والتحقيق أن اللسان له وظيفتان كما سيأتي، أحدهما القول، والثاني العمل، فباعتبار القول فهو إما له وإما عليه، وباعتباره جارحة تتبع أعمال الجوارح فيسري عليها سائر الأحكام والمباح حكم منها والله تعالى أعلم، روى أحمد وحسنه الألباني من حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لاَ يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلاَ يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لسَانُهُ، وَلاَ يَدْخُل الجَنَّةَ رَجُل لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ) [(٢)].

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/١١٥ نشر دار الكتاب العربي بيروت.
(٢) أحمد ٣/١٩٨ (١٣٠٧١)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٤١).

وروى الترمذي وحسنه الشيخ الألباني من حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: (سُئِلَ رَسُول اللهِ ﷺ عَن أَكْثَرِ مَا يُدْخِلِ النَّاسَ الجَنَّةَ فَقَال تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الخُلقِ وَسُئِل عَن أَكْثَرِ مَا يُدْخِلِ النَّاسَ النَّارَ فَقَال الفَمُ وَالفَرْجُ) (١).

ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام، والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر، ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى يري الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا، يزل بالكلمة الواحدة بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم، ولسانه يجري في أعراضه الأحياء والأموات ولا يبالى ما يقول (٢).

وإذا أردت أن تعرف ذلك، فانظر إلى ما رواه مسلم من حديث جندب بن عبد الله ﷺ أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ حَدَّث أَنَّ رَجُلا قَال: وَاللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لفُلان، وَإِنَّ اللهَ تَعَالى قَال: مَنْ ذا الذي يَتَأَلى عَليَّ أَنْ لا أَغْفِرَ لفُلانٍ، فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لفُلانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلكَ (٣).

وروى أبو داود وصححه الألباني من حديث أبي هريرة ﷺ أنه

---

(١) رواه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق ٤/٣٦٣ (٢٠٠٤)، انظر السلسلة الصحيحة (٩٧٧).

(٢) الجواب الكافي لابن القيم ص١١١ بتصرف.

(٣) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والأدب، باب النهى عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى ٤/٢٠٢٣ (٢٦٢١) .

سمع رسول الله ﷺ يقول: (كَانَ رَجُلان فِي بَنِي إِسْرَائِيل مُتَوَاخِيَيْن، فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذنِبُ وَالآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي العِبَادَةِ، فكَانَ لا يَزَال الْمُجْتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلى الذنْبِ، فيَقُول: أَقْصِرْ، فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلى ذنْبٍ فَقَال لهُ: أَقْصِرْ، فقَال: خَلنِي وَرَبِّي أَبُعِثتَ عَليَّ رَقِيبًا، فقَال: وَاللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لكَ، أَوْ لا يُدْخِلكَ اللهُ الجَنَّةَ، فقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ العَالمِينَ، فقَال لهَذا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالمًا؟ أَوْ كُنْتَ عَلى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَال للمُذنِبِ: اذهَبْ فَادْخُل الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَال للآخَرِ: اذهَبُوا بِهِ إِلى النَّارِ. قَال أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: وَالذي نَفْسِي بِيَدِهِ لتَكَلمَ بِكَلمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ) (١).

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إِنَّ العَبْدَ ليَتَكَلمُ بِالكَلمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ، لا يُلقِي لهَا بَالا، يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ ليَتَكَلمُ بِالكَلمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لا يُلقِي لهَا بَالا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ) (٢). وعند البخاري من حديث أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤْذ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَليُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَليَقُل خَيْرًا أَوْ ليَصْمُتْ) (٣).

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب فى النهي عن البغي ٤/٢٧٥ (٤٩٠١)، وأحمد في المسند ٢/٣٢٣ (٨٢٧٥، وانظر مشكاة المصابيح (٢٣٤٧) .

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان ٥/٢٣٧٧ (٦١١٣) .

(١) رواه البخاري في الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ٥/٢٢٤٠ (٥٦٧٢).

وروى ابن ماجة من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي ﷺ أنه قال: (قُلتُ: يَا رَسُول اللهِ، حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ، قَال: قُل رَبِّيَ اللهُ ثمَّ اسْتَقِمْ، قُلتُ: يَا رَسُول اللهِ، مَا أَخْوَفُ مَا تَخافُ عَليَّ، فَأَخَذَ بِلسَانِ نَفْسِهِ ثمَّ قَال: هَذا) [1]. روى الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إذا أَصْبَحَ ابْن آدَمَ فَإِن الأَعْضَاءَ كُلهَا تُكَفِّرُ اللسَان فَتَقُول: اتَّقِ اللهَ فِينا، فَإِنمَا نحْن بِكَ، فَإِن اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنا، وَإِن اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنا) [2].

- حصائد اللسان تجمع من مخرجين اثنين يمثلان وظيفتي اللسان.

حصائد اللسان تجمع في الإنسان من مخرجين اثنين، أو باعثين يمثلان وظيفتي اللسان:

الوظيفة الأولى: إخراج ما في القلب من قول في منطقة حديث النفس، أو علم مخزون، أو عمل للآخرين، ويطلق على تلك الوظيفة قول اللسان، فقد خلق الله اللسان في الإنسان، وبه صار متكلما، فالكلام صفة كمال فيه، لأنه الوسيلة الأولى للتفاهم والتفاعل مع الآخرين، وعلى ذلك فإن حسن البيان صفة من صفات الكمال في

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة ١٣١٤/٢ (٣٩٧٢)، وصححه الألباني، انظر صحيح ابن ماجة (٣٩٧٢)، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام ٦٥/١ (٣٨) بلفظ: قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك قال: قل آمنت بالله فاستقم.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الزهد، باب ما جاء في حفظ اللسان ٦٠٥/٤ (٢٤٠٧)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٧١) .

الإنسان، وقد كان رسول الله ﷺ موصوفا بكمال البيان وفصاحة اللسان، فلقد أطل من الفصاحة على كل نهاية، وبلغ من البلاغة كل غاية، فلقد أوتي ﷺ سلامة الطبع، وبراعة المنزع، وعذوبة اللفظ، وحسن الإيراد وجزالة القول، وصحة المعاني مع إيجاز اللفظ وقلة التكلف، أوتى ﷺ جوامع الكلم، وبدائع الحكم، فلقد كان يخاطب كل حي من أحياء العرب بلغتهم، ولم يكن يقتصر على لغة واحدة، مع أنه إنما نشأ على لغة بني سعد وقريش، وكان يعرف لغات غيرهم، حتى كانوا يتعجبون منه ويقولون: ما رأينا بالذي هو أفصح منه، وهذا معلوم عند الفصحاء العرب العرباء، ويقف على معرفة ذلك بالذوق والمشاهدة من كان عارفا بلسان العرب ولغتهم، ووقف على شيء من كلامه معهم ومجاوبتهم [1].

روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (بُعِثتُ بِجَوَامِعِ الكَلِمِ، وَنصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنا أَنا نائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدِي) [2].

وقد حذر الشرع كل فصيح وصل إلى درجة عالية في التعبير وحسن البيان أن يستخدم ذلك لأكل أموال الناس بالباطل، والصد عن سبيل الله، سواء أكان بالقلم كما يفعل كثير مما يناصر المذاهب الهدامة في

---

(١) الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام للقرطبي ص٢٩٣بتصرف.

(٢) رواه البخاري في كتاب التعبير، باب المفاتيح في اليد ٦/٢٥٧٣ (٦٦١١)، ومسلم في كتاب المساجد ١/٣٧١ (٥٢٣).

كتبه ومقالاته، أو يعيب على سنة رسول ﷺ وعلى المتمسكين بها، أو كان ذلك باللسان.

وقد يكون بعض الخصماء يكون أعرف بالحجة، وأفطن لها من غيره، فيسمع القاضي من الدعوى والإجابة والبينة، أو اليمين ما يعتقد به صدق صاحبها، وأنه صادق فيما يعبر عن نيته، فيحكم له وهو باطل في نفس الأمر، فيقطع من مال أخيه قطعة من النار.

روى البخاري من حديث أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (إنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شيئا بقوله فإنما أقطع له قطعة من النار، فلا يأخذها) (١).

واللسان له المكانة الأولى في تبليغ الدعوة، وإقامة الحجة، ومن ثم فقد أرسل الله ﷻ رسله بلسان قويم، قوى في البيان، وميسر في إخراج الألفاظ التي تدل على المراد بأفضل ما يمكن، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ إبراهيم: ٤. ولو أرسلهم بألفاظ يصعب فهمها، أو بلغة أخرى غير لغة قومها ما حدث البيان، وما تمت الدعوة، ولذلك طلب موسى عليه السلام من ربه أن يلهمه القدرة على البيان وطلاقة اللسان، فقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ ﴾ طه: ٢٥/٢٨.

---

(١) البخاري في الشهادات، باب من أقام البينة بعد اليمين ٢/٩٥٢ (٢٥٣٤)، ومسلم في الأقضية، باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة ٣/١٣٣٧ (١٧١٣).

وقال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ الشعراء:١٢/١٣ .

وقال: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ القصص:٣٤/٣٥.

وقوله هو أفصح منى لسانا، أي في تبليغ المعنى المراد بطلاقة إلى فرعون وأتباعه ليقيم عليهم الحجة، وعلى ذلك فإن اللسان هو الوسيلة الأولى لإخراج ما في القلب من قول وعمل.

- لغة التخاطب وما يقوم مقام اللسان في الإنسان.

قول اللسان هو الأصل والأساس في لغة التخاطب، وقد جعل الله أمورا أخرى تضاف إلى قول اللسان، وتحل محله في حال عجزه عند البكم، أو تعطله عن القيام بدروه لآفة فيه، أو كثرة انشغاله وتعبه عند كثرة السائلين، تلك البدائل جعلها الله وسيلة تفاهم مع الآخرين، معبرة عما في داخل القلب، وإن كانت لا تصل إلى الكمال الذي وصل إليه اللسان، ومن تلك البدائل:

١- الكتابة: وهي اللسان الصامت الناطق بأحاديث النفس وخواطر القلب ومراداته. سواء وجد التخاطب الشفوي أو انعدم، والرسائل بأنواعها معبرة عن إرادة القلب الداخلية ونقلها إلى الآخرين، وبها تقام الحجة، وعليها يتم الحساب، فقد أرسل النبي ﷺ إلى هرقل رسالة قامت بها الحجة على قومه، روى البخاري من حديث ابن عباس ﷺ أن النبي

ﷺ أرسل رسالة إلى هرقل عظيم الروم جاء فيها:

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِن مُحَمَّدٍ عبد اللهِ وَرَسُولهِ إلى هِرَقْل عَظِيمِ الرُّومِ، سَلامٌ على من اتَّبَعَ الهُدَى، أَمَّا بَعْدُ فَإِني أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ، أَسْلمْ تَسْلمْ، يُؤْتِكَ الله أَجْرَكَ مَرَّتَيْن، فَإِن تَوَلَّيْتَ فإن عَليْكَ إِثمَ الأَرِيسِيِّين: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ آل عمران:٦٤) [(١)].

وقد ترتب على موقف هرقل من هذا اللسان الصامت في كتاب رسول الله ﷺ مصير جيل بأكمله، بل أجيال إلى وقتنا هذا، فقد ورد في الحديث بعد أن قرأ هرقل كتاب رسول الله ﷺ أنه أذن بعظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلق ثم اطلع فقال: (يا مَعْشَرَ الرُّومِ، هل لكُمْ في الفَلاحِ وَالرُّشْدِ، وَأَن يَثبُتَ مُلكُكُمْ، فَتُبَايِعُوا هذا النبي؟ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوَحْشِ إلى الأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قد غُلقَتْ، فلما رَأَى هِرَقْل نفْرَتَهُمْ، وَأَيِسَ من الإِيمَان قال: رُدُّوهُمْ عَليَّ، وقال: إني قلت مَقَالتِي آنفًا أَخْتَبِرُ بها شِدَّتَكُمْ على دِينكُمْ، فَقَدْ رأيت، فَسَجَدُوا له وَرَضُوا عنه،فكَان ذلك آخِرَ شَأْن هِرَقْل) [(٢)].

---

(١) البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي ١/٩ (٧)، ومسلم في الجهاد والسير، باب كتاب النبى إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ٣/١٣٩٦ (١٧٧٣).

(٢) البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء ١/١٠ (٧)، والدسكرة قصر حوله أو فيه منازل للخدم وأشباههم، وحاصوا نفروا وكروا، وحمر الوحش جمع حمار والوحش حيوان البر.

وكانت تلك الرسالة المكتوبة قولا بديلا عن اللسان، ولغة لإقامة الحجة على ملك الرومان ومن معه، ولو تصورنا استجابتهم لتلك الرسالة لتغيرت الأمور، ولكنها مشيئة الله ليعذبهم بعدله.

وعند البخاري أيضا في تقرير الفكرة وتوضيحها: (باب ما يذكر في المناولة، وكتاب أهل العلم بالعلم إلى البلدان) [(١)]. وقال أنس ﷺ: (نسخ عثمان المصاحف فبعث بها إلى الآفاق) [(٢)].

واحتج بعض أهل الحجاز في المناولة بحديث النبي ﷺ حيث كتب لأمير السرية كتاباً وقال: لا تقرأه حتى تبلغ مكان كذا وكذا، فلما بلغ ذلك المكان قرأه على الناس، وأخبرهم بأمر النبي ﷺ.

وقد بعث النبي ﷺ بكتابه رجلا، وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه، فحسبت أن ابن المسيب قال: فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزقوا كل ممزق [(٣)].

وعلى ذلك فإن الكتابة قول بديل للخطاب، وتوصيل المراد إلى الآخرين لاسيما عند عجز اللسان عن البيان.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم ١/٣٥.

(٢) رواه البخاري معلقاً في كتاب العلم، باب ما يذكر في المناولة وكتاب أهل العلم بالعلم إلى البلدان ١/٣٥، وانظر تغليق التعليق لابن حجر ٢/٧١ نشر المكتب الإسلامي، دار عمار بيروت، عمان، وقد روى البخاري قصة جمع القرآن في عهد عثمان في كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن ٤/١٩٠٨ (٤٧٠٢).

(٣) رواه البخاري في كتاب العلم، باب ما يذكر في المناولة وكتاب أهل العلم بالعلم إلى البلدان ١/٣٦ (٦٤).

٢- الإشارة باليد والرأس: وهما من البدائل التي تقوم مقام اللسان في الخطاب، وتقوم عليهما أحكام العبودية التي يحاسب عليها الإنسان، وقد أورد البخاري في كتاب العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس، واستدل لذلك بحديث ابن عباس ﷺ أنه قال: (سُئِلَ النبيُّ ﷺ في حَجَّتِهِ، فقال: ذبَحْتُ قبل أَن أَرْمِيَ، فَأَوْمَأَ بيده، قال ولا حَرَجَ، قال: حَلقْتُ قبل أَن أَذبَحَ، فَأَوْمَأَ بيده ولا حَرَجَ) [1].

ومعنى الحديث أن رسول الله ﷺ سئل أثناء الحج، فقال له السائل وكان يوم عيد الأضحى: ذبحت قبل أن أرمى الجمرات، فهل على شيء؟ فأشار النبي ﷺ إشارة بيده يفهم منها أنه لا حرج على من ذبح قبل الرمي، أو حلق قيل الذبح، أو قدم شيئاً على آخر. والشاهد من الحديث إطلاق القول على إشارة اليد، وأنها تقوم مقام اللسان.

وذكر البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (يُقْبَضُ العِلمُ، وَيَظْهَرُ الجَهْل وَالفِتَن، وَيَكْثُرُ الهَرْجُ، قِيل: يا رَسُول اللهِ، وما الهَرْجُ؟ فقال هَكَذا بيده فَحَرَّفَهَا، كَأَنه يُرِيدُ القَتْل) [2]. والشاهد أن النبي ﷺ أشار إشارة كأنه يضرب عنق إنسان وقد فهمها الجميع.

ومثله ما رواه البخاري من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما عندما انكسفت الشمس أنها قالت: (أَتَيْتُ عَائِشَةَ وَهِيَ تُصَلي فقلت: ما شَأْن الناس؟ فَأَشَارَتْ إلى السَّمَاءِ، فإذا الناس قِيَامٌ، فقالت:

---

(١) البخاري في العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس ١/٤٤ (٨٤)، ومسلم في الحج، باب من حلق قبل النحر أو نحر قبل الرمى ٢/٩٤٩ (١٣٠٦).
(٢) البخاري الموضع السابق ١/٤٤ (٨٥).

سُبْحَانَ اللهِ، قلت: آيَةٌ فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا، أَيْ نعم، فَقُمْتُ حتى تَجَلانِي الغَشْيُ، فَجَعَلتُ أَصُبُّ على رَأْسِي المَاءَ فَحَمِدَ اللهَ النبيُّ ﷺ وَأَثنى عليه، ثمَّ قال: ما من شَيْءٍ لم أَكُن أُرِيتُهُ إلا رَأَيْتُهُ في مَقَامِي حتى الجَنَةُ وَالنارُ، فَأُوحِيَ إلي أَنكُمْ تُفْتَنون في قُبُورِكُمْ، مِثل أو قَرِيبَ، لا أَدْرِي أَيَّ ذلك قالت أَسْمَاءُ، من فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّال)[1].

أجابت عائشة رضي الله عنها بالإشارة عن سؤال أسماء، وعن السبب في قيام الناس للصلاة في غير وقتها بما يفهم منه أن السبب هو كسوف الشمس، ولما سألتها أسماء: هل كسوف الشمس آية أو علامة للصلاة التي يصليها الناس؟ فأجابت بالإشارة برأسها ما يفهم به الجواب عن سؤالها، فقامت وتوضأت ووقفت في الصف.

- النطق بالشهادتين أول العبوديات المتعلقة باللسان.

اللسان تتعلق به أحكام التكليف التي يشملها توحيد العبادة، منها أحكام لا يسع أحد من المسلمين تركها، ولا بد من إظهارها بقول اللسان، أو ما يقوم مقامه من بدائل في الإنسان، ومنها ما هو مندوب مستحب وفق التنوع في أحكام العبودية اللازمة للمقتصدين والسابقين.

وأول العبوديات المتعلقة باللسان ضرورة النطق بالشهادتين، شهادة ألا إله إلا الله، وشهادة أن محمدا رسول الله، فالشهادتان من قول اللسان ولا بد من إقراره كشرط للإسلام، ومعلوم أن الإسلام مبنى على خمسة

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس ١/٤٤ (٨٦)، ومسلم في كتاب الكسوف، باب ما عرض على النبى ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار ٢/٦٢٤ (٩٠٥).

أركان تمثل الشهادتان أساس البناء فيه، فإن امتنع اللسان عن النطق بالشهادتين فليس بمسلم، وإن نطق بها فقد عصم ماله ودمه إلا بحقها وحسابه على الله ﷻ.

روى مسلم من حديث عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: (بَينمَا نَحْن عِندَ رَسول اللهِ ﷺ ذاتَ يومٍ، إذ طَلَعَ عَلينا رَجُل، شدِيدُ بَياضِ الثياب، شدِيدُ سوَادِ الشعَرِ، لا يرَى عَليهِ أَثرُ السفَرِ، ولا يعْرفُهُ منا أَحَدٌ، حَتَّى جَلس إلى النبِي ﷺ، فَأَسندَ رُكْبَتَيهِ إلى رُكْبَتَيهِ، وَوَضعَ كَفَّيهِ عَلى فَخِذَيهِ، وقَال: يا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْني عَنِ الإِسلامِ؟ فَقَال رَسول اللهِ ﷺ: الإِسلامُ أَن تَشهَدَ أَن لا إِلهَ إِلا اللهُ، وأَن مُحَمَّدًا رَسول اللهِ ﷺ، وتُقِيمَ الصَّلاةَ، وتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وتَصُومَ رَمَضَان، وتَحُجَّ البَيتَ، إِن استَطَعْتَ إِليهِ سبِيلا. قَال: صَدَقْتَ) [(١)].

وعند البخاري من حديث أُسامَةَ بْن زيد ﷺ قَال: (بَعثنا رسول اللهِ ﷺ فِي سرية، فَأَدركْت رجلا فقَال: لا إِلهَ إِلا اللهُ، فَطَعنتُهُ، فوقَع فِي نفْسي مِن ذلكَ، فذكَرتهُ للنبِي ﷺ، فقَال رسولُ اللهِ ﷺ: أَقَال لا إِلهَ إِلا اللهُ وقَتلتهُ؟ قَال قُلت: يا رسول اللهِ، إنمَا قَالهَا خَوفًا مِن السلاح، قَال: أَفَلا شَقَقْت عن قَلبِهِ حتى تعلمَ أَقَالهَا أَمْ لا؟ فمَا زال يكَررهَا علي حتى تمَنيت أَني أَسلمْت يومَئذ) [(٢)].

وروى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولوا لا إِلَهَ إِلا اللهُ، فَمَنْ قَال لا إِلهَ إِلا

(١) مسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ٣٦/١ (٨).
(٢) البخاري في الديات، باب قول الله تعالى ومن أحياها ٢٥١٩/٦ (٦٤٧٨).

اللهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي نَفْسَهُ وَمَالَهُ إِلا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلى اللهِ) [(١)].

قال ابن أبي العز: (ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا اله إلا الله، لا النظر، ولا القصد إلى النظر، ولا الشك كما هي أقوال لأرباب الكلام المذموم، بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان، ومتفقون على أن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عقيب بلوغه، بل يؤمر بالطهارة والصلاة إذا بلغ أو ميز عند من يرى ذلك، ولم يوجب أحد منهم على وليه أن يخاطبه حينئذ بتجديد الشهادتين، وإن كان الإقرار بالشهادتين واجبا باتفاق المسلمين، ووجوبه يسبق وجوب الصلاة، لكن هو أدى هذا الواجب قبل ذلك، وهنا مسائل تكلم فيها الفقهاء كمن صلى ولم يتكلم بالشهادتين، أو أتى بغير ذلك من خصائص الإسلام ولم يتكلم بهما، هل يصير مسلما أم لا؟ والصحيح أنه يصير مسلما بكل ما هو من خصائص الإسلام، فالتوحيد أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا، كما قال النبي ﷺ من كان آخر كلامه لا اله إلا الله دخل الجنة، وهو أول واجب، وآخر واجب) [(٢)].

وأول ما في حديث جبريل سؤاله عن الإسلام، فأجابه بأن الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، وهذه الخمس هي المذكورة في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلى

---

(١) البخاري في الجهاد والسير، باب دعاء النبي إلى الإسلام ١٠٧٧/٣ (٢٧٨٦).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٧٥.

خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ البَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ) (١).

وهذا قاله النبي ﷺ بعد أن فرض الله الحج، فلهذا ذكر الخمس، وأكثر الأحاديث لا يوجد فيها ذكر الحج، كما ورد عند البخاري من حديث أبي جَمْرَةَ أنه قال: (كُنْتُ أَقْعُدُ مَعَ ابْنِ عَبَّاسٍ، يُجْلِسُنِي عَلَى سَرِيرِهِ، فَقَالَ: أَقِمْ عِنْدِي حَتَّى أَجْعَل لك سَهْمًا مِنْ مَالِي، فَأَقَمْتُ مَعَهُ شَهْرَيْنِ، ثمَّ قَالَ: إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ القَيْسِ لَمَّا أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ قَال: مَنْ القَوْمُ أَوْ مَنْ الوَفْدُ؟ قَالوا: رَبِيعَةُ، قَال: مَرْحَبًا بِالقَوْمِ أَوْ بِالوَفْدِ غَيْرَ خَزَايَا وَلا نَدَامَى، فَقَالوا: يَا رَسُول اللهِ، إِنَّا لا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيكَ إلا فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ، نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا، وَنَدْخُل بِهِ الجَنَّةَ) (٢).

وحديث وفد عبد القيس من أشهر الأحاديث وأصحها، ووفد عبد القيس من خيار الوفد الذين وفدوا على النبي ﷺ، وقدومهم على النبي ﷺ كان قبل فرض الحج (٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (تنازع العلماء في تكفير من يترك شيئا من هذه الفرائض الأربع بعد الإقرار بوجوبها، فأما الشهادتان إذا لم

---

(١) البخاري في الإيمان، باب الإيمان وقول النبي ﷺ بني الإسلام على خمس ١/١٢ (٨)، ومسلم في الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه ١/٤٥ (١٦).
(٢) البخاري في الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان ١/٢٩ (٥٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله ١/٤٧ (١٧).
(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/٥٩٨.

يتكلم بهما مع القدرة، فهو كافر باتفاق المسلمين، وهو كافر باطنا وظاهرا عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير علمائها، وذهبت طائفة من المرجئة، وهم جهمية المرجئة كجهم والصالحي وأتباعهما إلى أنه إذا كان مصدقا بقلبه، كان كافرا في الظاهر دون الباطن، وأصل هذا القول هو قول مبتدع في الإسلام، لم يقله أحد من الأئمة) (١).

وقال ابن تيمية: (الإسلام الذي هو دين الله الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله، هو أن يسلم العبد لله رب العالمين، فيستسلم لله وحده لا شريك له، ويكون سالما له، بحيث يكون متألها له غير متأله لما سواه، كما بينته أفضل الكلام ورأس الإسلام، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، وله ضدان الكبر والشرك، فإن المستكبر عن عبادة الله لا يعبده، فلا يكون مستسلما له، والذي يعبده ويعبد غيره يكون مشركا به، فلا يكون سالما له، بل يكون له فيه شرك) (٢).

والشهادتان هما الركن الأعظم في الإسلام والإيمان، والركن في اللغة الجانب الأقوى، وهو بحسب ما يطلق فيه، كركن البناء، وركن القوم، ونحو ذلك، فمن الأركان ما لا يتم البناء إلا به، ومنها ما لا يقوم بالكلية إلا به، وإنما قيل لهذه الخمسة الأمور أركان ودعائم لقوله ﷺ بني الإسلام على خمس، فشبهه بالبنيان المركب على خمس دعائم، وهذا الركن هو أصل الأركان الباقية، والأساس الذي لا يقوم البناء إلا عليه ولا يمكن إلا به، ولا يحصل بدونه، وهو الطريق الواضح، والصراط

---

(١) السابق ٧/٦٠٩.

(٢) السابق ٧/٦٢٣.

المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، ولا غبار عليه، من سلكه أوصله إلى جنات النعيم، ومن انحرف عنه هوى في قعر الجحيم، فإن من لم يثبت عليه في الدنيا لم يثبت على جسر جهنم يوم القيامة.

وذلك الركن هو الشهادتان، فلا يدخل العبد في الإسلام إلا بهما، ولا يخرج منه إلا بمناقضتهما، إما بجحود لما دلتا عليه، أو باستكبار عما استلزمتاه، ولهذا لم يدع الرسول ﷺ إلى شيء قبلهما، ولم يقبل الله تعالى ولا رسول الله ﷺ من أحد شيئا دونهما، فبالشهادة الأولى يعرف المعبود وما يجب له، وبالثانية يعرف كيف يعبده، وبأي طريق يصل إليه، ففي الشهادة الأولى توحيد المعبود الذي ما خلق الخلق إلا ليعبدوه وحده لا شريك له، وفي الشهادة الثانية توحيد الطريق الذي لا يوصل إلى الله تعالى إلا منه [١].

- الدعاء والنداء والاستغاثة من العبوديات المتعلقة باللسان.

أصل الدعاء أو النداء يكون بقول اللسان، وهو إمالة الشيءَ إليك بكلام يكون منك طلبا أو نداءً، أو رغبة أو رجاءً أو سؤالا وابتهالا، يقال: دعا الرجل دعوا ودعاء ناداه، والاسم الدعوة، ودعوت فلانا، أي صحت به واستدعيته [٢].

وهو داع وهم دعاة ينادون في الناس بتوحيد الله وعبادته، وعند البخاري من حديث جابر ﷺ أن الملائكة قالت عن النبي ﷺ: (إنَّ لصَاحِبِكُمْ هَذا مَثَلاً فَاضْرِبُوا لهُ مَثلا.. فَقَالوا: مَثلهُ كَمَثل رَجُل بَنَى

(١) معارج القبول لحافظ بن أحمد حكمي ٦١٩/٢بتصرف.
(٢) معجم مقاييس اللغة ٢٧٩/٢، ولسان العرب ٢٥٧/١٤.

دَارًا، وَجَعَل فِيهَا مَأْدُبَةً وَبَعَث دَاعِيًا فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَل الدَّارَ وَأَكَل مِنَ المَأْدُبَةِ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُل الدَّارَ وَلَمْ يَأْكُل مِنَ المَأْدُبَةِ، فَقَالوا: أَوِّلوهَا لهُ يَفْقَهْهَا، فَقَال: بَعْضُهُمْ إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَال بَعْضُهُمْ: إِنَّ العَيْنَ نَائِمَةٌ وَالقَلبَ يَقْظَانُ، فَقَالوا: فَالدَّارُ الجَنَّةُ وَالدَّاعِي مُحَمَّدٌ ﷺ فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا ﷺ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا ﷺ فَقَدْ عَصَى اللهَ وَمُحَمَّدٌ ﷺ فَرْقٌ بَيْنَ النَّاسِ) [(١)] .

والتداعي أن يدعو بعضهم بعضا للاجتماع على شيء، وعند أبي داود وصححه الألباني من حديث ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلةُ إِلى قَصْعَتِهَا.. الحديث) [(٢)]. ويُقال: دعوتُ الله أدعوه دعاءً، ابتهلت إليه بالسؤال، ورغبت فيما عنده من الخير، ودعا لفلان طلب له الخير، ودعا على فلان طلب له الشر [(٣)] .

أما الدعاء من جهة الشرع فقد عرفه الخطابي بقوله: (معنى الدعاء استدعاء العبدِ ربَّه عز وجل العناية، واستمدادُه منه المعونة، وحقيقته إظهار الافتقار إلى الله تعالى والتبرّؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية واستشعارُ الذلة البشريَّة، وفيه معنى الثناء على الله عز وجل، وإضافة الجود والكرم إليه) [(٤)]. والدعاء يرد في القرآن والسنة على عدة معاني:

---

(١) البخاري في الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ٦/٢٦٥٥ (٦٨٥٢).

(٢) أبو داود في الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام ٤/١١١ (٤٢٩٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/٦٤٧ (٩٥٨).

(٣) المعجم الوسيط ١/٢٨٦ نشر دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية.

(٤) شأن الدعاء للخطابي ص٤.

١- النداء: وهو قول اللسان كما في قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ ﴾ الأنفال:٢٤. وعند البخاري من حديث سعيد بن المعلى رضي الله عنه أنه قال: (كُنْتُ أُصَلي في المَسْجِدِ فَدَعَانِي رَسُول اللهِ ﷺ فَلمْ أُجِبْهُ، فَقُلتُ: يَا رَسُول اللهِ إِنِّي كُنْتُ أُصَلي، فَقَال: أَلمْ يَقُل اللهُ: اسْتَجِيبُوا للهِ وَللرَّسُول إِذا دَعَاكُمْ) [١] .

٢- الطلب والسؤال: وهو قول اللسان كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦ ﴾ البقرة: ١٨٦. وقوله سبحانه: ﴿ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦ ﴾ طه:٣٦ .

وعند البخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ قَال حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللهُمَّ رَبَّ هَذهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، وَالصَّلاَةِ القَائِمَةِ، آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلةَ وَالفَضِيلةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الذي وَعَدْتَهُ، حَلتْ لهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ) [٢].

وعند مسلم من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إذا سَمِعْتُمُ المُؤَذنَ، فَقُولوا مِثل مَا يَقُول، ثمَّ صَلوا عَلي؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلى عَلي صَلاَةً، صَلى اللهُ عَليْهِ بِهَا عَشْرًا، ثمَّ سَلوا اللهَ ليَ الوَسِيلةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلةٌ فِي الجَنَّةِ لاَ تَنْبَغِي إِلاَّ لعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَل ليَ الوَسِيلةَ حَلتْ لهُ الشَّفَاعَةُ) [٣] .

---

(١) البخاري في التفسير، باب ما جاء في فاتحة الكتاب ٤/١٦٢٣ (٤٢٠٤).

(٢) البخاري في الأذان، باب الدعاء عند النداء ١/٢٢٢ (٥٨٩) .

(٣) مسلم في الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن ١/ ٢٨٨ (٣٨٤) .

٣- العبادة: وتكون بالقلب واللسان وعمل الجوارح روى الترمذي وصححه الألباني من حديث النعمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (الدُّعَاءَ هُوَ العِبَادَةُ، ثمَّ قَرأَ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ غافر:٦٠) [(١)].

٤- الاستغاثة: وهي قول اللسان قال تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ الأنفال:٩.

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ الأحقاف:١٧.

قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ الكهف:٢٩. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ الأنعام:٤٠/٤١.

وورد الدعاء بمعان أخرى أغلبها يعود لما سبق كالحث على الشيء والاستفهام والقول والتسمية وغيرها [(٢)].

والمسألة لغة أصلها استدعاء الشيء وطلب معرفته، والسؤال عنه

(١) الترمذي في التفسير، باب ومن سورة المؤمن ٣٧٤/٥ (٣٢٤٧)، وصححه الألباني، انظر صحيح الترغيب والترهيب (١٦٢٧).

(٢) لسان العرب ٢٥٨/١٤ ، والمفردات ص١٧٠، وفتح الباري ٩٤/١١ .

بالمقال والحال، فاستدعاء المال أو ما يؤدي إليه طلبه، والحرص عليه، وسؤال الآخرين منه، واستدعاء المعرفة طلبها والحرص على حصولها، روى الترمذي وصححه الألباني من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبي ﷺ قال: (لاَ تَحِلِ المَسْأَلَةُ لغَنِي، وَلاَ لذي مِرَّةٍ سَوِي) [1].

وعند البخاري من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: (بَيْنَمَا نَحْنُ جُلوسٌ مَعَ النَّبِي ﷺ فِي المَسْجِدِ دَخَل رَجُل عَلى جَمَل فَأَنَاخَهُ فِي المَسْجِدِ، ثمَّ عَقَلَهُ، ثمَّ قَال لهُمْ: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ؟ وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ، فَقُلْنَا: هَذا الرَّجُل الأَبْيَضُ المُتَّكِئُ، فَقَال لهُ الرَّجُل: ابْنَ عَبْدِ المُطَّلبِ؟ فقَال لهُ النَّبِيُّ ﷺ: قَدْ أَجَبْتُك، فقَال الرَّجُل للنَّبِيِّ ﷺ: إِنِّي سَائِلك فَمُشَدِّدٌ عَليْك فِي المَسْأَلةِ فَلاَ تَجِدْ عَلي فِي نَفْسِك، فقَال: سَل عَمَّا بَدَا لك؟ فقَال: أَسْأَلك بِرَبِّك، وَرَبِّ مَنْ قَبْلك، آللهُ أَرْسَلك إِلى النَّاسِ كُلهِمْ؟ فقَال: اللهُمَّ نَعَمْ .. الحديث) [2] .

والسؤال إن كان من العبد لربه كان طلبا ورجاء، ومدحا وثناء، ورغبة ودعاءا واضطرارا والتجاء، وإن كان من الله لعبده كان تكليفا وابتلاءا، ومحاسبة وجزاءا وتشريفا وتعريفا.

• دعاء المسألة ودعاء العبادة من عبوديات اللسان أو بدائله.

أمر الله ﷻ عباده أن يدعوه بأسمائه الحسنى فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ

(١) رواه الترمذي في كتاب الزكاة، باب ما جاء من لا تحل له الصدقة ٣/٤٢ (٦٥٢)، وصححه الألباني، انظر إرواء الغليل (٨٧٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم، باب ما جاء في العلم ١/٣٥ (٦٣).

(١٨٠)﴾ الأعراف:١٨٠. قال الإمام القرطبي: (فادعوه بها، أي اطلبوا منه بأسمائه، فيطلب بكل اسم ما يليق به، تقول: يا رحيم ارحمني، يا حكيم احكم لي، يا رزاق ارزقني) [١] .

وقال ابن القيم في معنى الدعاء بها: (وهو مرتبتان: إحداهما دعاء ثناء وعبادة، والثاني دعاء طلب ومسألة، فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وكذلك لا يسأل إلا بها، فلا يقال يا موجود، أو يا شيء، أو يا ذات اغفر لي وارحمني؛ بل يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضيا لذلك المطلوب؛ فيكون السائل متوسلا إليه بذلك الاسم، ومن تأمل أدعية الرسل ولاسيما خاتمهم وإمامهم وجدها مطابقة لهذا) [٢] .

ويمكن القول إن أمره تعالى للمكلفين أن يدعوه بأسمائه الحسنى يشمل المعاني السابقة للدعاء التي وردت في الكتاب والسنة، وهي نداء الله بها قولا باللسان، والطلب والسؤال بذكرها، والثناء عليه ومدحه بها، وظهور الداعي بسلوك العبودية الذي يوحد الله في كل اسم منها، وبصورة أخرى يصح القول بأن دعاء الله بأسمائه يكون بلسان المقال، أو بلسان الحال، فلسان المقال هو المدح والثناء والطلب والسؤال، ولسان الحال هو الخضوع وتوحيد العبودية لله في الأقوال والأفعال، وعلى هذا المعنى قسم المحققون من العلماء ما ورد في الآية من الأمر بالدعاء إلى نوعين اثنين:

---

(١) تفسير القرطبي ٧/٣٢٧ ، وانظر تفسير الواحدي ١/ ٤٢٣.
(٢) بدائع الفوائد لابن القيم ١/١٧٢.

الأول: دعاء مسألة ويكون بلسان المقال، وهو طلب ما ينفع الداعي من جلب منفعة أو دفع مضرة، فيسأل الله بأسمائه الحسنى التي تناسب حاجته وحاله ومطلبه، ويتوسل إلى الله بذكرها، وذكر ما تضمنته من كمال الأوصاف وجلالها، فيردد في دعائه من أسماء الله ما يناسبه عند تقلب الأحوال، ويظهر في دعائه وأقواله إيمانه بالتوحيد وأوصاف الكمال، ففي حال فقره يدعو ويستعين ويثني ويستغيث بالمعطي الجواد المحسن الواسع الغني، وفي حال ضعفه يبتهل إلى القادر القدير المقتدر المهيمن القوي وفي حال الذلة وقلة الحيلة يناسبه أن يلتجأ في دعائه وابتهاله إلى ربه بذكر أسمائه العزيز الجبار المتكبر الأعلى المتعالي العلي .

وعند الندم بعد الخطأ واقتراف الذنب يناسبه الدعاء باسمه الرحمن الرحيم اللطيف التواب الغفور الغفار الحيي الستير، وفي حال السعي والكسب يدعو الرازق الرزاق المنان السميع البصير، وفي حال الجهل والبحث عن أسباب العلم والفهم يناسبه الدعاء باسمه الحسيب الرقيب العليم الحكيم الخبير، وفي حال الحرب وقتال العدو فنعم المولى ونعم النصير، وهكذا يدعو ويتوسل ويبتهل ويتضرع إلى ربه بذكر ما يناسب مقامه وموضعه وحاله وما ينفعه من أسماء الله الحسنى، أو بعبارة أخرى يقدم بين يدي سؤاله الثناء على الله بأسمائه وأوصافه وأفعاله ما يتناسب مع أحواله، فيثني على الله ويلح في التجائه وندائه، ويصدق في مناجاته وسؤاله ودعائه .

الثاني: دعاء العبادة ويكون بلسان الحال، وهو تعبد لله يظهر

التوحيد في كل اسم من أسمائه، وكل وصف من أوصافه، فهو دعاء سلوكي ومظهر أخلاقي، وحال إيماني، يبدوا فيه المسلم موحدا لله في كل اسم من الأسماء الحسنى بحيث تنطق أفعاله أنه لا معبود بحق سواه، وتسابق أقواله في شهادته ألا إله إلا الله، وأنه سبحانه المتوحد في أسمائه وأوصافه، لا سمي له في علاه، فقد يكون العبد الموحد في ذروة غناه مبتلى بالمال فيما استخلفه الله واسترعاه؛ فيظهر بمظهر الفقر والتواضع لعلمه أن الله هو الغني المتوحد في غناه، وأن المال ماله وهو مستخلف عليه، مخول فيه، مبتلى به في هذه الحياة، فتجده يلين لإخوانه، ولا يُعرف بينهم بالغني من شدة توحيده وإيمانه .

ولو كان الموحد شريفا حسيبا عليا نسيبا بدت عليه بدعاء العبادة مظاهر الذل والافتقار، وخضع بجنانه وبنيانه وكيانه إلى الحسيب الجبار القهار المتعال، لعلمه أن المتوحد في الحسب والكبرياء وما تضمنته هذه الأسماء هو الله، وأن الحسيب لا يكون حسيا إذا عبد هواه أو تكبر واستعلى على خلق الله، فسلوكه سلوك المخلصين من العبيد، وأفعاله بدعاء العبادة تنطق بشهادة التوحيد.

والمقصود بدعاء العبادة هو أثر أسماء الله ﷻ على اعتقاد العبد وأقواله وأفعاله بحيث يراعي في سلوكه توحيد العبودية لله في كل اسم أو وصف على حدة، فهو دعاء بلسان الحال أو دعاء سلوكي ومظهر أخلاقي وحال إيماني يبدو فيه المسلم موحدا لله في كل اسم من الأسماء الحسنى بحيث تنطق أفعاله أنه لا معبود بحق سواه، وأنه بفعله هذا يشهد ألا إله إلا الله، فالغَني يَظهر في سلوكه بمظهر الفقر توحيدا لله في اسمه

الغني، والقوي يظهر بمظهر الضعف توحيدا لله في اسمه القوي، وهكذا يراعي كل اسم من أسماء الله في سلوكه دعاء وتعظيما وخشية وإجلالا.

وقد أفرد ابن القيم رحمه الله فصلا في بيان دعاء العبادة ودعاء المسألة، وبين أن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما، وهما متلازمان فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره أو دفعه، وكل من يملك الضر والنفع فإنه المعبود حقا، والمعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضرر، ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه مالا يملك ضرا ولا نفعا؛ لأن المعبود يدعى للنفع والضر دعاء مسألة، ويدعي خوفا ورجاء دعاء عبادة؛ فعلم أن النوعين متلازمان؛ فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة [١].

• دور اللسان وأهميته في عبودية دعاء المسألة والعبادة.

إذا كان مدح المخلوق قبل سؤاله بذكر القليل من أوصاف كماله يعد سببا للإجابة وتحقيق المطلوب؛ فإن مدح الخالق قبل سؤاله بذكر أسمائه وصفاته وأفعاله يعد أساسا متينا في دعاء المسألة من باب أولى، لاسيما أن المخلوق يمدح بوصف مكتسب زائل لا يدوم، وربما يمدح بما لا يستحق، وربما يمدح نفاقا وكذبا، كما أن مدح المسئول قبل السؤال يعود النفع فيه على السائل والمسئول، أما رب العزة والجلال فما زال بأسمائه وصفاته أولا قبل خلقه، لم يزدد بكونهم شيئا لم يكن قبلهم

---

(١) السابق ٣/٥١٣ بتصرف .

من صفته، وكما كان بأسمائه وصفاته أزليا كذلك لا يزال عليها أبديا، هو الغني بذاته عن العالمين، كل شيء إليه فقير، وكل أمر عليه يسير، لا يحتاج إلى شيء، وهو كما قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ الشورى:١١. فالله ﷻ أهل الثناء والمجد، مهما بالغت في مدحه فلن توفيه شيئا من حقه.

كما أن المادح لربه هو المستفيد من ثنائه ومدحه، أما رب العزة والجلال فهو غني عن مدح العالمين، ولما أمرنا سبحانه أن نمدحه ونسأله وندعوه فإن ذلك لنفعنا وليس لنفعه ﷻ، روى مسلم من حديث أبي ذر ؓ أن النبي ﷺ قال فيما روى عن الله تبارك وتعالى: (يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلمَ عَلى نَفْسِي وَجَعَلتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالمُوا، يَا عِبَادِي كُلكُمْ ضَال إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ.. الحديث) [١] .

وقد وردت نصوص نبوية كثيرة تدل على أن الداعي يتوجب عليه أن يثني على ربه قبل السؤال والدعاء، وأن يصلي أيضا على خاتم الأنبياء ﷺ، روى أبو داود وصححه الشيخ الألباني من حديث فضالة بين عبيد ؓ أنه قال: (سَمِعَ رَسُول اللهِ ﷺ رَجُلا يَدْعُو فِي صَلاتِهِ، لمْ يُمَجِّدِ اللهَ تَعَالى، وَلمْ يُصَل عَلى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَال رَسُول اللهِ ﷺ: عَجِل هَذا ثُمَّ دَعَاهُ فَقَال لهُ أَوْ لغَيْرِهِ: إِذا صَلى أَحَدُكُمْ، فَليَبْدَأْ بِتَمْجِيدِ رَبِّهِ جَل

(١) مسلم في كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الظلم ١٩٩٤/٤ (٢٥٧٧) .

وَعَزَّ وَالثنَاءِ عَلَيْهِ، ثمَّ يُصَلي عَلى النَّبِيِّ ﷺ ثمَّ يَدْعُو بَعْدُ بِمَا شَاءَ)[1].

وروى النسائي وصححه الشيخ الألباني من حديث زيد بن خارجة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (صَلوا عَليَّ وَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، وَقُولوا: اللهُمَّ صَل عَلى مُحَمَّدٍ، وَعَلى آل مُحَمَّدٍ)[2] .

وروى الترمذي وحسنه الشيخ الألباني من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قَال: (كُنْتُ أُصَلي وَالنَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ مَعَهُ، فَلمَّا جَلسْتُ بَدَأْتُ بِالثنَاءِ عَلى اللهِ، ثمَّ الصَّلاةِ عَلى النَّبِيِّ ﷺ، ثمَّ دَعَوْتُ لنَفْسِي، فَقَال النَّبِيُّ ﷺ: سَل تُعْطَهْ، سَل تُعْطَهْ)[3] .

والله ﷻ يحب أن يثني عليه عبده بأسمائه وصفاته قبل سؤاله ودعائه، روى البخاري من حديث ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لاَ أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ وَلذلكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلاَ شَيْءَ أَحَبُّ إِليْهِ المَدْحُ مِنَ اللهِ لذلكَ مَدَحَ نَفْسَهُ)[4] .

وفي حديث الشفاعة عند البخاري من حديث أنس بن مالك ﷺ أن

---

(١) أبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء ٢/٧٧ (١٤٨١)، وانظر صفة الصلاة للشيخ الألباني ص١٨١ نشر مكتبة المعارف للنشر والتوزيع الرياض.

(٢) النسائي في كتاب صفة الصلاة ١/٣٨٣ (١٢١٥)، وصححه الألباني وانظر صحيح الجامع (٣٧٨٣).

(٣) الترمذي في أبواب السفر، باب ما ذكر في الثناء على الله والصلاة على النبي ٢/٤٨٨ (٥٩٣)، وحسنه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٩٣١) .

(٤) البخاري في التفسير، باب قوله ولا تقربوا الفواحش ٤/ ١٦٩٦ (٤٣٥٨)، ومسلم في التوبة، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش ٤/٢١١٣ (٢٧٦٠).

النبي ﷺ قال: (فَيَأْتُونِي فَأَسْتَأْذِنُ عَلى رَبِّي فِي دَارِهِ فَيُؤْذَنُ لي عَلَيْهِ، فَإِذا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا؛ فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَنِي، فَيَقُول: ارْفَعْ مُحَمَّدُ، وَقُل يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَل تُعْطَ، قَال: فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأُثْنِي عَلى رَبِّي بِثَنَاءٍ وَتَحْمِيدٍ يُعَلمُنِيهِ) (١).

وعند مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: (اللهُمَّ أَعُوذ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذ بِكَ مِنْكَ، لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلى نَفْسِكَ) (٢).

وأنواع التوسل التي شرعها الله تعالى لعباده وحث عليها ثلاثة أنواع أعلاها وأشرفها التوسل إليه بأسمائه الحسنى وصفاته وأفعاله وذلك قول اللسان، كما في قول يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ يوسف:١٠١ .

وعند مسلم من حديث علي رضي الله عنه في دعاء النبي ﷺ إذا قام إلى الصلاة: (اللهُمَّ أَنْتَ المَلكُ لاَ إِلهَ إِلاَّ أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ظَلَمْتُ نفسي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا إِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ .. الحديث) (٣) .

وروى النسائي وصححه الشيخ الألباني من حديث محجن بن

---

(١) البخاري في التوحيد، باب قوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة ٢٧٠٨/٦ (٧٠٠٢)، ومسلم في الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ١٨٣/١ (١٩٣).
(٢) مسلم في الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود ٣٥٢/١ (٤٨٦) .
(٣) مسلم في صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ٥٣٥/١ (٧٧١).

الأدرع ﷺ أنه قال: (دَخَل رَسُول اللهِ ﷺ المَسْجِدَ إذا رَجُل قَدْ قَضَى صَلاَتَهُ وَهُوَ يَتَشَهَّدُ، فَقَال: اللهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ يَا أَللهُ بِأَنَّكَ الوَاحِدُ الأَحَدُ الصَّمَدُ الذي لَمْ يَلدْ وَلَمْ يُولدْ وَلَمْ يَكُنْ لهُ كُفُواً أَحَدٌ أَنْ تَغْفِرَ لي ذنُوبِي إنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ، فَقَال رَسُول اللهِ ﷺ: قَدْ غُفِرَ لهُ ثلاَثاً) (١) .

ومن ذلك أيضا ما رواه النسائي وصححه الألباني من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: (كُنْتُ مَعَ رَسُول الله ﷺ جَالسًا وَرَجُل قَائِمٌ يُصَلي، فَلمَّا رَكَعَ وَسَجدَ وَتَشَهَّدَ دَعَا فَقَال فِي دُعَائِهِ: اللهمَّ إنِّي أَسْأَلك بِأَنَّ لك الحَمْدَ، لاَ إلهَ إلاَّ أَنْتَ المَنَّانُ، بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، يَا ذا الجَلاَل وَالإِكْرَام، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ إنِّي أَسْأَلكَ، فَقَال النَّبِيُّ ﷺ لأَصْحَابِهِ: تَدْرُونَ بِمَا دَعَا؟ قَالوا: اللهُ وَرَسُولهُ أَعْلمُ، قَال: وَالذي نَفْسِي بِيَدِهِ، لقَدْ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ العَظِيمِ الذي إذا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذا سُئِل بِهِ أَعْطَى) (٢) .

والقصد أن الدعاء من قول اللسان ووظائفه، وهو عبودية لله تعالى وافتقار إليه، وتذلل بين يديه، فكلما كثره العبد وطوله وأعاده وأبداه ونوع جمله كان ذلك أبلغ في عبوديته وإظهار فقره وتذلله وحاجته وكان ذلك أقرب له من ربه وأعظم لثوابه، وهذا بخلاف المخلوق؛ فإنك كلما كثرت سؤاله وكررت حوائجك إليه أبرمته وأثقلت عليه وهان أمرك بين يديه، وكلما تركت سؤاله كان أعظم عنده وأحب

---

(١) النسائي في التعبير ٣٩٤/٤ (٧٦٦٥)، وأحمد في المسند ٣٣٨/٤ (١٨٩٩٥) وصححه الألباني انظر صحيح ابن ماجة (٣٨٥٨.

(٢) النسائي في صفة الصلاة،باب الدعاء بعد الذكر ٣٨٦/١ (١٢٢٣)، وأحمد في المسند ٢٤٥/٣ (١٣٥٩٥)، وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٢٢٩٠).

إليه، والله سبحانه كلما سألته كنت أقرب إليه وأحب إليه، وكلما ألححت عليه في الدعاء أحبك، ومن لم يسأله يغضب عليه، فالله يغضب إن تركت سؤاله، وبني آدم حين يسأل يغضب، فالمطلوب يزيد بزيادة الطلب وينقص بنقصانه [١].

وإذا اقترن دعاء المسألة بالآداب الشرعية كان من أعظم الأسباب الإيمانية وأقواها في تحصيل المنافع الدنيوية والدرجات العلية في الآخرة، بل يكون الداعي في توسله من حيث نوع التوسل ورفعته وحقيقته وكيفيته في أعلى درجات القرب من الله ﷻ فلو أن الموحد في دعائه لربه باسمه ووصفه كان مخلصا في دعائه متقيدا بطريقة نبيه ﷺ وعلى ثقة من ربه في إجابة مطلبه ملتزما بآداب الدعاء الشرعية فقد تأول بحق قول الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ الأعراف:١٨٠.

والله ﷻ أمرنا بالإخلاص في الدعاء فقال: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦٥﴾ غافر:٦٥. وأمر بأن يكون الداعي على ثقة ويقين بأن الإجابة حاصلة، وأن الله تعالى يستحي من عبده إذا صدق في دعائه أن يخيب رجاءه ويرده صفر اليدين، فعند أبي داود وصححه الألباني من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا) [٢].

---

(١) جلاء الأفهام لابن القيم ص٢٩٩ بتصرف.

(٢) رواه أبو داود في الصلاة، باب الدعاء ٢/٧٨ (١٤٨٨)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٦٣٥).

وعند الترمذي وحسنه الألباني من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لاَ يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَهٍ) (١) .

ويظهر الكمال في الدعاء لو اجتمع قول اللسان مع استحضار القلب بالخشوع والرغبة في الثواب، والخشية والرهبة والخوف من العقاب، يضاف إلى ذلك قوة العزم والجزم في الدعاء، ولا يعلقه بالمشيئة، كما روى البخاري من حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إِذا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلْيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ، وَلاَ يَقُولَنَّ اللهُمَّ إِنْ شِئْتَ فَأَعْطِنِي؛ إِنَّهُ لاَ مُسْتَكْرِهَ لهُ) (٢).

وإذا كان الدعاء مطلوبا في كل زمان ومكان إلا أنه في بعض المواطن التي تضيق فيها الأسباب بالإنسان يكون أقوى مسألة وأسرع استجابة، فالله ﷻ يحب العبد الملح في الدعاء، والإلحاح فيه يزداد مع الاضطرار وصدق الالتجاء، فإذا ضاقت بالعبد السبل وانقطعت بالمكروب الحيل، فأول ما يفعله أن يستغيث بربه، ويلجأ إلى الله بما يناسب حاله من الأسماء ويضرع إليه ويبتهل في الدعاء.

وعند البخاري من حديث عبد الله بن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال

---

(١) رواه الترمذي في الدعوات ٥/٥١٧ (٣٤٧٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٩٤).

(٢) رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له ٥/٢٣٣٤ (٥٩٧٩)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت ٤/٢٠٦٣ (٢٦٧٨).

وهو في قبة له يوم بدر: (أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ ووَعْدَكَ، اللهُمَّ إنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ اليَوْمِ أَبَدًا، فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ وقَال: حَسْبُكَ يَا رَسُول اللهِ؛ فَقَدْ أَلحَحْتَ عَلى رَبِّك، وَهُوَ فِي الدِّرْعِ فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُول: سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلونَ الدُّبُرَ، بَل السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ، وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ) [(١)].

وروى أحمد وصححه الألباني من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مَا أَصَابَ أَحَداً قَطُّ هَمٌّ وَلاَ حَزَنٌ فَقَال: اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ عَدْل فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلكَ بِكُل اسْمٍ هُوَ لكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلقِكَ، أَوْ أَنْزَلتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَو اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَل القُرْآنَ رَبِيعَ قَلبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجَلاَءَ حُزْنِي وَذهَابَ هَمِّي، إلاَّ أَذهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلهُ مَكَانَهُ فَرَجاً، قَال: فَقِيل يَا رَسُول اللهِ: أَلاَ نَتَعَلمُهَا فَقَال: بَلى، يَنْبَغِي لمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلمَهَا) [(٢)] .

قال ابن القيم: (وكذلك الدعاء فإنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف عنه أثره؛ إما لضعفه في نفسه بأن يكون دعاء لا يحبه الله لما فيه من العدوان؛ وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء فيكون بمنزلة القوس الرخو جدا فإن السهم يخرج منه خروجا ضعيفا، وإما لحصول المانع من

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب ٣/١٠٦٧ (٢٧٥٨).

(٢) رواه أحمد في المسند ١/٣٩١ (٣٧١٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٨٢٢) والسلسلة الصحيحة (١٩٩) .

الإجابة من أكل الحرام والظلم ورين الذنوب على القلوب واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليها) [١] .

• الرد على قول القائل حسبي من سؤالي علمه بحالي.

ومن الناس من يجعل قول اللسان في دعاء الله ومسألته نقصا، وهو مع ذلك يسأل الناس ويطلب حوائجه منهم، وسؤال العبد لربه حاجته من أفضل العبادات، وهو طريق أنبياء الله، وقد أمر العباد بسؤاله فقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ النساء:٣٢. ومدح الذين يدعون ربهم رغبة ورهبة، ومن الدعاء ما هو فرض على كل مسلم، كالدعاء المذكور في فاتحة الكتاب، ومن هؤلاء من يحتج بما يروى عن الخليل أنه لما ألقي في النار قال له جبرائيل: هل لك من حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، قال: سل، قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي. وأول هذا الحديث معروف وهو قوله: أما إليك فلا [٢] .

وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيل قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلقِيَ فِي النَّارِ وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالوا: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيل) [٣] .

---

(١) الجواب الكافي لابن قيم الجوزية ٣/١.

(٢) قال الألباني عما روي عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي. قال: لا أصل له، انظر السلسلة الضعيفة (٢١)، وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٥٣٩/٨ بتصرف.

(٣) رواه البخاري في كتاب التفسير، تفسير سورة آل عمران١٦٦٢/٤ (٤٢٨٧).

وأما قوله: حسبي من سؤالي علمه بحالي، فكلام باطل خلاف ما ذكره الله عن إبراهيم الخليل وغيره من الأنبياء، من دعائهم لله، ومسألتهم إياه، وهو خلاف ما أمر الله به عباده من سؤالهم له صلاح الدنيا والآخرة كقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١﴾ البقرة:٢٠١. ودعاء الله وسؤاله والتوكل عليه عبادة لله مشروعة بأسباب كما يقدره بها، فكيف يكون مجرد العلم مسقطا لما خلقه وأمر به؟[1].

قال ابن القيم: (وأما عبوديات اللسان الخمس فواجبها النطق بالشهادتين وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود وأمر بقول ربنا ولك الحمد بعد الاعتدال وأمر بالتشهد وأمر بالتكبير ومن واجبه رد السلام وفي ابتدائه قولان، ومن واجبه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم الجاهل وإرشاد الضال وأداء الشهادة المتعينة وصدق الحديث، وأما مستحبه فتلاوة القرآن ودوام ذكر الله والمذاكرة في العلم النافع وتوابع ذلك، وأما محرمه فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله والدعاء إليها وتحسينها وتقويتها وكالقذف وسب المسلم وأذاه بكل قول والكذب

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٨/٥٣٩ بتصرف.

وشهادة الزور والقول على الله بلا علم وهو أشدها تحريما، ومكروهه التكلم بما تركه خير من الكلام به مع عدم العقوبة عليه) [(١)].

• الوظيفة الثانية التي يقوم بها اللسان في الإنسان العمل.

المهمة الثانية التي يقوم بها اللسان في الإنسان هي العمل، وعمل اللسان هو ما لا يؤدى إلا به، كتلاوة القرآن وسائر الأذكار من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والدعاء والاستغفار وغير ذلك، واللسان في هذه الحالة شأنه شأن أي جارحة من جوارح البدن، فعبادة الله بقراءة القرآن من المهام المتعلقة بعمل اللسان، وهي مهمة تختلف عن مهمته في إخراج ما في القلب للآخرين، وإن كانت مستلزمة لاستحضار القلب وصدق النية. قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧﴾ الكهف:٢٧.

وروى البخاري من حديث أبي سعيد ﷺ أنه قال: (قَال النَّبِيُّ ﷺ لأَصْحَابِهِ: أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثلث القُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ، فَشَقَّ ذلكَ عَلَيْهِمْ وَقَالوا: أَيُّنَا يُطِيقُ ذلكَ يَا رَسُول اللهِ فَقال: اللهُ الوَاحِدُ الصَّمَدُ ثلث القُرْآنِ) [(٢)]. فالأمر بقراءة القرآن أمر من أحكام العبودية متعلق بعمل اللسان، وكذلك ذكر الله، وما ورد فيه من أوامر شرعية متنوعة.

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/١١٤.
(٢) البخاري في فضائل القرآن، باب فضل قل هو الله أحد ٤/١٩١٦ (٤٧٢٧).

﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ الأعراف:٢٠٥.

ولعل ما أثر عن رسول الله ﷺ من أذكار يومية، يوضح عمل اللسان ودوره الفعال في اكتساب الحسنات وتجميعها ليوم الحساب، روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللسَانِ، ثقِيلتَانِ فِي المِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ) [1].

وروى مسلم من حديث مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه أنه قال: (حدَّثني أَبِي قَال: كُنَّا عِنْدَ رَسُول اللهِ ﷺ، فَقَال: أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ كُل يَوْمٍ، أَلفَ حَسَنَةٍ؟ فَسَأَلهُ سَائِل مِنْ جُلسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلفَ حَسَنَةٍ؟ قَال: يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ، فَيُكْتَبُ لهُ أَلفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحَطُّ عَنْهُ أَلفُ خَطِيئَةٍ. وفي رواية: أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ كُل يَوْمٍ أَلفَ حَسَنَةٍ؟ فقَال له رجل مِنْ جُلسَائِهِ: كَيْفَ يَكْتِبُ له أَلفَ حَسَنَةٍ؟ قال: يُسَبِّحُ أَلفَ تَسْبِيحَةٍ، فَيُكْتَبُ لهُ أَلفُ حَسَنَةٍ، ويُمحّىُ عَنْهُ أَلفُ خَطِيئَةٍ) [2].

وروى البخاري من حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح ٥/٢٣٥٢ (٦٠٤٣)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء ٤/٢٠٧٢ (٢٦٩٤).

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء ٤/٢٠٧٣ (٢٦٩٨)، وأحمد في المسند ١/١٧٤ (١٤٩٦).

(مِنْ قَال لا إِلهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لهُ لهُ المُلكُ وَلهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلى كُل شَيْءٍ قَدِيرٌ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لهُ عَدْل عَشْرِ رِقَابٍ وَكُتِبَتْ لهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ وَكَانَتْ لهُ حِرْزًا مِنْ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذلكَ حَتَّى يُمْسِيَ وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَل مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلا أَحَدٌ عَمِل أَكْثَرَ مِنْ ذلكَ) (١).

وروى مسلم من حديث جويرية رضي الله عنها أن النبي ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلى الصُّبْحَ، وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالسَةٌ، فَقَال: مَا زِلتِ عَلى الحَال التِي فَارَقْتُكِ عَليْهَا، قَالتْ: نَعَمْ، قَال النبي ﷺ: لقَدْ قُلتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلمَاتٍ، ثلاَث مَرَّاتٍ، لوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلتِ مُنْذ اليَوْمِ لوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ عَدَدَ خَلقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلمَاتِهِ) (٢).

هذه الأذكار وغيرها مما صح عن رسول الله ﷺ يقوم بها اللسان ويسهم بذلك مع بقية الأعضاء في توحيد العبودية، كما أن عمل الإنسان يتنوع بتنوع الزمان والمكان فقد وضع رسول الله ﷺ منهجاً يؤدب اللسان في جميع الأوقات والأمكنة، ومن ثم ينعكس الأدب

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده ٣/١١٩٨ (٣١١٩)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء ٤/٢٠٧١ (٢٦٩١).

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب التسبيح أول النهار وعند النوم ٤/٢٠٩٠ (٢٧٢٦).

على الإنسان بكامله، فإذا ما استيقظ الإنسان من نومه أو آوى إلى فراشه فإن للسان دوراً وعملا يقوم به، وكذلك له قول معين عند لبس الثوب وخلعه وعند طعامه وشرابه وعند دخوله الخلاء وخروجه منه، وعند دخول المسجد أو خروجه منه وعند دخول المنزل أو خروجه منه إلى غير ذلك مما ثبت عن رسول الله ﷺ.

ومن أعمال اللسان أيضا تعلم العلم وتعليمه بالإضافة إلى مشاركة القلب في ذلك، لأن اللسان يمثل الأساس في وسيلة النقل الشفوي والعلمي للآخرين، وقد أمرنا الله بطلب العلم وحثنا عليه وفضل أهل العلم من المؤمنين درجات على غيرهم، لأن البلاغ وسيلته الأولى قول اللسان، وكذلك تلقى العلم فإنه يكون بالسماع والحفظ وتكرار الكلام على اللسان ليتعود عليه ويسهل إخراجه، وقد كان الرسول ﷺ يحرك لسانه ليعجل بالوحي فنزل:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ القيامة:١٦/١٩.

وعند البخاري من حديث أنس بن مالك ﵁ أن رسول الله ﷺ أنه كَانَ إِذا تَكَلمَ بِكَلَمَةٍ أَعَادَهَا ثلاثا حَتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ، وَإِذا أَتَى عَلَى قَوْمٍ فَسَلمَ عَلَيْهِمْ، سَلمَ عَلَيْهِمْ ثلاثا [1].

ومن أعمال اللسان تمييز ما لا بد لمعرفته من أنواع المطعومات

---

(١) البخاري في العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثا ليفهم عنه ٤٨/١ (٩٥).

والمشروبات، فاللسان قد جعله الله وسيلة لتذوق الطعام فيستطيع اللسان أن يشخص الكثير من المواد الضارة والسامة، ومن ثم يجنب الإنسان الأطعمة الضارّة، والتعرض إلى الأخطار، فهو أشبه بالحارس الغذائي المكلَّفٌ بالسيطرة على أنواع المطعومات، ولما كان الأمر كذلك فإن تلك الوظيفة التي يقوم بها اللسان خاضعة لأحكام العبودية على تنوع الأحكام التكليفية.

ومن ذلك ما رواه البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في وَفْد عَبْدِ القَيْسِ لَمَّا أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ أنه قال: (وَسَأَلوهُ عَنْ الأَشْرِبَةِ.. وَنَهَاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ عَنْ الحَنْتَمِ وَالدُّبَّاءِ وَالنَّقِيرِ وَالمُزَفَّتِ وَرُبَّمَا قَالَ المُقَيَّرِ وَقَالَ: احْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ) [1].

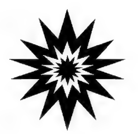
والمقصود بالأشربة أي التي حرمها الله وحذرهم من اختلاطها بما أحله لأن النَّبِيذ هو ما يُعْمَلُ من الأشرِبة من التَّمرِ، والزَّبيب، والعَسَل، والحِنْطَة، والشَّعير وغير ذلك، فالحنتم إناء أو جرة كبيرة تصنع من طين وشعر وتدهن بلون أخضر وتشتد فيها الخمر وتكون أكثر سكرا، والدباء هو القرع، كانوا ينْتبذُون فيها فتُسرع الشّدّةُ في الشراب، والنقير هو أصل النخلة ينقر وسطه ثم ينبذ فيه التمر ويلقى عليه الماء ليصير نبيذا مسكرا، والمزفت هو الوعاء المطلي بالقار وهو

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان ١/٢٩ (٥٣)، ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه ١/٤٧ (١٧).

الزفت، وكل ذلك من إطلاق الْمَحَلّ وإرادة الْحَالّ.

قال الإمام النووي: (كان الانْتِبَاذُ في الْحَنْتَمِ وَالدُّبَّاءِ وَالنَّقِيرِ وَالْمُزَفَّتِ منهيا عنه في أول الإسلام خوفا من أن يصير مسكرا فيها، ولا نعلم به لكثافتها، فتتلف ماليته، وربما شربه الإنسان ظانا أنه لم يصر مسكرا فيصير شاربا للمسكر، وكان العهد قريبا بإباحة المسكر، فلما طال الزمان واشتهر تحريم المسكر، وتقرر ذلك في نفوسهم، نسخ ذلك، وأبيح لهم الانتباذ في كل وعاء بشرط أن لا تشربوا مسكرا) (١).



(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٣/١٥٩.

المطلب التاسع

أحكام العبودية المتعلقة بالجوارح وأثرها

في فهم حقيقة الإيمان



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن موقع اللسان في توحيد العبادة وحقيقة الإيمان، وهل في حق اللسان كلام مباح متساوي الطرفين؟ وبينا أن حصائد اللسان تجمع من مخرجين اثنين يمثلان وظيفتي اللسان، الوظيفة الأولى لغة التخاطب وما يقوم مقام اللسان في الإنسان.

وعلمنا أن النطق بالشهادتين أول العبوديات المتعلقة باللسان لأنه باب الدخول للإسلام، وكذلك الدعاء والنداء والاستغاثة من العبوديات المتعلقة باللسان، سواء دعاء المسألة أو دعاء العبادة، وبينا عظمة دور اللسان في عبودية دعاء المسألة والعبادة معا، كما علمنا وجه الرد على قول القائل: حسبي من سؤالي علمه بحالي، ثم تحدثنا عن الوظيفة الثانية التي يقوم بها اللسان في الإنسان وهي العمل، وشأن اللسان فيها شأن العمل في سائر الجوارح.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن أحكام العبودية المتعلقة بالجوارح وأثرها في فهم حقيقة الإيمان.

• موقع الجوارح في توحيد العبادة وحقيقة الإيمان.

الجوارح علل الاكتساب الخارجي وأسبابها، يقال: فلان جارح أهله وجارحة أهله إذا كان كاسبهم، وسببا في أرزاقهم، وسميت الطير والكلاب جوارح لأنها تجرح لأهلها، أي تكون سببا في كسب أرزاقهم ومنافعهم. قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ المائدة: ٤.

وجوارح الإنسان سميت جوارح لأنهن أسباب خارجية مباشرة لاكتساب الأفعال، يجترحن له الخير أو الشر، أي يكتسب بهن الخير أو الشر، نحو اليدين والرجلين والأذنين والعينين. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ الأنعام: ٦٠.

ومعنى يعلم ما جرحتم أي ما كسبتموه بجوارحكم في النهار، ويحتمل أن يكون جرحتم هنا من الجرح وهو الذنب الذي يكتسبه العبد ظاهرا وباطنا، كأن الذنب جرح في الدين، والعرب تقول جرح اللسان كجرح اليد [١].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ الجاثية: ٢١.

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي ٢/٣٠٠، نشر دار الكتب العلمية لبنان.

اجترحوا السيئات أي اكتسبوا بجوارحهم الشرك والمعاصي [(١)].

والجوارح كواسب لأنها معلولات أو نتائج اكتسبتها العلة الأولى وهي الإرادة عند حركتها للفعل، فالفعل الداخلي للقلب سبب مباشر لكسب أعمال الجوارح، وسبب في حثها على اكتساب الأفعال الخارجية الظاهرة التي يكتسبها الإنسان ويحاسب عليها، فالجوارح علل الاستطاعة التي يناط بها التكليف الشرعي.

وقد أثبت الله الاستطاعة للإنسان، وحاسبه على الفعل الواقع بها، سواء كانت مستقلة بأعضاء الجسد، أو متبوعة باستخدام بعض الأسباب الخارجية التي يصنعها الإنسان لنفسه في تقوية استطاعته.

والاستطاعة في الاصطلاح صفة قائمة بالمستطيع، من إضافة المخلوق للمخلوق، إن لم يتصف بها اتصف بضدها وهو العجز، وأصبح العجز صفة العاجز، فربما نجد المرء مستطيعا ثم نراه غير مستطيع، إما لأن أعضاءه قد خدرت، أو قيدت، أو حدث له إغماء، وهو كامل الأعضاء لم ينتقص منه شيء، فصح بالضرورة أن معدوم الاستطاعة غير مستطيع ومعدوم الفعل وإن كانت أعضاؤه كاملة، وهذا أمر يعرف بالمشاهدة والحس، وبهذا أيقنا أن الاستطاعة وصف قد يقبل الشدة والضعف، وكذلك العمل يقبل المفاضلة، فنقول: استطاعة هذا وعمله أشد وأقوى من استطاعة ذاك [(٢)].

قال تعالى عن إعداد القوة لإرهاب الأعداء بأقصى استطاعة منحها

(١) نظم الدرر للبقاعي ٨/٣٢.
(٢) انظر الفصل في الملل والنحل لابن حزم ٣/١٧ بتصرف.

للإنسان: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ الأنفال:٦٠. فالله ﷻ كلف عباده بالعمل الجاد، وبذل الجهد والإعداد لجهاد أعدائهم، وفعل ما في وسعهم، وعلى قدر استطاعتهم، وفي حالة عجز العبد أو ضعفه، فإن الله ﷻ يحاسبه على نيته وإرادته، وهذا منتهى الكمال في إثبات عدل الله ﷻ، إذ جعل الإنسان مسئولا عن فعله واختياره، موقوفا على حاله في الإيمان أو الكفر.

والأدلة النقلية على إثبات فعل الجوارح والاستطاعة البشرية أكثر من أن تحصى، وأن الله ﷻ جعلها سببا للتكليف والمسئولية قبل الفعل، وجعلها مع الفعل توفيقا بفضله لمن شاء من عباده، أو خذلانا بعدله لمن حاد عن هديه ومراده، فالله هو الخالق المعطى الجواد المنان، وهو أيضا الخالق القادر الديان، الذي يعطى من يشاء ما يشاء، ويمنع من يشاء على سبيل الابتلاء، فالأفعال مخلوقة لله ﷻ يخلقها بتمامها، والكسب لفعل العبد في الطاعة ليبقى منعما بثوابها، أو في المعصية ليبقى معذبا من جرائها.

ومن ثم فإن دور جوارح الإنسان تجاه الفعل اكتسابه، أي الأخذ بالأسباب الخارجية التي خلقها الله ﷻ ليصل بها إلى مراده، وأما الحكم بالحسن والقبح على فعل الإنسان فهو مبنى على نتيجة اختياره، وليس نتيجة لخلق الله ﷻ لفعله، فإن وافق فعل الإنسان الشرع كان خيرا، وإن خالفه كان شرا، فالعلة في كون الفعل خيرا أو شرا هو الاختيار الإنساني.

والمؤمنون يفهمون حقيقة الاستطاعة وأعمال الجوارح من خلال فهمهم للغاية من خلقهم ووجودهم في هذه الأرض بالكيفية التي تحقق معنى الأمانة والابتلاء والاستخلاف والتفويض الذي يعقبه الجزاء، ومن ثم إذا تفكر في نفسه وفي الأشياء من حوله علم أن حوله وقوته بقوة الله ﷻ وحوله، وأن استطاعته نعمة مما منحه الله ﷻ وأعطاه، فشكره على هذه النعمة العليا التي بها كرمه على كثير ممن سواه .

• الجزاء واقع على العمل وأعمال الجوارح ركن فيه.

والقرآن يثبت الجزاء على العمل، ومعلوم أن عمل الإنسان هو مجموع حركاته وسكناته الداخلية والخارجية، أو مجموع الأقوال والأعمال سواء التي تدب في القلب من أقوال أو أعمال في منطقة الكسب أو أعمال اللسان والجوارح الظاهرية، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ آل عمران:٣٠.

والعمل المقصود في الآية هو كل ما صدر عن الإنسان من أعمال الخير والشر قلبا ولسانا وجوارحا. ومثله قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ المؤمنون:٩٩/١٠٠. وقوله: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الجاثية:٢١. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ الزمر:٣٩/٤٠.

وقال تعالى عن الفعل ونسبته إلى الجوارح المتعلقة بالإنسان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾ الصف:٢/٤. فالفعل منسوب إلى الجوارح التابعة لإرادة القلب، وهو أساس الصلاح والفساد، كما أن المجتمعات البشرية مبنية على أفعال الجوارح، وصلاحها مرتبط بصلاح الجوارح واستقامتها.

قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٩٦﴾ الأعراف:٩٦.

ومما ينبغي أن يعلم أن الإيمان أصله في القلب، وهو مكون من قول القلب وعمله، وهو إقرار القلب بالتصديق والحب والانقياد، ولا بد أن يظهر موجبه ومقتضاه على الجوارح، فالأعمال الظاهرة من موجبات إيمان القلب، ودليل عليه، وشاهد له، وشعبة من مجموع الإيمان المطلق وبعض له، وما في القلب أصل لها، وهو الملك والأعضاء جنوده [(١)].

قال ابن تيمية: (وقد ظن طوائف أن الإيمان هو ما في القلب خاصة، وما على الجوارح لا يدخل في مسماه، لكن هو من ثمرته ونتائجه، والتحقيق أن اسم الإيمان المطلق يتناول الأصل مع الفرع، وقد لا يتناول إلا الأصل إذا لم يخص إلا هو، كاسم الشجرة يتناول الأصل والفرع إذا وجد، ولو قطعت الفروع لتناول اسم الشجرة الأصل وحده، وكذا اسم الحج يتناول كل ما شرع من ركن وواجب

(١) مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية ص١٤١ بتصرف.

ومستحب، وهو أيضا تام بدون المستحبات، وحج ناقص بدون الواجبات) [1].

ثم بين أن الشارع لا ينفي اسم الإيمان عن العبد لترك مستحب، لكن لترك واجب، ولفظ الكمال يراد به الكمال الواجب، والكمال المستحب، فلما قال: لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن[2]. ولا إيمان لمن لا أمانة له[3]، ونحو ذلك، كان المراد أنه ينفي بعض ما وجب فيه، لا ينفي الكمال المستحب، والإيمان يتبعض، ويتفاضل الناس فيه، كالحج والصلاة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ومثقال شعيرة[4].

وأما إذا استعمل اسم الإيمان مطلقا كقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ البقرة:٢٥. وقوله ﷺ: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت فهنا قد يقال: إنه متناول لذلك، وأن عطف ذلك عليه من باب عطف الخاص على العام كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ

---

(١) السابق ١/١٤١.

(٢) البخاري عن أبي هريرة ﷺ في كتاب المظالم، باب النهبى بغير إذن صاحبه ٢/٨٧٥ (٢٣٤٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصى ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفى كماله ١/٧٦ (٥٧).

(٣) رواه أحمد ٣/١٣٥ (١٢٤٠٦)، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث حسن.

(٤) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ٦/٢٧٢٧ (٧٠٧٢).

لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ البقرة:٩٨ . وقد يقال: إن دلالة الاسم متنوعة بالإفراد والاقتران، كلفظ الفقير والمسكين إذا أفرد أحدهما تناول الآخر، وإذا جمع بينهما كانا صنفين، ولا ريب أن فروع الإيمان مع أصوله كالمعطوفين، وهي مع جميعه كالبعض مع الكل، ومن هنا نشأ النزاع والاشتباه، هل الأعمال داخلة في الإيمان أم لا، لكونها عطفت عليه في الآيات والأحاديث، وقد يعطف على الإيمان بعض شعبة، فيقال: هذا أرفع الإيمان أي اليقين، والمؤمن الذي معه يقين وعلم أرفع من المؤمن الذي معه يقين وليس معه علم، ومعلوم أن الناس يتفاضلون في نفس الإيمان والتصديق، في قوته وضعفه، وعمومه وخصوصه، وبقائه ودوامه، وموجبه ومقتضيه، وغير ذلك من أموره[1].

- التكليف وتعلقه بأعمال الجوارح والاستطاعة والوسع.

وأعمال الجوارح من الاستطاعة البشرية وما يضاف إليها من آلات تزيد من توسعها محدودة بما يحقق معنى الابتلاء والاستخلاف، والناس يتفاوتون في درجات الاستطاعة من شخص إلى آخر بحسب ما استخلفه الله فيه، وجعله في حوزته، أو تحت سلطانه، ومن ثم تقع المسئولية على قدر دائرة الاستطاعة، سواء كانت تلك الدائرة تمثل البدن أو ما تبعه من متعلقات شخصية، أو كانت مكانة اجتماعية أو قيادية أو زيادة المسئولية، وكلما كانت الدائرة أكبر كلما زادت المسئولية، فدائرة الاستطاعة الخاصة بالإمام أكبر وأوسع من دائرة الرجل في بيته، والمرأة في بيت زوجها.

---

(١) مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية ص١٤١ بتصرف.

روى البخاري من حديث ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: (كُلكُمْ رَاعٍ، وَكُلكُمْ مَسْئُول عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُول عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُل رَاعٍ فِي أَهْلِهِ، وَهُوَ مَسْئُول عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَال سَيِّدِهِ وَمَسْئُول عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُل رَاعٍ فِي مَال أَبِيهِ وَمَسْئُول عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُول عَنْ رَعِيَّتِهِ)(١).

وقد كلف الله العباد بما في وسعهم، وعلق تنفيذ الأحكام على قدر استطاعتهم، وفي حالة عجز العبد أو ضعفه، فإن الله ﷻ يحاسبه على نيته وإرادته.

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ البقرة:٢٨٦. فالخطأ والنسيان خارجان عن استطاعة الإنسان، لأنه ليس في وسعه تفاديهما.

وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ الفتح:١٧. فطاعة الله ورسوله واجبة على قدر الاستطاعة، فمن تولى بعد قيام الاستطاعة يعذبه عذابا أليما، أما عند فقدها فليس عليه حرج.

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن ١/٣٠٤ (٨٣٥)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية ٣/١٤٥٩ (١٨٢٩).

وقال أيضا: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ۚ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ التوبة: ٩١/٩٣.

وقد دلت الآيات على عدة أمور، منها رفع السؤال والمؤاخذة على من تخلف من الضعفاء أو المرضى، أو الذين لا يجدون ما ينفقون في الجهاد لعدم قيام الاستطاعة اللازمة لذلك، وأنهم مكلفون بالنصح والحث على الجهاد، وذلك قول اللسان، وهو في استطاعته ومقدوره فوجب العمل على قدر المستطاع.

كما دلت الآيات على مشاركة الذين لا يجدون العدة للخروج مع رسول الله ﷺ في أجر إخوانهم المجاهدين لتمام النية وقوة العزيمة، فلو توفرت لديهم الاستطاعة ما تخلفوا عن رسول الله ﷺ، ودليل ذلك قوله: تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون، وهذا المفهوم صريح مما رواه البخاري من حديث أنسٍ بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوكَ فدنا من المدينة فقال: (إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسِيرا، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة، حَبَسَهم العذر) (١).

(١) رواه البخاري في المغازي، باب نزول النبي ﷺ الحجر ٤/١٦١٠ (٤١٦١)، ومسلم في الإمارة، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض ٣/١٥١٨ (١٩١١).

كما دلت الآيات على أن المتخلفين عن الجهاد مع رسول الله ﷺ توفرت لديهم الاستطاعة والقدرة على نصر الدعوة، ولكن قلوبهم مريضة ونيتهم فاسدة، فسارعوا بتقديم العذر إلى رسول الله ﷺ فوقعت عليهم العقوبة.

وأوضح من ذلك في بيان التناسب المطرد بين أعمال الجوارح أو القدرة والاستطاعة وطلب العمل ما رواه البخاري[1] في سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ النساء:٩٥. فالآية نزلت على رسول الله ﷺ: لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله. بدون استثناء أولى الضرر، وكان عبد الله بن أم مكتوم خلف النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني ضرير، فنزلت الآية باستثناء أولى الضرر، وأنهم يشاركون المجاهدين في سبيل الله في الأجر إذا توفرت النية.

روى البخاري من حديث البَرَاءِ ﷺ أنه قَال: (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ، لا يَسْتَوِي القَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ، دَعَا رَسُول اللهِ ﷺ زَيْدًا، فَجَاءَ بِكَتِفٍ فَكَتَبَهَا، قَال: فَجَاءَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ فَشَكَا ضَرَارَتَهُ إِلى رَسُول اللهِ ﷺ فَنَزَلَتْ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ، فَقَال رَسُول اللهِ ﷺ: ائْتُونِي بِالكَتِفِ وَالدَّوَاةِ، أَوْ اللوْحِ وَالدَّوَاةِ)[2].

---

(١) صحيح البخاري، الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ ١٠٤٢/٣ (٢٦٧٧).

(٢) البخاري في الجهاد والسير، باب قوله تعال: لا يستوي القاعدون ١٠٤٢/٣ (٢٦٧٦)، والترمذي في تفسير القرآن، باب ومن سورة النساء ٢٤٠/٥ (٣٠٣١).

وعلى ذلك يفهم من قوله تعالى بعدها: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ النساء:٩٥/٩٦.أن للمجاهد بإرادته واختياره فضلا على القاعد مع قيام الاستطاعة وسلامة الجوارح وقدرتها على الجهاد، وقال تعالى في الآية في بعدها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ النساء:٩٧/٩٩. فالذين لم يهاجروا احتجوا بالعجز ونفي الاستطاعة وعدم القدرة، وهذا ادعاء باطل، فقد كان في وسعهم الهجرة إلى دار الإسلام، ولكنهم أرادوا البقاء بإرادتهم ورغبتهم في دار الكفر. أما المستضعفون من الرجال والنساء والولدان فقد ذكر الله عجزهم وأنهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، فاستوجبوا غفران الله سبحانه وتعالى.

والاستطاعة البشرية الذاتية وما أضيف لها من آلات تزيد من توسعها سبب في نسبة العمل والفعل إلى الإنسان، فما دام العمل في القلب ولم يخرج إلى حيز الوجود الخارجي الظاهر في البدن، فالصلاح مكنون والفساد مسجون تحت غطاء القلب.

- أحكام العبودية المتعلقة بحاسة السمع من الجوارح.

ذكر ابن القيم رحمه الله أن عبوديات الجوارح على خمس وعشرين مرتبة، ذلك لأن الحواس خمسة، وعلى كل حاسة خمس عبوديات أو

أحكام تكليفية وهي الواجب والمستحب والمباح والمكروه والمحرم، فعلى السمع وجوب الإنصات، والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه، من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ الأنفال: ٢٤.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾ ﴾ الزمر: ١٧/ ١٨.

وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر بها الإمام، واستماع الخطبة للجمعة في أصح قولي العلماء، ويحرم عليه استماع الكفر والبدع إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة من رده، أو الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك، وكاستماع أسرار من يهرب عنك بسره، ولا يحب أن يطلعك عليه ما لم يكن متضمنا لحق لله يجب القيام به، أو لأذى مسلم يتعين نصحه وتحذيره منه[1].

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التي تحدث الفتنة بأصواتهن إذا لم تدع إليه حاجة من شهادة، أو معاملة أو استفتاء، أو محاكمة أو مداواة ونحوها، وكذلك استماع المعازف وآلات الطرب

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/ بتصرف.

واللهو، ولا يجب عليه سد أذنه إذا سمع الصوت وهو لا يريد استماعه إلا إذا خاف السكون إليه والإنصات، فحينئذ يجب لتجنب سماعها ووجوب سد الذرائع.

ونظير هذا المحرم نظرة الفجاءة لا تحرم على الناظر، وتحرم عليه النظرة الثانية إذا تعمدها.

وأما السمع المستحب فكاستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله، واستماع كل ما يحبه الله وليس بفرض، والمكروه عكسه، وهو استماع كل ما يكره ولا يعاقب عليه، والمباح ظاهر(١).

- أحكام العبودية المتعلقة بحاسة البصر من الجوارح.

وأما النظر الواجب فالنظر في المصحف وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها، أو ينفقها، أو يستمتع بها، والأمانات التي يؤديها إلى أربابها ليميز بينها ونحو ذلك.

والنظر الحرام النظر إلى الأجنبيات بشهوة مطلقا وبغيرها إلا لحاجة، كنظر الخاطب والشاهد والحاكم والطبيب وذي المحرم.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ النور: ٣٠.

وروى أحمد وصححه الألباني من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن النَّبِي ﷺ قَال: (العَيْنُ تَزْنِي، وَالقَلبُ يَزْنِي، فَزِنَا العَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا القَلبِ

(١) السابق ١/١١٧ بتصرف.

التَّمَنِّي، وَالفَرْجُ يُصَدِّقُ مَا هُنَالِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ)[(١)].

والمستحب النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيمانا وعلما، والنظر في المصحف، ووجوه العلماء الصالحين، والوالدين، والنظر في آيات الله المشهودة ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته، والمكروه فضول النظر الذي لا مصلحة فيه، فإن له فضولا كما للسان فضولا، وكم قاد فضولها إلى فضول عز التلخص منها، وأعيى دواؤها، وقال بعض السلف: كانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام[(٢)].

والمباح النظر الذي لا مضرة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة، ومن النظر الحرام النظر إلى العورات، وهي قسمان عورة وراء الثياب، وعورة وراء الأبواب، ولو نظر في العورة التي وراء الأبواب فرماه صاحب العورة ففقأ عينه لم يكن عليه شيء، وذهبت هدرا بنص رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته. روى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أن أبا القَاسِمِ ﷺ: (لوْ أَنَّ امْرَأً اطَّلَعَ عَلَيْكَ بِغَيْرِ إِذْنٍ، فَخَذَفْتَهُ بِعَصَاةٍ، فَفَقَأْتَ عَيْنَهُ، لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ جُنَاحٌ)[(٣)].

---

(١) هذا اللفظ عند أحمد في المسند ٢/٣٢٩ (٨٣٣٨) وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح وهذا إسناد ضعيف، والحديث عند البخاري في كتاب الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج ٥/٢٣٠٤ (٥٨٨٩)، وانظر تخريج الحديث في ظلال الجنة للألباني (١٩٣).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١/١١٨.

(٣) البخاري في الديات، باب من اطلع في بيت قوم ففقؤا عينه ٦/٢٥٣٠ (٦٥٠٦)، ومسلم في الآداب، باب تحريم النظر فى بيت غيره ٣/١٦٩٩ (٢١٥٨).

وفي لفظ مسلم: (مَنِ اطَّلعَ في بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ، فَقَدْ حَلَ لَهُمْ أَنْ يَفْقَئُوا عَيْنَهُ) [(١)].

وهذا إذا لم يكن للناظر سبب يباح النظر لأجله، كعورة له هناك ينظرها، أو ريبة هو مأمور أو مأذون له في الإطلاع عليها.

- أحكام العبودية المتعلقة بحاسة التذوق من الجوارح.

وأما الذوق الواجب فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه وخوف الموت، فإن تركه حتى مات، مات عاصيا قاتلا لنفسه، قال الإمام أحمد وطاووس: (من اضطر إلى أكل الميتة، فلم يأكل حتى مات دخل النار) [(٢)].

ومن هذا تناول الدواء إذا تيقن النجاة له من الهلاك على أصح القولين، وإن ظن الشفاء به، فهل هو مستحب مباح أو الأفضل تركه؟ فيه نزاع معروف بين السلف والخلف.

قال ابن تيمية رحمه الله: (إن الناس قد تنازعوا في التداوي، هل هو مباح أو مستحب أو واجب؟ والتحقيق أن منه ما هو محرم، ومنه ما هو مكروه، ومنه ما هو مباح، ومنه ما هو مستحب، وقد يكون منه ما هو واجب، وهو ما يعلم أنه يحصل به بقاء النفس لا بغيره، كما يجب أكل الميتة عند الضرورة، فإنه واجب عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء، وقد قال مسروق: من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات دخل

---

(١) رواه مسلم في الآداب، باب تحريم النظر فى بيت غيره ١٦٩٩/٣ (٢١٥٨).

(٢) انظر عدة الصابرين لابن القيم ص٢٢.

النار، فقد يحصل أحيانا للإنسان، إذا استحر المرض ما إن لم يتعالج معه مات، والعلاج المعتاد تحصل معه الحياة كالتغذية للضعيف وكاستخراج الدم أحيانا) [1].

والذوق الحرام كذوق الخمر والسموم القاتلة، والذوق الممنوع منه للصوم الواجب، وأما المكروه فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وذوق الطعام الفجاءة، وهو الطعام الذي تفجأ آكله، ولم يرد أن يدعوك إليه، وكأكل أطعمة المرائين في الولائم والدعوات ونحوها، وذوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس، والذوق المستحب أكل ما يعينك على طاعة الله ﷻ مما أذن الله فيه، والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل فينال منه غرضه، والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها، أو المستحب، وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها للأمر به عن الشارع، والذوق المباح ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان[2].

- أحكام العبودية المتعلقة بحاسة الشم من الجوارح.

وما تعلق من العبوديات الخمس بحاسة الشم، فالشم الواجب كل شم تعين طريقا للتمييز بين الحلال والحرام، كالشم الذي تعلم به الأشياء هل هي خبيثة أو طيبة، وهل هي سم قاتل أو لا مضرة فيها، أو يميز به بين ما يملك الانتفاع به، وما لا يملك من أنواع الروائح وغيرها، ومن هذا شم المقوم والمحتسب ورب الخبرة عند الحكم بالتقويم، وشم العبيد ونحو ذلك.

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٨/١٢.

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١/١١٩.

وأما الشم الحرام فالتعمد لشم الطيب في الإحرام، وشم الطيب المغصوب والمسروق، وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبيات خشية الافتتان بما وراءه.

وأما الشم المستحب فشم ما يعينك على طاعة الله، ويقوي الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل، ومن هذا هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك، ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (من عرض عليه ريحان فلا يرده، فإنه طيب الريح خفيف المحمل) [(١)].

والمكروه كشم طيب الظلمة وأصحاب الشبهات ونحو ذلك، والمباح ما لا منع فيه من الله ولا تبعة، ولا فيه مصلحة دينية، ولا تعلق له بالشرع.

- أحكام العبودية المتعلقة بحاسة اللمس من الجوارح.

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس، فاللمس الواجب كلمس الزوجة حين يجب جماعها، والأمة الواجب إعفافها، والحرام لمس ما لا يحل من الأجنبيات، والمستحب إذا كان فيه غض بصره، وكف نفسه عن الحرام، وإعفاف أهله، والمكروه لمس الزوجة في الإحرام للذة، وكذلك في الاعتكاف، وفي الصيام إذا لم يأمن على نفسه، ومن هذا لمس بدن الميت لغير غاسله لأن بدنه قد صار بمنزلة عورة الحي تكريما له، ولهذا يستحب ستره عن العيون وتغسيله في قميصه في أحد القولين،

---

(١) رواه مسلم في كتاب الألفاظ من الأدب، باب استعمال المسك وأنه أطيب الطيب وكراهة رد الريحان والطيب ٤/١٧٦٦ (٢٢٥٣).

ولمس فخذ الرجل إذا قلنا هي عورة.

والمباح ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية، وهذه المراتب أيضا مرتبة على البطش باليد، والمشي بالرجل، وأمثلتها لا تخفى، فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله واجب، وفي وجوبه لقضاء دينه خلاف، والصحيح وجوبه ليمكنه من أداء دينه، ولا يجب لإخراج الزكاة، وفي وجوبه لأداء فريضة الحج نظر، والأقوى في الدليل وجوبه لدخوله في الاستطاعة وتمكنه بذلك من أداء النسك، والمشهور عدم وجوبه.

ومن البطش الواجب إعانة المضطر، ورمي الجمار، ومباشرة الوضوء والتيمم، والحرام كقتل النفس التي حرم الله قتلها، ونهب المال المعصوم، وضرب من لا يحل ضربه ونحو ذلك، وكأنواع اللعب المحرم بالنص كالنرد[1].

روى مسلم من حديث بريدة بن الحصيب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ لعِبَ بالنردشير، فكأنَّما صبَغَ يده في دم خنزير)[2].

أو ما هو أشد من النرد تحريما منه عند أهل المدينة كالشطرنج أو مثله عند فقهاء الحديث كأحمد وغيره، أو دونه عند بعضهم، ونحو كتابة البدع المخالفة للسنة تصنيفا أو نسخا إلا مقرونا بردها ونقضها، وكتابة الزور والظلم والحكم الجائر والقذف، وكتابة ما فيه مضرة على

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/١٢١.

(٢) مسلم في الشعر، باب تحريم اللعب بالنردشير ٤/١٧٧٠ (٢٢٦٠).

المسلمين في دينهم أو دنياهم، ولاسيما أن كسبت عليه مالا، فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون، وكذلك كتابة المفتى على الفتوى ما يخالف حكم الله ورسوله، إلا أن يكون مجتهدا مخطئا، فالإثم موضوع عنه.

وأما المكروه فكالعبث، واللعب الذي ليس بحرام، وكتابة ما لا فائدة في كتابته، ولا منفعة فيه في الدنيا والآخرة، والمستحب كتابة كل ما فيه منفعة في الدين، أو مصلحة لمسلم، والإحسان بيده بأن يعين صانعا، أو يصنع لأخرق، أو يفرغ من دلوه في دلو المستسقى، أو يحمل له على دابته، أو يمسكها حتى يحمل عليها، أو يعاونه بيده فيما يحتاج له ونحو ذلك، ومنه لمس الركن بيده في الطواف، وفي تقبيلها بعد اللمس قولان، والمباح ما لا مضرة فيه ولا ثواب.

وأما المشي الواجب فالمشي إلى الجمعات والجماعات في أصح القولين، والمشي حول البيت للطواف الواجب، والمشي بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه، والمشي إلى حكم الله ورسوله إذا دعي إليه، والمشي إلى صلة رحمه، وبر والديه، والمشي إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه، والمشي إلى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر، والحرام المشي إلى معصية الله، وهو من رجل الشيطان.

قال تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾ الإسراء:٦٤. قال مقاتل: استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم،

فكل راكب وماش في معصية الله، فهو من جند إبليس.

وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضا فواجبه في الركوب في الغزو والجهاد والحج الواجب، ومستحبه في الركوب المستحب من ذلك، ولطلب العلم، وصلة الرحم، وبر الوالدين، وفي الوقوف بعرفة نزاع، هل الركوب فيه أفضل أم على الأرض؟ والتحقيق أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة من تعليم للمناسك، واقتداء به وكان أعون على الدعاء، ولم يكن فيه ضرر على الدابة، وحرامه الركوب في معصية الله ﷻ .

ومكروهه الركوب للهو واللعب، وكل ما تركه خير من فعله، ومباحه الركوب لما لم يتضمن فوت أجر ولا تحصيل وزر[1].

- أعمال الجوارح مرتبطة بالقلب واللسان في تحقيق أحكام العبودية.

اعتقاد السلف أن الإيمان قول وعمل حقيقة معبرة عن تنفيذ الإنسان للأوامر التكليفية بمجموعه ومكوناته، ولا يتصور وقوع الإيمان من شخص إلا على هذا النحو، وعملية الفصل بين أعضائه في تحقيق الإيمان ليس لها وجود في الخارج، بل يستحيل تصور ذلك إلا بصورة نظرية في الأذهان لا في الأعيان، وكل ما سبق من تقرير ابن القيم لأحكام العبودية المتعلقة بالجوارح لا يتصور فصلها عن أعمال القلوب وإخلاص النية لله، وما يلزم من قول اللسان وعمله، ولذلك قال علماء السلف: أعمال الجوارح ركن من أركان الإيمان، وكل ركن من أركان الإسلام هو ركن من أركان الإيمان على اعتبار تنفيذ الأمر.

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/١٢٠ :١٢٢.

ولو ضربنا مثلا بالصلاة وحدها لوجدناها ركنا من أركان الإسلام الخمسة، وهي أيضا من الإيمان باعتبار تنفيذ الأمر، ولا بد من تنفيذ الأمر فيها بالقلب واللسان والجوارح جميعا، فمن مجموعها يظهر إيمان الإنسان لأن تطبيقها لا بد فيه من القلب واللسان والجوارح معا، فالنية في الصلاة واجبة، وهي عمل القلب، والأصل فيها تنفيذ الأمر الذي ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ البينة:٥.

وما رواه البخاري من حديث عمر بن الخطاب ﷺ أنه سمع رسول اللهِ ﷺ يَقول: (إِنما الأَعْمَال بالنيات، وإِنمَا لكُل امْرِىءٍ ما نوَى) [(١)].

وأجمعت الأمة على اعتبار النية في الصلاة، ولا تنعقد إلا بها، فإذا أراد أن يصلي فرضا أو نذرا أو قضاء أو كفاية، وجب قصد فعلها لتتميز عن سائر الأفعال، ووجب تعيينها لتتميز عن سائر الصلوات، وتجب نية الفرضية لتتميز عن النقل، والنية تكون بالقلب بالإجماع لأنها علة القصد إلى العمل الظاهري وسبب اكتسابه[(٢)].

قال إسحاق بن راهويه: (وأمَّا عقد النية عند إحداث الوضوءِ، والصلاة فَسُنَّةٌ؛ لأنَّه لابد له مِنْ أن ينوي ذلك لقول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ﴾ المائدة:٦. فخاطبهم بما

(١) البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي ١/ ٣ (١).
(٢) الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع لمحمد الشربيني الخطيب ١/ ١٢٩.

عقلوا. وكذلك الجنابة: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ المائدة:٦.

وقال ﷺ في الصلاة: تحريمها التكبير، ففي ذَلكَ أعظم الدلائل أنْ ينوي عند أخذ العمل، مع ما قال النبي ﷺ: الأعمال بالنية. وكذلك الحج، يحتاج إذا أحرم أنْ ينوي قضاءَ حجته المفروضة. وكذلك إذا أخرجَ الزكاة ينوي ما لزمه. والصوم إذا دخَل رمضان بنية صومه أجزأه، وإنْ لم يجدد النية عند كل يوم؛ لأنه على نيته ما لم يغيرها، فلو غير ذَلكَ يوما واحدا فنواها تطوعا لم يجزه من رمضان، وكان كالمفطر فيه، عليه الكفارة؛ لأنه لم يصم يوما من رمضان تعمدا، وإنما الكفارات في العمد) [1].

ومن أركان الصلاة الواجبة على اللسان تكبيرة الإحرام بشروطها، وهي إيقاعها بعد الانتصاب في الفرض باللغة العربية للقادر عليها، ولفظ الجلالة، ولفظ أكبر، وتقديم لفظ الجلالة على أكبر، وعدم مد همزة الجلالة، وعدم مد باء أكبر، وعدم تشديدها، وعدم زيادة واو ساكنة، أو متحركة بين الكلمتين، وعدم واو قبل الجلالة، وعدم وقفة طويلة بين كلمتيه [2].

وكذلك من أركان الصلاة الواجبة على اللسان قراءة سورة الفاتحة في كل ركعة في قيامها، تنفيذا للخبر الدال على صيغة الأمر فيما رواه

---

(١) مسائل الإمام أحمد بن حنبل وابن راهويه لإسحاق بن منصور بن بهرام الكوسج أبو يعقوب التميمي المروزي ١/ ١٠٩ - ١١٠ نشر دار الهجرة الرياض.

(٢) الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع لمحمد الشربيني الخطيب ١/١٣٠.

البخاري من حديث عبادة بن الصامت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لا صَلاةَ لَمَنْ لم يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الكِتَابِ)[1]. أي في كل ركعة، وكذلك من أركان الصلاة الواجبة على اللسان التشهد في الجلوس الأخير، والصلاة على النبي ﷺ فيه، والتسليمة الأولى، لما روى عند أحمد وصححه الألباني من حديث علي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مفتاح الصلاة الطهور، وتحريمها التكبير، وتحليلها التسليم)[2].

أما أعمال الجوارح الواجبة في الصلاة القيام في الفرض مع القدرة عليه، وهو من أركان الصلاة لما ورد عند البخاري من حديث عِمْرَان بْن حُصَيْن ﷺ أنه قال: (كَانَتْ بِي بَوَاسِيرُ، فَسَأَلتُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ الصَّلاةِ؟ فَقَالَ: صَلِ قَائِما، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ)[3]. وأجمعت الأمة على ذلك وهو معلوم من الدين بالضرورة، وشرط القيام نصب ظهر المصلي، فإن وقف منحنيا قدامه أو خلفه أو مائلا إلى يمينه أو يساره بحيث لا يسمى قائما لم يصح قيامه لتركه الواجب بلا عذر، والانحناء السالب للاسم أن يصير إلى الركوع أقرب. ولو استند إلى شيء كجدار أجزأه مع الكراهة[4].

---

(١) رواه البخاري في كتاب صفة الصلاة، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر ومايجهر فيها وما يخافت ١/٢٦٣ (٧٢٣).

(٢) رواه أحمد في المسند ١/١٢٣ (١٠٠٦)، وصححه الألباني، انظر إرواء الغليل (٣٠١)، وصحيح الجامع (٥٨٨٥).

(٣) البخاري في أبواب تقصير الصلاة، باب إذا لم يطق قاعدا ١/٣٧٦ (١٠٦٦).

(٤) الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع لمحمد الشربيني الخطيب ١/١٢٩.

وكذلك من أركان الصلاة التي هي من أعمال الجوارح الركوع لقوله تعالى اركعوا ولخبر إذا قمت إلى الصلاة وللإجماع، وأقل الركوع في حق القائم هو أن ينحني انحناء خالصا لا انخناس فيه، قدر بلوغ راحتي يدي المعتدل خلقة ركبتيه إذا أراد وضعهما، فإن عجز عما ذكر إلا بمعين ولو باعتماد على شيء أو انحناء على شقه لزمه.

وكذلك من أعمال الجوارح اللازمة في الصلاة الطمأنينة في الركوع لحديث المسيء صلاته، وأقلها أن تستقر أعضاؤه راكعا، بحيث ينفصل رفعه عن ركوعه عن هويه وسقوطه، فلا تقوم زيادة الهوي مقام الطمأنينة، ولا يقصد بالهوي غير الركوع. وكذلك من أركان الصلاة المتعلقة بالجوارح الاعتدال ولو لنافلة والطمأنينة فيه، ويحصل بعود البدء بأن يعود إلى ما كان عليه قبل ركوعه قائما كان أو قاعدا[1].

ومن أركان الصلاة السجود مرتين في كل ركعة والطمأنينة فيه أي السجود، ويجب أن يصيب محل سجوده ثقل رأسه، وكذلك من أركان الصلاة الجلوس بين السجدتين، ولو في نفل والطمأنينة فيه والجلوس الأخير لأنه محل ذكر واجب فكان واجبا كالقيام لقراءة الفاتحة.

والأصل في ذلك هو تنفيذ أمر النبي ﷺ في توجيه أمته وإرشاده لهم في كيفية أداء الصلاة في الإسلام كحديث المسيء صلاته الذي رواه روى البخاري من حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ دخل المَسْجِدَ، فَدَخَلَ رَجُل فَصَلى، فَسَلمَ على النبي ﷺ فَرَدَّ وقال: ارْجِعْ

(١) السابق ١/١٣٥ بتصرف.

فَصَلِّ فَإِنَّكَ لم تُصَلِّ، فَرَجَعَ يُصَلي كما صلى، ثُمَّ جاء فَسَلَّمَ على النبي ﷺ فقال: ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لم تُصَلِّ ثلاثا، فقال: وَالذِي بَعَثكَ بِالحَقِّ ما أُحْسِنُ غَيْرَهُ فَعَلمْنِي، فقال: إذا قُمْتَ إلى الصَّلاةِ فَكَبِّرْ، ثمَّ اقْرَأْ ما تَيَسَّرَ مَعَكَ من القُرْآن، ثمَّ ارْكَعْ حتى تَطْمَئِنَّ رَاكِعا، ثمَّ ارْفَعْ حتى تعتدل قَائِما، ثمَّ اسْجُدْ حتى تَطْمَئِنَّ سَاجِدا، ثمَّ ارْفَعْ حتى تَطْمَئِنَّ جَالسا، وَافْعَل ذلك في صَلاتِكَ كُلِّهَا[1].

ونظرا لما انتشر في عصرنا من كلام محدث في قضية الإيمان استمده أصحابه من مذهب المرجئة حين أخرجوا عمل الجوارح من الإيمان، وزعموا أن الإيمان يكون في القلب مع انتفاء أعمال الجوارح بالكلية، وأنه لو زالت جميع الأعمال سوى الشهادتين، لم يخرج بذلك من الإسلام، فإن الأمر يتطلب مزيدا من بيان القواعد في مسألة العمل ومنزلته من الإيمان.

- أعمال الجوارح لا يتصور وجود الإيمان مع انتفائها بالكلية.

ورد الأمر في كتاب الله وسنة رسوله بالعمل، ولا يتصور وقوع العمل إلا بالجوارح، وإن كان باعثه عمل القلب، ولا يمكن صرف الأمر بالعمل المؤدي إلى النجاة من النار إلى باعث العمل في القلب وحده مع انتفاء عمل الجوارح.

---

(١) رواه البخاري في كتاب صفة الصلاة، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر ١/٢٦٣ (٧٢٤)، ومسلم في كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة ١/٢٩٨ (٣٩٧).

روى مسلم من حديث جابر بن عبد الله ﷺ أن سراقة بْن مَالكٍ ﷺ قَال: (يا رَسول اللهِ، بَين لنا دِيننا كأنا خُلقْنا الآن؟ فِيما العَمَل اليوْمَ؟ أَفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقْلامُ وَجرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ؟ أَمْ فِيمَا نستَقْبِل؟ قَال: لا، بَل فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقْلامُ وَجرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ. قَال: فَفِيمَ العَمَل؟ قَال: اعْمَلوا فَكُل مُيسرٌ لعَمَلهِ) [(١)].

وروى مسلم من حديث علي ﷺ أنه قال: (كَانَ رَسُول اللهِ ﷺ ذاتَ يَوْمٍ جَالسا وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَال: مَا مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ إلا وَقَدْ عُلمَ مَنْزِلهَا مِنْ الجَنَّةِ وَالنَّارِ. قَالوا: يَا رَسُول اللهِ، فَلمَ نَعْمَلٍ؟ أَفَلا نَتَّكِل؟ قَال: لا. اعْمَلوا، فَكُل مُيَسَّرٌ لمَا خُلقَ لهُ، ثمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠)﴾ الليل:٥/١٠) [(٢)].

ولم يقل النبي ﷺ اعملوا بقلوبكم وإن انعدم العمل وتعطلت جوارحكم، لأن الجوارح تباشر الأسباب المؤدية للجنة أو النار، ولو عدمت لكان تواكلا واتكالا على القدر في دخول الجنة والنار، ولذلك فإن الجوارح حتما كواسب العمل ولا بد من وجودها لصحة الدين والإيمان والإسلام والعقل الصريح والفطرة السليمة.

---

(١) رواه مسلم في كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ٤/٢٠٤٠ (٢٦٤٨).

(٢) رواه البخاري في كتاب القدر، باب وكان أمر الله قدرا مقدورا ٦/٢٤٣٥ (٦٢٣١)، ومسلم في كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ٤/٢٠٤٠ (٢٦٤٧).

وقال الله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ الأنعام:٥٩/٦٠.

قال ابن بطة: (أخبر الله تعالى في كتابه في آي كثيرة منه أن الإيمان لا يكون إلا بالعمل وأداء الفرائض بالقلوب والجوارح، وبين ذلك رسول الله ﷺ وشرحه في سنته وأعلمه أمته. وكان مما قال الله تعالى في كتابه مما أعلمنا أن الإيمان هو العمل، وأن العمل من الإيمان ما قاله في سورة البقرة: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ البقرة:١٧٧. فانتظمت هذه الآية أوصاف الإيمان وشرائطه من القول والعمل والإخلاص. ولقد سأل أبو ذر النبي ﷺ عن الإيمان فقرأ عليه هذه الآية) [(١)]. ومما ورد عن أصحاب المنهج السلفي في تلازم عمل الجوارح الظاهرة وأعمال القلوب الباطنة لا يمكن تصور وجود أحدهما دون الآخر، سئل سهل بن عبد الله التستري عن الإيمان ما هو؟ فقال: هو قول ونية وعمل وسنة؛ لأن الإيمان إذا كان قولا بلا عمل فهو كفر، وإذا كان قولا وعملا بلا نية

(١) الإبانة لابن بطة ٢/٧٧١.

فهو نفاق، وإذا كان قولا وعملا ونية بلا سنة فهو بدعة[1].

قال ابن رجب: (والمشهور عن السلف وأهل الحديث أن الإيمان: قول وعمل ونية، وأن الأعمال كلها داخلة في مسمى الإيمان، وحكى الشافعي على ذلك إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن أدركهم، وأنكر السلف على من أخرج الأعمال عن الإيمان إنكارا شديدا، وممن أنكر ذلك على قائله، وجعله قولا محدثا سعيد بن جبير وميمون بن مهران، وقتادة وأيوب السّختياني، وإبراهيم النخعي والزهري ويحيى بن أبي كثير وغيرهم. وقال الثوري: هو رأي محدث، أدركنا الناس على غيره[2]. وقال الأوزاعي: كان من مضى من السلف لا يفرقون بين العمل والإيمان[3]) [4].

وقد ذكر أبو طالب المكي أن مثل الإسلام من الإيمان كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى في المعنى والحكم، فشهادة الرسول غير شهادة التوحيد؛ فهما شيئان في الأعيان، وإحداهما مرتبطة بالأخرى؛ فهما كشيء واحد، لا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له، إذ لا يخلو المسلم من إيمان به يصحّ إسلامه، ولا بدّ للمسلم من

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٧١/٧.
(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة ٣١١/١.
(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ٨٨٦/٥، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان نشر دار طيبة الرياض، وحلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ١٤٤/٦، وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٩٦/٧.
(٤) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص٢٧.

إيمان به يحقّ إيمانه، من حيث اشترط اللّه سبحانه وتعالى للأعمال الصالحة الإيمان، واشترط للإيمان الأعمال الصالحة، فقال في تحقيق ذلك: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ الأنبياء:٩٤. وقال في تحقيق الإيمان بالعمل: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾﴾ طه:٧٥.

ومن كان ظاهره أعمال الإسلام لا يرجع إلى عقود الإيمان بالغيب، فهو منافق نفاقا ينقل عن الملّة، ومن كان عقده الإيمان بالغيب لا يعمل بأحكام الإيمان وشرائع الإسلام؛ فهو كافر كفرا لا يثبت معه توحيد، ومن كان مؤمنا بالغيب مما أخبر به الرسول عن اللّه سبحانه عاملا بما أمر به فهو مؤمن مسلم، ولولا أنه كذلك لكان المؤمن يجوز أن لا يسمى مسلما، ولجاز أن لا يسمّى كل مسلم مؤمنا باللّه تعالى ورسله وكتبه، ومثل الإيمان من الأعمال كمثل القلب من الجسم لا ينفك أحدهما من الآخر، لا يكون ذو جسم حيّ لا قلب له، ولا ذو قلب لا جسم له؛ فهما سببان منفردان، وفي المعنى والحكم متصلان، فكذلك أعمال الإسلام من الإيمان، الإسلام هو ظاهر الإيمان وهو أعمال الجوارح، والإيمان باطن الإسلام وهو أعمال القلوب، فالإسلام أعمال الإيمان والإيمان، عقود الإسلام، فلا إيمان إلاّ بعمل، ولا عمل إلاّ بعقد(١).

ومثل ذلك مثل العلم الظاهر والباطن؛ أحدهما مرتبط بصاحبه من أعمال القلوب وأعمال الجوارح، فمثل العمل من الإيمان كمثل الشفتين

---

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي ٢/٢١٦ بتصرف.

من اللسان، لا يصحّ الكلام إلاّ بهما، لأنّ الشفتين تجمع الحروف، واللسان يظهر الكلام، وفي سقوط أحدهما بطلان الكلام، كذلك في سقوط العمل ذهاب الإيمان، ولذلك عدد الله تعالى في نعمته على الإنسان بالكلام ذكر الشفتين مع اللسان، فعبّر عن الكلام باللسان والشفتين لأنهما مكان له، وذكره الشفتين لأنّ الكلام الذي جرت النعمة به لا يتمّ إلاّ بهما، ومثل الإيمان والإسلام أيضا كفسطاط قائم في الأرض له ظاهر متجاف وأطناب، وله عمود في باطنه، فالفسطاط مثل الإسلام له أركان من أعمال العلانية والجوارح وهي الأطناب التي تمسك أرجاء الفسطاط، والعمود الذي في باطن الفسطاط مثله كالإيمان لا قوام للفسطاط إلاّ به، فقد احتاج الفسطاط إليهما، إذ لا استقامة له ولا قوة إلاّ بهما، كذلك الإسلام من أعمال الجوارح، ولا قوام له إلاّ بالإيمان، والإيمان من أعمال القلوب لا نفع له إلاّ بالإسلام؛ وهو صالح الأعمال، فلا إيمان باطن إلاّ بإسلام ظاهر، ولا إسلام علانية إلاّ بالإيمان سرّ، وأنّ الإيمان والعمل قرينان لا ينفع أحدهما بغير صاحبه، ولا يصحّ أحدهما إلاّ بالآخر، كما لا يصحان ولا يوجدان معا إلاّ بنفي ضدهما وهو الكفر[1].

ونقل أيضا أن الأمة مجمعة أنّ العبد لو آمن بجميع ما ذكرناه من عقود القلب في حديث جبريل عليه السلام من وصف الإيمان، ولم يعمل بما ذكر من وصف الإسلام بأعمال الجوارح لا يسمّى مؤمنا، وأنه إن عمل بجميع ما وصف به الإسلام ثم لم يعتقد ما وصفه من

(١) السابق ٢/٢١٧ بتصرف.

الإيمان أنه لا يكون مسلما. وقد أخبر النبي ﷺ أنّ الأمة لا تجتمع على ضلالة[١].

قال الآجري: (فالأعمال رحمكم الله تعالى بالجوارح تصديق عن الإيمان بالقلب واللسان، فمن لم يصدق الإيمان بعمله وبجوارحه مثل الطهارة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد، وأشباه لهذه، ورضي من نفسه بالمعرفة والقول، لم يكن مؤمنا، ولم ينفعه المعرفة والقول، وكان تركه للعمل تكذيبا منه لإيمانه، وكان العمل بما ذكرناه تصديقا منه لإيمانه) [٢].

- اعتقاد ابن تيمية وابن القيم في التلازم بين أعمال القلب والجوارح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقول القائل الطاعات ثمرات التصديق الباطن، يراد به شيئان: يراد به أنها لوازم له، فمتى وجد الإيمان الباطن وجدت، وهذا مذهب السلف وأهل السنة. ويراد به أن الإيمان الباطن قد يكون سببا، وقد يكون الإيمان الباطن تاما كاملا وهي لم توجد، وهذا قول المرجئة من الجهمية وغيرهم) [٣].

وقال ابن تيمية: (القرآن والسنة مملوءان بما يدل على أن الرجل لا يثبت له حكم الإيمان إلا بالعمل مع التصديق، وهذا في القرآن أكثر بكثير من معنى الصلاة والزكاة، فإن تلك إنما فسرتها السنة، والإيمان

(١) السابق ٢/٢١٩ بتصرف.
(٢) كتاب الشريعة لأبي بكر الآجري ٢/٦١٤.
(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/٣٦٣.

بين معناه الكتاب والسنة وإجماع السلف)[1].

وقال ابن تيمية: (وقد تبين أن الدين لابد فيه من قول وعمل، وأنه يمتنع أن يكون الرجل مؤمنا بالله ورسوله بقلبه أو بقلبه ولسانه ولم يؤد واجبا ظاهرا، ولا صلاة ولا زكاة ولا صياما ولا غير ذلك من الواجبات، لا لأجل أن الله أوجبها، مثل أن يؤدي الأمانة ويصدق الحديث، أو يعدل في قسمه وحكمه، من غير إيمان بالله ورسوله، لم يخرج بذلك من الكفر، فإن المشركين وأهل الكتاب يرون وجوب هذه الأمور، فلا يكون الرجل مؤمنا بالله ورسوله مع عدم شيء من الواجبات التي يختص بإيجابها محمد ﷺ)[2].

وقال ابن تيمية أيضا: (ومن الممتنع أن يكون الرجل مؤمنا إيمانا ثابتا في قلبه؛ بأن الله فرض عليه الصلاة والزكاة والصيام والحج ويعيش دهره لا يسجد لله سجدة؛ ولا يصوم من رمضان؛ ولا يؤدي لله زكاة؛ ولا يحج إلى بيته، فهذا ممتنع، ولا يصدر هذا إلا مع نفاق في القلب وزندقته؛ لا مع إيمان صحيح، ولهذا إنما يصف سبحانه بالامتناع عن السجود الكفار)[3].

وقال رحمه الله: (لو قدر أن قوما قالوا للنبي: نحن نؤمن بما جئتنا به بقلوبنا من غير شك، ونقر بألسنتنا بالشهادتين إلا أنا لا نطيعك في شيء مما أمرت به ونهيت عنه، فلا نصلى ولا نصوم ولا نحج ولا نصدق

---

(١) السابق ١٢٨/٧.

(٢) السابق ٦٢١/٧.

(٣) السابق ٦١١/٧.

الحديث، ولا نؤدي الأمانة ولا نفى بالعهد، ولا نصل الرحم ولا نفعل شيئا من الخير الذي أمرت به، ونشرب الخمر، وننكح ذوات المحارم بالزنا الظاهر، ونقتل من قدرنا عليه من أصحابك وأمتك، ونأخذ أموالهم، بل نقتلك أيضا، ونقاتلك مع أعدائك، هل كان يتوهم عاقل أن النبي ﷺ يقول لهم: أنتم مؤمنون كاملوا الإيمان، وأنتم من أهل شفاعتي يوم القيامة، ويرجى لكم أن لا يدخل أحد منكم النار، بل كل مسلم يعلم بالاضطرار أنه يقول لهم: أنتم أكفر الناس بما جئت به ويضرب رقابهم إن لم يتوبوا من ذلك، وكذلك كل مسلم يعلم أن شارب الخمر والزاني والقاذف والسارق لم يكن النبي يجعلهم مرتدين يجب قتلهم، بل القرآن والنقل المتواتر عنه يبين أن هؤلاء لهم عقوبات غير عقوبة المرتد عن الإسلام) [1].

وقال ابن تيمية: (الإيمان عند أهل السنة والجماعة قول وعمل كما دل عليه الكتاب والسنة وأجمع عليه السلف، وعلى ما هو مقرر في موضعه. فالقول تصديق الرسول، والعمل تصديق القول، فإذا خلا العبد عن العمل بالكلية لم يكن مؤمنا، والقول الذي يصير به مؤمنا قول مخصوص، وهو الشهادتان فكذلك العمل هو الصلاة) [2].

قال ابن تيمية: (إذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للإرادة لزم وجود الأفعال الظاهرة، فإن الإرادة الجازمة إذ اقترنت بها القدرة التامة لزم وجود المراد قطعا، وإنما ينتفي وجود الفعل

---

(١) السابق ٧/٢٨٧.

(٢) شرح العمدة في الفقه لابن تيمية ٤/٨٦ نشر مكتبة العبيكان الرياض.

الاختياري، فإذا أقر القلب إقرارا تاما بأن محمدا رسول الله، وأحبه محبة تامة امتنع مع ذلك أن لا يتكلم بالشهادتين مع قدرته على ذلك، لكن إن كان عاجزا لخرس ونحوه أو لخوف ونحوه لم يكن قادرا على النطق بهما، وأبو طالب وإن كان عالما بأن محمدا رسول الله، وهو محب له، فلم تكن محبته له لمحبته لله، بل كان يحبه لأنه ابن أخيه، فيحبه للقرابة، وإذا أحب ظهوره، فلما يحصل له بذلك من الشرف والرئاسة، فأصل محبوبه هو الرئاسة، فلهذا لما عرض عليه الشهادتين عند الموت رأى أن بالإقرار بهما زوال دينه الذي يحبه، فكان دينه أحب إليه من ابن أخيه فلم يقر بهما، فلو كان يحبه لأنه رسول الله كما كان يحبه أبو بكر الذي قال الله فيه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾ الليل:١٧/٢١.

وكما كان يحبه سائر المؤمنين به كعمر وعثمان وعلي وغيرهم لنطق بالشهادتين قطعا، فكان حبه حبا مع الله لا حبا لله، ولهذا لم يقبل الله ما فعله من نصر الرسول ومؤازرته، لأنه لم يعمله لله، والله لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه، بخلاف الذي فعل ما فعل ابتغاء وجه ربه الأعلى، وهذا مما يحقق أن الإيمان والتوحيد لا بد فيهم من عمل القلب كحب القلب فلا بد من إخلاص الدين لله والدين لا يكون دينا إلا بعمل، فإن الدين يتضمن الطاعة والعبادة)[1].

وقال ابن القيم: (الإيمان له ظاهر وباطن، وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته، فلا ينفع ظاهر لا

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٧٣/١٠، والفتاوى الكبرى ٢٤٥/٥.

باطن له وإن حقن به الدماء وعصم به المال والذرية . ولا يجزئ باطن لا ظاهر له إلا إذا تعذّر بعجز أو إكراه وخوف هلاك. فتخلف العمل ظاهرا مع عدم المانع دليل على فساد الباطن وخلوه من الإيمان) (١).

وقال ابن القيم أيضا: (فكل إسلام ظاهر لا ينفذُ صاحبُه منه إلى حقيقة الإيمان الباطنة، فليس بنافع حتى يكون معه شيء من الإيمان الباطن. وكل حقيقة باطنة لا يقوم صاحبُها بشرائع الإسلام الظاهرة لا تنفع ولو كانت ما كانت، فلو تمزق القلب بالمحبة والخوف ولم يتعبد بالأمر وظاهر الشرع لم يُنْجه ذلك من النار، كما أنه لو قام بظواهر الإسلام وليس في باطنه حقيقة الإيمان لم يُنْجه من النار) (٢).

قال ابن القيم: (لا يصر على ترك الصلاة إصرارا مستمرا من يصدّق بأن الله أمر بها أصلا، فإنه يستحيل في العادة والطبيعة أن يكون الرجل مصدقا تصديقا جازما أن الله فرض عليه كل يوم وليلة خمس صلوات، وأنه يعاقبه على تركها أشد العقاب، وهو مع ذلك مُصرٌّ على تركها، هذا من المستحيل قطعا، فلا يحافظ على تركها مصدّق بفرضها أبدا، فإن الإيمان يأمر صاحبه بها، فحيث لم يكن في قلبه ما يأمر بها، فليس في قلبه شيء من الإيمان.. وهذا القدر هو الذي خفي على من جعل الإيمان مجرد التصديق، وإن لم يقارنه فعل واجب ولا ترك محرم، وهذا من أمحل المحال أن يقوم بقلب العبد إيمان جازم لا يتقاضاه فعل طاعة

---

(١) الفوائد لابن القيم ص٨٥ نشر دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) السابق ص١٤٢.

ولا ترك معصية)[1].

- **قواعد لا بد منها في فهم حقيقة العمل والإيمان .**

١- من القواعد التي نفهم بها حقيقة العمل وموقعه من الإيمان أن الكفر والإيمان متقابلان، إذا زال أحدهما أو بعضه خلفه الآخر، لأن الإيمان لما كان أصلا له شعب متعددة، وكل شعبة منها تسمى إيمانا، فالصلاة من الإيمان، وكذلك الزكاة والحج والصيام، والأعمال الباطنة كالحياء والتوكل والخشية من الله والإنابة إليه، حتى تنتهي هذه الشعب إلى إماطة الأذى عن الطريق، فإنه شعبة من شعب الإيمان، وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها، كشعبة الشهادة ومنها ما لا يزول بزوالها كترك إماطة الأذى عن الطريق، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتا عظيما، منها ما يلحق بشعبة الشهادة ويكون إليها أقرب، ومنها ما يلحق بشعبة إماطة الأذى ويكون إليها أقرب. فكما أن شعب الإيمان إيمان، فكذلك الكفر ذو أصل وشعب، فشعب الكفر كفر، والحياء شعبة من الإيمان، وقلة الحياء شعبة من شعب الكفر، والصدق شعبة من شعب الإيمان، والكذب شعبة من شعب الكفر، والصلاة والزكاة والحج والصيام من شعب الإيمان، وتركها من شعب الكفر، والحكم بما أنزل الله من شعب الإيمان، والحكم بغير ما أنزل الله من شعب الكفر، والمعاصي كلها من شعب الكفر كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان[2].

---

(١) الصلاة وحكم تاركها لابن القيم ص٦٠.

(٢) السابق ص٧٠ بتصرف.

٢- ومن القواعد التي نفهم بها حقيقة العمل والإيمان أن شعب الإيمان قسمان قولية وفعلية، وكذلك شعب الكفر نوعان، قولية وفعلية، ولما كان من شعب الإيمان القولية شعبة يوجب زوالها زوال الإيمان، فكذلك من شعبة الفعلية ما يوجب زوالها زوال الإيمان، وكذلك شعب الكفر القولية والفعلية فكما يكفر بالإتيان بكلمة الكفر اختيارا، وهي شعبة من شعب الكفر، فكذلك يكفر بفعل شعبة من شعبه كالسجود للصنم والاستهانة بالمصحف وغير ذلك[١].

٣- ومن القواعد التي نفهم بها حقيقة العمل الإيمان أن الإيمان حقيقة مركبة من قول وعمل، والقول قسمان قول القلب وهو الاعتقاد وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الإسلام، والعمل قسمان عمل القلب وهو نيته وإخلاصه، وعمل الجوارح، فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله، وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء، فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة. وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق، فهذا موضع المعركة بين المرجئة وأهل السنة، فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب، وهو محبته وانقياده كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول، بل ويقرون به سرا وجهرا، ويقولون ليس بكاذب، ولكن لا نتبعه ولا نؤمن به.

وإذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب، فغير مستنكر أن يزول بزوال أعظم أعمال الجوارح، ولاسيما إذا كان ملزوما لعدم محبة

---

(١) السابق ص٧١ بتصرف.

القلب وانقياده، الذي هو ملزوم لعدم التصديق الجازم، فإنه يلزمه من عدم طاعة القلب عدم طاعة الجوارح، إذ لو أطاع القلب وانقاد أطاعت الجوارح وانقادت، ويلزم من عدم طاعته وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة، وهو حقيقة الإيمان، فإن الإيمان ليس مجرد التصديق، وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد، وهكذا الهدى ليس هو مجرد معرفة الحق وتبينه، بل هو معرفته المستلزمة لاتباعه والعمل بموجبه، وإن سمي الأول هدى فليس هو الهدى التام المستلزم للاهتداء، كما أن اعتقاد التصديق وإن سمي تصديقا، فليس هو التصديق المستلزم للإيمان[1].

٤- ومن القواعد التي نفهم بها حقيقة العمل الإيمان أنه لا يلزم من قيام شعبة من شعب الإيمان بالعبد، أن يسمى مؤمنا، وإن كان ما قام به إيمانا، ولا من قيام شعبة من شعب الكفر به أن يسمى كافرا، وإن كان ما قام به كفرا، كما أنه لا يلزم من قيام جزء من أجزاء العلم به أن يسمى عالما، ولا من معرفة بعض مسائل الفقه والطب أن يسمى فقهيا ولا طبيبا، ولا يمنع ذلك أن تسمى شعبة الإيمان إيمانا وشعبة النفاق نفاقا وشعبة الكفر كفرا، وقد يطلق عليه الفعل كقوله ﷺ: فمن تركها فقد كفر[2]. وقوله ومن حلف بغير الله فقد كفر[3]. وقوله: من أتى

---

(١) السابق ص٧١ بتصرف.

(٢) الترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة ١٣/٥ (٢٦٢١)، وصححه الألباني في المشكاة (٥٧٤.

(٣) رواه الترمذي في كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله ١١٠/٤ (١٥٣٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٠٤٢).

كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر[١]، ومن حلف بغير الله فقد كفر. فمن صدر منه خلة من خلال الكفر فلا يستحق اسم كافر على الإطلاق، وكذا يقال لمن ارتكب محرما إنه فعل فسوقا، وإنه فسق بذلك المحرم ولا يلزمه اسم فاسق إلا بغلبة ذلك عليه وهكذا الزاني والسارق والشارب والمنتهب لا يسمى مؤمنا وإن كان معه إيمان كما أنه لا يسمى كافرا وإن كان ما أتى به من خصال الكفر وشعبه إذ المعاصي كلها من شعب الكفر كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان، وأن سلب الإيمان من تارك الصلاة أولى من سلبه عن مرتكب الكبائر، وسلب اسم الإسلام عنه أولى من سلبه عمن لم يسلم المسلمون من لسانه ويده، فلا يسمى تارك الصلاة مسلما ولا مؤمنا وإن كان شعبة من شعب الإسلام والإيمان، نعم يبقى أن يقال فهل ينفعه ما معه من الإيمان في عدم الخلود في النار فيقال ينفعه إن لم يكن المتروك شرطا في صحة الباقي واعتباره، وإن كان المتروك شرطا في اعتبار الباقي لم ينفعه، ولهذا لم ينفع الإيمان بالله ووحدانيته وأنه لا إله إلا هو من أنكر رسالة محمد، ولا تنفع الصلاة من صلاها عمدا بغير وضوء، فشعب الإيمان قد يتعلق بعضها ببعض تعلق المشروط بشرطه، وقد لا يكون كذلك[٢].

ويبقى النظر في الصلاة، هل هي شرط لصحة الإيمان؟ تدل الأدلة على أنه لا يقبل من العبد شيء من أعماله إلا بفعل الصلاة، فهي مفتاح

---

(١) رواه البزار ٥/٢٥٦ (١٨٧٣)، وقال الألباني صحيح لغيره.

(٢) الصلاة وحكم تاركها لابن القيم ص٨١.

ديوانه، ورأس مال ربحه، ومحال بقاء الربح بلا رأس مال، فإذا خسرها خسر أعماله كلها، وإن أتى بها صورة أشار إلى هذا في قوله فإن ضيعها فهو لما سواها أضيع، وفي قوله: إن أول ما ينظر في شيء من أعماله، والعجب أن يقع الشك في كفر من أصر على تركها ودعي إلى فعلها على رؤوس الملأ وهو يرى بارقة السيف على رأسه ويشد للقتل وعصبت عيناه وقيل له تصلي وإلا قتلناك فيقول اقتلوني ولا أصلي أبدا، ومن لا يكفر تارك الصلاة يقول هذا مؤمن مسلم يغتسل ويصلي عليه ويدفن في مقابر المسلمين، وبعضهم يقول إنه مؤمن كامل الإيمان إيمانه كإيمانه جبريل وميكائيل، أفلا يستحي من هذا قوله من إنكاره تكفير من شهد بكفره الكتاب والسنة واتفاق الصحابة(١).

٥- ومن القواعد التي نفهم بها حقيقة العمل الإيمان عند أهل السنة أن الدين والإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما يفعله الخوارج، بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي، كما قال تعالى في آية القصاص: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ البقرة:١٧٨.

وقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ الحجرات:٩/١٠.

---

(١) السابق ص٨١: ٨٢ بتصرف.

ولا يسلبون الفاسق الملي اسم الإيمان بالكلية، ولا يخلدونه في النار كما تقوله المعتزلة، بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان في مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَن يَصَّدَّقُوا﴾ النساء:٩٢.

وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ الأنفال:٢.

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لا يَزْنِي الزَّانِي حين يَزْنِي وهو مُؤْمِنٌ، ولا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حين يَشْرَبُ وهو مُؤْمِنٌ، ولا يَسْرِقُ حين يَسْرِقُ وهو مُؤْمِنٌ، ولا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً يَرْفَعُ الناس إليه فيها أَبْصَارَهُمْ وهو مُؤْمِنٌ) (١).

ويقولون هو مؤمن ناقص الإيمان أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يعطى الاسم المطلق ولا يسلب مطلق الاسم(٢).



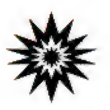
---

(١) رواه البخاري في كتاب الحدود، باب ما يحذر من الحدود الزنا وشرب الخمر ٦/٢٤٨٧ (٦٣٩٠)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصى ونفيه عن المتلبس بالمعصية ١/٧٦ (٥٧).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣/١٥٢ بتصرف.

المطلب العاشر

الكبائر وضوابطها وأنواعها المتعلقة بالقلب واللسان والجوارح



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن أحكام العبودية المتعلقة بالجوارح وأثرها في فهم حقيقة الإيمان، وبينا موقع الجوارح في توحيد العبادة وحقيقة الإيمان، وأن الجزاء واقع على العمل، وأعمال الجوارح ركن فيه، كما تحدثنا عن التكليف وتعلقه بأعمال الجوارح والاستطاعة والوسع، ثم ذكرنا بصورة مجملة أحكام العبودية المتعلقة بحاسة السمع وكذلك البصر والتذوق والشم واللمس من الجوارح.

وعلمنا أن أعمال الجوارح مرتبطة بالقلب واللسان في تحقيق أحكام العبودية، وأن أعمال الجوارح لا يتصور وجود الإيمان مع انتفائها بالكلية، وبينا اعتقاد ابن تيمية وابن القيم في التلازم بين أعمال القلب والجوارح، ثم تحدثنا عن بعض القواعد التي لا بد منها في فهم حقيقة العمل والإيمان.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن أنواع الكبائر والصغائر المتعلقة بالقلب واللسان والجوارح والتي يقع فيها الظالمون لأنفسهم ممن أورثهم الله الكتاب والسنة.

- الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر بنص القرآن والسنة.

قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ النساء: ٣١.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ النجم: ٣٢.

وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمْعَةُ إِلى الجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذا اجْتُنِبَ الكَبَائِرَ) [1].

كل الذنوب كبائر وليس فيها صغائر على اعتبار النظر إلى عظمة الله ومخالفة أمره، لكنها ليست مستوية في الإثم، فلا يكون إثم النظر المحرم كإثم الوطء في الحرام، فبعضها أكبر من بعض، والذي جاء في لفظ الكتاب والسنة تسمية ذلك لمما ومحقرات [2].

روى أحمد وصححه الألباني من حديث سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذنُوبِ، كَقَوْمٍ نَزَلوا فِي بَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذا بِعُودٍ حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ

---

(١) رواه مسلم في كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر ١/٢٠٩ (٢٣٣).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١/٣١٥ بتصرف.

مُحقَّرَاتِ الذنُوبِ مَتَى يُؤْخَذ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلكْهُ) [1].

وقد قيل إن اللمم المذكور في الآية من الكبائر، ومعنى الاستثناء أن يلم بالكبيرة مرة ثم يتوب منها، ويقع فيها ثم ينتهي عنها، لا يتخذها دأبه، وعلى هذا يكون استثناء اللمم من الاجتناب، إذ معناه لا يصدر منهم، ولا تقع منهم الكبائر إلا لمما، والجمهور على أنه استثناء من الكبائر، فالمعنى لا يأتون ولا يفعلون كبائر الإثم والفواحش، فحسن استثناء اللمم، وقد دلت النصوص وإجماع السلف على انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر [2].

وأما اللمم فقد روي عن جماعة من السلف كأبي هريرة والحسن وابن عباس ومجاهد ﷺ أنه الإلمام بالذنب مرة ثم لا يعود إليه، وإن كان كبيرا، وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن اللمم ما دون الشرك، والجمهور على أن اللمم ما دون الكبائر من صغائر الذنوب ونحو ذلك.

وذكر الكلبي أن اللمم على وجهين: كل ذنب لم يذكر الله عليه حدا في الدنيا ولا عذابا في الآخرة، فذلك الذي تكفره الصلوات الخمس ما لم يبلغ الكبائر والفواحش، والوجه الآخر هو الذنب العظيم يلم به المسلم المرة بعد المرة فيتوب منه [3].

---

(١) رواه أحمد في المسند ٥/٣٣١ (٢٢٨٦٠)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٣١٠٢).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١/٣١٥ :٣١٦ بتصرف.

(٣) السابق ١/٣١٦ بتصرف.

وروى أحمد وصححه الألباني من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن النَّبِي ﷺ قَال: (العَيْنُ تَزْنِي، وَالقَلبُ يَزْنِي، فَزِنَا العَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا القَلبِ التَّمَنِّي، وَالفَرْجُ يُصَدِّقُ مَا هُنَالكَ أَوْ يُكَذِبُهُ) (١).

والجامع بين أقوال السلف فيمن جعل اللمم من الكبائر أنه ألحق باللمم من ارتكب الكبيرة مرة واحدة ولم يصر عليها، بل حصلت منه فلتة في عمره، ورأى أنها إنما تتغلظ وتكبر وتعظم في حق من تكررت منه مرارا عديدة، وهذا من فقه الصحابة ﷺ وغور علومهم، ولا ريب أن الله يعفو عن عبده المرة والمرتين والثلاث، وإنما الخوف على من اتخذ الذنب عادته، وتكرر منه مرارا كثيرة، وفي ذلك آثار سلفية، والاعتبار بالواقع يدل على هذا (٢).

- لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار.

وهنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر، بل يجعلها في أعلى رتبها، وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب، وهو قدر زائد على مجرد الفعل، والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره، وأيضا فإنه يعفى للمحب ولصاحب الإحسان العظيم ما لا يعفى لغيره، ويسامح بما لا يسامح به غيره (٣).

---

(١) الحديث بهذه الألفاظ عند أحمد في المسند ٢/٣٢٩ (٨٣٣٨).
(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١/٣١٨ بتصرف.
(٣) السابق ١/٣٢٨.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن موسى عليه السلام رمى الألواح التي فيها كلام الله عز وجل الذي كتبه بيده فكسرها، وجر بلحية نبي مثله وهو هارون عليه السلام، ولطم عين ملك الموت ففقأها [(١)]، وعاتب ربه ليلة الإسراء في محمد صلى الله عليه وسلم ورفعه عليه [(٢)]، وربه تعالى يعفو له عن ذلك، ويحبه ويكرمه ويقربه، لأنه قام لله عز وجل مقامات عظيمة في مقابلة أعدى عدو له وهو فرعون، وصدع بأمر الله، وعالج أمتي القبط في مصر وبني إسرائيل في سيناء أشد المعالجة، فكانت هذه الأمور فعلها كالشعرة في البحر، وانظر إلى يونس بن متى عليه السلام حيث لم يكن له هذه المقامات التي لموسى عليه السلام غاضب ربه مرة، فأخذه وسجنه في بطن الحوت، ولم يحتمل له ما احتمل لموسى عليه السلام [(٣)].

وفرق بين من إذا أتى بذنب واحد ولم يكن له من الإحسان والمحاسن ما يشفع له، وبين من إذا أتى بذنب جاءت محاسنه بكل شفيع،

---

(١) روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: (أُرْسِلَ مَلَكُ المَوْتِ إلى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلاَمُ، فَلَمَّا جَاءَهُ صَكَّهُ فَفَقَأَ عَيْنَهُ، فَرَجَعَ إلى رَبِّهِ فَقَال: أَرْسَلتَنِي إلى عَبْدٍ لاَ يُرِيدُ المَوْتَ، قَال: فَرَدَّ اللهُ إليْهِ عَيْنَهُ، وقَال: ارْجِعْ إليْهِ فَقُل لهُ يَضَعُ يَدَهُ عَلى مَتْنِ ثوْرٍ، فَلهُ بِمَا غَطَّتْ يَدُهُ بِكُل شَعْرَةٍ سَنَةٌ، قَال: أي رَبِّ ثمَّ مَهْ، قَال: ثمَّ المَوْتُ، قَال: فَالآنَ، فَسَأَل اللهَ أَنْ يُدْنِيَهُ مِنَ الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ، فَقَال رَسُول اللهِ صلى الله عليه وسلم: فَلوْ كُنْتُ ثمَّ لأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إلى جَانِبِ الطَّرِيقِ تَحْتَ الكَثِيبِ الأَحْمَرِ). انظر صحيح البخاري ١/٤٤٩ (١٢٧٤)، وصحيح مسلم ٤/١٨٤٣ (٢٣٧٢).

(٢) روى البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (وموسى في السابعة بتفضيل كلام الله فقال موسى: رب لم أظن أن ترفع علي أحدا) انظر صحيح البخاري ٦/٢٧٣٠ (٧٠٧٩) .

(٣) مدارج السالكين لابن القيم ١/٣٢٨ بتصرف.

فالأعمال تشفع لصاحبها عند الله، وتذكر به إذا وقع في الشدائد، قال تعالى عن ذي النون: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)﴾ الصافات:١٣٩/١٤٤.

وفرعون لما لم تكن له سابقة خير، وعمل بر يشفع له عند الشدة ووقت الغرق لما قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠)﴾ يونس:٩٠. لم يقبل الله ﷻ توبتة وقال له: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)﴾ يونس:٩١/٩٢.

روى أحمد من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (الذينَ يَذكُرُونَ مِنْ جَلالِ اللهِ مِنْ تَسْبِيحِهِ، وتَحْمِيدِهِ وتَكْبِيرِهِ، وتَهْليلهِ يَتَعَاطَفْنَ حَوْلَ العَرْشِ، لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، يُذكِّرُونَ بِصَاحِبِهِنَّ، أَلا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ لا يَزَال لَهُ عِنْدَ اللهِ شَيْءٌ يُذكِّرُ بِهِ؟)[1].

ولهذا من رجحت حسناته على سيئاته أفلح ولم يعذب، ومحيت له سيئاته لأجل حسناته، ولأجل هذا يغفر لصاحب التوحيد ما لا يغفر لصاحب الإشراك، لأنه قد فعل مما يحبه الله ما اقتضى أن يغفر له ما لا يغفر للمشرك، وكلما كان توحيد العبد أعظم كانت مغفرة الله له أتم، فمن لقيه لا يشرك به شيئا البتة، غفر له ذنوبه كلها كائنة ما كانت،

---

(١) رواه أحمد في المسند ٤/٢٦٨ (١٨٣٨٨)، وابن أبي شيبة في المصنف ٦/٥٤ (٢٩٤١٥)، وصححه الألباني، انظر مختصر العلو ص٧٥.

ولم يعذب بها. ولا يعني هذا أنه لا يدخل النار أحد من أهل التوحيد، بل كثير منهم يدخل بذنوبه، ويعذب على مقدار جرمه، ثم يخرج منها، ولا تنافي بين الأمرين، فأشعة لا إله إلا الله تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه من النور [1].

وتفاوت أهلها في ذلك النور قوة وضعفا لا يحصيه إلا الله تعالى، فمن الناس من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس، ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري، ومنهم من نورها في قلبه كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف، ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة، علما وعملا، ومعرفة وحالا.

وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته، حتى إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف معها شبهة ولا شهوة ولا ذنبا إلا أحرقه، وهذا حال الصادق في توحيده الذي لم يشرك بالله شيئا، فأي ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها، فسماء إيمانه قد حرست بالنجوم من كل سارق لحسناته، فلا ينال منها السارق إلا على غرة وغفلة لا بد منها للبشر، فإذا استيقظ وعلم ما سرق منه، استنقذه من سارقه، أو حصل أضعافه بكسبه، فهو هكذا أبدا مع لصوص الجن والإنس، وهذا ليس كمن فتح لهم خزانته، وولى الباب ظهره [2].

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/٣٢٩ بتصرف.

(٢) السابق ١/٣٣٠ بتصرف.

وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله، وأن الله رب كل شيء ومليكه، كما كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون، بل التوحيد يتضمن من محبة الله ﷻ والخضوع له والذل، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهة الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع والعطاء، والحب والبغض ما يحول بين صاحبه والأسباب الداعية إلى المعاصي والإصرار عليها.

ومن عرف هذا عرف قول النبي ﷺ: إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله(١). وقوله ﷺ: لا يدخل النار من قال لا إله إلا الله. وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث التي أشكلت على كثير من الناس حتى ظنها بعضهم منسوخة، وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهي واستقرار الشرع، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار، وأول بعضهم الدخول بالخلود، وقال: المعنى لا يدخلها خالدا، ونحو ذلك من التأويلات المستكرهة (٢).

والنبي ﷺ لم يجعل ذلك حاصلا بمجرد قول اللسان فقط، فإن هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام، فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم، وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النار، فلا بد من قول القلب واستعداده للعمل وقول اللسان، وقول القلب يتضمن

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن عتبان بن مالك ﷺ، رواه البخاري في أبواب المساجد، باب المساجد في البيوت ١/١٦٤ (٤١٥)، ومسلم في كتاب المساجد، باب الرخصة فى التخلف عن الجماعة بعذر ١/٤٥٥ (٣٣).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١/٣٣١ بتصرف.

من معرفتها، والتصديق بها، ومعرفة حقيقة ما تضمنته من النفي والإثبات، ومعرفة حقيقة الإلهية المنفية عن غير الله، المختصة به التي يستحيل ثبوتها لغيره، وقيام هذا المعنى بالقلب علما ومعرفة، ويقينا وحالا ما يوجب تحريم قائلها على النار.

وكل قول رتب الشارع ما رتب عليه من الثواب، فإنما هو القول التام، كقوله ﷺ: (مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثل زَبَدِ البَحْرِ) [(١)].

وليس هذا مرتبا على مجرد قول اللسان، نعم من قالها بلسانه غافلا عن معناها، معرضا عن تدبرها، ولم يواطىء قلبه لسانه، ولا عرف قدرها وحقيقتها، راجيا مع ذلك ثوابها حطت من خطاياه بحسب ما في قلبه، فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العملين واحدة، وبينهما في التفاضل كما بين السماء والأرض، والرجلان يكون مقامهما في الصف واحدا، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض.

وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة، ويقابلها تسعة وتسعون سجلا، كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات فلا يعذب، ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه، ولكن السر الذي ثقل بطاقة ذلك الرجل، وطاشت لأجله السجلات لما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات، انفردت

---

(١) البخاري في الدعوات، باب فضل التسبيح ٢٣٥٢/٥ (٦٠٤٢)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء ٢٠٧١/٤ (٢٦٩١).

بطاقته بالثقل والرزانة [(١)].

وإذا أردت زيادة الإيضاح لهذا المعنى فانظر إلى ذكر من قلبه ملآن بمحبتك، وذكر من هو معرض عنك، غافل، ساه، مشغول بغيرك، قد انجذبت دواعي قلبه إلى محبة غيرك، وإيثاره عليك، هل يكون ذكرهما واحدا؟ أم هل يكون ولداك اللذان هما بهذه المثابة، أو عبداك، أو زوجتاك عندك سواء؟ وتأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية، وحملته وهو في تلك الحال على أن جعل ينوء بصدره، ويعالج سكرات الموت، فهذا أمر آخر، وإيمان آخر، ولا جرم أنه ألحق بالقرية الصالحة، وجعل من أهلها [(٢)].

وقريب من هذا ما قام بقلب البغي التي رأت ذلك الكلب، وقد اشتد به العطش يأكل الثرى، فقام بقلبها ذلك الوقت مع عدم الآلة، وعدم المعين، وعدم من ترائيه بعملها ما حملها على أن أقدمت بنفسها في نزول البئر، وملء الماء في خفها، ولم تعبأ بتعرضها للتلف، وحملها خفها بفيها وهو ملآن حتى أمكنها الرقي من البئر، ثم تواضعها لهذا

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/٣٣٢ بتصرف، وحديث البطاقة رواه الترمذي في سننه من حديث عبد الله بن عمرو، كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله ٥/٢٤ (٢٦٣٩)، ورواه أحمد في المسند ٢/٢١٣ (٦٩٩٤)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٢٥٦٣)، ومشكاة المصابيح (٥٥٥٩).

(٢) السابق ١/٣٣٢ بتصرف، وحديث توبة قاتل المائة رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم ٣/١٢٨٠ (٣٢٨٣)، ومسلم في التوبة، باب قبول توبة القاتل ٤/٢١١٨ (٢٧٦٦).

المخلوق الذي جرت عادة الناس بضربه، فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب من غير أن ترجو منه جزاء ولا شكورا، فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء فغفر لها (١).

وهكذا الأعمال والعمال عند الله، والغافل في غفلة من هذا الإكسير الكيماوي الذي إذا وضع منه مثقال ذرة على قناطير من نحاس الأعمال قلبها ذهبا (٢).

• تعريف الكبيرة وماهيتها وما ورد في النقل من ضوابطها.

الكبيرة مخالفة الأمر الذي أوجبه الله ﷻ وفرضه على عباده، أو فعل ما نهي الله عنه نهي تحريم مما ترتب عليه حد في الدنيا كالقتل والزنا والسرقة، أو جاء فيه وعيد في الآخرة من عذاب، أو غضب،

---

(١) روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: بَينَما رَجُل يَمشي بِطَريق اشْتَدَّ عَليهِ العَطَشُ، فَوَجَدَ بِئراً فَنَزَل فِيهَا فَشرب، ثمَّ خَرَجَ فإذَا كَلبٌ يَلهَث يأكُل الثرَى مِنَ العَطَش، فَقَال الرَّجُل: لقَدْ بَلغَ هَذَا الكَلبُ مِنَ العَطَش مِثل الذِي كَانَ قَدْ بَلغَ مِنِّي فَنزَل البِئْرَ فَمَلأ خُفَّهُ مَاءً ثمَّ أمْسَكَهُ بفيهِ حَتَّى رَقِيَ، فَسَقَى الكَلبَ، فَشكَرَ اللهُ لهُ، فَغَفرَ لهُ، قالوا: يَا رَسُول اللهِ، إنَّ لنَا فِي البَهَائِمِ أَجْراً ؟ فقَال: فِي كُل كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجْرٌ. وفي رواية لهما: فَشَكَرَ اللَّهُ لهُ، فَغَفرَ لَهُ، فأدْخَلَهُ الجَنَّةَ . وفي رواية لهما: بَيْنَما كَلبٌ يُطِيفُ بِرَكِيَّةٍ قَدْ كَادَ يقتلهُ العَطَشُ إذْ رَأَتْهُ بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِي إسْرَائِيل، فَنَزَعَتْ مُوقَها فاسْتَقَتْ لهُ بِهِ فَسقَتْهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ. البخاري في الأنبياء، باب أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم ١٢٧٩/٣ (٣٢٨٠)، وصحيح مسلم في كتاب السلام، باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها ١٧٦١/٤ (٢٢٤٥).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ٣٣٢/١ بتصرف.

أو تهديد، أو لعن فاعله في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ فإنه كبيرة من الكبائر، وقد تتفاوت الكبائر فيكون بعضها أشد من بعض وفق ما تقرر من العقوبة شدة أو ضعفا (١).

وقد وردت نصوص نبوية متعددة في بيان معنى الكبائر وماهيتها، وأكبر الكبائر التي يجب على المسلمين تجنبها، وكلها نصوص تتكامل في مجموعها مع نصوص القرآن، لتظهر ما حذرنا الله ﷻ منه، ونهي عنه نهيا تكليفيا على سبيل الحتم والإلزام منها:

١- ما رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النَّبيّ ﷺ قَال: (الكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالدَيْنِ، وَقَتْل النَّفْس، وَاليَمِينُ الغَمُوسُ) (٢).

٢- روى البخاري ومسلم من حديث أَبي بكرة نُفَيع بن الحارث رضي الله عنه أن رَسُول الله ﷺ قال: (ألا أُنَبِّئُكُمْ بأكْبَرِ الكَبَائِرِ؟ ثلاثاً قُلنَا: بَلى، يَا رَسُول الله، قَال: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالدَيْنِ، وكان مُتَّكِئاً فَجَلسَ، فَقَال: ألاَ وَقَوْل الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ، فَمَا زَال يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلنَا: ليْتَهُ سَكَتَ) (٣).

---

(١) الكبائر للذهبي ص ٨ بتصرف، نشر دار الندوة الجديدة، بيروت.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب اليمين الغموس ٢٤٥٧/٦ (٦٢٩٨)، واليمين الغموس التي يحلفها كاذباً عامداً، سميت غموساً؛ لأنها تغمس الحالفَ في الإثم.

(٣) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر ٢٢٢٩/٥ (٥٦٣١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها ٩١/١ (٨٧).

٣- وروى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن رَسُول الله ﷺ قَال: (مِنَ الكَبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُل وَالدَيهِ!، قالوا: يَا رَسُول الله، وَهَل يَشتُمُ الرَّجُل وَالدَيْهِ؟! قَال: نَعَمْ، يَسُبُّ أَبَا الرَّجُل، فَيَسُبُّ أبَاه، وَيَسُبُّ أُمَّهُ، فَيَسُبُّ أُمَّهُ. [1] وفي رواية: إنَّ مِنْ أكْبَرِ الكَبَائِرِ أنْ يَلعَنَ الرَّجُل وَالدَيْهِ! قِيل: يَا رَسُول الله، كَيْفَ يَلعَنُ الرَّجُل وَالدَيهِ؟! قَال: يَسُبُّ أَبَا الرَّجُل، فَيَسُبُّ أباه، وَيَسُبُّ أُمَّهُ، فَيَسُبُّ أُمَّهُ) [2].

٤- وعند البخاري من حديث المغيرة بن شعبة ﷺ أن النَّبي ﷺ قَال: (إنَّ اللهَ تَعَالى حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الأمَّهَاتِ، وَمَنْعاً وهاتِ، وَوَأْد البَنَاتِ، وكَرِهَ لكُمْ: قِيل وَقَال، وَكَثرَةَ السُّؤَال، وَإضَاعَةَ المَال) [3].

٥- وروى مسلم من حديث أَبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قَال: الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إِلى الجُمُعَةِ، كَفَّارَةٌ لَمَا بَيْنَهُنَّ، مَا لَمْ تُغشَ الكَبَائِرُ) [4].

٦- وعند البخاري من حديث ابن مسعود ﷺ أنه قال: (قَال رَجُل:

---

(١) مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها ٩٢/١ (٩٠).

(٢) البخاري في كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه ٢٢٢٨/٥ (٥٦٢٨).

(٣) البخاري في الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر ٢٢٢٩/٥ (٥٦٣٠)، ومسلم في الأقضية، باب النهى عن كثرة المسائل من غير حاجة ١٣٤١/٣ (٥٩٣)، وعقوق الأمهات، وأصل العقوق القطع أطلق على الإساءة للأم وعدم الإحسان إليها لما في ذلك من قطع حقوقها، ووأد البنات دفنهن وهن أحياء. ومنعا وهات منع الواجبات من الحقوق وأخذ ما لا يحل لكم من الأموال أو طلب ما ليس لكم فيه حق.

(٤) مسلم في كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر ٢٠٩/١ (٢٣٣).

يَا رَسُول اللهِ، أي الذنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ، قَال: أَنْ تَدْعُوَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلقَكَ. قَال: ثمَّ أَيٌّ؟ قَال: أَنْ تَقْتُل وَلدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ. قَال: ثمَّ أي؟ قَال: أَنْ تُزَانِي حَليلةَ جَارِكَ، فَأَنْزَل اللهُ ﷻ تَصْدِيقَهَا: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ الفرقان:٦٨)[١].

٧- روي البخاري من حديث أنس رضي الله عنه أنه قال: (إِنَّكُمْ لتَعْمَلونَ أَعْمَالا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنْ الشَّعْرِ، إِنْ كُنَّا لنَعُدُّهَا عَلى عَهْدِ رَسُول اللهِ ﷺ مِنْ المُوبِقَاتِ)[٢].

قال ابن القيم في تعليقه على هذا الحديث: (إن الصحابة رضي الله عنهم لعلو مرتبتهم عند الله وكمالهم، كانوا يعدون تلك الأعمال موبقات، ومن بعدهم لنقصان مرتبتهم عنهم، وتفاوت ما بينهم صارت تلك الأعمال في أعينهم أدق من الشعر، وإذا أردت فهم هذا فانظر، هل كان في الصحابة من إذا سمع نص رسول الله عارضه بقياسه أو ذوقه أو وجده أو عقله أو سياسته؟ وهل كان قط أحد منهم يقدم على نص رسول الله عقلا أو قياسا أو ذوقا أو سياسة أو تقليد مقلد؟ فلقد أكرم الله أعينهم وصانها أن تنظر إلى وجه من هذا حاله، أو يكون في زمانهم، فيالله كيف لو رأى ما رأينا؟ وشاهد ما بلينا به من تقديم رأي كل فلان

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى {يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالاته} ٦/٢٧٣٩ (٧٠٩٤)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده ١/٩٠(٨٦).

(٢) البخاري في الرقاق، باب ما يتقى من محقرات الذنوب ٥/٢٣٨١ (٦١٢٧).

وفلان على قول المعصوم؟ ومعاداة من اطرح آراءهم وقدم عليها قول المعصوم، فالله المستعان وهو الموعد وإليه المرجع) [١].

والقصد أن الصغائر هي ما دون الحدين، والمراد بالحدين عقوبة الدنيا والآخرة، والكبائر ما تعلق به أحد الحدين، فكل ذنب عليه عقوبة مشروعة محدودة في الدنيا، كالزنا، وشرب الخمر، والسرقة والقذف، أو عليه وعيد في الآخرة، كأكل مال اليتيم، والشرب في آنية الذهب والفضة، وقتل الإنسان لنفسه، وخيانته للأمانة، ونحو ذلك فهو من الكبائر [٢].

ومذهب أهل السنة والجماعة أنهم لا يكفرون أحدا بالكبائر التي دون الشرك الأكبر، ولكن لا يمنحون صاحبها اسم الإيمان المطلق، فيقال: هذا مؤمن، ولكن يمنحونه اسما دالا على إيمان مقيد؛ فيقال مؤمن فاسق بكبيرته، فلا يقال هو مؤمن كامل الإيمان كما تقوله

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/٣٢٤ بتصرف، قلت: والله حسيبنا ووكيلنا في كل من عارض نص كتاب الله ونص رسوله ﷺ في أسماء الله التوقيفية الثابتة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بشهرته، أو عقله، أو سياسته، أو ذوقه، أو وجده، وآثر عليها الأسماء البدعية التي لم يسم الله نفسه بها، ولا سماه بها رسوله ﷺ، وهو سبحانه حسيبنا في كل من سعى إلى تصويب ما اشتهر على ألسنة الناس من الأسماء التي سموها هم وآباؤهم والتي ما أنزل الله بها من سلطان، أو دلس على المسلمين في تبرير أسماء وضعها البشر لربهم بتأويلاته العقلية وتعليلاته البدعية، أو مكانته في المؤسسات التعليمية، أو شهرته في القنوات الفضائية، أو صححها بحجة تقليد العامة وانتشارها في الأمة حتى لو لم ترد في الكتاب والسنة.

(٢) السابق ١/٣٢٧ بتصرف.

المرجئة، ولا يقال هو خارج من الإسلام كما تقوله الخوارج، أو في منزلة بين المنزلتين كما تقول المعتزلة، بل القول الحق الذي هو مذهب أهل السنة والجماعة أن صاحب الكبيرة دون الشرك الأكبر مسلم ليس بكافر، لكنه ناقص الإيمان، وإذا لقي الله ولم يتب من هذه الكبائر فإنه تحت المشيئة، إن شاء عذبهم بذنبه، ثم يخرجه من النار ويدخله الجنة بتوحيده وإيمانه، لكنه لا يخلد في النار، بخلاف الخوارج الذين يقولون بأنه في النار خالدا فيها، ومن دخل النار عندهم فإنه لا يخرج منها، وبخلاف المرجئة القائلين بأنه لا يمر على النار أبدا بل هو من أهل الجنة ابتداء، وكلاهما مذهب ضلالة. والحق أنه تحت المشيئة، إن شاء عفا عنه بفضله، وإن شاء عذبه بعدله، ثم يخرجهم منها برحمته سبحانه أو شفاعة الشافعين من أهل طاعته كما صحت بذلك روايات النقل، ثم يخرجون من النار كالفحم محترقين، ثم يلقون في نهر يسمى نهر الحياة فتنبت أجسامهم ولحومهم، ثم إذا هُذبوا أذن الله لهم في دخول الجنة.

- **أجناس المحرمات التي لا توبة للعبد إلا بالتخلص منها.**

ورد في القرآن أنواع الآثام والمحرمات التي ينبغي التوبة منها، ولا يستحق العبد اسم التائب حتى يتخلص منها وهي: الكفر، والشرك، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والإثم، والعدوان، والفحشاء، والمنكر، والبغي، والقول على الله بلا علم، فهذه الأنواع عليها مدار كل ما حرم الله ﷻ، وإليها انتهاء الناس إلا أتباع الرسل. وقد يكون في الرجل أكثرها أو أقلها أو واحدة منها، وقد يعلم ذلك، وقد لا يعلمه، فالتوبة النصوح هي بالتخلص منها، والتحصن والتحرز من مواقعتها، وإنما

يمكن التخلص منها لمن عرفها، وبيانها على النحو التالي:

١- الكفر وهو نوعان، كفر أكبر، وكفر أصغر، فالكفر الأكبر هو الموجب للخلود في النار، والأصغر موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود كما ورد عند مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (اثْنَتَان في النَّاسِ هُمَا بهم كُفْرٌ، الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ) [١].

وعند الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ أَتَى حَائِضًا، أَوْ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا، أَوْ كَاهِنًا، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِل عَلى مُحَمَّدٍ ﷺ) [٢].

وروى البخاري من حديث ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال في حجة الوداع: (ألا إنَّ الله حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ كحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، في بلدكم هذا، في شَهْرِكُمْ هَذَا، ألا هَل بَلغْتُ؟ قالوا: نَعَمْ، قَال: اللهُمَّ اشْهَدْ، ثلاثاً. وَيْلكُمْ أَوْ وَيْحَكُمْ، انْظُروا: لا تَرْجعُوا بَعْدِي كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ) [٣].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن فى النسب والنياحة على الميت ١/٨٢ (٦٧).

(٢) رواه الترمذي في أبواب الطهارة، باب ما جاء في كراهية إتيان الحائض ١/٢٤٢ (١٣٥)، وأحمد في المسند ٢/٤٧٦ (١٠١٧٠)، وصححه الألباني، انظر إرواء الغليل (٢٠٠٦)، ومشكاة المصابيح (٥٥١).

(٣) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب حجة الوداع ٤/١٥٩٨ (٤١٤١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض» ١/٨٢ (٦٦).

وكذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ المائدة:٤٤ . قيل هو الكفر الأصغر، وقيل هو الأكبر، والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في واقعة ما وعدل عنه عصيانا مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة، فهذا كفر أصغر، وإن اعتقد أنه غير واجب، وأنه مخير فيه مع تيقنه أنه حكم الله تعالى، فهذا كفر أكبر، وإن جهله وأخطأه فهذا مخطئ له حكم المخطئين، والقصد أن المعاصي كلها من نوع الكفر الأصغر، فإنها ضد الشكر الذي هو العمل بالطاعة، فالسعي إما شكر، وإما كفر، وإما ثالث، لا من هذا ولا من هذا وهو الكفر الأكبر [(١)].

٢- الشرك وهو نوعان أكبر وأصغر، فالأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو أن يتخذ من دون الله ندا يحبه كحب الله، ويطيعه في معصية الله، وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين، ولهذا قالوا لآلهتهم في النار: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ الشعراء:٩٦/٩٨.

هذا مع إقرارهم بأن الله ﷻ وحده خالق كل شيء، وربه ومليكه، وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق، ولا تحيي ولا تميت، وإنما كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة، كما هو حال أكثر مشركي العالم، بل كلهم يحبون معبوداتهم ويعظمونها ويوالونها من دون الله، وكثير

(١) مدارج السالكين ٣٣٧/١ بتصرف .

منهم بل أكثرهم يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله، ويستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله وحده، ويغضبون لمنتقص معبوديهم وآلهتهم من المشايخ أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحد رب العالمين، وإذا انتهكت حرمة من حرمات آلهتهم ومعبوداتهم غضبوا غضبا عظيما، وإذا انتهكت حرمات الله لم يغضبوا لها، بل إذا قام المنتهك لها بإطعامهم شيئا رضوا عنه، ولم تتنكر له قلوبهم، ترى أحدهم قد اتخذ ذكر إلهه ومعبوده من دون الله على لسانه ديدنا له، إن قام، وإن قعد، وإن عثر، وإن مرض، وإن استوحش، فذكر إلهه ومعبوده من دون الله هو الغالب على قلبه ولسانه، وهو لا ينكر ذلك، ويزعم أنه واسطته إلى الله وشفيعه عنده ووسيلته إليه.

وهكذا كان عباد الأصنام سواء، وهذا القدر هو الذي قام بقلوبهم وتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم، فأولئك كانت آلهتهم من الحجر، وغيرهم الآن اتخذوها من البشر. قال الله تعالى حاكيا عن أسلاف هؤلاء المشركين: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ الزمر:٣.

وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، كما ثبت عند الترمذي من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلاً يقول: لاَ وَالكَعْبَةِ، فَقَال ابنُ عُمَرَ: لاَ تَحْلفْ بَغَيْرِ اللهِ، فَإنِّي سَمِعْتُ رسول اللهِ ﷺ يقول: (مَنْ حَلفَ بِغَيرِ اللهِ فقد كَفَرَ

أَوْ أَشْرَكَ) [(١)].

وكذلك قول الرجل للرجل: ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، ومالي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، ولولا أنت لم يكن كذا وكذا، وقد يكون هذا شركا أكبر بحسب قائله ومقصده[(٢)].

٣-النفاق وهو الداء العضال الباطن الذي يكون الرجل ممتلئا منه وهو لا يشعر، فإنه أمر خفي على الناس، وكثيرا ما يخفى على من تلبس به، فيزعم أنه مصلح وهو مفسد.

وهو نوعان أكبر وأصغر، فالأكبر يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل، وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله، مكذب به، لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر، وجعله رسولا للناس يهديهم بإذنه، وينذرهم بأسه، ويخوفهم عقابه.

وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين، وكشف أسرارهم في القرآن، وجلى لعباده أمورهم ليكونوا منها ومن أهلها على حذر، فإن بلية الإسلام بهم شديدة جدا؛ لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة، يخرجون عداوته في كل قالب، يظن الجاهل أنه

---

(١) رواه الترمذي في كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله ٤/١١٠ (١٥٣٥)، وأحمد في المسند ٢/١٢٥ (٦٠٧٢)، وصححه الألباني، انظر إرواء الغليل (٢٥٦١)، والسلسلة الصحيحة (٢٠٤٢).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١/٣٤٤ بتصرف.

علم وإصلاح وهو غاية الجهل والإفساد، فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه! وكم من علم له قد طمسوه! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه! وكم ضربوا بمعاول الشبه في أصول غراسه ليقلعوها! وكم عموا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها! فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية، ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية، ويزعمون أنهم بذلك مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون[1].

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ الصف:٨.

تجد العلمانيين والحداثيين ومن ناصروهم قد اتفقوا على مفارقة الوحي زاعمين أنهم مسلمون تنويريون، وأن المتمسكين بالوحي رجعيون ظلاميون متخلفون، فهم على ترك الاهتداء بالوحي مجتمعون، وتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون، يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، ولأجل ذلك اتخذوا هذا القرآن مهجورا، درست معالم الإيمان في قلوبهم فليسوا يعرفونها، ودثرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها، ولم يقبلوا هدى الله الذي أرسل به رسوله، ولم يرفعوا به رأسا، ولم يروا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأسا، خلعوا نصوص الوحي عن سلطانها، وعزلوها عن مقتضياتها وحقائقها، وشنوا عليها غارات التأويلات الباطلة، فلا يزال يخرج عليها منهم كمين بعد كمين، وقالوا لما حلت بساحتهم مالنا ولظواهر لفظية

---

(١) السابق ٣٤٨/١ بتصرف.

لا تفيدنا شيئا من اليقين، وعوامهم قالوا حسبنا ما وجدنا عليه المتأخرين من العقلانيين المتكلمين، فإنهم أعلم بها من السلف المتقدمين وأقوم بطرائق الحجج والبراهين، فطريقة المتأخرين أعلم وأحكم وطريقة السلف المتقدمين أجهل وإن كانت أسلم.

لبسوا ثياب أهل الإيمان على قلوب أهل الزيغ والخسران، والغل والكفران، فالظواهر ظواهر الأنصار، والبواطن قد تحيزت إلى الكفار، فألسنتهم ألسنة المسالمين، وقلوبهم قلوب المحاربين، ويقولون آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين، رأس مالهم الخديعة والمكر، وبضاعتهم الكذب والتعلل وادعاء النظر والعقل، قال تعالى: ﴿ يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ البقرة:٩.

قد نهكت أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فأهلكتها، وغلبت القصود السيئة على إراداتهم ونياتهم فأفسدتها، ففسادهم عجز عنه الأطباء العارفون، قال تعالى: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ البقرة:١٠.

والمتمسك عندهم بالكتاب والسنة صاحب ظواهر مبخوس حظه من المعقول، والدائر مع النصوص عندهم كحمار يحمل أسفارا فهمه مقصور على حمل المنقول، وبضاعة تاجر الوحي لديهم كاسدة، وما هو عندهم بمقبول، وأهل الاتباع عندهم سفهاء، فهم في خلواتهم ومجالسهم بهم يتطيرون [١].

---

(١) السابق ١/٣٤٩ بتصرف.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ البقرة:١٣.

لكل منهم وجهان وجه يلقى به المؤمنين، ووجه ينقلب به إلى إخوانه من الملحدين والعلمانيين والحداثيين، وله لسانان أحدهما يقبله بظاهره المسلمون، والآخر يترجم به عن سره المكنون. قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ البقرة:١٤. قد أعرضوا عن الكتاب والسنة استهزاء بأهلهما واستحقارا، وأبوا أن ينقادوا لحكم الوحيين فرحا بما عندهم من العلم الذي لا ينفع الاستكثار منه إلا أشرا واستكبارا، فتراهم أبدا بالمتمسكين بصريح الوحي يستهزئون، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ البقرة:١٥ (١).

وأما النفاق الأصغر فهو نفاق المعاملات الذي يكون بين عامة المسلمين، وهو كبيرة من الكبائر، كمن إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، فهذه الخصال قد توجد في المسلم المجمع على عدم الحكم بكفره، لكن صاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال ومتخلق بأخلاقهم.

٤–الفسوق وهو في القرآن نوعان، مفرد مطلق، ومقرون بالعصيان، والمفرد نوعان أيضا، فسوق كفر يخرج عن الإسلام، وفسوق لا يخرج عن الإسلام، فالمقرون كقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي

(١) السابق ١/٣٥٠ بتصرف .

كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ ﴾ الحجرات:٧.

والمفرد الذي هو فسوق كفر كقوله تعالى: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ البقرة:٢٦.

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ البقرة:٩٩. وقوله: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ السجدة:٢٠. فهذا كله فسوق كفر.

وأما الفسوق الذي لا يخرج عن الإسلام فكقوله تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ البقرة:٢٨٢.

وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ الحجرات:٦.

والمقصود ذكر الفسوق الذي لا يخرج إلى الكفر، والفسوق الذي تجب التوبة منه أعم من الفسوق الذي ترد به الرواية والشهادة، أما ما تجب التوبة منه فهو قسمان، فسق من جهة العمل، وفسق من جهة الاعتقاد، ففسق العمل نوعان، مقرون بالعصيان ومفرد، فالمقرون بالعصيان هو ارتكاب ما نهى الله عنه، والعصيان هو عصيان أمره كما قال الله تعالى: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾ التحريم:٦.

وقال موسى لأخيه هرون عليهما السلام: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣)﴾ طه:٩٢/٩٣. فالفسق أخص بارتكاب النهي كقوله تعالى: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ البقرة:٢٨٢. والمعصية أخص بمخالفة الأمر.

وقد يطلق كل منهما على صاحبه كقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ الكهف:٥٠. فسمى مخالفته للأمر فسقا.

وقال: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١)﴾ طه:١٢١. فسمى ارتكابه للنهي معصية، فهذا عند الإفراد، فإذا اقترنا كان أحدهما لمخالفة الأمر والآخر لمخالفة النهي، والتقوى اتقاء مجموع الأمرين وبتحقيقها تصح التوبة من الفسوق والعصيان، بأن يعمل العبد بطاعة الله على نور من الله، يرجو ثواب الله، ويترك معصية الله، على نور من الله، يخاف عقاب الله.

وفسق الاعتقاد كفسق أهل البدع الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر، ويحرمون ما حرم الله، ويوجبون ما أوجب الله، ولكن ينفون كثيرا مما أثبت الله ورسوله جهلا وتأويلا، وتقليدا للشيوخ، ويثبتون ما لم يثبته الله ورسوله كذلك، وهؤلاء كالخوارج المارقة، وكثير من الروافض والقدرية والمعتزلة والأشعرية، وكثير من الجهمية الذين ليسوا غلاة في التجهم، وأما غالية الجهمية فكغلاة الرافضة ليس للطائفتين في الإسلام نصيب، ولذلك أخرجهم جماعة من السلف من الثنتين والسبعين فرقة، وقالوا: هم مباينون للملة، فالتوبة من هذا الفسوق بإثبات ما أثبته الله لنفسه وأثبته رسوله ﷺ من غير تشبيه ولا تمثيل، وتنزيهه عما نزه

نفسه عنه، ونزهه عنه رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، وتلقي النفي والإثبات من مشكاة الوحي لا من آراء الرجال ونتائج أفكارهم التي هي منشأ البدعة والضلالة، فتوبة هؤلاء الفساق من جهة الاعتقادات الفاسدة بمحض اتباع السنة، ولا يكتفى منهم بذلك أيضا حتى يبينوا فساد ما كانوا عليه من البدعة، إذ التوبة من الذنب هي بفعل ضده[1].

٥- الإثم والعدوان، وهما قرينان قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ المائدة:٢. وكل منهما إذا أفرد تضمن الآخر، فكل إثم عدوان، إذ هو فعل ما نهى الله عنه، أو ترك ما أمر الله به، فهو عدوان على أمره ونهيه، وكل عدوان إثم، فإنه يأثم به صاحبه، ولكن عند اقترانهما فهما شيئان بحسب متعلقهما ووصفهما، فالإثم ما كان محرم الجنس كالكذب والزنا وشرب الخمر ونحو ذلك، والعدوان ما كان محرم القدر والزيادة، فالعدوان تعدى ما أبيح منه إلى القدر المحرم، والزيادة كالاعتداء في أخذ الحق ممن هو عليه، إما بأن يتعدى على ماله أو بدنه أو عرضه، فإذا غصبه خشبة لم يرض عوضها إلا داره، وإذا أتلف عليه شيئا أتلف عليه أضعافه، وإذا قال فيه كلمة قال فيه أضعافها، فهذا كله عدوان وتعد للعدل.

وهذا العدوان نوعان، عدوان في حق الله، وعدوان في حق العبد، فالعدوان في حق الله كما إذا تعدى ما أباح الله له من الوطء الحلال في الأزواج والمملوكات إلى ما حرم عليه من سواهما، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ

(١) السابق ٣٦٢/١ :٣٦٣ بتصرف.

غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ ﴾ المؤمنون:٥/٧.
وكذلك تعدى ما أبيح له من زوجته وأمته إلى ما حرم عليه منها كوطئها في حيضها، أو نفاسها، أو في غير موضع الحرث، أو في إحرام أحدهما، أو صيامه الواجب، ونحو ذلك [1].

وكذلك كل من أبيح له قدر معين فتعداه إلى أكثر منه، فهو من العدوان، كمن أبيح له إساغة الغصة بجرعة من خمر، فتناول الكأس كلها، أو أبيح له نظرة الخطبة والشهادة والمعاملة والمداواة، فأطلق عنان طرفه في ميادين محاسن المنظور، وتنقل بناظره في تلك الرياض والزهور، فتعدى المباح إلى القدر المحظور، وحام حول الحمى حتى وقع فيه، هذا خطر العدوان وما بين يديه من العقوبة أعظم وأخطر، وهذا فوت الحرمان، وما حرمه من فوات ثواب من غض طرفه لله ﷻ أجل وأكبر[2].

٦- الفحشاء والمنكر، والفحشاء هي الفعلة أو الخصلة الفحشاء، وهي ما ظهر قبحها للجميع، واستفحشه كل ذي عقل سليم، ولهذا فسرت بالزنا واللواط، وسماها الله فاحشة لتناهي قبحهما، وكذلك القبيح من القول يسمى فحشا، وهو ما ظهر قبحه جدا من السب القبيح والقذف ونحوه، وأما المنكر فالمراد به القول والفعل المنكر، وهو الذي يخالف التكليف الحتمي المنقول، وتستنكره الفطر والعقول، فما اشتد إنكار العقول والفطر له فهو فاحشة، كما فحُش إنكار الحواس له

---

(١) السابق ٣٦٨/١ بتصرف.
(٢) السابق ٣٦٩/١ بتصرف.

من هذه المدركات، فالمنكر ما لم تعرفه، ولم تألفه، والقبيح المستكره الذي تشتد نفرتها عنه هو الفاحشة، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ النحل: ٩٠. وقال: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ العنكبوت: ٤٥.

٧- القول على الله بلا علم وهو أشد هذه المحرمات تحريما، وأعظمها إثما، فإنه يتضمن الكذب على الله ﷻ، ونسبته إلى ما لا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفي ما أثبته، وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله، وإبطال ما حققه، وعداوة من والاه، وموالاة من عاداه، وحب ما أبغضه، وبغض ما أحبه، ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله، فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه، ولا أشد إثما، وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أسست البدع والضلالات، فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم[1].

ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها، وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض، وحذروا فتنتهم أشد التحذير، وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش والظلم والعدوان، إذ مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد، وقد أنكر تعالى على من نسب إلى دينه تحليل شيء أو تحريمه من عنده بلا برهان من الله، فقال: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ

---

(١) السابق ٣٧٢/١ بتصرف.

أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ النحل:١١٦ . فكيف بمن نسب إلى أسمائه وأوصافه سبحانه وتعالى ما لم يسم أو يصف به نفسه، أو نفى عنه منها ما وصف به نفسه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ ﴾ النجم:٢٨/٢٧. فأنكر عليهم القول بلا علم في تسمية المخلوق بغير اسمه الذي سماه الله به، فكيف بمن سمى الله بأسماء ليس له سند فيها إلا الظن واتباع تسمية الآباء، قال تعالى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾ النجم:٢٣.

ومن ثم فإن ذنوب أهل البدع كلها داخلة تحت هذا الجنس، فلا تتحقق التوبة منه إلا بالتوبة من البدع، واتباع السنة وكثرة الاطلاع عليها، ودوام البحث عنها، والتفتيش عليها، ولا ترى صاحب بدعة كذلك أبدا، فإن السنة بالذات تمحق البدعة، وإذا طلعت شمسها في قلب العبد قطعت من قلبه ضباب كل بدعة، وأزالت ظلمة كل ضلالة، إذ لا سلطان للظلمة مع سلطان الشمس[1].

- **الكبائر المتعلقة بالقلب وما يكون منها في منطقة الكسب.**

القلب أساس العمل وباعثه، وبصلاحه ينصلح الجسد أو ينفسد، وجميع الكبائر التي تقع في الإنسان ابتداؤها منها، روى مسلم من

---

(١) السابق ٣٧٤/١ بتصرف.

حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله لا ينظر إلى صوركم، وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) (١).

وعند البخاري من حديث النعمان بن بشير ﷺ أن رسول اللهِ ﷺ قال: (أَلا وإن فِي الجسد مُضْغَة، إذا صَلحت صَلح الجسد كُلهُ، وإِذا فَسدت فَسد الجسد كُلهُ، أَلا وهِي القَلبُ) (٢).

أما الكبائر المتعلقة بالقلب وما يكون منها في منطقة الكسب، مع ظهور آثارها وعلاماتها على البدن ولابد فبيانها كالتالي:

١- الكبر، وهو وصف مذموم محرم يبغضه الله ولا يحبه، يدفع إلى عدم قبول الحق، فقد يكون كفرا وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب قال تعالى: ﴿ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ النحل:٢٩.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾ غافر:٢٧.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ غافر:٣٥.

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله ١٩٨٧/٤ (٢٥٦٤).

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه ٢٨/١ (٥٢)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ١٢١٩/٣ (١٥٩٩).

روى مسلم من حديث ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَن النَّبِي ﷺ قَال: (لاَ يَدْخُل الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلبِهِ مِثقَال ذرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، قَال رَجُل: إِنَّ الرَّجُل يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلهُ حَسَنَةً، قَال: إِنَّ اللهَ جَمِيل يُحِبُّ الجَمَال الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ) [(١)].

وعند الترمذي وحسنه الألباني من حديث عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَال: (يُحْشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَمْثال الذرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَال، يَغْشَاهُمُ الذل مِنْ كُل مَكَان، فَيُسَاقُونَ إِلى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولسَ، تَعْلوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْل النَّارِ طِينَةِ الخَبَال) [(٢)].

روى البخاري في صحيحه من حديث حارثة بن وهب الخزاعي ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول: (أَلاَ أُخبِرُكُمْ بِأَهْل الجَنَّةِ، كُل ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ لوْ أَقْسَمَ عَلى اللهِ لأَبَرَّهُ، أَلاَ أُخبِرُكُمْ بِأَهْل النَّارِ كُل عُتُل جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ) [(٣)].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه١/٩٣ (٩١)، والبطر التكبر على الحق فلا يقبله، والغمط الاحتقار والاستهانة.

(٢) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ٤/٦٥٥ (٢٤٩٢)، وأحمد في المسند ٢/١٧٩ (٦٦٧٧) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٨٠٤٠)، وانظر صحيح الترغيب والترهيب (٢٩١١).

(٣) رواه البخاري في كتاب التفسير، تفسير سورة ن والقلم، باب عتل بعد ذلك زنيم ٤/١٨٧٠ (٤٦٣٤)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٤/٢١٩٠ (٢٨٥٣).

وفي رواية أخرى صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ: (كُل جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ جَمَّاعٍ مَنَّاعٍ)[1].

٢- العجب كبيرة من صفات النفس المتكبرة، وهو يحبط الأعمال، وهو من كبائر أعمال القلوب ومن الذنوب التي هي من أخلاق النفس الشهوانية مثل الكبر والعجب والبغي والحسد وحبّ المدح وطلب الذكر؛ لأن هذه منها معاني صفات الربوبية، ومنها أخلاق الأبالسة، وبها هلك إبليس، وشهوات النفس من وصف الخلقة، وبها عصى أدم ربه فاجتباه بعدها وتاب عليه وهدى. والعجب والاغترار بالنفس يحبط الأعمال[2].

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ التوبة: ٢٥.

٣- الرياء والسمعة من الكبائر المتعلقة بالقلب والمحبطة للأعمال، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ

---

(١) رواه أحمد في المسند ١٦٩/٢ (٦٥٨٠)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (١٧٤١) وصحيح الترغيب والترهيب (٣١٩٧) والعتل هو الشديد الجافي الغليظ من الناس والجواظ هو الجموع المنوع الذي يجمع المال من أي جهة ويمنع صرفه في سبيل الله، والجعظري هو الفظ الغليظ المتكبر، وقيل: هو الذي ينتفخ بما ليس عنده.

(٢) قوت القلوب في معاملة المحبوب لأبي طالب المكي ٣٦٨/١ ، ورسالة التلخيص لوجوه التلخيص لابن حزم ١٨٠/٣ نشر المؤسسة العربية للدراسات بيروت.

هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ الماعون: ٤/٧.

روى البخاري من حديث جندب بن عبد اللهِ ﷺ أن النبيّ ﷺ قال: (مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ الله بِهِ، وَمَنْ يُرائِي يُرائِي اللّهُ بِهِ) (١).

وروى مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إنَّ أَول النَّاسِ يُقْضَى يَومَ القِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُل اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعْمَتَهُ، فعَرَفَهَا، قَال: فَمَا عَمِلتَ فِيهَا؟ قَال: قَاتَلتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَال: كَذبْتَ، وَلكِنَّكَ قَاتَلتَ لأَنْ يُقَال: جَرِيءٌ! فَقَدْ قِيل، ثمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلى وَجْهِهِ حَتَّى أُلقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُل تَعَلمَ العِلمَ وَعَلمَهُ، وَقَرَأَ القُرآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعمَهُ فَعَرَفَهَا. قَال: فَمَا عَمِلتَ فِيهَا؟ قَال: تَعَلمْتُ العِلمَ وَعَلمْتُهُ، وَقَرَأتُ فِيكَ القُرآنَ، قَال: كَذبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلمْتَ لِيُقَال: عَالِمٌ! وَقَرَأتَ القُرْآنَ لِيُقَال: هُوَ قَارِئٌ؛ فَقَدْ قِيل، ثمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلى وَجْهِهِ حَتَّى أُلقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُل وَسَّعَ اللّهُ عَليْهِ، وَأَعْطاهُ مِنْ أَصْنَافِ المَال، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا. قَال: فَمَا عَمِلتَ فِيهَا؟ قَال: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيل تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لكَ. قَال: كَذبْتَ، ولكِنَّكَ فَعَلتَ لِيُقَال: جَوَادٌ! فَقَدْ قِيل، ثمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلى وَجْهِهِ حَتَّى أُلقِيَ فِي النَّارِ) (٢).

---

(١) البخاري في الرقاق، باب الرياء والسمعة ٥/٢٣٨٣ (٦١٣٤)، ومسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله ٤/٢٢٨٩ (٢٩٨٧) ومعنى من سمع سمع الله به أي فضحه يوم القيامة.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار ٣/١٥١٣ (١٩٠٥).

٤- اليأس من روح الله والأمن من مكر الله، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ يوسف:٨٧. وقال: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩﴾ الأعراف:٩٩.

وروى الطبراني وصححه الألباني من حديث فضالة بن عبيد ﷺ أن النبي ﷺ قال: (ثلاثة لا تسأل عنهم، رجل ينازع الله إزاره، ورجل ينازع الله رداءه، فإن رداءه الكبرياء، وإزاره العز، ورجل في شك من أمر الله، والقنوط من رحمة الله) (١).

وثبت من حديث ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: (الكبائر الشرك بالله، والإياس من روح الله، والقنوط من رحمة الله) (٢).

٥- سوء الظن بالله من أعظم الكبائر، قال تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ﴾ آل عمران:١٥٤. وقال: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٢ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ فصلت:٢٢/٢٣. وقال: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير ٣٠٦/١٨ (٧٨٩)، والبخاري في الأدب المفرد ٢٠٧/١ (٥٩٠) نشر دار البشائر الإسلامية بيروت ١٤٠٩هـ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٥٤٢) وصحيح الجامع (٣٠٥٩).

(٢) انظر السلسلة الصحيحة (٢٠٥١).

عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ الفتح:٦

وروى مسلم من حديث جابر بن عبد الله ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول قبل مَوْتِه بثلاثةِ أيّام: (لاَ يَمُوتَنّ أحَدُكُمْ إِلاَّ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بالله ﷻ)[1].

٦- إرادة العلو والفساد، وهي صفة من صفات إبليس كما قال الله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ص:٧٥. وهي كبيرة تكون غالبا في علية القوم من الحكام والأمراء والأغنياء، ومن وكلهم الله واسترعاهم غيرهم إلا من رحم الله، قال تعالى: ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ القصص:٨٣.

٧- محبة إشاعة الفحشاء في الذين آمنوا، وهي من أكبر الكبائر، وقد ابتلينا بمن ينتسب إلى المسلمين ويسعون بكل سبيل إلى إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا من خلال بثهم للقنوات الفضائيات الانحلالية العربية التي لا تراعي حرمة لدين، ولا مبادئ أخلاقية ولا قيود اجتماعية، بل هي حرب فضائية وغزو لعقيدة المسلمين في إيمانهم واستحلال لحرمة دينهم، في تصوير حي لانحطاط الأخلاق وانحلال القيم واتهام مقصود للمسلمين للعرب بأنهم ظاهرة جنسية، وذلك عبر تمويل عربي أمي جاهل بعواقب الكسب غير المشروع أو جيش

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت ٤/٢٢٠٦ (٢٨٧٧).

من النصارى يهيمن على البرامج في تلك الفضائيات وحسبنا الله ونعم الوكيل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ النور:١٩.

٨- مودة أعداء الله، وهي من أعظم الكبائر التي يقع فيها عوام المسلمين وكثير من الملاء من أمرائهم وأغنيائهم، حيث يتشبهون بحزب الشيطان من اليهود والنصارى ويدافعون عن أهل الفسق والعصيان، ويسير الواحد منهم خلف الغرب شبرا بشر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب دخله خلفهم، ولبس لباسهم وتعرى مثلهم، وشرب خمرهم وألف سكرهم، وتغنى بانحلالهم، وخرج عن وصفه ووالاهم على بني جنسه، ثم يسمي ذلك حضارة وتحررا وتقدما واستنارة، وقد قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ المجادلة:٢٢.

٩- بغض الصالحين لاسيما الصحابة والتابعين ومن سلك سبيلهم من علماء السلف الصالح، فمن أكبر الكبائر بغض من رضي الله عنهم ورضوا عنه بنص القرآن، كما يفعل عامة الشيعة ومن شايعهم ممن ينتسب إلى أهل السنة في بغضهم لأبي بكر وعمر وعائشة وأبي هريرة وغيرهم ﭫ، وطعنهم في علماء الحديث من السلف والأئمة الأربعة، وقد روى البخاري من حديث أبي هريرة ﭬ أن النبي ﷺ

قال: (إن الله قَال: مَن عَادَى لي وَلِيًّا فَقَدْ آذنتُهُ بِالحَرْبِ)[1].

وروى مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لاَ يُبْغِضُ الأَنْصَارَ رَجُل يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ)[2].

١٠- الحسد كبيرة من الكبائر المتعلقة بالقلب، وَهُوَ تمني زوال النعمة عن صاحبها، سواءٌ كَانَتْ نعمة دينٍ أَوْ دنيا، وسواء آلت إلى الحاسد أم لا، قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ الفلق:١/٥. وقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ النساء:٥٤.

والحسد في الحقيقة نوع من معاداة الله، فإن الحاسد يكره نعمة الله على عبده ويعترض على قضائه وقدره، وحكمته في نزول الرزق إلى خلقه، ولذلك طرد إبليس من رحمة الله بسبب حسده وحقده.

روى النسائي وحسنه الألباني من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (لا يَجْتَمِعَانِ فِي النَّارِ مُسْلِمٌ قَتَل كَافِرًا ثمَّ سَدَّدَ وَقَارَبَ وَلا يَجْتَمِعَانِ فِي جَوْفِ مُؤْمِنٍ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَفَيْحُ جَهَنَّمَ وَلا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلبِ عَبْدٍ الإِيمَانُ وَالحَسَدُ)[3].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع ٥/٢٣٨٤ (٦١٣٧).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنهم من الإيمان ١/٨٦ (٧٧).

(٣) رواه النسائي في كتاب الجهاد، باب فضل من عمل في سبيل الله على قدميه ٦/١٢ (٣١٠٩) وحسنه الألباني انظر صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٨٦).

وروى البخاري من حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: (لا يُؤمِنُ أحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأخِيهِ مَا يُحبُّ لنَفْسِهِ) (١). وهناك أمور أخرى من الكبائر المتعلقة بالقلب يمكن حصرها بالتتبع لمن أراد المزيد، وما تقدم أمثلة لذلك.

- الكبائر المتعلقة باللسان والأدلة على حرمتها من القرآن والسنة .

يعتبر اللسان عاملا مؤثرا في نجاة الإنسان أو هلاكه وقد تقدم الحديث عن منزلته عند ذكر عبودياته، وهنا نذكر الكبائر التي تتعلق به مما يقع فيها الظالمون لأنفسهم من المسلمين وأبرز هذه الكبائر:

١- الكذب، وهو من الكبائر، قال الإمام النووي: (قد تظاهرت نصوص الكتاب والسنة على تحريم الكذب في الجملة، وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب وإجماع الأمة منعقد على تحريمه مع النصوص المتظاهرة) (٢). روى البخاري من حديث ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: (وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلى الفُجُور، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهدِي إِلى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُل ليَكْذِبُ حَتَّى يُكتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّاباً) (٣).

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ١/١٤ (١٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير ١/٦٧ (٤٥).

(٢) الأذكار للنووي ص٣٠١ نشر دار الكتب العربي بيروت.

(٣) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب قول الله تعالى {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين} ٥/٢٢٦١ (٥٧٤٣)، ومسلم في كتاب البر والصلة والأدب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله ٤/٢٠١٣ (٢٦٠٧).

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)﴾ النحل:١٠٥.

٢- إخلاف الوعد، قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧)﴾ التوبة:٧٧.

وروى البخاري من حديث أَبي هرَيرَة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (آية المنافِقِ ثلاث: إِذا حَدث كَذب، وإِذا اؤْتمن خَان، وإِذا وعد أَخْلفَ)[(١)].

٣- شهادة الزور، وقد قرنها الله بالرجس من الأوثان فقال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠)﴾ الحج:٣٠.

فشهادة الزور عظيمة الخطر بالغة الضرر؛ لأنها تضليل وإضلال عن الحق، وظلم للخلق ونسبة إلى الغير ما ليس له بحق، فهي سبب محقق لوقوع الظالم، ولذلك كانت من أكبر الكبائر كما ورد عن البخاري من حديث أَبي بكرة ﷺ أن رَسُول اللهِ ﷺ قال: (أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟ قُلنَا: بَلى يَا رَسُول اللهِ. قَال: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالدَيْنِ، وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجلسَ، فَقَال: أَلا وَقَوْل الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّور، أَلا وَقَوْل الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ، فَمَا زَال يَقُولهَا حَتَّى قُلتُ: لا يَسْكُتُ)[(٢)].

٤- قذف المحصنات، ذكر الإمام البيهقي أن الله توعد الوعد

---

(١) رواه البخاري في كتاب الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد ٩٥٢/٢ (٢٥٣٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق ٧٨/١ (٥٩).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر ٢٢٢٩/٥ (٥٦٣١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها ٩١/١ (٨٧).

الغليظ على قذف المحصنات وحكم على القاذف بالتفسيق ورد شهادته على التأبيد إلا أن يتوب وبالجلد تشديدا عليه وتهجينا لما كان منه ولم يجعل للزوج مخرجا من عذاب القذف إلا بإيجاب اللعن على نفسه إن كان كاذبا في قوله كما لم يجعل للمرأة مخرجا من عذاب القذف إلا بإيجاب الغضب على نفسها إن كان صادقا في قوله فدل ذلك على غلظ الذنب في قذف المحصنات ووجوب التورع عنه والاحتراز من تبعاته [١].

ولذلك كان قذف المحصنات من السبع الموبقات روى البخاري من حديث أَبي هريَرَة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ! قالوا: يَا رَسُول اللهِ، وَمَا هُنَّ ؟ قَال: (الشِّرْكُ باللهِ، والسِّحْرُ، وَقَتْل النَّفْسِ التي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحَقِّ، وأكل الرِّبَا، وأَكْل مَال اليَتِيمِ، والتَّوَلي يَوْمَ الزَّحْفِ، وقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ) [٢].

٥- النميمة، وهي محرمة بإجماع المسلمين وتظاهر على تحريمها صريح الكتاب والسنة، وهي نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد، فينم على أخيه المسلم إلى غيره، فتتولد العداوة والبغضاء بينهم، فهذا الفعل كبيرة يؤدى إلى فساد عظيم وفتنة كبيرة، والمذموم من نقلة الأخبار من يقصد الإفساد، وأما من يقصد

(١) شعب الإيمان للبيهقي ٢٧٩/٥ نشر دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) رواه البخاري في كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا} ١٠١٧/٣ (٢٦١٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها ٩٢/١ (٨٩).

النصيحة، ويتحرى الصدق، ويجتنب الأذى فلا بأس، وقل من يفرق بين البابين، أو يقف على ما يباح من ذلك، مما لا يباح.

روى البخاري من حديث عبد الله بن عباس ﷺ أن النبي ﷺ مر بقبرين يعذبان فقال: (إِنَّهُمَا يُعَذَّبَان، وَمَا يُعَذَّبَان فِي كَبِير! بَلى إِنَّهُ كَبِيرٌ، أَمَّا أَحَدُهُمَا، فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ) [1]. وروى مسلم من حديث ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: (أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ مَا العَضْهُ؟ هي النَّمِيمَةُ؛ القَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ) [2].

٦- لعن المسلم لأخيه وهو من الكبائر لما رواه البخاري من حديث ثابت بن الضَّحَّاك الأنصاريِّ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ بِمِلةٍ غَيْرِ الإسْلاَمِ كاذِباً مُتَعَمِّداً، فَهُوَ كَما قَال، وَمَنْ قَتَل نَفْسَهُ بِشَيءٍ عُذِّبَ بِهِ يَومَ القِيَامَةِ، وَلَيْسَ عَلَى رَجُل نَذْرٌ فيما لا يَمْلكُهُ، وَلعْنُ المُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ) [3].

وروى مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لاَ يَنْبَغِي لصِدِّيقٍ أنْ يَكُونَ لعَّاناً) [4]. وروى مسلم من حديث أَبي

---

(١) البخاري في الجنائز، باب الجريد على القبر ٤٥٨/١ (١٢٩٥)، ومسلم في الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه ٢٤٠/١ (٢٩٢).

(٢) رواه مسلم في البر والصلة والأدب، باب تحريم النميمة ٢٠١٢/٤ (٢٦٠٦).

(٣) البخاري في الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن ٢٢٤٧/٥ (٥٧٠٠)، ومسلم في الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه ١٠٤/١ (١١٠).

(٤) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والأدب، باب النهى عن لعن الدواب وغيرها ٢٠٠٥/٤ (٢٥٩٧).

الدرداءِ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لاَ يَكُونُ اللعَانُونَ شُفَعَاءَ، وَلاَ شُهَدَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ) (١).

وروى مسلم من حديث ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (يا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ، وأَكْثِرْنَ مِنَ الاسْتِغْفَارِ؛ فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ، قالت امرأةٌ مِنْهُنَّ: مَا لنَا أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ ؟ قَال: تُكْثِرْنَ اللعْنَ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أغْلبَ لذِي لبٍّ مِنْكُنَّ، قالت: ما نُقْصَانُ العَقْلِ وَالدِّينِ؟ قال: شَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ بِشَهَادَةِ رَجُلٍ، وَتَمْكُثُ الأَيَّامَ لاَ تُصَلي) (٢).

٧- المجاهرة بالمعصية، لما رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (كُل أُمَّتِي مُعَافى إلاَّ المُجَاهِرِينَ، وَإنّ مِنَ المُجَاهَرَةِ أنْ يَعْمَل الرَّجُل بالليل عَمَلاً، ثمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَليهِ، فَيقُول: يَا فُلانُ، عَمِلت البَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصبحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْه) (٣).

٨- إفشاء السر، وهو كبيرة من الكبائر، وقد يكون خيانة تؤدي إلى إهلاك أمة ووقوع الضرر الماحق كما في قصة حاطب بن أبي بلتعة ﷺ، روى البخاري من حديث على ﷺ أنه قال: (بَعَثَنِي رَسُول

---

(١) الموضع السابق ٤/٢٠٠٦ (٢٥٩٨).

(٢) مسلم في الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات ١/٨٦ (٧٩).

(٣) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه ٥/٢٢٥٤ (٥٧٢١)، ومسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه ٤/٢٢٩١ (٢٩٩٠).

اللهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالمِقْدَادَ بْنَ الأَسْوَدِ قَال: انْطَلقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةَ، وَمَعَهَا كِتَابٌ، فَخُذُوهُ مِنْهَا فَانْطَلقْنَا، تَعَادَى بِنَا خَيْلنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلى الرَّوْضَةِ فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ فَقُلنَا: أَخْرِجِي الكِتَابَ فَقَالتْ: مَا مَعِي مِنْ كِتَابٍ فَقُلنَا: لتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ أَوْ لنُلقِيَنَّ الثيَابَ فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُول اللهِ ﷺ فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلتَعَة، إِلى أُنَاسٍ مِنَ المُشْرِكِينَ، مِنْ أَهْل مَكَّةَ، يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسول اللهِ ﷺ فقَال رَسُول اللهِ ﷺ: يَا حَاطِبُ مَا هذَا قَال: يَا رَسُول اللهِ لاَ تَعْجَل عَليَّ إِنِّي كُنْتُ امْرَءًا مُلصَقًا فِي قُرَيْشٍ، وَلمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ المُهَاجِرِينَ، لهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْليهِمْ وَأَمْوَالهُمْ؛ فَأَحْبَبْتُ، إِذ فَاتَنِي ذَلكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ، أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي وَمَا فَعَلتُ كُفْرًا وَلاَ ارْتِدَادًا، وَلاَ رِضًا بِالكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلاَمِ فَقَال رَسُول اللهِ ﷺ: لقَدْ صَدَقَكُمْ فقَال عُمَرُ: يَا رَسُول اللهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هذَا المُنَافِقِ قَال: إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لعَل اللهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلعَ عَلى أَهْل بَدْرٍ، فَقَال: اعْمَلوا مَا شِئْتُمْ فقَدْ غَفَرْتُ لكُمْ) (١).

ومن إفشاء السر الذي يعد من الكبائر ما رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ من أعظمِ الأمانة عندَ الله

(١) البخاري في الجهاد والسير، باب الجاسوس ٣/١٠٩٥ (٢٨٤٥)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر ٤/١٩٤١ (٢٤٩٤)، وروضة خاخ موضع بين مكة والمدينة، وظعينة المرأة في الهودج وقيل المرأة عامة واسمها سارة وقيل كنود، ومعنى تعادى بنا تباعد وتجاري، وعقاصها هو الشعر المضفور، وملصقا مضافا إليهم ولست منهم وقيل معناه حليفا ولم يكن من نفس قريش وأقربائهم.

يوم القيامةَ الرَّجُل يُفْضي إِلى امرأته وتُفْضي إِليه، ثم ينشُرُ سِرَّها) (١).

وفي رواية: (إِن من أشَرِّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إِلى امرأته أو تُفضي إِليه، ثم ينشرُ أحدُهما سِرَّ صاحبه) (٢).

٩- الحلف بغير الله كالحلف بالأمانة، أو الكعبة، أو بالنبي، أو بالولي، أو بالوالدين والأبناء، فإنه شرك أصغر وهو كبيرة من الكبائر، لما رواه أبو داود وصححه الشيخ الألباني من حديث بريدة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ حَلفَ بِالأمَانَةِ فَليْسَ مِنَّا) (٣). وعند الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث ابن عمر ﷺ أنهُ سَمِعَ رَجُلاً يقُول: لاَ وَالكَعْبَةِ، فَقَال ابنُ عُمَرَ: لاَ تَحْلفْ بَغَيْرِ اللهِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رسول اللهِ ﷺ يقول: (مَنْ حَلفَ بِغَيرِ اللهِ فقد كَفَرَ أَوْ أشْرَكَ) (٤).

١٠- المن بالعطاء، وهو من الكبائر لما رواه ابن ماجة وصححه الشيخ الألباني من حديث أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (ثلاثةٌ لا يُكَلمُهُمْ اللهُ ﷻ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلا يَنْظُرُ إِليْهِمْ، وَلا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَليمٌ، المَنَّانُ بِمَا أَعْطَى، وَالمُسْبِل إِزَارَهُ، وَالمُنَفِّقُ سِلعَتَهُ بِالحَلفِ

(١) مسلم في كتاب النكاح، باب تحريم إفشاء سر المرأة ٢/١٠٦١ (١٤٣٧).

(٢) مسلم في كتاب النكاح، باب تحريم إفشاء سر المرأة ٢/١٠٦٠ (١٤٣٧).

(٣) رواه أبو داود في كتاب الأيمان والنذور، باب فى كراهية الحلف بالأمانة ٣/٢٢٣ (٣٢٥٣)، وصححه الشيخ الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٩٤)، ومشكاة المصابيح (٣٤٢٠).

(٤) رواه الترمذي في كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله ٤/١١٠ (١٥٣٥)، وأحمد في المسند ٢/١٢٥ (٦٠٧٢)، وصححه الألباني، انظر إرواء الغليل (٢٥٦١)، والسلسلة الصحيحة (٢٠٤٢).

الكَاذِبِ)[(١)]. وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ البقرة:٢٦٢.

- **الكبائر المتعلقة بالجوارح والأدلة على حرمتها من القرآن والسنة .**

الكبائر التي تتعلق بالجوارح صادرة عن عصيان القلب ولا بد، وقد تكون مرتبطة بعصيان اللسان، لكن الجوارح عوامل مؤثرة في وقوعها، بل لا يتم فعل العصيان إلا بها، وكما أن عمل الجوارح ركن من أركان الإيمان باعتبار تنفيذ الأمر، فكذلك هو ركن من أركان العصيان ومخالفة الأمر، وسوف نذكر إن شاء الله أغلب الكبائر التي تتعلق بالجوارح مما يقع فيها الظالمون لأنفسهم من المسلمين، وأبرز هذه الكبائر:

١- قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ النساء:٩٣. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب التجارات، باب ما جاء في كراهية الأيمان في الشراء والبيع ٢/٧٤٤ (٢٢٠٨)، ورواه أحمد واللفظ له ٥/١٦٨ (٢١٥١٩)، وصححه الألباني، انظر إرواء الغليل (٩٠٠).

رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ الفرقان:٦٨/٧٠. وقد تقدم الأمر النبوي باجتناب السبع الموبقات ومنها قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق. وعند البخاري من حديث أبي بكرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إِذَا التَقَى المُسلِمَان بسَيْفَيهِمَا فالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النّارِ، قُلتُ: يا رَسُولَ اللهِ، هذا القَاتِلُ فَمَا بَالُ المقْتُولِ ؟ قَالَ: إنَّهُ كَانَ حَرِيصاً عَلَى قتلِ صَاحِبِهِ) [1].

وهذا إنما يكون كذلك إذا لم يكونا يقتتلان على تأويل يحسب صاحبه أنه يقاتل نصرة للحق وإعلاء دينه، إنما على عداوة بينهما وعصبية، أو طلب دنيا، أو رئاسة، أو علو، فأما من قاتل أهل البغي على الصفة التي يجب قتالهم بها، أو دفع عن نفسه أو حريمه، فإنه لا يدخل في هذه، لأنه مأمور بالقتال للذب عن نفسه غير قاصد به قتل صاحبه، إلا إن كان حريصا على قتل صاحبه، ومن قاتل باغيا، أو قاطع طريق من المسلمين، فإنه لا يحرص على قتله، إنما يدفعه عن نفسه، فإن انتهى صاحبه كف عنه.

٢- عقوق الوالدين، لقوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ الإسراء:٢٣/ ٢٤. وعند البخاري من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن النَّبي ﷺ قَال: (الكَبَائِرُ: الإِشْرَاكُ

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما} ١/٢٠ (٣١)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ٤/٢٢١٤ (٢٨٨٨).

باللهِ، وَعُقُوقُ الوَالدَيْنِ، وَقَتْلِ النَّفْس، وَاليَمِينُ الغَمُوسُ) (١).

٣- الزنا وهو من الكبائر، وبعضه أكبر من بعض، وقد روج الإعلام الغربي الفاسد لهذه الجريمة في الفضائيات وغيرها حتى استهان الناس بها، وأصبح ذلك أمرا عاديا غير مجرم طالما كان برضا الزاني والزانية تقليدا للكفار في حيوانيتهم بل أصبح حقا من حقوق المرأة يطالب به في مجتمعاتنا الإسلامية ولا حول ولا قوة إلا بالله، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾الإسراء:٣٢.

وقال الله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ النور:٢/٣. هذا عذاب الزانية والزاني في الدنيا إذا كانا عزبين غير متزوجين فإن كانا متزوجين أو قد تزوجا ولو مرة في العمر فإنهما يرجمان بالحجارة إلى أن يموتا.

وعند البخاري من حديث ابن مسعود ﷺ أنه قال: (قَال رَجُل: يَا رَسُول اللهِ، أي الذنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ، قَال: أَنْ تَدْعُوَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ. قَال: ثمَّ أَيٌّ؟ قَال: أَنْ تَقْتُل وَلدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ. قَال: ثمَّ أي؟ قَال: أَنْ تُزَانِي حَليلةَ جَارِكَ، فَأَنْزَل اللهُ ﷻ تَصْدِيقَهَا: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ

(١) البخاري في الأيمان والنذور، باب اليمين الغموس ٦/٢٤٥٧ (٦٢٩٨)، الغموس التي يحلفها كاذباً عامداً، سميت غموساً لأنها تغمس الحالفَ في الإثم.

ﱡﭐ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ٦٨ ﱠ الفرقان:٦٨) [(١)].

٤- اللواط والسحاق، أو ما يطلق عليه الآن معاشرة الشواذ والمخنثين ونكاح المثليين، ويعدونه حقا من حقوق الإنسان، ويريدون فرضه على مجتمعات بالإرهاب الدولي، وهو كبيرة من الكبائر التي خسف الله بقوم لوط من أجلها وقد ذكرها الله في غير موضع من كتابه فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾ هود:٨٢/٨٣.

٥- الربا وهو من الكبائر التي يحارب المرابي فيها ربه، وهو من السبع الموبقات، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩﴾ البقرة:٢٧٨/٢٧٩. وروى مسلم من حديث ابن مسعود ﷺ أنه قال: (لَعَنَ رسول الله ﷺ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ) [(٢)].

٦- أكل مال اليتيم وظلمه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾ النساء:١٠. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ

---

(١) البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالاته ٢٧٣٩/٦ (٧٠٩٤).

(٢) مسلم في المساقاة، باب لعن آكل الربا ومؤكله ١٢١٨/٣ (١٥٩٧).

﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ الإسراء: ٣٤.

٧- شرب الخمر وتعاطي المخدرات، وهي من الكبائر لأن المخدرات رجس من عمل الشيطان، وتوقع العداوة والبغضاء بين الناس، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وتدعو إلى الزنا، وربما دعت إلى الوقوع على البنت والأخت وذوات المحارم، وتذهب الغيرة، وتورث الخزي والندامة والفضيحة، وتلحق شاربها بأنقص نوع من الإنسانية وهم المجانين، وتسلبة أحسن الأسماء والسمات، وتكسوه أقبح الأسماء والصفات، وتسهل قتل النفس، وإفشاء السر الذي في إفشائه مضرته أو هلاكه، ومؤاخاة الشياطين في تبذير المال الذي جعله الله قياما له، وتهتك الأستار، وتظهر الأسرار، وتدل على العورات، وتهون ارتكاب القبائح والمآثم، وتخرج من القلب تعظيم المحارم، ومدمنها كعابد وثن، وكم أفقرت من غنى، وأذلت من عزيز ووضعت من شريف، وسلبت من نعمة، وجلبت من نقمة، وفسخت من مودة، ونسجت من عداوة، وكم فرقت بين رجل وزوجته، فذهبت بقلبه، وراحت بلبه، وكم أورثت من حسرة، وأجرت من عبْرة، وكم أغلقت في وجه شاربها بابا من الخير، وفتحت له بابا من الشر، وكم أوقعت في بلية، وعجلت من منيته، فهي جماع الإثم ومفتاح الشر، وسلابة النعم، وجلابة النقم[(١)]. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم ص١٢٢ بتصرف.

﴿٩١﴾ المائدة: ٩٠/٩١.

٨- السرقة من الكبائر التي أوجب الشرع فيها الحد كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ المائدة:٣٨/٣٩. روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:(لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ) (١). وعند البخاري من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عنها أنَّ قُرَيْشاً أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا:مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ؟ فقالوا:وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلاَّ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حِبُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ تَعَالَى؟! ثُمَّ قَامَ فاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ:إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ، أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا) (٢).

٩- تشبه النساء بالرجال وتشبه الرجال بالنساء، لما ورد من

---

(١) البخاري في المظالم، باب النهبى بغير إذن صاحبه ٢/٨٧٥ (٢٣٤٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصى ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفى كماله ١/٧٦ (٥٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم ٣/١٢٨٢ (٣٢٨٨)، ومسلم في كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهى عن الشفاعة في الحدود ٣/١٣١٥ (١٦٨٨).

عقوبة الله على من فعل ذلك، وقد انتشر ذلك في زماننا حتى لا يكاد المرء يميز بين رجل وامرأة، روى البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال:(لَعَنَ رسُولُ اللهِ ﷺ المُخَنَّثِينَ مِنَ الرِّجَال، وَالمُتَرَجِّلاَتِ مِنَ النِّسَاءِ) [1]. وفي رواية أخرى: (لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بالنِّسَاءِ، والمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بالرِّجَالِ) [2].

وعند أبي داود وصححه الشيخ الألباني من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال:(لَعَنَ رسُولُ الله ﷺ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ المَرْأَةِ، والمَرْأَةَ تَلْبِسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ) [3]. وعند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:(صِنْفَان مِنْ أهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، قَومٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ البَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، مُمِيلاَتٌ مَائِلاَتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ المَائِلَةِ لاَ يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ، وَلاَ يَجِدْنَ رِيحَهَا، وإنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا) [4].

وقد صدق وصف نبينا ﷺ ورأيناه ليس فقط في النساء الكاسيات العاريات، بل أصبح أيضا في طائفة كبيرة من الشواذ واللوطية، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب اللباس، باب إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت ٥/٢٢٠٧ (٥٥٤٧).

(٢) الموضع السابق ٥/٢٢٠٧ (٥٥٤٦).

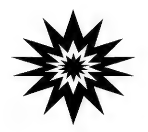
(٣) رواه أبو داود في اللباس، باب لباس النساء ٤/٦٠ (٤٠٩٨) وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٤٤٦٩)، وصحيح الجامع (٥٠٩٥).

(٤) رواه مسلم الموضع السابق، باب النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات ٣/١٦٨٠ (٢١٢٨)، والبخت الناقة طويلة العنق ذات السنامين.

١٠- الرشوة، وهي من الكبائر المنتشرة في عصرنا حتى لا تكاد تقضى أغلب مصالح العباد إلا بها، وهي سحت وكبيرة من الكبائر لأنها دفع المال إلى الغير لقصد إحالته عن الحق، وقد حرم الله أركانها الثلاثة، وهم الراشي والمرتشي والرائش وهو الوسيط بينهما، روى أحمد وصححه الألباني من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أنه قال: (لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي) [1].

وقد ذم الله اليهود لأكلهم السحت فقال: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ﴾ المائدة:٤٢.

وهناك من الكبائر المتعلقة بعمل الجوارح مما لم يذكر الكثير كالغش في البيع والشراء والكيل والوزن، والسحر والقمار والميسر وغيرها يمكن تتبعها من مواضعها في الكتاب والسنة.



(١) رواه الترمذي في كتاب الأحكام، باب ما جاء في الراشي والمرتشي في الحكم ٣/٦٢٣ (١٣٣٧)، وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٣٧٥٣).

المطلب الحادي عشر

الشرك حقيقته وأسبابه وأنواعه المقابلة لأنواع التوحيد



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن الكبائر وضوابطها وأنواعها المتعلقة بالقلب واللسان والجوارح، وعلمنا أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر بنص القرآن والسنة، وأنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار، ثم بينا تعريف الكبيرة وماهيتها، وما ورد في النقل من ضوابطها.

وعلمنا أجناس المحرمات التي لا توبة للعبد إلا بالتخلص منها، ثم تحدثنا عن الكبائر المتعلقة بالقلب، وما يكون منها في منطقة الكسب، والكبائر المتعلقة باللسان والأدلة على حرمتها من القرآن والسنة، وكذلك الكبائر المتعلقة بالجوارح.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن الشرك حقيقته وأسبابه وأنواعه المقابلة لأنواع التوحيد عند السلف أهل السنة والجماعة.

- الشرك ومدلولاته اللغوية في الأصول القرآنية والنبوية.

أصل الشرك من الاشتراك والمشاركة، يقال: شاركت فلانا في الشيء إذا صرت شريكه، واشترك الرجلان وتشاركا، شارك أحدهما الآخر،

وأشركت فلانا في الأمر إذا جعلته شريكا لك فيه، وطريق مشترك أي طريق يسير فيه الناس، ويتساوى كل منهم في حق المرور منه، والشريك يجمع على شركاء وأشراك [1].

وجمع المعاني والمدلولات اللغوية لمشتقات كلمة الشرك في الأصول القرآنية والنبوية ترجع إلى الشراكة والمشاركة، أو المشابهة والمثلية، وهي اشتراك اثنين أو أكثر، إما في صفة ذاتية أو فعلية، وإما في حق الملك أو الملكية، وإما في الرأي والحاكمية، أو القيام بالغير أو تحمل المسئولية، والتوحيد ينفي عن سائر الخلائق جميع أنواع المشاركة السابقة لله رب العالمين.

ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾ الإسراء:١١١.

ومن المشاركة بنصيب معين في الصفات الذاتية والفعلية التي نفاها الله عمن سواه ما ورد في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ يونس:٣٤/٣٥.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ ﴾ الشورى:١١. وقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾ مريم:٦٥. وقوله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ

(١) لسان العرب ١٠/٤٤٨، ومعجم مقاييس اللغة ٣/٢٦٥ بتصرف.

وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ الروم:٤٠.

ومن المشاركة في حق الملك والملكية ما ورد في قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الزمر:٢٩. وقوله سبحانه: ﴿فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ ﴾ النساء:١٢.

وروى ابن ماجة وصححه الشيخ الألباني من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (الْمُسْلِمُون شُرَكَاءُ فِي ثلاَث فِي الْكَلاِ، وَالْمَاءِ، وَالنارِ) (١). أي شركاء في حق الانتفاع من العشب والماء، وما تقاد به النار من الحطب وغيره حيثما كان عاما.

ومن المشاركة في الرأي والقيام بالتكليف والأمر ما ورد في قوله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ ﴾ طه:٢٩/٣٢.

ومن المشاركة في الرأي تحمل الجزاء والمسئولية على الفعل ما ورد في قوله تعالى عن الظالمين وعذابهم: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ الزخرف:٣٩.

ومن أخطر الأمور المهلكة، والكبائر الموبقة أن يجعل الإنسان شريكا لربه في ربوبيته وعبوديته وأسمائه وصفاته، روى البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (سَأَلتُ رَسُول اللهِ ﷺ: أَيُّ الذنبِ عِندَ اللهِ

---

(١) ابن ماجه في الرهون، باب المسلمون شركاء في ثلاث ٢/٨٢٦ (٢٤٧٢)، وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٣٠٠١)، وصحيح الجامع (٦٧١٣) .

أَكْبَرُ؟ قَال: أَن تَجْعَل للهِ ندًا وَهُوَ خَلَقَكَ .. الحديث) (١).

وعند مسلم من حديث عياض ﷺ أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: (أَلاَ إن رَبِّى أَمَرَنِي أَن أُعلمَكُمْ مَا جَهلتُمْ، مِمَّا عَلمَني يومْي هَذا، كُل مَال نَحَلتُهُ عَبْدا حَلاَل، وَإني خَلَقْتُ عِبَادِي حُنفَاءَ كُلهُمْ، وَإنهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِين فَاجْتَالتْهُمْ عَن دِينهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَليهمْ مَا أَحْللتُ لهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَن يشرِكُوا بِي مَا لمْ أُنزل بِهِ سُلطَانا، وَإن اللهَ نظَرَ إلى أَهْل الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إلاَّ بَقَايا مِن أَهْل الكِتَاب، وَقَال: إنمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَليكَ وَأَبْتَلي بِكَ.. الحديث) (٢).

وروى مسلم من حديث أبِي ذر ﷺ أن رسول اللهِ ﷺ قال: (يَقُولُ اللهُ ﷻ: وَمَن لقِيَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَة، لا يُشْرِكُ بِي شَيْئا، لقِيتُهُ بِمِثلهَا مَغْفِرَة) (٣).

وروى البخاري من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبيّ ﷺ قَال: (الكَبَائِرُ: الإشْرَاكُ بالله، وَعُقُوقُ الوَالدَيْن، وَقَتْل النفْس، وَاليَمِين الغَمُوسُ) (٤).

روى البخاري ومسلم من حديث أَبي بكرة نفَيع بن الحارث ﷺ

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، تفسير سورة الفرقان ٤/١٧٨٤ (٤٤٨٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب ١/٩٠ (٨٦).

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ٤/ ٢١٩٧ (٢٨٦٥).

(٣) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى ٤/٢٠٦٨ (٢٦٨٧)، والقُراب أي بما يقارب ملأها.

(٤) البخاري في الأيمان والنذور، باب اليمين الغموس ٦/٢٤٥٧ (٦٢٩٨).

أن رَسُول الله ﷺ قال: (ألا أُنبِّئُكُمْ بأكْبَرِ الكَبَائِرِ؟ ثلاثا قُلنا: بَلى، يَا رَسُول الله، قَال: الإِشْرَاكُ بالله، وَعُقُوقُ الوَالدَيْن، وكان مُتَّكِئا فَجَلسَ، فقَال: ألاَ وَقَوْل الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ، فَمَا زَال يُكرِّرُهَا حَتَّى قُلنا: ليْتَهُ سَكَتَ) [1].

وعند البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن النبيِّ ﷺ قَال: (اجْتَنبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُول اللهِ وَمَا هُن؟ قَال: الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النفْسِ التِي حَرَّمَ اللهُ إلا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَال اليَتِيمِ، وَالتَّوَلي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنات الغَافِلاتِ) [2].

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ البينة:٥. وقال: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ۝٣١﴾ الحج:٣١.

أكثر العلماء على أن الحنيف هو المخلص الذي يعبد الله وحده، فالحنيفية دين إبراهيم، وهو دين التوحيد والإخلاص لله وحده، وقد كان المشركون في الجاهلية يعلمون حقيقة التوحيد، وعلى الرغم من ذلك يصرون على الشرك في الدعاء عند النعمة والرخاء، لكنهم

(١) رواه البخاري في الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر ٥/٢٢٢٩ (٥٦٣١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها ١/٩١ (٨٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ٣/١٠١٧ (٢٦١٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها ١/٩٢ (٨٩).

يوحدون إله السماء عند الشدائد وحدوث البلاء، وقليل منهم من دان بالإخلاص وتحرى الخلاص من الشرك.

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ العنكبوت:٦٥.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾ الإسراء:٦٧.

روى النسائي وصححه الألباني من حديث سعد بن أبي وقاص ﵁ أنه قال: (لَمَّا كَان يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ أَمَّن رَسُولُ اللهِ ﷺ الناسَ إلاَّ أَرْبَعَةَ نفرٍ وَامْرَأَتَيْن، وَقَالَ: اقْتُلُوهُمْ وَإِن وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِين بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ .. قال: وَأَمَّا عِكْرِمَةُ فَرَكِبَ الْبَحْرَ فَأَصَابَتْهُمْ عَاصِفٌ، فَقَالَ أَصْحَابُ السَّفِينةِ: أَخْلِصُوا فَإِن آلِهَتَكُمْ لاَ تُغْنى عَنكُمْ شَيْئًا هَا هُنا، فَقَالَ عِكْرِمَةُ: وَاللهِ لَئِن لَمْ يُنجِّنِي مِن الْبَحْرِ إلاَّ الإِخْلاَصُ لاَ يُنجِّيني فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ، اللهُمَّ إن لَكَ عَلَيَّ عَهْدا إن أَنتَ عافيتني مِمَّا أَنا فِيهِ أَن آتِيَ مُحَمَّدا ﷺ حَتَّى أَضَعَ يدي فِي يَدِهِ فَلأَجِدَنهُ عَفُوّا كَرِيما، فَجَاءَ فَأَسْلَمَ) [١] .

• الشرك بالله تعطيل لمعاني الواحدية والأحدية والوترية .

والواحدية صفة الواحد، وهو اسم لله سبحانه ينفي التعدد والمثلية، فالله ﷻ واحد لا شريك يماثله، ولا هو ثالث ثلاثة كما زعم النصارى، بل هو واحد قائم بنفسه لا يفتقر إلى غيره أزلا وأبدا،

---

(١) رواه النسائي في سننه كتاب تحريم الدماء، باب الحكم في المرتد ٣٠٢/٢ (٣٥٣٠) وصححه الألباني في صحيح أبي داود ٥١٠/٢ (٢٣٣٤).

وهو الكامل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾﴾ النساء: ١٧١.

كما أن وجود عيسى عليه السلام أو وجود المخلوقات التي أُلهت لم يزده كمالا كان مفقودا، أو يزيل عنه نقصا كان موجودا، فالوحدانية قائمة على معنى الغنى بالنفس والانفراد بكمال الوصف.

قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾﴾ مريم:٦٥. فهو سبحانه وحده الذي خلق الخلق بلا معين ولا ظهير، ولا وزير ولا مشير، ومن ثم فإنه وحده المنفرد بالملك، وليس لأحد في ملكه شرك، ومن سوى بين الله وبين أحد من خلقه وجعله شريكا له في صفته أو فعله فقد عطل وصف الواحدية التي انفرد بها رب العزة والجلال.

ومعلوم أن الذي علا بذاته وارتفع ارتفاعا مطلقا فوق الكل ينفرد بالوحدانية والعلو والعظمة والمجد والرفعة بدلالة اللزوم، والله عز وجل واحد في علوه، مستو على عرشه، بائن من خلقه، لا شيء من ذاته في خلقه، ولا خلقه في شيء من ذاته، يعلم أعمالهم، ويسمع أقوالهم، ويرى أفعالهم، ولا تخفى عليه منهم خافية.

والأحدية وصف الأحد وهو اسم لله سبحانه ينفي الشبيه بالكلية، فهو المنفرد بذاته ووصفه المباين لغيره، كما بين في معنى الأحدية أنه لم يكن له كفوا أحد وأنه لا سمي له.

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)﴾ الإخلاص:١/٤.

وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١١)﴾ الشورى:١١.

والأحدية هي الانفراد ونفي الشبيه بالكلية وتعني انفراده سبحانه بذاته وصفاته وأفعاله عن الأقيسة والقواعد والقوانين التي تحكم ذوات المخلوقين وصفاتهم وأفعالهم، وانفراده سبحانه عن كل شيء من أوصاف المخلوقين يكون بجميع ما ثبت له من أوصاف الكمال، فالأحد هو المنفرد الذي لا شبيه له فنحكم على كيفية أوصافه من خلاله، ولا يستوي مع سائر الخلق فيسري عليه قانون أو قياس أو قواعد تحكمه كما تحكمهم، لأنه المتصف بالتوحيد المنفرد عن أحكام العبيد، فلا شبيه يدانيه ولا نظير يساويه، وهو منفرد بكل معاني الكمال، متوحد منزه عن النقائص والعيوب التي تنافي معاني الإلوهية والربوبية، فتعالى في أحديته عن الشريك والظهير والولي والنصير، وتعالى في كمال حياته وقوميته ومشيئته وقدرته، وتعالى في كمال حكمته وحجته، وتعالى في كمال علمه عن الغفلة والنسيان، وعن ترك الخلق سدى دون غاية لخلق الجن والإنسان.

والوترية وصف الوتر وهو اسم لله سبحانه ينفي الشفعية والزوجية فالله تعالى وتر انفرد عن خلقه بالوترية فجعلهم على معنى الشفعية

والزوجية، بحيث لا تعتدل المخلوقات ولا تستقر إلا بالزوجية، ولا تهنأ على الفردية والوترية، فالرجل لا يهنأ إلا بزوجته، ولا يشعر بالسعادة إلا مع أسرته، والتوافق بين محبتهم ومحبته، فيراعى في قراره ضروريات أولاده وزوجته.

ولا يمكن أن تستمر الحياة التي قدرها الله ﷻ على خلقه بغير الزوجية، حتى في تكوين أدق المواد الطبيعية، فالمادة تتكون من مجموعة من العناصر والمركبات، وكل عنصر مكون من مجموعة من الجزيئات، وكل جزيء مكون من مجموعة من الذرات، وكل ذرة لها نظام في تركيبها، تتزاوج فيه مع أخواتها. فقال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١)﴾ الذاريات:٤٩/٥١.

جعلهم على الزوجية ليفروا إليه وحده دون أحد من خلقه، وألا يجعلوا معه إلها آخر، ومن هنا كانت الزوجية مقابلة للوترية، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٤٥)﴾ النجم:٤٥.

وقال سبحانه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦)﴾ الزمر:٦.

ومن المعلوم أنه لا يتكون جزيءُ الماء إلا إذا اتحدت ذرتان من الهيدروجين مع ذرة واحدة من الأكسجين، فالذرات في قيامها متزاوجة، سالبها يرتبط بموجبها، ولا تهدأ ولا تستقر إلا بالتزاوج بين بعضها البعض. وتلك بناية الخلق بتقدير الحق بنيت على الزوجية

والشفعية، أما ربنا ﷻ فذاته صمدية، وصفاته فردية، فهو المنفرد بالواحدية والأحدية والوترية [1].

• العلة في كون الشرك بجميع أنواعه هو الظلم العظيم.

خلق الله الإنسان لعبادته وذلك باستخلافه في أرضه على وجه الابتلاء والامتحان، فاستأمنه وابتلاه وخوله واسترعاه، ومن ثم فإن دور الإنسان في الحياة مقصور على تنفيذ أوامره الشرعية فيما خوله الله واسترعاه، ولا يعني استخلافه في الأرض على وجه الابتلاء استحقاقه هو أو غيره لشيء من معاني الربوبية والملكية الحقيقية الأصلية التي انفرد بها، فهذا حق لله وحده لا يصح المساس به على الإطلاق، بل المساس به شرك بالله وظلم لا يغفر إلا بالتوبة، وقد بين الله للعباد في غير موضع من كتابه أن استخلافهم في الأرض ليحققوا توحيد العبودية، وليس لمشاركة الله في أوصاف في الربوبية.

ومن ثم فإن الله ﷻ لن يقبل منهم أن يتخذوا شريكا له في ملكه، أو منازعا له في تدبير شئون خلقه، ولن يقبل منهم عملا فيه نصيب لغيره، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ النساء:٤٨.

وقال تعالى أيضا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ النساء:١١٦.

وقال: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ

(١) انظر كتاب أسماء الله الحسنى للمؤلف ص٣٥٨.

ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ المائدة:٧٢.

ومن ثم فإن الشرك لكونه ظلما عظيما أخذ الله العهد والميثاق على الإنسانية قبل نزولهم إلى الأرض، فإن ادعى أحد بعد تذكير الله له بذلك عن طريق أنبيائه ورسله أن الله ﷻ له شريك في الملك، أو له معين في تدبيره السماوات والأرض، فقد وقع في الظلم العظيم، وعطل دور الإنسان، ولم يوفق في الابتلاء والامتحان، وفشل فشلا ذريعا في أداء الأمانة التي خلق من أجلها، حتى لو قدم كل ما استطاع من الجهد في خدمة البشرية ونفعها. قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ الفرقان:٢٣.

ولن يفلح وقتها احتجاج بالنسيان، أو ادعاء التبعية للآباء في سالف الزمان، فوجب عليه أن يراعى في قوله وعمله الخوف من الله وحده لأنه صاحب الأمانة وخالقها، وولي النعمة ومالكها، وما سواه لا يملك شيئا، بل هو مجرد أمين مستخلف في الحياة، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ سبأ:٢٢.

وقال ﷻ: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ فاطر:١٣/١٤.

وقد ظلم نفسه وتعدى وصفه من قال بعد ذلك بقول الطاغوت فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٣٨) وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩)﴾ القصص:٣٨/٣٩.

وقد ظلم نفسه من تناسى فضل ربه، وتكبر على إخوانه وقومه وتناسى حقيقة الأمانة والابتلاء، وأن نسبة الملك إليه إنما هي نسبة استخلاف واسترعاء، وأن شرف العبد يكمن في التواضع والعبودية، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ (٧٦) وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ القصص:٧٦/٧٨.

والقصد أن آية الميثاق وما ورد في تفسيرها من نصوص صحيحة، وما ورد في قول أبي بن كعب ﷺ يدل على أن الله ﷻ أخذ عليهم الميثاق، ليعلمهم جميعا بأنه منفرد بالملك والربوبية، وله العلو في الشأن والقهر والفوقية، لا يقبل شريكا معه في العبودية، ولا يقبل أن يتشبه به أحد في معنى من معاني الربوبية.

ومن أعظم الظلم أن الإنسان الذي كرمه الله ﷻ في ملكه، واستخلفه في أرضه، ووكل ملائكته بحفظه، والقيام على تدبير أمره، من

أعظم الظلم أن يسوى بين الله ﷻ الذي ليس كمثله شيء، والمخلوق العاجز الفقير الذي لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، يسوى بينه وبين الله ﷻ في المحبة والخوف والرجاء، والخضوع التعظيم والدعاء.

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ البقرة:١٦٥.

ومن ثم فإن توحيد الله ﷻ وعدم الإشراك به أساس المغفرة لهم، ولما أشهدهم الله على أنفسهم بذلك أقروا به، وأقروا بالتوحيد وأنهم لا حول ولا قوة لهم إلا بمعونة الله وهدايته، وأنهم لا ينسبون شيئا من ملكه لهم أو لغيرهم إلا على سبيل الأمانة والابتلاء، فالأمر لله في كونه على سبيل الربوبية وتصريف خلقه، والأمر لله في شرعه على سبيل العبودية وتنفيذ حكمه، وأن الفضل كله يرجع إليه، وأنه لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه، وهم على هذا العهد قائمون، يوحدون ولا يشركون، ويشكرون ولا يكفرون، صابرون مؤمنون، إلى أن يعيدهم يوم القيامة إليه، ويكرمهم يوم العرض عليه، وعدا عليه بعدله، وإكراما لهم بفضله، كما بين ذلك في سائر كتبه فقال سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ التوبة:١١١/١١٢.

وهذا الميثاق هو أساس فطرة التوحيد في كل إنسان؛ فالفطرة التي فطر الله الخلائق عليها، اقتضت أن تلجأ النفوس إلى قوة عليا عند ضعفها، وتطلب غنيا أعلى عند فقرها، وتوابا رحيما عند ذنبها، وسميعا قريبا بصيرا مجيبا عند سؤالها، وكل ذلك يدعو النفس إلى التوحيد والإسلام، والعودة بالضرورة إلى الملك القدوس السلام.

ومثل هذا الإحساس الفطري كامن في النفس، وإن لم يعلنه الشخص، فإن خلا القلب من موانع الطبع المألوفة، والتأثر بالاعتقادات الشركية، فإن قلبه يتوجه تلقائيا إلى ربه بتوحيد العبودية.

روى البخاري من حديث أبي هُريرة ﷺ أن رسول اللهِ ﷺ قال: (ما من مولُودٍ إلا يُولدُ على الفطْرة، فأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أو ينصرانه، أو يُمجسَانهِ، كما تنتج البَهِيمةُ بَهِيمة جمعَاءَ، هل تحِسُّون فيها من جدْعَاءَ؟ ثم يقول أبو هُرَيْرة ﷺ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ الروم: ٣٠) [(١)].

- **حقيقة الشرك والضوابط اللازمة لتمييزه والتعرف على أنواعه.**

انطلاقا من المعاني والمدلولات اللغوية لكلمة الشرك في الأصول

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام ١/٤٥٦ (١٢٩٣)، ومسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين ٤/٢٠٤٧ (٢٦٥٨). الجمعاء هي تامة الأعضاء المستوية الخلق، والجدعاء المقطوعة الأذن أو الأنف أو غير ذلك.

القرآنية والنبوية والتي ترجع إلى الشراكة والمشابهة بين اثنين أو أكثر في وصف من الأوصاف، فإن الشرك بالله يرجع في حقيقته إلى ثلاثة أصناف أو أنواع هي أسباب الشرك الحقيقية:

السبب الأول: التشبه بالخالق، وهو السبب في شرك الربوبية، ومبناه على طلب العلو الذاتي والاستكبار، وعدم الافتقار إلى رب العزة والجلال، والتشبه بالله في العلو والكبرياء، وتأليه النفس بالاستعلاء، ودعوة الناس إلى الخضوع له والذكر لاسمه ووصفه بالمدح والثناء والتعظيم والإطراء. وهذا الشرك في الربوبية هو الذي نفاه الله عن عيسى عليه السلام وبرأه منه وبين أنه عبد لله لا يستنكف عن توحيد العبودية، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)﴾ المائدة:١١٦/١١٨.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ

جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ النساء: ١٧١/١٧٢.

قال ابن القيم: (وأما في جانب التشبه به، فمن تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم والخضوع والرجاء، وتعليق القلب به خوفا ورجاء والتجاء واستعانة، فقد أشرك بالله ونازعه في ربوبيته وإلهيته، وهو حقيق بأن يهينه غاية الهوان، ويذله غاية الذل، ويجعله تحت أقدام خلقه، وفي الصحيح عنه قال يقول الله ﷻ: (العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحدا منهما عذبته) [١].
وإذا كان المصور الذي يصنع الصورة بيده من أشد الناس عذابا يوم القيامة لتشبه بالله في مجرد الصنعة، فما الظن بالتشبه بالله في الربوبية والإلهية، كما قال النبي ﷺ: (أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون [٢]، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم)[٣] .

وفي الصحيحين عنه أنه ﷺ قال: (قال الله: ومن أظلم ممن ذهب

---

(١) رواه مسلم في البر والصلة والأدب، باب تحريم الكبر ٤/٢٠٢٣ (٢٦٢٠)، والبخاري في الأدب المفرد ١/١٩٤ (٥٥٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب اللباس، باب عذاب المصورين يوم القيامة ٥/٢٢٢٠ (٥٦٠٦)، ومسلم في كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة ٣/١٦٧٠ (٢١٠٩).

(٣) روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ويقال لهم أحيوا ما خلقتم)، انظر صحيح البخاري، كتب التوحيد، باب قول الله تعالى {والله خلقكم وما تعملون} ٦/٢٧٤٧ (٧١١٩)، وصحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه ٣/١٦٦٩ (٢١٠٨).

يخلق خلقا كخلقي، فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة)[1]. فنبه بالذرة والشعيرة على ما هو أعظم منهما وأكبر، والمقصود أن هذا حال من تشبه به في صنعة صورة، فكيف حال من تشبه به في خواص ربوبيته وإلهيته؟) [2].

السبب الثاني: تشبيه المخلوق بالخالق، وهو السبب في شرك العبادة ومبناه على الغلو في تعظيم المخلوق وإعطاؤه منزلة فوق منزلته، حتى جعلوا فيه حظا من الإلهية، وشبهوه بالله سبحانه، وهذا هو التشبيه الواقع في سائر الأمم، وهو الذي أبطله الله سبحانه وحذر العباد منه، وبعث رسله وأنزل كتبه بإنكاره والرد على أهله، فهو سبحانه نهى عن تشبيه غيره به، وحرم على العباد أن يجعلوا غيره مثيلا له، وندا له وشبها نظيرا. قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ البقرة:١٦٥.

قال ابن القيم: (حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق به، هذا هو التشبيه في الحقيقة، لا إثبات صفات الكمال التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله ، فعكس من نكس الله قلبه وأعمى عين بصيرته الأمر، وجعل التوحيد تشبيها، والتشبيه تعظيما وطاعة، فالمشرك

(١) رواه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى والله خلقكم وما تعملون ٢٧٤٧/٦ (٧١٢٠)، ومسلم في كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه ١٦٧١/٣ (٢١١١).

(٢) الجواب الكافي لابن القيم ص٩٥ نشر دار الكتب العلمية – بيروت.

مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية، فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا أفضل من غيره، تشبيها بمن له الأمر كله، فأزمة الأمور كلها بيديه، ومرجعها إليه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها أحد، وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد، فمن أقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات) [1].

السبب الثالث: تشبيه الخالق بالمخلوق، وهو السبب في شرك الأسماء والصفات، وهو الذي وقع فيه المتكلمون الجهمية وخالفوا فيه الفطرة الإنسانية، وظنوا أن نصوص القرآن والسنة تدل عليه، وأنها نصوص توهم التشبيه والجسمية، فبالغوا في نفي ما توهموه من التشبيه بالتأويل الباطل، وتحريف الكلم عن مواضعه، وصرفه عن حقائقه بالمجازات والمجازفات وغرائب اللغات.

قال ابن القيم رحمه الله: (ليس في الأمم المعروفة أمة جعلته سبحانه مثلا لشيء من مخلوقاته، فجعلت المخلوق أصلا وشبهت به الخالق، فهذا لا يعرف في طائفة من طوائف بني آدم، وإنما تشبيه المخلوق بالخالق هو المعروف في طوائف أهل الشرك، غلوا فيمن يعظمونه ويحبونه حتى شبهوه بالخالق، وأعطوه خصائص الإلهية، بل صرحوا أنه إله

---

(١) المصدر السابق ص٩٤.

وأنكروا جعل الآلهة إلها واحدا)[1].

والمشركون منذ القدم صرحوا في المخلوق الذي ألهوه وشبهوه بالخالق أنه إله معبود، يرجى ويخاف ويعظم، ويسجد له، ويحلف باسمه، وتقرب له القرابين إلى غير ذلك من خصائص العبادة التي لا تنبغي إلا لله تعالى، فكل مشرك مشبه لإلهه ومعبوده بالله سبحانه، وإن لم يشبهه به من كل وجه، حتى إن الذين كفروا وصفوه سبحانه بالنقائص والعيوب ووصفوا المخلوق الذي عظموه بالكمال[2].

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ﴾ آل عمران: ١٨١.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ المائدة: ٦٤.

وقال تعالى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾ النجم: ٢١/٢٣.

وقال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ النحل: ٥٧/٥٩.

---

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم ٢/٢٢٦.

(٢) المصدر السابق ٢/٢٢٧ بتصرف.

وقال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ النحل:٦٢.

ومن ثم فإنه لم يكن في الأمم من مثله بخلقه، وجعل المخلوق أصلا يقاس عليه الخالق ويشبه به، وإنما كان التمثيل والتشبيه في سائر الأمم أنهم شبهوا المخلوق بالخالق وشبهوا أوثانهم ومعبوداتهم بالله في الإلهية.

وهذا التشبيه هو أصل عبادة الأصنام فأعرض أهل الكلام من الجهمية عنه وعن بيان بطلانه، وصرفوا مجادلاتهم العقلية ونهاية إقدامهم إلى إنكار تشبيه الخالق بالمخلوق الذي لم تعرفه أمة من الأمم، وبالغوا فيه حتى عطلوا حقائق الأسماء والصفات وحرفوها عن مواضعها ونفوا عن الله صفات الكمال.

وهذا موضع مهم نافع جدا يعرف به الفرق بين ما نزه الرب سبحانه نفسه عنه من التشبيه، وذم به المشركين المشبهين العادلين به خلقه، وبين ما ينفيه الجهمية المعطلة من صفات كماله بحجة نفي التشبيه عن الله، ويزعمون أن ما ورد من نفي التشبيه في القرآن هو ما أرادوه من تعطيل الصفات. وحقيقة الأمر أن القرآن مملوء من إبطال تشبيه المخلوق بالخالق وأن يكون في المخلوقات ما يشبه الرب تعالى أو يماثله، فهذا هو الذي قصد بالقرآن إبطالا لما عليه المشركون والمشبهون العادلون بالله تعالى غيره [1].

---

(١) المصدر السابق ٢/٢٢٨ بتصرف.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ البقرة:٢٢.

وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ البقرة:١٦٥. هؤلاء جعلوا المخلوق مماثلا للخالق، فالند الشبه، يقال: فلان ند فلان ونديده، أي مثله وشبهه، ومنه ما رواه النسائي وصححه الشيخ الألباني: (أَن يَهُودِيًّا أَتَى النبِيَّ ﷺ فقَال:إنكُمْ تُنددُون، وَإنكُمْ تُشْركُون تَقُولون: مَا شَاءَ اللهُ وشئت، وَتَقُولون: وَالكَعْبَةِ، فَأَمَرَهُمُ النبِيُّ ﷺ إذا أَرَادُوا أَن يَحْلفُوا أَن يَقُولوا: وَرَبِّ الكَعْبَةِ، وَيَقُولون: مَا شَاءَ اللهُ، ثمَّ شئت) [1].

وعند أحمد في المسند من حديث ابْن عَباس رضي الله عنه: (أَن رَجُلا قَال: يَا رَسُول اللهِ، مَا شَاءَ اللهُ وشئت، فَقَال: جَعَلتَني للهِ عَدْلا، بَل مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ) [2]. فالذي أنكره الله سبحانه عليهم هو تشبيه المخلوق به حتى جعلوه ندا لله تعالى يعبدونه كما يعبدون الله، فأنكر هذا التشبيه عليهم، وهو أصل عبادة الأصنام.

ونظير هذا قوله سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ الأنعام:١. أي يعدلون به غيره، فيجعلون له من خلقه عدلا وشبها. والعدل التسوية، يقال:

---

(١) رواه النسائي في كتاب الأيمان والنذور، باب الحلف بالكعبة ١٢٤/٣ (٤٧١٤)، وصححه الشيخ الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (١٣٦).

(٢) رواه أحمد في المسند ٢٨٣/١ (٢٥٦١)، وابن أبي شيبة في المصنف ٧٤/٦ (٢٩٥٧٣)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (١٣٩).

عدل الشيء بالشيء إذا سواه به، ومعنى يعدلون به يشركون به غيره، يقال: عدل الكافر بربه عدلا وعدولا إذا سوى به غيره فعبده، ويقال: عدلت الشيء بالشيء أعدله عدولا إذا ساويته به(١).

ومثله قوله تعالى عن هؤلاء المشبهين الذين شبهوا المخلوق بالخالق يقولون في النار لآلهتهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ الشعراء:٩٧/٩٨. فاعترفوا أنهم كانوا في أعظم الضلال وأبينه، إذ جعلوا لله شبها وعدلا من خلقه سووهم به في العبادة والتعظيم. وقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ۝٦٥﴾ مريم:٦٥. أي شبيها ومماثلا وهو من يساميه، وذلك نفي عن المخلوق أن يكون مشابها للخالق ومماثلا له بحيث يستحق العبادة والتعظيم، ولم يقل سبحانه هل تعلمه سميا أو مشبها لغيره فإن هذا لم يقله أحد بل المشركون المشبهون جعلوا بعض المخلوقات مشابها له مساميا وندا وعدلا فأنكر عليهم هذا التشبيه والتمثيل(٢).

ومن هنا يعلم أن إثبات صفات الكمال التي أثبتها الله لنفسه في كتابه وفي سنة رسوله ﷺ لا يتضمن التشبيه والتمثيل لا بالكاملين من الخلق ولا بالناقصين، وأن نفي تلك الصفات يستلزم تشبيهه بأنقص الناقصين، فانظر إلى الجهمية وأتباعهم جاءوا إلى التشبيه المذموم وهو تشبيه المشركين الذي بني على تشبيه المخلوق الخالق فأعرضوا عنه

(١) انظر لسان العرب ٤٣٦/١١، وتهذيب اللغة ١٢٥/٢.
(٢) إغاثة اللهفان لابن القيم ٢٣٠/٢ بتصرف.

صفحا، وجاءوا إلى الكمال والمدح الذي وصف الله به نفسه فجعلوه تشبيها وتمثيلا عكس ما يثبته القرآن وجاء به من كل وجه [1].

- التشبه بالخالق والشرك الذي ينافي توحيد الربوبية.

تقدم أن أسباب الشرك بالله تمكن في فهم قضية التشبه والتشبيه، وينتج عنها ثلاثة أنواع من الشرك وهي: شرك الربوبية، وشرك العبادة والإلوهية، وشرك الأسماء والصفات.

أما النوع الأول وهو شرك الربوبية، فسببه التشبه بالخالق، وبيان ذلك أن كل مخلوق سوى الله إنما هو عبد من عباده، إما باضطرار أو باختيار، فالعبودية صفة لازمة لسائر المخلوقات، وهي عبودية حاجة وافتقار تقابل وصف الغنى والكمال، ولذلك فإن توحيد الربوبية قائم على أن وصف الغنى والكمال وصف ذاتي انفرد به رب العزة والجلال، وأن وصف الحاجة والافتقار، وصف ذاتي لكل مخلوق على وجه الاضطرار، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ فاطر:١٥.

ومعلوم أن فقر الخلائق إلى الله أمر ذاتي لهم، لا ينفك عنهم، كما أن كونه غنيا حميدا، وكونه محمودا على عطائه الدائم وصف ذاتي له، فغناه وحمده ثابتان له لذاته بحكم معاني الربوبية، وفقر من سواه إليه فقر ذاتي ثابت لذاته بحكم معاني العبودية، فحاجة العبد إلى ربه أمر ذاتي يمثل حقيقة الفطرة.

(١) المصدر السابق ٢/٢٣١ بتصرف.

ومن ثم فإن العبد إذا تعاظم وأراد أن يخرج عن وصف الحاجة والافتقار، فإنه لا محالة يطلب لذاته الاستغناء والعلو والاستكبار، فيتشبه برب العزة والجلال في وصف من أوصاف الكمال التي انفرد بها، فيقع في الطغيان ويظلم الآخرين. قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨ ﴾ العلق:٦/٨.

وكل من استغنى بماله، أو جاهه، أو ملكه، وعصى الله ونازعه في أمره، فإنه خرج عن حده من كونه عبدا فقيرا، من شأنه الخضوع والافتقار إلى أن طغى وبغى واغتر بعدم الحاجة والاضطرار، فأوقعه غرور الهوى في أن يرى نفسه مستغنيا عن غيره، لا يفتقر إلى أحد في قيام وصفه وتحقيق مراده.

قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ ﴾ العلق:٦. ثم بين أن طغيانه كان بسبب رؤيته لنفسه مستغنيا عن غيره فقال: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ ﴾ العلق:٧. ثم أعاد الله الأمر إليه سبحانه في كونه الغني المنفرد بوصف الغنى، والاستغناء المطلق عن الغير إنما هو في حقيقته مقصور على الرب الأعلى فقال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨ ﴾ العلق:٨.

ومن ثم فإن الشرك في الربوبية يقع ممن تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم والهيبة والنداء والخضوع والخوف والرجاء، وتعلقت به القلوب خوفا ورجاءا ورهبة واستغاثة والتجاء وخشية، وشابه خصال فرعون بعضها أو كلها، فذلك قد تشبه بالخالق على قدر خصاله الفرعونية .

- **حقيقة الطاغوت وعلاقته بالشرك في الربوبية.**

وحقيقة الطاغوت تجاوز الحد في الخروج من الفقر الذاتي إلى الغنى الذاتي باستعلاء الإنسان، والاستكبار والظلم والطغيان، ولذلك كان الطاغوت هو الشيطان وكل ما عبد من دون الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ البقرة:٣٤. وقال: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ الأعراف:١٣.

لما نزل هذا الخبيث إبليس إلى الأرض نصب لنفسه عرشا على الماء ليتشبه باستواء الله على عرشه في السماء، بحيث يكون هو المعبود بالباطل والشرك في مقابل المعبود بحق، فجعل نفسه إلها لأتباعه، وقرب إليه من كان من بني جنسه، أو كان من حزبه وطريقته.

روى مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إن إبْليسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلى المَاءِ، ثمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْناهُمْ مِنهُ مَنزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فيقُول: فَعَلتُ كَذا وكَذا، فيَقُول: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا قَالَ: ثمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فيقُول: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فرَّقْتُ بَيْنَهُ وبَيْن امْرَأَتِه، قَال: فيُدْنيهِ مِنهُ ويَقُول: نعْمَ أَنت) [(١)].

وقد أصبح الشيطان رأس الطواغيت والقائد الأعلى للمشركين في الربوبية، ومؤسس سبل الطغيان لكل ملك ظالم من بني الإنسان،

(١) رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قرينا ٤/٢١٦٧ (٢٨١٣).

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ النساء: ٧٦.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ النساء: ٦٠.

قال ابن القيم رحمه الله: (الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرةٍ من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله؛ فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم عدلوا من عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته) [1].

وإذا كانت معاني العبودية تقوم على معاني الذل والافتقار والحاجة والاضطرار، فإن معاني الربوبية تقوم على الاستغناء بالنفس في كل اسم أو وصف بحيث يكون المسمى والموصوف كاملا، فكمال الأسماء والصفات والأفعال هو الذي يغني صاحبه عن كل معاني الحاجة والقهر والاضطرار والذل والافتقار، وهذا الوصف ليس لأحد على الإطلاق إلا لرب العزة والجلال. وفي المقابل فإن توحيد العبودية لله هو إفراده

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/٥٠.

بالطاعة والمحبة والتسليم، والافتقار بالخضوع والتعظيم.

ولذلك فإن أكمل الخلق عبادة أبعدهم عن الشرك وأفضلهم توحيدا، وأعظمهم شهودا لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين، ولهذا قال النبي ﷺ لفاطمة: (مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ؟ أَنْ تَقُولِي إذا أَصْبَحْتِ وَإذا أَمْسَيْتِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ) (١).

وروى الترمذي من حديث أنس رضي الله عنه أنه قال: (كَانَ رَسُول اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُول: يَا مُقَلبَ القُلوبِ، ثَبِّتْ قَلبِي عَلى دِينِكَ. فَقُلتُ: يَا رَسُول اللهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَل تَخَافُ عَليْنَا؟ قَال: نَعَمْ، إِنَّ القُلوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ يُقَلبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ) (٢).

والنبي ﷺ يعلم أن قلبه بيد الرحمن عز وجل لا يملك منه شيئا، وأن الله سبحانه يصرفه كما يشاء، كيف وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ الإسراء:٧٤. فضرورته إلى ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به، وحسب قربه منه، ومنزلته عنده.

---

(١) أخرجه النسائي في كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يقول إذا أمسى ٦/١٤٧ (١٠٤٠٥)، وصححه الشيخ الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٢٢٧)، وصحيح الترغيب والترهيب (٦٦١)، وصحيح الجامع (٥٨٢٠).

(٢) رواه الترمذي في القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن ٤/٤٤٨ (٢١٤٠)، ورواه أحمد في المسند ٣/١١٢ (١٢١٢٨)، وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (١٠٢)، وظلال الجنة في تخريج السنة لابن أبي عاصم (٢٢٥).

ولهذا كان النبي ﷺ أقرب الخلق إلى الله وسيلة، وأعظمهم عنده جاها، وأرفعهم عنده منزلة، لتكميله مقام التوحيد في العبودية والافتقار إلى رب العزة والجلال.

روى أحمد في مسنده من حديث أنس ﷺ أَنَّ رَجُلا قَال: يَا مُحَمَّدُ، يَا سَيِّدَنَا وابْنَ سَيِّدِنَا، وَخَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، فَقَال رَسُول اللهِ ﷺ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولوا بِقَوْلكُمْ، وَلاَ تَسْتَجْرِئَنَّكُمُ الشَّيَاطِينُ. أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، أَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُوله، وَمَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلتِي التِي أَنْزَلنِيهَا اللهُ ﷻ [1].

وروى البخاري من حديث ابن عباس ﷺ أنه سمع عمر ﷺ يقول على المنبر: (سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُول: لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولهُ) [2].

والمقصود أن الإنسان إذا خلع عن نفسه رداء العبودية، سوف ينازع الله في أوصاف الربوبية لا محالة، فيتشبه به في العلو والكبرياء، وعظمة الأوصاف والأسماء، فمن الإلحاد في الأسماء التشبه بالخالق فيما انفرد به من أوصاف الكمال كمن تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه بالمدح والتعظيم، سواء كان الدعاء دعاء مسألة أو دعاء عبادة.

روى أبو داود من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) رواه أحمد في المسند ١٥٣/٣ (١٢٥٧٣)، وصححه الشيخ الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (١٠٩٧) .

رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ١٢٧١/٣ (٣٢٦١).

(يَقُولُ اللهُ ﷻ: الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَن نازَعَني شَيْئًا مِنهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَمَ) [1]. وعند مسلم من حديث ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: (لا يَدْخُلُ الجَنةَ مَن كَان فِي قَلبِهِ مِثقَالُ ذرَّةٍ مِن كِبْر) [2].

ومن ثم فإن العبد لا يبلغ درجة التوحيد إلا إذا اعتقد أنه عبد في ملك سيده مستخلف في أرضه أمين على ملكه مبتلى فيما خوله واسترعاه، وأنه سبحانه المتوحد في ملكه لا معبود بحق سواه؛ فيتوجه إليه بالمدح والثناء والاستغاثة والدعاء .

وكذلك من الإلحاد في الأسماء، والميل بها عما يجب لها التشبه به سبحانه في الاسم الذي لا ينبغي إلا له وحده، كملك الأملاك وحاكم الحكام، ومن وصف نفسه بالسمو والمعالي وصاحب العظمة التعالي، وغير ذلك من المصطلحات التي لا تليق بمقام العبودية.

وعند مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلى اللهِ يَوْمَ القِيامَةِ، وَأَخْبَثُهُ وَأَغْيَظُهُ عَليْهِ، رَجُلٍ كَان يُسَمَّى مَلَكَ الأَمْلاكِ، لا مَلكَ إلا اللهُ) [3] .

- صفة الاستعلاء الفرعونية شرك في الربوبية وادعاء للإلوهية.

يعتبر فرعون مصر مثلا أعلى لمن أشرك في الربوبية، فقد بلغ غاية الاستعلاء والاستكبار، وتشبه بالله ونازعه في ربوبيته فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ

---

(١) رواه أبو داود في كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر ٤/٥٩ (٤٠٩٠)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٥٤١).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه ١/٩٣ (٩١) .

(٣) رواه مسلم في الآداب، باب تحريم التسمي بملك الأملاك ٣/١٦٨٨ (٢١٤٣).

ﭐلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ النازعات: ٢٤.

وشرك الربوبية الذي وقع فيه فرعون هو الطغيان الذي يخرج العبد عن وصفه الذاتي وهو وصف العبودية، والطغيان مبني على الاستكبار وطلب العلو الذي ليس إلا لله وحده فهو شرك في الربوبية وهو آفة الآفات التي تنزل بالأقوام والشعوب فتدمر كيانها، وتهلك أهلها، وتأتي على الأخضر واليابس فيها، وحين يزداد الطغيان بين الناس ويستشري الظلم، ثم يركن الناس إلى الطغاة ويستمرئون الخضوع والاستكانة لمظالمهم وطغيانهم يعمّهم الله بعذاب من عنده، ويحاسبهم على ذلك محاسبته للطغاة أنفسهم.

ولقد كان فرعون مثلا للطاغية المتجبر، وكان قومه صورة للأقوام التي خضعت لعبوديته، ووصل الأمر بفرعون إلى ادعاء الإلوهية والحاكمية المطلقة في ملكه، والاستخفاف بعقول الناس والإعراض عن كل الآيات التي جاءته من الله حتى أهلكه الله وقومه، وفرعون مَثَلٌ أعلى لكلّ طاغية يتجاوز الحدّ في الظلم والتجبّر والاستبداد والمعصية والاستخفاف بعقول الناس، وإرادتهم ومصالحهم، وكلما أنس منهم السكوت على ظلمه والخضوع لبغيه وعدوانه، ازداد صلفا وتجبرا، وتمردا حتى يصل إلى التألُّه، وادعاء الإرادة المطلقة في مصائر الناس من حوله، وطغيان فرعون ظلم عظيم لا يعبر فقط قصة ماضية، ولكنه حقيقة باقية في كل ظالم توقنا عند دراسة الصور المشابهة في كل عصر ومصر مهما اختلفت الألوان وتغيرت العناوين والشعارات؛ وذلك لأن الله ﷻ لم يقص قصص الطغاة على عباده المؤمنين إلا ليتعظوا ويعتبروا

ويتدبّروا أمرهم فلا يقعوا فيما وقع فيه غيرهم.

وكل طاغية وقع في شرك الربوبية تجده يحكم بما يراه ويزعم كما زعم فرعون أنه لا يري قومه إلا ما يرى، ولا يهديهم إلا سبيل الرشاد، بل يجعلُ من نفسه معبودا من دون الله ﷻ يتحكم في الناس تحكما بالغا، ويأمرهم أن يطيعوه على أي وجه، ويشرع لهم ما يراه متّفقا مع أهوائه ومصلحته، ويدعي أنه أراد الخير لهم والبركة عليهم، وأنه يريد لهم الإصلاح وغيره يريد الفساد. قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ غافر: ٢٩.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ غافر: ٢٦.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ القصص: ٣٨.

هذا الطاغية الذي وقع في شرك الربوبية صور نفسه لقومه في صورة الناصح المشفق عليهم من تبديل دينهم وإظهار الفساد بينهم، لأنه غني بذاته عنهم وهو فقط حريص عليهم لا يحتاج إليهم في شيء، وهنا شرك الربوبية في خروجه عن وصف العبودية وادعاء أوصاف الغنى الذاتية ولذلك قال: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ الزخرف: ٥١.

والفساد عند هؤلاء الطواغيت هو التوحيد، وشرك الربوبية عندهم

هو الصلاح والفلاح، ولذلك كان باعث الصلاح عند الطغاة هو محاربة أولياء الله وعباده الموحدين، فرغب فرعون في قتل المؤمنين والمرسلين، فأراد أن يقتل موسى عليه السلام وأن يقتل أبناء الذين آمنوا معه ويستحيي نساءهم.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ غافر:٢٦/٢٧.

وتلك الطريقة الفرعونية في شرك الربوبية هي التي زينها إبليس لكل من سار على دربه من تلاميذ مدرسته من بعده ، حيث يزعمون أنهم يريدون أن يحرروا الناس من ظلم التخلف والرجعية الواقع في الشرائع السماوية، وأن يخرجوهم إلى عالم من الحرية لم يكونوا يحلمون به.

روى الإمام أحمد وحسنه شعيب من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رَسُول اللهِ ﷺ قال: (لَمَّا كَانتِ اللَيْلَةُ التِي أُسْرِيَ بِي فِيهَا، أَتَتْ عَليَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ، فَقُلتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ ؟ فقَال: هَذهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْن وَأَوْلادِهَا، قُلتُ: وَمَا شَأْنُهَا ؟ قَال: بَيْنما هِيَ تُمَشِّطُ ابْنَةَ فِرْعَوْن ذاتَ يَوْمٍ، إذ سَقَطَتِ المدري مِن يَدَيْهَا فَقَالتْ: بِسْمِ اللهِ، فَقَالتْ لهَا ابْنَةُ فِرْعَوْن: أَبِي هو الإله قَالتْ: لا، وَلَكِن رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكِ اللهُ، قَالتْ ابْنَةُ فِرْعَوْن: أُخْبِرُهُ بِذلك، قَالتْ: نعَمْ فَأَخْبَرَتْهُ ابنته، فَدَعَاهَا فرعون فقَال لها: يَا فُلانةُ، وَإِن لكِ رَبًّا غَيْرِي، قَالتْ: نعَمْ رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ، رَبِّي وَرَبُّك مَن فِي السَّمَاءِ، فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِن نحَاسٍ فَأُحْمِيَتْ، ثمَّ أَمَرَ بِهَا أَن تُلقَى هِيَ وَأَوْلادُهَا فِيهَا، قَالتْ لهُ الماشطةُ: إِنَ لي إِليْكَ

حَاجَة، قَال: وَمَا حَاجَتُكِ؟ قَالتْ: أُحِبُّ أَن تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثوْبٍ وَاحِدٍ وَتَدْفِننا، قَال: ذلكَ لكِ عَليْنا مِن الحَقِّ، فَأَمَرَ بِأَوْلادِهَا فَأُلقُوا بَيْن يَدَيْهَا وَاحِدا وَاحِدا إلى أَن انتهَى ذلكَ إلى صَبِيٍّ لهَا مُرْضَعٍ، وَكَأَنها تَقَاعَسَتْ مِن أَجْلِهِ، قَال: يَا أُمَّي اقْتَحِمِي فَإِن عَذابَ الدُّنيَا أَهْوَن مِن عَذابِ الآخِرَةِ فَاقْتَحَمَتْ) (١).

• شرك النمرود والملك الذي أحرق أصحاب الأخدود.

ومن الشرك في الربوبية شرك النمرود بن كنعان، وسببه التشبه بالخالق، فقد ادعى لنفسه ما انفرد الله به من كمال وصفه، كما ذكر الله شأنه في القرآن فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٢٥٨) ﴾ البقرة:٢٥٨.

قال ابن القيم: (فهذا جعل نفسه ندا لله يحيي ويميت بزعمه كما يحيي الله ويميت، فألزمه إبراهيم عليه السلام ورحمة الله وبركاته أن طرد قولك أن تقدر علي الإتيان بالشمس من غير الجهة التي يأتي الله بها منها، وليس هذا انتقالا كما زعم بعض أهل الجدل، بل إلزاما على طرد الدليل أن كان حقا) (٢).

ومن الشرك في الربوبية شرك الملك الذي ادعى الربوبية وعذب

(١) رواه أحمد في المسند ٣٠٩/١ (٢٨٢٢) وابن حبان في صحيحه ١٦٤/٧ (٢٩٠٤)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٢) الجواب الكافي لابن القيم ص٩١.

أصحاب الأخدود لأنهم وحدوا الله في العبودية، روى مسلم من حديث صهيب ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: (كَانَ مَلِكٌ فيمَنْ كَانَ قَبلَكمْ وكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ للمَلِكِ: إنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إلَيَّ غُلاماً أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ ؛ فَبَعثَ إِلَيْهِ غُلاماً يُعَلِّمُهُ، فقعَدَ إلَيْه وسَمِعَ كَلامَهُ فَأعْجَبَهُ، وكانَ إذَا أتَى السَّاحِرَ، مَرَّ بالرَّاهبِ وقَعَدَ إلَيْه، فَإذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذلِكَ إلَى الرَّاهِب، فقَالَ: إذَا خَشيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإذَا خَشِيتَ أهلَكَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبَيْنَما هُوَ عَلَى ذِلكَ إذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: اليَوْمَ أعْلَمُ السَّاحرُ أفْضَلُ أم الرَّاهبُ أفْضَلُ ؟ فَأخَذَ حَجَراً، فقَالَ: اللَّهُمَّ إنْ كَانَ أمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إلَيْكَ مِنْ أمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هذِهِ الدّابَّةَ حَتَّى يَمضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فقَتَلَها ومَضَى النَّاسُ، فَأتَى الرَّاهبَ فَأَخبرَهُ. فقَالَ لَهُ الرَّاهبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ اليَومَ أفْضَل منِّي قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإن ابْتُلِيتَ فَلاَ تَدُلَّ عَلَيَّ؛ وكَانَ الغُلامُ يُبْرِىءُ الأكْمَهَ وَالأَبْرصَ، ويداوي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاء، فَسَمِعَ جَليسٌ لِلملِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فأتاه بهَدَايا كَثيرَةٍ، فَقَالَ: مَا ها هُنَا لَكَ أَجْمعُ إنْ أنتَ شَفَيتَنِي، فَقَالَ: إنّي لا أشْفِي أحَداً إنَّمَا يَشفِي اللهُ تَعَالَى، فَإنْ آمَنْتَ باللهِ تَعَالَى دَعَوتُ اللهَ فَشفَاكَ، فَآمَنَ باللهِ تَعَالَى فَشفَاهُ اللهُ تَعَالَى، فَأَتَى المَلِكَ فَجَلسَ إِلَيْهِ كَما كَانَ يَجلِسُ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَنْ رَدّ عَلَيْكَ بَصرَكَ؟

قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيري ؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الغُلامِ، فَجيء بالغُلاَمِ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ:

أيْ بُنَيَّ، قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِىء الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وتَفْعَلُ وتَفْعَلُ! فقَالَ: إنِّي لا أَشْفي أحَداً، إنَّمَا يَشفِي اللهُ تَعالَى. فأَخَذَهُ فلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ؛ فَجِيء بالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ: ارجِعْ عَنْ دِينِكَ، فأَبَى، فَدَعَا بِالمِنْشَارِ، فَوُضِعَ المِنْشَارُ في مَفْرِق رَأسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَليسِ المَلِكِ فقيل لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَوضِعَ المِنْشَارُ في مَفْرِق رَأسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بالغُلَامِ فقيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَفَعَهُ إلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الجَبَلَ، فَإذَا بَلَغْتُمْ ذِرْوَتَهُ فَإنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإلاَّ فَاطْرَحُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الجَبَلَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمشي إلَى المَلِكِ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ ؟ فقَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ تَعَالَى، فَدَفَعَهُ إلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فاحْمِلُوهُ في قُرْقُورٍ وتَوَسَّطُوا بِهِ البَحْرَ، فَإنْ رَجعَ عَنْ دِينِهِ وإلاَّ فَاقْذِفُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِم بمَا شِئْتَ، فانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فغَرِقُوا، وَجَاء يَمْشِي إلَى المَلِكِ. فقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَا فعلَ أَصْحَابُكَ ؟ فقَالَ: كَفَانيهِمُ اللهُ تَعالَى. فقَالَ لِلمَلِكِ: إنَّكَ لَسْتَ بقَاتلي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ.

قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ في صَعيدٍ وَاحدٍ وتَصْلُبُني عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْماً مِنْ كِنَانَتي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ في كَبدِ القَوْسِ ثُمَّ قُلْ: بسْمِ اللهِ ربِّ الغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِني، فَإنَّكَ إذَا فَعلْتَ ذلِكَ قَتَلتَني، فَجَمَعَ النَّاسَ في صَعيد واحدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْماً مِنْ

كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِسمِ اللهِ ربِّ الغُلامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فوقَعَ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الغُلامِ، فَأُتِيَ المَلِكُ فقيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ واللهِ نَزَلَ بكَ حَذَرُكَ. قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ بأفْواهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وأُضْرِمَ فيهَا النِّيرانُ وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَقْحموهُ فيهَا، أَوْ قيلَ لَهُ: اقتَحِمْ ففعَلُوا حَتَّى جَاءت امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أنْ تَقعَ فيهَا، فَقَالَ لَهَا الغُلامُ: يَا أُمهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الحَقِّ!)[١].

• شرك غلاة أئمة الصوفية وبعض الطوائف المارقة.

من أمثلة الشرك في الربوبية المبني على التشبه بالخالق شرك الغلاة من أئمة الصوفية وهم القائلون بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود كالحلاج وابن الفارض وتلاميذ مدرسته وابن عربي وأتباعه، جميعهم زعم أن الذات البشرية أخذت خصائص الذات الإلهية حين الاتحاد أو التجلي والتعيين، قال ابن الفارض :

فوصفي إذا لم تدع باثنين وصفها. وهيئتها إذ واحد نحن هيئتي.. فإن دعيت كنت المجيب وإن أكن.. منادي أجابت من دعاني ولبت. وقد رفعت تاء المخاطب بيننا.. وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعتي. وفارق ضلال الفرق فالجمع منتج.. هدى فرقةٍ بالاتحاد تحدت. وكل الجهات الست نحوي توجهت. بما تم من نسك وحج وعمرة.. لها

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام ٤/٢٢٩٩ (٣٠٠٥).

صلواتي في المقام أقيمها. وأشهد فيها أنها لها صلت..كلانا مصل واحد ساجد إلى. حقيقته بالجمع في كل سجدة.. وما كان لي صلى سواي ولم تكن. صلاتي لغيري في أداء كل سجدة [1].

زعم ابن الفارض أن وصفه هو وصف ربه، لأنه بذاته هو الرب، فلا فرق ولا سوى، بل اتحدت كل ذات في الأخرى، فإن دُعي الرب أجاب ابن الفارض لأنه هو الرب، وإن دُعي ابن الفارض أجاب الرب الذي هو ابن الفارض! بل تجد التكبّر على الرب حتى في الاتحاد في قوله: أجابت من دعاني ولبت، ويريد بزندقته وشركه أن يقول: إن الرب حين يُدعى يُجيب عنه ابن الفارض، إمَّا إن دُعي ابن الفارض أجاب الرب ولبَّى، لشعرنا ابن الفارض أنه هو الأصل وأن ربه هو الفرع؟

وممن وقعوا في شرك الربوبية والتشبه بالخالق في زعمه التلبس بأوصاف الإلوهية بناء على فكره في وحدة الوجود عبد الكريم الجيلي صاحب كتاب الإنسان الكامل، فقد زعم أنه لم يعد بينه وبين الله أي فارق، ولا بينه وبين كل المخلوقات فقال فيما أورده في كتابه الإنسان الكامل:

لي الملك في الدارين لم أر فيهما سواي فأرجو فضله أو فأخشاه.. وقد حزت أنواع الكمال جمال جلال الكل ما أنا إلا هو.. لي الملك والملكوت نسجي وصنعي لي الغيب والجبروت مني منشاه.. فمهما

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٦٥/٢، ومصرع التصوف لبرهان الدين البقاعي ص٦٤ نشر عباس أحمد الباز مكة المكرمة.

ترى من معدن ونباته حيوانه مع أنسه وسجاياه.. ومهما ترى من أبحر وقفاره ومن شجر أو شاهق طال أعلاه.. ومهما ترى من صور معنوية من مشهد للعين طاب محياه.. ومهما ترى من هيئة ملكية ومن منظر إبليس قد كان معناه.. ومهما ترى من شهوة بشرية طبع وإيثار لحق تعاطاه.. ومهما ترى من عرشه ومحيطه كرسيه أو رفرف عز مجلاه فإني ذاك الكل والكل مشهدي أنا المتجلي في حقيقته لا هو.. وإني رب للأنام وسيد جميع الورى اسم وذاتي مسماه[1].

وهذا الكلام شرك محض في الربوبية، ومثله من كبار القائلين بوحدة الوجود المدعو أبا الفضل عز الدين عامر بن عامر حيث قال محاكيا ابن الفارض في تائيته:

تجلى لي المحبوب من كل وجهة. فشاهدته في كل معنى وصورة.. وخاطبني مني بكشف سرائر. تعالت عن الأغيار لطفاً وجلت.. فقال أتدري من أنا قلت أنت أنا. منادى أنا إذ كنت أنت حقيقتي. نظرت فلم أبصر محض وحدة. بغير شريك قد تغطت بكثرة. تكثرت الأشياء والكل واحد. صفات وذات ضمنا في هوية. فأنت أنا لا بل أنا أنت وحدة. منزهة عن كل غير وشركة [2].

قال ابن تيمية: (إن العارف المحقق من هؤلاء يقول أرسل من نفسه إلى نفسه رسولا بنفسه، فهو المرسل والمرسل إليه والرسول، ويقول من

---

(١) الإنسان الكامل لعبد الكريم الجيلي ٢٢/١.

(٢) هذه هي الصوفية للشيخ عبد الرحمن الوكيل ص٥٥ .

هو من أكبر من أضلوه من أهل الزهادة والعبادة مع الصدق في تسبيحاته وأذكاره: الوجود واحد وهو الله، ولا أرى الواحد، ولا أرى الله. ويقول أيضا نطق الكتاب والسنة بثنوية الوجود، والوجود واحد لا ثنوية فيه)[1].

ومن الشرك في الربوبية ما زعمه الميرزا حسين علي الملقب بالبهاء مؤسس فرقة البهائية المارقة، حيث ادعى النبوة، ولم يكتف بها بل تجاوزها إلى ادعاء الإلوهية، وأنه القيوم الذي سيبقى ويخلد، وأنه روح الله، وأنه هو من بعث الأنبياء والرسل، وأوحى بالأديان كلها. وأقواله في تقرير إلوهيته كثيرة جدا ملأ بها كتابه الذي سماه الأقدس كقوله: (قل: لا يرى في هيكلي إلا هيكل الله، ولا في جمالي إلا جماله، ولا في كينونتي إلا كينونته، ولا في ذاتي إلا ذاته، قل: لم يكن في نفسي إلا الحق ولا يرى في ذاتي إلا الله) [2].

وقال: (يا قوم طهروا قلوبكم ثم أبصاركم لعلكم تعرفون بارئكم في هذا القميص المقدس اللميع) [3].

وقد زعم دعاة البهائية أن لهم طبيعتين ناسوتية ولاهوتية، ولا انفصال لإحداهما عن الأخرى وأنهم المثل الحقيقي الذي تجلى فيه الله أو بهاء الله، مما يجعلهم يضعون برقعا على وجههم لئلا يرى الناس بهاء الله الذي تجلى فيهم، وهذا شرك في الربوبية زعموا

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١٧٠/٦.
(٢) كتاب الأقدس ضمن خفايا الطائفة البهائية ص ١٢٦ .
(٣) البهائية نقد وتحليل ص٧١.

لأنفسهم فيه ما انفرد الله به لو كشف الحجاب عنه. كما ورد عند مسلم من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أنه قال: (قَامَ فِينا رَسُول اللهِ ﷺ بِخَمْسِ كَلَماتٍ فَقَال: إن اللهَ ﷻ لاَ يَنامُ وَلاَ يَنبَغِي لهُ أَن يَنامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إليْهِ عَمَل الليْل قَبْل عَمَل النهَار، وَعَمَل النهَارِ قَبْل عَمَل الليْل، حِجَابُهُ النورُ لوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انتَهَى إِليْهِ بَصَرُهُ مِن خَلقِهِ) [١] .

• تشبه المخلوق بالخالق وحقيقة الشرك التي تنافي توحيد العبادة.

من خصائص الإلهية الكمال المطلق في الأسماء والصفات والأفعال من جميع الوجوه، كمالا لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والاستعانة، وغاية الذل مع غاية الحب، كل ذلك يجب عقلا وشرعا وفطرة أن يكون له وحده، ويمنع عقلا وشرعا وفطرة أن يكون لغيره، فمن جعل شيئا من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا ند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره مع أنه كتب على نفسه الرحمة[٢] .

ومن خصائص الإلهية العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما، غاية الحب مع غاية الذل، هذا تمام العبودية وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين، فمن أعطى حبه وذله

---

(١) رواه مسلم في الإيمان، باب في قوله ﷺ إن الله لا ينام ١/١٦١ (١٧٩)

(٢) الجواب الكافي لابن القيم ص٩٤ بتصرف.

وخضوعه لغير الله فقد شبهه به في خالص حقه، وهذا من المحال أن تأتي به شريعة من الشرائع، وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل، ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم، وأفسدتها عليهم، واجتالتهم عنها، ومضى على الفطرة الأولى من سبقت له من الله الحسنى، فأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم، فازدادوا بذلك نورا على نور يهدي الله لنوره من يشاء [1].

إن العابد معظم لمعبوده متأله خاضع ذليل له، والرب تعالى وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم والجلال والتأله والتذلل والخضوع، وهذا خالص حقه، فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره، أو يشرك بينه وبينه فيه، ولاسيما الذي جعل شريكه في حقه، هو عبده ومملوكه كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ الروم:٢٨.

أي إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريك له في رزقه، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا به متفرد، وهو الإلهية التي لا تنبغي لغيري، ولا تصح لسواي، فمن زعم ذلك فما قدرني حق قدري، ولا عظمني حق عظمتي، ولا أفردني بما أنا متفرد به وحدي دون خلقي، فما قدر الله بحق قدره من عبد معه غيره.

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ

(١) السابق ص٩٥ بتصرف.

تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ الحج:٧٣/٧٤ . فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره من لا يقدر علي خلق أضعف حيوان وأصغر وإن يسلبهم الذباب شيئا مما عليه لم يقدروا على الاستعاذة منه. قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ الزمر:٦٧. فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك البتة، بل هو أعجز شيء وأضعفه، فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل (١) .

وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبة وولدا، وجعله سبحانه يحل في جميع مخلوقاته، أو جعله عين هذا الوجود، وكذلك لم يقدره حق قدره من قال إنه رفع أعداء رسول الله وأهل بيته وأعلى ذكرهم وجعل الله فيهم الملك والخلافة والعز ووضع أولياء رسول الله وأهل بيته وأهانهم وأذلهم وضرب عليهم الذل أين ما ثقفوا، فرفعوهم هم وعظموهم تعظيم الإلوهية واستغاثوا بهم وقدسوهم وصرفوا الحج إلى قبورهم وأضرحتهم، وهذا يتضمن غاية القدح في جناب الرب تعالي عن قول الرافضة علوا كبيرا.

وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه في محض حقه من الإجلال والتعظيم والطاعة والذل والخضوع والخوف والرجاء، فلو

---

(١) المصدر السابق ص٩٧ بتصرف.

جعل له من أقرب الخلق إليه شريكا في ذلك، لكان ذلك جراءة وتوثبا على محض حقه واستهانة به، وتشريكا بينه وبين غيره فيما لا ينبغي، ولا يصلح إلا له سبحانه، فكيف وإنما أشرك معه أبغض الخلق إليه، وأهونهم عليه، وأمقتهم عنده، وهو عدوه على الحقيقة، فإنه ما عبد من دون الله إلا الشيطان.

كما قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ يس: ٦٠/٦١ .

ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم للشيطان وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ سبأ: ٤٠/٤١ . فالشيطان يدعو المشركين إلى عبادته ويوهمهم أنه ملك، كذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون إنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب، وهي التي تخاطبهم وتقضي لهم الحوائج، ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان فيسجد لها الكفار فيقع سجودهم له، وكذلك عند غروبها، وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما وإنما عبد الشيطان، فما عبد أحد من بني آدم غير الله كائنا من كان إلا وقعت عبادته للشيطان(١).

- تشبيه الخالق بالمخلوق وحقيقة الشرك في الأسماء الصفات.

تشبيه الخالق بالمخلوق هو شرك الأسماء والصفات، وهو شرك يهدم

---

(١) المصدر السابق ص٩٩ بتصرف.

التوحيد وينافيه، والتوحيد في باب الصفات يقصد به إفراد الله سبحانه وتعالى بذاته وصفاته وأفعاله عن الأقيسة والقواعد والقوانين التي تحكم ذوات المخلوقين وصفاتهم وأفعالهم، والشرك في باب الصفات قياس الخالق بالمخلوق، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ الشورى:١١ . فبين سبحانه انفراده عن كل شيء من أوصاف المخلوقين بجميع ما ثبت له من أوصاف الكمال والجمال والجلال، وعلو شأنه فيها، وقال تعالى في أول سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ الإخلاص:١. وقال في نهايتها مبينا معني الأحدية: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ الإخلاص:٤. فالأحد هو المنفرد بأوصاف الكمال الذي لا مثيل له فنحكم علي كيفية أوصافه من خلاله، ولا يستوي مع سائر الخلق فيسرى عليه قانون أو قياس، أو قواعد تحكمه كما تحكمهم، لأنه المتصف بالتوحيد المنفرد عن أحكام العبيد، فلا يطبق عليه قوانين الجاذبية الأرضية على علو الفوقية أو استواء الله على عرشه أو على حملة العرش أو على نزوله إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل، لأن ذلك ينطبق على الكائنات الأرضية ولا ينطبق على رب البرية، فهو منفرد متوحد عن قوانين البشر، بذاته وصفاته وأفعاله، ومعلوم أننا لم نر الله ولم نر له مثيلا، أو شبيها أو نظيرا، والشيء لا يعرف إلا برؤيته أو برؤية نظيره، فكيف نشبه الله ونقول: لو كان الله على العرش لكان محمولا .

ولذلك فإن أهل التوحيد فرقوا بين النصوص التي تدل على المخلوق والنصوص التي تدل على الخالق، فالنصوص التي تدل على

المخلوق تليق به، وظاهرها مراد في حقه معلومة، المعنى لورودها في القرآن والسنة باللغة العربية وكذلك معلومة الكيفية، لأننا نراها بحواسنا البصرية، أو نرى نظيرها فنحكم عليها بالتشابه أو المثلية، أما النصوص القرآنية والنبوية التي تدل على الخالق فهي معلومة المعنى أيضا لأن الله عز وجل خاطبنا باللغة العربية ولم يخاطبنا باللغة الأعجمية، فلا يمكن القول إن كلام الله بلا معنى، أو يشبه كلام الأعاجم والألغاز التي لا تفهم، أما الكيفية الغيبية للصفات الإلهية التي دلت عليها هذه النصوص، فهي كيفية حقيقية معلومة لله تليق به، لكنها مجهولة لنا لا نعلمها لأننا ما رأينا الله. ولذلك يحرم على المسلم أو أن يشبه الخالق بالمخلوق ويجب عليه أن يحذر من نوعين من القياس هما أساس الشرك بالله في الأسماء والصفات .

وقد حرمهما الله على من استخدمهما في حقه، وقد وقع فيهما أهل الضلال من الممثلة والمشبهة، الذين جسدوا لربهم في أذهانهم صورا مما يرونه في المخلوقات، وزعموا أن أوصاف الله التي وردت بها النصوص في الكتاب والسنة على هذه الكيفية، وقد استخدم الممثل النوع الأول من القياس، و النوع الثاني استخدمه المشبه وأحيانا يطلق عليه المكيف .

النوع الأول: قياس التمثيل وهو إلحاق فرع بأصل في حكم جامع لعلة، فالممثل جعل صفة الإنسان التي لا يعرف غيرها أصلا، وجعل صفة الله التي دلت عليها النصوص فرعا، ثم طابق الفرع على الأصل وحكم بينهما بالتماثل، وذلك باطل لا يتوافق مع العقل السليم لأن الله ليس كمثله شيء في ذاته وصفاته وأفعاله.

النوع الثاني: من القياس الذي يمثل الأساس في شرك الأسماء والصفات هو: قياس الشمول وهو القانون الشامل أو الأحكام العامة التي تطبق على جميع الأفراد أو كما عرفوه بأنه قياس كلي على جزئ، فالمكيف أو المشبه الذي يستخدم قياس الشمول جعل الكيفية التي تحكم أوصاف الإنسان قانونا يحكم به على أوصاف الرحمن كقوله: لو كان الله متصفا بالكلام لكان له فم ولسان، لأنه لم ير المتكلم في أحكام الدنيا إلا على هذه الكيفية، وكقوله: لو كان على العرش لكان محمولا فطبق قانون الجاذبية الأرضية على كيفية استواء الخالق كما يطبقها على استواء الإنسان أو حمله للأشياء .

ومعلوم أن صاحب الفطرة السليمة يأبى أن يقال مثل هذا في أوصاف الله، بل يعلم أن هذه الأحكام ربما لا تطبق على الإنسان خارج نطاق الجاذبية الأرضية، مثل أماكن انعدام الوزن أو المحطات الفضائية، أو ربما يسمع صوتا من غير فم أو لسان كما يرى المسجل يعيد الصوت ويكرره كأنه إنسان، وإذا قيل: لا يدخل قاعة الاختبار في الكلية إلا طلاب السنة النهائية، علم العقلاء أن ذلك لا ينطبق على الأساتذة المراقبين أو القائمين على النواحي الإدارية، وإذا قيل: لا يدخل المصنع إلا العاملون، علمنا أن ذلك لا ينطبق على صاحب المصنع ومن رافقه وهكذا يعلم العقلاء بالفطرة أن القوانين التي تحكم أوصاف البشر لا تنطبق على رب البشر، وأن الله ليس كمثله شيء في ذاته وصفاته وأفعاله.

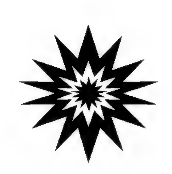
ومن الشرك في أسماء الله الإلحاد فيها بأن يجعل أحكام التسمية بها

لله مطابقة لأحكام التسمية التي يسمى بها المخلوق، فيثبت الأسماء كأعلام علي الذات دون إثبات الصفات التي دلت عليها، والأحكام التي تضمنتها، فأسماء الله أعلام وأوصاف، والوصف بها لا ينافي العلمية بخلاف أوصاف العباد فإنها تنافي علميتهم، فقد يسمى الإنسان سعيدا وهو شقي، ويسمى جميلا وهو من أقبح الخلق، ويسمى فائز وهو خاسر، بخلاف أسمائه تعالى فإنها أعلام وأوصاف، فإن شبه الخالق بالمخلوق في أسمائه فأثبت الأسماء وعطل الصفات فقد أشرك.

ومن الشرك في الأسماء الحسني أن يسمى الله بما لم يسم به نفسه، كتسميته النصارى له: آب، تولد عنه الابن تشبيها لله بالبشر في تولد آبنائهم عن آبائهم، تعالى الله عن قولهم، وتسمية الفلاسفة إياه العلة الفعالة تشبيها لله بالأسباب والعلل التي يصدر عنها نتائجها، ومن الشرك في الأسماء الحسني أن يشتق من أسمائه أسماء للأصنام، كما فعل المشركون في اشتقاق العزى من العزيز، واشتقاق اللات من الإله فسموا بها أصنامهم، وكما يسمى الشخص نفسه ملك الملوك أو صاحب الجلالة الملك المعظم، فهذا كله إلحاد في أسماء الله وصفاته.

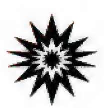
ومن الشرك في الصفات تعطيل أوصاف الله بحجة أن إثباتها تشبيه للخالق بالمخلوق، وهذا الشرك هو الأحرى أن يسمى شرك التعطيل حقا، فقد يتوهم كثير من الناس في بعض الصفات أو أكثرها أو كلها أنها تماثل صفات المخلوقين، ثم يريد أن ينفي ذلك الذي فهمه فيقع عدة محاذير، أولها أنه مثل ما فهمه من النصوص الثابتة في

صفات الله بصفات المخلوقين، وظن أن مدلول النصوص هو التمثيل، وثانيها أنه إذا جعل ذلك هو مفهومها وعطله بقيت النصوص معطلة عما دلت عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله، فيبقى مع جنايته على النصوص وظنه السيئ الذي ظنه بالله ورسوله حيث ظن أن ما يفهم من كلامهما هو التمثيل الباطل، يبقى وقد عطل ما أودع الله ورسوله في كلامهما من إثبات الصفات لله والمعاني الإلهية اللائقة بجلاله، ولا يكتفي بذلك بل ينفي تلك الصفات عن الله عز وجل بغير علم فيكون معطلا لما يستحقه الرب، كما أنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات من صفات الأموات والجمادات أو صفات المعلومات، أو يلوى عنق النصوص بتأويل باطل مجرد عن الدليل يمثل تحريفا بينا، فيكون قد عطل صفات الكمال التي يستحقها الرب، ومثله بالنقائص والمعدومات، وعطل النصوص عما دلت عليه من الصفات، وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات، ووقع في تحريفات مغلفة بأنواع من التأويلات، فيجمع بين التحريف والتعطيل والتكييف والتمثيل فيكون مشركا ملحدا في أسماء الله وصفاته وآياته، وقد تقدم في الدورة العلمية الأولى في أصول العقيدة ما يغني ولله الحمد.



المطلب الثاني عشر

أنواع الشرك المتعلقة بالقلب بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن الشرك وحقيقته وأسبابه وأنواعه المقابلة لأنواع التوحيد، وبينا مدلولاته اللغوية في الأصول القرآنية والنبوية، وأن الشرك بالله تعطيل لمعاني الواحدية والأحدية والوترية .

كما علمنا العلة في كون الشرك بجميع أنواعه هو الظلم العظيم الذي حذرنا الله منه، وبينا الضوابط اللازمة لتمييزه والتعرف على أنواعه، وأن مرد الشرك إما إلى التشبه بالخالق، أو تشبيه المخلوق بالخالق، أو تشبيه الخالق بالمخلوق، وعلمنا أن التشبه بالخالق شرك ينافي توحيد الربوبية، وتحدثنا عن حقيقة الطاغوت وعلاقته بالشرك في الربوبية.

وبينا أن صفة الاستعلاء الفرعونية شرك في الربوبية وادعاء للإلوهية، ومن ذلك أيضا شرك النمرود والملك الذي أحرق أصحاب الأخدود، وشرك غلاة أئمة الصوفية، وبعض الطوائف المارقة عن أصول العقيدة الإسلامية، وعلمنا أن تشبه المخلوق بالخالق هو حقيقة الشرك التي تنافي توحيد العبادة، وأن تشبيه الخالق بالمخلوق هو حقيقة الشرك في الأسماء الصفات، وهو الأجدر بأن يسمى شرك التعطيل.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن أنواع الشرك المتعلقة بالقلب بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر.

- العقائد الشركية القائمة بالقلب تهدم حقيقة التوحيد.

أصل العقيدة هي عقد القلب على تصديق خبر الرب وتنفيذ أمره، والإيمان بانفراده وتوحده عن غيره في كل ما أثبته الله ﷻ لنفسه إيمانا لا يقبل الشك مع الثبات عليه، وعقيدة التوحيد هي تلك العقيدة القائمة بالقلب، والتي يوقن من خلالها المسلم بأن الله ﷻ متوحد منفرد عمن سواه، في ربوبيته وخلقه وأمره، ومتوحد في عبادته ومحبته، فلا يستحق أحد سواه أن يتذلل العباد له عن محبة ورغبة وتعظيم، ولا يكون ذلك منهم إلا لله وحده، فيعتقدون توحيد الله في العبادة، ولا يشركون معه سواه، وكذلك يوقنون بأن الله ﷻ منفرد بما أثبته لنفسه من أنواع الكمالات في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله عن الأقيسة والقواعد والقوانين التي تحكم ذوات المخلوقين وصفاتهم وأفعالهم.

وأصل العقائد الشركية يقوم على تعلق القلب بغير الله تعظيما له وحبا، وانقيادا وولاءً وقربا، وهذا التعلق من المشرك مبني على اعتقاده في وصف المخلوق بأوصاف الخالق، وذلك من خلال المبالغة والغلو فيه وادعائه ما للخالق من ملكية النفع والضرر والتأثير في الغير، والزعم بأن ذلك مما خصه الله من صلاحيات قطبية ربانية، أو خلافة غوثية في باب الربوبية، يخرق بها السنن والعادات، ويزعمون له عجائب المعجزات، وأصنافا من ألوان الكرامات.

قال ابن القيم: (والذي أوقع عباد القبور في الافتتان بها مع العلم

بأن ساكنيها أموات، لا يملكون لهم ضرا ولا نفعا، ولا موتا ولا حياتا ولا نشورا، الاعتقادات الشركية المبنية على حكايات حكيت لهم عن تلك القبور، أن فلانا استغاث بالقبر الفلاني في شدة فخلص منها، وفلانا دعاه أو دعا به في حاجة فقضيت له، وفلانا نزل به ضر فاسترجى صاحب ذلك القبر فكشف ضره، وعند السدنة والمقابرية من ذلك شيء كثير يطول ذكره، وهم من أكذب خلق الله تعالى على الأحياء والأموات، والنفوس مولعة بقضاء حوائجها، وإزالة ضروراتها، ويسمع بأن قبر فلان ترياق مجرب، والشيطان له تلطف في الدعوة، فيدعوهم أولا إلى الدعاء عنده، فيدعو العبد بحرقة وانكسار وذلة، فيجيب الله دعوته لما قام بقلبه، لا لأجل القبر؛ فإنه لو دعاه كذلك في الحانة والخمارة والحمام والسوق أجابه، فيظن الجاهل أن للقبر تأثيرا في إجابة تلك الدعوة)[1].

وتعجب كل العجب مما سطره كثير من كتاب تراجم الأولياء كالنبهاني وعبد الوهاب الشعراني وغيرهما في المبالغات التي ذكروها في الأولياء ووصف خوارقهم وقوة تأثيراتهم وتصريفهم لأمور الغيب حتى أرهبوا العامة وعلقوا قلوبهم بالخوف والرجاء لهؤلاء فرسخت الاعتقادات الشركية في قلوب العامة وجعلت من كل ضريح وثنا يعبد من دون الله، فانظر مثلا إلى قول عبد الوهاب الشعراني في وصف أحد الأولياء: (ومنهم الشيخ الصالح عبد القادر السبكي رحمه الله تعالى أحد رجال الله تعالى، كان من أصحاب التصريف بقرى مصر ﷺ،

---

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم ١/٢١٥.

وكان كثير الكشف لا يحجبه الجدران، والمسافات البعيدة من اطلاعه على ما يفعله الإنسان في قعر بيته، وكان له في خرجه وعاء واحد يشتري فيه جميع ما يطلبه الناس من المائعات، فكان يضع فيه العسل والزيت الحار وغير ذلك، ثم يرجع فيعصر من الإناء لكل أحد حاجته من غير اختلاط، وكان له حمارة، إذا لم يجد مركبا يعدي فيه يركبها ويسوقها على وجه الماء إلى ذلك البر) [(١)].

وانظر أيضا إلى الاعتقادات الشركية التي أشيعت بين عامة الناس من خلال الإرهاب الاعتقادي الخرافي لتخويف العامة من التخلف عن حضور مولد البدوي وغيره، كما زعم الشعراني أنه تخلف عن موعد حضوره للمولد سنة ثمان وأربعين وتسعمائة (٩٤٨هـ)، وكان الشعراني مقيما في القاهرة، وكان البدوي ميتا مقبورا منذ سنة (٦٧٥هـ) قد أكله الدود وذاب لحمه ودمه وتلاشت عظامه في أرض الضريح الذي شيدوه عليه، وابتليت به مدينة طنطا، والمسافة بين طنطا والقاهرة تزيد على مائة كيلوا متر.

قال الشعراني عن ذلك اليوم: (وكان هناك بعض الأولياء فأخبروني أن البدوي كان يقوم من قبره ذلك اليوم، ويكشف الستر عن ضريحه ويقول: أبطأ عبد الوهاب، ما جاء. وأردت التخلف سنة من السنين فرأيت سيدي أحمد ﷺ ومعه جريدة خضراء، وهو يدعو الناس من سائر الأقطار إلى مولده، والناس خلفه ويمينه وشماله، أمم

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني المسماة بلواقح الأنوار في طبقات الأخيار ص٥٣٦، تحقيق خليل المنصور نشر دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٨هـ .

وخلائق لا يحصون، فمر علي وأنا بمصر، فقال: أما تذهب إلى مولدي؟ فقلت: بي وجع، فقال: الوجع لا يمنع المحب، ثم أراني خلقا كثيرا من الأولياء، وغيرهم الأحياء والأموات، من الشيوخ والزمني بأكفانهم يمشون ويزحفون معه يحضرون المولد، ثم أراني جماعة من الأسرى جاءوا من بلاد الإفرنج، مقيدين مغلولين، يزحفون على مقاعدهم، فقال: انظر إلى هؤلاء في هذا الحال ولا يتخلفون، فقوي عزمي على الحضور، فقلت له: إن شاء الله تعالى نحضر. فقال: لا بد من الترسيم عليك، فرسم عليّ سبعين عظيمين أسودين كالأفيال، وقال: لا تفارقاه حتى تحضرا به)[1].

بئس ما يعتقدون وما يقولون ويفعلون عند هذه الأوثان التي تنافي التوحيد وتهدم الإسلام، وكأن التاريخ يعيد نفسه حين قدم ضمام بن ثعلبة ﷺ على قومه من بني سعد، وورد عند أحمد والحاكم وصححه الذهبي وحسنه الألباني من حديث ابن عباس ﷺ أنه قال: (فخَرَجَ ضمام حَتَّى قَدِمَ عَلى قَوْمِهِ فَاجْتَمَعُوا إليهِ، فَكَانَ أَوَّل مَا تَكلَمَ بِهِ أَنْ قَال: بِئْسَتِ اللاتُ وَالعُزَّى، قَالُوا: مَهْ يا ضِمَامُ، اتَّقِ البَرَصَ وَالجُذَامَ، اتَّقِ الجُنُونَ. قَال: وَيلكُمْ، إِنَّهُمَا وَاللهِ لا يضرُّان وَلا ينْفَعَان، إنَّ اللهَ ﷻ قَدْ بَعَث رَسُولا، وَأَنْزَل عَليهِ كِتَابًا اسْتَنْقَذَكُمْ بِهِ مِمَّا كُنْتُمْ فِيهِ، وَإِنِّي أَشهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شريكَ لهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِهِ بِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَنَهَاكُمْ عَنْهُ، قَال: فَوَاللهِ مَا أَمْسَى مِنْ ذَلكَ اليوْمِ وَفِي حَاضِرِهِ رَجُلٌ وَلا امْرَأَة إلا

(١) المصدر السابق ص٢٦٢ :٢٦٣.

مُسْلمًا. قَال ابْنُ عَبَّاسٍ: فَمَا سَمِعْنَا بِوَافِدِ قَوْمٍ كَانَ أَفْضَل مِنْ ضِمَامِ بْنِ ثعْلبَة) [1].

• عقيدة الشرك فرع عن تصور القلب للخرافة وتصديقها.

إن عقيدة الشرك فرع عن تصور القلب لما استقر فيه من خرافات ومبالغات، وغلو في وصف المخلوق بصفات الخالق، ثم اعتقاد صحتها وتصديقها، ولذلك زين الشيطان للصوفية والشيعة أن يضعوا مشايخهم وأولياءهم وأئمتهم في مكانة لا تليق إلا بالله ﷻ، وأذاعوا الخرافات التي جعلوا لهم فيها من أوصاف العلم والقدرة والتصريف والمشيئة في الكون ما لا ينبغي إلا الله ﷻ، فقد زعمت الصوفية أن أولياءهم هم قادة حضرة الحق في تصريف الخلق، فثلاثمائة منهم يدعون الأخيار، وأربعون آخرون يطلقون عليهم الأبدال، وسبعة آخرون يقال لهم الأبرار، وأربعة يسمونهم بالأوتاد، وثلاثة آخرون يقال لهم النقباء، ومدبر أعلى تحت نظر الحق يسمى القطب أو الغوث، وهو موضع نظر الله من العالم في كل زمان ومكان[2].

وهناك إمامان وزيران من أوليائهم حسب زعمهم، أحدهما عن يمين الغوث ونظره في عالم الغيب أو عالم الملكوت، والآخر عن يساره ونظره في عالم الشهادة أو عالم الملك، وهو أعلى من صاحبه، وهو عندهم الذي يخلف الغوث بعد رحيله، أما الأوتاد فهم أربعة رجال

---

(١) أحمد ١/٢٦٤ (٢٣٨٠)، والحاكم ٣/٥٥ (٤٣٨٠)، والدرامي ١/١٧٢ (٦٥٢)، وصححه الألباني، انظر فقه السيرة ص٤٢٤، وحسنه شعيب.

(٢) التعريفات للجرجاني ص ٥٣.

منازلهم كما يزعمون في إفكهم على المنازل الأربعة من أركان العالم في الشرق والغرب والشمال والجنوب، مع كل واحد منهم مقام تلك الجهة وتصريف أمرها[1].

والبدلاء السبعة عند الصوفية هم الذين يقومون بدلا عن المسافر من أوليائهم، كأجساد منصوبة وموضوعة على صورتهم، حتى لا يعرف أحد من مريديهم أنه فقد وليا من الأولياء القطبيين، فذلك هو البدل عندهم لا غير، وهم في مكانتهم كما يزعمون على قلب إبراهيم[2] عليه السلام، أما النجباء من الأولياء على زعمهم الخرافي فهم أربعون، وهم المشغولون بحمل أثقال الخلق، فلا يغفلون عن حوائجهم طرفة عين[3]، وأما النقباء فهم الذين استخرجوا خبايا النفوس ومكنون الصدور، لا يحجبهم الجدران ولا طول المسافات أو بعدها عن الاطلاع على ما يفعله كل إنسان في قعر بيته [4].

قال محيي الدين ابن عربي في نقله لإجماع الصوفية على طبقات أوليائهم الخرافية الوهمية: (والمجمع عليه من أهل الطريق أنهم على ست طبقات أمهات، أقطاب، وأئمة، وأوتاد، وأبدال، ونقباء، ونجباء) [5].

أما الشيعة فقد ادعوا أن أئمتهم يعلمون الغيب، وأنه لا يخفى عليهم

---

(١) التعريفات للجرجاني ص ٥٨.
(٢) المصدر السابق ص ٦٢.
(٣) المصدر السابق ص ٣٠٨.
(٤) المصدر السابق ص ٣١٤.
(٥) الفتوحات المكية لابن عربي ٢/٤٠.

شيء في الأرض ولا في السماء، بل يعلمون ما في أصلاب الرجال، وما في أرحام النساء، ويعلمون ما في الجنة من الأبرار، وما في النار من الفجار، ويعلمون علم ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وزعموا أن حكم البلاد والعباد مرجعه إلى الإمام الغائب المنتظر الذي يلتقي بالمرشد الأعلى وآيات الله العظمى ليمنحهم التعاليم والأوامر في سياسة الرعية، تلك الأوامر تساوي عندهم في منزلتها التعاليم القرآنية التي يتحتم على أتباعهم تنفيذها.

قال الخميني في بث خرافاته الشركية في قلوب الشيعة: (إن للإمام مقاما محمودا، ودرجة سامية، وخلافة تكوينية، تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون.. وإن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاما، لا يبلغه ملك مقرب، ولا نبي مرسل) [(١)].

قال المفيد شيخ الشيعة: (إن الأئمة القائمين مقام الأنبياء في تنفيذ الأحكام، وإقامة الحدود، وحفظ الشرائع، وتأديب الأنام، معصومون كعصمة الأنبياء) [(٢)].

لقد كان لعقيدة الشيعة الشركية منذ وقت مبكر في الإمامة وتعظيم الإمام كتعظيم الله، كان لها الأثر الواضح في إحداث الشرك والشركيات في العالم الإسلامي، بل نبه شيخ الإسلام ابن تيمية أن الشيعة هم أول من أحدث الشرك وعبادة القبور في الأمة، فقد تحول غلو الشيعة في أئمتها إلى غلو في قبورها وتعظيمها، ووضعوا حكايات

---

(١) الحكومة الإسلامية للخميني ص٥٢.

(٢) أوائل المقالات للمفيد ص٧١.

وثنية وقصص مختلقة لتأثيرها في مريدها، واستجابتها لمن شد الرحال إليها، أو طاف بها، أو تلمسها لطلب البركة.

قال ابن تيمية: (وأول من وضع هذه الأحاديث في السفر لزيارة المشاهد التي على القبور، أهل البدع من الرافضة ونحوهم الذين يعطلون المساجد، ويعظمون المشاهد، يدَعون بيوت الله التي أمر أن يذكر فيها اسمه، ويعبد وحده لا شريك له، ويعظمون المشاهد التي يشرك فيها، ويبتدع فيها دين لم ينزل الله به سلطانا، فان الكتاب والسنة إنما فيهما ذكر المساجد دون المشاهد)[1].

ثم ساق أدلة الكتاب والسنة على ذلك، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ الأعراف:٢٩.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ التوبة:١٨. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ البقرة:١٨٧. وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ الجن:١٨.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢٧/١٩١.

﴿فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١٤﴾ البقرة:١١٤ .

وعند مسلم من حديث جندب ﷺ أنه قال: (سَمِعْتُ النَّبِي ﷺ قَبْلَ أَنْ يمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يقُولُ: أَلاَ وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلاَ فَلاَ تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ) [(١)] .

وقد أصبحت مشاهد الشيعة ومزاراتها موطنا للشرك وعبادة غير الله ﷻ بسبب الاعتقادات الشركية التي رسخت في قلوب الملايين ممن نراهم يزحفون إلى كربلاء لدعاء غير الله من الأموات، يعطلون المساجد التي أمر الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، ويعظمون المشاهد المبنية على القبور، ويوجبون على كل أتباعهم شد الرحال إليهم بروايات الإفك والزور، والناس يعتقدون في نفعها، فيحجون إليها كما يحجون إلى البيت الحرام، بل يعتقدون أن السفر إليها، والطواف بها والصلاة عندها، وتقديم القرابين في رحابها، والاستغاثة بها، وطلب الشفاء منها، أو التوسل بها، وطلب شفاعتها، والانكباب عليها، هي عندهم من أفضل القربات، وأعظم الطاعات.

ومن أضل ممن يفضل الشرك ودعاء الأموات على التوحيد ودعاء رب الأرض والسماوات، فيعمر المشاهد ويعطل المساجد، ويساوي بين الحج إلى مكة ومنزلته في الإسلام، واستلام الركن والصلاة في المقام عند البيت الحرم، وبين الحج إلى أرض كربلاء، وأفعال الشرك ومناسك الباطل والآثام، طهر الله أمير المؤمنين عليا والحسين وأولادهما، وبرأهم

---

(١) مسلم في المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور ٣٧٧/١ (٥٣٢) .

جميعا من إفك الشيعة وشركهم.

لقد تشابهت قلوب الشيعة الضلال مع إخوانهم غلاة الصوفية من الزاحفين بالملايين إلى القباب المنصوبة في طنطا ودسوق والإسكندرية والقاهرة ومختلف المزارات الشركية المنتشرة في مصر وسائر البلاد الإسلامية، لقد عُظمت لديهم القبور وبنيت عليها المساجد، وعبدت تلك الأضرحة والمشاهد، وجعلت لها الأعياد الزمانية والمكانية؛ وصرفت لها العبادات المالية والبدنية، ونحرت لها النحائر والقرابين؛ وطاف بها الفوج بعد الفوج من مختلف الزائرين والسائلين، وحلقت لأربابها رؤوس الوافدين، وتمرغوا ومرغوا أنوفهم عندها؛ وهتف بدعائها ورجائها من حضر وغاب من المعتقدين والمحبين، واعتمدوا عليها ملهوفين في المهمات من دون رب العالمين، وانتهكت بأعيادها وموالدها محظورات الشريعة والمحرمات، واستبيح فيها ما اتفقت على تحريمه جميع الشرائع والنبوات، وكثر عندها المكاء والتصدية، والتمايل بالحركات والرقصات، وبارزوا بتلك القبائح والعظائم فاطر الأرض والسماوات [1].

• قوة الإخلاص في القلب تحدد مقدار الشرك ونوعه.

أصل الإخلاص هو خلوص القلب من الشرك، فالمسلم يفرد الله بعبادته، ولا يشرك به شيئا في محبته أو خوفه ورجائه أو جميع أقواله وأفعاله الظاهرة والباطنة. قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ

---

(٢) منهاج التأسيس والتقديس في كشف شبهات داود بن جرجيس، لعبد اللطيف عبد الرحمن حسن نشر دار الهداية للطبع والنشر والترجمة ص٩ بتصرف.

حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾ البينة:٥.

لقد كان المشركون في الجاهلية يعلمون حقيقة الإخلاص والتوحيد، وكانوا يصرون على الشرك عند النعمة والرخاء، ويوحدون الله عند الشدائد وحدوث البلاء، وقليل منهم من دان بالإخلاص وتحرى الخلاص من الشرك. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ العنكبوت:٦٥.

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ غافر:٦٥/٦٦.

إن العابد معظم لمعبوده، متأله خاضع ذليل له، والرب تعالى وحده هو الذي يستحق كمال التعظيم والإجلال، والتأله والتذلل والخضوع، وهذا خالص حقه، فمن أقبح الظلم أن يعطى العبد حق الله لغيره، أو يشرك بينه وبينه فيه، لاسيما أن الذي جعل شريكه في حقه هو عبده ومملوكه، كما قال الله تعالى: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الروم:٢٨ .

أي إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكا له في رزقه، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا به متفرد، وهي الإلهية التي لا تنبغي لغيري ولا تصح لسواي؟ فمن زعم ذلك فما قدروني حق قدري ولا عظمني حق عظمتي، ولا أفردني بما أنا متفرد به وحدي

دون خلقي، فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره .

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ الحج:٧٣/٧٤ .

ما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره من لا يقدر علي خلق أضعف حيوان وأصغر، وإن يسلبهم الذباب شيئا مما عليه، لم يقدروا على الاستعاذة منه، فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك البتة، بل هو أعجز شيء وأضعفه، فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل، وكذلك ما قدره حق قدره من قال أنه لم يرسل إلى خلقه رسولا ولا أنزل كتابا، بل نسبه إلى مالا يليق به، ولا يحسن منه من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدي وخلقهم باطلا عبثا، وكذا ما قدره حق قدره من نفي حقائق أسمائه الحسنى وصفاته العلى، فنفى سمعه وبصره وإرادته واختياره وعلوه فوق خلقه وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد ونفى عموم قدرته، وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم، فأخرجها عن قدرته ومشيئته، وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاءون بدون مشيئة الرب، فيكون في ملكه ما لا يشاء، ويشاء ما لا يكون، فتعالى الله عن قول أشباه المجوس علوا كبيرا (١).

(٣) الجواب الكافي لابن القيم ص٩٧ بتصرف.

وقد ورد عند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (أَسْعَدُ النَّاسِ بِشفَاعَتِي يوْمَ الْقِيامَة، مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إلا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ) [١].

وهذا الحديث ونحوه فيمن قالها ومات عليها، كما جاءت مقيدة في بعض ألفاظه، خالصا من قلبه غير شاك فيها بصدق ويقين، فإن حقيقة التوحيد انجذاب القلب والروح إلى الله تعالى جملة، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصا من قلبه دخل الجنة، لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحا، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك، فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة، وما يزن ذرة، وتواترت بأن كثيرا ممن يقول لا إله إلا الله يدخل النار ثم يخرج منها، وتواترت بأن الله حرم على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم، فهؤلاء كانوا يصلون ويسجدون لله، وتواترت بأنه يحرم على النار من قال لا إله إلا الله، ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ولكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال، وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص، وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليدا أو عادة، ولم تخالط حلاوة الإيمان بشاشة قلبه، وغالب من يفتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء[٢]، كما ورد أنه يقول: سمعت الناس يقولون شيئا فقلته [٣].

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب الحرص على الحديث ١/٤٩ (٩٩).

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبد الرحمن حسن ص٦٠ .

(٣) رواه البخاري من حديث أسماء رضي الله تعالى عنها في كتاب العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس ١/٤٤ (٨٦).

وغالب أعمال هؤلاء إنما هي تقليد واقتداء بأمثالهم، وهم أقرب الناس من قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الزخرف:٢٣.

وإذا قال العبد لا إله إلا الله بإخلاص ويقين تام، لم يكن في هذه الحال مصرا على ذنب أصلا، فإن كان كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، فإذا لا يبقى في قلبه إرادة لما حرم الله، ولا كراهة لما أمر الله، وهذا هو الذي يحرم على النار، وإن كانت له ذنوب قبل ذلك، فإن هذا الإيمان وهذا الإخلاص، وهذه التوبة، وهذه المحبة، وهذا اليقين، لا يترك له ذنبا إلا محي عنه كما يمحو الليل النهار، فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر، فهذا غير مصر على ذنب أصلا، فيغفر له ويحرم على النار، وإن قالها على وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر، ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك، فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات، فيرجح بها ميزان الحسنات، كما في حديث البطاقة[١] فيحرم على النار، ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه[٢].

وإن قال لا إله إلا الله وخلص بها من الشرك الأكبر لكنه لم يمت على ذلك، بل أتى بعدها بسيئات رجحت على حسنة توحيده، فإنه

(١) حديث البطاقة رواه الترمذي في سننه من حديث عبد الله بن عمرو، كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله ٥/٢٤ (٢٦٣٩)، ورواه أحمد في المسند ٢/٢١٣ (٦٩٩٤)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٢٠٦٣)، ومشكاة المصابيح (٥٥٥٩).

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص٦١ بتصرف.

في حال قولها كان مخلصا لكنه أتى بذنوب أوهنت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته، وقويت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك بخلاف المخلص المستيقن، فإن حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته، ولا يكون مصرا على سيئات، فإن مات على ذلك دخل الجنة.

وإنما يخاف على المخلص أن يأتي بسيئة راجحة فيضعف إيمانه فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات، ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر، فإن سلم من الأكبر بقي معه من الأصغر، فيضيف إلى ذلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك فيرجح جانب السيئات، فإن السيئات تضعف الإيمان واليقين، فيضعف قول لا إله إلا الله، فيمتنع الإخلاص بالقلب، فيصير المتكلم بها كالهاذي أو النائم، أو من يحسِّن صوته بآية من القرآن من غير ذوق طعم وحلاوة، فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين، بل يأتون بعدها بسيئات تنقض ذلك، بل يقولونها من غير يقين وصدق ويموتون على ذلك، ولهم سيئات كثيرة تمنعهم من دخول الجنة، فإذا كثرت الذنوب ثقل على اللسان قولها، وقسا القلب عن قولها، وكره العمل الصالح وثقل عليه سماع القرآن، واستبشر بذكر غير الله، واطمأن إلى الباطل، واستحلى الرفث، ومخالطة أهل الغفلة، وكره مخالطة أهل الحق، فمثل هذا إذا قالها قال بلسانه ما ليس في قلبه، وبفيه ما لا يصدقه عمله، والإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلوب وصدقه العمل، فمن قال لا إله إلا الله، ولم يقم بموجبها، بل اكتسب مع ذلك ذنوبا، وكان صادقا في قولها موقنا بها، لكن له ذنوب أضعفت صدقه ويقينه، وانضاف إلى ذلك الشرك الأصغر، فرجحت هذه

السيئات على هذه الحسنة، ومات مصرا على الذنوب، بخلاف من يقولها بيقين وصدق، فإنه إما أن لا يكون مصرا على سيئة أصلا، ويكون توحيده المتضمن لصدقه ويقينه رجح حسناته[1].

والذين يدخلون النار ممن يقولونها، إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التام المنافيين للسيئات أو لرجحانها، أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئات رجحت على حسناتهم، ثم ضعف لذلك صدقهم ويقينهم، ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدق ويقين تام؛ لأن الذنوب قد أضعفت ذلك الصدق واليقين من قلوبهم، فقولها من مِثل هؤلاء لا يقوى على محو السيئات، فترجح سيئاتهم على حسناتهم [2].

- الشرك في المحبة من أنواع الشرك الأكبر المتعلق بالقلب.

العبادة اسم من أسماء المحبة، يقال: قلب معبد أي ذلله الحب لمعبوده، ولما كانت المحبة قائمة بالقلب، فإن الشرك فيها هو أعظم أنواع الشرك وهو أصل الشرك في الإلهية، وهو أن يجعل لله ندا أو مثيلا في عبادته أو محبته، وما يتبعها من لوازمها كخوفه أو رجائه أو إنابته، فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ الكهف: ١١٠.

وهذا الشرك هو الذي قاتل عليه النبي ﷺ مشركي العرب، لأنهم

---

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص٦٢ بتصرف.

(٢) المصدر السابق ص٦٣.

أشركوا في الإلهية، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ التوبة:٣٣.

وقال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾ ص:٤/٦.

وقال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ ق:٢٤/٢٦.

وهم كانوا مقرين بوجود الله وتدبيره لخلقه، وآمنوا بربوبيته للخلائق أجمعين، وما اعتقد أحد منهم قط اعتقادات الصوفية والشيعة أن من توجهوا إليهم من الأوثان أو الأضرحة والأصنام هي التي تنزل الغيث وترزق العالم وتدبره، وإنما كان شركهم أنهم اتخذوا من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله، وهذا المعنى يدل على أن من أحب شيئا من دون الله كما يحب الله تعالى فقد أشرك.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ البقرة:١٦٥. فالمشركون يحبون آلهتهم كحب الله، والذين آمنوا أشد حبا لله، وفي هذا الحب قولان: أحدهما يحبونهم كحب المؤمنين لله. والثاني يحبونهم كما يحبون الله، لأنه قد قال: والذين آمنوا أشد حبا لله. فلم يمكن أن يقال إن المشركين يعبدون آلتهم كما يعبد الموحدون الله، بل كما يحبون هم الله، فإنهم يعدلون آلهتهم

برب العالمين، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ الشعراء:٩٦/٩٨. وكذا من خاف أحدا كما يخاف الله، أو رجاه كما يرجو الله وما أشبه ذلك.

وقال: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ الأنعام:١. فأشركوا في المحبة، أما المؤمنون أخلصوها كلها لله، وأصح القولين أنهم يعدلون به غيره في العبادة والموالاة والمحبة.

وينبغي أن يعلم أن محركات القلوب إلى الله ﷻ ثلاثة: المحبة والخوف والرجاء، وأقواها المحبة، لأنها تأليه وعبادة، وتبقى المحبة مرادة للعابد في الدنيا والآخرة، بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة، وبخلاف الرجاء، فإنه ينال في الجنة أكثر مما يتمنى.

قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ يونس:٦٢/٦٤.

والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق، فالمحبة تلقى العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده، فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له، فإنه لا تحصل له العبودية بدونه، وكل واحد يجب أن يكون عبدا لله لا لغيره [1].

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١/٩٥.

قال ابن القيم: (ترى المشرك يكذب حاله وعمله قوله، فإنه يقول: لا نحبهم كحب الله، ولا نسويهم بالله، ثم يغضب لهم ولحرماتهم إذا انتهكت أعظم مما يغضب لله، ويستبشر بذكرهم ويتبشبش به، لاسيما إذا ذكر عنهم ما ليس فيهم من إغاثة اللهفات، وكشف الكربات، وقضاء الحاجات، وأنهم الباب بين الله وبين عباده، فإنك ترى المشرك يفرح ويسر ويحن قلبه، وتهيج منه لواعج التعظيم والخضوع لهم والموالاة، وإذا ذكرت له الله وحده، وجردت توحيده، لحقته وحشة وضيق وحرج، ورماك بنقص الإلهية التي له، وربما عاداك، رأينا والله منهم هذا عيانا، ورمونا بعداوتهم، وبغوا لنا الغوائل، والله مخزيهم في الدنيا والآخرة، ولم تكن حجتهم إلا أن قالوا كما قال إخوانهم: عاب آلهتنا، فقال هؤلاء: تنقصتم مشايخنا، وأبواب حوائجنا إلى الله، وهكذا قال النصارى للنبي ﷺ لما قال لهم بأن المسيح عبد الله، قالوا: تنقصت المسيح وعبته، وهكذا قال أشباه المشركين لمن منع اتخاذ القبور أوثانا تعبد، ومساجد تقصد، وأمر بزيارتها على الوجه الذي أذن الله فيه ورسوله، قالوا: تنقصت أصحابها، فانظر إلى هذا التشابه بين قلوبهم حتى كأنهم قد تواصوا به) [(١)] .

- من المحبة الشركية الإبليسية محبة الصوفية الحلولية والاتحادية.

من المحبة الشركية الإبليسية محبة الصوفية الحلولية الاتحادية وأصحاب وحدة الوجود، إذ أنها ترفع شأن المخلوق وتجمع بينه وبين الخالق في وصف واحد، وتتعلق القلوب به محبة ورجاء، والتوحيد مبني على

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/٣٤٢.

إثبات الفرق بين الخالق والمخلوق ونفي الند والمماثلة، وهم جعلوا محبتهم مبنية على محبة الكل، والجمع بين الخالق والمخلوق في كينونة الذات الإلهية، فلا فرق عندهم بين دين ودين، أو كافر ومؤمن، أو موحد ومشرك، أو آدم وإبليس، الكل محبوب لهم، والكل عندهم هو ذات رب العزة والجلال تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

قال محيي الدين بن عربي:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي : إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
لقد صار قلبي قابلا كل صورة : فمرعي لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف : وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أني توجهت : ركائبه فالدين ديني وإيماني[1] .

وقال أبو يزيد البسطامي (ت:٢٦١هـ) في التعبير عما فعله حبه وحلوله واتحاده بمحبوبه حتى صار المخلوق مذابا في الخالق: (إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني) [2].

وقال أيضا: (سبحاني ما أعظم شأني) [3]. وقال: (خرجت من بايزيديتي كما تخرج الحية من جلدها، ونظرت فإذا العاشق والمعشوق والعشق واحد؛ لأن الكل واحد في عالم التوحيد) [4]. وسئل أبو يزيد البسطامي: ما العرش؟ فأجاب: أنا هو، وما الكرسي؟ فأجاب: أنا

(١) ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق لابن عربي ص٣٩.
(٢) تذكرة الأولياء ١/١٣٧، وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢/٤٦١.
(٣) تذكرة الأولياء ١/١٦٠.
(٤) السابق ١/١٦٠ .

هو، وما اللوح والقلم؟ فأجاب: أنا هو [(١)].

وكل من اعتذر عن ذلك زعم أنه وقع في شطحات الحب وهوسه وهو لا يدري شيئا عن نفسه كما يزعمون، وتالله كيف يعتذر عن هذا الحب الشركي الذي يجعل المحب والمحبوب واحدا كما يحدث بين البشر في محبة بعضهم لبعض، وحلول بعضهم محل بعض في التعبير بأنا نيابة عنه بضمير المتكلم، ولذلك لما قاسوا الخالق على المخلوق في هذا الحب زعموا أن الله ﷻ اتحد بهم وحل محلهم، فأجازوا مثل هذه التعبيرات الشركية الإبليسية التي يكون الصوفي فيها إلها وربا يعلم الغيب كله كما يعلمه الله تعالى.

قال أبو يزيد البسطامي في ادعاءاته الشركية: (رفعني مرة فأقامني بين يديه، وقال لي: يا أبا يزيد إن خلقي يحبون أن يروك، فقلت: زيني بوحدانيتك، وألبسني أنانيتك، وارفعني إلى أحديتك، حتى إذا رآني خلقك قالوا: رأيناك، فتكون أنت ذاك، ولا أكون أنا هنا) [(٢)].

وقوله ألبسني أنانيتك يعني أن ذاتية أبي يزيد قد اختفت أو تلاشت في الذات الكلية لله ﷻ بحيث لم يعد هناك أنا، وإنما أنت فقط، ويشبه هذا الزعم الشركي الكاذب ما قاله فتح الله القيرواني: (وفي السماء السابعة شاهدت ربي وكلّمته، وفوق العرش والكرسي قد ناداني وخاطبته، وما في اللوح المحفوظ من الآي والأمر والنهي قد حفظته، وبيدي باب الجنان قد فتحته ودخلته، وما فيه من الحور العين قد

---

(١) السابق ١/١٧١ .

(٢) اللمع في التصوف للسراج الطوسي ص٤٦١.

رأيته وأحصيته، ومن رآني ورأى من رآني وحضر مجلسي في جنة عدن وبستانها قد أسكنته) (١).

وقد زعم الحسين بن منصور الحلاج (٣٠٩هـ) أن التوحيد لا يكون حقا إلا إذا كانت صيغته هي التي نطق بها الله نفسه، بحيث تتلاشى أوصاف المخلوق ويتصف بأوصاف الخالق فقال: (حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك، بخلع أوصافك والاتصاف بأوصافه)(٢).

وقد زعم الحلاج أن من هذب في الطاعة نفسه، وأشغل بالأعمال الصالحة قلبه، وصبر على مفارقة اللذات، وملك نفسه في منع الشهوات، ارتقي به إلى مقام المقربين، ثم لا يزال يتنزل في درج المصافاة حتى يصفو عن البشرية طبعه، فإذا لم يبق فيه من البشرية نصيب، حل فيه روح الله ﷻ الذي كان منه عيسي بن مريم ؑ فيصير مطاعا، فلا يريد شيئا إلا كان من كل ما ينفذ فيه أمر الله، وأن جميع فعله حينئذ فعل الله، وجميع أمره أمر الله ﷻ، وهذا يعني أن الحلاج اعتنق عقيدة حلول الله ﷻ في الإنسان، وتحولت الإرادة الإنسانية إلى إرادة إلهية، بحيث يصبح كل ما يصدر عن الإنسان من قول أو فعل قولا لله ﷻ أو فعلا (٣).

ونظم الحلاج نصوصا شعرية كثيرة، في حلول المحبوب في المحب، أو

---

(١) الوصية الكبرى لشيخ العروسية عبد السلام الفيتوري ص٧٥، نشر مكتبة النجاح طرابلس ليبيا.

(٢) أخبار الحلاج نشرة ماسينيون ص٢٤.

(٣) الحياه الروحية في الإسلام للدكتور مصطفي حلمي ص١٤١،١٤٠.

حلول الرب في العبد منها :

أنا من أهوي ومن أهوي أنا: نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته: وإذا أبصرته أبصرتنا

مزجت روحك في روحي : كما تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسك شيء مسني : فإذا أنت أنا في كل حال [(١)]

وقال الحلاج في كثير من نصوصه الشعرية نظما ونثرا :

سبحان من أظهر ناسوته : سرا سن ي لاهوته الثاقب
حتى بدأ في خلقه ظاهرا : في صورة الآكل والشارب [(٢)] .

ورأي الحلاج أن فرعون وإبليس مثالان رائعان للثبات على الحلول ودعوى الحب رغم ما لحقهما من لعن، واتخذهما قدوة في الثبات على دعواه أنه اتحد بالحق، قائلا: (فصاحبي وأستاذي إبليس وفرعون، فإبليس هدد بالنار وما رجع عن دعواه، وفرعون أغرق في اليم وما رجع عن دعواه، ولم يقر بالواسطة البتة) [(٣)].

وتحت دعوى محبة الله عبث إبليس بأدمغة الصوفية حتى أعماهم عن التوحيد الذي بعث به النبي ﷺ، وجعلهم يحبون المخلوقات لا

---

(١) الطواسين للحلاج ص١٣٠.
(٢) السابق ص١٣٠.
(٣) الصوفية في الإسلام لنيكلسون ص١٤٠ وانظر السابق ص٥١، وانظر أيضا ما كتبه الدكتور مصطفي كامل الشيبي عن الحلاج، وأنه كان داعيا إسماعيليا أو قرمطيا في كتابه الفكر الشيعي والنزعات الصوفية، طبعة بغداد سنة ١٩٦٦م ص٧٢، وانظر أيضا الفهرست لابن النديم ص٢٠٤.

كمحبة الله كما كان المشركون في الجاهلية يفعلون فحسب، بل جعلوها جميعا ذواتا إلهية، يؤمنون بإلهيتها جميعا، ولا يفرقون بين أحد منها، وإلا أصبحت التفرقة شركا وضلالا في عرفهم، فلا فرق عندهم بين العبد والرب، فالعابد هو المعبود، والذاكر هو المذكور، والحجر والشجر والماء، والشمس والقمر والنجوم كلها أجزاء من الذات الإلهية، تعالى عما يقولون علوا كبيرا. قال ابن عربي:

فيحمدني وأحمده : ويعبـــدني وأعبده
ففي حـال أقـربه : وفي الأعيان أجحده
فيعـرفني وأنكره : وأعرفه فأشهـــــده[١].

فأنت عبد وأنت رب : لمن له فيه أنت عبد
وأنت رب وأنت عـبد لمن له في الخطاب عهـد[٢].

وقال:

فإنا أعبدٌ حقا : وإن الله مولانا
وإنا عينه فاعلم : إذا ما قلت إنسانا
فلا تحجب بإنسان : فقد أعطاك برهانا
فكن حقا وكن خلقـا : تكن بالله رحمـانا [٣].

وهذه العبارات التي نطق بها ابن عربي في وحدة الوجود مهما

---

(١) فصوص الحكم لابن عربي ص٩٢.
(٢) السابق ص٩٥ والفتوحات المكية لابن عربي ٢/٣٢٠.
(٣) فصوص الحكم لابن عربي ص١٤٣.

اختلفت وتنوعت فإن مضمونها شيء واحد، وهو اعتباره وجود المخلوق هو وجود الخالق بذاته، سواء جعلت الكثرة أجزاء له، أو أنواع، أو أنها وهم، أو جعلتها مظاهر وتجليات، فالمآل واحد وهو أنه ما ثم إلا وجود واحد.

ويلزم على هذا المذهب الخبيث أن يكون الله ﷻ هو الأشياء جميعا بما فيها متقابلات ومتضادات، ويلزم أن يكون هو الأنس والجن والشجر والحيوان وكل شيء، ولذلك يري ابن عربي أن الأديان كلها حق، وأن المجوس عبدة النار وأن المشركين عابدي والأوثان وغيرهم ليسوا كفارا وضلالا، بل مذاهبهم هي عين الهدي والإيمان، لأنهم حين عبدوا النار والحجارة والصلبان ما عبدوا إلا الله ﷻ، فإذا كان الله ﷻ قد تجلي بذاته لذاته في جميع هذه الصور والمتعينات، فالهدي والإيمان في زعمهم أن تعبدها وتعظمها جميعا، والشرك والضلال والكفر أن تترك بعض المخلوقات، فلا تعبدها وتظنها شيئا مخلوقا، ولا تعتقدها جزءا من الخالق أو بعضا منه.

تلك هي زندقة محي الدين بن عربي في وحدة الوجود، وكذلك زندقة من سبقه الحسين بن منصور الحلاج في الحلول والاتحاد، ومن سار على دربهما أو صحح عقيدتهما من الصوفية أو القائلين بقولهم، ولا يجوز بحال من الأحوال الاعتذار عن مثل هذه الدعوى الشركية التي ربما عجز إبليس عن صياغتها بهذا الإفك من الشرك الصوفي.

- الخوف الشركي هو خوف السر المتعلق بالقلب.

إذا اكتمل خوف العبد من ربه لم يخف شيئا سواه، وإذا نقص خوفه

خاف من المخلوق، وعلى قدر نقص الخوف وزيادته يكون مقدار الخوف في القلب، وهو عبادة لا يجوز صرفها لغير الله تعالى، فليس هناك من يفعل ما يشاء إلا الله، ولا أحد يملك نفعا أو ضرا إلا بإذن الله ﷻ، فهو الذي يصيب برحمته من يشاء، ويصرفها عمن يشاء، فمن اعتقد أن نبيا أو وليا أو ضريحا أو مقبورا أو وثنا أو صنما أو شجرا أو حجرا يملك له نفعا أو ضررا بغير مشيئة الله وخاف بطشه وأذاه فقد وقع في الخوف الشركي الذي لا يصرف إلا لله ﷻ.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ آل عمران:١٧٥. وقال: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ۚ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ الأنعام: ٨٠/٨١.

لقد ذكر الله في شأن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه أنكر أن نخاف ما أشركوهم بالله ﷻ من جميع المخلوقات العلويات والسفليات، وأنكر عدم خوفهم من إشراكهم بالله ﷻ شريكا لم ينزل الله به سلطانا، وبين أن الذي لم يشرك بالله هو الآمن المهتدى.

وأكثر عامة الصوفية من المريدين والجهلة من الناس المتأثرين به وقعوا في هذا الشرك؛ ذلك لأنهم رفعوا أولياءهم فوق كل مخلوق، وجعلوا قدراتهم وطاقاتهم تفوق طاقة البشر، واعتقدوا فيهم اعتقادات شملت الكثير من الغلو والتجاوز، فاعتقدوا أن لهم التصرف في الكون

وأمور الحياة تصرفا كاملا شاملا، كإحياء الموتى، وشفاء المرضى، وإنزال المطر، وهداية الضالين هداية التوفيق، وإضلال المهتدين بالسر والباطن، وحفظ العالم من الدمار، واعتقدوا أنهم يعلمون الغيب على وجه الإطلاق، فلا يخفى عليهم شيء، وأنهم معصومون من الخطأ والخطايا، وأنهم يقولون للشيء كن فيكون، وغير ذلك كثير، فجعلوا لأوليائهم رهبة وهمية، وقصوا لهم الأكاذيب مستخدمين أساليب القصص والحكايات المكذوبة التي ينتج من النظر فيها انبعاث مشاعر خوف السر والرهبة في النفوس، تحقيقا لمآربهم في إشاعة الرهبة والخوف من الأولياء وغضبهم، إذ يوحون إلى أتباعهم أن أي شخص لم يقدم النذر في موعده، أو لم يأت إلى ضريح البدوي في مولده حلت المصائب في يومه وغده، وفي نومه ومرقده حتى يعود إلى الضريح بتسليم صريح، مخلصا له مقرا تائبا من الإنكار، أو كما قال الشعراني في حكاياته المزعومة:

(أخبرني شيخنا الشيخ محمد الشناوي ﷺ أن شخصا أنكر حضور مولده فسلب الإيمان، فلم يكن فيه شعرة تحن إلى دين الإسلام، فاستغاث بسيدي أحمد ﷺ فقال: والنساء؟ ـ يقصد اختلاط الرجال بالنساء ـ فقال له سيدي أحمد ﷺ: ذلك واقع في الطواف ولم يمنع أحد منه، ثم قال: وعزة ربي ما عصى أحد في مولدي إلا وتاب، وحسنت توبته، وإذا كنت أرعى الوحوش والسمك في البحار، وأحميهم من بعضهم بعضا، أفيعجزني الله ﷻ عن حماية من يحضر مولدي؟ وحكى لي شيخنا أيضا أن سيدي الشيخ أبا الغيث بن كتيلة أحد العلماء بالمحلة الكبرى وأحد الصالحين، لما كان بمصر فجاء إلى

بولاق فوجد الناس مهتمين بأمر المولد، والنزول في المراكب لحضور المولد فأنكر ذلك وقال: هيهات أن يكون اهتمام هؤلاء بزيارة نبيهم ﷺ مثل اهتمامهم بأحمد البدوي. فقال له شخص: سيدي أحمد ولي عظيم. فقال: في هذا المجلس من هو أعلى منه مقاما، فعزم عليه شخص، فأطعمه سمكا، فدخلت حلقه شوكة تصلبت، فلم يقدروا على نزولها بحيلة من الحيل، وورمت رقبته حتى صارت كخلية النحل، تسعة شهور وهو لا يلتذ بطعام ولا شرب ولا منام، وأنساه الله تعالى السبب، فبعد التسعة شهور ذكره الله بالسبب، فقال: احملوني إلى قبة سيدي أحمد رضي الله عنه، فأدخلوه فشرع يقرأ سورة يس فعطس عطسة شديدة، فخرجت الشوكة مغمسة دما، فقال: تبت إلى الله تعالى يا سيدي أحمد، وذهب الوجع والورم من ساعته) [(١)].

قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ الزمر:٣٦.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله في شأن الخوف الشركي: (وهو الواقع اليوم من عباد القبور، فإنهم يخافون الصالحين، بل يخافون الطواغيت كما يخافون الله بل أشد، ولهذا إذا توجهت على أحدهم اليمين بالله أعطاك ما شئت من الأيمان كاذبا أو صادقا، فإن كان اليمين بصاحب التربة لم يقدم على اليمين إن كان كاذبا، وما ذاك إلا لأن المدفون في التراب أخوف عنده من الله) [(٢)].

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني ١/٢٦٣، ١/٢٦٤.

(٢) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ص٤٠٧.

• الشرك في الرجاء متعلق بالقلب وهو من الشرك الأكبر.

الرجاء عبادة لا تصرف إلا لله، ولم يمنع الشرع أن يرجوا المسلم مخلوقا فيما يقدر عليه مما أجراه الله ﷻ على أيديهم من الأسباب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨ ﴾ البقرة:٢١٨ .

وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورٗا ٥٧ ﴾ الإسراء:٥٧ .

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ٦ ﴾ الممتحنة:٦ .

أما الرجاء الذي يتعلق بقلب العبد في سره، والذي يرجوا به مخلوقا لا يقدر على تحقيق طلبه، فيتصرف برجائه على نحو لا يقبله شرع ولا عقل فهو رجاء العبادة، كمن اعتراه حاجة من حاجات الدنيا كالحاجة إلى الصحة أو المال أو الولد أو النجاة من عدو، أو خطر داهم، أو الحاجات الأخروية، كالتثبيت عند المسألة، أو الشفاعة في الخروج من المأزق، أو في دخول الجنة والنجاة من النار، فلو توجه بشيء من ذلك إلى مخلوق يطلبه منه، وإن كان ملكا مقربا، أو نبيا مرسلا، أو رجلا صالحا حيا أو ميتا، فإنه يكون شركا واتخذه بذلك إلها، وجعله لله ندا بصرفه هذه العبادة له (١).

والمسلم الناصح لنفسه عليه أن يقوى رجاءه في الله، ويعتقد أن كل

(١) الشرك في القديم والحديث ص١٠٩٦ بتصرف.

ما يرجوه الإنسان في حياته سواء في الدنيا أو الآخرة إنما هو بيد الله ﷻ ولا يمكن أن يتحقق إلا بإذنه تعالى وقضائه وقدره، أما المؤمن الولي الصالح فمهما علا مقامه عند الناس فهو عبد لله ﷻ شرفه الافتقار بتوحيد العبودية، ولم يصل إلى مقامه في الولاية إن صحت ولايته لله إلا بتحقيقه لتوحيد العبودية، وبعده عن كل أنواع الشرك، وهو مقر بأنه فقير إلى ربه فقرا ذاتيا اضطراريا بحكم الخلقة، وفقرا اختياريا بحكم توحيد العبودية [1].

أما الرجاء الذي يقصد به الموتى في أضرحتهم كرجاء بعض الصحابة في قبورهم من آل البيت كعلي والعباس والحسين وزينب ونفيسة ﭫ، وبعض الأئمة كأبي حنيفة ومالك والشافعي، وكرجائهم بعض الأولياء إن صحت ولايتهم كابن الرفاعي والبدوي والدسوقي والمرسي والغريب وابن تميم والشاذلي وغيرهم، فهو رجاء شركي من أنواع الشرك الأكبر، كقول القائل في ابن الرفاعي:

غوث وغيث في الورى فيمينه : يرتــاح من راحاتـها مسكيــنه
تسدى العدو من العدو تصونه : هذا رجائي عنـــده وأظــــنه
قبل الرجــاء من المقــل المجهــد
ذو الفقر والفاقات يسعى زائرا : ولظهر بحر النيل يركـب سائرا
أفلا يكون لي القبــول بلا مرا : لاسيــما ولقد أتيت مبـــادرا
أسعى إليه من الرحاب الأحمدي.

أو كقول القائل:

---

(١) السابق ص١٠٩٦ بتصرف.

وقفت بالذل في أبواب عزمكم : مستشفعا من ذنوبي عندكم بكم
أعفر الخد ذلا في التراب عسى : أن ترحمـوني وترضوني عبيدكم
فإن رضيتم فيا عزى ويا شرفي: وإن أبيتم فمـن أرجـوه غـيركم

• الشرك في التوبة متعلق بالقلب وهو من الشرك الأكبر.

قال ابن القيم: (التوبة للشيخ شرك عظيم، فإن التوبة لا تكون إلا لله كالصلاة والصيام والحج والنسك، فهي خالص حق الله، وفي المسند أن رسول الله أتى بأسير فقال: اللهم إني أتوب إليك، ولا أتوب إلى محمد فقال رسول الله: عرف الحق لأهله[1]. فالتوبة عبادة لا تنبغي إلا لله كالسجود والصيام) [2].

وقد توسع الصوفية في نشر حكايات مختلقة حول عدم الإنكار على شركياتهم وابتداعاتهم، وأن كثيرا ممن أنكروا عليهم حدثت لهم من المصائب والمحن والبلايا ما جعلهم يعودون مقرين تائبين مسلمين لهذا المنكر الذي يقيمون عليه، واعتذارهم عن الأولياء أنهم يفعلون المنكر ليصرفوا الناس عن باطنهم العامر بحال التقوى والإيمان، مستدلين في ذلك باعتذار موسى عليه السلام للخضر عليهما السلام حين أنكر عليه خرق السفينة وقتل الغلام. قال تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾ الكهف:٧٢/٧٣.

ذكر الشعراني أن أحد الأولياء ويدعى محمد بن هارون سلبه صبي

(١) رواه أحمد ٤٣٥/٣ (١٥٦٢٥)، والطبراني في الكبير ٢٨٦/١ (٨٣٩)، والبيهقي في شعب الإيمان ١٠٣/٤ (٤٤٢٥) وفي رفعه ضعف.
(٢) مدارج السالكين لابن القيم ٣٤٥/١.

إيمانه وحاله في وقت من الأوقات، لأنه كان إذا خرج من صلاة الجمعة تبعه أهل المدينة يشيعونه إلى داره بالحفاوة والتكريم، فمر بذلك الصبي وهو جالس تحت حائط يفلِّي خلقته من القمل، وهو ماد رجليه؛ فخطر في سر الشيخ أن هذا الصبي قليل الأدب، كيف يمد رجليه ومثلي مار عليه، فسُلب الإيمان والحال لوقته! وفر الناس عنه وهجروه، فرجع يبحث عن الصبي فلم يجده، فدار عليه في البلاد إلى أن وجده في أحد المدن المصرية؛ فقيل له: يا سيدي الشيخ، مثلك يخطر في خاطره أن له مقاما أو قدرا؟ هذا الصبي سلبك حالك، فله أن يمد رجله بحضرتك لكونه أقرب إلى الله منك! فقال: التوبة، فأرسله إلى الحائط التي كان يفلي الصبي ثوبه عندها، وقال له: ناد على السحلية التي هناك في شق الحائط، وقل لها: إن طاب خاطر الصبي علي فردي علي إيماني، فخرجت ونفخت في وجهه فرد الله عليه حاله [1].

وشتان بين قصة موسى عليه السلام وقصة التوبة إلى السحلية التي اختلقها الشعراني، أو شيخه على الخواص، فأين مقام الأنبياء ممن يزعم كذبا أن الصبي يسلبه الإيمان وتعيده إليه السحلية.

لقد زعم الشعراني أن سلطان مصر كان يعتذر للشيخ خوفا من أن يصيبه هو ووزراءه بمكروه فقال: (ومنهم الشيخ حسن التستري رضي الله عنه تلميذ الشيخ يوسف العجمي وأخوه في الطريق، جلس للمشيخة بعده في مصر وقراها، وقصدته الناس من سائر الأقطار، وكان ذا سمت بهي، وكمال في العلم والعمل، وانتهت إليه الرياسة في الطريق، وكان

(١) الطبقات الكبرى للشعراني ١/٢٨٩.

السلطان ينزل إلى زيارته، فلم يزل الحاسدون من أرباب الدولة وغيرهم بالسلطان حتى غيروا اعتقاده فيه، وهم بحبسه أو نفيه، فأرسل الوزير إلى زاويته ليسد بابها، وكان الشيخ خارج مصر في المطرية هو والفقراء، فرجعوا فوجدوا الباب مسدودا، فقال الشيخ: من سد هذا الباب؟ فقالوا: سده الوزير فلان بأمر السلطان، فقال: ونحن نسد أبواب بدنه وطيقانه، فعمى الوزير، وطرش، وخرس، وانسد أنفه عن خروج النفس، وقبله ودبره عن البول والغائط، فمات الوزير في الحال، فبلغ ذلك السلطان، فنزل إليه وصالحه، وفتح له الباب، وكان عسكر السلطان كله قد انقاد لسيدي حسن رضي الله عنه حتى خرجوا عن طاعة السلطان إلى طاعته رضي الله عنه)[1].

- من الشرك الأكبر المتعلق بالقلب الشرك في التوكل.

التوكل هو اعتماد القلب على الله عز وجل قبل الأخذ بالأسباب ثم الرضا بما قدره الله من نتائج، وهو عبادة لا تصرف إلا لله، فمن اعتمد بقلبه متوكلا على غير الله كاعتماد كثير من العامة على القباب والأضرحة والأوثان ومن سكنها من الموتى أيا كان، واعتقد في الميت أنه يملك جلب منفعة له، أو دفع مضرة عنه، فقد وقع في الشرك الأكبر، لأن التوكل لا يكون إلا على الله وحده، وما سواه من الأحياء إنما أجرى الله الأسباب على أيديهم وقد جعلها الله عز وجل لوقوع الأحكام فلا بد من الأخذ بها، ومن اعتمد عليها عند أخذه بها وقع في الشرك الأصغر.

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الرجاء مقرون بالتوكل، فإن المتوكل

---

(١) السابق ١/٣٧٥.

يطلب ما رجاه من حصول المنفعة ودفع المضَرة، والتوكل لا يجوز إلا على الله، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ المائدة:٢٣.

وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠﴾آل عمران:١٦٠ .

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ٥٩﴾التوبة:٥٩ .

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ آل عمران:١٧٣ .

وقولهم حسبنا الله، أي كافينا الله في دفع البلاءِ، وأُولئك أُمروا أَن يقولوا: حسبنا في جلب النعماءِ، فهو سبحانه كاف عبده في إزالة الشر، وفي إنالة الخير، أليس الله بكاف عبده، ومن توكل على غَير الله ورجاه خذل من جهته وحرم. قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾ العنكبوت:٤١.

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ٨٢﴾ مريم:٨١/٨٢. فمن عمل لغير الله ﷻ رجاءَ أن ينتفع بما عمل له كانت صفقته خاسرة. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩﴾ النور:٣٩. فمن عمل لغير الله ورجاه بطل سعيه، والراجي يكون راجيا تارة بعمل يعمله

لمن يرجوه، وتارة باعتماد قلبه عليه، والتجائِه إليه وسؤاله، فذاك نوع من العبادة له، وهذا نوع من الاستعانة به.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ هود:١٢٣. وقال: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ الرعد:٣٠.

ومما يوضِّح ذلك أن كل خير ونعمة تنال العبد فإنما هي من الله ﷻ، وكل شر ومصيبة تندفع عنه أو تكشف عنه فإنما يمنعها الله؛ وإنما يكشفها الله، وإذا جرى ما جرى من أَسبابها على يد خلقه فالله سبحانه هو خالق الأَسباب كلها، سواءٌ كانت الأَسباب حركة حي باختياره وقصده كما يحدثه تعالى بحركة الملائِكة والجن والإِنس والبهائِم، أو حركة جماد بما جعل الله ﷻ فيه من الطبع، أو بقاسر يقسره كحركة الرياح والمياه ونحو ذلك، فالله خالق ذلك كله، فإنه لا حول ولا قوة إلا به، وما شاءَ كان، وما لم يشأْ لم يكن، فالرجاءُ يجب أن يكون كله للرب والتوكل عليه والدعاءُ له، فإنه إن شاءَ ذلك ويسره كان وتيسر، ولو لم يشأْ الناس وإِن لم يشأْه ولم ييسره لم يكن وإن شاءَه الناس [1].

ومن أمثلة الشرك في التوكل اعتماد الصوفية على الموتى من أوليائهم في دفع الضرر وجلب النفع، بل تعدى الأمر إلى اعتمادهم على الأحياء منهم في فعل أشياء أكبر من معجزات الأنبياء، وكأنهم في تصريفهم للأمور يملكون خزائن الأرض، ودرر البحار، وخيرات الأنهار، وذلك

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٨/١٦٦:١٦٤.

من كثرة المبالغات الكاذبة التي يستتر بها الفجار من أولياء الشيطان، تحت الاحتجاج بمعتقد أهل السنة في خرق العادات لأولياء الرحمن.

قال الشعراني المقبور في باب الشعرية: (ومنهم الشيخ العارف بالله تعالى سيدي علي المحلي رضي الله تعالى عنه ورحمه كان من رجال الله المعدودة، وكان إذا أتاه فقير يستعين به في شيء من الدنيا يقول: له هات لي ما تقدر عليه من الرصاص فإذا جاء به يقول له: ذوبه بالنار، فإذا أذابه يأخذ الشيخ بإصبعه شيئا يسيرا من الترب ثم يقول: عليه باسم الله ويحركه فإذا هو ذهب لوقته، وأنكر عليه مرة قاض في دمياط، وقال له: ما مذهبك، فقال: حنشي ثم نفخ على القاضي فإذا هو ميت، وأرسل مرة سيدي حسين أبو علي ﷺ السلام له، فقال: سيدي على المحلي ﷺ نعطيك هدية في نظير السلام ثم غرف له من البحر ملء القفة جواهر فقال الفقير: ليس لي ولا لشيخي حاجة بالجواهر فردها في البحر) [1].

قال ابن تيمية: (وأما الذين يتوكلون على فلان ليشفع لهم من دون الله تعالى، ويتعلقون بفلان، فهؤلاء من جنس المشركين الذي اتخذوا شفعاء من دون الله تعالى. قال تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ الزمر:٤٣/٤٤.

وقال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ

(١) الطبقات الكبرى للشعراني ١/٤٣٣.

وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ الإسراء:٥٦/٥٧.

قال طائفة من السلف كان قوم يدعون المسيح والعزيز والملائكة، فبين الله تعالى أن هؤلاء الملائكة والأنبياء عباده، كما أن هؤلاء عباده وهؤلاء يتقربون إلى الله، وهؤلاء يرجون رحمة الله، وهؤلاء يخافون عذاب الله، فالمشركون اتخذوا مع الله ﷻ أندادا يحبونهم كحب الله، واتخذوا شفعاء يشفعون لهم عند الله، ففيهم محبة لهم، وإشراك بهم، وفيهم من جنس ما في النصارى من حب المسيح وإشراك به، والمؤمنون أشد حبا لله، فلا يعبدون إلا الله وحده، ولا يجعلون معه شيئا يحبونه كمحبته، لا أنبيائه ولا غيرهم، بل أحبوا ما أحبه بمحبتهم لله ﷻ، وأخلصوا دينهم لله، وعملوا أن أحدا لا يشفع لهم إلا بإذن الله، فأحبوا عبد الله ورسوله محمدا ﷺ لحب الله، وعلموا أنه عبد الله المبلغ عن الله، فأطاعوه فيما أمر، وصدقوه فيما أخبر، ولم يرجوا إلا الله، ولم يخافوا إلا الله، ولم يسألوا إلا الله، وشفاعته لمن يشفع له هو بإذن الله، فلا ينفع رجاؤنا للشفيع، ولا مخافتنا له، وإنما ينفع توحيدنا وإخلاصنا لله، وتوكلنا عليه، فهو الذي يأذن للشفيع) (١).

• شرك الإرادة والنية والقصد من الشرك المتعلق بالقلب.

ذكر ابن القيم أن الشرك في الإرادات والنيات هو البحر الذي لا ساحل له، وقل من ينجو منه، فمن أراد بعمله غير وجه الله، ونوى شيئا غير التقرب إليه، وطلب الجزاء منه، فقد أشرك في نيته وإرادته،

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٥٢٩/١١.

والإخلاص أن يخلص لله في أفعاله وأقواله وإرادته ونيته، وهذه هي الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام التي أمر الله بها عباده كلهم، ولا يقبل من أحد غيرها، وهي حقيقة الإسلام كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ آل عمران:٨٥. وهي ملة إبراهيم عليه السلام التي من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء [١].

والشرك في الإرادة والنية قد يكون من أنواع الشرك الأكبر أو الأصغر حسب قوة الإخلاص والعزم في منطقة الكسب من القلب.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: (باب مِن الشّركْ إرادة الإنسان بعمله الدُّنيا) [٢]. ثم استدل لذلك بقول الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ هود:١٥/١٦. واستدل أيضا بما رواه البخاري من حديث أَبِي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (تعِسَ عَبْدُ الدِّينار وَعَبْدُ الدِّرْهَم وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، إن أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإن لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تعِسَ وَانتكَسَ، وَإذا شِيكَ فَلا انتقش طُوبَى لعَبْدٍ آخِذ بِعِنان فَرَسِهِ فِي سَبِيل اللهِ أَشْعَث رَأْسُهُ مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إن كَان فِي الحِرَاسَةِ كَان فِي الحِرَاسَةِ، وَإن كَان فِي السَّاقَةِ كَان فِي السَّاقَةِ، إن اسْتأْذن لَمْ يُؤْذن لهُ، وَإن شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ) [٣].

(١) الجواب الكافي لابن القيم ص ٩٤.

(٢) كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب ص١٠٠.

(٣) البخاري في الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله ١٠٥٧/٣ (٢٧٣٠).

وذكر في الباب عدة مسائل، منها إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة، وتسمية الإنسان المسلم عبدَ الدينار والدرهم والخميصة، وتفسير ذلك بأنه إن أُعطيَ رضَي، وإن لم يعط سخط [(١)].

قال ابن القيم: (الشرك في العبادة يصدر ممن يعتقد أنه لا إله إلا الله وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطى ولا يمنع إلا الله، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، ولكن لا يخلص لله في معاملته وعبوديته، بل يعمل لحظ نفسه تارة، وطلب الدنيا تارة، ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة، فله من عمله وسعيه نصيب، ولنفسه وحظه وهواه نصيب، وللشيطان نصيب، وللخلق نصيب، هذا حال أكثر الناس، وهو الشرك الذي قال فيه النبي ﷺ فيما رواه ابن حبان في صحيحه: الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل قالوا: وكيف ننجوا منه يا رسول الله قال: (اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم) [(٢)].

- **الشرك الأصغر المتعلق بالقلب من مقدمات الشرك الأكبر.**

الشرك الأصغر هو الشرك الذي لا يخرج عن الملة، وهو من مقدمات الشرك الأكبر ومن المحرمات التي لها حكم الكبائر، وعقوبته مرتبة على مقدار قوته في القلب، وربما يقوى فيكون شركا أكبر حسب قوة

---

(١) كتاب التوحيد ص١٠٠.

(٢) الجواب الكافي لابن القيم ص ٩١ ، والحديث أخرجه أحمد في المسند ٤/٤٠٣ (١٩٦٢٢) عن أبي موسى الأشعري ﷺ وقال الألباني: حسن لغيره، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٣٦).

الاعتقاد في غير الله والتوجه إليه، ومثاله الشرك الأصغر المتعلق بالقلب يسير الرياء وإرادة الإنسان غير وجه الله من قوله المشروع أو عمله، وكالتطير والتشاؤم، والاعتقاد في نفع التمائم والخرز والعظم والخيط واليد والناب وعين الذئاب والودع والحجاب وما يصنعه الدجالون من أشياء يعتقدون فيها دفع الضرر والعين والبلاء، وكذلك من الشرك الأصغر المبالغة في تعظيم المخلوق وتقديمه على ما أمر الله بتعظيمه كتعظيم شيخ الطريقة وأوامر المرشد العام وأمير الجماعة مع علمه بعدم مشروعيتها، ولنفصل القول في بعضها على النحو التالي:

١- من أمثلة الشرك الأصغر: الرياء وهو الشرك الخفي الذي لا يكاد أحد أن يسلم منه، وهو أخفى من دبيب النمل، وطريق التخلص منه الإخلاص لله ﷻ، ولا يحصل الإخلاص إلا بعد الزهد، ولا زهد إلا بتقوى الله، والتقوى متابعة الأمر والنهي[١].

والرياء كله شرك وهو يبطل ثواب العمل، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبا، فإنه ينزله منزلة من لم يعمله فيعاقب على ترك الأمر، فان الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة له، فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتي به شيء غير المأمور به فلا يصح ولا يقبل منه.

وقد ورد النص على أن الرياء هو الشرك الأصغر فصح فيما رواه أحمد مرفوعا أن النبي ﷺ قال: (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء؛ يقول الله ﷻ

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١/٩٤.

لأصحاب ذلك يوم القيامة إذا جازى الناس: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا ؛ فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ؟!)[١].

وذكر الفضيل بن عياض أن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا[٢]، فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، ثم قرأ قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ الكهف: ١١٠. فإن قيل: علمنا أن العمل لغير الله مردود غير مقبول، والعمل لله وحده مقبول، فبقي قسم آخر وهو أن يعمل العمل لله ولغيره، فلا يكون لله محضا، ولا للناس محضا، فما حكم هذا القسم: هل يبطل العمل كله أم يبطل ما كان لغير الله ويصح ما كان لله؟ قيل هذا القسم تحته أنواع:

أحدها: أن يكون الباعث الأول على العمل هو الإخلاص، ثم يعرض له الرياء وإرادة غير الله في إثنائه، فهذا المعول فيه على الباعث الأول، ما لم يفسخه بإرادة جازمة لغير الله، فيكون حكمه حكم قطع النية في أثناء العبادة وفسخها، أي قطع ترك استصحاب حكمها.

الثاني: عكس هذا، وهو أن يكون الباعث الأول لغير الله ثم يعرض له قلب النية لله، فهذا لا يحتسب له بما مضى من العمل، ويحتسب له من حين قلب نيته، ثم إن كانت العبادة لا يصح آخرها إلا بصحة أولها

---

(١) أحمد في المسند ٤٢٨/٥ (٢٣٦٨٠)، والطبراني في المعجم الكبير ٢٥٣/٤ (٤٣٠١)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٩٥١).

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ٩٥/٨، وانظر مجموع الفتاوى ٣٣٣/١.

وجبت الإعادة كالصلاة، وإلا لم تجب كمن أحرم لغير الله ثم قلب نيته لله عند الوقوف والطواف.

الثالث: أن يبتدئها مريدا بها الله والناس، فيريد أداء فرضه والجزاء والشكور من الناس، وهذا كمن يصلي بالأجرة، فهو لو لم يأخذ الأجرة صلى، ولكنه يصلي لله وللأجرة، وكمن يحج ليسقط الفرض عنه ويقال فلان حج، أو يعطي الزكاة كذلك، فهذا لا يقبل منه العمل، وإن كانت النية شرطا في سقوط الفرض وجبت عليه الإعادة، فإن حقيقة الإخلاص التي هي شرط في صحة العمل والثواب عليه لم توجد، والحكم المعلق بالشرط عدم عند عدمه، فإن الإخلاص هو تجريد القصد طاعة للمعبود ولم يؤمر إلا بهذا، وإذا كان هذا هو المأمور به ولم يأت به بقي في عهدته تنفيذ الأمر [١].

وقد ثبت في السنة أن المرائين بأعمالهم أول من يحاسبون يوم القيامة كما ورد عند مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (إنَّ أَولَ النَّاسِ يُقْضَى يومَ القِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعْمَتَهُ، فعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ ! فَقَدْ قِيلَ، ثمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ في النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ القُرآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأتُ فِيكَ القُرآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ! وَقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ؛ فَقَدْ قِيلَ، ثمَّ أُمِرَ

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢/١٨٢.

بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ المَالِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ، ولكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: جَوَادٌ! فَقَدْ قِيلَ، ثمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ) (١).

وقد سمى الله ﷻ الرياء في الطاعات شركا مع أن فاعل الطاعة ما قصد بها إلا الله تعالى، وإنما أراد طلب المنزلة بالطاعة في قلوب الناس، فالمرائي عبد لله لا غيره، لكنه خلط عمله بطلب المنزلة في قلوب الناس فلم يقبل له عبادة وسماها شركا (٢).

روى مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ) (٣).

٢- من أمثلة الشرك الأصغر: التطير والتشاؤم بوقت أو شخص أو دار أو غير ذلك، فالتشاؤم من الاعتقادات الجاهلية التي انتشرت بين كثير من عوام المسلمين نتيجة الجهل بالدين وضعف العقيدة واليقين، وعدم انتشار الوعي الصحيح فيهم، ومخالطة أهل البدع والضلال، وقلة من يرشدهم ويبين لهم الطريق المستقيم، وكثير من الناس يتشاءمون لقراءتهم ما كتب لهم زورا من حظوظ أبراجهم الفلكية في

---

(١) مسلم في الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة ٣/١٥١٣ (١٩٠٥).

(٢) تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد لمحمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني ص١٧.

(٣) مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله ٤/٢٢٨٩ (٢٩٨٥).

بعض الصحف، فيقررون تغيير عزمهم وقصدهم على الفعل بسبب اعتقادهم وتشاؤمهم.

وكذلك تشاؤمهم من شهر صفر ومن السفر فيه، فلا يقيمون فيه مناسبة ولا فرحا، وهو الشهر المعروف بعد شهر الله المحرم، فقد كانوا في الجاهلية يتشاءمون بصفر، ويعتقدون أنه شهر فيه حلول المكاره والمصائب، فلا يتزوج من أراد الزواج في شهر صفر لاعتقاده أنه لا يوفق، ومن أراد تجارة فإنه لا يمضي صفقته في شهر صفر لاعتقاده أنه لا يربح، ومن أراد التحرك والمضي في شئونه البعيدة عن بلده، فإنه لا يذهب في ذلك الشهر لاعتقاده أنه شهر تحصل فيه المكاره والموبقات، ولهذا أبطل ﷺ هذا الاعتقاد الزائف فشهر صفر شهر من أشهر الله، وزمان من أزمنة الله، لا يحصل الأمر فيه إلا بقضاء الله وقدره، ولم يختص الله هذا الشهر بوقوع مكاره ولا بوقوع مصائب، بل حصلت في هذا الشهر أمور تاريخية عظمى وانتصارات عظيمة للمسلمين[1].

ولا زال الكثيرون حتى وقتنا يتشاءمون من شهر صفر، ومن السفر فيه، لا يقيمون فيه مناسبة ولا فرحا، فإذا جاء نهاية الشهر احتفلوا في الأربعاء الأخير احتفالا كبيرا، فأقاموا الولائم والأطعمة المخصوصة والحلوى خارج القرى والمدن، وجعلوا يمشون على الأعشاب للشفاء من الأمراض، وهذا لا شك أنه موقع في البدع الشركية، ولا تصدر هذه الأمور إلا ممن يشوب اعتقاده بعض الأمور الشركية.

وقد يجعل الله سبحانه وتعالى تطير العبد وتشاؤمه سببا لحلول

---

(١) انظر شرح صحيح البخاري لابن بطال ٩/٤١٧ نشر مكتبة الرشد الرياض.

المكروه، كما يجعل الثقة به والتوكُّل عليه وإفراده بالخوف والرجاء من أعظم الأسباب التي يدفع بها الشر المتطير به، وسر هذا أن الطيرة إنما تتضمن الشرك بالله تعالى والخوف من غيره، وعدم التوكل عليه أو الثقة به فكان صاحبها غرضا لسهام الشر والبلاء.

والنفس قد تتطير بطبعها غير أن المؤمن يدفع ذلك بتوحيده وتوكله على الله، فإن من توكل على الله وحده كفاه من كل بلاء، فمن أنعم الله عليه بسلامة العقيدة وصحتها، فإنه دائما متوكل على ربه موقن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الأمة لو اجتمعت على أن يضروه بشيء لن يضروه إلى بشيء قد كتبه الله عليه، وأن التشاؤم والطيرة واعتقاد النفع أو الضر في غير الله ونحو ذلك كله من الشرك الذي ينافي تحقيق الكمال في التوحيد، وتحقيق التوحيد منه ما يكون واجبا، ومنه ما يكون مندوبا، والواجب تخليصه وتصفيته عن شوائب الشرك والبدع والمعاصي، فلا يكون العبد محققا التوحيد حتى يسلم من الشرك بنوعيه الأكبر والأصغر ويسلم من البدع والمعاصي.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ آل عمران:١٧٥.

وقال سبحانه: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ النحل:٩٨/١٠٠.

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لا

عدوى ولا طيرة، ولا هامة ولاَ صفر، وفر من المجذوم كما تفر من الأسد) [١].

والنبي ﷺ أراد بقوله لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، نفي ما كان يعتقده أهل الجاهلية من الاعتقادات الباطلة التي تؤثر في القلب، وتضعف حسن الظن بالله، بل قد تزيله. وقد يكون معها نسبة الله ﷻ إلى النقص، إما بنفي القدرة، وإما بالشرك، فقد يجعل شريكا آخر معه في العبادة أو في التأثير، ومن هنا قال رسول الله ﷺ: لا عدوى، يعني لا عدوى مؤثرة بطبعها؛ لأن أهل الجاهلية، كانوا يعتقدون أن العدوى تؤثر بنفسها تأثيرا لا مرد له، وتأثيرا لا صارف له.

وروى الترمذي وصححه الألباني من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (الطيرة من الشرك، وما منا إلاّ، ولكن الله يذهبه بالتوكل) [٢]. وقوله ﷺ: ما منا إلا، يعني ما منا إلا تخالط الطيرة قلبه، ولهذا نجد أن أكثر الناس ربما وقع في أنفسهم بعض ظن السوء وبعض التشاؤم، إما بريح مقبلة وإما بسواها. وإذا أراد بعضهم السفر ورأى شيئا يكرهه ظن أنه سيصيبه هلاك لأنه أصابه نوع تطير، والمؤمن يجب عليه أن يتوكل على الله ﷻ حق التوكل كما قال ﷺ: ولكن الله يذهبه بالتوكل، فالطيرة باطلة، ولا أثر للأسباب إلا بقضاء وقدر[٣].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الطب، باب الجذام ٥/٢١٥٨ (٥٣٨٠).

(٢) رواه الترمذي في كتاب السير، باب ما جاء في الطيرة ٤/١٦٠ (١٦١٤)، وصححه الشيخ الألباني، انظر صحيح ابن ماجة (٣٥٣٨).

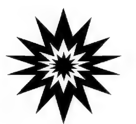
(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٩/٤١٧ بتصرف.

٣- من أمثلة الشرك الأصغر: العجب والكبر، وكل ذلك مفسد للعمل، ومعنى العجب استعظام العبد لما يعمل من العمل الصالح ونسيان منة الله به، كقوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٧)﴾ الحجرات:١٧ .

ووجه كونه من الشرك الأصغر أن صاحبه أصابه نوع من الاستعلاء بما فعل من البر وتناسى أن كامل الفضل قائم بالغني العلى، فهو نوع من التشبه بالخالق في صفاته، ينافي الكمال في معاني الافتقار إلى رب العزة والجلال، وينتج العجب عن نقص درجة الإخلاص.

وكذلك الكبر ومعناه تعاظم الإنسان في نفسه وتحقيره لغيره، والإنسان مطلوبٌ منه التواضُع، لربّه سبحانه وتعالى، والتواضُع لخلق الله والاستكبار ضدّ التواضع، وهو طلب استعلاء وتشبه بالخالق قد يحمل الإنسان على الكفر وترك عبادة الله. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)﴾ غافر:٦٠ .

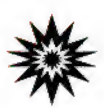
وعند مسلم من حديث ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: (لا يدخُل الجنة من كَان فِي قَلبه مثقال ذرَّة من كِبرٍ، قال رَجل: إِن الرَّجل يحِب أَن يكُون ثوبه حَسَنا ونعله حَسَنة، قال: إِن الله جميل يحِب الجمال الكِبرُ بطرُ الحَقِّ، وغَمط الناسِ) [١].



(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه ١/٩٣ (٩١).

المطلب الثالث عشر

الشرك المتعلق باللسان بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن الشرك المتعلق بالقلب بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر، وعلمنا أن العقائد الشركية القائمة بالقلب تهدم حقيقة التوحيد، وأن عقيدة الشرك فرع عن تصور القلب للخرافة وتصديقها، وأن قوة الإخلاص في القلب تحدد مقدار الشرك ونوعه، كما بينا أن الشرك في المحبة من أنواع الشرك الأكبر المتعلق بالقلب، وأن محبة الصوفية القائلين بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود من المحبة الشركية الإبليسية.

وتحدثنا عن الخوف الشركي وبينا أنه خوف السر المتعلق بالقلب، وعلمنا أن الشرك في الرجاء متعلق بالقلب وهو من الشرك الأكبر، وكذلك الشرك في التوبة، والشرك في التوكل، وشرك القصد والإرادة والنية من الشرك المتعلق بالقلب، كما بينا أن الشرك الأصغر المتعلق بالقلب من مقدمات الشرك الأكبر ومن وسائله.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن الشرك المتعلق باللسان بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر.

- **الشرك المتعلق باللسان مرتبط باعتقادات القلب الشركية.**

من المعلوم عقلا ونقلا أن الاستعانة بالغير، أو الاستغاثة به، أو دعاءه وسؤاله يرتبط باعتقاد في القلب قائم على أن من استعنت به قادر على تحقيق مطلبك وتلبية رغبتك، وإلا كان سؤاله عبثا، والطلب يعد لغوا ولهوا، ولذلك فإن من توجه بالسؤال والنداء، والطلب والدعاء إلى الله ﷻ يعلم أنه متصف بالكمال في الذات والصفات والأفعال، لأن التوجه إلى الله الغني بذاته ﷻ هو التوحيد الذي يناسب العقل والفطرة، وفي المقابل فإن الطلب من غير الله فيما يقدر على القيام به، وفيما أجراه الله ﷻ على يديه من أسباب لا يعد مخالفا للعقل أو الكتاب والسنة، وإنما الطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه كالطلب من الأموات والأضرحة والقباب، فهو الشرك بالله حقا، وهو الظلم العظيم، لأنه يستلزم أن تجعل من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا مشابها لمن كانت أزمة الأمور بيديه، ومرجعها إليه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

ومن ثم فإن دعاء الأموات، أو طلب المدد منهم، ينافي التوحيد والإخلاص، ويثبت للميت بدعائه وصف الغنى والكمال من جهة، ويثبت في المقابل للداعي أوصاف العبودية والافتقار، والحاجة والاضطرار، وغير ذلك من معاني الخضوع والعبودية والإذلال، فالذي يطلب المدد من الميت المقبور يثبت له صفة الحياة ؛ لأنه لو اعتقد في قلبه أنه ميت ما توجه إليه بالنداء ودعاه، وكذلك يثبت صفة السمع والبصر، والعلم والإرادة، والقدرة والغنى، فالفقير لا يدعى ولا يقصد.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا

يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ فاطر:١٣/١٤.

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ الحج:٧٣/٧٤ .

لقد نفى الله تعالى جميع الصفات اللازمة لإجابة الدعاء عمن توجهوا إليهم، وأثبت في المقابل فقرهم وضعفهم وعجزهم، فإذا توجه عاقل بعد ذلك إلى ميت مقبور واستغاث به أو دعاه بما يدل لازمه على الكمال الذاتي للمدعو في غناه، دل ذلك على وجود الشرك في قلبه، ورسوخه في نفسه، قبل أن ينطق به على لسانه، فانظر مثلا إلى قول القائل في دعاء قبر البدوي، أو ابن الرفاعي:

يا من هو البحر الخضم إذا جرى
جاءت لك الزوار من أقصى القرى
كل ينادى يستغيث لما جرى
فلقد حويت الفضل يا غوث الورى

هل يوجد مسلم عاقل يزعم أن البدوي أو ابن الرفاعي هو غوث الورى، يأتيه الملهوف من أقصى القرى؟ إن كان هؤلاء هم غوث الورى، فماذا تركوا لرب العزة والجلال.

قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ

خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ النمل:٦٢.

هذا الشِّرْك المتعلق بالقلب واللسان والجوارح أعظم عند الله من قتل النفس التي حرم الله، وأعظم من الزنا، وشُرب الخمر؛ لأن لازمه وصف الله ﷻ بالنقص، ومساواته سبحانه بمن اتصف بالفقر والعجز.

ومن المحزن أن هذا الأمر منتشر بصورة واسعة في بلاد كثيرة من العالم الإسلامي، مثل العراق والشام ومصر والسودان، وليبيا وبلاد المغرب العربي وباكستان وأفغانستان، وغيرها من البلدان حيث يأتي أحدهم إلى القبر بخشوع وذل وخوف ورجاء، فإما أن يدعوه ويلهج بالاستغاثة والدعاء، أو يذبح له مرددا اسمه بالمدح والثناء، أو يضع النذر في الصندوق أملا في أن يجاب الرجاء، كما يفعل كثير من الخاصة والعامة من الدهماء عند قبر الحسين رضي الله عنه في كربلاء، أو عند قبر الإمام الشافعي أو قبر السيد البدوي في مصر، وقبر إبراهيم الدسوقي، وعائشة وزينب ونفيسه وغير ذلك.

ونحن نعلم أن المبالغ في إطراء النبي ﷺ وإخراجه عن وصف العبودية ووصفه بأوصاف الربوبية يكون مُشركا مستوجبا لغضب الله ورسوله ﷺ، لأن النبي ﷺ بشر، وليس له من العبادة مثقال ذرة، فكيف بمن دعا غيره ممن هم أقل شأنا من مقام النبوة، وهو ﷺ قد أمر أمته أن تكون العبودية خالصة لله بلا شرك، قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ النساء:٣٦. يعني أخلصوا له العبادة بتوحيده بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم.

والذي يُفعل عند القبور اليوم هو الذي كانت قريش تفعله عند أصنامها، إذ إنهم تعللوا بهم كوسائط تقربهم إلى الله ﷻ، ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ٣﴾ الزمر:٣. والمشركون يريدون باتخاذهم أولياء أنهم يتوسطون لهم عند الله كالوُجَهاء عند الملوك، فكفرهم الله بذلك وكذبهم، لأنهم إنما يعبدون غير الله مع الله باعتقادهم الفاسد، وإن كانوا مقرين أن الله ﷻ خالقهم ورازقهم، فيزعم أحدهم أنه يعبد الله، لكنه يحاول أن يلتمس بركة هؤلاء الصالحين لأنهم وُجهاء عند الله، فيصرف لهم تَوَجّه قلبه خوفا ورجاءا وتوكلا ومحبة؛ وتلك هي العبودية التي لا يرضى الله أن يُشْرك معه مخلوق فيها على الإطلاق، وألا يلتفت بقلبه إلى المخلوق الذي اتخذه واسطة لأن هذا الاعتقاد يختص بالله وحده إلزاما وينبغي ألا يكون إلا لله وحده لا شريك له.

• توحيد الله في الدعاء يكون بالقلب واللسان والجوارح.

أصل الدعاء طلب أو نداء، أو رغبة أو رجاء، أو سؤال وابتهال، يقال: دعا الرجل دعوا ودعاء ناداه، والاسم الدعوة، ودعوت فلانا أي صحت به واستدعيته [1].

وهو داع وهم دعاة ينادون في الناس بدعوتهم، وهي توحيد الله وعبادته، والتداعي أن يدعو بعضهم بعضا للاجتماع على شيء،

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢/٢٧٩، ولسان العرب ١٤/٢٥٧.

ويُقال: دعوتُ الله أدعوه دعاءً، أي ابتهلت إليه بالسؤال، ورغبت فيما عنده من الخير، ودعا لفلان، طلب له الخير، ودعا على فلان طلب له الشر [1] .

أما الدعاء من جهة الشرع فقد عرفه الخطابي بقوله: (معنى الدعاء استدعاء العبدِ ربَّه ﷻ العناية، واستمدادُه منه المعونة، وحقيقته إظهار الافتقار إلى الله تعالى، والتبرّؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية واستشعارُ الذلة البشريَّة، وفيه معنى الثناء على الله ﷻ، وإضافة الجود والكرم إليه) [2].

والدعاء يرد في القرآن والسنة على عدة معاني:

١- النداء: كما في قوله ﷻ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ الأنفال:٢٤.

وعند البخاري من حديث سعيد بن المعلى ﷺ أنه قال: (كُنتُ أُصَلي فِي المَسْجِدِ فَدَعَاني رَسُول اللهِ ﷺ فَلمْ أُجِبْهُ، فَقُلتُ: يَا رَسُول اللهِ إني كُنتُ أُصَلي، فقَال: أَلَمْ يَقُل اللهُ: استَجِيبُوا للهِ وَللرَّسُول إذا دَعَاكُمْ) [3] .

٢- الطلب والسؤال: كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ البقرة:١٨٦.

(١) المعجم الوسيط ٢٨٦/١ نشر دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية.

(٢) شأن الدعاء للخطابي ص٤.

(٣) رواه البخاري في التفسير، باب ما جاء في فاتحة الكتاب ١٦٢٣/٤ (٤٢٠٤).

وعند مسلم من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إذا سَمِعْتُمُ المُؤَذن فَقُولوا مِثل مَا يَقُول، ثمَّ صَلوا عَلي؛ فَإنهُ مَن صَلى عَلي صَلاَةً، صَلى اللهُ عَليْهِ بِهَا عَشْرًا، ثمَّ سَلوا اللهَ ليَ الوَسِيلة فَإنها مَنزلةٌ فِي الجَنةِ لاَ تَنبَغِي إلاَّ لعَبْدٍ مِن عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَن أَكُون أَنا هُوَ، فَمَن سَأَل ليَ الوَسِيلةَ حَلتْ لهُ الشَّفَاعَةُ) [1] .

٣- الاستغاثة: كما في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ الأنعام: ٤٠/ ٤١ .

٤- العبادة: لما روى عند الترمذي وصححه الألباني من حديث النعمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (الدُّعَاءَ هُوَ العِبَادَةُ، ثمَّ قَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾غافر: ٦٠) [2] .

وورد الدعاء بمعان أخرى يعود أغلبها لما سبق كالحث على الشيء والاستفهام والقول والتسمية وغيرها [3] .

والمسألة لغة أصلها استدعاء الشيء وطلب معرفته والسؤال عنه، فاستدعاء المال أو ما يؤدي إليه طلبه، والحرص عليه، وسؤال الآخرين

---

(١) مسلم في الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن ١/ ٢٨٨ (٣٨٤) .

(٢) رواه الترمذي في كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء ٥/٤٥٦ (٣٣٧٢)، وصححه الألباني، انظر صحيح الترغيب والترهيب (١٦٢٧) .

(٣) انظر لسان العرب ١٤/٢٥٨، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص١٦٩ نشر دار المعرفة لبنان، وفتح الباري لابن حجر العسقلاني ١١/٩٤.

منه، واستدعاء المعرفة طلبها، والحرص على حصولها.

والسؤال إن كان من العبد لربه كان طلبا ورجاء، ومدحا وثناء، ورغبة ودعاءا، واضطرارا والتجاء، وإن كان من الله ﷻ لعبده كان تكليفا وابتلاءا، ومحاسبة وجزاءا، وتشريفا وتعريفا.

وقد أمر الله تعالى عباده أن يدعوه وحده لا شريك له بأسمائه الحسنى دعاء مسألة ودعاء عبادة، بجميع المعاني السابقة للدعاء التي وردت في الكتاب والسنة، وهي نداء الله بها، والطلب والسؤال بذكرها، والثناء عليه ومدحه بها، وظهور الداعي بسلوك العبودية الذي يوحد الله في كل اسم منها، سواء بلسان المقال، أو بلسان الحال، فلسان المقال هو المدح والثناء والطلب والسؤال، ولسان الحال هو الخضوع وتوحيد العبودية لله في الأقوال والأفعال، وعلى هذا المعنى قسم المحققون من العلماء ما ورد من الأمر بالدعاء في قول الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ الأعراف: ١٨٠.

- **دعاء الأنداد وندائهم من الشرك الأكبر المتعلق باللسان.**

دعاء المسألة فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى من الشرك المتعلق باللسان، وهو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر، فالمعبود لا بد أن يكون ربا مالكا للنفع والضر، ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضرا ولا نفعا كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ

هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾ المائدة:٧٦.

وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ يونس:١٨.

وذلك كثير في القرآن، وكله يبين أن المعبود لا بد أن يكون غنيا بذاته مالكا للنفع والضر، فهو يدعى من قبل الفقير بذاته دعاء حاجة ومسألة، ويدعى خوفا ورجاء ورهبة ورغبة ومحبة دعاء العبادة، فقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ الجن:١٨. لا يدل فقط على وجوب دعاء العبادة كالصلاة والركوع والسجود كما يدعي عباد القبور، بل يدل على الأمر بإخلاص الدعاء لله دون التوجه إلى الضريح القابع في المسجد، فدعاء العبادة متضمن لدعاء المسألة، كما أن دعاء المسألة مستلزم لدعاء العبادة، هذا لو لم يرد في دعاء المسألة من القرآن إلا الآيات التي ذكر فيها دعاء العبادة، فكيف وقد ذكر الله في غير موضع دعاء المسألة كما في قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ الأعراف:٥٥.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ الأنعام:٤٠/٤١. وقال تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ ﴾ الرعد:١٤.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ النحل:٥٣/٤ .

وعند مسلم من حديث أبي ذر الغفاري ﷺ أن النبي ﷺ قال فيما روى عن الله تعالى: (يا عِبَادِي كُلكُم ضَال إلا من هَدَيْتهُ فاستهدوني أَهْدِكُم، يا عِبَادِي كُلكُم جائِعٌ إلا من أَطْعَمتهُ فاستطعموني أُطْعِمكُم، يا عِبَادِي كُلكُم عَار إلا من كَسَوْتهُ فاستكسوني أَكْسُكُم، يا عِبَادِي إنكُم تخْطِئُون بِاللَيْل وَالنهَار، وأنا أَغْفر الذنوبَ جميعا فاستغفروني أَغْفر لكُم، يا عِبَادِي إنكُم لن تبْلغُوا ضَري فتضرُوني، وَلن تبْلغُوا نفعِي فتنفعُوني، يا عِبَادِي لو أن أَوَّلكُم وَآخِركُم وَإِنسَكُم وَجنكُم كَانوا على أَتقى قلبِ رجل وَاحِدٍ منكُم، ما زَادَ ذلك في ملكِي شيئا، يا عِبَادِي لو أَن أَوَّلكُم وَآخِركُم وَإِنسَكُم وَجنكُم كَانوا على أَفجر قلبِ رجل وَاحِدٍ، ما نقصَ ذلك من ملكِي شيئا، يا عِبَادِي لو أَن أَوَّلكُم وَآخِركُم وَإِنسَكُم وَجنكُم قاموا في صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فسَأَلوني، فأَعْطَيْت كُل إنسَان مسْأَلتهُ، ما نقصَ ذلك مما عِندِي إلا كما يَنقصُ المخْيَطُ إذا أُدْخِل البَحْر، يا عِبَادِي إنما هِيَ أَعْمالكُم، أُحْصِيهَا لكُم، ثم أُوَفيكُم إيَّاهَا، فمن وَجدَ خَيْرا فليَحْمدْ الله، وَمن وَجدَ غير ذلك فلا يَلومن إلا نفسَهُ) (١).

وفي الصحيحين من حديث أَبِي هُرَيْرَة ﷺ أَن رَسُول اللهِ ﷺ قال: (يَنزِل رَبُّنا تَبَارَكَ وَتَعَالى كُل ليْلةٍ إلى السَّمَاءِ الدُّنيَا حِين يَبْقَى ثلث الليْلَ الآخِرُ، يَقُول: مَن يَدْعُوني فَأَسْتَجِيبَ له، مَن يَسْأَلني فَأُعْطِيَهُ مَن

(١) مسلم في البر والصلة والأدب، باب تحريم الظلم ١٩٩٤/٤ (٢٥٧٧).

يَسْتَغْفِرُني فَأَغْفِرَ لهُ» [1].

ومما يبين أن دعاء المسألة ينبغي أن يصرف إلى الله وحده لا إلى المخلوق، إن حكمة الله اقتضت أن المخلوق إذا أراد نفعا لمخلوق مثله؛ فإنه لا يقصد منفعته بالقصد الأول، بل إنما يقصد انتفاعه به، بخلاف الرب تعالى إنما يريد نفعك لا انتفاعه به، وذلك منفعة محضة خالصة لك من المضرة، بخلاف إرادة المخلوق نفعك، فإنه قد يكون فيه مضرة عليك، ولو بتحمل منته، فتدبر هذا فإن ملاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق، أو تعامله دون الله ﷻ إلا بما شرع الله، أو تطلب منه نفعا أو دفعا إلا بما شرع الله لك، أو تعلق قلبك به، فإنه إنما يريد انتفاعه بك، لا محض نفعك [2].

وهذا حال الخلق كلهم بعضهم مع بعض، وهو حال الولد مع والده، والزوج مع زوجه، والمملوك مع سيده، والشريك مع شريكه، فالسعيد من عاملهم لله تعالى لا لهم، وأحسن إليهم لله تعالى، وخاف الله تعالى فيهم، ولم يخفهم مع الله تعالى، ورجا الله تعالى بالإحسان إليهم، ولم يرجهم مع الله، وأحبهم لحب الله، ولم يحبهم مع الله تعالى، كما قال تعالى عن أولياء الله ﷻ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا

(١) البخاري في أبواب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ١/٣٨٤ (١٠٩٤)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه ١/٥٢١ (٧٥٨).

(٢) إغاثة اللهفان لابن القيم ص٤٢ بتصرف.

قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ الإنسان:٨/١٢.

واعلم أن غالب الخلق إنما يريدون قضاء حاجاتهم منك، وإن أضر ذلك بدينك ودنياك، فهم إنما غرضهم قضاء حوائجهم ولو بمضرتك، والرب تبارك وتعالى إنما يريد الخير لك، ويريد دفع الضرر عنك، ويريد الإحسان إليك لا لمنفعته، فكيف تعلق أملك ورجاءك وخوفك بغيره، فاعلم أن الخلق كلهم فقراء بذواتهم، وأنهم لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا كلهم على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله تعالى عليك[1].

قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ مريم:٤٨/٤٩.

هذا هو التوحيد الخالص والحنيفية السمحة ودين الفطرة، فأين هذا ممن دعا غير الله، سواء كان نبيا، أو وليا، أو مخلوقا موصوفا في ذاته بالفقر الاضطراري، كما قال عبد العزيز الزمزمي المكي:

يا رسول الله عجل بالفرج .. قد توالى الكرب واشتد الحرج
يا رسول الله في جاهك لي .. سعـــة إن ضاق بي كل نهـج
قسمــاً بالله مــا لاذ امــرء .. بك في خطـب رجا إلا انبلـج

---

(١) السابق ص٤٢ بتصرف.

عظـم الكرب ولكن نرتجي.. برســول الله يأتيـنا الفــرج[1]

ومن ثم فإن الشرك في الدعاء شرك متعلق بالقلب واللسان، كأن يقال للميت من الأنبياء أو الصالحين: ادع الله لي، أو سله، أو سقتك على فلان، وسقت فلانا على الله في كذا كذا، وكل هذا مما لا يشك عالم بشريعتنا المطهرة أنه قطعا من الشرك الذي لا يشهد له كتاب ولا سنة، وهو يجر صاحبه شيئا فشيئا إلى نداء ودعاء صاحب القبر نفسه فيخرج عن التوحيد، وكذلك النداء كأن يقول: يا سيدي فلانا أدركني، انصرني على عدوي، أو على من ظلمني، مدد يا سيدي، شيء لله يا أهل الله، نظرة إلينا بعين الرضا، فهذا كله من الشرك.

وروى الترمذي من حديث ابن عباس ﷺ أنه قال: (كُنتُ خَلفَ رَسُول الله ﷺ يَوْمًا. فَقَال: يَا غُلامُ، إني أُعَلمُكَ كَلمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجاهَكَ، إذا سَأَلتَ، فَاسْأَل اللهَ، وإذا اسْتَعَنتَ فَاستَعِن بِالله، وَاعْلَمْ أَن الأمة لوِ اجْتَمَعَتْ عَلى أَن يَنفعُوكَ بشَيء، لَمْ يَنفعُوكَ إلا بِشَيء قَد كَتَبَهُ اللهُ لكَ، وَلو اجْتَمَعُوا عَلى أَن يَضرُّوكَ بِشَيء، لَمْ يَضرُّوكَ إلا بِشَيء قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ)[2].

---

(١) تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر لعبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروسي ص٢٨٨، نشر دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٥هـ.

(٢) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة ٤/٦٧ (٢٥١٦)، وأحمد في المسند ١/٢٩٣ (٢٦٦٩)، والحاكم في المستدرك ٣/٦٢٣ (٦٣٠٣)، وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٥٣٠٢)، وظلال الجنة (٣١٥)، وصحيح الجامع (٧٩٥٧).

وهل يليق بمسلم يؤمن بتوجيه النبي ﷺ ووصيته لابن عباس رضي الله عنه ألا يسأل إلا الله ثم يقول: يا رسول الله أدركني أو يا سيدنا الحسين، أو يا شيخ العرب؟ هل يليق بمسلم يسمع ما ورد في الحديث الصحيح عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (أَلِظُّوا بِيَا ذا الجَلال والإِكْرَام) (١). ثم يقول: يا أم العواجز، يا حامي طنطا يا سيد، يا حامي القنديل يا أبا العلا، يا سيدي فلانا ويا سيدتي فلانة؟ قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ يونس:١٠٦ . فإذا كان دعاء الله والطلب منه عبادة، فصرف هذا الدعاء لغيره شرك وظلم .

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ الأنعام:٥٦.

ونحن نعلم بالضرورة أن النبي ﷺ لم يشرع لأمته أن يدعوا مسلم أحدا من الأموات، لا الأنبياء ولا الصالحين ولا غيرهم، لا بلفظ الاستغاثة، ولا بغيرها، بل نعلم أنه نهى عن كل هذه الأمور، وأن ذلك من الشرك الأكبر الذي حرمه الله ورسوله، فكل من دعا ميتا من الأنبياء والصالحين أو دعا الملائكة أو الجن، فقد دعا من لا يغيثه، ولا يملك كشف الضر عنه ولا تحويله(٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ

---

(١) رواه الترمذي في الدعوات ٥/٥٤٠ (٣٥٢٥)، وأحمد في المسند عن ربيعة بن عامر ٤/١٧٧ (١٧٦٣٢)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (١٥٣٦)، وصحيح الجامع (١٢٥٠).

(٢) انظر الهدية السنية ص٥٤ بتصرف.

فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ الأعراف:١٩٤/١٩٥.

- **الاستعانة والاستغاثة بالأنداد من الشرك الأكبر.**

الاستغاثة طلب الغوث، وهو إزالة الشدة كالاستنصار طلب النصر، والاستعانة طلب العون، والفرق بين الاستغاثة والدعاء أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ القصص:١٥. وقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ الأنفال:٩. والدعاء أعم من الاستغاثة لأنه يكون من المكروب وغيره، فعلى هذا إذا عطف الدعاء على الاستغاثة فهو من عطف العام على الخاص.

والإغاثة هي الإعانة في حال الشدة والاضطرار، ولا ريب أن من استغاثك فأغثته فقد أعنته إلا أن لفظ الاستغاثة مخصوص بطلب العون في حالة الشدة بخلاف الاستعانة، والعبادة لا تقتصر على الدعاء فقط، بل الاستعانة أيضا عبادة، فلا يجوز للعبد أن يطلب العون من أحد فيما لا يقدر عليه إلا الله، وقد أمر الله جميع المسلمين أن يقولوا في صلاتهم في كل ركعة منه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ الفاتحة:٥. أي لا نعبد إلا أنت يا رب، ولا نستعين إلا بك وحدك، وذلك هو الإخلاص المطلوب. وكذلك الاستغاثة عبادة، وهي طلب الغوث وإزالة الشدة، فلا يجوز للمسلم أن يطلب الغوث إذا نزلت به الشدة، أو ابتلي

بالمصائب إلا من الله ﷻ، قال تعالى مخبرا عن الصحابة ﷺ واستغاثتهم بربهم حين أحدق بهم الخطر في بعض حروبهم مع المشركين: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ الأنفال:٩ [١].

ومن الشرك المتعلق باللسان الاستغاثة بالمخلوق كاستغاثة العامة بمن يعتقدون ممن يسمونهم الولي الغوث، أو الأوتاد الأربعة، أو الأقطاب السبعة، أو الأبدال الأربعين، أو النجباء الثلاثمائة، أو غير ذلك مما انتشر من الاعتقادات الشركية.

قال ابن تيمية: (وأما الأسماء الدائرة على ألسنة كثير من النساك والعامة مثل الغوث الذي يكون بمكة، والأوتاد الأربعة، والأقطاب السبعة، والأبدال الأربعين، والنجباء الثلاثمائة، فهذه الأسماء ليست موجودة في كتاب الله، ولا هي أيضا مأثورة عن النبي ﷺ.. وبذلك يتبين أن هذه الأسماء على هذا العدد والترتيب والطبقات ليست حقا في كل زمان، بل يجب القطع بأن هذا على عمومه وإطلاقه باطل، فإن المؤمنين يقلون تارة، ويكثرون أخرى، ويقل فيهم السابقون المقربون تارة، ويكثرون أخرى، وينتقلون في الأمكنة، ليس من شرط أولياء أهل الإيمان والتقوى ومن يدخل منهم في السابقين المقربين لزوم مكان واحد في جميع الأزمنة) [٢].

ثم بين أن لفظ الغوث والغياث لا يستحق معناه إلا الله تعالى فهو

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص١٨٠ بتصرف.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١١/٤٣٣ :٤٣٥.

الذي يغيث المستغيثين، لا يجوز لأحد الاستغاثة بغيره لا بملك مقرب، ولا نبي مرسل، ومن زعم أن أهل الأرض يرفعون حوائجهم التي يطلبون بها كشف الضر عنهم، ونزول الرحمة بهم إلى الثلاثمائة، والثلاثمائة إلى السبعين، والسبعين إلى الأربعين، والأربعين إلى السبعة والسبعة إلى الأربعة، والأربعة إلى الغوث، فهو كاذب ضال مشرك فقد كان المشركون كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ الإسراء:٧، فكيف يكون المؤمنون يرفعون إليه حوائجهم بعدة وسائط من الحجاب، وهو القائل تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ البقرة:١٨٦.

وقد علم المسلمون كلهم أنه لم يكن عامة المسلمين، ولا مشايخهم المعروفون يرفعون إلى الله حوائجهم ولا ظاهراً ولا باطناً بهذه الوسائط والحجاب فتعالى الله عن تشبيهه بالمخلوقين من الملوك وسائر ما يقوله الظالمون علوا كبيرا، وهذا من جنس دعوى الرافضة أنه لا بد في كل زمان من إمام معصوم يكون حجة الله على المكلفين لا يتم الإيمان إلا به، ثم مع هذا يقولون أنه كان صبيا دخل السرداب من أكثر من عدة قرون، ولا يعرف له عين ولا أثر، ولا يدرك له حس ولا خبر(١).

لقد حذر النبي ﷺ أمته من الشرك وبين أن النفع والضر بيد الله وحده، وليست بيد أحد من الخلق حتى أمره الله أن يقول: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١١/٤٣٨: ٤٣٩.

لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ الأعراف:١٨٨. وبين أنه لا يعلم الغيب، وأن الله هو المنفرد بذلك فقال تعالى: ﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ الأنعام:٥٠.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ هود:٣١.

وإذا كان هذا هو ما نص عليه القرآن في أن النبي ﷺ لا يملك لنفسه نفعا أو ضرا إلا ما شاء الله، ولا يعلم شيئا من الغيب إلا بإذن الله، فكيف بمن استغاث بالنبي ﷺ إلى درجة التأليه والعبادة، كما قال محمد الجمالي الحلبي مستغيثا بالنبي ﷺ:

يَا مَلاَذي يَا مُنجِـــدي يا مُنائي : يَا مَعَاذي يَا مَقْصَدِي يَا رَجَائِي
يَا نصِيرِي يَا عُمْدَتِي يَا مُجِيرِي : يَا خَفِيرِي يَا عُدَّتِي يَا شِفَـــائِي
أَنتَ عَوْنِي وَمَلجَئِي وَغِيَـــاثِي: وَجَلاَ كُرْبَتِـي وَأَنتَ غِنـــائِي(١)

وقال الزمزمي المكي داعيا مستغيثا بالنبيّ ﷺ :

نفْحَـةً لَمْحَـــةً غِيــاثا عِيــاذا : عَطْفَــةً جَــذبَــةً جَــوَابا نــدَاءَ
كَمْ هُمُومٍ مِن الدُّيُون عَلتْني : أَنــا فِي فِكْرِهَا صبَــاحا مَسَــاءَ
ثقَلتْ حَمْلُــها غَـيْرَ أني بِكَ : أرْجُــو وَضْعــا لَهَــا أوْ وَفَـــاءَ

(١) شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ليوسف النبهاني ص٣٥٥ مطبعة الحلبي.

أنتَ فِي كُل مَطْلبٍ نصبَ عَيْني : لاَ أَرَى لي إلاَّ سِوَاكَ التِجَاءَ
عَظُمَتْ كُرْبَتِي فَجِئْتُك قَصْدا : قَاصِدا للعَظَائِمِ العُظَمَاءَ (١).

وقال البرعي مَادحا بزعمه النبي ﷺ :

وَلَيْسَ مَعِي زَادٌ وَلاَ لي وَسِيلَةٌ : سِوَى هَاشِمِيٍّ بِالبَهَاءِ مُتَوَّجُ
أَلوذ بِهِ ذاكَ الجَنابِ وَأَحْتَمِي بِمَن هُوَ عَندَ الكَرْبِ للكَرْبِ مُفْرِجُ
وَأَدْعُوهُ فِي الدُّنيا فَتُقْضَى حَوَائِجِي وَإِني إِليْهِ فِي القِيَامَةِ أحْوَجُ (٢).

وقول البرعي أيضا:

يا رسول الله يا ذا الفضل يا بهجة في الحشر جاها ومقاما
عد على عبد الرحيم الملتجي: بحمى عزك يا غوث اليتامى
وأقلني عثرتي يا سيدي في اكتساب الذنب في خمسين عاما (٣).

وقال البوصيري(٤) في بردته التي يرددها العامة والخاصة ومن أصحاب الطرق في أورادهم وأناشيدهم:

يا أكرمَ الخلق مالي مَن ألـوذ به : سِوَاكَ عندَ حلول الحادِث العَمِمِ

---

(١) المصدر السابق ص٣٥٣.

(٢) ديوان البرعي ص١٩٠ قصيدة: "متى يستقيم الظل والعود أعوج".

(٣) الجامع في المولد ص٢٤، مجموعة مقالات وفتاوى عن الاحتفال بالمولد النبوي.

(٤) هو محمد بن سعيد البوصيري نسبة إلى بلدته أبو صير بين الفيوم وبني سويف بمصر ولد سنة ٦٠٨هـ، واشتغل بالتصوُّف، وعمل كاتبا، ونافح البوصيري عن الطريقة الشاذلية التي التزم بها، فأنشد أشعارا في الالتزام بآدابها، توفي البوصيري سنة ٦٩٥هـ وله ديوان شعر مطبوع. انظر ترجمته في مقدمة ديوان البوصيري، تحقيق محمد سيد كيلاني ص ٥٤٤.

وَلن يَضِيقَ رَسول الله جاهُكَ بي : إذا الكريمُ تَجلى باسْمِ مُنتَقِمِ
فإن من جُودِكَ الدنيا وضَرَّتها:ومن علومكَ علمَ اللوحِ والقلمِ(١)

وزعم البوصيري في علة تسميتها بالبردة أن الرسول ﷺ سمعها وكان يتمايل مع سماعها فرحا بها ثم أعطاه بردته فسميت بذلك، قال البوصيري: (كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله ﷺ، منها ما كان اقترحه علي الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير، ثم اتفق أن أصابني فالج أبطل نصفي، ففكرت في عمل قصيدتي هذه البردة فعملتها، واستشفعت به إلى الله تعالى في أن يعافيني، وكررت إنشادها، وبكيت ودعوت وتوسلت، ونمت فرأيت النبي ﷺ، فمسح على وجهي بيده المباركة، وألقى علي بردة فانتبهت، ووجدت فيّ نهضة فقمت وخرجت من بيتي، ولم أكن أعلمت بذلك أحد، فلقيني بعض الفقراء فقال لي: أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله ﷺ، فقلت: أيها؟ فقال: التي أنشأتها في مرضك، وذكر أولها وقال: والله لقد سمعتها البارحة، وهي تنشد بين يدي رسول الله ﷺ، فرأيت رسول الله ﷺ يتمايل وأعجبته، وألقى على من أنشدها بردة، فأعطيته إياها، وذكر الفقير ذلك وشاع المنام إلى أن اتصل بالصاحب بهاء الدين ابن حنا، فبعث إلي وأخذها، وحلف أن لا يسمعها إلا قائما حافيا مكشوف الرأس، وكان يحب سماعها هو وأهل بيته.

ثم إنه بعد ذلك أدرك سعد الدين الفارقي رَمَدٌ أشرف منه على العمى، فرأى في المنام قائلا يقول له: اذهب إلى الصاحب، وخذ

---

(١) ديوان البوصيري ص٢٠٠.

البردة، واجعلها على عينيك فتعافى بإذن الله ﷻ، فأتى إلى الصاحب وذكر منامه فقال: ما أعرف عندي من أثر النبي ﷺ بردة، ثم فكر ساعة وقال: لعل المراد قصيدة البردة التي للبوصيري، يا ياقوت افتح الصندوق الذي فيه الآثار، وأخرج القصيدة للبوصيري وآت بها، فأتى بها، فأخذها سعد الدين ووضعها على عينيه فعوفي، ومن ثم سميت البردة) [1].

وقال التواجي المصري داعيا النبي ﷺ:

يَا رَسُول الإلهِ إني ضَعِيفٌ : فَاشْفِنِي أنتَ مَقْصَدٌ للشِّفَاءِ
يَا رَسُول اللهِ إن لَمْ تُغِثني : فَإِلى مَن تَرَى يَكُون التِجَائِي [2].

ويقول النبهاني مستغيثا بالنبي ﷺ :

سيِّدي يا أبَا البتُول أغِثني : أَنتَ أدْرَى بِمَا حَوَاهُ الضَّمِيرُ[3].

- التوسل المشروع هو ما نص عليه الكتاب والسنة.

لا بد في التوسل المشروع أن يكون بدليل صحيح من الكتاب والسنة، وأن يكون التوسل بسبب كوني صحيح يوصل إلى المطلوب، ونحن نعلم أن الله ﷻ أمرنا بدعائه سبحانه والاستغاثة به فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ غافر:٦٠.

---

(١) فوات الوفيات لمحمد بن شاكر بن أحمد الكتبي ٢/٣٤٧.
(٢) شواهد الحق للنبهاني ص٣٥٢.
(٣) السابق ص٣٦٣.

وقد شرع الله لنا أنواعا من التوسلات التي تكفل الله بإجابة الداعي بها، إذا توفرت شروط الدعاء الأخرى، وقد دلت النصوص النقلية أن هناك ثلاثة أنواع للتوسل، شرعها الله تعالى وحث عليها، وَرَدَ بعضها في القرآن، واستعملها الرسول ﷺ وحض عليها، وليس في هذه الأنواع التوسل بالذوات، أو الجاهات، أو الحقوق، أو المقامات، فدل ذلك على عدم مشروعيته، أما الأنواع المشار إليها من التوسل المشروع فهي:

النوع الأول: هو التوسل إلى الله تعالى باسم من أسمائه الحسنى، أو صفة من صفاته العليا: كأن يقول المسلم في دعائه: اللهم إني أسألك بأنك أنت الرحمن الرحيم اللطيف الخبير أن تعافيني، وهذا دعاء المسألة، أو يقول: أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن ترحمني وتغفر لي، ومثله قول القائل: اللهم إني أسألك بحبك لمحمد ﷺ، فإن الحب من صفاته تعالى، ودليل مشروعية هذا التوسل قوله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾الأعراف:١٨٠. والمعنى ادعوا الله تعالى متوسلين إليه بأسمائه الحسنى، ولا شك أن الصفات داخلة في هذا الطلب، لأن أسماءه الحسنى تدل عليها بالتضمن واللزوم.

ومن الأدلة النقلية على هذا التوسل ما ذكره الله تعالى من دعاء سليمان ﵇ حيث قال: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾ النمل:١٩.

وعند أبي داود وابن ماجة وصححه الشيخ الألباني من حديث أنس بن مالك ﷺ أنه كان مع رسول الله ﷺ جالسا ورجل يصلي ثم دعا:

(اللهمَّ إني أَسْأَلكَ بِأَن لكَ الحَمْدَ، لاَ إِلهَ إلاَّ أَنتَ المَنان، بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، يَا ذا الجَلاَل وَالإِكْرَام، يَا حي يَا قَيُّومُ، فَقَال النبي ﷺ: لقَدْ دَعَا الله بِاسْمِهِ العَظِيمِ، الذي إِذا دعي بِهِ أَجَابَ وَإذا سُئِل بِهِ أَعْطَى) [١].

ومن الأدلة أيضا ما رواه النسائي وصححه الشيخ الألباني من حديث عطاء بن السائب عن أبيه ﵁ أنه قال النبي ﷺ في أحد أدعيته الثابتة عنه قبل السلام من صلاته ﷺ: (اللهمَّ بِعلمِكَ الغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلى الخَلق، أحيني مَا عَلمْتَ الحَيَاةَ خَيْرًا لي، وتوفني إذا عَلمْتَ الوَفَاةَ خَيْرًا لي، اللهمَّ وَأَسْأَلكَ خَشْيَتَكَ في الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلكَ كَلمَةَ الحَقِّ في الرِّضَا وَالغَضَبِ، وَأَسْأَلكَ القَصْدَ في الفَقْرِ وَالغِنى، وَأَسْأَلكَ نعيمًا لاَ يَنفَدُ، وَأَسْأَلك قُرَّةَ عَيْن لاَ تَنقَطِعُ، وَأَسْأَلكَ الرِّضَاءَ بَعْدَ القَضَاءِ، وَأَسْأَلكَ بَرْدَ العَيْشِ بَعْدَ المَوْتِ، وَأَسْأَلكَ لذةَ النظَرِ إلى وَجْهكَ وَالشَّوْقَ إلى لقَائِكَ في غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ وَلاَ فِتْنةٍ مُضِلةٍ، اللهمَّ زَيِّنا بِزينةِ الإِيمَان، وَاجْعَلنا هُدَاةً مُهْتَدِين) [٢].

وروى أحمد وصححه الشيخ الألباني من حديث ابن مسعود ﵁ أن النبي ﷺ قال في دعاء الكرب: (مَا أَصَابَ أَحَدا قَطُّ هَمٌّ وَلاَ حَزَنَ فَقَال: اللهُمَّ إني عَبْدُكَ وَابْن عَبْدِكَ وَابْن أَمَتِك، ناصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الوتر، باب الدعاء ٧٩/٢ (١٤٩٥)، وابن ماجة في كتاب الدعاء، باب اسم الله الأعظم ١٢٦٨/٢ (٣٨٥٨)، وأحمد في المسند ٢٤٥/٣ (١٣٥٩٥)، وصححه الألباني، وانظر صحيح ابن ماجة (٣٨٥٨) .

(٢) رواه النسائي في كتاب صفة الصلاة ٣٨٧/١ (١٢٢٨)، وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٢٤٩٧)، وصحيح الجامع (١٣٠١) .

فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْل فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلكَ بِكُل اسْمٍ هُوَ لكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نفْسَكَ، أَوْ أَنزَلتَهُ فِي كِتَابِك، أَوْ عَلمْتَهُ أَحَدا مِن خَلقِك، أَوِ اسْتَأْثرْتَ بِهِ فِي عِلمِ الغَيْبِ عِندَكَ، أَن تَجْعَل القُرْآن رَبِيعَ قَلبِي، وَنورَ صَدْري وَجَلاءَ حُزْني وَذهَابَ همِّي إلاَّ أَذهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنهُ وأَبْدَلهُ مَكَانهُ فَرَجا، فَقِيل: يَا رَسُول اللهِ أَلاَ نتَعَلمُهَا؟ فقَال: بَلى يَنبَغِي لمَن سَمِعَهَا أَن يَتَعَلمَهَا) [1].

وعند الترمذي من حديث أنس بن مالك ﷺ أنه قال: (كَان النبي ﷺ إذا كَرَبه أمْرٌ. وفي رواية أخرى إذا حزبه أمر قال: يَا حيُ يَا قيُّوم برَحْمَتك أستغيث) [2].

هذه الأحاديث وما شابهها تبين مشروعية التوسل إلى الله تعالى باسم من أسمائه أو صفة من صفاته، وأن ذلك مما يحبه الله سبحانه ويرضاه، ولذلك استعمله رسول الله ﷺ.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾ الحشر:٧. فكان من المشروع لنا أن ندعوه سبحانه بما دعاه به رسوله ﷺ، فذلك خير ألف مرة من الدعاء بأدعية ننشئها، وصيغ نخترعها.

النوع الثاني: التوسل إلى الله تعالى بعمل صالح قام به الداعي، كأن

---

(١) رواه أحمد في المسند ١/٣٩١ (٣٧١٢)، وصححه الألباني، انظر صحيح الترغيب والترهيب (١٨٢٢)، والسلسلة الصحيحة ١/٣٨٣.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الدعوات ٥/٥٣٩ (٣٥٢٤)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٣١٨٢)، وصحيح الجامع (٤٧٧٧).

يقول المسلم: اللهم بإيماني بك، ومحبتي لك، واتباعي لرسولك اغفر لي، أو يقول: اللهم إني أسألك بحبي لمحمد ﷺ، وإيماني به أن تفرج عني، ومنه أن يذكر الداعي عملا صالحا ذا بال فيه خوفه من الله سبحانه، وتقواه إياه، وإيثاره رضاه على كل شيء، وطاعته له جل شأنه، ثم يتوسل به إلى ربه في دعائه، ليكون أرجى لقبوله وإجابته، وهذا توسل جيد وجميل قد شرعه الله تعالى وارتضاه.

ويدل على مشروعيته قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ آل عمران:١٩٣.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾ آل عمران:١٦ . وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ آل عمران:٥٣.

وكذلك يدل على مشروعية هذا النوع من التوسل ما تضمنته قصة أصحاب الغار كما يرويها البخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: (انطَلَقَ ثلاَثَةُ رَهْطٍ مِمَّن كَان قَبْلَكُمْ، حَتَّى أَوَوُا المَبِيتَ إلى غَارٍ فَدَخَلوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِن الجَبَلِ، فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الغَارَ، فَقَالوا: إِنهُ لاَ يُنجِيكُمْ مِن هَذهِ الصَّخْرَةِ إِلاَّ أَن تَدْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ ..الحديث) [1] .

ويتضح من هذا الحديث أن هؤلاء الرجال المؤمنين الثلاثة حينما

---

(١) البخاري في الإجارة، باب من استأجر أجيرا ٢/٧٩٣ (٢١٥٢).

اشتد بهم الكرب، وضاق بهم الأمر، ويئسوا من أن يأتيهم الفرج من كل طريق إلا طريق الله تبارك وتعالى وحده، فلجئوا إليه، ودعوه بإخلاص، واستذكروا أعمالا لهم صالحة كانوا تعرفوا فيها إلى الله في أوقات الرخاء، راجين أن يتعرف إليهم ربهم مقابلها في أوقات الشدة، فتوسلوا إليه سبحانه بتلك الأعمال، فتوسل الأول ببره والديه، وعطفه عليهما، ورأفته الشديدة بهما حتى كان منه ذلك الموقف الفريد.

وتوسل الثاني بعفته من الزنا بابنة عمه التي أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء بعدما قدر عليها، واستسلمت له مكروهة بسبب الجوع والحاجة، ولكنها ذكرته بالله ﷻ فتذكر قلبه وخشعت جوارحه، وتركها والمال الذي أعطاها.

وتوسل الثالث بمحافظته على حق أجيره الذي ترك أجرته وذهب، فنماها له صاحب العمل، وثمرها حتى كانت منها الشاه والبقر والإبل والرقيق، فلما احتاج الأجير إلى المال ذكر أجرته الزهيدة عند صاحبه، فجاءه وطالبه بحقه، فأعطاه تلك الأموال كلها، فدهش وظنه يستهزئ به، ولكنه لما تيقن منه الجد، وعرف أنه ثمّر له أجره حتى تجمعت منه تلك الأموال استساقها فرحا مذهولا ولم يترك منها شيئا.

دعا هؤلاء الثلاثة ربهم سبحانه متوسلين إليه بهذه الأعمال الصالحة معلنين أنهم إنما فعلوها ابتغاء رضوان الله تعالى وحده، لم يريدوا بها دنيا قريبة، أو مصلحة عاجلة أو مالا، ورجوا الله ﷻ أن يفرج عنهم ضائقتهم، ويخلصهم من محنتهم، فاستجاب سبحانه دعاءهم، وكشف كربهم، وكان عند حسن ظنهم به، فخرق لهم العادات، وأكرمهم

بتلك الكرامات، فأزاح الصخرة بالتدرج على مراحل ثلاث، كلما دعا واحد منهم تنفرج بعض الانفراج حتى انفرجت تماما مع آخر دعوة للثالث بعد أن كانوا في موت محقق.

النوع الثالث: التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح كأن يكون المسلم في ضيق شديد، أو تحل به مصيبة كبيرة، ويعلم من نفسه التفريط في جنب الله تبارك وتعالى، فيجب أن يأخذ بسبب قوي إلى الله، فيذهب إلى رجل يعتقد فيه الصلاح والتقوى، أو الفضل والعلم بالكتاب والسنة، فيطلب منه أن يدعوا له ربه، ليفرج عنه كربه، ويزيل عنه همه، فهذا نوع آخر من التوسل المشروع الذي دلت عليه السنة المطهرة وأرشدت إليه.

وقد وقعت نماذج منه من فعل الصحابة ﵃، فمن ذلك ما رواه البخاري من حديث أنس ﵁ أَن رَجُلاً دَخَلَ المَسْجِدَ يَوْمَ جُمُعَةٍ وَرَسُول اللهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَ رَسُول اللهِ ﷺ قَائِمًا ثُمَّ قَال: يَا رَسُول اللهِ هَلَكَتِ الأَمْوَال وَانقَطَعَتِ السُّبُل، فَادْعُ اللهَ يُغِيثنا فَرَفَعَ رَسُول اللهِ ﷺ يَدَيْهِ ثُمَّ قَال: اللهُمَّ أَغِثنا، اللهُمَّ أَغِثنا، اللهُمَّ أَغِثنا [(١)].

وروى أيضا عن أنس ﵁ أَن عُمَرَ بْن الخَطَّابِ كَان إِذا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بِالعَبَّاسِ بْن عَبْدِ المُطَّلبِ فَقَال: اللهُمَّ إِنا كُنا نَتَوَسَّل إِلَيْكَ بِنبِيِّنا فَتَسْقِينا، وَإِنا نَتَوَسَّل إِلَيْكَ بِعَمِّ نبِيِّنا فَاسْقِنا، قَال: فَيُسْقَوْن [(٢)].

---

(١) البخاري في كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء في خطبة الجمعة ١/٣٤٤ (٩٦٨)، ومسلم في صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء ٢/٦١٢ (٨٩٧).

(٢) البخاري في فضائل الصحابة، باب ذكر العباس ﵁ ٣/١٣٦٠ (٣٥٠٧).

ومعنى قول عمر ﷺ إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا، أننا كنا نقصد نبينا ﷺ ونطلب منه أن يدعو لنا ونتقرب إلى الله بدعائه، والآن وقد انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، ولم يعد من الممكن أن يدعو لنا، فإننا نتوجه إلى عم نبينا العباس، ونطلب منه أن يدعو لنا.

وليس معناه أنهم كانوا يقولون في دعائهم: اللهم بجاه نبيك اسقنا، ثم أصبحوا يقولون بعد وفاته ﷺ: اللهم بجاه العباس اسقنا، لأن مثل هذا دعاء مبتدع، ليس له أصل في الكتاب ولا في السنة، ولم يفعله أحد من السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم [(١)] .

ومن ذلك أيضا ما رواه الحافظ ابن عساكر بسند صحيح عن سليم ابن عامر الخَبَائري أن السماء قحطت، فخرج معاوية بن أبي سفيان وأهل دمشق يستسقون، فلما قعد معاوية على المنبر، قال: أين يزيد بن الأسود الجُرَشي؟ فناداه الناس، فأقبل يتخطى الناس، فأمره معاوية فصعد على المنبر، فقعد عند رجليه، فقال معاوية: اللهم إنا نستشفع إليك اليوم بخيرنا وأفضلنا، اللهم إنا نستشفع إليك اليوم بيزيد بن الأسود الجرشي، يا يزيد ارفع يديك إلى الله، فرفع يديه، ورفع الناس أيديهم، فما كان أوشك أن ثارت سحابة في الغرب كأنها ترس، وهبت لها ريح، فسقتنا حتى كاد الناس أن لا يبلغوا منازلهم [(٢)] .

---

(١) التوسل أنواعه وأحكامه للشيخ الألباني ص٤٠ بتصرف.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ١١٢/٦٥، وانظر صفة الصفوة لابن الجوزي ٢٠٢/٤، وصحح إسناده الألباني، انظر التوسل ص٤١ بتصرف.

وروى ابن عساكر أيضا بسند صحيح أن الضحاك بن قيس خرج يستسقي بالناس، فقال ليزيد بن الأسود أيضا: قم يا بكاء! زاد في رواية: فما دعا إلا ثلاثا حتى أمطروا مطرا كادوا يغرقون منه.

هذا معاوية بن أبي سفيان ﷺ لم يتوسل أيضا بالنبي ﷺ، وإنما يتوسل بهذا الرجل الصالح يزيد ين الأسود رحمه الله تعالى، فيطلب منه أن يدعو الله تعالى ليسقيهم ويغيثهم، الله تبارك وتعالى استجاب طلبه، وحدث مثل هذا في ولاية الضحاك بن قيس أيضا (١) .

- التوسل الممنوع يتردد بين الشرك الأكبر والأصغر.

اعتاد عامة المسلمين منذ قرون طويلة أن يقولوا في دعائهم: اللهم بحق نبيك، أو بجاهه، أو بقدْره عندك، عافني واعف عني، واللهم إني أسألك بحق البيت الحرام، أن تغفر لي، واللهم بجاه الأولياء والصالحين، أو بجاه فلان وفلان، أو اللهم بكرامة رجال الله عندك، وبجاه من نحن في حضرته، وتحت مدده فرج الهم عنا وعن المهمومين، واللهم إنا قد بسطنا إليك أكف الضراعة متوسلين إليك بصاحب الوسيلة والشفاعة أن تنصر الإسلام والمسلمين، ويسمون هذا توسلا، ويدَّعون أنه سائغ ومشروع، وأنه قد ورد فيه بعض الآيات والأحاديث التي تقره وتشرعه، بل تأمر به وتحض عليه (٢) .

وبعضهم غلا في إباحة هذا حتى أجاز التوسل إلى الله تعالى ببعض مخلوقاته التي لم تبلغ من المكانة ما يؤهلها لرفعة الشأن كقبور الأولياء،

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٥/٣٦٦ (٦٩٧٥)، وانظر التوسل ص٤١.

(٢) التوسل أنواعه ص٦ بتصرف.

والحديد المبني على أضرحتهم، والتراب والحجارة، والشجر القريبة منها، زاعمين أن ما جاور العظيم فهو عظيم، وأن إكرام الله لساكن القبر يتعدى إلى القبر نفسه حتى يصبح وسيلة إلى الله، بل قد أجاز بعض المتأخرين الاستغاثة بغير الله ووقعوا في الشرك.

وحقيقة التوسل هو التقرب إلى المطلوب، والتوصل إليه برغبة، قال ابن الأثير: الواسل الراغب، والوسيلة القربة والواسطة، وما يتوصل به إلى الشيء ويتقرب به، وجمعها وسائل[1] .

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ المائدة:٣٥.

وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة سبيله بالعمل والعبادة، وتحري مكارم الشريعة، وهي كالقربة، ولما كانت الوسيلة لغة هي السبب الموصل إلى المطلوب برغبة، فإنها تنقسم إلى وسيلة كونية، ووسيلة شرعية، فأما الوسيلة الكونية فهي كل سبب طبيعي يوصل إلى المقصود على مقتضى ترابط الأسباب التي خلقها الله بها، ويؤدي إلى المطلوب بفطرته التي فطره الله عليها، وهي مشتركة بين المؤمن والكافر من غير تفريق، ومن أمثلتها الماء، فهو وسيلة إلى ارتواء الإنسان، والطعام وسيلة إلى إشباعه، واللباس وسيلة إلى حمايته من الحر والقر، والسيارة وسيلة إلى انتقاله من مكان إلى مكان، وهكذا.

وأما الوسيلة الشرعية فهي كل سبب يوصل إلى المقصود عن طريق

---

(١) لسان العرب ١١/٧٢٤، وتاج العروس للزبيدي ٣١/٧٥ بتصرف.

ما شرعه الله تعالى، وبينه في كتابه وسنة نبيه ﷺ، وهي خاصة بالمؤمن المتبع أمر الله ورسوله ﷺ، ومن أمثلتها النطق بالشهادتين بإخلاص وفهم، وذلك وسيلة إلى دخول الجنة والنجاة من الخلود في النار، وإتباع السيئة الحسنة وسيلة إلى محو السيئة، وقول الدعاء المأثور بعد الأذان وسيلة إلى نيل شفاعة النبي ﷺ، وصلة الأرحام وسيلة شرعية لطول العمر وسعة الرزق وهكذا، فهذه الأمور وأمثالها إنما عرفنا أنها وسائل تحقق تلك الغايات والمقاصد عن طريق الشرع وحده، لا عن طريق أسباب العلم المادي أو التجربة أو الحواس، فنحن لم نعلم أن صلة الرحم تطيل العمر وتوسع الرزق إلا من الحديث الذي ورد في الصحيحين عن النبي ﷺ أَنه قال: (من سره أَن يبسطَ له في رزْقه، وينسأ له في أَثره، فليصل رحمه)(١).

وهكذا الأمثلة الأخرى، ويخطئ الكثيرون في فهم هذه الوسائل بنوعيها خطأ كبيرا، ويَهِمون وهما شنيعا، فقد يظنون سببا كونيا ما يوصل إلى غاية معينة، ويكون الأمر بخلاف ما يظنون، وقد يعتقدون سببا شرعيا ما يؤدي إلى مقصد شرعي معين، ويكون الحق بخلاف ما يعتقدون، فمن أمثلة الوسائل الباطلة شرعا وكونا في آن واحد، ما يفعله بعض الناس حينما يضعون أمامهم مناضد صغيرة، وعليها حيوان صغير يشبه الفأر الكبير، وقد وضع بجانبه بطاقات كتبت فيها عبارات وتوقعات لحظوظ الناس، كتبها صاحب الحيوان، أو أملاها عليه بعض

(١) البخاري في كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق ٢/٧٢٨ (١٩٦١)، ومسلم في كتاب البر والصلة والأدب، باب صلة الرحم ٤/١٩٨٢ (٢٥٥٧).

الناس كما شاء لهم جهلهم وهواهم، فيمر الصديقان الحميمان فيقول أحدهم للأخر: تعال لنرى حظنا ونصيبنا، فيدفعان للرجل بضعة قروش، فيدفع الحيوان لسحب بطاقة ما، ويعطيها أحدهما فيقرؤها، ويطالع حظه المزعوم فيها.

وهذه وسيلة باطلة اتخذ الإنسان فيها حيوانا كدليل يعلمه ما جهله، ويطلعه على ما غُيّب عنه من قدره، فإن كان يعتقد فعلا أن هذا الحيوان يعلم الغيب فلا شك أن الحيوان خير منه، وإن كان لا يعتقد ذلك ففعله هذا عبث وسخف، وإضاعة وقت ومال يتنزه عنه العقلاء، كما أن تعاطي هذا العمل تدجيل وتضليل وأكل لأموال الناس بالباطل، ولا شك أن لجوء الناس إلى هذا الحيوان لمعرفة الغيب وسيلة باطلة تدحضها التجربة، ويهدمها النظر السليم، فهي وسيلة خرافية أدى إليها الجهل والدجل، وهي من الناحية الشرعية باطلة أيضا تخالف الكتاب والسنة والإجماع، ويكفي في ذلك مخالفتها لقوله سبحانه وتعالى في الثناء على نفسه: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧ ﴾ الجن:٢٦/٢٧.

ومن الأسباب الكونية الموهومة ظن بعضهم أنه إذا سافر أو تزوج مثلا يوم الأربعاء أخفق في سفره وخاب في زواجه، واعتقادهم أنه من شرع في عمل هام فرأى قدرا شخصا أعمى أو ذا عاهة لم يتم عمله ولم ينجح فيه، ومن هذه الأسباب أيضا ظن كثير من العرب والمسلمين اليوم أنهم بعددهم الكبير فقط ينتصرون على أعدائهم، وقد أثبتت التجارب خطأ هذه الظنون وبطلانها، وأن الأمر أعمق من أن يعالج

بهذه الطريقة السطحية.

ومن الأسباب التي يزعمون أنها شرعية اتخاذ بعض الناس أسبابا يظنون أنها تقربهم إلى الله سبحانه، وهي تبعدهم منه في الحقيقة، وتجلب لهم السخط والغضب واللعنة والعذاب، فمن ذلك استغاثة بعضهم بالموتى المقبورين من الأولياء والصالحين ليقضوا لهم حوائجهم التي لا يستطيع قضاءها إلا الله سبحانه وتعالى، كطلبهم منهم دفع الضر وشفاء السقم، وجلب الرزق وإزالة العقم، والنصر على العدو وأمثال ذلك، فيتمسحون بحديد الأضرحة وحجارة القبور، ويهزونها أو يلقون إليها أوراقا كتبوا فيها طلباتهم ورغاباتهم، فهذه وسائل يزعمون أنها شرعية ولكنها في الحقيقة باطلة، ومخالفة لأساس الإسلام الأكبر الذي هو العبودية لله تعالى وحده، وإفراده سبحانه بجميع أنواعها وفروعها، ومن ذلك اعتقاد بعضهم الصدق في خبر يتحدث به إنسان ما إذا عطس هو أو أحد الحاضرين عند تحدثه بذلك[1].

والتوسل بالمخلوق إلى الله إما توسل بجسم هذا المخلوق وشحمه ولحمه، وهذا لا يقول به عاقل فضلا عن مسلم، وإما توسل بعمله وهذا غير مشروع وغير معقول، لأن عمل الصالح ينفعه وحدَه ولا يفيد غيرَه كما قال تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ النجم:٣٩.

وإما توسل بدعائه وهو حي، أما بعد موته فممتنع حتى لو كان الميتُ رسول الله ﷺ، وقدوتُنا في ذلك الخلفاء الراشدون وجميع

(١) التوسل أنواعه وأحكامه للشيخ الألباني ص١٨ بتصرف.

الصحابة ﷺ الذين عدلوا عن التوسل بالنبي ﷺ إلى غيره [(١)].

ومع ذلك فهذا النوع من الدعاء أي الطلب من الله متوسلا إليه بذوات الصالحين وجاههم وإن كان مبتدعا ومحرما، فهو أخف ضررا من الطلب من الميت أو الغائب، لأن هذا النوع الأخير إنما هو دعاء للمخلوق لا لله، وهو شرك أكبر حتى لو كان قصد الطالب من الميت رضا الله ليشفع له إلى الله ويقربه إليه، إذ هذا معتقد المشركين القدماء أنهم ما عبدوهم إلا ليقربوهم إلى الله زلفى، أي ما دعوهم وما ذبحوا لهم وما قربوا لهم صنوف العبادات التي أفضلها الدعاء إلا ليقربوهم إلى الله زلفى ويشفعوا لهم إليه، وأفضل عبادتهم دعاؤهم، كقول الضالين من هذه الأمة: يا شيخ فلان أغثني، يا رسول الله غوثا ومددا، يا رسول الله انصرنا، فهذا من الشرك الأكبر، إذ النصر من عند الله لا من عند رسوله ﷺ، وإذا لم ينزل الله نصره فإن المسلمين يُهزمون حتى لو كان رسول الله ﷺ قائدهم كما حدث في غزوة أحد.

ومن ذلك قولهم: يا نبي الله سقتك على ربك، يا بدوي، أو يا مرسي، سقتك على جدك، وسقت جدك على ربك، يا آل بيت النبي، يا آل طه عليكم حملتي، يا رجال الله نحن في حسبكم نحن في جيرتكم، راعونا يا أسيادي. ومثله قول النصارى: يا أمنا الحنون، يا أمنا العذراء يا عيسى.. كل ذلك مما يستتاب فاعله ومعتقده فإن تاب وإلا قتل.

وكثيرا ما يخلط الناس في هذه الأمور، فيظنون أنه بمجرد ثبوت النفع بوسيلة ما تكون هذه الوسيلة جائزة ومشروعة، فقد يحدث أن يدعو

(١) انظر السابق ص٦٦ بتصرف.

أحدهم وليا، أو يستغيث بميت فيتحقق طلبه، وينال رغبته، فيدعي أن هذا دليل على قدرة الموتى والأولياء على إغاثة الناس، وعلى جواز دعائهم والاستغاثة بهم، وما حجته في ذلك غير حصوله على مطلبه، وقد أكثر الصوفية في كتبهم أشياء كثيرة من هذا القبيل، إذ يقول مسطرها، أو ينقل عن بعضهم قوله مثلا: إنه وقع في شدة، واستغاث بالولي الفلاني، أو الصالح العلاني، وناداه باسمه، فحضر حالا، أو جاءه في النوم فأغاثه، وحقق له ما أراد، وما درى هذا المسكين وأمثاله أن هذا إن صح وقوعه استدراج من الله ﷻ للمشركين والمبتدعين، وفتنة منه سبحانه لهم، ومكر منه بهم، جزاءا وفاقا على إعراضهم عن الكتاب والسنة، واتباعهم لأهوائهم وشياطينهم، فهذا الذي يزعم أن دعاء الولي نفعه مجرب، ويجيز الاستغاثة بغير الله تعالى، يقع في الشرك الأكبر بعينه، بسبب حادثة وقعت له أو لغيره، ويمكن أن تكون هذه الحادثة مختلقة من أصلها، أو محرفة ومضخمة لإضلال بني آدم، كما يمكن أن تكون صحيحة، وراويها صادقا فيما أخبر، ولكنه أخطأ في حكمه على من أنقذه وأغاثه، فظنه وليا صالحا، وإنما هو شيطان رجيم، فعل ذلك عن قصد خبيث، وهو تلبيس الأمور على الناس، وإيقاعهم في حبائل الكفر والضلال من حيث يشعرون، أو لا يشعرون.

وقد تضافرت الأخبار على أن المشركين في الجاهلية كانوا يأتون إلى الصنم، وينادونه فيسمعون صوتا، فيظنون أن الذي يكلمهم ويجيبهم إنما هو معبودهم الذي قصدوه من دون الله، وليس هو في الحقيقة والواقع غير شيطان لعين يريد إضلالهم، وإغراقهم في العقائد الباطلة.

والمقصود من ذلك أن التجارب والأخبار ليست الوسيلة الصحيحة لمعرفة مشروعية الأعمال الدينية، بل الوسيلة الوحيدة المقبولة لذلك هي الاحتكام للشرع المتمثل في الكتاب والسنة وليس غير[1].

- شبهات يوردها المخالفون في تبرير التوسل الباطل والجواب عليها.

يحتج المخالفون من الصوفية والمبتدعة ببعض الروايات التي لم تثبت لتبرير التوسل الباطل، وإيهام العامة بصحتها، أو بفهمهم الخاطئ للروايات الثابتة تلبيسا على الناس، ومن تلك الشبهات حديث استسقاء عمر بالعباس رضي الله عنه فيحتجون على جواز التوسل بجاه الأشخاص وحرمتهم وحقهم بحديث أنس أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قَحَطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا، فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون[2].

إذ يفهمون من هذا الحديث أن توسل عمر رضي الله عنه إنما كان بجاه العباس رضي الله عنه ومكانته عند الله سبحانه، وقد أقره الصحابة على ذلك، فأفاد بزعمهم ما يدعون. وأما سبب عدول عمر رضي الله عنه عن التوسل بجاه الرسول صلى الله عليه وسلم بزعمهم وتوسله بدلا منه بالعباس رضي الله عنه، فإنما كان لبيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل ليس غير.

وفهمهم هذا فهم باطل، وتفسيرهم هذا مردود من وجوه كثيرة أبرزها أنه من المقرر في القواعد الشريعة أن النصوص يفسر بعضها بعضا، ولا يفهم شيء منها في موضوع ما بمعزل عن بقية النصوص

---

(١) السابق ص٢٢ بتصرف.

(٢) البخاري في فضائل الصحابة، باب ذكر العباس رضي الله عنه ٣/١٣٦٠ (٣٥٠٧).

الواردة فيه، وبناء على ذلك فحديث توسل عمر ﷺ إنما يفهم على ضوء ما ثبت من الروايات والأحاديث الواردة في التوسل بعد جمعها وتحقيقها.

وقول عمر ﷺ كنا نتوسل إليك بنبينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فيه تقدير محذوف لا بد من بيانه، وهذا التقدير إما أن يكون: كنا نتوسل بجاه نبينا، وإنا نتوسل إليك بجاه عم نبينا على رأيهم هم، أو يكون كنا نتوسل إليك بدعاء نبينا، وإنا نتوسل إليك بدعاء عم نبينا على رأي السلف، ولا بد من الأخذ بواحد من هذين التقديرين ليفهم الكلام بوضوح وجلاء.

ولكي نتعرف أي التقديرين صواب لا بد من اللجوء إلى السنة لكي يتبين لنا طريقة توسل الصحابة الكرام بالنبي ﷺ، فهل يا ترى أنهم كانوا إذا أجدبوا وقحَطوا قبع كل منهم في دراه، أو مكان آخر، أو اجتمعوا دون أن يكون معهم رسول الله ﷺ ثم دعوا ربهم قائلين: اللهم بنبيك محمد ﷺ، وحرمته عندك، ومكانته لديك اسقنا الغيث مثلا؟ أم كانوا يأتون النبي ﷺ ذاته فعلا، ويطلبون منه أن يدعو الله تعالى لهم، فيحقق ﷺ طلبتهم، ويدعو ربه سبحانه، ويتضرع إليه حتى يسقوا؟ [(١)].

أما الأمر الأول فلا وجود له إطلاقا في السنة النبوية الشريفة وفي عمل الصحابة ﷺ، ولا يستطيع أحد من الصوفية أن يأتي بدليل يثبت أن طريقة توسلهم كانت بأن يذكروا في أدعيتهم اسم النبي ﷺ، ويطلبوا من الله بحقه وقدره عنده ما يريدون، بل الذي نجده بكثرة في كتب

(١) التوسل أنواعه وأحكامه للشيخ الألباني ص٥٣ بتصرف.

السنة هو الأمر الثاني، إذ تبين أن طريقة توسل الصحابة بالنبي ﷺ إنما كانت إذا رغبوا في قضاء حاجة، أو كشف نازلة أن يذهبوا إليه ﷺ، ويطلبوا منه مباشرة أن يدعو لهم ربه، أي أنهم كانوا يتوسلون إلى الله تعالى بدعاء الرسول الكريم ﷺ ليس غير، ويرشد إلى ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ النساء: ٦٤[1].

ومن أمثلة ذلك مجيء الأعرابي إلى المسجد يوم الجمعة حيث كان رسول الله ﷺ يخطب فعرض له ضنك حالهم، وجدب أرضهم، وهلاك ماشيتهم، وطلبه منه أن يدعو الله سبحانه لينقذهم مما هم فيه، فاستجاب له النبي ﷺ، فدعا لهم ربه، واستجاب سبحانه دعاء نبيه، ورحم عباده ونشر رحمته[2]. ثم مجيء الأعرابي السابق نفسه أو غيره إلى النبي ﷺ وهو يخطب الجمعة الثانية، وشكواه له انقطاع الطرقات وتهدم البنيان، وهلاك المواشي، وطلبه منه أن يدعو لهم ربه ليمسك عنهم الأمطار، وفعل النبي ﷺ فاستجاب له ربه أيضا [3].

هذه الأحاديث وأمثالها مما وقع في زمن النبي ﷺ وزمن أصحابه ﷺ تُبين بما لا يقبل الجدل أن التوسل بالنبي ﷺ أو بالصالحين الذي كان عليه السلف الصالح هو مجيء المتوسل إلى المتوسل به، وعرضه حاله له،

---

(١) السابق ص٥٣ بتصرف.

(٢) رواه البخاري في كتاب الاستسقاء، باب الاستسقاء ١/٣٤٤ (٩٦٨)، ومسلم في كتاب صلاة الاستسقاء، باب الدعاء في الاستسقاء ٢/٦١٢ (٨٩٧).

(٣) التوسل أنواعه وأحكامه للشيخ الألباني ص٥٤ بتصرف.

وطلبه منه أن يدعو له الله سبحانه ليحقق طلبه فيستجيب.

وهذا معنى الوسيلة وهو المعهود في حياة الناس واستعمالهم، فإنه إذا كانت لإنسان حاجة ما عند مدير مثلا ، أو رئيس أو موظف، فإنه يبحث عمن يعرفه ثم يذهب إليه ويكلمه، ويعرض له حاجته فيفعل، وينقل هذا الوسيط رغبته إلى الشخص المسئول، فيقضيها له غالبا، فهذا هو التوسل المعروف عند العرب منذ القديم وما يزال، فإذا قال أحدهم: إني توسلت إلى فلان، فإنما يعني أنه ذهب إلى الثاني وكلمه في حاجته ليحدث بها الأول، ويطلب منه قضاءها، ولا يفهم أحد من ذلك أنه ذهب إلى الأول وقال له: بحق فلان الوسيط عندك، ومنزلته لديك اقض لي حاجتي وهكذا، فالتوسل إلى الله ﷻ بالرجل الصالح ليس معناه التوسل بذاته وبجاهه وبحقه، بل هو التوسل بدعائه وتضرعه واستغاثته به سبحانه وتعالى، وهذا هو بالتالي معنى قول عمر ﵁: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا. أي كنا إذ قل المطر مثلا نذهب إلى النبي ﷺ ونطلب منه أن يدعو لنا الله جل شأنه.

ويؤكد هذا ويوضحه تماما قول عمر ﵁: وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، أي إننا بعد وفاة نبينا جئنا بالعباس عم النبي ﷺ، وطلبنا منه أن يدعو لنا ربنا سبحانه ليغيثنا، تُرى لماذا عدل عمر ﵁ عن التوسل بالنبي ﷺ إلى التوسل بالعباس ﵁ مع العلم أن العباس مهما كان شأنه ومقامه فإنه لا يذكر أمام شأن النبي ﷺ ومقامه؟ (١).

والجواب أن التوسل بالنبي ﷺ غير ممكن بعد وفاته، فأنى لهم أن

---

(١) السابق ص٥٦ بتصرف.

يذهبوا إليه ﷺ ويشرحوا له حالهم، ويطلبوا منه أن يدعو لهم، ويؤمنوا على دعائه، وهو قد انتقل إلى الرفيق الأعلى، وأضحى في حال يختلف عن حال الدنيا، وظروفها مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، فأنى لهم أن يحظوا بدعائه ﷺ وشفاعته فيهم.

ولذلك لجأ عمر رضي الله عنه، وهو العربي الأصيل الذي صحب النبي ﷺ ولازمه في أكثر أحواله، وعرفه حق المعرفة، وفهم دينه حق الفهم، ووافقه القرآن في مواضع عدة، لجأ إلى توسل ممكن، فاختار العباس رضي الله عنه، لقرابته من النبي ﷺ من ناحية، ولصلاحه ودينه وتقواه من ناحية أخرى، وطلب منه أن يدعو لهم بالغيث والسقيا، وما كان لعمر رضي الله عنه ولا لغير عمر أن يدع التوسل بالنبي ﷺ، ويلجأ إلى التوسل بالعباس أو غيره لو كان التوسل بالنبي ﷺ ممكنا أو مشروعا بعد موته، وما كان من المعقول أن يقره الصحابة رضي الله عنهم على ذلك أبدا، لأن الانصراف عن التوسل بالنبي ﷺ إلى التوسل بغيره ما هو إلا كالانصراف عن الاقتداء بالنبي ﷺ في الصلاة إلى الاقتداء بغيره سواء بسواء، ذلك أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعرفون قدر نبيهم ﷺ ومكانته وفضله معرفة لا يدانيهم فيها أحد[1].

ومن الثابت والمعلوم أن الحياة البرزخية غيب من الغيوب، ولا يدري كنهها إلا الله سبحانه وتعالى وأنها تختلف عن الحياة الدنيوية، ولا تخضع لقوانينها، فالإنسان في الدنيا يأكل ويشرب، ويتنفس ويتزوج، ويتحرك ويتبرز، ويمرض ويتكلم، ولا أحد يستطيع أن يثبت أن أحدا بعد الموت حتى الأنبياء عليهم السلام، وفي مقدمتهم نبينا

(١) السابق ص٥٧ بتصرف.

محمد ﷺ تعرض له هذه الأمور بعد موته، ومما يؤكد هذا أن الصحابة ﷺ كانوا يختلفون في مسائل كثيرة بعد وفاته ﷺ، ولم يخطر في بال أحد منهم الذهاب إليه ﷺ في قبره، ومشاورته في ذلك، وسؤاله عن الصواب فيها، لأنهم كلهم يعلمون أنه ﷺ انقطع عن الحياة الدنيا، ولم تعد تنطبق عليه أحوالها ونواميسها، فرسول الله ﷺ بعد موته حي أكمل حياة يحياها إنسان في البرزخ، ولكنها حياة لا تشبه حياة الدنيا، ولذلك فلا يجوز قياس الحياة البرزخية، أو الحياة الأخروية على الحياة الدنيوية، كما لا يجوز أن تعطى واحدة منهما أحكام الأخرى، بل لكل منها شكل خاص وحكم معين، ولا تتشابه إلا في الاسم، أما الحقيقة فلا يعلم كيفيتها إلا الله تبارك وتعالى[1].

- حديث الضرير ليس فيه حجة للتوسل إلى الله بالذات النبوية.

حديث الضرير حديث أخرجه أحمد وغيره بسند صحيح عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضرير البصر أتى النبي ﷺ، فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: إن شئت دعوت لك، وإن شئت أخّرتُ ذاك، فهو خير، وفي رواية: وإن شئتَ صبرتَ فهو خير لك، فقال: ادعهُ، فأمره أن يتوضأ، فيحسن وضوءه، فيصلي ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك، وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهتُ بك إلى ربي في حاجتي هذه، فتقضى لي، اللهم فشفّعه فيَّ وشفّعني فيه. قال: ففعل الرجل فبرأ [2].

---

(١) السابق ص٦٠ بتصرف .

(٢) الترمذي في الدعوات ٥/٥٦٩ (٣٥٧٨)، ومشكاة المصابيح (٢٤٩٥).

يرى المخالفون من الصوفية أن هذا الحديث يدل على جواز التوسل في الدعاء بجاه النبي ﷺ أو غيره من الصالحين، إذ فيه أن النبي ﷺ علم الأعمى أن يتوسل به في دعائه، وقد فعل الأعمى ذلك فعاد بصيرا [1].

وهذا الحديث لا حجة لهم فيه على التوسل بالذات النبوية، بل هو دليل آخر على النوع الثالث من أنواع التوسل المشروع، لأن توسل الأعمى إنما كان بدعائه ﷺ، لأن الأعمى إنما جاء إلى النبي ﷺ ليدعو له، وذلك قوله: أدعُ الله أن يعافيني، فهو توسل إلى الله تعالى بدعائه ﷺ، لأنه يعلم أن دعاءه ﷺ أرجى للقبول عند الله بخلاف دعاء غيره، ولو كان قصد الأعمى التوسل بذات النبي ﷺ أو جاهه أو حقه لما كان ثمة حاجة به إلى أن يأتي النبي ﷺ ويطلب منه الدعاء له، بل كان يقعد في بيته، ويدعو ربه بأن يقول مثلا: اللهم إني أسألك بجاه نبيك ومنزلته عندك أن تشفيني وتجعلني بصيرا، ولكنه لم يفعل، لأنه عربي يفهم معنى التوسل في لغة العرب حق الفهم، ويعرف أنه ليس كلمة يقولها صاحب الحاجة يذكر فيها اسم المتوسَّل به، بل لا بد أن يشتمل على المجيء إلى من يعتقد فيه الصلاح والعلم بالكتاب والسنة، وطلب الدعاء منه له، كما أن النبي ﷺ وعده بالدعاء مع نصحه له ببيان ما هو الأفضل له، وهو قوله ﷺ: إن شئت دعوتُ، وإن شئت صبرت فهو خير لك، وقد ظهر إصرار الأعمى على الدعاء في قوله: فادع، فهذا يقتضي أن الرسول ﷺ دعا له، لأنه ﷺ خير من وفى بما وعد.

وقد وجه النبي ﷺ الأعمى بدافع من رحمته، وبحرص منه أن

(١) التوسل أنواعه وأحكامه للشيخ الألباني ص٧١ بتصرف.

يستجيب الله تعالى دعاءه فيه، وجهه إلى النوع الثاني من التوسل المشروع، وهو التوسل بالعمل الصالح، ليجمع له الخير من أطرافه، فأمره أن يتوضأ ويصلي ركعتين ثم يدعو لنفسه وهذه الأعمال طاعة لله سبحانه وتعالى يقدمها بين يدي دعاء النبي ﷺ له، وهكذا فلم يكتف الرسول ﷺ بدعائه للأعمى الذي وعده به، بل شغله بأعمال فيها طاعة لله سبحانه وتعالى وقربة إليه، ليكون الأمر مكتملا من جميع نواحيه، وأقرب إلى القبول والرضا من الله سبحانه وتعالى، وعلى هذا فالحادثة كلها تدور حول الدعاء كما هو ظاهر، وليس فيها ذكر شيء من التوسل بالذات والجاه كما يزعمون.

كما أن الدعاء الذي علمه رسول الله ﷺ إياه أن يقول: اللهم فشفعه في، وهذا يستحيل حمله على التوسل بذاته ﷺ، أو جاهه، أو حقه، إذ أن المعنى: اللهم اقبل شفاعته ﷺ في، أي اقبل دعائه في أن ترد عليَّ بصري، والشفاعة لغة الدعاء، وهو المراد بالشفاعة الثابتة له ﷺ ولغيره من الأنبياء والصالحين يوم القيامة، وهذا يبين أن الشفاعة أخص من الدعاء، إذ لا تكون إلا إذا كان هناك اثنان يطلبان أمرا، فيكون أحدهما شفيعا للآخر، بخلاف الطالب الواحد الذي لم يشفع غيره، فثبت بهذا الوجه أيضا أن توسل الأعمى إنما كان بدعائه ﷺ لا بذاته أو جاهه [1].

الشبهة الثالثة: الأحاديث الضعيفة في التوسل، إذ يحتج مجيزو التوسل المبتدع بأحاديث كثيرة، إذا تأملناها نجدها تندرج تحت نوعين اثنين، الأول ثابت بالنسبة إلى رسول الله ﷺ، ولكنه لا يدل على مرادهم،

---

(١) السابق ص٧٣ بتصرف.

ولا يؤيد رأيهم كحديث الضرير، والثاني غير ثابت النسبة إلى رسول الله ﷺ، وبعضه يدل على مرادهم، وبعضه لا يدل، وهذه الأحاديث التي لا تصح كثيرة، كحديث يروى عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: من خرج من بيته إلى الصلاة، فقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وأسألك بحق ممشاي هذا، فإني لم أخرج أشرا ولا بطرا.. أقبل الله عليه بوجهه. وهو حديث إسناده ضعيف مجمع على ضعفه(١).

وكذلك الحديث الضعيف الذي يروى عن أنس رضي الله عنه أنه قال: لما ماتت فاطمة بنت أسد بن هاشم أم علي رضي الله عنه دعا أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصاري وعمر بن الخطاب وغلاما أسود يحفرون.. فلما فرغ دخل رسول الله ﷺ، فاضطجع فيه فقال: الله الذي يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها، ووسع مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي، فإنك أرحم الراحمين(٢).

ومن الأحاديث الموضوعة المشتهرة على ألسنة الناس ما يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرفوعا: لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب المساجد والجماعات، باب المشي إلى الصلاة ٢٥٦/١ (٧٧٨)، وأحمد في المسند ٢١/٣ (١١١٧٢)، وضعفه الألباني، انظر السلسلة الضعيفة (٢٤)، وضعيف الترغيب والترهيب (٢٠٠).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير ٣٥١/٢٤ (٨٧١)، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١٢١/٣، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٥٧/٩ نشر دار الريان للتراث: فيه روح بن صلاح وثقه ابن حبان والحاكم وفيه ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح، وضعفه الألباني، انظر السلسلة الضعيفة (٢٣).

بحق محمد لما غفرت لي، فقال: يا آدم! وكيف عرفت محمدا ولم أخلقه؟ قال: يا رب لما خلقتني بيدك، ونفخت في من روحك رفعت رأسي، فرأيت على قوائم العرش مكتوبا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضِف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال: غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتُك(١).

• الاستشفاع بالأنداد من أنواع الشرك المتعلق باللسان.

لقد نفى الله ﷻ جميع ذرائع الشرك التي يتعلق بها المشركون في تأليه غير الله ودعائه فقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٢٣ ﴾ سبأ:٢٢/٢٣.

وهذه الآية نفت جميع الوجوه التي يتذرع بها المشركون، فنفت عن آلهتهم كل أوجه التأثير في الكون ممثلة في أربعة أمور:

١- نفي الملك التام لانعدام ربوبيتهم، فلا يخلقون في الكون شيئا ولا يدبرون فيه أمرا، ومن ثم فله الملك كله، وله الأمر كله، فقال تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ سبأ:٢٢.

٢- نفي المشاركة له في الملك بأن يكون لهم نصيب وله نصيب، فربما يزعم زاعم أنهم اشتركوا سويا في الخلق والتقدير، فقال تعالى:

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك ٦٧٢/٢ (٤٢٢٨)، والطبراني في المعجم الأوسط ٣١٣/٦ (٦٥٠٢) وقال الألباني: موضوع، انظر السلسلة الضعيفة (٢٥).

﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ سبأ:٢٢.

٣- نفي الظهير والمعين فقد يدعى بعض المشركين أن آلهتهم لا يملكون شيئا، ولا يشاركون الله ﷻ في الملك، ولكن يعاونونه في تدبير الخلق والقيام على شيء دونه في الملك فقال: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ سبأ:٢٢.

٤- نفي الشفاعة عنده إلا بإذنه لأنهم تعلقوا بها، وزعموا أنهم يقربونهم من الله ﷻ. قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ الزمر:٣ . فانقطعت حجتهم بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ سبأ:٢٣.

قال ابن تيمية: (فبين أن كل من دُعيَ من دونه، ليس له ملك ولا شرك في الملك، ولا هو ظهير، وأن شفاعتهم لا تنفع إلا لمن أذن له، وهذا بخلاف الملوك، فإن الشافع عندهم قد يكون له ملك، وقد يكون شريكا لهم في الملك، وقد يكون مظاهرا لهم معاونا لهم على ملكهم، وهؤلاء يشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك هم وغيرهم، والملك يقبل شفاعتهم تارة بحاجته إليهم، وتارة لخوفه منهم، وتارة لجزاء إحسانهم إليه ومكافئتهم، ولإنعامهم عليه، حتى إنه يقبل شفاعة ولده وزوجته، لذلك فإنه محتاج إلى الزوجة وإلى الولد، حتى لو أعرض عنه ولده وزوجته لتضرر بذلك، ويقبل شفاعة مملوكه، فإذا لم يقبل شفاعته يخاف أن لا يطيعه، أو أن يسعى في ضرره. وشفاعة العباد بعضهم عند بعض كلها من هذا الجنس، فلا يقبل أحد شفاعة

أحد الا لرغبة أو رهبة) [(١)].

ثم ذكر أن الله تعالى لا يرجو أحدا ولا يخافه، ولا يحتاج إلى أحد بل هو الغني، قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ يونس:٦٦/٦٨.

والمشركون يتخذون شفعاء من جنس ما يعهدونه من الشفاعة، قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الأحقاف:٢٨ [(٢)].

وإذا كانت الملائكة في السماء تفزع عند سماع الوحي، وتخشع خضوعا للمولى ﷻ، فهم مع مكانتهم عند الله لا يشفعون إلا بإذن منه، فكيف بمن لا يملكون لهم شيئا من أوثانهم وأضرحتهم وقبورهم ومشاهدهم؟

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن نبي الله ﷺ قال: (إذا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتْ المَلائِكَةُ بِأَجْنحَتِهَا خُضْعَانا لقَوْلهِ، كَأَنهُ سِلسِلَةٌ عَلى صَفْوَان فَإذا فُزِّعَ عَن قُلوبِهِمْ، قَالوا: مَاذا قَال

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٢٨/١.

(٢) السابق ١٢٩/١ بتصرف.

رَبُّكُمْ؟ قَالوا للذي قَال: الحَقَّ وَهُوَ العَليُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذا، بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ وَوَصَفَ سُفْيَان بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْن أَصَابِعِهِ فَيَسْمَعُ الكَلمَةَ فَيُلقِيهَا إلى مَن تَحْتَهُ، ثمَّ يُلقِيهَا الآخَرُ إلى مَن تَحْتَهُ، حَتَّى يُلقِيَهَا عَلى لسَان السَّاحِرِ أَوْ الكَاهِن، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ قَبْل أَن يُلقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلقَاهَا قَبْل أَن يُدْرِكَهُ، فَيَكْذبُ مَعهَا مِائَةَ كَذبَةٍ، فَيُقَال: أَليْسَ قَدْ قَال لنا يَوْمَ كَذا وَكَذا كَذا وَكَذا، فَيُصَدَّقُ بِتِلكَ الكَلمَةِ التِي سَمِعَ مِن السَّمَاءِ) [(١)].

والآيات والأحاديث في ذلك أكثر من أن تحصى، وكلها تكشف وتبين أنه لا خالق إلا الله، ولا مدبر للكون سواه، ومن ثم فإن الله ﷻ هو المنفرد بالملكية والملك، وهو المتصرف بالأمر والنهي في مملكته، وهو القائم بسياسة خلقه إلى غايتهم، وملكه هو الحق الدائم له بحق دوام الحياة، أما المتخذ للشفعاء والأنداد، إما أن يظن أن الله سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم معه من وزير أو ظهير، وهذا أعظم وصف بالنقص لمن اتصف بالغني عن كل ما سواه، بل كل ما سواه فقير إليه بذاته، وإما أن يظن أن الله سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشفيع، وإما أن يظن أنه لا يعلم حتى يعلمه الشفيع، أو لا يرحم حتى يجعله الشفيع يرحم، أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الشفيع أن يرفع حاجتهم إليه كما هو حال ملوك الدنيا، وهذا أصل شرك الخلق، وكله تنقص للربوبية وهضم لحقها، ولهذه الأمور وغيرها أخبر

---

(١) البخاري في التفسير، سورة سبأ، باب حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير ٤/١٨٠٤ (٤٥٢٢).

سبحانه وتعالى أن ذلك شرك، ونزّه نفسه عنه فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ يونس: ١٨ [١].

قال الشيخ سليمان بن عبد الله: (وحقيقة أمر الشفاعة أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه، وينال المقام المحمود، فهذا هو حقيقة الشفاعة، لا كما يظن المشركون والجهال أن الشفاعة هي كون الشفيع يشفع ابتداء فيمن شاء، فيدخله الجنة، وينجيه من النار، ولهذا يسألونها من الأموات وغيرهم إذا زاروهم) [٢].

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: (ولا ريب أن اتخاذ الشفعاء والتوجه إليهم بالقلب واللسان ينافي إسلام القلب والوجه لله وحده، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ الأنعام: ٥١ . أخبر تعالى أن النذارة بالقرآن لا ينتفع بها إلا من تخلى عن الشفعاء في دار العمل، وعلق رغبته، ورهبته وسؤاله وطلبه بمن له الملك وله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله) [٣].

---

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ص٢٢١.

(٢) المرجع السابق ص٢٣٦ بتصرف.

(٣) القول الفصل النفيس في الرد على المفتري داود بن جرجيس للشيخ عبد الرحمن بن حسن ص٨٦ بتصرف دار الهداية الرياض ١٤٠٥هـ.

ويقول أيضا: (ولا ريب أن الاستشفاع بالموتى يتضمن أنواعا من العبادة: سؤال غير الله، وإنزال الحوائج به من دون الله، ورجائه، والرغبة إليه، والإقبال عليه بالقلب والوجه والجوارح واللسان وهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله) [١].

ولا بد من التنبيه على ما يقع اللبس فيه من إطلاق البعض للقول بأن الله ملّك المؤمنين الشفاعة، فإنه خطأ كبير، بل الشفاعة كلها لله وحده كما ورد في نص الكتاب، وأثبت سبحانه الشفاعة بإذنه، وأخبر النبي ﷺ أن الأنبياء والصالحين يشفعون، وعلى هذا فمن أذن الله له في الشفاعة يصح أن يقال أنه مَلك ما أذن له فيه فقط، لا ما لم يؤذن له فيه، فهو تمليك معلق على الإذن والرضا لا تمليك مطلق كما يزعمه كثير من أهل الضلال، وإذا كان سيد الشفعاء ﷺ لا يشفع حتى يقال له: ارفع رأسك، وقل يسمع واشفع تشفع، فكيف بغيره، فمن ذا الذي يشفع عند الله إلا بإذنه .

ولو قال قائل: يا ولي الله اشفع لي، فإن نفس السؤال محرم، وطلب الشفاعة منهم يشبه قول النصارى: يا والدة الإله اشفعي لنا إلى الإله، وقد أجمع المسلمون أن هذا شرك، وإذا سألهم معتقدا تأثيرهم من دون الله فهو أكبر وأطم، وهؤلاء الذين اعتقد فيه الناس صفات الإلوهية، ونصبوا على قبورهم الأعواد المنقوشة، ووضعوا في محلاتهم الفرش النفيسة، ونحروا عند قبورهم، لا يدري أحد هل لهم شفاعة أم لا؟ قال الله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ

(٤) المرجع السابق ص٩٠.

كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ الزمر: ٤٣[1].

وطلب الشفاعة من النبي ﷺ في حياته ثابت بلا شك، وكذلك طلب الشفاعة منه ﷺ يوم القيامة، وهذا لا ينكره أحد من أهل السنة والجماعة، وأما حصول الإذن الآن بالشفاعة التي تكون يوم القيامة لأحد بعينه من العامة أو الخاصة، فثبوته غير مسلم به.

وقد أخبر تعالى أن الشفاعة جميعها له، فمن طلبها من غير الله فقد طلبها ممن لا يملكها، ولا يسمع ولا يستجيب، وفي غير الوقت الذي تقع فيه، ولا قدرة له عليها إلا برضا ممن هي له، وإذنه فيها وقبوله، فطلبها ممن هي له في دار العمل عبادة من جملة العبادات، وصرف ذلك الطلب لغيره شرك عظيم، ومن تدبر آيات الشفاعة حق التدبر علم علما يقينيا أنها لا تقع إلا لمن أخلص أعماله كلها لله ﷻ، واتبع ما جاء به الرسول ﷺ من توحيده وشرائع دينه، فليس لله من عمل عبده إلا الإخلاص[2].

- بيان الشرك الأصغر المتعلق بقول اللسان .

الشرك الأصغر المتعلق بقول اللسان هو كالحلف بغير الله، وقول الرجل للرجل: ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، وما لي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا، وقد يكون هذا شركا أكبر بحسب حال قائله

(١) تأسيس التقديس في الرد على داود ابن جرجيس ص٨٢ بتصرف.

(٢) صيانة الإنسان ص٣٦٣.

ومقصده، ويمكن بيان ذلك بنوع من التفصيل على النحو التالي:

١- الحلف بغير الله: وهو من الشرك الأصغر لأن فيه تشبيه للمخلوق بالخالق في التعظيم، روى البخاري من حديث ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إن الله تَعَالَى يَنهَاكُمْ أن تَحْلفُوا بِآبائِكُمْ، فَمَن كَانَ حَالفاً، فَلْيَحْلفْ بِاللهِ، أَوْ لِيَصْمُتْ) (١). وروى الترمذي وصححه الشيخ الألباني من حديث عبد الله بن عمر ﷺ أنهُ سَمِعَ رَجُلاً يقُول: لاَ وَالكَعْبَةِ، فَقَال ابن عُمَرَ: لاَ تَحْلفْ بَغَيْرِ اللهِ، فَإني سَمِعْتُ رسول اللهِ ﷺ يقول: مَن حَلفَ بِغَيرِ اللهِ، فقد كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ (٢).

واحترازا من الوقوع في الشرك بالله فقد شدد النبي ﷺ في نهيه عن الحلف بغير الله، أو تعاطي اللسان لغير ذلك من الشرك في الألفاظ، وإن لم يقصد المتكلم بها معنى لا يجوز، بل ربما تجري على لسانه من غير قصد، وقد كان السلف الصالح يحتجون بما نزل في الشرك الأكبر على الشرك الأصغر لأن الكل شرك، وأجمع العلماء على أن اليمين لا تكون إلا بالله أو بصفاته، وأجمعوا على المنع من الحلف بغيره. قال ابن عبد البر: (لا يجوز الحلف بغير الله ﷻ في شيء من الأشياء ولا على حال من الأحوال وهذا أمر مجتمع عليه) (٣).

---

(١) البخاري في الأيمان والنذور، باب لا تحلفوا بآبائكم ٦/٢٤٤٩ (٦٢٧٠)، ومسلم في الأيمان، باب النهى عن الحلف بغير الله تعالى ٣/١٢٦٧ (١٦٤٦).

(٢) الترمذي في النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله ٤/١١٠ (١٥٣٥)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٢٠٤٢).

(٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر ١٤/٣٦٦، نشر وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب ١٣٨٧هـ.

واختار عبد الله بن مسعود ﷺ أن يحلف بالله كاذبا ولا يحلف بغيره صادقا فقال: (لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلى من أن أحلف بغيره صادقا) (١). فهذا يدل على أن الحلف بغير الله أكبر من الكذب، مع أن الكذب من المحرمات في جميع الملل، فدل ذلك على أن الحلف بغير الله من أكبر المحرمات.

والجمهور على أن قوله ﷺ في الحالف بغير الله، فقد كفر أو أشرك، أنه لا يكفر كفرا ينقله عن الملة لكنه من الشرك الأصغر (٢).

٢- الاستسقاء بالأنواء: وقد جاء الوعيد على من نسب مجيء المطر إلى حركة الأنواء، وهي جمع نوء، والأنواء منازل القمر التي يظهر على أثرها حركة المد والجذر، وحركات الأمواج في البحار وما يتبعها من الرياح، وكانت العرب تزعم أن مع حدوث منزلة من منازل القمر يكون مطرا وينسبون نزوله إليها، فيقولون مطرنا بنوء كذا، والاستسقاء بالأنواء نوعان:

أحدهما: أن يعتقد أن المنزل للمطر هو القمر أو النجم، فهذا كفر ظاهر إذ لا خالق إلا الله، وما كان المشركون يعتقدون هذا بل كانوا يعلمون أن الله هو المنزل للمطر ويعلمون أنه سبحانه خالقهم ورازقهم.

الثاني: أن ينسب إنزال المطر إلى النجم مع اعتقاده أن الله تعالى هو

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٨/٤٦٩ (١٥٩٢٩)، والطبراني في المعجم الكبير ٩/١٨٣ (٨٩٠٢)، وابن أبي شيبة في مصنفه ٣/٧٩ (١٢٢٨١)، وصححه الألباني، انظر إرواء الغليل (٢٥٦٢)، وصحيح الترغيب والترهيب (٢٩٥٣).

(٢) تيسير العزيز الحميد ص٤٩٦: ٤٩٨.

الفاعل لذلك والمنزل له، لكن يرون الحتمية على أفعاله في ارتباطها بوجود المطر عند ظهور ذلك النجم، وهذا محرم لأنه من الشرك الخفي وهو الذي أراده النبي ﷺ، وأخبر أنه من أمر الجاهلية ونفاه وأبطله، وهو الذي كان يزعمه المشركون ولم يزل موجودا في هذه الأمة إلى اليوم، وأيضا فإن هذا من النبي ﷺ حماية لجناب التوحيد وسد لذرائع الشرك ولو بالعبادات الموهمة التي لا يقصدها الإنسان. روى البخاري عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أنه قال: (صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إِثر سماءٍ كانت من الليلة، فلما انصرف أَقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أَعلم قال: أَصبح من عبادي مؤْمن بي وكافر، فأَما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤْمن بي وكافر بالكوكب، وأَما من قال: بنوءِ كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤْمن بالكوكب) [1].

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: (قال مطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ أَصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوءُ كذا وكذا، قال فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ

(١) رواه البخاري في كتاب صفة الصلاة، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم ١/٢٩٠ (٨١٠)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء ١/٨٣ (٧١) ، ومعنى على إثر سماء أي بعد هطول مطر، والنوء الكوكب، مِن نَاء النجم إذا سقط أو طلع، أو المنزلة من منازل القمر وكانت العرب تنسب المطر إليها.

مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ الواقعة: ٨٢/٧٥) [١].

قال أبو الوليد الباجي: (قوله ﷺ: أَصبح من عبادي مؤْمن بي وكافر بي. أَخبر أَن من عباده مؤْمنا به، وهو من أَضاف المطر إِلى فضل الله ورحمته، وأَن المنفرد بالقدرة على ذلك هو الله تعالى، دون سبب ولا تأْثير لكوكب ولا لغيره، فهذا المؤْمن بالله تعالى كافر بالكوكب، بمعنى أَنه يكذب قدرته على شيءٍ من ذلك، ويجحد أَن يكون له فيه تأْثير، وأَن من عباده من أَصبح كافرا به، وهو من قال: مطرنا بنوءِ كذا وكذا فأَضاف المطر إِلى النوءِ، وجعل له في ذلك تأْثيرا وللكوكب فعلا) [٢].

وأما النوء فقد كانوا يقولون: مطرنا بنوء كذا، فأبطل ﷺ ذلك بأن المطر إنما يقع بإذن الله لا بفعل الكواكب، وإن كانت العادة جرت بوقوع المطر في ذلك الوقت، لكن بإرادة الله تعالى وتقديره، لا صنع للكواكب في ذلك[٣].

٣- شرك الألفاظ الذي يتناقله عامة المسلمين بسبب الجهل كقولهم: ما شاء الله وشئت، أنا تبت لله ولفلان، أنا متوكل على الله وعليك، أرجو الله وفلانا، أنا في حسب الله وحسبك، لولاك لضعنا، لولا الكلب في الدار لسرقنا، هذا من الله ومنك، ما لي إلا الله وأنت، الله لي في السماء وأنت لي في الأرض، وغير ذلك من الألفاظ الشركية.

---

(١) مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء ٨٤/١ (٧٣).

(٢) انظر المنتقى شرح موطأ مالك بن أنس لأبي الوليد الباجي ٣٣٤/١.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ١٥٩/١٠.

روى أحمد في المسند من حديث عبد الله بن عباس ﷺ: (أَن رَجُلا قَال: يَا رَسُول اللهِ، مَا شَاءَ اللهُ وشئت، فَقَال: جَعَلتَني للهِ عَدْلا، بَل مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ) (١).

وروى النسائي وصححه الألباني مرفوعا: (أَن يَهُودِيًّا أَتَى النبِيَّ ﷺ فَقَال:إنكُمْ تُنددُون، وَإِنكُمْ تُشْرِكُون تَقُولون: مَا شَاءَ اللهُ وشئت، وَتَقُولون: وَالكَعْبَةِ، فَأَمَرَهُمُ النبِيُّ ﷺ إذا أَرَادُوا أَن يَحْلفُوا أَن يَقُولوا: وَرَبِّ الكَعْبَةِ، وَيَقُولون: مَا شَاءَ اللهُ، ثمَّ شئت) (٢).

وقول اليهودي: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، هذا نص في أن هذا اللفظ من الشرك لأن النبي ﷺ أقر اليهودي على تسمية هذا اللفظ تنديدا أو شركا ونهى النبي ﷺ عن ذلك، وأرشد إلى استعمال اللفظ البعيد من الشرك، وهو قول: ما شاء الله ثم شئت، وإن كان الأولى قول ما شاء وحده. ومن العجب أن يكون اليهود على علم بالشرك الأصغر وكثير من المنسبين للإسلام لا يعرف الشرك الأكبر، بل يصرف خالص العبادات من الدعاء والذبح والنذر لغير الله ويظن أن ذلك من دين الإسلام.

٤- سب الدهر: روى الإمام مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن رَسُول اللهِ ﷺ قال: (قَال اللهُ عَزَّ وَجَل: يُؤْذيني ابْن آدَمَ، يَقُول: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ فَلاَ يَقُولن أَحَدُكُمْ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ، فَإِني أَنا الدَّهْرُ، أُقلبُ لَيْلهُ

(١) رواه أحمد في المسند ٢٨٣/١ (٢٥٦١)، وابن أبي شيبة في المصنف ٧٤/٦ (٢٩٥٧٣)، وحسنه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (١٠٣٩).

(٢) رواه النسائي في كتاب الإيمان والنذور، باب الحلف بالكعبة ١٢٤/٣ (٤٧١٤)، وصححه الشيخ الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (١٣٦).

وَنهَارَهُ، فَإِذا شئتُ قَبَضتُهُمَا) [١].

قال ابن كثير: (ومعنى هذا أن الجاهلية كانوا يقولون: يا خيبة الدهر، فعل بنا كذا وكذا، فيسندون أفعال الله وتعالى إلى الدهر ويسبونه، وإنما الفاعل لذلك هو الله ﷻ فنهى عن ذلك، هكذا قرره الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من العلماء رحمهم الله) [٢].

كانت العرب من شأنها أن تذم الدهر وتسبه عند المصائب التي تنزل بهم من موت، أو هرم أو تلف أو غير ذلك، فيقولون: إنما يهلكنا الدهر وهو الليل والنهار، ويقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر، فيجعلون الليل والنهار يفعلان الأشياء، فيذمون الدهر بأنه الذي يفنيهم ويفعل بهم، فقال رسول الله ﷺ: لا تسبوا الدهر على أنه الذي يفنيكم، والذي يفعل بكم هذه الأشياء فإنكم إذا سببتم فاعل هذه الأشياء، فإنما تسبون الله ﷻ فإنه فاعل هذه الأشياء.

والمشركون في سبهم الدهر نوعان، أحدهما من يعتقد أن الدهر هو الفاعل فيسبه لذلك فهؤلاء هم الدهرية، والثاني من يعتقد أن المدبر للأمور هو الله وحده لا شريك له، ولكن يسبون الدهر لما يجري عليهم فيه من المصائب والحوادث، فيضيفون ذلك إليه من إضافة الشيء إلى محله، لا لأنه عندهم فاعل لذلك، والحديث صريح في النهي عن سب الدهر مطلقا سواء اعتقد أنه فاعل أو لم يعتقد ذلك كما يقع كثيرا ممن يعتقد الإسلام كقول ابن المعتز:

---

(١) مسلم في الألفاظ من الأدب، باب النهي عن سب الدهر ١٧٦٢/٤ (٢٢٤٦).

(٢) تفسير ابن كثير ٥١٨/٣.

يا دهر ويحك ما أبقيت لي أحدا .. وأنت والد سوء تأكل الولدا[(١)].

وقول أبي الطيب:

قبحا لوجهك يا زمان كأنه .. وجه له من كل قبح برقع[(٢)].

ونحو ذلك كثير، وكل هذا داخل في الحديث[(٣)].

٥- شرك المبالغة في تسمية ملوك المسلمين وأمرائهم: وهو من الشرك الأصغر الذي يقع فيه العامة والخاصة، وذلك أن من خولهم الله واستخلفهم على عباده لا يصح تسميتهم أو وصفهم بما يخرجهم عن دورهم، فلا يجوز مناداته إلا بلفظ أمير للمؤمنين أو سلطانهم أو ملكهم أو حاكمهم أو رئيسهم، أما المبالغة في وصفهم بجلالة الملك المعظم أو أصحاب السمو الملكي، أو أصحاب المعالي والفخامة، أو ما شابه ذلك مما يخرج المسلم عن أوصاف العبودية التي شرفه الله بها ويوقعه في شيء من أوصاف الربوبية، فهذا كله من الشرك الأصغر، وقد يكون من الشرك الأكبر المتعلق بالربوبية إذا رضيه ودعا إليه وأحب فيه وأبغض ووالى وعادى، وقد أحسن بعض الملوك في عصرنا حين غير تسميته من جلالة الملك إلى خادم الحرمين الشريفين، لأن فطرة العبودية قائمة على حب التواضع والافتقار لله.

---

(١) هذا البيت لأبي العباس عبد الله بن المعتز العباسي بن عمر وهو يرثي الخليفة المعتضد، انظر التمهيد لابن عبد البر ١٥٩/١٨، والبداية والنهاية لابن كثير ٩٢/١١، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص٣٧٥.

(٢) انظر يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي ٢٦٣/١، نشر دار الكتب العلمية بيروت.

(٣) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ص٥١٣ بتصرف.

وفي صحيح الإمام مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (أَغيَظُ رَجُل عَلى اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَأَخبَثهُ وَأَغيَظُهُ عَلَيْهِ، رَجُل كَان يُسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاكِ، لا مَلِكَ إلا اللهُ) [1] .

قال بن القيم: (وفي معنى ذلك كراهية التسمية بقاضي القضاء وحاكم الحكام، فان حاكم الحكام في الحقيقة هو الله، وقد كان جماعة من أهل الدين والفضل يتورعون عن إطلاق لفظ قاضي القضاة وحاكم الحكام قياسا على ما يبغضه الله ورسوله من التسمية بملك الأملاك وهذا محض القياس، وكذلك تحرم التسمية بسيد الناس، وسيد الكل كما يحرم سيد ولد آدم، فان هذا ليس لأحد إلا لرسول الله وحده فهو سيد ولد آدم، فلا يحل لأحد أن يطلق على غيره ذلك) [2] .

روى أبو داود وصححه الألباني من حديث عبد الله بن الشخير ﷺ أنه قال: (انطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلنا: أَنتَ سَيِّدُنا، فقَال: السَّيِّدُ اللهُ، قُلنا: وَأَفْضَلنا فَضلاً، وَأَعْظَمُنا طَوْلاً، فَقَال: قُولوا بِقَوْلكم أَوْ بَعْضِ قَوْلكمُ وَلاَ يَسْتَجْرِيَنكمْ الشَّيْطَان) [3].

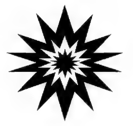
---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الآداب، باب تحريم التسمي بملك الأملاك وبملك الملوك ٣/١٦٨٨ (٢١٤٣).

(٢) تحفة المودود بأحكام المولود ص١١٥، تحقيق عبد القادر الأرناءوط نشر مكتبة دار البيان دمشق١٣٩١هـ.

(٣) رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب فى كراهية التمادح ٤/٢٥٤ (٤٨٠٦)، وأحمد في المسند ٤/٢٤ (١٦٣٥٠) وصححه الشيخ الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٤٩٠٠)، وصحيح الجامع (٣٧٠٠).

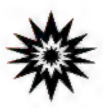
ولا ينافي هذا قوله ﷺ: أنا سيد ولد آدم، فإن هذا إخبار منه ﷺ عما أعطاه الله ﷻ من سيادة النوع الإنساني وفضله وشرفه عليهم [١].



(١) تحفة المودود بأحكام المولود ص١٢٦ بتصرف.

المطلب الرابع عشر

الشرك المتعلق بالجوارح بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن الشرك المتعلق باللسان بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر، وبينا أن الشرك المتعلق باللسان مرتبط باعتقادات القلب الشركية، وتحدثنا عن توحيد الله في الدعاء وأنه يكون بالقلب واللسان والجوارح، وأن دعاء الأنداد ونداءهم من الشرك الأكبر المتعلق باللسان، وكذلك الاستعانة والاستغاثة بهم.

كما علمنا أن التوسل المشروع هو ما نص عليه الكتاب والسنة، وأن التوسل الممنوع يتردد في حكمه بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر وبينا أغلب الشبهات التي يوردها المخالفون في تبرير التوسل الباطل والجواب عليها، وأن أبرزها حديث الضرير، وليس فيه حجة للتوسل إلى الله بالجاه أو الذات النبوية، وعلمنا أن الاستشفاع بالأنداد من أنواع الشرك المتعلق باللسان، وضربنا بعض الأمثلة للشرك الأصغر المتعلق بقول اللسان.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن الشرك المتعلق بالجوارح بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر.

• **الشرك في الجوارح باعثه الاعتقادات الشركية القائمة بالقلب.**

لما كان أصل الإيمان والتوحيد كائنا في القلب، وهو مركب من علم القلب واعتقاده واستعداده للعمل بإخلاص لله وحده، فلا بد أن يظهر موجبه وأثره على الجوارح، فكذلك الشرك أصله اعتقاد في القلب لا بد أن يظهر موجبه وأثره على الجوارح في الأعمال الظاهرة، لأن القلب في علاقته بالجوارح كعلاقة الملك بجنوده [1].

وعلى ذلك فإن الغلو في الصالحين ورفعهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله إياها بشرف الافتقار إلى الله بالعبودية إلى ما لا يجوز إلا لله وحده من معاني الربوبية؛ ظهر أثره بالضرورة على اللسان والجوارح، وبدا واضحا فيما اعتاده العامة من الاستغاثة بهم في الشدائد، والطواف بقبورهم، والتبرك بتربتهم، وذبح القرابين لأضرحتهم، وطلب المدد منهم، وقد أدخل الشيطان شبهات الشرك على قوم نوح من باب الغلو في الصالحين.

وقد وقع بين عامة المسلمين وخاصتهم مثل ما وقع لقوم نوح، لما أظهر الشيطان لكثير من المفتونين الغلو والبدع في قالب تعظيم الصالحين ومحبتهم ليوقعهم فيما أوقع به قوم نوح؛ فما زال الشيطان يوحي إلى عباد القبور ويلقي إليهم أن البناء والعكوف على قبور الصالحين يعتبر محبة لهم، وأن الدعاء عند قبورهم دعاء مستجاب، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى التوسل بهم، فإذا ألفوا ذلك نقلهم إلى دعاء المقبورين وعبادتهم وسؤالهم الشفاعة من دون الله ﷻ، فتصبح قبورهم

---

(١) انظر هذا المعنى في مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية ١/١٤١ بتصرف.

أوثانا تعلق عليها القناديل، وتسدل عليها الستور، ويطاف بها وتستلم وتقبل، فإذا ألفوا ذلك؛ نقلهم إلى أن يدعوا الناس إلى عبادة هذه القبور، واتخاذها أعيادا ومناسك، فإذا ألفوا ذلك وتقرر في نفوسهم نقلهم إلى الموالاة لمن وافقهم على عقيدتهم، والمعاداة لمن أنكر عليهم، متعللين بأن من نهى عن شركهم فقد تنقص الأولياء وأبغضهم، وزعم أنه لا حرمة لهم ولا شأن لمكانتهم.

وقد سرى ذلك في نفوس كثير من عوام المسلمين، وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين، حتى عادوا أهل التوحيد، ورموهم بالعظائم، ونفروا الناس عنهم؛ فعلوا ذلك كله تحت ستار حب الصالحين وتعظيمهم، وقد كذبوا في ذلك؛ لأن محبة الصالحين على الحقيقة مقياسها أتباع الكتاب والسنة.

قال ابن تيمية: (وكذلك الغلو في بعض المشايخ، إما في الشيخ عدي، ويونس القتي، أو الحلاج وغيرهم، بل الغلو في علي بن أبي طالب ﷺ ونحوه، بل الغلو في المسيح ﷺ ونحوه، فكل من غلا في حي، أو في رجل صالح كمثل علي ﷺ أو عدي أو نحوه، أو في من يعتقد فيه الصلاح كالحلاج، أو الحاكم الذي كان بمصر، أو يونس القتي ونحوهم، وجعل فيه نوعا من الإلهية، مثل أن يقول: كل رزق لا يرزقنيه الشيخ فلان ما أريده، أو يقول إذا ذبح شاة: باسم سيدي، أو يعبده بالسجود له أو لغيره، أو يدعوه من دون الله تعالى مثل أن يقول: يا سيدي فلان اغفر لي، أو ارحمني، أو انصرني، أو ارزقني، أو أغثني، أو أجرني، أو توكلت عليك، أو أنت حسبي، أو أنا في حسبك، أو نحو هذه الأقوال والأفعال التي هي من خصائص الربوبية

التي لا تصلح إلا لله تعالى، فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قتل، فإن الله إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب لنعبد الله وحده لا شريك له، ولا نجعل مع الله إلها آخر، والذين كانوا يدعون مع الله آلهة أخرى مثل الشمس والقمر والكواكب والعزيز والمسيح والملائكة واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ويغوث ويعوق ونسرا أو غير ذلك، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق، أو أنها تنزل المطر، أو أنها تنبت النبات، وإنما كانوا يعبدون الأنبياء والملائكة والكواكب والجن والتماثيل المصورة لهؤلاء، أو يعبدون قبورهم، ويقولون: إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى، ويقولون: هم شفعاؤنا عند الله، فبعث الله سبحانه رسله تنهى أن يدعى أحد من دونه، لا دعاء عبادة، ولا دعاء استغاثة) [(١)].

وتلك شبهة القبوريين الذين يبررون شركياتهم بأنهم لا يعتقدون في الأولياء مشاركة الله في الخلق والرزق والإحياء والإماتة، وإنما يعتقدون فيهم أنهم وسائط بينهم وبين الله في قضاء حوائجهم وتفريج كربهم، وهي نفس الشبهة التي قالها مشركو الجاهلية؛ كما ذكرها الله في كتابه وأبطلها، والواقع أن شرك هؤلاء المتأخرين زاد على شرك الجاهلية، فصاروا يهتفون بأسماء هؤلاء الأموات في كل مناسبة، ولا يذكرون اسم الله إلا قليلا، وإنما يجري على ألسنتهم اسم الولي دائما، والأولون كانوا يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة، وهؤلاء شركهم دائم في الرخاء والشدة.

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣/٣٩٥.

إن حقيقة الشرك لا تتوقف على أن يساوي الإنسان أحدا بالله في الذات والصفات ويجعلهما متعادلين أو متساويين في الربوبية، بل حقيقة الشرك أن يأتي الإنسان بأقوال وأعمال خصها الله بنفسه، وجعلها شعارا للعبودية فيجعلها لأحد من الناس، كالسجود للضريح، والذبح باسم المقبور فيه، والنذر له، والاستغاثة به في الشدة، واعتقاد أنه حاضر ناظر في كل مكان، وإثبات قدرة التصرف له.

وكل ذلك يثبت به الشرك، ويصبح الإنسان به مشركا، وإن كان يعتقد أن هذا الإنسان، أو الملك أو الجني الذي يسجد له، أو يذبح، أو ينذر له، أو يستغيث به، أقل من الله شأنا، وأصغر منه مكانا، وأن الله هو الخالق، لا فرق في ذلك بين الأولياء والأنبياء، والجن والشياطين، فمن عاملها هذه المعاملة كان مشركا، لذلك وصف الله اليهود والنصارى الذين غلوا في أحبارهم ورهبانهم بما وصف به عباد الأوثان والمشركين، وغضب على هؤلاء الغلاة المنحرفين كما غضب على غلاة المشركين، فقال تعالى:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ التوبة: ٣١.

وقد ذكر أن جميع الخلق سواء كانوا علماء أو عبادا، حكاما أو ملوكا، كلهم عبيد خاضعون، عاجزون ضعفاء، لا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا، ولا يملكون إذا بعثهم الله إلا أن يقفوا أمام ربهم خاضعين مستسلمين، طائعين منقادين.

- الشيطان وإمكانية تجسده لفتنة القبوريين وعباد الأوثان.

من الأمور التي لابد من التنبيه عليها أنه في كثير من الأحيان يتصور الشيطان بصورة المدعو المنادَى المستغاث به إذا كان ميتا، وكذلك قد يكون حيا ولا يشعر بالذي ناداه، بل يتصور الشيطان بصورته فيظن المشرك الضال المستغيث بذلك الشخص أن الشخص نفسه أجابه، وإنما هو الشيطان، وهذا يقع للكفار المستغيثين بمن يحسنون به الظن من الأموات والأحياء كالنصارى المستغيثين بجرجس والعذراء، ويقع لأهل الشرك والضلال من المنتسبين إلى الإسلام الذين يستغيثون بالموتى والغائبين، فقد يتصور لهم الشيطان في صورة ذلك المستغاث به وهو لا يشعر(١).

وقد ذكر ابن تيمية أن الشيطان قد يتصور بصورة الولي ويقف بعرفات، فيظن من يحسن به الظن أنه وقف بعرفات، وكثير منهم حمله الشيطان إلى عرفات أو غيرها من الحرم، فيتجاوز الميقات بلا إحرام، ولا تلبية، ولا يطوف بالبيت، ولا بالصفا والمروة، وفيهم من لا يعبر مكة، وفيهم من يقف بعرفات ويرجع ولا يرمى الجمار إلى أمثال ذلك من الأمور التي يضلهم بها الشيطان، حيث فعلوا ما هو منهي عنه في الشرع، إما محرم وأما مكروه ليس بواجب ولا مستحب.

وقد زين لهم الشيطان أن هذا من كرامات الصالحين، وهو من تلبيس الشيطان، فان الله لا يعبد إلا بما هو واجب أو مستحب، وكل من عبد عبادة ليست واجبة ولا مستحبة، وظنها واجبة أو مستحبة، فإنما زين له

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٩/٤٧ بتصرف.

الشيطان ذلك ، وليس هذا مما يكرم الله به أولياءه المتقين، إذ ليس في فعل المحرمات والمكروهات إكرام، بل الإكرام حفظه من ذلك، ومنعه منه، فان ذلك ينقصه لا يزيده، ومدح المحرمات والمكروهات وتعظيم صاحبها هو من الضلال عن سبيل الله، وكلما ازداد العبد في البدع اجتهادا ازداد من الله بعدا، لأنها تخرجه عن سبيل الله سبيل الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين إلى بعض سبيل المغضوب عليهم والضالين [١].

وربما يستخدم الإنسان الجن والشيطان في إحضار بعض ما يطلبونه من مال وطعام وثياب ونفقة، فقد يأتون ببعض ذلك وقد يدلونه على كنز وغيره، واستمتاع الجن بالإنس استعمالهم فيما يريده الشيطان من كفر وفسوق ومعصية، ومن استمتاع الإنس بالجن استخدامهم فيما يطلبه الإنس من شرك وقتل وفواحش فتارة بتمثل الجني في صورة الإنسي فإذا استغاث به في بعض أتباعه أتاه فظن أنه الشيخ نفسه وتارة يكون التابع قد نادى شيخه وهتف به يا سيدي فلان فينقل الجني ذلك الكلام إلى الشيخ بمثل صوت الإنسي حتى يظن الشيخ أنه صوت الإنسي بعينه، ثم إن الشيخ يقول نعم ويشير إشارة يدفع بها ذلك المكروه، فيأتي الجني بمثل ذلك الصوت والفعل يظن ذلك الشخص أنه شيخه نفسه، وهو الذي أجابه، وهو الذي فعل ذلك حتى إن تابع الشيخ، قد تكون يده في إناء يأكل فيضع الجني يده في صورة يد الشيخ ويأخذ من الطعام فيظن ذلك التابع أنه شيخه حاضر معه، والجني يمثل

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٤٨/١٩ بتصرف.

للشيخ نفسه مثل ذلك الإناء، فيضع يده فيه حتى يظن الشيخ أن يده في ذلك الإناء، فإذا حضر المريد ذكر له الشيخ أن يدي كانت في الإناء فيصدقه، ويكون بينهما مسافة شهر، والشيخ في موضعه ويده لم تطل، ولكن الجني مثل للشيخ ومثل للمريد حتى ظن كل منهما أن أحدهما عند الآخر، وإنما كان عنده ما مثله الجني وخيله، وإذا سئل الشيخ المخدوم عن أمر غائب إما سرقة وإما شخص مات وطلب منه أن يخبر بحاله أو علة في النساء أو غير ذلك، فإن الجني قد يمثل ذلك فيريه صورة المسروق، فيقول الشيخ ذهب لكم كذا وكذا، ثم إن كان صاحب المال معظما وأراد أن يدله على سرقته، مثل له الشيخ الذي أخذه أو المكان الذي فيه المال فيذهبون إليه فيجدونه كما قال[1].

والأكثر منهم أنهم يظهرون صورة المال ولا يكون عليه لأن الذي سرق المال معه أيضا حتى يخدمه والجن يخاف بعضهم من بعض كما أن الإنس يخاف بعضهم بعضا، فإذا دل الجني عليه جاء إليه أولياء السارق فآذوه، وأحيانا لا يدل لكون السارق وأعوانه يخدمونه ويرشونه كما يصيب معرف اللصوص من الإنس تارة، يعرف السارق ولا يعرّف به، إما لرغبة ينالها منه، وإما لرهبة وخوف منه، وإذا كان المال المسروق لكبير يخافه ويرجوه عرف سارقه، فهذا وأمثاله من استمتاع بعضهم ببعض[2].

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٣/٨٤ بتصرف.
(٢) السابق ١٣/٨٥ بتصرف.

أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ الأنعام:١٢٨/١٣٠.

وكثير من الناس رأى من قال إني أنا الخضر وإنما كان جنيا ثم صار من الناس من يكذب بهذه الحكايات إنكارا لموت الخضر والذين قد عرفوا صدقها يقطعون بحياة الخضر وكل من الطائفتين مخطئ فإن الذين رأوا من قال إني أنا الخضر هم كثيرون صادقون والحكايات متواترة لكن أخطئوا في ظنهم أنه الخضر، وإنما كان جنيا، ولهذا يجري مثل هذا لليهود والنصارى فكثيرا ما يأتيهم في كنائسهم من يقول أنه الخضر وكذلك اليهود يأتيهم في كنائسهم من يقول أنه الخضر وفي ذلك من الحكايات الصادقة ما يضيق عنه هذا الموضع يبين صدق من رأى شخصا، وظن أنه الخضر وأنه غلط في ظنه أنه الخضر وإنما كان جنيا وقد يقول أنا المسيح أو موسى أو محمد أو أبو بكر أو عمر أو الشيخ فلان، فكل هذا قد وقع[1].

والنبي ﷺ قال: من رآني في المنام فقد رآني حقا فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي[2]، قال ابن عباس: في صورته التي كان عليها في

---

(١) السابق ١٣/٩٣ بتصرف.

(٢) البخاري في العلم، باب إثم من كذب على النبي ﷺ ١/٥٢ (١١٠)، ومسلم في الرؤيا، باب قول النبى ﷺ من رآنى فى المنام ٤/١٧٧٦ (٢٢٦٨).

حياته. وهذه رؤيا في المنام، وأما في اليقظة فمن ظن أن أحدا من الموتى يجيء بنفسه للناس عيانا قبل يوم القيامة فمن جهله أتى.

ومن هنا ضلت النصارى حيث اعتقدوا أن المسيح بعد أن صلب كما يظنون أنه أتى إلى الحواريين وكلمهم ووصاهم وهذا مذكور في أناجيلهم وكلها تشهد بذلك، وذاك الذي جاء كان شيطانا قال أنا المسيح ولم يكن هو المسيح نفسه، ويجوز أن يشتبه مثل هذا على الحواريين كما اشتبه على كثير من شيوخ المسلمين، ولكن ما أخبرهم المسيح قبل أن يرفع بتبليغه فهو الحق الذي يجب عليهم تبليغه، ولم يرفع حتى بلغ رسالات ربه، فلا حاجة إلى مجيئه بعد أن رفع إلى السماء(١).

وأصحاب الحلاج لما قتل كان يأتيهم من يقول أنا الحلاج فيرونه في صورته عيانا، وكذلك شيخ بمصر يقال له الدسوقي بعد أن مات كان يأتي أصحابه من جهته رسائل وكتب مكتوبة، وذاك المعتقد يعتقد أن الشيخ حي، وكذلك شيخ آخر كان بالمشرق وكان له خوارق من الجن، وقيل كان بعد هذا يأتي خواص أصحابه في صورته فيعتقدون أنه هو (٢).

وهكذا الذين كانوا يعتقدون بقاء علي ﷺ أو بقاء محمد بن الحنفية قد كان يأتي إلى بعض أصحابهم جني في صورته وكذا منتظر الرافضة قد يراه أحدهم أحيانا ويكون المرئي جنيا جنيا، فهذا باب واسع واقع كثيرا، وكلما كان القوم أجهل كان عندهم أكثر، ففي المشركين أكثر

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٣/٩٤ بتصرف.

(٢) السابق ١٣/٩٤بتصرف.

مما في النصارى، وهو في النصارى كما هو في الداخلين في الإسلام، وهذه الأمور يسلم بسببها ناس ويتوب بسببها ناس يكونون أضل من أصحابها، فينتقلون بسببها إلى ما هو خير مما كان عليه، كالشيخ الذي فيه كذب وفجور من الإنس قد يأتيه قوم كفار فيدعوهم إلى الإسلام فيسلمون، ويصيرون خيرا مما كانوا، وإن كان قصد ذلك الرجل فاسدا وقد قال النبي ﷺ: (إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم) [1].

والجن مكلفون كتكليف الإنس ومحمد ﷺ مرسل إلى الثقلين الجن والإنس، وكفار الجن يدخلون النار بنصوص وإجماع المسلمين، وأما مؤمنهم ففيهم قولان، وأكثر العلماء على أنهم يثابون أيضا ويدخلون الجنة [2].

والأدلة على أن الجني قد يتشكل في أجسام مرئية ما حدث من وقائع كثيرة على عهد النبوة ورد ذكرها في روايات كثيرة، منها ما رواه أبو داود وصححه الشيخ الألباني من حديث أبي السائب رضي الله عنه أنه قال: (أَتَيْت أَبَا سَعِيدٍ الخُدْرِيَّ رضي الله عنه فَبَيْنا أَنا جَالِسٌ عِندَهُ سَمِعْتُ تَحْت سَرِيرِهِ تَحْرِيكَ شَيْءٍ، فَنظَرْتَ فَإِذا حَيَّة، فَقُمْت فقَال أَبُو سَعِيدٍ: مَا لكَ قُلت حَيَّة هَاهُنا؟ قَال: فَتريدُ مَاذا؟ قُلت: أَقْتلهَا، فَأَشَارَ إلى بَيْت فِي دَارِهِ تلقَاءَ بَيْتِهِ، فَقَال: إِن ابْن عَمٍّ لي كَان فِي هَذا البَيْت، فَلمَّا كَان

(١) السابق ١٣/٩٥، والحديث رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر ٣/١١١٤ (٢٨٩٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه ١/١٠٥ (١١١).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٣/٨٦ بتصرف.

يَوْمُ الأَحْزَابِ اسْتأْذن إلى أَهْلهِ، وكَان حَدِيث عَهْدٍ بِعُرْسٍ، فَأَذن لهُ رَسُول اللهِ ﷺ وأَمَرهُ أَن يَذهَبَ بِسِلاحِهِ، فَأَتى دَارَهُ فَوجَدَ امْرَأَتهُ قَائِمَة عَلى بَابِ البَيْت، فَأَشَارَ إِليْهَا بِالرُّمْحِ، فَقَالت: لا تعْجَل حَتى تنظُرَ مَا أَخْرَجَني، فَدَخَل البَيْت فَإِذا حَيَّة مُنكَرَة، فَطَعَنهَا بِالرُّمْحِ ثمَّ خَرَجَ بِهَا فِي الرُّمْحِ ترْتكِضُ، قَال، فَلا أَدْري أَيُّهُمَا كَان أَسْرَعَ مَوْتا الرَّجُل أَوْ الحَيَّة، فَأَتى قَوْمُهُ رَسُول اللهِ ﷺ فَقَالوا؟ ادْعُ اللهَ أَن يَرُدَّ صَاحِبَنا؟ فَقَال: اسْتغْفِرُوا لصَاحِبِكُمْ، ثمَّ قَال: إن نفرًا مِن الجِن أَسْلمُوا بِالمَدِينة، فَإِذا رَأَيْتمْ أَحَدًا مِنهُمْ فَحَذرُوهُ ثلاث مَرَّات، ثمَّ إِن بَدَا لكُمْ بَعْدُ أَن تقْتلوهُ فَاقْتلوهُ بَعْدَ الثلاث) [1].

وروى الإمام البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: (وكلني رَسُول اللهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاة رَمَضَان [2]، فأتاني آت فَجَعَل يَحْثو مِن الطَّعَامِ [3]، فَأَخَذتهُ وقُلت: وَاللهِ لأرْفَعَنكَ إلى رَسُول اللهِ ﷺ، قَال: إني مُحْتاجٌ وَعَلى عِيَال ولي حَاجَة شَدِيدَة، قَال: فَخليْت عَنهُ، فَأَصْبَحْت؛ فَقَال النبي ﷺ: يَا أَبَا هُرَيْرَة، مَا فَعَل أَسِيرُكَ البَارِحَة؟، قُلت: يَا رَسُول اللهِ شَكَا حَاجَة شَدِيدَة وَعِيَالا، فَرَحِمْتهُ فَخَليْت سَبِيلهُ، قَال: أَمَا إِنهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ، فَعَرَفْت أَنهُ سَيَعُودُ لقَوْل رَسُول اللهِ ﷺ إِنهُ سَيَعُودُ

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الأدب، باب فى قتل الحيات ٤/٣٦٥ (٥٢٥٧)، وأحمد في المسند ٣/٤١ (١١٣٨٧).

(٢) كان أبو هريرة ﷺ حارسا على تمر الصدقة فوجد التمر قد أخذ منه ملء كف فترقب السارق، انظر السنن الكبرى للنسائي ٥/١٣ (٨٠١٧).

(٣) الحثي ما رفعت به يديك، انظر لسان العرب لابن منظور ١٤/١٦٤، والمعنى أخذ يرفع من التمر بيديه ليسرقه.

فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثو مِن الطَّعَامِ، فَأَخَذتهُ فَقُلت: لأَرْفَعَنكَ إلى رسول اللهِ ﷺ، قَال: دعني فإني مُحْتاجٌ وعلى عيال لا أَعُودُ، فَرَحِمْتهُ فَخَلَيْت سَبِيلهُ، فَأَصْبَحْت، فَقَال لي رَسُول اللهِ ﷺ: يَا أَبَا هُرَيْرَة مَا فَعَل أَسِيرُكَ؟، قُلت: يَا رَسُول اللهِ شَكَا حَاجَة شَدِيدَة وَعِيَالا فَرَحِمْتهُ فَخَلَيْت سَبِيلهُ، قَال: أَمَا إنهُ قَدْ كَذبَكَ وَسَيَعُودُ، فَرَصَدْتهُ الثالثة، فَجَاءَ يَحْثو مِن الطَّعَامِ، فَأَخَذتهُ فَقُلت: لأَرْفَعَنكَ إلى رسول اللهِ، وَهَذا آخِرُ ثلاث مَرَّات أَنكَ تزْعُمُ لا تعُودُ ثمَّ تعُودُ، قَال: دعني أُعَلمْكَ كَلمَات يَنفَعُكَ اللهُ بِهَا، قُلت: مَا هُوَ؟، قَال إذا أَوَيْت إلى فِرَاشِكَ فَاقرَأْ آيَة الكرسي: اللهُ لا إلهَ إلا هُوَ الحي القَيُّومُ.. حتى تخْتمَ الآيَة فَإنكَ لن يَزَال عَليْكَ مِن اللهِ حَافِظٌ وَلا يَقْرَبَنكَ شَيْطَان حتى تصْبِحَ، فَخَلَيْت سَبِيلهُ فَأَصْبَحْت فَقَال لي رَسُول اللهِ ﷺ: مَا فَعَل أَسِيرُكَ البَارِحَة؟ قُلت: يَا رَسُول اللهِ زَعَمَ أَنهُ يعلمني كَلمَات ينفعني اللهُ بِهَا فَخَلَيْت سَبِيلهُ، قَال: مَا هي؟ قُلت: قَال لي: إذا أَوَيْت إلى فِرَاشِكَ فَاقرَأْ آيَة الكُرْسِي مِن أَوَّلهَا حتى تخْتمَ الآيَة، وَقَال لي: لن يَزَال عَليْكَ مِن اللهِ حَافِظٌ وَلا يَقْرَبَكَ شَيْطَان حتى تصْبِحَ، وَكَانوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلى الخَيْر، فَقَال النبي ﷺ: أَمَا إنهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذوبٌ، تعْلمُ مَن تخَاطِبُ مُنذ ثلاث لَيَال يَا أَبَا هُرَيْرَة؟ قَلت: لا قَال: ذاكَ شَيْطَان) [1].

وورد عند البخاري من حديث أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه أن النبِيِّ ﷺ قَال: (إن عِفْرِيتا مِن الجِن تفَلت عَليَّ البَارِحَة ليَقْطَعَ عَليَّ الصَّلاَة، فَأَمْكَنني اللهُ

---

(١) رواه البخاري في كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئا فأجازه الموكل فهو جائز ٢/٨١٢ (٢١٨٧).

مِنهُ، فَأَرَدْت أَن أَرْبِطَهُ إلى سَارِيَة مِن سَوَارِي المَسْجِدِ حَتى تصبِحُوا وَتنظُرُوا إليْهِ كُلكُمْ ؛ فَذكَرْت قَوْل أَخِي سُلَيْمَان: رَبِّ هَبْ لي مُلكًا لاَ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِن بَعْدِى. قَال: رَوْحٌ، رَدَّهُ خَاسِئًا) [١].

- **حكم اتخاذ القبور مساجد وسد الذرائع إلى الشرك الأكبر.**

من أعظم مكايده التي كاد بها أكثر الناس وما نجا منها إلا من لم يرد الله تعالى فتنته ما أوحاه قديما وحديثا إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور حتى آل الأمر فيها إلى أن عبد أربابها من دون الله وعبدت قبورهم واتخذت أوثانا وبنيت عليها الهياكل والمساجد وصورت صور أربابها فيها ثم جعلت تلك الصور أجسادا لها ظل ثم جعلت أصناما وعبدت مع الله تعالى، وكان أول هذا الداء العظيم في قوم نوح كما أخبر سبحانه عنهم فكان يغوث ويعوق ونسرا قوما صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم، لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم فصورهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس وادعى أنهم إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقون المطر فعبدوهم، وقد صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب [٢].

وعند البخاري من حديث على صحته عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض

---

(١) رواه البخاري في كتاب الصلاة، باب الأسير يربط في المسجد ١/١٧٦ (٤٤٩)، ومسلم في كتاب المساجد، باب جواز لعن الشيطان فى أثناء الصلاة والتعوذ منه ١/٣٨٤ (٥٤١)، وتفلت عرض لي فلتة أي بغتة في سرعة.

(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم ص١٨٣.

الحبشة يقال لها مارية، فذكرت له ما رأت فيها من الصور فقال رسول الله ﷺ: أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله تعالى[1]. فجمع في هذا الحديث بين التماثيل والقبور وهذا كان سبب عبادة ود ويغوث ويعوق ونسرا واللات، إنما كانت من تعظيم قبورهم ثم اتخذوا لها التماثيل وعبدوها كما أشار إليه النبي ﷺ.

وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور هي التي أوقعت كثيرا من الأمم، إما في الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين، وتماثيل يزعمون أنها طلاسم للكواكب ونحو ذلك، فإن الشرك بقبر الرجل الذي يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر، ولهذا نجد أهل الشرك كثيرا يتضرعون عندها، ويخشعون ويخضعون، ويعبدونهم بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله ولا وقت السحر، ومنهم من يسجد لها، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد، فلأجل هذه المفسدة حسم النبي ﷺ مادتها حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقا، وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته كما يقصد بصلاته بركة المساجد، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها؛ لأنها أوقات يقصد المشركون الصلاة فيها للشمس، فنهى أمته عن الصلاة حينئذ، وإن لم يقصد المصلي ما

(١) رواه البخاري في أبواب المساجد، باب الصلاة في البيعة ١/١٦٧ (٤٢٤)، ومسلم في كتاب المساجد، باب النهى عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد ١/٣٧٥ (٥٢٨).

قصده المشركون سدا للذريعة[١].

وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركا بالصلاة في تلك البقعة، فهذا عين المحادة لله ولرسوله، والمخالفة لدينه وابتداع دين لم يأذن به الله تعالى، فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين رسول الله أن الصلاة عند القبور منهي عنها، وأنه لعن من اتخذها مساجد، فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك الصلاة عندها، واتخاذها مساجد، وبناء المساجد عليها، وقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك، والتغليظ فيه، فقد صرح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة، وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك، وطائفة أطلقت الكراهة، والذي ينبغي أن تحمل على كراهة التحريم إحسانا للظن بالعلماء، وأن لا يظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله لعن فاعله والنهي عنه[٢].

روى مسلم من حديث جندب بن عبد الله ﷺ أنه قال: (سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله تعالى قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، ولو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك) [٣].

---

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان لابن القيم ص١٨٥ بتصرف.

(٢) السابق ص١٨٥ بتصرف.

(١) مسلم في المساجد، باب النهى عن بناء المساجد على ١/٣٧٧ (٥٣٢).

وروى البخاري من حديث عائشة وعبد الله بن عباس أنهما قالا: (لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم كشفها فقال وهو كذلك: لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا) [1].

وروى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) [2]. فقد نهى عن اتخاذ القبور مساجد في آخر حياته ثم إنه لعن وهو في السياق من فعل ذلك من أهل الكتاب ليحذر أمته أن يفعلوا ذلك.

وقد زعم بعضهم أن النهي عن الصلاة في القبور كان لأجل النجاسة فإذا انعدمت النجاسة جاز ذلك، فهذا أبعد شيء عن مقاصد الرسول، وهو باطل لأن الأحاديث كلها ليس فيها فرق بين المقبرة الحديثة والمنبوشة كما يقوله المعللون بالنجاسة، كما أنه ﷺ لعن اليهود والنصارى على اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، ومعلوم قطعا أن هذا ليس لأجل النجاسة، فإن ذلك لا يختص بقبور الأنبياء، ولأن قبور الأنبياء من أطهر البقاع وليس للنجاسة عليها طريق ألبتة، فإن الله عز وجل حرم على الأرض أن تأكل أجسادهم [3].

---

(١) البخاري في اللباس، باب الأكسية والخمائص ٥/٢١٩٠ (٥٤٧٨)، ومسلم في كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد ١/٣٧٧ (٥٣١)، ومعنى نزل أي نزلت به سكرات الموت، وطفق جعل وشرع، والخميصة كساء مربع أسود له أعلام أي خطوط.

(٢) رواه مسلم في الموضع السابق ١/٣٧٧ (٥٣٠)، واللفظ المذكور عند أحمد في المسند ٢/٢٨٥ (٧٨١٨).

(٣) إغاثة اللهفان لابن القيم ص١٨٧ بتصرف.

وأيضا فإن فتنة الشرك بالصلاة في القبور ومشابهة عباد الأوثان أعظم بكثير من مفسدة الصلاة بعد العصر والفجر، فإذا نهى عن ذلك سدا لذريعة التشبه التي لا تكاد تخطر ببال المصلي، فكيف بهذه الذريعة القريبة التي كثيرا ما تدعو صاحبها إلى الشرك ودعاء الموتى واستغاثتهم وطلب الحوائج منهم، واعتقاد أن الصلاة عند قبورهم أفضل منها في المساجد وغير ذلك مما هو محادة ظاهرة لله ورسوله ﷺ، فأين التعليل بنجاسة البقعة من هذه المفسدة؟ [(١)].

ومما يدل على أن النبي ﷺ قصد منع هذه الأمة من الفتنة بالقبور كما افتتن بها قوم نوح ومن بعدهم أنه ﷺ قرن في اللعن بين متخذي المساجد عليها وموقدي السرج عليها، فهما في اللعنة قرينان وفي ارتكاب الكبيرة صنوان، فإن كل ما لعن رسول الله ﷺ فهو من الكبائر، ومعلوم أن إيقاد السرج عليها، إنما لعن فاعله لكونه وسيلة إلى تعظيمها وجعلها نصبا يلجأ إليه المشركون كما هو الواقع، فهكذا اتخاذ المساجد عليها، ولهذا قرن بينهما فإن اتخاذ المساجد عليها تعظيم لها وتعريض للفتنة بها [(٢)].

وبالجملة فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه وفهم عن الرسول مقاصده جزم جزما لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة منه باللعن والنهي بصيغتيه، صيغة لا تفعلوا، وصيغة إني أنهاكم، ليس لأجل النجاسة، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة بمن عصاه، وارتكب ما عنه نهاه،

---

(١) إغاثة اللهفان ص ١٨٨ بتصرف.

(٢) السابق ص ١٨٨ بتصرف.

واتبع هواه، ولم يخش ربه ومولاه، وقل نصيبه أو عدم في تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، فإن هذا وأمثاله من النبي ﷺ صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريد له وغضب لربه أن يعدل به سواه، فأبى المشركون إلا معصية لأمره وارتكابا لنهيه وغرهم الشيطان فقال وقالوا بقوله: بل هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم أشد لها تعظيما وأشد فيهم غلوا كنتم بقربهم أسعد ومن أعدائهم أبعد(١).

- **إقامة الموالد من البدع الشركية المتعلقة بالجوارح.**

أوقع الشيطان كثيرا من الناس في تعظيم غير الله وتقديسه باتخاذ قبره عيدا، والعيد ما يعتاد مجيئه وقصده من مكان وزمان، فأما الزمان فكقوله ﷺ: (يوم عرفة ويوم النحر وأيام منى عيدنا أهل الإسلام) (٢).

وأما المكان فكما روي ابن ماجة في سننه وصححه الألباني أن رجلا قال: يا رسول الله إني نذرت أن أنحر إبلا ببوانة، فقال: أبها وثن من أوثان المشركين أو عيد من أعيادهم قالا: لا، قال: فأوف بنذرك(٣).

وعند أبي داود وصححه الألباني من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لاَ تَجْعَلوا بُيُوتكُمْ قُبُورًا وَلاَ تَجْعَلوا قَبْرِي عِيدًا وَصَلوا عَلَيَّ فَإِن صَلاَتكُمْ تبْلغُني حَيْثُ كُنتمْ) (٤).

---

(١) السابق ص ١٨٩ بتصرف.

(٢) رواه أبو داود في كتاب الصوم، باب صيام أيام التشريق ٢/٣٢٠ (٢٤١٩)، وأحمد في المسند ٤/١٥٢ (١٧٤١٧) وصححه الألباني، انظر إرواء الغليل ٤/١٣٠.

(٣) رواه ابن ماجه في كتاب الكفارات، باب الوفاء بالنذر ١/٦٨٨ (٢١٣١)، وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٣٤٣٧).

(٤) أبو داود في المناسك، زيارة القبور ٢/٢١٨ (٢٠٤٢)،صحيح الجامع (٧٢٢٦).

والعيد مأخوذ من المعاودة والاعتياد فإذا كان اسما للمكان فهو المكان الذي يقصد الاجتماع فيه وانتيابه للعبادة أو لغيرها كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله تعالى عيدا للحنفاء ومثابة كما جعل أيام التعبد فيها عيدا.

وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية فلما جاء الله بالإسلام أبطلها وعوض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى كما عوضهم عن أعياد المشركين المكانية بالكعبة البيت الحرام وعرفة ومنى والمشاعر، فاتخاذ القبور عيدا هو من أعياد المشركين التي كانوا عليها قبل الإسلام وقد نهى رسول الله ﷺ أن يتخذ قبره عيدا وهو سيد القبور منبها به على غيره [(١)].

وقد ذكر ابن القيم وجه الدلالة وبين فيه أن قبر رسول الله ﷺ أفضل قبر على وجه الأرض، وقد نهى عن اتخاذه عيدا فقبر غيره أولى بالنهي كائنا من كان، ثم إنه قرن ذلك بقوله: ولا تتخذوا بيوتكم قبورا، أي لا تعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور فأمر بتحري النافلة في البيوت، ونهى عن تحري العبادة عند القبور، وهذا ضد ما عليه المشركون من النصارى وأشباههم، ثم إنه عقب النهي عن اتخاذه عيدا، بقوله: وصلوا علي، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم، يشير بذلك إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبعدكم، فلا حاجة بكم إلى اتخاذه عيدا[(٢)].

---

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم ص ١٩١ بتصرف.

(٢) السابق ص١٩٢ بتصرف.

وقد حرف هذه الأحاديث بعض من أخذ شبها من النصارى بالشرك وشبها من اليهود بالتحريف، فقال: هذا أمر بملازمة قبره والعكوف عنده واعتياد قصده وانتيابه، ونهي أن يجعل كالعيد الذي إنما يكون في العام مرة أو مرتين، فكأنه قال: لا تجعلوه بمنزلة العيد الذي يكون من الحول إلى الحول، واقصدوه كل ساعة، وكل وقت، وهذا مراغمة ومحادة لله، ومناقضة لما قصده الرسول، وقلب للحقائق ونسبة الرسول إلى التدليس والتلبيس بعد التناقض، فقاتل الله أهل الباطل أنى يؤفكون، ولا ريب أن من أمر الناس باعتياد أمر وملازمته وكثرة انتيابه بقوله: لا تجعلوه عيدا، فهو إلى التلبيس وضد البيان أقرب منه إلى الدلالة والبيان، فإن لم يكن هذا تنقيصا فليس للتنقيص حقيقة فينا، كمن يرمى أنصار الرسول وحزبه بدائه ومصابه وينسل كأنه بريء، ولا ريب أن ارتكاب كل كبيرة بعد الشرك أسهل إثما، وأخف عقوبة من تعاطي مثل ذلك في دينه وسنته، وهكذا غيرت ديانات الرسل ولولا أن الله أقام لدينه الأنصار والأعوان الذابين عنه لجرى عليه ما جرى على الأديان قبله[1].

ولو أراد رسول الله ﷺ ما قاله هؤلاء الضلال لم ينه عن اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، ويلعن فاعل ذلك، فإنه إذا لعن من اتخذها مساجد يعبد الله فيها، فكيف يأمر بملازمتها، والعكوف عندها، وأن يعتاد قصدها وانتيابها، ولا تجعل كالعيد الذي يجيء من الحول إلى الحول، وكيف يسأل ربه أن لا يجعل قبره وثنا يعبد، وكيف لم يفهم أصحابه وأهل بيته من ذلك ما فهمه هؤلاء الضلال الذين جمعوا بين الشرك

(١) السابق ص١٩٢ بتصرف.

والتحريف[1].

ثم إن في اتخاذ القبور أعيادا من المفاسد العظيمة التي لا يعلمها إلا الله تعالى ما يغضب لأجله كل من في قلبه وقار لله تعالى وغيرة على التوحيد وتهجين وتقبيح للشرك، ولكن ما لجرح بميت إيلام، فمن مفاسد اتخاذها أعيادا الصلاة إليها، والطواف بها، وتقبيلها واستلامها وتعفير الخدود على ترابها، وعبادة أصحابها، والاستغاثة بهم وسؤالهم النصر والرزق والعافية، وقضاء الديون وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وغير ذلك من أنواع الطلبات التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم، فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيدا، وقد نزلوا عن الدواب إذا رأوها من مكان بعيد، فوضعوا لها الجباية وقبلوا الأرض وكشفوا الرءوس، وارتفعت أصواتهم بالضجيج، وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج، فاستغاثوا بمن لا يبدي ولا يعيد، ونادوا ولكن من مكان بعيد، حتى إذا دنوا منها صلوا عند القبر ركعتين، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر، ولا أجر من صلى إلى القبلتين، فتراهم حول القبر ركعا سجدا يبتغون فضلا من الميت ورضوانا، وقد ملئوا أكفهم خيبة وخسرانا، فلغير الله بل للشيطان ما يراق هناك من العبرات، وما يرتفع من الأصوات، ويطلب من الميت من الحاجات، ويسأل من تفريج الكربات، وإغناء ذوي الفاقات ومعافاة أولى العاهات والبليات[2].

ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين تشبيها له بالبيت الحرام الذي جعله الله مباركا وهدى للعالمين، ثم أخذوا في التقبيل والاستلام،

---

(١) إغاثة اللهفان ص١٩٣ بتصرف.

(٢) السابق ص١٩٤ بتصرف.

أرأيت الحجر الأسود وما يفعل به وفد البيت الحرام، ثم عفروا لديه تلك الجباه والخدود التي يعلم الله أنها لم تعفر كذلك بين يديه في السجود، ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلاق، واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن، إذ لم يكن لهم عند الله من خلاق، وقربوا لذلك الوثن القرابين، وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين، فلو رأيتهم يهنئ بعضهم بعضا ويقول: أجزل الله لنا ولكم أجرا وافرا وحظا، فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحج المتخلف إلى البيت الحرام فيقول: لا ولو بحجك كل عام[1].

قال ابن القيم بعد أن فصل ما يحدث في هذه الموالد: (هذا ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم، إذ هي فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال، وهذا كان مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح، وكل من شم أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهم الأمور سد الذريعة إلى هذا المحذور، وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهي عنه لما يؤول إليه، وأحكم في نهيه عنه وتوعده عليه، وأن الخير والهدى في اتباعه، وطاعته والشر والضلال في معصيته ومخالفته) [2].

- **الزيارة الشركية إلى الأضرحة من الشرك المتعلق بالجوارح.**

زيارة الموحدين للقبور مقصودها، تذكر الآخرة، والاعتبار بها

---

(١) إغاثة اللهفان ص١٩٤ بتصرف.
(٢) السابق ص١٩٥ بتصرف.

والاتعاظ بحالها، وما سيكون من المصير إليها، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك فيما رواه ابن ماجه وصححه الألباني عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (زوروا القبور، فإنها تذكركم الآخرة) [(١)].

كما أن زيارة القبر فيها إحسان إلى الميت، وأن لا يطول عهده به فيهجره ويتناساه، كما إذا ترك زيارة الحي مدة طويلة تناساه، فإذا زار الحي فرح بزيارته، وسر بذلك فالميت أولى؛ لأنه قد صار في دار قد هجر أهلها إخوانهم وأهلهم ومعارفهم، فإذا زاره وأهدى إليه هدية من دعاء أو صدقة، ازداد بذلك سروره وفرحه كما يسر الحي بمن يزوره ويهدي له، ولهذا شرع النبي للزائرين أن يدعوا لأهل القبور بالمغفرة والرحمة وسؤال العافية فقط، ولم يشرع أن يدعوهم، ولا أن يدعوا بهم ولا يصلي عندهم. والزيارة المشروعة فيها إحسان الزائر إلى نفسه باتباع السنة، والوقوف عند ما شرعه الرسول ﷺ فيحسن إلى نفسه وإلى المزور[(٢)].

وأما الزيارة الشركية التي يرافقها شد الرحال إلى القبور والأضرحة والقباب المنصوبة على الموتى فأصلها مأخوذ عن عباد الأصنام، حيث زعموا أن الميت المعظم الذي لروحه قرب ومنزلة ومزية عند الله تعالى لا يزال تأتيه الألطاف من الله تعالى وتفيض على روحه الخيرات، فإذا علق الزائر روحه به وأدناها منه فاض من روح المزور على روح الزائر من تلك الألطاف بواسطتها، كما ينعكس الشعاع من المرآة الصافية والماء

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الجنائز، باب ما جاء في زيارة القبور ٥٠٠/١ (١٥٦٩)، وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع (٣٥٧٧).

(٢) إغاثة اللهفان لابن القيم ص٢١٨ بتصرف.

ونحوه على الجسم المقابل له، فتمام الزيارة عندهم أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه إلى الميت، ويعكف بهمته عليه، ويوجه قصده كله وإقباله عليه بحيث لا يبقى فيه التفات إلى غيره(١).

وكلما كان جمع الهمة والقلب عليه أعظم كان أقرب إلى انتفاعه به، فتحدث كما ادعت الفلاسفة فيوضات وألطاف من الأرواح العلوية يتأثر بها كل واحد من الطرفين، وهذا السر هو الذي أوجب لعباد القبور اتخاذها أعيادا وتعليق الستور عليها وإيقاد السرج عليها وبناء المساجد عليها، وهو الذي قصد رسول الله إبطاله ومحوه بالكلية، وسد الذرائع المفضية إليه، فوقف المشركون في طريقه وناقضوه في قصده، وهذا الذي ذكره هؤلاء المشركون في زيارة القبور هو بعينه الشفاعة التي ظنوا أن آلهتهم تنفعهم بها، وتشفع لهم عند الله تعالى، حيث زعموا أن العبد إذا تعلقت روحه بروح الوجيه المقرب عند الله، وتوجه بهمته إليه وعكف بقلبه عليه، صار بينه وبينه اتصال يفيض به عليه منه نصيب مما يحصل له من الله، وشبهوا ذلك بمن يخدم ذا جاه وحظوة وقرب من السلطان، فهو شديد التعلق به، فلا شك أنه سينال من السلطان من النعم والخيرات بحسب قوة تعلقه به، فهذا سر عبادة الأصنام وهو الذي بعث الله رسله وأنزل كتبه بإبطاله وتكفير أصحابه ولعنهم، وأباح دماءهم وأموالهم وسبي ذراريهم وأوجب لهم النار، والقرآن من أوله إلى آخره مملوء من الرد على أهله وإبطال مذهبهم(٢).

---

(١) إغاثة اللهفان ص٢١٩ بتصرف.

(٢) السابق ص٢١٩ بتصرف.

ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور وما أمر به ونهى عنه وما كان عليه أصحابه ﷺ وبين ما عليه أكثر الناس اليوم رأي أحدهما مضادا للآخر مناقضا له بحيث لا يجتمعان أبدا فنهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يصلون عندها، ونهى النبي ﷺ عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد، ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيوت الله تعالى، ونهى النبي ﷺ عن إيقاد السرج عليها، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها، ونهى النبي ﷺ أن تتخذ عيدا وهؤلاء يتخذونها أعيادا، ومناسك ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر، وأمر بتسويتها كما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي أن علي بن أبي طالب ﷺ قال له: (ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله، أن لا تدع تمثالا إلا طمسته، ولا قبرا مشرفا إلا سويته) [1].

وهؤلاء يبالغون في مخالفة الحديث ويرفعونها عن الأرض كالبيت، ويعقدون عليها القباب، ونهى النبي ﷺ عن تجصيص القبر والبناء عليه، والكتابة عليه وهؤلاء يجصصونها ويتخذون عليها الألواح ويكتبون عليها القرآن وغيره، ونهى النبي ﷺ عن شد الرحال إليها كما روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجد الرسول، ومسجد الأقصى) [2].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنائز، باب الأمر بتسوية القبر ٦٦٦/٢ (٩٦٩).
(٢) البخاري في التطوع، فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ٣٩٨/١ (١١٣٢)، ومسلم في الحج، باب لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد ١٠١٤/٢ (١٣٩٧).

والمقصود أن هؤلاء المعظمين للقبور المتخذينها أعيادا الموقدين عليها السرج الذين يبنون عليها المساجد والقباب مناقضون لما أمر به رسول الله ﷺ محادون لما جاء به، وأعظم ذلك اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها، وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجا، ووضعوا له مناسك، حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتابا وسماه مناسك حج المشاهد مضاهاة منه بالقبور للبيت الحرام، ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام، ودخول في دين عباد الأصنام، فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله ﷺ وقصده وما شرعه هؤلاء وقصدوه(١).

ولا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يعجز العبد عن حصره فمنها تعظيمها الموقع في الافتتان بها، ومنها اتخاذها عيدا، ومنها السفر إليها، ومنها مشابهة عبادة الأصنام بما يفعل عندها، من العكوف عليها والمجاورة عندها، وتعليق الستور عليها وسدانتها، وعبادها يرجحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام، ويرون سدانتها أفضل من خدمة المساجد، والويل عندهم لمن يطفيء القنديل المعلق عليها، ومنها النذر لها ولسدنتها، ومنها اعتقاد المشركين بها أن بها يكشف البلاء، ويكون النصر على الأعداء، ويستنزل غيث السماء، وتفرج الكروب، وتقضى الحوائج، وينصر المظلوم، ويجار الخائف إلى غير ذلك ومنها الدخول في لعنة الله تعالى ورسوله باتخاذ المساجد عليها وإيقاد السرج عليها، ومنها الشرك الأكبر الذي يفعل عندها(٢).

---

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم ص١٩٧ بتصرف.

(٢) السابق ص١٩٧ بتصرف.

ومنها إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم، فإنهم يؤذيهم ما يفعل عند قبورهم ويكرهونه غاية الكراهة، كما أن المسيح يكره ما يفعله النصارى عند قبره،وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء والمشايخ يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم، ويوم القيامة يتبرءون منهم كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ ﴾ الفرقان:١٧/١٨

قال الله للمشركين: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ الفرقان:١٩.

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ سبأ:٤٠/٤١.

وكان رسول الله ﷺ قد نهى الرجال عن زيارة القبور سدا للذريعة فلما تمكن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها على الوجه الذي شرعه فمن زارها على غير الوجه المشروع الذي يحبه الله ورسوله فإن زيارته غير مأذون فيها، ومن أعظم الهجر الشرك عندها قولا وفعلا[1].

وانظر إلى الزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ لأمته وعلمهم إياها هل

(١) السابق ص٢٠٠ بتصرف.

تجد فيها شيئا مما يعتمده أهل الشرك والبدع أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه، فجرد السلف العبادة لله ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أذن فيه رسول الله من السلام على أصحابها والاستغفار لهم والترحم عليهم وبالجملة فالميت قد انقطع عمله فهو محتاج إلى من يدعو له ويشفع له ولهذا شرع في الصلاة عليه من الدعاء له وجوبا واستحبابا ما لم يشرع مثله في الدعاء للحي[1].

وقد زين الشيطان لكثير من الناس سوء عملهم واستزلهم عن إخلاص الدين لربهم إلى أنواع من الشرك فيقصدون بالسفر والزيارة رضى غير الله والرغبة إلى غيره ويشدون الرحال إما إلى قبر نبي أو صاحب أو صالح أو ما يظنون أنه نبي أو صاحب أو صالح داعين له راغبين إليه، ومنهم من يظن أن المقصود من الحج هو هذا فلا يستشعر إلا قصد المخلوق المقبور ومنهم من يرى أن ذلك أنفع له من حج البيت، ومن شيوخهم من يقصد حج البيت فإذا وصل إلى المدينة رجع مكتفيا بزيارة القبر وظن أن هذا أبلغ، وأكثرهم يسأل الميت المقبور كما يسأل الحي الذي لا يموت فيقول يا سيدي فلان اغفر لي وارحمني وتب علي أو يقول اقض عني الدين وانصرني على فلان وأنا في حسبك وجوارك وهذا وأمثاله من الكفر الصريح باتفاق علماء المسلمين[2].

• الرد على زعمهم بأن من نهى عن اتخاذ القبر عيدا فقد تنقصه.

إذا نهى الموحد عن اتخاذ القبر عيدا، ونهى عن إيقاد السرج عليه،

(١) السابق ص٢٠١ بتصرف.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ١/٤٥٧ بتصرف.

وبناء المساجد، والقباب عليه، وتجصيصه وإشادته وتقبيله واستلامه ودعائه، أو الدعاء به، أو السفر إليه، أو الاستغاثة به من دون الله، مما قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله ﷺ من تجريد التوحيد لله، وأن لا يعبد إلا الله، فإذا نهى الموحد عن ذلك غضب المشركون واشمأزت قلوبهم، تشابهت قلوبهم مع من وصفهم الله من المشركين: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ الزمر:٤٥.

وزعموا أن الموحد تنقص الأولياء أهل الرتب العالية، وزعم أنهم لا حرمة لهم ولا قدر، وسرى ذلك في نفوس الجهال والعوام، وكثير ممن ينسب إلى العلم والدين، حتى عادوا أهل التوحيد ورموهم بالعظائم ونفروا الناس عنهم، ووالوا أهل الشرك وعظموهم، وزعموا أنهم هم أولياء الله، وأنصار دينه ورسوله، ويأبى الله ذلك، فما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتبعون له، الموافقون له، العارفون بما جاء به، الداعون إليه لا المتشبعون بما لم يعطوا، لابسو ثياب الزور، الذين يصدون الناس عن سنة نبيهم ويبغونها عوجا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

ولا تحسب أيها المنعم عليه باتباع صراط الله المستقيم صراط أهل نعمته ورحمته وكرامته أن النهي عن اتخاذ القبور أوثانا، وأعيادا وأنصابا، والنهي عن اتخاذها مساجد، أو بناء المساجد عليها، وإيقاد السرج عليها، والسفر إليها، والنذر لها واستلامها، وتقبيلها، وتعفير الجباه في عرصاتها، ولا تحسب أن النهي عن ذلك غض من أصحابها، ولا تنقيص لهم، ولا تنقص كما يحسبه أهل الإشراك والضلال، بل ذلك من إكرامهم وتعظيمهم، واحترامهم ومتابعتهم فيما يحبونه، وتجنب ما

يكرهونه، فأنت والله وليهم ومحبهم وناصر طريقتهم وسنتهم، وعلى هديهم ومنهاجهم[1].

وهؤلاء المشركون أعصى الناس لهم، وأبعدهم من هديهم، ومتابعتهم كالنصارى مع المسيح، واليهود مع موسى عليهما السلام، والرافضة مع علي ﷺ، فأهل الحق أولى بأهل الحق من أهل الباطل، فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض، فاعلم أن القلوب إذا اشتغلت بالبدع أعرضت عن السنن، فتجد أكثر هؤلاء العاكفين على القبور معرضين عن طريقة من فيها وهديه وسنته، مشتغلين بقبره عما أمر به ودعا إليه، وتعظيم الأنبياء والصالحين ومحبتهم إنما هي باتباع ما دعوا إليه من العلم النافع والعمل الصالح، واقتفاء آثارهم وسلوك طريقتهم دون عبادة قبورهم، والعكوف عليها واتخاذها أعيادا، فإن من اقتفى آثارهم كان متسببا إلى تكثير أجورهم باتباعه لهم، ودعوته الناس إلى اتباعهم، فإذا أعرض عما دعوا إليه، واشتغل بضده حرم نفسه وحرمهم ذلك الأجر، فأي تعظيم لهم واحترام في هذا.

وإنما اشتغل كثير من الناس بأنواع من العبادات المتبدعة التي يكرهها الله ورسوله لإعراضهم عن المشروع أو بعضه، وإن قاموا بصورته الظاهرة فقد هجروا حقيقته المقصودة منه، وإلا فمن أقبل على الصلوات الخمس بوجهه وقلبه عارفا بما اشتملت عليه من الكلم الطيب والعمل الصالح مهتما بها كل الاهتمام أغنته عن الشرك، وكل من قصر فيها أو في بعضها تجد فيه من الشرك بحسب ذلك[2].

---

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم ص٢١٣ بتصرف.

(٢) السابق ص٢١٤ بتصرف.

ومن أصغى إلى كلام الله بقلبه وتدبره وتفهمه أغناه عن السماع الشيطاني الذي يصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وينبت النفاق في القلب، وكذلك من أصغى إليه وإلى حديث الرسول ﷺ وحدث نفسه باقتباس الهدى والعلم منه لا من غيره، أغناه عن البدع والآراء، والتخرصات والشطحات، والخيالات التي هي وساوس النفوس وتخيلاتها، ومن بعد عن ذلك فلابد له أن يتعوض عنه بما لا ينفعه، كما أن من غمر قلبه بمحبة الله تعالى، وذكره وخشيته، والتوكل عليه، والإنابة إليه، أغناه ذلك عن محبة غيره وخشيته، والتوكل عليه، وأغناه أيضا عن عشق المخلوق، وإذا خلا من ذلك صار عبد هواه، أي شيء استحسنه ملكه واستعبده، فالمعرض عن التوحيد مشرك شاء أو أبى، والمعرض عن السنة مبتدع ضال شاء أم أبى، والمعرض عن محبة الله، وذكره عبد المخلوق شاء أم أبى[1].

● الطقوس الصوفية والمكاء والتصدية من الشرك المتعلق بالجوارح.

كان المشركون في قريش يطوفون بالبيت الحرام عراة، ويصفرون ويصفقون عنده، بل كانوا يعارضون النبي ﷺ في الطواف ويصفرون ويصفقون، يخلطون عليه طوافه وصلاته، فالمتقربون إلى الله ﷻ بالصفير والتصفيق أشباه الراقصين والمصفقين في موالد اليوم، والمصفرين في مزمار ونحوه فيهم شبه من هؤلاء ولو أنه مجرد الشبه الظاهر، فلهم قسط من الذم بحسب تشبههم بهم، وإن لم يتشبهوا بهم في جميع مكائهم وتصديتهم، والله سبحانه لم يشرع التصفيق للرجال

---

(١) السابق ص٢١٤ بتصرف.

وقت الحاجة إليه في الصلاة إذا نابهم أمر، بل أمِروا بالعدول عنه إلى التسبيح لئلا يتشبهوا بالنساء، فكيف إذا فعلوه لا لحاجة وقرنوا به أنواعا من المعاصي قولا وفعلا[1].

وقد تفشى بين عامة المسلمين ما يسمى بالسماع والمدائح الصوفية والتغني بالأشعار مع دق الطبول في الموالد، ويدعي الصوفية أنهم يقصدون بهذا عبادة الله تعالى، وسماع المدائح عندهم له أثر كبير في نفوسهم بل يتضح جليا لمن شاهدهم أن تأثرهم بالسماع من خلال الألحان والأشعار والطبول أكثر من تأثرهم بالقرآن، وقد صرح عبد الوهاب الشعراني بذلك نصا وعد ذلك من كراماتهم فقال: (ومنهم أبو يعقوب يوسف بن الحسين الرازي ﷺ شيخ الري والجبال في وقته وكان عالماً أديباً.. وكان ﷺ إذا سمع القرآن لا تقطر له دمعة وإذا سمع شعراً قامت قيامته) [2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وأما المشركون فكان سماعهم كما ذكره الله تعالى في كتابه بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ الأنفال:٣٥.

قال السلف: المكاء الصفير والتصدية التصفيق باليد، فكان المشركون يجتمعون في المسجد الحرام يصفقون ويصوتون، يتخذون ذلك عبادة وصلاة، فذمهم الله على ذلك، وجعل ذلك من الباطل الذي نهى عنه، فمن اتخذ نظير هذا السماع عبادة وقربة يتقرب بها إلى الله، فقد ضاهى

---

(١) السابق ص٢٤٥ بتصرف.

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني ص١٣٠ نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

هؤلاء في بعض أمورهم، وكذلك لم تفعله القرون الثلاثة التي أثنى عليها النبي ولا فعله أكابر المشايخ)[1].

وسماع المدائح عند الرقص الصوفي في موالد أوليائهم كان وما يزال من الأمور المقدسة في اعتقاداتهم، بل ربما تصاب الأمة بوباء قاتل كالمرض الذي يسمى في عصرنا بأنفلونزا الخنازير، وتمنع الدولة موالد الصوفية التي يجتمع فيها الملايين إلا أن سدنة الموتى من الأولياء يقيمون احتفالاتهم ورقصهم اعتقادا منهم في أن سيدهم الولي سيحميهم من المرض كما حدث من سدنة البدوي حين أقاموا المولد حتى لو خالفوا الدنيا بأسرها.

لو رأى العاقل ما يحدث في تلك الموالد عند بداية سماعهم للقصائد، وقد خشعت منهم الأصوات، وهدأت منهم الحركات، وعكفت قلوبهم بكُليتها عليه، وانصبت انصبابة واحدة إليه، فتمايلوا ولا كتمايل النشوان، وتكسروا في حركاتهم ورقصهم من غلبة التواجد في ذكرهم حتى غاب بالمذكور المشهود المحبوب المعبود عما سواه، فيقول أحدهم في هذه الحال الله الله الله... أو يتلفظ بألفاظ كفرية، وينادي الولي باستغاثات شركية، ثم ينجذب فيقع ويتمرغ في الأرض بين الناس ويشق ملابسه ويقطع خرقته، فيجتمع الناس متلهفين على الاستحواذ على جزء من تلك الخرقة طلبا للنفحة والبركة.

وقد تمادى بعضهم منذ القدم في الكتابة عن أحكام تلك الخرقة الممزقة من قبل المجذوب وكيف اختلف كبار الصوفية في هذا الحكم،

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣/٤٢٧.

هل يتم طرحها للمريدين ليتبركوا بها؟ أو هل يجب إعادتها للمجذوب مرة أخرى؟ أو هل يأخذها القوال الذي يغني المدائح؟ ثلاثة أقوال تكلم عنها القشيري في آداب المريد في السماع الصوفي عند الرقص وجعلها على ثلاثة أقوال فقال:

(فالمريد لا يسلم له الحركة في السماع بالاختيار ألبتة؛ فإن ورد عليه وارد حركة لم يكن فيه فضل قوة، فبمقدار الغلبة يعذر، فإذا زالت الغلبة يجب عليه القعود والسكون، فإن استدام الحركة مستحلياً للوجد من غير غلبة وضرورة لم يصح، فإن تعود ذلك يبقى متخلفاً لا يكاشف بشيء من الحقائق، فغاية أحواله حينئذ أن يطيب قلبه، وفي الجملة إن الحركة تأخذ من كل متحرك وتنقص من حاله، مريداً كان أو شيخاً، إلا أن تكون بإشارة من الوقت، أو غلبة تأخذه عن التمييز، فإن كان مريداً أشار عليه الشيخ بالحركة فتحرك على إشارته فلا بأس إذا كان الشيخ ممن له حكم على أمثاله، وأما إذا أشار عليه الفقراء بالمساعدة في الحركة فيساعدهم في القيام، وفي أداء ما لا يجد منه بداً مما يراعى عن الاستيحاش لقلوبهم، ثم إن صدقه في حاله يمنع قلوب الفقراء من سؤالهم عند المساعدة معهم، وأما طرح الخِرقة فحق المريد أن لا يرجع في شيء منه ألبتة، اللهم إلا أن يشير عليه شيخ بالرجوع فيه، فيأخذه على نية العارية بقلبه، ثم يخرج عنه بعده من غير أن يستوحش قلب ذلك الشيخ، وإذا وقع بين قوم عادتهم طرح الخرقة، وعلم أنهم يرجعون فيها، فإن لم يكن فيهم شيخ تجب حشمته وحرمته، وكان طريق هذا المريد أن لا يعود في الخرقة فالأحسن له أن يساعدهم في الطرح، ثم يؤثر به القوال إذا رجعوا هم فيها، ولو لم يطرح؛ فإنه يجوز

إذا علم من عادة القوم أنهم يعودون فيما طرحوا فإن القبيح إنما هو سنتهم في العود إلى الخرق، لا في مخالفته لهم، على أن الأولى الطرح على الموفقة، ثم ترك الرجوع فيه) [١].

● النذر لغير الله من الشرك الأكبر المتعلق بالجوارح.

النذر عبادة وقربة إلى الله، ولهذا مدح الله الموفين به، فإن نذر لمخلوق تقربا إليه ليشفع له عند الله ويكشف ضره ونحو ذلك فقد أشرك في عبادة الله تعالى غيره ضرورة، كما أن من صلى لله وصلى لغيره فقد أشرك كذلك النذر لقول الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ الإنسان:٧. فمدح الموفين بالنذر، والله تعالى لا يمدح إلا على فعل واجب أو مستحب أو ترك محرم، لا يمدح على فعل المباح المجرد، وذلك هو العبادة، فمن فعل ذلك لغير الله متقربا إليه فقد أشرك[٢].

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٢٧٠﴾ البقرة:٢٧٠.

وأكثر العوام على ما هو مشاهد كأن يكون للإنسان غائب أو مريض أو له حاجة ضرورية فيأتي إلى بعض الصلحاء ويجعل على رأسه سترة ويقول يا سيدي فلان إن رد الله غائبي أو عوفي مريضي أو قضيت حاجتي فلك من الذهب كذا أو من الفضة كذا أو من الطعام كذا أو من الماء ومن الشمع والزيت كذا، فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه

(١) الرسالة القشيرية ص٤٣٣ نشر دار الكتب العلمية بيروت.
(٢) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ص١٦١ بتصرف.

منها أنه نذر لمخلوق والنذر للمخلوق، لا يجوز لأنه عبادة، والعبادة لا تكون لمخلوق، ومنها أن المنذور له ميت والميت لا يملك، ومنها أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله، واعتقاد ذلك كفر[١].

وذكر الرافعي أن النذر للمشاهد التي بنيت على قبر ولي أو شيخ أو على اسم من حلها من الأولياء أو تردد في تلك البقعة من الأنبياء والصالحين فإن قصد الناذر بذلك وهو الغالب أو الواقع من قصود العاقد في تعظيم البقعة والمشهد والزاوية أو تعظيم من دفن بها أو نسبت إليه أو بنيت على اسمه فهذا النذر باطل غير منعقد فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات لأنفسها ويرون أنها مما يدفع به البلاء ويستجلب به النعماء ويستشفى بالنذر لها من الأدواء حتى إنهم ينذرون لبعض الأحجار لما قيل إنه جلس إليها أو استند إليها عبد صالح وينذرون لبعض القبور السرج والشموع والزيت ويقولون القبر الفلاني أو المكان الفلاني يقبل النذر يعنون بذلك أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض وقدوم غائب وسلامة مال وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة فهذا النذر على هذا الوجه باطل لا شك فيه بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقا من ذلك نذر الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الخليل عليه السلام ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء فإن الناذر لا يقصد بذلك إلا الإيقاد على القبر تبركا وتعظيما ظانا أن ذلك قربة فهذا مما لا ريب في بطلانه والانقياد المذكور محرم سواء انتفع به هناك منتفع أم لا إلى آخر كلامه[٢].

---

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ص١٦٣ بتصرف.

(٢) السابق ص١٦٣ بتصرف.

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) ﴾ الأنعام: ١٣٦.

هؤلاء جعلوا لله جزءا من الحرث ولشركائهم ولأوثانهم جزءا، فما ذهبت به الريح مما سموا لله إلى جزء أوثانهم تركوه، وقالوا الله عن هذا غني وما ذهبت به الريح من جزء أوثانهم إلى جزء الله أخذوه، وعباد القبور يجعلون لله جزءا من أموالهم بالنذر والصدقة وللأموات والطواغيت جزءا كذلك، وقد نص غير واحد من العلماء على أن النذر لغير الله شرك(١).

قال ابن تيمية: (وأما النذر للموتى من الأنبياء والمشايخ وغيرهم أو لقبورهم أو المقيمين عند قبورهم فهو نذر شرك ومعصية لله تعالى سواء كان النذر نفقة أو ذهبا أو غير ذلك وهو شبيه بمن ينذر للكنائس والرهبان وبيوت الأصنام وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه(٢).

وقد اتفق العلماء على أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به، بل عليه كفارة يمين في أحد قولي العلماء، وهذا إذا كان النذر لله، وأما إذا كان النذر لغير الله فهو كمن يحلف بغير الله، وهذا شرك، فيستغفر الله منه، وليس في هذا وفاء ولا كفارة، ومن تصدق بالنقود على أهل

---

(١) السابق ص١٦٢ بتصرف.

(٢) البخاري في الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة ٦/٢٤٦٣ (٦٣١٨).

الفقر والدين فأجره على رب العالمين) [1].

وقال أيضا: (وأما عقد اليمين لغير الله فمثل أن ينذر للأوثان والكنائس أو يحلف بذلك فيقول إن فعلت كذا فعلى للكنيسة كذا أو لقبر فلان كذا ونحو ذلك، فهذا إن كان نذرا فهو شرك، وإن كان يمينا فهو شرك، إذا كان يقول ذلك على وجه التعظيم كما يقول المسلم: إن فعلت كذا فعلى هدى، وإما إذا قاله على وجه البغض لذلك كما يقول المسلم إن فعلت كذا فأنا يهودي أو نصراني، فهذا ليس مشركا وفى لزوم الكفارة له قولان معروفان للعلماء، وما كان من نذر شرك أو يمين شرك فعليه أن يتوب إلى الله من عقدها، ليس فيها وفاء ولا كفارة إنما ذلك فيما كان لله أو بالله) [2].

وقد ينذرون أولادهم للمقبور ويسيبون له السوائب من البقر والغنم وغيرها كما كان المشركون يسيبون السوائب لطواغيتهم، ومن السدنة من يضلل الجهال فيقول: أنا أذكر حاجتك لصاحب الضريح وهو يذكرها للنبي ﷺ وهو سيذكرها لله، ومنهم من يعلق على القبر المكذوب أو غير المكذوب من الستور والثياب ويضع عنده من مصوغ الذهب والفضة مما قد أجمع المسلمون على أنه من دين المشركين، وليس من دين الإسلام، والمسجد الجامع معطل خراب صورة ومعنى، وما أكثر من يعتقد من هؤلاء أن صلاته عند القبر المضاف إلى بعض المعظمين مع أنه كذب في نفس الأمر أعظم من صلاته في المساجد

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١١/٥٠٤.
(٢) السابق ٣٣/٤٨.

الخالية من القبور والخالصة لله فيزدحمون للصلاة في مواضع الإشراك المبتدعة التي نهى النبي ﷺ عن اتخاذها مساجد، وإن كانت على قبور الأنبياء ويهجرون الصلاة في البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، ومن أكابر شيوخهم من يقول الكعبة في الصلاة قبلة العامة والصلاة إلى قبر الشيخ فلان مع استدبار الكعبة قبلة الخاصة [١].

قال الشعراني في ترجمته لأحد الأولياء: (وكان ﷺ يقول: رأيت النبي ﷺ، فقال: إذا كان لك حاجة، وأردت قضاءها، فانذر لنفيسة الطاهرة، ولو فلسا فإن حاجتك تقضي) [٢].

- السجود لغير الله كقبور الموتى وأضرحتهم من الشرك الأكبر.

السجود أشرف أنواع العبادات وأعلاها درجة، وهي عبادة الملائكة والسموات والأرض وجميع المخلوقات، وسميت الصلاة كلها سجوداً وركوعا، فتقول سجدت سجدتين وركعت ركعتين، والسجود عبادة اختص الله بها نفسه في شريعة الإسلام، ولم تحل تعظيماً وتكريماً لأحد لا لرسوله ولا لغيره كما قال ﷺ: (لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها) [٣].

وقد أجمعت الأمة على أن السجود لا يكون إلا لله، وأن من سجد لغيره فقد أشرك بالله، لأن حقيقة الشرك هي صرف شيء مما لا تجوز

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ٤٥٨/١ بتصرف.
(٢) الطبقات الكبرى للشعراني ص٣٨٥ نشر دار الكتب العلمية، بيروت.
(٣) رواه الترمذي في كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق الزوج على المرأة ٤٦٥/٣ (١١٥٩)، وصححه الألباني، انظر إرواء الغليل (١٩٩٨)، والسلسلة الصحيحة (٣٣٦٦).

إلا لله لغيره، فمن صرف شيئا من العبادة صلاة أو صياما أو نذرا أو طوافا أو غير ذلك من شؤون العبادات والقربات لغير الله فقد كفر وأشرك شركاً أكبر ينقله عن ملة الإسلام.

بل ذهبت طائفة من أهل العلم إلى أن السجود لغير الله من الكفر الذي لا يعذر فاعله بالاضطرار وأن الرخصة إنما جاءت في القول، وأما في الفعل فلا رخصة فيه مثل أن يكرهوا على السجود لغير الله، أو الصلاة لغير القبلة، أو قتل مسلم، أو ضربه، أو أكل ماله، أو الزنا وشرب الخمر، وأكل الربا، وأنه إذا قيل للأسير اسجد لهذا الصنم وإلا قتلتك، فإن كان الصنم مقابل القبلة فليسجد ويكون نيته لله تعالى، وإن كان لغير القبلة فلا يسجد وإن قتلوه، والصحيح أنهم لو أسجدوه بالإكراه وقلبه مطمئن بالإيمان متوجه إلى الله وحده لا شريك له فهو داخل فيمن استثنى الله [1].

وقال أبو عمر ابن عبد البر: (الوثن الصنم وهو الصورة من ذهب كان أو من فضة، أو غير ذلك من التمثال، وكل ما يعبد من دون الله فهو وثن، صنماً كان أو غير صنم، وكانت العرب تصلي إلى الأصنام وتعبدها، فخشي رسول الله ﷺ على أمته أن تصنع كما صنع بعض من مضى من الأمم، كانوا إذا مات لهم نبي، عكفوا حول قبره كما يصنع بالصنم، فقال ﷺ: اللهم لا تجعل قبري وثنا يصلى إليه، ويسجد نحوه ويعبد، فقد اشتد غضب الله على من فعل ذلك[2].

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/١٨٢.

(٢) روى أحمد في المسند ٢/٢٤٦ (٧٣٥٢) وصححه الألباني، انظر الثمر المستطاب في فقه السنة والكتاب ١/٣٦١ نشر غراس للنشر والتوزيع.

وكان رسول الله ﷺ يحذر أصحابه وسائر أمته من سوء صنيع الأمم قبله، الذين صلوا إلى قبور أنبيائهم واتخذوها قبلة ومسجداً، كما صنعت الوثنية بالأوثان التي كانوا يسجدون إليها ويعظمونها، وذلك الشرك الأكبر، فكان النبي ﷺ يخبرهم بما في ذلك من سخط الله وغضبه، وأنه مما لا يرضاه خشية عليهم امتثال طرقهم (١).

والعجب ممن يقف على هذا الشرك الصريح أن يقوم بإلقاء الشبهات على الناس، فيجعلون الطواف والسجود لهذه القبور ليس شركا، وأنه من باب سجود الملائكة لآدم وسجود أخوة يوسف له والأمر ليس كذلك، فإن كثيرا من المسلمين اليوم يصرفون من العبادات لهذه القبور ما ينبغي أن يتقرب به إلى الله وحده كالدعاء والذبح والنذر والطواف، والسجود والركوع وطلب الحاجات وتفريج الكربات.

- الطواف بقبور الموتى وأضرحتهم من الشرك الأكبر.

قال تعالى لخليله إمام الحنفاء الذي أمره ببناء البيت ودعا الناس إلى حجه: وطهر بيتي للطائفتين والعاكفين والركع السجود. وفى الآية الأخرى والقائمين. فذكر ثلاثة أنواع الطواف والعكوف والركوع مع اسود وقدم الأخص فالأخص فان الطواف لا يشرع الا بالبيت العتيق باتفاق المسلمين، ولهذا اتفقوا على ضلال من يطوف بغير ذلك مثل من يطوف بالصخرة أو بحجرة النبي أو بالمساجد المبنية بعرفة أو منى أو غير ذلك أو بقبر بعض المشايخ أو بعض أهل البيت كما يفعله كثير من عامة المسلمين فان الطواف بغير البيت العتيق لا يجوز باتفاق

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبد البر ٥/٤٥.

المسلمين بل من اعتقد ذلك دينا وقربة عرف أن ذلك ليس بدين باتفاق المسلمين، وأن ذلك معلوم بالضرورة من دين الإسلام فإن أصر على اتخاذه دينا قتل[1].

والطواف بالقبور شرك ومحادة لأمر الله وأمر رسوله، لأن الله أمر بالطواف ببيته فقط أما الطواف بقبر فليس من شعائر الله بل فيه تشريع ما لم يأذن به الله، وتعظيم غيره بما لم يُشرع إلا لتعظيمه وهو الطواف، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ الحج:٢٩. وهو ركن من أركان الحج شرعت له الطهارة، فمن وضع مكانا للطواف غير البيت فقد حاد الله ورسوله، وشرع ما لم يشرعه الله ورسوله.ومن جعل الطواف حول القبر تعظيما له فقد أشرك بالله لأنه صرف عبادة لا تجوز إلا لله فجعلها لغيره كما أن المقابر والمشاهد المنصوبة أمرنا الله تعالى بهدمها وتسويتها بالأرض، فالذي يطوف حول القبر يعظم مكانا ونصبا أمرنا بهدمه وإزالته فهو معاندٌ محادٌ لله ورسوله.

كما أن البناء على القبور وتعظيمها والطواف بها والذبح لها والنذر لها والصلاة إليها كل ذلك ليس من شعائر الله بل هو من شعائر الشرك ولم يأمر الله ولا رسوله بشيء من ذلك بل جاء أمر الله وأمر رسوله بالنهي عن ذلك ولعن فاعله، كما أن كثيراً من الذين يطوفون بهذه القبور ويعظمونها بالذبح عندها ودعاء أصحابها يعتقدون فيهم النفع والضر بل ويعطونهم كل صفات الله سبحانه وتعالى من الإحياء

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٦/٢٥٠ بتصرف.

والإماتة والخلق والرزق وعلم الغيوب والتصرف في الكون عُلوه وسفله، ومغفرة الذنوب والشفاعة اللازمة على الله.

- الذبح لغير الله من الشرك الأكبر المتعلق بالجوارح.

دلت نصوص الكتاب والسنة على الأمر بالذبح لله تعالى، وإخلاص ذلك لوجهه كما هي صريحة بذلك في الصلاة. فقد قرن الله تعالى الذبح بالصلاة في مواضع من كتابه، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾ الأنعام: ١٦٢/١٦٣ . ومعنى نسكي أي ذبحي لله لا شريك له، وقال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢﴾ الكوثر:٢. وإذ ثبت أن الذبح لله تعالى من أجل العبادات وأكبر الطاعات فالذبح لغير الله شرك أكبر .

وروى مسلم من حديث عَامِر بن واثلة ﷺ أنه قال: (كُنت عِندَ عَليِّ بْن أَبِي طَالبٍ فَأَتاهُ رَجُل فقَال: مَا كَان النبِيُّ ﷺ يُسِرُّ إِلَيْكَ؟ قَال فَغَضِبَ وقَال: مَا كَان النبِيُّ ﷺ يُسِرُّ إِليَّ شَيْئًا يَكْتُمهُ الناسَ، غَيْرَ أَنهُ قَدْ حَدَّثَني بِكَلمَات أَرْبَعٍ، قَال: فَقَال مَا هُن يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنين؟ قَال: قَال: لعَن اللهُ مَن لعَن وَالدَهُ وَلَعَن اللهُ مَن ذَبحَ لغَيْرِ اللهِ وَلَعَن اللهُ مَن آوَى مُحْدِثًا وَلَعَن اللهُ مَن غَيَّرَ مَنارَ الأَرْضِ)[1].

واللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، والذبح يشمل كل ما يمكن ذبحه من صغير وكبير من بهيمة الأنعام وغيرها، وقوله ﷺ لغير الله يشمل كل من سوى الله حتى لو ذبح لنبي أو ولي أو مَلَك أو جني أو

---

(١) مسلم في الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ١٥٦٧/٣ (١٩٧٨).

غيرهم، لأنه مما أُهل لغير الله به كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ المائدة:٣ . فالذبح عبادة معظمة ومحبة لله تعالى، ولذلك جعل لها موسما في التقرب إليه بهذه العبادة وهو يوم الأضحى لأهل البلدان ولأهل المناسك. والذبح يقوم على أمرين أساسيين وهما الإهلال به وهو ذكر اسم من هي له، والنية والتوجه فلابد من ذكر من تحل الذبيحة باسمه وهو الله ﷻ كما قال تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١١٨﴾ الأنعام:١١٨. ولذلك كانت التسمية باسم الله شرط كل ذبيحة. الأمر الثاني الذي يقوم عليه الذبح هو النية والقصد لأنها عبودية وقربة، وكل ما رغب الشارع فيه بالذبح فإنه مما قصده فيه وجه الله، كذبح الأضاحي والعقيقة وإكرام الضيف، فإن ذبح باسم الله وهي لله، فهذا هو التوحيد، وإن ذبح باسم الله لغير الله فهذا شرك في العبادة وإن ذبح باسم غير الله لغير الله فهذا شرك في الاستعانة وشرك في العبادة ومقتضى التوحيد أن يذبح لله قصداً وتقرباً وأن يسمي الله استعانة وتبركا، وإن لم يقصد بالذبيحة التقرب إلى الله ولا التقرب لغيره ولكنه ذكر اسم الله عليها فإنها من المباح الجائز المأذون فيه، لكنه لا يلحقه أجر لعدم قصد التقرب لله تعالى كالذبح لقصد اللحم أو الإكرام.

ومن صور الشرك أن يأخذ الذبيحة حية ويذبحها عند النصب المبنية على قبور الصالحين في الموالد وغيرها ولحملها محرم، لأنها مما أهل لغير الله به، وكذلك من ذبحها في بيته ونيته معقودة للضريح كما يفعل الجهال من الناس بأن يقيم ليلة لأهل الله من الأقطاب والأوتاد والأبدال

حسب زعمهم، وأيضا من ذبح في بيته ثم أخذ الطعام ليأكل عند ضريح الميت كمن يذهب في أخر جمعة من رمضان والتي يطلقون عليها اسم الجمعة اليتيمة، ثم يرقصون عندها بعد المغرب وينشدون قصائد الشرك المنمق فهذا كله مما أهل لغير الله به.

وذكر ابن تيمية في معنى ما أهل لغير الله به أن ظاهره هو ما ذبح لغير الله مثل أن يقال هذا ذبيحة لكذا، وإذا كان هذا هو المقصود فسواء لفظ به أو لم يلفظ فهو مما أهل لغير الله به، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه النصراني للحم وقال فيه باسم المسيح ونحوه، كما أن ما ذبحناه نحن متقربين به إلى الله سبحانه كان أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم وقلنا عليه باسم الله، فإن عبادة الله سبحانه بالصلاة له والنسك له أعظم من الاستعانة باسمه في فواتح الأمور، فكذلك الشرك بالصلاة لغيره والنسك لغيره أعظم شركا من الاستعانة باسم هذا الغير في فواتح الأمور، فإذا حرم ما قيل فيه باسم المسيح والزهرة، فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح والزهرة أو قصد به ذلك أولى [1].

لقد خصص الله سبحانه وتعالى بعض أعمال التعظيم لنفسه، وهي التي تسمى عبادة كالسجود والركوع والطواف والنذر والذبح فمن صرف ذلك لغير الله فقد أشرك، ومن المؤسف ما نراه مما يحث بين عامة المسلمين فتجد أحدهم يطوف بالقبر ويسجد إليه، ويسوق الهدي إليه، وينذر النذور هناك، ويكسو ذلك القبر، كما تكسى الكعبة، والوقوف على عتبته، والإقبال على الدعاء والاستغاثة، والسؤال لتحقيق مطالب

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ١/٢٥٩ بتصرف.

الدنيا والآخرة، وبلوغ الأماني، وتقبيل حجر من أحجار هذا القبر والالتزام بجداره، والتمسك بأستاره، وإنارة السرج والمصابيح حوله تعظيما وتعبدا، والاشتغال بسدانته، والقيام بجميع الأعمال التي يقوم بها السدنة من كنس وإنارة، وفرش وسقاية، وتهيئة أسباب الوضوء والغسل، وشرب ماء بئره تبركا، وصبه على الجسم، وتوزيعه على الناس، وحمله إلى من لم يحضر، واحترام الغابة التي تحيط به، والتأدب معها، فلا يقتل صيدها، ولا يعضد شجرها، ولا يختلى خلاها، ولا يرعى ماشية في حماها.

وكل هذه الأعمال علمها رب العالمين عباده، وأفردها لنفسه، فمن أتى بها لشيخ طريقة، أو نبي، أو جني، أو لقبر فحقق، أو مزور، أو لنصب، أو لمكان عبادة، وعكف فيها أحد الصالحين على العبادة والذكر والرياضة، أو لبيت أو لقبر، أو لأثر من آثار أحد الصالحين، يتبرك به، أو شعار يعرف به، أو يسجد لتابوت أو يركع له، أو يصوم باسمه أو يقف أمامه خاشعا متواضعا، واضعا إحدى يديه على الأخرى، أو يقرب له حيوانا، أو يؤم بيتا أو قبرا، من هذه القبور من بعيد، فيشد إليه الرحل، أو يوقد السرج فيه تعظيما وتعبدا، أو يكسوه بكسوة كما تكسى الكعبة أو يضع على ضريح ستورا، أو يغرز علما، أو عودا باسمه، وإذا رجع رجع على أعقابه، أو يقبل القبر، أو يحرك المراوح عليه، ليذب الذباب، كما يفعل الخدم مع أسيادهم الأحياء، أو ينصب عليه سرادقا، أو يقبل عتبته، أو يضع يده اليمنى على اليسرى، ويتضرع إليه، أو يجلس على ضريحٍ سادنا وقيما، ويتأدب مع ما يحيط به من أشجار وآجام، وأعشاب، فلا يتعرض لها بإهانة أو إزالة، إلى غير ذلك

من الأعمال والالتزامات، فقد تحقق عليه الشرك، ويسمى إشراكا في العبادة سواء اعتقد أن هذه الأشياء تستحق التعظيم بنفسها، وأنها جديرة بذلك، أو اعتقد أن رضا الله في تعظيم هذه الأشياء، وأن الله يفرج الكرب ببركة هذا التعظيم(١).

- حقيقة الشرك الأصغر وأنواعه المتعلقة بالجوارح.

الشرك الأصغر في أعمال الجوارح هو كل وسيلة توقع في الشرك الأكبر، وهو قائم على قوة اعتقاد القلب في غير الله، وصرف النية والقصد لمن سواه، والناس يتفاوتون في مدراك الشرك بحسب قوة الاعتقاد في غير الله، وما يتبع ذلك من أعمال الجوارح، فقد يكون فعل الجوارح شركا أكبر ينافى أصل التوحيد ويخرج من الملة، وقد يكون شركا أصغر ينافى كمال التوحيد ولا يخرج عن الملة، بل حكمه حكم الكبائر.

وهناك أشياء مترددة بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر بحسب ما يقوم بقلب فاعلها وما يصدر عنه من الأفعال والأقوال، ويقع فيها بعض الناس، قد تتنافى مع العقيدة أو تعكر صفوها، وهي منتشرة بين عامة المسلمين ومن هذه الأمور على سبيل المثال:

١- الرقى والتمائم، والرقى جمع رقية وهي التعويذة التي يرقى بها صاحب الآفة كالحمى والصرع وغير ذلك من الآفات، ويسمونها العزائم، وهي على نوعين:

---

(١) انظر رسالة التوحيد للشيخ إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي ص٤٥، نشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد المملكة العربية السعودية.

أحدهما ما كان خاليا من الشرك بأن يُقْرأ على المريض شيء من القرآن، أو يُعَوَّذ بأسماء الله وصفاته، فهذا مباح، لأن النبي ﷺ قد رقى وأمر بالرقية وأجازها، فعن عوف بن مالك قال: كنا نرقى في الجاهلية فقلنا: يا رسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال: اعرضوا عليَّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركا) [1].

قال السيوطي: (وقد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط، أن تكون بكلام الله أو بأسماء الله وصفاته، وأن تكون باللسان العربي وما يعرف معناه، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى) [2].

النوع الثاني من الرقى هي التي لا تخلوا من الشرك، وهي الرقى التي يستعان فيها بغير الله من دعاء غير الله والاستغاثة والاستعاذة به، كالرقى بأسماء الجن أو بأسماء الملائكة والأنبياء والصالحين، فهذا دعاء لغير الله وهو شرك أكبر، أو يكون بغير اللسان العربي أو بما لا يعرف معناه، لأنه يخشى أن يدخلها كفر أو شرك ولا يعلم عنه، فهذا النوع من الرقية ممنوع.

روى أحمد من حديث زينب امرأة ابن مسعود أنها قالت: كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهية أن يهجم منا على شيء يكرهه، قالت: وإنه جاء ذات يوم فتنحنح قالت: وعندي عجوز ترقيني من الحمرة فأدخلتها تحت السرير، فدخل فجلس إلى

---

(١) مسلم في السلام، باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك ١٧٢٧/٤ (٢٢٠٠)، وأبو داود واللفظ له في الطب، باب ما جاء في الرقى ١٠/٤ (٣٨٨٦).

(٢) تيسير العزيز ص١٣٠ بتصرف.

جنبي فرأى في عنقي خيطا، فقال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلت خيط أرقي لي فيه، قالت: فأخذه فقطعه ثم قال إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الرُّقَى وَالتمَائِمَ وَالتولَة شِرْكٌ، قالت: فقلت له: لِمَ تقُول هَذا؟ وَاللهِ لَقَدْ كَانت عَيْني تقْذفُ وَكُنت أَخْتلفُ إلى فُلاَن اليَهُودِي يَرْقِيني، فَإذا رَقَاني سَكَنت، فَقَال عَبْدُ اللهِ إنمَا ذاكِ عَمَلَ الشَّيْطَان كَان يَنخَسُهَا بِيَدِهِ فَإذا رَقَاهَا كَفَّ عَنهَا إنمَا كَان يَكْفِيكِ أَن تقُولي كما قال رسول الله ﷺ: أَذهِبِ البَاسَ رَبَّ الناسِ اشْفِ أَنت الشَّافِي لاَ شِفَاءَ إِلاَّ شِفَاؤُكَ شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا [(١)].

أما التمائم فهي جمع تميمة وهي ما يعلق بأعناق الصبيان لدفع العين، وقد يعلق على الكبار من الرجال والنساء، وقد يعلق على المنازل أو المحلات أو السيارات كاليد المسماة عن عوام المسلمين في مصر بخمسة وخميسة، وكنعل الفرس أو الخرز الأزرق، أو ناب الذئب وغيره، وأصل التمائم خرزات كانت العرب تعلقها على رأس الولد لدفع العين ثم توسعوا فيها فسموا بها كل تعويذة، والتمائم هو على نوعين:

النوع الأول من التمائم: ما كان من القرآن بأن يكتب آيات من القرآن، أو من أسماء الله وصفاته ويعلقها للاستشفاء بها، فهذا النوع قد اختلف العلماء في حكم تعليقه والراجح المنع من ذلك لعموم النهي ولا مخصص لعموم سد الذريعة فإنها تفضي إلى تعليق ما ليس مباحا أنه إذا علق شيئا من القرآن، فلا بد أن يمتهنه المعلق بحمله معه في حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك، لما رواه أبو داود عن ابن مسعود ﷺ أنه

(١) رواه أحمد في المسند ١/٣٨١ (٣٦١٥) وقال شعيب الأرنئوط: صحيح لغيره.

سمع رسول الله ﷺ يقول: (إن الرقى والتمائم والتولة شرك) [١]. والتولة شيء يضعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته.

أما النوع الثاني من التمائم: فهي التي تعلق على الأشخاص كالخرز والعظام والودع والخيوط والنعال والمسامير وأسماء الشياطين والجن والطلاسم، فهذا محرم قطعا وهو من الشرك، لأنه تعلق على غير الله سبحانه وأسمائه وصفاته وآياته، ومن تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به ولن يغني عنه شيئا من الله شيئا ولا يملك له ضرّا ولا نفعا. والواجب على المسلم المحافظة على عقيدته مما يفسدها أو يخل بها، فلا يتعاطى إلا الأسباب الصحيحة المشرعة، ولا الأسباب المبتدعة من الكهنة والعرافين والمنحرفين تمرض القلب وتهدم عقيدة التوحيد، ويظل الخوف في قلبه قائما يخاف من العين والحسد، أو يعلق تميمة على سيارته أو دابته أو باب بيته أو دكانه، وهذا كله من ضعف العقيدة هو المرض الحقيقي الذي يجب علاجه بمعرفة التوحيد.

وروى الحاكم وصححه الشيخ الألباني من حديث عن قيس بن السكن الأسدي أنه قال: (دخل عبد الله بن مسعود ﷺ على امرأته فرأى عليها خرزا من الحمرة فقطعه قطعا عنيفا ثم قال: إن آل عبد الله عن الشرك أغنياء وقال: كان مما حفظنا عن النبي ﷺ: إن الرقى والتمائم والتولة شرك) [٢] .

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الطب، باب في تعليق التمائم ٤/٩ (٣٨٨٣)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٢٩٧٢).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الطب ٤/٢٤١ (٧٥٠٥)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٣٣١).

وقال ابن مسعود ﷺ: (عجبت لنسائكم اللاتي يعلقن التمائم مخافة السقط، فوالله الذي لا إله إلا هو، لو أن إحداهن بطحت، ثم وطئ بطنها عرضا وطولا ما أسقطت إلا أن يكون الله قدر ذلك لها) (١) .

٢- لبس الحلقة والخيط ونحوها والحلقة قطعة مستديرة من حديد أو ذهب أو فضة أو نحاس أو نحو ذلك والأغلب أنها لونها الحلقة السائد بين من فعل ذلك كان اللون الأصفر، والخيط معروف، وقد يجعل من الصوف أو الكتان أو نحوه، وكانت العرب في الجاهلية تعلق هذا الخيط في اليد لدفع الضر أو جلب النفع أو اتقاء العين، وهو أمر محرم فإن اعتقد لابسها أنها مؤثرة بنفسها دون الله فهو مشرك شركا أكبر، وإن اعتقد أن الأمر لله وحده وأنها مؤثر في دفع البلاء فهو مشرك شركا أصغر لأنه جعل سببا باطلا التفت إليه بقلبه وتعلق به، وفعله هذا وسيلة إلى الشرك الأكبر.

روى الحاكم وصححه الذهبي من حديث عمران بن حصين ﷺ أنه قال: (دخلت على النبي ﷺ وفي عضدي حلقة صفر فقال ما هذه ؟ فقلت: من الواهنة، فقال: انبذها) (٢). والواهنة مرض يصيب اليد، يُسَمَّى عند العرب بالواهنة، وكان من عادتهم لبس الحلقة من أجل توقِّي هذا الوجع، يزعمون أن هذه الحلقة تدفع هذا الوجع .

وروى أحمد من حديث عمران بن حصين ﷺ أن رسول الله ﷺ رأى رجلا في يده حلقة من صفر، فقال: ما هذه الحلقة؟ فقال: هي من

---

(١) رواه ابن بطة العكبري في الإبانة ٢/٣٨.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك ٤/٢٤٠ (٧٥٠٢)، وقال الذهبي: صحيح.

الواهنة، قال: دعها فما يزيدك الله إلا وهنا [(١)] .

٣- التبرك بالأشجار والأحجار ونحوها، والتبرك هو طلب البركة، والبركة من الله وحده وكل ما شرعه الله هو من أسباب البركة للعبد في نفسه وأهله وماله، أما التبرك بالأشجار والأحجار وغيرها من المخلوقات والأسباب الباطلة، فهذا كله من الشرك الأصغر المفضي إلى الشرك الأكبر حسب قوة الاعتقاد. روى الترمذي وصححه الألباني من حديث أبي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ (أَن رَسُول اللهِ ﷺ لَمَّا خَرَجَ إِلى حُنَيْن مَرَّ بِشَجَرَة لِلمُشْرِكِين يُقَال لَهَا ذات أَنواطٍ يُعَلقُون عَليْهَا أَسْلحَتَهُمْ فَقَالوا يَا رَسُول اللهِ اجْعَل لنا ذات أَنوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذات أَنواطٍ فَقَال النبِيُّ ﷺ سُبْحَان اللهِ هَذا كَمَا قَال قَوْمُ مُوسَى اجْعَل لنا إِلهًا كَمَا لَهُمْ آلهَة وَالذي نفْسِي بِيَدِهِ لتَرْكَبُن سُنة مَن كَان قَبْلكُمْ)[(٢)].

وفي رواية: (أَنهُمْ خَرَجُوا عَن مَكَّة مَعَ رَسُول اللهِ ﷺ إِلى حُنَيْن قَال وَكَان للكُفَّارِ سِدْرَة يَعْكُفُون عِندَهَا وَيُعَلقُون بِهَا أَسْلحَتَهُمْ يُقَال لَها ذات أَنوَاطٍ قَال فَمَرَرْنا بِسِدْرَة خَضْرَاءَ عَظِيمَة قَال فَقُلنا يَا رَسُول اللهِ اجْعَل لنا ذات أَنوَاطٍ فَقَال رَسُول اللهِ ﷺ قُلتمْ وَالذي نفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَال قَوْمُ مُوسَى اجْعَل لنا إِلهًا كَمَا لَهُمْ آلهَة قَال إِنكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلون إِنها

---

(١) رواه أحمد في المسند ٤/٤٤٥ (٢٠٠١٤)، وابن ماجه في كتاب الطب، باب تعليق التمائم ٢/١١٦٧ (٣٥٣١)، وقد صححه ابن جرير وضعفه الألباني، انظر كنز العمال (٢٨٥٥٠)، والسلسلة الضعيفة للألباني (١٠٢٩).

(٢) رواه الترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم ٤/٤٧٥ (٢١٨٠)، وأحمد في المسند ٥/٢١٨ (٢١٩٥٠)، وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٥٤٠٨)، وظلال الجنة (٧٦).

لسُنن لتركَبُن سُنن مَن كَان قَبْلكُمْ سُنَة سنة) [(١)].

٤- التصوير وسيلة إلى الشرك، والتصوير معناه نقل شكل الشيء وهيئته بواسطة الرسم أو النحت وإثبات هذا الشكل على لوحة أو ورقة أو تمثال، وكان العلماء يتعرضون للتصوير في مواضيع العقيدة؛ لأن التصوير وسيلة من وسائل الشرك وادعاء المشاركة لله بالخلق أو المحاولة لذلك، وأول شرك حدث في الأرض كان بسبب التصوير حينما أقدم قوم نوح على تصوير الصالحين ونصب صورهم على المجالس، وقد حذر النبي ﷺ من التصوير بجميع أنواعه، ونهى عنه، وتوعد من فعله بأشد الوعيد، وأمر بطمس الصور وتغييرها؛ لأن التصوير فيه مضاهاة لخلق الله ﷻ الذي انفرد بالخلق؛ فهذا الإنسان المصور يحاول أن يضاهي الله ﷻ فيما انفرد به من الخلق، فالتصوير هو منشأ الوثنية؛ لأن تصوير المخلوق تعظيم له وتعلق به في الغالب لاسيما إذا كان المصور له شأن من سلطة أو علم أو صلاح، أو عظمت الصورة بنصبها على حائط أو إقامتها في شارع أو ميدان؛ فإن ذلك يؤدي إلى التعلق بها من الجهال وأهل الضلال، ولو بعد حين.

ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (قَال اللهُ ﷻ: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلقُ خَلقًا كَخَلقِي، فَلَيَخْلقُوا ذَرَّةً، أَوْ ليَخْلقُوا حَبَّةً، أَوْ ليَخْلقُوا شَعِيرَةً) [(٢)].

---

(١) رواه أحمد في المسند ٥/٢١٨ (٢١٩٤٧).

(٢) البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى والله خلقكم وما تعملون ٦/٢٧٤٧ (٧١٢٠)، ومسلم واللفظ له في كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه ٣/١٦٧١ (٢١١١).

وعند البخاري من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ قال: (أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ الذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلق اللهِ) [(١)]. وروى أيضا من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: أن رسول اللّٰه ﷺ قال: (مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلفَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ) [(٢)].

ووجه الاستدلال أن النبي ﷺ ذكر العلة في عقوبتهم وعذابهم وهى المضاهاة بخلق الله، لأنه ﷻ منفرد بالخلق والأمر فهو خالق كل شيء وهو الذي صور جميع المخلوقات فأحسن صورها، فالذي ينحت صورة إنسان أو حيوان فإنه تشبه بالله في الركن الأول من ركني الربوبية وهو الخلق، فكلفه الله يوم القيامة بالركن الثاني وهو تدبيره وتحريكه تبكيتا وتعجيزا، كلفه أن ينفخ الروح في الصورة التي صورها وليس بنافخ، فصار ما صوره عذابا له يوم القيامة لأنه تشبه بالله وأشرك في الربوبية.

٥- الكهانة والتنجيم وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية؛ كأوقات هبوب الرياح ومجيء المطر، وظهور الحر والبرد، وتغير الأسعار، أو حدوث الأمراض والوفيات، أو السعود والنحوس. وهذا ما يسمى بعلم التأثير، فإن ادعى المنجم أن الكواكب فاعلة مختارة، وأن الحوادث تجري بتأثيرها، وهذا كفر

---

(١) البخاري في اللباس، باب ما وطئ من التصاوير ٥/٢٢٢١ (٥٦١٠)، ومسلم في اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ٣/١٦٦٨ (٢١٠٧).

(٢) البخاري في كتاب اللباس، باب من صور صورة كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ ٥/٢٢٢٣ (٥٦١٨)، ومسلم في كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة ٣/١٦٧١ (٢١١٠).

وشرك بإجماع المسلمين؛ لأنه اعتقاد أن هناك خالق غير الله، وأن أحدا يتصرف في ملكه بغير مشيئته وتقديره سبحانه وتعالى، وإن كان الاستدلال بمسير الكواكب واجتماعها وافتراقها على وقوع الحوادث، والإخبار عن الحوادث المستقبلية عن طريق الاستدلال بالنجوم فهذا من ادعاء علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه؛ فهو ادعاء لمشاركته سبحانه بعلمه الذي انفرد به أو تصديق لمن ادعى ذلك، وهذا ينافي التوحيد؛ لما فيه من هذه الدعوى الباطلة.

قال الخطابي: (علم النجوم المنهي عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي ستقع في مستقبل الزمان؛ أوقات هبوب الرياح، ومجيء المطر، وتغير الأسعار، وما في معناها من الأمور التي يزعمون أنها تدرك معرفتها بسير الكواكب في مجاريها واجتماعها وافتراقها؛ يدعون أن لها تأثيرا في السفليات، وهذا منهم تحكم على الغيب، وتعاط لعلم قد استأثر به الله، ولا يعلم الغيب سواه) [1].

ومثله ما يروجه المنجمون الدجالون في بعض الصحف والمجلات والفضائيات من ذكر البخت والنحوس والسعود، ويعلقون ذلك بحسابات البروج والنجوم، ويصدق به بعض السذج، وربما يصدق المنجم في كلامه لكنه كصدق الكاهن؛ يصدق في كلمة ويكذب في مئة، وصدقه ليس عن علم، بل قد يوافق قدرا فيكون فتنة واستدراج في حق من صدقه.

(١) معالم السنن للخطابي ٤/٢٢٦.

٦- تعاطي أعمال السحر وهو عبارة عما خفي ولطف سببه، سمي سحرا لأنه يحصل بأمور خفية لا تدرك بالأبصار، وهو عبارة عن عزائم ورقى وكلام يتكلم به وأدوية وتدخينات، ومنه ما يؤثر في القلوب والأبدان فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه، وتأثيره بإذن الله الكوني القدري.

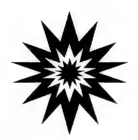
وهو عمل شيطاني لا يتوصل إلى كثير منه إلا بالشرك والتقرب إلى الأرواح الخبيثة بشيء مما تحب والاستعانة بالتحيل على استخدامها بالإشراك بها، ولهذا يقرنه الشارع بالشرك، وهو داخل في الشرك من ناحيتين الأولى: ما فيه من استخدام الشياطين والتعلق بهم وربما تقرب إليهم بما يحبونه ليقوموا بخدمته. الثانية: ما فيه من دعوى علم الغيب ودعوى مشاركة الله في ذلك، وهذا كفر وضلال.

قال تعالى عن السحر: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ﴾ البقرة:١٠٢ .

روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ! قالوا: يَا رَسُول اللهِ، وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ: الشِّرْكُ باللهِ، والسِّحْرُ، وَقَتْل النَّفْسِ التي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحَقِّ، وأكل الرِّبَا، وأكْل مَال اليَتِيمِ، والتَّوَلي يَوْمَ الزَّحْفِ، وقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ) (١).

(١) رواه البخاري في كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ١٠١٧/٣ (٢٦١٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها ٩٢/١ (٨٩).

وعند أبى داود وصححه الألباني من حديث أبي الشَّعثاء أنه قال: (كُنْتُ كَاتِبًا لِجَزْءِ بْن مُعَاوِيَةَ عَمِّ الأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ إِذْ جَاءَنَا كِتَابُ عُمَرَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِسَنَةٍ، اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ) (١).



(١) رواه أبو داود في كتاب الخراج، باب فى أخذ الجزية من المجوس ١٦٨/٣ (٣٠٤٣)، وأحمد في المسند ١٩٠/١ (١٦٥٧)، وصححه الشيخ الألباني، انظر صحيح أبي داود ٥٨٩/٢ (٢٦٢٤).

المطلب الخامس عشر

الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

التزام الصراط المستقيم



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن الشرك المتعلق بالجوارح بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر، وبينا أن الشرك في الجوارح باعثه الاعتقادات الشركية القائمة بالقلب، وعلمنا أن الشيطان يمكن أن يتجسد لفتنة القبوريين وعباد الأوثان وغيرهم من بني الإنسان.

ثم تحدثنا عن حكم اتخاذ القبور مساجد، وكيف حض النبي ﷺ على سد جميع الذرائع إلى الشرك الأكبر، وعلمنا أن إقامة الموالد من البدع الشركية المتعلقة بالجوارح، وأن الزيارة الشركية إلى الأضرحة من الشرك المتعلق بالجوارح، وبينا وجه الرد على زعمهم بأن من نهى عن اتخاذ القبر عيدا فقد تنقصه، كما بينا أن الطقوس الصوفية والمكاء والتصدية من الشرك المتعلق بالجوارح، وكذلك علمنا أن النذر لغير الله من الشرك الأكبر المتعلق بالجوارح، ومثله أيضا السجود لغير الله والطواف والذبح لهم كله من الشرك الأكبر المتعلق بالجوارح، ثم تحدثنا عن حقيقة الشرك الأصغر وأنواعه المتعلقة بالجوارح.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وأنه يتمثل في التزام الصراط المستقيم.

• كيف يمكن التمييز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

الولاية ضد العداوة، وأصل الولاية المحبة والقرب، وأصل العداوة البغض والبعد، وقد قيل إن الولي سمي وليا من موالاته للطاعات، أي متابعته لها، والأول أصح، والولي بمعنى القريب، فيقال: هذا يلي هذا، أي يقرب منه، وإذا كان ولي الله هو الموافق المتابع لله فيما يحبه ويرضاه، ويبغضه ويسخطه، ويأمر به وينهى عنه، كان المعادي لأوليائه معاديا له كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ المتحنة:١[1]. فمن عادى أولياء الله فقد عاداه، ومن عاداه فقد حاربه، كما ورد بذلك النص القدسي أن من عادى لله وليا فقد بارزه بالمحاربة [2].

وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، وأفضل المرسلين هم أولو العزم، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟﴾ الشورى:١٣.

وأفضل أولي العزم محمد ﷺ خاتم النبيين وإمام المتقين وسيد ولد آدم، وإمام الأنبياء الذي بعثه الله بأفضل كتبه، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، وقد جعل الله صراطه فارقا بين أوليائه وبين أعدائه، فلا يكون وليا لله إلا من آمن به وبمنهجه في الحياة، واتبعه ظاهرا وباطنا عن محبة وإخلاص لله، ومن ادعى محبة الله وولايته ولم يتابع نبيه ورسالته ﷺ

---

(١) انظر الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص٥ بتصرف.

(٢) روى البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع ٥/٢٣٨٤ (٦١٣٧).

فليس من أولياء الله؛ بل من خالفه كان من أعداء الرحمن وأولياء الشيطان، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ آل عمران: ٣١/٣٢.

وكثير من الناس يظنون في أنفسهم أو في غيرهم أنهم أولياء الله ودعواهم باطلة، على شاكلة اليهود والنصارى الذين يدعون أنهم أولياء الله وأحباؤه، وكان مشركو العرب يدعون أنهم أهل الله لسكناهم مكة ومجاورتهم البيت الحرام، وكانوا يستكبرون به استعلاء على غيرهم، فقال تعالى في شأنهم: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ الأنفال: ٣٣/٣٤. فبين سبحانه أن المشركين ليسوا أولياءه، ولا أولياء بيته، إنما أولياؤه هم المتقون.

وكما أن من الكفار من يدعي أنه ولي الله وليس أمر ولايته كذلك؛ بل هو عدو لله، فكذلك من المنافقين الذين يظهرون الإسلام يقرون في الظاهر بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ، وأنه مرسل إلى جميع الإنس؛ بل إلى الثقلين الإنس والجن، ويعتقدون في الباطن ما يناقض ذلك، مثل ألا يقروا في الباطن بأنه رسول الله ﷺ، وإنما كان ملكا مطاعا ساس الناس برأيه من جنس غيره من الملوك، أو يقولون إنه رسول الله ﷺ إلى الأميين دون أهل الكتاب، كما يقوله كثير من اليهود والنصارى، أو أنه مرسل إلى عامة الخلق، وأن لله أولياء خاصة لم يرسل إليهم ولا يحتاجون إليه؛ بل لهم طريق إلى الله من غير جهته، كما كان

الخضر مع موسى عليه السلام، أو أنهم يأخذون عن الله عز وجل كل ما يحتاجون إليه، وينتفعون به من غير واسطة، أو أنه مرسل بالشرائع الظاهرة وهم موافقون له فيها، وأما الحقائق الباطنة فلم يرسل بها، أو لم يكن يعرفها، أو هم أعرف بها منه، أو يعرفونها مثل ما يعرفها من غير طريقته[1].

وكثير من هؤلاء الذي زعموا التحقق في علوم الباطن اللدنية بينت لهم المشاهد، وأقيمت عليها المساجد، وسنت لها الأعياد والموالد، وعبدت من دون الله، تماما كما حدث من المشركين في الجاهلية، وتعصب لها كثير من المنتسبين للإسلام والعلم، وزعموا أن التحذير من البدع الشركية التي استحدثت في الإسلام كتقديس الموتى من الصالحين أو غيرهم، وإقامة الموالد لهم، والطواف بقبورهم، والذبح لهم، ونذر الأموال والأنعام طلبا لبركتهم وغير ذلك، زعموا أن التحذير من ذلك هو نوع معاداة للأئمة المطهرين وأولياء الله الصالحين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وكم احتج سدنة القبور عند البدوي، والدسوقي، وأبي العباس المرسي، وابن تميم المِنْزلاوي، والشاذلي، وغريب السويسي، وابن الرفاعي والعيدروسي، والعدوي والبرهاني والبسطويسي وغيرهم الكثير والكثير، كم احتج الصوفية على المنكرين لأفعالهم وأقوالهم الشركية في تقديس هؤلاء، وتعظيمهم كتعظيم من في السماء بقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ يونس:٦٢.

ومن ثم كان لزاما على المسلم أن يميز بين أولياء الرحمن وأولياء

(١) مجموع الفتاوى ١١/١٦٥ بتصرف.

الشيطان بفرقان مبين لا يختلف عليه اثنان، فلا شك أن من شهد له نبينا محمد ﷺ بأنه من أولياء الله فهو من أولياء الرحمن، ومن شهد له بأنه من أعداء الله فهو من أولياء الشيطان.

وقد بين سبحانه وتعالى في كتابه وسنة رسوله ﷺ أن لله أولياء من الناس، وللشيطان أولياء، ففرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ يونس:٦٢/٦٤. وقال: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ البقرة:٢٥٧.

وذكر الله أولياء الشيطان فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ النحل:٩٨/١٠٠. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ النساء:٧٦. ولما كان في الناس أولياء للرحمن وأولياء للشيطان فيجب على كل مسلم أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء، كما فرق الله ورسوله بينهما، فأولياء الله كما جاء في القرآن هم المؤمنون المتقون، وأولياء الشيطان هم المشركون الكافرون[1].

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ص٨ بتصرف.

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إن الله قال: من عادَى لي وَليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترَضْته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أُحبه، فإذا أحبَبته كنت سمعه الذي يسمع به وبَصرَه الذي يبصر به ويدَه التي يبطِش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأُعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددتُ عن شيء أنا فاعله ترَدُّدي عن نفسِ المؤمن يكرَه الموتَ وأنا أكرَه مَساءته) (١).

وقال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ...إلى قوله: إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ المائدة: ٥١/٥٦.

• عبادة الأوثان استمرت إلى عصرنا بحجة تعظيم أولياء الرحمن.

لم يكن على عهد الصحابة ﷺ ولا التابعين ولا تابعيهم من القبور والأضرحة المعظمة في زماننا شيء، لا في الحجاز، ولا اليمن، ولا الشام، ولا العراق، ولا مصر، ولا خُرَاسَان، ولا المغرب، ولم يكن قد أحدث مشهدا لا على قبر نبي، ولا صحابي، ولا أحد من أهل البيت، ولا على ولي صالح أو غير ولي(٢).

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع ٥/٢٣٨٤ (٦١٣٧).

(٢) عبرات تسكب على التوحيد للشيخ لمدوح الحربي، وقد لخصنا ما جاء في الرسالة من وصف للقبور والمشاهد في بعض الدول الإسلامية بتصرف وإضافة.

ثم بدأ الانتقال من نور التوحيد إلى ظلام الشرك، وعبودية المخلوق للمخلوق، والغلو في الأشخاص وتقديسهم تحت مسمى تعظيم أولياء الله، فقدست القبور والقباب، والمشاهد والأعتاب، وحدث الانحراف العقدي، والشذوذ الفكري الذي أخذ ينخر في جسد الأمة، حتى بدا اعتقادا راسخا في قلوب وعقول كثير من أبناءها، وسكن وتربع في صدورهم حتى أفرخ وثنية سافرة بغيضة، كانت بدايتها ظهور بدعة التشيع التي كانت بداية الشرك والوثنية والإلحاد، فالشيعة هم أول من بنى المشاهد على قبور الأولياء من ذرية آل البيت، وجعلوها مزارات ورسموا لها مواقيت وأعياد وأحكام ومناسك وتشريعات[١].

كما تعطلت في المقابل المساجد، ووضع الشيعة كتبا في مناسك حج القبور والمشاهد، تبين لأتابعهم الأحكام في زيارة المشاهد والقباب وتعظيمها، والدعاء عندها، وحوت من الأكاذيب والبهتان ما الله به عليم، وكذبوا فيها على النبي ﷺ، وأهل بيته الطيبين الطاهرين وبدلوا بها دينه، وغيروا شرعه، وغيروا دين الحنيف إبراهيم عليه السلام، فجمعوا بين الشرك والوثنية والكذب معا، فإن المتتبع لأحوال القبوريين يلحظ بوضوح انتشار الشرك بينهم بجميع أنواعه وصوره ودرجاته، شرك في الربوبية، وشرك في الإلوهية، وشرك في الأسماء والصفات[٢].

كما أن ظاهرة العكوف على القبور اليوم، وتقديس الأولياء والتي هي من أكثر البدع الشركية وأخطرها على الأمة الإسلامية، قد أصبحت منظرا مألوفا، وشبكة عنكبوتية منسوجة على مدن الإسلام،

(١) عبرات تسكب على التوحيد للشيخ لمدوح الحربي ص٥ بتصرف.

(٢) المصدر السابق ص٥ بتصرف.

نسجها الشيطان بخيوطه الواسعة، وجعل أساسها عبودية القبور والأضرحة المقدسة التي تئن تحتها جهود الدعاة، وهم يرددون إلى التوحيد يا عباد الله، ولكي ندرك حجم المأساة ننظر إلى الأضرحة المقدسة التي حوت من أولياء الله أو غيرهم، وما يحدث عندها في بعض دول العالم الإسلامي.

• **أولياء الله في مصر والسودان وما يجاورهم من الزور والبهتان.**

في مصر تَلقى أضرحة الأولياء الصالحين وغيرهم تقديسا وتبجيلا لدى كثير من الناس، حيث يشتهر في مصر أكثر من ألف ضريح، فيوجد على سبيل المثال في مركز طلخا، وهو أحد المراكز المتعددة بمحافظة الدقهلية أربعة وخمسون ضريحا، وفي مركز دُسُوق بمحافظة كفر الشيخ يوجد أربعة وثمانون ضريحا، وفي مركز تلا مائة وثلاثة وثلاثون ضريحا يقصد من دون الله ﷻ، وتلك الأضرحة هي التي تتبع بصورة رسمية مسجلة المجلس الصوفي الأعلى وحده، بخلاف الأضرحة التابعة لوزارة الأوقاف، أو الغير مقيدة بالمجلس المذكور، كما يوجد في محافظة أسوان أحد المشاهد، يسمى بمشهد السبعة وسبعين ولي[1].

والأضرحة في مصر تنقسم من حيث أهميتها إلى نوعين أضرحة كبرى وصغرى، وكلما فَخُم البناء واتسع وذاع صيت صاحبه وأموال النذر له زاد اعتباره، وكثر زوَّارُه، فمن الأضرحة الكبرى في القاهرة ضريح الحسين، وضريح السيدة زينب، وضريح السيدة عائشة، وضريح السيدة سكينة، وضريح السيدة نفيسة، وضريح الإمام الشافعي الذي وحده يتلقى في كل عام أكثر من خمسين ألف شكوى واستغاثة، ومدد

---

(١) عبرات تسكب على التوحيد للشيخ لممدوح الحربي ص٦ بتصرف.

من دون الله تعالى[١].

أما عن خارج القاهرة فتشتهر أضرحة كضريح البدوي بطنطا، وضريح إبراهيم الدسوقي بدسوق، وضريح أبي العباس المُرسي بالإسكندرية، وضريح أبي الحسن الشاذلي بقرية حريملاء بمحافظة البحر الأحمر، وضريح أبي الحجاج الأقصري بالأقصر، وضريح عبد الرحيم القِنَاوي بقناء، حيث يندفع أكثر القبوريين لا شعوريا للقيام ببعض الممارسات المتنوعة كالحرص على الصلاة في المسجد الذي به الضريح، ثم الحرص على زيارته، وترديد بعض الكلمات والصلوات والدعوات، ويلي ذلك التمسح بالضريح وتقبيله طلبا للبركة، ثم يليه الطواف بقبره إن كان مسار الطواف متاحا، ثم التوسل بجاه صاحب الضريح اعتقادا أن ذلك أقرب إلى إجابة الدعاء، ثم ينتهي بهم المطاف ببلوغ غاية الشرك عندما يُتوجه إلى صاحب الضريح بالدعاء والرجاء، وطلب قضاء الحاجات منه، وغالبا ما يصحب الدعاء استقبال الضريح حتى لو كانت القبلة خلف ظهره، كما يظهر على الزائر الخشوع والسكينة والتأثر الذي قد يصل إلى حد البكاء، وقد يصل الوجد ببعضهم إلى الإغراق في حالة من فقدان الوعي عند تراقصه فيما يسمى بالذكر، فيصبح كما يزعمون مجذوبا مسلوبا [٢].

ويتزاحم الناس عند ضريح البدوي حول حمار يأتي به دراويش الطريقة الشناوية إلى قبر البدوي، فيتسابقون لنزع شعرات من جسم هذا الحمار المسكين ليصنعوا منها الأحجبة، وهذا بالضبط ما كان يفعله

---

(١)عبرات تسكب على التوحيد للشيخ لمدوح الحربي ص٧ بتصرف.

(٢) المصدر السابق ص٧ بتصرف.

القدماء المصريون بهذا الحيوان المسكين(١).

أما الصندوق الأسود أو المسمى بصندوق النذور عند ضريح البدوي فهو من أشهر صناديق النذور على الإطلاق، والذي بلغت حصيلته في إحدى السنوات إلى ما يزيد عن أربعة ملايين جنيه مصري، كان نصيب الخليفة الأول والثاني لهذا الضريح ما يزيد على أربعة وخمسين ألف جنيه لكل واحد منهما، ونصيب حامل مفتاح المقصورة ستة وثلاثين ألف جنيه، وشيخ المسجد ثمانية عشر ألف جنيه، ورئيس الخدم اثنا عشر ألف جنيه، والمؤذن ومقيم الشعائر وقارئ السور وخادم الدورة، كل واحد من هؤلاء له ستة آلاف جنيه، أما عن قراء المقارئ وعددهم اثنان وعشرون قارئا، فقد كان نصيبهم مائة واثنين وثلاثين ألف جنيه مع الإعفاء من الرسوم والضرائب الحكومية(٢).

وأما نصيب الأسد من هذا الصندوق فقد كان لوزارة الأوقاف حيث بلغ نصيبها تسعة وثلاثين في المائة من إجمالي الدخل، كما يأتي الفلاحون والفقراء بالنصف أو الربع من أنعامهم أو نصيب من زروعهم بل وأولادهم، فيأتي الرجل بنصف مهر ابنته ويضعه في صندوق النذور قائلا: هذا نصيبك يا بدوي، كما يجتمع في مولد البدوي أكثر من ثلاثة إلى سبعة ملايين شخص، ويكفي أن ما يناله خدام هذا الضريح من هذه الأموال أكثر مما يناله أكبر الأطباء والمهندسون وأساتذة الجامعة(٣).

وفي السودان تجد القباب والأضرحة شأنها شأن ما سبق، فهي إما

---

(١) عبرات تسكب على التوحيد للشيخ لمدوح الحربي ص٨ بتصرف.

(٢) المصدر السابق ص٨ بتصرف.

(٣) المصدر السابق ص٩ بتصرف.

قباب تبنى في مقابر المسلمين العامة، حيث تبدو القبة شاهقة وسط القبور، أو قباب تبنى في المساجد، أو تبنى عليها المساجد، وقد تكون في قبلة المسجد، أو في الخلف، أو في أحد جوانبه، ومن أشهر القباب والأضرحة في السودان قبة محمد عثمان عبده البرهاني شيخ الطريقة البرهانية بالخرطوم في السوق الشعبي، وقبة الشيخ قريب الله بأم درمان، والشيخ دفع الله الصائم بأم درمان، وحسن ود حسّونة بالخرطوم بحري، وقبة الشيخ دفع الله الفرقان، ومحمد كريم الدين شيخ الطريقة الإدريسية، وإبراهيم ود بلال بالقطينة، والطيب ود السايح بأبي شنيب قرب الحداحيد، وقبة الخوجلي والبُساطي والبطحاني والطريفي، وجدير بالذكر أن منطقة أبي حراز بها ما يقارب ست وثلاثون قبة، من أشهرها قبة الشيخ أحمد الريح، وقبة أبي النعلين.

لقد تعددت المظاهر والانحراف واحد، فالغلو والبدع والانحراف عن التوحيد الخالص عوامل مشتركة بين مرتادي الأضرحة والمعتقدين فيها، وإن تنوعت المظاهر حسب بيئة كل بلد وعادات أهله، فهناك عادات ارتبطت بتلك القباب يقوم بها روادها، منها أنه ينبغي أن يخلع الزوار نعالهم خارج القبة، وبعضهم يخلعها خارج ساحة المسجد احتراما لصاحب الضريح، ويتم دخول القبة بإذن من حارسها، كما يتولى خادم الضريح تطويف الزوار، فيتبركون بالضريح والقبة بطرق شتى، فمنهم من يأخذ من ترابها، ومنهم من يضع يديه على السياج المعدني الذي حول القبر ويتمسح بها، ثم يمسح على جسده وملابسه، وكذلك دعاء المقبور والاستعانة به، والإلحاح عليه في الدعاء.

• أولياء الله المعظمين في بلاد الشام والأردن والعراق.

في الشام في دمشق وحدها مائة وأربعة وتسعون ضريحا ومزارا، المشهور منها أربعة وأربعون ضريحا، ومنسوب للصحابة أكثر من سبعة وعشرين قبرا لكل واحد منهم قبة، تزار ويُتبرك بها، وفي دمشق ضريح يزعم الناس أنه لرأس يحيى بن زكريا عليهما السلام، ويقع في قلب المسجد الأموي وله قبة وشباك، وله نصيبه من التمسح والدعاء، وقبور أخرى تزار ويتوسل بها.

أما ضريح محي الدين بن عربي في دمشق صاحب كتاب فصوص الحكم، وزعيم الفلاسفة القائلين بوحدة الوجود، فمزاره وثن يعبد ويقدس في بلاد الشام، والافتتان بهذا الوثن يزداد يوما بعد يوم، فمن نظر إلى قبر ابن عربي في دمشق يجد كثيرا من الناس يغدون إليه ويروحون، يطوفون حوله ويتوسلون، ويعلنون دعائهم له من دون الله تعالى، تجد المرأة قد وضعت خدها على شباك الضريح تمرغه، وتنادي: أغثني يا ابن عربي! وتجد الصبايا البريئات يجئن إليه ويمددن إليه أكف الضراعة، ويمسحن وجوههن ويخشعن ويتضرعن بشتى ألوان الشرك الأكبر [١].

وفي الأردن يطوف القاصدون في شرقها بالأغنام حول مقام النبي يوشع، ويختارون خير نعاجهم، ويصعدون بأنعامهم إلى سطح الضريح وينحرونها، فيسيل الدم على عتبات الضريح قربة لصاحب القبر، كما تزور المرأة العاقر مقام النبي يوشع حافية خاشعة، وتجثوا أمام الضريح وتقبله بالدموع ثم تتضرع وتصيح لعلها ترزق بمولود، ومنهن من

(١) عبرات تسكب على التوحيد للشيخ لمدوح الحربي ص٩ بتصرف.

يرقدن الليالي الطويلة بين أسواره بالصوم والصلاة ثم يغادرنه وفي أنفسهن من الفرح والسرور ما الله به عليم، ولو تتبعنا بقية الأضرحة لوجدت العجب العجاب[1].

وفي العراق تفيض مدنها بالعديد من القبور والمزارات بعضها للمنتسبين للسنة، والكثير منها يتبع المد المجوسي لدين الشيعة، فزيارات المنتسبين للسنة فردية وغير منظمة، أما زيارات أتباع الدين المجوسي الشيعي فهي منظمة، ولكل مزار موسمه المعروف، ففي هذه المواسم يفد الشيعة بأعداد كبيرة من مختلف أقطار العالم من بلاد الهند وإيران ودول الخليج يمارسون الوثنية والشرك أمام هذه القبور، حيث تبدأ الزيارة كما يزعمون من النجف عند مرقد الإمام علي بن أبي طالب ﵁، ويقرأ الزائرون هناك عددا من الأدعية الشركية والاستغاثات الوثنية في كتبهم الضالة، بعد ذلك ينتقل الزائر إلى كربلاء، وهي ديارهم المقدسة، وفيها بيت الشيعة العتيق عند المشهد الحسيني، ثم الكاظمية، وتنتهي المراسم بسامراء حيث يختفي فيها إمامهم الثاني عشر المزعوم، محمد بن الحسن العسكري[2].

وتستغرق هذه الزيارات الشركية الوثنية أياما وليالي تسيل خلالها الدموع والدماء بغزارة، ويكثر فيها الندب واللطم والبكاء والتطبير والضرب بالسيوف على الرؤوس والنحيب والاستغاثة بغير الله ﷻ، وقد أتوها من مكان سحيق، ومن كل فج عميق، وقدموا لها النذور والهدايا والقرابين، فترى وثنية سافرة، وردة عن التوحيد، وتقربا إلى

---

(١) عبرات تسكب على التوحيد للشيخ لممدوح الحربي ص١٠ بتصرف.

(٢) المصدر السابقص١٠ بتصرف.

معبوداتهم بلعن صريح للصاحبيين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وكل من رضي الله عنهم من الصحابة أجمعين.

أما ضريح الإمام أبي حنيفة فهو في ضاحية الأعظمية في مسجد كبير تقام فيه صلاة الجمعة، ويقع القبر في جانب القبلة من اليسار خارج المسجد، وتوجد إلى جانب ذلك الضريح كلية الشريعة أو كلية الإمام الأعظم حيث يقصده الحجاج الأتراك خلال رحلتهم إلى الحج.

أما قبر وضريح الإمام أحمد بن حنبل رحمة الله عليه فيقع في منطقة مطلة على نهر دجلة، إلا أن معالمه زالت بفعل حركة النهر، ولم يعد له أثر، وهذا رحمة من الله تعالى بهذا الإمام الجليل، إمام أهل السنة والجماعة ناصر السنة، وقامع البدعة والذي كان يلقب بمحدث الفقهاء وفقيه المحدثين رحمه الله تعالى[١].

• أولياء الله عند العامة في ليبيا وبلاد المغرب العربي.

في ليبيا تكثر الأضرحة والمزارات كما هو الحال في مصر والسودان وأبرز المشاهد عندهم ضريح عبد السلام الأسمر، وضريح الأندلسي، وضريح الشارف، وغيرها الكثير والكثير، وأصبح لهذه الأماكن مواسم وأعياد، وطقوس وشعائر شركية تنسب للإسلام ظلما وزورا.

وفي تونس يوجد عدد كبير من المقامات المنسوبة للأولياء كعبد القادر الجيلاني وأبي الحسن الشاذلي، ويوجد بشمال تونس مقبرة تسمى مقبرة الجلاز، زعموا أنها تضم أكثر من ألف ولي، ومن أشهرهم بالبلاد التونسية محرز بن خلف، ويسمى عندهم بسلطان المدينة، وابن

---

(١) عبرات تسكب على التوحيد للشيخ لممدوح الحربي ص ١١ بتصرف.

زياد بالعاصمة تونس، وهو من أدخل موطأ الإمام مالك إلى تونس، ومزار أبي زمعة الأنصاري بالقيروان المعروف بالصحبي، وهو صحابي جليل، وبوسعيد بالعاصمة، وبن عروس بالعاصمة قريب من جامع الزيتونة، ويوجد مقامات أخرى قيل بأنها لبعض الصحابة ﷺ.

وفي الجزائر لا تكاد تجد قرية في بلاد القبائل الجزائرية، تخلو من مقام أو ضريح لولي أو قبة، فلكل قرية وليها أو أكثر، سواء كانت كبيرة أو صغيرة، وتختلف شهرة هذه المقامات، وتتفاوت بقدر الأساطير التي نسجت حولها، وتبعا لذلك ذاع صيت بعضها، وتجاوز حدود القرية أو الجهة حتى أصبح رمزا معروفا في كل البلاد، كما هو الشأن بالنسبة لعبد الرحمن الثعالبي الذي يزعمون فيه أنه حارس مدينة الجزائر، وبومدي حارس تلمسان، وراشد حارس قسنطينة، والخير حارس سطيف، والهواري حارس وهران، وغيرهم الكثير والكثير، في حين يبقى بعضهم محدود الشهرة، ويدين له أهل القرية بالولاء.

وتبنى المقامات عادة وسط القرية، وهي عبارة عن بيت كبير يتوسطه ضريح، توارث الأجيال عن يقين أنه لولي صالح، لكن في معظم الأحيان لا أحد يعرف شيئا دقيقا ومؤكدا عنه، باستثناء بعض الأساطير والخوارق المرتبطة بالسيرة الذاتية لكل منهم، وتحظى المقامات بتقديس عامة الناس في الجزائر، وخاصة ببلاد القبائل، وتجد التقديس الشركي المشوب بالرهبة والخضوع والخوف والرجاء، فالتقرب منها لا يتيح فقط جني البركات والخيرات، ولكن أيضا يبعد الشر والأذى والهلاك وسوء المصير.

ومن شدة الولاء والاحترام المشبع بالخوف، فإن نسبة عالية من أهالي

الريف ببلاد القبائل، إن أقسموا بأوليائهم لا يحنثون أبدا، وزيارة هذه المقامات يومية، وعلى مدار السنة، خاصة من النساء اللائي يتقدمن إلى الضريح للتبرك والدعاء، والتمني والتضرع لتحقيق أمنية ما، أو لتجاوز محنة، أو الخروج من ورطة، فتطلب الزواج من طال عليها الانتظار، وتطلب الإنجاب من عز عليها الوليد، وطلب الولد الذكر من لا تلد إلا الإناث، وعودة الغائب من نأى عنها عزيز، وخلال تلك الزيارات تشعل الشموع، وتقدم النذور والهبات النقدية التي تسمى محليا بالوعدة، وتعلق التعاويذ والأنسجة واللفائف، وإلى جانب هذه الزيارات اليومية التي غالبا ما تكون فردية بحتة، ويحيط موضوعها الكتمان، هناك زيارات جماعية، وهي عادة أسبوعية تؤديها عائلة، أو عشيرة، أو مجموعة من الجيران، فتقدم القربان بنحْر تيس أو أكثر، وإعداد وجبة الكسكسى لإطعام الزائرين والأطفال وعابري السبيل، كما تقدم خلال تلك الزيارة النذور أو الوعدة التي تصل حصيلتها في كثير من الأحيان إلى آلاف الدينارات.

ولدى بعض المقامات الشهيرة في بلاد القبائل الجزائرية كأحمد بن إدريس بقرية إيلولة، أو قرية مالو تكون هذه الزيارات الجماعية كل يوم خميس، حيث تقبل عائلات من أماكن بعيدة على متن حافلات تشكل موكبا احتفاليا، وتقضي ليلة بالمقام مليئة بالمدائح والأدعية الشركية والتبرك، وفي يوم معلوم من السنة يعلن عنه المنادي، أو البرّاح كما يسمى محليا خلال جولة تقوده إلى كل قرى في المنطقة وأسواقها مشيا على الأقدام لإعلام الناس بموعد المولد، وفي السنوات الأخيرة أدخلت تعديلات على وسيلة الاتصال بحيث أصبح المنظمون يلجئون لاستخدام

الوسائل الحديثة من ملصقات وإعلانات في الصحف والإذاعة، ويفد إلى المكان آلاف من الناس من مختلف الأعمار لقضاء يوم كامل من الترفيه في جو المدائح، وقرع الطبول والأهازيج والرقص، وتقدم لهم الأطعمة المتنوعة، ولا يبخل الزوار في الإجادة بالنذور السخية التي تصل قيمتها عند العد النهائي إلى عشرات الآلاف من الدينارات.

وفي مقامات أخرى يكون موعد اللقاء السنوي يوم عاشوراء حيث يقبل الزوار من الجنسين بالمئات، وتكون المناسبة سانحة في بعض النواحي للتقارب بين الشباب والفتيات بغرض التعارف على أمل الزواج، وقد بلغ الإقبال على بعض المقامات في السنوات الأخيرة مستويات قياسية، وتحضر حتى عائلات جزائرية مقيمة بالخارج، بحيث وجب تجنيد قوات الأمن لتنظيم المرور والمحافظة على النظام العام وسط آلاف من الوافدين فيما يشبه حجا سنويا.

وتشكل مقامات الأولياء في الجزائر جزءا لا يتجزأ من التراث القبائلي، ولا تزال حتى الآن تتمتع بمكانة مرموقة في الوعي الفردي والجماعي غير المفهوم، والمبني أساسا على أساطير الأولين، وأن أسياد تلك المقامات يمكنهم التوسط بين الإنسان وربه، ويساعدون على إيصال الدعوات والصلوات، وإبلاغ نجواه العميقة إلى الله، ويعم اليقين بأنهم يتمتعون بطاقات خارقة وقادرة على البطش، وإنزال العقاب بالمنكرين وفرض الخضوع، ومعظم أناس القبائل لا يجرؤون على إبداء الريبة أو الاستخفاف مخافة أن تصيبهم اللعنة، ويلحق بهم غضب الولي وبطشه لكونه حارس البلد، وفي غمرة الأساطير والحكايات الغابرة والتجارب الشخصية الماثلة تستمر قدسية الأولياء دائما قوية وحاضرة

في أذهان القبائليين يستمدون منها زادا شركيا لا ينقطع.

وفي دولة المغرب ترعى الدولة الأضرحة لما لها من دورها في احتواء الهموم الاجتماعية كما يزعمون، إذ يلجأ كثير من المغاربة إلى أضرحة الأولياء، والتقرب إليها بهدف إيجاد حل لمشاكلهم الاجتماعية والنفسية والجنسية، ويعتقد البعض أن كل ضريح يسهم في حل نوع معين من المشكلات والصعوبات التي تواجههم، ومن أبرز هذه الأضرحة التي يبلغ عددها نحو خمسين ضريحا ما يسمى بضريح ميمون بالمنطقة الشرقية من المغرب الذي يشتهر بين عامة الناس بكون المرأة العاقر التي تلجأ إليه تلد بعد وقت قصير، وتعود إليها خصوبتها المفقودة، وضريح يحيى بن يونس الذي يزوج العوانس، وضريح عبد الرحمن مول المجمر في نواحي الدار البيضاء، وهو مشهور بأنه يعالج العكس عند النساء خاصة اللواتي يعانين من مشاكل شخصية أو أسرية، ويبطل مفعول السحر من خلال التبخر عنده ببخار الرصاص المذاب، وضريح لآله يْطو الذي تفد إليه كل زوجة راغبة في أن تجعل زوجها يحترق شوقا إليها، ويعود إليها صاغرا مطيعا، وهناك ضريح أكثر شهرة هو ضريح بوشعيب الرداد بنواحي مدينة آزمور المغربية، المعروف وسط مرتاديه وزواره بكونه ملاذ النساء المشتكيات الباكيات من حظهن العاثر، فتذهب إليه المرأة العاقر للتبرك، حيث تفتح حزامها داخل الضريح وتتركه هناك ليبيت ليلة بغية نيل بركة الولي بوشعيب الرداد التي تجعلها حسب اعتقادها ذات رحم خصبة، ومنهن من تلجأ إلى هذا الضريح للحفاظ على زوج متمرد أو يسعى للزواج بثانية.

ومن الأضرحة المشهورة بالمغرب أيضا ضريح لآلة عيشة البحرية

بضواحي آزمور، وهو مختص في طرد شبح العنوسة عن الفتيات اللائي فاتهن قطار الزواج، وتقوم العانس داخل الضريح بمزج الحناء بماء الورد وبلوازم أخرى، وتخط بيدها اسم زوجها الموعود على جدار الضريح بجانب كثير من الأسماء الأخرى، مما يدل على توافد العديد من العوانس على نفس الضريح، ومن أجل الغاية ذاتها.

والعانس حين تلجأ للضريح لا بد أن تذهب إليه بثقة عمياء، وبانقياد تام، وهو ما يسميه المغاربة التسليم أو النية، والثقة هنا لها دور في تحقيق المأمول، كما تجد المصابين بالنوبات الهستيرية كثير، فالمرأة تتخبط وتسقط بعنف على قبر الولي بالضريح، أو في أرجائه والناس يحيطون بها، وسدنة الضريح ورواده يهتمون بها.

وفي بعض الأضرحة بالمغرب كما يحدث مثلا في ضريح بويا عمر بنواحي مراكش، يقوم بعض سدنة الضريح المذكور باستغلال البسطاء، بل وضرب المرضى النفسيين والمصابين ببعض الأمراض العصبية الذين يزورون الضريح، وأحيانا يتعرضون للتجويع والتخويف والتنكيل بدعوى أن ذلك سيفيدهم في العلاج، وتزداد حالتهم سوءا من قلة الأكل، بل من التخدير أحيانا، ويجمعون كثيرا من المرضى في حجرة واحدة في ظروف لا إنسانية [1].

• **أولياء الله في تركيا وباكستان والهند وبنجلادش وإريتريا.**

في تركيا يوجد ما يزيد على ست مائة وخمسين مشهدا وضريحا يشد إليه الرحال، ويتوسل بأصحابها من دون الله ﷻ ويقدمون لها النذور

(١) رجعنا في ذلك إلى التقارير الصحفية حول الأضرحة المنتشرة في تلك البلاد على مواقع الصحف في الإنترنت.

والقرابين، وغير ذلك من الأفعال الشركية الوثنية، فالجماعات الصوفية في تركيا وخصوصا الطريقة النقشبندية، والطريقة القادرية تدير مدارس ابتدائية وثانوية خاصة، كما تملك أغلب الجماعات الصوفية مؤسسات إعلامية كبيرة تابعة للطريقة النقشبندية، والتي تركز نشاطها في صفوف الطلاب والطالبات، وكذلك تمتلك جماعة الطريقة القادرية محطة فضائية إعلامية، بل وتسيطر الطرق الصوفية في تركيا على ساحة الصحافة الإسلامية، فتدير عشرات الصحف والمجلات والنشرات المتخصصة لنشر البدعة بين عامة المسلمين[١].

وفي باكستان في مدينة مولتان والتي تقع في وسط الباكستان تشتهر هذه المدينة بكثرة القبور والأضرحة التي ترتفع عليها القباب، والتي يصل ارتفاع هذه القباب في بعض الأحيان إلى خمسين مترا، أما إذا اقتَربْتَ من ضريح الشيخ زكريا وهو من أكبر الأضرحة هناك لرأيت تلك الفرق الموسيقية التي تجلس على مدخل المسجد فبمجرد رؤيتهم للقادم الغريب، يبدأ العزف على الآلات الموسيقية وتعلو أصواتهم بالغناء المليء بالشركيات والاستغاثات بشيخهم زكريا، أما إذا اقتربت من فِنَاء الضريح فإنك سوف ترى الناس بين واقف وجاث وباك وساجد على عتبات القبر، وفي يوم مولد الشيخ زكريا، فإن الناس يحضرون من جميع أنحاء باكستان، بل ومن الهند ونيبال حتى إن بعضهم يحمل حذاءه بيده وهو ينزل من الطائرة أو الحافلة حتى لا يطأ بنعله أرضا بها جسد الشيخ زكريا [٢].

---

(١) عبرات تسكب على التوحيد للشيخ لمدوح الحربي ص١١ بتصرف.
(٢) المصدر السابق ص١١ بتصرف.

وفي الهند وحدها يوجد أكثر من مائة وخمسين ضريحا مشهورا يؤمها آلاف من الناس حتى أصبح قبر الشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني عندهم مرجع الخلائق في هذا العصر، فيطوفون حوله ويفعلون عند قبره جميع الأعمال التي لا تليق إلا بالعلي الغفار كالسجود والنذور وغير ذلك.

وفي بنجلادش يأتي الناس إلى زيارة القبور والأضرحة، ويظنون أنها أقدس مكان على وجه الأرض، لذلك فهم يسجدون أمام الأضرحة إجلالا لها واحتراما إلا من رحم ربي، كما يطلبون من أصحابها إنجاب الذرية ودفع المصائب وتفريج الكروب، ويقدمون لهم النذور من الأموال والحيوانات كالغنم والبقر التي تذبح باسم صاحب القبر لأنهم يعتقدون أن لأصحاب هذه الأضرحة والقبور يدا في تصريف الأمور، بل وفي إدخالهم الجنة، ومن المضحكات المبكيات أن بعض الناس يأتون مزارات يوجد بها سلاحف وتماسيح يعتقد فيها البعض من الجهلاء النفع والضر، فيقدمون الأكل لها أملا في الحصول على وظيفة، أو تفريج كربة، كما تحرص بعض النساء الجاهلات على مس هذه الحيوانات أملا في حدوث الحمل والرزق والذرية، وهناك من المزارات التي تحتوي على أشجار ذات أنواط يعتقد فيها البركة، وتعلق على أغصانها الخيوط والخِرَق(١).

وفي اريتريا يتوجه كثير من القبوريين للأضرحة والقبور حاملين معهم الأغنام والأبقار والأموال كقربان إلى صاحب الضريح ، وقد يذبحون الأنعام للولي أو للشيخ، ويطوفون بالقبر، ويتمرغون بترابه، ويطلبون قضاء الحوائج وتفريج الكربات منه، كما يحصل من الفساد الأخلاقي

---

(١) عبرات تسكب على التوحيد للشيخ لممدوح الحربي ص١٣ بتصرف.

حول الأضرحة ما يستحي الإنسان من ذكره، وخاصة الاختلاط وانتهاك الأعراض، وتكثر هذه الممارسات حول الأضرحة الشهيرة كضريح الشيخ ابن علي، وضريح هاشم الميرغني، وضريح بنته الست علوية بمدينة مصوع، وهذان القبران قد تم بناؤهم على شكل مكعب، ومغطى بالقماش مثل الكعبة، وفي كل زاوية من هذه الزوايا خشبة مستديرة يتبرك بها بعد الانتهاء من الطواف حول القبر(١).

• براءة أولياء الله الصالحين من أفعال الشرك والمشركين.

الطاغوت اسم لكل ما تجاوز به العبد لنفسه أو لغيره حدود الافتقار والعبودية، ونقله إلى باب العلو والاستكبار ومنازعة الربوبية، فإذا عبد أحدا غير الله ﷻ، فذلك الغير طاغوت هذا العابد، وإذا رضي أي مخلوق عبد من دون الله بهذه العبادة فهو وما يعبد حصب جهنم.

أما إذا كان كارها داعيا إلى توحيد العبادة لله فإنه لا يسمى طاغوتا، لأن المتبرئ من الشيء ليس من أهله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ الأنبياء:١٠١.

وما نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ الأنبياء:٩٨. فرح بها المشركون وقالوا: سنكون وعيسى وعزير، وعدّوا آلهة، سنكون جميعا في جهنم فأنعم بها من صحبة، فنزه الله أنبياءه وأولياءه الصالحين وأنزل بعدها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ

---

(١) المصدر السابق ص١٣ بتصرف.

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ الأنبياء: ١٠١/ ١٠٣.

وقد ورد في صحيح السيرة أن الرسول ﷺ جلس يوما مع الوليد بن المغيرة في المسجد فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم وفي المجلس غير واحد من رجال قريش فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ثم تلا عليه وعليهم: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ الأنبياء: ٩٨/ ١٠٠.

ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبعري السهمي حتى جلس فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفا وما قعد وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم فقال عبد الله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لخصمته، فسلوا محمدا: أكل من يعبد من دون الله حصب جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيرا والنصارى تعبد عيسى فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول ابن الزبعرى ورأوا أنه قد احتج وخاصم فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ الأنبياء: ١٠١/ ١٠٢. أي عيسى ابن مريم وعزيرا ومن عبد من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله تعالى(١).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ

---

(١) صحيح السيرة النبوية للشيخ الألباني ص١٩٧.

﴿إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ المائدة:١١٦/١١٧.

وكذلك النبي ﷺ بريء ممن وصفه بأوصاف الربوبية، وجعله عين ذات الله، وأنه روح الله المنفوخ في آدم عليه السلام وغير ذلك من الغلو المخرج عن توحيد الله بالربوبية والعبودية، كما قال أحمد بن إدريس[1] صاحب الطريقة الأحمدية الإدريسية المنتشرة في بلاد المغرب والسودان وغيرها في إحدى صلواته التي يوجبها على مريديه: (اللهم صل على الكنه الذاتي والقدس الصفاتي، نور الأسماء، ورداء الكبرياء، إزار العظمة الإلهية، عين الإحاطة الذاتية، تجليات الغيب والشهادة، روح حياة الماء، الروح الإلهي، والنور البهاء، رحمة الوجود وعلم الشهادة، صلاة ذاتية أزلية أبدية، اللهم وسلم عليه مثل ذلك) [2].

وكما قال صاحب دلائل الخيرات ذلك الكتاب الذي يعظمه عامة الصوفية في حضراتهم كتعظيمهم لكتاب الله أو أشد: (اللهم صل على سيدنا محمد بحر أنوارك، ومعدن أسرارك، ولسان حجتك، وعروس

---

(١) هو أحمد بن إدريس الحسني صاحب الطريقة الأحمدية الإدريسية المنتشرة في المغرب والسودان وغيرهما، ولد بفاس وانتقل إلى مكة ثم رحل إلى اليمن فسكن صبيا إلى أن مات، وهو جد الأدراسة الذين كانت لهم إمارة عسير ونواحيها وكان صوفيا على دين ابن عربي، له عدة كتب منها العقد النفيس، والسلوك وروح السنة توفي سنة ١٢٥٣ هـ.

(٢) مجموعة أحزاب وأوراد ورسائل تأليف أحمد بن إدريس ص ٦٢.

مملكتك، وإمام حضرتك، وطراز ملكك، وخزائن رحمتك، وطريق شريعتك، المتلذذ بتوحيدك، إنسان عين الوجود، والسبب في كل موجود، عين أعيان خلقك، المتقدم من نور ضيائك، صلاة تدوم بدوامك، وتبقى ببقائك، لا منتهي لها دون علمك، صلاة ترضيك وترضيه وترضى بها عنا يا رب العالمين)[1].

- **من زعم أنه يطلع على اللوح المحفوظ فلا يمكن أن يكون وليا.**

هل ورد أن أبا بكر الصديق ﷺ اطلع على اللوح المحفوظ؟ أو ورد ذلك عن عمر وعثمان وعلي ﷺ أو أحد من الصحابة ﷺ أو من التابعين أو الأئمة الأربعة أو أهل الكتب الستة؟ فلماذا نجد في سيرة أولياء الصوفية المقبورين تحت الأضرحة والمشاهد التي غزت الكثير من المساجد في مختلف البلاد الإسلامية، لماذا نجد في سيرتهم فقط دون هؤلاء الأعلام أنهم يحظون بالاطلاع على اللوح المحفوظ؟ هل هم أفضل حالا وعلما وإيمانا وتقوى؟ أم أنهم محجوبون في قشور أهل الظاهر، أو أهل الشريعة وغيرهم من الصوفية، كما يزعمون زورا، هم أهل اللب وسكان أغوار القلب الذين يتحققون بعين الجمع عند بلوغ الحقيقة؟ تلك المبالغات التي يفتعلونها لترهب العامة، وتخوفهم من الإنكار على معتقداتهم وأفعالهم الشركية هي أساس حقيقة التصوف الممزوج بفلسفة الحلاج وابن عربي في القرون المتأخرة حتى عصرنا، إذ يمثل هذا الفكر الصوفي المنحرف انحطاطا علميا وثقافيا مرت به الأمة، وسهلت للخاصة والعامة ادعاء المبالغات، وافتعال الكرامات، ولو بضرب من خوارق العادات التي تنافي أصول الإسلام، كالاطلاع على اللوح المحفوظ،

---

(١) دلائل الخيرات لمحمد بن سليمان الجزولي ص٧٢.

وتصريف المقادير في الكون وفق مراد أوليائهم كما يزعمون كذبا وزورا، فانظر إلى ولي من أوليائهم المزعومين يحكي عنه علي بن محمد الحبشي أنه قال: (إن سيدنا أبو بكر العيدروس العدني لما تعسّرت به أمه في الولادة، قال أبوه سيدنا عبد الله بن أبي بكر: هذا ولدي لا يخرج حتى يقرأ اللوح المحفوظ، باقي معه أسطر يتمها ويخرج) [(١)].

وجاء في ترجمة إسماعيل الأنبابي: (كان يطلع على اللوح المحفوظ فيقول: يقع كذا، فلا يخطيء) [(٢)]. وقال الشعراني: (وكان الشيخ جاكير يقول: ما أخذت العهد على مريد حتى رأيت اسمه مكتوبا في اللوح المحفوظ، وأنه من أولادنا) [(٣)].

وقال أبو حامد: (القلب قد يُتَصَوَر أن يحصل فيه حقيقة العالم وصورته، تارة من الحواس، وتارة من اللوح المحفوظ، فإذا للقلب بابان: باب مفتوح إلى عالم الملكوت وهو اللوح المحفوظ وعالم الملائكة، وباب مفتوح إلى الحواس الخمس المتمسكة بعالم المُلك والشهادة) [(٤)].

ويذكر الصيادي أن الشيخ أحمد الرفاعي قال: (أيها الفقراء الشيخ عثمان السالم آبادي قدس الله سره يصعد كل يوم عند غروب الشمس إلى ديوان الربوبية، وينظر ديوان ذريته، فما يجد من سيئة يمحوها ويكتب عوضها بلا معارضة، ثم التفت إلى ابن أخته إبراهيم الأعزب وقال له: يا إبراهيم لا يكون الرجل ممكنا في سائر أحواله حتى يعرض

---

(١) كنوز السعادة الأبدية ص٢٢٧.
(٢) جامع كرامات الأولياء للنبهاني ١/٥٨٨.
(٣) الطبقات الكبرى للشعراني ص٢١٢.
(٤) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ٣/٢١.

عليه عند غروب الشمس جميع أعمال أصحابه وأتباعه وتلامذته، فيمحو منها ما يشاء، ويثبت فيها ما يشاء) [(١)].

وكان عبد الله بوراس القيرواني يقول: (أشهدني الله تعالى ما في السماوات السبع، وما في الكرسي، وما في اللوح المحفوظ، وجميع ما في الحجب، وفككت طلاسم السماوات السبع والفلك الثامن الذي فيه جميع الكواكب وجميع الفلك الثامن.. ووصلت للفلك التاسع الأطلس ورصدت جداوله، وأنا عند ذلك طفل صغير لم أبلغ الحلم) [(٢)].

وقد ذكر أن الشيخ عبد القادر الجيلاني رأى شخصا يطوف بالكعبة على رجل واحدة، فقال: من هذا الطائف على رجل؟ فقالت له أنا امرأة من بغداد جئت أطوف بالبيت وتركت بنتي نائمة على الرجل الأخرى، فتعجب من كونها في بغداد ولم يعلم بها، فقال لها: أنا أتصفح اللوح المحفوظ كل يوم كذا كذا مرة، وما رأيتك فيه؟ فقالت له: اللوح المحفوظ لك ولأمثالك، وأما أنا فقبلك في أم الكتاب) [(٣)].

قال عبد العزيز الدباغ: (ليس كل من يحضر الديوان من الأولياء يقدر على النظر في اللوح المحفوظ، بل منهم من يقدر على النظر فيه، ومنهم من يتوجه إليه ببصيرته) [(٤)].

---

(١) قلادة الجواهر في سيرة الرفاعي وأتباعه الأكابر للصيادي ص١٩٣.

(٢) الوصية الكبرى لشيخ العروسية عبد السلام الفيتوري ص٧٥ طبعة مكتبة النجاح طرابلس ليبيا.

(٣) انظر كنوز السعادة الأبدية جمع وترتب محسن بن علوي السقاف ص١٥٢.

(٤) انظر الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز بن مسعود المعروف بالدباغ لأحمد بن مبارك السجلماسي ص١٨٨.

وحكى الكوثري عن أبي الحسن الشاذلي أنه قال: (أطلعني الله على اللوح المحفوظ، فلولا التأدب مع جدي رسول الله لقلت: هذا سعيد وهذا شقي) [١].

وقال ابن عطاء الله السكندري ما نصه: (كل من كان مراعيا لحق الله تعالى، لا يُحدِثُ اللهُ حدثاً في المملكة إلا أعلمه، نظر بعضهم إلى جماعة فقال لهم: هل فيكم من إذا أحدث الله سبحانه وتعالى في المملكة حدثاً أعلمه؟ قالوا: لا فقال لهم: ابكوا على أنفسكم) [٢].

ويذكرون من مناقب الإمام علوي بن الفقيه ما نصه: (فإنه رضي الله عنه اجتمع هو الشيخ عبد الله بن محمد عباد، فقال الشيخ عبد الله للشيخ علوي: أخبرني بما ظهر لك من الكرامات. فقال الشيخ علوي ظهر لي ثلاث خصال: أحيي وأميت بإذن الله، وأقول للشيء كن فيكون بإذن الله، وأعرف السعيد من الشقي بإذن الله) [٣].

وقال أبو العباس المرسي الاسكندراني: (ما من ولي كان أو هو كائن إلا أطلعني الله عليه وعلى اسمه ونسبه وحظه من الله تعالى) [٤].

وقال الشعراني: (الشيخ شعبان المجذوب رضي الله عنه، كان من أهل التصريف بمصر المحروسة، وكان يخبر بوقائع الزمان المستقبل وأخبرني سيدي علي الخواص رضي الله عنه أن الله تعالى يُطلع الشيخ شعبان على ما يقع في كل سنة من رؤية هلالها، فكان إذا رأى الهلال

---

(١) إرغام المريد شرح النظم العتيد لتوسل المريد برجال الطريقة النقشبندية ص٣٩.

(٢) تاج العروس ص٣٦، دار ابن القيم دمشق سنة ١٩٩٩م.

(٣) غرر البهاء الضوي لمحمد بن علي باعلوي، الطبعة الأولى ص٣٧٣.

(٤) معراج التشوف لابن عجيبة ص٨٨.

عرف جميع ما فيه مكتوبا على العباد) [1].

لقد أمر الله نبيه محمد ﷺ أن يعلن للناس أنه لا يعلم الغيب، ولا يطلع على اللوح المحفوظ إلا أن يخبره الوحي بشيء سيقع على نحو يحقق حكمة الله في خلقه، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ الأنعام:٥٠. قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ الأعراف:١٨٨.

وكذلك قال النبيون من قبله فقال نوح عليه السلام: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ هود:٣١.

وقال تعالى نافيا إمكانية علم الغيب لأحد سواه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ النمل:٦٥ .وقال رسول الله ﷺ كما ذكر الله في كتابه: ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ ص:٦٩/٧٠.

والوقائع في حياة النبي ﷺ تدل بما لا يدع مجالا للشك أنه لم يكن يعلم الغيب، فلم يخبر ببراءة عائشة رضي الله عنها إلا بعد نزول الوحي الذي مكث شهرًا، ولم يعلم الحكم الشرعي في أسرى بدر إلا بعد نزول القرآن، ولم يقبل توبة الثلاثة الذين خُلفوا وقد مكثوا خمسين يوما إلا بعد نزول القرآن، فالاطلاع على الغيب من خصائص الإلوهية، ولا يصح

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني ص٥٣٧.

لمدع من الناس أنه يعلم الغيب أو يزعم النظر في اللوح المحفوظ.

لقد حصل في الإيمان بكرامات الأولياء التباس وخلط عظيم بين الناس، فطائفة أنكروا وقوعها ونفوها بالكلية، وهم الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم، فخالفوا النصوص وكابروا الواقع، وطائفة غلت في إثباتها، وهم العوام وعلماء السوء، فأثبتوا كرامات للفجرة والفساق ومن ليسوا من أولياء الرحمن بل هم من أولياء الشيطان، واعتمدوا في إثبات ذلك على الحكايات المكذوبة والمنامات المسبوكة والخوارق الشيطانية، فادعوا الكرامات للسحرة والدجالين من مشايخ الطرق الصوفية، حتى عبدوهم من دون الله؛ أحياء وأمواتا، وبنوا الأضرحة على قبور من يزعمون لهم الولاية ممن حيكت لهم الدعاية العريضة، ونسب إليهم التصرف في الكون وقضاء الحوائج لكل من دعاهم وطلب منهم المدد، واستغاث بهم، وأطلقوا عليهم مصطلحات بدعية كمصطلح القطب والغوث والبدل والوتد بسبب تلك الكرامات المزعومة والحكايات المكذوبة.

لقد اتخذت دعوى الكرامات ذريعة لعبادة من نسبت إليه، ولم يفرق العامة بين الكرامة والأحوال الشيطانية، ولا يفرقون بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ولو ثبت حقا أن وليا لله وافق القرآن والسنة، وجرت على يديه كرامة من الله؛ فإنه لا يجوز أن يُعبد من دون الله، ولا أن يُتبرك به أو بقبره؛ لأن العبادة حق لله وحده.

وقد توسط أهل السنة والجماعة في موضوع الكرامات بين الإفراط والتفريط، فأثبتوا منها ما أثبته الكتاب والسنة، ولم يغلوا في أصحابها، ولم يتعلقوا بهم من دون الله، ولا يعتقدون فيهم أنهم أفضل من غيرهم، بل هناك من أولياء الله من هو أفضل منهم، ولم تجر على يديه كرامة،

ونفوا ما خالف الكتاب والسنة من خوارق الفساق وأهل الاحتيال، واعتقدوا أنها من عمل الشيطان، وليست من كرامات أولياء الرحمن، لأن أولياء الله حقا لا يستغلون ما يجريه الله على أيديهم من الكرامات للنصب والاحتيال ولفت أنظار الناس إلى تعظيمهم، وإنما تزيدهم تواضعا ومحبة لله وإقبالا على عبادته؛ بخلاف هؤلاء فإنهم يستغلون تلك الأحوال الشيطانية التي تجري على أيديهم لجلب الناس إلى تعظيمهم والتقرب إليهم وعبادتهم من دون الله ﷻ، حتى ابتدع كل واحد منهم طريقة خاصة له، وجماعة تسمى باسمه وتسير على دربه كالشاذلية، والرفاعية، والنقشبندية والبرهانية إلى غير ذلك من الطرق الصوفية.

• **الفرق بين كرامات أولياء الرحمن وسحر وأولياء الشيطان.**

الفرق بين كرامات أولياء الرحمن وخوارق السحرة وأولياء الشيطان أن كرامات الأولياء سببها التقوى والعمل الصالح، وأعمال المشعوذين سببها الكفر والفسوق والفجور.

قال يونس بن عبد الأعلى الصَّدَفِي: (قلتُ لِلشّافِعِيِّ: كانَ اللَيْثُ بْنُ سَعْدٍ يَقوْلُ: إذا رَأَيتمُ الرَّجُلَ يَمْشِي عَلى الماءِ، فلا تَغْترُّوْا بهِ حَتَّى تَعْرِضُوْا أَمْرَهُ عَلى الكِتَابِ وَالسُّنَّة. فقالَ الشّافِعِيُّ: قصَّرَ اللَيْثُ رَحِمَهُ اللهُ! بَلْ إذا رَأَيتمُ الرَّجُلَ يَمْشِي عَلى الماءِ، وَيَطِيرُ فِي الهوَاءِ، فلا تَغْترُّوْا بهِ حَتَّى تَعْرِضُوْا أَمْرَهُ عَلى الكِتَابِ وَالسُّنَّة)[1].

ومن المعلوم أن كرامات الأولياء يُستعان بها على البر والتقوى أو على أمور مباحة، أما أعمال المشعوذين والدجالين فيستعان بها على أمور محرمة كأنواع الشرك والكفر وقتل النفس والاحتيال والنصب،

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير ١٣/٢١٧.

وكذلك فإن كرامات الأولياء تَقْوى، وتزداد بذكر الله وتوحيده، وخوارق السحرة والمشعوذين تبطل أو تضعف عند ذكر الله وقراءة القرآن والتوحيد، فهل يعقل مثلا أن ينام وليّ سبع عشرة سنة ثم يقوم ليصلي بدون وضوء(١).

وهل يعقل أن وليا من الأولياء كان من كراماته أنه لم يغتسل مرة واحدة في حياته، ولم يدخل الحمام قط، وأن وليا آخر كان من كراماته أن بوله كالحليب في طعمه ورائحته(٢). وزعموا أن من كرامات بعضهم أن الكعبة تطوف حوله وهو خارج مكة (٣).

وهل يقبل أن تكون من الكرامات ما ذكر مثلا لإسماعيل بن محمد ابن ميمون الحضرمي أنه قد اشتهر بين الناس أن من قبّل قدم الفقيه إسماعيل دخل الجنة، وأنه قال: وُضع الكون بين يديّ، وكان يقول عن نفسه: زهدت في كل شي إلا المرأة الحسناء والدابة النفيسة، وكثر دخوله بالنساء حتى صار يأمر أولاده بأن لا يتزوجوا إلا بكرا خشية أن يتزوجوا من قد تزوجها أوبوهم من قبل بسبب أنه فض بكارة أغلب الناس في بلده(٤). أيعقل أن يكون هؤلاء هم أولياء الله؟

- **كتاب دلائل الخيرات وما فيه من ابتداعات وشركيات.**

روى البخاري من حديث كعبِ بن عُجْرَةَ أنه قال: (خَرَجَ عَلَيْنَا

---

(١) الفتح الرباني والفيض الرحماني لعبد القادر الجيلاني ص٣٧٠.

(٢) الطبقات الكبرى ص٤٧٦.

(٣) نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية لأبي محمد عبد الله بن أسعد اليافعي ص٣٣، الطبعة الأولى عام ١٣٨١هـ، ١٩٦١م.

(٤) طبقات الخواص ص ٩٨: ص١٠١.

النبيُّ ﷺ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ عَلِمْنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكَ، فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ ؟ قَالَ:قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وعَلَى آل مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آل إبْرَاهِيمَ، إنَّكَ حَمِيد مَجيد. اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وعَلَى آل مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آل إبْرَاهِيمَ، إنَّكَ حَمِيد مَجِيْد) (١). هكذا علمهم النبي ﷺ كيف يصلون عليه استجابة لقول الله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ الأحزاب:٥٦ .

ولم يثبت أن أحدا من خير القرون كان يجمع مائتين وواحد من أسماء رسول الله عليه ﷺ كما هو مدون في كتاب دلائل الخيرات المعظم والمقدس بين ملايين المسلمين والمقدم عندهم على القرآن في الذكر وأن قراءته أفضل من قراءة القرآن سبعة آلاف مرة، لم يثبت أن أحدا من خير القرون كان يذكر كل اسم من المائتين ثم يقول: اللهم صل وسلم وبارك على أحمد، فيردد خلفه جمع من الصحابة أو التابعين أو تابع التابعين ويقولون: صلى الله عليه وسلم، ثم يذكر اسما آخر للرسول ﷺ فيقول: حامد، فيردد خلفه: صلى الله عليه وسلم.

ثم يقول: سيدنا محمود، فيرددون الصلاة عليه كما سبق، وهكذا في كل اسم يذكرونه: أحيد، وحيد، ماحٍ، حاشر، عاقبُ، طه، يس، طاهر مطهّر، طيّب، سيّد رسول، نبيّ رسول الرحمة، قيم، جامع، مُقتفٍ، مُقفى، رسول الملاحم، رسول الراحة، كامل، إكليل، مُدّثر، مُزّمّل، عبد الله، حبيبُ الله، صفيّ الله، نجّي الله، كليمُ الله، خاتمُ الأنبياء

---

(١) البخاري في الدعوات، باب الصلاة على النبيﷺ ٥/٢٣٣٨ (٥٩٩٦)، ومسلم في الصلاة، باب الصلاة على النبى ﷺ بعد التشهد ١/٣٠٥ (٤٠٦).

خاتمُ الرسل، مُحْي، مُنجٍ، مُذكِر، ناصر منصور، نبيّ الرحمة، نبيّ التوبة، حريص عليكم، معلوم، شهير، شاهد، شهيد مشهود، بشير، مبّشر، نذير، مُنذر نور، سِراج، مِصباح، هُدىً، مَهدّي مُنير، داعٍ، مَدعوّ، مُجيب، مُجاب حفيّ، عفوّ، وليّ، حق، قويّ، أمين، مأمون، كريم، مكرّم، مكين، متين، مُبين، مُؤمّل، وَصول، ذو قوّةٍ، ذو حُرمةٍ، ذو مكانةٍ، ذو عِزٍ، ذو فضلٍ، مُطاع، مُطيع، قدمُ صدق، رحمة، بُشرى غوث، غيث، غياث، نعمة اللّٰهِ، هديّة اللهِ، عُروة وثقى، صِراط اللهِ. وفي كل اسم يذكر يرددون الصلاة عليه كما سبق.

ثم يتابعون: مُصطفىً، مُجتبىً، مُنتفى، أُمّي، مُختار، أجير، جبَار، أبو القاسمِ، أبو الطاهرِ، أبو الطيّبِ، أبو إبراهيم، مُشفّع، شفيع، صالح، مُصلح مُهيمن، صادق، مُصدّق، سيّدُ المُرسلين إمامُ المُتقيّن، قائدُ الغرِّ المُحجّلين، خليلُ الرحمن بَرّ، مَبَرّ، وجيه، نصيح، ناصح وكيل، مُتوكّل، كفيل، شفيق، مُقيمُ السنّةِ، مُقدّس، رُوحُ القدسِ، رُوحُ الحقِّ، رُوحُ القسطِ، كافٍ، مُكتفٍ، بالغ، مُبّلغ شافٍ، واصل، موصول، سابق، هادٍ مُهدٍ، مُقدّم، عزيز، فاضل، مُفضّل فاتح، مِفتاحُ الرحمة، مِفتاحُ الجنّةِ، عَلَمُ الإيمان، علمُ اليقينِ، دليلُ الخيراتِ، مصحّحُ الحسناتِ، مُقيلُ العثراتِ، صَفوح عن الزلّاتِ، صاحبُ الشفاعةِ، صاحبُ المقامِ، صاحبُ القدمِ، مخصوص بالعزِّ، مخصوص بالمجدِ، مخصوص بالشرفِ، صاحبُ الوسيلةِ، صاحبُ السيفِ، صاحبُ الفضيلةِ، صاحبُ الإزارِ، صاحبُ الحجّةِ، صاحبُ السلطان صاحبُ الرداء، صاحبُ الدرجةِ الرفيعةِ، صاحبُ التاجِ، صاحبُ المغفرِ، صاحبُ اللواءِ، صاحبُ المِعراجِ، صاحبُ القضيبِ، صاحبُ البُراقِ، صاحبُ الخاتمِ، صاحبُ

العلامةِ، صاحبُ البرهان، صاحبُ البيان، فصيحُ اللسان ِ، مُطهَّر الجَنَان، رءوف رحيم، أُذَنُ خير، صحيحُ الَإسلام، سيّدُ الكونين، عينُ النعيمِ، عينُ الغرِّ، سعْدُ اللهِ، سعًدُ الخلقِ، خطيبُ الأمَمِ، عَلَمُ الهُدى، كاشفُ الكُرَبِ، رافعُ الرُتبِ، عِزُّ العربِ، صاحبُ الفرجِ، صلّى الله عليه وعلى آله[1].

ثم يتوسلون توسلا بدعيا بجاه النبي المصطفى ﷺ، ثم يعيدون الكرة في صلواتهم البدعية فيقولون في أنفاس جماعية: وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد عدد أوراق الأشجار، عدد دواب القفار، عدد دواب البحار، عدد مياه البحار، عدد ما اظلم عليه الليل وأضاء عليه النهار، اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد بالغدو والآصال، عدد الرمال، عدد النساء والرجال، اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد رضاء نفسك، ومدد كلماتك وملء سماواتك وأرضك وزنة عرشك، وعدد مخلوقاتك وأفضل صلواتك، اللهم صل على نبي الرحمة، شفيع الأمة، كاشف الغمة، مجلي الظلمة، اللهم صل على مولي النعمة، ومؤتي الرحمة، صاحب الحوض المورود، والمقام المحمود، وصاحب اللواء المعقود، والمكان المشهود، والموصوف بالكرم والجود، اللهم صل على من هو في السماء سيدنا محمود وفي الأرض سيدنا محمد، صاحب الشامة، صاحب العلامة، موصوف بالكرامة، مخصوص بالزعامة، تظله الغمامة، يري من خلفه كما يري من أمامه، اللهم صل على الشفيع المشفع يوم القيامة، صاحب الضراعة، صاحب الشفاعة، صاحب الوسيلة، صاحب الفضيلة اللهم صل على البشير النذير، والسراج المنير، ومن شكا إليه البعير،

(١) ملخص من دلائل الخيرات طبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٤٦هـ.

وتفجر من بين أصابعه الماء النمير، اللهم صل على النبي الخاتم، الرسول الخاتم، المصطفي القائم، اللهم صل على المنصور المؤيد، اللهم صل على المختار الممجد، اللهم صل على سيدنا ومولانا محمد، اللهم صل على من كان إذا مشي في البر الأقفر تعلقت الوحوش بأذياله.

ثم تأتي الصلاة البدعية التي وضعها سيدهم أحمد البدوي: اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد شجرة الأصل النورانية ولمعة القبضة الرحمانية، وأفضل الخليقة الإنسانية، وأشرف الصورة الجسمانية، ومعدن الأسرار الربانية، وخزائن العلوم الاصطفائية صاحب القبضة الأصلية، والبهجة السنية، والرتبة العلية من اندرجت النبيون تحت لوائه فهم منه وإليه وصل وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه عدد ما خلقت ورزقت وأمت وأحييت إلى يوم تبعث من أفنيت وسلم تسليما كثيرا والحمد لله رب العالمين(١).

ثم تأتي الطامة الكبرى في صلاة سيدهم ابن بشيش، التي يدعو فيها إلى الخروج من التوحيد والوقوع في شرك وحدة الوجود فيقولون: اللهم صل على من منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار، وفيه ارتقت الحقائق وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة، ولا شيء إلا وهو به

---

(١) انظر دلائل الخيرات ص١٤٦، وانظر أفضل الصلوات على سيد السادات، ليوسف بن إسماعيل النبهاني ص٨٥، طبع المطبعة الأدبية، بيروت ١٣٠٩هـ، وانظر مجموع الأوراد الكبير، لمحمد عثمان الميرغني ص١٩، طبعة مصطفى الحلبي ١٣٥٨هـ، ١٩٣٩م مصر.

منوط إذا لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط صلاة تليق بك منك إليه كما هو أهله اللهم إنه سرك الجامع الدال عليك، وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك، اللهم ألحقني بنسبه، وحققني بحسبه، وعرفني إياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل، وأكرع بها من مواهب الفضل، واحملني على سبيله إلى حضرتك حملا محفوفا بنصرتك، واقذف بي على الباطل فأدمغه، وزج بي في بحار الأحدية، وانشلني من أوحال التوحيد، وأغرقني في عين بحر الوحدة حتى لا أري ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها، واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي، وروحه سر حقيقتي، وحقيقته جامع عوالمي بتحقيق الحق الأول يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن اسمع ندائي بما سمعت به ندآء عبدك زكريا، وانصرني بك لك، وأيدني بك لك، واجمع بيني وبينك، وحل بيني وبين غيرك، الله الله الله [١].

• بطلان اعتقاد الصوفية في أنهم يرون الرسول ﷺ يقظة.

كثير من الصوفية يؤمنون بحياة النبي ﷺ بعد موته حياة تامة لها كل خصائص الأحياء، ولذلك قالوا بأنهم يرونه يقظة ويجتمعون به، وأنه يحضر حضراتهم التي يقيمونها والموالد التي يعملونها [٢].

وقد ذكر عمر بن سعيد الفوتي[٣] السنغالي الأزهري التيجاني أن الأولياء يرون رسول الله ﷺ يقظة، وأنه يحضر كل مجلس أو مكان أراد

---

(١) انظر دلائل الخيرات ص١٤٧، والنفحة العلية في أوراد الشاذلية ص١٦.

(٢) انظر محبة الرسول بين الاتباع والابتداع لعبد الرءوف عثمان ص٣٢٨ بتصرف.

(٣) عمر بن سعيد بن عثمان الفوتي السنغالي الأزهري التيجاني، ولد ١٧٩٧م، في بلاد ديمار الواقعة في السنغال درس في الأزهر، وعاد إلى أفريقيا، وتوفي ١٨٦٤م.

بجسده وروحه، وأنه يتصرف ويسير في أقطار الأرض وفي الملكوت، وهو بهيئته التي كان عليها قبل وفاته لم يتبدل منه شيء، وأنه مغيب عن الأبصار كما غيبت الملائكة مع كونهم أحياء بأجسادهم، فإذا أراد الله أن يراه عبد رفع عنه الحجاب فيراه على هيئته التي كان هو عليها [(١)].

وعلى هذه البدعة أسست طرق صوفية كثيرة سميت بالطرق المحمدية لأنها كما يزعمون أخذت من الرسول ﷺ مباشرة في اليقظة وذلك كالطريقة التيجانية نسبة إلى أبي العباس أحمد بن محمد بن المختار التيجاني المغربي شيخ الطريقة التيجانية في المغرب، والطريقة الأحمدية الإدريسية في السودان وغيرها من الطرق، كما بنوا عليها حضراتهم وموالدهم، إذ تزعم الصوفية أن الحضرة التي يقيمونها سميت بذلك لأن النبي ﷺ يحضرها، إما بروحه، وإما يقظة، وكذلك المولد يزعمون أن النبي ﷺ يحضره خاصة عند ذكر ولادته ﷺ، ولذلك يقومون لمجيئه، ويقول قائلهم: جاء الرسول، حضر الرسول، وحتى يمعنوا في تضليل الناس بهذه البدعة، يقولون بأن الرسول لا يراه إلا الكمل من العباد، أما القاصرون والمنكرون فهم محجوبون عن رؤيته ﷺ واعتقادهم في هذا يشبه اعتقادهم في القطب الصوفي المغيب عن الأبصار الذي لا يجتمع به إلا كبار الأولياء كاعتقاد الشيعة في الإمام الغائب المنتظر.

قال صاحب جواهر المعاني عن شيخه أحمد التيجاني: (قال رضي الله عنه: أخبرني سيد الوجود يقظة لا مناما قال لي: أنت من الآمنين،

---

(١) رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم لعمر بن سعيد الفوتي ١/١٩٨، وانظر مجلة البحوث الإسلامية، العدد ١٤، بحث التيجانية ص٦٩.

ومن رآك من الآمنين إن مات على الإيمان) [١]. وقال عنه أيضا: (ثم أمرني بالرجوع ﷺ إلى صلاة الفاتح لما أغلق، فلما أمرني بالرجوع إليها، سألته ﷺ عن فضلها فأخبرني أولا بأن المرة الواحدة منها تعدل من القرآن ست مرات، ثم أخبرني ثانيا أن المرة الواحدة منها تعدل من كل تسبيح وقع في الكون، ومن كل ذكر، ومن كل دعاء كبير أو صغير، ومن القرآن ستة آلاف مرة لأنه من الأذكار) [٢].

ويقول أحمد بن إدريس في إحدى صلواته: (واجمع بيني وبينه، كما جمعت بين الروح والجسد ظاهرا وباطنا يقظة ومناما، واجعله يا رب روحا لذاتي من جميع الوجوه في الدنيا قبل الآخرة) [٣].

ويستدلون على ادعائهم رؤية النبي ﷺ يقظة بالحديث الذي رواه البخاري ومسلم بسنديهما عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مَنْ رَآنِي فِي المَنَامِ فَسَيَرَانِي فِي اليَقَظَةِ أَوْ كَأَنَّمَا رَآنِي فِي اليَقَظَةِ لاَ يَتَمَثَّلُ الشَّيْطَانُ بِي) [٤]. فزعموا أن الحديث صريح في رؤية النبي ﷺ يقظة بعد موته في الدنيا قبل الآخرة. قال ابن أبي جمرة الأزدي الأندلسي المالكي: (اللفظ، أي لفظ الحديث يعطي العموم، ومن يدعي الخصوص بغير مخصص منه ﷺ فمتعسف) [٥].

---

(١) التيجانية ص١٢٧، نقلا عن جواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي أبي العباس التيجاني، لعلي بن حرازم الفاسي ١/١٢٩.

(٢) السابق ص ١١٦ نقلا عن أحزاب وأوراد التيجاني، ص١٢.

(٣) مجموعة أحزاب وأوراد ورسائل. لأحمد بن إدريس، ص١٨٧.

(٤) رواه البخاري في التعبير، باب من رأى النبي ﷺ في المنام ٦/٢٥٦٧ (٦٥٩٢).

(٥) نيل الابتهاج بتطريز الديباج. لأبي العباس التنبكتي ٤/٢٣٧.

وقال السيوطي بعد أن ذكر هذا الحديث وأيده ببعض النقول عن بعض العلماء: (فحصل من مجموع هذه النقول والأحاديث أن النبي ﷺ حي بجسده وروحه، وأنه يتصرف ويسير حيث شاء في أقطار الأرض، فإذا أراد الله رفع الحجاب عمن أراد إكراما برؤيته رآه على هيئته التي هو عليها، لا مانع من ذلك، ولا داعي للتخصيص برؤية المثال) [1].

وهذا الحديث لا يدل على ما ذهبوا إليه لأن العلماء في تفسير الرؤية في اليقظة على أنها خاصة بأهل عصره ممن آمن به قبل أن يراه، وأنها لغير من كان في عصره على التشبيه والتمثيل، وقد دل على هذا ما جاء في نص الرواية، فكأنما رآني في اليقظة، أو أنها تكون يوم القيامة، فيكون لمن رآه في المنام مزيد خصوصية على من لم يره في المنام.

والقول بأن الحديث معناه أنه يراه حقيقة في الدنيا ويخاطبه قول باطل من وجهين: أنه مستحيل شرعا لمعارضته النصوص كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ الزمر: ٣٠.

وهو أيضا مخالف لإجماع الأمة التي أجمعت على وفاته ﷺ، ولا يرد على ذلك أن الأنبياء أحياء في قبورهم، وما ورد عنه ﷺ من أنه ترد عليه روحه حتى يرد السلام على من سلم عليه، فإن هذه الحياة حياة برزخية تختلف عن الحياة الدنيا في خصائصها وصفاتها ولذلك يقتصر في شأنها على ما ورد في النصوص، ولا تقاس على الحياة الدنيا بأي حال من الأحوال، ثم إن حمل هذا الحديث على رؤيته يقظة في الدنيا بعد وفاته يلزم منه ادعاء الكذب على رسول الله ﷺ، وهذا مستحيل

---

(١) الحاوي للفتاوي للسيوطي ٢/٤٥٣.

لأنه معصوم عن الكذب، وبيان ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أن النبي ﷺ ذكر أن من رآه في المنام فسيراه في اليقظة، فعلق الجواب على الشرط، ومن المعلوم أن جمعا كثيرا من سلف الأمة وخلفها قد رأوه في المنام، ولم يذكر أحد منهم أنه رآه في اليقظة، وخبر الصادق ﷺ لا يتخلف.

الوجه الثاني: أنه مستحيل عقلا لأنه يلزم منه لوازم باطلة مثل أن يخرج ويراه الناس، وأن يقود أمته في كل المواطن كما كان في حياته ﷺ، وأن يجاهد في سبيل الله، وأن يفصل بين الأمة في المسائل المتنازع عليها، والحوادث التي وقعت لأمته من بعده طالما أنه حي حياة تامة، إذ لو صح ذلك لكان حل النبي ﷺ لمشاكل أمته التي حدثت من بعده وجمع كلمتهم أولى من أن يظهر لأناس في مجالس بدعية جمعوا فيها من فنون الشرك والبدع ما نهي عنه وحذر منه، فكيف يحضر مجالسهم التي بهذه الصفة ويترك الصحابة والأمة من بعدهم يواجهون الفتن بأنفسهم وهم أحوج ما يكونون إليه لو كان حيا.

قال القرطبي: (وهذا القول يدرك فساده بأوائل العقول، ويلزم عليه ألا يراه أحد إلا على صورته التي مات عليها، وأن لا يراه رائيان في آن واحد في مكانين، وأن يحيا الآن، ويخرج من قبره ويمشي في الأسواق ويخاطب الناس ويخاطبوه، ويلزم من ذلك أن يخلو قبره من جسده فلا يبقى في قبره منه شيء فيزار مجرد القبر ويسلم على غائب، لأنه جائز أن يرى في الليل والنهار مع اتصال الأوقات على حقيقته في غير قبره، وهذه جهالات لا يلتزم بها من له أدنى مسكة من عقل) [1].

---

(١) انظر فتح الباري ١٢/٣٨٤.

إذا تبين لنا هذا علمنا أن ما يدعيه الصوفية من حياة النبي ﷺ ورؤيتهم له يقظة هو محض خرافة، يكذبها العقل والواقع والتاريخ، وأن ما بنوه على أساس هذه الخرافة باطل، وأن هذا من تلاعب الشياطين بهم، لأنهم ليسوا على الطريقة الشرعية في عقائدهم وعباداتهم، وإلا لو كان هذا صحيحا لحصل لأفضل الخلق بعده ﷺ وهم صحابته ﷺ، لكنهم لما كانوا على الصراط المستقيم لم تطمع الشياطين في إضلالهم بمثل هذه الخرافات والبدع(١).

وكما لبس الشيطان عليهم في ادعائهم لرؤية النبي ﷺ في اليقظة، فقد لبس على كثير منهم في الرؤيا المنامية مع تعمد كثير منهم الكذب على رسول الله ﷺ في المنام، كما زعم ابن عربي المسمى بالشيخ الأكبر والكبريت الأحمر أنه رأى رسول الله ﷺ في المنام، وقد أعطاه كتاب فصوص الحكم ليخرج به على الناس، وهو كتاب مشحون بالكفر والكذب على الله ورسوله من أوله إلى آخره، فلم يكتف بالكذب في يقظته حتى كذب في منامه على رسول الله ﷺ.

وغالب الصوفية يفتعلون الرؤيا المنامية في إثبات بدعهم وخرافاتهم، فالصادق منهم لبس عليه الشيطان بأنه رأى الرسول ﷺ وهو في الحقيقة لم يره، وأما الكذوب فأمره مكشوف واضح.

وقد ذكر أهل العلم أن رؤيا رسول الله ﷺ في المنام لا يثبت بها حكم شرعي أو يُنْفَى، لأن الشريعة ثابتة بالأدلة الشرعية المعروفة الظاهرة، وليست الرؤيا دليلا من هذه الأدلة، ثم قالوا: إن من رأى رؤيا

---

(١) انظر في الرد على هذه الخرافة فتاوى محمد رشيد رضا، ٥/١٨٤٥، وما بعدها، جمع وتحقيق دكتور صلاح الدين المنجد دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٧١م.

فليعرض رؤياه على الشرع، فإن وافقت مقتضى الشرع فالحكم به، وتكون الرؤيا من قبيل الاستئناس، وإن كانت مخالفة لأمر شرعي فمحال وباطلة؛ لأن النبي ﷺ لا ينسخ بعد موته شريعته المستقرة في حياته، لأن الدين لا يتوقف استقراره بعد موته على حصول المرائي المنامية، فمن رأى شيئا من ذلك فرؤياه غير صحيحة، إذ لو رأى النبي ﷺ في المنام حقا لم يخبره بما يخالف الشرع، فمن أخبر بما يخالف الشرع واستند إلى رؤيا النبي ﷺ وإجازته له فهو أحد رجلين إما كذوب دجال كابن عربي وأمثاله، وإما صادق ولكن لبّس الشيطان عليه لقلة علمه فأوهمه أنه رأى النبي ﷺ ولم يره [(١)].

• الولاية ولاية التقوى والإيمان وأولياء الله متفاضلون فيها.

جميع المؤمنين الموحدين أولياء لله، وهم أولياء لبعضهم أيضا، فالذين آمنوا بعضهم أولياء بعض، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ يونس:٦٢/٦٤.

وكل من قصر الولاية على أشخاص معينين من البشر حتى لو أطلق عليهم أقطابا وأوتادا وأبدالا وما شابه ذلك، فقد افترى على الله إثما عظيما، وقال على الله بغير علم، فحقيقة الولاية ولاية التقوى والإيمان واتباع سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، ومن فسر الولاية بغير ذلك فقد ذكر فيمن نعته نعتا لأولياء الشيطان دون أولياء الرحمن، ولا يوجد

(١) انظر الاعتصام للشاطبي ١/٢٦٢ والمدخل لابن الحاج ٤/٢٨٦.

في الكتاب ولا في السنة، ولا نقل عن أحد من سلف الأمة أن الولاية قاصرة على زيد وغوث، وقطب وعمرو من أشخاص معينين، بل الولي هو من آمن بالله واتقاه بنص كلام الله في القرآن الكريم .

وليس كل من ادعى الولاية يكون وليا لله، فمن ادعي أنه ولي لله وأنه متبع لرسول الله ﷺ وهو لا يصلي فهو كاذب في دعواه، ومن ادعي أنه ولي وهو يتعلق بالقبور ويذبح لأصحابها ويتبرك بأعتابها ويقدم النذر تقربا إليها ويذبح عندها، ويطلب المدد منها، ويطلب منهم ما لا يطلب إلا من الله، فهو كاذب في دعواه ولاية الله، وأفسد دينه ودنياه، واستوجب العقاب في أخراه ، ولا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا، حتى لو حج وصام وزكى وقام، وفعل ما فعل من أحكام الإسلام، قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ الفرقان:٢٣.

ولا يكون من أولياء الرحمن إلا من أحب النبي ﷺ وسنته، واتبعها ودعا إليها، وكان مستقيما على طاعة الله ﷻ قولا وعملا واعتقادا مع سلامته من الشرك والبدع، ومن الإيمان به الإيمان بأنه ﷺ الواسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه، ووعده ووعيده وحلاله وحرامه؛ فالحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله، والدين ما شرعه الله ورسوله ﷺ، فمن اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقا إلى الله من غير متابعة محمد ﷺ فهو كافر من أولياء الشيطان [1].

وأما خلق الله تعالى للخلق ورزقه إياهم، وإجابته لدعائهم، وهدايته لقلوبهم، ونصرهم على أعدائهم، وغير ذلك من جلب المنافع ودفع المضار، فهذا لله وحده يفعله بما يشاء من الأسباب، لا يدخل في مثل

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١١/١٧٠ بتصرف.

هذا وساطة الرسل[١].

وإذا كان أولياء الله تعالى هم المؤمنون المتقون، والناس يتفاضلون في الإيمان والتقوى، فإنهم متفاضلون في ولاية الله بحسب ذلك، كما أنهم لما كانوا متفاضلين في الكفر والنفاق كانوا متفاضلين في عداوة الله بحسب ذلك، وأصل الإيمان والتقوى الإيمان برسل الله، وجماع ذلك الإيمان بخاتم الرسل محمد ﷺ، فالإيمان به يتضمن الإيمان بجميع كتب الله ورسله، وأصل الكفر والنفاق هو الكفر بالرسل وبما جاءوا به، فإن هذا هو الكفر الذي يستحق صاحبه العذاب في الآخرة ؛ فإن الله تعالى أخبر في كتابه أنه لا يعذب أحدا إلا بعد بلوغ الرسالة، ولا يدخل النار إلا من تبع الشيطان، وهذا يدل على أنه لا يدخلها من لا ذنب له، فإنه ممن لم يتبع الشيطان ولم يكن مذنبا، فلا يدخلها إلا من قامت عليه الحجة بالرسل[٢].

ومن الناس من يؤمن بالرسل إيمانا مجملا، وأما الإيمان المفصل فيكون قد بلغه كثير مما جاءت به الرسل، ولم يبلغه بعض ذلك، فيؤمن بما بلغه عن الرسل، وما لم يبلغه لم يعرفه، ولو بلغه لآمن به ؛ ولكن آمن بما جاءت به الرسل إيمانا مجملا، فهذا إذا عمل بما علم أن الله أمره به مع إيمانه وتقواه، فهو من أولياء الله تعالى، له من ولاية الله بحسب إيمانه وتقواه، وما لم تقم عليه الحجة، فإن الله تعالى لم يكلفه معرفته، والإيمان المفصل به فلا يعذبه على تركه ؛ لكن يفوته من كمال ولاية الله بحسب ما فاته من ذلك، فمن علم بما جاء به الرسل، وآمن به إيمانا مفصلا

(١) السابق ١١/١٧١ بتصرف.

(٢) السابق ١١/١٨٧ بتصرف.

وعمل به، فهو أكمل إيمانا وولاية لله ممن لم يعلم ذلك مفصلا ولم يعمل به، وكلاهما ولي لله تعالى.

والجنة درجات متفاضلة تفاضلا عظيما، وأولياء الله المؤمنون المتقون في تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم، ولا يكون مؤمنا تقيا حتى يتقرب إلى الله بالفرائض، فيكون من الأبرار أهل اليمين، ثم بعد ذلك لا يزال يتقرب بالنوافل حتى يكون من السابقين المقربين.

ومن ثم لا يكون أحد من الكفار والمنافقين وليا لله، وكذلك من لا يصح إيمانه وعباداته، وإن قدر أنه لا إثم عليه مثل أطفال الكفار، ومن لم تبلغه الدعوة، وإن قيل إنهم لا يعذبون حتى يرسل إليهم رسول، فلا يكونون من أولياء الله إلا إذا كانوا من المؤمنين المتقين؛ فمن لم يتقرب إلى الله لا بفعل الحسنات ولا بترك السيئات، لم يكن من أولياء الله، وكذلك المجانين والأطفال وبعض الحيوانات وغير المكلفين فقد جعلهم عامة الصوفية من أولياء الله[(١)].

وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى ولا التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل، وامتنع أن يكون وليا، فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه ولي لله؛ لاسيما أن تكون حجته على ذلك إما مكاشفة سمعها منه، أو نوع من تصرف مثل أن يراه قد أشار إلى واحد فمات أو صرع؛ فإنه قد علم أن الكفار والمنافقين من المشركين وأهل الكتاب لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية، كالكهان والسحرة وعباد المشركين وأهل الكتاب، فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص وليا لله، وإن لم يعلم منه ما يناقض ولاية الله، فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية

(١) السابق ١١/١٩١ بتصرف.

الله، مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبي ﷺ باطنا وظاهرا؛ بل يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر دون الحقيقة الباطنة، أو يعتقد أن لأولياء الله طريقا إلى الله غير طريق الأنبياء عليهم السلام، أو يقول إن الأنبياء ضيقوا الطريق، أو هم على قدوة العامة دون الخاصة، ونحو ذلك مما يقوله بعض من يدعي الولاية، فهؤلاء فيهم من الكفر ما يناقض الإيمان، فضلا عن ولاية الله ﷻ، فمن احتج بما يصدر عن أحدهم من خرق عادة على ولايتهم كان أضل من اليهود والنصارى[1].

وكذلك المجنون فإن كونه مجنونا يناقض أن يصح منه الإيمان والعبادات التي هي شرط في ولاية الله، ومن كان يجن أحيانا ويفيق أحيانا، إذا كان في حال إفاقته مؤمنا بالله ورسوله ويؤدي الفرائض ويجتنب المحارم ؛ فهذا إذا جن لم يكن جنونه مانعا من أن يثيبه الله على إيمانه وتقواه الذي أتى به في حال إفاقته، ويكون له من ولاية الله بحسب ذلك، وكذلك من طرأ عليه الجنون بعد إيمانه وتقواه؛ فإن الله يثيبه ويأجره على ما تقدم من إيمانه وتقواه، ولا يحبطه بالجنون الذي ابتلي به من غير ذنب فعله، والقلم مرفوع عنه في حال جنونه، فعلى هذا فمن أظهر الولاية وهو لا يؤدي الفرائض ولا يجتنب المحارم، بل قد يأتي بما يناقض ذلك لم يكن لأحد أن يقول هذا ولي لله، فإن هذا إن لم يكن مجنونا ؛ بل كان متولها من غير جنون أو كان يغيب عقله بالجنون تارة ويفيق أخرى وهو لا يقوم بالفرائض، بل يعتقد أنه لا يجب عليه اتباع الرسول ﷺ فهو كافر، وإن كان مجنونا باطنا وظاهرا قد ارتفع عنه القلم؛ فهذا وإن لم يكن معاقبا عقوبة الكافرين، فليس هو مستحقا لما

(١) السابق ١١/١٩٢ بتصرف.

يستحقه أهل الإيمان والتقوى من كرامة الله ﷻ، فلا يجوز على التقديرين أن يعتقد فيه أحد أنه ولي لله، ولكن إن كان له حالة في إفاقته كان فيها مؤمنا بالله تقيا كان له من ولاية الله بحسب ذلك، وإن كان له في حال إفاقته فيه كفر أو نفاق، أو كان كافرا أو منافقا، ثم طرأ عليه الجنون، فهذا فيه من الكفر والنفاق ما يعاقب عليه وجنونه، لا يحبط عنه ما يحصل منه حال إفاقته من كفر أو نفاق(١).

- **أولياء الله ليس لهم شيء في المظهر يتميزون به عن الناس.**

وليس لأولياء الله شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات، فلا يتميزون بلباس دون لباس، إذا كان كلاهما مباحا، لا الصوف ولا الخرق، ولا بحلق شعر أو ظفره أو تقصيره إذا كان مباحا كما قيل كم من صديق في قباء، وكم من زنديق في عباء؛ بل يوجدون في جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور، فيوجدون في أهل القرآن وأهل العلم، ويوجدون في أهل الجهاد والسيف، ويوجدون في التجار والصناع والزراع.

وقد ذكر الله أصناف أمة محمد ﷺ في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ المزمل: ٢٠.

---

(١) السابق ١١/١٩٤ بتصرف.

وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم القراء، فيدخل فيهم العلماء والنساك، ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفية والفقراء، وصار أيضا اسم الفقراء يعني به أهل السلوك، وهذا عرف حادث، وقد تنازع الناس أيما أفضل مسمى الصوفي أو مسمى الفقير؟

والصواب في هذا كله ما قاله الله تبارك وتعالى حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ الحجرات:١٣. فمن كان أتقى لله فهو أكرم عند الله، وإذا استويا في التقوى استويا في الدرجة.

ولفظ الفقر في الشرع يراد به الفقر من المال، ويراد به فقر المخلوق إلى خالقه، وهذه صفة المهاجرين الذين هجروا السيئات وجاهدوا أعداء الله باطنا وظاهرا [(١)].

ووصف أولياء الله المؤمنون بربهم أنهم يتكلمون بالخير، والتكلم بالخير عندهم خير من السكوت عنه، والصمت عن الشر خير من التكلم به، أما الصمت الدائم فبدعة منهي عنها، وكذلك الامتناع عن أكل الخبز واللحم وشرب الماء فذلك من البدع المذمومة أيضا[(٢)]، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ رأى رجلا قائما في الشمس فقال: ما هذا؟ فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال النبي ﷺ مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه[(٣)].

---

(١) السابق ١١/١٩٦ بتصرف.

(٢) السابق ١١/٢٠٠ بتصرف.

(٣) البخاري في النذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية ٦/٢٤٦٥ (٦٣٢٦).

وليس من شرط ولي الله أن يكون معصوما لا يغلط ولا يخطئ، بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين، حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به ومما نهى الله عنه، ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى، وتكون من الشيطان لبسها عليه لنقص درجته ولا يعرف أنها من الشيطان، وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى؛ فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه، ولما كان ولي الله يجوز أن يغلط لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقول من هو ولي لله لئلا يكون نبيا؛ بل ولا يجوز لولي الله أن يعتمد على ما يلقى إليه في قلبه إلا أن يكون موافقا للشرع، وعلى ما يقع له مما يراه إلهاما ومحادثة وخطابا من الحق؛ بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد ﷺ فإن وافقه قبله، وإن خالفه لم يقبله، وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف؟ توقف فيه.

والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف، طرفان ووسط؛ فمنهم من إذا اعتقد في شخص أنه ولي لله، وافقه في كل ما يظن أنه حدث به قلبه عن ربه وسلم إليه جميع ما يفعله، ومنهم من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع أخرجه عن ولاية الله بالكلية، وإن كان مجتهدا مخطئا، وخيار الأمور أوسطها، وهو أن لا يجعل معصوما ولا مأثوما إذا كان مجتهدا مخطئا، فلا يتبع في كل ما يقوله، ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده.

والواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله ﷺ، وأما إذا خالف قول بعض الفقهاء ووافق قول آخرين لم يكن لأحد أن يلزمه

بقول المخالف ويقول: هذا خالف الشرع.

وكثير من الناس يغلط فيظن في شخص أنه ولي لله، ويظن أن ولي الله يقبل منه كل ما يقوله، ويسلم إليه كل ما يقوله، ويسلم إليه كل ما يفعله وإن خالف الكتاب والسنة، فيوافق ذلك الشخص له ويخالف ما بعث الله به رسوله الذي فرض الله على جميع الخلق تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر، وجعله الفارق بين أوليائه وأعدائه، وبين أهل الجنة وأهل النار، وبين السعداء والأشقياء، فمن اتبعه كان من أولياء الله المتقين وجنده المفلحين وعباده الصالحين؛ ومن لم يتبعه كان من أعداء الله الخاسرين المجرمين، فتجره مخالفة الرسول وموافقة ذلك الشخص أولا إلى البدعة والضلال، وآخرا إلى الكفر والنفاق، ويكون له نصيب من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ الفرقان:٢٧/٢٩.

وكل من خالف شيئا مما جاء به الرسول ﷺ قلدا في ذلك لمن يظن أنه ولي الله فإنه بنى أمره على أنه ولي لله ؛ وأن ولي الله لا يخالف في شيء ولو كان هذا الرجل من أكبر أولياء الله كأكابر الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يقبل منه ما خالف الكتاب والسنة؛ فكيف إذا لم يكن كذلك، وتجد كثيرا من هؤلاء عمدتهم في اعتقاد كونه وليا لله أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور، أو بعض التصرفات الخارقة للعادة مثل أن يشير إلى شخص فيموت؛ أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها أو يمشي على الماء أحيانا؛ أو يملأ إبريقا من الهواء؛ أو ينفق بعض الأوقات من الغيب أو أن يختفي أحيانا عن أعين الناس؛ أو أن بعض الناس

استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه قد جاءه فقضى حاجته؛ أو يخبر الناس بما سرق لهم؛ أو بحال غائب لهم أو مريض أو نحو ذلك من الأمور؛ وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي لله؛ بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء أو مشى على الماء لم يغتر به حتى ينظر متابعته لرسول الله ﷺ وموافقته لأمره ونهيه.

وكرامات أولياء الله تعالى أعظم من هذه الأمور؛ وهذه الأمور الخارقة للعادة، وإن كان قد يكون صاحبها وليا لله، فقد يكون عدوا لله؛ فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين، وتكون لأهل البدع، وتكون من الشياطين، فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه ولي لله؛ بل يعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي دل عليها الكتاب والسنة، ويعرفون بنور الإيمان والقرآن، وبحقائق الإيمان الباطنة، وشرائع الإسلام الظاهرة [(١)].

مثال ذلك أن هذه الأمور المذكورة وأمثالها قد توجد في أشخاص ويكون أحدهم لا يتوضأ؛ ولا يصلي الصلوات المكتوبة؛ بل يكون ملابسا للنجاسات معاشرا للكلاب؛ يأوي إلى الحمامات والقمامين والمقابر والمزابل؛ رائحته خبيثة لا يتطهر الطهارة الشرعية؛ ولا يتنظف، فإذا كان الشخص مباشرا للنجاسات والخبائث التي يحبها الشيطان أو يأوي إلى الحمامات والحشوش التي تحضرها الشياطين أو يأكل الحيات والعقارب والزنابير؛ وآذان الكلاب التي هي خبائث وفواسق، أو يشرب البول ونحوه من النجاسات التي يحبها الشيطان، أو يدعو غير

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١١/٢١٤ بتصرف.

الله فيستغيث بالمخلوقات، ويتوجه إليها أو يسجد إلى ناحية شيخه، ولا يخلص الدين لرب العالمين، أو يلابس الكلاب أو النيران أو يأوي إلى المزابل والمواضع النجسة أو يأوي إلى المقابر؛ ولا سيما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى أو المشركين، أو يكره سماع القرآن وينفر عنه، ويقدم عليه سماع الأغاني والأشعار، ويؤثر سماع مزامير الشيطان على سماع كلام الرحمن، فهذه علامات أولياء الشيطان لا علامات أولياء الرحمن(١).

• الكرامات حق يكرم الله بها أولياءه المتقين المهتدين بشرعه.

أولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد ﷺ، فيفعلون ما أمر به، ويقتدون به، فيؤيدهم الله بملائكته، ويقذف الله في قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التي يكرم الله بها أولياءه المتقين وخيار أولياء الله، كراماتهم لحجة في الدين أو لحاجة بالمسلمين، كما كانت معجزات نبيهم ﷺ كذلك.

وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسوله ﷺ، فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول ﷺ، مثل انشقاق القمر، وتسبيح الحصى في كفه، وإتيان الشجر إليه، وحنين الجذع إليه، وإخباره ليلة المعراج بصفة بيت المقدس(٢)، وإخباره بما كان وما يكون، وإتيانه بالكتاب العزيز، وتكثير الطعام والشراب مرات كثيرة، كما أشبع في الخندق العسكر من قدر طعام وهو لم ينقص في حديث أم سلمة المشهور، وأروى العسكر في غزوة خيبر من مزادة ماء ولم تنقص، وملأ

---

(١) السابق ٢١٦/١١ بتصرف.

(٢) البخاري في فضائل الصحابة، باب حديث الإسراء ١٤٠٩/٣ (٣٦٧٣).

أوعية العسكر عام تبوك من طعام قليل ولم ينقص، وهم نحو ثلاثين ألفا، ونبع الماء من بين أصابعه مرات متعددة حتى كفى الناس الذين كانوا معه، كما كانوا في غزوة الحديبية نحو ألف وأربعمائة أو خمسمائة، ومثل هذا كثير قد جمعت نحو ألف معجزة [١].

وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جدا، مثل ما كان أسيد بن حضير يقرأ سورة الكهف فنزل من السماء مثل الظلة، فيها أمثال السرج وهي الملائكة، نزلت لقراءته، وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين؛ وكان سلمان وأبو الدرداء يأكلان في صحفة، فسبحت الصحفة أو سبح ما فيها، وعباد بن بشر وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة، فأضاء لهما نور مثل طرف السوط فلما افترقا افترق الضوء معهما. رواه البخاري وغيره، وقصة الصديق في الصحيحين لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته، وجعل لا يأكل لقمة إلا ربى من أسفلها أكثر منها، فشبعوا وصارت أكثر مما هي قبل ذلك فنظر إليها أبو بكر وامرأته فإذا هي أكثر مما كانت، فرفعها إلى رسول الله ﷺ وجاء إليه أقوام كثيرون فأكلوا منها وشبعوا، وخبيب بن عدي كان أسيرا عند المشركين بمكة شرفها الله تعالى وكان يؤتى بعنب يأكله وليس بمكة عنبة، وعامر بن فهيرة قتل شهيدا فالتمسوا جسده فلم يقدروا عليه، وكان لما قتل رفع فرآه عامر بن الطفيل وقد رفع وكانوا يرون الملائكة رفعته[٢].

وخرجت أم أيمن مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء، فكادت تموت

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١١/٢٧٥ بتصرف.

(٢) السابق ١١/٢٧٧بتصرف.

من العطش، فلما كان وقت الفطر وكانت صائمة سمعت حسا على رأسها فرفعته، فإذا دلو معلق فشربت منه حتى رويت، وما عطشت بقية عمرها، وسفينة مولى رسول الله ﷺ أخبر الأسد بأنه رسول الله ﷺ فمشى معه الأسد حتى أوصله مقصده، وعمر بن الخطاب لما أرسل جيشا أمر عليهم رجلا يسمى سارية، فبينما عمر يخطب فجعل يصيح على المنبر يا سارية الجبل، يا سارية الجبل، فقدم رسول الجيش، فسأل فقال يا أمير المؤمنين لقينا عدوا فهزمونا فإذا بصائح يا سارية الجبل يا سارية الجبل، فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله.

وطلب الأسود العنسي لما ادعى النبوة أبا مسلم الخولاني فقال له: أتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع، قال: أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال: نعم، فأمر بنار فألقي فيها، فوجدوه قائما يصلي فيها، وقد صارت عليه بردا وسلاما؛ وقدم المدينة بعد موت النبي ﷺ فأجلسه عمر بينه وبين أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أرى من أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الله.

ومما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل، فإذا احتاج إليها ضعيف الإيمان أو المحتاج أتاه منها ما يقوي إيمانه ويسد حاجته، ويكون من هو أكمل ولاية لله منه مستغنيا عن ذلك، فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها لا لنقص ولايته؛ ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة[1].

• **الأحوال الشيطانية والكرامات المزعومة لأولياء الشيطان.**

وهذا بخلاف حال عبد الله بن صياد الذي ظهر في زمن النبي ﷺ

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٨٣/١١ بتصرف.

وكان قد ظن بعض الصحابة أنه الدجال، وتوقف النبي ﷺ في أمره حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال؛ لكنه كان من جنس الكهان، والكهان يكون لأحدهم القرين من الشياطين يخبره بكثير من المغيبات بما يسترقه من السمع، وكانوا يخلطون الصدق بالكذب، وكذلك مسيلمة الكذاب كان معه من الشياطين من يخبره بالمغيبات ويعينه على بعض الأمور، وأمثال هؤلاء كثيرون مثل: الحارث الدمشقي الذي خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان وادعى النبوة وكانت الشياطين يخرجون رجليه من القيد، وتمنع السلاح أن ينفذ فيه، وتسبح الرخامة إذا مسحها بيده، وكان يرى الناس رجالا وركبانا على خيل في الهواء، ويقول هي الملائكة، وإنما كانوا جنا، ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح فلم ينفذ فيه، فقال له عبد الملك إنك لم تسم الله، فسمى الله فطعنه فقتله[1].

وهكذا أهل الأحوال الشيطانية تنصرف عنهم شياطينهم، إذا ذكر عندهم ما يطردها، مثل آية الكرسي فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ في حديث أبي هريرة ﷺ لما وكله النبي ﷺ بحفظ زكاة الفطر، فسرق منه الشيطان ليلة بعد ليلة، وهو يمسكه فيتوب فيطلقه فيقول له النبي ﷺ: ما فعل أسيرك البارحة، فيقول زعم أنه لا يعود فيقول كذبك وإنه سيعود فلما كان في المرة الثالثة. قال: دعني حتى أعلمك ما ينفعك: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي الله لا إله إلا هو الحي القيوم إلى آخرها فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فلما أخبر النبي ﷺ قال صدقك وهو كذوب وأخبره أنه

---

(١) السابق ٢٨٥/١١ بتصرف.

شيطان[1]. ولهذا إذا قرأها الإنسان عند الأحوال الشيطانية بصدق أبطلتها، مثل من يدخل النار بحال شيطاني، أو يحضر سماع المكاء والتصدية، فتنزل عليه الشياطين وتتكلم على لسانه كلاما لا يعلم، وربما لا يفقه، وربما كاشف بعض الحاضرين بما في قلبه، وربما تكلم بألسنة مختلفة كما يتكلم الجني على لسان المصروع، والإنسان الذي حصل له الحال لا يدري بذلك بمنزلة المصروع الذي يتخبطه الشيطان من المس، ولبسه وتكلم على لسانه، فإذا أفاق لم يشعر بشيء مما قال، ولهذا قد يضرب المصروع، وذلك الضرب لا يؤثر في الإنسي، ويخبر إذا أفاق أنه لم يشعر بشيء لأن الضرب كان على الجني الذي لبسه، ومن هؤلاء من يأتيه الشيطان بأطعمة وفواكه وحلوى وغير ذلك مما لا يكون في ذلك الموضع، ومنهم من يطير بهم الجني إلى مكة، أو بيت المقدس أو غيرهما، ومنهم من يحمله عشية عرفة ثم يعيده من ليلته، فلا يحج حجا شرعيا؛ بل يذهب بثيابه ولا يحرم، إذا حاذى الميقات، ولا يلبي، ولا يقف بمزدلفة، ولا يطوف بالبيت؛ ولا يسعى بين الصفا والمروة، ولا يرمي الجمار، بل يقف بعرفة بثيابه، ثم يرجع من ليلته، وهذا ليس بحج [2].

وبين كرامات الأولياء وما يشبهها من الأحوال الشيطانية فروق متعددة، منها أن كرامات الأولياء سببها الإيمان والتقوى والأحوال الشيطانية سببها ما نهى الله عنه ورسوله ﷺ، فالقول على الله بغير علم والشرك والظلم والفواحش قد حرمها الله تعالى ورسوله ﷺ فلا تكون

---

(١) البخاري في الوكالة ٢/٨١٢ (٢١٨٧) .

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١١/٢٨٦ بتصرف.

سببا لكرامة الله تعالى بالكرامات عليها، فإذا كانت لا تحصل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن، بل تحصل بما يحبه الشيطان وبالأمور التي فيها شرك كالاستغاثة بالمخلوقات، أو كانت مما يستعان بها على ظلم الخلق، وفعل الفواحش فهي من الأحوال الشيطانية لا من الكرامات الرحمانية (١).

ومن هؤلاء من إذا حضر سماع المكاء والتصدية يتنزل عليه شيطانه حتى يحمله في الهواء ويخرجه من تلك الدار، فإذا حصل رجل من أولياء الله تعالى طرد شيطانه، فيسقط كما جرى هذا لغير واحد، ومن هؤلاء من يستغيث بمخلوق إما حي أو ميت سواء كان ذلك الحي مسلما أو نصرانيا أو مشركا فيتصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث به، ويقضي بعض حاجة ذلك المستغيث، فيظن أنه ذلك الشخص، أو هو ملك على صورته، وإنما هو شيطان أضله لما أشرك بالله، كما كانت الشياطين تدخل الأصنام وتكلم المشركين.

ومن هؤلاء من يتصور له الشيطان ويقول له: أنا الخضر، وربما أخبره ببعض الأمور وأعانه على بعض مطالبه كما قد جرى ذلك لغير واحد من المسلمين واليهود والنصارى.

وكثير من الكفار بأرض المشرق والمغرب يموت لهم الميت فيأتي الشيطان بعد موته على صورته، وهم يعتقدون أنه ذلك الميت ويقضي الديون ويرد الودائع ويفعل أشياء تتعلق بالميت، ويدخل على زوجته ويذهب، وربما يكونون قد أحرقوا ميتهم بالنار كما يصنع كفار الهند، فيظنون أنه عاش بعد موته.

---

(١) السابق ١١/٢٨٧ بتصرف.

ومن هؤلاء شيخ كان بمصر أوصى خادمه فقال: إذا أنا مت فلا تدع أحدا يغسلني، فأنا أجيء وأغسل نفسي، فلما مات رآى خادمه شخصا في صورته، فاعتقد أنه هو دخل وغسل نفسه، فلما قضى ذلك الداخل غسله أي غسل الميت غاب، وكان ذلك شيطانا، وكان قد أضل الميت، وقال: إنك بعد الموت تجيء فتغسل نفسك، فلما مات جاء أيضا في صورته ليغوي الأحياء، كما أغوى الميت قبل ذلك.

ومنهم من يرى عرشا في الهواء وفوقه نور، ويسمع من يخاطبه ويقول: أنا ربك، فإن كان من أهل المعرفة علم أنه شيطان فزجره واستعاذ بالله منه فيزول، ومنهم من يرى أشخاصا في اليقظة يدعي أحدهم أنه نبي أو صديق أو شيخ من الصالحين وقد جرى هذا لغير واحد، ومنهم من يرى في منامه أن بعض الأكابر إما الصديق رضي الله عنه أو غيره قد قص شعره أو حلقه أو ألبسه طاقيته أو ثوبه فيصبح وعلى رأسه طاقية وشعره محلوق أو مقصر، وإنما الجن قد حلقوا شعره أو قصروه، وهذه الأحوال الشيطانية تحصل لمن خرج عن الكتاب والسنة وهم درجات، والجن الذين يقترنون بهم من جنسهم، وهم على مذهبهم، والجن فيهم الكافر والفاسق والمخطئ، فإن كان الإنسي كافرا أو فاسقا أو جاهلا دخلوا معه في الكفر والفسوق والضلال، وقد يعاونونه إذا وافقهم على ما يختارونه من الكفر مثل الإقسام عليهم بأسماء من يعظمونه من الجن، وغيرهم ومثل أن يكتب أسماء الله أو بعض كلامه بالنجاسة، أو يقلب فاتحة الكتاب، أو سورة الإخلاص، أو آية الكرسي أو غيرهن، ويكتبهن بنجاسة، فيغورون له الماء، وينقلونه بسبب ما يرضيهم به من الكفر.

وقد يأتونه بما يهواه من امرأة أو صبي، إما في الهواء، وإما مدفوعا ملجأ إليه، إلى أمثال هذه الأمور التي يطول وصفها، والإيمان بها إيمان بالجبت والطاغوت، والجبت السحر والطاغوت الشياطين والأصنام، وإن كان الرجل مطيعا لله ورسوله باطنا وظاهرا لم يمكنهم الدخول معه في ذلك أو مسالمته.

ولهذا لما كانت عبادة المسلمين المشروعة في المساجد التي هي بيوت الله كان عمار المساجد أبعد عن الأحوال الشيطانية، وكان أهل الشرك والبدع يعظمون القبور ومشاهد الموتى، فيدعون الميت، أو يدعون به أو يعتقدون أن الدعاء عنده مستجاب وهذا أقرب إلى الأحوال الشيطانية.

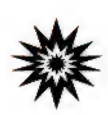
والشيطان وإن أعان الإنسان على بعض مقاصده فإنه يضره أضعاف ما ينفعه، وعاقبة من أطاعه إلى شر إلا أن يتوب الله عليه، وكذلك عباد الأصنام قد تخاطبهم الشياطين، وكذلك من استغاث بميت أو غائب، وكذلك من دعا الميت أو دعا به أو ظن أن الدعاء عند قبره أفضل منه في البيوت والمساجد، ويوجد لأهل البدع وأهل الشرك المتشبهين بهم من عباد الأصنام والنصارى والضلال من المسلمين أحوال عند المشاهد يظنونها كرامات وهي من الشياطين، مثل أن يضعوا سراويل عند القبر فيجدونه قد انعقد، أو يوضع عنده مصروع فيرون شيطانه قد فارقه، يفعل الشيطان هذا ليضلهم، وإذ قرأت آية الكرسي هناك بصدق بطل هذا، فإن التوحيد يطرد الشيطان؛ ولهذا حمل بعضهم في الهواء فقال: لا إله إلا الله فسقط، ومثل أن يرى أحدهم أن القبر قد انشق وخرج منه إنسان فيظنه الميت وهو شيطان(١).

---

(١) السابق ١١/٢٨٩ بتصرف.

المطلب السادس عشر

أصول الكفر وأنواعه التي تقابل أصول الإيمان وأنواعه



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا فيما سبق عن توحيد العبادة لله وأصناف الناس الذين أورثوا الكتاب من أم محمد ﷺ، وهم الأقسام الثلاثة التي ورد ذكرهم في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ فاطر: ٣١/٣٢.

وعلمنا أن أهل الجنة هم المقتصدون والسابقون بالخيرات، وكذلك أصحاب الكبائر من الظالمين لأنفسهم الذين هم تحت المشيئة الإلهية، فنهم إما يدخلون الجنة ابتداء برحمته، وإما يعذبون في النار بعدل الله وحكمته حتى يتطهروا من آثامهم، غير أنهم لا يخلدون فيها، بل يدخلون الجنة ولو بعد حين، كما وردت بذلك النصوص النقلية الصحيحة المستفيضة في السنة.

وعلمنا حقيقة الطريق البدعي الذي سلكه الصوفية في مقامات

العابدين والمريدين والعارفين، ثم تحدثنا عن أنواع الكبائر التي تقع من الظالمين لأنفسهم ممن أورثوا الكتاب، ثم تناولنا الحديث عن الشرك وأنواعه وأسبابه وما تعلق منه بالقلب واللسان والجوارح سواء كان شركا أكبر أم شركا أصغر.

وتناولنا في المطلب السابق بيان الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وأنه يتمثل في التزام الصراط المستقيم، وعلمنا أن عبادة الأوثان استمرت من عصر نوح ﵇ إلى عصرنا بحجة تعظيم أولياء الرحمن وتقديس أضرحة الصالحين، وتحدثنا عن ظاهر تعظيم مشاهد الأولياء في أغلب البلاد العربية والإسلامية، وبينا براءة أولياء الله الصالحين من أفعال الشرك والمشركين.

وعلمنا أن من زعم أنه يطلع على اللوح المحفوظ فلا يمكن أن يكون وليا من أولياء الرحمن، وبينا الفرق بين كرامات أولياء الرحمن وسحر وأولياء الشيطان وخوارقهم، ونبهنا على كتاب دلائل الخيرات وما فيه من ابتداعات وشركيات، وتناولنا بطلان اعتقاد الصوفية في أنهم يرون الرسول ﷺ يقظة، وعلمنا أيضا أن الولاية الحقيقية إنما هي ولاية التقوى والإيمان، وأن أولياء الله متفاضلون فيها كل على حسبه، وأن أولياء الله ليس لهم شيء في المظهر يتميزون به عن الناس، وأن الكرامات التي تقع لهم حق، وهي خوارق عادات يجريها الله ﷻ على أيديهم ليكرم بها أولياءه المتقين المهتدين بشرعه، وأن الأحوال الشيطانية ليست كرامات كما زعم أولياء الشيطان.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن أصول الكفر وأنواعه

التي تقابل أصول الإيمان وأنواعه بصورة إجمالية بيانية، نسترشد بها في عرض حقيقة الإيمان باعتبار تصديق الأخبار من جهة، وتنفيذ الأوامر الشرعية في تحقيق توحيد العبودية من جهة أخرى.

- تحقيق الإيمان بالله لا يكون إلا بنفي ضده من أنواع الكفر.

قال الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦ ﴾ البقرة:٢٥٦

أصل الطُّغْيانُ والطُّغْوانُ تجاوز الحد. يقال: طَغَى يَطْغى طَغْياً ويَطْغُو طُغْياناً جاوزَ القَدْرَ، وارتفع وغَلا في الكُفْرِ، وطَغَى الماءُ والبحر إذا هاجَتْ أمواجُه وارتَفَع وعلا على كلِّ شيءٍ، والطاغوت كلُّ معبودٍ من دون الله ﷻ، أو الشيطانُ، أَو ما يُزَيّن لهم أَن يَعْبُدوه من الأَصْنامِ [١].

من شروط لا إله إلا الله التي لا يصح إيمان الإنسان إلا به، الكفر بما يعبد من دون الله، فالتوحيد لا يتحقق إلا بنفي وإثبات، والمقصود نفي صفات الإلوهية عما سوى الله، وإثبات العبادة لله وحده، فلا يتم التوحيد حتى يشهد أنه لا إله إلا الله، وأنه لا معبود بحق سواه.

ولو نفى عبد الإلوهية عما سوى الله ﷻ، ولم يثبتها لله وحده لم يكن موحدا، ولو أثبت صفات الإلوهية لله ولم ينفها عمن سواه لم يكن موحدا، فالنفي المحض تعطيل محض، والإثبات المحض لا يمنع

(١) لسان العرب لابن منظور الأفريقي ١٥/٧ بتصرف.

مشاركة الآخرين في الحكم، فلا بد لصحة الإيمان بلا إله إلا الله من نفي عبادة ما سواه، أو الكفر بما يعبد من دون الله، ثم إثبات عبادة الله وحده، وهذه حقيقة التوحيد التي جاءت بها رسالة السماء، ودعا إليها سائر الرسل والأنبياء صلوات الله عليهم.

والعروة الوثقى هي كلمة التوحيد، وسميت بذلك لأن العاقل إذا شهد بها عن فهم دقيق، وإيمان عميق، واتصال وثيق بالله، لا يرضى بغير الله معبودا حتى لو مشط بأمشاط الحديد ما دون لحم من عظم.

روى البخاري من حديث خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ ﷺ أنه قال: (شَكَوْنَا إلى رَسُول اللهِ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لهُ فِي ظِلِ الكَعْبَةِ، قُلنَا لهُ: أَلا تَسْتَنْصِرُ لنَا؟ أَلا تَدْعُو اللهَ لنَا؟ قَال: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلكُمْ يُحفَرُ لهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ على رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذلكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذلكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ ليُتِمَّنَّ هَذا الأَمْرَ حتى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلا اللهَ، أَوْ الذِّئْبَ على غَنَمِهِ، وَلكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ) (١).

والعروة في اللغة هي ما يشد به الثوب وغيره، بحيث يتداخل بعضها في بعض دخولا لا ينفصم ولا ينفك إلا بفصم طرفه، فإذا

---

(١) رواه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ١٣٢٢/٣ (٣٤١٦)، ومعنى متوسد بردة، أي جعلها وسادة له، وتستنصر أي تطلب النصرة من الله تعالى، ومعنى ليتمن هذا الأمر، الإتمام هو بلوغ دين الإسلام إلى الكمال والتمكين.

انفصمت منه عروة انفصم جميعه، والمرء إذا شهد ألا إله إلا الله فقد عقد العقد الأعظم والعروة الوثقى لكلمة التوحيد التي لا انفصام لها إلا بالشرك أو الكفر، أو عدم الكفر بما يعبد من دون الله.

وقد فسر النبي ﷺ العروة الوثقى بالتوحيد الذي هو عمود الإسلام في تعبيره رؤيا عبد الله بن سلام رضي الله عنه، كما روى مسلم من حديث خَرَشَةَ ابْنِ الحُرِّ رضي الله عنه أنه قال: (كُنْتُ جَالسًا فِي حَلقَةٍ فِي مَسْجِدِ المَدِينَةِ وَفِيهَا شَيْخٌ حَسَنُ الهَيْئَةِ وَهُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلامٍ، فَجَعَل يُحَدِّثُهُمْ حَدِيثا حَسَنًا، فَلمَّا قَامَ قَال القَوْمُ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إلى رَجُلٍ مِنْ أَهْل الجَنَّةِ فَليَنْظُرْ إلى هَذا الرجل، فَقُلتُ: وَاللهِ لأَتْبَعَنَّهُ فَلأَعْلمَنَّ مَكَانَ بَيْتِهِ، فَتَبِعْتُهُ فَانْطَلقَ حتى كَادَ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ المَدِينَةِ، ثمَّ دَخَل مَنْزِلهُ فَاسْتَأْذَنْتُ عَليْهِ فَأَذنَ لي، فَقَال: مَا حَاجَتُك يَا ابْنَ أَخِي، فَقُلتُ لهُ: سَمِعْتُ القَوْمَ يَقُولُونَ لك لَمَّا قُمْتَ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إلى رَجُلٍ مِنْ أَهْل الجَنَّةِ فَليَنْظُرْ إلى هَذا، فَأَعْجَبَنِي أَنْ أَكُونَ مَعَك، قَال: اللهُ أَعْلمُ بِأَهْل الجَنَّةِ، وَسَأُحَدِّثك مِمَّ قَالُوا ذاكَ، إِنِّي بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ إذ أَتَانِي رَجُلٌ فَقَال لي: قُمْ، فَأَخَذ بِيَدِي، فَانْطَلقْتُ مَعَهُ، فَإِذا أَنَا بِجَوَادَّ عَنْ شمالي [(١)].

قَال: فَأَخَذتُ لآخُذ فِيهَا، فَقَال لي: لا تَأْخُذ فِيهَا فَإِنَّهَا طُرُقُ أَصْحَابِ الشِّمَال، قَال: فَإِذا جَوَادُّ مَنْهَجٌ على يَمِينِي [(٢)]، فَقَال لي: خُذ هَاهُنَا، قال عبد الله: فَأتي بِي جَبَلا، فَقَال ليَ: اصْعَدْ، قَال: فَجَعَلتُ إِذا أَرَدْتُ أَنْ أَصْعدَ خَرَرْتُ على اسْتِي، حتى فَعَلتُ ذلكَ

---

(١) الجواد الطريق.

(٢) يعني أنه رأي عن يمينه طرقا مستقيمة وأمره أن يسير فيها.

مِرَارًا، ثمَّ انْطَلَقَ بِي حتى أتى بِي عَمُودًا رَأْسُهُ فِي السَّمَاءِ وَأَسْفَلُهُ فِي الأَرْضِ فِي أَعْلاهُ حَلقَةٌ، فقَال ليَ: اصْعَدْ فَوْقَ هَذا، قُلتُ: كَيْفَ أَصْعَدُ هَذا وَرَأْسُهُ فِي السَّمَاءِ؟ قَال: فَأَخَذ بِيَدِي فزَجَل بِي (١)، فَإِذا أَنَا مُتَعَلقٌ بِالحَلقَةِ، ثمَّ ضَرَبَ العَمُودَ فَخرَّ، وبَقِيتُ مُتَعَلقًا بِالحَلقَةِ حتى أَصْبَحْتُ.

قَال: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَصَصْتُهَا عَليْهِ، فَقَال: أَمَّا الطُّرُقُ التِي رَأَيْتَ عَنْ يَسَارِكَ فَهِيَ طُرُقُ أَصْحَابِ الشِّمَال، وَأَمَّا الطُّرُقُ التِي رَأَيْتَ عَنْ يَمِينِكَ فَهِيَ طُرُقُ أَصْحَابِ اليَمِينِ، وَأَمَّا الجَبَلُ فَهُوَ مَنْزِلُ الشُّهَدَاءِ، وَلنْ تَنَالهُ، وَأَمَّا العَمُودُ الذي رَأْسُهُ فِي السَّمَاءِ وَأَسْفَلُهُ فِي الأَرْضِ فَهُوَ عَمُودُ الإِسْلامِ، وَأَمَّا العُرْوَةُ فَهِيَ عُرْوَةُ الإِسْلامِ وَلنْ تَزَال مُتَمَسِّكًا بِهَا حتى تَمُوتَ) (٢).

والشاهد أن العروة الوثقى هي عروة الإسلام وكلمة التوحيد، والمسلم بقوله لا إله إلا الله قد عهد عهدا على نفسه، وعقد في قلبه عقدا أنه سيسلم نفسه لربه، ولن يطيع أحدا في معصيته، ولن يتحاكم إلا إلى شرعه وما أمر الله به في كتابه وصح في سنة نبيه ﷺ.

وقد بين رسول الله ﷺ أن الكفر بما يعبد من دون الله، شرط لازم من شروط لا إله إلا الله أو شرط لتحريم ماله ودمه، فقد روى الإمام مسلم من حديث أبي مَالكٍ الأَشْجَعِي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ

---

(١) أي دفعني ورماني، والزجل بالشيء هو الرمي به.

(٢) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل، باب من فضائل عبد الله بن سلام رضي الله عنه ٤/١٩٣١ (٢٤٨٤) .

قَال لا إلهَ إلا اللهُ، وَكَفرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ على اللهِ) [1].

- قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه والإلزام بالبراءة من الكفر.

الكفر بما يعبد من دون الله يقتضي البراءة من الكفر والكافرين وعدم موالاة أعداء الله وأعداء المؤمنين الذين يبغضون دين الإسلام والمسلمين، ويسارعون في إيذائهم ومعاونة أعدائهم من أتباع ملل الكفر المختلفة، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ (٢٨)﴾ آل عمران: ٢٨.

لما أراد رسول الله ﷺ فتح مكة وعزم على ذلك أمر أصحابه ﷺ بكتمان الأمر حتى لا تعلم قريش، فأرسل حاطب بن أبي بلتعة ﷺ الخبر إليهم رغبة في أن تكون له يد عندهم، روى البخاري من حديث على بن أبي طالب ﷺ أنه قال: (بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ بنَ العوام وَالمِقْدَادَ بنَ الأسود فقَال: انْطَلِقُوا حتى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ فَخُذوه مِنْهَا [2].

قال: فَانْطَلَقْنَا تَعَادَي بِنَا خَيْلُنَا حتى أَتَيْنَا الرَّوْضَةَ، فَإذا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ، قُلنَا لهَا: أَخْرِجِي الكِتَابَ، قَالتْ: مَا مَعِي كِتَابٌ، فَقُلنَا:

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ١/٥٣ (٢٣).

(٢) روضة خاخ اسم مكان في الطريق بين مكة والمدينة، والظعينة المرأة الراكبة.

لتُخرِجِنَّ الكِتَابَ، أَوْ لنُلقِيَنَّ الثيَابَ، قَال: فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُول اللهِ ﷺ، فَإذا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلتَعَةَ إلى نَاسٍ بِمَكَّةَ مِنَ المُشْرِكِينَ، يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُول اللهِ ﷺ، فَقَال رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا حَاطِبُ مَا هَذا؟ قَال: يَا رَسُول اللهِ لا تَعْجَل على، إنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلصقًا فِي قُرَيْشٍ، يَقُولُ: كُنْتُ حَليفًا وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أنفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ المُهَاجِرِينَ مَنْ لهُمْ قَرَابَاتٌ يَحْمُونَ أَهْليهِمْ وَأَمْوَالهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إذ فَاتَنِي ذلكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ قَرَابَتِي، وَلمْ أَفْعَلهُ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، وَلا رِضًا بِالكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلامِ، فَقَال رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ، فَقَال عُمَرُ: يَا رَسُول اللهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذا المُنَافِقِ، فَقَال: إنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لعَل اللهَ اطَّلعَ على مَنْ شَهِدَ بَدْرًا فَقَال: اعْمَلُوا مَا شِئتمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لكُمْ، فَأَنْزَل اللهُ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ①﴾ (المتحنة: ١) [(١)].

ذكر ابن القيم أن هذه القصة يؤخذ منها جواز قتل الجاسوس وإن كان مسلما، لأن عمر ﷺ سأل رسول الله ﷺ قتل حاطب بن أبي

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس ٣/١٠٩٥ (٢٨٤٥)، ومعنى عقاصها، أي ضفائر شعرها، وملصقا أي مضافا إليهم ولست منهم، وقيل معناه حليفا ولم يكن من نفس قريش وأقربائهم، ويدا عندهم أي نعمة ومنة عليهم .

بلتعة، فلم يقل رسول الله ﷺ: لا يحل قتله، إنه مسلم. بل قال: وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فأجاب بأن فيه مانعا من قتله وهو شهوده بدرا.

وفي الجواب بهذا كالتنبيه على جواز قتل كل جاسوس، ليس له مثل هذا المانع. وهذا مذهب مالك وأحد الوجهين في مذهب أحمد، وقال الشافعي وأبو حنيفة لا يقتل، وهو ظاهر مذهب أحمد، والفريقان يحتجون بقصة حاطب رضي الله عنه. والصحيح: أن قتله راجع إلى رأي الإمام، فإن رأى في قتله مصلحة للمسلمين قتله، وإن كان استبقاؤه أصلح استبقاه والله أعلم) [1].

وذكر أيضا: من فوائد هذه القصة أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تكفر بالحسنة الكبيرة الماحية، كما وقع الجس من حاطب مكفَّرًا بشهوده بدرا، فإن ما اشتمل عليه قتال المشركين في بدر من المصلحة والحسنة العظيمة، وتضمنه من محبة الله لها، ورضاه وفرحة بها، ومباهاته للملائكة بفاعلها أعظم مما اشتملت عليه سيئة الجس من المفسدة، وتضمنه من بغض الله لها، فغلب الأقوى على الأضعف فأزاله وأبطل مقتضاه، وهذه حكمة الله عز وجل في الصحة والمرض الناشئين من الحسنات والسيئات، الموجبين لصحة القلب ومرضه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ هود: ١١٤.

وقال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ

(١) زاد المعاد لابن القيم ٣/٤٢٢ بتصرف.

وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ النساء: ٣١.

وقد دل النص الذي نزل في شأن حاطب ﵁ على دخوله في المخاطبة باسم الإيمان، ووصفه به، وتناوله النهي بعمومه، وله خصوص السبب الدال على إرادته، مع أن الآية فيها ما يشعر أن فعل حاطب نوع موالاة، وأنه أبلغ بالمودة، فإن فاعل ذلك قد أضل سواء السبيل، لكن قول النبي ﷺ: صدقكم، خلوا سبيله، ظاهر في أنه لا يكفر بذلك إذا كان مؤمنا بالله ورسوله غير شاك ولا مرتاب، وإنما فعل ذلك لغرض دنيوي، ولو كفر لما قيل: خلوا سبيله.

أما الجاسوس الكافر فهذا يجب قتله لأنه ﷺ قتل جاسوسا من المشركين، كما ورد عند البخاري من حديث سلمة بن الأكوع ﵁ أنه قال: (أتى النبي ﷺ عين من المشركين وهو في سفر فجلس عند أصحابه يتحدث ثم انفتل، فقال النبي ﷺ: اطلبوه واقتلوه، فقتلته، فنفله سلبه [١].

والواجب أن يكون المؤمن محبا لله ورسوله ﷺ وللمؤمنين، وأن لا يكون في قلبه مودة للكفار ولو كان لأمور الدنيا، وإذا عَامَلَ المشركين أو عَامَلَ الكفار في أمور الدنيا، إنما تكون معاملة ظاهرة بدون ميل

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب الحربي إذا دخل دار الإسلام بغير أمان ٣/١١١٠ (٢٨٨٦)، والعين الجاسوس، وانفتل انصرف، فقتله أي سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، فنفله أعطاه النبي ﷺ سلبه، والنفل ما يشترطه الإمام لمن يقوم بعمل ذي خطر، وسلبه هو كل ما يكون مع المقتول من مركب أو سلاح أو متاع.

القلب ولا محبته، لأن المشرك حمل قلبا يعمل في مسبَّة الله جل وعلا، وهو سابٌّ لله بفعله، إذ اتخذ مع الله جل وعلا إلها آخر، والمؤمن متول لله ولرسوله ﷺ وللذين آمنوا، فلا يمكن أن يكون في قلبه مُوادَّة لمشرك حمل الشرك والسب لله عز وجل في قلبه وبدنه.

وقد أمرنا الله باتباع ملة إبراهيم حنيفا، وملة إبراهيم هي التوحيد الذي ينفي الشرك، وهي الإيمان الذي ينفي الكفر؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الزخرف:٢٦/٢٨.

وقول إبراهيم الخليل إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إلا الَّذي فَطَرَنِي، دل على نفي الشرك والبراءة من جميع الطواغيت، والكفر بها، وإثبات توحيد العبادة لله عز وجل والإيمان به ربا ومعبودا، يُصدق في خبره، ويُطاع في أمره، وهذا معنى كلمة التوحيد، ولهذا جعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون إليها، وعَقِبُ إبراهيم عليه السلام منهم العرب، ومنهم أتباع الأنبياء، فهو أبو الأنبياء.

وجميع المؤمنين أولياء إبراهيم عليه السلام وأولياء دينه الحنيف، وهم جميعا بعضهم أولياء بعض، وقد أوجب الله عز وجل الموالاة بين المؤمنين، وبين أن ذلك من لوازم الإيمان، ونهى عن موالاة الكفار، وبين أن ذلك منتفيا في حق المؤمنين، وبين حال المنافقين في موالاة الكافرين.

قال تعالى عن موالاة المؤمنين وعدم مولاة الكافرين: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ

وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ المائدة:٥٥/٥٧.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ ﴾ الأنفال:٧٢/٧٣.

وقد حرم الله تعالى على عباده المؤمنين أن يتخذوا المنافقين بطانة يطلعونهم على سرائرهم، وبين أنهم يسعون بكل سبيل إلى خبالهم أي إفسادهم والإضرار بهم بكل ما استطاعوا. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾ ﴾ آل عمران:١١٨/١٢٠.

قيل لعمر بن الخطاب ﷺ: إن ههنا غلاما من أهل الحيرة من النصارى حافظ كاتب، فلو اتخذته كاتبا، فقال: قد اتخذت إذا بطانة

من دون المؤمنين[١]. قال ابن كثير معقبا: وهذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين، واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب [٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ النساء: ٦٠/٦١.

لقد بين الله سبحانه وتعالى تناقض من يدعي الإيمان، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات وفض المنازعات إلى غير منهج الله ﷻ وحكمه، وقد ذكر في سبب نزول تلك الآية أن رجلا من الأنصار خاصم رجلا من اليهود، فقال اليهودي: بيني وبينك محمد وما يحكم به، وقال الأنصاري: بيني وبينك كعب بن الأشرف وما يحكم به[٣].

وقيل إن الآية نزلت في جماعة من المنافقين ممن أظهروا الإسلام

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه كتاب الأدب، باب في اتخاذ كاتب نصراني ٥/٢٥٩ (٢٥٨٧٢)، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٢/٣٠٠ نشر دار الفكر بيروت.

(٢) تفسير ابن كثير ١/٣٩٩.

(٣) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره عن مجاهد، انظر تفسير الطبري ٥/١٥٤، وانظر فتح الباري لابن حجر ٥/٣٧.

والعبودية، وأرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية [(١)].

والآية عامة وذامة لكل من تحاكم إلى غير الشريعة الإسلامية وعدل عن الكتاب والسنة إلى ما سواهما من الباطل.

- **كان المشركون يعلمون أن شرط الإيمان هو الكفر بالطاغوت.**

لقد كان المشركون في الجاهلية يعلمون أن شرط الإيمان بدعوة محمد ﷺ إلى لا إله إلا الله، وتوحيد العبادة لله، تستلزم الكفر بما يعبد من دون الله، وأن الإقرار بها يحتم كامل المولاة لله ورسوله ﷺ، ولذلك لما طلب رسول الله ﷺ من عمه أبي طالب أن ينطق بكلمة التوحيد وهو يحتضر، لم يطاوعه لسانه أن ينطق بلا إله إلا الله لعلمه بلوازمها، وفي المقابل انتصر لدين الآباء المشركين، وأبى أن يكفر باللات والعزى، فهم كانوا يعلمون أن شرط التوحيد والإيمان هو البراءة من الشرك، والكفر بما يعبد من دون الله.

روى البخاري من حديث سَعِيد بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَوَجَدَ عِنْدَهُ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لأَبِي طَالِب: يَا عَمِّ قُل لا إِلَهَ إِلا اللهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَل رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَيَعُودَانِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ حتى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلمَهُمْ: هُوَ على مِلةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبي

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٥٢٠.

أَنْ يَقُول لا إِلهَ إلا اللهُ، فَقَال رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَمَا وَاللهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لكَ مَا لمْ أُنْهَ عَنْكَ (١).

وقد كان النبي ﷺ يرغب في التأسي بإبراهيم عليه السلام حين استغفر لأبيه على الرغم من موته على الشرك كما ورد في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ مريم:٤٦/٤٨.

وقال تعالى عن إبراهيم: ﴿ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْأَخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ الشعراء:٨٤/٨٦.

ولما علم الصحابة رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ سيستغفر لعمه على الرغم من عقيدته الشركية، بدؤوا يستغفرون لآبائهم المشركين الذين ماتوا في الجاهلية، فمنعهم الله عز وجل من ذلك، وبين لهم أن ذلك لا يجوز في حقهم، وأن إبراهيم عليه السلام ما استغفر لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، وهي أنه سيشهد ألا إله إلا الله، فلما تبين أنه معاد لله عز وجل تبرأ منه وأنزل الله سبحانه: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله ١/ ٤٥٧ (١٢٩٤)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع وهو الغرغرة ١/ ٥٤ (٢٤).

مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ التوبة:١١٣/١١٥.

لقد تبرأ الخليل إمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام من أبيه آزر لما أصر على الشرك وامتنع عن الإيمان بتوحيد العبادة لله، فبعد أن كان والده قريبا حبيبا أصبح بسبب شركه بعيدا غريبا، بل سأل إبراهيم عليه السلام ربه ألا يخزيه فيه يوم يبعثون فقال: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ الشعراء:٨٧/٨٩.

وقد وعده الله أن يستجيب له ويحول أباه إلى مخلوق من أقذر المخلوقات، كما روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يَلقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَعلى وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُل لكَ لا تَعْصِنِي، فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَاليَوْمَ لا أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ، فَيَقُولُ: إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ على الكَافِرِينَ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ انظر مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ، فَيَنْظُرُ فَإِذا هُوَ بِذِيخٍ مُلتَطِخٍ، فَيُؤْخَذ بِقَوَائِمِهِ فَيُلقَى فِي النَّار) [1].

لقد صرح الحديث بأن الله عز وجل يمسخ أباه ويُسْخِطُه في صورة

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب واتخذ الله إبراهيم خليلا ١٢٢٣/٣ (٣١٧٢)، ومعنى القترة سواد الدخان، والغبرة الغبار الكثيف، ولا يرى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه، والأبعد أي من رحمة الله تعالى، والذيخ هو ذكر الضبع الكثير الشعر، فيرى إبراهيم عليه السلام أباه على غير هيئته ومنظره ليسرع إلى التبرء منه، ومتلطخ أي متلوث بالدم ونحوه.

قبيحة وريحة منتنة، فيحوله ضبعا متلطخا يتمرغ في نتانته، فلا يُخزي إبراهيم ﷺ في أبوته، ولا يبقي في النار على صورته، جعله سبحانه مشابها للضبع في قذارته وحماقته.

ويذكر العلامة ابن حجر أن الحكمة في مسخه ضبعا لأن الضبع من أحمق الحيوانات، وآزر كان من أحمق البشر؛ لأنه بعد أن ظهر له من ولده من الآيات البينات أصر على الكفر حتى مات، واقتصر في مسخه على هذا الحيوان؛ لأنه وسط في التشويه بالنسبة إلى ما دونه كالكلب والخنزير وإلى ما فوقه كالأسد [1].

ولذلك قال تعالى لنبيه ﷺ وللمؤمنين: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥)﴾ المتحنة:٤/٥ .

إن توحيد العبادة هو حقيقة الإيمان التي تحول العدو إذا حققها حبيبا، ويصبح القريب إذا كفر بها غريبا، لأنها فرقان بين الحق والباطل، ونور يخرج من القلب إلى اللسان، يضيئ الأركان في سائر الجوارح والأبدان، وبغير حقيقة الإيمان تلك لا يقبل الله ﷻ الشفاعة من أحد ولا في أحد، ولم تكن ثمة شفاعة في كافر مشرك تخرجه من النار، وقد خص الله ﷻ رسول الله ﷺ أن يشفع لعمه في الآخرة، لكن

(١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٨/٥٠٠.

ليس في الخروج من النار، وإنما في تخفيف العذاب عنه حتى يكون عذابه أهون أهل النار.

روى البخاري من حديث النُّعْمَان بن بشير ﷺ أن النَّبِيَّ ﷺ قال: (إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذابًا يَوْمَ القِيَامَةِ لَرَجُلٌ، تُوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَةٌ يَغْلِي مِنْهَا دِمَاغُهُ) [١].

ومراد النبي ﷺ بذلك الرجل عمه أبو طالب، لما ورد من حديث العباس بن عبد المطلب ﷺ أنه قال: (يَا رَسُولَ اللهِ، هَل نَفَعْتَ أَبَا طَالبٍ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لكَ؟ قَال: نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، لوْلا أَنَا لكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَل مِنَ النَّارِ) [٢].

- قبول ما جاء به الرسول ينفي كفر الإعراض بجميع أنواعه.

القبول في اللغة يأتي على معنى أخذ الشيء وتقبله من الآخر، قَبِل الشيءَ قَبُولاً وتقبَّله أَخذه.

روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ المَال وَيَفِيضَ، حَتَّى يَخْرُجَ الرَّجُل بِزَكَاةِ مَالهِ فَلاَ يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهَا مِنْهُ، وَحَتَّى تَعُودَ أَرْضُ العَرَبِ مُرُوجًا

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار ٥/٢٤٠٠ (٦١٩٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذابا ١/١٩٦ (٢١٣)، وأخمص قدميه المتجافي عن الأرض من الرجل عند المشي، والجمرة قطعة من النار الملتهبة.

(٢) البخاري في الأدب، باب كنية المشرك ٥/٢٢٩٣ (٥٨٥٥)، ومسلم في الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه ١/١٩٤ (٢٠٩)، والضحضاح هو الموضع القريب القعر، والمعنى أنه خفف عنه شيء من العذاب.

وَأَنْهَارًا) (١).

والقبول يأتي بمعنى الرضا والمحبة، قبِلت الشيء قَبُولا إذا رَضِيته وأحببته. وعند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إذا أَحَبَّ اللهُ العَبْدَ نَادَى جِبْرِيل: إنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيل، فَيُنَادِي جِبْرِيل في أَهْلِ السَّمَاءِ: إنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لهُ القَبُول في الأَرْضِ) (٢).

والقبول يأتي بمعنى الاتباع، قبلت الهدية أَقْبَلها قَبُولاً وقُبُولاً اتبعتها ورغبت في التمسك بها، روى البخاري من حديث عِمْرَانَ بْن حُصَيْنٍ ﷺ أنه قال: (جَاءَ نَفَرٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ إلى النَّبِي ﷺ فَقَال: يَا بَنِي تَمِيمٍ، أَبْشِرُوا، قَالوا: بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا، فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ، فَجَاءَهُ أَهْلُ اليَمَنِ، فقَال: يَا أَهْلَ اليَمَنِ، اقْبَلوا البُشْرَى إذ لَمْ يَقْبَلهَا بَنُو تَمِيم. قَالوا: قَبِلنَا. فَأَخَذَ النَّبِي ﷺ يُحَدِّث بَدْءَ الخَلق وَالعَرْشِ، فَجَاءَ رَجُلٌ فقَال: يَا عِمْرَانُ، رَاحِلتُكَ تَفَلتَتْ، لَيْتَنِي لَمْ أَقُمْ) (٣).

والله تعالى يَقْبَل الأعمال من عباده ويتقبَّلها منهم، فيجازيهم عليها

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها ٢/٧٠١ (١٥٧) والمرج الأرض الواسعة ذات نبات كثير تخلى فيه الدواب تسرح للرعي مختلطة كيف شاءت.

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة ٣/١١٧٥ (٣٠٣٧)، ومسلم في كتاب البر والصلة والأدب، باب إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده ٤/٢٠٣٠ (٢٦٣٧).

(٣) رواه البخاري في بدء الخلق، باب ما جاء في قوله تعالى: وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ٣/١١٦٥ (٣٠١٨).

كما قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ الأحقاف:١٦.
وقوله سبحانه وتعالى في وصف أهل الجنة: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٧﴾ الحجر:٤٧. يعني أنه لا ينظر بعضهم في أَقْفاء بعض[١].

والقبول الذي هو شرط الإيمان وتوحيد العبادة لله ﷻ هو ما ينافي الإعراض والرد، وهو القبول الذي يحرك القلب واللسان والجوارح في الإنسان ليأخذ بمقتضى هذا الإيمان، فيرضاه لنفسه وأهله، ويحبه ويدافع عنه، فيصدق الخبر ويتبع الأمر ويلزم أحكام العبودية التي جاء بها الشرع، فالقبول الذي ينافي الرد هو في حقيقته الرضا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا، فلا يكذّب خبر ربه، ولا يتواني في تنفيذ أمره، ولا يعترض على حكمته وحكمه، ولا يخالف سنة نبيه ﷺ، ويتخذ منهج الإسلام منهجا له في الحياة.

وقد بين النبي ﷺ حقيقة القبول لدين الله، وأنواع الناس في ذلك من خلال المثل الذي ورد عند البخاري في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (مَثل مَا بَعَثنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلمِ كَمَثل الغَيْث الكَثيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فكَانَ مِنْهَا نَقيَّةٌ قَبلتِ المَاءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ وَالعُشْبَ الكَثيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِي قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً، فَذلكَ مَثل مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثنِي اللهُ بِهِ فَعَلمَ وَعَلمَ، وَمَثل مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذلكَ

---

(١) لسان العرب لابن منظور الأفريقي ٧١/٥ بتصرف.

رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَل هُدَى اللهِ الذي أُرْسِلتُ بِهِ) [(١)].

والشاهد من الحديث أن النبي ﷺ جعل موقف الناس من الإيمان بدين الله ﷻ وما فيه من الهدى والعلم على ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: قبلت الحق وعلمته وعملت به، فصدقت الخبر ونفذت الأمر الطلب، وهؤلاء هم ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء، وهم الذين قاموا بالدين علما وعملا ودعوة إلى الله ﷻ واتباع رسوله ﷺ، فهؤلاء أتباع الرسل حقا، وهم بمنزلة المساحة الطيبة من الأرض التي زكت فقبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، فزكت في نفسها، وزكا الناس بها.

وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة على الدعوة، فبالبصائر يدرك الحق ويعرف، وبالقوة يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه، فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم في الدين، ففجرت من النصوص أنهار العلوم، واستنبطت منها كنوزها، ورزقت فيها فهما ونورا من الله ﷻ، وهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الكثير الذي أنبتته الأرض، وهو الذي تميزت به هذه الطبقة عن غيرها

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم ٤٢/١ (٧٩)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم ١٧٨٧/٤ (٢٢٨٢)، والغيث هو المطر الذي يأتي عند الاحتياج إليه، ومعنى نقية أي طيبة، والكلأ نبات الأرض سواء كان رطبا أم يابسا، والعشب النبات الرطب، ومعنى أجادب جمع أجدب وهي الأرض التي لا تشرب الماء ولا تنبت، والقيعان جمع قاع وهي الأرض المستوية الملساء.

من أصناف الناس.

الطبقة الثانية: قبلت الحق وعلمته وحفظت النصوص، وكان همها حفظها وضبطها، فوردِها الناس وتلقوها منهم، فاستنبطوا منها معانيها واستخرجوا كنوزها، واتجروا فيها، وبذروها في أرض قابلة للزرع والنبات، ووردها كل وارد بحسبه.

وهؤلاء هم الذين ورد فيهم حديث زيد بن ثابت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (نَضَّرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلغَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ) [١].

وهذه الطائفة والتي قبلها هما أسعد الخلق بما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ وهم الذين قبلوه ورفعوا به رأسا.

الطبقة الثالثة: وهم أشقى الخلق الذين لم يقبلوا هدي الله، ولم يرفعوا به رأسا، فلا حفظ ولا فهم، لا رواية ولا دراية ولا رعاية، فهم كما قال الله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ الفرقان:٤٤ . وهؤلاء هم الذين يضيقون الديار ويغلون الأسعار، ليس لأحدهم هم إلا بطنه وفرجه، فإن ترقت همته كان همه مع ذلك لباسه وزينته، فإن ترقت همته فوق ذلك كان همه في الرياسة والانتصار للنفس الأمارة بالسوء والعلو والاستكبار[٢].

---

(١) الترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع ٥/٣٣ (٢٦٥٦)، وأبو داود في كتاب العلم، باب فضل نشر العلم ٣/٣٢٢ (٣٦٦٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٠٤)، ومشكاة المصابيح (٢٣٠).

(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم ص٨٥ بتصرف.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ الزخرف:٢٣/٢٥.

وقد كان أصحاب النبي ﷺ يعلنون له القبول والرضا، لاسيما إذا أبدى بعض الناس إلحاحا في السؤال، أو أبدى اعتراضا على قسمة المال أو غير ذلك من الأحوال.

روي البخاري في صحيحه من حديث أنس بْن مَالكٍ ﷺ أَنَّ رَسُول اللهِ ﷺ أكثروا عليه السؤال حتى أَحْفَوْهُ المَسْأَلة فَغَضِبَ ﷺ فَصلي الظُّهْرَ حِينَ زَاغَتِ الشَّمْسُ ثم صَعِدَ المِنْبَرَ، فَذكَرَ السَّاعَةَ، وَذكَرَ أَنَّ فِيهَا أُمُورًا عِظَامًا ثمَّ قَال: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْأَل عَنْ شَيْءٍ فَلْيَسْأَل، فَلا تَسْأَلونِي عَنْ شَيْءٍ إِلا أَخْبَرْتُكُمْ مَا دُمْتُ فِي مَقَامِي هَذا، فَأَكْثَرَ النَّاسُ فِي البُكَاءِ وَأَكْثَرَ رسول الله ﷺ أَنْ يَقُول سَلونِي.

قال أنس ﷺ: فَجَعَلتُ أَنْظُرُ يَمِينًا وَشِمَالا، فَإِذا كُل رَجُل لافٌّ رَأْسَهُ فِي ثوْبِهِ يَبْكِي، فَقَامَ عَبْدُ اللهِ بْنُ حُذافَة السَّهْمِيُّ، وكان إذا لاحَي الرِّجَال يُدْعَي لغَيْرِ أَبِيهِ، فَقَال: مَنْ أَبِي يا رسول الله؟ قَال: أَبُوك حُذافَةُ.

ثمَّ أَكْثرَ ﷺ أَنْ يَقُول سَلونِي، فَبَرَكَ عُمَرُ ﷺ على رُكْبَتَيْهِ وقَال: رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا وَبِالإِسْلام دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، فَسَكَتَ رسول الله ﷺ ثمَّ قَال: عُرِضَتْ على الجَنَّةُ وَالنَّارُ آنِفًا فِي عُرْضِ هَذا الحَائِطِ فَلمْ أَرَ

كَالخَيْرِ وَالشَّرِّ [(١)].

وروى البخاري في صحيحه من حديث أَنَس بن مالك ﷺ أنَّ رَسُول اللهِ ﷺ أعْطي رِجَالا من قريش المِائَةَ مِنَ الإِبِل حِينَ كثرت الغنائم مِنْ أَمْوَال هَوَازِنَ وأَفَاءَ اللهُ عَليه مَا أَفَاءَ مِنْ أَمْوَال، فَقَال بعض الأَنْصَارِ: يَغْفِرُ اللهُ لرَسُول اللهِ ﷺ، يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ، فعلم رَسُول اللهِ ﷺ بِمَقَالتِهِمْ، فَأَرْسَل إلى الأَنْصَار فَجَمَعَهُمْ، وَلَمْ يَدْعُ مَعَهُمْ غَيْرَهُمْ، فَلمَّا اجْتَمَعُوا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ فقَال: مَا حَدِيث بَلغَنِي عَنْكُمْ، فَقَال فُقَهَاءُ الأَنْصَار: أَمَّا رُؤَسَاؤُنَا يَا رَسُول اللهِ فَلمْ يَقُولوا شَيْئًا، وَأَمَّا نَاسٌ مِنَّا حَدِيثَةٌ أَسْنَانُهُمْ فقَالوا: يَغْفِرُ اللهُ لرَسُول اللهِ ﷺ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ، فَقَال النَّبِيُّ ﷺ: إِنِّي أُعْطِي رِجَالا حَدِيثي عَهْدٍ بِكُفْرٍ أَتَأَلفُهُمْ. أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذهَبَ النَّاسُ بِالأَمْوَال وَتَذهَبُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إلى رِحَالكُمْ، فَوَاللهِ لمَا تَنْقَلبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلبُونَ بِهِ. قَالوا: يَا رَسُول اللهِ قَدْ رَضِينَا، فَقَال لهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: سَتَجِدُونَ أُثرَةً شَدِيدَةً فَاصْبِرُوا حتى تَلقَوُا اللهَ وَرَسُولهُ، فَإِنِّي على الحَوْضِ[(٢)].

---

(١) البخاري في الدعوات، باب التعوذ من الفتن ٥/٢٣٤٠ (٦٠٠١)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع ونحو ذلك ٤/١٨٣٢ (٢٣٥٩)، ومعنى أحفوه المسألة أي ألحوا عليه في السؤال وأكثروا من سؤاله فيما يكره الجواب عنه، ومعنى لاحى أي خاصم ونازع، فيدعى إلى غير أبيه فيشك في هوية.

(٢) رواه البخاري في كتاب الخمس، باب ما كان للنبي يعطي المؤلفة قلوبهم ٣/١١٤٧ (٢٩٧٨)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على

- أصل الإيمان القبول والانقياد وأصل الكفر التولي والإعراض.

أصول الإيمان جميعها تقوم على القبول والانقياد، وأصول الكفر التي تقابلها تقوم على التولي والإعراض، وأساس ذلك كله إيمان القلب وقبوله للحق وانقياده له، أو كفره توليه وإعراضه عنه، فإرادة القلب محركة للبدن ولا بد، وهي مصدر أفعال الإنسان، وأساس النيات، وعلة الرغبات، وباعث القصود والاختيارات، وسائر ما يقع في الجوارح من الحركات والسكنات، سواء كانت تلك الحركات والسكنات داخلية في ذات الإنسان، أو خارجية في حركة الأبدان، فالقلب كما ورد في النص النبوي مضغة في الجسد، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ومن ثم فإن القلب بدوره الفعال، إليه مرجع اكتساب الخير والشر من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، ولا بد لكل مسلم من إدراك هذه المقدمة.

ولما كان القبول القائم بالقلب هو أساس الإيمان، وهو العلة في صلاح الإنسان، فإن الكفر أو التولي والإعراض القائم بالقلب هو أساس الكفران بجميع أنواع الكفر التي تقع من بني الإنسان، ومن ثم فإن جميع أنواع الكفر يصدق عليها أن تسمى كفر التولي والإعراض، وعليه فإن كفر الإعراض ليس نوعا مستقلا في مقابل أنواع الكفر الأخرى كما ذكر البعض في تقسيماته للكفر، وإنما هو وصف قائم

الإسلام وتصبر من قوى إيمانه ٧٣٣/٢ (١٠٥٩)، وهوازن هي القبيلة التي قاتلت المسلمين في غزوة حنين، وتقطر من دمائهم أي لم يمض زمن على مقاتلتنا لهم على الشرك، وأثرة استبداد بالأموال وحرمانكم منها.

ونعت ملازم لجميع أنواع الكفر، لأن الكفر في حقيقته هو التولي والإعراض.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وكذلك لفظ المعصية والفسوق والكفر، فإذا أطلقت المعصية لله ورسوله دخل فيها الكفر والفسوق كقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ الجن:٢٣. وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ هود:٥٩. فأطلق معصيتهم للرسل بأنهم عصوا هودا معصية تكذيب لجنس الرسل، فكانت المعصية لجنس الرسل كمعصية من قال: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ الملك:٩. ومعصية من كذب وتولى قال تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ الليل:١٥/١٦. أي كذب بالخبر وتولى عن طاعة الأمر.

وإنما على الخلق أن يصدقوا الرسل فيما أخبروا، ويطيعوهم فيما أمروا، وكذلك قال في فرعون: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾ النازعات:٢١. وقال عن جنس الكافر: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَـٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ القيامة:٣١/٣٢. فالتكذيب للخبر والتولي عن الأمر.

وإنما الإيمان تصديق الرسل فيما أخبروا، وطاعتهم فيما أمروا، ومنه قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾ المزمل:١٥/١٦. ولفظ التولي بمعنى التولي عن الطاعة مذكور في مواضع من القرآن) [(١)].

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/٥٩.

ولما كانت أصول الإيمان ترجع إلى بابين أساسيين هما تصديق الخبر، وتنفيذ الطلب، لأنهما بابان كبيران يتعلقان بلغة التخاطب ونوعي الكلام في بني الإنسان، بل هما أساس جميع اللغات، ومنها لغة الوحي والقرآن، فإن أصول الكفر ترجع أيضا إلى بابين أساسيين أو أصلين جامعين:

الأصل الأول: هو التكذيب بالخبر أو الشك فيه، أو بعبارة أخرى هو الإعراض عن تصديقه على وجه اليقين بوجود التكذيب أو الشك فيه، وقد علمنا أن الخبر هو ما يحتمل التصديق أو التكذيب، وخبر الله يتطلب التصديق الذي يبلغ حد اليقين حتما، لأن اليقين شرط دخول الإنسان في الإسلام، ولا بد أن ينفي التكذيب والشك، فمراتب التصديق بخبر الله ورسوله ﷺ على ستة أنواع كما سبق بيانه في دورة أصول العقيدة، ثلاثة منها لغير المسلمين، وثلاثة للمسلمين على تنوع أهل اليقين، فأما الثلاثة التي لغير المسلمين فهي مرتبة الوهم، ثم مرتبة الشك، ثم مرتبة الظن، ودائما ما يذكر الشك نيابة عن ذكر هذه الثلاثة.

وأما الثلاثة التي للمسلمين فلا بد فيها من اليقين كشرط لازم من شروط لا إله إلا الله، وهي مرتبة علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، والمسلم لا يكون مسلما إلا بعلم اليقين، ولا يخرج عن اليقين، ولا يمكن أن ينزل إلى درجة الظن، أو الشك، أو الوهم.

الأصل الثاني: الذي ترجع إليه أصول الكفر هو التولي والامتناع عن تنفيذ الطلب، أو بعبارة أخرى هو الإعراض عن الخضوع

والانقياد، وقد علمنا أيضا أن الأمر هو ما لا يحتمل الصدق أو الكذب، وإنما يتطلب التنفيذ ويوجب الامتثال، وأمر الله ﷻ يتطلب التنفيذ والطاعة والخضوع والانقياد بالقلب واللسان والجوارح، تنفيذا ينافي في المقابل التولي والإعراض والطغيان، أو بعبارة أخرى ينافي الكفر والفسوق والعصيان الواقع من القلب واللسان والجوارح.

وقد سبق وعلمنا أن الإيمان في باب الأخبار له ستة أركان وردت في حديث عمر بن الخطاب ﵁ حيث قال رسول الله ﷺ في جوابه لما سأله جبريل ؈ فقال: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإيمان؟ قَال: أَنْ تؤْمِنَ باللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتبهِ وَرُسُلهِ وَاليوْمِ الآخِرِ وَتؤْمِنَ بالقَدرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ، وقد صدقه جبريل ؈ على هذه الأركان الستة [(١)].

وجميع هذه الأركان الستة للإيمان تتعلق بتصديق الأخبار، وما جاء في القرآن والسنة عن عالم الغيب، والإيمان بهذه الأركان الستة يمثل عند السلف والمتبعين لنهجهم من أهل السنة توحيد العلم والخبر، أو توحيد المعرفة والإثبات، أو توحيد الوسيلة في الإيمان بالربوبية والأسماء والصفات وسائر الغيبيات.

وقد أخبرنا الله في كثير من النصوص عن الأسماء والصفات التي عرفنا فيها بنفسه، وأبان لنا عن وصفه، وكل ذلك من الغيبيات التي تتطلب التصديق بشرط اليقين، وأخبرنا عن ملائكته وخلقتهم ووصفهم وفعلهم ودورهم الذي يتعلق بالإنسان، وذلك يتطلب منا الإيمان بهم والتصديق بوجودهم وعظمة دورهم، وكذلك أخبرنا عن

(١) مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١/٣٦ (٨).

كتبه ورسله، ما علمنا منهم وما لم نعلم، وليس لنا إلا الإيمان بهم والتصديق بوجودهم، وعقد القلب على اتباعهم، وأخبرنا عن اليوم الأخر وما فيه من أحوال وأهوال، وتلك الأخبار تتطلب التصديق أيضا، وأخبرنا عن القدر خيره وشره، وحلوه ومره، وأنه فعل الله ﷻ للابتلاء في الدنيا، وترتيب الجزاء في الآخرة ليقع المقدور في النهاية وفق سابق التقدير عند البداية.

وكما أن الإيمان له في باب الأخبار ستة أركان، كذلك فإنه له ثلاثة أركان في باب الأوامر، وهي اعتقاد بالجنان وقول باللسان وعمل بالجوارح والأركان، وجميعها يتعلق بتنفيذ الأمر وتحقيق المطلوب، والسعي في الطاعة طمعا في رضا المحبوب، وهذا يمثل عند السلف الصالح والمتبعين لنهجهم من أهل السنة والجماعة حقيقة الإسلام بأركانه الخمسة وتوحيد العبودية لله ﷻ، أو توحيد القصد والطلب، أو توحيد الغاية، أو توحيد الشرع والإرادة، أو توحيد الإلوهية.

- أصول الكفر وأنواعه وتقسيماته المتعلقة بالخبر والطلب.

ونحن إذا دققنا النظر وحققنا الأمر في أصول الإيمان المتعلقة بباب الخبر، وكذلك أصول الإيمان المتعلقة بباب الأمر، وجدنا أن أركان الكفر المتعلقة بالإعراض عن تصديق الخبر تنحصر في نوعين اثنين كل منهما متردد بين الكفر الأكبر والكفر الأصغر، وهما كفر التكذيب بخبر الله ورسوله، فقد يكون كفرا أكبر إذ خلا القلب من اليقين، وقد يكون كفرا أصغر إذا اقترن بشبهة الرد والتعطيل.

والثاني: كفر الشك وقد يكون أيضا كفرا أكبر إذ خلا القلب من

اليقين، وقد يكون كفرا أصغر إذا اقترن بشبهة كالتأويل بغير دليل على اختلاف درجاته، قلّت أو كثرت.

وكذلك فإن أركان الكفر المتعلقة بالإعراض والتولي عن تنفيذ الأمر تنحصر في أربعة أنواع متردد بين الأكبر والأصغر، وهي كفر الجهل المبني على الإعراض عن تنفيذ الأمر بطلب العلم وانتفاء علم القلب، وكفر النفاق المبني على الإعراض عن تنفيذ الأمر بالإخلاص لله والحب وانتفاء عمل القلب، وكفر الجحود المبني على الإعراض عن تنفيذ الأمر بشهادة التوحيد والنطق بالحق وانتفاء قول اللسان، وكفر العناد والاستكبار المبني على الإعراض عن تنفيذ الأمر بالخضوع والطاعة وانتفاء عمل الجوارح، وبهذا تكون جميع أنواع الكفر التي يمكن أن تقع من الإنسان مقابلة لجميع أصول الإيمان، وأركانه المتعلقة بتصديق الخبر وتنفيذ الطلب.

وهذا التقسيم المتعلق بتنفيذ الطلب يتوافق مع اعتقاد السلف القائم على أن الإيمان قول وعمل في الظاهر والباطن، وأن الإيمان الباطن هو ما يقوم به القلب من دور في الإنسان هو القول والعمل، أو ما يسمى بعلم القلب وعمل القلب، والذي عبر عن مجموعهما مصطلح تصديق القلب، أو مصطلح اعتقاد بالجنان، أو مصطلح اليقين وأساس الإيمان، كما أن الإيمان الظاهر هو قول اللسان وعمل الجوارح، فلما كانت أصول الإيمان باعتبار تنفيذ الأمر لا تخرج عن هذه الأركان الأربعة، فإن أصول الكفر كذلك لا تخرج عن أربعة أركان تقابلها، وهي كفر الإعراض عن العلم ويسمى كفر الجهل، وكفر الإعراض

عن الإخلاص والحب ويسمى كفر النفاق، وكفر الإعراض عن شهادة الحق ويسمى كفر الجحود، وكفر الإعراض عن الانقياد والطاعة والخضوع ويسمى كفر العناد والاستكبار، وهذه الأربعة أيضا على نوعين، إما كفر أكبر ينفي أصل الإيمان، أو كفر أصغر ينفي كماله كما تقدم.

وقد أحسن الشيخ حافظ حكمي حين ذكر أن أصول الإيمان مردها في اعتقاد السلف إلى القول والعمل، والقول قولان، وهما قول القلب وقول اللسان، والعمل عملان، وهما عمل القلب وعمل الجوارح، فهذه أربعة أشياء جامعة لأمور دين الإسلام، الأول قول القلب وهو تصديقه وإيقانه، والثاني قول اللسان وهو النطق بالشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله والإقرار بلوازمها، والثالث عمل القلب وهو النية والإخلاص والمحبة والانقياد والإقبال على الله ﷻ والتوكل عليه ولوازم ذلك وتوابعه، والرابع عمل اللسان والجوارح.

ثم قال رحمه الله: (فإذا حققت هذه الأمور الأربعة تحقيقا بالغا، وعرفت ما يراد بها معرفة تامة، وفهمت فهما واضحا، ثم أمعنت النظر في أضدادها ونواقضها، تبين لك أنواع الكفر لا تخرج عن أربعة، كفر جهل وتكذيب، وكفر جحود، وكفر عناد واستكبار، وكفر نفاق، فأحدهما يخرج من الملة بالكلية، وإن اجتمعت في شخص فظلمات بعضها فوق بعض والعياذ بالله من ذلك؛ لأنها إما أن تنتفي هذه الأمور كلها، قول القلب وعمله، وقول اللسان وعمل الجوارح،

أو ينتفي بعضها، فإن انتفت كلها اجتمع أنواع الكفر غير النفاق، وإن انتفى تصديق القلب مع عدم العلم بالحق فكفر الجهل والتكذيب، وإن كتم الحق مع العلم بصدقه فكفر الجحود والكتمان، وإن انتفى عمل القلب من النية والإخلاص والمحبة والإذعان مع انقياد الجوارح الظاهرة فكفر نفاق، سواء وجد التصديق المطلق أو انتفى، وسواء انتفى بتكذيب أو شك، وإن انتفى عمل القلب وعمل الجوارح مع المعرفة بالقلب والاعتراف باللسان، فكفر عناد واستكبار ككفر إبليس وكفر غالب اليهود، وكفر من ترك الصلاة عنادا واستكبارا، ومحال أن ينتفي انقياد الجوارح بالأعمال الظاهرة مع ثبوت عمل القلب) [1].

وكلام الشيخ حافظ من أدق ما قيل في حقيقة الإيمان والكفر، وإن كان كفر اليهود الذي ذكره موقعه في كفر الجحود حسب تعريفه له فيما أورده من أنواع الكفر، وسوف نفصل هذه الأنواع الأمر تفصيل مختصرا مجملا، ثم نبينه في المطالب القادمة تفصيلا مبسوطا مطولا إن شاء الله حتى نستوفي ضوابط الكفر وأحكام التكفير.

- الأصل الأول للإيمان المتعلق بتنفيذ الأمر هو قول القلب.

المقصود بقول القلب هو ما قام به من مقومات الاختيار في منطقة حديث النفس، وما فيها من غريزة العقل التي توجه الإنسان إلى منهج الخير أو الشر عن اكتساب العلم أو عدمه، فالقلب كما علمنا سلفا فيه منطقتان: منطقة حديث النفس، وقد جعلها الله ﷻ محلا للخواطر والأفكار، وتحتوى علي ركنين نفسيين، ونازعين ذاتيين متقابلين

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول لحافظ بن أحمد حكمي ٢/٥٩٣.

ومتضادين، أحدهما يدعوا إلى التقوى والإيمان، والآخر يدعو إلى الفجور والعصيان، وقد جعل الله ﷻ أيضا ركنين خارجيين من خلال هاتفين قرينين متقابلين ومتضادين، ليس لأحدهما جبر أو غلبة على إرادة الإنسان، الأول هو الملك، والآخر الشيطان، والهاتفان والنازعان يسهمان في تشكيل القول أو الخواطر في قلب الإنسان خيرها وشرها، وبين النازعين والهاتفين أوجد الله ﷻ عقلا يمثل صمام الأمان، يضبط الأفكار والخواطر في قلب الإنسان، ويميز بين الصدق والكذب في باب الخبر، ما ينفع وما يضر في باب الأمر، ويقيس القلب من خلاله معاني الخير والشر التي يحددها الشرع.

وطلب العلم بأحكام العبودية أو إرادة الله الشرعية التكليفية من وظائف الإرادة، وهي مسئولة عن أجهزة الإدراك البشرية، فجهاز الإدراك في الإنسان يمد القلب بالعلم وما ورد من أدلة الحكم وفق رغبة الإرادة، أو توليها وإعراضها، والقلب هو محل العقل والإرادة معا، فالقلب هو المسئول عن تحصيل العلم وحصوله فيه.

وبيان ذلك أن القلب أساس المعرفة والتمييز لوجود العقل فيه، والعقل يقوم بإدراك نوعين من العلوم، وهما العلم بالأسماء وحدود الأشياء، وثانيهما العلم بمنهج الرسل والأنبياء، فالله ﷻ قد شاء أن يخرج الإنسان من بطن أمه صفحة بيضاء لا يعلم شيئا من الحدود والأسماء، ثم يتعلم حدود الأشياء على فترات، ويكتسب المعرفة على مدار الأوقات كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ النحل:٧٨.

وبعد تحصيل القلب للعلم، وإدراكه للمعرفة والفهم، كلف الله الإنسان بالأحكام الشرعية والتزام منهج العبودية الذي يعود عليه بالصلاح في دنياه والفلاح في أخراه، فقال تعالى:

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾ طه:١٢٣/١٢٧.

والعقل في القلب يقوم بتوجيه الإرادة على تحصيل المعلومات وجمعها من حواس الإنسان، ثم يحللها ويصنف الحدث المرافق لها ويضيف أحكامه إليها، ثم يخزنها في ذاكرة الإنسان الذي بدوره يقوم باستدعائها حسبما يشاء، والإرادة في القلب محل الكسب في الإنسان، وهي مسئولة مسئولية كاملة عن شحن العقل بالمعلومات، أو تركه خاليا جاهلا أجوفا فارغا.

وإذا كان القبول بلا إلهَ إلا الله يقتضي أن المسلم سيخضع لله عن حب وتعظيم، وطاعة وتسليم، فإنه الله ﷻ إذا أرسل رسالة لعبيده الصادقين في عبادته بين فيها أحكام شريعته وماذا يفعل العباد في أمانته التي خولهم فيها واستخلفهم عليها على وجه الابتلاء؟ فإن كان العبد صادقا في شهادته أنه لا إلهَ إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإنه سيبذل ما في وسعه وطاقته لكي يطلع على هذه الرسالة، ويتمكن من قراءتها،

ويدقق في مادتها، طالما فيها صلاحه في هذه الحياة، وفيها النجاة من غضب الله، وفيها القرب من حبه ورضاه.

وإذا كان كل عقد بين البشر له قواعد وأحكام، وكان كل إنسان قبل أن يوقع على أي عقد يقرأ شروطه بدقة وإمعان وتحقيق وإتقان، فحري بالمسلم الصادق في إسلامه أن يعرف مضمون عقد التوحيد وشروطه عند دخوله في الإسلام عندما يشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ولذلك أوجب الله علينا سؤال أهل العلم فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ النحل:٤٣.

أما إذا أعرض العبد عن العلم بالرسالة، ولم يرغب في العلم بما يخرجه وينقله الضلالة إلى الهداية، إما بسبب إعراضه وكبره، أو توليه عن الحق وإيثارا للبقاء على جهله، فإن كفره يسمى كفر جهل وتكذيب كما قال سبحانه وتعالى:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ النمل:٨٣/٨٥.

وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ يونس:٣٩.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ

كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ الملك:٦/١١.

وكفر الجهل والتكذيب هو أول أنواع الكفر بالله، فتجد العبد يعرض عن الإسلام عند أول سماعه للدليل، ويكذب بالحق حتى لو ورد في التنزيل، فيغلق قلبه وعقله، ويوقف نظره وفكره، كما فعل كسرى ملك الفرس حين مزق رسالة النبي ﷺ إليه دون تفكر أو استدلال، أو نظر أو سؤال واستفصال.

روي البخاري من حديث عبد الله عَبَّاسٍ رضي الله عنه أنه قال: (بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكِتَابِهِ إِلَى كِسْرَى مَعَ عَبْدِ اللهِ بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَى عَظِيمِ البَحْرَيْنِ، فَدَفَعَهُ عَظِيمُ البَحْرَيْنِ إِلَى كِسْرَى، فَلَمَّا قَرَأَهُ مَزَّقَهُ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يُمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ) [(١)].

وكذلك الحال في الكفر الذي هو دون كفر، والذي يقع ممن يعرض عما يجب معرفته من الأحكام، التي لو تركها فاعلها كان له حكم أصحاب الكبائر دون الخروج من الملة.

- **الأصل الثاني المتعلق بتنفيذ الأمر الشرعي هو عمل القلب.**

من أدلة الاختيار ومقوماته في الإنسان منطقة الكسب التي تحوي عمل القلب، وعمل القلب يتمثل في مشيئاته واختياراته وجميع أعماله، فالقلب مصدر أصيل للنيات والإرادات، والباعث السببي للحركات

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر ٤/١٦١٠ (٤١٦٢).

والسكنات في الإنسان، وعلى النية تقع المساءلة عن إرادته للكفر أو الإيمان، وكل ما يكتسبه الإنسان في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ الروم: ٤١.

وقال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ البقرة: ٢٢٥.

وقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ فصلت: ١٧.

وروى البخاري من حديث عمر بن الخَطاب ﷺ أنه قال: سَمعت رَسول الله ﷺ يقول: (إِنما الأعمال بالنيات، وإنما لكُل امرِىء ما نوى: فمن كانت هجرَته إِلى دنيا يصِيبها، أَو إِلى امرَأة ينكِحُها، فهجرَته إِلى ما هاجرَ إِليه) [١].

قال ابن القيم: (الأحْكَام فِي الدنيا والآخِرَة مرَتبة على ما كَسبَه القَلب، وعقَد عليه، وأَرَاده من معنى كَلامه) [٢].

ومن ثم فإن الأصل الثاني المتعلق بتنفيذ الأمر الشرعي، وكذلك الركن الأساسي في التصديق والاعتقاد هو عمل القلب واستعداد

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ١/٣ (١)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ إنما الأعمال بالنية ٣/١٥١٥ (١٩٠٧).

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم ٤/٣٢٢.

الإنسان للخضوع والطاعة والانقياد، فصلاح الإنسان مبني على صلاح القلب، وصلاح القلب مبني على إدراك العلم وتحصيله ثم عقد النية على العمل بمقتضاه، وهذا هو حقيقة الاعتقاد وتصديق الحق وقبوله، فإن تظاهر الإنسان بالإيمان والصدق في قول اللسان وفعل الجوارح، وانتفي عمل القلب وانحل عقد النية على الإخلاص والحب ظهر النوع الثاني من أنواع الكفر وهو كفر النفاق، فكفر النفاق ينشأ عن انتفاء عمل القلب مع الإقرار باللسان وانقياد الجوارح في ظاهر الإنسان.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢)﴾ البقرة:٨/١٢.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا (١٤٣)﴾ النساء:١٤٢/١٤٣.

وقال سبحانه أيضا: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ (٥٤)﴾ التوبة:٥٤.

وقال تعالى في إثبات كفرهم ودوام عذابهم أبد الآبدين: ﴿إِنَّ

ﭐلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ النساء:١٤٥.

وهذا النوع من الكفر يتردد بين الكفر الأكبر والأصغر حسب قوة الإعراض في القلب، فالكفر الأكبر هو النفاق الأكبر كما تقدم.

وأما مثال النفاق الأصغر فكما رواه البخاري من حديث أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أن النَّبِي ﷺ قَال: (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثلاَث، إِذا حَدَّث كَذبَ، وَإِذا وَعَدَ أَخْلفَ، وَإِذا اؤْتُمِنَ خَانَ) [(١)].

• الأصل الثالث المتعلق بتنفيذ الأمر الشرعي هو قول اللسان.

لا بد في الإيمان من قول اللسان وشهادته بالحق، وأعظم شهادة هي ما شهد به الله والملائكة وأولو العلم: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ آل عمران:١٩/١٨. فلا بد من قبول اللسان النطق بلا إله إلا الله وشهادته بالحق وقول الصدق.

قال تعالى: ﴿ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ الزخرف:٨٦.

قال المفسرون في معنى إلا من شهد بالحق أي شهد بلا إله إلا الله، فإن لم يشهد اللسان بها مع علمه بصدقها، وقع النوع الثالث من أنواع الكفر وهو كفر الجحود ؛ فكفر الجحود له ركنان، وجود علم

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ٥/٢٢٦٢ (٥٧٤٤)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق ١/٧٨ (٥٩).

القلب وامتناع قول اللسان، ومثاله كفر فرعون، فإنه استيقن في الجنان بصدق بموسى وهارون عليهما السلام في دعوته إلى الإسلام، وجحد باللسان أن يوافقهم فيما يقولون.

قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ النمل:١٤.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾ الإسراء:١٠١/١٠٣

ومن أمثلة كفر الجحود كفر اليهود، فإنهم كانوا يعرفون النبي ﷺ كمعرفتهم لأبنائهم، وكانوا قبل مبعثه يفتخرون على العرب بأن نبيا سيبعث ويتبعونه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ البقرة:١٤٦.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ البقرة:٨٩/٩٠.

وروي البخاري في صحيحه من حديث أنسٍ بن مالك ﷺ أنه قال: (بَلغَ عَبْد الله بْنَ سَلامٍ ﷺ مَقْدَمُ رَسُول اللهِ ﷺ المَدِينَةَ فَأَتَاهُ وقال له: إنِّي سَائِلكَ عَنْ ثلاث لا يَعْلمُهُنَّ إلا نَبِيٌّ، قَال: مَا أَوَّل أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّل طَعَامٍ يَأْكُلهُ أَهْل الجَنَّةِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ الوَلَدُ إلى أَبِيهِ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ إلى أَخْوَالِه؟ فقَال رَسُول اللهِ ﷺ خَبَّرَنِي بِهِنَّ آنِفًا جِبْرِيل، قَال عَبْد الله بْنُ سَلامٍ: جِبْرِيل؟ قَال: نَعَمْ، قَال: ذاك عَدُوُّ اليَهُودِ مِنَ المَلائِكَةِ، فَقَرَأَ رَسُول اللهِ ﷺ:

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ البقرة:٩٧/٩٨.

فَقَال رَسُول اللهِ ﷺ: أَمَّا أَوَّل أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ المَشْرِق إلى المَغْرِبِ، وَأَمَّا أَوَّل طَعَامٍ يَأْكُلهُ أَهْل الجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ الحُوتٍ، وَأَمَّا الشَّبَهُ فِي الوَلدِ فَإِنَّ الرَّجُل إذا غَشِيَ المَرْأَةَ فَسَبَقَهَا مَاؤُهُ كَانَ الشَّبَهُ لهُ، وَإذا سَبَقَ مَاؤُهَا كَانَ الشَّبَهُ لهَا.

قَال عَبْد اللهِ بْن سَلامٍ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُول اللهِ. ثمَّ قَال: يَا رَسُول اللهِ إنَّ اليَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ إنْ عَلموا بِإسْلامِي قَبْل أَنْ تَسْأَلهُمْ بَهَتُونِي عِنْدَك، فَجَاءَتِ اليَهُودُ، وَدَخَل عَبْدُ اللهِ البَيْتَ ليختبئ، فقَال رَسُول اللهِ ﷺ: أَيُّ رَجُل فِيكُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلامٍ؟ قَالوا: أَعْلمُنَا وَابْنُ أَعْلمِنَا وَأَخْبَرُنَا وَابْنُ أَخْيَرِنَا، فقَال رَسُول اللهِ ﷺ: أَفَرَأَيْتُمْ إنْ أَسْلمَ عَبْدُ اللهِ؟ قَالوا: أَعَاذهُ اللهُ مِنْ ذلك، فَخَرَجَ عَبْد اللهِ إليْهِمْ فقَال: أَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول اللهِ، فقَالوا هو شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا، وَوَقَعُوا فِيهِ

وَانْتَقَصُوهُ، قَال: فَهَذا الذي كُنْتُ أَخَافه يَا رَسُول اللهِ) (١).

ومن أمثلة كفر الجحود كفر هرقل ملك الروم، فعند البخاري من حديث ابن عَبَّاسٍ أنه جَمَعَ عُظَمَاء َالرُّومِ وَقَال لهم: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ هَل لكُمْ فِي الفَلاحِ وَالرُّشْدِ وَأَنْ يَثبُتَ مُلكُكُمْ فَتُبَايِعُوا هَذا النَّبِيَّ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوَحْشِ إلى الأَبْوَابِ فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلقَتْ، فَلمَّا رَأي هِرَقْل نَفْرَتَهُمْ وَأَيِسَ مِنَ إيمَانِهم، قَال رُدُّوهُمْ على، إِنِّي قُلتُ مَقَالتِي آنِفًا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ على دِينِكُمْ، وَقَدْ رَأَيْتُ فَسَجَدُوا لهُ وَرَضُوا عَنْهُ فَكَانَ ذلكَ آخِرَ شَأْنِه وجحوده وكفره (٢).

ومن أمثلة كفر الجحود أيضا كفرُ أبي طالب عم النبي ﷺ حيث قال له رَسُول اللهِ ﷺ عند الوفاة: يَا عَمِّ، قُل لا إِلهَ إِلا اللهُ كَلمَةً أَشْهَدُ لكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ، فَقَال: أنا على مِلةِ عَبْدِ المُطَّلبِ، وَأَبي أَنْ يَقُول لا إِلهَ إِلا اللهُ (٣).

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ٣/ ١٢١١ (٣١٥١). وزيادة كبد الحوت هي القطعة المنفردة المتعلقة بالكبد وهي أطيبها وألذها، وغشي المرأة أي جامعها، وماؤه منيه، والبهت جمع بهوت وهو الكثير البهتان، وهو أسوأ الكذب أي كذابون وممارون لا يرجعون إلى الحق، ومعنى وقعوا فيه أي ذموه وطعنوا فيه.

(٢)رواه البخاري في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ١/ ٧ (٧)، فحاصوا أي نفروا وكروا.

(٣) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله ١/ ٤٥٧ (١٢٩٤)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع وهو الغرغرة ١/ ٥٤ (٢٤).

وقد كان أبو طالب يعلم صدق رسول الله ﷺ فهو القائل:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة
وابشر وقر بذاك منك عيونا
ودعوتني وعرفت أنك ناصحي
ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت دينا قد عرفت بأنه
من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة
لوجدتني سمحا بذاك مبينا [(١)].

ومن ثم فإن كفر الجحود مبني على عدم جحود اللسان مع وجود تصديق القلب أو علمه بالحق، إذا وجد علم القلب وامتنع اللسان انتفى أيضا عمل القلب لوجود الكبر والإعراض فيه، وكذلك امتنعت حركة الأبدان عن الطاعة والإيمان.

- الأصل الرابع المتعلق بتنفيذ الأمر الشرعي هو عمل الجوارح.

صلاح الجوارح قائم على صلاح القلب، وامتناع عمل الجوارح في الطاعة قائم على فساد القلب، فالجوارح تحول عمل القلب وصلاحه إلى فعل خارجي مرئي ملموس يكتسبه الإنسان ويحاسب عليه.

(١) انظر سيرة ابن اسحاق ٢/١٣٦، ودلائل النبوة للبيهقي ٢/١٨٨، والبداية والنهاية لابن كثير ٣/٤٢.

وإذا امتنع الإنسان بجوارحه عن تنفيذ أوامر الله، وظهر منه الإصرار على ذلك، فقد قام في قلبه العلو والعناد والاستكبار، وهو النوع الرابع من أنواع الكفر، أو ما يسمى بكفر العناد والاستكبار، فكفر العناد مبني على علم القلب بالحق ثم إقرار اللسان وشهادته ظاهرا ألا إله إلا الله، وأنه لا معبود بحق سواه، وامتناع الجوارح من الطاعة والاستسلام وعدم الالتزام بما جاء عن الله ﷻ من أحكام، ولازم ذلك امتناع عمل القلب عن الإيمان وتنفيذ الأمر، والعزم على عدم الطاعة وعدم الاستجابة بالفعل الظاهر، وهذا الكفر أيضا متردد بين الكفر الأكبر والكفر الأصغر.

ومثال الكفر الأكبر المبني على العناد والاستكبار كفرُ إبليس لعنه الله، كما قال تعالى في بيان كبره: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ص:٧٣/٧٥.

ومثال ذلك أيضا كفر من لم يحكم بما أنزل الله، وهو متردد بين الكفر الأكبر والكفر الأصغر، فالإمام أو السلطان أو الحاكم أو غيره من بني الإنسان إن زعم الإقرار بشهادة الإسلام، ولم يقبل الخضوع للشرع وتنفيذ الأحكام، مع علمه وقدرته، وانتفاء الموانع ووجود استطاعته، فقد شابه إبليس في كفره وعناده، وامتناعه عن السجود لله، قال تعالى فيمن لم يقبل حكم الله ﷻ، ولم يرض بحكم رسول الله ﷺ ويسلم له: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ النساء:٦٥.

وقال تعالى فيمن حكّم شرعا غير شرع الله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ المائدة:٤٤.

والحكم بغير ما أنزل الله له درجات متفاوتة تتردد بين الكفر الأكبر الذي ينقض الإيمان من أصله، والكفر الأصغر الذي ينقض كماله، فالآيات تتناول الكفرين الأصغر والأكبر بحسب درجة التولّي والإعراض عن العمل بأحكام الله، فإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في واقعة معينة وعدل عنه لحاجة في نفسه مع اعترافه بذنبه، وتقصيره ومعصيته، وأنه مستحق للعقوبة على مخالفته، فهذا كفر أصغر لا يخرج عن الملة، وإن اعتقد أنه غير واجب، وأنه مخير فيه مع تيقنه أنه حكم الله ﷻ فهذا كفر أكبر يخرج عن الملة.

ومثال ذلك أيضا كفر تارك الصلاة فكفره من جنس كفر إبليس، روى الترمذي وابن ماجة وصححه الشيخ الألباني من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (العَهْدُ الذي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاَةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ) (١).

---

(١) الترمذي في الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة ٥/١٣ (٢٦٢١)، وابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة ١/٣٤٢ (١٠٧٩)، وأحمد في المسند ٥/٣٤٦ (٢٢٩٨٧)، وصححه الألباني، في مشكاة المصابيح (٥٧٤)، وصحيح الترغيب والترهيب (٥٦٤)، وصحيح الجامع (٤١٤٣).

وروى مسلم من حديث جابر بن عبد الله ﷺ أنه قال: (سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُول: (إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ) [١].

وهذه الأحاديث وغيرها صريحة في أن من تركها بالكلية عامدا فقد خرج من الملة، وقد ذكر ابن تيمية أن الكفر الوارد في ترك الصلاة بالكلية هو الكفر الأعظم وذكر وجوها كثيرة لذلك[٢].

ومن ثم فإن السجود لله برهان والطاعة وقبول الإنسان لتوحيد والعبودية ونفي الاستكبار ومنازعة الله في الربوبية، فالكبرياء شأن الرب وليس من شأن العبد، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ ﴾ الفرقان:٦٠.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ المرسلات:٤٨/٤٩.

ومن ثم فإن تارك الصلاة ممن انتسب إلى الإسلام لو علم حكم تارك الصلاة، وتحقق العلم بالحكم في قلبه، وأقر بلسانه، ولكنه أصر على الامتناع بجوارحه، وآثر أمام القاضي أن يقتل ولا يصلي، فكفره كفر أكبر يماثل كفر إبليس، وهذا يدل على انتفاء إرادة الطاعة وامتناع قلبه عن الإيمان، لوجود التلازم بين عمل القلب وعمل الجوارح، فلو كانت نيته طاعة الله ﷻ وعزم بإرادته على السجود لله لظهر أثر ذلك في عمل الجوارح، وقام إلى أداء الصلاة، ولكن امتناعه

(١) مسلم في الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة ١/٨٨ (٨٢).
(٢) شرح العمدة في الفقه لابن تيمية ٤/٧٥.

عن الصلاة مع وجود القدرة عليها يحتم فساد قلبه، وعدم قبوله للحق ورده. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ الأعراف:٢٠٦. وقال سبحانه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ فصلت:٣٧/٣٨. فالمانع المباشر لعدم السجود كما ذكره الله ﷻ هو الإباء والاستكبار.

- **شعب الإيمان تتناول جميع الأركان من القول والعمل.**

ورد في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (الإيمانُ بِضْعٌ وَسَبعُونَ أَوْ بِضعٌ وسِتُونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَولُ لا إلهَ إلاَّ اللهُ، وَأَدْنَاهَا إمَاطَةُ الأذى عَنِ الطَّرِيقِ، والحياءُ شُعبَةٌ مِنَ الإيمان) [١].

وهذه الشعب المذكورة قد جاءت في القرآن والسنة في مواضع متفرقة، منها ما هو من قول القلب وعمله، ومنها ما هو من قول اللسان، ومنها ما هو من عمل الجوارح، ولما كانت الصلاة جامعة لقول القلب وعمله وقول اللسان وعمل الجوارح سماها الله تعالى إيمانا فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان ١/١٢ (٩)، ومسلم واللفظ له في كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان ١/٦٣ (٣٥).

﴿...إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾ البقرة:١٤٣.

وهذا المعنى هو الذي قصده السلف الصالح بقولهم رحمهم الله تعالى إن الإيمان اعتقاد وقول وعمل، وإن الأعمال كلها داخلة في مسمى الإيمان، وحكى الشافعي على ذلك إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن أدركهم، بل أنكر السلف على من أخرج الأعمال عن الإيمان إنكارا شديدا [(١)].

وقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار: (أما بعد فإن الإيمان فرائض وشرائع فمن استكملها استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعلموا بها، وإن أمت قبل ذلك فما أنا على صحبتكم بحريص) [(٢)].

وهذا المعنى هو الذي أراد البخاري إثباته في كتاب الإيمان وعليه بوب أبوابه كلها، فقال: باب أمور الإيمان، وباب الصلاة من الإيمان، وباب الزكاة من الإيمان، وباب الجهاد من الإيمان، وباب حب الرسول ﷺ من الإيمان، وباب الحياء من الإيمان وباب صوم رمضان احتسابا من الإيمان وباب اتباع الجنائز من الإيمان، وباب أداء الخمس من الإيمان، وسائر أبوابه[(٣)].

وكلام أئمة الحديث وتراجمهم في كتبهم معلوم مشهور، وهم

---

(١) معارج القبول ٢/٦٠٠ بتصرف.

(٢) رواه البخاري معلقاً في كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النبي ﷺ بني الإسلام على خمس ١/٧، وانظر تغليق التعليق لابن حجر العسقلاني ٢/١٩.

(٣) معارج القبول ٢/٦٠١ بتصرف.

قصدوه بذلك الرد على أهل البدع ممن قال الإيمان هو مجرد التصديق فقط كابن الراوندي ومن وافقه من المعتزلة وغيرهم، إذ على هذا القول يكون اليهود الذين أقروا برسالة محمد ﷺ واستيقنوها، ولم يتبعوه مؤمنين بذلك، وقد نفى الله ﷻ الإيمان عنهم.

وزعم الجهم بن صفوان وأتباعه أن الإيمان هو المعرفة بالله فقط، وعلى هذا القول ليس على وجه الأرض كافرا بالكلية إذ لا يجهل الخالق سبحانه أحد.

وقالت المرجئة والكرامية الإيمان هو الإقرار باللسان دون عقد القلب فيكون المنافقون على هذا مؤمنين وقد قال تعالى فيهم: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ التوبة: ٨٤/٨٥.

وهم قد نطقوا بالشهادتين بألسنتهم فقط وكذبهم الله ﷻ في دعواهم في غير موضع من القرآن، وقال آخرون: الإيمان هو التصديق بالجنان والإقرار باللسان، وهذا القول مخرج لأركان الإسلام الظاهرة المذكورة في حديث جبريل، وهو ظاهر البطلان[1].

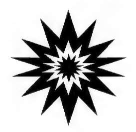
وذهبت الخوارج وأبو الهذيل العلاف ومن وافقهم إلى أن الإيمان هو الطاعة بأسرها فرضا كانت أو نفلا، وهذا القول مصادم لتعليم النبي ﷺ لوفود العرب السائلين عن الإسلام والإيمان، وكلما قال له

(٤) معارج القبول ٢/٦٠٢ بتصرف.

السائل في فريضة هل على غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوع شيئا.

وذهب الجبائي وأكثر المعتزلة البصرية إلى أن الإيمان هو الطاعات المفروضة من الأفعال والتروك دون النوافل، وهذا أيضا يدخل المنافق في الإيمان، وقد نفاه الله عنهم[١].

وسوف يأتي بعد هذا الإجمال بإذن الله تعالى ومنة الرحمن بيان أركان الإيمان وأصوله وتقسيماته في مقابل بيان أركان الكفر وأصوله وتقسيماته لنتعرف على توحيد العبادة وحقيقة الإيمان.

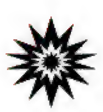


---

(١) المصدر السابق ٢/٦٠٢ بتصرف.

المطلب السابع عشر

ضوابط القول في مسألة العذر بالجهل ومسئولية الإنسان عن تجاهل العلم



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا فيما سبق عن الصورة الإجمالية لأصول الكفر وأنواعه التي تقابل أصول الإيمان وأنواعه، وبينا أن تحقيق الإيمان بالله لا يكون إلا بنفي ضده من أنواع الكفر.

وتحدثنا عن قصة حاطب بن أبي بلتعة ﷺ والإلزام بالبراءة من الكفر، وعلمنا أن المشركين كانوا يعلمون أن شرط الإيمان هو الكفر بالطاغوت، وعلمنا أيضا أن قبول ما جاء به الرسول ﷺ ينفي كفر الإعراض بجميع أنواعه، وأن أصل الإيمان القبول والانقياد، وأصل الكفر التولي والإعراض.

تم تناولنا الحديث عن أصول الكفر وأنواعه وتقسيماته المتعلقة بباب الخبر، والمتعلقة باب الطلب، وأن الأصل الأول للإيمان المتعلق بتنفيذ الأمر هو قول القلب أو علمه، ويقع عند انتفائه كفر الجهل، وأن الأصل الثاني المتعلق بتنفيذ الأمر الشرعي هو عمل القلب، ويظهر ويقع عند انتفائه كفر النفاق، وأن الأصل الثالث هو قول اللسان ويقع عند انتفائه كفر الجحود، أما الأصل الرابع المتعلق بتنفيذ الأمر الشرعي فهو

عمل الجوارح، ويقع عند انتفائه كفر العناد والاستكبار، وبينا أن شعب الإيمان تتناول جميع الأركان من القول والعمل.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن الأصول والقواعد التي تضبط القول في مسألة العذر بالجهل أو عدم العذر، ومسئولية الإنسان عن تجاهل العلم.

- مفهوم العذر في المعاني اللغوية والاصطلاحات الشرعية.

العذر لغة الحجة التي يُعْتَذر بها، والجمع أَعذارٌ، يقال: لي في هذا الأمر عُذرٌ، وعُذرَى ومَعْذرةٌ أَي خروجٌ من الذنب، وقد أعذر من أنذر، أي بالغ في العذر، أو بالغ في كونه معذورا لو أوقع العقوبة به بعد الإنذار، ومن يعذرني من فلان، أي إن أوقعت به، والمعنى أنه أهل للإيقاع به، فإن أوقعت به كنت معذورا في معاقبته، ويقال للمفرط في الإعلام بالأمر: والله ما استعذرت وما استنذرت إلي؛ أي لم تقدم الإعذار ولا الإنذار لي(١).

روى البخاري من حديث عائشة أنها قالت: (فَقَامَ رَسُول اللهِ ﷺ مِن

---

(١) انظر بتصرف لسان العرب لابن منظور الأفريقي ٤/٥٤٥، والمحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ٢/٧١، وأساس البلاغة للزمخشري ١/٤١٢. وقد رجعت في كثير من الفقرات التي وردت في هذا المطلب على الجملة إلى ما كتبه الأخ المحقق أبو بشير السعدي سعيد علي أحمد سعد حفظه الله، في كتابه الذي شرفت بتقديمه له، وهو كتاب العذر بالجهل مفهومه وأسبابه وضوابطه، وهو كتاب قيم في وسطيته ومنهجيته، ننصح طلاب العلم بالاستفادة منه، وننبه إلى أن بعض الفقرات فيها تصرف وإضافة لتساعد طلاب العلم على سرعة الاستيعاب.

يَوْمِهِ، فَاسْتَعْذَرَ مِن عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَي، وَهُوَ عَلى المِنبَرِ، فَقَال: يَا مَعْشَرَ المُسْلمِين مَن يَعْذرُني مِن رَجُل قَدْ بَلغَني عَنهُ أَذاهُ فِي أَهْلي، وَاللهِ مَا عَلمْتُ عَلَى أَهْلي إلا خَيْرا، وَلقَدْ ذكرُوا رَجُلا مَا عَلمْتُ عَليْهِ إلا خَيْرا، وَمَا يَدْخُل عَلى أَهْلي إلا مَعِي؟ قَالتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْن مُعَاذ، أَخُو بَني عَبْدِ الأشْهَل فقَال: أَنا يَا رَسُول اللهِ أَعْذرُكَ، فَإِن كَان مِن الأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنقَهُ، وَإِن كَان مِن إِخْوَاننا مِن الخَزْرَجِ أَمَرْتَنا ففَعَلنا أَمْرَكَ) [(١)].

قال تعالى في شأن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ الكهف:٧٦.

قال القرطبي: (دل على قيام الاعتذار بالمرة الواحدة مطلقا، وقيام الحجة من المرة الثانية بالقطع) [(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾ التوبة:٩٠.

والمعذرون هم الذين لا عذر لهم، ولكن يتكلفون عُذرا. وثبت عند أبي داود وصححه الألباني أن النبي ﷺ قال: (لن يَهْلكَ الناسُ حَتى يَعْذِرُوا، أَوْ يُعْذِرُوا مِن أَنفُسِهِمْ) [(٣)]. والمعنى أنهم تكثر ذنوبهم وعيوبهم

---

(١) البخاري في كتاب المغازي، باب حديث الإفك ٤/١٥٢٠ (٣٩١٠)، ومسلم في كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف ٤/٢١٢٩ (٢٧٧٠).

(٢) تفسير القرطبي ١١/٢٢.

(٣) رواه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي ٤/١٢٥ (٤٣٤٧)، وأحمد في المسند ٤/٢٦٠ (١٨٣١٥)، وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٥١٤٦)، وصحيح الجامع (٥٢٣١).

ويتركون تلافيها فيظهر عذره تعالى في عقوبتهم فيستوجبون العقوبة.

والعذر شرعا هو الوصف الطارئ على المكلف، المناسب للتسهيل عليه، وعدم المؤاخذة [١]. أي أنه يمثل حالة عارضة للمكلف ليست حقيقة ملازمة له، وإنما هو صفة عارضة، يكون لها أسبابها ونتائجها.

- مفهوم الجهل في المعاني اللغوية والاصطلاحات الشرعية.

الجهل لغة يطلق على نقيض العلم، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ النحل:٧٨. والجهالة القول والفعل المخالف للشرع بعلم أو بغير علم، والجاهلية الجَهْلاء زمان الفترةِ قبل الإسلام[٢].

أما الجهل شرعا فهو عدم العلم، أو اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه، وفعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل، سواء اعتقد فيه اعتقادا صحيحا، أو فاسدا، كما في قوله تعالى حكاية عن نبي الله موسي عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ البقرة:٦٧. وقوله تعالى عن نبي الله نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ هود:٤٦.

والجهل يرد على ثلاثة أنواع:

---

(١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني، باب من حبسه العذر عن الغزو ٦/٤٧.

(٢) انظر كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ٣/٣٩٠، وتهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري ٦/٣٧.

النوع الأول: خلو النفس من العلم، ومثاله قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾ البقرة:٢٧٣.

وروى ابن ماجه وصححه الألباني من حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: (سأل صفوان بن المعطل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إني سائلك عن أمر أنت به عالم، وأنا به جاهل، قال: وما هو؟ قال: هل من ساعات الليل والنهار تكره فيها الصلاة؟ قال: نعم، إذا صليت الصبح فدع الصلاة حتى تطلع الشمس، فإنها تطلع بقرني الشيطان، ثم صل فالصلاة محضورة متقبلة حتى تستوي الشمس على رأسك كالرمح، فإذا كانت على رأسك كالرمح فدع الصلاة، فإن تلك الساعة تسجر فيها جهنم، وتفتح فيها أبوابها حتى تزيغ الشمس عن حاجبك اليمن، فإذا زالت فالصلاة محضورة متقبلة حتى تصلي العصر، ثم دع الصلاة حتى تغيب الشمس) (١).

النوع الثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه كقوله: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ الأعراف:١٣٨. وقوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ هود:٢٩.

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء في الساعات التي تكره فيها الصلاة ١/٣٩٧ (١٢٥٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٧١).

وكقول أبي يوسف رحمه الله: (العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم)[١].

النوع الثالث: فعل الشيء بخلاف ما ينبغي، سواء اعتقد فيه اعتقادا صحيحا أم فاسدا كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ الزمر:٦٤. وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ البقرة:٦٧. فجعل فعل الهزو جهلا، ومنه الطيش والسفه كقوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ يوسف:٨٩.

والجهل من حيث قوته وضعفه نوعان: جهل بسيط وجهل مركب، فالبسيط هو عدم العلم ممن شأنه أن يكون عالما، والمركب عبارة عن اعتقاد جازم غير مطابق للواقع[٢].

قال ابن تيمية: (من أعرض عن الكتاب وعارضه بما يناقضه، لم يعارضه إلا بما هو جهل بسيط أو جهل مركب، فالأول: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ النور:٣٩. والثاني: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٦١/٧ نشر دار الكتب العلمية، بيروت، وانظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٧٢.

(٢) انظر تاج العروس لابن المرتضي الزبيدي ٢٥٦/٢٨، والتعريفات للجرجاني ص١٠٨، نشر دار الكتاب العربي بيروت.

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ النور:٤٠. وأصحاب القرآن والإيمان في نور علي نور قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ الشورى:٥٢/٥٣. فأهل الجهل البسيط منهم أهل الشك والحيرة من هؤلاء المعارضين للكتاب المعرضين عنه، وأهل الجهل المركب أرباب الاعتقادات الباطلة التي يزعمون أنها عقليات)[1].

- **ذم الراغبين عن العلم الراغبين في البقاء على الجهل.**

لقد ذم الله تعالى الجهل في القرآن، وجعله من أسباب الكفر والخسران، والذي يعبد ربه على جهل يعبده على حرف إن أصابه خير اطمأن به، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، وأخبر أن سبب ترك الناس لدين الله وتفرقهم فيه إنما هو الجهل بعد أن جاءهم العلم وتجاهلوه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ آل عمران:١٩.

وقد ذكر ابن تيمية أن أصل الشبهات والضلال وأصل الجهل المركب هو الجهل البسيط، فإن القلب إذا كان خاليا من معرفة الحق واعتقاده والتصديق به كان مناسبا لأن يعتقد نقيضه ويصدق به، لاسيما في الأمور الإلهية التي هي غاية مطالب البرية، وهي أفضل العلوم وأعلاها

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١/١٧٠.

وأشرفها وأسماها، والناس الأكابر لهم إليه غاية التشوف والاشتياق، وإلى جهته تمتد الأعناق، فالمهتدون فيه أئمة الهدى كإبراهيم الخليل وأهل بيته، وأهل الكذب فيه أئمة الضلال كفرعون وقومه.

وقال تعالى في أولئك المهتدين أئمة الهدى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ الأنبياء:٧٣.

وقال تعالى في الآخرين: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ القصص:٤١. فمن لم يكن فيه على طريق أئمة الهدى كان ثغر قلبه مفتوحا لأئمة الضلال.

ومصداق هذا أن ما وقع في هذه الأمة من البدع والضلال كان من أسبابه تقصير من قصر في إظهار السنة والهدى، مثل ما وقع في هذا الباب، فإن الجهل المركب الذي وقع فيه أهل التكذيب والجحود في توحيد الله تعالى وصفاته كان من أسبابه التقصير في إثبات ما جاء به الرسول ﷺ عن الله، وفي معرفة معاني أسمائه وآياته حتى إن كثيرا من المنتسبين إلى الكتاب والسنة يعتقدون أن طريقة السلف والأئمة إنما هو الإيمان بألفاظ النصوص والإعراض عن تدبر معانيها وفقهها وعقلها، ومن هنا قال من قال من النفاة: إن طريقة الخلف أعلم وأحكم، وطريقة السلف أسلم، لأنه ظن أن طريقة الخلف فيها معرفة النفي الذي هو عنده الحق، وفيها طلب التأويل لمعاني نصوص الإثبات [1].

---

(١) انظر المصدر السابق ٥/٣٧٨ بتصرف.

وقلما يرضى الإنسان أن ينسب إلى الجهل عامة، لاسيما جهله بالشرع، أو ينسب إلى الجهل والحمق لأن التجهيل إيذاء، ولذلك ترى الذي يغلب عليه الغضب، كيف يغضب إذا نبه على الخطأ أو الجهل؟ وكيف يجتهد في مجاحدة الحق بعد معرفته خشية أن تنكشف عورة جهله؟ والطباع أحرص على ستر عورة الجهل منها على ستر عورة الحقيقية؛ لأن الجهل قبح في صورة النفس وسواد، وفي الناس من يؤثر الجهل على العلم كأكثر من ترى من العامة، فإن الجهل أفحش المعاصي وأعظم شيء يبعد العبد عن الله، وأكثرهم هالكون في غمرته وبسببه، فهم أبدا ساكتون عما ينفعهم، ناطقون فيما يضرهم.

ومصيبة الإعراض عن العلم والتمادي في الجهل أعظم من كل مصيبة، لكن الجهل مصيبة لا يعرف المصاب بها أنه صاحب مصيبة، فإن نوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته.

واعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده، وعلاج الجهل بالعلم النافي له، الرافع للتقاليد والمغاليق المستحكمة علي قلب صاحبها، إذ ليس ثم حجاب أغلظ من حجاب الجهل بين الله وبين العبد، والوسيلة المقربة له إليه هو العلم والمعرفة، وقربه بقدر معرفته، وبعده بقدر جهله[1].

وكثير من الناس اليوم هم على ما كان عليه كثير من الأعراب من أمور ومسالك الجاهلية التي كانوا عليها قبل الإسلام؛ من سفك بعضهم دماء بعض، ونهب أموالهم، وقطيعة الأرحام، والانسلال عن كثير من

(١) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ٤/٢٠ بتصرف.

أحكام الإسلام، وتوريث الذكور دون الإناث، والتعزي بعزاء الجاهلية والتعصب الأعمى للقبيلة، وترك ما فرضه الله في النكاح من العدة ونحوها، ثم ما زينه الشيطان لفريق منهم من الأهواء التي باينوا بها عقائد السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وخالفوا شريعة الله لهم من الاستغفار للأولين الذي حثنا الله عليه بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝١٠﴾ الحشر:١٠. ووقعوا في أصحاب رسول الله ﷺ بالوقيعة التي لا تصدر ممن وقر الإيمان في قلبه، ومنهم من ترك التعلق بالقرآن وسنة النبي ﷺ بعد بلوغ النص إليه، وقيام الحجة عليه، وتعلق بفلان وفلان، مقلدا أو عامدا للاختلاف، داعيا إلى عصبية وحمية الجاهلية، قاصدا للفرقة، متحريا في دعواه رد القرآن والسنة إليها، فإن وافقها النص أخذ به، وإن خالفها تعلق بجاهليته، وترك القرآن وكلام النبي ﷺ، فهؤلاء هم المختلفون المذمومون.

وطبقة أخرى من الناس بلغت بهم قلة التقوى وضعفها إلى طلب ما وافق أهواءهم في قول كل قائل، فهم يأخذون ما كان رخصة من قول كل عالم، مقلدين له، غير طالبين ما أوجبه الدليل وما تضمنه النص عن الله تعالى أو الثابت عن رسوله ﷺ.

- **قلة العلم وظهور الجهل من علامات الساعة الصغرى.**

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (يُقْبَضُ العِلْمُ، وَيَظْهَرُ الجَهْلُ وَالفِتَن، وَيَكْثُرُ الهَرْجُ، قِيل: يَا رَسُول اللهِ، وَمَا

الهَرْجُ؟ فقَال هَكَذا بِيَدِهِ فَحَرفَهَا، كَأنه يُرِيدُ القَتْل) [1].

وعند أحمد في المسند أن عمر بن الخطاب ﷺ لما سمع أبا هريرة ﷺ يقول: يُرْفَعُ العِلمُ، قَال عُمَرُ: أمَا إِنهُ لَيْسَ يُنزَعُ مِن صُدُورِ العُلمَاءِ، وَلَكِن يَذهَبُ العُلمَاءُ [2].

وروى البخاري من حديث أَنس بن مَالكٍ ﷺ أنه قال: (قَال لأُحَدثنكُمْ حَدِيثا لا يُحَدثكُمْ أَحَدٌ بَعْدِي، سَمِعْتُ رَسُول اللهِ ﷺ يَقُول: مِن أَشْرَاطِ الساعَةِ أَن يَقِل العِلمُ، وَيَظْهَرَ الجَهْل، وَيَظْهَرَ الزنا، وَتَكْثرَ النسَاءُ، وَيَقِل الرجَال، حَتى يَكُون لخَمْسِين امْرَأَة القَيمُ الوَاحِدُ) [3].

وعند مسلم من حديث عمر ﷺ مرفوعا حين سأل جبريل النبي ﷺ: (قَال: فَأَخبِرْني عَن الساعَةِ؟ قَال: مَا المَسْئُول عَنهَا بِأَعْلمَ مِن السائِلِ. قَال: فَأَخبِرْني عَن أَمَارَتِهَا؟ قَال: أَن تَلدَ الأَمَةُ رَبتَهَا، وَأَن تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالة رِعَاءَ الشاءِ يَتطَاوَلون فِي البُنيَان) [4].

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الحفاة العراة رعاء الشاء هم أهل

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس ١/٤٤ (٨٥)، ومسلم في كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان ٤/٢٠٥٧ (١٥٧).

(٢) رواه أحمد في المسند ٢/٤٨١ (١٠٢٣٦)، وصححه شعيب.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل ١/٤٣ (٨١)، ومسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان ٤/٢٠٥٦ (٢٦٧١).

(٤) رواه مسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١/٣٦ (٨).

الجهل والجفاء، رؤساء الناس وأصحاب الثروة والأموال، حتى يتطاولوا في البنيان، فإنه يفسد بذلك نظام الدين والدنيا، فإنه الإنسان إذا كان فقيرا عائلا، فصار ملكا على الناس، ومن رؤوس الناس، سواء كان ملكه عاما أو خاصا في بعض الأشياء، فإنه لا يكاد يعطى الناس حقوقهم، بل يستأثر عليهم بما استولى عليهم من المال، فلا يكون له همة في إصلاح دين الناس ولا تعليمهم، بل همته في جباية المال وإكثاره، ولا يبالي بما أفسد من دين الناس، ولا بمن أضاع من أهل حاجاتهم[1].

وإذا كان ملوك الناس ورؤوسهم على هذه الحال، انعكست سائر الأحوال، فصدق الكاذب، وكذب الصادق، وائتمن الخائن، وخون الأمين، وتكلم الجاهل، وسكت العالم أو انعدم بالكلية كما صح عن النبي ﷺ أن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل، وأخبر أنه يقبض العلم بموت العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا، فسُئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا، وقال الشعبي: لا تقوم الساعة حتى يصير العلم جهلا والجهل علما [2]، وهذا كله من انقلاب الحقائق في آخر الزمان، وانعكاس الأمور [3].

وفي زماننا المعاصر عمت مظاهر الجهل، وانتشر الفساد في البر

(١) كتاب الإيمان الأوسط لابن تيمية ١/٧٣.
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٧/٥٠٥ (٣٧٥٨٨)، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٧/٤٧٣.
(٣) السابق لابن تيمية ١/٧٣.

والبحر، وظهرت الفتن، وقد ورد في الخبر أن النبي ﷺ قال: (وَلا تَقُومُ السَاعَةُ حَتى تَلحَقَ قَبَائِل مِن أُمتِي بِالْمُشْرِكِين، وَحَتى تَعْبُدَ قَبَائِل مِن أُمتِي الأَوْثَان) (١).

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (لاَ تَقُومُ السَاعَةُ حَتى تَضْطَرِبَ أَلْيَاتُ نسَاءِ دَوْسٍ حَوْل ذي الخَلصَةِ) (٢). وذو الخَلصَةِ طَاغِيَةُ دَوْسٍ التِي كَانوا يَعْبُدُونها فِي الجَاهِلِيةِ.

وعند الطبراني من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (لا تَقُوم السَاعَة حَتى يَظْهَرَ الفُحْش وَالبُخْل، وَيُخَون الأَمِين، وَيُؤْتَمَن الخَائِن وَتَهْلك الوُعُول، وَتَظْهَرَ التحُوت، قَالوا: يَا رَسُول اللهِ وَمَا التحُوت وَالوُعُول؟ قَال: الوُعُول وُجُوه الناس وَأَشْرَافهمْ، وَالتحُوت الذين كَانوا تَحْتَ أَقْدَام الناس لَيْسَ يُعْلم بِهِمْ) (٣).

وروى مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: (لا يَذهَبُ الليْل وَالنهَارُ حَتى تُعْبَدَ اللاتُ وَالعُزى، فَقُلتُ يَا رَسُول اللهِ: إِن

---

(١) أبو داود في الفتن، باب ذكْرِ الفِتَن وَدَلاَئِلِهَا ٤/٩٧ (٤٢٥٢)، والترمذي في الفتن، باب لا تقوم الساعة حتى يخرج كذابون ٤/٤٩٩ (٢٢١٩)، وأحمد في المسند ٥/٢٧٨ (٢٢٤٤٨)، وصححه الألباني، انظر صحيح الجامع (١٧٧٣).

(٢) رواه البخاري في كتاب الفتن، باب تغيير الزمان حتى تعبد الأوثان ٦/٢٦٠٤ (٦٦٩٩)، ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخلصة ٤/٢٢٣٠ (٢٩٠٦).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ٤/١٢١ (٣٧٦٧)، والحاكم في المستدرك ٤/٥٩٠ (٨٦٤٤) وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (٣٢١١).

كُنتُ لأَظن حِين أَنزَل اللهُ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ التوبة:٣٣ . أَن ذلكَ تَاما. قَال: إِنهُ سَيَكُون مِن ذلكَ مَا شَاءَ اللهُ، ثم يَبْعَث اللهُ رِيحا طَيبَة فتوفى كُل مَن فِي قَلبِهِ مِثقَال حَبةِ خَرْدَل مِن إِيمَان، فَيَبْقَى مَن لا خَيْرَ فِيهِ فَيَرْجِعُون إِلى دِين آبَائِهِمْ)[١] .

وصح عن ابن مسعود ﷺ من حديث أبي وائل ﷺ أنه قال: (كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير، ويربو فيها الصغير، ويتخذها الناس سنة، فإذا غيرت قالوا غيرت السنة؟ قيل: متى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: إذا كثرت قراؤكم، وقلت فقهاؤكم، وكثرت أموالكم، وقلت أمناؤكم، والتمست الدنيا بعمل الآخرة) [٢].

لقد عم الجهل بدين الله وكثرت الفتن، وكثر أتباعها، وكثر الداعون إليها، بل ترى غالب الناس اليوم معرضين عن الأحكام، فضلا عن أن ينظروا في معنى انتمائهم للإسلام، وعامتهم استهوتهم الشياطين في الأرض حيران، فصرفتهم عن دينهم الحق الذي ارتضاه رب العالمين، متوغلين في البدع التي تهدم العقيدة وأصول الدين، تائهين في أودية الطرق البدعية وضلال المضلين، معادين للكتاب والسنة ومن قام بهما،

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعْبُدَ دَوْسٌ ذا الخَلَصَةِ ٤/٢٢٣٠ (٢٩٠٧).

(٢) رواه الدارمي في سننه، المقدمة، باب تغير الزمان وما يحدث فيه ١/٧٥ (١٨٥)، وابن أبي شيبة في المصنف ٧/٤٥٢ (٣٧١٥٦)، والحاكم في المستدرك ٤/٥٦٠ (٨٥٧٠)، وصحح إسناده الألباني في تحريم آلات الطرب ص١٦.

فأصبح الدين منهم في أنين وبلاء مبين.

وكثير ممن ينتمي إلى الإسلام اليوم ابتدعوا في الدين ما لم يأذن به الله، فمنهم من اتخذ ضرب المعازف وآلات اللهو عبادة يتعبدون بها في بيوت الله ومساجده، ومنهم من اتخذ الطواف على القبور والقصد إليها والنذور أخلص ما يكون من عبادته، وأفضل ما يكون من توسله وقربته، إلى غير ذلك مما يطول ذكره.

وروى البخاري من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قَال: (يَتَقَارَبُ الزمَان، وَيَنقُصُ العَمَل، وَيُلقَى الشح، وَتَظْهَرُ الفِتَن) (١).

قال الحافظ ابن حجر: (وقَوْله ﷺ: يَتَقَارَب الزمَان، معناه تقارب أحوال أهله في قلة الدين حتى لا يكون فيهم من يأمر بمعروف، ولا ينهى عن منكر، لغلبة الفسق وظهور أهله) (٢).

قال أبو الحسن علي بن خلف القرطبي المعروف بابن بطال (ت:٤٤٩هـ): (وجميع ما تضمنه هذا الحديث من الأشراط قد رأيناها عيانا فقد نقص العلم، وظهر الجهل، وألقي الشح في القلوب، وعمت الفتن وكثر القتل) (٣).

---

(١) البخاري في الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل ٥/٢٢٤٥ (٥٦٩٠) وانظر كتاب الفتن، باب ظهور الفتن ٦/٢٥٩٠ (٦٦٥٢)، ومسلم في كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن ٤/٢٠٥٧ (١٥٧).

(٢) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ١٣/١٦.

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال ١٠/١٣ نشر مكتبة الرشد الرياض، وانظر فتح الباري لابن حجر العسقلاني ١٣/١٦.

وذكر الحافظ ابن حجر (ت:٨٥٢هـ) أن الصفات المذكورة وجدت مباديها من عهد الصحابة ﷺ ثم صارت تكثر في بعض الأماكن دون بعض، والذي يعقبه قيام الساعة استحكام ذلك وانتشاره، وقد مضى من الوقت الذي قال فيه ابن بطال ما قال نحو ثلاثمائة وخمسين سنة، والصفات المذكورة في ازدياد في جميع البلاد، لكن يقل بعضها في بعض، ويكثر بعضها في بعض، وكلما مضت طبقة ظهر النقص الكثير في التي تليها، وإلى ذلك الإشارة بقوله في حديث الباب الذي بعده: لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه [1].

- الجاهل معذور بجهله إذا لم يكن الجهل من كسبه وسعيه.

السبب الموجب للعذر بالجهل وإسقاطِ المُؤاخذةِ على الوزر ألا يكون الجهل من كسب الإنسان وسعيه، وألا ينعدم العلم في قلبه بسبب تقصيره في طلبه، وعدم تحري السؤال عنه، لأن الله أوجب على جميع المسلمين ذلك فقال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ محمد:١٩. وقال تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧﴾ الأنبياء:٧.

وإذا نطق الإنسان بشهادة التوحيد، وقال: لا إله إلا الله، فقد شهد وأقر أنه لا معبود بحق سواه، ومن ثم علم أنه سبحانه وتعالى لو أرسل رسالة لعبيده الصادقين في عبادته، بين فيها أصول طاعته، وأبان فيها ماذا يفعل العباد حتى يصلوا إلى قربه ومحبته؟ وكيف يفوزون بنعيمه وجنته؟ فلو كان العبد صادقا في شهادته لبذل كل ما في وسعه

---

(١) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ١٦/١٣ بتصرف.

واستطاعته، واجتهد بكل طاقته لكي يطلع على تلك الرسالة، ويتمكن من قراءتها، ويتعرف على مادتها، حتى لو كان رجلا أميا أو مسلما أعجميا، فإنه سوف يبحث عن ترجمان، طالما أن تلك الرسالة فيها النجاة من غضب الله، وفيها القرب من حبه ورضاه.

ومن ثم فإن كلمة التوحيد عقد بين المسلم وربه، التزم به يوم شهد ألا إِلهَ إِلا اللهُ وأن محمدا رسول الله، وهو خير عقد يجب عليه أن يوفي فيه بالتزاماته، ويؤدي ما عليه من واجباته، لقول الله تعالى في محكم آياته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ المائدة:. فأمر سبحانه وتعالى بالوفاء بالعقد، ومدح من وفى بالعهد فقال: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾ البقرة:١٧٧ .

وإذا كان كل عقد بين البشر له قواعد وأحكام، وله شروط جزاء يضعونها للالتزام، وكان كل إنسان قبل أن يوقع على أي عقد يقرأ شروطه بإمعان، ودقة وإتقان، فحري بالمسلم الصادق أن يعرف مضمون العقد الذي بينه وبين الله ﷻ عندما شهد ألا إله إلا الله وأنه لا معبود بحق سواه، ولذلك أوجب الله علينا السؤال فقال: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧﴾ الأنبياء:٧.

ومذهب أهل الحق في العذر بالجهل هو مذهب الوسطية، وهو المذهب الذي يجمع بين الأدلة القرآنية والنبوية، فالحق سبحانه لا يعذب الناس إلا بعد إنذارهم وإعلامهم كما قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ

رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ الإسراء:١٥.

ومن ثم فإن الله لا يعذب أحدا إلا بعد بلوغ الرسالة، وإعراضه عن الهداية إلى الضلالة؛ لئلا يكون له حجة على الله في نفي العدالة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾ طه:١٣٣/١٣٥.

وعلى ذلك فإن الإنسان مسئول عن السبب في جهله، فإن كان الجهل من كسبه وفعله، وإعراضه وكبره، فهو محاسب على كل معصية وقع فيها بجهله، سواء كانت المخالفة مخالفة عظيمة تؤدي إلى الخلود في النار، أو كانت المخالفة كبيرة تحت مشيئة الله، إن شاء غفرها لعبده، وإن شاء عذبه بذنبه.

أما إذا انقطعت به الأسباب، وانسدت في وجهه الأبواب، ولم يتمكن من معرفة ما نزل به الكتاب بعد الطلب والبحث والسؤال، ولم يعص الله ﷻ فيما قال: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ ﴾ الأنبياء:٧. فهو باتفاق معذور بجهله، ولا يؤاخذ على ذنبه؛ لأن الجهل ليس من سعيه وكسبه، بل هو من تقدير الله ﷻ وقضائه وقدره.

ولو ضربنا مثلا لذلك وفرضنا أن رجلا من المسلمين لقلة علمه دأب على فعل معصية لله ﷻ بجهله، فاحتار في نفسه وتساءل: أهي معصية لله أم لا؟ فعزم الأمر على أن يسأل أهل الذكر حتى لو كانوا

على مسافة بعيدة تتطلب شد الرحال، وفي الطريق توفاه الله ﷻ، فمات على المعصية بجهله، فهل يصح زعم الزاعم أنه مؤاخذ على ذنبه قبل علمه؟ فالموت من تقدير الله وفعله، والجهل الذي وقع فيه ليس من فعله وكسبه، فنيته التي مات عليها أن يطيع الله ﷻ عند علمه بأمره، وأن يصدقه عند علمه بخبره.

وعند البخاري من حديث عمر بن الخطاب ﷺ أن رسول اللهِ ﷺ قال: (إِنمَا الأَعْمَال بِالنيات، وَإِنمَا لكُل امْرِئٍ مَا نوى)[(١)].

وقد ثبت في السنة أنه لا أحد أحب إليه العذر من الله ﷻ، فعند البخاري من حديث ابْن مَسْعُود ﷺ أن رَسُول الله ﷺ قال: (لَيْسَ أَحَدٌ أَحَب إِليْهِ المَدْحُ مِن اللهِ ﷻ، مِن أَجْل ذلكَ مَدَحَ نفْسَهُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَغْيَرَ مِن اللهِ، مِن أَجْل ذلكَ حَرمَ الفَوَاحِشَ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَب إِليْهِ العُذرُ مِن اللهِ، مِن أَجْل ذلكَ أَنزَل الكِتَابَ وَأَرْسَل الرسُل)[(٢)].

وفي رواية من حديث المغِيرَةِ ﷺ: (وَلا أَحَدَ أَحَب إِليْهِ العُذرُ مِن اللهِ، وَمِن أَجْل ذلكَ بَعَثَ المُبَشرِين وَالمُنذرِين)[(٣)].

---

(١) البخاري في بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي ١/٣ (١)، ومسلم في الإمارة، باب قوله ﷺ: إنما الأعمال بالنية ٣/١٥١٥ (١٩٠٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير، تفسير سورة الأنعام، باب قوله: ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ٤/١٦٩٦ (٤٣٥٨)، ومسلم واللفظ له في كتاب التوبة، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش ٤/٢١١٤ (٢٧٦٠).

(٣) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ: لا شخص أغير من الله ٦/٢٦٩٨ (٦٩٨٠)، ومسلم في كتاب اللعان ٢/١١٣٦ (١٤٩٩).

ويمكن القول إن الجاهل من المسلمين بعد الطلب والسؤال إن لم يصل إلى العلم بالحكم في مسألة ما فهو معذور بجهله في تلك المسألة وحدها، وإن كان محاسبا على غيرها مما ألم بحكمها، وخلاصة القول في مسألة العذر بالجهل أن الجاهل معذور بجهله إن لم يكن الجهل من كسبه وفعله، وذلك من كمال عدل الله ﷻ وفضله.

• **ما جاء في زيد بن عمرو بن نفيل ومصير والدي النبي ﷺ.**

روي البخاري من حديث ابن عمر ﭬ أن زيد بن عمرو بن نفيل خَرَجَ إِلى الشامِ، يَسْأَل عَن الدين وَيَتْبَعُهُ، فَلَقِي عَالما مِن اليَهُودِ، فَسَأَلَهُ عَن دِينِهِمْ، فَقَال: إِني لعَليّ أَن أَدِين دِينكُمْ، فَأَخْبِرْنِي. فَقَال: لاَ تَكُون عَلى دِينِنا حَتى تَأْخُذ بِنصِيبِكَ مِن غَضَبِ اللهِ. قَال زَيْدٌ: مَا أَفِر إِلا مِن غَضَبِ اللهِ، وَلاَ أَحْمِل مِن غَضَبِ اللهِ شَيْئا أَبَدا، وَأَنى أَسْتَطِيعُهُ، فَهَل تَدُلنِي عَلى غَيْرِهِ؟ قَال: مَا أَعْلَمُهُ إِلا أَن يَكُون حَنِيفا، قَال زَيْدٌ: وَمَا الحَنِيفُ؟ قَال: دِين إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُن يَهُودِيا وَلاَ نصْرَانيا وَلاَ يَعْبُدُ إِلا اللهَ. فَخَرَجَ زَيْدٌ فَلَقِي عَالما مِن النصَارَى، فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَقَال: لن تَكُون عَلى دِينِنا حَتى تَأْخُذ بِنصِيبِكَ مِن لعْنَةِ اللهِ. قَال: مَا أَفِر إِلا مِن لعْنَةِ اللهِ، وَلاَ أَحْمِل مِن لعْنَةِ اللهِ، وَلاَ مِن غَضَبِهِ شَيْئا أَبَدا، وَأَنى أَسْتَطِيعُ فَهَل تَدُلنِي عَلى غَيْرِهِ؟ قَال: مَا أَعْلَمُهُ إِلا أَن يَكُون حَنِيفا. قَال: وَمَا الحَنِيفُ؟ قَال: دِين إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُن يَهُودِيا وَلاَ نصْرَانيا وَلاَ يَعْبُدُ إِلا اللهَ. فَلما رَأَى زَيْدٌ قَوْلَهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ ؑ خَرَجَ، فَلما بَرَزَ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَال: اللهُم إِني أَشْهَدُ أَنى عَلى دِين إِبْرَاهِيمَ [1].

---

(١) البخاري في فضائل الصحابة، باب حديث زيد بن نفيل ٣/١٣٩١ (٣٦١٥).

وروى البخاري أيضا من حديث أَسْمَاءَ بنت أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنهمَا أنها قَالت: (رَأَيْتُ زَيْدَ بْن عَمْرو بْن نفَيْل قَائِما مُسْنِدا ظَهْرَهُ إلى الكَعْبَةِ يَقُول: يَا مَعَاشِرَ قُرَيْش، وَاللهِ مَا مِنكُمْ على دِين إبْرَاهِيمَ غَيْرِي، وَكَان يُحْيِي المَوْءُودَةَ، يَقُول للرجُل إذا أَرَادَ أَن يَقْتُل ابْنَتَهُ: لا تَقْتُلهَا أَنا أَكْفِيك مُئُونتَهَا، فَيَأْخُذهَا فَإذا تَرَعْرَعَتْ قَال لأَبِيهَا: إن شئت دَفَعْتُهَا إلَيْكَ، وَإِن شئت كَفَيْتُكَ مُئُونتَهَا) [1].

وقال الواقدي حدثني علي بن عيسى الحكمي عن أبيه عن عامر بن ربيعة أنه قال: سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول: أنا انتظر نبيا من ولد إسماعيل، ثم من بني عبد المطلب، ولا أراني أدركه، وأنا أومن به وأصدقه، وأشهد أنه نبي، فإن طالت بك مدة، فرأيته فأقرئه مني السلام، وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفى عليك، قلت: هلم قال: هو رجل ليس بالطويل ولا بالقصير، ولا بكثير الشعر ولا بقليله، وليست تفارق عينه حمرة، وخاتم النبوة بين كتفيه، واسمه أحمد، وهذا البلد مولده ومبعثه، ثم يخرجه قومه منها، ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره، فإياك أن تخدع عنه، فإني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم، فكان من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس يقولون هذا الدين وراءك، وينعتونه مثل ما نعته لك، ويقولون لم يبق نبي غيره. قال عامر بن ربيعة: فلما أسلمت أخبرت رسول الله ﷺ قول زيد بن عمرو

(١) البخاري في فضائل الصحابة، باب حديث زيد بن نفيل ٣/١٣٩٢ (٣٦١٦)، ومعنى يحيي الموءودة يستنقذها من الوأد وهو دفنها في التراب وهي حية، ومعنى ترعرت نشأت وشبت.

وإقرائه منه السلام، فرد عليه السلام وترحم عليه، وقال: قد رأيته في الجنة يسحب ذيولا [1].

مثل هذا الرجل لم يقصر في البحث وسؤال العلماء، وإن مات قبل أن يدرك رسالة السماء، فقد آمن بالنبي ﷺ قبل مبعثه، وآمن بالوحي وأحكام العبودية، وإن لم يدرك ماهية الأحكام الشرعية، فأخذ حكم من اتبع النبي ﷺ ومات على دربه، وحكم من كان من أتباعه وحزبه.

وتجدر الإشارة إلى أن أغلب المسلمين يجهلون الكثير من أحكام العبودية، وأنهم لو علموا وفهموا لأطاعوا ربهم، فهم على الإيمان المجمل، يحبون لا إله إلا الله، ويشهدون أن محمدا رسول الله، ولذلك فإن من الحكمة والفطنة الرأفة بهم، والأخذ بأيديهم إلى العلم بأحكام الله، لاسيما في المسائل المتعلقة بالتوحيد، دون الحكم عليهم قبل سابق إنذار، أو تكفيرهم وإخراجهم من الملة إلى الحكم بالخلود في النار.

كما ينبغي أن يُعلم أن الله ﷻ إذا أخبرنا عن إنسان أنه في النار، فذلك يدل يقينا أن الحجة بلغته، وأن الرسالة وصلته، لأن ذلك لازم للعدل الإلهي، فالله ﷻ لا يعذب أحدا إلا بسابق إنذار، وقد حاول بعض الناس بجهلهم وحبا في نبيهم ﷺ أن يرد ما رواه مسلم من حديث أنس بن مالك ﷺ: (أَن رَجُلا قَال: يَا رَسُول اللهِ أَيْن أَبِي؟ قَال: فِي النارِ، فَلما قَفي دَعَاهُ فَقَال: إِن أَبِي وَأَبَاكَ فِي النارِ) [2].

---

(١) تاريخ الطبري ١/٥٢٩، وتاريخ دمشق ١٩/٥٠٤، والبداية والنهاية ٢/٢٤٠.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أن من مات على الكفر فهو في النار ١/١٩١ (٢٠٣)، ومعنى قفى ذهب موليا.

وكذلك ما ورد عند مسلم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: (اسْتَأْذنتُ رَبي أَن أَسْتَغْفِرَ لأُمي فَلَمْ يَأْذن لي، وَاسْتَأْذنتُهُ أَن أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذن لي)[1].

والحديثان صحيحان وثابتان عن المصطفى ﷺ ويدلان بلا لبس أو غموض على أن والد النبي ﷺ وكذلك أمه في النار، وأنهما ماتا على الشرك بالله، وذلك يدل يقينا على أن الحجة وصلتهم، وأن رسالة التوحيد بلغتهم، وإن كنا لا نعلم كيف وصلتهم أو بلغتهم؟ ولا يحتاج الأمر إلى تأويل، أو خروج عن الدليل، أو الكذب على رسول الله ﷺ في أن الله ﷻ أحيا أباه وأمه فآمنا به ثم ماتا، أو ندعي لأنفسنا أننا نحب أباه وأمه أكثرَ منه ﷺ.

- قد يجتمع في المسلم علم وجهل كما يجتمع فيه طاعة ومعصية.

ومما ينبغي أن يعلم أن المسلم قد يجتمع فيه علم وجهل، وإيمان وكفر، وطاعة ومعصية، وكل ذلك لا يجتمع تحت حكم واحد، ولا يرتفع عنه وصف الإيمان مطلقا إذا اجتمع فيه وصف من أوصاف الكفر؛ بل يجتمع في الشخص المعين هذا وهذا، كما يجتمع فيه شعب الإيمان وشعب المعصية، أو يجتمع فيه إيمان وبدعة، أو يجتمع فيه إسلام وجاهلية، وقد يكون عند بعض الأشخاص من خصال الجاهلية مثل الفخر المذموم الذي لم يأذن به الشرع، ومثل تعظيم ما كان عليه الآباء والأجداد بغير حق، ومثل الافتخار بالباطل، والتقليد المذموم، ونحو ذلك من أفعال أهل الجاهلية الذين كان سمتهم التعصب والتقليد

---

(١) مسلم في الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه في زيارة قبر أمه ٢/٦٧١ (٩٧٦).

والنخوة بغير حق، روى البخاري من حديث ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قَال: (أَبْغَضُ الناسِ إلى اللهِ ثلاثة: مُلحِدٌ في الحَرَم، وَمُبتَغ فِي الإِسْلامِ سُنةَ الجَاهِلِيةِ، وَمُطلبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَق لِيُهَرِيقَ دَمَهُ) (١).

قال المهلب: (قوله أبغض الناس إلى الله ملحد، لا يجوز أن يكون هؤلاء أبغض إلى الله ﷻ من أهل الكفر، وإنما معناه أبغض أهل الذنوب ممن هو من جملة المسلمين) (٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (أخبر النبي ﷺ أن أبغض الناس إلى الله هؤلاء الثلاثة، وذلك لأن الفساد إما في الدين، وإما في الدنيا، فأعظم فساد الدنيا قتل النفوس بغير الحق، ولهذا كان أكبر الكبائر بعد أعظم فساد الدين الذي هو الكفر، وأما فساد الدين فنوعان: نوع يتعلق بالعمل، ونوع يتعلق بمكان العمل، فأما المتعلق بالعمل فهو ابتغاء سنة الجاهلية، وأما ما يتعلق بمكان العمل فالإلحاد في الحرم، لأن أعظم محال العمل هو الحرم، وانتهاك حرمة المحل المكاني أعظم من انتهاك حرمة المحل الزماني، والمقصود أن من هؤلاء الثلاثة من ابتغى في الإسلام سنة جاهلية، فسواء قيل مبتغيا أو غير مبتغ، فإن الابتغاء هو الطلب والإرادة، فكل من أراد في الإسلام أن يعمل بشيء من سنن الجاهلية دخل في هذا الحديث، والسنة الجاهلية كل عادة كانوا عليها، فإن السنة هي العادة، وهي الطريق التي تتكرر لتتسع لأنواع الناس مما يعدونه عبادة، أو لا يعدونه عبادة، قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) البخاري في الديات، باب من طلب دم امرئ بغير حق ٢٥٢٣/٦ (٦٤٨٨).
(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٥١٠/٨.

﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾ آل عمران:١٣٧.

وقال النبي ﷺ: لتتبعن سنن من كان قبلكم[1]. والاتباع هو الاقتفاء والاستنان، فمن عمل بشيء من سننهم فقد اتبع سنة جاهلية) [2].

قال الحافظ ابن حجر: (سنة الجاهلية اسم جنس يعم جميع ما كان أهل الجاهلية يعتمدونه من أخذ الجار بجاره، والحليف بحليفه ونحو ذلك، ويلتحق بذلك ما كانوا يعتقدونه، والمراد منه ما جاء الإسلام بتركه كالطيرة والكهانة وغير ذلك) [3].

وكل من طلب خصلة من الجاهلية فهو داخل في الثلاثة، أو كل من كان فيه، ولم يتركه بعد البيان له؛ فهو داخل في هذا الوعيد الذي أخبر به النبي ﷺ، وقد جاء الإسلام وأبطل شرائع الجاهلية، قال الله تعالى: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠﴾ المائدة:٥٠.

روي مسلم من حديث جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (أَلا كُل شَيْءٍ مِن أَمْرِ الجَاهِلِيةِ تَحْتَ قَدَمَي مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الجَاهِلِيةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِن أَول دَمٍ أَضَعُ مِن دِمَائِنا دَمَ رَبِيعَةَ بْن الحَارث، كَان مُسْتَرْضِعا فِي بَني سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْل، وَرِبَا الجَاهِلِيةِ مَوْضُوعٌ، وَأَول رِبا أَضَعُ رِبَانا، رِبا

(١) البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: لتتبعن سنن من كان قبلكم ٦/٢٦٦٩ (٦٨٨٩)، ومسلم في كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى ٤/٢٠٥٤ (٢٦٦٩).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ١/٧٦.

(٣) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ١٢/٢١١.

عَباسِ بْن عَبْدِ الُمطلبِ، فَإِنهُ مَوْضُوعٌ كُلهُ) [١].

قال الآلوسي: (الجهالة السبب الحامل لهم على العمل كالغيرة الجاهلية الحاملة على القتل وغير ذلك، وفسرت الجهالة بالأمر الذي لا يليق. وقال ابن عطية[٢]: هي هنا تعدى الطور، وركوب الرأس، لا ضد العلم، ومنه ما جاء في الخبر[٣]: اللهم إني أعوذ بك من أن أجهل أو يجهل علي) [٤].

ذكر القرطبي أن الجهالة تعم الكفر والمعاصي، فكل من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن معصيته. قال قتادة: أجمع أصحاب النبي ﷺ على أن كل معصية فهي بجهالة، عمدا كانت أو جهلا [٥].

قال الآلوسي: (والأظهر أن من عمل ذنبا فهو جاهل، أي فاعل فعل الجهلة، لأن من عمل ما يؤدي إلى الضرر في العاقبة وهو عالم بذلك أو ظان، فهو من أهل الجهل والسفه لا من أهل الحكمة والتدبير، أو جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة) [٦].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الحج، باب حجة النبى ﷺ ٢/٨٨٩ (١٢١٨).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي ٣/٤٣٠.

(٣) روى أبو داود في سننه في كتاب الأدب، باب ما يقول الرجل إذا خرج من بيته عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: ما خرج النبي ﷺ من بيتي قط إلا رفع طرفه إلى السماء فقال: اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أزل أو أزل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل علي ٤/٣٢٥ (٥٠٩٤).

(٤) تفسير الألوسي ١٤/٢٤٩.

(٥) تفسير القرطبي ٥/٩٢.

(٦) تفسير الألوسي ٧/١٦٤.

- **الأدلة النقلية على العذر بالجهل في الأمور الاعتقادية.**

وردت نصوص كثيرة تدل على العذر بالجهل أو الغفلة، منها ما وقع من بعض الصحابة ﷺ في عدة أمور اعتقادية، أو أحكام تكليفية، وكانوا يعذرون فيها:

١- ما رواه الترمذي من حديث أبي واقد الليثي ﷺ أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى خيبر مر بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط، يعلقون عليها أسلحتهم، فقالوا: يا رسول الله، أجعل لنا ذات أنوط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: سبحان الله! هذا كما قال قوم موسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨﴾ الأعراف:١٣٨. والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم [(١)].

والشاهد أن النبي ﷺ عذرهم لجهلهم بمسألة من مسائل التوحيد، ولم يثبت أنه سألهم تجديد إسلامهم، وذلك لبقاء عقد الإسلام لهم، وعدم زواله عنهم بسبب إتيانهم سببا من أسباب الشرك، أو إتيانهم ما يوجب الوقوع في أسباب الكفر بالله ﷻ وينافي توحيده، بل المنقول عنه ﷺ أنه زجرهم وأخبرهم بعظم تلك المقالة.

٢- وروى ابن ماجه وصححه الألباني من حديث عبد الله اِبْن أَبِي أَوْفَى أنه قَال: لما قَدِمَ مُعَاذ مِن الشام سَجَدَ للنبِي ﷺ! فَقَال: مَا هَذا يَا مُعَاذ؟ قَال: أَتَيْت الشام فَوَافَيْتهمْ يَسْجُدُون لأَسَاقِفَتِهِمْ وَبَطَارِقَتهمْ،

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم ٤/٤٧٥ (٢١٨٠)، وأحمد في المسند ٥/٢١٨ (٢١٩٤٧)، وصححه الشيخ الألباني في ظلال الجنة (٧٦)، والمشكاة (٥٤٠٨).

فَوَدِدْت فِي نفْسِي أَن نفْعَل ذلكَ بِك! فَقَال رَسُول الله ﷺ: فَلا تَفْعَلوا، فَلوْ كُنت آمِرا أَحَدا أَن يَسْجُد لغَيْر الله، لأَمَرْت المَرْأَة أَن تَسْجُد لزَوْجِهَا، وَالَذي نفْس مُحَمد بِيَدِهِ، لا تُؤَدي المَرْأَة حَق رَبهَا حَتى تُؤَدي حَق زَوْجها، وَلوْ سَأَلَها نفْسهَا وَهِيَ عَلى قَتَب لمْ تَمْنعهُ [1].

٣–وعند أبي داود وصححه الألباني من حديث قَيْسِ بْن سَعْدٍ ﷺ أنه قَال: أَتَيْتُ الحِيرَةَ فَرَأَيْتهُمْ يَسْجُدُون لمَرْزُبَان لهُمْ، فَقُلتُ: رَسُولُ اللهِ أَحَق أَن يُسْجَدَ لهُ، قَال: فَأَتَيْتُ النبي ﷺ فَقُلتُ: إني أَتَيْتُ الحِيرَةَ فَرَأَيْتُهُمْ يَسْجُدُون لمَرْزُبَان لهُمْ، فَأَنتَ يَا رَسُول اللهِ أَحَق أَن نسْجُدَ لك؟ .. قَال: فَلاَ تَفْعَلوا لوْ كُنتُ آمِرا أَحَدا أَن يَسْجُدَ لأَحَدٍ، لأَمَرْتُ النسَاءَ أَن يَسْجُدْن لأَزْوَاجِهِن لمَا جَعَل اللهُ لهُمْ عَليْهِن مِن الحَق [2].

ووجه الدلالة أن السجود عبادة محضة، وصرفها لغير الله ﷻ مخرج من الملة، وموجب للخلود في النار، وهذا وقع من معاذ ﷺ، ووقع السؤال عنه والطلب من قيس بن سعد ﷺ جهلا منهم أنه عبادة لا تنبغي أن تصرف لغير الله، فلم يحكم النبي ﷺ عليهم بالكفر، وإلا لقال

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب النكاح، باب حق الزوج على المرأة ٥٩٥/١ (١٨٥٣)، وقال الألباني: حسن صحيح، انظر الإرواء ٥٥/٧، والسلسلة الصحيحة (١٢٠٣)، ومعنى على قتب أي وإن كانت قد أجلست على قتب عند مجيء المخاض، والقصد بذلك المبالغة في الزجر عن امتناعها منه، أو تسويفها إياه، انظر التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي ٩٥/١.

(٢) رواه أبو داود في كتاب النكاح، باب في حق الزوج على المرأة ٢٠٩/٢ (٢١٤٢)، وانظر ضعيف الجامع الصغير (٤٨٤٢)، والإرواء (١٩٩٨)، المشكاة (٣٢٦٦) والمرزبان الفارس الشجاع المقدم على القوم دون الملك.

لهم: قد كفرتم بذلك، أو طلب منهم تجديد إسلامهم، ولكنه أعلمهم بحكم السجود، وعذر معاذا ﷺ في سجوده، وقيسا ﷺ في سؤاله وطلبه، وذلك لقيام الجهل عذرا وسببا في صرف الحكم عليهم بالكفر .

قال الشوكاني: (وفي هذا الحديث دليل على أن من سجد جاهلا لغير الله لم يكفر)[(١)] .

لكن ينبغي أن نعلم أنه لا يلزم من السجود للشخص عبادته، بل يحتمل العبادة، ويحتمل غيرها من التحية والاحترام كما في الحديث المذكور، بخلاف السجود للصنم فإنه شرك في العبادة[(٢)].

٤- روى البخاري من حديث أم حبيبة بنت أبي سفيان أنها قالت: يا رسول الله! انكح أختي بنت أبي سفيان، فقال: أو تحبين ذلك؟ فقلت: نعم، لست لك بِمُخلية، وأحب من شاركني في خير أختي، فقال النبي ﷺ: إن ذلك لا يحل لي، قلت: فإنا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة، قال: بنت أم سلمة؟ قلت: نعم. فقال: لو أنها لم تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي، إنها لابنة أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن على بناتكن ولا أخواتكن[(٣)].

والشاهد أن أم حبيبة وهي من هي في المنزلة من النبي ﷺ جهلت ولم

---

(١) نيل الأوطار للشوكاني ٦/٣٦٤.

(٢) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ١/٣٧٢، ٤/٣٦٠.

(٣) البخاري في النكاح، باب وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم ٥/١٩٦١ (٤٨١٣)، ومسلم في الرضاع، باب تحريم الربيبة وأخت المرأة ٢/١٠٧٢ (١٤٤٩)، والربيبة بنت الزوجة من رجل آخر، ومعنى بمخلية لست بمتفرغة ولا خالية من ضرة.

تعلم حرمة الزواج من أخت الزوجة، وزاد الجواب ما كان من تحريم الزواج بالأخت التي من الرضاع، والأدلة في ذلك معلومة من القرآن والسنة، وقد عذرها بجهلها.

٥-وروى أبو داوود وصححه الألباني من حديث عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (دَخَل عَلى أَفْلَحُ بْن أَبِي القُعَيْسِ فَاسْتَتَرْتُ مِنهُ، قَال: تَسْتَتِرين مِنِى وَأَنا عَمكِ؟ قَالتْ: قُلتُ مِن أَيْن؟ قَال: أَرْضَعَتْكِ امْرَأَةُ أخي. قَالتْ: إنما أَرْضَعَتْني المَرْأَةُ، وَلَمْ يُرْضِعْني الرجُل. فَدَخَل عَلى رَسُول اللهِ ﷺ فَحَدثْتُهُ فَقَال: إِنهُ عَمكِ فَلْيَلجْ عَلَيْكِ) [(١)].

والشاهد أن عائشة أم المؤمنين كانت تجهل، ولم تكن تعلم حل الدخول للعم من الرضاع حتى أعلمها النبي ﷺ بجواز ذلك، فأمرها أن تأذن لعمها من الرضاع، وهو أفلح بن أبي قعيس.

٦-وروى أحمد وصححه شعيب من حديث عن أبي أُمَامَةَ أنه قال: (إِن فَتى من قريش أَتَى النبِي ﷺ فَقَال: يَا رَسُول اللهِ، ائذن لي في الزنا، فَأَقْبَل القَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، وَقَالوا: مَهْ مَهْ، فَقَال: ادْنهْ، فَدَنا مِنهُ قَرِيبا، فَقَال: أَتُحِبهُ لأُمكَ؟ قَال: لاَ وَاللهِ جعلني اللهُ فِدَاءَكَ، قَال: وَلاَ الناسُ يُحِبونهُ لأُمهَاتِهِمْ، قَال: أَفَتُحِبهُ لابْنتِكَ؟، قَال: لاَ وَاللهِ يَا رَسُول اللهِ جعلني اللهُ فِدَاءَكَ، قَال: وَلا الناسُ يُحِبونهُ لبَناتِهِمْ، قَال: أَفَتُحِبهُ لأُخْتِكَ؟ قَال: لاَ وَاللهِ جَعَلنى اللهُ فِدَاءَكَ، قَال: وَلاَ الناسُ

(١) هذا لفظ أبي داود في سننه، كتاب النكاح، باب في لبن الفحل ٢٢٢/٢ (٢٠٥٧) ، وأصل الحديث عند البخاري في كتاب النكاح، باب ما يحل من الدخول والنظر إلى النساء في الرضاع ٢٠٠٧/٥ (٤٩٤١).

يُحِبونهُ لأَخَوَاتِهِمْ، قَال: أَفَتُحِبهُ لعَمتِكَ؟ قَال: لاَ وَاللهِ جَعَلنى اللهُ فِدَاءَك، قَال: وَلاَ الناسُ يُحِبونهُ لعَماتِهِمْ، قَال: أَفَتُحِبهُ لخَالتِكَ؟ قَال: لاَ وَاللهِ جَعَلنى اللهُ فِدَاءَكَ، قَال: وَلاَ الناسُ يُحِبونهُ لخَالاَتِهِمْ، قَال: فَوَضَعَ يَدَهُ عَليْهِ، وَقَال: اللهُم اغْفِرْ ذنبَهُ وَطَهرْ قَلبَهُ وَحَصن فَرْجَهُ. فَلمْ يَكُن بَعْدُ ذلكَ الفَتَى يَلتَفِتُ إِلى شَيءٍ) [1].

والشاهد أن هذا الشاب أراد أن يكسر حاجز الحياء، ويخاطب النبي بجهله ﷺ علنا أمام أصحابه ﷺ ويطلب منه أن يعطيه رخصة في الزنا بلا محاسبة أو مآخذة، فعلّمه ما كان يجهله من خطورة إباحة الزنا ومخاطره الاجتماعية والأسرية والنفسية والدينية، ولم يرمه النبيﷺ بكفر الاستحلال لجهالته.

• حديث الرجل الذي أسرف على نفسه وجهل قدرة ربه.

روي مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (أَسْرَفَ رَجُل عَلىَ نفسِهِ، فَلما حَضرَهُ المَوْتُ أَوْصَىَ بَنيهِ فَقَال: إذا أَنا مُت فَأَحْرِقُوني، ثم اسْحَقُوني، ثم اذرُوني فِي الريحِ فِي البَحْرِ، فَواللهِ لئِن قَدَرَ عَلي رَبي، ليُعَذبُني عَذابا مَا عَذبَهُ أَحَدا، قَال: فَفَعَلوا ذلكَ بِهِ، فَقَال للأَرْضِ: أَد مَا أَخَذتِ، فَإِذا هُوَ قَائِمٌ. فَقَال لهُ: مَا حَمَلكَ عَلىَ مَا صَنعْتَ؟ فَقَال: خَشْيَتُكَ يَا رَب! أَوْ قَال: مَخَافَتُكَ! فَغَفَرَ لهُ بِذلكَ) [2].

(١) رواه أحمد في المسند ٥/٢٥٦ (٢٢٢٦٥)، وقال شعيب: إسناده صحيح وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٧٠).

(٢) البخاري في الأنبياء، باب أم حسبت أن أصحاب الكهف ٣/١٢٨٢ (٣٢٩١)، ومسلم واللفظ له في التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى ٤/٢١١٠ (٢٧٥٦).

يستشكل على هذا فيقال: كيف يغفر له وهو منكر للبعث والقدرة على إحياء الموتى؟ والجواب كما ذكره الخطابي: أنه لم ينكر البعث، وإنما جهل، فظن أنه إذا فعل به ذلك لا يعاد فلا يعذب، وقد ظهر إيمانه باعترافه بأنه إنما فعل ذلك من خشية الله. قال ابن قتيبة: قد يغلط في بعض الصفات قوم من المسلمين فلا يكفرون بذلك[1].

وقال ابن حزم: (فهذا إنسان جهل إلى أن مات أن الله ﷻ يقدر على جمع رماده وإحيائه، وقد غفر الله له لإقراره وخوفه وجهله) [2].

قال الحافظ ابن عبد البر: (وأما جهل هذا الرجل المذكور في هذا الحديث بصفة من صفات الله في علمه وقدرته، فليس ذلك بمخرجه من الإيمان، ثم استدل على ذلك بسؤال الصحابة ﭫ عن القدر ثم قال: ومعلوم أنهم إنما سألوه عن ذلك وهم جاهلون به، وغير جائز عند أحد من المسلمين أن يكونوا بسؤالهم عن ذلك كافرين، ولم يضرهم جهلهم به قبل أن يعلموه) [3].

وقد ذكر ابن تيمية أن هذا الرجل ظن أن الله ﷻ لا يقدر عليه إذا تفرق هذا التفرق، فظن أنه لا يعيده إذا صار كذلك، وكل واحد من إنكار قدرة الله تعالى وإنكار معاد الأبدان وإن تفرقت كفر، لكنه كان مع إيمانه بالله، وإيمانه بأمره وخشيته منه؛ جاهلا بذلك ضالا في هذا الظن مخطئا، فغفر الله له ذلك، والحديث صريح في أن الرجل طمع أن

(١) انظر فتح الباري لابن حجر ٥٢٢/٦.
(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهري ١٤٠/٣.
(٣) التمهيد لابن عبد البر ٤٦/١٨.

لا يعيده إذا فعل ذلك، وأدنى هذا أن يكون شاكا في المعاد، وذلك كفر إذا قامت حجة النبوة على منكره حكم بكفره، هو بين في عدم إيمانه بالله تعالى، ومن تأول قوله: لئِن قَدَرَ عَلي رَبي، بمعنى قضى أو بمعنى ضيق فقد أبعد النجعة وحرف الكلم عن مواضعه، فإنه إنما أمر بتحريقه وتفريقه لئلا يجمع ويعاد فقال: إذا أَنا مُت فَأَحْرِقُوني ثم اسْحَقُوني ثم اذرُوني فِي الريحِ فِي البَحْرِ، فَوَاللهِ لئِن قَدَرَ عَلي رَبي ليُعَذبُني عَذابا مَا عَذبَهُ بِهِ أَحَدا. فذكْر هذه الجملة الثانية بحرف الفاء عقيب الأولى يدل على أنه سبب لها، وأنه فعل ذلك لئلا يقدر الله عليه إذا فعل ذلك، فلو كان مقرا بقدرة الله عليه إذا فعل ذلك كقدرته عليه إذا لم يفعل لم يكن في ذلك فائدة له؛ ولأن التقدير عليه والتضييق موافقان للتعذيب وهو قد جعل تفريقه مغايرا لأن يقدر الرب، فقال: فَوَاللهِ لئِن قَدَرَ عَلي رَبي ليُعَذبُني عَذابا مَا عَذبَهُ بِهِ أَحَدا، فلا يكون الشرط هو الجزاء؛ ولأنه لو كان مراده ذلك لقال: فوالله لئن جازاني ربي، أو لئن عاقبني ربي ليعذبني عذابا، كما هو الخطاب المعروف في مثل ذلك، فغاية ما في هذا الحديث أنه كان رجلا لم يكن عالما بجميع ما يستحقه الله ﷻ من الصفات، وبتفصيل أنه القادر[1].

وكثير من المؤمنين قد يجهل مثل ذلك فلا يكون كافرا، ومن تتبع الأحاديث الصحيحة وجد فيها من هذا الجنس ما يوافقه، كما روى مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (أَلاَ أُحَدثكُمْ عَني وَعَنْ رَسُول اللهِ ﷺ، قُلنَا: بَلى. قَال قَالتْ: لما كَانَتْ ليْلتِي التِي كَانَ

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٤٠٩/١١ بتصرف.

النبي ﷺ فِيهَا عِنْدِي انْقَلَبَ فَوَضَعَ رِدَاءَهُ وَخَلعَ نَعْلَيْهِ فَوَضَعَهُمَا عِنْدَ رِجْلَيْهِ وَبَسَطَ طَرَفَ إِزَارِهِ عَلي فِرَاشِهِ فَاضْطَجَعَ فَلَمْ يَلبَث إلا رَيْثمَا ظَن أَنْ قَدْ رَقَدْتُ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ رُوَيْدا وَانْتَعَل رُوَيْدا وَفَتَحَ البَابَ فَخَرَجَ ثم أَجَافَهُ رُوَيْدا فَجَعَلتُ دِرْعِي فِي رَأْسِي، وَاخْتَمَرْتُ وَتَقَنعْتُ إِزَارِي، ثم انْطَلَقْتُ عَلي إِثرِهِ حَتى جَاءَ البَقِيعَ فَقَامَ فَأَطَال القِيَامَ ثم رَفَعَ يَدَيْهِ ثلاَث مَراتٍ ثم انْحَرَفَ فَانْحَرَفْتُ فَأَسْرَعَ فَأَسْرَعْتُ فَهَرْوَل فَهَرْوَلتُ فَأَحْضَرَ فَأَحْضَرْتُ فَسَبَقْتُهُ فَدَخَلتُ فَلَيْسَ إلا أَن اضْطَجَعْتُ فَدَخَل فَقَال: مَا لكِ يَا عَائِشُ حَشْيَا رَابِيَة. قَالتْ: قُلتُ لاَ شَيءَ. قَال: لتُخْبِرِينِي أَوْ ليُخْبِرَني اللطِيفُ الخَبِيرُ. قَالتْ قُلتُ: يَا رَسُول اللهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمي. فَأَخْبَرْتُهُ قَال فَأَنْتِ السوَادُ الذِي رَأَيْتُ أَمَامِي. قُلتُ: نَعَمْ. فَلهَدَنِي فِي صَدْرِي لهْدَة أَوْجَعَتْنِي، ثم قَال: أَظَنَنْتِ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَليْكِ وَرَسُولهُ. قَالتْ: مَهْمَا يَكْتُم الناسُ يَعْلمْهُ اللهُ نَعَمْ. قَال: فَإِن جِبْرِيل أَتَانِي حِينَ رَأَيْتِ فَنَادَانِي فَأَخْفَاهُ مِنْكِ فَأَجَبْتُهُ فَأَخْفَيْتُهُ مِنْكِ، وَلمْ يَكُنْ يَدْخُل عَليْكِ، وَقَدْ وَضَعْتِ ثيَابَكِ، وَظَنَنْتُ أَنْ قَدْ رَقَدْتِ فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَكِ، وَخَشِيتُ أَنْ تَسْتَوْحِشِي فَقَال: إِن رَبكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِي أَهْل البَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لهُمْ. قَالتْ: قُلتُ كَيْفَ أَقُول لهُمْ يَا رَسُول اللهِ؟ قَال: قُولي السلاَمُ عَلي أَهْل الديَارِ مِنَ المُؤْمِنِينَ وَالمُسْلمِينَ، وَيَرْحَمُ اللهُ المُسْتَقْدِمِينَ مِنا وَالمُسْتَأخِرِينَ، وَإِنا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ للاَحِقُونَ) (١).

---

(١) مسلم في الجنائز، باب ما يقال ثم دخول القبور ٢/٦٧٠ (٩٧٤)، ومعنى أجاف أغلق، والحشيا النهيج، والرابية التي أخذها الربو وتواتر النفس الذي يعرض للمسرع في مشيه، ومعنى تقنعت لبست، واللهدة الدفع الشديد في الصدر.

هذه عائشة أم المؤمنين سألت النبي ﷺ: هل يعلم الله كل ما يكتم الناس؟ فقال لها النبي ﷺ: نعم، وهذا يدل علي أنها لم تكن تعلم ذلك، ولم تكن قبل معرفتها بأن الله عالم بكل شيء يكتمه الناس كافرة، وإن كان الإقرار بذلك بعد قيام الحجة من أصول الإيمان، وإنكار علمه بكل شيء كإنكار قدرته علي كل شيء، هذا مع أنها كانت ممن يستحق اللوم على الذنب، ولهذا لهزها النبي ﷺ وقال: أتخافين أن يحيف الله عليك ورسوله [١].

وقال ابن القيم: (وأما من جحد ذلك جهلا، أو تأويلا يعذر فيه صاحبه فلا يكفر صاحبه به، كحديث الذي جحد قدرة الله عليه، وأمر أهله أن يحرقوه ويذروه في الريح، ومع هذا فقد غفر الله له، ورحمه لجهله، إذ كان ذلك الذي فعله مبلغ علمه ولم يجحد قدرة الله على إعادته عنادا أو تكذيبا) [٢].

ويجب التنبيه إلى أن العذر بالجهل لا يعفي من مسئولية طلب العلم، ولا يكون سائغا ممن خالط العلماء وجالسهم وسمع منهم، فوق أنه يعيش بين ظهراني المسلمين خاصة مع ظهور شعائر الإسلام بادية للناظرين والسامعين في ديار الإسلام.

قال الإمام الشافعي: (لو عُذرَ الجاهل لأجل جهله؛ لكان الجهل خيرا من العلم، إذ كان يحط عن العبد أعباء التكليف ويريح قلبه من ضروب التعنيف؛ فلا حجة للعبد في جهله بالحكم بعد التبليغ

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١١/ ٤١٣.

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١/٣٣٨.

والتمكين؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرُسل) (١).

• العذر بالجهل وحكم التقليد عند ظهور الدليل على خلافه.

التقليد في اللغة وضع الشيء في العنق محيطا به، ويسمى الشيء المحيط بالعنق قلادة، والجمع قلائد، وقلدتها قلادة، جعلتها في عنقها، ومنه تقليد الولاة الأعمال، وتقليد البدنة يعلم بها أنها هدي(٢).

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ ﴾ المائدة:٢.

ويستعمل التقليد في تفويض الأمر إلى الغير مجازا، كأنه ربط الأمر بعنقه، ومنه المعنى الاصطلاحي للتقليد، وهو أخذ مذهب الغير واعتقاد صحته واتباعه عليه بلا معرفة دليله، ويشمل التقليد ما كان قولا له أو فعلا دون سؤال عن حجةٍ واضحة (٣).

والتقليد المحرم كتقليد الآباء في الاعتقاد والقول والعمل إعراضا عما أخبر الله ﷻ أو أمر به، وكان هذا نهج الناس قبل بعثة النبي ﷺ، وهو حال أغلب الناس في زماننا، يتبعون الآباء وكبراء القبائل فيما ألفوه من العادات وإن خالفت الشرائع والعبادات، أو هدمت مقتضى الاعتقادات التي نزل بها القرآن وجاءت بها السنة، ومن التقليد المحرم تقليد عامة الشيعة لمراجعهم وأئمتهم المزعومين، وإن خالفوا الكتاب والسنة.

---

(١) المنثور في القواعد للزركشي ٢/١٧.
(٢) انظر القاموس المحيط للفيروز آبادي ١/٣٩٩ بتصرف.
(٣) شرح الكوكب المنير المسمى بمختصر التحرير في أصول الفقه لابن النجار الحنبلي ٤/٥٢٩ نشر جامعة أم القرى ١٤١٣ هـ.

وكذلك من التقليد المحرم تقليد بعض متعصبي المذاهب الفقهية لمذهب إمام بعينه، وإن قام الدليل على خلافه بحيث يأنفون أن تنسب إلى أحد من العلماء فضيلة دون إمامهم، وكذلك تقليد بعض الجماعات للمرشد العام والانصياع لأوامره دون سؤال، والانقياد لتوجيهه دون استدلال حتى لو خالف نصا صريحا ورد في القرآن والسنة.

وكذلك تقليد العامة لأصحاب الطرق الصوفية في أورادهم، وما نقل عنهم من الأحوال أو الأقوال، فيتخذون أورادهم شرعا مقدما على كلام الله ورسوله ﷺ، ومن التقليد المحرم اتباع منهج الجهمية والمتكلمين في جعل الموازين العقلية والأهواء الشخصية حكما على النصوص النقلية القرآنية والنبوية، فما وافقها قبلوه كأدلة ثانوية يستأنسون بها، وما خالفها ردوه بالتأويلات البدعية والتعطيلات الكفرية، وقد وردت نصوص قرآنية كثيرة في ذم التقليد الذي يخالف دين التوحيد والعقيدة الحق، أو يوجب معصية الخالق في طاعة الخلق، ومن ذلك:

١- قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ المائدة:١٠٤.

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ الأعراف:٢٨.

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا

﴿نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ٧٨﴾ يونس:٧٧/٧٨.

٤- قوله: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧﴾ الأحزاب:٦٦/٦٧.

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾ البقرة:١٧١.

ذكر ابن القيم أن التقليد ينقسم إلى ما يحرم القول فيه والإفتاء به، وإلى ما يجب المصير إليه، وإلى ما يسوغ من غير إيجاب، فأما النوع الأول وهو التقليد الممنوع فعلى ثلاثة أشكال، أحدها: الإعراض عما أنزل الله، وعدم الالتفات إليه اكتفاء بتقليد الآباء. والثاني: تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يؤخذ بقوله قبل قيام الحجة. والثالث: التقليد بعد قيام الحجة، وظهور الدليل على خلاف قول المقلد.

وقد ذم الله سبحانه هذه الأنواع الثلاثة في غير موضع من كتابه كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ البقرة:١٧٠.

وقال: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤﴾ الزخرف:٢٤. وهذا في القرآن كثير يذم فيه من أعرض عما أنزله وقنع بتقليد الآباء [1].

قال الشافعي: (أجمع الناس على أن من استبانت له سنة الرسول ﷺ،

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم ٢/١٨٨ بتصرف.

لم يكن له أن يدعها لقول أحد [1].

• **حكم أهل البدع من الفرق وحكم التقليد في الاعتقاد.**

ذكر ابن القيم أن أهل البدع الموافقون لأهل الإسلام، والمخالفون لهم الأصول كالرافضة والقدرية والجهمية وغلاة المرجئة ونحوهم أقسام:

أحدها: الجاهل المقلد الذي لا بصيرة له، فهذا لا يكفر ولا يفسق، ولا ترد شهادته، إذا لم يكن قادرا على تعلم الهدى، وحكمه حكم من ذكر الله ﷻ شأنهم من المستضعفين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ﴿٩٩﴾﴾ النساء:٩٧/٩٩.

القسم الثاني: المتمكن من السؤال وطلب الهداية، ومعرفة الحق، ولكن يترك ذلك اشتغالا بدنياه ورياسته، ولذته ومعاشه وغير ذلك، فهذا مفرط مستحق للوعيد، آثم بترك ما وجب عليه من تقوى الله بحسب استطاعته، فهذا حكمه حكم أمثاله من تاركي بعض الواجبات، فإن غلب ما فيه من البدعة والهوى على ما فيه من السنة والهدى ردت شهادته، وإن غلب ما فيه من السنة والهدى قبلت شهادته.

القسم الثالث: أن يسأل ويطلب، ويتبين له الهدى، ويتركه تقليدا وتعصبا، أو بغضا، أو معاداة لأصحابه، فهذا أقل درجاته أن يكون

---

(١) انظر إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم ١/٧.

فاسقا، وتكفيره محل اجتهاد وتفصيل[(١)].

وأما التقليد في الاعتقاد فقد اختلفوا علي أقوال متباينة حتى تناقضت فيها المذاهب، وتباينت بين مفرط ومفرط، فالطرف الأول قول من قال يكفي التقليد المحض في إثبات وجود الله تعالى ونفي الشريك عنه، ومنهم من بالغ فحرم النظر في الأدلة، واستند إلى ما ثبت عن الأئمة الكبار من ذم الكلام. والطرف الثاني قول من أوقف صحة إيمان كل أحد على معرفة الأدلة من علم الكلام، فكفروا عوام المسلمين، وزعموا أن من لم يعرف العقائد الشرعية بالأدلة التي حرروها فهو كافر، فضيقوا رحمة الله الواسعة، وجعلوا الجنة مختصة بشرذمة يسيرة من المتكلمين.

والمخالفون من أهل الكلام من المعتزلة والأشاعرة وجماعات أخرى جعلوا العلم الواجب هو النظَرْ أو القصد إلى النظر، ويعنون بذلك النظر في الكونيات، لأنهم جعلوا أصل الإسلام والإيمان إنما يصح إذا نظر في البرهان العقلي على وجود الله ﷻ.

وأما المذهب الحق فهو مذهب الاتباع ودين الفطرة المبني على اتباع الكتاب والسنة، فقد كانت طريقة الصحابة ﷺ في القرون الفاضلة قبل قيام الفرق والمذاهب ممثلة في تصديق الصحابة ﷺ لخبر ربهم وتنفيذهم لأمر نبيهم، وهذا المنهج يعتبر منهجا إيمانيا فطريا مبنيا على الفهم الدقيق لحقيقة الإسلام والإيمان، ولا يحتاج في اعتقاده، أو العمل به إلى نظر أو استدلال، بل يناسب العامة الخاصة على كل حال، كما سرى على الصحابة ﷺ جميعا على اختلاف أفهامهم، وتنوع قدراتهم، فهم

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن القيم ١/٢٥٥ بتصرف.

كانوا ﷺ يصدقون خبر الله ورسوله ﷺ تصديقا جازما ينفي الوهم والشك والظن، وكانوا ينفذون الأمر التكليفي تنفيذا كاملا يقوم على الطاعة والإخلاص والحب، بحيث تنسجم فطرتهم النقية مع توجيه النصوص القرآنية والنبوية .

وقد بين ابن القيم رحمه الله أن أساس التوحيد والهداية التي من الله ﷻ بها على عباده، يقوم على تصديق خبر الله ﷻ من غير اعتراض شبهة، وامتثال أمره من غير اعتراض شهوة، ثم قال: (وعلى هذين الأصلين مدار الإيمان، وهما تصديق الخبر، وطاعة الأمر) [1].

وليس لأحد أن ينصب للأمة شخصا يدعو إلى طريقته ويوالي ويعادي عليها إلا رسول الله ﷺ، وليس لأحد أن ينصب لهم كلاما يوالي عليه ويعادي غير كلام الله ورسوله وما اجتمعت عليه الأمة، بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصا أو كلاما يفرقون به بين الأمة، ويوالون به ويعادون[2]

قال ابن القيم: (لابد في هذا المقام من تفصيل، به يزول الإشكال، وهو الفرق بين مقلد تمكن من العلم ومعرفة الحق فأعرض عنه، ومقلد لم يتمكن من ذلك بوجه، والقسمان واقعان في الوجود، فالمتمكن المعرض مفرط تارك للواجب عليه، لا عذر له عند الله، وأما العاجز عن السؤال والعلم الذي لا يتمكن من العلم بوجه؛ فهم قسمان أيضا: أحدهما: مريد للهدى مؤثر له محب له، غير قادر عليه ولا على طلبه

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/٤٠ بتصرف.
(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٠/١٦٤ بتصرف.

لعدم من يرشده، فهذا حكمه حكم أرباب الفترات، ومن لم تبلغه الدعوة. والثاني: معرض لا إرادة له، ولا يحدث نفسه بغير ما هو عليه. فالأول يقول: يا رب لو أعلم لك دينا خيرا مما أنا عليه؛ لدنت به وتركت ما أنا عليه، ولكن لا أعرف سوى ما أنا عليه، ولا أقدر على غيره، فهو غاية جهدي ونهاية معرفتي. والثاني: راض بما هو عليه، لا يؤثر غيره عليه، ولا تطلب نفسه سواه، ولا فرق عنده بين حال عجزه وقدرته، وكلاهما عاجز، وهذا لا يجب أن يلحق بالأول لما بينهما من الفرق، فالأول كمن طلب الدين في الفترة ولم يظفر به، فعدل عنه بعد استفراغ الوسع في طلبه عجزا وجهلا، والثاني كمن لم يطلبه، بل مات في شركه، وإن كان لو طلبه لعجز عنه، ففرق بين عجز الطالب وعجز المعرض. فتأمل هذا الموضع، والله يقضي بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله.. وبهذا التفصيل يزول الإشكال في المسألة) [1].

- هل يعذر بالجهل من وقع في الكفر تقليدا واتباعا؟

العذر بالتقليد من جنس العذر بالتأويل والجهل، باعتبار المقلد جاهلا لا يفهم الدليل أو الحجة، فإذا عذر من وقع في الكفر متأولا رغم علمه واجتهاده، فعذر من يقلده من العوام الجهال من باب أولى.

قال ابن تيمية رحمه الله بعدما تكلم عن كفر وضلال أهل الحلول والاتحاد من غلاة الصوفية كابن سبعين وابن عربي وابن الفارض وأمثالهم: (فكل من كان أخبر بباطن هذا المذهب، ووافقهم عليه، كان أظهر كفرا وإلحادا، وأما الجهال الذين يحسنون الظن بقول هؤلاء ولا

(١) طريق الهجرتين لابن القيم ص ٦١٠ بتصرف.

يفهمونه، ويعتقدون أنه من جنس كلام المشايخ العارفين الذين يتكلمون بكلام صحيح لا يفهمه كثير من الناس، فهؤلاء تجد فيهم إسلاما وإيمانا ومتابعة للكتاب والسنة بحسب إيمانهم التقليدي، وتجد فيهم إقرارا لهؤلاء وإحسانا للظن بهم، وتسليما لهم بحسب جهلهم وضلالهم، أما من كان فيهم من عامتهم لا يعرف أسرارهم وحقائقهم، فهذا يكون معه إسلام عامة المسلمين الذي استفاده من سائر المسلمين لا منهم، ولا يتصور أن يثني على هؤلاء إلا كافر ملحد، أو جاهل ضال) [1].

والملاحظ من كلام ابن تيمية رحمه الله إعذاره للجهال الذين يحسنون الظن بكلام هؤلاء الغلاة ولا يفهمونه، كما أشار في موضع آخر إلى موقف الإمام أحمد رحمه الله من ولاة الأمر الذين قالوا بقول الجهمية، وامتحنوا من خالفهم وعاقبوه، ومع هذا فالإمام أحمد رحمه الله تعالى ترحم عليهم واستغفر لهم، لعلمه بأنهم لم يبين لهم أنهم مكذبون للرسول ﷺ، ولا جاحدون لما جاء به، ولكن تأولوا ببدعهم فأخطئوا، وقلدوا من قال لهم ذلك، فالإمام أحمد عذر هؤلاء لأنهم مقلدون لمن يظنونهم من أهل العلم، وكذا موقف شيخ الإسلام ابن تيمية في العذر بالجهل بسبب التأويل الباطل، ولذلك أطلق عليهم مصطلح المعطلة بسبب ردهم للنصوص تحت ستار التأويل بحسن النية [2].

قال ابن تيمية: (ومن تبين له في مسألة من المسائل الحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ ثم عدل عنها إلى عادته، فهو من أهل الذم والعقاب،

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢/٣٦٧ بتصرف.

(٢) انظر نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف ١/٢٨٢.

وأما من كان عاجزا عن معرفة حكم الله ورسوله ﷺ وقد اتبع فيها من هو من أهل العلم والدين ولم يتبين له أن قول غيره أرجح من قوله فهو محمود يثاب، لا يذم على ذلك ولا يعاقب)[١].

- قيام العذر وانتفاء المؤاخذة عن المستفتي عند فقد المفتي.

عند فقد المفتي يعذر المستفتي في التكليف بحكم من أحكام العبودية والمؤاخذة عليه، إذا لم يكن له به علم لا من جهة اجتهاد معتبر يصل به إلى العلم بأحكام العبودية، ولا من جهة تقليد غيره فيه، والدليل على ذلك أنه إذا كان المجتهد في العلم بالأحكام معذورا عند تعارض الأدلة عليه وعدم الاهتداء إلى اليقين فيه؛ فالمقلد عند فقد العلم أحق وأولى.

كما أن الأصل في الأعمال قبل ورود الشرائع سقوط التكليف، إذ لا حكم عليه قبل العلم بالحكم، فشرط التكليف عند الأصوليين العلم بالمكلف به، وهذا غير عالم بالفرض، فلو كان مكلفا بالعمل؛ لكان من تكليف ما لا يطاق، إذ هو مكلف بما لا يعلم ولا سبيل له إلى الوصول إليه، فلو كلف به لكلف بما لا يقدر على الامتثال فيه، وهو عين المحال إما عقلا وإما شرعا، وهذه المسألة من الأمور البينة، فإذا كان المقلد قد فقد المفتي فإنه يسقط عنه التكليف، فإن ذلك مساو لعدم الدليل[٢].

قال الإمام الشافعي: (لله أسماء وصفات لا يسع أحدا ردها، ومن

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٠/٢٢٥.

(٢) انظر الموافقات للإمام الشاطبي ٤/٢٩٠ :٢٩١، نشر دار المعرفة بيروت.

خالف بعد ثبوت الحجة عليه فقد كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا الرؤية والفكر)[1].

وروي أن امرأة في زمن محمد بن الحسن قيل لها: (إن الله يعذب اليهود والنصارى يوم القيامة، قالت: لا يفعل الله بهم ذلك فإنهم عباده، فسئل محمد بن الحسن عن ذلك فقال: ما كفرت فإنها جاهلة، فعلموها حتى علمت)[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فإن القول الصدق إذا قيل فإن صفته الثبوتية اللازمة أن يكون مطابقا للمخبر، أما كونه عند المستمع معلوما أو مظنونا، أو مجهولا، أو قطعيا، أو ظنيا، أو يجب قبوله أو يحرم أو يكفر جاحده، أو لا يكفر؛ فهذه أحكام عملية تختلف باختلاف الأشخاص والأحوال)[3].

- حكم من تلفظ من الصوفية بكلام ظاهره رد للشريعة.

وسئل شيخ الإسلام عن حكم من تلفظ بكلام ظاهره رد للشريعة، وخروج من حظيرة الإسلام، وهم جماعة عالجوا شيئا من الرياضات مرة، فرأوا أنهم قد تجوهروا فقالوا: لا نبالي الآن ما عملنا، وإنما

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في مناقب الشافعي، انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ١٣/٤٠٧، وإيضاح الدليل لابن جماعة ص٣٥، نشر دار السلام للطباعة والنشر، وسير أعلام النبلاء للذهبي ١٠/٧٩.
(٢) غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر لأبي العباس شهاب الدين أحمد بن محمد مكي الحسيني الحموي الحنفي ٣/٣٠٤، نشر دار الكتب العلمية بيروت.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٦/٦٠.

الأوامر والنواهي رسوم العوام، ولو تجوهروا لسقطت عنهم، وحاصل النبوة يرجع إلى الحكمة والمصلحة والمراد منها ضبط العوام، ولسنا نحن من العوام فندخل في حجر التكليف، لأنا قد تجوهرنا وعرفنا الحكمة، فهل هذا القول كفر من قائله؟ أم يبدع من غير تكفير، وهل يصدر ذلك عمن في قلبه خضوع للنبي ﷺ؟

أجاب رحمه الله بأنه لا ريب عند أهل العلم والإيمان أن هذا القول من أعظم الكفر وأغلظه، وهو شر من قول اليهود والنصارى فإن اليهودي والنصراني آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض، وأولئك هم الكافرون حقا، والمقصود أن المتمسكين بجملة منسوخه من الأحكام فيها تبديل وتحريف خير من هؤلاء الذين يزعمون سقوط الأمر والنهى عنهم بالكلية، فان هؤلاء خارجون في هذه الحال عن جميع الكتب والشرائع والملل لا يلتزمون لله أمرا ولا نهيا بحال، بل هؤلاء شر من المشركين المستمسكين ببقايا من الملل كمشركي العرب الذين كانوا مستمسكين ببقايا من دين إبراهيم عليه السلام فان أولئك معهم نوع من الحق يلتزمونه، وان كانوا مع ذلك مشركين، وهؤلاء خارجون عن التزام شيء من الحق بحيث يظنون أنهم قد صاروا سدى لا أمر عليهم ولا نهى، فمن كان من قوله هو أنه أو طائفة غيره قد خرجت عن كل أمر ونهى بحيث لا يجب عليها شيء، ولا يحرم عليها شيء فهؤلاء أكفر أهل الأرض، وهم من جنس فرعون وذويه[1].

وهم مع هذا لا بد أن يلتزموا بشيء يعيشون به، إذ لا يمكن النوع

---

(٤) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٤٠١/١١ وما بعدها بتصرف.

الإنساني أن يعيش إلا بنوع أمر ونهى، فيخرجون عن طاعة الرحمن وعبادته إلى طاعة الشيطان وعبادته، ففرعون هو الذي قال لموسى: وما رب العالمين؟ ثم كانت له آلهة يعبدها كما قال له قومه: ويذرك وآلهتك[1].

ولكن كثيرا من هؤلاء لا يطلقون السلب العام، ويخرجون عن ربقة العبودية مطلقا، بل يزعمون سقوط بعض الواجبات عنهم، أو حل بعض المحرمات لهم، فمنهم من يزعم أنه سقطت عنه الصلوات الخمس لوصوله إلى المقصود، وربما قد يزعم سقوطها عنه إذا كان في حال مشاهدة وحضور، وقد يزعمون سقوط الجماعات عنهم استغناء عنها بما هو فيه من التوجه والحضور، ومنهم من يزعم سقوط الحج عنه مع قدرته عليه لأن الكعبة تطوف به، أو لغير هذا من الحالات الشيطانية، ومنهم من يستحل الفطر في رمضان لغير عذر شرعي زعما منه استغناؤه عن الصيام، ومنهم من يستحل الخمر زعما منه أنها إنما تحرم على العامة الذين إذا شربوها تخاصموا وتضاربوا دون الخاصة العقلاء، ويزعمون أنها تحرم على العامة الذين ليس لهم أعمال صالحة، فأما أهل النفوس الزكية والأعمال الصالحة فتباح لهم دون العامة [2].

ومن جحد وجوب بعض الواجبات الظاهرة المتواترة كالصلوات الخمس، وصيام شهر رمضان، وحج البيت العتيق، أو جحد تحريم بعض المحرمات الظاهرة المتواترة كالفواحش والظلم والخمر والميسر

---

(١) السابق ١١/٤٠١ وما بعدها بتصرف.

(٢) السابق ١١/٤٠٣ بتصرف.

والزنا وغير ذلك، أو جحد حل بعض المباحات الظاهرة المتواترة كالخبز واللحم والنكاح فهو كافر مرتد، يستتاب فان تاب وإلا قتل، وإن أضمر ذلك كان زنديقا منافقا لا يستتاب عند أكثر العلماء، بل يقتل بلا استتابة إذا ظهر ذلك منه.

ومن هؤلاء من يستحل بعض الفواحش كاستحلال مؤاخاة النساء الأجانب والخلو بهن زعما منه أنه يحصل لهن البركة بما يفعله معهن وإن كان محرما في الشريعة، وكذلك من يستحل ذلك من المردان ويزعم أن التمتع بالنظر إليهم ومباشرتهم هو طريق لبعض السالكين حتى يترقى من محبة المخلوق إلى محبة الخالق، ويأمرون بمقدمات الفاحشة الكبرى، وقد يستحلون الفاحشة الكبرى كما يستحلها من يقول: إن التلوط مباح بملك اليمين، فهؤلاء كلهم كفار باتفاق المسلمين، وهم بمنزلة من يستحل قتل المسلمين بغير حق، ويسبى حريمهم، ويغنم أموالهم وغير ذلك من المحرمات التي يعلم أنها من المحرمات تحريما ظاهرا متواترا [1].

لكن من الناس من يكون جاهلا ببعض هذه الأحكام جهلا يعذر به، فلا يحكم بكفر أحد حتى تقوم عليه الحجة من جهة بلاغ الرسالة كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ النساء:١٦٥. وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ الإسراء:١٥.

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١١/٤٠٥ بتصرف.

ولهذا لو أسلم رجل ولم يعلم أن الصلاة واجبة عليه؛ أو لم يعلم أن الخمر يحرم، لم يكفر بعدم اعتقاد إيجاب هذا وتحريم هذا؛ بل ولم يعاقب حتى تبلغه الحجة النبوية، بل قد اختلف العلماء فيمن أسلم بدار الحرب ولم يعلم أن الصلاة واجبة ثم علم، هل يجب عليه قضاء ما تركه في حال الجهل؟ على قولين في مذهب الإمام أحمد وغيره، بل النزاع بين العلماء في كل من ترك واجبا قبل بلوغ الحجة، مثل ترك الصلاة عند عدم الماء يحسب أن الصلاة لا تصح بتيمم، أو من أكل حتى تبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود، ويحسب أن ذلك هو المراد بالآية، كما جرى ذلك لبعض الصحابة رضي الله عنهم، أو مس ذكره، أو أكل لحم الإبل ولم يتوضأ، ثم تبين له وجوب ذلك، وأمثال هذه المسائل هل يجب عليه القضاء؟ على قولين في مذهب أحمد (١).

وهذا كثيرا ما يقع فيه النزاع فيما قد يصدر عن بعض المشايخ والفقراء والصوفية من أمور يقال إنها تخالف الشريعة، فمن يرى أنها منكرة، وأن إنكار المنكر من الدين؛ ينكر تلك الأمور، وينكر على ذلك الرجل، وعلى من أحسن به الظن، ويبغضه ويذمه ويعاقبه، ومن رأى ما في ذلك الرجل من صلاح وعبادة كزهد وأحوال وورع وعلم؛ لا ينكرها، بل يراها سائغة أو حسنة أو يعرض عن ذلك، وقد يغلو كل واحد من هذين حتى يخرج بالأول إنكاره إلى التكفير والتفسيق في مواطن الاجتهاد متبعا لظاهر من أدلة الشريعة، ويخرج بالثاني إقراره إلى الإقرار بما يخالف دين الإسلام مما يعلم بالاضطرار أن الرسول ﷺ جاء

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١١/٤٠٦ بتصرف.

بخلافه اتباعا في زعمه لما يشبه قصة موسى والخضر[١].

وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة التي يندرس فيها كثير من علوم النبوات حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله به رسوله ﷺ من الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيرا مما يبعث الله به رسوله، ولا يكون هناك من يبلغه ذلك، ومثل هذا لا يكفر، ولهذا اتفق الأئمة على أن من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان، وكان حديث العهد بالإسلام فأنكر شيئا من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة، فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول [٢].

- بدعة التقسيم إلى أصول لا يعذر بالجهل فيها وفروع يعذر فيها.

تقسيم الدين إلى أصول لا يعذر بالجهل فيها وفروع يعذر بالجهل فيها تقسيم مبتدع لا دليل عليه، ولا يعرف عن السلف، ولم يذكر أحد ممن قال بذلك حدا منضبطا يمكن به التفريق بين الأصول والفروع، كما أن العذر بالخطأ من جنس العذر بالجهل، لذلك بين أئمة السلف أنه لا يأثم المجتهد المخطيء لا في الأصول ولا في الفروع.

ومن ثم فإن ما يتردد بين شباب الصحوة الراغبين في التمسك بالسنة مما يقال بأن هذه من مسائل العقيدة التي لا يعذر من يجهلها، أو من مسائل الأصول، أو هذه مسألة قطعية لا عذر فيها ونحو ذلك، فإن تعبير غير دقيق وغير منضبط، فمن قال: هذه من مسائل الأصول التي لا يعذر جاهلها، يقال له: ماذا تقصد بمسائل الأصول؟ فإن قال: مسائل الأصول

(١) السابق ١٠/٣٧٨ بتصرف.
(٢) السابق ١١/٤٠٧ بتصرف.

هي مسائل العقيدة، ومسائل الفروع هي مسائل العمل، يقال له: هناك من مسائل العمل كوجوب الصلاة والزكاة وتحريم الفواحش وغيرها ما هو أعظم من كثير من مسائل الاعتقاد وأقوى وأوضح دليلا ولا يعذر من يجهلها وهو يعيش في دار الإسلام ويرى أفعال المسلمين وأقوالهم عند كل أذان، وهناك من مسائل الاعتقاد ما اختلف السلف فيها ولم يورث اختلافهم تضليلا ولا تبديعا ولا تفسيقا، كمسألة هل رأى محمد ﷺ ربه ليلة الإسراء؟ والعذاب في القبر على الروح أو على الروح والبدن؟ وهل إبليس من الجن أو الملائكة؟ وإن قال: الأصول هي المسائل القطعية أو ما هو معلوم من الدين بالضرورة والفروع ليست قطعية، فيقال له: كون المسألة قطعية أو ظنية أمر نسبي إضافي [1].

وقد ذكر ابن تيمية أن الفرق بين مسائل الأصول والفروع إنما هو من أقوال أهل البدع من أهل الكلام من المعتزلة والجهمية ومن سلك سبيلهم، وانتقل هذا القول إلى أقوام تكلموا بذلك في أصول الفقه، ولم يعرفوا حقيقة هذا القول ولا غوره، كما أن الفرق في ذلك بين مسائل الأصول والفروع بدعة محدثة في الإسلام، لم يدل عليها كتاب ولا سنة ولا إجماع، بل ولا قالها أحد من السلف والأئمة، فهي باطلة عقلا، فإن المفرقين بين ما جعلوه مسائل أصول ومسائل فروع لم يفرقوا بينهما بفرق صحيح يميز بين النوعين، بل ذكروا ثلاثة فروق أو أربعة كلها باطلة [2].

---

(١) نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير ١/١٧٧، ١/٢٤١ بتصرف.

(٢) منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٥/٨٧ بتصرف.

قال ابن تيمية: (وتقسيم المسائل إلى مسائل أصول بكفر بإنكارها، ومسائل فروع لا يكفر بإنكارها، ليس له أصل لا عن الصحابة، ولا عن التابعين، ولا عن أئمة الإسلام، وإنما هو مأخوذ عن المعتزلة ونحوهم من أئمة البدعة، وهم متناقضون، فإذا قيل لهم: ما حد أصول الدين؟ فإن قيل: مسائل الاعتقاد، يقال لهم: قد تنازع الناس في أن محمدا هل رأى ربه؟ وفي أن عثمان أفضل أم علي؟ وفي كثير من معاني القرآن وتصحيح بعض الأحاديث وهي اعتقادات، ولا كفر فيها باتفاق المسلمين، ووجوب الصلاة والزكاة والحج وتحريم الفواحش والخمر هي مسائل عملية والمنكر لها يكفر اتفاقا، وإن قيل: الأصول هي القطعية، فيقال كثير من مسائل النظر ليست قطعية، وكون المسألة قطعية أو ظنية هي أمور تختلف باختلاف الناس، فطائفة تحكي عن أحمد في تكفير أهل البدع مطلقا روايتين، وليس هذا مذهبا لأحمد ولا لغيره من الأئمة، وكذلك تكفير الشافعي لحفص الفرد حين قال: القرآن مخلوق، فقال له الشافعي: كفرت أي قولك كفر، ولهذا لم يسع في قتله، ولو كان عنده كافر لسعي في قتله، وأما قتل الداعية إلى البدع، فقد يكون لكف ضررة عن الناس كقطاع الطريق، وقتل غيلان القدري قد يكون من هذا الباب) [1].



(١) مختصر الفتاوي المصرية لابن تيمية ١/٦٨.

المطلب الثامن عشر

كفر الجهل والتكذيب بين الإعراض عن معرفة الرسالة وتعطيل نصوصها



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا فيما سبق عن الأصول والقواعد التي تضبط القول في مسألة العذر بالجهل، وعلمنا مفهوم الجهل في المعاني اللغوية والاصطلاحات الشرعية، وذم الشرع للراغبين عن العلم الراغبين في البقاء على الجهل، وبينا دلالة النصوص على أن قلة العلم في الأمة وظهور الجهل من علامات الساعة الصغرى.

وبينا أن الجاهل معذور بجهله إذا لم يكن الجهل من كسبه وسعيه، وتحدثنا عما جاء في خبر زيد بن عمرو بن نفيل، ومصير والدي النبي ﷺ، وبينا أنه قد يجتمع في المسلم علم وجهل كما يجتمع فيه طاعة ومعصية، وعلمنا الأدلة النقلية على أن العذر بالجهل قد يكون في الأمور الاعتقادية، وتحدثنا عن حكم التقليد عند ظهور الدليل على خلافه، وحكم أهل البدع المنتمين للفرق، وأنواع الشبهات التي يتعلق بها المبتدعون في رد النصوص، وهل يعذر بالجهل من وقع في الكفر تقليدا واتباعا؟

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن كفر الجهل والتكذيب وانتفاء الأصل الأول من أصول الإيمان.

- قيام الحجة على الناس أجمعين ببعثة سيد الأنبياء والمرسلين.

قامت الحجة ببعثة النبي ﷺ على العالمين، فقد بُعث للناس أجمعين، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾ النساء:٧٩/٨٠.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ سبأ:٢٨. وروى مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (والذي نفسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِن هَذِهِ الأُمَّةِ، يَهُودِيٌ وَلاَ نصرَاني، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِن بالذي أُرْسِلتُ بِهِ، إلاَّ كَانَ مِن أَصْحَابِ النارِ) [1].

ومعنى سماع الناس بالنبي ﷺ أي سماعهم بوجود رسول يسمى محمد ﷺ بعثه الله لعباده بمنهج تكليفي تضمنته تلك الرسالة التي جاء بها، وظاهر الحديث أنه لا يلزم المعرفة التفصيلية بكل ما جاء به في تلك الرسالة، بل قامت الحجة عليهم بتحققهم من وجوده وسماعهم عنه.

والناس بعد معرفتهم بوجود النبي ﷺ ينقسمون إلى نوعين: إما مؤمن به وبرسالته، وإما كافر به وبرسالته، فكان الإنسان الذي يسمع به في عصره يسعى إلى لقائه، ويتثبت من دعوته، والتعرف على رسالته

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته ١/١٣٤ (١٥٣).

فيسعى إلى ذلك بكل سبيل، فإن بان له الأمر إجمالا آمن به واتبعه، فصدق خبره، ونفذ أمره على مدار حياته وصحبته لرسول الله ﷺ، ولم يثبت أن أحدا منهم بعد إيمانه أعرض عنه، أو عارضه فكذب خبره أو عصى أمره.

وقد كان هذا هو الواقع الملموس من جميع الصحابة ﭫ الذين دخلوا في الإسلام، كانوا الواحد منهم يسمع عن رسول بعث في مكة اسمه محمد ﷺ، فالمؤمن به يسعى إليه، ويتطلع لمعرفة ما جاء به، ويشتاق إلى لقائه، ويسأل عنه حملة الأخبار، ويشد إليه الرحال حتى يلقاه ويسمعه فيدخل في الإسلام، وكان بعضهم يطلب التثبت من كونه رسولا، ثم إذا أيقن وتحقق اتبعه بغير شك أو تردد.

روى البخاري من حديث أبي جمرة ﭬ أنه قال: (قَال لنا ابْنِ عَبَّاسٍ: أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِإِسْلاَمِ أَبِي ذرٍّ؟ قَال: قُلنا بَلى، قَال: قَال أَبُو ذر كُنتُ رَجُلاً مِن غِفَارٍ، فَبَلغَنا أَن رَجُلاً قَدْ خَرَجَ بِمَكَّةَ، يَزْعُمُ أَنهُ نبيٌّ، فَقُلتُ لأَخِي انطَلقْ إِلى هَذا الرَّجُل كَلِّمْهُ وأْتِني بِخَبَرِهِ، فَانطَلقَ فَلقِيَهُ ثمَّ رَجَعَ، فَقُلتُ: مَا عِندَكَ؟ فقَال: وَاللهِ لقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً يَأْمُرُ بِالخَيْرِ وَيَنهَى عَن الشَّرِّ، فَقُلتُ لهُ: لمْ تَشْفِنِي مِن الخَبَرِ، فَأَخَذتُ جِرَابًا وَعَصًا، ثمَّ أَقْبَلتُ إِلى مَكَّةَ فَجَعَلتُ لاَ أَعْرِفُهُ، وَأَكْرَهُ أَن أَسْأَل عَنهُ، وَأَشْرَبُ مِن مَاءِ زَمْزَمَ، وَأَكُون في المَسْجِدِ، قَال: فَمَرَّ بِي عَليٌّ، فقَال: كَأَن الرَّجُل غَرِيبٌ؟ قَال: قُلتُ نعَمْ، قَال فَانطَلقْ إِلى المَنزِل، قَال: فَانطَلقْتُ مَعَهُ، لاَ يَسْأَلنِي عَن شَيءٍ، وَلاَ أُخْبِرُهُ، فَلمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ إِلى المَسْجِدِ لأَسْأَل عَنهُ، وَليْسَ أَحَدٌ يُخْبِرُنِي عَنهُ بِشَيءٍ، قَال فَمَرَّ بِي عَلَيٌّ فقَال: أَمَا نال

للرَّجُل يَعْرِفُ مَنزلهُ بَعْدُ، قَال: قُلتُ لاَ، قَال: انطَلقْ مَعِي، قَال: فَقَال مَا أَمْرُك؟ وَمَا أَقْدَمَك هَذهِ البَلدَةَ: قَال: قُلتُ لهُ إن كَتَمْتَ عَليَّ أَخبَرْتُك، قَال: فَإني أَفْعَل، قَال: قُلتُ لهُ: بَلغَنا أَنهُ قَدْ خَرَجَ هَا هُنا رَجُل يزْعُمُ أَنهُ نبِيٌّ، فَأَرْسَلتُ أَخِي ليُكَلمَهُ، فَرَجَعَ وَلَمْ يَشْفِنِي مِن الخَبَر، فَأَرَدْتُ أَن أَلقَاهُ، فَقَال لهُ: أَمَا إنكَ قَدْ رَشَدْتَ، هَذا وَجْهِي إليْهِ، فَاتَّبِعْني، ادْخُل حَيْث أَدْخُل، فَإني إن رَأَيْتُ أَحَدًا أَخَافُهُ عَليْكَ، قُمْتُ إلى الحَائِطِ، كَأَني أُصْلحُ نعْلي، وَامْضِ أَنتَ، فَمَضَى وَمَضَيْتُ مَعَهُ، حَتَّى دَخَل وَدَخَلتُ مَعَهُ عَلى النبِي ﷺ فَقُلتُ لهُ: اعْرِضْ عَليَّ الإسْلاَمَ، فَعَرَضَهُ فَأَسْلمْتُ مَكَاني، فَقَال لي: يَا أَبَا ذرٍّ، اكْتُمْ هَذا الأَمْرَ، وَارْجِعْ إلى بَلدِكَ، فَإذا بَلغَكَ ظُهُورُنا فَأَقْبِل، فَقُلتُ: وَالذي بَعَثكَ بِالحَقِّ لأَصْرُخَن بِهَا بَيْن أَظْهُرِهِمْ، فَجَاءَ إلى المَسْجِدِ وَقُرَيْشٌ فِيهِ، فَقَال: يَا مَعْشَرَ قُرَيْش، إني أَشْهَدُ أَن لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ، وَأَشْهَدُ أَن مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولهُ، فَقَالوا: قُومُوا إلى هَذا الصَّابِئِ، فَقَامُوا فَضُرِبْتُ لأَمُوتَ، فَأَدْرَكَني العَبَّاسُ، فَأَكَبَّ عَليَّ، ثمَّ أَقْبَل عَليْهِمْ، فَقَال: وَيْلكُمْ تَقْتُلون رَجُلاً مِن غِفَارَ، وَمَتْجَرُكُمْ وَمَمَرُّكُمْ عَلى غِفَارَ، فَأَقْلعُوا عَنى، فلمَّا أَن أَصْبَحْتُ الغَدَ رَجَعْتُ فَقُلتُ مِثل مَا قُلتُ بِالأَمْسِ، فَقَالوا: قُومُوا إلى هَذا الصَّابِئِ، فَصُنِعَ بِى مِثل مَا صُنِعَ بِالأَمْسِ وَأَدْرَكَني العَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَليَّ، وَقَال مِثل مَقَالتِهِ بِالأَمْسِ، قَال: فَكَان هَذا أَوَّل إسْلاَمِ أَبِى ذرٍّ رَحِمَهُ اللهُ) (١) .

والشاهد من قصة أبي ذر رضي الله عنه أنه لما بلغه الخبر وسمع عن وجود

---

(١) رواه البخاري في كتاب المناقب، باب قصة إسلام أبي ذر ١٢٩٤/٣ (٣٣٢٨)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبى ذر ١٩١٩/٤ (٢٤٧٣).

رسول من عند الله، أرسل من يسأل عنه ويتحقق من خبره، ولما لم يستوف العلم بحقيقته وحقيقة ما يدعو إليه، خرج بنفسه يسأل عنه ويتشوف إلى معرفته، ثم لما قابله طلب منه أن يتعرف على رسالته وأن يعرض عليه ما جاء به، مما أمر به الله أو أخبر عنه.

وكان هذا حال من سمع برسول الله ﷺ ممن آمن سواء كان السامع به من أهل الكتاب أو من غيرهم، فالأمر يقتضي ممن سمع به أن يسأل عن الحق الذي أرسل به من عند الله، ولا يعرض عنه إيثارا للجهل به على العلم برسالته.

روى البخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: (بَلغَ عَبْدَ اللهِ بْن سَلامٍ مَقْدَمُ رَسُولِ اللهِ ﷺ المَدِينةَ، فَأَتَاهُ فَقَال: إني سَائِلكَ عن ثلاث لا يَعْلمُهُن إلا نبيٌّ. قَال: مَا أَوَّل أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّل طَعَامٍ يَأْكُلهُ أَهْل الجَنةِ؟ وَمِن أَيِّ شَيْءٍ يَنزِعُ الوَلَدُ إِلى أَبِيهِ، وَمِن أَيِّ شَيْءٍ يَنزِعُ إِلى أَخْوَالهِ؟ فَقَال رَسُول اللهِ ﷺ: خَبَّرَنِي بِهِن آنفًا جِبْرِيل، قَال: فَقَال عَبْدُ اللهِ: ذاكَ عَدُوُّ اليَهُودِ مِن المَلائِكَةِ، فَقَال رَسُول اللهِ ﷺ: أَمَّا أَوَّل أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، فَنارٌ تَحْشُرُ الناسَ مِن المَشْرق إِلى المَغْربِ، وَأَمَّا أَوَّل طَعَامٍ يَأْكُلهُ أَهْل الجَنةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ، وَأَمَّا الشَّبَهُ فِي الوَلدِ، فَإِن الرَّجُل إذا غَشِيَ المَرْأَةَ فَسَبَقَهَا مَاؤُهُ، كَان الشَّبَهُ لهُ، وَإِذا سَبَقَ مَاؤُهَا كَان الشَّبَهُ لهَا، قَال: أَشْهَدُ أَنكَ رَسُول اللهِ، ثمَّ قَال: يَا رَسُول اللهِ، إن اليَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ، إن عَلمُوا بِإِسْلامِي قَبْل أَن تَسْأَلهُمْ بَهَتُونِي عِندَكَ، فَجَاءَتْ اليَهُودُ، وَدَخَل عَبْدُ اللهِ البَيْتَ، فَقَال رَسُول اللهِ ﷺ: أَيُّ رَجُل فِيكُمْ عَبْدُ اللهِ بْن سَلامٍ، قَالوا: أَعْلمُنا، وَابْن أَعْلمِنا، وَابْن أَخْيَرِنا، فَقَال

رَسُول اللهِ ﷺ: أَفَرَأَيْتُمْ إن أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ؟ قَالوا: أَعَاذهُ اللهُ مِن ذلك، قَال: فَخَرَجَ ابْنُ سَلامٍ فقَال: أَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول اللهِ، قَالوا: شَرُّنَا، وَابْنُ شَرِّنَا، وَجَاهِلنَا، وَابْنُ جَاهِلنَا، فَقَال ابْنُ سَلامٍ: هَذَا الذِي كُنْتُ أَتَخَوَّفُ مِنْهُ) (١) .

• الكفر الناشئ عن الجهل والإعراض عن الرسالة.

وأما من سمع عن النبي ﷺ وأعرض عنه، ولم يؤمن بالذي أرسل به، فله حالتان:

الأولى: أن يعرض عنه وعن الإيمان به، وعن طلب العلم برسالته تجاهلا وانشغالا بدنياه، واستحسانا لما هو عليه من أمور الحياة، فلا يعنيه وجود الرسول ﷺ أو عدم وجوده، لا يصدقه ولا يكذبه، أو يعرض عنه متجاهلا له ولرسالته إيثارا لما ألفه من دين اليهود والنصارى والمجوس والبوذيين وغيرهم من أديان المشركين، وهذا حال أغلب الخلق من الغرب إلى الشرق، ومن شمال الأرض إلى جنوبها، فهؤلاء كفرهم كفر جهل وإعراض عن العلم برسالة الإسلام، وعدم الرغبة في معرفة الحق، وهو كفر أكبر ويصدق عليهم ما ورد في قوله تعالى عن قوم شعيب: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ هود:٨٧.

وقوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ٣/١٢١١ (٣١٥١).

وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ هود: ٩١.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ الكهف: ٥٦ - ٥٧.

وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾ فصلت: ٥/١.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾ النجم: ٢٨/ ٣٠.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ طه: ٩٩/ ١٠١.

وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ طه: ١٢٣/ ١٢٧.

وكفر الإعراض عن العلم بالحق وتجاهله، أو كفر الإعراض عن

معرفة الرسول ﷺ والرسالة هو الذي ذكره ابن القيم في قوله: (وأما كفر الإعراض، فأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول، لا يصدقه ولا يكذبه، ولا يواليه ولا يعاديه، ولا يصغي إلى ما جاء به ألبتة، كما قال أحد بني عبد ياليل للنبي ﷺ: والله أقول لك كلمة إن كنت صادقا فأنت أجل في عيني من أن أرد عليك، وإن كنت كاذبا فأنت أحقر من أن أكلمك) [١].

وكما أن الإعراض عن العلم بمجمل الرسالة يكون كفرا أكبر مخرجا من الملة، كذلك الإعراض عن العلم ببعضها قد يكون كفرا دون كفر، أو كفرا أكبر بحسب حال المعرض وحكم ما أعرض عنه، كما يقع لكثير من المسلمين في إعراضهم عن العلم بأحكام الدين، وعدم الرغبة في تعلمها، وإيثارا منهم للبقاء على ما هم عليه من الجهل، أو استحسانا للمألوف عن الآباء والأجداد في العادة، أو تفضيلا لطريقة الغرب في نظامهم وسلوكهم ومنهج حياتهم.

قال ابن تيمية: (إن الكتاب والسنة قد دل على أن الله ﷻ لا يعذب أحدا إلا بعد إبلاغ الرسالة، فمن لم تبلغه جملة لم يعذبه رأسا، ومن بلغته جملة دون بعض التفصيل، لم يعذبه إلا على إنكار ما قامت عليه الحجة الرسالية، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ النساء:١٦٥. وقوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/٣٣٨.

الأنعام: ١٣٠. وقوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ فاطر:٣٧. وقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ الزمر: ٧١. وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ الإسراء: ١. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ القصص: ٥٩. وقوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ الملك: ٨/٩.

ونحو هذا في القرآن في مواضع متعددة، فمن كان قدم آمن بالله ورسوله، ولم يعلم بعض ما جاء به الرسول، فلم يؤمن به تفصيلا، إما أنه لم يسمعه، أو سمعه من طريق لا يجب التصديق بها، أو اعتقد معنى آخر لنوع من التأويل الذي يعذر به، فهذا قد جعل فيه من الإيمان بالله وبرسوله ما يوجب أن يثيبه الله عليه، وما لم يؤمن به فلم تقم عليه به الحجة التي يكفر مخالفها، وأيضا فقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن من الخطأ في الدين ما لا يكفر مخالفه، بل ولا يفسق، بل ولا يأثم، مثل الخطأ في الفروع العملية.. وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن من بلغته رسالة النبي، فلم يؤمن به فهو كافر لا يقبل منه الاعتذار بالاجتهاد لظهور أدلة الرسالة وأعلام النبوة) [1].

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٤٩٣/١٢.

- **الكفر الناشئ عن التكذيب والإعراض عن الرسالة.**

وأما الحالة الثانية لمن سمع عن النبي ﷺ وأعرض عنه، ولم يؤمن بالذي أرسل به، أن يعرض عنه تكذيبا له وتكذيبا برسالته، وهذا النوع يشترك مع كفر الجهل في النتيجة، ولذلك يذكران سويا كنوع واحد فيقال كفر الجهل والتكذيب، أما باعتبار السبب في الكفر فكفر الجهل هو أن يسمع بالرسول ورسالته ويعرض عنها، لا يصدقها ولا يكذبها، مستغنيا بما هو عليه مما يدين به، شأن كثير من الغربيين والشرقيين الذين يسمعون عن الإسلام ونبي الإسلام وكأنهم ما سمعوا وما علموا فلا يحرك السماع فيهم ساكنا أو يوقف متحركا.

أما كفر التكذيب فهو أن يسمع بالرسول ﷺ ورسالته ويعرض عنها تكذيبا لها، أو شكا فيها وفي صدق نبيها، دون العلم بما فيها جملة وتفصيلا، كحال من يحاربون الإسلام في الغرب والشرق ويستهزئون بالنبي ﷺ وأصحابه ﷺ وسائر أتباعه، بل هم منقادون دون سؤال أو تحقيق أو استفسار لتأييد الصورة المشوهة التي صوروا بها نبي الإسلام وتعمدوا نشرها في مجتمعاتهم مستهزئين به وبرسالته ليصدوا عن سبيل الله، فهؤلاء كفار لا يعذرون بجهلهم، وكفرهم كفر جهل وتكذيب، فالجهل هنا من كسبهم وسعيهم ورغبتهم في بقائهم على ملة الكفر والضلال، ويصدق عليهم قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ النمل:٨٤ .

وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ يونس:٣٩ .

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۝٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾ الملك:٨/١١ .

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٧٠﴾ غافر:٧٠ .

وقد كان كفر أغلب الأمم السابقة التي حاربت دين الإسلام والتوحيد والفطرة كان كفرهم كفر جهل وتكذيب، وكما كان يفعل كفار قريش في التكذيب بالنبي ﷺ وعدم الرغبة في سماعه، وتنفير الناس من محاولة اتباعه، وكذلك كان شأن أغلب الناس من الأمم السابقة في تكذيبهم لرسلهم، وعدم الاستماع لدعوتهم وإيثارهم البقاء على جهلهم وشركهم كما قال الله في شأنهم: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝١٣ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ۝١٤ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ۝١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ۝١٦ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٧ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ۝١٩﴾ يس:١٣/١٩.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٣٩﴾ الأنعام:٣٩ .

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡهُمۡ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَهُمۡ

ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ النحل:١١٣.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ ﴾ الحج:٧٢.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ الأنعام:٤٨/٤٩ .

- **حكم من لم تبلغه الدعوة ولم يسمع بنبي الإسلام أو رسالته.**

ومن لم تبلغه دعوة الإسلام إن وجد، كمن يعيشون في أماكن منعزلة عن الاتصال بوسائل الإعلام، أو من يعيشون في بعض قرى الأدغال أو القارة القطبية، أو سكان الكهوف والجزر النائية الذين لا يفقهون ما يقال لهم من غيرهم، وكذلك من نشأ في مجتمع كافر، ولم تبلغه الدعوة الإسلامية، ولم يسمع أصلا عن شيء اسمه الإسلام، فهؤلاء معذورون بجهلهم.

ويدخل في حكمهم أيضا ممن يعذرون بجهلهم الذين بلغتهم دعوة الإسلام مشوهة، فتعلموا من ذويهم منذ الصبا أن محمدا ﷺ رجلا مدعيا للنبوة، وأنه ليس بنبي ﷺ، ونشئوهم على ذلك، ثم بحثوا عن حقيقة الأمر في شأن الرسول ﷺ وصدقه، وسألوا عن الرسالة ما استطاعوا من جهدهم ووسعهم فلم يصلوا إلى شيء لانقطاع الأسباب عنهم، فهؤلاء معذورون بجهلهم باتفاق.

قال ابن تيمية: (لا يعذب الله أحدا حتى يبعث إليه رسولا، وكما أنه لا يعذبه، فلا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة مؤمنة، ولا يدخلها مشرك ولا مستكبر عن عبادة ربه، فمن لم تبلغه الدعوة في الدنيا امتحن في الآخرة، ولا يدخل النار إلا من اتبع الشيطان، فمن لا ذنب له لا يدخل النار، ولا يعذب الله بالنار أحدا إلا بعد أن يبعث إليه رسولا، فمن لم تبلغه دعوة رسول إليه كالصغير والمجنون والميت في الفترة المحضة، فهذا يمتحن في الآخرة كما جاءت بذلك الآثار) [(١)].

روى أحمد وصححه الألباني من حديث الأسود بن سريع أن نبي الله ﷺ قال: (أربعة يوم القيامة، رجل أصم لا يسمع شيئا، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات في فترة، فأما الأصم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئا، وأما الأحمق فيقول: رب لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر، وأما الهرم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئا، وأما الذي مات في الفترة، فيقول: رب ما أتاني لك رسول فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، قال: فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما) [(٢)]. وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه بمثل هذا الحديث غير أنه قال في آخره: (فمن دخلها كانت عليه بردا وسلاما، ومن لم يدخلها يسحب إليها) [(٣)].

وفي رواية صحيحة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٤٧٧/١٤.
(٢) رواه أحمد ٢٤/٤ (١٦٣٤٤)، وانظر السلسلة الصحيحة للألباني (١٤٣٤).
(٣) مسند أحمد بن حنبل ٢٤/٤ (١٦٣٤٥)، وقال شعيب: إسناده حسن.

(أربعة كلهم يدلي على الله يوم القيامة بحجة وعذر، رجل مات في الفترة، ورجل أدركه الإسلام هرما، ورجل أصم أبكم، ورجل معتوه فيبعث الله إليهم ملكا رسولا فيقول: اتبعوه، فيأتيهم الرسول فيؤجج لهم نارا ثم يقول: اقتحموها، فمن اقتحمها كانت عليه بردا وسلاما، ومن لا، حقت عليه كلمة العذاب) [(١)] .

وروى ابن جرير بسنده من حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: إذا كان يوم القيامة، جمع الله أهل الفترة والمعتوه والأصم والأبكم والشيوخ الذين لم يدركوا الإسلام ثم أرسل إليهم رسولا: أن ادخلوا النار فيقولون: كيف ولم يأتنا رسل؟ قال: وأيم الله لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما، ثم يرسل إليهم رسولا فيطيعه من كان يريد أن يطيعه. ثم قال أبو هريرة ﷺ: اقرءوا إن شئتم: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ الإسراء:١٥ [(٢)] .

قال ابن تيمية: (فبين أبو هريرة أن الله ﷻ لا يعذب أحدا حتى يبعث إليه رسولا، وأنه في الآخرة يمتحن من لم تبلغه الرسالة في الدنيا، وقد جاءت بذلك عدة آثار مرفوعة إلى النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين بأنه في الآخرة يمتحن أطفال المشركين وغيرهم ممن لم تبلغه الرسالة في الدنيا، وهذا تفسير قوله: الله أعلم بما كانوا عاملين. وهذا التفصيل يذهب الخصومات التي كره الخوض فيه لأجلها من كرهه، فإن من

---

(١) أخره ابن أبي عاصم في كتاب السنة ١/١٧٦ (٤٠٤) ، وصححه الألباني في ظلال الجنة ١/ ١٨٩ (٤٠٤)، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٥/٢٥٢.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره ١٥/٥٤.

قطع لهم بالنار كلهم جاءت نصوص تدفع قوله، ومن قطع لهم بالجنة كلهم جاءت نصوص تدفع قوله. ثم إذا قيل: هم مع آبائهم لزم تعذيب من لم يذنب، وانفتح باب الخوض في الأمر والنهي والوعد والوعيد والقدر والشرع والمحبة والحكمة والرحمة) [(١)].

وقد ذكر أيضا أن آثار الرسالة قد تخفى في بعض الأمكنة والأزمنة حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول ﷺ، إما أنهم لا يعرفون اللفظ، وإما يعرفون اللفظ ولا يعرفون معناه، فحينئذ يصيرون في جاهلية بسبب عدم نور النبوة، ومن ههنا يقع الشرك وتفريق الدين شيعا، كالفتن القولية والعملية التي هي من الجاهلية بسبب خفاء نور النبوة عنهم، كما قال مالك بن أنس: إذا قل العلم ظهر الجفاء، وإذا قلت الآثار ظهرت الأهواء؛ ولهذا شبهت الفتن بقطع الليل المظلم؛ فالهدي الحاصل لأهل الأرض إنما هو من نور النبوة، كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ طه:١٢٣. فأهل الهدي والفلاح هم المتبعون للأنبياء، وهم المسلمون المؤمنون في كل زمان ومكان، وأهل العذاب والضلال هم المكذبون للأنبياء[(٢)].

يبقى أهل الجاهلية الذين لم يصل إليهم ما جاءت به الأنبياء، فهؤلاء في ضلال وجهل وشرك وشر، لكن الله يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ الإسراء:١٥. وقال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ

(١) درء تعارض العقل والنقل ٨/٤٠١، وانظر الصفدية ٢/٢٤٤.
(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٧/٣٠٨، بتصرف.

عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾ النساء:١٦٥. وقال: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩ ﴾ القصص:٥٩. فهؤلاء لا يهلكهم الله ويعذبهم حتى يرسل إليهم رسولا، وقد رويت آثار متعددة في أن من لم تبلغه الرسالة في الدنيا، فإنه يبعث إليه رسول يوم القيامة في عرصات القيامة [١].

وقد زعم بعضهم أن هذا يخالف دين المسلمين فإن الآخرة لا تكليف فيها، وليس كما قال، إنما ينقطع التكليف إذا دخلوا دار الجزاء الجنة أو النار، وإلا فهم في قبورهم ممتحنون ومفتونون يقال لأحدهم: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ وكذلك في عرصات القيامة يقال: ليتبع كل قوم ما كانوا يعبدون، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ومن كان يعبد القمر القمر، ومن كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله في صورة غير الصورة التي رأوه فيها أول مرة، ويقول: أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا[٢]. وفي رواية فيسألهم ويثبتهم.

وذلك امتحان لهم هل يتبعون غير الرب الذي عرفوا أنه الله الذي تجلى لهم أول مرة، فيثبتهم الله تعالى عند هذه المحنة كما يثبتهم في فتنة القبر، فإذا لم يتبعوه لكونه أتى في غير الصورة التي يعرفون أتاهم حينئذ

---

(١) السابق ١٧/٣٠٨.

(٢) ورد في ذلك حديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ٦/٢٧٠٤ (٧٠٠٠)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية ١/١٦٣ (١٨٢).

في الصورة التي يعرفون، فيكشف عن ساق، فإذا رأوه خروا له سجدا إلا من كان منافقا، فإنه يريد السجود فلا يستطيعه، يبقى ظهره مثل الطبق(١).

وهذا المعنى مستفيض عن النبي ﷺ في عدة أحاديث ثابتة، فدل ذلك على أن المحنة إنما تنقطع إذا دخلوا دار الجزاء، وأما قبل دار الجزاء فامتحان وابتلاء، فإذا انقطع عن الناس نور النبوة، وقعوا في ظلمة الفتن وحدثت البدع والفجور، ووقع الشر بينهم(٢).

- **كفر الجهل وانتفاء قول اللسان وعمل القلب والجوارح.**

من سمع عن الحق الذي بعث به النبي ﷺ وأعرض عنه تجاهلا وانشغالا بدنياه، أو تكذيبا له فكفره كفر جهل وتكذيب، انتفى فيه علم القلب بالحق بسبب إعراضه، ومن ثم ينتفي عمل القلب والإيمان الباطن ضرورة، فلن تجد فيه اعتقادا حقا، ولا إخلاصا لله وصدقا، ولا خوفا من الله، ولا رجاء له ولا حبا، لأن صلاح القلب لا بد فيه من معرفة الحق أولا ثم اتباعه ثانيا.

قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٨﴾ الزمر:١٧/١٨.

---

(١) روى البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، تفسير سورة ن والقلم، باب يوم يكشف عن ساق ٤/١٨٧١ (٤٦٣٥) عن أبي سعيد ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى كل من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدا.

(٢) مجموع الفتاوى ١٧/٣٠٩، وانظر درء تعارض العقل والنقل ٨/٤٠١ بتصرف.

ومن ثم فإن كفر الجهل والتكذيب ينتج عنه بالضرورة انتفاء عمل القلب واستقامته على الإيمان، وانتفاء شهادة التوحيد بقول اللسان، وانتفاء عمل الجوارح في طاعة الله بانقياد الأبدان، ومن انتفى عنه علم القلب إعراضا عن طلب الحق كان كفره كفر جهل وتكذيب، وكان كفر الجهل والتكذيب مقدما في الوصف على بقية أنواع الكفر، وهي كفر النفاق، وكفر الجحود، وكفر العناد والاستكبار. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾ البقرة:٦/٧.

وقال تعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥﴾ الحجر:٣/٥. وقال تعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦﴾ الحجر:٣/٦.

وحال من آثر الجهل والإعراض عن طلب الحق والسعي إلى تعلمه ومعرفته هو حال كثير من الناس في زماننا، فتجد الشخص لا يسعى إلى إدراك الهدف الذي خلقه الله ﷻ من أجله، أو الغاية التي ينبغي أن يعيش من أجلها، وكثير من الناس تجد أهدافهم محصورة وقاصرة على الرغبة في الدنيا، وكل همهم في الحياة إشباع شهواتهم، وإرضاء نزواتهم، والبعض لا يعلم له هدفا أصلا، وإنما يعيش في هذه الحياة هملا كما يعيش الحيوان، لا يعلم لـمَ خُلق، ولا لـمَ يعيش.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾ محمد:١٢.

وقال: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ الأعراف:١٧٩.

وقال تعالى: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٤﴾ الفرقان:٤٤.

وإذا كان الجهل القائم بالقلب عند كفر الجهل والتكذيب هو انتفاء العلم اختيار من الإنسان بحيث لا يتعلم الحق، ولا يرغب في معرفته، ولا يسأل عن أحكام الإسلام، فإن عمل القلب وقول اللسان وعمل الجوارح التي تتبع هذا الجهل وتنتج عنه تسمى جهالة وجاهلية، وجميع أقواله وأفعاله وقت الجهالة قائمة على العصيان، والإنسان ساعة العصيان يتجاهل رؤية الله له وإن كان عالما ، أو رؤيته هو لربه، وأنه رقيب على عبده، ولا يرى وقت العصيان ثواب المطيعين، ولا عقاب العاصين، لا يرى إلا لذة الذنب وشهوة المذنبين التي تزينها الشياطين.

إن الجهالة الناشئة عن الإعراض وكفر الجهل والرغبة في رفض العلم بالشرع هي السمة المميزة للمجترئين على معصية الله ﷻ؛ لأنهم لو عرفوا ربهم معرفة صحيحة لأحبوه وعظموه وأطاعوا أمره، وعلموا أنه سبحانه وتعالى أهل لأن يُتَّقَى، ولو تعلموا دينهم لوجدوا بغيتهم وسعادتهم فيه، ولو علموا ثواب الله ﷻ وعقابه حق المعرفة لرغبوا في

مصلحتهم العليا وثواب الجنة، وخافوا من الخسران الأكبر وعقاب جهنم، وقد قرن النبي ﷺ بين رفع العلم وثبوت الجهل وظهور المعاصي في آخر الزمان.

روى البخاري من حديث أنس ﷺ أنه قال: (قَال لأُحَدِّثنكُمْ حَدِيثا لا يُحَدِّثكُمْ أَحَدٌ بَعْدِي، سَمِعْتُ رَسُول اللهِ ﷺ يقُول: مِن أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَن يَقِل العِلمُ، وَيظْهَرَ الجَهْل، وَيَظْهَرَ الزِّنا، وتَكْثرَ النسَاءُ، وَيَقِل الرِّجَال، حَتَّى يَكُون لخَمْسِين امْرَأَة القَيِّمُ الوَاحِدُ) [1].

وأصل الجهل داء عضال يميت أعمال القلوب ويعطل طاقة اللسان وأعمال الجوارح والإيمان، ويجعل أهله أشبه بالحيوان أو أضل، لا يهمهم إلا شهوات الفروج والبطون، فالجاهل غارق في حب الدنيا طويل الأمل، تنصب آماله وتطلعاته على ما ينله من الدنيا ومشتهياتها.

قال تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ البقرة:٩٦.

- الجاهلية في القرآن والسنة تقابل معرفة الحق وقبوله والانقياد له.

قال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ المائدة:٤٩/٥٠.

---

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب رفع العلم وظهور الجهل ١/٤٣ (٨١).

روى البخاري من حديث ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: (أَبْغَضُ النَّاسِ إلى اللهِ ثلاثةٌ، مُلحِدٌ فِي الحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلامِ سُنَّةَ الجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ) [(١)].

قال ابن تيمية رحمه الله في تعقيبه على هذا الحديث: (الناس قبل مبعث الرسول كانوا في حال جاهلية منسوبة إلى الجهل، فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جهال، وإنما يفعله جاهل، وكذلك كل ما يخالف ما جاء به المرسلون من يهودية ونصرانية فهي جاهلية، وتلك كانت الجاهلية العامة، فأما بعد ما بعث الله الرسول فالجاهلية المطلقة قد تكون في مصر دون مصر كما هي في دار الكفار، وقد تكون في شخص دون شخص، كالرجل قبل أن يسلم فإنه يكون في جاهلية وإن كان في دار الإسلام، فأما في زمان مطلق فلا جاهلية بعد مبعث محمد ﷺ، فإنه لا تزال من أمته طائفة ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة. والجاهلية المقيدة قد تقوم في بعض ديار المسلمين، وفي كثير من المسلمين، كما قال ﷺ: أربع في أمتي من أمر الجاهلية[(٢)]، وقال لأبي ذر ﷺ: إنك امرؤ فيك جاهلية[(٣)]. ونحو ذلك فقوله في هذا الحديث: ومبتغ في الإسلام سنة جاهلية، يندرج فيه كل جاهلية مطلقة أو غير مقيدة، يهودية أو نصرانية أو مجوسية أو صابئة أو وثنية أو شركية، من ذلك أو بعضه، أو منتزعة من بعض هذه الملل الجاهلية، فإنها جميعها

---

(١) البخاري في الديات، باب من طلب دم امرئ بغير حق ٢٥٢٣/٦ (٦٤٨٨) .

(٢) مسلم في الجنائز، باب التشديد في النياحة ٦٤٤/٢ (٩٣٤).

(١) البخاري في الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن ٢٢٤٨/٥ (٥٧٠٣).

مبتدعها ومنسوخها صارت جاهلية بمبعث محمد ﷺ، وإن كان لفظ الجاهلية لا يقال غالبا إلا على حال العرب التي كانوا عليها، فإن المعنى واحد) [(١)].

والجاهلية في الأصول القرآنية هي حالة من الإعراض ترفض الاهتداء بهدى الله الشرعي في الحياة، وتقابل معرفة الله وتنفيذ أوامره، وليست الجاهلية ما يقابل العلم المادي أو العلم بالحضارة المادية والتقدم التكنولوجي في الأسباب الطبيعية والكونية، ولم يرد نص صحيح في إن العرب كانوا في جاهلية لأنهم لا يعرفون علوم الفلك والطبيعة والكيمياء والطب والهندسة، أو لأنهم لا يعرفون النظم المعاصرة في التفاعل مع الحياة، أو لأنهم قاصرون في ميدان الإنتاج المادي أو لأنهم خلوا من بعض الفضائل، أو خلوا من القيم على الإطلاق، وإنما وصفهم بالجاهلية لتجاهلهم وإعراضهم عن دين الحق والانقياد لنبيه ﷺ، واختيارهم أن يحكموا أهواءهم في حياتهم دون هداية الإسلام وأحكامه، فذلك هو المقياس الذي يقيس به القرآن حياة الإنسان، وهو المقياس المقابل لمعاني الجاهلية، سواء جاهلية العرب أو العجم أو أية جاهلية غيرها في الأمم السابقة.

ولقد قص القرآن عن حضارات كثيرة في أمم خالية كانت أكثر تحضرا من العرب حين نزل عليهم الإسلام، ومع ذلك اعتبرها الإسلام جاهلية لأنها لا تهتدي بهدى الله، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية ص٧٨.

وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ الروم:٩/١٠ .

وفي الآيات توجيه للجاهلين المكذبين إلى النظر في أمر السابقين، ليروا نتائج جهلهم وتجاهلهم ويحذرونها، فلا يكذبوا بآيات الله، بل يؤمنوا بها ويهتدوا إلى سبل النجاة، فهؤلاء كانوا أكثر منكم قوة وتعميرا للأرض، وكانوا أكثر حضارة ومدنية، فخير لكم أن تخرجوا من جاهليتكم وتصبحوا مسلمين.

ومن ثم فإن الجاهلية حالة إعراض ترفض الاهتداء بهدى الله وشرعه، وهي حالة يمكن أن توجد في أي وقت، وفي أي مكان، كما توجد كذلك في أي مستوى ثقافي من المعرفة والحضارة والتقدم المادي والقيم الفكرية والسياسية الاجتماعية والإنسانية، وذلك إذا كان هذا المستوى الثقافي لا يهتدي بالهدى النبوي، ويرفض أن يصدق أخبار الله أو ينقاد لأوامره.

وكثير من المعرضين الذين وقعوا في الجهالة والتكذيب يؤثرون طريقة الغربيين في أقوالهم وأفعالهم وسلوكهم ومنهج حياتهم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب دخلوه خلفهم، وهم راضون عن ذلك كل الرضا، بل هم حريصون على تقليدهم كل الحرص، ويرون في ذلك التقدمية والتحرر من الرجعية، ويرفضون التخلي عن ذلك والعودة إلى التقيد بالكتاب والسنة، بل يطلقون على من تمسك بالكتاب والسنة مصطلح الظلاميين المتخلفين الهمجيين، أهل الجهل

والخرافة والتأخر والانحطاط، وهم متحررون خرجوا إلى حياة الموضة الغربية في كل النواحي عامدين متعمدين، بغية ما يعتقدون بجهلهم في التحضر والتمدن والخروج من ظلمات التخلف إلى نور التقدم، وحالهم كما ورد في قول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ فصلت:٥.

وربما وجدوا مبررات لا حصر لها تخلط بين التقدم في العلوم المادية والتهاون في الالتزام بالأصول القرآنية والسنة النبوية، وأن الله ﷻ راض عن هذا التقدم في ملبسهم ومأكلهم ومشربهم وسفورهم وغنائهم وفنونهم، شأنهم في ذلك شأن من وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ الأعراف:٢٨.

إن العقيدة الصحيحة التي جاء بها الإسلام هي التي تحدد للإنسان مكانه الصحيح في الكون، وتسدد خطاه في كل زمان ومكان، حيث تعين له وجهته التي توصله إلى النعيم المقيم، وترسم له طريقة المستقيم، فيستقيم وجدانه الباطن وسلوكه الظاهر، ويصبح كما ينبغي أن يكون على فطرته التي خلقها الله، عبدا فقيرا بذاته مفتقرا إلى الله ﷻ الغني بذاته، مقرا بحاجته واضطراره وعبوديته وافتقاره.

- مظاهر انتشار سنن الجاهلية في المجتمعات الإسلامية المعاصرة.

إذا علمنا أن الجاهلية هي الإعراض عن العلم بمنهج الله ﷻ والانحراف عن توحيد العبادة له، فإن أبر نتائجها ظهور الفساد في البر

والبحر، واضطراب المجتمعات في علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وعلاقته بالكون والحياة من حوله، فإذا صح التوحيد وقامت أركان الإيمان في القول والعمل استقام الكيان كله، واستقامت خطواته.

وقد أعرض كثير من الناس عن منهج القرآن والسنة وتجاهلوا اعتقاداته الغيبية وأوامره الشرعية، وانحرفت انحرافا يشمل كل النواحي في حياة الإنسانية، حتى ردد كثيرون مقولة الملاحدة بأن الدين هو أفيون الشعب، وأنه مجموعة من الأساطير ابتدعها الإقطاعيون والرأسماليون لتخدير الجماهير الكادحة، وأن الأخلاق مجرد انعكاس للوضع الاقتصادي المتطور على الدوام وليست قيم ثابتة، ومن المؤسف أنه قد سرى ذلك بين كثير من الناس في البلاد الإسلامية .

وبسبب الجهل والإعراض التكذيب والشك في ثوابت الإسلام كان الواقع المألوف في كثير من البلدان مظهرا خاويا خاليا من تحمل الأمانة التي حملها الإنسان وكرمه الله بسببها.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ الأحزاب:٧٢/٧٣.

لقد كان من تبعات الإعراض عن منهج الله والجهل بمكانة الإنسان ودوره في الحياة أن المعرضين صوروا الإنسان ذاتا مقدسة تصنع ما يحلو لها، يملك كما يشاء بغير حد وفي أية صورة، ويصوغ أفكاره وعقائده

وأخلاقه وتقاليده كما يشاء، وأن الحرية تقتضي أنه ليس من حق أحد أن يقول له هذا خطأ وهذا صواب، حتى أصبح الإنسان عابد لهواه تحت مسمى الحرية.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ الرعد:٣٧.

وعلى معاني التحرر والحرية تحطمت الروابط الأسرية، فلم يعد الزاوج عند هؤلاء رباطا يربط بين رجل وامرأة بالعواطف الممتدة الطويلة الأمد والمشاعر المشتركة، وإنما أصبح لحظة شهوانية جسدية تنقطع بإشباع الغريزة الحيوانية، وتتجدد عند دواعي الجسد الشهواني، واعتبرت العواطف والمشاعر أمور انفعالية يمارسها الإنسان على النحو الذي يراه ويرضيه، سواء كان زنا أو لواط أو سحاق فالكل عندهم حق من حقوق الإنسان، ففسد كيان الرجل والمرأة كليهما فلم يعودا رجلا وامرأة كما خلقهما الله ﷻ، فالرجل ضعفت في نفسه روابط الأسرة حتى أصبح شيئا أقرب إلى الآلة، وأهم ما يميزه كيفية حصوله على المال وأسباب الغنى والتفوق على الآخرين فيه، والمرأة تسعى لأن تعيش الحياة لحظة لحظة، بلا هدف شامل، ولا وعى بإنسانية الإنسان الذي استخلفه الله في أرضه واستأمنه في ملكه.

لقد تربت أجيال وأجيال لا يعرفون بجهالتهم دور الإنسان الحقيقي في الحياة، ويعرفون بدلا منها شبهات تحوم في نفوسهم حول هذا الدين، أجيال لقنت أن الدين تأخر وانحطاط، وتحجر ورجعية، وأن الوسيلة الوحيدة للتحضر والارتقاء والتقدم هي الانسلاخ من أحكام الإسلام

وإبعادها عن مجال الحياة العامة، وإلغاء سيطرتها على أي ناحية من نواحي الحياة السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو حتى الأخلاقية، أجيال لُقنت أن الالتزام بالإسلام معوق عن الانطلاق، وأن السبيل إلى الانطلاق الذي تعقبه القوة والحضارة والعلم والتمكن هو القضاء على كل من تمسك بهذا الدين، بل الاختيار المرضي لديهم هو استقاء ما لدى الغرب بكل ما فيه وامتصاص سلوكياتهم وأقوالهم وأفعالهم دون تمييز بين ما ينفع وما يضر، بين العلم البحت الذي هو ضرورة، وبين المفاهيم والمناهج الأخلاقية والفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية المنحرفة عن منهج الله ﷻ، والتي هي في بلادها الأصلية سوس ينخر في بنيانها يودي بها رويدا رويدا إلى الدمار.

وكثير من الكتاب أو ما يسمى بالنجوم من الفنانين والممثلين السينمائيين أو الإذاعيين يقفون موقف المتجاهلين المعارضين بقوة لكل انتماء أو دعوة تعيد الناس إلى التمسك بأصول الدين وسنة سيد الأنبياء والمرسلين، ذلك لأن بضاعتهم التي يقيمون عليها تجارتهم، ويربحون عن طريقها تجارة إفساد الأخلاق وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، وإطلاق الشبان على البنات والنسوان بلا ضابط تشريعي، ينزو بعضهم على بعض في تجارة محرمة يعرفون جيدا أنها محرمة وأن أحكام الإسلام إن سادت لن تدع لهم ذلك المستنقع الذين يعيشون في أوساخه القذرة، فكان إعراضهم عن الإسلام وتجاهلهم هو الذي يناسبهم ويتيح لهم دوام الشهرة والنجومية والربح الوفير، فالإسلام بنظافته وتطهره وأخلاقه المرتفعة التي يربى أبناءه عليها لن يتيح لهم ذلك.

وإن نظرت إلى أغلب شباب الجيل في الأمة الإسلامية الذين فتحوا باب الإقبال على الجهل على مصراعيه، وتجاهلوا أحكام الإسلام بإعراضهم، وجدت حالهم مرئيا في فضائياتهم يبارزون ربهم بالمعاصي منجرفين في تيار الانحلال الخلقي، فصارت حياتهم أغنية مائعة أو قصة أو داعرة، أو راقصة فاجرة، أو لحظة جنس مسعورة يمارسونها خفية أو علانية، يختلسون هذه الأعراض التي ينتهكونها، أعراض بعضهم البعض ويختلسون هذه الشهوات التي يمارسونها في غيبة متعمدة وتغييب متعمد لدين الله، فنظافة الإسلام وترفعه وتطهره لن يتيح لهم هذه الحياة البهيمية الشهوانية التي يعيشونها فيها، وهم يريدونها ويحرصون عليها ويودون أن تدوم، ولا يهمهم كيف فعلت في أمم قد خلت من قبلهم، وأمم ماثلة أمامهم قد هدها الفساد، فهذه مظاهر الجاهلية التي تسير في ركب الجهل والتكذيب على الرغم من بلوغ الرسالة إليهم وسماعهم عن نبي الله محمد ﷺ.

إن الذين يدعون إلى تحرير المرأة لا يعنيهم التقيد بدين الله ﷻ وأحكامه وتشريعاته، وإنما يرددون شعارات جوفاء بلا هدف يحقق الغاية من خلقهم، أو يؤدي دورهم الذي خلقوا من أجله، بل يسعون إلى إخراج العقيدة من قلب المرأة المسلمة، وإخراج جيل من النساء لا يعرف الانتماء إلا لما يزيدها تعلقا بالغرب، وتقليدا لهم في انحلالهم وإباحيتهم، وهم يعلمون أن المرأة أقدر أفراد المجتمع على جر المجتمع كله بعيدا عن دعوة النبي ﷺ ورسالته، فالمرأة المتعلمة المتحررة على طريقة الغرب لن تقوم بغرس عقيدة الإسلام والتوحيد في نفوس أبنائها ما دامت هي لا تؤمن بهذه العقيدة، وليس لها في حياتها حساب.

والغاية عندهم أن تصل قناعتها إلى عدم الشعور الحرج والغيرة إن مارست رقصة فاجرة، أو أسقطت ميزان الجرم في كونها زانية، أو شربت الخمر على أنها حق لكل متحررة، فالحرية عندها ألا يقال لها هذا حرام وهذا حلال، وألا مانع عندها للرجال أن يستمتعوا بالفتنة التي تعرضها في الطرقات، ولا مانع للنساء أن يستمتعن بالقدرة على إغراء أولئك الرجال، وأن يتبرجن في الملبس والزينة بلا قيود، فالإحساس بأنهم مخطئون في حق ربهم، معرضون عن اتباع نبيهم إحساس منعدم في قلوبهم؛ لأنهم أعرضوا في نظامهم وحياتهم عن العلم برسالة الإسلام وانتفى الركن الأول من أركان الإيمان، وهو علم القلب الذي يشكل عقيدة صحيحة، فالعقيدة ليست مجرد وجدان في داخل الضمير، إنها قاعدة يقوم عليها تصور كامل للحياة وارتباطاتها، ومركز الإنسان من الكون، ومركزه من الوجود.

والذين يرون الدين ضعيف الأثر في حياة الناس وواقعهم، يظنون أن الدين هكذا ضعيف الصلة بالواقع؛ وأن الواقع مستقل عن العقيدة؛ محكوم بأسباب أخرى، وروابط أخرى لا صلة لها بالدين، وذلك الظن ذاته أثر من آثار الجاهلية، وفساد في تصور البشرية، فحين يضعف أثر الإيمان في حياة الناس الواقعية، فمعنى ذلك أن العقيدة قد فسدت في النفوس، ومعناه كذلك أن الحياة كلها لا تسير سيرها الطبيعي لتحقيق الغاية التي خلقها الله ﷻ، وأنها واقعة لا محالة في لون من ألوان الانحراف تبدو آثاره السلبية على الأمة الإسلامية بصورة حتمية ولو بعد حين.

- كفر الجهل والإعراض يجتمع فيه جهل النفس وتزيين الشيطان.

ذكر ابن القيم أن منشأ السيئات من الجهل والظلم، فإن العبد لا يفعل القبيح إلا لعدم علمه بكونه قبيحا، أو لهواه وشهوته مع علمه بقبحه، فالأول جهل، والثاني ظلم، ولا يترك حسنة إلا لجهله بكونها حسنة، أو لرغبته في ضدها لموافقته هواه وغرضه.

وفي الحقيقة فإن السيآت كلها ترجع إلى الجهل، وإلا فلو كان علمه تاما برجحان ضررها لم يفعلها، فإن هذا خاصة الفعل، فإنه إذا علم أن إلقاءه من مكان عال يضره لم يقدم عليه، وكذلك لبثه تحت حائط مائل، وإلقاءه نفسه في ماء يغرق فيه، وأكله طعاما مسموما، لا يفعله لعلمه التام بمضرته الراجحة، بل هذه فطرة الله ﷻ التي عليها الحيوان، بهيمة كانت أو ناطقة، ومن لم يعلم أن ذلك يضره كالطفل والمجنون والسكران الذي انتهى سكره فقد يفعله، وأما من أقدم على ما يضره مع علمه بما فيه من الضرر، فلا بد أن يقوم بقلبه أن منفعته له راجحة، ولا بد من رجحان المنفعة عنده، إما في الظن، وإما في المظنون، ولو جزم راكب البحر بأنه يغرق ويذهب ماله لم يركب أبدا، بل لا بد من رجحان الانتفاع في ظنه، وإن أخطأ في ذلك.

وكذلك الذنوب والمعاصي، فلو جزم السارق بأنه يؤخذ ويقطع لم يقدم على السرقة، بل يظن أنه يسلم ويظفر بالمال، وكذلك القاتل والشارب والزاني، فلو جزم طالب الذنب بأنه يحصل له الضرر الراجح لم يفعله، بل إما أن لا يكون جازما بتحريمه، أو لا يجزم بعقوبته، بل يرجو العفو والمغفرة، وأن يتوب ويأتي بحسنات تمحو أثره، وقد يغفل

عن هذا كله بقوة وإرادة الشهوة، واستيلاء سلطانها على قلبه بحيث تغيبه عن مطالعة مضرة الذنب، والغفلة من أضداد العلم، كالغفلة والشهوة أصل الشر كله، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ الكهف:٢٨ [(١)].

وينبغي أن يعلم أن الهوى وحده لا يستقل بفساد السيئات إلا مع الجهل، وإلا فصاحب الهوى لو جزم بأن ارتكاب هواه يضره ولا بد، ضررا راجحا، لانصرفت نفسه عن طاعته له بالطبع، فإن الله سبحانه جعل في النفس حبا لما ينفعها وبغضا لما يضرها، فلا تفعل مع حضور عقلها ما تجزم بأنه يضرها ضررا راجحا.

ولهذا يوصف تارك ذلك بالعقل والحجى واللب، فالبلاء مركب من تزيين الشيطان وجهل النفس، فإنه يزين لها السيئات ويريها أنها في صور المنافع واللذات والطيبات، ويغفلها عن مطالعتها لمضرتها، فتولد من بين هذا التزيين وهذا الإغفال والإنساء لها إرادة وشهوة، ثم يمدها بأنواع التزيين، فلا يزال يقوى حتى يصير عزما جازما يقترن به الفعل.

وحقيقة الأمر أن التزيين إنما يغتر به الجاهل، لأنه يلبس له الباطل والضار المؤذي صورة الحق والنافع الملائم، فأصل البلاء كله من الجهل وعدم العلم، وكل من عصى الله فهو جاهل.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ النساء:١٧.

---

(١) شفاء العليل لابن القيم ١/١٧٠.

وقال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤)﴾ الأنعام:٥٤.

ومن ثم فإن كل من عصى الله فهو جاهل، ومن تاب قبل الموت فقد تاب من قريب، وليس من جهالته أن لا يعلم حلالا ولا حراما، ولكن من جهالته حين دخل فيه.

ومما يبين ذلك قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فاطر:٢٨ . وكل من خشيه فأطاعه بفعل أوامره وترك نواهيه فهو عالم كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩)﴾ الزمر:٩.

وقوله إنما يخشى الله من عباده العلماء يقتضي الحصر من الطرفين أن لا يخشاه إلا العلماء، ولا يكون عالما إلا من يخشاه، فلا يخشاه إلا عالم، وما من عالم إلا وهو يخشاه، فإذا انتفى العلم انتفت الخشية، وإذا انتفت الخشية دلت على انتفاء العلم، ولكن وقع الغلط في مسمى العلم اللازم لخشيته، حيث يظن أنه يحصل بدونها، وهذا ممتنع فإنه ليس في الطبيعة أن لا يخشى النار والأسد والعدو من هو عالم بها، مواجه لها، وأنه لا يخشى الموت من ألقى نفسه من شاهق ونحو ذلك، وأحسن أحواله أن يكون معه ظن لا يصل إلى رتبة العلم اليقيني(١).

والله سبحانه قد أنعم على عباده من جملة إحسانه ونعمه بأمرين هما

---

(١) انظر المصدر السابق ١/١٧١ بتصرف.

أصل السعادة:

أحدهما: أن خلقهم في أصل النشأة على الفطرة السليمة فكل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يخرجانه عنها، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ، وشبه ذلك بخروج البهيمة صحيحة سالمة حتى يجدعها ويشوهها صاحبها، فإذا تركت النفس وفطرتها لم تؤثر على محبة باريها وفاطرها وعبادته وحده ولم تشرك به شيئا، ولكن يعدها من يقترن بها من شياطين الجن والإنس بتزيينه وإغوائه فتعرض عن الحق والتوحيد والإيمان ومقتضى الفطرة حتى تنغمس في الباطل والشرك وكفر الإعراض المخالف للفطرة.

الأمر الثاني: أنه سبحانه هدى الناس هداية عامة بما أودعه فيهم من المعرفة، ومكنهم من أسبابها، وبما أنزل إليهم من الكتب، وأرسل إليهم من الرسل، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمونه، ففي كل نفس ما يقتضي معرفتها بالحق ومحبتها له، وقد هدى الله ﷻ كل عبد إلى أنواع من العلم يمكنه التوصل بها إلى سعادة الآخرة، وجعل في فطرته محبة لذلك، لكن قد يعرض العبد عن طلب علم ما ينفعه، فلا يريده ولا يعرفه، فيقع في الضلال ويكون مسئولا عما اختاره من الأقوال والأفعال[1].

• حكم الجاهل الذي يعيش بين المسلمين ولا يفهم خطاب الشرع.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ التوبة: ٦ .

(١) انظر المصدر السابق ١/١٧٣ بتصرف.

قال ابن كثير: (يقول تعالى لنبيه ﷺ: وإن أحد من المشركين الذين أمرتك بقتالهم، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم، استجارك أي استأمنك، فأجبه إلى طلبه حتى يسمع كلام الله، أي القرآن، تقرؤه عليه وتذكر له شيئا من أمر الدين تقيم عليه به حجة الله) [1].

والآية دليل على أن فهم خطاب الشرع وإدراك فحوي الخطاب والمراد منه لازم لقيام الحجة وإلا يكون المرء معذورا .

وقد دلت السنة على أن الجاهل بالرسالة، أو فروع الشريعة معذور بعدم بلوغه الحجة، سواء كان في أصل الإيمان برسالة الرسول ﷺ، أو بلغته جملة ولكن لم يعلم فروعها، وهو مطالب بالسؤال وفي عنقه مسئولية الاستفسار، وهذا ما حدث لوفد عبد القيس إذ أنهم لم يجهلوا بعثته ولا دعوته، وقد جاؤوا مؤمنين معهم الإيمان المجمل، فلما قدموا علي النبي ﷺ سألوه عن فحوي التكليف الشرعي فبين لهم جملا من مسائل الإيمان والأحكام.

روى البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: (إن وفد عبد القيس لما أتوا النبي ﷺ قال: من القوم؟ أو من الوفد؟ قالوا: ربيعة. قال: مرحبا بالقوم أو بالوفد غير خزايا ولا ندامى قالوا: يا رسول الله إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، فمرنا بأمر فصل، نخبر به من وراءنا وندخل به الجنة، وسألوه عن الأشربة؟ فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع، أمرهم بالإيمان بالله وحده قال: تدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٣٣٨.

أعلم. قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وأن تعطوا من المغنم الخمس، ونهاهم عن أربع: عن الحنتم والدباء والنقير والمزفت وقال: احفظوهن وأخبروا بهن من وراءكم) (١).

وروى مسلم من حديث بريدة بن الحصيب ﷺ أنه قال: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ: اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تَمْثُلُوا وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاَثِ خِصَالٍ أَوْ خِلاَلٍ فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِى عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ) (٢).

وروى البخاري من حديث ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ لما بعث

(١) البخاري في الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان ٢٩/١ (٥٣)، ومسلم في الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين ٤٧/١ (١٧).

(٢) مسلم في الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء ١٣٥٧/٣ (١٧٣١).

معاذ بن جبل ﷺ إلى اليمن قال له: (إنَّكَ تَقْدَمُ عَلى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّل مَا تَدْعُوهُمْ إلى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالى، فَإذا عَرَفُوا ذلكَ، فَأَخبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإذا صَلوْا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلى فَقِيرِهِمْ، فَإذا أَقَرُّوا بِذلك، فَخُذ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَال النَّاسِ) (١).

ومن ثم فإن الجهل بالأحكام الشّرعيّة إنما يكون عذرا إذا تعذر على المكلف الاطّلاع على الدّليل، وكل من كان في إمكانه الاطّلاع على الدّليل وقصّر في تحصيله؛ لا يكون معذورا، وقد يكون الجهل مع وجود الدّليل، ولكن المكلف مجتهدا كان أو غير مجتهد لم يطّلع عليه، أو اطّلع عليه المجتهد ولم يستطع استنباط الحكم.

قال ابن حزم: (ولو أن امرأ بدَّل القرآن مخطئا جاهلا، أو صلى لغير القبلة كذلك ما قدح ذلك في دينه عند أحد من أهل الإسلام حتى تقوم عليه الحجة بذلك، فإن تمادى فهو فاسق وإن عاند الله تعالى ورسوله ﷺ فهو كافر مشرك) (٢).

وقال أيضا: (من قامت عليه الحجة بحديث لا معارض له، أو آية لا معارض لها، أو برهان ضروري فتمادى على قوله المخالف للحق، أو تناقض فاحتج في مكان مما لا يصح مثله في غير ذلك المكان، وبنى عليه ذلك، فتمادى على قوله الفاسد في فتيا في شيء من الفقه، أو في اعتقاد؛

(١) البخاري في التوحيد، باب دعاء النبي ﷺ إلى توحيد الله ٦/٢٦٨٥ (٦٩٣٧).
(٢) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم الظاهري ١/١٣٨.

فهو فاسق وكل ذلك سواء، وهذا ابن عباس يقول بتخليد القاتل، فمن فسق القائلين بإنفاذ الوعيد؛ فليبدأ بتفسيق ابن عباس وهو البر ابن البر الفاضل ابن الفاضل رضي الله عنهما ومن فسق ابن عباس؛ فهو والله الفاسق حقا) [١].

قال ابن تيمية: (وهكذا الأقوال التي يكفر قائلها، قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق، وقد تكون بلغته ولم تثبت عنده أو لم يتمكن من فهمها، وقد يكون عرضت له شبهات يعذره الله تعالى بها، فمن كان من المؤمنين مجتهدا في طلب الحق وأخطأ، فإن الله ﷻ يغفر له خطأه كائنا ما كان، سواء كان في المسائل النظرية أو العلمية، هذا الذي عليه أصحاب النبي ﷺ وجماهير أئمة المسلمين) [٢] .

وقال أيضا: (إِنِّي مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ نَهْيًا عَنْ أَنْ يُنْسَبَ مُعَيَّنٌ إِلَى تَكْفِيرٍ وَتَفْسِيقٍ وَمَعْصِيَةٍ إلا إذا عُلم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرا تارة، وفاسقا أخرى، وعاصيا أخرى، وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها، وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية، وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل، ولم يشهد أحد منهم على أحد لا بكفر ولا بفسق ولا معصية، وكما نازعت عائشة وغيرها من الصحابة في رؤية محمد ﷺ ربه. ومع هذا لا نقول لابن عباس ونحوه من المنازعين لها إنه مفتر على الله، وكما نازعت عائشة في سماع الميت كلام الحي، وفي تعذيب الميت ببكاء أهله

---

(١) المصدر السابق ٥/٧٠.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٣/٣٤٦.

وغير ذلك، وقد آل الشر بين السلف إلى الاقتتال، مع اتفاق أهل السنة على أن الطائفتين جميعا مؤمنتان، وأن الاقتتال لا يمنع العدالة الثابتة لهم، لأن المقاتل وإن كان باغيا؛ فهو متأول والتأويل يمنع الفسوق، وكنت أبين لهم أنما نقل لهم عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا فهو أيضا حق، لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين، والتكفير هو من الوعيد، فإنه وإن كان القول تكذيبا لما قاله الرسول ﷺ لكن قد يكون الرجل حديث عهد بإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة، ومثل هذا لا يكفر بجحد ما يجحده حتى تقوم عليه الحجة، وقد يكون الرجل لا يسمع تلك النصوص أو سمعها ولم تثبت عنده أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها، وإن كان مخطئا، هذا مع أني دائما ومن جالسني يعلم ذلك مني أني من أعظم الناس نهيا عن أن ينسب معين إلى تكفير) [1].

- **كفر الجهل والتكذيب قد يكون كفرا أصغر لا يخرج عن الملة.**

لا تعني الأوصاف التي تقدمت في شأن جاهلية الكثير من عامة المسلمين الذين آثروا حياة الغرب على منهج الإسلام الالتزام بأحكام القرآن والسنة أنهم كفار كفرا أكبر مخرجا من الملة، بل يتنوع الحكم تبعا لحالة كل فرد ومنشأه وفهمه وإدراكه ووعيه، فربما نشأ على الجاهلية في الأوساط التي تقلد الحياة الغربية دون أن يخاطبه أحد من المسلمين بحجة، أو تقوم عليه المحجة وهو يعيش في بلاد الإسلام، وقد رأيت من ذلك الكثير، فكفر الجهل والتكذيب قد يكون كفرا أكبر أو

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣/٢٢٩ وما بعدها.

أصغر حسب حال كل فرد، وتحقيق أمره يظهر عند بيان الحجة بين يدي القاضي عند تطبيق الحد في أحكام المرتد.

ومثل ذلك في بيان حقيقة الكفر الأصغر الذي هو من باب الجهل والتكذيب ما يقع فيه المعطلة من أتباع الجهمية كالمعتزلة والمتكلمين الأشعرية الذين يردون نصوص القرآن والسنة الصريحة بسبب جهلهم المركب وتكذيبهم لمدلولها الحقيقي الذي توهموا فيه أنه تشبيه وتجسيم وظاهره باطل لا يليق بالله، مما دفعهم إلى تأويلات وتحريفات تدل في حقيقتها على كفر الجهل والتكذيب، ولذلك أطلق عليهم المعطلة لما عندهم من حسن النية إخراجا لهم عمن كذب بآيات الله وكلماته معرضا عنها وعن معرفتها بسوء النية.

قال ابن القيم: (ذكر الطواغيت الأربع التي هدم بها أصحاب التأويل الباطل معاقل الدين وانتهكوا بها حرمة القرآن ومحوا بها رسوم الإيمان وهي قولهم إن كلام الله وكلام رسوله أدلة لفظية لا تفيد علما ولا يحصل منها يقين وقولهم إن آيات الصفات وأحاديث الصفات مجازات لا حقيقة لها وقولهم إن أخبار رسول الله الصحيحة التي رواها العدول وتلقتها الأمة بالقبول لا تفيد العلم وغايتها أن تفيد الظن وقولهم إذا تعارض العقل ونصوص الوحي أخذنا بالعقل ولم نلتفت إلى الوحي فهذه الطواغيت الأربع هي التي فعلت بالإسلام ما فعلت وهي التي محت رسومه وأزالت معالمه وهدمت قواعده وأسقطت حرمة النصوص من القلوب ونهجت طريق الطعن فيها لكل زنديق وملحد فلا يحتج عليه المحتج بحجة من كتاب الله أو سنة رسوله إلا لجأ إلى طاغوت من

هذه الطواغيت واعتصم به واتخذه جنة يصد به عن سبيل الله، والله تعالى بحوله وقوته ومنه وفضله قد كسر هذه الطواغيت طاغوتا طاغوتا على ألسنة خلفاء رسله وورثة أنبيائه فلم يزل أنصار الله ورسوله يصيحون بأهلها من أقطار الأرض ويرجمونهم بشهب الوحي وأدلة المعقول ونحن نفرد الكلام عليها طاغوتا طاغوتا) [1].

ولو تأملنا كلام ابن القيم لوجدناه يتحدث عن الأشعرية وطرقهم الكلامية في تقديم العقل على النقل، ومعلوم أن أحدا لم يكفرهم وإن كان ما يفعلونه من فصيلة كفر الجهل والتكذيب، لأن كلام الله ورسوله عندهم لا يفيد اليقين ولا يفيد علما بمراده، ولو أفاد عندهم علما بالمراد لم يفد علما بكون ذلك المراد مطابقا للحق، وذلك قدح في الإيمان بالله وفي تحكيمه والتحاكم إليه والاهتداء بكلامه وتجويز الكذب عليه، وأمثال ذلك مناف للجزم بتصديقه، وموجب للإعراض عنه لأن التحاكم إلى من لا يفيدك كلامه علما ولا يقينا لا يحصل به المقصود، كما أن النقل إذا عارض العقل عندهم وجب تقديم العقل وتم عزل الوحي واستحكم الإعراض عنه في باب معرفة الله ﷻ وأسمائه وصفاته وأفعاله.

ومن المعلوم أن عامة ألفاظ القرآن نعلم قطعا مراد الله ورسوله منها كما نعلم قطعا أن الرسول بلغها عن الله فغالب معاني القرآن معلوم أنها مراد الله خبرا كانت أو طلبا بل العلم بمراد الله من كلامه أوضح وأظهر من العلم بمراد كل متكلم من كلامه لكمال علم المتكلم

---

(١) الصواعق المرسلة لابن القيم ٢/٦٣٢.

وكمال بيانه وكمال هداه وإرشاده وكمال تيسيره للقرآن حفظا وفهما عملا وتلاوة فكما بلغ الرسول ألفاظ القرآن للأمة بلغهم معانيه بل كانت عنايته بتبليغ معانيه أعظم من مجرد تبليغ ألفاظه ولهذا وصل العلم بمعانيه إلى من لم يصل إليه حفظ ألفاظه والنقل لتلك المعاني أشد تواترا وأقوى اضطرارا فإن حفظ المعنى أيسر من حفظ اللفظ وكثير من الناس يعرف صورة المعنى ويحفظها ولا يحفظ اللفظ والذين نقلوا الدين عنه علموا مراده قطعا لما تلا عليهم من تلك الألفاظ ومعلوم أن المقتضى التام لفهم الكلام الذي بلغهم إياه قائم وهم قادرون على فهمه وهو قادر على إفهامهم [١].

ومن ثم فإن قول المتكلمين الأشعرية وأتباع الجهمية إن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين، هو من باب الجهالة وتكذيب الخبر الصادق عن الله ورسوله وإن لم يكن كفرا ناقلا عن الملة، فهناك أسباب كثيرة تسهل على النفوس الجاهلة قبول مذهب الجهمية في التأويل بغير دليل مع مخالفته للبيان الذي علمه الله الإنسان وفطره على قبوله، فالتأويل الباطل يجري مجرى مخالفة الطبيعة الإنسانية والفطرة التي فطر عليها العبد، لأنه رد للفهم من جريانه مع الأمر المعتاد المألوف إلى الأمر الذي لم يعهد ولم يؤلف، وما كان هذا سبيله فإن الطباع السليمة تنفر منه وتأباه[٢].

---

(١) المصدر السابق ٢/٦٣٥ وما بعدها بتصرف.

(٢) الصواعق المرسلة لابن القيم ٢/٤٣٥.

- **أسباب قبول النفوس الجاهلة لتعطيل كلام الله والإعراض عنه.**

ومن الأسباب التي تسهل على النفوس الجاهلة قبول مذهب تعطيل كلام الله ورسوله والإعراض عنه وتجاهل حقائقه الثابتة التي دلت عليها النصوص تحت مسمى التأويل، أن يأتي صاحب التأويل بتأويله مموها، مزخرف الألفاظ، ملفق المعاني، مكسوا حلة الفصاحة والعبارة الرشيقة، فتسرع العقول الضعيفة إلى قبوله واستحسانه، وتبادر إلى اعتقاده وتقليده، ويكون حاله في ذلك حال من يعرض سلعة مموهة مغشوشة على من لا بصيرة له بباطنها وحقيقتها، فيحسنها في عينه ويحببها إلى نفسه ،وهذا الذي يعتمده كل من أراد ترويج باطل، فإنه لا يتم له ذلك إلا بتمويهه وزخرفته، وإلقائه إلى جاهل بحقيقته[1].

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ الأنعام:١١٢ .

ذكر سبحانه وتعالى أن هؤلاء يستعينون على مخالفة أمر الأنبياء بما يزخرفه بعضهم لبعض من القول، فيغتر به ضعفاء العقول، فذكر السبب الفاعل والقابل، ثم ذكر سبحانه انفعال هذه النفوس الجاهلة به بإصغائها، وميلها إليه، ورضاها به لما كسي من الزخرف الذي يغر السامع فلما أصغت إليه ورضيته اقترفت ما تدعو إليه من الباطل قولا وعملا، فتأمل هذه الآيات وما تحتها من هذا المعنى العظيم القدر الذي فيه بيان أصول الباطل، والتنبيه على مواقع الحذر منها، وعدم الاغترار

---

(١) السابق ٢/٤٣٦ بتصرف.

بها، وإذا تأملت مقالات أهل الباطل رأيتهم قد كسوها من العبارات، وتخيروا لها من الألفاظ الرائقة ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة، وأكثر الخلق كذلك حتى إن الفجار ليسمون أعظم أنواع الفجور بأسماء لا ينفر عنها السمع، ويميل إليها الطبع، فيسمون أم الخبائث أم الأفراح، ويسمون مجالس الفجور والفسوق مجالس الطيبين، فانظر ماذا تفعل هذه الكلمة في قلب ممتلئ بالشهوات ضعيف العلم والبصيرة[1].

ومن الأسباب التي تسهل على النفوس الجاهلة قبول مذهب تعطيل كلام الله ورسوله تحت مسمى التأويل، أن يخرج المعنى الذي يريد إبطاله بالتأويل في صورة مستهجنة تنفر عنها القلوب، وتنفر منها الأسماع، فيتخير له من الألفاظ أكرهها وأبعدها وصولا إلى القلوب، وأشدها نفرة عنها، فيتوهم السامع أن معناها هو الذي دلت عليه تلك الألفاظ، فيسمى التدين رجعية، وعدم الانبساط إلى السفهاء والفساق والبطالين سوء خلق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والغضب لله والحمية لدينه فتنة وشرا وفضولا، فكذلك أهل البدع والضلال من جميع الطوائف، هذا معظم ما ينفرون به عن الحق ويدعون به إلى الباطل، فيسمون إثبات صفات الكمال لله تجسيما وتشبيها وتمثيلا، ويسمون إثبات الوجه واليدين له تركيبا، ويسمون إثبات استوائه على عرشه وعلوه على خلقه فوق سمواته تحيزا وتجسيما، ويسمون العرش حيزا وجهة، ويسمون الصفات أعراضا، والأفعال حوادث، والوجه واليدين

(١) السابق ٢/٤٣٧ بتصرف.

أبعاضا، والحكم والغايات التي يفعل لأجلها أغراضا، فلما وضعوا لهذه المعاني الصحيحة الثابتة تلك الألفاظ المستنكرة الشنيعة، تم لهم من نفيها وتعطيلها ما أرادوه، فقالوا للغافلين والمتغافلين: اعلموا أن ربكم منزه عن الأعراض والأغراض والأبعاض، والجهات والتركيب والتجسيم والتشبيه، فلم يشك أحد لله في قلبه وقار وعظمة في تنزيه الرب تعالى عن ذلك، وقد اصطلحوا على تسمية سمعه وبصره وعلمه وقدرته وإرادته وحياته أعراضا، وعلى تسمية وجهه الكريم ويديه المبسوطتين أبعاضا، وعلى تسمية استوائه على عرشه وعلوه على خلقه وأنه فوق عباده تحيزا، وعلى تسمية نزوله إلى سماء الدنيا وتكلمه بقدرته ومشيئته إذا شاء وغضبه بعد رضاه، ورضاه بعد غضبه حوادث، وعلى تسمية الغاية التي يفعل ويتكلم لأجلها غرضا، واستقر ذلك في قلوب المتلقين عنهم[1].

ولما صرحوا لهم بنفي ذلك، بقي السامع متحيرا أعظم حيرة بين نفي هذه الحقائق التي أثبتها الله لنفسه، وأثبتها له جميع رسله، وسلف الأمة بعدهم، وبين إثباتها، وقد قام معه شاهد نفيها بما تلقاه عنهم، فمن الناس من فر إلى التخييل، ومنهم من فر إلى التعطيل، ومنهم من فر إلى التجهيل، ومنهم من فر إلى التمثيل، ومنهم من فر إلى الله ورسوله ﷺ، وكشف زيف هذه الألفاظ، وبين زخرفها، وأنها ألفاظ مموهة، بمنزلة طعام طيب الرائحة في إناء حسن اللون والشكل، ولكن الطعام مسموم، فقالوا ما قاله إمام أهل السنة باتفاق أهل السنة أحمد بن حنبل: لا نزيل

(١) السابق ٤٣٨/٢ وما بعدها بتصرف.

عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة المشنعين[1].

ولما أراد المتأولون المعطلون تمام هذا الغرض، اخترعوا لأهل السنة الألقاب القبيحة فسموهم حشوية، ونوابت، ونواصب، ومجبرة، ومجسمة، ومشبهة، ونحو ذلك فتولد من تسميتهم لصفات الرب تعالى وأفعاله ووجهه ويديه وحكمته بتلك الأسماء وتلقيب من أثبتها له بهذه الألقاب لعنة أهل الإثبات والسنة، وتبديعهم وتضليلهم وتكفيرهم وعقوبتهم، ولقوا منهم ما لقي الأنبياء وأتباعهم من أعدائهم، وهذا الأمر لا يزال في الأرض إلى أن يرثها الله ومن عليها [2].

ومن الأسباب أيضا أن يعزو المتأول تأويله وبدعته إلى جليل القدر، نبيه الذكر من العقلاء، أو من آل البيت النبوي، أو من حل له في الأمة ثناء جميل، ولسان صدق، ليحليه بذلك في قلوب الأغمار والجهال، فإن من شأن الناس تعظيم كلام من يعظم قدره في نفوسهم، وأن يتلقوه بالقبول والميل إليه وكلما كان ذلك القائل أعظم في نفوسهم كان قبولهم لكلامه أتم، حتى إنهم ليقدمونه على كلام الله ورسوله، ويقولون هو أعلم بالله ورسوله منا، وبهذه الطريق توصل الرافضة والباطنية والإسماعيلية والنصيرية إلى ترويج باطلهم وتأويلاتهم، حتى أضافوها إلى أهل بيت رسول الله لما علموا أن المسلمين متفقون على محبتهم وتعظيمهم وموالاتهم وإجلالهم، فانتموا إليهم وأظهروا من محبتهم وموالاتهم واللهج بذكرهم وذكر مناقبهم ما خيل إلى السامع أنهم

(١) الصواعق المرسلة لابن القيم ٢/٤٤٠ بتصرف.
(٢) السابق ٢/٤٤١ بتصرف.

أولياؤهم وأولى الناس بهم، ثم روجوا باطلهم وإفكهم بنسبته إليهم، فلا إله إلا الله كم من زندقة وإلحاد وبدعة وضلالة قد انتشرت في الوجود بنسبتها إليهم، وهم براء منها براءة الأنبياء من التجهم والتعطيل، وبراءة المسيح من عبادة الصليب والتثليث، وبراءة رسول الله من البدع والضلالات[١].

وإذا تأملت هذا السبب رأيته هو الغالب على أكثر النفوس، وليس معهم سوى إحسان الظن بالقائل بلا برهان من الله ولا حجة قادتهم إلى ذلك، وهذا ميراث بالتعصيب من الذين عارضوا دين الرسل بما كان عليه الآباء والأسلاف، فإنهم لحسن ظنهم بهم، وتعظيمهم لهم، آثروا ما كانوا عليه على ما جاءتهم به الرسل، وكانوا أعظم في صدورهم من أن يخالفوهم، ويشهدوا عليهم بالكفر والضلال، وإنهم كانوا على الباطل، وهذا شأن كل مقلد لمن يعظمه فيما خالف فيه الحق إلى يوم القيامة [٢].

ومن الأسباب أن يكون ذلك التأويل قد قبله ورضيه عالم بارز في صناعة من الصناعات، أو علم من العلوم الدقيقة أو الجليلة، فيعلو له بما برز به ذكر في الناس، ويشتهر له به صيت، فإذا سمع بعض العامة بقبوله لذلك التأويل وتلك البدعة واختياره له، أحسن الظن به وارتضاه مذهبا لنفسه، ورضي من قَبِلَه إماما له، وقال: إنه لم يكن ليختار مع جودة قريحته وذكائه وصحة ذهنه ومهارته بصناعته وعلوه فيها على بني جنسه إلا الأصوب والأفضل من الاعتقادات، والأرشد والأمثل من

---

(١) السابق ٢/٤٤١ وما بعدها بتصرف.

(٢) السابق ٢/٤٤٣ بتصرف.

التأويلات، وأين يقع اختياري من اختياره، فرضيت لنفسي ما رضيه لنفسه، فإن عقله وذهنه وقريحته إنما تدله على الصواب كما دلته على ما خفي عن غيره من صناعته وعلمه[1].

وهذه الآفة قد هلك بها أمم لا يحصيهم إلا الله، رأوا الفلاسفة قد برزوا في العلوم الرياضية والطبية واستنبطوا بعقولهم، وجودة قرائحهم، وصحة أفكارهم ما عجز أكثر الناس عن تعلمه، فضلا عن استنباطه، فقالوا للعلوم الإلهية والمعارف الربانية أسوة بذلك، فحالهم فيها مع الناس كحالهم في هذه العلوم سواء، فلا إله إلا الله كم أهلكت هذه البلية من أمة، وكم ضربت من دار، وكم أزالت من نعمة، وجلبت من نقمة، وجرّأت كثيرا من النفوس على تكذيب الرسل واستجهالهم، وما عرف أصحاب هذه الشبهة أن الله سبحانه قد يعطي أجهل الناس به وبأسمائه وصفاته وشرعه من الحذاقة في العلوم الرياضية والصنائع العجيبة، ما تعجز عنه عقول أعلم الناس به ومعارفهم[2].

قال بعض السلف: يبلغ من علم أحدهم بالدنيا، أنه ينقر الدرهم بظفره فيعلم وزنه، ولا علم له بشيء من دينه، وقال تعالى في علوم هؤلاء واغترارهم بها: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ غافر:٨٣ .

وقد فاوت الله سبحانه بين عباده فيما تناله عقولهم وأذهانهم أعظم تفاوت، والعقل يعطي صاحبه فائدته في النوع الذي يلزمه به ويشغله

---

(١) السابق ٢/٤٤٤ بتصرف.

(٢) السابق ٢/٤٤٥ بتصرف.

به، ويقصره عليه ما لا يعطيه في غيره، وإن كان غيره أسهل منه بكثير، كما يعطيه همته وقريحته في الصناعة التي هو معني بها ومقصور العناية عليها ما لا يعطيه في صناعة غيرها، وكثيرا ما تجد الرجل قد برز في اللطيف من أبواب العلم والنظر، وتخلف في الجليل منهما، هذا أمر واقع تحت العيان، فكيف وعلوم الأنبياء ومعارفهم من وراء طور العقل، والعقل وإن لم يستقل بإدراكها، فإنه لا يستحيل وجودها، بل إذا أوردت عليه أقر بصحتها وبادر إلى قبولها، وأذعن بالانقياد إليها، وعلم أن نسبة العلوم التي نالها الناس بأفكارهم إليها دون نسبة علوم الصبيان ومعارفهم إلى علوم هؤلاء بما لا يدرك (١).

- **لوازم التعطيل هي بذاتها لوازم الإعراض والجهل والتكذيب.**

والقصد أننا رأينا أغلب من يدافعون عن مذهب الخلف وأتباع الجهمية والمتمسكين بالمذاهب الكلامية كمذهب الأشعرية والماتريدية المنتشر في أغلب البلاد الإسلامية يردون النصوص الثابتة ويعطلونها، وإن سموا ذلك تنزيها لله عن مشابهة الحوادث إلا أنه لا يخلف في حقيقته عن انتفاء التصديق بكلام الله وخبره، ولا يخلف عن كفر من أعرض بجهله عن الإيمان الواجب الذي كان عليه الصحابة وعلماء السلف الصالح، إلا أن ما اعتقدوه و ما فعلوه من فرض هذا المذهب الخبيث لا يمكن إدخاله في الكفر الناقل عن الملة، وإنما هو كفر دون كفر، وهو في حقيقته كفر جهل وتكذيب، وربما يعذر كثير منهم بجهلهم لأنهم لم يجدوا في تكوين عقيدتهم غير ما درسوه وما تلقنوه

---

(٣) السابق ٢/٤٤٧ بتصرف.

من صغرهم، ومنهم أعلام مشاهير زاع صوتهم في وسائل الإعلام ويشار إليهم بالبنان.

وقد ذكر ابن تيمية أن هؤلاء مع إعراضهم عن الرسول ﷺ وإعراضهم عن تلقي الهدى من طريقه، هم متناقضون في قول مختلف، يؤفك عنه من أفك، فكل من أعرض عن الطريقة السلفية الشرعية الإلهية، فإنه لا بد أن يضل ويتناقض، ويبقى في الجهل المركب أو البسيط، وكان المقصود أولا بيان تناقض من أعرض عن الأدلة السمعية الشرعية في الأصول الخبرية كالصفات والنبوات والمعاد، وأنه من سلك طريقا يتناول به علم هذه الأمور غير الطريقة الشرعية النبوية، فإن قوله متناقض فاسد، وليس له قانون مستقيم يعتمد عليه، فكيف بمن عارضها بطريقة تناقضها، ويعتمد فيها على آراء متناقضة يحسبها براهين عقلية ومشاهدات ومخاطبات ربانية وهي خيالات فاسدة وأوهام باطلة، كما قال السهيلي: أعوذ بالله من قياس فلسفي وخيال صوفي(١).

وأما بيان فساد ذلك من جهة الرسل والإيمان بهم فمن المعلوم بالاضطرار من دين النبي ﷺ ودين أمته المؤمنين به بطلان لوازم القول بمعارضة العقل لكلام الله ورسوله ﷺ، وبطلان اللازم يدل على بطلان الملزوم، بل نعلم بالاضطرار أن من دينه أن لوازم هذا القول من أعظم الكفر والإلحاد، وذلك لأن لازم هذه المقالة وحقيقتها ومضمونها أن الرسول ﷺ لا يكون فيما أخبر به عن الله تعالى

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٣٥٧/٥ بتصرف.

وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، لا علم ولا هدى ولا كتاب منير، فلا يستفاد منه علم بذلك، ولا هدى يعرف به الحق من الباطل، ولا يكون الرسول ﷺ قد هدى الناس، ولا بلغهم بلاغا بينا، ولا أخرجهم من الظلمات إلى النور، ولا هداهم إلى صراط العزيز الحميد[1].

ومعلوم أن كثيرا من خطاب القرآن بل أكثره متعلق بالغيبيات وتوحيد الأسماء والصفات والأفعال، فإن الخطاب العلمي في القرآن أشرف من الخطاب العملي قدرا وصفة، فإذا كان هذا الخطاب لا يستفيدون منه معرفة، ولم يبين لهم الرسول ﷺ مراده ومقصوده بهذا الخطاب، بل إنما يرجع أحدهم في معرفة الأمور التي ذكرها ووصفها وأخبرهم عنها إلى مجرد رأيه وذوقه، فإن وافق خبر الرسول ﷺ ما عنده صدق بمفهوم ذلك ومقتضاه، وإلا أعرض عنه كما يعرض المسلم عن الإسرائيليات المنقولة عن أهل الكتاب كان هذا مما يعلم فساده بالاضطرار من دين الرسول ﷺ، وهذا يعلمه كل من علم ما دعا إليه الرسول ﷺ، سواء كان مؤمنا أو كافرا[2].

ولوازم هذا القول أنواع كثيرة من الكفر والإلحاد، وحينئذ فمذهب النفاة للصفات ليس من أئمته أحد من خيار هذه الأمة وسابقيها، وإنما أئمتهم الكبار القرامطة الباطنية من الإسماعيلية والنصيرية ونحوهم، ومن يوافق هؤلاء من ملاحدة الفلاسفة وملاحدة

---

(١) السابق ٥/٣٥٧ بتصرف.

(٢) السابق ٥/٣٥٨ بتصرف.

المتصوفة القائلين بالوحدة والحلول والاتحاد كابن سينا والفارابي وابن عربي وابن سبعين وأمثال هؤلاء، ثم من أمثل هؤلاء كأئمة الجهمية مثل الجهم بن صفوان والجعد بن درهم وأبي الهذيل العلاف وأبي إسحاق النظام وبشر المريسي وأمثال هؤلاء، فيكون ما أتى به هؤلاء من العلم والهدى والمعرفة أفضل وأشرف مما أتى به موسى ابن عمران ومحمد بن عبد الله سيد ولد آدم وأمثالهما من الرسل صلوات الله عليهم وسلامه، لأن هؤلاء عند النفاة الجهمية لم يبينوا أفضل العلم وأشرف المعرفة، وإنما بينها أولئك على قول النفاة[1].

ولازم هذا القول أن يكون هؤلاء الضالون عند النفاة أتباع الجهمية أفضل من الأنبياء والرسل في العلم بالله وبيان العلم بالله، وقد صرح أئمة هؤلاء بهذا، فابن عربي وأمثاله يقولون: إن الأنبياء والرسل يستفيدون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء، وأن هذا الخاتم يأخذ العلم من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به إلى الرسول. وطائفة من المتفلسفة يقولون: إن الفيلسوف أفضل من النبي وأكمل منه، وهكذا ملاحدة الشيعة من الإسماعيلية ونحوهم يقولون: إن أئمتهم كمحمد بن إسماعيل بن جعفر ونحوه أفضل من موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم أجمعين[2].

- تأويلات المتكلمين أتباع الجهمية تهدم أصول الإيمان والإسلام.

إن من أعظم آفات تأويلات أتباع الجهمية وجناياته أنه إذا سلط

(١) السابق ٥/٣٥٩ وما بعدها بتصرف.

(٢) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٥/٣٦٠ بتصرف.

على أصول الإيمان والإسلام اجتثها وقلعها، فإن أصول الإيمان خمسة وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأصول الإسلام خمسة، وهي كلمة الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، فعمد أرباب التأويل إلى أصول الإيمان والإسلام فهدموها بالتأويل[١].

وذلك أن معقد هذه الأصول العشرة تصديق الرسول فيما أخبر وطاعته فيما أمر، فعمدوا إلى أجل الأخبار وهو ما أخبر به عن الله من أسمائه وصفاته ونعوت كماله فأخرجوه عن حقيقته وما وضع له، وهذا القسم من الأخبار أشرف أنواع الخبر، والإيمان به أصل الإيمان بما عداه، واشتمال القرآن بل والكتب الإلهية عليه أكثر من اشتمالها على ما عداه، وتنوع الدلالة بها على ثبوت مخبره أعظم من تنوعها في غيره، وذلك لشرف متعلقة وعظمته، وشدة الحاجة إلى معرفته، وكانت الطرق إلى تحصيل معرفته أكثر وأسهل وأبين من غيره، وهذا من كمال حكمة الرب تبارك وتعالى وتمام نعمته وإحسانه، أنه كل ما كانت حاجة العباد إلى الشيء أقوى وأتم، كان بذله لهم أكثر، وطرق وصولهم إليه أكثر وأسهل، وهذا في الخلق والأمر، فإن حاجتهم لما كانت إلى الهواء أكثر من الماء والقوت ،كان موجودا معهم في كل مكان وزمان، وهو أكثر من غيره، وكذلك لما كانت حاجتهم بعده إلى الماء شديدة، إذ هو مادة أقواتهم ولباسهم وفواكههم وشرابهم، كان مبذولا لهم أكثر من غيره، وكذلك

---

(١) الصواعق المرسلة لابن القيم ١/٣٦٥ بتصرف.

حاجتهم إلى القوت لما كانت أشد من حاجتهم إلى الإيواء كان وجود القوت أكثر، وهكذا الأمر في مراتب الحاجات[1].

ومعلوم أن حاجتهم إلى معرفة ربهم وفاطرهم ومعبودهم جل جلاله فوق مراتب هذه الحاجات كلها، فإنه لا سعادة لهم ولا فلاح ولا صلاح ولا نعيم إلا بأن يعرفوه ويعبدوه، ويكون هو وحده غاية مطلوبهم ونهاية مرادهم، وذكره والتقرب إليه قرة عيونهم وحياة قلوبهم، فمتى فقدوا ذلك كانوا أسوأ حالا من الأنعام بكثير، وكانت الأنعام أطيب عيشا منهم في العاجل وأسلم عاقبة في الآجل، وإذا علم أن ضرورة العبد إلى معرفة ربه ومحبته وعبادته والتقرب إليه فوق كل ضرورة، كانت الطرق المعرفة لهم ذلك أيسر طرق العلم على الإطلاق وأسهلها، وأهداها وأقربها[2].

ومن ثم فإن التأويل الباطل المبني على التعطيل إن سلط على آيات التوحيد القولي العلمي المبني على تصديق الأخبار واليقين بأركان الإيمان، لزم تسليطه أيضا على آيات التوحيد العملي المبني على تنفيذ الأوامر وتحقيق أركان الإسلام، وعندها يفسد التوحيد معرفة وقصدا، فالتوحيد العلمي أساسه إثبات صفات الكمال للرب تعالى، ومباينته لخلقه، وتنزيهه عن العيوب والنقائص والتمثيل، والتوحيد العملي أساسه تجريد القصد بالحب والخوف والرجاء والتوكل والإنابة والاستعانة والاستغاثة والعبودية بالقلب واللسان

---

(١) السابق ١/٣٦٥ بتصرف.

(٢) السابق ١/٣٦٦ بتصرف.

والجوارح لله وحده، فمدار ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه على هذين التوحيدين، وأقرب الخلق إلى الله أقومهم بهما علما وعملا(١).

ولهذا كانت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أقرب الخلق إلى الله، وأقربهم إليه وسيلة أولو العزم، وأقربهم الخليلان، وخاتمهم سيد ولد آدم وأكرمهم على الله لكمال توحيده وعبوديته لله، فهذان الأصلان هما قطب رحى القرآن وعليهما مداره، وبيانهما من أهم الأمور، والله سبحانه بينهما غاية البيان بالطرق الفطرية والعقلية والنظرية والأمثال المضروبة، ونوع سبحانه الطرق في إثباتهما أكمل التنويع، بحيث صارت معرفة القلوب الصحيحة والفطر السليمة لها بمنزلة رؤية الأعين المبصرة التي لا آفة بها للشمس والقمر والنجوم والأرض والسماء، فذاك للبصيرة بمنزلة هذا للبصر، فإن سلط التأويل على التوحيد الخبري العلمي كان تسليطه على التوحيد العملي القصدي أسهل، وانمحت رسوم التوحيد، وقامت معالم التعطيل والشرك(٢).

ولهذا كان الشرك والتعطيل متلازمين، لا ينفك أحدهما عن صاحبه، وإمام المعطلين المشركين فرعون فهو إمام كل معطل ومشرك إلى يوم القيامة، كما أن إمام الموحدين إبراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما إلى يوم القيامة، فلا يأتي المعطل للتوحيد الخبري بتأويل إلا أمكن المشرك المعطل للتوحيد العملي أن يأتي بتأويل من

---

(١) السابق ٢/٤٠٣ بتصرف.

(٢) السابق ٢/٤٠٣ بتصرف.

جنسه، وقد اعترف بذلك حذاق الفلاسفة وفضلاؤهم، فقال أبو الوليد بن رشد في كتاب الكشف عن مناهج الأدلة القول في الجهة وأما هذه الصفة فلم يزل أهل الشريعة يثبتونها لله سبحانه حتى نفتها المعتزلة، ثم تبعهم على نفيها متأخرو الأشعرية كأبي المعالي ومن اقتدى بقوله، وظواهر الشرع كلها تقتضي إثبات الجهة مثل قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. ومثل قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ البقرة:٢٥٥ . ومثل قوله: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝١٧﴾ الحاقة:١٧. ومثل قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ السجدة:٥ . ومثل قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ المعارج:٤ . ومثل قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ الملك:١٦. إلى غير ذلك من الآيات التي إن سلط التأويل عليها عاد الشرع كله مؤولا، وإن قيل فيها إنها من المتشابهات عاد الشرع كله متشابها، لأن الشرائع كلها مبنية على أن الله في السماء وأن منه تنزل الملائكة بالوحي إلى النبيين وأن من السماء نزلت الكتب وإليها كان الإسراء بالنبي حتى قرب من سدرة المنتهى وجميع الحكماء قد اتفقوا على أن الله والملائكة في السماء كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك [1].

- لا يجوز تكفير الأشاعرة والمتكلمين وإخراجهم من الملة.

لا يجوز تكفير الأشاعرة والمتكلمين الخلف، ولا يجوز إخراجهم من

---

(١) السابق ٢/٤٠٣ : ٤٠٧ بتصرف.

الملة، لأن ما وقعوا فيه من تعطيل وتأويل بغير دليل إنما هو بظن ناشئ عن جهل مركب، وليس عن يقين في رد النصوص والتكذيب بها.

ولذلك قال ابن تيمية في شأنهم: (ثم إنه ما من هؤلاء إلا من له في الإسلام مساع مشكورة، وحسنات مبرورة، وله في الرد على كثير من أهل الإلحاد والبدع، والانتصار لكثير من أهل السنة ما لا يخفى على من عرف أحوالهم، وتكلم فيهم بعلم وصدق وعدل وإنصاف، لكن لما التبس عليهم هذا الأصل المأخوذ ابتداء عن المعتزلة، وهم فضلاء عقلاء احتاجوا إلى طرده والتزام لوازمه، فلزمهم بسبب ذلك من الأقوال ما أنكر المسلمون من أهل العلم والدين، وصار الناس بسبب ذلك؛ منهم من يعظمهم؛ لما لهم من المحاسن والفضائل، ومنهم من يذمهم؛ لما وقع في كلامهم من البدع والباطل، وخيار الأمور أوساطها، وهذا ليس مخصوصًا بهؤلاء، بل مثل هذا وقع لطوائف من أهل العلم والدين، والله تعالى يتقبل من جميع عباده المؤمنين الحسنات، ويتجاوز لهم عن السيئات: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ الحشر:١٠. ولا ريب أن من اجتهد في طلب الحق والدين من جهة الرسول، وأخطأ في بعض ذلك فالله يغفر له خطأه، تحقيقًا للدعاء الذي استجابه الله لنبيه وللمؤمنين حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ البقرة:٢٨٦. ومن اتبع ظنه وهواه، فأخذ يشنِّع على من خالفه بما وقع فيه من خطأ ظنه صوابًا بعد اجتهاده، وهو من البدع المخالفة للسنة، فإنه يلزمه نظير ذلك أو أعظم فيمن يعظمه هو من أصحابه، فقل من يسلم من مثل ذلك في

المتأخرين لكثرة الاشتباه والاضطراب، وبُعد الناس عن نور النبوة وشمس الرسالة الذي به يحصل الهدى والصواب، ويزول به عن القلوب الشك والارتياب) [1].

وهذه النقول لا تحتاج إلى تعليق، فهي تبين كيف أن شيخ الإسلام رحمه الله وهو يرد عليهم ويناقشهم لم ينسَ فضائلهم وجهودهم، بل نوه بها في مواطن كثيرة تكون لنفس البشرية فيها محبة للتقليل من شأن الخصم وتنقيصه، وعلى الرغم من مناقشاته الشديدة لهم إلا أنه ذكر ما عندهم من إيجابية وما لهم من جهود في خدمة الإسلام والدفاع عنه، ولا بد في الحكم عليهم من التفريق بين العقيدة المسطرة في الكتب وبين أصحابها، فما يحكم على ما هو مدون أو منقول من عقائد هؤلاء المبتدعة وأدلتهم ومناقشاتهم، وبيان ما فيها من خطأ أو صواب، ليس كالحكم على الشخص نفسه صاحب العقيدة، فلا بد من تلمس العذر قدر المستطاع فربما يكون صادقا في خدمته للإسلام، ولا يحمل غشا لأهله، ولذلك فهو لا يتعمد الكذب والافتراء، أو أنه مجتهد، وأن هذا الذي قاله هو مبلغ علمه، أو أنه كان مقلدا لغيره في هذه المسائل، وربما يكون ممن قدر رجع وتاب، وصرح بذلك في آخر عمره ولم يعلم، كما ينبغي ألا يجحد لهؤلاء على أخطائهم جهودهم في الدفاع عن دينهم وجهاد الأعداء وفي الجملة فإن خير الأمور في النظر إليهم أوسطها[2].

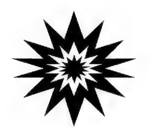
قال ابن تيمية في معرض ذكره ذم السلف لأهل الكلام من الأشاعرة

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٢/١٠٢ بتصرف ١٤١٧هـ .

(٢) موقف ابن تيمية من الأشاعرة ٣/١٩٩.

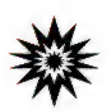
وغيرهم: (وإن كان في كلامهم من الأدلة الصحيحة وموافقة السنة ما لا يوجد في كلام عامة الطوائف، فإنهم أقرب طوائف أهل الكلام إلى السنة والجماعة والحديث، وهم يعدون من أهل السنة والجماعة عند النظر إلى مثل المعتزلة والرافضة وغيرهم، بل هم أهل السنة والجماعة في البلاد التي يكون أهل البدع فيها هم المعتزلة والرافضة ونحوهم) [(١)].



(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية لابن تيمية ٨٧/٢.

المطلب التاسع عشر

صلاح القلب وتعلق الظاهر من أعمال الإيمان
بأعمال القلب في الإنسان



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا فيما سبق عن كفر الجهل والتكذيب بين الإعراض عن معرفة الرسالة وتعطيل نصوصها، وبينا أن الحجة قامت على الناس أجمعين ببعثة سيد الأنبياء والمرسلين، وبينا حقيقة الكفر الناشئ عن الجهل والإعراض عن الرسالة، والكفر الناشئ عن التكذيب والإعراض عن الرسالة.

وعلمنا حكم من لم تبلغه الدعوة ولم يسمع بنبي الإسلام ﷺ أو رسالته، وتحدثنا عن كفر الجهل ولوازمه من انتفاء قول اللسان وعمل القلب والجوارح، وبينا أن مفهوم الجاهلية في القرآن والسنة يقابل معرفة الحق وقبوله والانقياد له، وعلمنا مظاهر انتشار سنن الجاهلية في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، وبينا أن كفر الجهل والإعراض يجتمع فيه جهل النفس وتزيين الشيطان.

وقد تحدثنا أيضا عن حكم الجاهل الذي يعيش بين المسلمين ولا يفهم خطاب الشرع، وعلمنا أن كفر الجهل والتكذيب قد يكون كفرا

أصغر لا يخرج عن الملة، وعرضنا أسباب قبول النفوس الجاهلة لتعطيل كلام الله والإعراض عنه، وأن لوازم التعطيل هي بذاتها لوازم الإعراض والجهل والتكذيب، وأن تأويلات المتكلمين أتباع الجهمية تهدم أصول الإيمان والإسلام، وبالرغم من تلك التأويلات فلا يجوز تكفير الأشاعرة والمتكلمين وإخراجهم من الملة.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن صلاح القلب وارتباط الظاهر من أعمال الإيمان بأعمال القلب في الإنسان.

- **دلالة مصطلح تصديق القلب عند السلف والمرجئة.**

علمنا أن القلب فيه منطقتان، أحدهما منطقة حديث النفس، وقد جعلها الله ﷻ محلا للخواطر والأفكار، وتحتوي على ركنين نفسيين ونازعين ذاتيين متقابلين ومتضادين، أحدهما يدعوا إلى التقوى والإيمان والآخر يدعو إلى الفجور والعصيان، وقد جعل الله ﷻ لمنطقة حديث النفس أيضا ركنين خارجيين فأوجد مع كل إنسان هاتفين قرينين متقابلين ومتضادين، ليس لأحدهما جبر أو غلبة على إرادة الإنسان، الأول هو الملك والثاني هو الشيطان.

وقد علمنا أن الهاتفين والنازعين يسهمان في تشكيل الخواطر في قلب الإنسان، وأنهما أصل لكل قول يرد في الجنان خيرا كان أو شرا، وقد جعل الله ﷻ بين النازعين والهاتفين عقلا يمثل صمام الأمان للإنسان، بحيث يتمكن الإنسان من ضبط كل أنواع القول، فيمكن للعقل أن يقرر الحكم على كل قول ومدى صدقه أو كذبه إن كان خبرا، أو نفعه وضرره إن كان أمرا، فالعقل يقلب الأمور ويفكر

ويتصور ويقرر الحكم في كل كلام يصدر في نفس الإنسان من الأفكار والخواطر والدواعي والابتلاءات التي تتوالى على القلب، والتي يميز العقل فيها بين ما ينفعه وما يضره، وفق منهج يقيس من خلاله معاني الخير والشر، سواء كان المنهج منهجا يحدد الشرع والنقل، أو كان منهجا يحدده العرف والعقل.

وحقيقة قول القلب عند النظر إلى تحقيق ما ثبت من النقل ووصف القرآن والسنة لمنطقة حديث النفس، فإن قول القلب هو الكلام الذي يحدث به الإنسان نفسه مما يُلقى في خاطره، إما من نازع الخير الذي يقلبه الرحمن، أو خواطر هوى النفس في الإنسان، أو لمة الملك الموكل بمقارنة الجنان، أو وسواس العدو وهتاف الشيطان، أو ما يجتمع من الخواطر الناتجة عن مؤثرات الحواس في الإنسان، وكل ما يحدث له في الخارج مما يقع لبدن الإنسان مما يبتلى به في كل زمان ومكان.

كل هذا يسمى قولا للقلب لأنه معبر عن الحقيقة في نفس الأمر والكائنة فيه، وهو المشار إليه برفع المؤاخذة علية، وعدم المساءلة عما يدور في النفس، كما صح الخبر في عند البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفُسها ما لَمْ يتكلمُوا، أو يعملوا به) [(١)].

(١) رواه البخاري في كتاب الطلاق، باب الطلاق في الإغلاق والكره والسكران والمجنون ٥/٢٠٢٠ (٤٩٦٨)، ومسلم واللفظ له في كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر ١/١١٦ (١٢٧).

وقال قتادة: (إذا طلق في نفسه فليس بشيء)[1].

وقد علمنا أيضا أن العقل في القلب كالحجاب الفاصل بين منطقة حديث النفس ومنطقة الكسب، وهو يقوم بتحصيل المعلومات وجمعها من حواس الإنسان، أو منطقة حديث النفس في الجنان، ثم يحللها ويصنف الحدث المرافق لها، ويضيف أحكامه إليها، كالحكم بتصديق الخبر وتكذيبه، أو الحكم بالمصلحة أو المفسدة في تنفيذ الأمر أو عصيانه، ثم يخزنها العقل في ذاكرة الإنسان، الذي بدوره يقوم باستدعائها بتوجيه من الإرادة ومنطقة الكسب، فالإرادة الكائنة في القلب في منطقة الكسب هي المسئولة عن ملء العقل بالمعلومات، أو تركه خاليا جاهلا فارغا.

وبعد معرفة ما في القلب من الأركان سواء في منطقة حديث النفس أو منطقة الكسب نحاول تحديد المراد بمصطلح قول القلب الذي استخدم كثيرا في الحديث عن الإيمان بين السلف والمرجئة، فربما يطلق البعض مصطلح قول القلب ويراد به علم القلب أو بتعبير آخر العلم الذي حصله العقل واستخلصه من مجموعة الخواطر والكلام الداخلي في منطقة حديث النفس، أو بتعبير آخر العلم الذي حصله العقل من مجموع كلمات القول الباطني الذي تصب فيه سائر المعلومات من النازعين والهاتفين والحواس الخارجية.

وربما يطلق البعض قول القلب ويراد به حكم العقل على مجموع

---

(١) رواه البخاري معلقا في كتاب الطلاق ٥/٢٠٢٠، وانظر تغليق التعليق لابن حجر العسقلاني ٤/٤٥٩.

المعلومات التي تحصلت فيه وتجمعت عنده، فيحكم عليها بالصدق أو الكذب لما هو خبر، أو النفع أو الضرر لما هو طلب، ونعني بالطلب الطلب التكليفي والأمر بالتوجيهي السلوكي الذي تلتزمه الإرادة أو لا تلزمه، وكذلك التزام جميع أعمال القلوب به أو عدم التزامها، وهنا ربما يطلق على قول القلب مصطلح تصديق القلب ويقينه، أو تكذيب القلب وشكه وظنه، وهذا هو الذي اكتفت به مرجئة الجهمية في حدهم لمسمى الإيمان وضابطه عندهم لما قالوا الإيمان يدل بالمطابقة على المعرفة بالقلب أو تصديق القلب فقط.

وربما يطلق قول القلب ويراد به إقرار الإرادة واستعدادها لحث البدن على العمل بمقتضى العلم وأحكامه، وكذلك استعداد جميع أعمال القلب التي في منطقة الكسب واستجابتها للعمل بمقتضى صحة الحكم الذي أصدره العقل على مجموع المعلومات التي تحصلت فيه وتجمعت عنده، فيحكم عليها بالصدق أو الكذب لما هو خبر، أو النفع أو الضرر لما هو أمر وطلب، وهذا هو المسمى بالاعتقاد الموجب للعمل، أو التصديق الباعث على الفعل والمحرك لأعمال القلوب، أو اليقين النافع للإنسان، أو بتعبير أدق الإيمان الكائن في الجنان، وهو ما يعنيه السلف الصالح إذا قالوا الإيمان تصديق بالجنان وقول باللسان وعمل بالجوارح والأركان، فإنهم لا يعنون بالتصديق مجرد العلم والمعرفة، أو الحكم بصدق القائل أو كذبه فقط، فهذا ظن الجهمية والمرجئة، وإنما يقصدون الحكم بالتصديق الذي يصدره العقل والمتحقق في علم القلب من جهة، ثم استجابة الإرادة والمحبة وجميع أعمال القلب لمقتضى هذا الحكم من جهة أخرى، ليتشكل منهما الاعتقاد الإيماني الراسخ في

قلب المؤمن، وهذا الاعتقاد الإيماني أو الإيمان القلبي الباطن يستحيل وجوده في القلب مع انتفاء القول والعمل في ظاهر البدن، وهذا هو الإيمان الموافق للفطرة، والذي إن وجد في القلب ظهر أثره على الجسد كله، وإذا انعدم في القلب انعدم أثره في الجسد كله ما عدا النفاق، وهذا بتمامه هو ما عبر عنه النبي ﷺ فيما ورد عند البخاري من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه حيث قال: (ألا وإن في الجسد مُضْغة، إذا صلحت صلح الجسد كُلهُ، وإذا فسدت فسد الجسد كُلهُ، ألا وهي القلبُ) [١].

- **عمل القلب هو محور الإيمان أو عدمه في توجه الإنسان .**

يمثل عمل القلب محور الإيمان أو عدمه في توجه الإنسان، فالكفر والإيمان مرده إلى اختيار الإنسان وإرادته.

قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ الإسراء:١٨/٢٠.

وقد علمنا فيما سبق أن منطقة الكسب من أدلة الاختيار ومقوماته في الإنسان، وهي التي تحوي عمل القلب على الجملة، أو جميع أعمال القلوب ومشيئة الإنسان واختياراته على التفصيل، فالقلب مصدر أصيل للنيات والإرادات، وهو السبب الباعث للحركات والسكنات، وعلى حدوث النية في الإنسان تقع المساءلة عن إرادته للكفر أو الإيمان، بل تقع المساءلة في الآخرة على كل ما يكتسبه الإنسان في

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه ١/٢٨ (٥٢).

الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ الروم: ٤١.

وقال ابن القيم: (الأحْكام في الدنيا والآخرة مرتبة على ما كسبه القلب، وعقد عليه، وأراده من معنى كلامه) [(١)].

ومن ثم فإن محور الإيمان أو عدمه في توجه الإنسان هو عمل القلب والاستعداد التام للخضوع والطاعة والانقياد، وليس على مجرد علمه وحكمه اليقيني على الشيء بالصلاح أو الفساد، أو الصدق أو الكذب، دون إرادة للصلاح ومحبة له، أو إرادة للفساد ومحبة له، فصلاح الإنسان مبني على صلاح القلب، وصلاح القلب مبني على إدراك العلم وتحصيله ثم عقد النية واستجابة الإرادة للعمل بمقتضاه، ثم ظهور أثره على الجسد كله، وهذا حقيقة الاعتقاد الحق وتصديق الحق وقبوله.

وطلب العلم بأحكام العبودية، أو إرادة الله الشرعية التكليفية من وظائف الإرادة وصدق النية، والإرادة في القلب مسئولة عن أجهزة الإدراك البشرية، فجهاز الإدراك في الإنسان يمد القلب بالعلم وما ورد من أدلة الحكم وفق رغبة الإرادة تحقيق هدايتها أو توليها وإعراضها، والقلب هو محل العقل والإرادة معا، أو هو محل العلم والعمل معا، أو هو محل القول والعمل في باطن الإنسان، كما أن البدن هو محل القول والعمل في ظاهره، فالقلب هو المسئول الأول عن تحصيل العلم وحصوله فيه، وهو المسئول الأول عن الإيمان بمقضاه واستعداده للعمل بموجبه، وهو المسئول الأول عن قول اللسان وشهادة الحق والنطق بها،

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم ٤/٣٢٢.

وهو المسئول الأول عن عمل الجوارح وقيادتها إلى النجاة من عذاب الله في الدنيا والآخرة.

قال ابن تيمية: (وأصل الإيمان قول القلب الذي هو التصديق وعمل القلب الذي هو المحبة على سبيل الخضوع، إذ لا ملائمة لأرواح العباد أتم من ملائمة إلهها الذي هو الله الذي لا اله إلا هو، ولما كان الإيمان جامعا لهذين المعنيين، وكان تعبير من عبر عنه بمجرد التصديق ناقصا قاصرا، انقسمت الأمة إلى ثلاث فرق، فالجامعون حققوا كلا معنييه من القول التصديقي والعمل الإرادي، وفريقان فقدوا أحد المعنيين، فالكلاميون غالب نظرهم وقولهم في الثبوت والانتفاء والوجود والعدم والقضايا التصديقية، فغايتهم مجرد التصديق والعلم والخبر، والصوفيون غالب طلبهم وعملهم في المحبة والبغض والإرادة والكراهة والحركات العملية، فغايتهم المحبة والانقياد والعمل والإرادة.

وأما أهل العلم والإيمان فجامعون بين الأمرين بين التصديق العلمي والعمل الحبي، ثم إن تصديقهم عن علم، وعملهم وحبهم عن علم، فسلموا من آفتي منحرفة المتكلمة والمتصوفة، وحصلوا ما فات كل واحدة منهما من النقص، فإن كلا المنحرفين له مفسدتان:

أحداهما: القول بلا علم إن كان متكلما، والعمل بلا علم إن كان متصوفا، وهو ما وقع من البدع الكلامية والعملية المخالفة للكتاب والسنة.

والثاني: فوت المتكلم العمل، وفوت المتصوف القول والكلام، وأهل السنة الباطنة والظاهرة كان كلامهم وعملهم باطنا وظاهرا بعلم، وكان

كل واحد من قولهم وعملهم مقرونا بالآخر.

وهؤلاء هم المسلمون حقا، الباقون على الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فإن منحرفة أهل الكلام فيهم شبه من اليهود، ومنحرفة أهل التصوف فيهم شبه من النصارى، ولهذا غلب على الأولين جانب الحروف وما يدل عليه من العلم والاعتقاد، وعلى الآخرين جانب الأصوات وما يثيره من الوجد والحركة) [(١)].

وذكر ابن تيمية في معرض رده على من اعترض على قوله في الإيمان، والذي عبر به عن اعتقاد الفرق الناجية فقال: (ما اعترض به المنازعون المعاندون على قولنا: ومن أصول الفرقة الناجية أن الإيمان والدين قول وعمل يزيد وينقص، قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح.

قال المنازعون: فإذا قيل إن هذا من أصول الفرقة الناجية خرج عن الفرقة الناجية من لم يقل بذلك، مثل أصحابنا المتكلمين الذين يقولون: إن الإيمان هو التصديق، ومن يقول الإيمان هو التصديق والإقرار، وإذا لم يكونوا من الناجين لزم أن يكونوا هالكين؟

قال ابن تيمية: فأجبتهم عن الأسئلة بأن قولي اعتقاد الفرقة الناجية هي الفرقة التي وصفها النبي ﷺ بالنجاة حيث قال: تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة، وهى من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي. فهذا الاعتقاد هو المأثور عن

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢/٤٠ : ٤٢.

النبي ﷺ وأصحابه ﷺ، وهم ومن اتبعهم الفرقة الناجية، فإنه قد ثبت عن غير واحد من الصحابة ﷺ أنه قال: الإيمان يزيد وينقص، وكل ما ذكرته في ذلك فإنه مأثور عن الصحابة ﷺ بالأسانيد الثابتة، لفظه ومعناه، وإذا خالفهم من بعدهم لم يضرهم في ذلك.

ثم قلت لهم: وليس كل من خالف في شيء من هذا الاعتقاد يجب أن يكون هالكا، فإن المنازع قد يكون مجتهدا مخطئا يغفر الله خطأه، وقد لا يكون بلغه في ذلك من العلم ما تقوم به عليه الحجة، وقد يكون له من الحسنات ما يمحو الله به سيئاته، وإذا كانت ألفاظ الوعيد المتناولة له لا يجب أن يدخل فيها المتأول والقانت وذو الحسنات الماحية والمغفور له وغير ذلك، فهذا أولى، بل موجب هذا الكلام أن من اعتقد ذلك نجا في هذا الاعتقاد، ومن اعتقد ضده فقد يكون ناجيا، وقد لا يكون ناجيا كما يقال: من صمت نجا) (١).

• معرفة دلالة الألفاظ في مسألة الإيمان والإسلام من أنفع الأمور.

ذكر ابن تيمية أن من أنفع الأمور في معرفة دلالة الألفاظ مطلقا وخصوصا ألفاظ الكتاب والسنة، وبه تزول شبهات كثيرة كثر فيها نزاع الناس، من جملتها مسألة الإيمان والإسلام، فإن النزاع في مسماهما أول اختلاف وقع افترقت الأمة لأجله، وصاروا مختلفين في الكتاب والسنة، وكفر بعضهم بعضا، وقاتل بعضهم بعضا.

والمقصود هنا بيان شرح كلام الله ورسوله ﷺ على وجه يبين أن الهدى كله مأخوذ من كلام الله ورسوله ﷺ بإقامة الدلائل الدالة، لا

(١) مجموع الفتاوى ١٧٧/٣.

بذكر الأقوال التي تقبل بلا دليل، وترد بلا دليل، أو يكون المقصود بها نصر غير الله والرسول ﷺ، فإن الواجب أن يقصد معرفة ما جاء به الرسول ﷺ، واتباعه بالأدلة الدالة على ما بينه الله ورسوله ﷺ.

ومن هذا الباب أقوال السلف وأئمة السنة في تفسير الإيمان، فتارة يقولون: هو قول وعمل، وتارة يقولون: هو قول وعمل ونية، وتارة يقولون: قول وعمل ونية واتباع السنة، وتارة يقولون: قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، وكل هذا صحيح، فإذا قالوا: قول وعمل؛ فانه يدخل في القول قول القلب واللسان جميعا، وهذا هو المفهوم من لفظ القول والكلام ونحو ذلك إذا أطلق.. ومن قال من السلف الإيمان قول وعمل أراد قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح، ومن أراد الاعتقاد رأى أن لفظ القول لا يفهم منه إلا القول الظاهر، أو خاف ذلك فزاد الاعتقاد بالقلب، ومن قال قول وعمل ونية، قال القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان، وأما العمل فقد لا يفهم منه النية فزاد ذلك، ومن زاد اتباع السنة فلأن ذلك كله لا يكون محبوبا لله إلا باتباع السنة.

وأولئك الذين قالوا: الإيمان قول وعمل لم يريدوا كل قول وعمل، إنما أرادوا ما كان مشروعا من الأقوال، ولكن كان مقصودهم الرد على المرجئة الذين جعلوه قولا فقط، فقالوا: بل هو قول وعمل. والذين جعلوه أربعة أقسام، قول وعمل ونية واتباع السنة، فسروا مرادهم كما سئل سهل بن عبد الله التستري عن الإيمان ما هو؟ فقال: قول وعمل ونية وسنة، لأن الإيمان إذا كان

قولا بلا عمل فهو كفر، وإذا كان قولا وعملا بلا نية فهو نفاق، وإذا كان قولا وعملا ونية بلا سنة فهو بدعة[١].

ولفظ الإيمان إذا أطلق في القرآن والسنة يراد به ما يراد بلفظ البر، وبلفظ التقوى، وبلفظ الدين، فإن النبي ﷺ بين أن الإيمان بضع وسبعون شعبة، أفضلها قول لا اله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، فكان كل ما يحبه الله ﷻ يدخل في اسم الإيمان، وكذلك لفظ البر يدخل فيه جميع ذلك إذا أطلق، وكذلك لفظ التقوى وكذلك لفظ الدين أو دين الإسلام، وكذلك روي أنهم سألوا عن الإيمان فأنزل الله هذه الآية، ليس البر أن تولوا وجوهكم الآية، وقد فسر البر بالإيمان، وفسر بالتقوى، وفسر بالعمل الذي يقرب إلى الله، والجميع حق[٢].

- مرجئة الجهمية ظنت أن الإيمان هو تصديق القلب وعلمه دون عمله.

قال ابن تيمية: (إن الإيمان أصله الإيمان الذي في القلب، ولابد فيه من شيئين، تصديق بالقلب وإقراره ومعرفته، ويقال: لهذا قول القلب، قال الجنيد بن محمد: التوحيد قول القلب، والتوكل عمل القلب، فلابد فيه من قول القلب وعمله، ثم قول البدن وعمله، ولابد فيه من عمل القلب مثل حب الله ورسوله ﷺ، وخشية الله وحب ما يحبه الله ورسوله ﷺ، وبغض ما يبغضه الله ورسوله ﷺ، وإخلاص العمل لله وحده، وتوكل القلب على الله وحده، وغير ذلك من أعمال القلوب التي

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٧١/٧.
(٢) السابق ١٧٩/٧.

أوجبها الله ورسوله، وجعلها من الإيمان[1].

ثم القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: (ألا وإن في الجسد مُضْغة، إذا صلحت صلح الجسد كُلهُ، وإذا فسدت فسد الجسد كُلهُ، ألا وهي القلبُ) [2].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده. وقول أبي هريرة رضي الله عنه تقريب للمعنى، وقول النبي ﷺ أحسن بيانا منه، فإن الملك وإن كان صالحا فالجند لهم اختيار، قد يعصون به ملكهم وبالعكس، فيكون فيهم صلاح مع فساده، أو فساد مع صلاحه، بخلاف القلب فإن الجسد تابع له لا يخرج عن إرادته قط، كما قال النبي ﷺ: "إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد". فإذا كان القلب صالحا بما فيه من الإيمان علما وعملا قلبيا، لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر، والعمل بالإيمان المطلق، كما قال أئمة أهل الحديث: قول وعمل، قول باطن وظاهر، وعمل باطن وظاهر، والظاهر تابع للباطن لازم له، متى صلح الباطن صلح الظاهر، وإذا فسد فسد، ولهذا قال من قال من الصحابة رضي الله عنهم عن المصلي العابث: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه[3]. فلابد في إيمان القلب من حب الله ورسوله ﷺ، وأن يكون

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٨٦/٧.

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه ٢٨/١ (٥٢).

(٣) رواه ابن أبي شيبة ٨٦/٢ (٦٧٨٧)، انظر إرواء الغليل للألباني ٩٢/٢ (٣٧٣).

الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ البقرة: ١٦٥. فوصف الذين آمنوا بأنهم أشد حبا لله من المشركين لأندادهم.. فيمتنع أن يكون الإنسان محبا لله ورسوله ﷺ مريدا لما يحبه الله ورسوله ﷺ إرادة جازمة مع قدرته على ذلك وهو لا يفعله، فإذا لم يتكلم الإنسان بالإيمان مع قدرته، دل على أنه ليس في قلبه الإيمان الواجب الذي فرضه الله ﷻ عليه) [(١)] .

ثم يقرر شيخ الإسلام أنه من هنا يظهر خطأ قول جهم بن صفوان ومن اتبعه حيث ظنوا أن الإيمان مجرد تصديق القلب وعلمه، ولم يجعلوا أعمال القلب من الإيمان، وظنوا أنه قد يكون الإنسان مؤمنا كامل الإيمان بقلبه، وهو مع هذا يسب الله ورسوله، ويعادى الله ورسوله، ويعادى أولياء الله، ويوالى أعداء الله، ويقتل الأنبياء، ويهدم المساجد، ويهين المصاحف، ويكرم الكفار غاية الكرامة، ويهين المؤمنين غاية الإهانة. قالوا: وهذه كلها معاص لا تنافي الإيمان الذي في قلبه، بل يفعل هذا وهو في الباطن عند الله مؤمن. قالوا: وإنما ثبت له في الدنيا أحكام الكفار، لأن هذه الأقوال أمارة على الكفر ليحكم بالظاهر، كما يحكم بالإقرار والشهود، وإن كان في الباطن قد يكون بخلاف ما أقر به، وبخلاف ما شهد به الشهود، فإذا أورد عليهم الكتاب والسنة والإجماع على أن الواحد من هؤلاء كافر في نفس الأمر معذب في الآخرة؟ قالوا: فهذا دليل على انتفاء التصديق والعلم من قلبه، فالكفر

---

(١) مجموع الفتاوى ١٨٨/٧.

عندهم شيء واحد وهو الجهل، والإيمان شيء واحد وهو العلم، أو تكذيب القلب وتصديقه، فإنهم متنازعون هل تصديق القلب شيء غير العلم أو هو هو؟

وهذا القول مع أنه أفسد قول قيل في الإيمان، فقد ذهب إليه كثير من أهل الكلام المرجئة، وقد كفر السلف كوكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وأبى عبيد القاسم بن سلام وغيرهم من يقول بهذا القول، وقالوا: إبليس كافر بنص القرآن، وإنما كفره باستكباره وامتناعه عن السجود لآدم عليه السلام، لا لكونه كذب خبرا، وكذلك فرعون وقومه قال الله تعالى فيهم: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ النمل: ١٤.

وقال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ الإسراء:١٠٢. بعد قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ الإسراء:١٠١/١٠٢.

فموسى وهو الصادق المصدوق يقول: لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر، فدل على أن فرعون كان عالما بأن الله عز وجل أنزل الآيات وهو فيهم، وكما كان جحود من كفر من المشركين بالنبي محمد ﷺ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ الأنعام:٣٣. [1]

(١) مجموع الفتاوى ٧/١٨٩.

وهؤلاء المرجئة غلطوا في أصلين:

١- أحدهما: ظنهم أن الإيمان مجرد تصديق وعلم فقط، ليس معه عمل وحال وحركة، وإرادة ومحبة وخشية في القلب، وهذا من أعظم غلط المرجئة مطلقا، فإن أعمال القلوب التي يسميها بعض الصوفية أحوالا ومقامات، أو منازل السائرين إلى الله، أو مقامات العارفين، أو غير ذلك، كل ما فيها مما فرضه الله ورسوله ﷺ فهو من الإيمان الواجب، وفيها ما أحبه ولم يفرضه فهو من الإيمان المستحب، فالأول لابد لكل مؤمن منه، ومن اقتصر عليه فهو من الأبرار أصحاب اليمين، ومن فعله وفعل الثاني كان من المقربين السابقين، وذلك مثل حب الله ورسوله ﷺ، بل أن يكون الله ورسوله ﷺ أحب إليه مما سواهما، بل أن يكون الله ورسوله ﷺ والجهاد في سبيله أحب إليه من أهله وماله، ومثل خشية الله وحده دون خشية المخلوقين، ورجاء الله وحده دون رجاء المخلوقين، والتوكل على الله وحده دون المخلوقين، والإنابة إليه مع خشيته، كما قال تعالى: ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ ق:٣٢/٣٣. ومثل الحب في الله والبغض في الله، والموالاة لله والمعاداة لله.

٢- الثاني: ظنهم أن كل من حكم الشارع بأنه كافر مخلد في النار، فإنما ذاك لأنه لم يكن في قلبه شيء من العلم والتصديق، وهذا أمر خالفوا به الحس والعقل والشرع، وما أجمع عليه طوائف بني آدم السليمي الفطرة وجماهير النظار، فإن الإنسان قد يعرف أن الحق مع غيره، ومع هذا يجحد ذلك لحسده إياه، أو لطلب علوه عليه، أو لهوى

النفس، ويحمله ذلك الهوى على أن يعتدي عليه، ويرد ما يقول بكل طريق، وهو في قلبه يعلم أن الحق معه، وعامة من كذب الرسل علموا أن الحق معهم وأنهم صادقون، لكن كفروا إما لحسدهم، وإما لإرادتهم العلو والرياسة، وإما لحبهم دينهم الذي كانوا عليه، وما يحصل لهم به من الأغراض كأموال ورياسة وصداقة أقوام وغير ذلك، فيرون في اتباع الرسل ترك الأهواء المحبوبة إليهم، أو حصول أمور مكروهة إليهم فيكذبونهم ويعادونهم، فيكونون من أكفر الناس، كإبليس وفرعون مع علمهم بأنهم على الباطل والرسل على الحق، ولهذا لا يذكر الكفار حجة صحيحة تقدح في صدق الرسل، إنما يعتمدون على مخالفة أهوائهم كقولهم لنوح عليه السلام: ﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ الشعراء:١١١. ومعلوم أن اتباع الأرذلين له لا يقدح في صدقه لكن كرهوا مشاركة أولئك كما طلب المشركون من النبي ﷺ إبعاد الضعفاء، كسعد بن أبي وقاص وابن مسعود وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وبلال ونحوهم، وكان ذلك بمكة قبل أن يكون في الصحابة أهل الصفة، فأنزل الله تبارك وتعالى:

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ الأنعام:٥٢/٥٣.

ومثل قول فرعون: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ المؤمنون:٤٧. وقول فرعون: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩﴾ الشعراء:١٨/١٩.

ومثل قول مشركي العرب: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ القصص:٥٧. قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ القصص:٥٧.

ومثل قول قوم شعيب له: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ هود:٨٧ .

ومثل قول عامة المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣﴾ الزخرف:٢٣.

وهذه الأمور وأمثالها ليست حججا تقدح في صدق الرسل، بل تبين أنها تخالف إرادتهم وأهوائهم وعاداتهم، فلذلك لم يتبعوهم وهؤلاء كلهم كفار، بل أبو طالب وغيره كانوا يحبون النبي ﷺ، ويحبون علو كلمته، وليس عندهم حسد له، وكانوا يعلمون صدقه، ولكن كانوا يعلمون أن في متابعته فراق دين آبائهم، وذم قريش لهم فما احتملت نفوسهم ترك تلك العادة واحتمال هذا الذم، فلم يتركوا الإيمان لعدم العلم بصدق الإيمان به، بل لهوى النفس، فكيف يقال: إن كل كافر إنما كفر لعدم علمه بالله؟ (١).

قال ابن تيمية في تقرير الوجوه التي كانت سببا في غلط المرجئة ومن قال بقولهم: (أحدها أن العلم والتصديق مستلزم لجميع موجبات

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/١٩٠، ٧/ ١٩٣.

الإيمان. الثاني: ظن الظان أن ما في القلوب لا يتفاضل الناس فيه. الثالث: ظن الظان أن ما في القلب من الإيمان المقبول يمكن تخلف القول الظاهر والعمل الظاهر عنه. الرابع: ظن الظان أن ليس في القلب إلا التصديق وأن ليس الظاهر إلا عمل الجوارح.

والصواب أن القلب له عمل مع التصديق، والظاهر قول ظاهر وعمل ظاهر، وكلاهما مستلزم للباطن، والمرجئة أخرجوا العمل الظاهر عن الإيمان، فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضا وجعلها هي التصديق، فهذا ضلال بين، ومن قصد إخراج العمل الظاهر قيل لهم العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه، وانتفاء الظاهر دليل انتفاء الباطن، فبقي النزاع في أن العمل الظاهر هل هو جزء من مسمى الإيمان يدل عليه بالتضمن أو لازم لمسمى الإيمان؟ والتحقيق أنه تارة يدخل في الاسم، وتارة يكون لازما للمسمى بحسب إفراد الاسم واقترانه، فإذا قرن الإيمان بالإسلام كان مسمى الإسلام خارجا عنه كما في حديث جبريل عليه السلام، وإن كان لازما له، وكذلك إذا قرن الإيمان بالعمل كما في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ يونس:٩. فقد يقال اسم الإيمان لم يدخل فيه العمل وإن كان لازما له، وقد يقال بل دخل فيه وعطف عليه عطف الخاص على العام، وبكل حال فالعمل تحقيق لمسمى الإيمان وتصديق له، ولهذا قال طائفة من العلماء كالشيخ أبي إسماعيل الأنصاري وغيره: الإيمان كله تصديق، فالقلب يصدق ما جاءت به الرسل، واللسان يصدق ما في القلب، والعمل يصدق القول، كما يقال صدق عمله قوله، ومنه قول

النبي ﷺ: العينان تزنيان وزناهما النظر، والأذنان تزنيان وزناهما السمع، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي، والقلب يتمنى ويشتهى، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه) [(١)].

- الرد على زعم مرجئة الجهمية أن كل كافر إنما كفر لعدم علمه بالله.

ذكر ابن تيمية أن الجهمية لم يكفتوا بأن جعلوا كل كافر جاهلا بالحق حتى قالوا: هو لا يعرف أن الله موجود حق. والكفر عندهم ليس هو الجهل بأي حق كان، بل الجهل بهذا الحق المعين.

ثم بين أنه شخصيا، بل وجميع الناس يرون خلقا من الكفار يعرفون في الباطن أن دين الإسلام حق، ويذكرون ما يمنعهم من الإيمان، إما معاداة أهلهم، وإما مال يحصل لهم من جهتهم يقطعونه عنهم، وإما خوفهم إذا آمنوا أن لا يكون لهم حرمة عند المسلمين كحرمتهم في دينهم، وأمثال ذلك من أغراضهم التي يبينون أنها المانعة لهم من الإيمان مع علمهم بأن دين الإسلام حق، ودينهم باطل، وهذا موجود في جميع الأمور التي هي حق، يوجد من يعرف بقلبه أنها حق، وهو في الظاهر يجحد ذلك، ويعادي أهله لظنه أن ذلك يجلب له منفعة ويدفع عنه مضرة.

قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/٥٥٥، والحديث رواه أبو داود في كتاب النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر ٢/٢٤٧ (٢١٥٣)، وأحمد في المسند ٢/٣٤٣ (٨٥٠٧)، وصححه الألباني، انظر إرواء الغليل (٢٣٧٠).

مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ المائدة: ٥١/٥٢.

والمفسرون متفقون على أنها نزلت بسبب قوم ممن كان يظهر الإسلام وفي قلبه مرض، خاف أن يغلب أهل الإسلام فيوالي الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم للخوف الذي في قلوبهم، لا لاعتقادهم أن محمدا ﷺ كاذب واليهود والنصارى صادقون.

وأشهر النقول في ذلك أن عبادة بن الصامت ﷺ قال: يا رسول الله، إن لي موالى من اليهود، وإني أبرأ إلى الله من ولاية يهود، فقال عبد الله بن أبيّ: لكني رجل أخاف الدوائر، ولا أبرأ من ولاية يهود، فنزلت هذه الآية (١).

والمرجئة الذين قالوا إن الإيمان تصديق القلب وقول اللسان والأعمال ليست منه، كان منهم طائفة من فقهاء الكوفة وعبادها، ولم يكن قولهم مثل قول جهم، فعرفوا أن الإنسان لا يكون مؤمنا إن لم يتكلم بالإيمان مع قدرته عليه، وعرفوا أن إبليس وفرعون وغيرهما كفار مع تصديق قلوبهم فأضافوا قول اللسان، لكن خطأهم أنهم إذا لم يدخلوا أعمال القلوب في الإيمان لزمهم قول جهم، وإن أدخلوها في الإيمان لزمهم دخول أعمال الجوارح أيضا، فإنها لازمة لها، ولكن هؤلاء لهم حجج شرعية بسببها اشتبه الأمر عليهم، فإنهم رأوا أن الله قد فرق في كتابه بين الإيمان والعمل فقال في غير موضع: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره ٦/٢٧٥.

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ البقرة:٢٧٧. ورأوا أن الله ﷻ خاطب الإنسان بالإيمان قبل وجود الأعمال فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ ﴾ المائدة:٦. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ الجمعة:٩ [(١)].

وقالوا في حججهم الباطلة: لو أن رجلا آمن بالله ورسوله ﷺ ضحوة ومات قبل أن يجب عليه شيء من الأعمال مات مؤمنا، وكان من أهل الجنة، فدل ذلك على أن الأعمال ليست من الإيمان.

وقالوا أيضا في حججهم الباطلة: نحن نسلم أن الإيمان يزيد بمعنى أنه كان كلما أنزل الله آية وجب التصديق بها، فانضم هذا التصديق إلى التصديق الذي كان قبله، لكن بعد كمال ما أنزل الله ﷻ ما بقي الإيمان يتفاضل عندهم، بل إيمان الناس كلهم سواء، إيمان السابقين الأولين كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، أو إيمان أفجر الناس كالحجاج بن يوسف الثقفي.

والمرجئة المتكلمون منهم والفقهاء يقولون: إن الأعمال قد تسمى إيمانا مجازا؛ لأن العمل ثمرة الإيمان ومقتضاه، ولأنها دليل عليه، فدلالة الإيمان على العمل عندهم ليست دلالة تضمن كما هو اعتقاد السلف أهل الحق، وإنما دلالتها عندهم دلالة التزام، فالعمل خارج عن مسمى الإيمان. ويقولون: في قوله ﷺ: الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق.

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/١٩٤ بتصرف.

يقولون: العمل إنما هو على سبيل المجاز[1].

ويذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن المرجئة في تنوع أقوالهم على ثلاثة أصناف:

١- القول الأول: وهو للذين يقولون الإيمان هو مجرد ما في القلب من علم وتصديق، ثم من هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب، وهم أكثر فرق المرجئة، ومنهم من لا يدخلها في الإيمان كجهم ومن اتبعه كصالح بن عمر الصالحي المرجئ؛ رأس الصالحية، حيث زعم صالح هذا أن الإيمان هو معرفة الله على الإطلاق، وهو أن للعالم صانعا فقط، وقال أيضا: والكفر هو الجهل به على الإطلاق؛ وزعم: وقول القائل ثالث ثلاثة ليس بكفر، وزعم أيضا أن معرفة الله تعالى هي محبته والخضوع له؛ وزعم أن الصلاة ليست من عبادة الله تعالى، ولا عبادة له إلا الإيمان به، وهو معرفته، والمعرفة خصلة واحدة لا تزيد ولا تنقص، وكذلك الكفر خصلة واحدة لا تزيد ولا تنقص[2].

٢- القول الثاني: قول من يقول هو مجرد قول اللسان، وهذا لا يعرف لأحد قبل محمد كرام أبي عبد الله السجستاني شيخ الطائفة الكرامية (ت:٢٥٥هـ) الذي كان من عباد المرجئة، فقد زعم هو وأتباعه أن الإيمان قول مجرد، أو قول مفرد، وهو قول لا إله إلا الله

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/١٩٥ بتصرف.

(٢) انظر الوافي بالوفيات للصفدي ١٦/١٥٤ نشر دار إحياء التراث بيروت ١٤٢٠هـ والملل والنحل للشهرستاني ١/١٤٥.

سواء اعتقد أو لا، والمنافق على زعمهم مؤمن[1].

٣- القول الثالث: تصديق القلب وقول اللسان، وهذا هو المشهور عن أهل الفقه والعبادة من المرجئة، ويطلق عليهم مرجئة الفقهاء، وهم أهل الكوفة كأبي حنيفة رحمه الله وأصحابه، وأول من قال منهم بأن الأعمال غير داخلة في مسمى الإيمان، هو حماد بن أبي سليمان شيخ الإمام أبي حنيفة، ولكن الأعمال مطلوبة عندهم كالصلاة والزكاة والصوم والحج، فالواجبات واجبات، والمحرمات محرمات ومن فعل الواجب، فإنه يستحق الثواب والمدح، ومن فعل الكبائر فإنه يستحق العقوبة ويقام عليه الحد، ولكن لا يسمون العمل إيمانا، ويقولون الإنسان عليه واجبان، واجب الإيمان وواجب العمل، ولا يدخل أحدهما في مسمى الآخر.

- **الإيمان الذي فرضه الله على عباده ليس متماثلا في حقهم جميعا.**

بين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وجوه الخطأ الذي وقعت فيه المرجئة بأنواعهم المختلفة، وأن أول ما وقعوا فيه من الباطل هو ظنهم أن الإيمان الذي فرضه الله على العباد متماثل في حق العباد، وأن الإيمان الذي يجب على شخص يجب مثله على كل شخص، وليس الأمر

---

(١) محمد بن كرام بن عراق السجستاني، أبو عبد الله، إمام الكرامية، كان زاهداً عابداً، لكنه إمام في البدعة، من الغلاة في الإثبات للصفات يروي الواهيات، توفي سنة ٢٥٥هـ، انظر في ترجمته سير أعلام النبلاء للذهبي ٥٢٣/١١، ولسان الميزان لابن حجر ٣٥٣/٥، وانظر البدء والتأريخ للمطهر بن طاهر المقدسي ١٤١/٥ نشر مكتبة الثقافة الدينية ، العبر في خبر من غبر للذهبي ١٦/٢ نشر مطبعة حكومة الكويت.

كذلك، فإن أتباع الأنبياء المتقدمين أوجب الله عليهم من الإيمان ما لم يوجبه على أمة محمد ﷺ، وأوجب على أمة محمد ﷺ من الإيمان ما لم يوجبه على غيرهم، والإيمان الذي كان يجب قبل نزول جميع القرآن ليس هو مثل الإيمان الذي يجب بعد نزول القرآن.

وكذلك الإيمان الذي يجب على من عرف ما أخبر به الرسول ﷺ مفصلا ليس مثل الإيمان الذي يجب على من عرف ما أخبر به مجملا، فإنه لابد في الإيمان من تصديق الرسول ﷺ في كل ما أخبر، لكن من صدق الرسول ﷺ ومات عقب ذلك لم يجب عليه من الإيمان غير ذلك، وأما من بلغه القرآن والأحاديث وما فيهما من الأخبار والأوامر المفصلة، فيجب عليه من التصديق المفصل بخبر خبر وأمر أمر ما لا يجب على من لم يجب عليه إلا الإيمان المجمل لموته قبل أن يبلغه شيء آخر.

وأيضا لو قدر أنه عاش فلا يجب على كل واحد من العامة أن يعرف كل ما أمر به الرسول ﷺ، وكل ما نهى عنه، وكل ما أخبر به، بل إنما عليه أن يعرف ما يجب عليه هو، وما يحرم عليه هو، فمن لا مال له لا يجب عليه أن يعرف أمره المفصل في الزكاة، ومن لا استطاعة له على الحج ليس عليه أن يعرف أمره المفصل بالمناسك، ومن لم يتزوج ليس عليه أن يعرف ما وجب للزوجة، فصار يجب من الإيمان تصديقا وعملا على أشخاص ما لا يجب على آخرين[1].

وبهذا يظهر الجواب عن شبهتهم وقولهم: إن الناس خوطبوا بالإيمان قبل الأعمال، فدل ذلك على أن الأعمال ليست من الإيمان،

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/١٩٦ بتصرف.

ونقول: إن قلتم إنهم خوطبوا به قبل أن تجب تلك الأعمال، فقبل وجوبها لم تكن من الإيمان، وكانوا مؤمنين الإيمان المجمل الواجب عليهم قبل أن يفرض عليهم ما خوطبوا بفرضه من أحكام التكليف والعبودية، فلما نزل التكليف والعمل إن لم يقروا بوجوبه وتنفيذه لم يكونوا مؤمنين. ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ آل عمران:٩٧.

ولهذا لم يجئ ذكر الحج في أكثر الأحاديث التى فيها ذكر الإسلام والإيمان، كحديث وفد عبد القيس، وحديث الرجل النجدي الذي يقال له ضمام بن ثعلبة وغيرهما، وإنما جاء ذكر الحج في حديث ابن عمر وجبريل[١].

وذلك لأن الحج آخر ما فرض من الأركان الخمسة، فكان الحج قبل فرضه لا يدخل في الإيمان والإسلام، فلما فرض أدخله النبي ﷺ في الإيمان إذا أفرد، وأدخله في الإسلام إذا قرن بالإيمان وإذا أفرد.

وكذلك قولهم من آمن ومات قبل وجوب العمل عليه مات مؤمنا، فصحيح لأنه أتى بالإيمان المجمل الواجب عليه، والعمل لم يكن وجب عليه بعد، فهذا مما يجب أن يعرف، فإنه تزول به شبهة حصلت للطائفتين، وهما الكرامية الذين قالوا: الإيمان مجرد قول اللسان، ومرجئة الفقهاء الذين قالوا: تصديق القلب وقول اللسان، فإذا قال أهل السنة والحديث إن الأعمال الواجبة من الإيمان، فالإيمان الواجب

---

(١) السابق ١٩٧/٧ بتصرف.

متنوع، ليس شيئا واحدا في حق جميع الناس.

وأهل السنة والحديث يقولون بأن جميع الأعمال الحسنة واجبها ومستحبها من الإيمان، أي من الإيمان الكامل عند فعل المستحبات وبلوغ درجة المقربين السابقين بالخيرات، وليست جميع الأعمال تَأخُذ في حكمها التكليفي درجة المستحبات، كما يقول الفقهاء بأن الغسل ينقسم إلى مجزئ وكامل، فالمجزئ ما أتى فيه بالواجبات فقط، والكامل ما أتى فيه بالمستحبات، ولفظ الكمال قد يراد به الكمال الواجب، وقد يراد به الكمال المستحب[1].

• الرد على المرجئة في قولهم إن الله فرق بين الإيمان والعمل.

زعمت المرجئة أن العمل لا يدخل في مسمى الإيمان لأن الله فرق بين الإيمان والعمل في مواضع كثيرة من القرآن كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾المائدة:٩٣.

وقوله:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾البقرة:٢٧٧.

وقوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾البقرة: ٨٢.

وقوله تعالى:﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ

(١) السابق ٧/١٩٨ بتصرف.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧﴾ آل عمران: ٥٧.

وجواب ذلك أن يقال: ذكر العمل بعد الإيمان ليس دليلا على قولهم بأن العمل خارج عن مسمى الإيمان، وإنما الإيمان إذا أطلق في القرآن والسنة أدخل الله ورسوله فيه الأعمال المأمور بها، وقد يقرن به الأعمال لأن أصل الإيمان هو ما في القلب، والأعمال الظاهرة لازمة لذلك، ولا يتصور وجود إيمان القلب الواجب على العبد مع انعدام جميع أعمال الجوارح، بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذي في القلب، فصار الإيمان متناولا للملزوم واللازم بدلالة التضمن، وإن كان أصله ما في القلب، وحيثما عطفت الأعمال على الإيمان فالمراد أنه لا يكتفي في الإيمان بإيمان القلب، بل لابد معه من الأعمال الصالحة في البدن(١).

ومن المعلوم في الدلالة اللغوية أن المعطوف قد يدخل في المعطوف عليه أولا، ثم يذكر بعد ذلك باسمه الخاص تخصيصا له وتوكيدا لدخوله في الأول، وهذا معلوم في كل ما عطف فيه خاص على عام، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾البقرة:٩٨. وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ٧﴾ الأحزاب:٧. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ محمد:٢. فخص الإيمان بما نزل على محمد ﷺ بعد قوله والذين آمنوا.

(١) مجموع الفتاوى ٧/١٩٨ بتصرف.

وهذه نزلت في الصحابة وغيرهم من المؤمنين[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ البقرة: ٢٣٨. وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾البينة: ٥.

والصلاة والزكاة من العبادة فقوله: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ البقرة: ٨٢. كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ﴾البينة: ٥. فإنه قصد أولا أن تكون العبادة لله وحده لا لغيره، ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان داخلتان في الإيمان، فلا يكتفى بمطلق العبادة الخالصة دونهما [2].

وكذلك يذكر الإيمان أولا لأنه الأصل الذي لابد منه، ولا بد من استقراره في القلب، ثم يذكر العمل الصالح بعهده حتى لا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان قلبي ليس معه عمل، فالعمل الصالح ركن من الدين والإيمان ولابد منه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ البقرة: ١/٥.

وقد قيل إن هؤلاء هم أهل الكتاب الذين آمنوا بما أنزل عليه، وما

(١) السابق ٧/١٩٩ بتصرف.
(٢) السابق ٧/١٩٩ بتصرف.

أنزل على من قبله، كعبد الله بن سلام ﷺ ونحوه، وأن هؤلاء نوع غير النوع المتقدم الذين يؤمنون بالغيب[١].

وقد قيل هؤلاء جميع المتقدمين الذين آمنوا بما أنزل إليه، وما أنزل من قبله، وهؤلاء هم الذين يؤمنون بالغيب وهم صنف واحد، وإنما عطفوا لتغاير الصفتين كقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾ الأعلى: ١/٥. فهو سبحانه واحد، وعطف بعض صفاته على بعض، وكذلك قوله: والصلاة الوسطى وهي صلاة العصر.

والصفات إذا كانت معارف كانت للتوضيح، وتضمنت المدح أو الذم، تقول: هذا الرجل هو الذي فعل كذا، وهو الذي فعل كذا، وهو الذي فعل كذا، تعدد محاسنه، وهذا القول هو الصواب، فإن المؤمنين بالغيب إن لم يؤمنوا بما أنزل إليه، وما أنزل من قبله، لم يكونوا على هدى من ربهم، ولا مفلحين ولا متقين[٢].

وكذلك الذين آمنوا بما أنزل إليه، وما أنزل من قبله إن لم يكونوا من الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقهم الله ينفقون لم يكونوا على هدى من ربهم، ولم يكونوا مفلحين، ولم يكونوا متقين، فدل على أن الجميع صفة المهتدين المتقين الذين اهتدوا بالكتاب المنزل إلى محمد ﷺ، فقد عطفت هذه الصفة على تلك مع أنها داخلة فيها، لكن المقصود صفة إيمانهم، وأنهم يؤمنون بجميع ما أنزل الله ﷻ على

---

(١) السابق ٧/١٩٩ بتصرف.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/٢٠٠ بتصرف.

أنبيائه، لا يفرقون بين أحد منهم، وإلا فإذا لم يذكر إلا الإيمان بالغيب، فقد يقول من يؤمن ببعض ويكفر ببعض نحن نؤمن بالغيب(١).

ولما كانت سورة البقرة سنام القرآن ويقال إنها أول سورة نزلت بالمدينة، افتتحها الله بأربع آيات في صفة المؤمنين، وآيتين في صفة الكافرين، وبضع عشرة آية في صفة المنافقين، فإنه من حين هاجر النبي صار الناس ثلاثة أصناف، إما مؤمن، وإما كافر مظهر للكفر، وإما منافق بخلاف ما كانوا وهو بمكة، فإنه لم يكن هناك منافق، ولهذا قال أحمد بن حنبل وغيره: لم يكن من المهاجرين منافق، وإنما كان النفاق في قبائل الأنصار، فإن مكة كانت للكفار مستولين عليها، فلا يؤمن ويهاجر إلا من هو مؤمن، ليس هناك داع يدعو إلى النفاق، والمدينة آمن بها أهل الشوكة والقوة فصار للمؤمنين بها عز ومنعة بالأنصار، فمن لم يظهر الإيمان آذوه وأظهروه كفره، فاحتاج المنافقون إلى إظهار الإيمان مع أن قلوبهم لم تؤمن(٢).

والله تعالى افتتح سورة البقرة ووسط البقرة وختم البقرة بالإيمان بجميع ما جاءت به الأنبياء، فقال في أولها ما تقدم ذكره، وقال في وسطها: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ

---

(١) السابق ٧/٢٠٠ بتصرف.

(٢) السابق ٧/٢٠١ بتصرف.

أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ البقرة:١٣٦/١٣٨ [(١)].

وقال في آخرها: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ البقرة:٢٨٥/٢٨٦.

وفي الصحيحين من حديث أبي مسعود البدْريّ ﷺ أن النبي ﷺ قال: (منْ قرأ بالآيتيْن منْ آخر سُورة البقرة في ليْلة كفتاهُ) [(٢)].

ومن ثم فإن الأعمال الصالحة المعطوفة على الإيمان دخلت في الإيمان، وعطفت عليه عطف الخاص على العام، أو عطفت عليه لئلا يظن الظان أن مجرد إيمانه بدون الأعمال الصالحة اللازمة للإيمان يوجب الوعد، فكان ذكرها تخصيصا وتنصيصا ليعلم أن الثواب الموعود به في الآخرة وهو الجنة بلا عذاب لا يكون إلا لمن آمن وعمل صالحا، لا يكون لمن ادعى الإيمان ولم يعمل، وقد بين سبحانه في غير موضع أن الصادق في قوله آمنت لابد أن يقوم بالواجب، وحصر الإيمان في هؤلاء يدل على انتفائه عمن سواهم[(٣)].

---

(١) السابق ٧/٢٠١ بتصرف.

(٢) البخاري في فضائل القرآن، باب فضل سورة البقرة ٤/١٩١٤ (٤٧٢٢)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة ١/٥٥٥ (٨٠٨).

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/٢٠٢ بتصرف.

قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ النور:٤٧/٥٢.

- إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة.

لقد ظهر غلط المرجئة في ظنهم أن ما في القلب من الإيمان ليس إلا حكم العقل بتصديق الخبر فقط، دون قيام أعمال القلوب واستجابتها، أو ظنهم أن الإيمان الذي في القلب يكون تاما بدون شيء من أعمال الجوارح، ولهذا يجعلون الأعمال ثمرة زائدة على الإيمان، ولا يجعلونها لازمة له، والتحقيق أن إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة، ويمتنع أن يقوم بالقلب إيمان تام بدون عمل ظاهر، ولهذا صاروا يتصورون ويقررون مسائل يمتنع وقوعها أو يمتنع تصور وجودها في الواقع لعدم تحقق الارتباط الذي بين البدن والقلب، مثل ادعائهم أن الرجل يمكن أن يكون في قلبه من الإيمان مثل ما في قلب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وهو لا يسجد لله سجدة، ولا يصوم رمضان، ويزنى بأمه وأخته، ويشرب الخمر نهار رمضان، يقولون هذا مؤمن تام الإيمان، ومن ثم أنكر عليهم ذلك سائر المؤمنين غاية الإنكار[1].

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/٢٠٤ بتصرف.

قال الإمام الشافعي: (ما يحتج على أهل الأرجاء بآية أحج من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾البينة:٥) [١].

وقال أيضا في كتاب الأم في باب النية في الصلاة: (يحتج بأن لا تجزئ صلاة إلا بنية بحديث عمر بن الخطاب ﷺ عن النبي ﷺ: إنما الأعمال بالنيات. ثم قال: وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم، ومن أدركناهم يقولون: الإيمان قول وعمل ونية، لا يجزئ واحد من الثلاث إلا بالآخر) [٢].

وذكر ابن تيمية قول محمد بن حماد الحميدي: (أخبرت أن ناسا يقولون من أقر بالصلاة والزكاة والصوم والحج، ولم يفعل من ذلك شيئا حتى يموت ويصلى مستدبر القبلة حتى يموت، فهو مؤمن ما لم يكن جاحدا، إذا علم أن تركه ذلك فيه إيمانه إذا كان مقرا بالفرائض واستقبال القبلة، فقلت: هذا الكفر الصراح، وخلاف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعلماء المسلمين، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾البينة:٥.
وقال حنبل سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول: من قال هذا فقد كفر بالله، ورد على أمره وعلى الرسول ﷺ ما جاء به عن الله) [٣].

---

(١) أحكام القرآن للشافعي ٤٠/١ نشر دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٠هـ، وانظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٨٨٦/٥.
(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٨٨٦/٥ .
(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٠٩/٧ بتصرف.

وأما احتجاج المرجئة بقوله ﷺ للأمة: اعتقها فإنها مؤمنة. فهو من حججهم المشهورة، وبه احتج أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب (ت:بعد٢٤٠هـ) الذي تنسب إليه الكلابية، وكان يقول الإيمان هو التصديق والقول جميعا، فكان قوله أقرب من قول جهم وأتباعه، وهذا لا حجة فيه[1].

- **القرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه.**

والقرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه كقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ النور:٤٧/٥٢ . فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول ﷺ وأخبر أن المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا، فبين أن هذا من لوازم الإيمان [2].

فإن قيل إذا كان الإيمان المطلق يتناول جميع ما أمر الله به ورسوله فمتى ذهب بعض ذلك بطل الإيمان، فيلزم تكفير أهل الذنوب كما

---

(١) السابق ٢٠٩/٧ بتصرف.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٢١/٧ بتصرف.

تقوله الخوارج، أو تخليدهم في النار، وسلبهم اسم الإيمان بالكلية كما تقوله المعتزلة، وكلا هذين القولين شر من قول المرجئة، فإن المرجئة منهم جماعة من العلماء والعباد المذكورين عند الأمة بخير، وأما الخوارج والمعتزلة فأهل السنة والجماعة من جميع الطوائف مطبقون على ذمهم.

قيل أولا ينبغي أن يعرف أن القول الذي لم يوافق أحد من أهل السنة الخوارج والمعتزلة عليه هو القول بتخليد أهل الكبائر في النار، فإن هذا القول من البدع المشهورة، وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين على أنه لا يخلد في النار أحد ممن في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

واتفقوا أيضا على أن نبينا ﷺ يشفع فيمن يأذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها وأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة) [1].

وقد نقل بعض الناس عن الصحابة رضي الله عنهم في ذلك خلافا كما روى عن ابن عباس أن القاتل لا توبة له، وهذا غلط على الصحابة رضي الله عنهم فإنه لم يقل أحد منهم أن النبي ﷺ لا يشفع لأهل الكبائر، ولا قال أنهم يخلدون في النار .

وأما قول القائل إن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله، فهذا ممنوع وهذا هو الأصل الذي تفرعت عنه البدع في الإيمان، فإنهم ظنوا أنه

---

(١) البخاري في الدعوات، باب لكل نبي دعوة مستجابة ٥/٢٣٢٣ (٥٩٤٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب اختباء النبي دعوة الشفاعة لأمته ١/١٨٩ (١٩٩).

متى ذهب بعضه ذهب كله، لم يبق منه شيء، ثم قالت الخوارج والمعتزلة هو مجموع ما أمر الله به ورسوله، وهو الإيمان المطلق كما قاله أهل الحديث قالوا فإذا ذهب شيء منه لم يبق مع صاحبه من الإيمان شيء فيخلد في النار.

وقالت المرجئة على اختلاف فرقهم لا تُذهب الكبائر وترك الواجبات الظاهرة شيئا من الإيمان، إذ لو ذهب شيء منه لم يبق منه شيء، فالإيمان عندهم شيء واحد يستوي فيه البر والفاجر، ونصوص الرسول وأصحابه تدل على ذهاب بعضه وبقاء بعضه، كقوله: يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

ولهذا كان أهل السنة والحديث على أنه يتفاضل، وجمهورهم يقولون يزيد وينقص، ومنهم من يقول يزيد، ولا يقول ينقص، ومنهم من يقول يتفاضل، وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان منه عن الصحابة ﷺ ولم يعرف فيه مخالف من الصحابة ﷺ. وعند مسلم من حديث حذيفَة ﷺ أنه سمِع رسول اللهِ ﷺ يقُول: (تعرضُ الفِتن على القُلوبِ كَالحصِير عودا عودا، فَأَي قَلبٍ أُشْرِبَهَا نكِت فِيهِ نكْتة سوداءُ، وأي قَلبٍ أنكَرَهَا نكِت فِيهِ نكْتة بَيضَاءُ حتى تصِير على قَلبَين، على أَبْيضَ مِثل الصَّفَا فَلا تضُرهُ فِتنة مَا دامَت السمَاوات والأَرضُ، والآخَر أَسود مُربَادا كَالكُوز مُجخِّيا، لا يعرفُ مَعروفًا ولا ينكِر مُنكَرا إِلا مَا أُشْرِبَ مِن هَواهُ) (١).

(١) مسلم في الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا ١/١٢٨ (١٤٤)، والمجخي المائل عن الاستقامة والاعتدال، والمرباد المتغير سواده بكُدْرَة والصفا:جمع الصفاة وهي الصخرة الملساء.

وروى مسلم من حديث أَبِي عُثْمَان النَّهْدِي عَنْ حنظله الأسَيِّدي ﷺ أنه قَال: (لقِينِي أَبو بكْرٍ الصديق فقَال: كَيفَ أَنْت يا حَنْظَلة؟ قُلت: نَافَقَ حنظله. قَال سُبحَانَ اللهِ مَا تقُول؟ قُلت: نَافَقَ حَنْظَلةُ يا أبا بكر. نَكُونُ عِنْد رَسُول الله ﷺ يذكِّرُنَا بالنَّارِ وَالجَنَّةِ حتى كَأَنَّا رَأْي عَين، فَإِذا خَرَجْنَا مِنْ عِنْد رَسُول الله ﷺ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاد وَالضَّيِّعَات، فَنسِينَا كَثيرًا. قَال أَبو بكْرٍ: فَوَاللهِ إِنَّا لنَلقَى مِثل هَذا. فَانْطَلَقْت أَنَا وَأَبو بكْرٍ حتى دخَلنَا على رَسُول الله ﷺ. قُلت: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يا رَسُول الله. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: وَمَا ذاكَ؟ قُلت: يا رَسُول الله نَكُونُ عِنْدكَ تذكِّرُنَا بالنَّارِ وَالجَنَّةِ حتى كَأَنَّا رَأْي عَين، فَإِذا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاد وَالضَّيِّعَات نَسِينَا كَثيرًا. فَقَال رَسُول الله ﷺ: وَالذي نَفْسِي بيدهِ لوْ تدومُونَ على مَا تكُونُونَ عِنْدي وَفِي الذكْر، لصَافَحَتكُمُ المَلائِكَةُ على فُرُشِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يا حَنْظَلةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، وَلَكِنْ يا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، وَلَكِنْ يا حَنْظَلةُ سَاعَةً وَسَاعَةً) [(١)].

وفى حديث حذيفة وحديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب كفاية، فإنه من أعظم الأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه لأنه وصفهم بقوة الإيمان وزيادته في تلك الخصال التي تدل على قوة إيمانهم وتوكلهم على الله في أمورهم كلها.

والزيادة قد نطق بها القرآن في عدة آيات كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا

---

(١) رواه مسلم في كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة ٤/٢١٠٦ (٢٧٥٠)، والترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع ٤/٦٦٦ (٢٥١٤).

ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾الأنفال: ٢. وهذه زيادة إذا تليت عليهم الآيات أي وقت تليت ليس هو تصديقهم بها عند النزول، وهذا أمر يجده المؤمن إذا تليت عليه الآيات زاد في قلبه بفهم القرآن ومعرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن حتى كأنه لم يسمع الآية إلا حينئذ، ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرهبة من الشر ما لم يكن، فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته وهذه زيادة الإيمان.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ آل عمران: ١٧٣. فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو، لم تكن عند آية نزلت، فازدادوا يقينا وتوكلا على الله وثباتا على الجهاد، وتوحيدا بأن لا يخافوا المخلوق بل يخافون الخالق وحده.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ التوبة:١٢٤/١٢٥. وهذه الزيادة ليست مجرد التصديق بأن الله أنزلها بل زادتهم إيمانا بحسب مقتضاها، فان كانت أمرا بالجهاد أو غيره ازدادوا رغبة، وان كانت نهيا عن شيء انتهوا عنه فكرهوه، ولهذا قال: وهم يستبشرون، والاستبشار غير مجرد التصديق.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ

ﭐلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ ﴾ الرعد:٣٦. والفرح بذلك من زيادة الإيمان قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ يونس:٥٨. وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ﴾ الروم:٤/٥.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا ﴾ المدثر: ٣١.

وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾ الفتح:٤ . وهذه نزلت لما رجع النبي ﷺ وأصحابه من الحديبية، فجعل السكينة موجبة لزيادة الإيمان، والسكينة طمأنينة في القلب غير علم القلب وتصديقه، ولهذا قال يوم حنين: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ التوبة:٢٥/٢٦.

وقال تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ التوبة: ٤٠.

ولم يكن قد نزل يوم حنين قرآن ولا يوم الغار، وإنما أنزل سكينته

وطمأنينته من خوف العدو، فلما أنزل السكينة في قلوبهم مرجعهم من الحديبية ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، دل على أن الإيمان المزيد حال للقلب وصفة له، وعمل مثل طمأنينته وسكونه ويقينه.

واليقين قد يكون بالعمل والطمأنينة كما يكون بالعلم، والريب المنافي لليقين يكون ريبا في العلم وريبا في طمأنينة القلب، ولهذا جاء في الدعاء المأثور الذي رواه الترمذي أن ابن عمر ﷺ قال: قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: (اللهمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا) [(١)]. فاليقين عند المصائب بعد العلم بأن الله قدرها سكينة القلب وطمأنينته وتسليمه، وهذا من تمام الإيمان بالقدر خيره وشره.

ولفظ الإيمان أكثر ما يذكر في القرآن مقيدا فلا يكون ذلك اللفظ متناولا لجميع ما أمر الله به، بل يكون موجبا للوازمه وتمام ما أمر به، وحينئذ يتناوله الاسم المطلق.

قال تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝٧ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٩﴾ الحديد:٧/٩.

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات ٥/٥٢٨ (٣٥٠٢)، وحسنه الألباني، انظر صحيح الجامع (١٢٦٨).

وقال تعالى في آخر السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨)﴾ الحديد:٢٨.

وقد قال بعض المفسرين في الآية الأولى أنها خطاب لقريش وفي الثانية أنها خطاب لليهود والنصارى، وليس كذلك فإن الله لم يقل قط للكفار يا أيها الذين آمنوا، ثم قال بعد ذلك: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ الحديد: ٢٩ [1].

وهذه السورة مدنية باتفاق لم يخاطب بها المشركين بمكة، وقد قال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨)﴾ الحديد:٨. وهذا لا يخاطب به كافر، وكفار مكة لم يكن أخذ ميثاقهم، وإنما أخذ ميثاق المؤمنين ببيعتهم له، فإن كل من كان مسلما مهاجرا كان يبايع النبي ﷺ كما بايعه الأنصار ليلة العقبة، وإنما دعاهم إلى تحقيق الإيمان وتكميله بأداء ما يجب من تمامه باطنا وظاهرا، كما نسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم في كل صلاة، وإن كان قد هدى المؤمنين للإقرار بما جاء به الرسول ﷺ جملة، لكن الهداية المفصلة في جميع ما يقولونه ويفعلونه في جميع أمورهم لم تحصل، وجميع هذه الهداية الخاصة المفصلة هي من الإيمان المأمور به، وبذلك يخرجهم الله من الظلمات إلى النور[2].

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/٢٣٠ بتصرف.

(٢) السابق ٧/٢٣١ بتصرف.

- **الإيمان القلبي لا يكون إيمانا بمجرد التصديق دون عمل القلب.**

ذكر ابن تيمية أن الإيمان الذي يكون في القلب لا يكون إيمانا بمجرد تصديق ليس معه عمل القلب وموجبه، من محبة الله ورسوله ﷺ ونحو ذلك، كما أنه لا يكون إيمانا بمجرد ظن وهوى، بل لابد في أصل الإيمان من قول القلب وعمل القلب.

وليس لفظ الإيمان مرادفا للفظ التصديق، كما يظنه طائفة من الناس، فإن التصديق يستعمل في كل خبر، فيقال لمن أخبر بالأمور المشهورة، مثل الواحد نصف الاثنين، والسماء فوق الأرض مجيبا صدقت، وصدقنا بذلك، ولا يقال آمنا لك، ولا آمنا بهذا حتى يكون المخبر به من الأمور الغائبة، فيقال للمخبر آمنا له، وللمخبر به آمنا به، كما قال إخوة يوسف: وما أنت بمؤمن لنا. أي بمقر لنا، ومصدق لنا لأنهم أخبروه عن غائب. ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ١١١﴾ الشعراء:١١١. وقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ التوبة:٦١. وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ٤٧﴾ المؤمنون:٤٧. وقوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ٢١﴾ الدخان:٢١. وقوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ يونس:٨٣. أي أقر له، وذلك أن الإيمان يفارق التصديق، أي لفظا ومعنى، فإنه أيضا يقال: صدقته فيتعدى بنفسه إلى المصدق، ولا يقال: أمنته، إلا من الأمان الذي هو ضد الإخافة، بل يقال: آمنت له فيتعدى باللام.

والفرق الثاني بين الإيمان والتصديق من جهة اللفظ أن الإيمان

لا يستعمل في جميع الأخبار، بل في الإخبار عن الأمور الغائبة ونحوها مما يدخلها الريب، فإذا أقر بها المستمع قيل آمن، بخلاف لفظ التصديق فإنه عام متناول لجميع الأخبار.

وأما المعنى فإن الإيمان مأخوذ من الأمن الذي هو الطمأنينة كما أن لفظ الإقرار مأخوذ من قرير، وهو قريب من آمن يأمن، لكن الصادق يطمئن إلى خبره، والكاذب بخلاف ذلك كما يقال الصدق طمأنينة والكذب ريبة، فالمؤمن دخل في الأمن، كما أن المقر دخل في الإقرار، ولفظ الإقرار يتضمن الالتزام ثم إنه يكون على وجهين:

أحدهما: الإخبار وهو من هذا الوجه كلفظ التصديق والشهادة ونحوهما، وهذا معنى الإقرار الذي يذكره الفقهاء في كتاب الإقرار.

والثاني: إنشاء الالتزام كما في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١﴾ آل عمران:٨١. وليس هو هنا بمعني الخبر المجرد فإنه سبحانه قال: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ﴾ آل عمران:٨١ . فهذا الالتزام للإيمان والنصر للرسول.

وكذلك لفظ الإيمان فيه إخبار وإنشاء والتزام، بخلاف لفظ التصديق المجرد، فمن أخبر الرجل بخبر لا يتضمن طمأنينة إلى المخبر لا يقال فيه آمن له، بخلاف الخبر الذي يتضمن طمأنينة إلى المخبر، والمخبر قد يتضمن خبره طاعة المستمع له، وقد لا يتضمن إلا مجرد

الطمأنينة إلى صدقه، فإذا تضمن طاعة المستمع لم يكن مؤمنا للمخبر إلا بالتزام طاعته مع تصديقه، بل قد استعمل لفظ الكفر المقابل للإيمان في نفس الامتناع عن الطاعة والانقياد، فقياس ذلك أن يستعمل لفظ الإيمان كما استعمل لفظ الإقرار في نفس التزام الطاعة والانقياد، فإن الله أمر إبليس بالسجود لآدم فأبى واستكبر وكان من الكافرين[1].

وأيضا فلفظ التصديق إنما يستعمل في جنس الإخبار، فإن التصديق إخبار بصدق المخبر، والتكذيب إخبار بكذب المخبر، فقد يصدق الرجل الكاذب تارة، وقد يكذب الرجل الصادق أخرى، فالتصديق والتكذيب نوعان يتعلقان بالخبر، بخلاف الإيمان والإقرار والإنكار والجحود ونحو ذلك، فإنه يتناول الحقائق والإخبار عن الحقائق أيضا.

وأيضا فالذوات التي تُحب تارة وتُبغض أخرى، وتُوالي تارة وتعادى أخرى، وتُطاوع تارة وتُعصى أخرى، ويُذل لها تارة ويُستكبر عنها أخرى تختص هذه المعاني فيها بلفظ الإيمان والكفر ونحو ذلك، وأما لفظ التصديق والصدق ونحو ذلك، فيتعلق بمتعلقها كالحب والبغض، فيقال: حب صادق، وبغض صادق، فكما أن الصدق والكذب في إثبات الحقائق ونفيها متعلق بالخبر النافي والمثبت دون الحقيقة ابتداء، فكذلك في الحب والبغض ونحو ذلك، يتعلق

(١) السابق ٧/٥٣١ بتصرف.

بالحب والبغض دون الحقيقة ابتداء، بخلاف لفظ الإيمان والكفر فإنه يتناول إثبات الذوات بلا واسطة إقرارا أو إنكارا، أو حبا أو بغضا أو طمأنينة أو نفورا [(١)].

ولفظ الإيمان يستعمل في الخبر أيضا كما يقال: كل آمن بالله أي أقر له. والرسول يؤمن له من جهة أنه مخبر، ويؤمن به من جهة أن رسالته مما أخبر بها كما يؤمن بالله وملائكته وكتبه فالإيمان متضمن للإقرار بما أخبر به، والكفر تارة يكون بالنظر إلى عدم تصديق الرسول والإيمان به، وهو من هذا الباب يشترك فيه كل ما أخبر به، وتارة بالنظر إلى عدم الإقرار بما أخبر به، والأصل في ذلك هو الإخبار بالله وبأسمائه، ولهذا كان جحد ما يتعلق بهذا الباب أعظم من جحد غيره، وإن كان الرسول أخبر بكليهما، ثم مجرد تصديقه في الخبر والعلم بثبوت ما أخبر به إذا لم يكن معه طاعة لأمره لا باطنا ولا ظاهرا ولا محبة لله ولا تعظيم له لم يكن ذلك إيمانا.

وكفر إبليس وفرعون واليهود ونحوهم لم يكن أصله من جهة عدم التصديق والعلم، فإن إبليس لم يخبره أحد بخبر، بل أمره الله بالسجود لآدم فأبى واستكبر وكان من الكافرين، فكفره بالإباء والاستكبار، وما يتبع ذلك لا لأجل تكذيب، وكذلك فرعون وقومه جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا، وقال له موسى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ

(١) السابق ٧/٥٣٢ بتصرف.

هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ الإسراء:١٠٢.

فقول من جعل مجرد العلم والتصديق في العبد هو الإيمان، وأنه موجب لأعمال القلب، فإذا انتفت دل على انتفاء العلم بمنزلة من يقول مجرد علم الله بنظام العالم موجب لوجوده بدون وجود إرادة منه، وهو شبيه بقول المتفلسفة أن سعادة النفس في مجرد أن تعلم الحقائق، ولم يقرنوا ذلك بحب الله وتعالى وعبادته التي لا تتم السعادة إلا بها، وهو نظير من يقول كمال الجسم أو النفس في الحب من غير اقتران الحركة الإرادية به، ومن يقول اللذة في مجرد الإدراك والشعور، وهذا غلط باتفاق العقلاء، بل لابد من إدراك الملائم، والملائمة لا تكون إلا بمحبة بين المدرِك والمدرَك، وتلك المحبة والموافقة والملائمة ليست نفس إدراكه والشعور به.

وقد قال كثير من الناس من الفلاسفة والأطباء ومن اتبعهم أن اللذة إدراك الملائم، وهذا تقصير منهم بل اللذة حال يعقب إدراك الملائم كالإنسان الذي يحب الحلو ويشتهيه، فيدركه بالذوق والأكل، فليست اللذة مجرد ذوقه، بل أمر يجده من نفسه يحصل مع الذوق، فلابد أولا من أمرين، ولا بد آخرا من أمرين، لابد أولا من شعور بالمحبوب ومحبة له، فما لا شعور به لا يتصور أن يشتهى، وما يشعر به وليس في النفس محبة له لا يشتهي، ثم إذا حصل إدراكه بالمحبوب نفسه حصل عقيب ذلك اللذة والفرح مع ذلك.

ولهذا قال النبي ﷺ: (وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى

لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلاَ فِتْنَةٍ مُضِلةٍ، اللهمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ) (١).

روى مسلم عن صهيب ﷺ قال قرأ رسول الله ﷺ: (للذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيادَةٌ. فقال: إذا دَخَلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ نادَى مُنادٍ: يا أهل الجنةِ، إنَّ لكُمْ عندَ الله مَوْعِداً يُحِبُّ أنْ يُنْجِزَكُموهُ، فيَقُولونَ: وما هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلِ اللهُ موازينَنا ويُبَيِّضْ وُجوهَنا ويُدْخِلنا الجنةَ ويُجِرْنا من النار؟ قال: فيُكْشَفُ الحِجَابُ فيَنْظُرونَ إليه فواللهِ ما أَعْطاهُمُ اللهُ شَيْئاً أَحَبَّ إليهم مِنَ النَّظرِ إليه) (٢). فاللذة مقرونة بالنظر إليه ولا أحب إليهم من النظر إليه لما يقترن بذلك من اللذة لا أن نفس النظر هو اللذة.

وفي الجملة فلابد في الإيمان الذي في القلب من تصديق بالله ورسوله وحب الله ورسوله ﷺ، وإلا فمجرد التصديق مع البغض لله ولرسوله ومعاداة الله ورسوله ﷺ ليس إيمانا باتفاق المسلمين، وليس مجرد التصديق والعلم يستلزم الحب إلا إذا كان القلب سليما من المعارض كالحسد والكبر، لأن النفس مفطورة على حب الحق، وهو الذي يلائمها ولا شيء أحب إلى القلوب السليمة من الله، وهذا هو

---

(١) النسائي في السهو ٣/٥٤ (١٣٠٥)، وانظر صحيح الجامع (١٣٠١).

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ١/١٦٣ (١٨١)، وأحمد في المسند ٤/٣٣٢ (١٨٩٥٦)، وابن حبان في صحيحه ١٦/٤٧١ (٧٤٤١) واللفظ له.

الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام الذي اتخذه الله خليلا، وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ الشعراء:٨٨/ ٨٩.

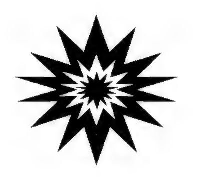
ومن ثم فليس مجرد العلم موجبا لحب المعلوم، إن لم يكن في النفس قوة أخري تلائم المعلوم، وهذه القوة موجودة في النفس، وكل من القوتين تقوي بالأخرى، فالعلم يقوي العمل، والعمل يقوي العلم، فمن عرف الله عز وجل وقلبه سليم أحبه، وكلما ازداد له معرفة ازداد حبه له، وكلما ازداد حبه له ازداد ذكره له ومعرفته بأسمائه وصفاته، فإن قوة الحب توجب كثرة ذكر المحبوب، كما أن البغض يوجب الإعراض عن ذكر المبغض، فمن عادى الله ورسوله، وحاد الله ورسوله كان ذلك مقتضيا لإعراضه عن ذكر الله ورسوله بالخير، وعن ذكر ما يوجب المحبة فيضعف علمه به حتى قد ينساه كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ الحشر:١٩.

وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ الكهف:٢٨.

وقد يحصل مع ذلك تصديق وعلم مع بغض ومعاداة لكن تصديق ضعيف وعلم ضعيف ولكن لولا البغض والمعاداة لأوجب ذلك من محبة الله ورسوله ما يصير به مؤمنا، فمن شرط الإيمان وجود العلم التام ولهذا كان الصواب أن الجهل ببعض أسماء الله وصفاته لا يكون صاحبه

كافرا إذا كان مقرا بما جاء به الرسول، ولم يبلغه ما يوجب العلم بما جهله على وجه يقتضي كفره إذا لم يعلمه، كحديث الذي أمر أهله بتحريقه ثم تذريته، بل العلماء بالله يتفاضلون في العلم به، ولهذا يوصف من لم يعمل بعلمه بالجهل وعدم العلم [١].

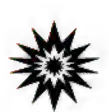
قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ ﴾ النساء:١٧



(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/٥٣٨ بتصرف.

المطلب العشرون

أثر انتفاء عمل القلب في وجود النفاق وتردده بين النفاق الأكبر والنفاق الأصغر



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا فيما سبق عن صلاح القلب وتعلق الظاهر من أعمال الإيمان بأعمال القلب في الإنسان، وبينا دلالة مصطلح تصديق القلب عند السلف والمرجئة، وعلمنا أن عمل القلب هو محور الإيمان أو عدمه في توجه الإنسان، وأن معرفة دلالة الألفاظ في مسألة الإيمان والإسلام من أنفع الأمور، وأن مرجئة الجهمية ظنت أن الإيمان هو تصديق القلب وعلمه دون عمله.

ثم بينا وجه الرد على زعم مرجئة الجهمية أن كل كافر إنما كفر لعدم علمه بالله، وعلمنا أن إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة، وأن الإيمان الذي فرضه الله على عباده ليس متماثلا في حقهم جميعا، وبينا وجه الرد على المرجئة في احتجاجهم بأن الله فرق بين الإيمان والعمل، فلم يدخل العمل في الإيمان، وذكرنا أن القرآن بين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه، وأن زيادة الإيمان التي أمر الله ﷻ بها عباده تكون فيهم من وجوه عديدة، كما أن الإيمان القلبي

لا يكون إيمانا بمجرد التصديق دون عمل القلب.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن أثر انتفاء عمل القلب في وجود النفاق وتردده بين النفاق الأكبر والنفاق الأصغر.

- حقيقة النفاق في المعاني اللغوية والاصطلاحية الشرعية.

أصل النفاق منسوب إلى النفق، وهو السرب الذي يكون في الأرض، لأن المنافق يستر كفره ويغيبه بقول أو فعل ظاهر، فأشبه من يستتر في باطن الأرض عند دخوله النفق، وشأنه في ذلك شأن الحيوان الصغير الذي يشبه الفأر والمسمى باليربوع، له جحر يسمى بالنافقاء، وآخر يسمى بالقاصعاء، فإذا حاولوا الإمساك به من القاصعاء خرج من النافقاء، وكذلك المنافق يخرج من الإيمان الباطن عند الإمساك به في الإيمان الظاهر، فيظهر للناس غير ما يضمر.

واليربوع أيضا يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهرها ترك قشرة منها رقيقة حتى لا يعرف أحد من الناظرين مكان هذا المخرج، فإذا رابه ريب دفع تلك القشرة التي على مخرج جحره برأسه فخرج منه، فظاهر جحره تراب الأرض وباطنه جُحْرٌ وحُفَرٌ وأنفاق، فكذلك المنافق ظاهره إيمان، وباطنه مسالك للكفر والفسوق والعصيان[1].

ذكر ابن جرير الطبري أن معنى النفاق إنما هو إظهار المرء بلسانه قولا ما هو مستبطن خلافه، كنافقاء اليربوع الذي يتخذه لنفسه، إن

---

(١) انظر في معنى النفاق تاج العروس للمرتضى الزبيدي ٤٣٢/٢٦، ولسان العرب ٣٥٨/١٠، المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني ص٥٠٢.

طلبه صائد من مدخله قصع من قاصعائه، ومنه قول الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الأنعام:٣٥ .

وهو السرب الذي يجعل للدخول فيه، فكذلك نفاق المنافق هو اتخاذه ما يظهر من القول بلسانه بالإيمان خداعا للمؤمنين بذلك، وهو مستبطن بقلبه غير الذي يظهره لهم بلسانه، كفعل اليربوع باتخاذه النافقاء عند طلب اصطياده، وهو قد أعد للهرب عند الطلب مخرج القاصعاء خداعا للصائد، فإذا كان ذلك معنى النفاق لغة، وكان الإيمان عندنا قولا باللسان بما يحقن به المرء دمه، وعملا بالجوارح بما يستوجب بالعمل به حقيقة اسم الإيمان، وكان من ذلك العمل الذي به يستوجب مع القول بما ذكرنا حقيقة اسم الإيمان اجتناب الكبائر، ثم رأيناه غير مجتنب ركوب ما حرم الله عليه من الفواحش، ولا مقصر فيما نهاه الله عنه من المآثم، علمنا أن إظهاره ما أظهر بلسانه من القول الذي هو سبب لحقن دمه، إنما أظهره خداعا للمؤمنين من استحلال قتله واستفاء ماله، وذلك هو النفاق الذي بينا صفته، وأن من كان ذلك صفته فهو منافق فاسق لا مؤمن، فلا اسم له هو أولى به مما سميناه، إذ الأخبار عن رسول الله ﷺ متظاهرة أن علامات المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان[1].

---

(١) تهذيب الآثار للطبري ٢/٦٤٤ بتصرف، والحديث رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ في كتاب الإيمان، باب علامة المنافق ١/٢١ (٣٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق ١/٧٨ (٥٩).

وأما النفاق في الاصطلاح الشرعي فهو القول باللسان، أو الفعل بالجوارح على خلاف ما في القلب من القول والاعتقاد والعمل [١].

- النفاق الأكبر من أشد أنواع الزندقة والعداوة التي يجب الحذر منها.

نظرا لقبح النفاق الأكبر وما فيه من معاني الخيانة والخداع والتلاعب بالدين، والمكر والأذى والفسوق واستحقار المؤمنين الموحدين، وإضاعة الحقوق والاستهزاء برب العالمين وسائر عباده الموحدين، نظرا لقبح النفاق سمى المنافق زنديقا.

وقد وصف ابن القيم رحمه الله هؤلاء الزنادقة بأنهم قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل، وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسله، وهؤلاء المنافقون في الدرك الأسفل من النار، فالكفار والمجاهرون بكفرهم أخف شأنا منهم، وهم فوقهم في دركات النار، لأن الطائفتين اشتركتا في الكفر ومعاداة الله ورسله، وزاد المنافقون عليهم الكذب والنفاق.

وبلية المسلمين بالمنافقين أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين، ولهذا قال تعالى في حقهم: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ المنافقون:٤ . ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر، أي لا عدو إلا هم، ولكن لم يرد ها هنا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف، وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهرا، وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار، ونصب لهم العداوة، وجاهرهم بها، فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم، المعاشرين لهم وهم في

(١) انظر عارضة الأحوذي ١٠/٩٧.

الباطن على خلاف دينهم أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم؛ لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياما ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر؛ وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحا ومساء، يدلّون العدو على عوراتهم، ويتربصون بهم الدوائر، ولا يمكنهم مناجزتهم، فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر بها، فلهذا قيل: هم العدو فاحذرهم، لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم، بل على معنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدوا من الكفار المجاهرين[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (والمقصود أن الناس ينقسمون في الحقيقة إلى مؤمن ومنافق كافر في الباطن مع كونه مسلما في الظاهر، وإلى كافر باطنا وظاهرا، ولما كثرت الأعاجم في المسلمين تكلموا بلفظ الزنديق، وشاعت في لسان الفقهاء، وتكلم الناس في الزنديق: هل تقبل توبته في الظاهر إذا عرف بالزندقة ودفع إلى ولي الأمر قبل توبته؟)[٢].

ثم ذكر رحمه الله الخلاف في توبته ثم قال: (والمقصود هنا أن الزنديق في عرف هؤلاء الفقهاء هو المنافق الذي كان على عهد النبي ﷺ، وهو أن يظهر الإسلام ويبطن غيره، سواء أبطن دينا من الأديان كدين اليهود والنصارى أو غيرهم، أو كان معطلا جاحدا للصانع والمعاد والأعمال الصالحة. ومن الناس من يقول الزنديق هو الجاحد المعطل، وهذا يسمى الزنديق في اصطلاح كثير من أهل الكلام والعامة

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم ص٥٩٦ بتصرف.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/٤٧١.

ونقلة مقالات الناس، ولكن الزنديق الذي تكلم الفقهاء في حكمه هو الأول؛ لأن مقصودهم هو التمييز بين الكافر وغير الكافر، والمرتد وغير المرتد، ومن أظهر ذلك أو أسره) [١].

- كفر النفاق الأكبر وما دل عليه من أركان القول والعمل في الإنسان.

كفر النفاق ينشأ عن الإقرار باللسان، أو انقياد عمل الجوارح في الظاهر على منهج الإيمان، وقد يجتمعان أو يفترقان، أعني الإقرار باللسان وعمل الجوارح والأركان، ينضم إلى ذلك انتفاء أهم أركان الإيمان وهو عمل القلب في الجنان، وعلى رحى هذا الركن مدار النفاق أو الإيمان، أما علم القلب فقد يتحقق وجوده فيكون المنافق عالما بالحق مصدقا به وقد يكون جاهلا به أو مكذبا له أو شاكا فيه، تلك هي أركان النفاق التي دلت عليها نصوص القرآن، ولمزيد من البيان في تحقيق أدلة أركان النفاق وحقيقته يمكن أن تتبع الضوابط التالية:

١- الإقرار باللسان وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ ﴾ البقرة:٨/٩ . دلت الآية نصا على أنهم يقولون باللسان آمنا دون إيمان القلب، فتحقق في النفاق الإقرار باللسان.

وكذلك قوله تعالى في شأن المنافقين: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ

(١) السابق ٤٧٢/٧.

ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ العنكبوت: ١٠/١١. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ البقرة: ١٤/١٥.

وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾﴾ الفتح: ١١.

٢- انقياد الجوارح وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ النساء: ١٤٢ . فنص على أنهم يقومون بأعمال الجوارح كالصلاة وغيرها، فتحقق في النفاق العمل بالأركان.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ التوبة: ٥٨ .

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ التوبة: ٥٣/٥٤ .

٣- وجود علم القلب وتصديقه أو عدم وجوده، فقول القلب قد يوجد أو لا يوجد، وذلك مأخوذ من قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ

﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ المنافقون:٣/١ . فوصفهم المولى ﷻ بالإيمان قبل الكفر، ولازم الإيمان تحقق علم القلب ووجوده، وربما يوجد في القلب الشك والريبة وعدم التصديق بالحق كما قال تعالى في وصفهم: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ التوبة:٤٥.

٤- انتفاء عمل القلب وهو الركيزة الأساسية في كفر النفاق، لأنه لو وجد عمل القلب لاكتمل بناء الإيمان، ولذلك فإن المنافق يخدع نفسه، ويضيع جهده من حيث لا يشعر؛ فقد أقر باللسان وانقاد بالجوارح، ولكن كفره بسبب سوء نيته التي كان في إمكانه أن يغيرها، ولذلك قال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ البقرة:٩/٨.

وقد عبر القرآن عن انتفاء عمل القلب بمصطلح "مرض القلب" الذي يؤدي إلى مصادقة الشيطان وموالاته، وتكرر ورود ذلك في النصوص كقول الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ البقرة:١٠ .

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾ البقرة:١٤ .

وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ

نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ المائدة:٥٢ .

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ الأنفال:٤٩ .

وقوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ التوبة:١٢٤/١٢٥ .

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ الأحزاب:١٢ . وقوله تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ الأحزاب:٦٠ .

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾ محمد:٢٠ .

ومن توفرت فيه تلك الأركان فكفره كفر نفاق، وهو في الدرك الأسفل من النار، كما قال تعالى عنهم: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ النساء:١٣٨/١٤٠.

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ النساء:١٤٥ .

- مرض القلب وانتفاء أصل الإيمان هو أخبث أوصاف المنافقين.

الإيمان في اعتقاد أهل السنة والجماعة عند الإطلاق يدل بالمطابقة على علم القلب، وعمل القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح، وكل أركان الإيمان قد تتحقق في المنافق وتقع منه إلا عمل القلب من الإخلاص والحب، وهذا أمر يتوقف على تحول النية من التوحيد إلى الشرك، ومن الإيمان إلى الكفر، غير أن عمل الجوارح في مباشرة الأسباب الشرعية والأوامر التكليفية التي ينقاد لها المؤمن والمنافق واحدة، ولذلك فإن المنافقين هم أشقى الأشقياء، ولهذا يُستهزأ بهم في الآخرة وتعطى طبقة المنافقين نورا يتوسطون به على الصراط، ثم يُطفئ الله نورهم، ويقال لهم:

﴿ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾ الحديد:١٣/١٤ .

وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء، أن يفتح للعبد طريق النجاة والفلاح حتى إذا ظن أنه ناج، ورأى منازل السعداء، اقتطع عنهم وضربت عليه الشقوة، ونعوذ بالله من غضبه وعقابه.

وإنما كانت هذه الطبقة في الدرك الأسفل لغلظ كفرهم، فإنهم خالطوا المسلمين وعاشروهم، وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد

الإيمان لما لم يباشره البعداء، ووصل إليهم من معرفته وصحته ما لم يصل إلى المنابذين بالعداوة، فإذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفرا، وأخبث قلوبا، وأشد عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين من البعداء عنهم، وإن كان البعداء متصدين لحرب المسلمين، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾المنافقون:٣.

وقال تعالى فيهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ البقرة:١٨. وقال تعالى في الكفار: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ البقرة:١٧١. فالكافر لم يعقل، والمنافق أبصر ثم عمي، وعرف ثم تجاهل، وأقر ثم أنكر، وآمن ثم كفر، ومن كان هكذا كان أشد كفرا، وأخبث قلبا، وأعتى على الله ورسوله ﷺ، فاستحق الدرك الأسفل من النار[1].

كما أن الحامل لهم على النفاق طلب العز والجاه بين الطائفتين، فيرضوا المؤمنين ليعزوهم، ويرضوا الكفار ليعزوهم أيضا، ومن ههنا دخل عليهم البلاء، فإنهم أرادوا العزة من الطائفتين، ولم يكن لهم غرض في الإيمان والإسلام، ولا طاعة الله ورسوله، بل كان ميلهم وإصغائهم وتوجههم إلى الكفار فقوبلوا على ذلك بأعظم الذل، وهو أن جعل الله مستقرهم في أسفل السافلين تحت الكفار، فما اتصف به المنافقون من مخادعة الله ورسوله والذين آمنوا، والاستهزاء بأهل الإيمان، والكذب والتلاعب بالدين، وإظهار أنهم من المؤمنين، وأبطنوا قلوبهم على الكفر

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم ص٥٩٧ بتصرف .

والشرك وعداوة الله ورسوله ﷺ أمر اختصوا به عن الكفار، فتغلظ كفرهم به فاستحقوا الدرك الأسفل من النار(١).

ولهذا لما ذكر تعالى أقسام الخلق في أول سورة البقرة، قسمهم إلى مؤمن ظاهرا وباطنا، وكافر ظاهرا وباطنا، ومؤمن في الظاهر كافر في الباطن وهم المنافقون، وذكر في حق المؤمنين ثلاث آيات، وفي حق الكفار آيتين، فلما انتهى إلى ذكر المنافقين، ذكر فيهم بضع عشرة آية ذمهم فيها غاية الذم، وكشف عوراتهم، وقبحهم وفضحهم، وأخبر أنهم هم السفهاء المفسدون في الأرض، المخادعون المستهزئون، المغبونون في اشترائهم الضلالة بالهدى، وأنهم صم بكم عمي فهم لا يرجعون، وأنهم مرضى القلوب، وأن الله ﷻ يزيدهم مرضا إلى مرضهم، فلم يدع ذما ولا عيبا إلا ذمهم به(٢).

وهذا يدل على شدة مقته سبحانه لهم، وبغضه إياهم، وعداوته لهم، وأنهم أبغض أعدائه إليه، فظهرت حكمته الباهرة في تخصيص هذه الطبقة بالدرك الأسفل من النار، نعوذ بالله من مثل حالهم، ونسأله معافاته ورحمته، ومن تأمل ما وصفت به قلوبهم وجد أن الله ﷻ وصفها بالمرض، وهو مرض الشبهات والشكوك، ووصفهم بالإفساد في الأرض وبالاستهزاء بدينه وبعباده، وبالطغيان واشتراء الضلالة بالهدى، والصمم والبكم والعمى والحيرة، والكسل عند عبادته، وقلة ذكره، والحلف باسمه تعالى كذبا وباطلا، ووصفهم بالكذب، وبغاية

---

(١) السابق ص٥٩٨ بتصرف.

(٢) السابق ص٥٩٩ بتصرف .

الجبن، وبعدم الفقه في الدين، وبعدم العلم وبالبخل، وبعدم الإيمان بالله وباليوم الآخر، وبأنهم مضرة على المؤمنين، ولا يحصل لهم بنصيحتهم إلا الشر من الخبال، والإسراع بينهم بالشر، وإلقاء الفتنة، وكراهتهم لظهور أمر الله ﷻ، ومحو الحق، وأنهم يحزنون بما يحصل للمؤمنين من الخير والنصر، ويفرحون بما يحصل لهم من المحنة والابتلاء، وأنهم يتربصون الدوائر بالمسلمين، وبكراهتهم الإنفاق في مرضاة الله وسبيله، وبعيب المؤمنين ورميهم بما ليس فيهم، فيلزمون المتصدقين ويسخرون منهم، وأنهم عبيد الدنيا إن أعطوا منها رضوا، وإن منعوا منها إذا هم يسخطون[1].

وقد وصفهم الله بأنهم يؤذون رسول الله ﷺ، وينسبونه إلى ما برأه الله منه، ويعيبونه بما هو من كماله وفضله، وأنهم يقصدون إرضاء المخلوقين ولا يطلبون إرضاء رب العالمين، وأنهم يسخرون من المؤمنين، وأنهم يفرحون إذا تخلفوا عن رسول الله ﷺ، ويكرهون الجهاد في سبيل الله، وأنهم يتحيلون على تعطيل فرائض الله لهم بأنواع الحيل، وأنهم يرضون بالتخلف عن طاعة الله ورسوله ﷺ، وأنهم مطبوع على قلوبهم، وأنهم يتركون ما أوجب الله عليهم مع قدرتهم عليه، وأنهم أحلف الناس بالله، قد اتخذوا أيمانهم جنة تقيهم من إنكار المسلمين عليهم[2].

وقد الله وصفهم بأنهم رجس فهم أخبث بني آدم، وأقذرهم

---

(١) السابق ص٥٩٩ بتصرف .

(٢) طريق الهجرتين لابن القيم ص٦٠٠ بتصرف.

وأرذلهم، وبأنهم فاسقون، وبأنهم مضرة على أهل الإيمان، يقصدون التفريق بينهم، ويؤوون من حاربهم وحارب الله ورسوله ﷺ، وأنهم يتشبهون بهم، ويضاهونهم في أعمالهم ليتوصلوا منها إلى الإضراب بهم، وتفريق كلمتهم، وهذا شأن المنافقين أبدا، وبأنهم فتنوا أنفسهم بكفرهم بالله ورسوله ﷺ، وتربصوا بالمسلين دوائر السوء، وهذه عادتهم في كل زمان، وارتابوا في الدين فلم يصدقوا به، وغرتهم الأماني الباطلة وغرهم الشيطان، وأنهم أحسن الناس أجساما، تعجب الرائي أجسامهم ويعجب السامع منطقهم، فإذا جاوزت أجسامهم وقولهم رأيت خشبا مسندة، ولا إيمان ولا فقه ولا علم ولا صدق، بل خشب قد كسيت كسوة تروق الناظر، وليسوا وراء ذلك شيئا، وإذا عرضت عليهم التوبة والاستغفار أبوها، وزعموا أنهم لا حاجة لهم إليها، إما لأن ما عندهم من الزندقة والجهل المركب مغن عنها وعن الطاعات جملة، كحال كثير من الزنادقة، وإما احتقارا وازدراء بمن يدعوهم إلى ذلك(١).

وقد وصفهم الله بأنهم مجرمون، ووصفهم سبحانه بالاستهزاء به وبآياته وبرسوله ﷺ، وبأنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم عن الإنفاق في مرضاته ونسيان ذكره، وبأنهم يتولون الكفار ويدعون المؤمنين، وبأن الشيطان قد استحوذ عليهم، وغلب عليهم حتى أنساهم ذكر الله، فلا يذكرونه إلا قليلا، وأنهم حزب الشيطان، وأنهم يوادون من حاد الله ورسوله، وبأنهم يتمنون ما يعنت المؤمنين ويشق عليهم، وأن البغضاء تبدو لهم من أفواههم وعلى فلتات

---

(١) السابق ص٦٠٠ بتصرف.

ألسنتهم، وبأنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم[١].

ومن صفاتهم التي وصفهم بها رسول الله ﷺ، الكذب في الحديث، والخيانة في الأمانة، والغدر عند العهد، والفجور عند الخصام، والخلف عند الوعد، وتأخير الصلاة إلى آخر وقتها، ونقرها عجلة وإسراعا، وترك حضورها جماعة، وأن أثقل الصلوات عليهم الصبح والعشاء، ومن صفاتهم التي وصفهم الله بها الشح على المؤمنين بالخير، والجبن عند الخوف، فإذا ذهب الخوف وجاء الأمن سلقوا المؤمنين بألسنة حداد، فهم أحدّ الناس ألسنة عليهم، وأنهم عند المخاوف تظهر كمائن صدورهم ومخبآتها، وأما عند الأمن فهم أعذب الناس ألسنة وأمرُّهم قلوبا، وأعظم الناس خلفا بين أعمالهم وأقوالهم[٢].

ومن صفاتهم أنهم لا يجتمع فيهم حسن صمت وفقه في دين أبدا، ومن صفاتهم أن أعمالهم تكذب أقوالهم، وباطنهم يكذب ظاهرهم، وسرائرهم تناقض علانيتهم، ومن صفاتهم أن المؤمن لا يثق بهم في شيء، فإنهم قد أعدوا لكل أمر مخرجا منه، بحق أو بباطل، بصدق أو بكذب، ولهذا سمي منافقا أخذا من نافقاء اليربوع، وهو بيت يحفره ويجعل له أسرابا مختلفة، فكلما طلب من سرب خرج من سرب آخر، فلا يتمكن طالبه من حصره في سرب واحد، فأنت منه كقابض على الماء، ليس معك منه شيء، ومن صفاتهم كثرة التلون، وسرعة التقلب، وعدم الثبات على حال واحد، فتراه على حال تعجبك من دين أو

(١) السابق ص٦٠١ بتصرف.

(٢) السابق ص٦٠١ بتصرف.

عبادة أو هدي صالح أو صدق، وإذا انقلب إلى الضد، كان أشد الناس تلونا وتقلبا وتنقلا[(١)].

ومن صفاتهم أنك إذا دعوتهم عند المنازعة للتحاكم إلى القرآن والسنة أبوا ذلك، وأعرضوا عنه، ودعوك إلى التحاكم إلى طواغيتهم.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾النساء: ٦٠/٦٣.

ومن صفاتهم معارضة ما جاء به الرسول ﷺ بعقول الرجال وآرائهم، ثم تقديمها على ما جاء به، فهم معرضون عنه، معارضون له، زاعمون أن الهدى في آراء الرجال وعقولهم دون ما جاء به، فلو أعرضوا عنه وتعوضوا بغيره لكانوا منافقين، فكيف إذا جمعوا مع ذلك معارضته وزعموا أنه لا يستفاد منه هدى؟

ومن صفاتهم كتمان الحق، والتلبيس على أهله، ورميهم له بأدوائهم، فيرمونهم إذا أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ودعوا إلى الله ورسوله بأنهم أهل فتن مفسدون في الأرض، وقد علم الله ورسوله

(١) السابق ص٦٠١، ٦٠٢ بتصرف .

والمؤمنون بأنهم أهل الفتن المفسدون في الأرض، وإذا دعاهم ورثة الرسول إلى كتاب الله وسنة رسوله خالصة غير مشوبة، رموهم بالبدع والضلال، وإذا رأوهم زاهدين في الدنيا راغبين في الآخرة متمسكين بطاعة الله ورسوله رموهم بالزوكرة، والتلبيس والمحال، وإذا رأوا معهم حقا ألبسوه لباس الباطل، وأخرجوه لضعفاء العقول في قالب شنيع لينفروهم عنه، وإذا كان معهم باطل ألبسوه لباس الحق، وأخرجوه في قالبه ليقبل منهم[1].

ولهذا جلا الله أمرهم في القرآن وأوضح أوصافهم، وبين أحوالهم وكرر ذكرهم لشدة المؤنة على الأمة بهم، وعظم البلية عليهم بوجودهم بين أظهرهم، وفرط حاجتهم إلى معرفتهم، والتحرز من مشابهتهم والإصغاء إليهم، فكم قطعوا على السالكين إلى الله طرق الهدى، وسلكوا بهم سبيل الردى، وعدوهم ومنوهم ولكن وعدوهم الغرور وأمانيهم الويل والثبور، فكم من قتيل ولكن في سبيل الشيطان، وكم من سليب ولكن للباس التقوى والإيمان، وكم من أسير لا يرجى له الخلاص، وكم من فارٍ من الله لا إليه، وهيهات ولات حين مناص، صحبتهم توجب العار، ومودتهم توجب غضب الجبار، وتوجب دخول النار، من علقت به كلاليب كلبهم، ومخاليب رأيهم، مزقت منه ثياب الدين والإيمان، وقطعت له مقطعات من البلاء والخذلان، فهو يسحب من الحرمان والشقاوة أذيالا، ويمشي على عقبيه القهقهرى إدبارا، وهو يحسب ذلك إقبالا، فهم والله قطاع الطريق، فيا أيها الركب

---

(١) طريق الهجرتين ص٦٠٢ : ٦٠٣ بتصرف .

المسافرون إلى منازل السعداء، حذار منهم حذار، إذ هم الجزارون ألسنتهم شفار البلايا، ففرارا منهم أيها الغُنْم ومن البلية فرارا، إنهم الأعداء حقا وليس لنا بد من مصاحبتهم، خلطتهم أعظم الداء وليس بد في مخالطتهم، قد جعلوا على أبواب جهنم دعاة إليها فبعدا للمستجيبين، ونصبوا شباكهم حواليها على ما حفت به من الشهوات فويل للمغترين، نصبوا الشباك، ومدوا الأشراك، وأذن مؤذنهم يا شياه الأنعام حي على الهلاك، حي عن التباب فاستبقوا يهرعون إليهم، فأوردوهم حياض العذاب، لا الموارد العذاب، وساموهم من الخسف والبلاء أعظم خطة، وقالوا ادخلوا باب الهوان صاغرين ولا تقولوا حطة، فليس بيوم حطة، فواعجبا لمن نجا من شراكهم لا من علق، وأنى ينجو من غلبت عليه شقاوته ولها خلق، فحقيق بأهل هذه الطبقة من المنافقين أن يحلوا بالمحل الذي أحلهم الله من دار الهوان، وأن ينزلوا في أردأ منازل أهل العناد والكفران، وبحسب إيمان العبد ومعرفته يكون خوفه أن يكون من المنافقين أولياء الشيطان[1].

ولهذا اشتد خوف سادة الأمة وسابقوها على أنفسهم أن يكونوا منهم، فكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: يا حذيفة ناشدتك الله، هل سماني رسول الله مع القوم؟ فيقول: لا، ولا أزكي بعد أحدا، يعني لا أفتح علي هذا الباب في تزكية الناس، وليس معناه أنه لم يبرأ من النفاق غيرك، وقال: ابن أبي مليكة أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول: إنه

(١) السابق ص٦٠٣ : ٦٠٤ بتصرف.

على إيمان جبرائيل وميكائيل[١].

• النفاق الأكبر والنفاق الأصغر والنفاق الاعتقادي والنفاق العملي.

قسم بعض أهل العلم النفاق إلى نفاق اعتقادي ونفاق عملي، وهذا التقسيم وإن كان تقسيما ملبسا فيه نظر إلا أن القائلين بذلك أرادوا تقسيم النفاق إلى نفاق أكبر ونفاق أصغر، فالنفاق الاعتقادي يقصدون به النفاق الأكبر المخرج عن الملة، وأطلقوا عليه نفاق اعتقادي لأنه متعلق بانتفاء عمل القلب وانعدم العقيدة والإيمان في قلوب المنافقين، وأرادوا بالنفاق العملي ما لا يكون مخرجا من الملة وهو في حكم الكبائر، وأطلقوا عليه نفاق عملي على اعتبار وجود الاعتقاد وتحقق الإيمان في القلب، وأن الخلل إنما هو في بعض ما يجب من العمل الظاهر فقط. قال ابن كثير: (النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع، اعتقادي وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب) [٢].

وقال الحافظ ابن حجر: (والنفاق لغة مخالفة الباطن للظاهر، فإن كان في ترك اعتقاد الإيمان فهو نفاق الكفر وإلا فهو نفاق العمل، ويدخل فيه الفعل والترك، وتتفاوت مراتبه) [٣].

وقد ذكر ابن تيمية أن كل واحد من الإيمان والكفر والنفاق له دعائم وشعب كما دلت عليه دلائل الكتاب والسنة.. فمن النفاق ما هو

---

(١) السابق ص٦٠٤ بتصرف.

(٢) تفسير ابن كثير ٤٨/١.

(٣) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ٨٩/١.

أكبر يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار كنفاق عبد الله بن أبي بن سلول وغيره بأن يظهر تكذيب الرسول ﷺ، أو جحود بعض ما جاء به، أو بغضه، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه، أو المسرة بانخفاض دينه، أو المساءة بظهور دينه، ونحو ذلك مما لا يكون صاحبه إلا عدوا لله ورسوله ﷺ، وهذا القدر كان موجودا في زمن رسول الله ﷺ وما زال بعده، بل هو بعده أكثر منه على عهده، لكون موجبات الإيمان على عهده أقوى، فإذا كانت مع قوتها وكان النفاق معها موجودا، فوجوده فيما دون ذلك أولى[1].

وكما أن النبي ﷺ كان يعلم بعض المنافقين، ولا يعلم بعضهم كما بينه قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾التوبة: ١٠١ .

كذلك كان خلفاؤه من بعده، وورثته من العلماء قد يعلمون بعض المنافقين ولا يعلمون بعضهم، وفي المنتسبين إلى الإسلام من عامة الطوائف منافقون كثيرون في الخاصة والعامة ويسمون الزنادقة، يظهرون الإسلام ويبطنون خلافه، وهؤلاء يكثرون في المتفلسفة من المنجمين ونحوهم، ثم في الأطباء، ثم في الكتاب أقل من ذلك، ويوجدون في المتصوفة والمتفقهة، وفي المقاتلة والأمراء، وفي العامة أيضا، ولكن يوجدون كثيرا في نحل أهل البدع، لاسيما الرافضة ففيهم من الزنادقة والمنافقين ما ليس في أحد من أهل النحل، ولهذا كانت الباطنية والقرامطة والإسماعيلية والنصيرية ونحوهم من المنافقين

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٨/٤٣٤ بتصرف.

والزنادقة منتسبة إلى الرافضة، وهؤلاء المنافقون في هذه الأوقات لكثير منهم ميل إلى دولة التتار لكونهم لا يلزمونهم بشريعة الإسلام، بل يتركونهم وما هم عليه، وبعضهم إنما ينفرون عن التتار لفساد سيرتهم في الدنيا، واستيلائهم على الأموال، واجترائهم على الدماء والسبي، لا لأجل الدين، فهذا ضرب النفاق الأكبر[١].

وأما النفاق الأصغر فهو النفاق في الأعمال ونحوها، مثل أن يكذب إذا حدث، ويخلف إذا وعد، ويخون إذا ائتمن، أو يفجر إذا خاصم كما ورد في الصحيحين في آية المنافق[٢].. ومن هذا الباب الإعراض عن الجهاد فإنه من خصال المنافقين[٣].

روى مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من نفاق)[٤].

وقال ابن تيمية أيضا: (والنفاق كالكفر نفاق دون نفاق، ولهذا كثيرا ما يقال كفر ينقل عن الملة، وكفر لا ينقل، ونفاق أكبر، ونفاق أصغر، كما يقال: الشرك شركان أصغر، وأكبر) [٥].

قال ابن القيم: (وأما النفاق فالداء العضال الباطن الذي يكون

---

(١) السابق ٢٨/٤٣٥ بتصرف.

(٢) روى البخاري في كتاب الإيمان، باب علامة المنافق ١/٢١ (٣٤)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق ١/٧٨ (٥٨).

(٣) مجموع الفتاوى ٢٨/٤٣٦ بتصرف.

(٤) رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب ذم من مات ولم يغز ٣/١٥١٧ (١٩١٠).

(٥) مجموع الفتاوى ٧/٥٢٤ بتصرف.

الرجل ممتلئا منه وهو لا يشعر، فإنه أمر خفي على الناس، وكثيرا ما يخفى على من تلبس به، فيزعم أنه مصلح وهو مفسد، وهو نوعان، أكبر وأصغر، فالأكبر يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل، وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله، مكذب به، لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر جعله رسولا للناس يهديهم بإذنه، وينذرهم بأسه، ويخوفهم عقابه، وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين، وكشف أسرارهم في القرآن، وجلى لعباده أمورهم ليكونوا منها ومن أهلها على حذر) [١].

ولعل من حصر النفاق المخرج من الملة في النفاق الاعتقادي أراد اقتران الكفر الصادر من المنافقين بالجانب الاعتقادي في الغالب، لكن الأدق هو تقسيم النفاق إلى أكبر وأصغر، لأن النفاق الأكبر لا يختص بالجانب الاعتقادي فقط، ولذلك حين ذكر القرآن صفات المنافقين ذكر منها تنقيصهم للرسول ﷺ، وسخريتهم بالمؤمنين، ومناصرتهم للكفار ونحو ذلك، وهذه الأمور وإن اقترنت غالبا بفساد اعتقادي إلا أن ذلك ليس بلازم، كما أنه ليس كل نفاق اعتقادي يخرج من الملة، فقد يكون ذلك من جنس يسير الرياء ونحوه.

والأصل في ذلك ما ثبت عند البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عمرو وأبي هريرة وغيرهما من الصحابة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (آية المنافِقِ ثلاث: إِذا حَدث كَذب، وإِذا اؤْتمن

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/٣٤٧.

خَان، وإِذا وعد أَخْلفَ) [١].

وروى البخاري من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبي ﷺ قال: (أربع من كن فيه، كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر) [٢] .

قال الإمام النووي: (هذا الحديث مما عده جماعة من العلماء مشكلا من حيث إن هذه الخصال توجد في المسلم المصدق الذي ليس فيه شك، وقد أجمع العلماء على أن من كان مصدقا بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال لا يحكم عليه بكفر، ولا هو منافق يخلد في النار، فإن إخوة يوسف ﷺ جمعوا هذه الخصال، وكذا وجد لبعض السلف والعلماء بعض هذا أو كله، وصاحب هذه الخصال يكون نفاقه في حق من حدثه ووعده وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس، لا أنه منافق في الإسلام فيظهره وهو يبطن الكفر، ولم يرد النبي ﷺ بهذا أنه منافق نفاق الكفار المخلدين في الدرك الأسفل من النار. وقوله ﷺ: كان منافقا خالصا، معناه شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال، قال بعض العلماء: وهذا فيمن كانت هذه الخصال غالبة عليه، فأما من يندر ذلك منه، فليس داخلا فيه، فهذا هو المختار في معنى الحديث) [٣].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب علامة المنافق ١/٢١ (٣٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق ١/٧٨ (٥٩).

(٢) الموضع السابق ١/٧٨ (٥٨).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/٤٧.

- **حقيقة النفاق الذي كان الصحابة يخافونه على أنفسهم.**

وهذا هو النفاق الذي خافه الصحابة ﷺ على أنفسهم، فقد خشي بعضهم على نفسه أن يكون إذا تغير عليه حضور قلبه ورقته وخشوعه عند سماع الذكر برجوعه إلى الاشتغال بالأهل والأولاد والأموال أن يكون ذلك منه نفاقا، كما في ورد عند مسلم من حديث أبي عُثمَان النَّهْدي عَنْ حنظله الأسَيِّدي ﷺ أنه قال: (لقِينِي أَبو بكْرٍ الصديق فقَال: كَيفَ أَنْت يا حَنْظَلَةُ؟ قُلت: نَافَقَ حنظله. قَال سُبحَانَ الله مَا تقُول؟ قُلت: نَافقَ حَنْظَلةُ يا أبا بكر. نَكُونُ عِنْد رَسُول الله ﷺ يذكِّرُنَا بالنَّارِ وَالجنَّةِ حتى كَأَنَّا رَأْي عَينٍ، فَإِذا خَرَجْنَا مِنْ عِنْد رَسُول الله ﷺ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاد وَالضَّيعَات، فَنَسِينَا كَثيرًا. قَال أَبو بكْرٍ: فَوَالله إنَّا لنَلقَي مِثل هَذا. فَانْطَلَقْت أَنَا وَأَبو بكْرٍ حتى دخَلنَا على رَسُول الله ﷺ. قُلت: نَافقَ حَنْظَلةُ يا رَسُول الله. فقَال رَسُول الله ﷺ: وَمَا ذاكَ؟ قُلت: يا رَسُول الله نَكُونُ عِنْدكَ تذكِّرُنَا بالنَّارِ وَالجنَّةِ حتى كَأَنَّا رَأْي عَينٍ، فَإِذا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاد وَالضَّيعَات نَسِينَا كَثيرًا. فقَال رَسُول الله ﷺ: وَالذي نَفْسِي بيدهِ لوْ تدومُونَ على مَا تكُونُونَ عِنْدي وَفِي الذكْرِ، لصَافَحَتكُمُ المَلائِكَةُ على فُرُشِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، وَلَكِنْ يا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً، وَلَكِنْ يا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً) [١].

ومما ورد في خوف الصحابة ﷺ على أنفسهم من النفاق ما قاله ابن

---

(١) مسلم في التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة ٤/٢١٠٦ (٢٧٥٠)، والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع ٤/٦٦٦ (٢٥١٤).

أبي مليكة : (أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل) [(١)].

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: (والصحابة ﭫ الذين أدركهم ابن أبي مليكة من أجلهم عائشة وأختها أسماء وأم سلمة والعبادلة الأربعة وأبو هريرة وعقبة بن الحارث والمسور بن مخرمة، فهؤلاء ممن سمع منهم، وقد أدرك بالسن جماعة أجل من هؤلاء كعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وقد جزم بأنهم كانوا يخافون النفاق في الأعمال، ولم ينتقل عن غيرهم خلاف ذلك فكأنه إجماع، وذلك لأن المؤمن قد يعرض عليه في عمله ما يشعر به مما يخالف الإخلاص، ولا يلزم من خوفهم من ذلك وقوعه منهم، بل ذلك على سبيل المبالغة منهم في الورع والتقوى ﭫ) [(٢)].

وخلاصة القول في النفاق الأصغر أنه نوع من الاختلاف بين السريرة والعلانية مما هو دون الكفر، وذلك كالرياء الذي لا يكون في أصل العمل، وكإظهار مودة الغير والقيام بخدمته مع إضمار بغضه والإساءة إليه وكالخصال الواردة في حديث شعب النفاق ونحو ذلك، فعلى المسلم الحذر من الوقوع في شيء من ذلك.

ولما كان الإيمان درجات متفاوتة يتفاضل فيها الناس، فإن النفاق أيضا درجات متفاوتة، وإذا وصل النفاق أعلى درجة، فإن الإيمان

---

(١) طريق الهجرتين لابن القيم ص٦٠٤ بتصرف.

(٢) فتح الباري لابن حجر العسقلاني ١/١١١، وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/٦٨١، وجامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص٤٣٣.

يكون في أقل درجة والعكس صحيح، والمسلم قد يكون في قلبه إيمان ونفاق تختلف درجتهما باختلاف الفرد، والمنافق المحض هو الذي بلغ النفاق فيه أكبر حد حتى تلاشي إيمانه (١).

- المنافق تجري عليه أحكام المسلمين وإن انتفى عمل القلب.

الإيمان الظاهر الذي تجرى عليه الأحكام في الدنيا لا يستلزم الإيمان في الباطن الذي يكون صاحبه من أهل السعادة في الآخرة، فان المنافقين الذين قالوا آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين، هم في الظاهر مؤمنون يصلون مع الناس ويصومون ويحجون ويغزون والمسلمون يناكحونهم ويوارثونهم كما كان المنافقون على عهد رسول الله ﷺ، ولم يحكم النبي ﷺ في المنافقين بحكم الكفار المظهرين للكفر، لا في مناكحتهم، ولا موارثتهم، ولا نحو ذلك، بل لما مات عبد الله بن أبى بن سلول، وهو من أشهر الناس بالنفاق، ورثه ابنه عبد الله رضي الله عنه وهو من خيار المؤمنين، وكذلك سائر من كان يموت منهم يرثه ورثته المؤمنون، وإذا مات لأحدهم وارث ورثوه مع المسلمين.

وقد تنازع الفقهاء في المنافق الزنديق الذي يكتم زندقته، هل يرث ويورث؟ على قولين، والصحيح أنه يرث ويورث، وإن علم في الباطن أنه منافق كما كان الصحابة على عهد النبي ﷺ لأن الميراث مبناه على الموالاة الظاهرة لا على المحبة التي في القلوب، فإنه لو علق بذلك لم

---

(١) رجعت في بعض فقرات هذا المطلب إلى كتاب نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف من إعداد الأخ الدكتور محمد بن عبد الله بن علي الوهيبي جزاه الله خيرا.

تمكن معرفته، والحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنتها، وهو ما أظهره من موالاة المسلمين، فقول النبي ﷺ: لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم، لم يدخل فيه المنافقون وإن كانوا في الآخرة في الدرك الأسفل من النار، بل كانوا يورثون ويرثون(١).

وكذلك كانوا في الحقوق والحدود كسائر المسلمين، وقد أخبر الله عنهم أنهم يصلون ويزكون، ومع هذا لم يقبل ذلك منهم فقال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ التوبة: ٥٤.

وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ النساء: ١٤٢/١٤٣.

وفي صحيح مسلم من حديث العلاء بن عبد الرّحمن أنّهُ دخل على أنس بن مالك ؓ في داره بالبصرة حين انصرف من الظُّهر ودارُهُ بجنب المسجد، فلمّا دخلنا عليه قال: أصليتُمُ العصر؟ فقُلنا لهُ: إنّما انصرفنا السّاعة من الظُّهر. قال: فصلوا العصر. فقُمنا فصلينا، فلمّا انصرفنا قال: سمعتُ رسُول الله ﷺ يقُول: تلك صلاةُ المُنافق، يجلسُ يرقُبُ الشّمس حتّى إذا كانت بين قرني الشّيطان قام فنقرها أربعا، لا يذكُرُ الله فيها إلاّ قليلا (٢).

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/٢١٠ بتصرف.

(٢) مسلم في كتاب المساجد، باب استحباب التبكير بالعصر ١/٤٣٤ (٦٢٢).

وكانوا يخرجون مع النبي ﷺ في المغزى كما خرج ابن أبى في غزوة بني المصطلق وقال الله ﷻ في شأنه: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾المنافقون: ٨ .

وفي الصحيحين من حديث زيد بن أرقم ﷺ قال: (خرجنا مع رسُول الله ﷺ في سفر أصاب النّاس فيه شدّةٌ، فقال عبدُ الله بن أُبيّ: لا تُنفقُوا على من عند رسول الله ﷺ حتّى ينفضُّوا، وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنّ الأعزُّ منها الأذل، فأتيتُ رسُول الله ﷺ، فأخبرتُهُ بذلك، فأرسل إلى عبد الله بن أُبيّ، فاجتهد يمينهُ: ما فعل، فقالوا: كذب زيدٌ رسُول الله ﷺ، فوقع في نفسي ممّا قالوهُ شدّةٌ حتّى أنزل اللهُ تعالى تصديقي: إذا جاءك المُنافقُون.. ثمّ دعاهُمُ النبيّ ﷺ ليستغفر لهُم فلوّوا رُؤُوسهُم) (١).

وفي غزوة تبوك استنفرهم النبي ﷺ كما استنفر غيرهم، فخرج بعضهم معه، وبعضهم تخلفوا، وكان في الذين خرجوا معه من هم بقتله في الطريق، هموا بحل حزام ناقته ليقع في واد هناك، فجاءه الوحي فأسر إلى حذيفة بأسمائهم، ولذلك يقال هو صاحب السر الذي لا يعلمه غيره كما ثبت ذلك في الصحيح، ومع هذا ففي الظاهر تجرى عليهم أحكام أهل الإيمان.

وبهذا يظهر الجواب عن شبهات كثيرة تورد في هذا المقام، فإن

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، سورة المنافقون ٤/١٨٦٠ (٤٦٢٠)، ومسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ٤/٢١٤٠ (٢٧٧٢).

كثيرا من المتأخرين ما بقى في المظهرين للإسلام عندهم إلا عدل أو فاسق، وأعرضوا عن حكم المنافقين، والمنافقون ما زالوا ولا يزالون إلى يوم القيامة، والنفاق شعب كثيرة، وقد كان الصحابة ﷺ يخافون النفاق على أنفسهم.

وكان النبي ﷺ في أول الأمر يصلى على المنافقين ويستغفر لهم حتى نهاه الله عن ذلك فقال: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾التوبة: ٨٤. وقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾التوبة: ٨٠ .

فلم يكن يصلى عليهم ولا يستغفر لهم، ولكن دماؤهم وأموالهم معصومة لا يستحل منهم ما يستحله من الكفار الذين لا يظهرون أنهم مؤمنون، بل يظهرون الكفر دون الإيمان، فإنه ﷺ قال: (أُمرتُ أن أُقاتل النّاس حتى يشهدُوا أن لا إله إلا اللّهُ وأنّ مُحمّدا رسُول الله، ويُقيمُوا الصّلاة ويُؤتُوا الزّكاة، فإذا فعلوا ذلك عصمُوا منّي دماءهُم وأموالهُم إلا بحقّ الإسلام، وحسابُهُم على الله) (١).

وعند مسلم من حديث أُسامة بن زيد ﷺ قال: (بعثنا رسول الله ﷺ في سرية، فأدركت رجلا فقال: لا إله إلا اللّهُ، فطعنتهُ، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرتهُ للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أقال لا إله إلا

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ١/١٧ (٢٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ١/٥٢ (٢١).

اللهُ وقتلتهُ ؟ قال قُلت: يا رسول الله إنما قالها خوفا من السلاح، قال: أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟ فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ) (١).

وروى البخاري من حديث أبي سعيد الخُدري ﷺ أنه قال: (بعث عليٌّ بنُ أبى طالب إلى رسُول الله ﷺ من اليمن بذهبة في أديم مقرُوظ لم تُحصّل من تُرابها، قال: فقسمها بين أربعة نفر، بين عُيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، وزيد الخيل، والرّابعُ إمّا علقمةُ بنُ عُلاثة، وإمّا عامرُ بنُ الطُّفيل، فقال رجُل من أصحابه: كُنّا نحنُ أحقّ بهذا من هؤُلاء، قال: فبلغ ذلك النّبي ﷺ. فقال: ألا تأمنُوني وأنا أمينُ من في السّماء؟ يأتيني خبرُ السّماء صباحا ومساء. قال: فقام رجُل غائرُ العينين، مُشرفُ الوجنتين، ناشزُ الجبهة، كث اللحية، محلوقُ الرّأس، مُشمّرُ الإزار، فقال: يا رسُول الله اتّق الله. فقال: ويلك أولستُ أحقّ أهل الأرض أن يتّقى الله؟ قال: ثمّ ولى الرّجُل، فقال خالدُ بنُ الوليد: يا رسُول الله ألا أضربُ عُنُقهُ؟ فقال: لا لعلهُ أن يكُون يُصلى. قال خالدٌ: وكم من مُصل يقُول بلسانه ما ليس في قلبه؟ فقال رسُول الله ﷺ: إنّي لم أُومر أن أنقُب عن قُلوب النّاس، ولا أشُقّ بُطُونهُم. قال: ثمّ نظر إليه وهُو مُقفّ، فقال: إنّهُ يخرُجُ من ضئضيء هذا قومٌ يتلون كتاب الله رطبا لا يُجاوزُ حناجرهُم، يمرُقُون

---

(١) رواه البخاري في كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ومن أحياها ٢٥١٩/٦ (٦٤٧٨)، ومسلم واللفظ له في كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله ٩٦/١ (٩٦).

من الدّين كما يمرُقُ السّهمُ من الرّميّة، قال أظُنُّهُ قال: لئن أدركتُهُم لأقتُلنّهُم قتل ثمُود) (١).

كان حكمه ﷺ في دمائهم وأموالهم كحكمه في دماء غيرهم، لا يستحل منها شيئا إلا بأمر ظاهر، مع أنه كان يعلم نفاق كثير منهم، وفيهم من لم يكن يعلم نفاقه، قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ التوبة: ١٠١ .

وكان من مات منهم صلى عليه المسلمون الذين لا يعلمون أنه منافق، ومن علم أنه منافق لم يصل عليه، وكان عمر ﷺ إذا مات ميت لم يصل عليه حتى يصلى عليه حذيفة ﷺ، لأن حذيفة كان قد علم أعيانهم. وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ المتحنة: ١٠.

والله تعالى لما أمر في الكفارة بعتق رقبة مؤمنة، لم يكن على الناس أن لا يعتقوا إلا من يعلموا أن الإيمان في قلبه، فإن هذا كما لو قيل

---

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب عليه السلام وخالد بن الوليد رضي الله عنه إلى اليمن قبل حجة الوداع ٤/١٥٨١ (٤٠٩٤)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم ٢/٧٤٢ (١٠٦٤).

لهم: اقتلوا إلا من علمتم أن الإيمان في قلبه، وهم لم يؤمروا أن ينقبوا عن قلوب الناس، ولا يشقوا بطونهم، فإذا رأوا رجلا يظهر الإيمان جاز لهم عتقه.

وصاحب الجارية لما سأل النبي ﷺ هل هي مؤمنة إنما أراد الإيمان الظاهر الذي يفرق به بين المسلم والكافر، وكذلك من عليه نذر لم يلزمه أن يعتق إلا من علم أن الإيمان في قلبه، فإنه لا يعلم ذلك مطلقا، بل ولا أحد من الخلق يعلم ذلك مطلقا، وهذا رسول الله ﷺ أعلم الخلق والله يقول له: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ التوبة: ١٠١. فأولئك إنما كان النبي ﷺ يحكم فيهم كحكمه في سائر المؤمنين، ولو حضرت جنازة أحدهم صلى عليها، ولم يكن منهيا عن الصلاة إلا على من علم نفاقه، وإلا لزم أن ينقب عن قلوب الناس ويعلم سرائرهم، وهذا لا يقدر عليه بشر، ولهذا لما كشفهم الله ﷻ بسورة براءة بقوله: ومنهم ومنهم، صار يعرف نفاق ناس منهم لم يكن يعرف نفاقهم قبل ذلك، فإن الله وصفهم بصفات علمها الناس منهم، وما كان الناس يجزمون بأنها مستلزمة لنفاقهم، وإن كان بعضهم يظن ذلك، وبعضهم يعلمه، فلم يكن نفاقهم معلوما عند الجماعة بخلاف حالهم لما نزل القرآن، ولهذا لما نزلت سورة براءة كتموا النفاق، وما بقي يمكنهم من إظهاره أحيانا ما كان يمكنهم قبل ذلك، وأنزل الله تعالى:

﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا

ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ٦١ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾ الأحزاب: ٦٠/٦٢.

فلما توعدوا بالقتل إذا أظهروا النفاق كتموه، فالنبي ﷺ إنما أخبر عن تلك الأمة بالإيمان الظاهر الذي علقت به الأحكام الظاهرة، وإلا فقد ثبت عند مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص أنه قال: (قسم رسُول الله قسما فقُلتُ يا رسُول الله أعط فُلانا فإنّهُ مُؤمنٌ. فقال النّبيُّ: أو مُسلمٌ أقُولها ثلاثا. ويُردّدُها عليّ ثلاثا أو مُسلمٌ، ثمّ قال إنّي لأُعطى الرّجُل وغيرُهُ أحبُّ إليّ منهُ مخافة أن يكُبّهُ اللهُ في النّار) [1].

وهذا الرجل المشار إليه في الحديث كان يظهر من الإيمان ما تظهره الأمة وزيادة، فيجب أن يفرق بين أحكام المؤمنين الظاهرة التي يحكم فيها الناس في الدنيا وبين حكمهم في الآخرة بالثواب والعقاب، فالمؤمن المستحق للجنة لابد أن يكون مؤمنا في الباطن باتفاق جميع أهل القبلة، حتى الكرامية الذين يسمون المنافق مؤمنا ويقولون الإيمان هو الكلمة، يقولون إنه لا ينفع في الآخرة إلا الإيمان الباطن.

وكذلك المنافقون الذين لم يظهروا نفاقهم يصلى عليهم إذا ماتوا ويدفنون في مقابر المسلمين، من عهد النبي ﷺ والمقبرة التي كانت للمسلمين في حياته وحياة خلفائه وأصحابه ﷺ يدفن فيها كل من أظهر الإيمان وإن كان منافقا في الباطن، ولم يكن للمنافقين مقبرة يتميزون

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه والنهى عن القطع بالإيمان من غير دليل قاطع ١٣٢/١ (١٥٠)، وانظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢١٤/٧ بتصرف.

بها عن المسلمين في شيء من ديار الإسلام، كما تكون لليهود والنصارى مقبرة يتميزون بها، ومن دفن في مقابر المسلمين صلى عليه المسلمون، والصلاة لا تجوز على من علم نفاقه بنص القرآن، فعلم أن ذلك بناء على الإيمان الظاهر، والله يتولى السرائر(١).

وليس المظهرون للإسلام في الكتاب والسنة إلا قسمان، مؤمن أو منافق، فالمنافق في الدرك الأسفل من النار، والآخر مؤمن، ثم قد يكون ناقص الإيمان، فلا يتناوله الاسم المطلق، وقد يكون تام الإيمان(٢).

- لا يجتمع في الرجل انعدام الطاعة وهو مؤمن في الباطن أو منافق.

والخوارج كانوا من أظهر الناس بدعة وقتالا للأمة وتكفيرا لها، ولم يكن في الصحابة ﷺ من يكفرهم لا علي بن أبي طالب ﷺ ولا غيره، بل حكموا فيهم بحكمهم في المسلمين الظالمين المعتدين كما ذكرت الآثار عنهم ذلك في غير هذا الموضع.

وكذلك سائر الثنتين وسبعين فرقة، من كان منهم منافقا فهو كافر في الباطن، ومن لم يكن منافقا بل كان مؤمنا بالله ورسوله ﷺ في الباطن، لم يكن كافرا في الباطن، وإن أخطأ في التأويل كائنا ما كان خطؤه، وقد يكون في بعضهم شعبة من شعب النفاق، ولا يكون فيه النفاق الذي يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار، ومن قال إن الثنتين وسبعين فرقه كل واحد منهم يكفر كفرا ينقل عن الملة، فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، بل

(١) مجموع الفتاوى ٧/٢١٦ بتصرف.
(٢) السابق ٧/٢١٧ بتصرف.

وإجماع الأئمة الأربعة وغير الأربعة، فليس فيهم من كفر كل واحد من الثنتين وسبعين فرقة، وإنما كان بعضهم يكفر بعضا من الثنتين وسبعين فرقة ببعض المقالات التي تصدر عنهم.

وعذر من قال من الأئمة بكفر بعضهم أنه رأى في نسبتهم إلى الإيمان فرض ما لا يقع، فيمتنع أن يكون الرجل لا يفعل شيئا مما أمر به من الصلاة والزكاة والصيام والحج، ويفعل ما يقدر عليه من المحرمات مثل الصلاة بلا وضوء وإلى غير القبلة ونكاح الأمهات، وهو مع ذلك مؤمن في الباطن، بل لا يفعل ذلك إلا لعدم الإيمان الذي في قلبه، ولهذا كان أصحاب أبي حنيفة يكفرون أنواعا ممن يقول كذا وكذا لما فيه من الاستخفاف، ويجعلونه مرتدا ببعض هذه الأنواع مع النزاع اللفظي الذي بين أصحابه، وبين الجمهور في العمل هل هو داخل في اسم الإيمان أم لا؟ ولهذا فرض متأخروا الفقهاء مسألة يمتنع وقوعها وهي أن الرجل إذا كان مقرا بوجوب الصلاة فدعي إليها وامتنع، واستتيب ثلاثا مع تهديده بالقتل، فلم يصل حتى قتل، هل يموت كافرا أو فاسقا على قولين؟[١]

وهذا الفرض باطل فإنه يمتنع في الفطرة أن يكون الرجل يعتقد أن الله فرضها عليه، وأنه يعاقبه على تركها، ويصبر على القتل، ولا يسجد لله سجدة من غير عذر له في ذلك، هذا لا يفعله بشر قط، بل ولا يضرب أحد ممن يقر بوجوب الصلاة إلا صلى، لا ينتهي الأمر به إلى القتل، وسبب ذلك أن القتل ضرر عظيم لا يصبر عليه الإنسان

(١) السابق ٧/٢١٨ بتصرف.

إلا لأمر عظيم، مثل لزومه لدين يعتقد أنه إن فارقه هلك، فيصبر عليه حتى يقتل، وسواء كان الدين حقا أو باطلا، أما مع اعتقاده أن الفعل يجب عليه باطنا وظاهرا، فلا يكون فعل الصلاة أصعب عليه من احتمال القتل قط.

ونظير هذا لو قيل أن رجلا من أهل السنة قيل له ترض عن أبي بكر وعمر، فامتنع عن ذلك حتى قتل مع محبته لهما واعتقاده فضلهما، ومع عدم الأعذار المانعة من الترضي عنهما فهذا لا يقع قط.

وكذلك لو فرض أن رجلا يشهد أن محمدا رسول الله باطنا وظاهرا وقد طلب منه ذلك، وليس هناك رهبة ولا رغبة يمتنع لأجلها، فامتنع من قولها حتى قتل، فهذا يمتنع أن يكون في الباطن يشهد أن محمدا رسول الله، ولهذا كان القول الظاهر من الإيمان الذي لا نجاة للعبد إلا به عند عامة السلف والخلف من الأولين والآخرين إلا الجهمية، جهما ومن وافقه، فإنه إذا قدر أنه معذور لكونه أخرس، أو لكونه خائفا من قوم إن أظهر الإسلام آذوه ونحو ذلك، فهذا يمكن أن لا يتكلم مع إيمان في قلبه كالمكره على كلمة الكفر [(١)].

قال الله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ﴾ النحل:١٠٦ .

وهذه الآية مما يدل على فساد قول جهم ومن اتبعه، فإن الله

(١) السابق ٧/٢١٩ بتصرف.

جعل كل من تكلم بالكفر من الكفار أهل الوعيد إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، فإن قيل قد اشترط أن ينشرح القلب بالكفر كما قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ النحل:١٠٦؟ قيل: وهذا موافق لأولها، فإنه من كفر من غير إكراه، فقد شرح بالكفر صدرا، وإلا ناقض أول الآية آخرها، ولو كان المراد بمن كفر هو الشارح صدره، وذلك يكون بلا إكراه لم يستثن المكره فقط، بل كان يجب أن يستثنى المكره وغير المكره إذا لم يشرح صدره، وإذا تكلم بكلمة الكفر طوعا فقد شرح بها صدرا وهي كفر.

وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾التوبة:٦٤/٦٦. فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم إنا تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له، بل كنا نخوض ونلعب، وبين أن الاستهزاء بآيات الله كفر، ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدره بهذا الكلام، ولو كان الإيمان في قلبه منعه أن يتكلم بهذا الكلام (١).

• أصل الإيمان الذي ينفي النفاق قوة العلم والبصيرة وقوة العمل والمحبة.

أصل الإيمان القلبي الذي ينفي النفاق كائن في قوة العلم والبصيرة

(١) السابق ٧/٢٢٠ بتصرف.

وقوة العمل والمحبة، قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ ﴾ص:٤٥ . فوصفهم بالقوة في العمل والبصيرة في العلم، وأصل القوة قوة القلب الموجبة لمحبة الخير وبغض الشر، فإن المؤمن قوته في قلبه، وضعفه في جسمه، والمنافق قوته في جسمه وضعفه في قلبه فالإيمان لابد فيه من هذين الأصلين التصديق بالحق والمحبة له، فهذا أصل القول، وهذا أصل العمل.

ثم الحب التام مع القدرة يستلزم حركة البدن بالقول الظاهر والعمل الظاهر ضرورة كما تقدم، فمن جعل مجرد العلم والتصديق موجبا لجميع ما يدخل في مسمي الإيمان وكل ما سمي إيمانا فقد غلط، بل لابد من العلم والحب، والعلم شرط في محبة المحبوب، لكن لا يلزم من العلم بالشيء والتصديق بثبوته محبته، ولهذا كان الإنسان يصدق بثبوت أشياء كثيرة ويعلمها وهو يبغضها، كما يصدق بوجود الشياطين والكفار ويبغضهم، ونفس التصديق بوجود الشيء لا يقتضي محبته، لكن الله سبحانه يستحق لذاته أن يحب ويعبد، وأن يحب رسوله لأجله، والقلوب فيها معنى يقتضي حبه وطاعته، كما فيها معنى يقتضي العلم والتصديق به، فمن صدق به وبرسوله ولم يكن محبا له ولرسوله، لم يكن مؤمنا حتى يكون فيه مع ذلك الحب له ولرسوله ﷺ.

وإذا قام بالقلب التصديق به والمحبة له لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة، والأعمال الظاهرة، فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولازمه، ودليله ومعلوله ،كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له أيضا تأثير

فيما في القلب، فكل منهما يؤثر في الآخر، لكن القلب هو الأصل والبدن فرع له، والفرع يستمد من أصله، والأصل يثبت ويقوى بفرعه كما في الشجرة التي يضرب بها المثل لكلمة الإيمان قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ إبراهيم: ٢٤/٢٥. وهي كلمة التوحيد، والشجرة كلما قوي أصلها وعرقها ورويت قويت فروعها، وفروعها أيضا إذا اغتذت بالمطر والريح أثر ذلك في أصلها.

وكذلك الإيمان في القلب والإسلام علانية، ولما كانت الأقوال والأعمال الظاهرة لازمة ومستلزمة للأقوال والأعمال الباطنة كان يستدل بها عليها كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ المجادلة: ٢٢. فأخبر أن من كان مؤمنا بالله واليوم الآخر، لا يوجدون موادين لأعداء الله ورسوله ﷺ، بل نفس الإيمان ينافي مودتهم، فإذا حصلت الموادة دل ذلك على خلل الإيمان، وكذلك قوله: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ المائدة: ٨٠/٨١.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ الحجرات:١٥. فأخبر تعالى أن هؤلاء هم الصادقون في قولهم آمنا، ودل ذلك على أن الناس في قولهم آمنا صادق وكاذب، والكاذب فيه نفاق بحسب كذبه، قال تعالى في المنافقين: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ البقرة:٨/١٠.

وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ المنافقون:١.

وقال تعالى: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ التوبة:٧٥/٧٧. ومثل هذا كثير.

وبالجملة فلا يستريب من تدبر ما يقول في أن الرجل لا يكون مؤمنا بمجرد تصديق في القلب مع بغضه لله ولرسوله، واستكباره عن عبادته ومعاداته له ولرسوله ﷺ.(١)

إذا عرف أن أصل الإيمان في القلب فاسم الإيمان تارة يطلق على ما في القلب من الأقوال القلبية والأعمال القلبية من التصديق والمحبة

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/٥٤٠ : ٥٤٢ بتصرف.

والتعظيم ونحو ذلك، وتكون الأقوال الظاهرة والأعمال لوازمه وموجباته ودلائله، وتارة على ما في القلب والبدن جعلا لموجب الإيمان ومقتضاه داخلا في مسماه، وبهذا يتبين أن الأعمال الظاهرة تسمى إسلاما، وأنها تدخل في مسمى الإيمان تارة ولا تدخل فيه تارة أخرى.

وذلك أن الاسم الواحد تختلف دلالته بالإفراد والاقتران، فقد يكون عند الإفراد فيه عموم لمعنيين، وعند الاقتران لا يدل إلا على أحدهما، كلفظ الفقير والمسكين إذا أفرد أحدهما تناول الآخر، وإذا جمع بينهما كان لكل واحد مسمى يخصه.

وإذا أفرد اسم الإيمان فقد يتناول هذا وهذا، كما في قول النبي ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق) [(١)]. وحينئذ فيكون الإسلام داخلا في مسمى الإيمان وجزءا منه، فيقال حينئذ إن الإيمان اسم لجميع الطاعات الباطنة والظاهرة، ومنه قوله: لوفد عبد القيس آمركم بالإيمان بالله أتدرون ما الإيمان بالله شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وتؤدوا خمس المغنم [(٢)].

فسر الإيمان ﷺ هنا بما فسر به الإسلام لأنه أراد بالشهادتين هنا أن يشهد بهما باطنا وظاهرا، وكان الخطاب لوفد عبد القيس، وكانوا من

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان ٦٣/١ (٣٥).
(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان ٢٩/١ (٥٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه ٤٧/١ (١٧).

خيار الناس، وهم أول من صلى الجمعة ببلدهم بعد جمعة أهل المدينة فهؤلاء كانوا صادقين راغبين في طلب الدين، فإذا أمرهم النبي ﷺ بأقوال وأعمال ظاهرة فعلوها باطنا وظاهرا فكانوا بها مؤمنين.

وأما إذا قرن الإيمان بالإسلام فإن الإيمان في القلب، والإسلام ظاهر، فالإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره، ومتى حصل له هذا الإيمان وجب ضرورة أن يحصل له الإسلام الذي هو الشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج، لأن إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله يقتضي الاستسلام لله والانقياد له، وإلا فمن الممتنع أن يكون قد حصل له الإقرار والحب والانقياد باطنا، ولا يحصل ذلك في الظاهر مع القدرة عليه، كما يمتنع وجود الإرادة الجازمة مع القدرة بدون وجود المراد.

وبهذا تعرف أن من آمن قلبه إيمانا جازما امتنع أن لا يتكلم بالشهادتين مع القدرة، فعدم الشهادتين مع القدرة مستلزم انتفاء الإيمان القلبي التام ، وبهذا يظهر خطأ جهم ومن اتبعه في زعمهم أن مجرد إيمان بدون الإيمان الظاهر ينفع في الآخرة، فإن هذا ممتنع إذ لا يحصل الإيمان التام في القلب إلا ويحصل في الظاهر موجبه بحسب القدرة، فان من الممتنع أن يحب الإنسان غيره حبا جازما وهو قادر على مواصلته ولا يحصل منه حركة ظاهرة إلى ذلك.

وأبو طالب عم النبي ﷺ إنما كانت محبته للنبي لقرابته منه لا لله، وإنما نصره وذب عنه لحمية النسب والقرابة، ولهذا لم يتقبل الله ذلك منه، وإلا فلو كان ذلك عن إيمان في القلب لتكلم بالشهادتين

ضرورة، والسبب الذي أوجب نصره للنبي ﷺ وهو الحمية، هو الذي أوجب امتناعه من الشهادتين بخلاف أبي بكر الصديق ونحوه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾ الليل:١٩/٢١.[١]

- **نفاق التقية وأثره في انتشار ضلالات الشيعة وغلاة الصوفية.**

ذكر ابن تيمية رحمه الله أن بعض المصطلحات التي وردت في كلام كثير من الناس قد شاعت في عصره كمصطلح علم الظاهر، وعلم الباطن، وأهل الظاهر، وأهل الباطن، وقد دخل في هذه المصطلحات حق وباطل، ثم بين رحمه الله أن مصطلح الباطن إما أن يكون المقصود به علم الأمور الباطنة مثل العلم بما في القلوب من المعارف والأحوال، والعلم بالغيوب التي أخبرت بها الرسل، وإما أن يريد به العلم الباطن، أي الذي يبطن عن فهم أكثر الناس، أو عن فهم من وقف مع الظاهر ونحو ذلك، فأما هو العلم بما في القلوب فلا ريب أن العلم منه ما يتعلق بالظاهر كأعمال الجوارح، ومنه ما يتعلق بالباطن كأعمال القلوب، ومنه ما هو علم بعالم الشهادة، وهو ما يشهده الناس بحواسهم، ومنه ما يتعلق بعالم الغيب، وهو ما غاب عن إحساسهم[٢].

وأصل الإيمان هو الإيمان بالغيب، والغيب الذي يجب الإيمان به ما أخبرت به الرسل من الأمور العامة، ويدخل في ذلك الإيمان بالله وأسمائه وصفاته، وملائكته، والجنة والنار، فالإيمان بالله وبرسله وباليوم

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/٥٥١ : ٥٥٤ بتصرف.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٣/٢٣٢ بتصرف.

الآخر يتضمن الإيمان بالغيب؛ والعلم بأحوال القلوب كالعلم بالاعتقادات الصحيحة والفاسدة، والإرادات الصحيحة والفاسدة، والعلم بمعرفة الله ومحبته، والإخلاص له وخشيته، والتوكل عليه، والرجاء له، والحب فيه، والبغض فيه، والرضا بحكمه، والإنابة إليه، والعلم بما يُحمَد ويُذَم من أخلاق النفوس، كالسخاء والحياء، والتواضع والكبر، والعجب والفخر، والخيلاء، وأمثال ذلك من العلوم المتعلقة بأمور باطنة في القلوب ونحوه، قد يقال له علم الباطن أي علم بالأمر الباطن، فالمعلوم هو الباطن.

وأما العلم الظاهر فهو ظاهر ما يتكلم به ويكتب، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة، وكلام السلف وأتباعهم، بل غالب آي القرآن هو من هذا العلم؛ فإن الله أنزل القرآن شفاء لما في الصدور، بل هذا العلم هو العلم بأصول الدين، فإن اعتقاد القلب أصل لقول اللسان، وعمل القلب أصل لعمل الجوارح، والقلب هو ملك البدن والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده، كما صح مرفوعا بأن الجسد فيه مُضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب.

ومن لم يكن له علم بما يصلح باطنه ويفسده، ولم يقصد صلاح قلبه بالإيمان ودفع النفاق كان منافقا إن أظهر الإسلام؛ فإن الإسلام يظهره المؤمن والمنافق وهو علانية، والإيمان في القلب عند اقترانه بالإسلام.

والناس في حقائق الإيمان متفاضلون تفاضلا عظيما، فأهل الطبقة

العليا يعلمون حال أهل السفلى من غير عكس، كما أن أهل الجنة في الجنة ينزل الأعلى إلى الأسفل، ولا يصعد الأسفل إلى الأعلى، والعالم يعرف الجاهل؛ لأنه كان جاهلا، والجاهل لا يعرف العالم لأنه لم يكن عالما؛ فلهذا كان في حقائق الإيمان الباطنة وحقائق أنباء الغيب التي أخبرت بها الرسل ما لا يعرفه إلا خواص الناس، فيكون هذا العلم باطنا من جهتين، من جهة كون المعلوم باطنا، ومن جهة كون العلم باطنا لا يعرفه أكثر الناس.

وقد دخل في الكلام عن العلم الباطن والظاهر من الحق والباطل ما لم يدخل في غيره، فما وافق الكتاب والسنة فهو حق، وما خالف ذلك فهو باطل كالكلام في الأمور الظاهرة[1].

ولم يكن الصحابة ﷺ يبطنون خلاف ما يظهرون، ولا يظهرون الإثبات ويبطنون النفي، ولا يظهرون الأمر ويبطنون امتناعه؛ بل هم أقوم الناس بتصديق الرسول ﷺ فيما أخبر، وطاعته فيما أمر.

ولما كان الإيمان عند أهل السنة قولا وعملا، فلابد لكل قول وعمل عندهم من ظاهر وباطن، فظاهر القول لفظ اللسان، وباطنه ما يقوم من حقائقه ومعانيه بالجنان، وظاهر العمل حركات الأبدان، وباطنه ما يقوم بالقلب من حقائقه ومقاصد الإنسان، فالمنافق لما أتى بظاهر الإسلام دون حقائق الإيمان لم ينفعه ذلك وكان من أهل الخسران، بل كان في الدرك الأسفل من النار، والملاحدة يظهرون موافقة المسلمين ويبطنون خلاف ذلك وهم شر من المنافقين، فإن

---

(١) مجموع الفتاوى ١٣/٢٣٣ : ٢٣٥.

المنافقين نوعان، نوع يظهر الإيمان ويبطن الكفر، ولا يَدَّعِي أن الباطن الذي يبطنه من الكفر هو حقيقة الإيمان، والملاحدة تدعي أن ما تبطنه من الكفر هو حقيقة الإيمان، وأن الأنبياء والأولياء هم من جنسهم يبطنون ما يبطنونه مما هو كفر وتعطيل، فهم يجمعون بين إبطان الكفر وبين دعواهم أن ذلك الباطن هو الإيمان عند أهل العرفان، فلا يظهرون للمستجيب لهم أن باطنه طعْن في الرسول ﷺ والمؤمنين، وتكذيب له، بل يجعلون ذلك من كمال الرسول ﷺ وتمام حاله، وأن الذي فعله هو الغاية في الكمال، وأنه لا يفعله إلا أكمل الرجال من سياسة الناس على السيرة العادلة، وعمارة العالم على الطريقة الفاضلة، وهذا قد يظنه طوائف حقا باطنا وظاهرا، فيؤول أمرهم إلى أن يكون النفاق عندهم هو حقيقة الإيمان، وقد علم بالاضطرار أن النفاق ضد الإيمان.

ولهذا كان أعظم الأبواب التي يدخلون منها باب التشيع والرفض؛ لأن الرافضة هم أجهل الطوائف وأكذبها، وأبعدها عن معرفة المنقول والمعقول، وهم يجعلون التُّقيَة من أصول دينهم، ويكذبون على أهل البيت كذبا لا يحصيه إلا الله ﷻ حتى نسبوا لجعفر الصادق أنه قال: التقية ديني ودين آبائي[1].

والتقية هي شعار النفاق، فإن حقيقتها عندهم أن يقولوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وهذا حقيقة النفاق[2].

---

(١) أصول الكافي للكليني (٢/٢١٩)، وعقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر ص١٢٣.
(٢) مجموع الفتاوى ١٣/٢٦٢ : ٢٦٣ بتصرف.

ثم إذا كان هذا من أصول دينهم صار كل ما ينقله الناقلون عن علي ﷺ أو غيره من أهل البيت مما فيه موافقة أهل السنة والجماعة، يقولون هذا قالوه على سبيل التقية، ثم فتحوا باب النفاق للقرامطة الباطنية، والفلاسفة من الإسماعيلية والنصيرية ونحوهم، فجعلوا ما يقوله الرسول ﷺ هو من هذا الباب، وأنه أظهر به خلاف ما أبطن، وأسر به خلاف ما أعلن، فكان حقيقة قولهم: أن الرسول ﷺ هو إمام المنافقين، وهو ﷺ الصادق المصدوق، المبين للناس ما نزل إليهم، المبلغ لرسالة ربه، والمخاطب لهم بلسان عربي مبين. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾ إبراهيم: ٤.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٤٣ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ النحل: ٤٣/٤٤.

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝٩٢﴾ المائدة: ٩٢.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ۝١٩٥﴾ الشعراء: ١٩٢/١٩٥.

هذه النصوص ونحوها تبين أن الرسل عليهم أن يبلغوا البلاغ المبين، ومعلوم أن الرسل فعلوا ما عليهم، بل قد أخذ الله ﷻ على أهل العلم الميثاق بأن يبينوا العلم ولا يكتموه، وذم كاتميه فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

﴿يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ البقرة:١٥٩. فقد لعن كاتمه، وأخبر أنه بينه للناس في الكتاب، فكيف يكون قد بينه للناس وهو قد كتم الحق وأخفاه، وأظهر خلاف ما أبطن؟ فلو سكت عن بيان الحق كان كاتما، ومن نسب الأنبياء إلى الكذب والكتمان مع كونه يقول إنهم أنبياء، فهو من أشر المنافقين وأخبثهم وأبينهم تناقضا.

وكثير من أهل النسك والعبادة والعلم والنظر ممن سلك طريق بعض الصوفية والفقراء، وبعض أهل الكلام والفلسفة يسلك مسلك الباطنية في بعض الأمور لا في جميعها، حتى يرى بعضهم سقوط الصلاة عن بعض الخواص، أو حِل الخمر وغيرها من المحرمات لهم، أو أن لبعضهم طريقا إلى الله ﷻ غير متابعة الرسول ﷺ، وقد يحتج بعضهم بقصة موسي والخِضر، ويظنون أن الخضر خرج عن الشريعة؛ فيجوز لغيره من الأولياء ما يجوز له من الخروج عن الشريعة، وهم في هذا ضالون من وجهين:

أحدهما: أن الخضر لم يخرج عن الشريعة، بل الذي فعله كان جائزا في شريعة موسى عليه السلام؛ ولهذا لما بيَّن له الأسباب أقره على ذلك، ولو لم يكن جائزا لما أقره، ولكن لم يكن موسى عليه السلام يعلم الأسباب التي بها أبيحت تلك، فظن أن الخضر كالملك الظالم، فذكر ذلك له الخضر.

والثاني: أن الخضر لم يكن من أمة موسى عليه السلام؛ ولا كان يجب عليه متابعته، بل قال له: إني على علم من علم الله عَلمَنِيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه. وذلك أن دعوة

موسى عليه السلام لم تكن عامة؛ فإن النبي كان يبعث إلى قومه خاصة، ومحمد ﷺ بعث إلى الناس كافة، بل بعث إلى الإنس والجن باطنا وظاهرا، فليس لأحد أن يخرج عن طاعته ومتابعته، لا في الباطن ولا في الظاهر، لا من الخواص ولا من العوام.

والمقصود هنا أن الظاهر لابد له من باطن يحققه ويصدقه ويوافقه، فمن قام بظاهر الدين من غير تصديق بالباطن فهو منافق، ومن ادَّعَى باطنا يخالف ظاهرا فهو كافر منافق، بل باطن الدين يحقق ظاهره ويصدقه ويوافقه، وظاهره يوافق باطنه، ويصدقه ويحققه، فكما أن الإنسان لابد له من روح وبدن وهما متفقان، فلابد لدين الإنسان من ظاهر وباطن يتفقان، فالباطن للباطن من الإنسان، والظاهر للظاهر منه[1].

- الصفات القولية والفعلية التي تتردد بين النفاق الأصغر والأكبر.

١- من صفات النفاق القولية سخرية المنافق واستهزائه بالمؤمنين كما قال تعالى في وصفهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾التوبة:٦٥ / ٦٦.

٢- من صفات النفاق القولية الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف كما قال تعالى: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ

(١) مجموع الفتاوى ١٣/٢٦٥: ٢٦٨ بتصرف.

بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾التوبة:٦٧.

٣- من صفات النفاق القولية نشر المنافق التشكيك والأراجيف والإشاعات عن ضعف المسلمين، تطميعا للعدو في غزوهم والتجسس لصالحهم والقضاء عليهم طمعا في بقائهم على مناصبهم.

قال تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾الأحزاب:٦٠.

٤- من صفات النفاق القولية سهوله التلفظ بكلمات الكفر والفسوق وكثرة سب الدين، وغير ذلك مما يتلفظون به من ألفاظ الاستهانة والاحتقار تكفير المؤمنين.

قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾التوبة:٧٤.

٥-من صفات النفاق الفعلية خُلف العهد، لاسيما عهد الله وميثاقه، فليس إخلاف الوعد في معاملات البشر بعضهم لبعض فقط، بل من أكبر أنواع الكذب وخُلف الوعد، وخيانة الأمانة هو نقض عهد الله وميثاقه، وعدم الإذعان لأوامره، فإن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، تلزم كل من أتي بها أن ينفذ ما أمره الله ورسوله به.

٦-من صفات النفاق الفعلية التكاسل عن أداء الصلاة وحضورها

مع الجماعة، فهي أثقل ما يكون على المنافقين كما ورد عند البخاري أن أثقل الصلاة علي المنافقين صلاه العشاء وصلاة الفجر، وصح عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن الصحابة كانوا يرون أن ما يتخلف عن صلاة الجماعة إلا منافق معلوم النفاق، وأن الرجل كان يهادي بين الرجلين حتى يقام في الصف.

٧-من صفات النفاق الفعلية الإعراض عن الاستغفار والمبادرة بسرعة التوبة حيث يظن المنافقون أنهم لم يفعلوا ذنوبا تستوجب التوبة والاستغفار منها، وهذا أيضا من الاغترار والجهل بأسماء الله وصفاته، فكما أنه جل شأنه غفور رحيم، فإنه شديد العقاب لمن استهان بعذابه، فكان إذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم استهزاءا واستكبارا معرضين عما دعوا إليه .

٨-من صفات النفاق الفعلية قلة ذكر المنافق لربه لانعدام يقينه في جدوى الذكر وشكه في وقوع ثوابه عند الله ﷻ.

قال تعالى: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾المجادلة:١٩. أي استولى علي قلوبهم وتملك من نفوسهم حتى أنساهم أن يذكروا ربهم ويستنيروا بهديه في حياتهم.

٩-من صفات النفاق الفعلية إغلاق المنافقين لأسماعهم وأبصارهم وأفهامهم عند سماعهم لكلام الله ورسوله.

روى البخاري من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مَثل المُؤْمِن الذي يقرأُ القرآن كَمَثل الأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيبٌ

وَطَعْمُهَا طيبٌ. وَمَثل المُؤْمِن الذي لا يقْرَأُ القُرْآن كَمَثل التَّمْرَةِ، لا ريحَ لهَا وَطَعْمُهَا حُلوٌ. وَمَثل المُنافِقِ الذي يقْرَأُ القُرْآن مَثل الرَّيحَانةِ، ريحُهَا طَيبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ. وَمَثل المُنافِقِ الذي لا يقْرَأُ القُرْآن كَمَثل الحَنظَلةِ، ليسَ لهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ) (١).

قال ابن تيميه رحمه الله: (إن من المنافقين من يصدق أنه كلام الله وأن الرسول حق ولا يكون مؤمنا،كما أن اليهود يعرفونه كما يعرفون أبنائهم وليسوا بمؤمنين، وكذلك إبليس، وفرعون، وغيرهما، لكن من كان كذلك لم يكن حصل له العلم التام والمعرفة التامة، فإن ذلك يستلزم العمل بموجبه لا محالة) (٢).

١٠- من صفات النفاق الفعلية موالاة الكفار من دون المؤمنين، فلا يثقون في وعد الله بتمكين المؤمنين في الأرض ولا يؤمنون بغير القوة المادية، ولا يقيمون للإيمان بالله تعالى واليقين بنصره للمؤمنين وزنا، ولذلك يوالون الكفار على اعتبار أنهم الأقوى ماديا اعتقادا منهم بأن العزة في موالاتهم والانحياز إلي صفوفهم. قال تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ النساء:١٣٨/ ١٣٩.

١١- من صفات النفاق الفعلية حرصهم علي المكاسب الدنيوية

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام ٥/٢٠٧٠ (٥١١١)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب فضيلة حافظ القرآن ١/٥٤٩ (٧٩٧) والأترجة ثمرة تشبه الحجم الصغير من القرع العسلي.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/٢٤.

العاجلة، وزهدهم في مكاسب الآخرة، فلا يخرجون في الجهاد لوجه الله بل طمعا في الغنيمة، ولا يخرجون إلا فيما هو سهل المنال.

قال تعالى في شأنهم: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ التوبة:٤٢.

١٢–من صفات النفاق الفعلية الرغبة في التحاكم إلي غير شرع الله تعالى، والمنافقون يكرهون التحاكم إلي شرع الله لأنه يتعارض مع أهوائهم، وشهواتهم الدنيوية، فيشككون في جدوى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ويتعللون بأن الواقع لا يتحمل الالتزام بهذه الأحكام.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ النساء:٦٠ / ٦٣.

١٣–من صفات النفاق الفعلية إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا بنشر الفساد والانحلال الأخلاقي وتجنيس المجتمع الإسلامي وإفساد طهارته واتهام المؤمنين بالفاحشة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ

﴿مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١﴾ النور: ١١.

١٤- من صفات النفاق الفعلية حبهم للمال والترف وكراهية الأنفاق في سبيل الله، فشك المنافقين في الآخرة جعل الدنيا أكبر همهم، لذا فهم يكرهون أداء زكاه أموالهم، وإذا فعلوا شيئا من أعمال البر فعلوها رياء وسمعة، لذا قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ۝٥٤﴾ التوبة: ٥٤.

١٥- من صفات النفاق القولية كثرة الحلف والمبالغة فيه وكثرة الحنث فيه، قال تعالى عن المنافقين: ﴿۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٥٣﴾ النور: ٥٣.

وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ۝٦٢﴾ النساء: ٦٢.

وقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝٤٢﴾ التوبة: ٤٢.

وقال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٤﴾ المجادلة: ١٤.

١٦- من صفات النفاق العملية خوف المنافق من الموت أو القتل وكراهية الجهاد في سبيل الله، فيصيبهم الهلع والفزع عند مواطن الجد

مواجهة الأعداء.

قال تعالى في وصفهم: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) ﴾ الأحزاب:١٩.

وقال تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) ﴾ الأنفال:٤٩.

١٧- من صفات النفاق العملية حسد المنافقين للمؤمنين فيكرهون الخير لهم ويتمنون لهم الشر، ولا يلقون إليهم بالمودة، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) ﴾ آل عمران:١١٨ / ١١٩.

١٨- من صفات النفاق العملية خيانة المنافق للأمانة كما روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسُول الله ﷺ قال: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان، وإذا وعد أخلف) [١].

وعند البخاري من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن

---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب علامة المنافق ١/٢١ (٣٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق ١/٧٨ (٥٩)

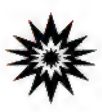
رسول الله ﷺ قال: (أربعٌ من كُنّ فيه كان مُنافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلةٌ منهُنّ كانت فيه خصلةٌ من النّفاق حتّى يدعها: إذا اؤتُمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر) [1] .



(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب علامة المنافق ١/٢١ (٣٤)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق ١/٧٨ (٥٨). وانظر ما جاء عن صفات المنافقين القولية والفعلية في كتاب نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف للدكتور محمد بن عبد الله بن علي الوهيبي .

المطلب الواحد والعشرون

قول اللسان وتحقيق شهادة التوحيد والإيمان وأثرهما في تكامل أركان الإيمان



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا فيما سبق عن صلاح القلب وتعلق الظاهر من أعمال الإيمان بأعمال القلب في الإنسان، وقد علمنا دلالة مصطلح تصديق القلب عند السلف والمرجئة، وأن عمل القلب هو محور الإيمان أو عدمه في توجه الإنسان، وأن معرفة دلالة الألفاظ في مسألة الإيمان والإسلام من أنفع الأمور.

وعلمنا أن مرجئة الجهمية ظنت أن الإيمان هو تصديق القلب وعلمه دون عمله، وبينا وجه الرد على زعم مرجئة الجهمية أن كل كافر إنما كفر لعدم علمه بالله، وعلمنا أن إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة، وأن الإيمان الذي فرضه الله على عباده ليس متماثلا في حقهم جميعا.

وبينا وجه الرد على المرجئة في قولهم إن الله فرق بين الإيمان والعمل، وعلمنا أن القرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه، وأن زيادة الإيمان الذي أمر الله به عباده يكون فيهم من وجوه، وأن الإيمان القلبي لا يكون إيمانا بمجرد التصديق دون عمل القلب.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن قول اللسان وتحقيق شهادة التوحيد والإيمان، وأثرهما في تكامل أركان الإسلام وأركان الإيمان.

- **شهادة ألا إله إلا الله قول باللسان مرتبط ببقية أركان الإيمان.**

مما يزيل اللبس الحاصل عن كثيرين في فهم قضية الإيمان، وفهم أركانه ومسماه، ضرورة التفريق بين مجرد قول الإنسان باللسان لا إله إلا الله، وشهادة الإنسان ألا إله إلا الله، فلفظ الشهادة الذي نص على ذكره الوحي في الأصول القرآنية والنبوية، لا يعني مجرد القول المنفصل عن الاعتقاد القلبي والعمل الإرادي الكسبي، كما هو حال المنافق إذا قالها، أو الأعجمي الذي نطق بها ولا يعرف معناها ولا مقتضاها، أو قالها عن غير نية يدخل بها الإسلام، بل الشهادة بأنه لا إله إلا الله لها معان مرتبطة بقول اللسان لا تنفك عنه، ولذلك فإن قول لا إله إلا الله لا ينفع قائله إلا بشروط تدل في مجموعها على تحقيق العزم للاستجابة والانقياد لما جاء في رسالة الإسلام التي نزلت من عند الله، والمتمثلة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإعلان قائلها أنه يشهد بتوحيد العبادة لله وأنه لا معبود بحق سواه.

أما مجرد قول لا إله إلا الله كنطق الأعجمي بها بلا فهم أو إدراك لمعناها، أو النطق بها على مفهوم محدث مبتدع، يبتدعه قائلها ويعتقده ويدعو الناس إليه، فيجعلها منطبقة مثلا على معنى أنه لا موجود إلا الله كما هو حال غلاة الصوفية من أصحاب وحدة الوجود، أو حال المتكلمين حين قصروا لفظها بالمطابقة على أنه لا خالق إلا الله، وأن

شهادة التوحيد إنما تدور فقط على مجرد إثبات وجود الله أو عدمه، وأخرجوا من مدلولها في كلامهم عنها توحيد العبادة لله ونفي الشرك، أو كما فعلت الفلاسفة في وضعها كلمة التوحيد حصرا على ما اصطلحوا عليه من جعل الإله هو العلة الفعالة، وأنه لا علة إلا الله، فهذا كله مجرد قول منفصل عن المعنى الحق لشهادة ألا إله إلا الله وتوحيد العبادة لله، ذلك المعنى الذي دعا إليه رسول الله ﷺ قومه من قريش وسائر العرب والعجم وحاربهم من أجله.

ومن نظر إلى أغلب الأحاديث التي ثبتت في ذكر قول اللسان كركن أساسي من أركان الإيمان، دل عليه مصطلح الإيمان بالتضمن وجدها تنص على ذكر مصطلح "الشهادة" لما له من معان مرتبطة بقول اللسان لا تنفك عنه، كما ورد عند البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ رضي الله عنه حين بعثه إلى أهل الكتاب في اليمن: (ادْعُهُمْ إلى شَهَادَةِ أَن لا إلهَ إلا اللهُ وَأَني رَسُول اللهِ، فَإِن هُمْ أَطَاعُوا لذلكَ فَأَعْلمْهُمْ أَن اللهَ قَدْ افْتَرَضَ عَليْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُل يَوْمٍ وَلَيْلةٍ.. الحديث)[1]. فهذا الحديث نص على لفظ "الشهادة" دون لفظ "القول".

وكذلك ما ورد في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث جبريل وسؤاله عن الإسلام، فأجابه النبي ﷺ: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان،

---

(١) البخاري في الزكاة، باب وجوب الزكاة ٢/٥٠٥ (١٣٣١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ١/٥٠ (١٩).

وتحج البيت[(١)]. وهذه الخمس هي المذكورة أيضا في حديث ابن عمر رضي الله عنهما الذي ورد النص فيه على لفظ الشهادة فقال النبي ﷺ: (بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلى خَمْسٍ، شَهَادَةِ أَن لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ البَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَان) [(٢)].

وعند البخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لا يَحِل دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَن لا إِلهَ إِلا اللهُ وَأَني رَسُول اللهِ إِلا بِإِحْدَى ثلاث، النفْسُ بِالنفْسِ، وَالثيِّبُ الزَّانِي، وَالمَارِقُ مِن الدِّين التَّارِكُ للجَمَاعَةِ) [(٣)].

وعنده أيضا من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (أُمِرْتُ أَن أُقَاتِل الناسَ حتى يَشْهَدُوا أَن لا إِلهَ إِلا اللهُ، وَأَن مُحَمَّدا رَسُول اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذا فَعَلوا ذلكَ عَصَمُوا مِني دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالهُمْ إِلا بِحَقِّ الإِسْلامِ وَحِسَابُهُمْ على اللهِ) [(٤)].

وروى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح خيبر: (لأُعْطِيَن هذهِ الرَّايَةَ رَجُلا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولهُ، يَفتَحُ اللهُ عَلى

---

(١) مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١/٣٦ (٨).

(٢) البخاري في الإيمان، باب الإيمان وقول النبي ﷺ بني الإسلام على خمس ١/١٢ (٨)، ومسلم في الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ١/٤٥ (١٦).

(٣) رواه البخاري في كتاب الديات، باب قول الله تعالى أن النفس بالنفس والعين بالعين ٦/٢٥٢١ (٦٤٨٤)، ومسلم في كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم ٣/١٣٠٣ (١٦٧٦).

(٤) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ١/١٧ (٢٥).

يَدَيهِ. قَال عُمَرُ ﷺ: مَا أحبَبْتُ الإِمَارَة إلاَّ يَومَئِذ، فَتَسَاوَرتُ لَهَا رَجَاءَ أن أُدْعَى لَهَا، فَدَعَا رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب ﷺ فَأعْطَاهُ إيَّاهَا، وَقَال: امْشِ وَلَا تَلتَفِتْ حَتَّى يَفتَح اللهُ عَلَيكَ، فَسَارَ عليٌّ شيئا ثمَّ وَقَفَ ولم يلتفت، فصرخ: يَا رَسُول الله، عَلَى ماذا أُقَاتِل الناسَ؟ قَال: قَاتِلهُمْ حَتَّى يَشْهَدُوا أن لا إله إلاَّ اللهُ، وَأن مُحَمدا رسول الله، فَإِذا فَعَلوا فقَدْ مَنعوا مِنكَ دِمَاءهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلاَّ بحَقِّهَا، وحسَابُهُمْ عَلَى اللهِ) (١).

وصح من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إن الله ﷻ يستخلصُ رجُلا من أُمتي على رُءُوس الخلائق يوم القيامة، فينشُرُ عليه تسعة وتسعين سجلا، كُل سجل مد البصر، ثم يقُول لهُ أتُنكرُ من هذا شيئا؟ أظلمتك كتبتي الحافظُون؟ قال: لا يا ربّ. فيقُول: ألك عُذرٌ أو حسنةٌ؟ فيُبهتُ الرجُل فيقُول: لا يا ربّ. فيقُول: بلى إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظُلم اليوم عليك، فتُخرجُ لهُ بطاقةٌ فيها أشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وأن مُحمدا عبدُهُ ورسُولهُ، فيقُول: أحضرُوهُ، فيقُول: يا ربّ، ما هذه البطاقةُ مع هذه السّجلات؟ فيُقال: إنك لا تُظلمُ؟ قال: فتُوضعُ السّجلاتُ في كفةٍ. قال: فطاشت السّجلاتُ وثقُلت البطاقةُ، ولا يثقُل شيءٌ بسم الله الرحمن الرحيم) (٢).

---

(١) مسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل على ١٨٧١/٤ (٢٤٠٥). وتساورت تطاولت لها حرصا عليها ورفعت شخصى ليراني ويتذكرني.

(٢) رواه الترمذي في كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله ٢٤/٥ (٢٦٣٩)، وأحمد في المسند ٢١٣/٢ (٦٩٩٤)، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ١٤٣٧/٢ (٤٣٠٠)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (١٣٥)، وصحيح الجامع (١٧٧٦).

• **الشهادة ربما يعبر عنها بتوحيد العبادة أو القول مع مقتضاه .**

وربما يذكر بديلا عن مصطلح "الشهادة" مصطلح "العبادة"، أو مصطلح "التوحيد"، أو مصطلح "القول" مقترنا بأحد الشروط اللازمة لكلمة التوحيد لا إله إلا الله، كالإخلاص الكائن في القلب، أو اليقين المنافي للشك، أو العلم المنافي للجهل، أو الكفر بما يعبد من دون الله، أو غير ذلك مما يدل على أن المراد بقول اللسان في قضية مسمى الإيمان، أو قول اللسان الذي دل عليه مصطلح الإيمان بدلالة التضمن هو القول المقتضي لشروطه ولوازمه، وليس مجرد النطق بالكلمة مجردة منفصلة عن بقية الأركان. وقد روى البخاري ما يدل على أن الشهادة في مفهوم الصحابة هي توحيد العبادة لله، ففي حديث معاذ ﷺ قال له رسول الله ﷺ: (إنكَ تَقْدَمُ عَلى قَوْمٍ مِن أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُن أَوَّل مَا تَدْعُوهُمْ إلى أَن يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالى، فَإِذا عَرَفُوا ذلك، فَأَخْبِرْهُمْ أَن اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ..) (١).

وفي رواية أخري قال له: (إنكَ تَقْدَمُ عَلى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُن أَوَّل مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ، فَإِذا عَرَفُوا اللهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَن اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ.. الحديث) (٢).

وروى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ قال: (قِيل يَا رَسُول اللهِ،

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ٦/٢٦٨٥ (٦٩٣٧).

(٢) رواه البخاري في كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة ٢/٥٢٩ (١٣٨٩).

مَن أَسْعَدُ الناس بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَال رَسُول اللهِ ﷺ: لقَدْ ظَننتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَن لاَ يَسْأَلني عَن هَذا الحَدِيث أَحَدٌ أَوَّل مِنك لَمَا رَأَيْتُ مِن حِرْصِكَ عَلى الحَدِيث، أَسْعَدُ الناسِ بِشَفَاعَتي يَوْمَ القِيَامَةِ مَن قَال لاَ إِلهَ إِلاّ اللهُ، خَالصا مِن قَلبِهِ أَوْ نفْسِهِ)[1]. فذكر القول مع شرط الإخلاص، وهو من شروط لا إله إلا الله.

وورد في صحيح مسلم من حديث أبي مالك عن أبيه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مَن قَال لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِن دُون اللهِ حَرُمَ مَالهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلى اللهِ)[2]. فذكر القول مع الشرط الثامن من شروط لا إله إلا الله وهو الكفر بما يعبد من دون الله.

وروى مسلم من حديث عثمان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مَن مَاتَ وَهُوَ يَعْلمُ أَنهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ دَخَل الجَنةَ)[3]. فذكر القول مع الشرط الأول من شروط لا إله إلا الله وهو العلم بها .

وربما تذكر الشهادة أيضا مع بيان شرط من شروطها كما روى مسلم من حديث أبي هُرَيرة ﷺ أنه رَسُول الله ﷺ قال له: (اذهَب بنعلي هَاتين، فَمَن لقِيت مِن وَرَاءِ هَذا الحَائِطِ يشْهَد أَن لا إِلهَ إلا الله مُسْتيقِنا بهَا قَلبهُ فَبشِّرْهُ بالجَنةِ. فَكَان أَوَّل مَن لقِيت عُمَر بن الخطاب،

(١) رواه البخاري في كتاب العلم، باب الحرص على الحديث ١/٤٩ (٩٩).
(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ١/٥٣ (٢٣).
(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ١/٥٥ (٢٦).

فَقَال: مَا هَاتان النعْلان يا أَبا هُرَيرَةَ؟ فَقُلت: هَاتان نعْلا رَسُول الله ﷺ بعَثني بهمَا، مَن لقِيت يشْهَد أَن لا إِلهَ إِلا الله مُسْتيقِنا بهَا قَلبهُ بشَّرْتهُ بالجَنةِ، فَضَرَب عُمَرُ بيدهِ بين ثديي، فَخَرَرْت لإسْتي، فَقَال: ارْجِعْ يا أَبا هُرَيرَةَ، فَرَجَعْت إِلى رَسُول الله ﷺ فَأَجْهَشْت بكَاء، ورَكِبني عُمَرُ [١]. فَإِذا هُوَ على أَثري، فَقَال لي رَسُول الله ﷺ: مَا لكَ يا أَبا هُرَيرَةَ؟ قُلت: لقِيت عُمَرَ فَأَخْبرْتهُ بالذي بعَثتني بهِ، فَضَرَب بين ثديي ضَرْبة خَرَرْت لإسْتي، قَال: ارْجِعْ، فَقَال لهُ رَسُول الله: يا عُمَرُ، مَا حَمَلك على مَا فَعَلت؟ قَال: يا رَسُول الله، بأَبي أَنت وَأُمِّي، أَبعَثت أَبا هُرَيرَةَ بنعْليكَ، مَن لقِي يشْهَد أَن لا إِلهَ إِلا الله مُسْتيقِنا بهَا قَلبهُ بشَّرَهُ بالجَنةِ؟ قَال: نعَمْ، قَال: فَلا تفْعَل، فَإِني أَخْشَي أَن يتكِل الناسُ عَليهَا، فَخلهِمْ يعْمَلون، قَال رَسُول الله ﷺ: فَخَلهِمْ) [٢].

وإذا ورد النص على ذكر القول أعني قول اللسان لا إله إلا الله، أو فعلى اعتبار أن كل شهادة قولا، وليس كل قول شهادة، فالقول محمول على شهادة لما تقدم من تفسير ذلك في جميع النصوص روى البخاري من حديث أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (أُمِرْتُ أَن أُقَاتِل الناسَ حَتَّى يَقُولوا لا إِلهَ إِلا اللهُ، فَمَن قَال لا إِلهَ إِلا اللهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِني نفْسَهُ وَمَالهُ إِلا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلى اللهِ) [٣].

---

(١) يعني تبعه عمر في المسير وأدركه عند النبي ﷺ لحظة وصوله.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ١/٥٩ (٣١) ومعنى أجهش أي هم بالبكاء، واحتفز تضامم ليسعه المدخل، والحائط البستان، والربيع النهر الصغير.

(٣) البخاري في الجهاد، باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام ٣/١٠٧٧ (٢٧٨٦).

- **شهادة التوحيد إعلام بدخول الإسلام وتوحيد العبادة لله.**

شهادة التوحيد إعلام وحكم من قائلها بأنه دخل في الإسلام واستسلم وخضع لله ﷻ، وأنه يدين بتوحيد العبادة له، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (توحيد العبادة هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، أن يقصد الله بالعبادة ويريده بذلك دون ما سواه، وهذا هو الإسلام، فإن الإسلام يتضمن أصلين، أحدهما: الاستسلام لله، والثاني: أن يكون ذلك له سالما، فلا يشركه أحد في الإسلام له، وهذا هو الاستسلام لله دون ما سواه) [١].

وقد كان أصحاب النبي ﷺ يعلمون أن مصطلح الإسلام هو في حقيقته توحيد العبادة لله وإفراده تعالى بها، فالإسلام بمعنى الخضوع والاستسلام للمعبود على وجه المحبة والتعظيم، وهذا تعريف العبادة، أما توحيد العبادة لله فظاهر من الشهادة التي هي أول ركن من أركان الإسلام، فكلهم يعلمون أن الإسلام لا يصح إلا بالتوحيد، وأن توحيد العبادة لله هو الإسلام، وأن هذا حق الله على سائر العباد وهو شرط دخولهم الجنة، كما روى البخاري من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: (هَل تَدْرى مَا حَقُّ اللهِ عَلى عِبَادِهِ ؟ قُلتُ: اللهُ وَرَسُولهُ أَعْلمُ، قَال: حَقُّ اللهِ عَلى عِبَادِهِ أَن يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئا، ثمَّ سَارَ سَاعَة ثمَّ قَال: يَا مُعَاذ بْن جَبَل، قُلتُ: لبَّيْكَ رَسُول اللهِ وَسَعْدَيْك، فَقَال: هَل تَدْرى مَا حَقُّ العِبَادِ عَلى اللهِ إذا فَعَلوهُ ؟ قُلتُ: اللهُ وَرَسُولهُ أَعْلمُ، قَال: حَقُّ العِبَادِ عَلى اللهِ أَن لاَ

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية ٥/٢٥٠.

يُعَذِبَهُمْ) [١].

ومن ثم فإن قول اللسان الذي يتضمنه مصطلح الإيمان عند الإطلاق هو النطق بالشهادتين، والإقرار بلوازمهما، وهو أمر لابد منه، بل هو الأصل في ثبوت الإيمان الظاهر. قال ابن تيمية: (لو قيل إن رجلا يشهد أن محمدا رسول الله باطنا وظاهرا، وقد طلب منه ذلك، وليس هناك رهبةٌ ولا رغبةٌ يمتنع لأجلها، فامتنع منها حتى قتل، فهذا يمتنع أن يكون في الباطن يشهد أن محمدا رسول الله؛ ولهذا كان القول الظاهر من الإيمان الذي لا نجاة للعبد إلا به عند عامة السلف والخلف من الأولين والآخرين إلا الجهمية، فإنه إذا قدر أنه معذورٌ لكونه أخرس أو لكونه خائفا من قومٍ إن أظهر الإسلام آذوه ونحو ذلك، فهذا يمكن أن لا يتكلم مع إيمان في قلبه، كالمكره على كلمة الكفر. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ النحل:١٠٦. وهذه الآية مما يدل على فساد قول جهمٍ ومن اتبعه، فإنه جعل كل من تكلم بالكفر من أهل وعيد الكفار، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) [٢].

وذكر إدريس بن عبد الكريم المقري أن رجلا من أهل خراسان سأل إبراهيم بن خالد المعروف بأبي ثور(ت:٢٤٠هـ) عن الإيمان وما هو؟

---

(١) رواه البخاري في كتاب اللباس، باب إرداف الرجل خلف الرجل ٥/٢٢٢٤ (٥٦٢٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا ١/٥٨ (٣٠).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/٢١٩.

يزيد وينقص؟ وقول هو؟ أو قول وعمل؟ وتصديق وعمل؟ فأجابه أبو ثور فقال: سألت رحمك الله وعفا عنا وعنك عن الإيمان ما هو؟ يزيد وينقص؟ وقول هو أو قول وعمل وتصديق وعمل؟ فأخبرك بقول الطوائف واختلافهم، فاعلم يرحمنا الله وإياك أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح، وذلك أنه ليس بين أهل العلم خلاف في رجل لو قال: أشهد أن الله ﷻ واحد، وأن ما جاءت به الرسل حق، وأقر بجميع الشرائع، ثم قال: ما عقد قلبي على شيء من هذا ولا أصدق به أنه ليس بمسلم.

ولو قال المسيح هو الله، وجحد أمر الإسلام، قال: لم يعتقد قلبي على شيء من ذلك، أنه كافر بإظهار ذلك وليس بمؤمن، فلما لم يكن مؤمنا بالإقرار إذا لم يكن معه التصديق، ولا مؤمنا بالتصديق إذا لم يكن معه الإقرار حتى يكون مصدقا بقلبه مقرا بلسانه، فإذا كان التصديق بالقلب وإقرار باللسان كان عندهم مؤمنا وعند بعضهم لا يكون حتى يكون مع التصديق عمل، فيكون بهذه الأشياء إذا اجتمعت مؤمنا، فلما نفوا أن الإيمان شيء واحد وقالوا يكون بشيئين في قول بعضهم، وثلاثة أشياء في قول غيرهم، لم يكن مؤمنا إلا بما اجتمعوا عليه من هذه الثلاثة الأشياء، وذلك أنه إذا جاء بالثلاثة أشياء فكلهم يشهد أنه مؤمن، فقلنا بما اجتمعوا عليه من التصديق بالقلب والإقرار باللسان وعمل بالجوارح، فأما الطائفة التي زعمت أن العمل ليس من الإيمان، فيقال لهم: ما أراد الله ﷻ من العباد إذ قال لهم: أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة؟ هل أراد مجرد الإقرار بذلك أو الإقرار والعمل؟ فإن قالت إن الله أراد

الإقرار ولم يرد العمل فقد كفرت عند أهل العلم، حيث كفروا من قال إن الله لم يرد من العباد أن يصلوا ولا يؤتوا الزكاة. وإن قالت أراد منهم الإقرار والعمل.

قيل فإذا أراد منهم الأمرين جميعا لم زعمتم أنه يكون مؤمنا بأحدهما دون الآخر وقد أرادهما جميعا، أرأيتم لو أن رجلا قال: أعمل جميع ما أمر الله، ولا أقر به أيكون مؤمنا؟ فإن قالوا لا، قيل لهم: فإن قال أقر بجميع ما أمر الله به، ولا أعمل منه شيئا أيكون مؤمنا؟ فإن قالوا: نعم، قيل لهم: ما الفرق وقد زعمتم أن الله ﷻ أراد الأمرين جميعا، فإن جاز أن يكون بأحدهما مؤمنا إذا ترك الآخر، جاز أن يكون بالآخر إذا عمل ولم يقر مؤمنا لا فرق بين ذلك، فإن احتج فقال: لو أن رجلا أسلم فأقر بجميع ما جاء به النبي ﷺ أيكون مؤمنا بهذا الإقرار قبل أن يجيء وقت العمل؟ قيل له: إنما نطلق له الاسم بتصديقه أن العمل واجب عليه وسوف يعمله في وقته إذا جاء [1].

وذكر ابن حزم الأندلسي أن من اعتقد الإيمان بقلبه ولم ينطق به بلسانه دون تقيةٍ فهو كافرٌ عند الله تعالى وعند المسلمين، ومن نطق به دون أن يعتقده بقلبه فهو كافرٌ عند الله وعند المسلمين قال الله تعالى عن اليهود والنصارى إنهم يعلمون رسول الله ﷺ كما يعلمون أبناءهم وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾ النمل: ١٤.

وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤/٨٤٩.

لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾ المنافقون:١. ومن اعتقد الإيمان بقلبه ونطق به بلسانه فقد وفق سواءٌ استدل أو لم يستدل، فهو مؤمن عند الله تعالى وعند المسلمين قال الله تعالى: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ ﴾ التوبة:٥. ولم يشترط ﷻ في ذلك استدلالا، ولم يزل رسول الله ﷺ مذ بعثه الله ﷻ إلى أن قبضه يقاتل الناس حتى يقروا بالإسلام ويلتزموه، ولم يكلفهم قط استدلالا، ولا سألهم هل استدلوا أم لا؟ وعلى هذا جرى جميع الإسلام إلى اليوم[(١)].

• **شأن قول اللسان كنور السراج وشعاعه في بدن الإنسان.**

ذكر ابن القيم رحمه الله أن نطق الإنسان بكلمة التوحيد هو بمنزلة السراج من البيت، وارتباط قول اللسان بلوازمها ومقتضاها وتأثيرها في بدن الإنسان بمنزلة نور السراج وقوة شعاعه أو ضعفه، فكلما زاد النور زاد تأثيره في محو السيئات ورفعة الدرجات، ولأجل هذا يغفر لصاحب التوحيد ما لا يغفر لصاحب الإشراك، لأنه قد فعل مما يحبه الله ما اقتضى أن يغفر له ما لا يغفر للمشرك، وكلما كان توحيد العبد أعظم كانت مغفرة الله له أتم، فمن لقيه لا يشرك به شيئا البتة، غفر له ذنوبه كلها كائنة ما كانت، ولم يعذب بها.

ولا يعني هذا أنه لا يدخل النار أحد من أهل التوحيد، بل كثير منهم

---

(١) المحلى لأبي محمد بن حزم ١/٤٠.

يدخل بذنوبه، ويعذب على مقدار جرمه، ثم يخرج منها، ولا تنافي بين الأمرين، فأشعة لا إله إلا الله تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه من النور[١].

وتفاوت أهلها في ذلك النور قوة وضعفا لا يحصيه إلا الله تعالى، فمن الناس من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس، ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري، ومنهم من نورها في قلبه كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف، ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة، علما وعملا، ومعرفة وحالا.

وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته، حتى إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف معها شبهة ولا شهوة ولا ذنبا إلا أحرقه، وهذا حال الصادق في توحيده الذي لم يشرك بالله شيئا، فأي ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها، فسماء إيمانه قد حرست بالنجوم من كل سارق لحسناته، فلا ينال منها السارق إلا على غرة وغفلة لا بد منها للبشر، فإذا استيقظ وعلم ما سرق منه، استنقذه من سارقه، أو حصل أضعافه بكسبه، فهو هكذا أبدا مع لصوص الجن والإنس، وهذا ليس كمن فتح لهم خزانته، وولى الباب ظهره[٢].

وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله، وأن الله رب

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/٣٢٩ بتصرف.

(٢) السابق ١/٣٣٠ بتصرف.

كل شيء ومليكه كما كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون، بل التوحيد يتضمن من محبة الله ﷻ والخضوع له والذل، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهة الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع والعطاء، والحب والبغض ما يحول بين صاحبه والأسباب الداعية إلى المعاصي والإصرار عليها.

ومن عرف هذا عرف قول النبي ﷺ: (إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)[(١)]. وقوله ﷺ: (لا يدخل النار من قال لا إله إلا الله). وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث التي أشكلت على كثير من الناس حتى ظنها بعضهم منسوخة، وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهي واستقرار الشرع، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار، وأول بعضهم الدخول بالخلود، وقال: المعنى لا يدخلها خالدا، ونحو ذلك من التأويلات المستكرهة[(٢)].

والنبي ﷺ لم يجعل ذلك حاصلا بمجرد قول اللسان فقط، فإن هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام، فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم، وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النار، فلا بد من قول القلب واستعداده للعمل وقول اللسان، وقول القلب يتضمن من معرفتها، والتصديق بها، ومعرفة حقيقة ما تضمنته من النفي

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن عتبان بن مالك ﷺ، البخاري في أبواب المساجد، باب المساجد في البيوت ١/١٦٤ (٤١٥)، ومسلم في كتاب المساجد، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر ١/٤٥٥ (٣٣).

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١/٣٣٠ بتصرف.

والإثبات، ومعرفة حقيقة الإلهية المنفية عن غير الله، المختصة به التي يستحيل ثبوتها لغيره، وقيام هذا المعنى بالقلب علما ومعرفة، ويقينا وحالا ما يوجب تحريم قائلها على النار.

وكل قول رتب الشارع ما رتب عليه من الثواب، فإنما هو القول التام، كقوله ﷺ: (مَن قَال سُبْحَان الله وَبِحَمْدِهِ في يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإن كَانتْ مِثل زَبَدِ البَحْرِ)[1].

وليس هذا مرتبا على مجرد قول اللسان، نعم من قالها بلسانه غافلا عن معناها، معرضا عن تدبرها، ولم يواطيء قلبه لسانه، ولا عرف قدرها وحقيقتها، راجيا مع ذلك ثوابها حطت من خطاياه بحسب ما في قلبه، فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العملين واحدة، وبينهما في التفاضل كما بين السماء والأرض، والرجلان يكون مقامهما في الصف واحدا، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض.

وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة، ويقابلها تسعة وتسعون سجلا، كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات فلا يعذب، ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه، ولكن السر الذي ثقل بطاقة ذلك الرجل، وطاشت لأجله السجلات لما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات، انفردت

---

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح ٢٣٥٢/٥ (٦٠٤٢)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء ٢٠٧١/٤ (٢٦٩١).

بطاقته بالثقل والرزانة [١].

وإذا أردت زيادة الإيضاح لهذا المعنى فانظر إلى ذكر من قلبه ملآن بمحبتك، وذكر من هو معرض عنك، غافل، ساه، مشغول بغيرك، قد انجذبت دواعي قلبه إلى محبة غيرك، وإيثاره عليك، هل يكون ذكرهما واحدا؟ أم هل يكون ولداك اللذان هما بهذه المثابة، أو عبداك، أو زوجتاك عندك سواء؟ وتأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية، وحملته وهو في تلك الحال على أن جعل ينوء بصدره، ويعالج سكرات الموت، فهذا أمر آخر، وإيمان آخر، ولا جرم أنه ألحق بالقرية الصالحة، وجعل من أهلها [٢].

وقريب من هذا ما قام بقلب البغي التي رأت ذلك الكلب، وقد اشتد به العطش يأكل الثرى [٣]، فقام بقلبها ذلك الوقت مع عدم الآلة، وعدم المعين، وعدم من ترائيه بعملها ما حملها على أن أقدمت بنفسها في نزول البئر، وملء الماء في خفها، ولم تعبأ بتعرضها للتلف، وحملها خفها بفيها وهو ملآن حتى أمكنها الرقي من البئر، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذي جرت عادة الناس بضربه، فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب من غير أن ترجو منه جزاء ولا شكورا، فأحرقت أنوار هذا

(١) مدارج السالكين لابن القيم ٣٣٢/١ بتصرف.
(٢) السابق ٣٣٢/١ بتصرف.
(٣) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم ١٢٧٩/٣ (٣٢٨٠).

القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء فغفر لها[1]. فهكذا الأعمال والعمال عند الله، والغافل في غفلة من هذا الإكسير الكيماوي الذي إذا وضع منه مثقال ذرة على قناطير من نحاس الأعمال قلبها ذهبا [2].

- الشهادة بقول اللسان علم وفصل وحكم وإخبار وإعلام وإلزام.

لو فرضنا بقياس الأولى ولله المثل لأعلى طلابا وأساتذة ومقررا وامتحانا، وجدا واجتهادا، ثم ابتلاءا واختبارا، ثم نجاحا وفرحا واستبشارا، أو فشلا وخيبة وخسارا، وحدث بعد الاختبار اختلاف بين بعض المجتهدين المتفوقين من الطلاب مع الكثرة الغالبة من المقصرين المعروفين بالعبث وكثرة الغياب، اختلفوا وتنازعوا في صحة ما أجابوا به في الاختبار، فزعم المقصرون أنهم على صواب لأنهم يمثلون الكثرة الغالبة من الطلاب وزعموا أن إجابتهم توافق المقرر كما درسوه في الكتاب، وأن القلة من المجتهدين هم المخطئون في إجابتهم، ثم بالغوا في إثبات حجتهم، وبالغوا في ظنهم أن ما هم عليه هو الصواب، وأنه هو الأفضل لمن أراد النجاح والفلاح في أي امتحان.

طالب الجميع بشهادة أستاذهم، فشهد للكثرة بخطئهم وصحة جواب المتفوقين من المجتهدين، فكذب الكثرة أستاذهم وطلبوا شهادة الأعلى من الموجهين المتخصصين وأهل العلم الراسخين، فشهدوا المتخصصون لصحة جواب أستاذهم وصحة جواب المجتهدين، فكذبوهم وطلبوا

(١) مدارج السالكين لابن القيم ١/٣٣٢ بتصرف.

(٢) تقدم ذكره وقد أعدناه تلخيصه لأهميته في بيان حقيقة قول اللسان كركن من أركان الإيمان، وتكامل المعاني لدى الطلاب.

شهادة من وضع الاختبار، ومن يرجع إليه القرار، وأقروا على أنفسهم أن شهادته ملزمة لهم، وأنها فصل المقال، وأنها إعلام وإخبار، وقضاء وحكم وإنذار، فشهد من وضع الاختبار بصحة جواب الأساتذة المتخصصين، وصدق شهادتهم للطلاب المجتهدين، فكانت شهادته للجميع إخبارا وتصديقا وتحقيقا وقولا فصلا، وإعلاما وحُكما وعدلا، لا مجال لرده ولا معقب لحكمه.

إذا علم ذلك فالله ﷻ وله المثل الأعلى خلق السماوات والأرض بالحق، فجعل قضية الخلق كائنة في شهادة ألا إله إلا الله، وأنه لا معبود بحق سواه، فخلق الإنسان وجعله في دار ابتلاء وامتحان، وخوله في أرضه، واستخلفه في ملكه، واستأمنه واسترعاه، لا يفعل شيئا فيما خوله إلا بتكليف من الله، ينزله إليهم في رسالة من عنده، تلك الرسالة جعل فيها أحكام العبودية أو الأحكام الدينية الشرعية التي يقوم عليها منهج الحياة وتوحيد العبادة لله، وكان هذا هو المنهج المقرر على طلاب السعادة الراغبين في الخير والأجر والجنة والزيادة كما قال تعالى لآدم وحواء بعد أن نزلا من السماء: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴿١٢٧﴾﴾ طه:١٢٣/١٢٧.

ومن ثم فإن أهل الابتلاء إذا طلبوا النجاة والعيش والبقاء بغير منهج الهداية المقررة من قبل رسالة الأنبياء، وجعلوا سعادتهم في عبودية

الشهوات واتباع الشبهات، وتناسوا أنهم في مرحلة الابتلاء والكفاح والرغبة في النجاح والفلاح، وأعرضوا بضلالهم عن أنبيائهم ورسلهم، وأصروا على مخالفتهم، ثم أعلنوا زورا وبهتانا أنهم كانوا على الصواب، وأنهم الكثرة الغالبة عند الحساب، وأنهم أجابوا في امتحان الحياة وفق ما رأوه صوابا في الكتاب، وأنهم إنما كانوا يحسنون صنعا، وما أرادوا إلا إحسانا وتوفيقا، فهؤلاء كذبوا على أنفسهم كما ذكر الله تعالى في شأنهم فقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) ﴾ الأنعام: ٢١/ ٢٤.

وهنا شهد أولو العلم وشهدت الملائكة بضلال المشركين، وصحة ما جاء عن رسلهم، وشهد الله ﷻ بصدق المرسلين وخسران المشركين تصديقا للموحدين، وإنصافا لمذهبهم، وتكذيبا لأعدائهم، وتصديقا للملائكة وأولي العلم، فهو سبحانه شهد أنه لا إله إلا هو، وأن هذه الكلمة هي كلمة الحق وحقيقة التوحيد، وأن شهادة الإنسان بها رد منه على جميع من ضل من العبيد.

ومن ثم تضمنت كلمة التوحيد أجل شهادة وأعظمها، وأعدلها وأصدقها من أجل شاهد، بأجل مشهود به، ولذلك تضمنت شهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط عند السلف أربع مراتب: علمه سبحانه بذلك، وتكلمه به، وإعلامه وإخباره لخلقه، وأمرهم وإلزامهم به، وجميع عبارات السلف في الشهادة تدور على الحكم

والقضاء والإعلام والبيان والإخبار، وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها، فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه[1].

• تقرير ابن تيمية أن الشهادة تتضمن إقرار الشاهد وقوله وخبره.

ذكر ابن تيمية أن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وقوله وخبره عما شهد به، وهذا يكون مع أن الشاهد نفسه يتكلم بذلك ويقوله ويذكره، وإن لم يكن معلما به لغيره، ولا مخبرا به لسواه، فهذه أول مراتب الشهادة، ثم قد يخبره ويعلمه بذلك، فتكون الشهادة إعلاما لغيره وإخبارا له، ومن أخبر غيره بشيء حضره فقد شهد به، سواء كان بلفظ الشهادة، أو لم يكن كما في قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ الزخرف:١٩.

وشهادة المرء على نفسه هي إقراره، وهذا لا يشترط فيه لفظ الشهادة باتفاق العلماء، وإنما تنازعوا في الشهادة عند الحاكم أو القاضي، هل يشترط فيها لفظ أشهد أم لا؟ فالشهادة التي شهد بها الله والملائكة والمؤمنون تضمنت مرتبتين: إحداهما تكلم الشاهد وقوله وذكره لما شهد في نفسه به. والثاني إخباره وإعلامه لغيره بما شهد به، ومن قال شهد بمعنى حكم وقضى، فهذا من باب اللازم، فإن الحكم

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص ٨٩، والأسماء والصفات للبيهقي ص٨٢ : ٨٣ .

والقضاء هو إلزام وأمر[١].

ولا ريب أن الله ألزم الخلق بالتوحيد وأمرهم به، وقضى به وحكم فقال: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ الإسراء:٢٣. وقال: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ النحل:٢. وقال: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ النحل:٣٦. وهذا كثير في القرآن يوجب على العباد عبادته وتوحيده، ويحرم عليهم عبادة ما سواه، فقد حكم وقضى أنه لا إله إلا هو[٢].

ولكن الكلام في دلالة لفظ الشهادة على ذلك؛ وذلك أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو، فقد أخبر وبين وأعلم أن ما سواه ليس بإله فلا يعبد، وأنه وحده الإله الذي يستحق العبادة، وهذا يتضمن الأمر بعبادته والنهي عن عبادة ما سواه، فإن النفي والإثبات في مثل هذا يتضمن الأمر والنهي، كما إذا استفتى شخص شخصا فقال له قائل: هذا ليس بمفت، هذا هو المفتي، ففيه نهي عن استفتاء الأول، وأمر وإرشاد إلى استفتاء الثاني، وكذلك إذا تحاكم إلى غير حاكم أو طلب شيئا من غير ولي الأمر فقيل له: ليس هذا حاكما، ولا هذا سلطانا؛ هذا هو الحاكم، وهذا هو السلطان، فهذا النفي والإثبات يتضمن الأمر والنهي، وذلك أن الطالب إنما يطلب من عنده مراده ومقصوده، والعابدون إنما مقصودهم أن يعبدوا من هو إله يستحق العبادة، فإذا قيل لهم كل ما سوى الله ليس بإله، إنما الإله هو الله وحده، كان هذا نهيا لهم عن

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٤/١٧٠ : ١٧١ بتصرف.

(٢) السابق ١٤/١٧١ بتصرف.

عبادة ما سواه وأمرا بعبادته[١].

قال ابن تيمية: (وإخلاص الدين لله، وعبادة الله وحده، ومتابعة الرسول ﷺ فيما جاء به هو شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، ولهذا أنكرنا على الشيخ يحيى الصرصري: ما يقوله في قصائده في مدح الرسول ﷺ من الاستغاثة به مثل قوله: بك أستغيث وأستعين وأستنجد ونحو ذلك، وكذلك ما يفعله كثير من الناس من استنجاد الصالحين والمتشبهين بهم والاستعانة بهم أحياء وأمواتا، فإني أنكرت ذلك في مجالس عامة وخاصة وبينت للناس التوحيد، ونفع الله بذلك ما شاء الله من الخاصة والعامة) [٢].

ثم بين رحمه الله أن الشهادتين فيهما الإلزام بدين الإسلام العام الذي بعث الله به جميع الرسل.. فالعبادة والاستعانة، وما يدخل في ذلك من الدعاء والاستغاثة والخشية والرجاء والإنابة والتوكل والتوبة والاستغفار كل هذا لله وحده لا شريك له، فالعبادة متعلقة بألوهيته، والاستعانة متعلقة بربوبيته، والله رب العالمين لا إله إلا هو ولا رب لنا غيره لا ملك ولا نبي ولا غيره، بل أكبر الكبائر الإشراك بالله، وأن تجعل له ندا وهو خلقك، والشرك أن تجعل لغيره شركا، أي نصيبا في عبادتك وتوكلك واستعانتك.. وأصناف العبادات كالصلاة بأجزائها مجتمعة، وكذلك أجزاؤها التي هي عبادة بنفسها من السجود والركوع والتسبيح والدعاء والقراءة والقيام لا يصلح إلا لله وحده..

---

(١) مجموع الفتاوى ١٧٢/١٤ بتصرف.

(٢) السابقة ٧١/١.

وكذلك الحج لا يحج إلا إلى بيت الله فلا يطاف إلا به ولا يحلق الرأس إلا به، ولا يوقف إلا بفنائه لا يفعل ذلك بنبي ولا صالح، ولا بقبر نبي ولا صالح ولا بوثن، وكذلك الصيام لا يصام عبادة إلا لله فلا يصام لأجل الكواكب والشمس والقمر ولا لقبور الأنبياء والصالحين ونحو ذلك.

وهذا كله تفصيل الشهادتين اللتين هما أصل الدين، شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا عبده ورسوله، والإله من يستحق إن يؤلهه العباد، ويدخل فيه حبه وخوفه، فما كان من توابع الإلوهية فهو حق محض لله، وما كان من أمور الرسالة فهو حق الرسول، ولما كان أصل الدين الشهادتين، كانت هذه الأمة شهداء، لها وصف الشهادة، والقسيسون لهم العبادة بلا شهادة.

ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣﴾ آل عمران:٥٣. ولهذا كان المحققون على أن الشهادتين أول واجبات الدين كما عليه خلص أهل السنة [(١)].

- **الشهادة هي أصل الإسلام الذي يتميز به أهل الإيمان والكفر.**

شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله هي أصل الإسلام الذي يتميز به أصل الإيمان من أهل الكفر، وهو الإيمان بالوحدانية والرسالة، وقد وقع كثير من الناس في الإخلال بحقيقة هذين الأصلين أو أحدهما مع ظنه أنه في غاية التحقيق والتوحيد والعلم والمعرفة، فإقرار

(١) مجموع الفتاوى ١/٧٤ وما بعدها بتصرف.

المشرك بأن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه، لا ينجيه من عذاب الله إن لم يقترن به إقراره بأنه لا إله إلا الله، فلا يستحق العبادة أحد إلا هو؛ وأن محمدا ﷺ رسول الله فيجب تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، فلا بد من الكلام في هذين الأصلين:

الأصل الأول توحيد الإلهية: فإنه سبحانه أخبر عن المشركين بأنهم أثبتوا وسائط بينهم وبين الله، يدعونهم ويتخذونهم شفعاء بدون إذن الله، وقد حذر من ذلك في نصوص كثيرة، ومن تحقيق التوحيد أن يعلم أن الله تعالى أثبت له حقا لا يشركه فيه مخلوق؛ كالعبادة والتوكل والخوف والخشية والتقوى كما قال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ الإسراء:٢٢. وقال الخليل عليه السلام: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ الأنعام:٨١/ ٨٢ .

روى البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية قال: (قُلنا يَا رَسُول اللهِ: أَيُّنا لاَ يَظْلِمُ نفْسَهُ ؟ قَال: ليْسَ كَمَا تَقُولون: لمْ يَلبِسُوا إيمَانهُمْ بِظُلم بِشرْكٍ ، أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلى قَوْل لقْمَان لاِبْنهِ: يَا بُنيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِن الشِّرْكَ لظُلمٌ عَظِيمٌ) [1] .

الأصل الثاني: حق الرسول ﷺ، فعلينا أن نؤمن به ونطيعه ونتبعه

(١) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: واتخذ الله إبراهيم خليلا ٣/١٢٢٦ (٣١٨١) .

ونرضيه ونحبه ونسلم لحكمه وأمثال ذلك.

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ النساء:٦٥.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ آل عمران:٣١ [١].

ومن ثم وجب على الخلق الإقرار بما جاء به النبي ﷺ فما جاء به القرآن العزيز أو السنة المعلومة وجب على الخلق الإقرار به جملة وتفصيلا عند العلم بالتفصيل؛ فلا يكون الرجل مؤمنا حتى يقر بما جاء به النبي ﷺ وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فمن شهد أنه رسول الله شهد أنه صادق فيما يخبر به عن الله تعالى فإن هذا حقيقة الشهادة بالرسالة؛ إذ الكاذب ليس برسول فيما يكْذبه[٢].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ الحاقة:٤٤/٤٦.

وبالجملة فهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام؛ وهو الإقرار بما جاء به النبي ﷺ وهو ما جاء به من القرآن والسنة كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ آل عمران:١٦٤. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ

---

(١) مجموع الفتاوى ٣/١٠٩ وما بعدها بتصرف.

(٢) السابق ٥/١٥٤ بتصرف.

وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ النساء:٥٩.

وقال: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمٗا ﴿٦٥﴾ النساء:٦٥.

ومن المعلوم من دين المسلمين أنه ﷺ معصوم من الكتمان لشيء من الرسالة كما أنه معصوم من الكذب فيها. والأمة تشهد له بأنه بلغ الرسالة كما أمره الله وبين ما أنزل إليه من ربه وقد أخبر الله بأنه قد أكمل الدين؛ وإنما مجموع كمل بما بلغه؛ إذ الدين لم يعرف إلا بتبليغه فعلم أنه بلغ جميع الدين الذي شرعه الله لعباده [(١)].

• الشهادة بقول اللسان تقتضي الالتزام بشروط لا إله إلا الله.

نظر لتهاون الناس في التزامهم بالتوحيد الذي ورد النص عليه في صريح الدين، ووقوعهم في أفعال الشرك ومشابهة المشركين، محتجين أن ذلك لا يضرهم في إيمانهم وتوحيدهم لأنهم يقولون لا إله إلا الله ويزعمون أنهم من الموحدين وأهل الإيمان المتقين كثر الحديث عن شروط لا إله إلا الله وتجليتها، لاسيما في الدعوة الإصلاحية التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، وهذه الشروط تكشف عما التزم به السلف الأوائل من ضرورة الالتزام بمقتضى الشهادة كما دلت الأصول القرآنية والنبوية.

ذكر ابن رجب أن كلمة التوحيد سبب مقتض لدخول الجنة

(١) مجموع الفتاوى ٥/١٥٦ بتصرف.

والنجاة من النار لكن له شروط وهي الإتيان بالفرائض، وموانع وهي اجتناب الكبائر، قال الحسن بن على رضي الله عنه للفرزدق: إن للا إله إلا الله شروطا، فإياك وقذف المحصنة[(١)].

وروي عنه أنه شبه الإيمان بالفسطاط القائم على عمود مثبت بطنب أي حبال وأوتاد، فقال: هذا العمود فأين الطنب، يعني أن كلمة التوحيد عمود الفسطاط، ولكن لا يثبت الفسطاط بدون أطنابه، وهي فعل الواجبات وترك المحرمات[(٢)].

وقيل للحسن: إن أناسا يقولون من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، فقال: من قال لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة[(٣)].

وقيل لوهب بن منبه: أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك[(٤)].

قال ابن رجب: (إن تحقق القلب بمعنى لا إله إلا الله وصدقه فيها، وإخلاصه بها، يقتضي أن يرسخ فيه تأله الله وحده، إجلالا وهيبة، ومخافة ومحبة، ورجاء وتعظيما، وتوكلا ويمتلئ بذلك، وينتفي عنه تأله ما سواه من المخلوقين، ومتى كان كذلك لم يبق فيه محبة ولا إرادة ولا طلب لغير ما يريد الله ويحبه ويطلبه، وينتفي بذلك من القلب جميع

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص٢٠٩.
(٢) السابق ص٢٠٩.
(٣) السابق ص٢٠٩.
(٤) السابق ص٢١٠.

أهواء النفوس، وإراداتها وسواس الشيطان، فمن أحب شيئا أو أطاعه وأحب عليه وأبغض عليه فهو إلهه، فمن كان لا يحب ولا يبغض إلا لله، ولا يوالي ولا يعادي إلا لله، فالله إلهه حقا ومن أحب لهواه، وأبغض له، ووالى عليه، وعادى عليه، فإلهه هواه) [(١)].

وشهادة التوحيد تقتضي العلم بمعناها نفيا وإثباتا، وما تستلزمه من عمل، فإذا علم العبد أن الله ﷻ هو المعبود وحده، وأن عبادة غيره باطلة، وتقتضي أيضا العمل بمقتضى ذلك العلم.

والشهادة تقتضي اليقين، وأن ينطق بها عن تصديق جازم لما أخبر الله ورسوله ﷺ، لا يتطرق إليه وهم أو شك أو ظن، وعن استعداد تام لتنفيذ أمره على وجه الكمال، فيقولها موقنا بمدلولها يقينا جازما، يوقن بقلبه أنه لا يجوز أن يصرف لغيره شيء من أنواع التأله والتعبد، فإن شك في شهادته، أو توقف في بطلان الشرك وتعظيم الطاغوت وعبادته بطلت شهادته ولم ينفعه قول اللسان.

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة أنه قال: (كُنا مَعَ النبي ﷺ في مَسِيرٍ فَنفِدَتْ أَزْوَادُ القَوْمِ حَتَّى هَمَّ بِنحرِ بَعْضِ حَمَائِلِهِمْ، فقَال عُمَرُ: يَا رَسُول اللهِ، لوْ جَمَعْتَ مَا بَقِيَ مِن أَزْوَادِ القَوْمِ فَدَعَوْتَ اللهَ عَلَيْهَا. قَال: فَفَعَل، فَجَاءَ ذو البُرِّ بِبُرِّهِ، وَذو التَّمْرِ بِتَمْرِهِ، وَذو النوَاةِ بِنوَاهُ، فَدَعَا عَلَيْهَا حَتَّى مَلأَ القَوْمُ أَزْوِدَتَهُمْ، فَقَال عِندَ ذلكَ: أَشْهَدُ أَن لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَأَني رَسُول اللهِ، لاَ يَلقَى اللهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ

(١) السابق ص٢١٠.

فِيهِمَا إِلاَّ دَخَلَ الجَنَةَ) [١].

ومن مقتضيات الشهادة القبول لكل ما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه، فيصدق بالأخبار، ويطيع الأوامر، ويؤمن بكل ما جاء عن الله ورسوله، ويقبل ذلك كله، ولا يرد منه شيئا، ولا يتجنى على النصوص بالتأويل الفاسد، والتحريف الذي نهى الله عنه، بل يصدق الخبر، ويمتثل الأمر، ويقبل كل ما جاءت به هذه الكلمة واقتضته بكل رضا وطمأنينة وانشراح صدر، وضد القبول الرد، فإن هناك من يعلم معنى الشهادة ويوقن بمدلولها، ولكنه يردها كبرا وحسدا، وهذه حال علماء اليهود والنصارى، وكذلك كان المشركون يعرفون معنى لا إله إلا الله، وصدق رسالة محمد ولكنهم يستكبرون عن قبول الحق، ويدخل في الرد وعدم القبول من يعترض على الأحكام الشرعية، أو الحدود التي حدها الله ﷻ كالذين يعترضون على حد السرقة، أو الزنا، أو على تعدد الزوجات، أو المواريث، وما إلى ذلك، فهذا كله داخل في الرد وعدم القبول؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ الأحزاب:٣٦. ويدخل في الرد أيضا من يعطل أسماء الله وصفاته أو يمثلها بصفات المخلوقين.

ومن مقتضيات الشهادة الانقياد، وذلك بأن ينقاد لما دلت عليه الشهادة من الاتباع بالأفعال والاستسلام والإذعان، وعدم الاعتراض على شيء من أحكام الله، وأن ينقاد لما جاء به النبي ﷺ رضا وعملا

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار ١/٥٥ (٢٧).

دون زيادة أو نقصان، وإذا علم أحد معنى لا إله إلا الله وأيقن بها، وقبلها، ولكنه رفض الانقياد لها، ولم يعمل بمقتضاها فإن ذلك لا ينفعه، كما هو حال أبي طالب عم النبي ﷺ، كان يعلم أن دين محمد حق، بل نطق بذلك واعترف غير أنه لم يشهد ألا إله إلا الله لعلمه أن لها شروط ولوازم. وكذلك الحال بالنسبة لبعض المستشرقين؛ فهم يعجبون بالإسلام، ويوقنون بصحته ويعترفون بذلك، وتجد بعض المسلمين يفرحون لذلك الإطراء ويطربون لهؤلاء ويصفونهم بالتجرد والموضوعية ولكن إعجابهم ويقينهم واعترافهم لا يكفي لنجاتهم من العذاب والحساب والمسئولية، بل لابد من الانقياد والخضوع لأحكام العبودية.

ومن مقتضيات الشهادة وشروطها وانتفاع الإنسان بقولها الصدق مع الله، وذلك بأن يكون العبد صادقا في إيمانه، صادقا في عقيدته، ومتى كان ذلك، فإنه سيكون مصدقا لما جاء في كتاب ربه وسنة نبيه، فالصدق أساس الأقوال، ومن الصدق أن يصدق في دعوته، وأن يبذل الجهد في طاعة ربه، وحفظ حدوده، فإن كان العبد كاذبا في إيمانه فإنه لا يعد مؤمنا، بل هو منافق؛ وإن نطق الشهادة بلسانه، فإن قال لا إله إلا الله بلسانه، وأنكر مدلولها بقلبه، فإن هذه الشهادة لا تنجيه، بل يدخل في عداد المنافقين.

ومما ينافي الصدق في شهادة ألا إله إلا الله تكذيب ما جاء به الرسول ﷺ أو تكذيب بعض ما جاء به؛ لأن الله سبحانه أمرنا بطاعة الرسول ﷺ وتصديقه، وقرن ذلك بطاعته.

ومن مقتضياتها وشروطها الإخلاص وهو تصفية الإنسان عمله

بصالح النية من جميع شوائب الشرك، وذلك بأن تصدر منه جميع الأقوال والأفعال خالصة لوجه الله، وابتغاء مرضاته، ليس فيها شائبة رياء، أو سمعة، أو قصد نفع، أو غرض شخصي، أو شهوة ظاهرة أو خفية، أو يندفع للعمل على محبة شخص، أو مذهب، أو مبدأ، أو حزب يستسلم له بغير هدى من الله، فلابد أن يكون مبتغيا بدعوته وجه الله والدار الآخرة، فإن فقد العبد أصل الإخلاص فإن الشهادة لا تنفعه أبدا.

ومن مقتضياتها وشروطها المحبة لهذه الكلمة العظيمة، ولما دلت عليه واقتضته، فيحب الله ورسوله ﷺ، ويقدم محبتهما على كل محبة، ويقوم بشروط المحبة ولوازمها، فيحب الله محبة مقرونة بالإجلال والتعظيم والخوف والرجاء، يحب ما يحبه الله ويقدم محبوبات الله على محبوبات النفس وشهواتها ورغباتها، ومن لوازم تلك المحبة أن يكره ما يكرهه الله ورسوله ﷺ؛ فيكره الكفر والفسوق والعصيان، ويكره الموالين لأعداء الله من اليهود والنصارى وسائر المشركين، ومما ينافيها أيضا معاداة أولياء الله الصالحين المؤمنين، ومما ينافي كمالها ما كان في حكم الكبائر من المعاصي والذنوب[١].

- **الشهادتان هما الركن الأعظم في الإسلام وتحقيق الإيمان.**

ومن ثم فإن شهادة التوحيد ليست مجردَ كلمة خرجت من اللسان لا شروط لها ولا أركان، بل لا بد فيها من العلم واليقين والإخلاص

---

(١) ملخص عن كتاب لا إله إلا الله تأليف الشيخ محمد بن إبراهيم الحمد ص٣٨ وما بعدها بتصرف، وانظر تفصيل كل شرط من هذه الشروط في كتاب شروط لا إله إلا الله للدكتور الرضواني نشر مكتبة سلسبيل.

والصدق والمحبة والانقياد والقبول والكفر بما يعبد من دون الله، ولذلك كانت الشفاعة لمن شهد ألا إله إلا الله على ما عرفت العرب في الجاهلية لوازمها، وليست الشفاعة لمن قالها وهو يشرك بالله فيطوف بوثن أو ضريح ويدعوه من دون الله ﷻ، فالشفاعة إنما تكون في الموحدين فقط، فإذا نطق الإنسان بشهادة التوحيد وقال باللسان لا إله إلا الله، فقد شهد وأقر أنه لا معبود بحق سواه.

ومن ثم لو أرسل الله رسالة لعبيده الصادقين في عبادته بين فيها أصول طاعته، وأبان فيها ماذا يفعل العباد حتى يصلوا إلى قربه ومحبته، وكيف يفوزون بنعيمه وجنته، فلو كان العبد صادقا في شهادته لبذل كل ما في وسعه واستطاعته، واجتهد بكل طاقته لكي يطلع على تلك الرسالة، ويتمكن من قراءتها، ويتعرف على مادتها، حتى لو كان مسلما أعجميا أو شيخا أميا، فإنه سوف يبحث عن ترجمان، طالما أن تلك الرسالة فيها النجاة من غضب الله، وفيها القرب من حبه ورضاه.

ومن ثم فإن كلمة التوحيد عقد بين المسلم وربه، التزم به يوم شهد ألا إِلهَ إِلا اللهُ وأن محمدا رسول الله، وهو خير عقد يجب عليه أن يوفي فيه بالتزاماته، ويؤدي ما عليه من واجباته.

وإذا كان كل عقد بين البشر له قواعد وأحكام، وله شروط جزاء يضعونها للالتزام، وكان كل إنسان قبل أن يوقع على أي عقد يقرأ شروطه بإمعان ودقة وإتقان، فحري بالمسلم الصادق أن يعرف مضمون العقد الذي بينه وبين الله عندما شهد ألا معبود بحق سواه، ولذلك أوجب الله ﷻ علينا السؤال فقال: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

(٧) الأنبياء:٧.

ويلزم من قول العبد لا إله إلا الله صدقا من قلبه أن يتفق اعتقاد الجنان مع قول اللسان مع عمل الجوارح والأركان ليكونوا جميعا على توحيد العبادة لله ، فلا ينفعه مجرد اللفظ بدون مواطأة القلب، فلا بد من تنفيذ العهد الذي قطعه العبد على نفسه بشهادة التوحيد والوعد الذي سيؤدي فيه حق الله على العبيد وأن يعبد الله ولا يشرك به شيئا.

وكيف يكون الإنسان صادقا في قوله باللسان: لا إله إلا الله محمد رسول الله وهو قد تشبه بحزب الشيطان، ودافع عن أهل الفسق والعصيان ونشر الفاحشة بين أهل الإيمان طمعا في إرضاء اليهود والنصارى، بل سار خلفهم شبرا بشر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب دخله خلفهم، ولبس لباسهم، وتعرى مثلهم، وشرب خمرهم وألف سكرهم، وطعم بيسراه طعامهم، ورقص رقصهم،وتغنى بفسقهم وانحلالهم، وأذاع غناءهم في قنواته الفضائية التي تنشر الفاحشة في الذين آمنوا، بل خرج عن وصفه ووالاهم على بني جنسه، ثم سمى ذلك حضارة وتحررا واستنارة، أيكذب على نفسه أم يستهزأ بربه؟ أين الصدق في عهده ووعده حين قال: لا إله إلا الله؟ فلا إله إلا الله ليست مجردَ كلمة خرجت من اللسان، لا شروط لها ولا أركان.

وقال ابن تيمية: (الإسلام الذي هو دين الله الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله، هو أن يسلم العبد لله رب العالمين، فيستسلم لله وحده لا شريك له، ويكون سالما له، بحيث يكون متألها له غير متأله لما سواه، كما بينته أفضل الكلام ورأس الإسلام، وهو شهادة أن لا إله إلا الله،

وله ضدان الكبر والشرك، فإن المستكبر عن عبادة الله لا يعبده، فلا يكون مستسلما له، والذي يعبده ويعبد غيره يكون مشركا به، فلا يكون سالما له، بل يكون له فيه شرك) [(١)].

والشهادتان هما الركن الأعظم في الإسلام والإيمان، والركن في اللغة الجانب الأقوى، وهو بحسب ما يطلق فيه كركن البناء، وركن القوم ونحو ذلك، فمن الأركان ما لا يتم البناء إلا به، ومنها ما لا يقوم بالكلية إلا به، وإنما قيل لهذه الخمسة الأمور أركان ودعائم لقوله ﷺ بني الإسلام على خمس، فشبهه بالبنيان المركب على خمس دعائم، وهذا الركن هو أصل الأركان الباقية، والأساس الذي لا يقوم البناء إلا عليه ولا يمكن إلا به، ولا يحصل بدونه، وهو الطريق الواضح، والصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، ولا غبار عليه من سلكه أوصله إلى جنات النعيم، ومن انحرف عنه هوى في قعر الجحيم، فإن من لم يثبت عليه في الدنيا لم يثبت على جسر جهنم يوم القيامة.

وذلك الركن هو الشهادتان، فلا يدخل العبد في الإسلام إلا بهما، ولا يخرج منه إلا بمناقضتهما، إما بجحود لما دلتا عليه، أو باستكبار عما استلزمتاه، ولهذا لم يدع الرسول ﷺ إلى شيء قبلهما، ولم يقبل الله تعالى ولا رسول الله ﷺ من أحد شيئا دونهما، فبالشهادة الأولى يعرف المعبود وما يجب له، وبالثانية يعرف كيف يعبده، وبأي طريق يصل إليه، ففي الشهادة الأولى توحيد المعبود الذي ما خلق الخلق إلا ليعبدوه وحده لا شريك له، وفي الشهادة الثانية توحيد الطريق الذي لا يوصل إلى الله

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/٦٢٣.

تعالى إلا منه [١].

قال ابن تيمية: (فأما الشهادتان إذا لم يتكلم بهما مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين، وهو كافر باطنا وظاهرا عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير علمائها، وذهبت طائفة من المرجئة وهم جهمية المرجئة كجهم والصالحي وأتباعهما إلى أنه إذا كان مصدقا بقلبه كان كافرا في الظاهر دون الباطن، وهو قول مبتدع في الإسلام لم يقله أحد من الأئمة، فإن الإيمان الباطن يستلزم الإقرار الظاهر بل وغيره؛ ووجود الإيمان الباطن تصديقا وحبا وانقيادا بدون الإقرار الظاهر ممتنع)[٢].

وقال أيضا: (الإسلام الذي هو دين الله الذي أنزل به كتبه؛ وأرسل به رسله؛ وهو أن يسلم العبد لله رب العالمين؛ فيستسلم لله وحده لا شريك له، ويكون سالما له، بحيث يكون متألها له غير متأله لما سواه، كما بينته أفضل الكلام ورأس الإسلام، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، وله ضدان الكبر والشرك، ولهذا روي أن نوحا عليه السلام أمر بنيه بلا إله إلا الله وسبحان الله، ونهاهم عن الكبر والشرك في حديث قد ذكرته في غير هذا الموضع، فإن المستكبر عن عبادة الله لا يعبده فلا يكون مستسلما له، والذي يعبده ويعبد غيره يكون مشركا به فلا يكون سالما له، بل يكون له فيه شرك) [٣].

قال ابن تيمية: (والتوحيد أول الدين وآخره، فأول ما دعا إليه

---

(١) معارج القبول لحافظ بن أحمد حكمي ٢/٦١٩ بتصرف.
(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/٦٠٩.
(٣) السابق ٧/٦٢٣.

الرسول ﷺ شهادة أن لا إله إلا الله. وقال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله[١]. وقال لمعاذ رضي الله عنه: إنك تأتي قوما أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله[٢]، وختم الأمر بالتوحيد فقال في الصحيح من رواية مسلم عن عثمان رضي الله عنه: (من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة)[٣]. وفي الحديث الصحيح من رواية مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: (لقنوا موتاكم لا إله إلا الله)[٤]. وفي السنن من حديث معاذ رضي الله عنه: (من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة[٥]) [٦].

- **الرد على من احتج بنطق الشهادة على تحقيق الإيمان الواجب.**

قال ابن تيمية: (من لم يصدق بلسانه مع القدرة، لا يسمى في لغة القوم مؤمنا، كما اتفق على ذلك سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم

---

(١) رواه البخاري في الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ١/١٧ (٢٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ١/٥٣ (٢٢).

(٢) رواه البخاري في الزكاة، باب وجوب الزكاة ٢/٥٠٥ (١٣٣١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ١/٥٠ (١٩).

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ١/٥٥ (٢٦).

(٤) رواه مسلم في الجنائز، باب تلقين الموتى لا إله إلا الله ٢/٦٣١ (٩١٧).

(٥) رواه أبو داود في كتاب الجنائز، باب فى التلقين ٣/١٩٠ (٣١١٦)، وأحمد في المسند ٥/٢٤٧ (٢٢١٨٠)، وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (١٦٢١) وإرواء الغليل (٦٨٧).

(٦) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٨/٣٤.

بإحسان) [١].

وقال أيضا: (فمن صدق بقلبه، ولم يتكلم بلسانه فإنه لا يعلق به شيء في أحكام الإيمان، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يدخل في خطاب الله لعباده بقوله: يا أيها الذين آمنوا) [٢].

والمراد بقول اللسان الذي يكون إيمانا في الباطن والحقيقة هو الملازم لاعتقاد القلب وتصديقه، وإلا فالقول المجرد بعيدا عن اعتقاد الإيمان ليس إيمانا باتفاق المسلمين[٣].

وفي إبطاله لمن احتج بنطق الشهادة فقط على تحقيق الإيمان الواجب المستوجب دخول الجنة وإن زنى وإن سارق ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن قول القائل: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة؟ واحتجاجه بالحديث المذكور فيقال له: لا ريب أن الكتاب والسنة فيهما وعدٌ ووعيدٌ، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾ النساء:١٠.

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩﴾ النساء:٢٩.

ومثل هذا كثيرٌ في الكتاب والسنة، والعبد عليه أن يصدق بهذا

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/١٣٧.
(٢) السابق ٧/١٤٠.
(٣) السابق ٧/٥٥٠.

وبهذا، لا يؤمن ببعض ويكفر ببعض، فهؤلاء المشركون أرادوا أن يصدقوا بالوعد، ويكذبوا بالوعيد [١].

ثم بين أن الحرورية والمعتزلة أرادوا أن يصدقوا بالوعيد دون الوعد، وكلاهما أخطأ، والذي عليه أهل السنة والجماعة الإيمان بالوعد والوعيد، فكما أن ما توعد الله به العبد من العقاب قد بين سبحانه أنه بشروط، بأن لا يتوب، فإن تاب تاب الله عليه، وبأن لا يكون له حسناتٌ تمحو ذنوبه؛ فإن الحسنات يذهبن السيئات وبألا يشاء الله أن يغفر له كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ النساء:٤٨. فهكذا الوعد له تفسيرٌ وبيان، فمن قال بلسانه لا إله إلا الله، وكذب الرسول ﷺ فهو كافرٌ باتفاق المسلمين.

وكذلك إن جحد شيئا مما أنزل الله، فلا بد من الإيمان بكل ما جاء به الرسول ﷺ، ثم إن كان من أهل الكبائر، فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له؛ فإن ارتد عن الإسلام ومات مرتدا كان في النار، فالسيئات تحبطها التوبة، والحسنات تحبطها الردة، ومن كان له حسناتٌ وسيئاتٌ، فإن الله لا يظلمه، بل من يعمل مثقال ذرةٍ خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرةٍ شرا يره، والله تعالى قد يتفضل عليه ويحسن إليه بمغفرته ورحمته، ومن مات على الإيمان فإنه لا يخلد في النار، فالزاني والسارق لا يخلد في النار، بل لا بد أن يدخل الجنة، فإن النار يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى ٨/٢٧٠ بتصرف.

(٢) السابق ٨/٢٧١ بتصرف.

ومن نطق بالشهادة قبل موته، وحبسه حابس عن ما يجب عليه من عمله، أو مات بعد أن نطق بها في مرضه، أو اندرست معالم الدين فلا يعرف غيرها، نفعته لأن النطق به شهادة منه أنه لو عاش أو بلغه العلم فهو على استعداد لتصديق خبر الله وتنفيذ أمره.

ومن أدلة ذلك ما رواه البخاري من حديث أبي سعِيد الخُدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: (كَان فِي بني إِسرائِيل رجل قتل تسعَة وتسعِين إِنسانا، ثم خرَج يسأَل، فَأَتى راهبا فَسأَله فَقال له: هل من توبةٍ؟ قال لا ،فَقتله فَجعَل يسأَل فَقال له رجل: ائْت قرية كَذا وكَذا ،فَأَدركَه الموت، فَناءَ بصَدره نحوها، فَاختْصَمت فِيه ملائِكَةُ الرحمةِ وملائِكَةُ العَذاب، فَأَوحى الله إِلى هذه أَن تقربي، وأَوحى الله إِلى هذه أَن تباعَدي، وقال: قيسوا ما بينهما، فَوجد إِلى هذه أَقرب بشِبر فَغُفِر له) [(١)].

وروى البخاري من حديث أنس ﷺ أنه قال: (كَانَ غُلاَمٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبيَّ ﷺ، فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقَال لهُ: أَسْلِمْ، فَنَظَرَ إِلى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَهُ؟ فَقَال: أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ فَأَسْلَمَ، فَخَرَجَ النَّبيُّ ﷺ، وَهُوَ يَقُول: الحَمْدُ للهِ الذي أَنْقَذَهُ منَ النَّارِ) [(٢)].

وقد ذكر ابن تيمية أنه قد تخفى آثار الرسالة في بعض الأمكنة والأزمنة حتى لا يعرفون ما جاء به الرسول ﷺ، إما أن لا يعرفوا اللفظ، وإما أن يعرفوا اللفظ ولا يعرفوا معناه، فحينئذٍ يصيرون في

(١) البخاري في الأنبياء، باب أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم ٣/١٢٨٠ (٣٢٨٣)، ومسلم في كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل ٤/٢١١٨ (٢٧٦٦).
(٢) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي ١/٤٥٥ (١٢٩٠)،

جاهليةٍ بسبب عدم نور النبوة[1].

وكثيرٌ من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة الذي يندرس فيها كثيرٌ من علوم النبوات حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيرًا مما يبعث الله به رسوله، ولا يكون هناك من يبلغه ذلك ومثل هذا لا يكفر؛ ولهذا اتفق الأئمة على أن من نشأ بباديةٍ بعيدةٍ عن أهل العلم والإيمان، وكان حديث العهد بالإسلام فأنكر شيئًا من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة، فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول[2].

روى ابن ماجة وصححه الألباني من حديث حذيفة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (يَدْرُسُ الإِسْلامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثوْبِ حَتَّى لا يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلا صَلاةٌ وَلا نُسُكٌ وَلا صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى عَلى كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَل فِي لَيْلَةٍ فَلا يَبْقَى فِي الأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنْ النَّاسِ، الشَّيْخُ الكَبِيرُ وَالعَجُوزُ يَقُولونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلى هَذِهِ الكَلمَةِ لا إِلهَ إِلا اللهُ، فَنَحْنُ نَقُولهَا، فَقَال لهُ صِلةُ: مَا تُغْنِي عَنْهُمْ لا إِلهَ إِلا اللهُ وَهُمْ لا يَدْرُونَ مَا صَلاةٌ وَلا صِيَامٌ وَلا نُسُكٌ وَلا صَدَقَةٌ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ حُذَيْفَةُ ثُمَّ رَدَّهَا عَليْهِ ثَلاثًا، كُل ذَلكَ يُعْرِضُ عَنْهُ حُذَيْفَةُ، ثُمَّ أَقْبَل عَليْهِ فِي الثالثةِ، فَقَال: يَا صِلةُ تُنْجِيهِمْ مِنْ النَّارِ ثلاثا)[3].

(١) مجموع الفتاوى ٣٠٧/١٧ بتصرف.
(٢) السابق ٤٠٧/١١.
(٣) ابن ماجه في كتاب الفتن، باب ذهاب القرآن والعلم ١٣٤٤/٢ (٤٠٤٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٧)، وصحيح الجامع (٨٠٧٧).

- **ذكر الله بالاسم المفرد مثل الله وحي وهو لا يغني عن الشهادة.**

بين ابن تيمية أن ذكر الله بالاسم المفرد مظهرا مثل الله الله، أو مضمرا مثل هو هو، فهذا ليس بمشروع في كتاب ولا سنة، ولا هو مأثورٌ أيضا عن أحد من سلف الأمة، ولا عن أعيان الأمة المقتدى بهم، وإنما لهج به قومٌ من ضلال المتأخرين، وربما اتبعوا فيه حال شيخ مغلوب فيه، مثلما يروى عن أبي بكر الشبلي أنه كان يقول: الله الله، فقيل له: لم لا تقول: لا إله إلا الله؟ فقال: أخاف أن أموت بين النفي والإثبات.

وهذه من زلات الشبلي التي تغفر له، لصدق إيمانه، وقوة وجده وغلبة الحال عليه، فإنه كان ربما يجن ويذهب به إلى المارستان، ويحلق لحيته، وله أشياء من هذا النمط التي لا يجوز الاقتداء به فيها؛ وإن كان معذورا، أو مأجورا، فإن العبد لو أراد أن يقول: لا إله إلا الله ومات قبل كمالها لم يضره ذلك شيئا، إذ الأعمال بالنيات؛ بل يكتب له ما نواه، وربما غلا بعضهم في ذلك حتى يجعلوا ذكر الاسم المفرد للخاصة، وذكر الكلمة التامة للعامة.

وربما قال بعضهم: لا إله إلا الله للمؤمنين، والله للعارفين، وهو للمحققين، وربما اقتصر أحدهم في خلوته، أو في جماعته على: الله، الله، الله، أو على هو، أو يا هو، أو لا هو إلا هو، وربما ذكر بعض المصنفين في الطريق تعظيم ذلك، واستدل عليه تارة بوجد، وتارة برأي، وتارة بنقل مكذوب، كما يروي بعضهم أن النبي ﷺ لقن علي بن أبي طالب أن يقول: الله الله الله، فقالها النبي ﷺ ثلاثا، ثم أمر عليا فقالها

ثلاثا، وهذا حديث موضوعٌ باتفاق أهل العلم بالحديث [١].

وإنما كان تلقين النبي ﷺ للذكر المأثور عنه، ورأس الذكر لا إله إلا الله، وهي الكلمة التي عرضها على عمه أبي طالب حين الموت، وقال: يا عم قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله. وقال: إني لأعلم كلمة لا يقولها عبدٌ عند الموت إلا وجد روحه لها روحا. وقال: من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة. وقال: من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة. وقال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله؛ فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله[٢].

والأحاديث كثيرةٌ في هذا المعنى، فأما ذكر الاسم المفرد فلم يشرع بحال، وليس في الأدلة الشرعية ما يدل على استحبابه، وأما ما يتوهمه طائفة من غالطي المتعبدين في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ الأنعام: ٩١. ويتوهمون أن المراد قول هذا الاسم، فخطأ واضحٌ؛ ولو تدبروا ما قبل هذا تبين مراد الآية؛ فإنه سبحانه قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ الأنعام: ٩١. أي قل الله أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، فهذا كلامٌ تام وجملةٌ اسميةٌ مركبةٌ من مبتدأ وخبر، حذف الخبر منها لدلالة السؤال على الجواب، وهذا قياسٌ

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠/٥٥٧.
(٢) السابق ١٠/٥٥٨ بتصرف.

مطردٌ في مثل هذا في كلام العرب[١].

ويذكر ابن تيمية رحمه الله أن الأغرب من هذا ما قاله له مرة شخصٌ من هؤلاء الغالطين في قوله: وما يعلم تأويله إلا الله. قال: المعنى وما يعلم تأويل هو إلا الله، أي اسم هو الذي يقال فيه هو هو. فقال له ابن تيمية وكان إذ ذاك صغيرا جدا: لو كان كما تقول، لكتبت في المصحف مفصولة هكذا "وما يعلم تأويل هو إلا الله" ولم تكتب موصولة [٢].

ثم قال رحمه الله: (وهذا الكلام الذي قاله هذا معلوم الفساد بالاضطرار، وإنما كثيرٌ من غالطي المتصوفة لهم مثل هذه التأويلات الباطلة في الكتاب والسنة، وقد يكون المعنى الذي يعنونه صحيحا؛ لكن لا يدل عليه الكلام، وليس هو مراد المتكلم، وقد لا يكون صحيحا، فيقع الغلط تارة في الحكم، وتارة في الدليل، كقول بعضهم: أن رآه استغنى. أي أن رأى ربه استغنى، والمعنى إنه ليطغى أن رأى نفسه استغنى، وكقول بعضهم: فإن لم تكن تراه يعني فإن فنيت عنك رأيت ربك، وليس هذا معنى الحديث، فإنه لو أريد هذا لقيل: فإن لم تكن تره، وقد قيل: تراه، ثم كيف يصنع بجواب الشرط؟ وهو قوله: فإنه يراك؟!)[٣].

وذكْر الله بالاسم وحده لا يعطي إيمانا ولا كفرا، ولا هدى ولا

---

(١) السابق ١٠/٥٥٩ بتصرف.

(٢) السابق ١٠/٥٦٠ بتصرف.

(٣) السابق ١٠/٥٦٠ بتصرف.

ضلالا، ولا علما ولا جهلا، وقد يذكر الذاكر اسم نبي من الأنبياء، أو فرعون من الفراعنة، أو صنم من الأصنام، ولا يتعلق بمجرد اسمه حكمٌ إلا أن يقرن به ما يدل على نفي أو إثبات، أو حب أو بغض، وقد يذكر الموجود والمعدوم، ولهذا اتفق أهل العلم بلغة العرب وسائر اللغات على أن الاسم وحده لا يحسن السكوت عليه؛ ولا هو جملةٌ تامةٌ؛ ولا كلاما مفيدا، ولهذا سمع بعض العرب مؤذنا يقول: أشهد أن محمدا رسولَ الله، قال: فعل ماذا؟ فإنه لما نصب الاسم صار صفة، والصفة من تمام الاسم الموصوف، فطلب بصحة طبعه الخبر المفيد؛ ولكن المؤذن قصد الخبر ولحن.

ولو كرر الإنسان اسم الله ألف ألف مرة، لم يصر بذلك مؤمنا، ولم يستحق ثواب الله ﷻ ولا جنته؛ فإن الكفار من جميع الأمم يذكرون الاسم مفردا، سواءٌ أقروا به وبوحدانيته أم لا؛ حتى إنه لما أمرنا بذكر اسمه كقوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ المائدة:٤. وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الأنعام:١٢١. وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ الأعلى:١. ونحو ذلك، كان ذكر اسمه بكلام تام مثل أن يقول: بسم الله أو يقول: سبحان ربي الأعلى، وسبحان ربي العظيم، ونحو ذلك، ولم يشرع ذكر الاسم المجرد قط ولا يحصل بذلك امتثال أمر، ولا حل صيد، ولا ذبيحة ولا غير ذلك [1].

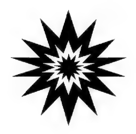
وأبعد من ذلك ذكر الاسم المضمر وَهوَ هُو، فإن هذا بنفسه لا يدل على معين، وإنما هو بحسب ما يفسره من مذكور أو معلوم، فيبقى

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/٥٦٢ بتصرف.

معناه بحسب قصد المتكلم ونيته؛ ولهذا قد يذكر به من يعتقد أن الحق الوجود المطلق، وقد يقول: لا هو إلا هو، ويسري قلبه في وحدة الوجود ومذهب فرعون والإسماعيلية وزنادقة هؤلاء المتصوفة المتأخرين بحيث يكون قوله: هو، كقوله: وجوده، وقد يعني بقوله: لا هو إلا هو، أي أنه هو الوجود، وأنه ما ثم خلقٌ أصلا، وأن الرب والعبد، والحق والخلق شيءٌ واحدٌ[1].

ومن أسباب هذه الاعتقادات والأحوال الفاسدة الخروج عن الشرعة والمنهاج الذي بعث به الرسول ﷺ إلينا، فإن البدع هي مبادئ الكفر ومظان الكفر، كما أن السنن المشروعة هي مظاهر الإيمان ومقوية للإيمان؛ فإنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، كما أخبر الله عن زيادته في مواضع كثيرة من كتابه[2].



(١) السابق ١٠/٥٦٥ بتصرف.
(٢) السابق ١٠/٥٦٥ بتصرف.

المطلب الثاني والعشرون

أثر انتفاء قول اللسان في وجود كفر الجحود وتنوع درجاته المتعلقة بكتمان الحق



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن قول اللسان، وتحقيق شهادة التوحيد والإيمان، وأثرهما في تكامل أركان الإيمان وعلمنا أن شهادة ألا إله إلا الله قول باللسان مرتبط ببقية أركان الإيمان، وأن شهادة التوحيد ربما يعبر عنها في النصوص بتوحيد العبادة، أو القول مع شرطه ومقتضاه، وأنها في حقيقتها إعلام من قائلها بدخول الإسلام وتوحيد العبادة لله ﷻ.

وبينا أن شأن قول اللسان كنور السراج وشعاعه في بدن الإنسان، وأن الشهادة بقول اللسان علم وفصل وحكم وإخبار وإعلام وإلزام، كما أوردنا تقرير ابن تيمية في أن الشهادة تتضمن إقرار الشاهد وقوله وخبره، وعلمنا أن الشهادة هي أصل الإسلام الذي يتميز به أهل الإيمان وأهل الكفر، وأن الشهادة بقول اللسان تقتضي الالتزام بشروط لا إله إلا الله، وأن اقتران الشهادتين يمثلان الركن الأعظم في الإسلام وتحقيق الإيمان، كما بينا وجه الرد على من احتج بنطق الشهادة على تحقيق

الإيمان الواجب، وعلمنا أن ذكر الله ﷻ بالاسم المفرد مثل الله الله وحي حي، أو باسم الإشارة مثل هو هو أمر مبتدع في الذكر ولا يغني عن النطق بالشهادة.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن أثر انتفاء قول اللسان في وجود كفر الجحود، وتنوع درجاته المتعلقة بكتمان الحق.

- **معنى الجحود في المعاني اللغوية والأصول القرآنية والنبوية .**

ذكر ابن منظور أن الجَحْدُ والجُحُود نقيض الإِقرار كالإِنكار والمعرفة، جَحَدَهُ يَجْحَدُه جَحْدا وجُحودا، والجُحودُ الإِنكار مع العلم، جَحَدَه حقَّه أي كتمه وأنكره، والجحود قلة الخير، وجَحِدَ جَحَدا إِذا كان ضيقا قليل الخير، والجُحْدُ الضيق في المعيشة يقال جَحِدَ عَيْشُهم جَحَدا إِذا ضاق، وجَحِدَ النبات قل ونكد، والجَحْد القلة من كل شيءٍ، وجَحِدَ النبتُ إِذا قل ولم يَطُل [1].

وذكر الراغب الأصفهاني أن الجحود نفي ما في القلب ثباته، أو إثبات ما في القلب نفيه، والجحد يقال فيما ينكر باللسان لا بالقلب، وجحد حقه أنكره، ولا يكون إلا على علم من الجاحد به، وأما كفر الجحود فإنه يعرف بقلبه ولا يقر بلسانه، فهذا كفر جاحد ككفر إبليس. والفرق بين الجحد والإنكار أن الجحد أخص من الإنكار، وذلك أن الجحد إنكار الشيء الظاهر كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ الأنعام:٣٣. فجعل الجحد مما تدل عليه

---

(١) لسان العرب لابن منظور الأفريقي ٣/١٠٦ بتصرف.

الآيات، ولا يكون ذلك إلا ظاهرا. وقال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾ النحل:٨٣. فجعل الإنكار للنعمة لأن النعمة قد تكون خافية. ويجوز أن يقال الجحد هو إنكار الشيء مع العلم به، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ النمل:١٤. فجعل الجحد مع اليقين، والإنكار يكون مع العلم وغير العلم.

والفرق بين قولك جحده وجحد به، أن قولك جحده يفيد أنه أنكره مع علمه به، وجحد به يفيد أنه جحد ما دل عليه، وعلى هذا فسر قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ النمل:١٤. أي جحدوا ما دلت عليه من تصديق الرسل، ونظير هذا قولك إذا تحدث الرجل بحديث كذبته سميته كاذبا، فالمقصود المحدث، وإذا قلت: كذَّبت به، فمعناه كذبت بما جاء به، فالمقصود هاهنا الحديث، وقال المبرد: لا يكون الجحود إلا بما يعلمه الجاحد كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ الأنعام:٣٣ (١).

قال الفراهيدي: (وأما الجحود فإنما يقال فيما ينكر باللسان دون القلب، والإقرار الذي هو ضد الجحد يتعدى بالباء) (٢).

ذكر الزبيدي أن أهل العلم جعلوا الكُفْر على أَربعةِ أنحاء، كُفْرُ إنكارٍ، بأَن لا يعرفَ اللهَ أَصلا ولا يعترف به، وكُفرُ جُحود، وكُفر

(١) الفروق اللغوية ١/١٥٧، وتاج العروس ١٤/٥٢ بتصرف.
(٢) انظر كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ٥/٣٥٦ بتصرف.

مُعاندَة، وكُفرُ نفاق، من لقيَ ربهُ بشيءٍ من ذلك لم يَغْفِرْ له، ويغفِرُ ما دون ذلكَ لَمن يشاءُ، فأَما كُفرُ الإنكار فهو أَن يكفُرَ بقلبه ولسانه، ولا يعرف ما يُذْكَر له من التَّوحيد، وأما كُفرُ الجُحود فأن يعترفَ بقلبه ولا يُقِرّ بلسانه، فهذا كافرٌ جاحدٌ ككُفْرِ إبليسَ وكُفْرِ أُمَيَّةَ بن أبي الصَّلت، وأما كُفرُ المُعاندَة فهو أن يعرفَ اللهَ بقلبه، ويقرّ بلسانه، ولا يدين به حَسدا وبغيا، ككُفر أبي جَهل وأضرابه، وفي التهذيب يعترف بقلبه ويقرّ بلسانه، ويأبى أَن يَقْبل كأَبي طالب حيث يقول:

ولقَدْ عَلمْتُ بأَن دِين مُحمَّدِ : من خيـرِ أَديان البرِيَّة دِينـا
لولا المَلامَةُ أَو حِـذارُ مَسَـبة : لوَجَدْتَني سَمْحا بذاكَ مُبينا [1].

والذي ذكره ابن المرتضى الزبيدي في كفر أبي طالب وأنه كفر معاندة يصح إذا كان محمولا على الإقرار من جهة النظرة اللغوية دون النظرة الاعتقادية المتعلقة بمسمى الإيمان، لأن أبا طالب في الأبيات المذكورة كشف عن علمه الكائن في قلبه، وجحد أن ينطق بلسانه شهادة التوحيد أو يقر بها، فلا يعد الشخص مقرا بقول اللسان إلا إذا شهد ألا إله إلا الله، وأبو طالب كتم الحق ورفض أن يقولها إلى وقت موته، وقد كان الرسول ﷺ على رأسه يدعوه إليها، فرفض أن ينطق بلا إله إلا الله، وآثر أن يموت على الشرك بالله، ومن ثم فإن كفره كفر جحود، لكن جحود الحق قد يكون سببه معاندة أو استكبار أو غير

(١) تاج العروس ٥٢/١٤، وانظر أيضا الكليات لأبى البقاء الكفومي ٢٢٨/١، ومختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ١١٩/١، والمحيط في اللغة لأبي القاسم الطالقاني ٢٥٠/٦ ، والتوقيف على مهمات التعاريف ٦٠٦/١.

ذلك من الموانع، ولذلك فإن الفيصل بين وصفه بكفر الجحود أو كفر المعاندة وقت علمه بالحق في النوعين هو نطق اللسان بلا إله إلا الله، فإن كتم ولم ينطق فهو كفر الجحود، وإن نطق ولم يقبل، ولم يخضع، ولم ينقد فهو كفر العناد ككفر إبليس، فذكرهم لكفر إبليس على أنه كفر جحود فيه نظر لأنه كان يعلم الحق وينطق به، وإنما امتنع بجوارحه، ولعل اللغويين لا ينظرون النظرة الاعتقادية في حقيقة قول اللسان عند الحديث عن أركان الإيمان ومسماه.

- **أركان كفر الجحود الأكبر المخرج للإنسان عن الملة.**

إذا امتنع اللسان عن النطق بالشهادتين بعد علم القلب بصدقها، أو كتم الحق بعد علمه به نشأ عن ذلك كفر الجحود، فالجحود هو كتمان الحق مع العلم به، فيتحقق علم القلب وينتفي قول اللسان، أما الحال في بقية الأركان، فهو انتفاء عمل القلب بوجود المانع للجحود، وله أسباب شتى؛ فقد يكون الاستكبار، أو الحسد، أو المعاندة، أو الخوف على الملك والرئاسة والجاه، أو غير ذلك من الموانع، وكذلك انتفاء عمل الجوارح بالالتزام لأنه تابع لعمل القلب صلاحا أو فسادا.

قال تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ الأنعام:٣٣.

ذكر ابن جرير الطبري في معنى الآية أنهم لا يُكْذِبونك فيما أتيتهم به من وحي الله ﷻ، ولا يدفعون أن يكون ذلك صحيحا، بل يعلمون صحته، ولكنهم يجحَدون حقيقته قولا فلا يؤمنون به، وذلك أن المشركين لا شكّ أنه كان منهم قوم يكذبون رسول الله ﷺ، ويدفعونه

عما كان الله ﷻ خصه به من النبوّة، فكان بعضهم يقول هو شاعر، وبعضهم يقول هو كاهن، وبعضهم يقول هو مجنون، وينفي جميعُهم أن يكون الذي أتَاهم به من وحي السماء، ومن تنزيل رب العالمين قولا، وكان بعضهم قد تبين أمرَه وعلم صحة نبوّته، وهو في ذلك يعاند ويجحد نبوّته حسدا له وبغيا. ثم ذكر بسنده عن السدي في تفسير الآية أنه لما كان يوم بدر قال الأخنس بن شريق لبني زهرة: يا بني زهرة، إن محمدا ابن أختكم، فأنتم أحق من كف عنه، فإنه إن كان نبيّا لم تقاتلوهُ اليوم، وإن كان كاذبا كنتم أحق من كف عن ابن أخته! قفوا هاهنا حتى ألقى أبا الحكم فإن غُلب محمدٌ رجعتم سالمين، وإن غَلب محمدٌ فإن قومكم لا يصنعون بكم شيئا، فالتقى الأخنس وأبو جهل، فخلا الأخنس بأبي جهل، فقال: يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد، أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس هاهنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا! فقال أبو جهل: وَيْحك، والله إن محمدا لصادق، وما كذب محمّد قط، ولكن إذا ذهب بنو قُصَي باللواء والحجابة والسقاية والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟ [1].

قال الشيخ سليمان بن عبد الوهاب: (كفر الجحود، هو أن يكفر بما يعلمه في قلبه من أسماء الرب أو صفاته أو أفعاله أو دينه وأحكامه أو رسله، أو ما جاء به من الحق، فلا يقر به في لسانه، ولا يعمل به في جوارحه، وهذا كفر إبليس عليه اللعنة ومشابهيه الكاتمين الحق بعد علمهم إياه كاليهود ومشاكليهم من علماء السوء العاملين بالباطل

(١) تفسير جامع البيان للطبري ١١/٣٣٠ بتصرف.

والبهتان، والقائلين الزور فيما جاء به القرآن، وهم المجوّزون المنكر والعاكفون عليه، والناهون عن المعروف وما يوصل إليه، والصادون عن سبيل الله ﷻ وما يقرب لديه. قال تعالى في حق أولئك: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ الجمعة:٥.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ البقرة:٨٩. فكل من عرف الحق من الدين ولم ينقد إليه، ولم يعمل به فهو كافر ككفرهم، وهو ملعون كما لعنوا، وقال تعالى في حق هؤلاء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ البقرة:١٥٩/١٦٠. وهذه شاملة الفريقين) [1].

ونبه إلى عدم صحة ما ذكره الشيخ سليمان بن عبد الوهاب في كون كفر إبليس كفر الجحود، فكلامه فيه نظر لأن إبليس كان يعلم الحق وينطق بشهادة التوحيد، وإنما امتنع بجوارحه عنادا واستكبارا.

ذكر ابن تيمية أن الإنسان إذا كان عالما بأن محمدا ﷺ رسول الله

(١) التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق وتذكرة أولي الألباب في طريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لسليمان عبد الله محمد ص٢٨٠، دار طيبة، الرياض، المملكة العربية السعودية الأولى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

ولم يقترن بذلك حبه وتعظيمه، بل كان يبغضه ويحسده ويستكبر عن اتباعه، فإن هذا ليس بمؤمن به بل كافرٌ به.

ومن هذا الباب كفر إبليس وفرعون، وأهل الكتاب الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وغير هؤلاء، فإن إبليس لم يكذب خبرا ولا مخبرا، بل استكبر عن أمر ربه. وفرعون وقومه قال الله فيهم: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ النمل:١٤. وقال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ الإسراء:١٠٢ .

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ البقرة:١٤٦. فمجرد علم القلب بالحق إن لم يقترن به عمل القلب بموجب علمه، مثل محبة القلب له واتباع القلب له لم ينفع صاحبه، بل أشد الناس عذابا يوم القيامة عالمٌ لم ينفعه الله بعلمه، وقد كان النبي ﷺ يقول: (اللهُمَّ إِني أَعُوذ بكَ مِن قَلب لاَ يَخْشَعُ، وَدُعَاءٍ لاَ يُسْمَعُ، وَمِن نفسٍ لاَ تَشْبعُ، وَمِن عِلمٍ لاَ يَنفَعُ أَعُوذُ بكَ مِن هَؤُلاَءِ الأَرْبعِ) [1].

قال ابن القيم: (ليس التصديق مجردا اعتقادا صدق المخبر دون الانقياد له، ولو كان مجرد اعتقاد التصديق إيمانا لكان إبليس وفرعون وقومه وقوم صالح واليهود الذين عرفوا أن محمدا ﷺ رسول الله كما يعرفون أبناءهم مؤمنين مصدقين، وقد قال تعالى: فَإِنهُمْ لا يُكَذِّبونكَ.

---

(١) انظر الفتاوى الكبرى ٣٢٤/٢ بتصرف، والحديث أخرجه الترمذي في الدعوات من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ٥١٩/٥ (٣٤٨٢) وصححه الألباني.

أي يعتقدون أنك صادق، وَلَكِن الظَّالِمِين بآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُون. والجحود لا يكون إلا بعد معرفة الحق. قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ النمل: ١٤. وقال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ الإسراء:١٠٢.

وقال تعالى عن اليهود: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ البقرة:١٤٦.

وأبلغ من هذا قول النفرين اليهوديين لما جاءا إلى النبي ﷺ وسألاه عما دلهما على نبوته فقالا نشهد أنك نبي فقال: ما يمنعكما من اتباعي؟ قالا: إن داود دعا أن لا يزال في ذريته نبي، وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا اليهود[1]. فهؤلاء قد أقروا بألسنتهم إقرارا مطابقا لمعتقدهم أنه نبي، ولم يدخلوا بهذا التصديق والإقرار في الإيمان لأنهم لم يلتزموا طاعته والانقياد لأمره.

ومن هذا كفر أبي طالب فإنه عرف حقيقة المعرفة أنه صادق، وأقر بذلك بلسانه وصرح به في شعره ولم يدخل بذلك في الإسلام، فالتصديق إنما يتم بأمرين، أحدهما اعتقاد الصدق، والثاني محبة القلب وانقياده. ولهذا قال تعالى لإبراهيم عليه السلام: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ الصافات:١٠٥ . وإبراهيم كان معتقدا لصدق رؤياه من حين رآها، فإن رؤيا الأنبياء وحي، وإنما جعله مصدقا لها بعد أن فعل

---

(١) رواه البيهقي في سننه، كتاب قتال أهل البغي، باب ما على من رفع إلى السلطان ما فيه ضرر على مسلم من غير جناية ٨/١٦٦ (١٦٤٥٠).

ما أمر به. وكذلك قوله ﷺ: والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه[١]. فجعل التصديق عمل الفرج لا ما يتمنى القلب، والتكذيب تركه لذلك وهذا صريح في أن التصديق لا يصح إلا بالفعل. وقال الحسن: ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل)[٢].

- من أمثلة كفر الجحود الأكبر المخرج من الملة كفر اليهود.

كفر اليهود كفر جحود لأنهم علموا الحق بقلوبهم وأيقنوا أن محمدا رسول من عند ربهم وبالرغم من ذلك كتموه وجحدوه ولم يشهدوا أنه رسول الله، فتكاملت فيهم أركان كفر الجحود وهي انتفاء قول اللسان وشهادة الإيمان ووجود علم القلب، وأما بقية الأركان فسينتفي عمل القلب بوجود الكبر والحسد، ومن ثم ينتفي عمل الجوارح لأنه تابع لعمل القلب.

وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله أن علماء اليهود كان يعرفون النبي ﷺ ورسالته كما يعرفون أبناءهم، وذكر ما رواه ابن اسحق أن شيخا من بني قريظة قال لعاصم بن عمر بن قتادة: (هل تدري عما كان إسلام أسد وثعلبة ابني شعبة وأسد بن عبيد، لم يكونوا من بني قريظة ولا النضير، كانوا فوق ذلك؟ فقلت: لا. قال: فإنه قدم علينا رجل من الشام من اليهود، يقال له ابن الهيبان، فأقام عندنا، والله ما رأينا رجلا

(١) روى البخاري في صحيحه في كتاب الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج ٥/٢٣٠٤ (٥٨٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه).

(٢) الصلاة وحكم تاركها لابن القيم ١/٦١.

يصلى خيرا منه، فقدم علينا قبل مبعث رسول الله ﷺ بسنتين، فكنا إذا قحطنا وقل علينا المطر نقول: يا ابن الهيبان، اخرج فاستسق لنا، فيقول: لا والله حتى تقدموا أمام مخرجكم صدقة، فنقول: كم؟ فيقول: صاع من تمر، أو مدين من شعير، فنخرجه ثم يخرج إلى ظاهر حرتنا، ونحن معه نستسقي، فوالله ما يقوم من مجلسه حتى تمطر، ويمر المطر بالشعاب، قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثة، فحضرته الوفاة واجتمعنا إليه، فقال: يا معشر يهود، أترون ما أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟ قالوا: أنت أعلم. قال: فإني إنما خرجت أتوقع خروج نبي قد أظل زمانه، هذه البلاد مهاجره، فاتبعوه ولا يسبقن إليه غيركم، إذا خرج يا معشر اليهود، فانه يبعث بسفك الدماء، وسبي الذراري والنساء ممن يخالفه، فلا يمنعكم ذلك منه، ثم مات، فلما كانت الليلة التي فتحت فيها قريظة، قال أولئك الثلاثة الفتية وكانوا شبانا إحداثا: يا معشر اليهود، والله إنه للذي ذكر لكم ابن الهيبان، فقالوا: ما هو به، قالوا: بلى والله، إنه لصفته، ثم نزلوا وأسلموا وخلوا أموالهم وأهليهم، قال ابن اسحق: وكانت أموالهم في الحصن مع المشركين، فلما فتح ردت عليهم) [1].

ونقل عن ابن اسحق أن محمود بن لبيد قال: (كان بين أبياتنا يهودي، فخرج على نادي قومه بني عبد الأشهل ذات غداة، فذكر البعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان ،فقال ذلك لأصحاب وثن لا يرون أن بعثا كائن بعد الموت، وذلك قبيل مبعث النبي ﷺ

---

(١) سيرة ابن اسحاق ٦٤/٢، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ١٧٤/٥، وانظر هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم ١٧/١.

فقالوا: ويحك يا فلان، وهذا كائن أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار ويجزون بأعمالهم، قال: نعم والذي يحلف به لوددت أن حظي من تلك النار أن توقدوا أعظم تنور في داركم فتحمونه ثم تقذفوني فيه ثم تطبقون على وأنى أنجو من النار غدا، فقيل: يا فلان ما علامة ذلك؟ قال: نبي يبعث من ناحية هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن، قالوا: فمتى نراه؟ فرمى بطرفه فرآني وأنا مضطجع بفناء باب أهلي، وأنا أحدث القوم، فقال: إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه، فما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ وإنه لحي بين أظهرنا، فآمنا به وصدقناه، وكفر به بغيا وحسدا، فقلنا: يا فلان، ألست الذي قلت ما قلت وأخبرتنا به؟ قال: ليس به)[1].

وذكر أيضا عن ابن اسحق أن عاصم بن عمر بن قتادة قال له: (حدثني أشياخ منا، قالوا: لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله ﷺ منا، كان معنا يهود، وكانوا أهل كتاب، وكنا أصحاب وثن، وكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون، قالوا: إن نبيا مبعوثا الآن قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم قتل عاد وإرم، فلما بعث الله ﷻ رسوله ﷺ اتبعناه وكفروا به ففينا وفيهم أنزل الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ البقرة:٨٩ [2].

وأهل الكتاب من اليهود والنصارى حتى يومنا هذا يعرفون النبي

---

(١) سيرة ابن اسحاق ٦٤/٢، الجواب الصحيح ١٧١/٥، هداية الحيارى ١٨/١.

(٢) سيرة ابن اسحاق ٦٣/٢، وانظر الجواب الصحيح ١٧٥/٥.

كما يعرفون أبناءهم كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ البقرة:١٤٦.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ الأنعام:٢٠.

وقد بينت في كتابي ثم شتان، وأسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب المقدس عند النصارى الآن، بينت الدليل الواضح على أن اليهود والنصارى حتى يومنا هذا يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم، وأنهم يعلمون صدق محمد ﷺ بما ورد من كلام الله في القرآن، ومن كلام النبي ﷺ في السنة، والذي يوجد أكثره عندهم بمعناه وبعض ألفاظه التي لا ينكرها إلا الجاحدون، وقد كان إنكارهم للنبي ﷺ هو الباب الرئيسي الذي أوتي منه ضلال اليهود، فإن اليهود لم يؤتوا من جهة ما أقروا به من نبوة موسى عليه السلام والإيمان بالتوراة، بل هم في ذلك مهتدون، وهو رأس هداهم، وإنما أتوا من جهة ما لم يقروا به من رسالة المسيح ومحمد ﷺ كما قال تعالى فيهم: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ البقرة:٩٠. غضب بكفرهم بالمسيح، وغضب بكفرهم بمحمد ﷺ، وهذا من باب ترك المأمور به[(١)].

وكذلك النصارى لم يؤتوا من جهة ما أقروا به من الإيمان بأنبياء

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٠/١٠٨ بتصرف.

بني إسرائيل والمسيح، وإنما أتوا من جهة كفرهم بمحمد ﷺ، وأما ما وقعوا فيه من التثليث والاتحاد الذي كفروا فيه بالتوحيد والرسالة، فهو من جهة عدم اتباعهم لنصوص التوراة والإنجيل المحكمة التي تأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وتبين عبودية المسيح، وأنه عبدٌ لله كما أخبر الله عنه بقوله تعالى: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ المائدة:١١٧. فلما تركوا اتباع هذه النصوص إيمانا وعملا وعندهم رغبةٌ في العبادة والتأله ابتدعوا الرهبانية، وغلوا في المسيح هوى من عند أنفسهم، وتمسكوا بمتشابه من الكلمات لظن ظنوه فيها، وهوى اتبعوه خرج بهم عن الحق فهم كما قال تعالى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾ النجم:٢٣.

فهذه الأمة الغضبية معروفة بعداوة الأنبياء قديما، وقد راموا قتل خاتم النبيين مرارا عديدة والله ﷻ يعصمه منهم، ومن هذا شأنهم لا يكبر عليهم اختيار الكفر على الإيمان، وقد اتفقت أمة الضلال وعباد الصليب على مسبة رب العالمين أقبح مسبة على ما يعلم بطلانه بصريح العقل، فإن خفي عليهم أن هذا مسبة الله، وأن العقل يحكم ببطلانه وبفساده من أول وهلة لم يكثر على تلك العقول السخيفة أن تسب بشرا أرسله الله ﷻ، وتجحد نبوته، وتكابر ما دل عليه صريح العقل من صدقه وصحة رسالته، فلو قالوا فيه ما قالوا لم يبلغ بعض قولهم في رب الأرض والسموات الذي صاروا به ضحكة بين جميع أصناف بني آدم، فأمة أطبقت على أن الإله الحق سبحانه عما يقولون صلب وصفع وسمر

ووضع الشوك على رأسه، ودفن في التراب ثم قام في اليوم الثالث وصعد على عرشه يدبر أمر السموات والأرض لا يكثر عليها أن تطبق على جحد نبوة من جاء بسبها ولعنها ومحاربتها، وإبداء معاييها، والنداء على كفرها بالله ورسوله، والشهادة على براءة المسيح منها، ومعاداته لها ثم قاتلها وأذلها، وأخرجها من ديارها، وضرب عليها الجزية، وأخبر أنها من أهل الجحيم خالدة مخلدة لا يغفر الله لها، وأنها شر من الحمير، بل هي شر الدواب عند الله، وكيف ينكر لأمة أطبقت على صلب معبودها وإلهها ثم عمدت إلى الصليب فعبدته وعظمته، وكان ينبغي لها أن تحرق كل صليب تقدر على إحراقه، وأن تهينه غاية الإهانة، إذ صلب عليه إلهها الذي يقولون تارة أنه الله، وتارة يقولون أنه ابنه، وتارة يقولون ثالث ثلاثة، فجحدت حق خالقها، وكفرت به أعظم كفر، وسبته أقبح مسبة أن تجحد حق عبده ورسوله وتكفر به[1].

ومن المعلوم بالضرورة أن محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه نادى معلنا في هاتين الأمتين اللتين هما أعلم الأمم في الأرض قبل مبعثه بأن ذكره ونعته وصفته بعينه عندهم في كتبهم، وهو يتلو ذلك عليهم ليلا ونهارا، وسرا وجهارا في كل مجمع، وفي كل ناد يدعوهم بذلك إلى تصديقه والإيمان به، فمنهم من يصدق ويؤمن به، ويخبر بما في كتبهم من نعته وصفته وذكره[2].

وغاية المكذب الجاحد أن يقول: هذا النعت والوصف حق،

---

(١) هداية الحيارى ١/٢٠.

(٢) السابق ١/٤٣.

ولكن لست أنت المراد به، بل نبي آخر، وهذا غاية ما يمكنه من المكابرة، ولم تجْد عليه هذه المكابرة إلا كشفه عورته، وإبدائه الفضيحة بالكذب والبهتان، فالصفات والنعوت والعلامات المذكورة عندهم منطبقة عليه حذو القذة بالقذة، بحيث لا يشك من عرفها ورآه أنه هو، كما عرفه قيصر وسلمان بتلك العلامات المذكورات التي كانت عنده من بعض علمائه، وكذلك هرقل عرف نبوته بالوصف له من العلامات التي سأل عنها أبا سفيان، فطابقت ما عنده فقال: إن يكن ما تقول حقا فإنه نبي، وسيملك ما تحت قدمي هاتين. وكذلك من قدمنا ذكرهم من الأحبار والرهبان الذين عرفوه بنعته وصفته كما يعرفون أبناءهم، ومعلوم أن هذه المعرفة إنما هي بالنعت والصفة المكتوبة عندهم التي هي منطبقة عليه، كما قال بعض المؤمنين منهم: والله لأحدنا أعرف به من ابنه إن أحدنا ليخرج من عند امرأته وما يدري ما يحدث بعده[1].

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ العنكبوت:٤٦/٤٩.

---

(١) السابق ١/٤٣.

• **كفر فرعون وهرقل وأبي طالب وأغلب قريش كفر جحود.**

لقد جحد فرعون الحق بعد علمه به، فكان كفره كفر جحود، وسببه الاستكبار والاستعلاء، قال تعالى:﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) ﴾ النمل:١٢/١٤ . وقال تعالى:﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) ﴾ الإسراء:١٠١/١٠٢.

وقال: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) ﴾ القصص:٤.

وكفر الجحود أسبق في وصف صاحبه من كفر العناد والاستكبار وهذه من دقائق المسائل، فإن قال قائل: هل كفر فرعون وهرقل ملك الروم وأبي طالب وكثير من قريش كفر جحود أو كفر العناد واستكبار؟ قيل كفر الجحود أسبق في الوصف من كفر العناد، لأنه ناشئ عن انتفاء قول اللسان مع وجود علم القلب وتصديقه ويقينه، وكفر العناد والاستكبار ناشئ عن انتفاء عمل الجوارح مع وجود قول اللسان، وكذلك وجود علم القلب وتصديقه واستيقانه، فكلاهما يجتمعان في وجود العلم والتصديق والاستيقان، أما كفر الجحود فمبني بعد العلم على انتفاء قول اللسان، ومن ثم ينتفي عمل الجوارح، بخلاف كفر العناد المبني على امتناع عمل الجوارح أصلا، فيكون كفر الجحود

هو أول ما يوصف به هؤلاء.

ومن كفر الجحود كفر أغلب الكفار من قريش الذين يعرفون أن النبي ﷺ حق، ولكنهم جحدوا الرسالة، وأنكروا كونه رسولا من عند الله حسدا واستكبارا عن طاعة من يرونه أقل شأنا منهم، قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)﴾ النحل:٨٢/٨٣.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ۖ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨)﴾ فصلت:٢٦/٢٨.

وقال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)﴾ الأنعام:٣٣.

ومن كفر الجحود كفر أبي طالب عم النبي ﷺ من جنس هذا الكفر، لأنه جحد الحق بعد علمه به حيث قال:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك لا عليك غضاضة ... وافرح وقر بذلك منك عيونا
ولقد علمت بأن دين محمدٍ ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامةُ أو حِذارُ مسبةٍ ... لوجدتني سمحا بذلك مبينا

وعلى الرغم من ذلك امتنع عن النطق بلا إله إلا الله، وجحدها، وقد روى البخاري في صحيحه من حديث سعيد بن المُسَيَّب عَن أَبيهِ أَنهُ أَخْبرَهُ أَنهُ لَمَّا حَضرَتْ أَبا طَالب الوَفَاةُ، جَاءَهُ رَسُول اللهِ ﷺ فَوَجَدَ

عِندَهُ أَبا جَهْل بن هِشَام وَعَبدَ اللهِ بن أَبي أُمَيَّةَ بن المُغِيرَةِ، قَال رَسُول اللهِ ﷺ لأَبي طَالب: يَا عَمِّ قُل لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ، كَلمَةً أَشْهَدُ لكَ بها عِندَ اللهِ، فَقَال أَبو جَهْل وَعَبدُ اللهِ بن أَبي أُمَيَّةَ: يَا أَبا طَالب أَتَرْغَب عَن مِلةِ عَبدِ المُطَّلب، فَلَمْ يَزَل رَسُول اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَليْهِ وَيَعُودَان بتِلكَ المَقَالةِ حَتَّى قَال أَبو طَالب آخِرَ مَا كَلمَهُمْ هُوَ عَلى مِلةِ عَبدِ المُطَّلب، وَأَبى أَن يَقُول لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ، فَقَال رَسُول اللهِ ﷺ: أَمَا وَاللهِ لأَسْتَغْفِرَن لكَ مَا لمْ أُنهَ عَنكَ، فَأَنزَل اللهُ تَعَالى فِيهِ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣ ﴾ التوبة:١١٣. ونزلت: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٥٦ ﴾ القصص:٥٦ [(١)].

ومن ثم فإن انتفاء قول اللسان كان سببا في هلاك أبى طالب بامتناعه عن شهادة ألا إله إلا الله، ولم ينفعه النبي ﷺ في إخراجه من النار وإن نفعه في تخفيف العذاب منه، وقد خص الله رسوله ﷺ بذلك، لما روى البخاري من حديث النعْمَان بن بشير رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: (إن أَهْوَن أَهْل النار عَذابا يَوْمَ القِيَامَةِ لرَجُل، تُوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَةٌ يَغْلي مِنهَا دِمَاغُهُ) [(٢)].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله ٤٥٧/١ (١٢٩٤)، ومسلم في كتاب الإيمان، بَاب الدَّلِيلِ على صِحَّةِ إِسْلَامِ من حَضَرَهُ الْمَوْتُ ما لم يَشْرَعْ في النَّزْعِ وهو الْغَرْغَرَةُ ٥٤/١ (٢٤).

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار ٢٤٠٠/٥ (٦١٩٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذابا ١٩٦/١ (٢١٣).

ومراد النبي ﷺ بذلك الرجل عمه أبو طالب، لما ورد من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه قال: (يَا رَسُول اللهِ، هَل نفَعْتَ أَبا طَالب بشَيْءٍ فَإِنهُ كَان يَحُوطُك وَيَغْضَب لكَ؟ قَال: نعَمْ هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِن نارٍ، لوْلا أَنا لكَان فِي الدَّرَكِ الأَسْفَل مِن النارِ) (١).

قال ابن تيمية: (مجرد العلم والإخبار عنه ليس بإيمان حتى يتكلم بالإيمان على وجه الإنشاء المتضمن للالتزام والانقياد، مع تضمن ذلك الإخبار عما في أنفسهم، فالمنافقون قالوا مخبرين كاذبين، فكانوا كفارًا في الباطن، وهؤلاء قالوها غير ملتزمين ولا منقادين فكانوا كفارًا في الظاهر والباطن، وكذلك أبو طالب قد استفاض عنه أنه كان يعلم بنبوة محمدٍ وأنشد عنه: ولقد علمت بأن دين محمدٍ. من خير أديان البرية دينا. لكن امتنع من الإقرار بالتوحيد والنبوة حبا لدين سلفه، وكراهة أن يعيره قومه، فلما لم يقترن بعلمه الباطن الحب والانقياد الذي يمنع ما يضاد ذلك من حب الباطل وكراهة الحق لم يكن مؤمنا، وأما إبليس وفرعون واليهود ونحوهم فما قام بأنفسهم من الكفر وإرادة العلو والحسد منعٌ من حب الله، وعبادة القلب له الذي لا يتم الإيمان إلا به، وصار في القلب من كراهية رضوان الله واتباع ما أسخطه ما كان كفرًا لا ينفع معه العلم) (٢).

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب قصة أبي طالب ٣/ ١٤٠٨ (٣٦٧٠)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب شفاعة النبى ﷺ لأبى طالب والتخفيف عنه بسببه ١/١٩٤ (٢٠٩) .

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٥٦٢/٧.

وقال ابن القيم رحمه الله: (إقرار الكاهن الكتابي لرسول الله ﷺ بأنه نبي لا يدخله في الإسلام ما لم يلتزم طاعته ومتابعته، فإذا تمسك بدينه بعد هذا الإقرار لا يكون ردةً منه، ونظير هذا قول الحبرين له وقد سألاه عن ثلاث مسائل، فلما أجابهما قالا: نشهد أنك نبي، قال فما يمنعكما من اتباعي؟ قالا: نخاف أن تقتلنا اليهود ولم يلزمهما بذلك الإسلام، ونظير ذلك شهادة عمه أبي طالب له بأنه صادقٌ، وأن دينه من خير أديان البرية دينا، ولم تدخله هذه الشهادة في الإسلام، ومن تأمل ما في السير والأخبار الثابتة من شهادة كثيرٍ من أهل الكتاب والمشركين له ﷺ بالرسالة، وأنه صادقٌ فلم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام، علم أن الإسلام أمرٌ وراء ذلك، وأنه ليس هو المعرفة فقط، ولا المعرفة والإقرار فقط، بل المعرفة والإقرار والانقياد، والتزام طاعته ودينه ظاهرًا وباطنا) [(١)].

- انتفاء قول اللسان بسب الدين أو سب الله ورسوله.

السب قول باللسان فيه لعن وتحقير من شأن الإنسان، وانتقاص واحتقار واستخفاف يحمل كثيرا من المعاني التي تزيد على معاني الكفر، سواء الناشئ عن العناد والاستكبار أو الناشئ عن الجحود، أو الناشئ عن التكذيب، ولذلك اتفق الفقهاء على أن من سب الله تعالى كفر وخرج عن الملة، سواء كان مازحا أو جادا، وكذلك من سب دين الإسلام فهو كافر ولا يعذر بجهله، وكذلك من سب الرسول ﷺ، أو سب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم ٦٣٨/٣.

ومعلوم أن المستهزأ على وجه اللعب والمزح والاستخفاف أقل شأنا ممن سب ولعن دين الله ورسوله، وقد قال رجل في غزوة تبوك مازحا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء. يعني بذلك رسول الله ﷺ وأصحابه القراء، فقال له: عوف بن مالك رضي الله عنه كذبت، ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ، فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل ﷺ وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق، قال ابن عمر رضي الله عنهما: كأني أنظر إليه متعلقا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ، وإن الحجارة لتنكب رجليه، وهو يقول إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له رسول الله ﷺ: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن، ما يلتفت إليه، وما يزيد عليه [1].

قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ التوبة:٦٥/٦٦.

وإذا كان هؤلاء المستهزئون يجاهدون مع النبي ﷺ ويصلون ويصومون، ومع ذلك لما تكلمُوا بهذه الكلمة أخبر الله ﷻ أنهم كفروا

---

(١) رواه ابن جرير في التفسير ٣٣٣/١٤ (١٦٩١٢) وهو صحيح، انظر الصحيح المسند من أسباب النزول للشيخ مقبل بن هادى الوادعي ١٢٠/١، نشر مكتبة ابن تيمية القاهرة ١٤٠٨هـ، ونسعة الناقة الحزام الذي يربط على بطنها.

بعد إيمانهم، فكيف الحال بمن سب الله تعالى بصريح العبارة، أو سب دين الإسلام، أو سب النبي عليه الصلاة والسلام، أو سب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فهذا كفر صريح بنص الكتاب والسنة وإجماع المسلمين.

قال ابن حزم: (كل من سب الله تعالى، أو استهزأ به، أو سب ملكا من الملائكة، أو استهزأ به، أو سب نبيا من الأنبياء، أو استهزأ به، أو سب آية من آيات الله تعالى، أو استهزأ بها، والشرائع كلها والقرآن من آيات الله تعالى فهو بذلك كافر مرتد له حكم المرتد وبهذا نقول) [1].

وقال ابن تيمية: (وقد حكى أبو بكر الفارسي من أصحاب الشافعي إجماع المسلمين على أن حد من يسب النبي ﷺ القتل، كما أن حد من سب غيره الجلد، وهذا الإجماع الذي حكاه هذا محمول على إجماع الصدر الأول من الصحابة والتابعين، أو أنه أراد به إجماعهم على أن ساب النبي ﷺ يجب قتله إذا كان مسلما، وكذلك قيده القاضي عياض فقال: أجمعت الأمة على قتل متنقصه ﷺ من المسلمين وسابه. وكذلك حكي عن غير واحد الإجماع على قتله وتكفيره، وقال الإمام إسحاق بن راهويه أحد الأئمة الأعلام: أجمع المسلمون على أن من سب الله، أو سب رسوله ﷺ، أو دفع شيئا مما أنزل الله ﷻ، أو قتل نبيا من أنبياء الله ﷻ أنه كافر بذلك، وإن كان مقرا بكل ما أنزل الله. قال الخطابي: لا أعلم أحدا من المسلمين اختلف في وجوب قتله. وقال محمد بن سحنون: أجمع العلماء على أن شاتم النبي ﷺ المتنقص له كافر، والوعيد

(١) المحلى لابن حزم ١١/٤١٣.

جار عليه بعذاب الله له، وحكمه عند الأمة القتل، ومن شك في كفره وعذابه كفر. وتحرير القول فيه: أن الساب إن كان مسلما فإنه يكفر ويقتل بغير خلاف، وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم، وقد تقدم ممن حكى الإجماع على ذلك إسحاق بن راهوية وغيره، وإن كان ذميا فإنه يقتل أيضا في مذهب مالك وأهل المدينة) [1].

وقد اتفق الفقهاء على أن من قذف عائشة رضي الله عنها أو سبها، فقد كذب القرآن الذي نزل يصرح بطهارتها وبراءتها، وهو بذلك كافر مرتد، قال تعالى في براءتها من حديث الإفك: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ النور:١٥/١٧.

ذكر ابن تيمية أنه معلوم بالاضطرار من الدين أن من سب الله ورسوله طوعا بغير كره، بل من تكلم بكلمات الكفر طائعا غير مكره، ومن استهزأ بالله وآياته ورسوله ﷺ فهو كافر باطنا وظاهرا، وأن من قال: إن مثل هذا قد يكون في الباطن مؤمنا بالله وإنما هو كافر في الظاهر، فإنه قال قولا معلوم الفساد بالضرورة من الدين، وقد ذكر الله كلمات الكفار في القرآن، وحكم بكفرهم واستحقاقهم الوعيد بها، كما أن القلب إذا كان معتقدا صدق الرسول ﷺ، وأنه رسول الله، وكان محبا لرسول الله ﷺ معظما له، امتنع مع هذا أن يلعنه ويسبه، فلا

---

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية ص١٥، تحقيق محمد عبد الله عمر الحلواني، ومحمد كبير أحمد شودري نشر دار ابن حزم، بيروت ١٤١٧هـ.

يتصور ذلك منه إلا مع نوع من الاستخفاف به وبحرمته، فعلم بذلك أن مجرد اعتقاد أنه صادق لا يكون إيمانا إلا مع محبته وتعظيمه بالقلب[1].

وقال ابن القيم في قضاء النبي ﷺ فيمن سبه من مسلم أو ذمي أو معاهد: (ثبت عنه ﷺ أنه قضى بإهدار دم أم ولد الأعمى لما قتلها مولاها على السب، وقتل جماعة من اليهود على سبه وأذاه، وأمن الناس يوم الفتح إلا نفرا ممن كان يؤذيه ويهجوه، وهم أربعة رجال وامرأتان. وقال: من الكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله وأهدر دمه ودم أبى رافع. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لأبى برزة الأسلمي، وقد أراد قتل من سبه، ليس هذا لأحد بعد رسول الله ﷺ فهذا قضاؤه ﷺ وقضاء خلفائه من بعده، ولا مخالف لهم من الصحابة، وقد أعاذهم الله من مخالفة هذا الحكم، وقد روى أبو داود في سننه: عن على رضي الله عنه أن يهودية كانت تشتم النبي ﷺ وتقع فيه، فخنقها رجل حتى ماتت، فأبطل رسول الله ﷺ دمها.. وفي ذلك بضعة عشر حديثا ما بين صحاح وحسان ومشاهير، وهو إجماع الصحابة. وقد ذكر حرب في مسائله عن مجاهد قال: أتي عمر رضي الله عنه برجل سب النبي ﷺ فقتله، ثم قال عمر رضي الله عنه: من سب الله ورسوله، أو سب أحدا من الأنبياء فاقتلوه. ثم قال مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: أيما مسلم سب الله ورسوله، أو سب أحدا من الأنبياء، فقد كذب برسول الله ﷺ وهى ردة، يستتاب، فإن رجع وإلا قتل، وأيما معاهدٍ عاند فسب الله أو سب أحدا من الأنبياء أو جهر به فقد

(١) كتاب الإيمان الأوسط لابن تيمية ص١٧٢، ومجموع الفتاوى ٧/٥٥٨.

نقض العهد فاقتلوه. وذكر أحمد، عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه مر به راهب، فقيل له: هذا يسب النبي ﷺ، فقال ابن عمر رضي الله عنه: لو سمعته، لقتلته إنا لم نعطهم الذمة على أن يسبوا نبينا. والآثار عن الصحابة بذلك كثيرة) [١].

- كفر الجحود يتردد بين الكفر الأكبر والكفر الأصغر.

قال ابن القيم: (وكفر الجحود نوعان، كفر مطلق عام، وكفر مقيد خاص، فالمطلق أن يجحد جملة ما أنزله الله وإرساله الرسول، والخاص المقيد أن يجحد فرضا من فروض الإسلام، أو تحريم محرم من محرماته، أو صفة وصف الله بها نفسه، أو خبرا أخبر الله به عمدا، أو تقديما لقول من خالفه عليه لغرض من الأغراض، وأما جحد ذلك جهلا أو تأويلا يعذر فيه صاحبه فلا يكفر صاحبه به، كحديث الذي جحد قدرة الله عليه وأمر أهله أن يحرقوه ويذروه في الريح، ومع هذا فقد غفر الله له ورحمه لجهله، إذ كان ذلك الذي فعله مبلغ علمه، ولم يجحد قدرة الله على إعادته عنادا أو تكذيبا) [٢].

وذكر أيضا أنه لا يستقر للعبد قدم في المعرفة، بل ولا في الإيمان حتى يؤمن بصفات الرب جل جلاله، ويعرفها معرفة تخرجه عن حد الجهل بربه، فالإيمان بالصفات والتعرف عليها هو أساس الإسلام، وقاعدة الإيمان، وثمرة شجرة الإحسان، فمن جحد الصفات فقد هدم أساس الإسلام والإيمان، وثمرة شجرة الإحسان، فضلا عن أن يكون

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم ٥/٦٠.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم ١/٣٣٨.

من أهل العرفان[١].

وقد جعل الله سبحانه منكر صفاته مسيء الظن به، وتوعده بما لم يتوعد به غيره من أهل الشرك والكفر والكبائر، فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ فصلت:٢٢/٢٤. فأخبر سبحانه أن إنكارهم هذه الصفة من صفاته من سوء ظنهم به، وأنه هو الذي أهلكهم.

وقد قال في الظانين به ظن السوء: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ الفتح:٦. ولم يجيء مثل هذا الوعيد في غير من ظن السوء به سبحانه وجحد صفاته، وإنكار حقائق أسمائه من أعظم ظن السوء به [٢].

ولما كان أحب الأشياء إليه حمده ومدحه والثناء عليه بأسمائه وصفاته وأفعاله كان إنكارها وجحدها أعظم الإلحاد والكفر به، وهو شر من الشرك، فالمعطل شر من المشرك، فإنه لا يستوي جحد صفات الملك وحقيقة ملكه والطعن في أوصافه هو، والتشريك بينه وبين غيره في الملك، فالمعطلون أعداء الرسل بالذات، بل كل شرك في العالم فأصله التعطيل، فإنه لولا تعطيل كماله أو بعضه وظن السوء به لما أشرك به

(١) السابق ٣/٣٤٧ بتصرف.
(٢) السابق ٣/٣٤٧ بتصرف.

أحد، كما قال إمام الحنفاء وإمام أهل التوحيد لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ الصافات:٨٦/٨٧. أي فما ظنكم به أن يجازيكم وقد عبدتم معه غيره، وما الذي ظننتم به حتى جعلتم معه شركاء؟ أظننتم أنه محتاج إلى الشركاء والأعوان؟ أم ظننتم أنه يخفى عليه شيء من أحوال عباده حتى يحتاج إلى شركاء تعرفه بها كالملوك؟ أم ظننتم أنه لا يقدر وحده على استقلاله بتدبيرهم وقضاء حوائجهم؟ أم هو قاس فيحتاج إلى شفعاء يستعطفونه على عباده؟ أم ذليل فيحتاج إلى ولي يتكثر به من القلة ويتعزز به من الذلة؟ أم يحتاج إلى الولد فيتخذ صاحبة يكون الولد منها ومنه؟ تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيرا [1].

- **كيف يكون التعطيل جحودا مترددا بين الكفر الأكبر والأصغر؟**

يتردد التعطيل الذي يتبناه أغلب المعطلة قديما وحديثا بين جحود الصفة الحقيقية التي دلت عليها النصوص، وبين جحود النص ومحاولة محوه من القرآن صراحة أو إزالته، فالتعطيل قد يودي بالمعطل إلى بغض النص، وما دل عليه مما يخالف مذهبه.

ومن ذلك ما ورد عن الجهم بن صفوان كما ذكره أبو نعيم البلخي وكان قد أدرك جهما فقال: (كان للجهم صاحب يكرمه ويقدمه على غيره، فإذا هو قد هجره وخاصمه، فقلت له: لقد كان يكرمك، فقال: إنه جاء منه ما لا يتحمل، بينما هو يقرأ سورة طه

---

(١) مدارج السالكين ٣/٣٤٨ بتصرف.

والمصحف في حجره، إذ أتى على هذه الآية : ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ طه:٥. قال: لو وجدت السبيل إلى أن أحكها من المصحف لفعلت، فاحتملت هذه. ثم إنه بينما يقرأ آية أخرى إذ قال: ما أظرف محمدا حين قالها. ثم بينما هو يقرأ القصص والمصحف في حجره، إذ مر بذكر موسى عليه السلام فدفع المصحف بيديه ورجليه، وقال: أي شيء هذا؟ ذكره هنا فلم يتم ذكره، وذكره هنا فلم يتم ذكره!) [(١)].

ومثل ذلك أيضا ما روي أن أحمد بن أبي دؤاد القاضي أشار على الخليفة المأمون أن يكتب على ستر الكعبة: ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم، بدلا من قول تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١﴾ الشورى:١١، فحرف كلام الله لينفي وصفه تعالى بأنه يسمع ويبصر، لاعتقاده أن السمع في حق الله عز وجل لا بد أن يكون بأذن أو جارحة.

وقد وصل الأمر بجحود بعضهم لصفة الكلام إلى محاولته تحريف القرآن حتى لا يؤمن، فقال لأبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة: أريدك أن تقرأ هذه الآية: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ۝١٦٤﴾ النساء:١٦٤. بنصب لفظ الجلالة، وذلك ليكون موسى عليه السلام هو المتكلم، أما الرب عنده فلا يتكلم؛ لأن الكلام لا يكون إلا بفم ولسان حسب زعمه فقال أبو عمرو: هب أني وافقتك في ذلك،

(١) انظر كتاب السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل ١/١٦٧ (١٩٠)، وانظر اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص١٤٠، والعلو للعلي الغفار للإمام الذهبي ص١٥٤.

فماذا تفعل بقول الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ الأعراف:١٤٣. فبهت المعتزلي؟ (١).

ومن كفر الجحود ما يقع فيه بعض المعاصرين برفضهم وتعطيلهم للنصوص القرآنية والنبوية التي أمر الله ﷻ فيها بأن يكون للذكر مثل حظ الأنثيين، وأن يكون نصيب المرأة كما حدده الله ﷻ لها بعلمه وحكمته كقوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴾ النساء:١١.

أو جحودهم وتعطيلهم لقوله تعالى في قوامة الرجل: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾ النساء:٣٤.

أو جحودهم وتعطيلهم لقوله تعالى في الميراث: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص١٨٢، وبيان تلبيس الجهمية لابن تيمية ١٢/٢ ، والصواعق المرسلة لابن القيم ١٠٣٧/٣.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ۝٣﴾ النساء:٣.

أو النصوص الدالة على احتجاب المرأة وعدم تبرجها وسفورها وضرورة التزامها ببيتها وطاعتها لزوجها كقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ الأحزاب:٣٣.

وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ الأحزاب:٥٣.

وأمثلة ذلك كثيرة وهي منتشرة لدى كثير من العلمانيين والحداثيين الذين يجحدون تلك النصوص ويصرحون بردها أو بتعطيلها، بل يصرح بعضهم أنه يشعر بالخزي والتخلف والرجعية عند ذكرها، ولا تأتيه الجرأة لتلاوتها إقرارا بها، فهذا قد يكون كفرا أكبر يخرج عن الملة، وقد يكون كفرا أصغر له حكم الكبائر حسب حال صاحبة ومدى تعطيله وتأويله.

ويشبه هذا الصنيع الباطل تعطيل كلام الله ﷻ الدال على أوصافه وجحود المعاني التي دلت عليه، وهي وإن لم تكن كفرا أكبر بسبب التأويل والظن السيئ إلا أنها في حكم الكبائر، كما في قول المعتزلة والأشعرية عند إصرارهم على أن الاستواء في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝٥﴾ طه:٥. معناه الاستيلاء والقهر. وأن اليدين في قول الله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ۝٧٥﴾ ص:٧٥. هما القوة والقدرة دون إثبات صفة حقيقية غير معلومة الكيفية للبشر، لا يعلمها إلا الله، بل يزعمون أن ظواهر

النصوص القرآنية والنبوية جاء بالتشبيه والجسمية والمعاني الباطلة الكفرية، وأن النصوص الخبرية لا تفيد علما ولا هداية إلا إذا فهمت على طريقتهم في الجحود والتعطيل .

وقد بين ابن القيم رحمه الله أن الرسل من أولهم إلى خاتمهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أرسلوا بالدعوة إلى الله ﷻ، وبيان الطريق الموصل إليه، وبيان حال المدعوين بعد وصولهم إليه، فهذه القواعد الثلاث ضرورية في كل ملة على لسان كل رسول:

القاعدة الأولى: أنهم عرفوا الرب المدعو إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله تعريفا مفصلا، حتى كأن العباد يشاهدونه سبحانه، وينظرون إليه فوق سماواته على عرشه، يكلم ملائكته، ويدبر أمر مملكته، ويسمع أصوات خلقه، ويرى أفعالهم وحركاتهم، ويشاهد بواطنهم كما يشاهد ظواهرهم، يأمر وينهى، ويرضى ويغضب، ويحب ويسخط، ويضحك من قنوطهم، ويجيب دعوة مضطرهم، ويغيث ملهوفهم، ويعين محتاجهم، ويجبر كسيرهم، ويغني فقيرهم، ويميت ويحيي، ويمنع ويعطي، يؤتى الحكمة من يشاء، مالك الملك يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء، ويذل من يشاء بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، كل يوم هو في شأن، يغفر ذنبا ويفرج كربا، ويفك عانيا، وينصر مظلوما ويقصم ظالما، ويرحم مسكينا، ويغيث ملهوفا، ويسوق الأقدار إلى مواقيتها، ويجريها على نظامها، ويقدم ما يشاء تقديمه، ويؤخر ما يشاء تأخيره، فأزمة الأمور كلها بيده، ومدار تدبير الممالك كلها عليه، وهذا مقصود الدعوة، وزبدة الرسالة.

القاعدة الثانية: تعريفهم بالطريق الموصل إليه، وهو صراطه المستقيم الذي نصبه لرسله وأتباعهم، وهو امتثال أمره واجتناب نهيه والإيمان بوعده ووعيده.

القاعدة الثالثة: تعريف الحال بعد الوصول، وهو ما تضمنه اليوم الآخر من الجنة والنار، وما قبل ذلك من الحساب والحوض والميزان والصراط[1].

وكان جحود المعطلة والجهمية أن قعدت على رأس القاعدة الأولى، فحالوا بين القلوب وبين معرفة ربها، وسموا إثبات صفاته وعلوه فوق خلقه واستواءه على عرشه تشبيها وتجسيما وحشوا، فنفروا عنه صبيان العقول، وسموا نزوله إلى سماء الدنيا وتكلمه بمشيئته، ورضاه بعد غضبه، وغضبه بعد رضاه، وسمعه الحاضر لأصوات العباد، ورؤيته المقارنة لأفعالهم ونحو ذلك حوادث، وسموا وجهه الأعلى ويديه المبسوطتين، وأصابعه التي يضع عليها الخلائق يوم القيامة جوارح وأعضاء، مكرا منهم كُبارا بالناس، كمن يريد التنفير عن العسل فيمكر في العبارة، ويقول: مائع أصفر يشبه العذرة المائعة، أو ينفر عن شيء مستحسن فيسميه بأقبح الأسماء، فعل الماكر المخادع، فليس مع مخالف الرسل سوى المكر في القول والعمل.

ولما تم للمعطلة مكرهم، وسلك في القلوب المظلمة الجاهلة بحقائق الإيمان، وما جاء به الرسول ﷺ ترتب عليه الإعراض عن الله ﷻ، وعن ذكره ومحبته والثناء عليه بأوصاف كماله ونعوت جلاله، فانصرفت

(١) مدارج السالكين ٣/٣٤٩ بتصرف.

قوى حبها وشوقها وأنسها إلى سواه، وجاء أهل الآراء الفاسدة، والسياسات الباطلة، والأذواق المنحرفة، والعوائد المستمرة، فقعدوا على رأس هذا الصراط، وحالوا بين القلوب وبين الوصول إلى نبيها، وما كان عليه هو وأصحابه، وعابوا من خالفهم في قعودهم عن ذلك، ورغب عما اختاروه لأنفسهم، ورموه بما هم أولى به منه، كما قيل رمتني بدائها وانسلت، وجاء أصحاب الشهوات المفتونون بها، الذين يعدون حصولها كيف كان هو الظفر في هذه الحياة والبغية، فقعدوا على رأس طريق المعاد والاستعداد للجنة ولقاء الله ﷻ، وقالوا اليوم خمر وغدا أمر، اليوم لك ولا تدري غدا لك أو عليك، وقالوا لا نبيع ذرة منقودة بدرة موعودة[١].

ومن ثم إذا عطلت شواهد الصفات، ووضعت أعلامها عن القلوب، وطمست آثارها، وضربت بسياط البعد، وأسبل دونها حجاب معرفة الصفات والإقرار بها، منع المعطل حقيقة المحبة والإنابة، والتوكل ومقام الإحسان، وكيف تصمد القلوب إلى من ليس داخل العالم، ولا خارجه، ولا متصلا به، ولا منفصلا عنه، ولا مباينا له ولا محايثا، بل حظ العرش منه كحظ الآبار والحمامات والأماكن التي يرغب الإنسان عن ذكرها، وكيف تأله القلوب معبودا لا يسمع كلامها، ولا يرى مكانها، ولا يحِب ولا يحَب، ولا يقوم به فعل البتة، ولا يتكلم ولا يكلم، ولا يقرب من شيء، ولا يقرب منه شيء، ولا تقوم به رأفة ولا رحمة، ولا حنان ولا حكمة، ولا غاية يفعل ويأمر لأجلها، فكيف

(١) السابق ٣/٣٥٠ بتصرف.

يتصور على ذلك مع محبته والإنابة إليه والشوق إلى لقائه ورؤية وجهه الكريم في جنات النعيم وهو مستو على عرشه فوق جميع خلقه؟ أم كيف تأله القلوب من لا يحب ولا يحَب، ولا يرضى ولا يغضب، ولا يفرح ولا يضحك، فسبحان من حال بين المعطلة وبين محبته ومعرفته، والسرور والفرح به، والشوق إلى لقائه، وانتظار لذة النظر إلى وجهه الكريم، والتمتع بخطابه في محل كرامته ودار ثوابه، فلو رآها أهلا لذلك لمن عليها به، وأكرمها به، إذ ذاك أعظم كرامة يكرم بها عبده، والله ﷻ أعلم حيث يجعل كرامته، ويضع نعمته [1].

- **لا يكفر من أكره على كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان .**

من أُكْره على الكفر فأتى بكلمة الكفر لم يصر كافرا لقول الله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ﴾ النحل: ١٠٦.

قال ابن كثير: (أخبر تعالى عمن كفر به بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به أنه قد غَضب عليه، لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذابا عظيما في الدار الآخرة؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق، فطبع على قلوبهم فلا يعقلون بها شيئا ينفعهم وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون

---

(١) السابق ٣/٣٥١ بتصرف.

بها، ولا أغنت عنهم شيئا، فهم غافلون عما يراد بهم .. وأما قوله إِلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.. ولهذا اتفق العلماء على أنه يجوز أن يُوَالى المكرَه على الكفر إبقاءً لمهجته، ويجوز له أن يستقتل، كما كان بلال ﷺ يأبى عليهم ذلك وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى أنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدَّة الحر، ويأمرونه أن يشرك بالله فيأبى عليهم وهو يقول أحَد، أحَد. ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها، رضي الله عنه وأرضاه. وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع. فلم يزل يقطعه إربا إربًا وهو ثابت على ذلك) [1] .

وروى البيهقي من حديث محمد بن عَمَّارِ بن يَاسِرٍ عَن أَبيهِ أنه قال: (أَخَذَ الْمُشْرِكُون عَمَّارَ بن يَاسِرٍ فَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّى سَبَّ النبيَّ ﷺ وَذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بخَيْرٍ ثُمَّ تَرَكُوهُ فَلَمَّا أَتَى رَسُول اللهِ ﷺ قَال : مَا وَرَاءَكَ؟ قَال: شَرٌّ يَا رَسُول اللهِ مَا تُرِكْتُ حَتَّى نلتُ مِنكَ وَذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بخَيْرٍ. قَال: كَيْفَ تَجِدُ قَلبكَ؟ قَال: مُطْمَئِنا بالإِيمَان. قَال: إِن عَادُوا فَعُدْ) [2].

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ /٥٨٩.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٨٩/٢ وقال صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي، وابن جرير في تفسيره ٣٠٤/١٧، وانظر الدراية في تخريج أحاديث الهداية لابن حجر ١٩٧/٢.

وعند ابن ماجة وحسنه الشيخ الألباني من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ قال: (كَان أَوَّل مَن أَظْهَرَ إِسْلاَمَهُ سَبعَةٌ رَسُول اللهِ ﷺ وَأَبو بكْرٍ وَعَمَّارٌ وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ وَصُهَيْب وَبلاَل وَالمِقْدَادُ، فَأَمَّا رَسُول اللهِ ﷺ فَمَنَعَهُ اللهُ بعَمِّهِ أَبي طَالب، وَأَمَّا أَبو بكْرٍ فَمَنَعَهُ اللهُ بقَوْمِهِ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمُ المُشْرِكُون وَأَلبسُوهُمْ أَدْرَاعَ الحَدِيدِ، وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ؛ فَمَا مِنهُمْ مِن أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ وَاتَاهُمْ عَلى مَا أَرَادُوا إِلاَّ بلاَلا، فَإِنهُ قَدْ هَانتْ عَلَيْهِ نفْسُهُ فِي اللهِ، وَهَان عَلى قَوْمِهِ، فَأَخَذُوهُ فَأَعْطَوْهُ الوِلدَان؛ فَجَعَلوا يَطُوفُون بهِ فِي شِعَاب مَكَّةَ وَهُوَ يَقُول: أَحَدٌ أَحَدٌ) [(١)].

وورد عند ابن ماجه من حديث أبي ذر الغِفَارِيِّ ﷺ أن رَسُول اللهِ ﷺ: (إِن اللَّهَ تَجَاوَزَ عَن أُمَّتِي الخَطَأَ وَالنسْيَان، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ) [(٢)].

ولأن الكفر قول أكره عليه بغير حق فلم يثبت حكمه، كما لو أكره على الإقرار، وهذا أصل متفق عليه.

قال ابن تيمية: (مقارنة الفجّار إنما يفعلها المؤمن في موضعين، أحدهما أن يكون مكرها عليها، والثاني أن يكون ذلك في مصلحة دينيّة راجحة على مفسدة المقارنة، أو أن يكون في تركها مفسدةٌ راجحةٌ في دينه فيدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما وتحصل المصلحة الرّاجحة باحتمال المفسدة المرجوحة، وفي الحقيقة فالمكره هو

---

(١) رواه ابن ماجة في المقدمة، باب فضل سلمان وأبي ذر والمقداد ١/٥٣ (١٥٠)، وقال الألباني: حسن صحيح، انظر صحيح السيرة النبوية ص١٥٤.
(٢) رواه ابن ماجه في كتاب الطلاق، باب طلاق المكره والناسي ١/٦٥٩ (٢٠٤٣)، وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٦٢٨٤)، والإرواء (٨٢).

من يدفع الفساد الحاصل باحتمال أدناهما، وهو الأمر الذي أكره عليه، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ النحل:١٠٦. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ النور:٣٣. ثم قال: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ النور:٣٣. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ النساء:٩٧/٩٩.

وقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ النساء:٧٥) [1].

قال شيخ الإسلام: (والله سبحانه وتعالى جعل استحباب الدنيا على الآخرة هو الأصل الموجب للخسران واستحباب الدنيا على الآخرة قد يكون مع العلم والتصديق بأن الكفر يضر في الآخرة وبأنه ما له في الآخرة من خلاق وأيضا فإنه سبحانه استثنى المكره من الكفار ولو كان الكفر لا يكون إلا بتكذيب القلب وجهله لم يستثن منه المكره لأن الإكراه على ذلك ممتنع فعلم أن التكلم بالكفر كفر لا في حالة الإكراه، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ النحل:١٠٦. أي لاستحبابه الدنيا على الآخرة ومنه ما رواه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن

---

(١) مجموع الفتاوى ١٥/٣٢٥.

رسول الله ﷺ قال: (بادِرُوا بالأعْمَال فِتَنا كَقِطَعِ الليْل المُظْلم، يُصْبِحُ الرَّجُل مُؤْمِنا ويُمْسِي كَافِرا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنا ويُصْبحُ كَافِرا، يَبيعُ دِينهُ بعَرَضٍ مِن الدُّنيَا) [١] . والآية نزلت في عمار بن ياسر رضي الله عنه وبلال بن رباح رضي الله عنه وأمثالهما من المؤمنين المستضعفين لما أكرههم المشركون على سب النبي ونحو ذلك من كلمات الكفر فمنهم من أجاب بلسانه كعمار ومنهم من صبر على المحنة كبلال ولم يكره أحد منهم على خلاف ما في قلبه، بل أكرهوا على التكلم، فمن تكلم بدون الإكراه لم يتكلم إلا وصدره منشرح به) [٢] .

- **حكم من عطل شهادة التوحيد كأول واجب على العبيد.**

ذكر ابن تيمية في شأن من عطل شهادة التوحيد كأول واجب على العبيد مثل كلام أبي الفرج المقدسي الذي قال: فصل في أول ما أوجب الله على العبد المكلف وفي ذلك وجهان لأصحابنا، أحدهما أن أول ما أوجب الله على العبد معرفته. والثاني أن أول ما أوجب الله على العبد النظر والاستدلال المؤديان إلى معرفة الله تعالى.

ذكر ابن تيمية في تعليقه أن هذا الكلام وأمثاله يقوله كثير من أصحاب الأئمة الأربعة، ومعلوم أن الأئمة الأربعة ما قالوا لا هذا القول ولا هذا القول، وإنما قال ذلك من أتباعهم من سلك السبل المتقدمة والنبي ﷺ لم يدع أحدا من الخلق إلى النظر ابتداء ولا إلى مجرد إثبات

---

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن ١/١١٠ (١١٨) .

(٢) مجموع الفتاوى ٧/٥٦٠.

الصانع بل أول ما دعاهم إليه الشهادتان وبذلك أمر أصحابه كما قال في الحديث المتفق على صحته لمعاذ بن جبل ﷺ لما بعثه إلى اليمن: إنك تأتي قوما أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإن هم أطاعوا لك بذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم[١].

وكذلك سائر الأحاديث عن النبي ﷺ موافقة لهذا كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهما: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله. وفي حديث ابن عمر ﷺ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة[٢].

وهذا مما اتفق عليه أئمة الدين وعلماء المسلمين فإنهم مجمعون على ما علم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ أن كل كافر فإنه يدعى إلى الشهادتين سواء كان معطلا أو مشركا أو كتابيا، وبذلك يصير الكافر مسلما، ولا يصير مسلما بدون ذلك، كما قال أبو بكر بن المنذر: أجمع

---

(١) البخاري في الزكاة، باب وجوب الزكاة ٢/٥٠٥ (١٣٣١)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام ١/٥٠ (١٩).

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ١/١٧ (٢٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ١/٥٣ (٢٢).

كل من أحفظ عنه من أهل العلم على أن الكافر إذ قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وأن كل ما جاء به محمد حق وأبرأ إلى الله من كل دين يخالف دين الإسلام وهو بالغ صحيح يعقل أنه مسلم، فإن رجع بعد ذلك فأظهر الكفر كان مرتدا يجب عليه ما يجب على المرتد، لكن تنازعوا فيما إذا قال: أشهد أن محمدا رسول الله، هل يتضمن ذلك الشهادة بالتوحيد أو لا يتضمن؟ أو يفرق بين من يكون مقرا بالتوحيد ومن لا يكون مقرا على ثلاثة أقوال معروفة من مذهب أحمد وغيره من الفقهاء، ولهذا قال غير واحد ممن تكلم في أول الواجبات كالشيخ عبد القادر وغيره: أول واجب على الداخل في ديننا هو الشهادتان.

واتفق المسلمون على أن الصبي إذا بلغ مسلما لم يجب عليه عقب بلوغه تجديد الشهادتين، والقرآن العزيز ليس فيه أن النظر أول الواجبات، ولا فيه إيجاب النظر على كل أحد، وإنما في الأمر بالنظر لبعض الناس، وهذا موافق لقول من يقول إنه واجب على من لم يحصل له الإيمان إلا به، بل هو واجب على كل من لا يؤدي واجبا إلا به وهذا أصح الأقوال، فقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾الروم:٨. وهذا بعد قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ الروم:٦/٧.

ثم قال تعالى: أولم يتفكروا في أنفسهم. فالضمير عائد إلى الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون.

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ الأعراف:١٨٤/١٨٥. فهذا مذكور بعد قوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾ الأعراف:١٨٢/١٨٣. ثم قال: أولم يتفكروا ما بصاحبهم. فالضمير عائد إلى المكذبين فإنه قال تعالى: أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة. ثم قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ الأعراف:١٨٥. فقول هؤلاء كأبي المعالي وغيره: أول ما يجب على العاقل البالغ باستكمال سن البلوغ أو الحلم شرعا القصد إلى النظر الصحيح المفضي إلى العلم بحدث العالم. هو في الأصل من كلام المعتزلة وهو كلام مخالف لما أجمع عليه أئمة الدين ولما تواتر عن سيد المرسلين بل لما علم بالاضطرار من دينه.

وإذا قدر أن أول الواجبات هو النظر أو المعرفة أو الشهادتان أو ما قيل فهذا لا يجب على البالغ أن يفعله عقب البلوغ إلا إذا لم يكن قد فعله قبل البلوغ، فأما من فعل ذلك قبل البلوغ، فإنه لا يجب عليه فعله مرة ثانية لاسيما إذا كان النظر مستلزما للشك المنافي لما حصل له من المعرفة والإيمان، فيكون التقدير اكفر ثم آمن، واجهل ثم أعرف، وهذا كما أنه محرم في الشرع فهو ممتنع في العقل، فإن تكليف العالم الجهل من باب تكليف ما لا يقدر عليه، فإن الجاهل

يمكن أن يصير عالما، فإذا أمر بتحصيل العلم كان ممكنا، أما العالم فلا يقدر أن يصير جاهلا كما أن من رأى الشيء وسمعه لا يمكن أن يقال لا يعرفه، فمن كان الله ﷻ قد أنعم عليه وشرح صدره للإسلام قبل بلوغه فحصل له الإيمان المتضمن للمعرفة، لم يمكن أن يؤمر بما يناقض المعرفة من نظر ينافي المعرفة أو شك أو نحو ذلك، بل الأمر لمن حصل له علم ومعرفة أن يقدم ذلك ثم يحصله، مثل تكليف من حصل له قصد الصلاة ونيتها بأن يقدم ذلك ثم تحصل النية، وهذا مع أنه من باب الجهل والسفه والضلال، فهو من باب تكليف العباد ما يعجزون عنه، ولهذا يقال الوسوسة لا تكون إلا من خبل في العقل أو جهل بالشرع.

وقد اتفق الفقهاء على أن الصبي إذا تطهر قبل البلوغ لم يجب عليه إعادة الوضوء إذا بلغ، وكذلك لو كان عليه ديون فقضاها أو قضاها وليه، لم يجب عليه إعادة القضاء بعد البلوغ، بل لو صلى الفرض في أول الوقت ثم بلغ ففي إعادة الصلاة عليه نزاع معروف بين العلماء ومذهب الشافعي لا تجب الإعادة، وهو قول في مذهب أحمد ومن الناس من يضعف هذا القول ولعله أقوى من غيره، فإن النبي ﷺ لم يأمر أحدا من الصبيان بإعادة الصلاة مع العلم بأن كثيرا منهم يحتلم بالليل وقد صلى العشاء مع بقاء وقتها

والمقصود هنا أن السلف والأئمة متفقون على أن أول ما يؤمر به العباد الشهادتان ومتفقون على أن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر

بتجديد ذلك عقب البلوغ، والشهادة تتضمن الإقرار بالصانع تعالى وبرسوله ﷺ، لكن مجرد المعرفة بالصانع لا يصير به الرجل مؤمنا، بل ولا يصير مؤمنا بأن يعلم أنه رب كل شيء حتى يشهد أن لا إله إلا الله ولا يصير مؤمنا بذلك حتى يشهد أن محمدا رسول الله، ثم كون ما يجب من المعرفة لا يحصل إلا بالنظر أو يمكن حصوله بدونه؟ وهل أصل المعرفة فطرية ضرورية أو نظرية؟ أو يحصل بهذا تارة ولهذا تارة؟ والنظر المحصل لها: هل يتعين في طريق معين أو لا يتعين؟ هذه مسائل أخر، فمن ادعى أن المعرفة لا تحصل إلا بطريقة الأعراض والتركيب ونحو ذلك من الطرق المبتدعة التي للمعتزلة والمتفلسفة ومن وافقهم كان النزاع معه معنويا.

ونحن نعلم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ وسلف الأمة بطلان قول هؤلاء، وأن الرسول ﷺ لم يأمر أحدا بهذه الطرق، ولا علق إيمانه ومعرفته بالله بهذه الطرق، بل القرآن وصف من لم يسلك هذه الطرق بالعلم والإيمان، ولما ابتدع بعض هذه الطرق من ابتدعها أنكر ذلك سلف الأمة وأئمتها ووسموا هؤلاء بالبدعة والضلالة.

وهنا مسائل تكلم الفقهاء فيها كمن صلى ولم يتكلم بالشهادتين، أو أتى بغير ذلك من خصائص الإسلام ولم يتكلم بهما؟ والصحيح أنه يصير مسلما بكل ما هو من خصائص الإسلام.. وإذا خاطب الشارع الناس فإنما يأمر العبد ابتداء بما لم يؤده من الواجبات دون ما أداه، فلم يخاطب المشركين ابتداء بالمعرفة إذ كانوا مقرين بالصانع، وإنما

أمرهم بالشهادتين ولو لم يكونوا مقرين بالصانع؛ فإنه لم يأمرهم بإقرار مجرد عن الشهادتين، بل أمرهم بالشهادتين ابتداء، والشهادتان تتضمن المعرفة، فلو أقروا بالصانع وعرفوه من غير إقرار بالشهادتين لم يقبل ذلك منهم، ولم يخرجوا بذلك من الكفر، ولم يرتب خطابهم بذلك شيئا بعد شيء، بل خاطبهم بالجميع ابتداء.

وأول الواجبات الشرعية يختلف باختلاف أحوال الناس، فقد يجب على هذا ابتداء ما لا يجب على هذا ابتداء، فيخاطب الكافر عند بلوغه بالشهادتين، وذلك أول الواجبات الشرعية التي يؤمر بها، وأما المسلم فيخاطب بالطهارة إذا لم يكن متطهرا، وبالصلاة وغير ذلك من الواجبات الشرعية التي لم يفعلها.

وفي الجملة فينبغي أن يعلم أن ترتيب الواجبات في الشرع واحدا بعد واحد ليس هو أمرا يستوي فيه جميع الناس، بل هم متنوعون في ذلك، فكما أنه قد يجب على هذا ما لا يجب على هذا، فكذلك قد يؤمر هذا ابتداء بما لا يؤمر به هذا، فكما أن الزكاة يؤمر بها بعض الناس دون بعض، وكلهم يؤمر بالصلاة فهم مختلفون فيما يؤمرون به ابتداء من واجبات الصلاة، فمن كان يحسن الوضوء وقراءة الفاتحة ونحو ذلك من واجباتها أمر بفعل ذلك، ومن لم يحسن ذلك أمر بتعلمه ابتداء، ولا يكون أول ما يؤمر به هذا من أمور الصلاة هو أول ما يؤمر به هذا .

• نقد مقولة لا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه.

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: (ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه) [1].

لا يصح كلام الإمام الطحاوي على إطلاقه، بل الصواب أن يقال: يخرج العبد من الإيمان بكفر الجحود وغيره، أما حصر الكفر في الجحود فقط فمناقض للأصول القرآنية والنبوية، ومن ثم لا بد من توجيه كلام الإمام الطحاوي على مخرج مقبول ووجه معقول، وإن كانت العبارة التي ذكرها تحدث لا محالة تعارضا بين المعقول والمنقول، لأن معنى أن الإنسان لا يكفر إلا بالجحود، ولا يخرج من الإسلام إلا بجحود ما أدخله فيه، إنما هو نفي واضح لتأثير انتفاء بقية أركان الإيمان، وهي كفر الجهل والتكذيب الناشئ عن انتفاء علم القلب بالإعراض عن العلم وإيثار الجهل، وانتفاء كفر النفاق الناشئ عن انتفاء عمل القلب بالإعراض عن الإخلاص والحب، وانتفاء كفر العناد والاستكبار الناشئ عن انتفاء عمل الجوارح بالإعراض عن الخضوع لله والطاعة والانقياد.

وقد ربط الإمام الطحاوي كلامه في كفر الجحود بمعتقده في مسمى الإيمان، وهو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان، وجعل عمل الجوارح خارجا عن مسمى الإيمان، فمن ترك عمل الجوارح كله

(١) شرح الطحاوية لابن أبي العز ص٣٧٢ تحقيق الشيخ الألباني .

بإرادة وإصرار على الترك فلا يكون كافرا عند الإمام الطحاوي، وحقيقة الجحود هو انتفاء قول اللسان مع وجود علم القلب أو مع تصديقه المنفصل عن مقتضاه وهو عمل القلب، وقد أتى الإمام الطحاوي بصيغة الحصر، فقال: لا يخرج من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه، فلا يكون الكفر عنده إلا بانتفاء قول اللسان مع وجود العلم والتصديق، وهذا خطأ مخالف لقول أهل السنة والجماعة، فالإيمان لا يدل بالمطابقة عند أهل السنة على علم القلب فقط، أو على تصديق القلب على اعتبار حكم العقل على مقتضى العلم، فلا بد فيه من بقية الأركان التي تدخل الإنسان في مسمى الإيمان وهي عمل القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح والأبدان، فجميعها أركان ينتفي الإيمان بانتفاء أحدها انتفاء كاملا كما تقدم، فقد يكون الكفر الناقل عن الملة كفر جهل وتكذيب، وقد يكون كفر نفاق، وقد يكون كفر جحود، وقد يكون كفر عناد واستكبار، وجميعها يصح فيها المعنى العام للكفر، وهو كفر التولي والإعراض. وكل ذلك كما تقدم قد يكون مترددا بين الكفر الأكبر الناقل عن الملة والكفر الأصغر.

وقد بوب علماء المذاهب كالحنابلة والمالكية والشافعية والأحناف في كتب الفقه باب يسمونه باب حكم المرتد تناولوا فيه من كفر بعد إسلامه، وذكروا أن المرء يكفر بعد إسلامه قولا أو فعلا، ظاهرا أو باطنا فالكفر إذا ليس محصورا في جحود الشهادتين وإن كان مصدقا

بها في قلبه، فلو سجد للصنم أو الوثن أو الضريح كفر بهذا السجود، أو داس مصحفا بقدميه، أو لطخه بالنجاسة يكفر بهذا العمل، ولو لم يجحد بلسانه، كما أنه أيضا قد يكفر كفرا أكبر إذا دعا غير الله ﷻ، أو ذبح لغير الله، أو نذر لغير الله، أو دعا الأموات أو طلب منهم العون والمدد.

كذلك أيضا يكون الكفر بانتفاء التصديق وقيام التكذيب والشك، كما لو شك في ربوبية الله ﷻ، أو شك في إثبات اسم من أسماء الله التي أثبتها الله لنفسه أو في صفة من صفاته، أو شك في وجود الملائكة، أو شك في وجود الكتب المنزلة، أو شك في وجود الرسل، أو شك في وجود الجنة النار والبعث والصراط والحوض والميزان أو في يكفر بهذا الشك، كذلك أيضا يكون الكفر بالترك، والإعراض كما لو أعرض عن دين الله، لا يتعلم دين الله ﷻ ولا يعبد الله، كفر بهذا الإعراض.

وقد ذهب الأئمة الثلاثة مالك والشافعي وأحمد وجمهور أهل السنة والأوزاعي وإسحاق ابن راهويه وسائر أهل الحديث وأهل المدينة وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين، وهو قول الصحابة والتابعين والأئمة والعلماء إلى أن الإيمان تصديق بالقلب بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالجوارح، فالإيمان تصديق بالقلب ونطق باللسان وعمل بالقلب وعمل بالجوارح، أربعة أشياء.

قال الشيخ ابن باز رحمه الله في تعقيبه على كلام الإمام الطحاوي

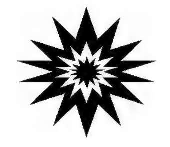
الذي تقدم: (هذا الحصر فيه نظر فإن الكافر يدخل في الإسلام بالشهادتين، إذا كان لا ينطق بهما، فإن كان ينطق بهما دخل الإسلام بالتوبة مما أوجب كفره، وقد يخرج من الإسلام بغير الجحود لأسباب كثيرة بينها أهل العلم في باب حكم المرتد من ذلك طعنه في الإسلام أو في النبيّ ﷺ أو استهزاؤه بالله ورسوله أو بكتابه أو بشيء من شرعه سبحانه لقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ التوبة:٦٥/٦٦.

ومن ذلك عبادته للأصنام أو الأوثان أو دعوته الأموات والاستغاثة بهم وطلبه منهم المدد والعون ونحو ذلك؛ لأن هذا يناقض قول لا إله إلا الله لأنها تدل على أن العِبادة حق لله وحده، ومنها الدعاء والاستغاثة والركوع والسجود والذبح والنذر ونحو ذلك، فمن صرف منها شيئا لغير الله من الأصنام والأوثان والملائكة والجن وأصحاب القبور وغيرهم من المخلوقين فقد أشرك بالله، ولم يحقق قول لا إله إلا الله، وهذه المسائل كلها تخرجه من الإسلام بإجماع أهل العلم، وهي ليست من مسائل الجحود، وأدلتها معلومة من الكتاب والسّنة، وهناك مسائل أخرى كثيرة يكفر بها المسلم وهي لا تسمى جحودا، وقد ذكرها العلماء في باب حكمِ المرتدّ) (١).

وقد يحمل كلام الإمام الطحاوي على أن من دخل في الإيمان بيقين فإنه لا يخرج منه إلا بيقين مماثل، وأن أهل السنة والجماعة خالفوا

(١) مجموع فتاوى ابن باز ٨٣/٢ .

الخوارج والمعتزلة الذين يوجبون للعبد النّار، ومعلوم أن الخوارج يكفِّرون بالذنوب، فبين أن أعظم المسائل التي يتّضِح فيها الخروج من الإيمان هو الجحود، وأن هذا الحصر في كلامه ليس مرادا لذاته، وأنه لا ينفي الحكم بالردة والتكفير بأمور أخرى مثل النفاق والجهل والإعراض أو الشك أو بغير ذلك مما يحكم على من أتى به، وإن كنت أرى أن قوله في مسمى الإيمان لا يؤيد هذا الاعتذار، ولو كانت العبارة بخلاف ما قال لكانت أبعد عن اللبس والقيل والقال.



المطلب الثالث والعشرون

عمل الجوارح وموقعه في مسمى الإيمان وعلاقته بعمل القلب في الإنسان



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا فيما سبق عن أثر انتفاء قول اللسان في وجود كفر الجحود، وتنوع درجاته المتعلقة بكتمان الحق، وعلمنا معنى الجحود في المعاني اللغوية والأصول القرآنية والنبوية، وبينا أركان كفر الجحود الأكبر المخرج للإنسان عن الملة، وضربنا أمثلة لكفر الجحود الأكبر المخرج من الملة ككفر اليهود وكفر فرعون وهرقل وأبي طالب وأغلب قريش، وقد بينا أيضا انتفاء قول اللسان بسب الدين، أو سب الله، أو سب رسوله ﷺ.

وقد علمنا أن كفر الجحود يتردد بين الكفر الأكبر والكفر الأصغر، وبينا كيف يكون التعطيل جحودا مترددا بين الكفر الأكبر والأصغر؟ وأنه لا يكفر من أكره على كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، كما تحدثنا عن حكم من عطل شهادة التوحيد كأول واجب على العبيد، وبينا نقد مقولة الإمام الطحاوي لا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن عمل الجوارح وموقعه في مسمى الإيمان، وعلاقته بعمل القلب في الإنسان.

- **الأدلة القرآنية على أن الإيمان يدل على عمل الجوارح بالتضمن.**

ذكر ابن تيمية أن القلب إذا كان صالحا بما فيه من الإيمان علما وعملا قلبيا، لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق، كما قال أئمة أهل الحديث: قول وعمل، قول باطن وظاهر، وعمل باطن وظاهر، والظاهر تابع للباطن لازم له، متى صلح الباطن صلح الظاهر وإذا فسد فسد؛ ولهذا قال من قال من الصحابة عن المصلي العابث: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه[1].. ومن هنا يظهر خطأ قول جهم بن صفوان ومن اتبعه، حيث ظنوا أن الإيمان مجرد تصديق القلب وعلمه، لم يجعلوا أعمال القلب من الإيمان، وظنوا أنه قد يكون الإنسان مؤمنا كامل الإيمان بقلبه، وهو مع هذا يسب الله ورسوله، ويعادي الله ورسوله، ويعادي أولياء الله، ويوالي أعداء الله، ويقتل الأنبياء، ويهدم المساجد، ويهين المصاحف، ويكرم الكفار غاية الكرامة، ويهين المؤمنين غاية الإهانة [2].

وقد بينت أدلة الكتاب والسنة أن العمل من الإيمان، وداخل في مسماه، وهو جزء منه، يدل عليه الإيمان بالتضمن، ويدل الإيمان

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٨٦/٢ (٦٧٨٧) من قول سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى، انظر إرواء الغليل للألباني ٩٢/٢ (٣٧٣).
(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٨٨/٧.

بالمطابقة على علم القلب، وعمل القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح، وجمع الشعب من الإيمان، وقد بين النبي ﷺ أنه بضع وسبعون شعبة، أعلاها شهادة ألا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق(١).

ومن أدلة القرآن على أن العمل من الإيمان:

١- قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ الأنفال:٢/٤ . بين الله تعالى أن المؤمنين حقا هم الذين حققوا أعمال الإيمان بتصديق خبره وتنفيذ أمره، فوجلت قلوبهم خشية لربهم عند ذكره، وازدادوا إيمانا عند سماعهم لقوله، ونفذوا أمره بالقلب وقول اللسان وعمل الجوارح فأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وهم على تنفذ ما أمر به الله ﷻ، فالأعمال دل عليها اسم الإيمان بالتضمن وهي داخلة في مسماه.

٢- قوله سبحانه تعالى في وصف المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ الحجرات:١٥. فأخبر أن الصادق في إيمانه، هو الذي آمن بالله ورسوله ﷺ دون شك أو ريب ينفي تصديق القلب بخبر الرب، ونفذ الأمر بعمل القلب وقول اللسان وعمل الجوارح تنفيذا يقدم ماله ونفسه جهادا في سبيل الله وطلبا لرضاه، فمن أتى بتصديق

(١) مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان ١/٦٣ (٣٥).

القلب بخبر الرب ونفذ الأمر بالعمل الظاهر والإخلاص الباطن تنفيذا كاملا فهو الصادق في إيمانه من درجة المقتصدين أو المقربين السابقين، ومن أخرج العمل وقال أصدق خبرك يا رب بلا شك ولا ريب، ولن أنفذ أمرك أيا كان، مهما وضعت من عقاب في الدنيا أو عذاب في النيران، فهذا كاذب في دعواه أنه آمن بالله، ولا يكون مؤمنا أبدا.

لكن لو قال أنت معبودي بحق أصدق خبرك بلا ريب ولا شك وأنفذ أمرك تنفيذا كاملا، ثم قصر مرة في تنفيذ الأمر وأداء الواجب والفرض، وعاد لأدائه مرة أخرى مقرا بذنبه وتقصيره، فهذا صادق في إيمانه، وصدقه على قدر طاعته لربه، وكفره على قدر عصيانه وذنبه، ولا يخرجه ذلك من الإيمان، فهو من درجة الظالمين لأنفسهم ممن أورثوا الكتاب.

٣- قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣)﴾البقرة:١٤٣. ولم يختلف أحد من المفسرين بأن المراد من ضياع الإيمان في الآية هو ضياع العمل، وهو صلاتهم إلى بيت المقدس فسمى الصلاة إيمانا، ولو لم تكن ركنا من الإيمان وجزءا منه؛ لما صح تسميتها إيمانا؛ فدل ذلك على أن العمل ركن من أركان الإيمان.

٤- وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ

ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ النساء:٦٤/٦٥.

وقد روى البخاري من حديث عُرْوَةَ بْن الزُّبَيرِ ﷺ أَن رَجُلا مِن الأَنصَارِ خَاصَمَ الزُّبَيرَ ﷺ فِي شِرَاج مِن الحَرَّةِ، يسْقِي بِهَا النخْل، فَقَال رَسُول اللهِ ﷺ: اسْقِ يا زُبَيرُ، فَأَمَرَهُ بِالمَعْرُوفِ ثمَّ أَرْسِل إلى جَارِكَ، فقَال الأَنصَارِي: أَن كَانَ ابْن عَمَّتِك، فَتلوَّن وَجْهُ رَسُول اللهِ ﷺ، ثمَّ قَال: اسْقِ ثمَّ احْبِسْ يرْجِعَ المَاءُ إلى الجَدْرِ، واسْتَوْعَى لهُ حَقَّهُ، فَقَال الزُّبَيرُ: وَاللهِ إن هَذهِ الآيةَ أُنزِلتْ فِي ذلكَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ النساء:٦٥ (١).

٥- وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ المؤمنون:١/ ١١. أخبر سبحانه وتعالى أن هؤلاء هم الذين يرثون فردوس الجنة، وذلك يقتضي أنه لا يرثها

(١) رواه البخاري في كتاب المساقاة، باب شرب الأعلى إلى الكعبين ٢/٨٣٢ (٢٢٣٣)، ومسلم في كتاب الفضائل، باب وجوب اتباعه ٤/١٨٢٩ (٢٣٥٧).

غيرهم، وقد دل هذا على وجوب هذه الخصال، إذ لو كان فيها ما هو مستحب لكانت جنة الفردوس تورث بدونها، لأن الجنة تنال بفعل الواجبات دون المستحبات، ولهذا لم يذكر في هذه الخصال إلا ما هو واجب(١).

٦- وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ البقرة:١٧٧.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فلفظ الإيمان إذا أطلق في القرآن والسنة يراد به ما يراد بلفظ البر، وبلفظ التقوى، وبلفظ الدين كما تقدم؛ فإن النبي ﷺ بين أن الإيمان بضعٌ وسبعون شعبةً أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، فكان كل ما يحبه الله يدخل في اسم الإيمان وكذلك لفظ البر يدخل فيه جميع ذلك إذا أطلق، وكذلك لفظ التقوى، وكذلك الدين أو دين الإسلام، وكذلك روي أنهم سألوا عن الإيمان فأنزل الله هذه الآية: ليس البر أن تولوا وجوهكم الآية، وقد فسر البر بالإيمان وفسر بالتقوى، وفسر بالعمل الذي يقرب إلى الله، والجميع حق) (٢).

(١) القواعد النورانية الفقهية لابن تيمية ص٤٣ بتصرف.
(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٧٩/٧.

• **الأدلة من السنة النبوية على أن العمل داخل في مسمى الإيمان.**

١- ورد في الصحيحين من حديث ابن عباس ﷺ أنه قال: (إِنَّ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ لَمّا أَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: مَنِ الْقَوْمُ أَوْ مَنِ الْوَفْدُ قَالُوا: رَبِيعَةَ قَالَ: مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ أَوْ بِالْوَفْدِ غَيْرَ خَزايا ولاَ نَدَامَى فَقالُوا: يا رَسُولَ اللهِ إِنَّا لاَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَكَ إلاَّ فِي الشَّهْرِ الْحَرامِ، وَبَيْنَنا وَبَيْنَكَ هَذا الْحَيُّ مِنْ كُفَّارِ مُضَرَ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ فَصْلٍ نُخْبِرْ بِهِ مَنْ وَرَاءَنا وَنَدْخُلْ بِهِ الْجَنَّةَ وَسَأَلُوهُ عَنِ الأَشْرِبَةِ فَأَمَرَهُمْ بِأَرْبَعٍ وَنَهاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: أَمَرَهُمْ بِالإِيمان بِاللهِ وَحْدَهُ، قَالَ: أَتَدْرُونَ مَا الإِيمانُ بِاللهِ وَحْدَهُ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: شَهادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقامُ الصَّلاةِ وَإِيتاءُ الزَّكاةِ وَصِيامُ رَمَضَانَ وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمغنَمِ الْخُمُسَ وَنَهاهُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنِ الْحَنْتَمِ وَالدُّبَّاءِ وَالنَّقِيرِ وَالْمُزَفَّتِ وَرُبَّما قَالَ الْمُقَيَّرِ وقالَ: احْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَراءَكُمْ) (١). والشاهد أن النبي ﷺ فسر الإيمان بقول اللسان، وهو شهادة ألا إله إلا الله، وكذلك أعمال الجوارح المبنية على عمل القلب ولزوم النية، وهي الصلاة والزكاة والصوم والحج، فدل ذلك على أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان وجزء منه.

٢- ما رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ قال: (مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ) (٢).

---

(١) البخاري في الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان ١/٢٩ (٥٣)، ومسلم في الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه ١/٤٧ (١٧).

(٢) مسلم في الإيمان، باب بيان كون النهى عن المنكر من الإيمان ١/٦٩ (٤٩).

وقد ارتبط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمقدار سلامة القدرة في أعمال الجوارح والاستطاعة التي منحها الله ﷻ للإنسان، فإن استطاع المسلم تغيير المنكر باليد كان ذلك هو الواجب في حقه، فإن كان عاجزا عن التغيير باليد، وكان بمقدوره النهي باللسان كان ذلك هو الواجب عليه، وإن كان عاجزا عن التغيير باللسان غير المكان، وانصرف عن المنكر إظهارا لما وجب عليه من عمل القلب وكراهية المنكر وإنكاره، وهذا في مقدور كل إنسان سوي ولا يسعه تركه، فقوة الإيمان من حيث الضعف والزيادة أو النقصان، قد تكون في كل ركن من أركان الإيمان، وقد تكون بتكامل أركان الإيمان معا.

٣- وروى مسلم من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إلا كَانَ لهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ، وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثمَّ إِنَّهَا تَخْلفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلوفٌ، يَقُولونَ مَا لا يَفْعَلونَ، وَيَفْعَلونَ مَا لا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَليْسَ وَرَاءَ ذلكَ مِنْ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَل)[1].

فجعل جهادهم على درجات عملية أدناها مفارقتهم بالأبدان، وليس البقاء معهم ومشاركتهم إيمان، فمن الإيمان أن يلقى الرجلُ الرجلَ فينهاه عن المنكر، ويقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، وليس من الإيمان أن يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، ولذلك قال الله تعالى فيمن آثر البقاء معهم

(١) رواه مسلم في الموضع السابق ١/٦٩ (٥٠).

على المنكر أو الإقامة بين المشركين والكافرين والظالمين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ النساء:٩٧/٩٩.

وقال الله تعالى في وصف اليهود: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ المائدة:٧٨/٨١.

وقد روى الترمذي وصححه، وصححه الألباني أن أبا بكر الصديق ﷺ قال بعد أن حَمِدَ اللهَ ﷻ وأثنى عليه: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا: وَإِنَّا سَمِعْنَا النَّبِيَّ ﷺ يَقُول: إِنَّ النَّاسَ إذا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذوا عَلَى يَدَيْهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللهُ بِعِقَاب)[1]. وفي رواية ابن حبان: (إن الناس إذا رأوا

(١) الترمذي في تفسير القران، باب ومن سورة المائدة ٥/٢٥٦ (٣٠٥٧)، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، وانظر صحيح الجامع (١٩٧٣)، وصحيح الترغيب والترهيب (٢٣١٧).

منكرا، فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه) (١).

٤- وعند الترمذي وصححه الألباني عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: (صَعد رَسُول الله ﷺ المنبرَ، فنادي بصَوت رَفِيع، فَقال: يا معشرَ من أَسْلم بلسَانه ولم يفْضِ الإِيمان إِلى قَلبه، لا تؤْذوا المسْلمين، ولا تعيرُوهم، ولا تتبعوا عوراَتهم، فَإِنه من تتبع عورَة أَخِيه المسْلم تتبع الله عورَته، ومن تتبع الله عورَته يفْضَحْه ولو فِي جوفِ رَحْله) (٢).

والشاهد أن الإيمان الذي عناه النبي ﷺ ودعا إليه يدل بالتضمن على العمل، وأن العمل جزء من مسماه، وأنه لابد فيه من سلامة المسلمين من أذاه، سواء كان المتسبب في الأذى لسانه أو يداه .

٥- روى مسلم في صحيحه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي ﷺ أنه قال: (قُلت: يا رَسُول اللهِ، قُل لي فِي الإِسْلاَمِ قَوْلاً لاَ أَسْأَل عَنْهُ أَحَدا بعْدكَ؟ وَفِى حَديث أَبِى أُسَامَةَ، غَيرَكَ، قَال: قُل آمَنْت باللهِ فَاسْتقِمْ) (٣). وأصل الاستقامة الاعتدال على الطريق الذي رسمه النبي ﷺ لأصحابه في خط مستقيم، ولا يكون الاعتدال إلا بشمولية الإيمان بكل ما ورد عن الله ورسوله ﷺ من أخبار، والانقياد بعمل القلب واللسان والجوارح لكل ما جاء عنهما من تشريعات وأوامر.

---

(١) رواه ابن حبان في كتاب البر والإحسان، باب الصدق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١/٥٤٠ (٣٠٥)، وقال الأرنئوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٢) رواه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن ٤/٣٧٨ (٢٠٣٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٣٣٩).

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام ١/٦٥ (٣٨).

وقد روى الإمام أحمد وصححه الشيخ الألباني من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: (خَطَّ لنَا رَسُول اللهِ ﷺ خَطّا ثمَّ قَال: هَذَا سَبيل اللهِ، ثمَّ خَطَّ خُطُوطاً عَنْ يمينِهِ وَعَنْ شِمَاله، ثمَّ قَال: هَذهِ سُبل عَلى كُل سَبيل مِنْهَا شيطَانٌ يدعُو إِليهِ، ثمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الأنعام:١٥٣)[1].

- كلام السلف في أن العمل ركن داخل في مسمى الإيمان.

يقوم اعتقاد السلف ومن سار على نهجهم على أن العمل ركن أو جزء داخل في مسمى الإيمان، ولا يستقيم الإيمان إلا به، وأغلب عباراتهم التي التزموا بها أن العمل من الإيمان، ولم يستحدثوا المصطلح الدارج في عصرنا والذي تردد على ألسنة الكثيرين بأن العمل شرط صحة، أو العمل شرط كمال، وإنما يذكرون أن العمل من الإيمان، بل انعقد الإجماع من قبل جماعة من الأئمة حكوا الإجماع على أن الإيمان بلا عمل لا يصح، وسوف نذكر ما تيسر من أقوالهم مرتبة ترتيبا زمنيا منذ عصر السلف الصالح وما تلاه على النحو التالي:

١- روى ابن عساكر عن فرات بن سليمان أنه قال: انتهينا مع ميمون بن مهران (ت:١١٧هـ) إلى دير القائم فنظر إلى الراهب فقال لأصحابه: فيكم من بلغ من العبادة ما بلغ هذا الراهب؟ قالوا: لا. قال: فما ينفعه ذلك ولم يؤمن بمحمد ﷺ. قالوا: لا ينفعه شيء. قال: كذلك

(١) رواه أحمد في المسند ١/٤٣٥ (٤١٤٢)، وحسنه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح، كتاب الإيمان، باب الاعتصام بالكتاب والسنة (١٦٦).

لا ينفع قول إلا بعمل) [١].

٢- قال الأوزاعي (ت:١٥٧هـ): (لا يستقيم الإيمان إلا بالقول، ولا يستقيم الإيمان والقول إلا بالعمل، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بنية موافقة للسنة، وكان من مضى من سلفنا لا يفرقون بين الإيمان والعمل، والعمل من الإيمان، والإيمان من العمل.. فمن آمن بلسانه، وعرف بقلبه، وصدق بعمله، فتلك العروة الوثقى التي لا انفصام لها، ومن قال بلسانه ولم يعرف بقلبه ولم يصدقه بعمله لم يقبل منه، وكان في الآخرة من الخاسرين) [٢].

٣- وقال سفيان الثوري (ت:١٦١هـ): (كان الفقهاء يقولون: لا يستقيم قول إلا بعمل، ولا تقيم قول وعمل إلا بنية، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة)[٣]. وقال أيضا: (أهل السنة يقولون الإيمان قول وعمل، مخافة أن يزكوا أنفسهم، لا يجوز عمل إلا بإيمان، ولا إيمان إلا بعمل، فإن قال من إمامك في هذا؟ فقل سفيان الثوري)[٤]. وقال أيضا: (الإيمان قول وعمل ونية، يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ولا يجوز أو لا يقبل القول إلا

---

(١) تاريخ دمشق ٣٥٠/٦١ ، ودير القائم على شاطئ الفرات من الجانب الغربي في طريق الرقة من بغداد.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ٨٨٦/٥.

(٣) حلية الأولياء لأبي نعيم ٣٢/٧.

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ٩٨٠/٥، والاعتصام للشاطبي ٨٤/١.

بالعمل، ولا يجوز القول والعمل إلا بالنية، ولا يجوز القول والعمل والنية إلا بموافقة للسنة)[١].

٤- وقال سفيان بن عيينة (ت:١٩٨هـ): (الإيمان قول وعمل، قال: أخذناه ممن قبلنا قول وعمل، وأنه لا يكون قول إلا بعمل)[٢].

٥- وقال الإمام الشافعي رحمه الله (ت:٢٠٤هـ): (وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ممن أدركناهم أن الإيمان قول وعمل ونية، لا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر) [٣].

٦- وقال الحميدي (ت:٢١٩هـ): (أخبرت أن ناسا يقولون من أقر بالصلاة والزكاة والصوم والحج ولم يفعل من ذلك شيئا حتى يموت، أو يصلي مستدبر القبلة حتى يموت، فهو مؤمن ما لم يكن جاحدا.. فقلت: هذا الكفر الصراح، وخلاف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعلماء المسلمين. قال الله جل وعز: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ البينة:٥. قال حنبل: سمعت أبا عبد الله يعني أحمد بن حنبل يقول: من قال هذا فقد كفر بالله، ورد على الله أمره، وعلى الرسول ﷺ ما جاء به)[٤].

٧- وقال أبو عبيد القاسم بن سلام (ت:٢٢٤هـ): (لم يجعل الله

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم ٣٢/٧، شرح اعتقاد أهل السنة للالكائي ١٥١/١.
(٢) السنة لعبد الله بن أحمد ٣٤٦/١، والشريعة للآجري ٦٠٤/٢.
(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣٠٨/٧.
(٤) السنة للخلال ٥٨٦/٣، شرح أصول الاعتقاد للالكائي ٨٨٧/٥.

للإيمان حقيقة إلا بالعمل على هذه الشروط، والذي يزعم أنه بالقول خاصة يجعله مؤمنا حقا، وإن لم يكن هناك عمل فهو معاند لكتاب الله والسنة... أفلست تراه تبارك وتعالى، قد امتحنهم بتصديق القول بالفعل؟ ولم يرض منهم بالإقرار دون العمل؟ حتى جعل أحدهما من الآخر، فأي شيء يتبع بعد كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومنهاج السلف بعده الذين هم موضع القدوة والإمامة؟!.. فالأمر الذي عليه السنة عندنا ما نص عليه علماؤنا مما اقتصصنا في كتابنا هذا أن الإيمان بالنية والقول والعمل جميعا)[١].

٨- قال الإمام أحمد (ت:٢٤١هـ): (الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، إذا عملت الحسن زاد، وإذا ضيعت نقص، الإيمان لا يكون إلا بعمل) [٢]. وقال عندما ذكرت عنده المرجئة وقيل له: إنهم يقولون إذا عرف الرجل ربه بقلبه فهو مؤمن فقال: (المرجئة لا تقول هذا، بل الجهمية تقول بهذا، المرجئة تقول: حتى يتكلم بلسانه وإن لم تعمل جوارحه، والجهمية تقول إذا عرف ربه بقلبه وإن لم تعمل جوارحه، وهذا كفر إبليس قد عرف ربه فقال: رب بما أغويتني) [٣].

٩- قال أبو جعفر الطبري (ت:٣١٠هـ): (إذا كان الإيمان في كلام العرب التصديق، والتصديق يكون بالقلب واللسان والجوارح وكان تصديق القلب العزم والإذعان، وتصديق اللسان الإقرار، وتصديق

---

(١) شرح رسالة الإيمان للإمام أبي عبيد القاسم بن سلام ص ٦٥.

(٢) السنة للخلال ٣/٥٨٢.

(٣) السابق ٣/٥٧١.

الجوارح السعي والعمل كان المعنى الذي به يستحق العبد المدح والولاية من المؤمنين، هو إتيانه بهذه المعاني الثلاثة، وذلك أنه لا خلاف بين الجميع أنه لو أقر، وعمل على غير علم منه ومعرفة بربه، أنه لا يستحق اسم مؤمن وأنه لو عرف وعلم وجحد بلسانه، وكذب وأنكر ما عرف من توحيد ربه، أنه غير مستحق اسم مؤمن فإذا كان ذلك كذلك، وكان صحيحا أنه غير مستحق غير المقر اسم مؤمن، ولا المقر غير العارف مستحق ذلك كان كذلك غير مستحق ذلك بالإطلاق، العارف المقر غير العامل، إذ كان ذلك أحد معاني الإيمان التي بوجود جميعها في الإنسان يستحق اسم مؤمن بالإطلاق)[1].

١٠- ذكر الإمام الآجري (ت:٣٦٠هـ) بابا في القول بأن الإيمان تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح، وبين فيه أن الذي عليه علماء المسلمين أن الإيمان واجب على جميع الخلق، وهو تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح، وأنه لا تجزئ المعرفة بالقلب والتصديق إلا أن يكون معه الإيمان باللسان نطقا، ولا تجزئ معرفة بالقلب ونطق باللسان حتى يكون عمل بالجوارح، فإذا كملت فيه هذه الخصال الثلاث كان مؤمنا[2].

ثم قال رحمه الله: (فالأعمال رحمكم الله تعالى بالجوارح تصديق عن الإيمان بالقلب واللسان، فمن لم يصدق الإيمان بعمله وبجوارحه مثل

(١) تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري ٢/٦٨٥، تحقيق محمود محمد شاكر مطبعة المدني القاهرة.

(٢) كتاب الشريعة للآجري ٢/٦١١.

الطهارة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد، وأشباه لهذه، ورضي من نفسه بالمعرفة والقول لم يكن مؤمنا، ولم ينفعه المعرفة والقول، وكان تركه للعمل تكذيبا منه لإيمانه، وكان العمل بما ذكرناه تصديقا منه لإيمانه، وبالله التوفيق)[١].

وقال أيضا: (بل نقول والحمد لله قولا يوافق الكتاب والسنة وعلماء المسلمين الذين لا يستوحش من ذكرهم، وقد تقدم ذكرنا لهم إن الإيمان معرفة بالقلب تصديقا يقينا، وقول باللسان، وعمل بالجوارح، لا يكون مؤمنا إلا بهذه الثلاثة، لا يجزئ بعضها عن بعض، والحمد لله على ذلك) [٢].

وقال: (إني قد تصفحت القرآن فوجدت ما ذكرته في شبيه من خمسين موضعا من كتاب الله تعالى، أن الله تبارك وتعالى لم يدخل المؤمنين الجنة بالإيمان وحده، بل أدخلهم الجنة برحمته إياهم، وبما وفقهم له من الإيمان والعمل الصالح ... ميِّزوا رحمكم الله قول مولاكم الكريم، هل ذكر الإيمان في موضع واحد من القرآن إلا وقد قرن إليه العمل الصالح؟)[٣].

١١- وقال الحافظ أبو محمد ابن أبي زيد القيرواني (ت:٣٨٦هـ): (الإيمان قول باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح، يزيد ذلك

---

(١) كتاب الشريعة للآجري ٢/٦١٤.

(٢) السابق ٢/٦٨٦ .

(٣) السابق ٢/٦١٩، ٦٣٢.

بالطاعة، وينقص بالمعصية، نقصا عن حقائق الكمال لا محبط للإيمان، ولا قول إلا بعمل، ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بموافقة السنة) [١] .

١٢- وقال أبو طالب المكي (ت:٣٨٦هـ): (وأيضا الأمة مجتمعة أن العبد لو آمن بجميع ما ذكره من عقود القلب في حديث جبريل من وصف الإيمان ولم يعمل بما ذكره من وصف الإسلام أنه لا يسمى مؤمنا، وأنه إن عمل بجميع ما وصف به الإسلام، ثم لم يعتقد ما وصفه من الإيمان أنه لا يكون مسلما، وقد أخبرنا النبي ﷺ أن أمته لا تجتمع على ضلالة) [٢]. وقال: (لا إيمان إلا بعمل، ولا عمل إلا بعقد، ومثل ذلك مثل العمل الظاهر والباطن، أحدهما مرتبط بصاحبه من أعمال القلوب وعمل الجوارح، ومثله قول رسول الله ﷺ: إنما الأعمال بالنيات؛ أي لا عمل إلا بعقد وقصد، لأن إنما تحقيق للشيء ونفي لما سواه، فأثبت بذلك عمل الجوارح من المعاملات وعمل القلوب من النيات، فمثل العمل من الإيمان كمثل الشفتين من اللسان لا يصح الكلام إلا بهما؛ لأن الشفتين تجمع الحروف واللسان يظهر الكلام، وفي سقوط أحدهما بطلان الكلام، وكذلك في سقوط العمل ذهاب الإيمان) [٣].

١٣- وقال ابن بطة العكبري (ت:٣٨٧هـ): (فقد تلوت عليكم من

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم ص٨٤.

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٧/٣٣٦ .

(٢) السابق ٧/٣٣٤.

كتاب الله ﷻ ما يدل العقلاء من المؤمنين أن الإيمان قول وعمل، وأن من صدق بالقول وترك العمل كان مكذبا وخارجا من الإيمان، وأن الله لا يقبل قولا إلا بعمل، ولا عملا إلا بقول) [(١)].

وقال: في باب بيان الإيمان وفرضه وأنه تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح والحركات: (لا يكون العبد مؤمنا إلا بهذه الثلاث اعلموا رحمكم الله أن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه فرض على القلب المعرفة به والتصديق له ولرسله ولكتبه وبكل ما جاءت به السنة، وعلى الألسن النطق بذلك والإقرار به قولا، وعلى الأبدان والجوارح العمل بكل ما أمر به وفرضه من الأعمال، لا تجزئ واحدة من هذه إلا بصاحبتها، ولا يكون العبد مؤمنا إلا بأن يجمعها كلها حتى يكون مؤمنا بقلبه مقرا بلسانه عاملا مجتهدا بجوارحه، ثم لا يكون أيضا مع ذلك مؤمنا حتى يكون موافقا للسنة في كل ما يقوله ويعمله، متبعا للكتاب والعلم في جميع أقواله وأعماله. وبكل ما شرحته لكم نزل به القرآن ومضت به السنة وأجمع عليه علماء الأمة... حتى صار اسم الإيمان مشتملا على المعاني الثلاثة، لا ينفصل بعضها من بعض، ولا ينفع بعضها دون بعض، حتى صار الإيمان قولا باللسان وعملا بالجوارح ومعرفة بالقلب، خلافا لقول المرجئة الضالة الذين زاغت قلوبهم وتلاعبت الشياطين بعقولهم)[(٢)].

وقال: (فقد أخبر الله تعالى في كتابه في آي كثيرة منه أن هذا الإيمان

---

(١) الإبانة ابن بطة ٢/٧٩٥.

(٢) السابق ٢/٧٦٠، ٢/٧٧٩.

لا يكون إلا بالعمل وأداء الفرائض بالقلوب والجوارح، وبين ذلك رسول الله ﷺ وشرحه في سنته وأعلمه أمته، وكان مما قال الله تعالى في كتابه مما أعلمنا أن الإيمان هو العمل، وأن العمل من الإيمان، ما قاله في سورة البقرة: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ البقرة:١٧٧ . فانتظمت هذه الآية أوصاف الإيمان وشرائطه من القول والعمل والإخلاص) [١].

١٤- وقال البغوي (ت: ٥١٠هـ): (والتصديق والعمل يتناولهما اسم الإيمان والإسلام جميعا، ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى: إن الدين عند الله الإسلام. ورضيت لكم الإسلام دينا. ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه، فأخبر أن الدين الذي رضيه ويقبله من عباده هو الإسلام، ولن يكون الدّين في محل القبول والرضا إلا بانضمام التصديق إلى العمل) [٢].

١٥- وذكر ابن كثير(٧٧٤) أن الإيمان هو تصديق القول بالعمل، وهو كلمة جامعة للإيمان بالله وكتبه ورسله، وتصديق الإقرار بالفعل ثم قال: (أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض، وقد يستعمل في القرآن والمراد به ذلك كما قال تعالى: يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين،

---

(١) السابق ٢/٧٧١.

(٢) شرح السنة للبغوي ١/١٠.

وكما قال إخوة يوسف لأبيهم: وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين، وكذلك إذا استعمل مقرونا مع الأعمال، كقوله تعالى: إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات. فأما إذا استعمل مطلقا، فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقادا وقولا وعملا، هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة، بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وغير واحد إجماعا، أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص) [١].

١٦- قال الشيخ حافظ الحكمي: (ومحال أن ينتفي انقياد الجوارح بالأعمال الظاهرة مع ثبوت عمل القلب، قال النبي ﷺ: إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله إلا وهي القلب. ومن هنا يتبين لك أن من قال من أهل السنة في الإيمان هو التصديق على ظاهر اللغة؛ أنهم إنما عنوا التصديق الإذعاني المستلزم للانقياد ظاهرا وباطنا، لم يعنوا مجرد التصديق) [٢].

١٧- قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (لا خلاف أن التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، فإن اختل شيءٌ من هذا لم يكن الرجل مسلما، فإن عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند كفرعون وإبليس وأمثالهما)[٣].

وقال رحمه الله: (لا خلاف بين الأمة أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب الذي هو العلم، واللسان الذي هو القول، والعمل الذي هو

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٤١.

(٢) معارج القبول لحافظ بن أحمد حكمي ٢/٥٩٤.

(٣) كشف الشبهات للإمام محمد بن عبد الوهاب ص١٧٩.

تنفيذ الأوامر والنواهي، فإن أخل بشيء من هذا، لم يكن الرجل مسلما، فإن أقر بالتوحيد ولم يعمل به؛ فهو كافر معاند كفرعون وإبليس وأمثالهما) [(١)].

١٨- قال محمد بن إبراهيم بن عبد الوهاب في شرحه لكلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، فلا بد من الثلاثة، لابد أن يكون هو المعتقد في قلبه، ولابد أن يكون هو الذي ينطق به لسانه، ولابد أن يكون هو الذي تعمل به جوارحه، فإن اختل شيء من هذا، لو وحّد بلسانه دون قلبه ما نفعه توحيده، ولو وحد بقلبه وأركانه دون لسانه ما نفعه ذلك، ولو وحَّد بأركانه دون الباقي لم يكن الرجل مسلماً، هذا إجماع أن الإنسان لابد أن يكون موحداً باعتقاده ولسانه وعمله، فإن عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند، إذا اعتقد ولا نطق ولا عمل بالحق بأركانه فهذا كافر عند جميع الأمة)[(٢)].

● معتقد ابن تيمية وتلميذه ابن القيم في أن العمل من الإيمان.

ذكر ابن تيمية أن القرآن والسنة مملوءان بما يدل على أن الرجل لا يثبت له حكم الإيمان إلا بالعمل مع التصديق، وهذا في القرآن أكثر بكثير من معنى الصلاة والزكاة، فإن تلك إنما فسرتها السنة، والإيمان بين معناه الكتاب والسنة وإجماع السلف [(٣)].

---

(١) الدرر السنية ٢/١٢٤.

(٢) شرح كشف الشبهات ص١٢٦.

(٣) مجموع الفتاوى ١٢٨/٧.

كما بين رحمه الله أن الدين لابد فيه من قول وعمل، وأنه يمتنع أن يكون الرجل مؤمنا بالله ورسوله بقلبه، أو بقلبه ولسانه ولم يؤد واجبا ظاهرا، ولا صلاة ولا زكاة ولا صياما ولا غير ذلك من الواجبات، وربما يعمل الرجل أعمالا لا لأجل أن الله أوجبها، مثل أن يؤدي الأمانة ويصدق الحديث، أو يعدل في قسمه وحكمه من غير إيمان بالله ورسوله، فمثل هذا لم يخرج بذلك من الكفر، فإن المشركين وأهل الكتاب يرون وجوب هذه الأمور، ومن ثم فإن الرجل لا يكون مؤمنا بالله ورسوله مع عدم فعله لشيء من الواجبات التي يختص بإيجابها محمد ﷺ [(١)].

وقد ذكر شيخ الإسلام مقولة بعض السلف أنه لا يقبل قول إلا بعمل ثم عقب فقال: (وهذا فيه ردٌّ على المرجئة الذين يجعلون مجرد القول كافيا، فأخبر أنه لابد من قول وعمل؛ إذ الإيمان قول وعمل، لا بد من هذين كما بسطناه في غير هذا الموضع، وبيّنا أن مجرد تصديق القلب ونطق اللسان، مع البغض لله وشرائعه، والاستكبار على الله وشرائعه، لا يكون إيمانا باتفاق المؤمنين حتى يقترن بالتصديق عمل صالح، وأصل العمل عمل القلب، وهو الحب والتعظيم المنافي للبغض والاستكبار) [(٢)].

ويقرر ابن تيمية أن اسم الإيمان يشمل كل ما أمر الله به ورسوله من الاعتقادات والإرادات، وأعمال القلوب، وأقوال اللسان، وأعمال

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/٦٢١ بتصرف.

(٢) الاستقامة لابن تيمية ٢/٣٠٩ بتصرف..

الجوارح أفعالا وتروكا، فيدخل في ذلك فعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات، والمكروهات، وإحلال الحلال، وتحريم الحرام. وهذه الواجبات والمحرمات، بل والمستحبات والمكروهات على درجات متفاوتة تفاوتا كبيرا. وبهذا يتبين أنه لا يصح إطلاق القول بأن العمل شرط صحة أو شرط كمال بل يحتاج إلى تفصيل؛ فإن اسم العمل يشمل تنفيذ الأمر بعمل القلب وقول اللسان وعمل الجوارح، ويشمل الفعل والترك، ويشمل الواجبات التي هي أصول الدين الخمسة، وما دونها، ويشمل ترك الشرك والكفر وما دونهما من الذنوب.

ثم ذكر ابن تيمية روايات كثيرة فسرت البر بالإيمان في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾البقرة:١٧٧ . منها أن رجلا جاء إلى أبي ذر فسأله عن الإيمان فقرأ: ليس البر أن تولوا وجوهكم إلى آخر الآية ؛ فقال الرجل ليس عن البر سألتك، فقال جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني عنه فقرأ عليه الذي قرأت عليك فقال له الذي قلت لي، فلما أبى أن يرضى قال له إن المؤمن الذي إذا عمل الحسنة سرته ورجا ثوابها وإذا عمل السيئة ساءته وخاف عقابها.

ومنها أن مبارك بن حسان قال لسالم الأفطس: رجل أطاع الله فلم يعصه ورجل عصى الله فلم يطعه فصار المطيع إلى الله فأدخله الجنة وصار العاصي إلى الله فأدخله النار، هل يتفاضلان في الإيمان ؟ قال: لا، قال: فذكرت ذلك لعطاء، فقال: سلهم الإيمان طيب أو خبيث؟ فإن الله قال: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ

فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ الأنفال:٣٧. فسألتهم فلم يجيبوني فقال بعضهم: إن الإيمان يبطن، ليس معه عمل، فذكرت ذلك لعطاء فقال سبحان الله أما يقرءون الآية التي في البقرة: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ البقرة:١٧٧ . قال: ثم وصف الله على هذا الاسم ما لزمه من العمل، فقال: ﴿ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ البقرة:١٧٧ . فقال: سلهم هل دخل هذا العمل في هذا الاسم، وقال: ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن، فألزم الاسم العمل والعمل الاسم[1].

ثم قال ابن تيمية: (والمقصود هنا أنه لم يثبت المدح إلا على إيمان معه العمل، لا على إيمان خال عن عمل، فإذا عرف أن الذم والعقاب واقع في ترك العمل، كان بعد ذلك نزاعهم لا فائدة فيه، بل يكون نزاعا لفظيا مع أنهم مخطئون في اللفظ مخالفون للكتاب والسنة، وإن قالوا إنه لا يضره ترك العمل فهذا كفر صريح؛ وبعض الناس يحكى هذا عنهم وأنهم يقولون إن الله فرض على العباد فرائض ولم يرد منهم أن يعملوها ولا يضرهم تركها، وهذا قد يكون قول الغالية الذين يقولون لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد، لكن ما علمت معينا أحكي عنه هذا القول، وإنما الناس يحكونه في الكتب ولا يعينون قائله، وقد يكون قول من لا

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/١٨٠ وما بعدها بتصرف.

خلاق له؛ فإن كثيرا من الفساق والمنافقين يقولون لا يضر مع الإيمان ذنب أو مع التوحيد، وبعض كلام الرادين على المرجئة وصفهم بهذا، ويدل على ذلك قوله تعالى في آخر الآية: أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون. فقوله صدقوا أي في قولهم آمنوا) [١].

وقال ابن تيمية: (وقول القائل الطاعات ثمرات التصديق الباطن، يراد به شيئان يراد به أنها لوازم له، فمتى وجد الإيمان الباطن وجدت. وهذا مذهب السلف وأهل السنة. ويراد به أن الإيمان الباطن قد يكون سببا، وقد يكون الإيمان الباطن تاما كاملا وهي لم توجد، وهذا قول المرجئة من الجهمية وغيرهم) [٢].

ويذكر ابن تيمية (ت:٧٢٨هـ) أنه من الممتنع أن يكون الرجل مؤمنا إيمانا ثابتا في قلبه؛ بأن الله فرض عليه الصلاة والزكاة والصيام والحج ويعيش دهره لا يسجد لله سجدة ولا يصوم من رمضان ولا يؤدي لله زكاة ولا يحج إلى بيته، فهذا ممتنع، ولا يصدر هذا إلا مع نفاق في القلب وزندقته لا مع إيمان صحيح، ولهذا إنما يصف سبحانه بالامتناع عن السجود الكفار [٣].

وقال ابن تيمية: (إن حقيقة الدين هو الطاعة والانقياد، وذلك إنما يتم بالفعل لا بالقول فقط فمن لم يفعل لله شيئا فما دان لله دينا ومن لا

---

(١) مجموع الفتاوى ١٨١/٧.

(٢) السابق ٣٦٣/٧.

(٣) السابق ٦١١/٧ بتصرف .

دين له فهو كافر)[١].

وقد سلك ابن القيم رحمه الله (ت:٧٥١هـ) مسلك شيخه في حقيقة الإيمان فقال: (الإيمان له ظاهر وباطن، وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته، فلا ينفع ظاهر لا باطن له وإن حقن به الدماء وعصم به المال والذرية، ولا يجزىء باطن لا ظاهر له إلا إذا تعذر بعجز أو إكراه وخوف هلاك، فتخلف العمل ظاهرا مع عدم المانع دليل على فساد الباطن وخلوه من الإيمان) [٢].

وذكر ابن القيم أن كل إسلام ظاهر لا ينفذ صاحبه منه إلى حقيقة الإيمان الباطنة، فليس بنافع حتى يكون معه شيء من الإيمان الباطن، وكل حقيقة باطنة لا يقوم صاحبها بشرائع الإسلام الظاهرة لا تنفع ولو كانت ما كانت، فلو تمزق القلب بالمحبة والخوف ولم يتعبد بالأمر وظاهر الشرع لم ينْجه ذلك من النار، كما أنه لو قام بظواهر الإسلام وليس في باطنه حقيقة الإيمان لم ينْجه من النار [٣].

- **العمل هو عبادة الله عن محبته ولا إيمان بلا توحيد الله في عبادته.**

ولو نظرنا إلى حقيقة العمل وموقعه من الإيمان لوجدنا أن العمل هو أساس الأفضلية التي نالها خير الناس في القرون الفاضلة فبالعمل انتقل

---

(١) شرح العمدة في الفقه لابن تيمية ٤/٨٦.

(٢) الفوائد لابن القيم ص٨٥ .

(٣) السابق ص١٤٢ بتصرف.

أصحاب محمد إلى دار الهجرة، ولو كان العمل خارجا عن مسمى الإيمان لمكثوا في مكة ممتنعين عن الهجرة إلى نبيهم، وبالعمل جاهدوا في سبيل الله وفتحوا مكة وسائر البلدان في جزيرة العرب وفارس والروم، ولو كان العمل خارجا عن مسمى الإيمان ويكفي في إيمانهم تصديق القلب وقول اللسان لما سمعنا عن دعوة الإسلام وانتشارها في كل مكان، وما زالت الأصنام والأوثان في عصر النبوة والخلافة الراشدة، فبالعمل كانت حقيقة إيمانهم ماثلة في تنفيذ أمر نبيهم كما أنها ماثلة في تصديق خبره، فهل كان أحد منهم يدخل في الإسلام ويقول لنبيه أبايعك على السمع بلا طاعة، وعلى تصديق الخبر بلا تنفيذ الأمر؟

لقد بين جعفر بن أبي طالب ﵁ لملك الحبشة موقف الصحابة ﵃ مما جاء به النبي ﷺ من توحيد العبادة لله، سواء في باب الأخبار، أو في باب الأوامر. فمن حديث أُم سلمة رضي الله عنها أن جعفر بن أبي طالب ﵁ كلم النجاشي فقال له: (أيها المَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيةٍ، نَعْبد الأَصْنَامَ، وَنَأْكُل المَيتةَ، وَنَأْتي الفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الجِوَارَ، يأْكُل القَوِي مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا على ذلكَ حتى بعَثَ اللهُ إلينَا رَسُولا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدقَهُ، وَأَمَانَتهُ، وَعَفَافَهُ، فَدعَانَا إلى اللهِ لنُوَحِّدَهُ وَنَعْبدَهُ، وَنَخْلعَ مَا كُنَّا نَعْبد نَحْنُ وَآباؤُنَا مِنْ دونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالأَوْثان، وَأَمَرَنَا بصِدق الحَديث، وَأَداءِ الأَمَانَةِ، وَصِلةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الجِوَارِ، وَالكَفِّ عَنِ المَحَارِمِ وَالدمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ اليتيمِ، وَقَذفِ المُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبد اللهَ وَحْدهُ، لا نُشْرِكُ بِهِ شَيئًا، وَأَمَرَنَا بالصَّلاةِ

وَالزَّكَاةِ وَالصِّيامِ، وعَدد عَليهِ أُمُورَ الإِسْلام، فَصَدقْنَاهُ وَآمَنَّا بهِ، وَاتبعْنَاهُ على مَا جَاءَ بهِ، فَعَبدنَا اللهَ وَحْدهُ فَلمْ نُشْرِكْ بهِ شَيئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلينَا، وَأَحْللنَا مَا أَحَل لنَا، فَعَدا عَلينَا قَوْمُنَا، فَعَذبونَا، وَفَتنُونَا عَنْ دينِنَا ليرُدونَا إلى عِبادةِ الأَوْثان مِنْ عِبادةِ اللهِ، وَأَنْ نَسْتحِل مَا كُنَّا نَسْتحِل مِنَ الخَبائِث، فَلمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلينَا، وَحَالوا بيننَا وَبينَ دينِنَا، خَرَجْنَا إلى بلدكَ، وَاخْتَرْنَاكَ على مَنْ سِوَاكَ، وَرَغِبنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لا نُظْلَمَ عِنْدكَ) [1].

وقول جعفر ﷺ فَصَدقْنَاهُ وَآمَنَّا بهِ وَاتبعْنَاهُ على مَا جَاءَ بهِ، يتبدي منه بوضوح أن الإيمان قول وعمل وسمع وطاعة واعتقاد وانقياد فكما أن الإيمان يتعلق بتصديق الأخبار، فكذلك الإيمان يتعلق بالطاعة وتنفيذ الأمر. قال تعالى في مدح المؤمنين: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ البقرة:٢٨٥.

وقال سبحانه وتعالى في تذكيرهم بما التزموا به من شروط عند شهادة ألا إله إلا الله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾ المائدة:٧.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥١﴾ النور:٥١.

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ٥/٢٩٠ (٢٢٥٥١)، وصححه الشيخ الألباني في فقه السيرة ص١١٥.

وقال تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ التغابن:١٦.

وجميع الصحابة ﷺ كان شأنهم مع نبيهم السمع والطاعة أو القول والعمل، ولم يكن أحدهم يتخلف عن العمل ويدعي أنه مكتب بالتصديق والنطق بالشهادة، بل كانوا يصدقون نبيهم في كل ما أخبرهم عن الله ﷻ، فآمنوا بتوحيد العلم والخبر، وكانوا يطيعونه في كل ما أمر فقاموا بتوحيد العبادة لله، وكانوا يبايعونه على ذلك.

روى البخاري من حديث جَرِيرِ بنِ عَبدِ اللهِ ﷺ أنه قال: (بايعْت النَّبي ﷺ على السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَلَقَّنَنِي فقال: فِيمَا اسْتَطَعْت، وَالنُّصْحِ لكُل مُسْلِمٍ) [(١)]. وعنده من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (عَلى المَرْءِ المُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، فِيمَا أَحَب وكَرِهَ، إِلا أَنْ يؤْمَرَ بمَعْصِيةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بمَعْصِيةٍ، فَلا سَمْعَ وَلا طَاعَةَ) [(٢)].

وروى البخاري من حديث عبادة بن الصامت ﷺ أنه قال: (بايعْنَا رَسُول اللهِ ﷺ عَلى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي العُسْرِ وَاليسْرِ وَالمَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ، وَعَلى أَثرَةٍ عَلينَا، وَعَلى أَنْ لا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، وَعَلى أَنْ نَقُول بالحَقِّ

(١) البخاري في الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس ٦/٢٦٣٤ (٦٧٧٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة ١/٧٥ (٥٦).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ٦/٢٦١٢ (٦٧٢٥)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ٣/١٤٦٩ (١٨٣٩) واللفظ لمسلم.

أَينَمَا كُنَّا، لا نَخَافُ فِي اللهِ لومَةَ لائِمٍ) [(١)].

لقد كانت حقيقة الإيمان والإسلام والعبادة في القرون الفاضلة قبل قيام الفرق والمذاهب ممثلة في تصديق الصحابة ﷺ لخبر الله وتنفيذ أمره، فتصديق الخبر هو معنى الإيمان، وتنفيذ الأمر هو معنى الإسلام، فهم كانوا ﷺ يصدقون خبر الله ورسوله ﷺ تصديقا جازما ينفي الوهم والشك والظن، وكانوا ينفذون الأمر تنفيذا كاملا يقوم على الطاعة والإخلاص والحب، بحيث تنسجم فطرتهم النقية مع توجيه النصوص القرآنية والنبوية.

وقد ذكرنا غير مرة أن ذلك المبدأ، أعني مبدأ تصديق الخبر تصديقا جازما ينفي الوهم والشك والظن، وتنفيذ الأمر تنفيذا كاملا يقوم على الطاعة والإخلاص والحب، هو المفترض أن يكون في المسلم عندما يشهد ألا إله إلا الله؛ فلا بد أن يكون قد عقد في نفسه عقدا أن الله ﷻ هو المعبود الحق الذي يصدق في خبره دون تكذيب، والذي يطاع في أمره دون عصيان، وتلك حقيقة الإيمان التي نزل بها القرآن، وفهمها أصحاب اللسان، وليس كما تزعم المرجئة أن الإيمان تصديق بالخبر وقول باللسان دون تنفيذ للأمر أو طاعة وخضوع لله بالأبدان.

وقد بين ابن القيم أن مدار الإيمان والهداية التي منَّ الله ﷻ بها على

(١) رواه البخاري في كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس ٦/٢٦٣٣ (٦٧٧٤)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ٣/١٤٧٠(١٧٠٩).

عباده، يقوم على تصديق خبر الله ﷻ من غير اعتراض شبهة، وامتثال أمره من غير اعتراض شهوة، ثم يقول: (وعلى هذين الأصلين مدار الإيمان، وهما تصديق الخبر، وطاعة الأمر) [1].

قال ابن تيمية: (وأما الدين فجماعه شيئان تصديق الخبر، وطاعة الأمر، ومعلوم أن التنعم بالخبر بحسب شرفه وصدقه، والمؤمن معه من الخبر الصادق عن الله وعن مخلوقاته ما ليس مع غيره، فهو من أعظم الناس نعيما بذلك، بخلاف من يكثر في أخبارهم الكذب. وأما طاعة الأمر فإن من كان ما يؤمر به صلاحا وعدلا ونافعا يكون تنعمه به أعظم من تنعم من يؤمر بما ليس بصلاح ولا عدل ولا نافع، وهذا من الفرق بين الحق والباطل) [2].

ويذكر أبو بكر البيهقي (ت:٤٥٨هـ) أن حقيقة الإيمان والتوحيد تكمن في تصديق الخبر، وتنفيذ الأمر، لأن الخبر هو القول الذي يدخله الصدق والكذب، والأمر والنهي كل واحد منهما، قول يتردد بين أن يطاع قائله وبين أن يعصي. فمن سمع خبرا واعتقد أنه حق وصدق به، فقد آمن به، ومن سمع أمرا أو نهيا فاعتقد الطاعة له، فكأنما آمن في نفسه به.. فالإيمان بالله ﷻ إثباته، والاعتراف بوجوده، والإيمان له، والقبول عنه، والطاعة له) [3].

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/٤٠.

(٢) قاعدة في المحبة لابن تيمية ص١٥٥.

(٣) شعب الإيمان للبيهقي ١/٣٥.

- **دخول الإسلام أو الخروج منه لا يتوقف على الإقرار والجحود فقط.**

الدخول في الإسلام يكون بالشهادة الموجبة لتصديق الخبر وتنفيذ الطلب، فالكافر يدخل في الإسلام، إذا أقر بالشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، على شروطها التي تعرفها العرب، ومجمل هذه الشروط استعداده التام عند النطق بها لتصديق خبر الله تصديقا يقينيا، واستعداده لتنفيذ الطلب عن رضا ومحبة وإخلاص وتسليم، فمن قال: أشهد يا رب أنك لا إله إلا أنت وأن محمدا نبيك ورسولك إلى العالمين، لكني لا أصدق خبرك وسأطيع أمرك، أو أصدق خبرك ولا أطيع أمرك، فلا ينفعه قوله لا إله إلا الله محمد رسول الله، وليست هذه هي الشهادة التي يعرفها العرب وعذبوا المؤمنين من أجلها، والتي حاربهم النبي ﷺ لكي يشهدوا بها. فمن أقر بلسانه دون قلبه، وانقاد بجوارحه ثبت له حكم الإسلام ظاهرا وكان منافقا، وإن أقر بقلبه ولسانه وعمل بقلبه وجوارحه فحقق الإيمان ظاهرا وباطنا كان مسلما مؤمنا على الحقيقة.

وبهذا نعلم بطلان كلام المرجئة في إخراجهم العمل من الإيمان وأن المصر على ترك العمل ودوام العصيان ليس بمسلم وإن زعم أنه لا يجحد الشهادتين أو شيئا من الأوامر وشرائع الإيمان، وقد سئل سفيان بن عيينة عن الإرجاء فقال: (يقولون الإيمان قول، ونحن نقول الإيمان قول وعمل، والمرجئة أوجبوا الجنة لمن شهد أن لا إله إلا الله مصرا بقلبه على ترك الفرائض، وسموا ترك الفرائض ذنبا بمنزلة ركوب المحارم، وليس بسواء لأن ركوب المحارم من غير استحلال معصية،

وترك الفرائض متعمدا من غير جهل ولا عذر هو كفر، وبيان ذلك في أمر آدم صلوات الله عليه وإبليس وعلماء اليهود، أما آدم فنهاه الله ﷻ عن أكل الشجرة وحرمها عليه فأكل منها متعمدا ليكون ملكا أو يكون من الخالدين، فسمي عاصيا من غير كفر، وأما إبليس لعنه الله فإنه فرض عليه سجدة واحدة فجحدها متعمدا فسمي كافرا، وأما علماء اليهود فعرفوا نعت النبي ﷺ وأنه نبي رسول كما يعرفون أبناءهم وأقروا به باللسان، ولم يتبعوا شريعته فسماهم الله ﷻ كفارا فركوب المحارم مثل ذنب آدم ﵇ وغيره من الأنبياء، وأما ترك الفرائض جحودا فهو كفر مثل كفر إبليس لعنه الله، وتركهم على معرفة من غير جحود فهو كفر مثل كفر علماء اليهود والله أعلم)[١].

لقد ضرب الله مثلا للإيمان والكفر، أو التوحيد والشرك، أو الكلمة الطيبة التي في قلوب المؤمنين والكلمة الخبيثة التي في قلوب الكافرين ضرب مثلا لذلك بالشجرة الطيبة والشجرة الخبيثة، والكلمة المعنية إنما هي قضية جازمة، وعقيدة جامعة، ونبينا ﷺ أوتى فواتح الكلام وخواتمه وجوامعه، فالكلمة الطيبة في قلوب المؤمنين هي العقيدة الإيمانية وتوحيد العبودية مثلها كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، فأصل أصول الإيمان ثابت في قلب المؤمن كثبات أصل الشجرة الطيبة، وفرعها في السماء كما قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ فاطر:١٠ .

(١) السنة لعبد الله بن أحمد ١/٣٤٧.

والله سبحانه مثّل الكلمة الطيبة أي كلمة التوحيد بشجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، فبين بذلك أن الكلمة الطيبة لها أصل ثابت في قلب المؤمن، ولها فرع عال، وهي ثابتة في قلبه فالمؤمن عنده يقين وطمأنينة، والإيمان في قلبه ثابت مستقر، وهو في نفسه ثابت على الإيمان مستقر، لا يتحول عنه، والكلمة الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض أي استؤصلت واجتثت، كما يقطع الشيء يجتث من فوق الأرض، ومعنى ما لها من قرار، إما أنها لا مكان لها تستقر فيه، أو لا استقرار لها في المكان، وكذلك الأفعال الباطلة التي يعتقدها الإنسان عند الحقيقة تخونه، ولا تنفعه، بل هي كالشجرة الخبيثة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، فمن كان معه كلمة طيبة أصلها ثابت، كان له فرع في السماء يوصله إلى مرضاة الله، فإنه سبحانه إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه، ومن لم يكن معه أصل ثابت فإنه يحرم الوصول لأنه ضيع الأصول.

والله سبحانه وتعالى بعث الرسل وأنزل الكتب بأن يكون هو المعبود وحده لا شريك له، وإنما يعبد بما أمر به على ألسنة رسله، وأصل عبادته معرفته وتصديقه فيما أخبر وفيما وصف به نفسه في كتابه وما وصفه به رسوله، والذين ينكرون بعض ذلك ما قدروا الله حق قدره، وما عرفوه حق معرفته، ولا وصفوه حق صفته، ولا عبدوه حق عبادته.

ولما كانت الشجرة لا بد لها من عروق، وساق، وفروع، وورق، وثمر، فكذلك شجرة الإيمان والإسلام، فعروقها العلم والمعرفة واليقين، وساقها الإخلاص، وفروعها الأعمال، وثمرتها ما توجبه الأعمال

الصالحة من الآثار الحميدة، والصفات الممدوحة، والأخلاق الزكية، والسمت الصالح، فيستدل على غرس جذور هذه الشجرة في القلب، وثبوتها فيه بهذه الأمور، فالإخلاص قائم في القلب، والأعمال موافقة للأمر والنهي.

وكما أن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميها، فإذا قطع عنها ماء السقي أوشكت أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب، إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت، بالعلم النافع والعمل الصالح، والعود بالتذكر على التفكر، والتفكر على التذكر وإلا أوشك أن تيبس فالإيمان يزيد وينقص، والغرس إن لم يتعاهده صاحبه أوشك أن يهلك، والمؤمن دائم السعي في سقي شجرة الإيمان بماء العلم واليقين وأعمال الإيمان من جهة، وتنقية ما حولها من خواطر الهوى وشبهات الشيطان من جهة أخرى، فبسقيها تبقى وتدوم، وبتنقية ما حولها تكمل وتتم .

والشجرة أيضا كما يؤثر أصلها على فروعها، فلو انقطع بعض جذورها أو انكسر ساقها تأثرت أوراقها وذبلت أو ماتت ويبست، وتؤثر فروعها على أصلها فلو حجبت عن ضوء الشمس أو كثر عليها غبار الطريق تأثر أصلها وضعفت وضعف محصولها، كذلك المؤمن إن مُنع أو امتنع من العمل والذكر والطاعة وتحصيل العلم وأعمال الإيمان ينقص أصله ويتأثر قلبه كما قال الله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) ﴾ المطففين:١٤.

ومن ثم فإن القرآن دلنا على حقيقة الإيمان وكيفية الدخول فيه

بأبسط مثل وأروع كلم، فالنطق بالشهادة التي يعلن قائلها من خلالها أنه على استعداد لتصديق الخبر وطاعة الأمر بمثابة البذرة التوحيد في الأرض الخصب، ونماء توحيد العبودية في القلب يشبه الشجرة الطيبة في نمائها، وثبات أصلها، وعلو فروعها، وقوة نفعها وكثرة ثمارها، وطيب ريحها ومرونتها مع العوامل الخارجية، وأنها لا تزال تؤتي ثمرتها كل حين. وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب التي فروعها من الأعمال الصالحة، الصاعدة إلى السماء، ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حق رعايتها، فمن رسخت حقيقة هذه الكلمة في قلبه، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله، ويشهد بها لسانه، وتصدقها جوارحه، ونفى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله، واتفق قلبه ولسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد لله بالوحدانية، طائعة سالكة سبل ربها ذللا، غير ناكبة عنها ولا باغية سواها بدلا، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلا، فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب، على هذا اللسان، لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الله كل وقت.

والمقصود أن كلمة التوحيد إذا شهد بها المؤمن عارفا بمعناها وحقيقتها نفيا وإثباتا، متصفا بموجبها، قائما قلبه ولسانه وجوارحه بشهادته، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل من هذا

الشاهد، أصلها ثابت راسخ في قلبه، وفروعها متصلة بالسماء، وهي مخرجة لثمرتها كل وقت (١).

وقد ذكر شيخ الإسلام أنه إذا قام بالقلب التصديق بالحق والمحبة له لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة، فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولازمه، ودليله ومعلوله، كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له أيضا تأثير فيما في القلب، فكل منهما يؤثر في الآخر، لكن القلب هو الأصل والبدن فرع له، والفرع يستمد من أصله، والأصل يثبت ويقوى بفرعه كما في الشجرة التي يضرب بها المثل لكلمة الإيمان، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، وهي كلمة التوحيد. ومن ثم فإن دخول الرجل في الإسلام أو الخروج منه لا يتوقف على الإقرار والجحود فقط، بل يجب الإقرار بالشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله على شرط استعداده التام عند النطق بها لتصديق خبر الله تصديقا يقينيا، واستعداده للطاعة فيما أوجب وأمر، وأما ما يخرج عن طاقة البشر، فذلك لا يذم أحد على تركه (٢).

قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾

(١) إعلام الموقعين لابن القيم ١/١٧٣.
(٢) مجموع الفتاوى ٧/٥٤١ بتصرف.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥)﴾ النساء:١٢٣/١٢٥.

• موقف المخالفين لأهل السنة من دخول العمل في مسمى الإيمان

أهل السنة والجماعة يقولون إن الإيمان اعتقاد القلب وقول اللسان وعمل الجوارح لا يجزئ أحدها عن الآخر، أو قول القلب وعمل القلب وقول اللسان وعمل الجوارح، فالأعمال كلها من الإيمان وركن فيه، وكل ركن من هذه الأركان يزيد وينقص، فإن زال ركن بكامله زال الإيمان كله، وإن زال بعضه فعلى قدره وحسبه يكون الحكم في كفره، فقد يكون كفرا أكبر، وقد يكون كفرا أصغر، وقد خالف كثير من أهل البدع في قضية العمل ودخوله في مسمى الإيمان وتردد كل ركن من أركان الإيمان بين الزيادة والنقصان، وأبرز تلك الطوائف التي عرفت في هذا الباب:

١- الخوارج والمعتزلة، والإيمان عندهم كما هو عند أهل السنة والجماعة قول وعمل واعتقاد، إلا إنهم خالفوهم بزعمهم أن تارك بعض العمل، أو العاصي لبعض الأمر مما دون الكفر الأكبر أو الشرك الأكبر، أو مرتكب الكبيرة زعموا أنه ليس في قلبه شيء من الإيمان مطلقا، وهو مخلد في الآخرة في النار أبدا، واختلفوا في حكمه في الدنيا، فقالت الخوارج هو كافر، وقالت المعتزلة هو بمنزلة بين منزلتين.

٢- الجهمية، والإيمان عندهم يدل بالمطابقة على المعرفة فقط دون تصديق القلب وقول اللسان وعمل الجوارح، فلو لم يصدق بقلبه وينطق

بلسانه ويعمل بجوارحه فهو مؤمن، فهذه الثلاثة غير داخلة في الإيمان، ولازم ذلك عندهم أن إبليس وفرعون وأبا جهل مؤمنون مسلمون جميعا لأنهم عرفوا ربهم.

٣- الكرامية أتباع محمد بن كرام السجستاني زعمت أن اسم أمة الإسلام واقع على كل من قال لا اله إلا الله محمد رسول الله سواء أخلص في ذلك أو اعتقد خلافه، فالإيمان عندهم قول باللسان دون تصديق القلب أو عمل الجوارح، فمن تكلم بالشهادتين فهو مؤمن كامل الإيمان، والمنافق عندهم مؤمن أيضا كامل الإيمان، ولكنهم يقولون بأن المنافق يستحق الوعيد الذي توعده الله به، فلو كان مكذبا بقلبه فهو مخلد في النار، وهذا من أعظم الفساد.

٤- الأشاعرة، والإيمان عندهم مجرد تصديق القلب دون عمله ودون عمل الجوارح ودون قول اللسان، لأن الإيمان في اللغة هو التصديق، وهو باق على معناه اللغوي لم ينقل عنه، فوجب أن يكون كذلك في الشرع، لكنهم يقولون إن للإيمان لوازم إذا ذهبت دل على عدم تصديق القلب، وبعضهم يقول بأن الإيمان يزيد ولا ينقص.

قال أبو المعين النسفي: (الإيمان في اللغة عبارة عن التصديق، فكل من صدق غيره فيما يخبره يسمى في اللغة مؤمناً به، ومؤمناً به، قال الله تعالى خبراً عن إخوة يوسف صلوات الله عليهم: وما أنت بمؤمن لنا. أي بمصدق لنا، ثم إن هذا اللغوي وهو التصديق بالقلب هو حقيقة الإيمان الواجب على العبد حقا لله تعالى، وهو أن يصدق الرسول ﷺ فيما جاء به من عند الله تعالى، فمن أتى بهذا التصديق فهو مؤمن فيما

بينه وبين الله تعالى، والإقرار إقرار يحتاج إليه ليقف عليه الخلق فيجروا عليه أحكام الإسلام) [(١)].

وقال الملا علي القاري: (وذهب جمهور المحققين إلى أن الإيمان هو التصديق بالقلب، وإنما الإقرار شرط لإجراء الأحكام في الدنيا، لما أن تصديق القلب أمر باطني لابد له من علامة، فمن صدق بقلبه ولم يقر بلسانه فهو مؤمن عند الله تعالى، وإن لم يكن مؤمناً في أحكام الدنيا، ومن أقر بلسانه، ولم يصدق بقلبه كالمنافق فهو بالعكس، وهذا هو اختيار الشيخ أبي منصور الماتريدي) [(٢)].

مرجئة الفقهاء، والإيمان عندهم قول باللسان واعتقاد بالقلب دون عمل الجوارح، والإيمان عندهم لا يزيد ولا ينقص وهو التصديق وإيمان أهل الأرض وأهل السماء واحد؛ ولازمه أن الفساق مؤمن كامل الإيمان وبعضهم يزعم أن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل وكإيمان أبي بكر وعمر، لأن الأعمال ليست داخلة في مسمى الإيمان فهو مصدِّق وأبو بكر مصدِّق، وجبريل مصدِّق، وهذا لا شك في بطلانه [(٣)].

- موطن الخلل في تقسيم العمل إلى شرط صحة وشرط كمال.

هل العمل شرط صحة في الإيمان أو شرط كمال؟ مصطلح شرط

---

(١) التمهيد في أصول الدين ص٩٩.

(٢) السابق ص٩٩.

(٣) انظر في الرد على المرجئة مجموع الفتاوى ٧/١٩٥- ٧/٢١٠، وانظر أقوال ذوي العرفان في أن أعمال الجوارح داخلة في مسمى الإيمان ص٢٤.

صحة أو شرط كمال في منزلة العمل من الإيمان من المصطلحات المحدثة كمصطلح الحيز والجهة التي يلبس بها في نفي الإيمان بالاستواء وعلو الفوقية وتنزيه الله عن الحلول بذاته في كل مكان، فمنزلة العمل من الإيمان لا يقال فيها شرط صحة ولا شرط كمال، لأن ما يكون شرطا للشيء فهو منفصل عنه مباين له، كالوضوء مع الصلاة فليس الوضوء هو الصلاة، ولا هو ركن فيها، ولا هو جزء منها، ولا يدل مصطلح الصلاة على الوضوء دلالة مطابقة أو تضمن، ومثل هذه الاصطلاحات لابد من ردها إلى مصطلحات الشرع وألفاظ القرآن والسنة، فالعمل من الإيمان، وهو ركن فيه، وجزء منه، والإيمان قائم عليه كأساس متين كما تقدم، فما من مسلم يشهد ألا إله إلا الله إلا ويلزمه تصديق خبر الله وتنفيذ أمره معا، أما من يلزمه تصديق خبره وإهمال أمره، وتنفيذ أمر غيره في معصيته من أنواع الطواغيت المختلفة فليس بمؤمن.

أما مصطلح الصحة الذي يطلقه من قال العمل شرط صحة فهو مصطلح موهم، فإن الصحة لا تقابل الموت والانعدام التام، وإنما تقابل المرض على اختلاف درجات العليل، فانعدام الصحة في الإيمان لا يعنى الكفر والخروج من الملة، بل إن الكفر المخرج من الملة والذي انعدم فيه العمل كشرط الصحة كما يزعمون، لا يدل على انعدام الإيمان في قلب الكافر بانعدام العمل، فهذا نوع من تلبيس المتكلمين وتدليس المرجئة، فلا يقال ميت لمن ليس صحيحا، وإنما هو حي عليل، فكأن انعدام العمل لا يؤثر في انعدام الإيمان عندهم، لا وهو في حال شرط

الصحة، ولا وهو في حال شرط الكمال، ويعود قول القائل بأن الإيمان شرط صحة إلى قول المرجئة الذين قالوا: الإيمان قول بلا عمل، ولو أمكن تخلف العمل كله عن الإيمان عند السلف لما قامت كل هذه الملاحم الاعتقادية.

كما أن مصطلح الكمال الذي يطلقه من قال شرط كمال من المفترض أن يقال لما زاد على الواجب من أفعال المستحبات والمندوبات، فهذا هو الكمال المعروف في الألفاظ الشرعية، وهو يساوي مصطلح النوافل التي يتقرب بها العبد إلى ربه بعد الفرائض والواجبات، والقائلون بأن العمل شرط كمال، وإن كان يقصدون أن ترك الواجب وفعل المحرم منافي للكمال الواجب الذي يجعل تاركه عاصيا مرتكبا للكبيرة، إلا أن التعبير بمصطلح شرط الكمال لا يدل على مرادهم الإرجائي، فقد جعلوا واجبات الدين وفرائضه وترك محرماته وكبائره داخلة في مسمى نفي الكمال، وليس في مسمى الكفر الأكبر أو الكفر الأصغر، وهذا نوع من التدليس الذي ينبغي تجنبه، فلا هم قالوا بقول السلف بأن العمل داخل في مسمى الإيمان، ولا التزموا بالألفاظ التي لا تحدث لبسا أو تداخلا في المعان.

وقال ابن رجب: (والمشهور عن السلف وأهل الحديث أن الإيمان قول وعمل ونية، وأن الأعمال كلها داخلة في مسمى الإيمان، وحكى الشافعي على ذلك إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن أدركهم، وأنكر السلف على من أخرج الأعمال عن الإيمان إنكارا شديدا) [(١)].

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص٢٧.

وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قول من قال: كل من كفره الشارع فإنما كفره لانتفاء تصديق القلب، ثم بين خطأه فقال: (وكثير من المتأخرين لا يميزون بين مذاهب السلف وأقوال المرجئة والجهمية؛ لاختلاط هذا بهذا في كلام كثير منهم، ممن هو في باطنه يرى رأي الجهمية والمرجئة في الإيمان، وهو معظم للسلف وأهل الحديث، فيظن أنه يجمع بينهما، أو يجمع بين كلام أمثاله وكلام السلف) [(١)].

ثم بين ابن تيمية رحمه الله أن أهل البدع يبتدعون أقوالا يجعلونها واجبة في الدين، بل يجعلونها من الإيمان الذي لا بد منه، ويكفّرون من خالفهم فيها ويستحلّون دمه، كفعل الخوارج والجهمية والرافضة والمعتزلة وغيرهم، وأهل السنة لا يبتدعون قولا ولا يكفرون من اجتهد فأخطأ، وإن كان مخالفا لهم مكفرا لهم مستحلا لدمائهم، كما لم تكفر الصحابة ﷺ الخوارج، وعامة ما تنازع فيه أهل الإيمان من مسائل الأصول وغيرها في باب الصفات والقدر والإمامة وغير ذلك هو من هذا الباب، فيه المجتهد المصيب، وفيه المجتهد المخطئ، وقد يكون المخطئ باغيا، وفيه الباغي من غير اجتهاد، وفيه المقصر فيما أمر به من الصبر، وكل ما أوجب فتنة وفرقة فليس من الدين، سواء كان قولا أو فعلا [(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوى ٣٦٤/٧.

(٢) انظر الاستقامة لابن تيمية ٣٧/١، ومنهاج السنة النبوية ٩٥/٥ بتصرف.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: (وههنا أمر خفي ينبغي التفطن له، وهو أن كثيرا من أئمة الدين قد يقول قولا مرجوحا ويكون مجتهدا فيه مأجورا على اجتهاده فيه موضوعا عنه خطؤه فيه، ولا يكون المنتصر لمقالته تلك بمنزلته في هذه الدرجة؛ لأنه قد لا ينتصر لهذا القول إلا لكون متبوعه قد قاله، بحيث إنه لو قاله غيره من أئمة الدين لما قبله، ولا انتصر له، ولا والى من وافقه، ولا عادى من خالفه، وهو مع ذلك يظن أنه إنما انتصر للحق بمنزلة متبوعه وليس كذلك، فإن متبوعه إنما كان قصده الانتصار للحق، وإن أخطأ في اجتهاده، وأما هذا التّابع فقد شاب انتصاره لما يظنه الحقّ إرادة علو متبوعه وظهور كلمته، وأن لا ينسب إلى الخطأ، وهذه دسيسة تقدح في قصد الانتصار للحق، فإنه فهم عظيم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) (١).

- هل الخلاف بين السلف ومرجئة الفقهاء خلاف صوري لفظي؟

علمنا أن الإيمان عند الإطلاق يدل بالمطابقة على أربعة أركان، قول القلب وعمل القلب وقول اللسان وعمل الجوارح، فالعمل ركن من أركان الإيمان وجزء من مسماه، فمن أخرجه من الإيمان وجعله شرطا في صحته أو شرطا في كماله فقد زعم أن الإيمان يدل بالمطابقة على ركنين فقط، وزعم أن انتفاء العمل بالكلية الذي هو ركن في الإيمان يكون معه الإنسان مؤمنا عليلا فاقدا للصحة، أو مؤمنا سليما

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص٣٣٠.

فاقدا للكمال، وحال هؤلاء كحال من يقول لربه عند نطقه بالتوحيد وقت أن قال لا إله إلا الله: يا رب أنت معبودي بحق سأصدق خبرك ولن أطيع أمرك، فإن أخبرتني صدقتك وإن أمرتني عصيتك، فلا طاعة لك علي، بل الطاعة للشيطان وهوى النفس في الإنسان. هذا شأن من يخرج العمل من الإيمان، وهو لازم لا يفارقه مهما حاول أن يهون أو يزين أو يتجمل أو يتستر على كلام من قال به.

ومن ثم فإن الخلاف بين السلف ومن جعل الإيمان لا يدل على العمل بالتضمن ليس خلافا صوريا كما زعم كثيرون حتى ولو كان شأنه ما كان، مع اعتقادنا أن قد يكون مجتهدا مخطأ مأجورا، لكن كلامه لا يمكن أن ننظر إليه على أنه مطابق للقرآن والسنة، بل كل يأخذ من كلامه ويرد إلا المعصوم .

وكلام الإمام ابن أبي العز الحنفي في شرحه للعقيدة الطحاوية والاختلاف الذي بين أبي حنيفة والأئمة الباقين من أهل السنة ومحاولة تقرير الأمر على أنه اختلاف صوري فيه نظر، فإن قولهم بأن أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب، ربما يلتزم بها الإنسان أو لا يلتزم، أما لو قلنا بأن أعمال الجوارح جزء من الإيمان، فلا بد أن يلتزم بها لا محالة ولابد أن يحقق العمل ضرورة لكي يقوم به وصف الإيمان.

وهذا مع الاتفاق على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان بل هو في مشيئة الله إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه، فالكلام مع الخوارج ليس مجاله الحديث عن أركان الإيمان من حيث تحقيق مسماه، وما يدل

عليه بالمطابقة، وإنما رحى المعركة مع الخوارج تدور حول الزيادة أو النقصان في أركان الإيمان.

قال الشيخ ابن باز رحمه الله تعليقا على قول الطحاوي والإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان: (هذا التعريف فيه نظر وقصورٌ، والصواب الذي عليه أهل السنة والجماعة أن الإيمان قولٌ وعملٌ واعتقادٌ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أكثر من أن تحصر، وقد ذكر الشَّارح ابن أبي العز جملة منها، فراجعها إن شئت، وإخراج العمل من الإيمان هو قول المرجئة، وليس الخلاف بينهم وبين أهل السنة فيه لفظيّا، بل لفظي ومعنوي، ويترتب عليه أحكام كثيرة، يعلمها من تدبر كلام أهل السنة وكلام المرجئة، والله المستعان) [(١)] .

وقال الشيخ الألباني رحمه الله تعليقا على قول الطحاوي والإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان: (قلت هذا مذهب الحنفية والماتريدية خلافا للسلف وجماهير الأئمة كمالك والشافعي وأحمد والأوزاعي وغيرهم، فإن هؤلاء زادوا على الإقرار والتصديق العمل بالأركان، وليس الخلاف بين المذهبين اختلافا صوريا كما ذهب إليه الشارح رحمه الله تعالى بحجة أنهم جميعا اتفقوا على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج عن الإيمان، وأنه في مشيئة الله، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه، فإن هذا الاتفاق وإن كان صحيحا فإن الحنفية لو كانوا غير

---

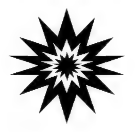
(١) مجموع فتاوى ابن باز، التعليق على العقيدة الطحاوية ٢/٨٣.

مخالفين للجماهير مخالفة حقيقية في إنكارهم أن العمل من الإيمان لاتفقوا معهم على أن الإيمان يزيد وينقص، وأن زيادته ونقصه بالمعصية مع تضافر أدلة الكتاب والسنة والآثار السلفية على ذلك، وقد ذكر الشارح طائفة طيبة منها، ولكن الحنفية أصروا على القول بخلاف تلك الأدلة الصريحة في الزيادة والنقصان، وتكلفوا في تأويلها تكلفا ظاهرا، بل باطلا ذكر الشارح نموذجا منها.

بل حكى عن أبي المعين النسفي أنه طعن في صحة حديث: الإيمان بضع وسبعون شعبة. مع احتجاج كل أئمة الحديث به، ومنهم البخاري ومسلم في صحيحيهما، وما ذلك إلا لأنه صريح في مخالفة مذهبهم، ثم كيف يصح أن يكون الخلاف المذكور صوريا، وهم يجيزون لأفجر واحد منهم أن يقول: إيماني كإيمان أبي بكر الصديق، بل كإيمان الأنبياء والمرسلين وجبريل وميكائيل علهم الصلاة والسلام، كيف وهم بناء على مذهبهم هذا لا يجيزون لأحدهم مهما كان فاسقا فاجرا أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى، بل يقول: أنا مؤمن حقا والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ الأنفال:٢/٤ . ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ النساء:١٢٢.

وبناء على ذلك كله اشتطوا في تعصبهم، فذكروا أن من استثنى في إيمانه فقد كفر، وفرعوا عليه أنه لا يجوز للحنفي أن يتزوج بالمرأة

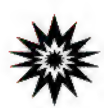
الشافعية وتسامح بعضهم كما زعموا فأجاز ذلك دون العكس وعلل ذلك بقوله: تنزيلا لها منزلة أهل الكتاب، وأعرف شخصا من شيوخ الحنفية خطب ابنته رجل من شيوخ الشافعية فأبى قائلا: لولا أنك شافعي، فهل بعد هذا مجال للشك في أن الخلاف حقيقي؟ ومن شاء التوسع في هذه المسألة فليرجع إلى كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية: الإيمان فإنه خير ما ألف في هذا الموضوع) [١].



(١) تعليق الشيخ الألباني على العقيدة الطحاوية ص٦٢.

المطلب الرابع والعشرون

أثر انتفاء عمل الجوارح في وجود الاستكبار والعناد وتردده بين الكفر الأكبر والكفر الأصغر



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا فيما سبق عن عمل الجوارح وموقعه في مسمى الإيمان وعلاقته بعمل القلب في الإنسان، وبينا أن النصوص القرآنية دلت على أن الإيمان يدل على عمل الجوارح بالتضمن، وكذلك أدلة السنة النبوية كلها تجتمع على أن العمل داخل في مسمى الإيمان، ونقلنا كلام السلف في أن العمل ركن في مسمى الإيمان.

وكذلك بينا معتقد شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم في أن العمل ركن داخل في مسمى الإيمان وجزء منه، وعلمنا أن العمل هو عبادة الله عن محبته، وأنه لا إيمان بلا توحيد الله ﷻ في عبادته، فيستحيل وجود الإيمان في قلب الإنسان وينعدم فيه العمل.

وقد بينا أن دخول الإسلام أو الخروج منه لا يتوقف على الإقرار والجحود فقط، وإنما يتوقف على جميع ما دل عليه الإيمان بالمطابقة والتضمن، وعرضنا موقف المخالفين لأهل السنة من دخول العمل في مسمى الإيمان، وفرق المرجئة المختلفة، كما بينا موطن الخلل في تقسيم

العمل إلى شرط صحة وشرط كمال، وأن الخلاف بين السلف ومرجئة الفقهاء ليس خلافا صوريا لفظيا كما يتوهم كثيرون؟

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن أثر انتفاء عمل الجوارح في وجود الاستكبار والعناد وتردده بين الكفر الأكبر والأصغر.

• معنى العناد والاستكبار في المعاني اللغوية والأصول القرآنية والنبوية .

أصل العناد في اللغة الإعراض عن الطاعة، والعُنُودُ الخِلافُ والتَّباعُدُ والترك، يقال: عَنَدت الناقةُ رعتْ وحدها، وأنِفَتْ أن تَرْعَى مع الإبل، فهي تَطْلُبُ خِيَارَ المَرْتعِ، وعَنَدَ الرجلُ يَعنُد ويَعْنِد عَنْداً وعُنُوداً عتَا وطَغَى وجاوَزَ قَدْرَه، وخالفَ الحَقَّ ورَدَّهُ عارِفاً بهِ، وعَنَدَ الرجل عن أَصحابه يَعْنُدُ عُنُوداً إِذا ما تركهم واجتاز عليهم، وعَنَدَ عنهم إِذا ما تركهم في سفر وأَخَذَ في غيرِ طريقهم أَو تخلف عنهم، وعنَدَ عن الحق وعن الطريق يَعْنُدُ ويَعْنِدُ مال [(١)].

والمُعَانَدَةُ المُفارَقَةُ والمُجَانَبَةُ، وقد عَانَدَه إذا جَانَبَه، والمُعانَدَةُ والعِنادُ أَن يَعْرِفَ الرجلُ الشيء فيأباه ويميل عنه، والعنيد الجائر عن القصد الباغي الذي يردّ الحق مع العلم به[(٢)].

---

(١) جمهرة اللغة لابن دريد ٢/٦٦٥، تحقيق رمزي منير بعلبكي، نشر دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٧م، والصحاح في اللغة للجوهري١/٤٩٩، والمخصص لابن سيده ٣/٣٥٠ نشر دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤١٧هـ، والمحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ٢/١٨ بتصرف.

(٢) انظر بتصرف تهذيب اللغة للأزهري ٢/١٣١، ولسان العرب ٣/٣٠٧، وتاج العروس ٨/٤٢٤، والنهاية في غريب الأثر ٣/٣٠٨.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴾ ق:٢٣/٢٦. قال قتادة: العنيدُ المُعْرِضُ عن طاعة الله تعالى[١].

والاستكبار ما يقابل معاني الخضوع والإذعان والطاعة والانقياد والعبادة، وهو طلب العلو والخروج عن حد العبودية.

قال الله تعالى: ﴿ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ ﴾ النساء:١٧٢. أي لن يأنف المسيح أو يترفع عن أن يكون عبدا لله عز وجل مقرا له بالعبودية والخضوع والإذعان، فهو عارف بعظمة الله وما يجب له من العبودية، كذلك لن يأنف الملائكة المقربون عن ذلك، ومن يتكبّر على ذلك أيا كان، فإن الله عز وجل سيحشرهم يوم القيامة ويجزيهم أشد الجزاء[٢].

ولذلك قرن الله سبحانه وتعالى نفي الاستكبار بما يقابله من السجود والخضوع وهي أعمال للجوارح، فقال: ﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾ النحل:٤٩/٥٠.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ﴿١٥﴾ ﴾ السجدة:١٥.

---

(١) لسان العرب ٣/٣٠٧ بتصرف.

(٢) تفسير ابن جرير الطبري ٩/٤٢٥ بتصرف.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ الأعراف:٢٠٦.

وقال تعالى في كفر إبليس: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ البقرة:٣٤. فكفر إبليس كفر الإِباء والاستكبار مع التصديق فإنه لم يجحد أمر الله ولم ينكره، ولكن قابله بالإِباء والاستكبار، وهذا شأن من يقر أَنَّ ما جاء به الرسول ﷺ حق من رَبِّه، لكنه يرفض اتباعه أَشرا وبطرا واحتقارا للحق وأَهله ففيه شبه من كفر إبليس.

وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ ﴾ النساء:١٧٣.

وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ النحل:٤٩.

- أركان كفر العناد والاستكبار المخرج عن الملة.

إذا امتنعت الجوارح عن الطاعة وتنفيذ الأمر مع سلامتها من الموانع وتحقق علم القلب والتصديق بالحق، ووجد أيضا الإقرار ونطق اللسان بالشهادتين نشأ عن ذلك كفر العناد والاستكبار، وانتفى بالضرورة عمل القلب، لأن انتفاء عمل الجوارح دليل على خلو القلب من العمل والإيمان، ومثاله كفر إبليس، وكفر المصر على ترك الصلاة، لا يصلي طول الحياة، وكفر الحاكم الممتنع عن تنفيذ شرع الله وأحكامه.

وقد يكون العناد والاستكبار وصف الجاحدين أيضا لأن كلا منهما علة من علل الجحود، لكن الفارق بين النوعين أن كفر الجحود انتفى فيه الإقرار باللسان، ولم ينطق المرء بالشهادتين، فكتمهما جحودا مع التصديق بهما، أما كفر العناد والاستكبار فقد نطق المرء باللسان وصدق بالجنان فانتفى عنه كفر الجحود، وبقي امتناعه عن تنفيذ أمر الله بالجوارح فظهر العناد والاستكبار وصفا مميزا لمن انتفي عنه عمل الجوارح كركن من أركان الإيمان، وهذا ناشئ بالضرورة عن انتفاء عمل القلب في الإنسان.

قال الشيخ حافظ الحكمي: (كفر العناد والاستكبار هو ما كان بعدم الانقياد للحق مع الإقرار به ككفر إبليس؛ إذ يقول الله تعالى فيه: إِلا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ، وهو لم يمكنه جحود أمر الله بالسجود ولا إنكاره، وإنما اعترض عليه وطعن في حكمه الآمر به وعدله وقال: أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا، وقال: لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ، وقال: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) [1].

والدليل على معرفة إبليس وعلمه وتصديقه أن الله ﷻ حق، وأن وعده حق، وأن الله سبحانه ربه وخالقه الخالق لسائر الأشياء هو ما ورد في قول الله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ۝٧٦﴾ ص:٧٦. فقوله خلقتني دليل علمه وإقراره بذلك، وكان عابدا بين الملائكة قبل ذلك، وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن

(١) أعلام السنة المنشورة للشيخ حافظ حكمي ص٢٢٩.

نَارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ الأعراف:١٢. وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ إبراهيم:٢٢.

وأما الدليل على القول الظاهري فهو واضح مما عبر به لربه عما في نفسه وإقراره إلا يسجد إلا الله فقط دون آدم، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ الحجر:٣٢/٣٣.

والدليل على انتفاء العمل الظاهر فسقه وامتناعه وعناده واستكباره عن السجود، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ الكهف:٥٠. وقال سبحانه: ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ الأعراف:١٣.

ومن ثم فإن كفر إبليس كفر عناد واستكبار لأنه امتنع عن تنفيذ أمر الله ﷻ وعارضه محتجا بأنه لا يمكن أن يخضع الفاضل للمفضول فرفض مستكبرا، ولم يردّ أمر الله مكذبا، فهو مصدِّق بربه وأمره، ومقرٌّ بلسانه، ومعترف أيضًا بقلبه، ومع ذلك ما نفعه؛ لأنه لم يذعن لله ولم يخضع لأمره.

وقد تأوّل بعضهم قوله تعالى: وكان مِن الْكافِرين. أنه كان كافرا قبل الأمر بالسجود وهذا لا وجه له؛ لأنه لو كان كافرا قبل أن يؤمر بالسجود لما كان في عداد الملائكة، لو كان كافرا قبل أن يؤمر بالسجود ما أمر بالسجود، وما دخل في قوله تعالى: وإِذْ قُلْنا لِلْملائِكةِ اسْجُدُوا لآدم. ولا كان عاصيا حينما امتنع من السجود.

وهل يجوز لمن يعرف الله وكتابه وما جاء من عنده أن يثبت الإيمان لإبليس اليوم بقوله: خلقْتنِي مِنْ نارٍ وخلقْتهُ مِنْ طِينٍ؟ ولما كان هذا ممتنعا فدلّ ذلك على أن كفر إبليس إنما هو كفر إباءٍ والاستكبار، بعد أن كان مخاطبا مع الملائكة بالسجود[1].

قال ابن تيمية: (إن الإيمان وإن كان يتضمن التصديق، فليس هو مجرد التصديق، وإنما هو الإقرار والطمأنينة، وذلك لأن التصديق إنما يعرض للخبر فقط، فأما الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أمر، وكلام الله خبر وأمر، فالخبر يستوجب تصديق المخبر، والأمر يستوجب الانقياد والاستسلام، وهو عمل في القلب جماعه الخضوع والانقياد للأمر، وإن لم يفعل المأمور به، فإذا قوبل الخبر بالتصديق والأمر بالانقياد، فقد حصل أصل الإيمان في القلب، وهو الطمأنينة والإقرار، فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة، وذلك إنما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد، وإذا كان كذلك فالسب إهانة واستخفاف، والانقياد للأمر إكرام وإعزاز، ومحال أن يهين القلب من قد انقاد له وخضع واستسلم، أو يستخف به، فإذا حصل في القلب استخفاف واستهانة امتنع أن يكون فيه انقياد أو استسلام فلا يكون فيه إيمان، وهذا هو بعينه كفر إبليس، فإنه سمع أمر الله فلم يكذب رسولا، ولكن لم ينقد للأمر، ولم يخضع له، واستكبر عن الطاعة فصار كافرا) [2].

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص٩١، شرح كتاب الإيمان للإمام أبي عبيد القاسم بن سلام شرح الشيخ عبد العزيز الراجحي ص١٧١ .

(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية ٩٦٧/٣.

ثم بين أن هذا موضع زاغ فيه خلق من الخلف، تخيل لهم أن الإيمان ليس في الأصل إلا التصديق، ثم يرون مثل إبليس وفرعون ممن لم يصدر عنه تكذيب، أو صدر عنه تكذيب، أو صدر عنه تكذيب باللسان لا بالقلب، وكفره من أغلظ الكفر فيتحيرون، ولو أنهم هدوا لما هدي إليه السلف الصالح لعلموا أن الإيمان قول وعمل، أعني في الأصل قولا في القلب وعملا في القلب، فإن الإيمان بحسب كلام الله ورسالته، وكلام الله ورسالته يتضمن أخباره وأوامره، فيصدق القلب إخباره تصديقا يوجب حالا في القلب بحسب المصدق به، والتصديق هو من نوع العلم والقول وينقاد لأمره ويستسلم، وهذا الانقياد والاستسلام هو من نوع الإرادة والعمل، ولا يكون مؤمنا إلا بمجموع الأمرين، فمتى ترك الانقياد كان مستكبرا فصار من الكافرين وإن كان مصدقا، فالكفر أعم من التكذيب، يكون تكذيبا وجهلا، ويكون استكبارا وظلما، ولهذا لم يوصف إبليس إلا بالكفر والاستكبار دون التكذيب، ولهذا كان كفر من يعلم مثل اليهود ونحوهم من جنس كفر إبليس، وكان كفر من يجهل مثل النصارى ونحوهم ضلالا وهو الجهل[1].

ألا ترى أن نفرا من اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ وسألوه عن أشياء فأخبرهم فقالوا: نشهد أنك نبي ولم يتبعوه، وكذلك هرقل وغيره فلم ينفعهم هذا العلم وهذا التصديق؟ ألا ترى أن من صدق الرسول ﷺ بأن ما جاء به هو رسالة الله، وقد تضمنت خبرا وأمرا، فإنه يحتاج إلى مقام

---

(١) السابق ٣/٩٦٨.

ثان وهو تصديقه خبر الله وانقياده لأمر الله، فإذا قال: أشهد أن لا إله إلا الله، فهذه الشهادة تتضمن تصديق خبره والانقياد لأمره، وأشهد أن محمدا رسول الله تضمنت تصديقه فيما جاء به من عند الله، فبمجموع هاتين الشهادتين يتم الإقرار، فلما كان التصديق لابد منه في كلتا الشهادتين وهو الذي يتلقى الرسالة بالقبول، ظن من ظن أنه أصل لجميع الإيمان، وغفل عن أن أصل الآخر لابد منه وهو الانقياد، وإلا فقد يصدق الرسول ظاهرا وباطنا ثم يمتنع من الانقياد للأمر، إذ غايته تصديق الرسول ﷺ أن يكون بمنزلة من سمع الرسالة من الله سبحانه وتعالى كإبليس[1].

وهذا مما يبين لك أن الاستهزاء بالله أو برسوله ينافي الانقياد له، لأنه قد بلغ عن الله ﷻ أنه أمر بطاعته، فصار الانقياد له من تصديقه في خبره، فمن لم ينقد لأمره فهو إما مكذب له، أو ممتنع عن الانقياد لربه وكلاهما كفر صريح، ومن استخف به واستهزأ بقلبه امتنع أن يكون منقادا لأمره، فإن الانقياد إجلال وإكرام، والاستخفاف إهانة وإذلال، وهذان ضدان، فمتى حصل في القلب أحدهما انتفى الآخر، فعلم أن الاستخفاف والاستهانة به ينافي الإيمان منافاة الضد للضد[2].

• الفرق بين ترك الصلاة عمدا وتكاسلا وتحقيق مصطلح التكاسل.

قبل الحديث عن كفر تارك الصلاة، لا بد من بيان الفرق بين ترك الصلاة عمدا وتكاسلا من جهة، ثم تحقيق مصطلح التكاسل من جهة

---

(١) السابق ٣/٩٦٩ بتصرف.

(٢) السابق ٣/٩٦٩ بتصرف.

أخرى، فتارك الصلاة الذي يقول لا إله إلا الله، ويعلم حكمها، ويقر بوجوبها، ثم يعرض عن أدائها، ولا يقوم لله ﷻ بأداء فرض واحد منها، ويصر على الترك مهما وجه إليه النصح، فهذا يسمى تاركا للصلاة بالكلية عامدا متعمدا وهو كافر بالله العظيم، وعليه يدور اتفاق من تكلموا في الحكم عليه بالكفر في عصر السلف الصالح وبلا نزاع.

وقد ذكر ابن القيم أنه من العجب أن يقع الشك في كفر من أصر على تركها، ودعي إلى فعلها على رؤوس الملأ، وهو يرى بارقة السيف على رأسه، ويشد للقتل، وعصبت عيناه، وقيل له تصلي وإلا قتلناك، فيقول: اقتلوني ولا أصلي أبدا، ثم يأتي من لا يكفر تارك الصلاة ويقول للناس: هذا مؤمن مسلم يغتسل ويصلي عليه ويدفن في مقابر المسلمين. وبعضهم يقول: إنه مؤمن كامل الإيمان إيمانه كإيمانه جبريل وميكائيل، أفلا يستحي من هذا قوله من إنكاره تكفير من شهد بكفره الكتاب والسنة واتفاق الصحابة [1].

ومن ثم فإن تارك الصلاة مصرا على تركها حتى يقتل، فهو كافر بالله العظيم اتفاقا، وقد انتفى في حقه عمل الجوارح، وانهدم ركن من أركان الإيمان، وينهدم معه عمل القلب بدلالة اللزوم، فلو أقيم السيف على رقبته ففضل الموت على الصلاة فلا ينفعه تصديق القلب، ولا قول اللسان، وإن كان هذا ممتنا في الواقع، لأن من وضع السيف على رقبته صلى نفاقا واختيار لأخف الضررين بحساباته الدنيوية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (لهذا فرض متأخرو الفقهاء مسألة

---

(١) كتاب الصلاة وحكم تاركها لابن القيم ص٨٢.

يمتنع وقوعها، وهو أن الرجل إذا كان مقرا بوجوب الصلاة فدعي إليها وامتنع واستتيب ثلاثا مع تهديده بالقتل فلم يصل حتى قتل، هل يموت كافرا أو فاسقا؟ على قولين.

وهذا الفرض باطل فإنه يمتنع في الفطرة أن يكون الرجل يعتقد أن الله ﷻ فرضها عليه، وأنه يعاقبه على تركها، ويصبر على القتل، ولا يسجد لله سجدة من غير عذر له في ذلك، هذا لا يفعله بشر قط، بل ولا يضرب أحد ممن يقر بوجوب الصلاة إلا صلى، لا ينتهي الأمر به إلى القتل، وسبب ذلك أن القتل ضرر عظيم، لا يصبر عليه الإنسان إلا لأمر عظيم، مثل لزومه لدين يعتقد أنه إن فارقه هلك، فيصبر عليه حتى يقتل، وسواء كان الدين حقا أو باطلا.

أما مع اعتقاده أن الفعل يجب عليه باطنا وظاهرا، فلا يكون فعل الصلاة أصعب عليه من احتمال القتل قط، ونظير هذا لو قيل إن رجلا من أهل السنة قيل له ترض عن أبي بكر وعمر، فامتنع عن ذلك حتى قتل مع محبته لهما واعتقاده فضلهما، ومع عدم الأعذار المانعة من الترضي عنهما فهذا لا يقع قط.

وكذلك لو قيل إن رجلا يشهد أن محمدا رسول الله باطنا وظاهرا وقد طلب منه ذلك، وليس هناك رهبة ولا رغبة يمتنع لأجلها، فامتنع منها حتى قتل، فهذا يمتنع أن يكون في الباطن يشهد أن محمدا رسول الله؛ ولهذا كان القول الظاهر من الإيمان الذي لا نجاة للعبد إلا به عند عامة السلف والخلف من الأولين والآخرين إلا الجهمية[1].

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/٢١٩.

وذكر ابن تيمية شأن من اعتقد وجوب الصلاة مع إصراره على الترك، وما ذكره بعض الفقهاء من فروع فاسدة في تساؤلهم الممتنع وجوده كقولهم: إذا صبر تارك الصلاة حتى يقتل، فهل يقتل كافرا مرتدا أو فاسقا كفساق المسلمين؟

ثم قال رحمه الله: (هذه الفروع لم تنقل عن الصحابة ﷺ، وهي فروع فاسدة، فإن كان مقرا بالصلاة في الباطن، معتقدا لوجوبها، يمتنع أن يصر على تركها حتى يقتل وهو لا يصلي، هذا لا يعرف من بني آدم وعادتهم؛ ولهذا لم يقع هذا قط في الإسلام، ولا يعرف أن أحدا يعتقد وجوبها، ويقال له إن لم تصل وإلا قتلناك، وهو يصر على تركها مع إقراره بالوجوب، فهذا لم يقع قط في الإسلام، ومتى امتنع الرجل من الصلاة حتى يقتل لم يكن في الباطن مقرا بوجوبها، ولا ملتزما بفعلها، وهذا كافر باتفاق المسلمين، كما استفاضت الآثار عن الصحابة ﷺ بكفر هذا، ودلت عليه النصوص الصحيحة)[١].

وقال ابن تيمية: (ولا يتصور في العادة أن رجلا يكون مؤمنا بقلبه، مقرا بأن الله ﷻ أوجب عليه الصلاة، ملتزما لشريعة النبي ﷺ وما جاء به، يأمره ولي الأمر بالصلاة فيمتنع حتى يقتل، ويكون مع ذلك مؤمنا في الباطن قط، لا يكون إلا كافرا، ولو قال: أنا مقر بوجوبها غير أني لا أفعلها، كان هذا القول مع هذه الحال كذبا منه، كما لو أخذ يلقي المصحف في الحش ـ النجاسة ـ ويقول: أشهد أن ما فيه كلام الله، أو جعل يقتل نبيا من الأنبياء ويقول: أشهد أنه رسول

---

(١) السابق ٢٢/٤٨.

الله، ونحو ذلك من الأفعال التي تنافي إيمان القلب، فإذا قال: أنا مؤمن بقلبي مع هذه الحال كان كاذبا فيما أظهره من القول، فهذا الموضع ينبغي تدبره، فمن عرف ارتباط الظاهر بالباطن زالت عنه الشبهة في هذا الباب، وعلم أن من قال من الفقهاء أنه إذا أقر بالوجوب وامتنع عن الفعل لا يقتل، أو يقتل مع إسلامه؛ فإنه دخلت عليه الشبهة التي دخلت على المرجئة والجهمية، والتي دخلت على من جعل الإرادة الجازمة مع القدرة التامة، لا يكون بها شيء من الفعل.

ولهذا كان الممتنعون من قتل هذا من الفقهاء بنوه على قولهم في مسألة الإيمان، وأن الأعمال ليست من الإيمان، وقد تقدم أن جنس الأعمال من لوازم إيمان القلب، وأن إيمان القلب التام بدون شيء من الأعمال الظاهرة ممتنع، سواء جعل الظاهر من لوازم الإيمان، أو جزءا من الإيمان كما تقدم بيانه، وحينئذ فإذا كان العبد يفعل بعض المأمورات ويترك بعضها كان معه من الإيمان بحسب ما فعله، والإيمان يزيد وينقص، ويجتمع في العبد إيمان ونفاق)[1].

وبهذا يتبين أن المصر على ترك الصلاة بالكلية طول دهره أو مدة لبثه في الحياة، هو المعنِيُّ بالتكفير بإجماع الصحابة ﷺ والتابعين، أما ترك الصلاة تكاسلا فقد اختلط مع المعنى السابق للتارك عامدا، وظن كثيرون أن الترك بالكلية ينقسم إلى نوعين فقد يكون عمدا أو تكاسلا، وليس هذا ما يدل عليه مصطلح التكاسل، فالتكاسل حال في الإنسان لا يدوم وغير مستمر، فلا بد أن يعقبه نشاط وفعل، لأن المتكاسل في

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/٦١٦.

حقيقته مؤد للعمل بصورة ضعيفة أو ضعيفة جدا، ولو انعدمت أصبح تاركا لا متكاسلا، فحقيقة أمره أنه فاعل مرة متكاسل مرة أخرى، أما دوام التكاسل بمعنى الترك الكلي طول دهره فيمتنع وقوعه عقلا، فإن المتكاسل لا محالة ينشط في وقت دون وقت، ولا يمكن وقوع التكاسل المستمر في جميع أعماله، بدليل أنه نشيط في غير أداء الفرائض من أموره الدنيوية، ومن ثم فلا يتصور التكاسل مع استمرار الترك وخلو الموانع على مدار الدهر الذي يحياه التارك، وإنما التكاسل هو تقصير صغير أو كبير في أداء بعض الفروض دون بعض، فربما يصلي فرضا في اليوم ويترك الباقي، أو يصلي بعض الفروض في الأسبوع أو الشهر، أو لا يصلي إلا الجمع والأعياد، أو لا يصلي إلا في رمضان، فهذا هو المتكاسل عن الصلاة إذا ذكر، لا أن يترك الصلاة بالكلية ثم نقول عن تركه لها إنه تركها تكاسلا وليس عامدا، فهذا من الفرض الممتنع وجوده في الواقع، أن يبقى طول دهره بعد علمه بالصلاة وقدرها، وعلمه بالعقوبة المشددة التي وردت في تركها، وإطلاق النبي ﷺ للكفر على من تركها، ثم يقول القائل: إنما تركها طول عمره متكاسلا، ولهذا فإن تحقيق مصطلح التكاسل على ما ذكرنا سوف ينحل به النزاع في كفر تارك الصلاة بتوفيق الله ﷻ وهدايته.

وإذا انضم لذلك الفهم مراعاة صعوبة الحكم على شخص معين بالكفر في مثل هذه الأيام التي خلت من نظام الحسبة في الإسلام، ومحاسبة تارك الصلاة أمام القضاء بأمر السلطان، كما كان حال العمل بأحكام الشرع في دولة الإسلام، وإلزام ولي الأمر أو القاضي أو

السلطان بتحقيق أمر تارك الصلاة، ومحاكمته حتى يتم العلم بحاله والاستبيان، هل هو مصر على الترك والعصيان؟ أو معتذر بأنه إنما ترك الصلاة كسلان، وسوف يصلي الصلاة لوقتها بعد كل أذان، إذا انضم ذلك لمسألة تارك الصلاة زال الخلاف حولها، وعُلمت أحوال التارك وأحكامها.

أما مع تعطيل الأحكام فليس للمسلم إلا أن يبين حكم التارك على الوضع العام في دلالة النصوص على كفر تارك الصلاة عامدا كفرا أكبر مخرجا من الملة، وبيان حرصه على أن يأخذ بيده إلى طريق الإيمان، والدعاء له بالهداية إلى تحقيق أركان الإسلام والإيمان.

- دلالة النقل على أن تارك الصلاة بالكلية كافر مرتد خارج عن الملة.

لا يقبل الله ﷻ من العبد شيئا من أعماله إلا بفعل الصلاة، فهي مفتاح ديوانه، ورأس مال ربحه، ومحال بقاء الربح بلا رأس مال، فإذا خسرها خسر أعماله كلها، ولذلك فقد دلت نصوص الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة، والنظر الصحيح على تارك الصلاة كافر كفرا مخرجا عن الملة [(١)]. وبيان ذلك كما يلي:

١- أما من الكتاب ففي قوله تعالى عن المشركين: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ التوبة:١١. وجه الدلالة من هذه الآية الكريمة أن الله

(١) انظر كتاب الصلاة لابن القيم ص٨١، وانظر أيضا فقه العبادات للشيخ محمد بن عثيمين ص١٢٥ بتصرف.

اشترط لثبوت الأخوة بين هؤلاء المشركين وبين المؤمنين ثلاثة شروط، التوبة من الشرك، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، فإذا تخلف أحد هذه الثلاثة لم يكونوا إخوة لنا في الدين، ولا تنتفي الأخوة في الدين إلا بالكفر المخرج عن الملة، فإن المعاصي مهما عظمت إذا لم تصل إلى حد الكفر لا تخرج عن الأخوة في الدين، ألا ترى إلى قوله تعالى في آية القصاص فيمن قتل أخاه عمدا: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ البقرة:١٧٨. فجعل الله تعالى القاتل أخا للمقتول، مع أن قتل المؤمن عمدا من أعظم الكبائر.

ثم ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ الحجرات:٩/١٠. فجعل الله الطائفة الثالثة المصلحة إخوة للطائفتين المقتتلتين، مع أن قتال المؤمن من أعظم الذنوب، وهذا يدل على أن الأخوة في الدين لا تنتفي بالمعاصي أبدا إلا ما كان كفرا [١].

وشرح الآية المذكورة أنهم إن بقوا على الشرك فكفرهم ظاهر، وإن آمنوا ولم يصلوا فكفرهم أيضا ظاهر معلوم من الجملة الشرطية، فإن تابوا وأقاموا الصلاة أي تابوا من الشرك، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، إلا أن مسألة الزكاة فيها خلاف بين أهل العلم، هل يكفر الإنسان إذا تركها أو لا يكفر، وفيه عن أحمد روايتان، لكن الذي تقتضيه وتدل

(١) انظر فقه العبادات للشيخ محمد بن عثيمين ص١٢٦ بتصرف.

عليه السنة أن تارك الزكاة لا يكفر.

ويدل لذلك ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: (ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة، صفحت له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى به جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار) (١). فإن هذا الحديث يدل على أنه لا يكفر بمنع الزكاة، إذ لو كفر لم يكن له سبيل إلى الجنة، وعلى هذا فتكون الزكاة خارجة من هذا الحكم بمقتضى دلالة السنة.

٢- أما الدليل من السنة على كفر تارك الصلاة، فقوله ﷺ فيما رواه مسلم من حديث جابر ﵁: (بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة) (٢). ووجه الدلالة من الحديث أنه جعل هناك فاصلا بين الإيمان والكفر وهو الصلاة، وهو واضح في أنه لا إيمان لمن لم يصل، لأن هذا هو مقتضى الحد، إذ إن الحد يفصل بين المحدودين. وقوله: بين الرجل وبين الشرك والكفر، ولم يقل: بين الرجل وبين كفر منكرا، والكفر إذا دخلت عليه أل كان المراد به الكفر الحقيقي، بخلاف ما إذا كان منكرا، كما في قوله ﷺ: (اثنتان في الناس هما بهم كفر، الطعن

---

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة ٢/٥٠٨ (١٣٣٧)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة ٢/٦٨٠ (٩٨٧).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة ١/٨٨ (٨٢).

في النسب، والنياحة على الميت) [١]. فإن هذا لا يقتضي الخروج من الإسلام، لأنه قال: هما بهم كفر، يعني هاتين الخصلتين.

٣- أما أقوال الصحابة ﷺ فقد قال عبد الله بن شقيق رحمه الله: (كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة) [٢]. وقد نقل إسحاق بن راهويه رحمه الله إجماعهم على أن تارك الصلاة كافر. وكل إنسان عرف الصلاة وقدرها وعناية الشريعة بها، ثم يدعها بدون عذر، وليس له حجة أمام الله ﷻ، فإن ذلك دليل واضح على أنه ليس في قلبه من الإيمان شيء، إذ لو كان في قلبه من الإيمان شيء ما ترك هذه الصلاة العظيمة التي دلت النصوص على العناية بها وأهميتها، والأشياء تعرف بآثارها، فلو كان في قلبه أدنى مثقال من إيمان لم يحافظ على ترك هذه الصلاة مع أهميتها وعظمها.

وبهذا تكون الأدلة السمعية والنظرية دالة على أن تارك الصلاة كافر كفرا مخرجا عن الملة، وتكون مقتضية للحذر من هذا العمل الشنيع الذي تهاون به اليوم كثير من الناس[٣].

قال تعالى: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن فى النسب والنياحة على الميت ١/٨٢ (٦٧).

(٢) الترمذي في الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة ٥/١٤ (٢٦٢٢)، وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٥٧٩)، وصحيح الترغيب والترهيب (٥٦٥).

(٣) فقه العبادات للشيخ محمد بن عثيمين ص١٢٧ بتصرف.

﴿٦٠ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ٦١ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢﴾ مريم:٥٩/٦٢.

• **النظر في رأي الإمام الطحاوي أن تارك الصلاة لا يكفر إلا بجحودها.**

قال الإمام الطحاوي: (باب بيان مشكل ما روي عن رسول الله ﷺ في تارك الصلاة من المسلمين لا على الجحود لها، هل يكون بذلك مرتدا عن الإسلام أم لا؟) [١].

ثم أورد بسنده إلى ابن محيريز أن رجلا من بني كنانة يدعى المخدجي سمع رجلا بالشام يدعى أبا محمد يقول: إن الوتر واجب. قال المخدجي فرحت إلى عبادة بن الصامت ﷺ، فاعترضته وهو رائح إلى المسجد، فأخبرته بالذي قال أبو محمد: فقال عبادة: كذب أبو محمد سمعت رسول الله ﷺ يقول خمس صلوات كتبهن الله على العباد فمن جاء بهن لم يضيع منهن شيئا استخفافا بحقهن، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة[٢].

وقد أورد أيضا هذا المعنى من حديث كعب بن عجرة الأنصاري ﷺ أنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في المسجد سبعة منا ثلاثة من عربنا وأربعة من موالينا فقال ما يجلسكم هنا ؟ قلنا الصلاة قال:

---

(١) شرح مشكل الآثار لأبي جعفر الطحاوي ١٩٣/٨.

(٢) شرح مشكل الآثار ١٩٣/٨، والحديث رواه أبو داود في سننه، كتاب الوتر، باب فيمن لم يوتر، ٦٢/٢ (١٤٢٠)، وأحمد في المسند ٣١٥/٥ (٢٢٧٤٥)، وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٥٧٠).

فنكت بأصبعه في الأرض ثم نكس ساعة ثم رفع إلينا رأسه فقال: تدرون ما يقول ربكم؟ قلنا: الله ورسوله أعلم قال: إنه يقول من صلى الصلاة لوقتها، وأقام حدها كان له به على الله عهد إذا جاءه الجنة، ومن لم يقم الصلاة لوقتها ولم يقم حدها لم يكن له به عندي عهد إن شئت أدخلته النار، وإن شئت أدخلته الجنة [١].

ومن تأمل الحديثين بمفهوم المخالفة وجد أنه المخالف من أصحاب الكبائر هو الذي يأتي بهن على تقصير شديد، فترك منهن شيئا استخفافا بحقهن، ولم يقم الصلاة لوقتها، بل أخرها عن وقتها، ولم يقم حدها كما ينبغي، وإنما قصر في أدائه لها، وهذا هو المتكاسل الذي تقدم وصفه، وصاحبه تحت المشيئة كما تقدم، غير أن الإمام الطحاوي رحمه الله حمل الحديثين على من تركها بكليتها مصرا على تركها عامد، وجعله من أصحاب الكبائر تحت المشيئة، وليس خارجا عن الملة كما ذهب السلف لذلك، وهذا من الإمام الطحاوي خطأ بين يتوافق مع مذهب المرجئة الذين يجعلون الإيمان تصديق بالجنان وقول باللسان دون عمل الجوارح والأركان، والإمام الطحاوي نفسه قد صرح به في عقيدته فقال: (والإيمان هو الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان، وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق، والإيمان واحد، وأهله في أصله سواء) [٢].

---

(١) شرح مشكل الآثار ١٩٩/٨، والحديث رواه أيضاً الدارمي في سننه، كتاب الصلاة، باب استحباب الصلاة في أول الوقت ٣٠٣/١ (١٢٢٦)، وعبد بن حميد في مسنده ١٤٥/١ (٣٧١)، وقال حسين سليم أسد: إسناده جيد.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٣٧٣.

وقد أدي هذا المعتقد الإرجائي الذي لم يوفق فيه الإمام الطحاوي أن يجعل كفر تارك الصلاة كفرا دون كفر مهما كان نوع الترك عامدا أو متكاسلا، فقال: (فكان في حديث عبادة ﷺ أن من لم يأت بهن يعني الصلوات الخمس، وفي حديث كعب ﷺ من لم يقم الصلاة لوقتها، ولم يقم حدها، ثم في حديثيهما جميعا لم يكن له عند الله عهد، إن شاء عذبه في حديث عبادة ﷺ، وفي حديث كعب أدخله النار ﷺ، وفي حديثيهما جميعا: وإن شاء أدخله الجنة، فكان في ذلك ما قد دل أنه لم يخرجه بذلك من الإسلام فيجعله مرتدا مشركا؛ لأن الله ﷻ لا يدخل الجنة من أشرك به، لقوله تعالى: إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة. ولا يغفر له لقوله ﷻ: إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

فقال قائل: كيف تقبلون هذا عن رسول الله ﷺ وأنتم تروون عنه من حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: بين العبد وبين الكفر. أو قال: الشرك ترك الصلاة. وبين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة؟ فكان جوابنا له في ذلك بتوفيق الله ﷻ وعونه أن الكفر المذكور في هذا الحديث خلاف الكفر بالله ﷻ، وإنما هو عند أهل اللغة أنه يغطي إيمان تارك الصلاة ويغيبه حتى يصير غالبا عليه مغطيا له. ومن ذلك قول الله ﷻ: كمثل غيث أعجب الكفار نباته. يعني الزراع الذين يغيبون ما يزرعون في الأرض لا الكفار بالله ﷻ. ومن ذلك ما قد روي عن النبي ﷺ في حديث كسوف الشمس عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ورأيت أو أريت النار ورأيت أكثر أهلها النساء قالوا: لم يا رسول الله؟ قال: بكفرهن قيل أيكفرن بالله ﷻ؟ قال:

يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان[١]. فسمى ما يكون منهن مما يغطين به الإحسان كفرا. ومن ذلك ما قد روي عن رسول الله ﷺ من قوله: سباب المسلم فسوق وقتاله كفر[٢]. ولم يكن ذلك على الكفر بالله ﷻ، ولكنه ما قد ركب إيمانه وغطاه من قبيح فعله، ومثل ذلك قوله: ليس بين العبد وبين الكفر إلا ترك الصلاة. هو من هذا المعنى أيضا، والله أعلم حتى تصح هذه الآثار ولا تختلف) [٣].

- رد ابن تيمية على من قال برأي الإمام الطحاوي في تارك الصلاة .

قال ابن تيمية: (فإن قيل هذا محمول على كفر دون كفر كما قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ المائدة:٤٤. كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق.. وكما قال ﷺ: الرياء هو الشرك الأصغر. وكقوله ﷺ: سباب المسلم فسوق وقتاله كفر. وقال: لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض. وقال: اثنتان في الناس هما بهم كفر الطعن في النسب والنياحة على الميت) [٤].

ثم بين أن بعض الناس ربما قال: يحمل على كفر النعمة أو على

---

(١) رواه البخاري في كتاب النكاح، باب كفران العشير ٥/١٩٩٤ (٤٩٠١).

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر ١/٢٧ (٤٨)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان قول النبي ﷺ باب المسلم فسوق وقتاله كفر ١/٨١ (٦٤).

(٣) شرح مشكل الآثار لأبي جعفر الطحاوي ٨/٢٠٤.

(٤) شرح العمدة لابن تيمية ٤/٧٧.

المبالغة والتغليظ في الشرك، لأن الكفر الناقل عن الملة والشرك الذي لا يغفره الله ﷻ، والنفاق الموجب للدرك الأسفل من النار لا يثبت بمجرد هذه الأفعال عند أحد من أهل السنة، لكن عند الخوارج والمعتزلة الذين تأولوا ظاهر هذا الكلام على وفق رأيهم، واعرضوا عما سواه مما يفسره ويبين معناه الذي هو خلاف الإيمان.

قيل: الكفر المطلق لا يجوز إن يراد به إلا الكفر الذي هو خلاف الإيمان، لأن هذا هو المعنى الشرعي، ولاسيما إذا قوبل بالإيمان، فإنه يجب حمله على ذلك، ثم لو صح هذا في بعض المواضع، فهنا إنما أراد به الكفر المخالف للإيمان كما نص عليه في الحديث، وتأويله بكفر النعمة فساقط في جميع هذه المواضع، ولذلك لم ينقل هذا عن السلف، لأن كفر النعمة إن أريد به جحد إنعام الله ﷻ عليه، فهذا كفر صريح، مع إن هذه المواضع ليس فيها ما يتضمن جحد الإنعام بخصوصه، وإن أريد به التقصير في الشكر، فليس بعض الأعمال بهذا أولى من بعض، بل كل من ترك شيئا من الفرائض فقد قصر في شكر نعمة الله ﷻ، فينبغي أن يسمى كافرا على هذا الوجه، ثم إنه لا مناسبة بين ذلك وبين أكثر هذه المواضع لمن تدبره من الدلالات الكثيرة في الكتاب والسنة.

وأما قول من يقول هو على سبيل المبالغة والتغليظ، فلعمري أي مبالغة أو تغليظ، لكن على الوجه المحدود من غير مجازفة ولا مجاوزة، ومن اعتقد أن رسول الله ﷺ يمدح عملا على سبيل الترغيب، أو يذمه على سبيل الترهيب بمجاوزة في موضعه، وزيادة في نعته، فقد قال قولا عظيما، بل قد كفر بالله ورسوله ﷺ إن فهم مضمون كلامه وأصر

عليه، كيف وهو ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، نعم هو ﷺ يرغّب في الشيء بذكر أحسن صفاته من غير مجاوزة حده، ويذم الفعل القبيح ببيان أقبح صفاته من غير مجاوزة أيضا، إنما يجوز أن يظن المبالغة الزائدة عن الحد بسائر الناس الذين لا يحفظون منطقهم، ولا يُعصمون في كلامهم، لاسيما الشعراء ونحوهم، ولهذا زجر الإمام أحمد عن تأويل أحاديث الوعيد، حيث تأولها المرجئة على أشياء يخرجها عن مقصود الرسول ﷺ كما تأولت الجهمية والقدرية الأحاديث المخالفة لأهوائهم تأويلا يخرجها عن مقصوده، وقد تحمل بعض الأحاديث الواردة في كفر فاعل الشيء على كفر دون كفر، لكن الكفر الوارد في ترك الصلاة هو الكفر الأعظم لعدة وجوه:

أحدها: أن الكفر المطلق هو الكفر الأعظم المخرج عن الملة، فينصرف الإطلاق إليه، وإنما صرف في مواضع أخرى غير الصلاة إلى غير ذلك من الكفر الأصغر لقرائن انضمت إلى الكلام، ومن تأمل سياق كل حديث وجده معه، وليس في أحاديث كفر تارك الصلاة شيء يوجب صرفه عن ظاهره، بل هنا ما تقرره على الظاهر.

الثاني: أن ذلك الكفر الوارد في حديث: سباب المسلم وقتاله كفر. كفر منكر مبهم، أما في أحاديث ترك الصلاة فقد عرف الكفر باللام بقوله: ليس بين العبد وبين الكفر، أو قال: الشرك. والكفر المعروف ينصرف إلى الكفر المعروف وهو المخرج عن الملة.

الثالث: أن في بعض الأحاديث فقد خرج عن الملة، وفي بعضها بينه وبين الإيمان، وفي بعضها بينه وبين الكفر، وهذا كله يقتضي أن

الصلاة حد تدخله إلى الإيمان إن فعله، وتخرجه عنه إن تركه.

الرابع: أن قوله: ليس بين العبد وبين الكفر إلا ترك الصلاة، وقوله: كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئا من الأعمال تركه كفر إلا الصلاة. لا يجوز إن يراد به إلا الكفر الأعظم، لأن بينه وبين غير ذلك مما يسمى كفرا أشياء كثيرة، ولا يقال: فقد يخرج عن الملة بأشياء غير الصلاة، لأنا نقول: هذا ذكر في سياق ما كان من الأعمال المفروضة وعلى العموم، وهذا يوجب تركه الكفر، وما سوى ذلك من الاعتقادات فإنه ليس من الأعمال الظاهرة.

الخامس: أن هذا الكلام خرج مخرج تخصيص الصلاة، وبيان مرتبتها على غيرها في الجملة، ولو كان ذلك الكفر فسقا لشاركها في ذلك عامة الفرائض.

السادس: أنه بيّن أن الصلاة هي العهد الذي بيننا وبين الكفار، وهم خارجون عن الملة ليسوا داخلين فيها، واقتضى ذلك أن من ترك هذا العهد فقد كفر، كما أن من أتى به فقد دخل في الدين، ولا يكون هذا إلا في الكفر المخرج عن الملة.

السابع: أن قول عمر رضي الله عنه: لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة [١]، أصرح شيء في خروجه عن الملة، وكذلك قول ابن مسعود رضي الله عنه وغيره، مع أنه بين أن إخراجها عن الوقت ليس هو الكفر، وإنما هو الترك بالكلية، وهذا لا يكون إلا فيما يخرج عن الملة، وفي هذه الوجوه يبطل

(٥) رواه ابن أبي شيبة في المصنف ٤٣٩/٧ (٣٧٠٧٤)، .

قول من حملها على من تركها جاحدا، وأيضا قوله: كانوا لا يرون شيئا من الأعمال تركه كفر. وقوله: ليس بين العبد وبين الكفر. وغير ذلك مما يوجب اختصاص الصلاة بذلك. وترك الجحود لا فرق فيه بين الصلاة وغيرها. ولأن الجحود نفسه هو الكفر من غير ترك، حتى لو فعلها مع ذلك لم ينفعه، فكيف يعلق الحكم على ما لم يذكر، ولأن المذكور هو الترك، وهو عام في من تركها جحودا أو تكاسلا، ولأن هذا عدول عن حقيقة الكلام من غير موجب فلا يلتفت إليه[1].

- المراد من الأحاديث الصحيحة الواردة في شأن من لم يعمل خيرا قط.

لا بد من بيان معاني الأحاديث التي يحاول البعض أن يجعلها دالة على نقصان الإيمان لمن ترك جميع الأعمال عامدا، كحديث لم يعملوا خيرا قط، وحديث البطاقة، وغيرها من الأحاديث؛ فليس فيها حجة لهؤلاء، فمن ترك جميع الأعمال بالكلية وزعم أنه يكتفي بما في قلبه من التصديق فإنه لا يقع إيمانه ولا يتحقق، ومن شهد بالتوحيد مخلصا فلا يمكن أبدا أن يدع الفرائض والعمل؛ لأن إخلاصه يحمله على أن يفعل.

وأما وجوه حمل الأحاديث المطلقة في الشهادتين فيمن لم يعمل خيرا قط، فبيانها كالتالي:

أحدها: أن الزهري يقول: كان هذا قبل إن تنزل الفرائض، ثم نزلت فرائض نرى أن الأمر انتهى إليها، فمن استطاع ألا يغتر فلا يغتر.

الثاني: أنها مطلقة عامة، وأحاديث الصلاة مقيدة خاصة، فيقضي

---

(١) شرح العمدة ٤/٨٢ بتصرف.

المطلق على المقيد، وكما روى الإمام أحمد في مسنده عن معاذ بن جبل قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: من لقي الله لا يشرك به شيئا، يصلي الخمس ويصوم رمضان غفر له. قلت أبشرهم يا رسول الله؟ قال: دعهم يعملوا [(١)]. ويحقق هذا أن من جحد آية من كتاب الله تعالى، أو علما ظاهرا من أعلام الدين فهو كافر، وإن اندرج في هذه العمومات.

الثالث: أنه ﷺ قصد بيان الأمر الذي لا بد منه في جميع الأشياء والذي قد يكتفى به عن غيره في جميع الخلق، وهو الشهادتان، فإن الصلاة قد لا تجب على الإنسان إذا أسلم ومات قبل الوقت، وربما أخرها ينوي قضاءها ومات قبل ذلك.

الرابع: أن هذا كله محمول على من يؤخرها عن وقتها، وينوي قضاءها، أو يحدث به نفسه كالأمراء الذين كانوا يؤخرون الصلاة حتى يخرج الوقت، وكما فسره ابن مسعود رضي الله عنه وبين أن تأخيرها عن وقتها من الكبائر، وإن تركها بالكلية كفر.

الخامس: أمر النبي ﷺ بالكف عن قتال هؤلاء الأئمة ما صلوا، فعلم أنهم لو تركوا الصلاة لقوتلوا، والإمام لا يجوز قتاله حتى يكفر، وإلا فبمجرد الفسق لا يجوز قتاله، ولو جاز قتاله بذلك لقوتل على تفويتها كما يقاتل على تركها، وهذا دليل مستقل في المسألة، ويحمل أيضا على من يخل ببعض فرائضها ببعض الأوقات وشبه ذلك، فأما من لا يصلي قط في طول عمره، ولا يعزم على الصلاة، ومات على غير توبة، أو

---

(١) رواه أحمد في المسند ٥/٢٣٢ (٢٢٠٨١)، وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح (٤٧)، والسلسلة الصحيحة (١٣١٥).

ختم له بذلك، فهذا كافر قطعا.

السادس: قوله ﷺ من لم يحافظ عليها. فإنه يفهم منه فعلها مع الإخلال بالمحافظة، ومثل ذلك ما روى أبو هريرة ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة المكتوبة، فإن أتمها وإلا قيل انظروا: هل من تطوع فأكملت الفريضة من تطوعه، ثم يفعل بسائر الأعمال المفروضة مثل ذلك) [(١)].

السابع: أن الإيمان عند أهل السنة والجماعة قول وعمل كما دل عليه الكتاب والسنة، وأجمع عليه السلف، وعلى ما هو مقرر في موضعه، فالقول تصديق الرسول ﷺ، والعمل تصديق القول، فإذا خلا العبد عن العمل بالكلية لم يكن مؤمنا، والقول الذي يصير به مؤمن قول مخصوص، وهو الشهادتان فكذلك العمل هو الصلاة.

الثامن: ما احتج به أحمد أن إبليس بامتناعه عن السجود لآدم قد لزمه الكفر واللعنة، فكيف من يمتنع عن السجود لله تعالى، وهذا لأن الكفر لو كان مجرد الجحد، أو إظهار الجحد لما كان إبليس كافرا، إذ هو خلاف نص القرآن.

التاسع: أن حقيقة الدين هو الطاعة والانقياد، وذلك إنما يتم بالفعل لا بالقول فقط، فمن لم يفعل لله شيئا فما دان لله دينا، ومن لا

---

(١) رواه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء في أول ما يحاسب به العبد الصلاة ١/٤٥٨ (١٤٢٥)، وأحمد في المسند ٢/٢٩٠ (٧٨٨٩)، وصححه الألباني، انظر صحيح أبي داود (٨١٠).

دين له فهو كافر.

العاشر: وأما قياس الصلاة على غيرها من الأركان فالصلاة لها شأن انفردت به على سائر الأعمال كما هو معلوم، والأمر بها موجه لسائر المكلفين بلا استثناء بخلاف بقية الأركان بعد الشهادة [1].

وقد سئل ابن تيمية عن قوم يزعمون الإيمان بقلوبهم من غير شك، ويقرون بألسنتهم بالشهادتين، إلا أنهم يقولون لا نطيع في شيء من فعل الأوامر وترك النواهي؟ فقال: كل مسلم يعلم بالاضطرار أنه يقول لهم أي النبي ﷺ: أنتم أكفر الناس بما جئت به، ويضرب رقابهم إن لم يتوبوا من ذلك[2].

وعلى ما تقدم فإن من ترك العمل لعذر شرعي، ولم يتمكن منه حتى مات فهذا معذور، وعليه تحمل هذه الأحاديث، فيقال: هذا رجل نطق بالشهادتين معتقدا لهما مخلصا لله ﷻ، ثم مات في الحال ولم يتمكن من العمل، لكنه نطق بالشهادتين مع الإخلاص لله ﷻ والتوحيد كما قال ﷺ: من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله، وقال: فإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله. هذا لم يتمكن من العمل مع أنه نطق بالشهادتين واعتقد معناهما وأخلص لله ﷻ، لكنه لم يبق أمامه فرصة للعمل حتى مات، فهذا هو الذي يدخل الجنة بالشهادتين وعليه يحمل حديث البطاقة وغيره مما جاء بمعناه، وعليه يحمل حديث الذين

---

(١) شرح العمدة لابن تيمية ٤/٨٦ بتصرف.

(٢) مجموع الفتاوى ٧/ ٢٨٧ بتصرف.

يخرجون من النار وهم لم يعملوا خيرا قط، لأنهم لم يتمكنوا من العمل مع أنهم نطقوا بالشهادتين ودخلوا في الإسلام، أما من ترك الأعمال كلها مختارا مع تمكنه منها، فهذا لا يكون مؤمنا، هذا هو الجمع بين الأحاديث(١).

وأما أحاديث الشفاعة وأن المؤمنين الموحدين العصاة يشفع لهم الأنبياء والأفراط والشهداء والملائكة والمؤمنون وتبقى بقية لا تنالهم الشفاعة فيخرجهم رب العالمين برحمته، يخرج قوما من النار لم يعملوا خيرا قط، قال العلماء: المعنى لم يعملوا خيرا قط، أي زيادة على التوحيد والإيمان ولا بد من هذا؛ لأن النصوص يضم بعضها إلى بعض، وقد دلت النصوص على أن الجنة حرامٌ على المشركين(٢).

- كفر من لم يحكم بما أنزل الله وتردده بين الكفر الأكبر والأصغر.

يترد الحكم بغير ما أنزل الله، بين الكفر الأكبر والكفر الأصغر وفق حال التارك للعمل بأحكام الله، فإن عطل أحكام الله ﷻ وألغى تطبيقها على نفسه وعلى ما استرعاه الله ﷻ وخوله في أرضه، وحكم فيهم بما يخالف شرع الله، سواء كان معتقدا أن ذلك أفضل من حكم الله ﷻ وأنفع لعباد الله، أو معتقدا أنه مماثل لحكم الله، أو معتقد أنه يجوز له الحكم بغير ما أنزل الله ﷻ فهذا كفر يخرج من الملة، لأنه لم يرض بحكم الله ﷻ ولم يجعل الله حكما بين عباده، فلا جدال في كفره كفرا أكبر.

---

(١) انظر أقوال ذوي العرفان في أن أعمال الجوارح داخلة في مسمى الإيمان لعصام بن عبد الله السناني ص١٠٩ بتصرف.

(٢) السابق ص١١٠ .

أما إن كان يحكم بغير ما أنزل الله معتقدا أن حكم الله تعالى هو الأفضل والأنفع لعباده لكنه خرج عنه، وهو يشعر بأنه عاص لله ﷻ، وأنه قد حكم لهوى في نفسه، أو سلب لحق لغيره، لما بينه وبينه من صراع أو عداوة، فهو يحكم بغير ما أنزل الله ﷻ لا كراهة لحكم الله ولا استبدلا به، ولا اعتقادا بأنه أفضل من حكم الله أو مساو له، أو أنه يجوز الحكم به، لكن من أجل الإضرار بالمحكوم عليه حكم بغير ما أنزل الله، فكفره كفر أصغر [١].

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تأويل ابن عباس رضي الله عنهما وعامة الصحابة رضي الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ المائدة:٤٤. قال ابن عباس رضي الله عنه: ليس بكفر ينقل عن الملة، بل إذا فعله فهو به كفر، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر. وكذلك قال طاووس. وقال عطاء: هو كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق. ثم ذكر ابن القيم أن من السلف من تأول الآية على ترك الحكم بما أنزل الله جاحدا له. وهو قول عكرمة، ثم عقب بأنه تأويل مرجوح، فإن نفس جحوده كفر سواء حكم أو لم يحكم [٢].

ومنهم من تأولها على ترك الحكم بجميع ما أنزل الله، قال: ويدخل في ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام، وهذا تأويل عبد العزيز الكناني، وهو أيضا بعيد، إذ الوعيد على نفي الحكم بالمنزل وهو يتناول تعطيل الحكم بجميعه وببعضه. ومنهم من تأولها على الحكم بمخالفة النص

---

(١) أسئلة وأجوبة في الإيمان والكفر عبد العزيز بن عبد الله الراجحي ص٣٣.

(٢) مدارج السالكين لابن القيم ١/٣٣٦ بتصرف.

تعمدا من غير جهل به ولا خطأ في التأويل، حكاه البغوي عن العلماء عموما. ومنهم من تأولها على أهل الكتاب، وهو قول قتادة والضحاك وغيرهما، وهو بعيد، وهو خلاف ظاهر اللفظ فلا يصار إليه، ومنهم من جعله كفرا ينقل عن الملة[1].

ثم قال ابن القيم رحمه الله: (والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة، وعدل عنه عصيانا له مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة، فهذا كفر أصغر، وإن اعتقد أنه غير واجب، وأنه مخير فيه مع تيقنه أنه حكم الله تعالى، فهذا كفر أكبر، وإن جهله وأخطأه فهذا مخطئ له حكم المخطئين، والقصد أن المعاصي كلها من نوع الكفر الأصغر، فإنها ضد الشكر الذي هو العمل بالطاعة، فالسعي إما شكر وإما كفر، وإما ثالث لا من هذا ولا من هذا والله أعلم) [2].

قال ابن تيمية: (والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه، أو حرم الحلال المجمع عليه، أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافرا مرتدا باتفاق الفقهاء، وفي مثل هذا نزل قوله على أحد القولين: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ المائدة:٤٤. أي هو المستحل للحكم بغير ما أنزل الله، ولفظ الشرع يقال في عرف الناس على ثلاثة معان: الشرع المنزل، وهو ما جاء به الرسول ﷺ، وهذا يجب اتباعه، ومن

---

(١) السابق ١/٣٣٦ بتصرف.

(٢) مدارج السالكين ١/٣٣٧ .

خالفه وجبت عقوبته. والثاني الشرع المؤول، وهو آراء العلماء المجتهدين فيها كمذهب مالكٍ ونحوه، فهذا يسوغ اتباعه ولا يجب ولا يحرم، وليس لأحد أن يلزم عموم الناس به، ولا يمنع عموم الناس منه، والثالث الشرع المبدل وهو الكذب على الله ورسوله ﷺ أو على الناس بشهادات الزور ونحوها، والظلم البين فمن قال: إن هذا من شرع الله فقد كفر بلا نزاعٍ، كمن قال: إن الدم والميتة حلال، ولو قال: هذا مذهبي ونحو ذلك)[1].

وسئل ابن تيمية رحمه الله عن رجل تولى حكومة على جماعة من رماة مدينة البندق، ويقول: هذا شرع البندق وهو ناظر على مدرسة وفقهاء، فهل إذا تحدث في هذا الحكم والشرع الذي يذكره تسقط عدالته من النظر أم لا؟ وهل يجب على حاكم المسلمين الذي يثبت عدالته عنده إذا سمع أنه يتحدث في شرع البندق الذي لا يشرعه الله ولا رسوله ﷺ أن يعزله من النظر أم لا؟

أجاب رحمه الله بعد حمد الله بأنه ليس لأحد أن يحكم بين أحد من خلق الله لا بين المسلمين ولا الكفار ولا الفتيان ولا رماة البندق، ولا الجيش ولا الفقراء ولا غير ذلك إلا بحكم الله ورسوله ومن ابتغى غير ذلك تناوله قوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ المائدة: ٥٠. وقول الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية ٣/٢٦٨.

﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ النساء:٦٥. فيجب على المسلمين أن يحكموا الله ورسوله ﷺ في كل ما شجر بينهم، ومن حكم بحكم البندق وشرع البندق أو غيره مما يخالف شرع الله ورسوله، وحكم الله ورسوله ﷺ وهو يعلم ذلك، فهو من جنس التتار الذين يقدمون حكم الياسق على حكم الله ورسوله، ومن تعمد ذلك فقد قدح في عدالته ودينه ووجب أن يمنع من النظر في الوقف والله أعلم) (١).

وقال ابن تيمية: (ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله ﷺ فهو كافر، فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلا من غير اتباع لما أنزل الله ﷻ فهو كافر، فإنه من أمة إلا وهي تأمر بالحكم بالعدل، وقد يكون العدل في دينها ما رآه أكابرهم، بل كثير من المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التي لم ينزلها الله سبحانه وتعالى كسوالف البادية، وكأوامر المطاعين فيهم، ويرون أن هذا هو الذي ينبغي الحكم به دون الكتاب والسنة وهذا هو الكفر، فإن كثيرا من الناس أسلموا ولكن مع هذا لا يحكمون إلا بالعادات الجارية لهم التي يأمر بها المطاعون، فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز الحكم إلا بما أنزل الله ﷻ فلم يلتزموا ذلك، بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار، وإلا كانوا جهالا.. وقد أمر الله المسلمين كلهم إذا تنازعوا في شيء أن يردوه إلى الله والرسول فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾ النساء:٥٩.

---

(١) مجموع الفتاوى ٣٥/٤٠٨.

وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ النساء: ٦٥.

فمن لم يلتزم تحكيم الله ورسوله فيما شجر بينهم فقد أقسم الله ﷻ بنفسه أنه لا يؤمن، وأما من كان ملتزما لحكم الله ورسوله باطنا وظاهرا، لكن عصى واتبع هواه فهذا بمنزلة أمثاله من العصاة)[1].

- يجب على الإمام أن يقاتل الطائفة الممتنعة عن تنفيذ أمر الله.

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أنه يجب على الإمام أن يقاتل الطائفة الممتنعة عن أعمال الجوارح وتنفيذ أمر الله، فكل طائفة ممتنعة عن تنفيذ شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المعلومة يجب قتالها، ولو تشهدوا مثل أن لا يصلوا، أو لا يزكوا، أو لا يصوموا، أو لا يحجوا البيت، أو قالوا نفعل هذا، ولا ندع الخمر، ولا الزنا أو الربا، أو الفواحش، أو لا نجاهد، أو لا نضرب الجزية على أهل الذمة، أو نحو ذلك قوتلوا حتى يكون الدين كله لله[2].

وقال رحمه الله: (يجب بإجماع المسلمين قتال كل طائفة ممتنعة عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة، مثل الطائفة الممتنعة عن إقامة الصلوات الخمس، أو عن أداء الزكاة، أو عن الصيام المفروض، ومثل من لا يمتنع عن سفك دماء المسلمين وأخذ أموالهم بالباطل، ومثل ذوي الشوكة المقيمين بأرض لا يصلون بها، ولا يتحاكمون بينهم بالشرع الذي بعث الله به رسوله، ولا عندهم مسجد، ولا

---

(١) منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٥/١٣٠ وما بعدها.

(٢) مختصر الفتاوي المصرية لابن تيمية ١/١٦٩.

يؤذنون ولا يزكون مع وجوبها عليهم، أو يقتل بعضهم بعضا، وينهب بعضهم مال بعض، ويقتلون الأطفال، ويسبونهم ويتبعون ما يسنه الأفرنج، وإذا دعي أحدهم إلى الشرع قال: أنا للشرع، فهؤلاء يجب قتالهم كما أمر رسول الله ﷺ بقتل الخوارج مع كون الصحابة ﷺ كان أحدهم يحقر صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، فقاتلهم علي ﷺ، ويدعون قبل القتال إلى التزام شرائع الإسلام، فإن التزموها استوثق منهم، ولم يكتف بمجرد قولهم، بل تنزع منهم الخيل والسلاح كما فعل أبو بكر ﷺ بأهل الردة حتى يرى منهم السلم، ويرسل إليهم من يعلمهم الإسلام ويقيم بها الصلاة، ويستخدم بعض المطيعين منهم في جند المسلمين، ويجعلهم في جماعة المسلمين ويمنعون من ركوب الخيل وأخذ السلاح حتى يستقيموا، فإن لم يستجيبوا الله ورسوله وإلا وجب قتالهم حتى يلتزموا شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة، وهذا متفق عليه بين علماء الإسلام) [١].

وقال أيضا: (أجمع علماء المسلمين على أن كل طائفة ممتنعة عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها، حتى يكون الدين كله لله، فلو قالوا: نصلي ولا نزكي، أو نصلي الخمس ولا نصلي الجمعة ولا الجماعة، أو نقوم بمباني الإسلام الخمس، ولا نحرم دماء المسلمين وأموالهم، أو لا نترك الربا ولا الخمر ولا الميسر، أو نتبع القرآن ولا نتبع رسول الله ﷺ، ولا نعمل بالأحاديث الثابتة عنه، أو نعتقد أن اليهود والنصارى خير من جمهور المسلمين، وأن أهل القبلة قد كفروا

---

(١) السابق ٤٦٨/١ وما بعدها .

بالله ورسوله، ولم يبق منهم مؤمن إلا طائفة قليلة، أو قالوا لا نجاهد الكفار مع المسلمين، أو غير ذلك من الأمور المخالفة لشريعة رسول الله ﷺ وسنته، وما عليه جماعة المسلمين، فإنه يجب جهاد هذه الطوائف جميعا، كما جاهد المسلمون مانعي الزكاة، وجاهدوا الخوارج وأصنافهم وجاهدوا الخرمية والقرامطة والباطنية وغيرهم من أصناف أهل الأهواء والبدع الخارجين عن شريعة الإسلام.

وذلك لأن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ البقرة:١٩٣ . فإذا كان بعض الدين لله ﷻ وبعضه لغير الله وجب قتالهم حتى يكون الدين كله لله.

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ التوبة:٥. فلم يأمر بتخلية سبيلهم إلا بعد التوبة من جميع أنواع الكفر، وبعد إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ البقرة:٢٧٨/٢٧٩. فقد أخبر تعالى أن الطائفة الممتنعة إذا لم تنته عن الربا فقد حاربت الله ورسوله، والربا آخر ما حرم الله ﷻ في القرآن، فما حرمه قبله أوكد.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ المائدة:٣٣. فكل من امتنع من أهل الشوكة عن الدخول في طاعة الله ورسوله فقد حارب الله ورسوله، ومن عمل في

الأرض بغير كتاب الله وسنة رسوله فقد سعى في الأرض فسادا.

ولهذا تأول السلف هذه الآية على الكفار وأهل القبلة حتى أدخل عامة الأئمة فيها قطاع الطريق الذين يشهرون السلاح لمجرد أخذ الأموال، وجعلوهم بأخذ أموال الناس بالقتال محاربين لله ورسوله ساعين في الأرض فسادا، وإن كانوا يعتقدون تحريم ما فعلوه، ويقرون بالإيمان بالله ورسوله) [١].

وقد بوب الإمام البخاري رحمه الله بابا في قتل من أبى قبول الفرائض، وما نسبوا إلى الردة، ثم ساق قصة أبي بكر ﷺ مع أهل الردة ومانعي الزكاة، فروى من حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: (لما توفي النبي ﷺ واستخلف أبو بكر، وكفر من كفر من العرب قال عمر: يا أبا بكر كيف نقاتل الناس، وقد قال رسول الله ﷺ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله، قال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، قال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق) [٢].

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/٤٧٠.

(٢) رواه البخاري في كتاب الديات، باب قتل من أبى قبول الفرائض وما نسبوا إلى الردة ٦/٢٥٣٨ (٦٥٢٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ١/٥١ (٢٠).

وقد سئل ابن تيمية عن التتار وحكم قتالهم، فأجاب بأن كل طائفة ممتنعة عن التزام شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة من هؤلاء القوم وغيرهم فإنه يجب قتالهم حتى يلزموا شرائعه، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين، وملتزمين بعض شرائعه، كما قاتل أبو بكر الصديق والصحابة ﷺ مانعي الزكاة، وعلى ذلك اتفق الفقهاء بعدهم بعد سابقة مناظرة عمر لأبي بكر رضي الله عنهما، فاتفق الصحابة ﷺ على القتال على حقوق الإسلام، وكذلك ثبت عن النبي ﷺ من عشرة أوجه الحديث عن الخوارج كما ذكر الإمام أحمد وغيره.

وأخبر أنهم شر الخلق والخليقة، مع قوله: تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم. فعلم أن مجرد الاعتصام بالإسلام مع عدم التزام شرائعه ليس بمسقط للقتال، فالقتال واجب حتى يكون الدين كله لله ﷻ وحتى لا تكون فتنة، فمتى كان الدين لغير الله فالقتال واجب، فأيما طائفة امتنعت من بعض الصلوات المفروضات، أو الصيام، أو الحج، أو عن التزام تحريم الدماء، والأموال، والخمر، والزنا، والميسر، أو عن نكاح ذوات المحارم، أو عن التزام جهاد الكفار، أو ضرب الجزية على أهل الكتاب، وغير ذلك من واجبات الدين ومحرماته التي لا عذر لأحد في جحودها وتركها التي يكفر الجاحد لوجوبها، فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها، وإن كانت مقرة بها، وهذا مما لا أعلم فيه خلافا بين العلماء.

وإنما اختلف الفقهاء في الطائفة الممتنعة إذا أصرت على ترك بعض السنن كركعتي الفجر، والأذان والإقامة عند من لا يقول بوجوبها ونحو

ذلك من الشعائر، هل تقاتل الطائفة الممتنعة على تركها أم لا؟ فأما الواجبات والمحرمات المذكورة ونحوها فلا خلاف في القتال عليها [(١)].

• **هل يلزم من قتال الطائفة الممتنعة الحكم بكفرها كفرا أكبر؟**

رجح ابن تيمية رحمه الله تكفير الممتنع عن الشرائع الظاهرة المتواترة إذا كانوا طائفة، وقاتلوا الإمام على ذلك، فذكر رحمه الله أن هؤلاء إذا كان لهم طائفة ممتنعة، فهل يجوز اتباع مدَبَّرهم، وقتل أسيرهم، والإجهاز على جريحهم؟ على قولين للعلماء مشهورين.. والصواب أن هؤلاء ليسوا من البغاة المتأولين، فإن هؤلاء ليس لهم تأويل سائغ أصلا، وإنما هم من جنس الخوارج المارقين ومانعي الزكاة، وأهل الطائف، والخزمية، ونحوهم ممن قاتلوا على ما خرجوا عنه من شرائع الإسلام، وهذا موضع اشتبه فيه الأمر على كثير من الناس من الفقهاء، فإن المصنفين في قتال أهل البغي جعلوا قتال مانعي الزكاة، وقتال الخوارج، وقتال علي ﷺ لأهل البصرة، وقتاله لمعاوية ﷺ وأتباعه، من قتال أهل البغي، وذلك كله مأمور به، وفرعوا مسائل ذلك تفريع من يرى ذلك بين الناس، وقد غلطوا، بل الصواب ما عليه أئمة الحديث والسنة وأهل المدينة، كالأوزاعي، والثوري، ومالك، وأحمد بن حنبل وغيرهم أنه يفرق بين هذا وهذا، فقتال علي للخوارج ثابت بالنصوص الصريحة عن النبي ﷺ باتفاق المسلمين، وأما القتال يوم صفين ونحوه فلم يتفق عليه الصحابة، بل صد عنه أكابر الصحابة ﷺ، مثل سعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر وغيرهم.

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/ ٥٠٣.

إلى أن قال شيخ الإسلام: فالفتن ما كان القتال عليها لشبهة مثل الحروب التي تكون بين ملوك المسلمين وطوائف المسلمين، مع أن كل واحد من الطائفتين ملتزمة لشرائع الإسلام مثل ما كان من أهل الجمل وصفين، وإنما اقتتلوا لشبه وأمور عرضت.

وأما قتال الخوارج ومانعي الزكاة، وأهل الطائف الذين لم يكونوا يحرمون الربا، فهؤلاء يقاتلون حتى يدخلوا في الشرائع الثابتة عن النبي ﷺ، وهؤلاء إذا كان لهم طائفة ممتنعة، فلا ريب من قتل أسيرهم واتباع مدبرهم، والإجهاز على جريحهم، فإن هؤلاء إذا كانوا مقيمين ببلادهم على ما هم عليه، فإنه يجب على المسلمين أن يقصدوهم في بلادهم لقتالهم، حتى يكون الدين كله لله [١].

وقال ابن تيمية رحمه الله: (وقد اتفق الصحابة والأئمة بعدهم على قتال مانعي الزكاة وإن كانوا يصلون الخمس، ويصومون شهر رمضان، وهؤلاء لم يكن له شبهة سائغة، فلهذا كانوا مرتدين، وهم يقاتلون على منعها، وإن أقروا بالوجوب) [٢].

هذا حكم الممتنعين عن شرائع الإسلام إذا كانوا طائفة ممتنعة، أما إذا كان الممتنع فردا فالصحيح أنه لا يكفر، ولا يقتل إلا إذا أصر على ترك الصلاة فيقتل كفرا على الصحيح، لأن إصراره على الترك حتى يقتل يدل على عدم اعتقاده لوجوبها، وهذا الحالة تختلف عن الترك

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/٥٥١.
(٢) السابق ٢٨/٥١٩.

كسلا أو تهاونا، أما إذا أصر على منع الزكاة، فيؤخذ منه قهرا كما في حديث معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال: (من أعطى زكاة ماله مؤتجرا فله أجرها، ومن منعها فإما آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا ليس لآل محمد منها شيء) (١). والعزم ضد الرخصة وهي ما يجب فعله.

أما من رأى قتل مانع الزكاة إذا كان فردا فقد استدل بحديث ابن عمر: أمرت أن أقاتل الناس.. الحديث.

قال ابن رجب: (وأما قتل الواحد الممتنع عنها، فأكثر العلماء على أنه يقتل الممتنع عن الصلاة، وهو قول مالك والشافعي وأحمد وأبي عبيد وغيرهم.. وأما قتل الممتنع عن أداء الزكاة ففيه قولان لمن قال يقتل الممتنع من فعل الصلاة، أحدهما يقتل أيضا، وهو المشهور عن أحمد رحمه الله، ويستدل له بحديث ابن عمر هذا، والثاني لا يقتل، وهو قول مالك والشافعي وأحمد في رواية) (٢).

ومن ثم فإن الفرد الممتنع عن بعض الشرائع، و عن الزكاة خاصة يلزم بها وتؤخذ منه بالقوة ولا يكفر على الصحيح إلا ما ذكر في ترك الصلاة، ويرى شيخ الإسلام رحمه الله جواز قتل الواحد المقدور عليه من الخوارج، والرافضة ونحوهم ممن فيه فساد، إذا لم يندفع فساده إلا بالقتل، ولكن لا يجب قتل كل واحد منهم إذا لم يظهر هذا القول، أو كان في قتله مفسدة راجحة.

---

(١) رواه أحمد ٥/٢ (٢٠٠٣٠)، وحسنه شعيب، وانظر إرواء الغليل (٧٩١).

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي ص٨٧.

- **مصطلح تارك جنس العمل ورده إلى تحقيق أركان الإيمان.**

مصطلح تارك جنس العمل، هل هو كافر معدوم الإيمان؟ أم هو مؤمن ناقص الإيمان؟ هذه المسألة من المسائل التي كثر فيها الكلام وأحدثت فرقة كبيرة بين عامة المسلمين الراغبين في التمسك بنهج السلف واتباع السنة، ومن المعلوم أن المسلم لا يكون مسلما إلا إذا آمن بكلام الله ورسوله ﷺ، ولا يكون الإيمان بكلام الله ورسوله إلا إذا صدق الخبر ونفذ الأمر فقام بالعمل، فأتى بالقول والعمل معا، فالعمل ركن أساسي في الإيمان، وفاقده فاقد للإيمان، فلا يتصور من مسلم كما تقدم أن يشهد ألا إله إلا الله، وقد بيّت النية وقت شهادته على أنه سوف يصدق الله ﷻ في خبره، وسوف لا يطيعه في أمره أبدا، بل سيفعل ما يحلوا له من كل أنواع الشرك والمنكر، وما يوجب لعنة الله وغضبه، وما يوجب رضا الشيطان وحزبه.

ومن ثم فإن تارك العمل الذي يصدق الخبر، ولا ينفذ لله ﷻ أمرا معدوم الإيمان، فاقد لعمل القلب والجوارح معا، هذا هو الكلام الذي يتوافق مع النقل والعقل ويقع على القلب، أما الحديث عن جنس العمل وعدم دخوله في مسمى الإيمان، وأن الإنسان إذا لم يعمل شيئا بالكلية فهو ناقص الإيمان، فهذا كلام باطل مخالف لما دلت عليه الأصول القرآنية والنبوية، فإن من قال بلسانه أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، وصدق الله ﷻ في خبره، وامتنع بإصرار من وقت شهادته عن طاعة الله وتنفيذ أمره طول عمره، لا يقال لمثل هذا مؤمن إلا عند الجهمية والمرجئة والمتكلمين الأشاعرة.

كما أن استخدام مصطلح " تارك جنس العمل" فيه نوع من الخلط والغموض وعدم الوضوح، لأن تارك جنس العمل قد يذكر ويراد به تارك العمل بأسره، وقد يذكر من قائله ويريد به تارك بعضه دون بعضه، فإن حملت كلامه على تارك الكل، ربما راوغك بأنه كان يقصد تارك البعض، وإن حملت كلامه على تارك البعض ربما راوغك بأنه كان يقصد تارك الكل، وإن حملت كلامه على انتفاء جميع أعمال الجوارح كلها، زعم أنه كان يقصد انتفاء أعمال القلوب أو بعض أعمال الجوارح، وإن حملت كلامه على انتفاء أعمال القلوب زعم أنه كان يقصد انتفاء أعمال الجوارح أو بعضها، ومثل هذا لا بد أن يحدث خلافا بين المسلمين وفرقة لا محالة.

وسوف يحتج بكلام اللغويين أن الجنس لغة هو الضرب من كل شيء، واسم الجنس ما وضع لأن يقع على شيء، والفرق بين الجنس واسم الجنس أن الجنس يطلق على القليل والكثير كالماء، فإنه يطلق على القطرة والبحر، واسم الجنس لا يطلق على الكثير بل يطلق على الواحد، وأن الله تعالى قال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ آل عمران:١٧٣. فلفظ الناس جنس قد يراد به الفرد أو البعض، وقد يراد به الجماعة والكل.

وقال تعالى عن عرض الأمانة وحمل الإنسان لها: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢﴾ الأحزاب:٧٢. ولفظ الإنسان في الآية جنس، والمراد

فرد واحد هو آدم عليه السلام [1].

ومن زعم أن تارك عمل الجوارح بأسره، إن كان هذا مقصده بتارك جنس العمل ناقص الإيمان، ويكفي لإيمانه تصديق الجنان وقول اللسان، فهذا مخالف لاعتقاد السلف متقول عليهم بغير علم، فليس في كلام السلف شيء يدل على أن العمل لا يدخل في مسمى الإيمان، بل كلامهم واضح جلي في أن العمل من الإيمان، وأن الإيمان يدل على العمل بدلالة التضمن، ويدل على قول القلب وعمل القلب وقول اللسان وعمل الجوارح بالمطابقة، وقول من يقول إن تخلف عمل الجوارح كله أو جنس العمل لا يؤثر في زوال الإيمان قول محدث تكذبه الأدلة من الكتاب والسنة، ويكذبه ما نقل عن سلف الأمة.

قال ابن تيمية: (إن الإيمان وإن كان أصله تصديق القلب، فذلك التصديق لابد أن يوجب حالا في القلب وعملا له، وهو تعظيم الرسول وإجلاله ومحبته، وذلك أمر لازم كالتألم والتنعم عند الإحساس بالمؤلم والمنعم، وكالنفرة والشهوة عند الشعور بالملائم والمنافي، فإذا لم تحصل هذه الحال والعمل في القلب لم ينفع ذلك التصديق، ولم يغن شيئا، وإنما يمتنع حصوله إذا عارضه معارض من حسد الرسول، والتكبير عليه، أو الإهمال له، وإعراض القلب عنه ونحو ذلك) [2].

---

(١) انظر في المعاني اللغوية لكلمة جنس، التعريفات للجرجاني ٤١/١، والعباب الزاخر لرضا الحسن ٧٨/١، وتهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري ٣١٢/١٠، ولسان العرب لابن منظور ٤٣/٦.

(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول ٩٦٦/٣.

- السلف اشتد نكيرهم على المرجئة لما أخرجوا العمل من الإيمان.

قال ابن تيمية رحمه الله: (والسلف اشتد نكيرهم على المرجئة لما أخرجوا العمل من الإيمان، وقالوا إن الإيمان يتماثل الناس فيه، ولا ريب أن قولهم بتساوي إيمان الناس من أفحش الخطأ، بل لا يتساوى الناس في التصديق، ولا في الحب، ولا في الخشية، ولا في العلم، بل يتفاضلون من وجوه كثيرة، وأيضا فإخراجهم العمل يشعر أنهم أخرجوا أعمال القلوب أيضا، وهذا باطل قطعا فإن من صدق الرسول وأبغضه وعاداه بقلبه وبدنه فهو كافر قطعا بالضرورة، وإن أدخلوا أعمال القلوب في الإيمان أخطئوا أيضا، لامتناع قيام الإيمان بالقلب من غير حركة بدن)[1].

وقال: (إذا تبين هذا وعلم أن الإيمان الذي في القلب من التصديق والحب وغير ذلك يستلزم الأمور الظاهرة من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة، كما أن القصد التام مع القدرة يستلزم وجود المراد، وأنه يمتنع قيام الإيمان الواجب في القلب من غير ظهور موجب ذلك ومقتضاه، زالت الشبه العلمية في هذه المسألة)[2].

وقال الشيخ الألباني فيمن زعم أن تارك العمل مؤمن ناقص الإيمان: (هذا مذهب الحنفية والماتريدية، أي الإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان خلافا للسلف وجماهير الأئمة كمالك والشافعي وأحمد والأوزاعي وغيرهم، فإن هؤلاء زادوا على الإقرار والتصديق

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/٥٥٦.

(٢) السابق ٧/٥٧٥.

العمل بالأركان، وليس الخلاف بين المذهبين اختلافا صوريا)[1].

ولا حجة لمن احتج بكلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في ذكره لفظ جنس العمل ضمن ألفاظه اللغوية المستعملة للتعبير عن كلامه، فالمعنى محدد من خلال سياق الكلام، وليس معنى اصطلاحيا خاصا قد ميع مدلوله بحيث لا تتفق مع قائله عند رده لقواعد الإيمان عند السلف، فشتان بين استعمال دلالة الألفاظ على ما عناه المتكلم، ودلالة الألفاظ الكلامية التي اصطلح عليه المتكلمون وأرادوا حمل الكلام عليها قسرا، ولذلك لن تجد لبسا أو غموضا في فهم كلام شيخ الإسلام إذا ذكر مثل هذا اللفظ، ولم يحدث ضجة وخلافا كما أحدثه الاصطلاح الخاص بجنس العمل نفيا وإثباتا والذي يردده كثير من المنتسبين للسلفية، فتأمل قول شيخ الإسلام ابن تيمية: (وقد تقدم أن جنس الأعمال من لوازم إيمان القلب، وأن إيمان القلب التام بدون شيء من الأعمال الظاهرة ممتنع، سواء جعل الظاهر من لوازم الإيمان، أو جزء من الإيمان كما تقدم بيانه)[2]. أو قوله: (فإن الإسلام من جنس الدين والعمل والطاعة والانقياد والخضوع فمن ابتغى غير الإسلام دينا فلن يقبل منه)[3].

هل تجد في كلامه غموضا أو شيئا يدعو إلى خلاف مستعر امتد لسنوات وسنوات، قال ابن تيمية رحمه الله : (واللفظ المجمل الذي لم يرد في الكتاب والسنة لا يطلق في النفي والإثبات حتى يتبين المراد به كما

---

(١) تخريج الطحاوية للألباني ص٦٢.

(٢) مجموع الفتاوى ٧/٦١٦.

(٣) السابق ٧/٣٧٨.

إذا قال القائل الرب متحيز أو غير متحيز؟ أو هو في جهة أو ليس في جهة؟ قيل هذه الألفاظ مجملة لم يرد بها الكتاب والسنة لا نفيا ولا إثباتا ولم ينطق أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان بإثباتها ولا نفيها.. فإذا حصل الاستفسار والتفصيل ظهر الهدي وبان السبيل.

وقد قيل أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء وأمثالها مما كثر فيه تنازع الناس بالنفي والإثبات إذا فصل فيها الخطاب ظهر الخطأ من الصواب، والواجب على الخلق أن ما أثبته الكتاب والسنة أثبتوه، وما نفاه الكتاب والسنة نفوه وما لم ينطق به الكتاب والسنة لا بنفي ولا إثبات استفصلوا فيه قول القائل، فمن أثبت ما أثبته الله ورسوله فقد أصاب، ومن نفى ما نفاه الله ورسوله فقد أصاب، ومن أثبت ما نفاه الله أو نفى ما أثبته الله فقد لبس دين الحق بالباطل، فيجب أن يفصل ما في كلامه من حق وباطل فيتبع الحق ويترك الباطل، وكلما خالف الكتاب والسنة، فإنه مخالف أيضا لصريح المعقول، فإن العقل الصريح لا يخالف النقل الصحيح)[1].

- انتفاء عمل الجوارح متلازم مع انتفاء عمل القلب كلا وجزءا.

يقوم اعتقاد السلف الصالح على أن الإيمان عند الإطلاق يدل بالمطابقة على القول والعمل على الإجمال، ويدل بالمطابقة عند التفصيل على قول القلب وعمل القلب وقول اللسان وعمل الجوارح، وكذلك لا بد من فهم التلازم الداخلي بين هذه الأركان التي دل عليها اسم الإيمان بالمطابقة، فعمل القلب يدل بالالتزام على عمل

(١) مجموع الفتاوى ٧/٦٦٣-٦٦٥.

الجوارح، وعمل الجوارح يدل باللزوم على عمل القلب إن لم يكن منافقا، فإذا انتفى عمل الجوارح انتفاء كاملا دل يقينا على انتفاء عمل القلب انتفاء كاملا بشرط سلامة القدرة وانتفاء الموانع الأخرى كأن يكون معذورا بجهله، وكذلك إذا انتفى بعض عمل الجوارح دل على انتفاء بعض أعمال القلب كل حسب درجته زيادة أو نقصا، إيمانا أو كفرا، فقد يجتمع في الرجل كفر وإيمان وشرك وتوحيد، ولو كان جميع الناس على الإيمان المحض لكانوا ملائكة، ولو كانوا على الكفر المحض لكونا شياطين، ولكن الإنسان مبتلى بين كفر وإيمان يزيد أحدهما فينقص الآخر، وينقص أحدهما فيزيد الآخر، وكل ذلك ليعمل الناس بما شرع الله عز وجل لهم، ويتوكلوا في قولهم وفعلهم على ربهم ولذلك خلقهم.

قال ابن القيم: (وههنا أصل آخر وهو أن الرجل قد يجتمع فيه كفر وإيمان، وشرك وتوحيد، وتقوى وفجور، ونفاق وإيمان، هذا من أعظم أصول أهل السنة، وخالفهم فيه غيرهم من أهل البدع كالخوارج والمعتزلة والقدرية، ومسألة خروج أهل الكبائر من النار وتخليدهم فيها مبنية على هذا الأصل، وقد دل عليه القرآن والسنة والفطرة وإجماع الصحابة، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ يوسف:١٠٦.

وقال تعالى: ﴿۞ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ الحجرات:١٤. فأثبت لهم إسلاما وطاعة لله ورسوله مع نفي

الإيمان عنهم) [١].

وهذا التلازم بين أركان الإيمان لا بد أن يفهم في إطار دلالة الاسم على مسماه، أو دلالة اسم الإيمان على أركانه، فالتلازم كائن بين أركان الإيمان وتكوين مسماه الذي دل عليه لفظ الإيمان بالمطابقة، فعمل القلب ركن من الإيمان وجزء من مسماه، وعمل الجوارح أيضا ركن من الإيمان وجزء من مسماه، لكن انتفاء عمل الجوارح متلازم مع انتفاء عمل القلب، ووجود عمل القلب لا بد أن يظهر أثره على الجوارح إذا كانت سليمة، وعدم استيعاب هذه الحقائق أدى بكثير من الناس إلى إخراج أعمال الجوارح من الإيمان، وتصور وجود عمل القلب وقول اللسان مع انتفاء العمل بالجوارح والأركان، فيشابه كلامه بتمامه مع كلام المرجئة، وربما لم يقصد ذلك، ولا خطر على باله أن يترك شيئا من الأعمال، بل تجده ملتزما بالسنة هو وأهل بيته، وتجد امرأته ساترة وجهها، مطيعة لربها، فمثل هذا سليم النية وإن أُتِيَ من قبل فهمه وعدم التوافق في لوازم قوله.

ولذلك ينبغي عدم المسارعة في ضم كثير من علماء السنة إلى المرجئة، فهؤلاء نحسن الظن بهم ونحسبهم مخلصين في إيمانهم محبين لدينهم، موحدين لربهم، متبعين سنة نبيهم، وما أخطئوا في كلامهم يرد عليهم، وكل يؤخذ من كلامه ويرد إلا المعصوم، وشتان بين هؤلاء في ضمهم إلى ظاهرة الإرجاء وبين كثير من المحسوبين على العلماء، وهم جلوس يشربون الشيشة والدخان، وينزعون بأيديهم

---

(١) الصلاة وحكم تاركها ص٧٨.

عن وجه المؤمنة حجاب الإيمان، ويحلقون لحاهم تشبها بالنسوان، ويحلون ما حرم الله ﷻ في نص القرآن بالتأويل الباطل وشبهات الشيطان، فمثل هؤلاء إن ذكروا شيئا من كلام الإرجاء فحالهم يشهد بأنهم هم المرجئة حقا، وإن كان معيار الحق والباطل هو التحاكم إلى النص والدليل دون النظر إلى الحال والكلام العليل، وإنما القصد ألا نحمل الأمور أكثر مما تحتمل.

وفي الجملة فإن انتفاء عمل الجوارح متلازم مع انتفاء عمل القلب كلا وجزءا، فمن المحال أن ينعدم عمل الجوارح بالكلية ويعيش المرء دهره حتى الممات عاصيا لله ﷻ ورسوله، ويوجد مع ذلك في قلبه ذرة من الإيمان.

قال ابن تيمية: (ومن الممتنع أن يكون الرجل مؤمنا إيمانا ثابتا في قلبه بأن الله فرض عليه الصلاة والزكاة والصيام والحج ويعيش دهره لا يسجد لله سجدة، ولا يصوم من رمضان، ولا يؤدي لله زكاة، ولا يحج إلى بيته فهذا ممتنع ولا يصدر هذا إلا مع نفاق في القلب وزندقة لا مع إيمان صحيح)[1].

وقال أيضا: (وقد تبين أن الدين لابد فيه من قول وعمل، وأنه يمتنع أن يكون الرجل مؤمنا بالله ورسوله بقلبه، أو بقلبه ولسانه، ولم يؤد واجبا ظاهرا، ولا صلاة ولا زكاة ولا صياما، ولا غير ذلك من الواجبات، لا لأجل أن الله ﷻ أوجبها مثل أن يؤدي الأمانة أو يصدق الحديث أو يعدل في قسمه وحكمه من غير إيمان بالله ورسوله، لم يخرج

(١) مجموع الفتاوى ٧/٦١١.

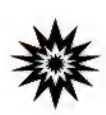
بذلك من الكفر، فإن المشركين وأهل الكتاب يرون وجوب هذه الأمور، فلا يكون الرجل مؤمنا بالله ﷻ ورسوله مع عدم شيء من الواجبات التي يختص بإيجابها محمد ﷺ، ومن قال بحصول الإيمان الواجب بدون فعل شيء من الواجبات سواء جعل فعل تلك الواجبات لازما له أو جزءا منه فهذا نزاع لفظي، كان مخطئا خطئا بينا، وهذه بدعة الإرجاء التي أعظم السلف والأئمة الكلام في أهلها، وقالوا فيها من المقالات الغليظة ما هو معروف، والصلاة هي أعظمها وأعمها وأولها وأجلها)(١).



(١) السابق ٧/٦٢١.

المطلب الخامس والعشرون

زيادة الإيمان ونقصانه وأثرها في الحكم بإيمان الإنسان وكفرانه والرد على الخوارج والمرجئة



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن أثر انتفاء عمل الجوارح في وجود الاستكبار والعناد وتردده بين الكفر الأكبر والأصغر، وبينا معنى العناد والاستكبار في المعاني اللغوية والأصول القرآنية والنبوية، ثم تناول الحديث أركان كفر العناد والاستكبار المخرج عن الملة، وبيان الفرق بين ترك الصلاة عمدا وتكاسلا وتحقيق مصطلح التكاسل.

ثم علمنا دلالة النقل على أن تارك الصلاة بالكلية كافر مرتد خارج عن الملة، وتناولنا النظر في رأي الإمام الطحاوي أن تارك الصلاة لا يكفر إلا بجحودها، ورد ابن تيمية على من قال برأي الإمام الطحاوي في تارك الصلاة، والمراد من الأحاديث الصحيحة الواردة في شأن من لم يعمل خيرا قط.

ثم بينا مثالا آخر وهو كفر من لم يحكم بما أنزل الله وتردده بين الكفر الأكبر والأصغر، وأنه يجب على الإمام أن يقاتل الطائفة الممتنعة عن تنفيذ أمر الله، وبينا هل يلزم من قتال الطائفة الممتنعة الحكم بكفرها

كفرا أكبر؟ ثم تناولنا مصطلح تارك جنس العمل ورده إلى تحقيق أركان الإيمان، وكيف أن السلف اشتد نكيرهم على المرجئة لما أخرجوا العمل من الإيمان، وعلمنا أن انتفاء عمل الجوارح متلازم مع انتفاء عمل القلب كلا وجزءا.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن زيادة الإيمان ونقصانه وأثرها في الحكم بإيمان الإنسان وكفرانه والرد على الخوارج والمرجئة.

- **الزيادة والنقصان في أركان الإيمان هي أساس الفهم السلفي الصحيح.**

الزيادة والنقصان في أركان الإيمان هي أساس الفهم الصحيح لقضية الإيمان، وانضباط المنهج السلفي في النظر بوسطية وشمولية واعتدال، فكل ركن من أركان الإيمان قد يزيد حتى يصل إلى الكمال، وقد ينقص الإيمان فيه حتى يصل إلى التلاشي والزوال، فإن وصل الإيمان أعلاه وأصبح المؤمن في أعلى درجاته التي قد يصل إليها الإنسان ففيه شبه من الملائكة، وإن وصل الإيمان أدناه وأصبح الإنسان في أدنى درجاته التي قد يصل إليها الإنسان ففيه شبه من الشيطان والحيوان، وإن كان مترددا بينهما فهذا شأن بني الإنسان يترددون بين الطاعة والعصيان، وبين الكفر والإيمان، فقد يجتمع في الشخص الواحد كفر وإيمان، فإن زاد كفره قل إيمانه حتى ينعدم، وإن زاد إيمانه قل كفره حتى ينعدم، وهكذا يجتمع فيه نفاق وإخلاص، وشرك وتوحيد.

ومن ثم فهما ضدان متقابلان يتردد بينهما الإنسان، وكذلك جميع أركان الإيمان، فهما نجدان معروضان، وسبيلان مطروحان، إذا

ضعف أحدهما قوي الآخر، وإذا قوي أحدهما ضعف الآخر، فسبحان الملك الذي هدى الإنسان إلى النجدين، وجعل إرادته بين طريقين متقابلين معروضين ومطروحين كما قال سبحانه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ البلد: ١٠.

والله تعالى يمكن أن يجعل الإنسانية على أتقى قلب رجل واحد، فتصبح كالملائكة أمة واحدة، ويمكن أن يجعلها على أفجر قلب رجل واحد فتصبح أمة إبليسية كافرة، أو حيوانية فاجرة، ولكنه سبحانه شاء أن يكون الإنسان في دار ابتلاء، وأن ينتقل بعدها إلى دار للجزاء، لتظهر حكمته في الإنسان كما ظهرت في سائر الأشياء، وتظهر آثار أسمائه وصفاته ودلالاتها، وتتبدى آثار أفعاله في تعلقها بمفعولاتها، فيذكر بينهم اسمه، ويظهر فيهم أمره، ويُعلْم قضاؤه وقدره، وفضله وعدله في قيام الخلق على الحق والميزان، والالتزام بتوحيد العبادة الذي أوجبه الله ﷻ على الإنسان، وهو قادر إن لم يؤد حقيقة التوحيد والإيمان أن يذهبهم ويأت بخلق جديد، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾ إبراهيم: ١٩/ ٢٠.

ومن هنا قامت الخلائق باسم الله الرحمن الرحيم، وتمت النعمة عليهم، وكامل الحمد لله رب العالمين، ووجب على من أدرك ذلك من المؤمنين أن يشكر عند الإنعام، لاسيما الإنعام بالعلم والفهم والإيمان وأن يقول: الحمد لله، وأن يقول: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، ولن يكون الشكر الكامل إلا بالعمل الكامل

في منازل السائرين إلى إياك نعبد وإياك نستعين.

ومن ثم فإن النقل والعقل والفطرة وجميع الأدلة اقتضت أن يكون الإنسان مترددا بين الكفر والإيمان، وبين الزيادة أو النقصان، إما يتمكن من الوصول إلى الجنان، أو النزول إلى أسفل دركات الخسران، فالقول بزيادة الإيمان ونقصانه هو القول الحق، وما سواه إما يوقع في مذهب الإرجاء حتى يحكم على الكافر بالإيمان، وإما يوقع في مذهب الخوارج حتى يحكم على المؤمن بالكفر والخلود في النيران، لأن كل مذهب منهما انحرف إلى أحد الطرفين، وعطل حكمة الله ﷻ في تردد الإنسان بين نجدين، وسبيلين مطروحين، إذا ضعف تمسكه بأحدهما قويت إرادته في التمسك بالآخر، وإذا قوي تمسكه بأحدهما ضعفت إرادته في التمسك بالآخر، فالمرجئة والخوارج مكذبون لكلام الله ﷻ مناقضون للعقل والفطرة. قال تعالى في بيان الحكمة التي من أجلها تردد الإنسان بالزيادة والنقصان بين الكفر والإيمان: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ السجدة:١٣. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ المائدة:٤٨.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ يونس:٩٩.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾

إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾هود:١١٨ ١١٩.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ النحل:٩٣.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾ الشورى:٨.

ومن ثم فإن هداية السبيل اقتضت من الحكم ما خفي على المرجئة والخوارج، وكل من خالف منهج السلف الصالح. قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾ الإنسان:٢/٥.

ومن أدرك حكمة الله في ذلك أدرك أن اتباع الرسول ﷺ في كل ما يقول مما يوجب تصديق خبره وتنفيذ أمره هو سر الحياة وإكسيرها الكيماوي الذي يصلحها ويسعدها كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾الأنفال:٢٤.

قال ابن القيم رحمه الله: (فتضمنت هذه الآية أمورا، أحدها أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله

والرسول ﷺ ظاهرا وباطنا، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول ﷺ، فان كان ما دعا إليه فيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول ﷺ) [١].

- **كل ركن من أركان الإيمان يقبل الزيادة والنقصان بتكامل النسب.**

دلت الأصول القرآنية والنبوية على أن كل ركن من أركان الإيمان يقبل الزيادة والنقصان بتكامل النسب، ونعني بذلك أن القلب في الركن الأول وهو قول القلب، صالح لتلقي العلم بالرسالة أو البقاء على العدم والجهل، وبقدر نسبة العلم بها فيه تكون النسبة المقابلة من الجهل، وعليه أيضا تزيد نسبة حكم العقل على ما أدركه من العلم، فيزداد تصديقه بالخبر على قدر علمه ومعرفته به، ويزداد تمييزه وحكمه على الأمر بالنفع والضرر على قدر علمه ومعرفته به، فالعلم بالرسالة مقابل للجهل، وكلاهما يوجدان في القلب، فيكون عالما بأشياء وجاهلا بأشياء، وكلاهما يتجاذبا، فكلما ازداد علما ومعرفة كلما نقص الجهل وتلاشى بحسبه، فالركن الأول من الإيمان قابل للزيادة والنقصان بتكامل النسب.

وكذلك الركن الثاني وهو عمل القلب، يزيد وينقص، فإن كانت قوة العزم وإرادة الحق والاستعداد لتنفيذ الأمر قوة كبيرة، كان مقدار العزم في إرادته للباطل ضعيفا حتى يتلاشى، وكذلك الحال في تجاذب

---

(١) انظر الفوائد لابن القيم ص٨٨.

كل عمل من أعمال القلوب من المحبة والنية والإخلاص والخوف والرجاء والتوكل والالتجاء، وغير ذلك من الأعمال الباطنة، تتنازعها قوتان متقابلتان، إما قوة العزم في تحقيق الإيمان، أو قوة العزم على العصيان والكفر والطغيان، ومن ثم كان القول بزيادة الإيمان أو نقصانه أمرا حتميا في كل إنسان، لأنه جعل بين كفر وإيمان فهما نجدان متقابلان في لحظة تمر عليه، وكل ابتلاء يصير إليه .

وكذلك الركن الثالث وهو قول اللسان يزيد وينقص، فلا يمكن أن يكون الإنسان صامتا طول حياته إلا لآفة، وقد خلقه الله ﷻ متكلما وجعل له لسانا وشفتين وهداه النجدين، فإما أن يتكلم بالحق أو يتكلم بضده من الباطل، فإن لم يشهد ألا إله إلا الله وأن محمد رسول الله شهد بضد ذلك من أنواع الشرك، كأن يشهد زورا بأن الله ﷻ ثالث ثلاثة، أو أنه هو المسيح عيسى بن مريم، أو أنه عزير، أو اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، أو بوذا أو كريشنا، أو الغوث أو الخليفة أو القطب الأعلى، فإن لم يشهد بالحق شهد في المقابل بالزور والإفك، هذا بالإضافة إلى أن صدقه وكذبه في شهادته على مقدار تصديقه وتكذيبه في قلبه، أو مقدار علمه ويقينه في نفسه، فيكون قوله بلسانه إما مطابقا لما في قلبه، أو جاحدا مخالفا، أو منافقا خالصا، كل بحسب كتمانه وجحوده أو مقدار إدعائه ونفاقه.

وكذلك الركن الرابع وهو عمل الجوارح، يزيد وينقص، فلا يمكن أن تكون الجوارح معطلة إلا لآفة كالمشلول، فإما أن يكون متحركا في الطاعة وأعمال الإيمان، أو متحركا في المعصية وأعمال الكفر، يتجاذبه

الطرفان زيادة ونقصان، هذا بالإضافة إلى أن أعمال الجوارح مرتبطة بأعمال القلب في الإنسان وجودا وعدما، وقوة وضعفا، ومن ثم فإن جميع أركان الإيمان قابلة للزيادة والنقصان، وهذا ما دل عليه القرآن، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ التوبة:١٢٤/١٢٥.

وقال تعالى عن إمكانية زيادة الإيمان في قلوب المؤمنين: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٤﴾﴾ الفتح:٤ . وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٧﴾﴾ محمد:١٧.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ الأنفال:٢.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴿٢٢﴾﴾ الأحزاب:٢٢.

وقال سبحانه وتعالى عن إمكانية زيادة الكفر في قلوب الكافرين حتى تصل أقصاها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾ آل عمران:٩٠.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٧٨﴾﴾ آل عمران:١٧٨.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾ [النساء:١٣٧].

- تقرير شيخ الإسلام ابن تيمية للسبب في ضلال المرجئة والخوارج.

ذكر ابن تيمية أنه لا ريب أن المؤمنين يعرفون ربهم في الدنيا ويتفاوتون في درجات العرفان، والنبي ﷺ أعلمنا بالله، وقد قال: لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك. وهذا يتعلق بمعرفة زيادة المعرفة ونقصها المتعلقة بمسألة زيادة الإيمان ونقصه، وهي مسألةٌ كبيرةٌ، والذي مضى عليه سلف الأمة وأئمتها: أن نفس الإيمان الذي في القلوب يتفاضل كما قال النبي ﷺ: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان[1]. وأما زيادة العمل الصالح الذي على الجوارح ونقصانه فمتفقٌ عليه [2].

وأئمة المسلمين أهل المذاهب الأربعة وغيرهم مع جميع الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان متفقون على أن المؤمن لا يكفر بمجرد الذنب كما تقوله الخوارج؛ ولا يسلب جميع الإيمان كما تقوله المعتزلة؛ لكن بعض الناس قال: إن إيمان الخلق مستو فلا يتفاضل إيمان أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وإيمان الفساق؛ بناء على أن التصديق بالقلب واللسان، أو التصديق بالقلب فقط لا يتفاضل[3].

---

(١) انظر صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ٦/٢٧٢٧ (٧٠٧٢).

(٢) مجموع الفتاوى ٦/٤٧٩ بتصرف.

(٣) السابق ٦/٤٧٩ بتصرف.

وأما عامة السلف والأئمة فعندهم أن إيمان العباد لا يتساوى، بل يتفاضل، وإيمان السابقين الأولين أكمل من إيمان أهل الكبائر المجرمين، ثم النزاع مبني على أصلين، أحدهما العمل، هل يدخل في مطلق الإيمان؟ أو بمعنى آخر هل يدخل العمل في مسمى الإيمان؟ أو يدل الإيمان على العمل بالتضمن؟ فإن العمل يتفاضل بلا نزاع، فمن أدخله في مطلق الإيمان قال يتفاضل، ومن لم يدخله في مطلق الإيمان احتاج إلى الأصل الثاني، وهو أن ما في القلب من الإيمان هل يتفاضل؟ فظن من نفى التفاضل أن القلب ليس فيه إلا مجرد التصديق، وليس فيه من محبة الله وخوفه ورجائه والتوكل عليه وأمثال ذلك من الأعمال التي تتفاضل وتزيد وتنقص[1].

ثم نفس التصديق أيضا متفاضلٌ من جهات، منها أن التصديق بما جاء به الرسول ﷺ قد يكون مجملا، وقد يكون مفصلا؛ والمفصل فرع عن المجمل وجزء منه؛ فليس تصديق من عرف القرآن ومعانيه، والحديث ومعانيه، وصدق بذلك مفصلا كمن صدق أن محمدا رسول الله ﷺ، وأكثر ما جاء به لا يعرفه أو لا يفهمه، ومنها أن التصديق المستقر المذكور أتم من العلم الذي يطلب حصوله مع الغفلة عنه، ومنها أن التصديق نفسه يتفاضل كنهه؛ فليس ما أثنى عليه البرهان، بل تشهد له الأعيان، وأميط عنه كل أذى وحسبان حتى بلغ أعلى الدرجات؛ درجات الإيقان كتصديق زعزعته الشبهات، وصدفته الشهوات، ولعب به التقليد، ويضعف لشبه المعاند العنيد، وهذا أمرٌ يجده من نفسه كل

---

(١) السابق ٦/٤٨٠ بتصرف.

منصف رشيد، ولهذا كان المشايخ أهل المعرفة والتحقيق، السالكون إلى الله ﷻ أقصد طريق متفقين على الزيادة والنقصان في الإيمان والتصديق، كما هو مذهب أهل السنة والحديث في القديم والحديث، وهذه مسائل كبارٌ لا يمكن فيها إلا الإطناب بمثل هذا الجواب(١).

وأما الخوارج والمعتزلة فأهل السنة والجماعة من جميع الطوائف مطبقون على ذمهم، وينبغي أن يعرف أن القول الذي لم يوافق الخوارج والمعتزلة عليه أحدٌ من أهل السنة هو القول بتخليد أهل الكبائر في النار؛ فإن هذا القول من البدع المشهورة، وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان؛ وسائر أئمة المسلمين على أنه لا يخلد في النار أحدٌ ممن في قلبه مثقال ذرة من إيمان، واتفقوا أيضا على أن نبينا ﷺ يشفع فيمن يأذن الله ﷻ له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته، ففي الصحيحين عنه أنه قال: لكل نبي دعوةٌ مستجابةٌ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة(٢). وهذه الأحاديث مذكورة في مواضعها (٣).

وقد نقل بعض الناس عن الصحابة ﷺ في ذلك خلافا كما روي عن ابن عباس ﷺ أن القاتل لا توبة له، وهذا غلطٌ على الصحابة ﷺ؛ فإنه لم يقل أحدٌ منهم أن النبي ﷺ لا يشفع لأهل الكبائر، ولا قال إنهم يخلدون في النار، ولكن ابن عباس ﷺ في إحدى الروايتين عنه قال: إن القاتل لا

(١) مجموع الفتاوى ٦/٤٨١ بتصرف.

(٢) البخاري في الدعوات، باب لكل نبي دعوة مستجابة ٥/٢٣٢٣ (٥٩٤٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب اختباء النبي دعوة الشفاعة لأمته ١/١٨٩ (١٩٩).

(٣) مجموع الفتاوى ٧/٢٢٢ بتصرف.

توبة له، وعن أحمد بن حنبل في قبول توبة القاتل روايتان أيضا، والنزاع في التوبة غير النزاع في التخليد، وذلك أن القتل يتعلق به حق آدمي، فلهذا حصل فيه النزاع[1].

وأما قول القائل إن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله فهذا ممنوعٌ، وهذا هو الأصل الذي تفرعت عنه البدع في الإيمان، فإنهم ظنوا أنه متى ذهب بعضه ذهب كله، ولم يبق منه شيءٌ، ثم قالت الخوارج والمعتزلة هو مجموع ما أمر الله به ورسوله، وهو الإيمان المطلق كما قاله أهل الحديث؛ فزعمت الخوارج والمعتزلة أنه إذا ذهب شيءٌ منه لم يبق مع صاحبه من الإيمان شيءٌ، فيخلد في النار، وقالت المرجئة على اختلاف فرقهم لا تُذهِب الكبائر ولا ترك الواجبات الظاهرة شيئا من الإيمان، إذ لو ذهب شيءٌ منه لم يبق منه شيءٌ، فيكون شيئا واحدا يستوي فيه البر والفاجر[2].

وهما على طرفي نقيض فالخوارج يريدون أن يكون الإنسان على درجة الملائكة في الإيمان وإلا صار من حزب الشيطان، والمرجئة يجعلون الإنسان مؤمنا على درجة الملائكة في الإيمان، وإن كان من حزب الشيطان ويعيش حياته كالحيوان أو أضل سبيلا.

- ابن تيمية يسوق الأدلة النقلية التي تبطل مذهب الخوارج والمرجئة.

والنصوص الثابتة عن الرسول ﷺ وأصحابه تدل على ذهاب بعضه وبقاء بعضه؛ كقوله ﷺ: يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة

(١) السابق ٧/٢٢٣ بتصرف.

(٢) السابق ٧/٢٢٣ بتصرف.

من إيمان. ولهذا كان أهل السنة والحديث على أنه يتفاضل، وجمهورهم يقولون يزيد وينقص، ومنهم من يقول يزيد ولا يقول ينقص، كما روي عن مالك في إحدى الروايتين، ومنهم من يقول يتفاضل كعبد الله بن المبارك، وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان منه عن الصحابة ﷺ؛ ولم يعرف فيه مخالفٌ منهم؛ فروى الناس من وجوه كثيرة مشهورة من حديث عمير بن حبيب الخطمي ﷺ وهو من أصحاب رسول الله ﷺ أنه قال: الإيمان يزيد وينقص؛ قيل له: وما زيادته وما نقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته؛ وإذا غفلنا ونسينا فتلك نقصانه[١].

ومن حديث أبي الدرداء ﷺ أنه قال: الإيمان يزيد وينقص[٢]. وقال أحمد بن حنبل: حدثنا يزيد حدثنا حريز بن عثمان قال: سمعت أشياخنا أو بعض أشياخنا أن أبا الدرداء ﷺ قال: إن من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص معه، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد الإيمان أم ينقص؟ وإن من فقه الرجل أن يعلم نزغات الشيطان أنى تأتيه[٣].

وصح عن عمار بن ياسر ﷺ أنه قال: ثلاثٌ من كن فيه فقد استكمل الإيمان، الإنصاف من نفسه، والإنفاق من الإقتار؛ وبذل

---

(١) رواه عبد الله بن أحمد في كتاب السنة ١/٣٣٠ (٦٨٠)، وابن أبي شيبة في المصنف ٦/١٦٠ (٣٠٣٢٧)، وانظر صريح السنة لابن جرير الطبري ص٢٥ نشر دار الخلفاء للكتاب الإسلامي الكويت، وانظر مجموع الفتاوى ٧/٢٢٤.

(٢) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٥/٩٤٤.

(٣) السابق ٥/٩٤٥.

السلام للعالم. ذكره البخاري في صحيحه(١).

وقال جندب بن عبد الله وابن عمر وغيرهما ﷺ: تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن، فازددنا إيمانا، والآثار في هذا كثيرةٌ، رواها المصنفون في هذا الباب عن الصحابة ﷺ والتابعين في كتب كثيرة معروفة (٢).

قال مالك بن دينار: الإيمان يبدو في القلب ضعيفا ضئيلا كالبقلة؛ فإن تعاهده صاحبه فسقاه بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة وأماط عنه الدغل، وما يضعفه ويوهنه أوشك أن ينمو أو يزداد ويصير له أصلٌ وفروعٌ وثمرةٌ وظل إلى ما لا يتناهى حتى يصير أمثال الجبال، وإن صاحبه أهمله ولم يتعاهده جاءه عنزٌ فنتفتها، أو صبي فذهب بها، وأكثر عليها الدغل فأضعفها أو أهلكها أو أيبسها كذلك الإيمان(٣).

وقال خيثمة بن عبد الرحمن: الإيمان يسمن في الخصب، ويهزل في الجدب، فخصبه العمل الصالح، وجدبه الذنوب والمعاصي. وقيل لبعض السلف: يزداد الإيمان وينقص؟ قال: نعم يزداد حتى يصير أمثال الجبال، وينقص حتى يصير أمثال الهباء(٤).

وفي حديث حذيفة بن اليمان ﷺ الصحيح: حتى يقال للرجل ما أجلده ما أظرفه ما أعقله؛ وما في قلبه مثقال حبة من خردل من

---

(١) رواه البخاري معلقا في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إفشاء السلام من الإسلام ١/١٨، وابن أبي شيبة في مصنفه ٦/١٧٢ (٣٠٤٤٠).

(٢) مجموع الفتاوى ٧/٢٢٥.

(٣) السابق ٧/٢٢٥.

(٤) السابق ٧/٢٢٦.

إيمان[1].

وعند مسلم من حديث حذيفة ﷺ أنه سمع رسول اللهِ ﷺ يقُول: (تعرضُ الفِتن على القُلوبِ كَالحصِير عودا عودا، فَأَي قَلبٍ أُشْرِبَهَا نكِت فِيهِ نكْتة سوداءُ، وأَي قَلبٍ أَنكَرهَا نكِت فِيهِ نكْتة بَيضَاءُ حتى تصِير على قَلبَين، على أَبْيضَ مِثل الصَّفَا فَلا تضُرهُ فِتنة مَا دامَت السمَاوات والأَرضُ، والآخَر أَسود مُربَادا كَالكُوز مُجخيًا، لا يعرفُ مَعروفًا ولا ينكِر مُنكَرا إلا مَا أُشْرِبَ مِن هَواهُ) [2].

روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (خَرَجَ عَلينا النبي ﷺ يَوْمًا، فقال: عُرِضَت عَلي الأُمَمُ، فَجَعَل يَمُرُّ النبي معه الرَّجُل، وَالنبِيُّ معه الرَّجُلان، وَالنبِيُّ معه الرَّهْطُ، وَالنبِيُّ ليس معه أَحَدٌ. وَرَأَيْت سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَرَجَوْت أَن يكون أُمَّتِي، فَقِيل: هذا مُوسَى وَقَوْمُهُ. ثمَّ قِيل لي: انظُرْ، فَرَأَيْت سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيل لي: انظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا، فَرَأَيْت سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيل: هَؤُلاءِ أُمَّتك، وَمَعَ هَؤُلاءِ سَبْعُون أَلفًا يَدْخُلون الجَنةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فَتفرَّقَ الناس، ولم يُبَين لهم، فَتذَاكَرَ أَصْحَابُ النبي ﷺ، فَقَالوا: أَمَّا نحْن فَوُلدْنا في الشِّرْكِ، وَلكِنا آمَنا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَلكِن هَؤُلاءِ هُمْ أَبْناؤُنا، فَبَلغَ النبي ﷺ، فقال: هُمْ الذِين لا

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة ٥/٢٣٨٢ (٦١٣٢)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب ١/١٢٧ (١٤٣).

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا ١/١٢٨ (١٤٤).

يَتطَيرُون، ولا يَسْترْقُون، ولا يَكْتوُون، وَعَلى رَبِّهِمْ يَتوَكَّلون، فَقَامَ عُكّاشَةُ بن مِحْصَن فقال: أَمِنهُمْ أنا يا رَسُول اللهِ؟ قال: نعم، فَقَامَ آخَرُ فقال: أَمِنهُمْ أنا؟ فقال: سَبَقَكَ بها عُكَاشَةُ» [١].

وفي حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب كفايةٌ، فإنه من أعظم الأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه، لأنه وصفهم بقوة الإيمان وزيادته في تلك الخصال التي تدل على قوة إيمانهم؛ وتوكلهم على الله ﷻ في أمورهم كلها [٢].

والزيادة قد نطق بها القرآن في عدة آيات؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ الأنفال:٢. وهذه زيادةٌ إذا تليت عليهم الآيات أي وقت تليت ليس هو تصديقهم بها عند النزول، وهذا أمرٌ يجده المؤمن إذا تليت عليه الآيات زاد في قلبه بفهم القرآن، ومعرفة معانيه من علم الإيمان ما لم يكن؛ حتى كأنه لم يسمع الآية إلا حينئذ، ويحصل في قلبه من الرغبة في الخير والرهبة من الشر ما لم يكن؛ فزاد علمه بالله ومحبته لطاعته وهذه زيادة الإيمان.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ

---

(١) رواه البخاري في كتاب الطب، باب من لم يرق ٥/٢١٧٠ (٥٤٢٠)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب ١/١٩٩ (٢٢٠).

(٢) مجموع الفتاوى ٧/٢٢٦ بتصرف.

إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ آل عمران:١٧٣. فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو لم تكن عند آية نزلت، فازدادوا يقينا وتوكلا على الله ﷻ، وثباتا على الجهاد وتوحيدا بأن لا يخافوا المخلوق؛ بل يخافون الخالق وحده[1].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ التوبة:١٢٤/١٢٥. وهذه الزيادة ليست مجرد التصديق بأن الله ﷻ أنزلها، بل زادتهم إيمانا بحسب مقتضاها؛ فإن كانت أمرا بالجهاد أو غيره ازدادوا رغبة فيه، وإن كانت نهيا عن شيء انتهوا عنه فكرهوه، ولهذا قال: وهم يستبشرون، والاستبشار غير مجرد التصديق[2].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ ﴾ الرعد:٣٦. والفرح بذلك من زيادة الإيمان. وقال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ يونس:٥٨. وقال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ ﴾ المدثر:٣١. وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ ﴾ الفتح:٤. وهذه نزلت لما رجع النبي ﷺ من الحديبية؛ فجعل السكينة موجبة لزيادة الإيمان، والسكينة طمأنينة في

(١) مجموع الفتاوى ٧/٢٢٨ بتصرف.
(٢) السابق ٧/٢٢٨ بتصرف.

القلب غير علم القلب وتصديقه.

ولهذا قال يوم حنين: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ التوبة:٢٦ . وقال تعالى: ﴿ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ التوبة:٤٠ . ولم يكن قد نزل يوم حنين قرآنٌ، ولا يوم الغار؛ وإنما أنزل سكينته وطمأنينته من خوف العدو، فلما أنزل السكينة في قلوبهم مرجعهم من الحديبية ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم، دل على أن الإيمان المزيد حالٌ للقلب، وصفةٌ له، وعملٌ مثل طمأنينته وسكونه ويقينه، واليقين قد يكون بالعمل والطمأنينة كما يكون بالعلم والريب المنافي لليقين، يكون ريبا في العلم وريبا في طمأنينة القلب، ولهذا جاء في الدعاء المأثور: (اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا) [(١)].

ولفظ الإيمان أكثر ما يذكر في القرآن مقيدا؛ فلا يكون ذلك اللفظ متناولا لجميع ما أمر الله ﷻ به؛ بل يجعل موجبا للوازمه وتمام ما أمر به، وحينئذ يتناوله الاسم المطلق.

قال تعالى: ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات ٥/٥٢٨ (٣٥٠٢)، وحسنه الألباني، انظر صحيح الجامع (١٢٦٨).

بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾ الحديد: ٧/ ٩.

وقال تعالى في آخر السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ الحديد: ٢٨.

وقد قال بعض المفسرين في الآية الأولى إنها خطابٌ لقريش؛ وفي الثانية إنها خطابٌ لليهود والنصارى، وليس كذلك؛ فإن الله ﷻ لم يقل قط للكفار: يا أيها الذين آمنوا. ثم قال بعد ذلك: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾ الحديد: ٢٩. وهذه السورة مدنيةٌ باتفاق، لم يخاطب بها المشركين بمكة؛ وقد قال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الحديد: ٧. وهذا لا يخاطب به كافرٌ؛ وكفار مكة لم يكن أخذ ميثاقهم، وإنما أخذ ميثاق المؤمنين ببيعتهم له؛ فإن كل من كان مسلما مهاجرا كان يبايع النبي ﷺ كما بايعه الأنصار ليلة العقبة، وإنما دعاهم إلى تحقيق الإيمان وتكميله بأداء ما يجب من تمامه باطنا وظاهرا، كما نسأل الله ﷻ أن يهدينا الصراط المستقيم في كل صلاة؛ وإن كان قد هدى المؤمنين للإقرار بما جاء به الرسول ﷺ جملة، لكن الهداية المفصلة في جميع ما يقولونه ويفعلونه في جميع أمورهم لم تحصل، وجميع هذه الهداية الخاصة المفصلة هي من الإيمان المأمور به، وبذلك يخرجهم الله ﷻ من الظلمات إلى النور.

- زيادة الإيمان الذي أمر الله به عباده يكون فيهم من وجوه.

وزيادة الإيمان الذي أمر الله ﷻ به، والذي يكون من عباده المؤمنين يعرف من وجوه:

أحدها: الإجمال والتفصيل فيما أمروا به، فانه وإن وجب على جميع الخلق الإيمان بالله ورسوله ﷺ، ووجب على كل أمة التزام ما يأمر به رسولهم مجملا، فمعلوم أنه لا يجب في أول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله، ولا يجب على كل عبد من الإيمان المفصل مما أخبر به الرسول ﷺ ما يجب على من بلغه غيره، فمن عرف القرآن والسنن ومعانيها لزمه من الإيمان المفصل بذلك ما لا يلزم غيره، ولو آمن الرجل بالله ﷻ وبالرسول ﷺ باطنا وظاهرا ثم مات قبل أن يعرف شرائع الدين مات مؤمنا بما وجب عليه من الإيمان، وليس ما وجب عليه، ولا ما وقع عنه، مثل إيمان من عرف الشرائع فآمن بها وعمل بها، بل إيمان هذا أكمل وجوبا ووقوعا، فإن ما وجب عليه من الإيمان أكمل، وما وقع منه أكمل، وقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ المائدة:٣. أي في التشريع بالأمر والنهي، ليس المراد كل واحد من الأمة وجب عليه ما يجب على سائر الأمة، وأنه فعل ذلك[١].

الوجه الثاني: الإجمال والتفصيل فيما وقع منهم، فمن آمن بما جاء به الرسول ﷺ مطلقا، فلم يكذبه قط لكن أعرض عن معرفة أمره ونهيه وخبره، وطلب العلم الواجب عليه، فلم يعلم الواجب عليه ولم يعمله، بل اتبع هواه، وآخر طلب علم ما أمر به فعمل به، وآخر طلب علمه

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/٢٣٢ بتصرف.

فعلمه وآمن به ولم يعمل به، وإن اشتركوا في الوجوب لكن من طلب علم التفصيل وعمل به فإيمانه أكمل.

وهؤلاء ممن عرف ما يجب عليه والتزمه وأقر به لكنه لم يعمل بذلك كله، وهذا المقر بما جاء به الرسول ﷺ المعترف بذنبه، الخائف من عقوبة ربه على ترك العمل، أكمل إيمانا ممن لم يطلب معرفة ما أمر به الرسول ﷺ ولا عمل بذلك، ولا هو خائف أن يعاقب، بل هو في غفلة عن تفصيل ما جاء به الرسول ﷺ مع أنه مقر بنبوته باطنا وظاهرا، فكلما علم القلب ما أخبر به الرسول ﷺ فصدقه، وما أمر به فالتزمه كان ذلك زيادة في إيمانه على من لم يحصل له ذلك، وإن كان معه التزام عام وإقرار عام، وكذلك من عرف أسماء الله ﷻ ومعانيها فآمن بها كان إيمانه أكمل ممن لم يعرف تلك الأسماء، بل آمن بها إيمانا مجملا أو عرف بعضها وكلما ازداد الإنسان معرفة بأسماء الله وصفاته وآياته كان إيمانه به أكمل.

الثالث: أن العلم والتصديق نفسه يكون بعضه أقوى من بعض، وأثبت وأبعد عن الشك والريب، وهذا أمر يشهده كل أحد من نفسه كما أن الحس الظاهر بالشيء الواحد، مثل رؤية الناس للهلال، وإن اشتركوا فيها فبعضهم تكون رؤيته أتم من بعض، وكذلك سماع الصوت الواحد، وشم الرائحة الواحدة، وذوق النوع الواحد من الطعام، فكذلك معرفة القلب وتصديقه يتفاضل أعظم من ذلك من وجوه متعددة، والمعاني التي يؤمن بها من معاني أسماء الرب وكلامه، يتفاضل الناس في معرفتها أعظم من تفاضلهم في معرفة غيرها.

الرابع: أن التصديق المستلزم لعمل القلب أكمل من التصديق الذي لا يستلزم عمله، فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به، وإذا كان شخصان يعلمان أن الله ﷻ حق، ورسوله ﷺ حق، والجنة حق، والنار حق، وهذا علمه أوجب له محبة الله وخشيته، والرغبة في الجنة، والهرب من النار، والآخر علمه لم يوجب ذلك، فعلم الأول أكمل، فإن قوة المسبب دل على قوة السبب، وهذه الأمور نشأت عن العلم، فالعلم بالمحبوب يستلزم طلبه، والعلم بالمخوف يستلزم الهرب منه، فإذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزوم، ولهذا صح من حديث ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ) (١).

ولما أخبر الله موسى عليه السلام أن قومه عبدوا العجل لم يلق الألواح، فلما رآهم قد عبدوه ألقاها، وليس ذلك لشك موسى عليه السلام في خبر الله، لكن المخبر وإن جزم بصدق المخبر، فقد لا يتصور المخبر به في نفسه كما يتصوره إذا عاينه، بل يكون قلبه مشغولا عن تصور المخبر به، وإن كان مصدقا به، ومعلوم أنه عند المعاينة يحصل له من تصور المخبر به ما لم يكن عند الخبر، فهذا التصديق أكمل من ذلك التصديق.

الخامس: أن أعمال القلوب مثل محبة الله ورسوله وخشية الله تعالى ورجائه ونحو ذلك هي كلها من الإيمان، كما دل على ذلك الكتاب والسنة واتفاق السلف، وهذه يتفاضل الناس فيها تفاضلا عظيما.

---

(١) رواه أحمد في المسند ١/٢١٥ (١٨٤٢)، قال الشيخ شعيب الأرناءوط: حديث صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين.

السادس: أن الأعمال الظاهرة مع الباطنة هي أيضا من الإيمان والناس يتفاضلون فيها.

السابع: ذكر الإنسان بقلبه ما أمره الله به، واستحضاره لذلك بحيث لا يكون غافلا عنه أكمل ممن صدق به وغفل عنه، فإن الغفلة تضاد كمال العلم، والتصديق والذكر والاستحضار يكمل العلم واليقين، فإذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادة الإيمان، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا، فتلك نقصانه. قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۝٢٨﴾ الكهف:٢٨. ثم كلما تذكر الإنسان ما عرفه قبل ذلك وعمل به حصل له معرفة شيء آخر لم يكن عرفه قبل ذلك، وعرف من معاني أسماء الله وآياته ما لم يكن عرفه قبل ذلك، كما في الأثر: من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم. وهذا أمر يجده كل مؤمن في نفسه. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ الأنفال:٢. وذلك أنها تزيدهم علم ما لم يكونوا قبل ذلك علموه، وتزيدهم عملا بذلك العلم، وتزيدهم تذكرا لما كانوا نسوه، وعملا بتلك التذكرة.

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ ق:٦/٨. فالآيات المخلوقة والمتلوة فيها تبصرة، وفيها تذكرة، تبصرة من العمى، وتذكرة من الغفلة، فيبصر من لم يكن عرف حتى يعرف، ويذكر من عرف ونسي، والإنسان يقرأ السورة مرات حتى سورة الفاتحة، ويظهر له في أثناء الحال من معانيها ما

لم يكن خطر له قبل ذلك، حتى كأنها تلك الساعة نزلت، فيؤمن بتلك المعاني ويزداد علمه وعمله، وهذا موجود في كل من قرأ القرآن بتدبر، بخلاف من قرأه مع الغفلة عنه، ثم كلما فعل شيئا مما أمر به استحضر أنه أمر به فصدق الأمر، فحصل له في تلك الساعة من التصديق في قلبه ما كان غافلا عنه، وإن لم يكن مكذبا منكرا.

الوجه الثامن: أن الإنسان قد يكون مكذبا ومنكرا لأمور لا يعلم أن الرسول ﷺ أخبر بها وأمر بها، ولو علم ذلك لم يكذب ولم ينكر، بل قلبه جازم بأنه لا يخبر إلا بصدق، ولا يأمر إلا بحق، ثم يسمع الآية أو الحديث أو يتدبر ذلك أو يفسر له معناه، أو يظهر له ذلك بوجه من الوجوه، فيصدق بما كان مكذبا به، ويعرف ما كان منكرا، وهذا تصديق جديد وإيمان جديد ازداد به إيمانه، ولم يكن قبل ذلك كافرا بل جاهلا، وهذا وإن أشبه المجمل والمفصل لكون قلبه سليما عن تكذيب وتصديق لشيء من التفاصيل، وعن معرفة وإنكار لشيء من ذلك، فيأتيه التفصيل بعد الإجمال على قلب ساذج، أو على كثير من الناس من أهل العلوم والعبادات فيقوم بقلوبهم من التفصيل أمور كثيرة تخالف ما جاء به الرسول ﷺ، وهم لا يعرفون أنها تخالف، فإذا عرفوا رجعوا، وكل من ابتدع في الدين قولا أخطأ فيه، أو عمل عملا اخطأ فيه، وهو مؤمن بالرسول أو عرف ما قاله وآمن به لم يعدل عنه هو من هذا الباب، وكل مبتدع قصده متابعة الرسول ﷺ فهو من هذا الباب، فمن علم ما جاء به الرسول ﷺ وعمل به أكمل ممن أخطأ ذلك، ومن علم الصواب بعد الخطأ وعمل به فهو أكمل ممن لم يكن كذلك[1].

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٣٧/٧ بتصرف.

• **هل يلزم من نفي الإيمان المطلق عن الإنسان خروجه عن الملة؟**

الإيمان المطلق هو الإيمان الدال بالمطابقة على التزام كل ما ورد في الكتاب والسنة من أخبار تتطلب التصديق على التفصيل، وأوامر شرعية تكليفية تتطلب التنفيذ على اختلاف درجات أحكام العبودية، وهو الإيمان الذي يشمل الدلالة على الإتيان بجميع شعب الإيمان، فهذا يسمى الإيمان المطلق، وهو الإيمان الذي يتضمن حقيقة الإسلام.

أما الإيمان المقيد فهو ما يسمى بمطلق الإيمان أي الإيمان الناقص الذي جاء به صاحبه على الإجمال، وأعلن أنه على استعداد لتصديق الخبر وتنفيذ الأمر وإن لم يباشر الأقوال والأفعال بعد، أو أتى ببعض الأفعال الظاهرة التي تجعله مندرجا في وصف المسلمين، وهذا يطلق عليه مصطلح الإسلام إذا اجتمع مع مصطلح الإيمان.

وقد أثبت الله في القرآن إسلاما بلا إيمان في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ الحجرات: ١٤.

وقد ثبت عند البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص ﵁ أنه قال: أعطى النبي ﷺ رهطا، وفي رواية قسم قسما وترك فيهم من لم يعطه، وهو أعجبهم إلي فقلت: يا رسول الله ما لك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمنا، فقال رسول الله ﷺ: أو مسلما. أقولها ثلاثا، ويرددها علي رسول الله ﷺ ثلاثا ثم قال: إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه مخافة أن يكبه الله على وجهه في النار[1].

---

(١) البخاري في الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة ١/١٨ (٢٧).

هذا الإسلام الذي نفى الله عن أهله دخول الإيمان في قلوبهم، هل هو إسلامٌ يثابون عليه؟ أم هو من جنس إسلام المنافقين؟ فيه قولان مشهوران للسلف والخلف(١).

وتحقيق الجواب في هذا أن الذين قالوا من السلف إنهم خرجوا من الإيمان إلى الإسلام، لم يقولوا إنه لم يبق معهم من الإيمان شيءٌ، بل هذا قول الخوارج والمعتزلة، فالفساق عند أهل السنة يخرجون من النار بالشفاعة، وإن معهم إيمانا يخرجون به من النار، لكن لا يطلق عليهم اسم الإيمان المطلق، لأن الإيمان المطلق هو الذي يستحق صاحبه الثواب ودخول الجنة، وهؤلاء ليسوا من أهله، وهم يدخلون في الخطاب بالإيمان لأن الخطاب بذلك هو لمن دخل في الإيمان وإن لم يستكمله، فإنه إنما خوطب ليفعل تمام الإيمان، فكيف يكون قد أتمه قبل الخطاب، وإلا كنا قد تبينا أن هذا المأمور من الإيمان قبل الخطاب؛ وإنما صار من الإيمان بعد أن أمروا به، فالخطاب بيا أيها الذين آمنوا غير قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ الحجرات:١٥. ونظائرها، فإن الخطاب بيا أيها الذين آمنوا أولا يدخل فيه من أظهر الإيمان، وإن كان منافقا في الباطن يدخل فيه في الظاهر، فكيف لا يدخل فيه من لم يكن منافقا، وإن لم يكن من المؤمنين حقا.

وحقيقته أنه إن لم يكن من المؤمنين حقا فيقال فيه إنه مسلم، ومعه إيمان يمنعه الخلود في النار، وهذا متفق عليه بين أهل السنة، لكن هل

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/٢٣٨ بتصرف.

يطلق عليه اسم الإيمان؟ أو الإيمان المطلق، هذا هو الذي تنازعوا فيه فقيل: يقال مسلمٌ ولا يقال مؤمنٌ، وقيل: بل يقال مؤمنٌ.

والتحقيق أن يقال إنه مؤمنٌ ناقص الإيمان مؤمنٌ بإيمانه فاسقٌ بكبيرته ولا يعطى اسم الإيمان المطلق؛ فإن الكتاب والسنة نفيا عنه الاسم المطلق؛ واسم الإيمان يتناوله فيما أمر الله به ورسوله لأن ذلك إيجابٌ عليه وتحريمٌ عليه، وهو لازمٌ له كما يلزمه غيره، وإنما الكلام في اسم المدح المطلق.

وعلى هذا فالخطاب بالإيمان يدخل فيه ثلاث طوائف، يدخل فيه المؤمن حقا كالموصوفين بدرجة المقتصدين أو السابقين، ويدخل فيه المنافق في أحكامه الظاهرة وإن كانوا في الآخرة في الدرك الأسفل من النار؛ وهو في الباطن ينفي عنه الإسلام والإيمان، وفي الظاهر يثبت له الإسلام والإيمان الظاهر؛ ويدخل فيه الذين أسلموا وإن لم تدخل حقيقة الإيمان في قلوبهم؛ لكن معهم جزءٌ من الإيمان والإسلام يثابون عليه وإن كانوا من الظالمين لأنفسهم في ترك واجب أو فعل محرم كما هو شأن أهل الكبائر(١).

ثم قد يكونون مفرطين فيما فرض عليهم، وليس معهم من الكبائر ما يعاقبون عليه كأهل الكبائر لكن يعاقبون على ترك المفروضات، وهؤلاء كالأعراب المذكورين في الآية وغيرهم؛ فإنهم قالوا آمنا من غير قيام منهم بما أمروا به باطنا وظاهرا، فلا دخلت حقيقة الإيمان في قلوبهم، ولا جاهدوا في سبيل الله، وقد كان النبي ﷺ قد دعاهم إلى الجهاد فلم

(١) مجموع الفتاوى ٧/٢٤١ بتصرف.

يمتثلوا، وقد يكونون من أهل الكبائر المعرضين للوعيد؛ كالذين يصلون ويزكون ويجاهدون ويأتون الكبائر؛ وهؤلاء لا يخرجون من الإسلام؛ بل هم مسلمون، وإن تنازعوا في كونهم مؤمنين[(١)].

وأما الخوارج والمعتزلة فيخرجونهم من اسم الإيمان والإسلام؛ فإن الإيمان والإسلام عندهم واحدٌ ولا فرق؛ فإذا خرجوا عندهم من الإيمان خرجوا من الإسلام؛ لكن الخوارج تقول هم كفارٌ؛ والمعتزلة تقول لا مسلمون ولا كفار؛ ينزلونهم منزلة بين المنزلتين[(٢)].

والدليل على أن الإسلام المذكور في الآية هو إسلامٌ يثابون عليه وأنهم ليسوا منافقين أنه قال: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ الحجرات:١٤. ثم قال: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ الحجرات:١٤. فدل على أنهم إذا أطاعوا الله ورسوله مع هذا الإسلام آجرهم الله على الطاعة، والمنافق عمله حابط في الآخرة[(٣)].

وأيضا فإنه سبحانه وصفهم بخلاف صفات المنافقين، فإن المنافقين وصفهم بكفر في قلوبهم، وأنهم يبطنون خلاف ما يظهرون؛ فالمنافقون يصفهم في القرآن بالكذب؛ وأنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، وبأن قلوبهم فيها من الكفر ما يعاقبون عليه؛ وهؤلاء لم يصفهم بشيء من ذلك، لكن لما ادعوا الإيمان قال للرسول: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/٢٤٢ بتصرف.
(٢) السابق ٧/٢٤٢ بتصرف.
(٣) السابق ٧/٢٤٢ بتصرف.

أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ الحجرات: ١٤.

ونفي الإيمان المطلق لا يستلزم أن يكونوا منافقين كما في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ الأنفال: ١.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ﴾ الأنفال: ٢/٤[١].

ومعلومٌ أنه ليس من لم يكن كذلك؛ يكون منافقا من أهل الدرك الأسفل من النار، بل لا يكون قد أتى بالإيمان الواجب، فنفى عنه الإيمان كما ينفى سائر الأسماء عمن ترك بعض ما يجب عليه، كقوله ﷺ ليس منا، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، كما ورد عند مسلم من حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: (مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا) [٢]. وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ) [٣].

---

(١) السابق ٧/٢٤٣ بتصرف.

(٢) مسلم في الإيمان، باب قول النبي ﷺ: من غشنا فليس منا ١/٩٩ (١٠١).

(٣) البخاري في الجنائز، باب ليس منا من ضرب الخدود ١/٤٣٦ (١٢٣٥)، ومسلم في الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب ١/٩٩ (١٠٣).

وروى النسائي من حديث صفوان بن محرز ﷺ أنه قال: (أُغْمِي عَلَى أَبِي مُوسَى فَبَكَوْا عَلَيْهِ فقَال: أَبْرَأُ إِلَيْكُمْ كَمَا بَرِئَ إِلَيْنَا رَسُول اللهِ ﷺ لَيْسَ مِنَّا مَنْ حَلقَ، وَلاَ خرَقَ، وَلاَ سَلق) (١).

وروى البخاري من حديث أبي شرح ﷺ أن النبي ﷺ قال: (وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ، قِيل: وَمَنْ يَا رَسُول اللهِ؟ قَال: الذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايقَهُ) (٢).

هؤلاء جميعا نفى عنهم الإيمان لتركهم بعض ما يجب عليه، ولا يلزم أن يكونوا كفار خارجين عن الملة، فكذلك الأعراب لم يأتوا بالإيمان الواجب؛ فنفي عنهم لذلك، وإن كانوا مسلمين معهم من الإيمان ما يثابون عليه(٣).

وهذا حال أكثر الداخلين في الإسلام ابتداء؛ بل حال أكثر من لم يعرف حقائق الإيمان؛ فإن الرجل إذا قوتل حتى أسلم كما كان الكفار يقاتلون حتى يسلموا، أو أسلم بعد الأسر، أو سمع بالإسلام فجاء فأسلم؛ فإنه مسلمٌ ملتزمٌ طاعة الرسول ﷺ ولم تدخل إلى قلبه المعرفة بحقائق الإيمان، فإن هذا إنما يحصل لمن تيسرت له أسباب ذلك؛ إما بفهم القرآن، وإما بمباشرة أهل الإيمان، والاقتداء بما يصدر عنهم من

---

(١) رواه النسائي في كتاب الجنائز، باب السلق ٢٠/٤ (١٨٦١) وصححه الألباني، ومعنى خرق شق الثياب، وسلق رفع صوته عند المصيبة.

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه ٢٢٤٠/٥ (٥٦٧٠)، والبوائق: الغوائل والشرور واحدها بائقة.

(٣) مجموع الفتاوى ٢٤٣/٧ بتصرف.

الأقوال والأعمال، وإما بهداية خاصة من الله يهديه بها [1].

والإنسان قد يظهر له من محاسن الإسلام ما يدعوه إلى الدخول فيه وإن كان قد ولد عليه، وتربى بين أهله فإنه يحبه، فقد ظهر له بعض محاسنه وبعض مساوئ الكفار، وكثيرٌ من هؤلاء قد يرتاب إذا سمع الشبه القادحة فيه، ولا يجاهد في سبيل الله؛ فليس هو داخلا في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ الحجرات:١٥.

وليس هو منافقا في الباطن مضمرا للكفر، فلا هو من المؤمنين حقا ولا هو من المنافقين، ولا هو أيضا من أصحاب الكبائر، بل يأتي بالطاعات الظاهرة، ولا يأتي بحقائق الإيمان التي يكون بها من المؤمنين حقا؛ فهذا معه إيمانٌ وليس هو من المؤمنين حقا، ويثاب على ما فعل من الطاعات.

ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ الحجرات:١٤. ولهذا قال: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ الحجرات:١٧. يعني صادقين في قولكم آمنا، فإن كنتم صادقين فالله يمن عليكم أن هداكم للإيمان؛ وهذا يقتضي أنهم قد يكونون صادقين في قولهم آمنا.

ثم صدقهم إما أن يراد به اتصافهم بأنهم آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون،

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/٢٤٤ بتصرف.

وإما أن يراد به أنهم لم يكونوا كالمنافقين، بل معهم إيمانٌ وإن لم يكن لهم أن يدعوا الإيمان المطلق [١].

- **هل شعب الإيمان متلازمة في الانتفاء والثبوت أو غير متلازمة ؟**

أصل نزاع الفرق في الإيمان من الخوارج والمرجئة والمعتزلة والجهمية وغيرهم أنهم جعلوا الإيمان شيئا واحدا، إذا زال بعضه زال جميعه وإذا ثبت بعضه ثبت جميعه، فلم يقولوا بذهاب بعضه وبقاء بعضه كما قال النبي ﷺ: يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من الإيمان. ثم قالت الخوارج والمعتزلة الطاعات كلها من الإيمان، فإذا ذهب بعضها ذهب بعض الإيمان فذهب سائره، فحكموا بأن صاحب الكبيرة ليس معه شيء من الإيمان.

وقالت المرجئة والجهمية ليس الإيمان إلا شيئا واحدا لا يتبعض، إما مجرد تصديق القلب كقول الجهمية، أو تصديق القلب واللسان كقول المرجئة، وتعللوا بقولهم: إنا إذا أدخلنا فيه الأعمال صارت جزءا منه، فإذا ذهبت ذهب بعضه، فيلزم إخراج ذي الكبيرة من الإيمان، وهو قول المعتزلة والخوارج[٢].

وجماع شبهتهم في ذلك أن الحقيقة المركبة تزول بزوال بعض أجزائها كالعشرة، فإنه إذا زال بعضها لم تبق عشرة؛ وكذلك الأجسام المركبة كالسكنجبين ـ شراب مركب من الخل والعسل كان يصنع لعلاج مرض الصفراء ـ السكنجبين إذا زال أحد جزأيه خرج عن كونه

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/٢٤٥ بتصرف.

(٢) السابق ٧/٥١٠ بتصرف.

سكنجبينا، فقالت الخوارج والمعتزلة إذا كان الإيمان مركبا من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة لزم زواله بزوال بعضها [1].

وهذه الشبهة هي شبهة من منع أن يكون في الرجل الواحد طاعة ومعصية، لأن الطاعة جزء من الإيمان، والمعصية جزء من الكفر، فعندهم لا يجتمع في الإنسان كفر وإيمان، وقالوا ما ثم إلا مؤمن محض، أو كافر محض، وهم يفترضون صورة في أذهانهم لا حقيقة لها في الواقع فيتصورون في خيالهم أن كل إنسان لابد أن يكون إما ملكا محضا وإما شيطانا محضا، يتنقل بينهما في لحظة بجميع ما فيه من أركان الإيمان، ففي لحظة يكون ملكا تنتقل فيه جميع الأركان إلى أعلى درجة في الإيمان، وأي خطأ منه مهما كان ينقلب بسببه إلى شيطان وتزول فيه جميع أركان الإيمان، وكذلك الإنسان الشيطان بمجرد قول اللسان يصبح ملكا كامل الإيمان مستوفيا لجميع الأركان، وهذه صورة لا تكون إلا في الخيال والأذهان، ولكنها ليست في الخارج ولا محل لها في الواقع وبعيدة كل البعد عن الحقيقة.

وهؤلاء منتهى نظرهم أن يروا حقيقة مطلقة مجردة تقوم في أنفسهم ولو اهتدوا لعلموا أن الأمور الموجودة في الخارج عن الذهن وهي في واقع الحياة التي خلقها الله ﷻ متميزة بخصائصها وعللها التي خلقت من أجلها، وأن الحقيقة المجردة عن الواقع والتي أطلقوا العنان لعقولهم في تصورها لا تكون إلا في الذهن فقط، وأن أهل السنة إذا تكلموا في التفاضل والاختلاف بين الناس في درجات الإيمان وغيرها، فإنما

---

(١) السابق ٥١١/٧ بتصرف.

تكلموا في تفاضل الأمور الموجودة في الواقع واختلافها، لا في تفاضل أمر مطلق مجرد في الذهن لا وجود له في الخارج، فالله ﷻ ابتلى الإنسان في الحياة وهداه بين نجدين وطريقين معروضين، يميل إلى أحدهما بدرجات متفاوتة تقابل بعده على الآخر بدرجات مقابلة ومتنوعة، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ المجادلة:١١. وقال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ آل عمران:١٦٣. وقال: ﴿دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ النساء:٩٦. وقال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ الأنعام:١٣٢.

ولا يمكن أن يتنقل الإنسان في جميع الأركان القابلة للكفر أو الإيمان من كفر كامل محض إلى إيمان كامل محض في لحظة من اللحظات دون أن يمر بدرجات ومواقف وابتلاءات تزداد شيئا فشيئا إلى أن تصل إلى الكمال في كل ركن من أركان الإيمان، وقد ينقص الإيمان شيئا فشيئا حتى يصل إلى التلاشي والزوال، فإن وصل الإيمان أعلاه وأصبح المؤمن في أعلى درجاته التي قد يصل إليها الإنسان ففيه شبه من الملائكة، وتحقق فيه الإيمان المطلق والرسوخ فيه.

قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ النساء:٩٥.

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا

يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾ الحديد: ١٠.

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ التوبة: ٢٠.

وإن وصل الإيمان أدناه وأصبح الإنسان في أدنى درجاته التي قد يصل إليها الإنسان ففيه شبه من الشيطان والحيوان، وإن كان مترددا بينهما، فهذا شأن غالب بني الإنسان يترددون بين الطاعة والعصيان، وبين الكفر والإيمان، فقد يجتمع في الشخص الواحد كفر وإيمان، وطاعة وعصيان، والأكرم عند الله ﷻ هو الأتقى دون النظر إلى الحسابات الأخرى واعتبار الأفقر أو الأغنى، أو الذكر أو الأنثى.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾الحجرات:١٣.

وهذا موضع الابتلاء في خلق الإنسان، وخلق الدنيا من أجل استخلافه واسترعائه فيها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ الأنعام: ١٦٥.

- **الإيمان في درجاته كتنوع الألوان واختلاف درجات اللون الواحد.**

من المعلوم أن السواد مختلف في درجاته فبعضه أشد من بعض، وكذلك البياض وغيره من الألوان، وأما إذا قدرنا السواد المجرد المطلق الذي يتصوره الذهن لا يكون إلا درجة واحدة ولا يقبل الاختلاف

والتفاضل في الشدة أو الضعف، لكن محض خيال تتصوره الأذهان ولا يكون في الأعيان، فالسواد الكامل يكون في الواقع درجة من درجات الألوان.

ولا يلزم من انعدام درجة من درجات السواد انعدام جميع درجات الألوان، ولا يلزم من زوال بعض الأمور المجتمعة زوال سائرها، وسواء سميت مركبة أو مؤلفة أو غير ذلك، لا يلزم من زوال بعض الأجزاء زوال سائرها، وما مثلوا به من العشرة والسكنجبين مطابق لذلك، فإن الواحد من العشرة، إذا زال لم يلزم زوال التسعة، بل قد تبقى التسعة، فإذا زال أحد جزأي المركب لا يلزم زوال الجزء الآخر؛ لكن أكثر ما يقولون زالت الصورة المجتمعة، وزالت الهيئة الاجتماعية، وزال ذلك الاسم الذي استحقته الهيئة بذلك الاجتماع والتركيب، كما يزول اسم العشرة والسكنجبين.

ويرد على ذلك فيقال أما كون ذلك المجتمع المركب ما بقي على تركيبه، فهذا لا ينازع فيه عاقل، ولا يدعي عاقل أن الإيمان أو الصلاة أو الحج أو غير ذلك من العبادات المتناولة لأمور كثيرة من الأقوال والأفعال، إذا زال بعضها بقي ذلك المجتمع المركب كما كان قبل زوال بعضه، ولا يقول أحد إن الشجرة أو الدار إذا زال بعضها بقيت مجتمعة كما كانت، ولا أن الإنسان أو غيره من الحيوان إذا زال بعض أعضائه بقي مجموعا، كما قال النبي ﷺ: كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل

تحسون فيها من جدعاء[1]. فالمجتمعة الخلق بعد الجدع، لا تبقى مجتمعة ولكن لا يلزم زوال بقية الأجزاء منها [2].

وأما زوال الاسم فيقال لهم هذا أولا بحث لفظي، إذا قدر أن الإيمان له أبعاض وشعب؛ كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان[3].

كما أن الصلاة والحج له أجزاء وشعب ولا يلزم من زوال شعبة من شعبه زوال سائر الأجزاء والشعب؛ كما لا يلزم من زوال بعض أجزاء الحج والصلاة زوال سائر الأجزاء، فدعواهم أنه إذا زال بعض المركب زال البعض الآخر ليس بصواب، ونحن نسلم لهم أنه ما بقي إلا بعضه لا كله وأن الهيئة الاجتماعية ما بقيت كما كانت.

يبقى النزاع هل يلزم زوال الاسم بزوال بعض الأجزاء فيقال لهم المركبات في ذلك على وجهين، منها ما يكون التركيب شرطا في إطلاق الاسم ومنها ما لا يكون كذلك، فالأول كاسم العشرة وكذلك السكنجبين، ومنها ما يبقى الاسم بعد زوال بعض الأجزاء؛ وجميع المركبات المتشابهة الأجزاء من هذا الباب، وكذلك كثير من المختلفة الأجزاء، فإن المكيلات والموزونات تسمى حنطة، وهي بعد النقص

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام ٤٥٦/١ (١٢٩٣)، ومسلم في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ٢٠٤٧/٤ (٢٦٥٨).

(٢) مجموع الفتاوى ٥١٥/٧ بتصرف.

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان ٦٣/١ (٣٥).

حنطة، وكذلك التراب والماء ونحو ذلك[١].

وكذلك لفظ العبادة والطاعة والخير والحسنة والإحسان والصدقة والعلم ونحو ذلك مما يدخل فيه أمور كثيرة يطلق الاسم عليها قليلها وكثيرها، وعند زوال بعض الأجزاء وبقاء بعض، وكذلك لفظ القرآن يقال على جميعه وعلى بعضه، ولو نزل قرآن أكثر من هذا لسمي قرآنا، وكذلك لفظ القول والكلام والمنطق ونحو ذلك يقع على القليل من ذلك وعلى الكثير، وكذلك لفظ الذكر والدعاء يقال للقليل والكثير، وكذلك لفظ الجبل يقال على الجبل، وإن ذهبت منه أجزاء كثيرة، ولفظ البحر والنهر يقال عليه بحر ونهر وإن نقصت أجزاؤه، وكذلك المدينة والدار والقرية والمسجد ونحو ذلك يقال على الجملة المجتمعة ثم ينقص كثير من أجزائها والاسم باق، وكذلك أسماء الحيوان والنبات كلفظ الشجرة يقال على جملتها، فيدخل فيها الأغصان وغيرها، ثم يقطع منها ما يقطع والاسم باق، وكذلك لفظ الإنسان والفرس والحمار يقال على الحيوان المجتمع الخلق ثم يذهب كثير من أعضائه والاسم باق[٢].

وإذا كانت المركبات على نوعين بل غالبها من هذا النوع لم يصح قولهم إنه إذا زال جزؤه لزم أن يزول الاسم، إذا أمكن أن يبقى الاسم مع بقاء الجزء الباقي، ومعلوم أن اسم الإيمان من هذا الباب؛ فإن النبي ﷺ قال: الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان.

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/٥١٦ بتصرف.

(٢) السابق ٧/٥١٦ بتصرف.

ثم من المعلوم أنه إذا زالت الإماطة ونحوها لم يزل اسم الإيمان، وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيحين أنه قال: يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان. فأخبر أنه يتبعض ويبقى بعضه، وأن ذاك من الإيمان، فعلم أن بعض الإيمان يزول ويبقى بعضه، وهذا ينقض مآخذهم الفاسدة، ويبين أن اسم الإيمان مثل اسم القرآن والصلاة والحج ونحو ذلك، أما الحج ونحوه ففيه أجزاء ينقص الحج بزوالها عن كماله الواجب ولا يبطل، كرمي الجمار والمبيت بمنى ونحو ذلك، وفيه أجزاء ينقص بزوالها من كماله المستحب كرفع الصوت بالإهلال، والرمل والاضطباع في الطواف الأول[1].

وكذلك الصلاة فيها أجزاء تنقص بزوالها عن كمال الاستحباب وفيها أجزاء واجبة تنقص بزوالها عن الكمال الواجب مع الصحة في مذهب أبي حنيفة وأحمد ومالك، وفيها ما له أجزاء إذا زالت جبر نقصها بسجود السهو وأمور ليست كذلك، فقد رأيت أجزاء الشيء تختلف أحكامها شرعا وطبعا، فإذا قال المعترض هذا الجزء داخل في حقيقة الإيمان، وهذا خارج من الحقيقة قيل له ماذا تريد بالحقيقة، فإن قال أريد بذلك ما إذا زال صار صاحبه كافرا، قيل له ليس للإيمان حقيقة واحدة، مثل حقيقة مسمى مسلم في حق جميع المكلفين في جميع الأزمان بهذا الاعتبار، مثل حقيقة السواد والبياض؛ بل الإيمان والكفر يختلف باختلاف المكلف، وبلوغ التكليف له، وبزوال الخطاب الذي به التكليف ونحو ذلك.

---

(١) السابق ٧/٥١٧ بتصرف.

وكذلك الإيمان والواجب على غيره مطلق؛ لا مثل الإيمان الواجب عليه في كل وقت، فإن الله ﷻ لما بعث محمدا رسولا إلى الخلق كان الواجب على الخلق تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر، ولم يأمرهم حينئذ بالصلوات الخمس، ولا صيام شهر رمضان، ولا حج البيت الحرام، ولا حرم عليهم الخمر والربا ونحو ذلك، ولا كان أكثر القرآن قد نزل، فمن صدقه حينئذ فيما نزل من القرآن، وأقر بما أمر به من الشهادتين وتوابع ذلك كان ذلك الشخص حينئذ مؤمنا تام الإيمان الذي وجب عليه، وإن كان مثل ذلك الإيمان لو أتى به بعد الهجرة لم يقبل منه، ولو اقتصر عليه كان كافرا.

قال الإمام أحمد كان بدء الإيمان ناقصا فجعل يزيد حتى كمل، ولهذا قال تعالى عام حجة الوداع: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ المائدة:٣ [(١)].

وأيضا فبعد نزول القرآن وإكمال الدين إذا بلغ الرجل بعض الدين دون بعض، كان عليه أن يصدق ما جاء به الرسول ﷺ جملة وما بلغه عنه مفصلا، وأما ما لم يبلغه ولم يمكنه معرفته فذاك إنما عليه أن يعرفه مفصلا إذا بلغه، وأيضا فالرجل إذا آمن بالرسول ﷺ إيمانا جازما ومات قبل دخول وقت الصلاة، أو وجوب شيء من الأعمال مات كامل الإيمان الذي وجب عليه، فإذا دخل وقت الصلاة فعليه أن يصلي، وصار يجب عليه ما لم يجب عليه قبل ذلك، وكذلك القادر على الحج والجهاد يجب عليه ما لم يجب على غيره من التصديق المفصل والعمل

---

(١) مجموع الفتاوى ٥١٨/٧ بتصرف.

بذلك، فصار ما يجب من الإيمان يختلف باختلاف حال نزول الوحي من السماء، وبحال المكلف في البلاغ وعدمه، وهذا مما يتنوع به نفس التصديق ويختلف حاله باختلاف القدرة والعجز وغير ذلك من أسباب الوجوب، وهذه يختلف بها العمل أيضا [(١)].

ومعلوم أن الواجب على كل من هؤلاء، لا يماثل الواجب على الآخر، فإذا كان نفس ما وجب من الإيمان في الشريعة الواحدة يختلف ويتفاضل، وإن كان بين جميع هذه الأنواع قدر مشترك موجود في الجميع كالإقرار بالخالق وإخلاص الدين له، والإقرار برسله، واليوم الآخر على وجه الإجمال، فمن المعلوم أن بعض الناس إذا أتى ببعض ما يجب عليه دون بعض، كان قد تبعض ما أتى فيه من الإيمان كتبعض سائر الواجبات[(٢)].

- **شعب الإيمان قد تتلازم عند القوة ولا تتلازم عند الضعف.**

قد تتلازم شعب الإيمان عند القوة، ولا تتلازم عند الضعف فإذا قوي ما في القلب من التصديق والمعرفة والمحبة لله ورسوله أوجب بغض أعداء الله، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١) ﴾ المائدة: ٨١.

وقال: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ المجادلة: ٢٢.

---

(١) السابق ٧/٥١٩ بتصرف.

(٢) السابق ٧/٥١٩ بتصرف.

وقد تحصل للرجل مودتهم لرحم أو حاجة فتكون ذنبا ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافرا كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي ﷺ وأنزل الله فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾[الممتحنة:١].

وكما حصل لسعد بن عبادة لما انتصر لابن أبي في قصة الإفك، فقال لسعد بن معاذ: كذبت والله؛ لا تقتله، ولا تقدر على قتله؛ قالت عائشة: وكان قبل ذلك رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية[١].

ولهذه الشبهة سمى عمر حاطبا منافقا فقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال: إنه شهد بدرا، فكان عمر متأولا في تسميته منافقا للشبهة التي فعلها [٢].

وكذلك قول أسيد بن حضير لسعد بن عبادة؛ كذبت لعمر الله لنقتلنه؛ إنما أنت منافق تجادل عن المنافقين[٣]؛ هو من هذا الباب.

ولهذا لم يكن المتهمون بالنفاق نوعا واحدا، بل فيهم المنافق المحض؛ وفيهم من فيه إيمان ونفاق؛ وفيهم من إيمانه غالب، وفيه شعبة من النفاق، وكانت كثرة ذنوبهم بحسب ظهور الإيمان؛ ولما قوي الإيمان وظهر الإيمان وقوته عام تبوك؛ صاروا يعاتبون من النفاق على ما لم يكونوا يعاتبون عليه قبل ذلك[٤].

---

(١) البخاري في الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضا ٢/٩٤٢ (٢٥١٨).
(٢) البخاري في الجهاد والسير، باب الجاسوس ٣/١٠٩٥ (٢٨٤٥).
(٣) البخاري في الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضا ٢/٩٤٢ (٢٥١٨).
(٤) مجموع الفتاوى ٧/٥٢٣ بتصرف.

ومن هذا الباب ما يروى عن الحسن البصري ونحوه من السلف؛ أنهم سموا الفساق منافقين؛ فجعل أهل المقالات هذا قولا مخالفا للجمهور؛ إذا حكوا تنازع الناس في الفاسق الملي هل هو كافر؟ أو فاسق ليس معه إيمان؟ أو مؤمن كامل الإيمان؟ أو مؤمن بما معه من الإيمان فاسق بما معه من الفسق أو منافق؟

والحسن رحمه الله تعالى لم يقل ما خرج به عن الجماعة لكن سماه منافقا على الوجه الذي ذكرناه، والنفاق كالكفر نفاق دون نفاق، ولهذا كثيرا ما يقال: كفر ينقل عن الملة، وكفر لا ينقل، ونفاق أكبر ونفاق أصغر، كما يقال الشرك شركان أصغر وأكبر.

وبهذا تبين أن الشرع ينفي اسم الإيمان عن الشخص؛ لانتفاء كماله الواجب، وإن كان معه بعض أجزائه، كما قال لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن؛ ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن؛ ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ومنه قوله ﷺ: من غشنا فليس منا ومن حمل علينا السلاح فليس منا. فإن صيغة، أنا، ونحن، ونحو ذلك من ضمير المتكلم في مثل ذلك يتناول النبي ﷺ والمؤمنين معه في الإيمان المطلق الذي يستحقون به الثواب بلا عقاب، ومن هنا قيل إن الفاسق الملي يجوز أن يقال هو مؤمن باعتبار، ويجوز أن يقال ليس مؤمنا باعتبار، وبهذا تبين أن الرجل قد يكون مسلما لا مؤمنا ولا منافقا مطلقا، بل يكون معه أصل الإيمان دون حقيقته الواجبة.

ولهذا أنكر أحمد وغيره من الأئمة على من فسر قوله ﷺ ليس منا، ليس مثلنا، أو ليس من خيارنا، وقال هذا تفسير المرجئة، قالوا لو لم يفعل هذه الكبيرة كان يكون مثل النبي ﷺ، وكذلك تفسير الخوارج

والمعتزلة بأنه يخرج من الإيمان بالكلية ويستحق الخلود في النار؛ تأويل منكر كما تقدم، فلا هذا ولا هذا.

- **جواز الاستثناء في الإيمان على ما يوافق أصول الكتاب والسنة.**

حقيقة الاستثناء في الإيمان هي تعليق وقوع الإيمان من الإنسان على مشيئة الله، وهو قول الرجل: أنا مؤمن إن شاء الله، ولما كانت مشيئة الله لا تكون إلا كونية، ولا تعلم مشيئة الله إلا بعد وقوعها، فلابد أن نميز بين ما وقع، وما سوف يقع من أمور الإيمان، أو نميز بين ما وقع من أقول الإنسان وأفعاله الموافقة للشرائع والأحكام، فالإيمان هو موافقة الإنسان للإرادة الشرعية الدينية التكليفية، أو موافقة الإنسان لأحكام العبودية، فإن وافقها فقد اتفقت الإرادة الشرعية مع الإرادة الكونية، أو اتفقت الإرادة الشرعية أو المحبة الإلهية مع المشيئة التي لا تكون إلا كونية.

ومعلوم أن التوحيد الحق أن يراعي العبد في أفعاله وأقوله ارتباطها بمشيئة الله ﷻ في جميع الأوقات، سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، فيؤمن بأن كل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ، لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن، فالمؤمن يقول فيما وقع من الأحداث ومضى وانتهى: قدر الله وما شاء فعل، ولا يقول: لو كان كذا وكذا، لكان كذا وكذا، فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، لاسيما بعد نفاذ أمره ووقوعه، لما رواه مسلم في صحيحه من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن رَسُول اللهِ ﷺ قال: (الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُل خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُل: لَوْ

أَنِّي فَعَلتُ كان كذا وكذا، لم يُصبني كذا، ولَكِنْ قُل: قَدَرُ اللهِ ومَا شَاءَ فَعَل، فَإِنَّ لوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ)[1].

والمؤمن يقول فيما وقع من أقواله وأفعاله مطابقا لشرع الله وأحكامه الحمد لله الذي وفقني وهداني فيرد الفضل في فعله إلى توفيق ربه فالطاعة ينسب الفضل فيها إلى الله ﷻ إذ أعان المؤمن بمشيئته ووفقه بقدرته، فالفضل لله في طاعة عبده، ويجب على المؤمن أن ينسب الفضل إلى ربه، فهو الذي حبب إليه الإيمان وزينه في قلبه.

قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧)﴾ الحجرات:٧.

وقال عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣)﴾ الأعراف:٤٣. فالباء سببية وليست للعوض والمقابلة.

والذين قالوا أسلمنا منة على نبيهم، رد الله ﷻ الفضل في إسلامهم إلى منته فقال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧)﴾ الحجرات:١٧.

والمؤمن يجب عليه أن يتوب إلى ربه، ويندم على قوله وفعله إذا وقع الفعل مخالفا لشرع الله وحكمه، ويجب عليه أيضا أن ينسب الذنب والتقصير إلى نفسه أو إلى شيطانه، وإن كان فعله قد واقع بمشيئة الله

(١) مسلم في القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز ٤/٢٠٥٢ (٢٦٦٤).

وقضائه وقدره، ويجب عليه أيضا أن يعزم في قلبه على عدم العودة إلى المعصية والالتزام بالشرائع والأحكام.

هذا فيما مضى ووقع من الإيمان في أقول الإنسان وأفعاله إذا وافقت أحكام التكليف والعبودية أو خالفتها، وكذلك حكم تعلقها بمشيئة الله وقدرته ونسبة الفعل إلى العبد أو إلى خالقه، وهو الموافق للأصول النقلية والعقلية والفطرة النقية، فلا يصح فيما مضى ووقع من الطاعة أن يقول صليت إن شاء الله، وتصدقت وصدقت إن شاء الله، والصواب أن يقول: صليت بفضل الله وتصدقت وصدقت بمنة الله وفضله، وأسأل الله أن يتقبل مني صلاتي وزكاتي وصومي، وأن يعفوي عني إن قصرت فيها، وأن يرزقني طاعته وتقواه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ المائدة:٢٧.

أما رد أمور الإيمان إلى مشيئة الله في الحاضر وأثناء الفعل فهو كما في قوله تعالى: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ الكهف:٣٩. فالعبد الصادق الموحد مؤمن بأن الله ﷻ انفر بالمشيئة والتقدير وإليه يرجع الأمر والتدبير، فلا يطمع في سواه، ولا يرجو إلا إياه، ولا يشهد في العطاء إلا مشيئته، ولا يرى في المنع إلا حكمته، ولا يعاين في القبض والبسط إلا قدرته، ويقول عندما يرى نعم الله عليه كما قال تعالى عن نبيه شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ هود:٨٨ .

أما رد أمور الإيمان من الأقوال والأفعال إلى مشيئة الله في المستقبل وهي مسألة الاستثناء في الإيمان فهي كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ

إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ الكهف:٢٣/٢٤.

وروى البخاري من حديث ابن عبّاس رضيَ الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ دخل على أعرابيّ يَعودُه، يقول ابن عباس رضي الله عنه: (وكان النبيُّ ﷺ إذا دخل على مريض يَعوده قال له: لا بأس، طَهورٌ إن شاء الله، فقال الأعرابي للنبي: قلتَ طهور؟ كلا، بل هي حُمى تفور، أو هي حُمى تثور على شيخ كبير، تُزيره القبور، فقال النبي ﷺ: فَنَعم إِذاً)[1].

وقال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ الكهف:٦٩. وقال تعالى عن الصحابة رضي الله عنهم: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ الفتح:٢٧.

وقال تعالى عن شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ القصص:٢٧.

وهنا يجوز الاستثناء في الإيمان على اعتبار أن أفعال الإنسان في المستقبل لا تقع إلا بمشيئة الله، وإن كان المؤمن عازما على الفعل قد بيت النية على تصديق خبر الله عز وجل إن علمه، وتنفيذ أمره إن بلغه، فهو على هذا مؤمن إن شاء الله أن يقع منه الفعل أو لم يقع. قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ الإنسان:٣٠. وقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ التكوير:٢٩.

---

(١) رواه البخاري في كتاب المرضى، باب عيادة الأعراب ٥/٢١٤١ (٥٣٣٢).

وكل من قال من السلف بالاستثناء في الإيمان فعلى اعتبار أن وقوع تصديقه بما سيتعلمه من أحكام، ووقوع أفعاله وأقواله مطابقة لأحكام الإسلام متوقف على إرادة الله الكونية أو مشيئة الله وقضائه وقدره في توفيق عبده إلى تحقيق مراده، أما تمسك العبد بإرادة الله الشرعية والنية الصادقة في فعل ما يحبه الله ويرضاه فهذا لا شك فيه كأساس للنجاة في الدنيا والآخرة، فهم يوقتون بأن الأعمال بالنيات، وأن الاعتصام بحبل الله ﷻ وطلب العصمة والنجاة فيه الثبات في الدنيا والآخرة، وهذا معنى قولهم: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ الفاتحة:٥.

- المرجئة يحرمون الاستثناء في الإيمان لإخراجهم العمل من مسماه.

وقد ذكر ابن تيمية أن المرجئة والجهمية يحرمون الاستثناء في الإيمان ويمنعون أن يقول الرجل: أنا مؤمن إن شاء الله، لأنهم يجعلون الإيمان شيئا واحدا يعلمه الإنسان من نفسه كالتصديق بالرب ونحو ذلك مما في قلبه؛ فيقول أحدهم: أنا أعلم أني مؤمن، كما أعلم أني تكلمت بالشهادتين، وكما أعلم أني قرأت الفاتحة، وكما أعلم أني أحب رسول الله؛ وأني أبغض اليهود والنصارى، فقولي أنا مؤمن كقولي أنا مسلم، وكقولي تكلمت بالشهادتين وقرأت الفاتحة، وكقولي أنا أبغض اليهود والنصارى ونحو ذلك من الأمور الحاضرة التي أنا أعلمها وأقطع بها، وكما أنه لا يجوز أن يقال: أنا قرأت الفاتحة إن شاء الله، كذلك لا يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، قالوا فمن استثنى في إيمانه فهو شاك فيه، وسموا من استثنى في إيمانه بالشكاكة(١).

---

(٢) مجموع الفتاوى ٧/٤٢٩ بتصرف.

وهؤلاء المرجئة أخطئوا من جهة أنهم جعلوا الإيمان مجرد العلم بما وقع من العبد، وأخرجوا العمل منه، فالعمل لا يدخل عندهم في مسمى الإيمان، ولما كان العمل يتطلب الاستعانة بالله ﷻ في وقوع النتائج على أسبابها التي يؤخذ العبد بها، ووقوع المعلولات على عللها، كان لا بد من التفريق بين اعتبارين في مسألة الاستثناء، فيصح أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله على اعتبار أنه سيفعل أفعال الإيمان حين حلول وقت الأمر التكليفي، ووقوع الفعل وقتها متوقف على ما يشاء الله، لكنه مؤمن على اعتبار صدق نيته واستجابة الأعمال في قلبه، واستعداده الدائم للعمل إن مات قبل أن يفعل أعمال الإيمان.

وذكر ابن تيمية أن الإيمان المطلق يتضمن فعل ما أمر الله ﷻ به عبده كله؛ وترك المحرمات كلها؛ فإذا قال الرجل أنا مؤمن بهذا الاعتبار، فقد شهد لنفسه بأنه من الأبرار المتقين القائمين بفعل جميع ما أمروا به؛ وترك كل ما نهوا عنه فيكون من أولياء الله؛ وهذا من تزكية الإنسان لنفسه وشهادته لنفسه بما لا يعلم، ولو كانت هذه الشهادة صحيحة لكان ينبغي له أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذه الحال، ولا أحد يشهد لنفسه بالجنة؛ فشهادته لنفسه بالإيمان كشهادته لنفسه بالجنة إذا مات على هذه الحال؛ وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون[1].

قال رجل لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: قيل لي أمؤمن أنت؟ قلت: نعم؛ هل علي في ذلك شيء؟ هل الناس إلا مؤمن وكافر؟ فغضب أحمد وقال: هذا كلام الإرجاء؛ قال الله تعالى: وآخرون مرجون لأمر الله. من

(١) مجموع الفتاوى ٧/٤٤٦ بتصرف.

هؤلاء؟ ثم قال: أحمد أليس الإيمان قولا وعملا؟ قال له الرجل: بلى. قال: فجئنا بالقول؟ قال: نعم. قال: فجئنا بالعمل؟ قال: لا. قال: فكيف تعيب أن يقول إن شاء الله ويستثني[١].

ثم ذكر ابن تيمية أن كل من اتقى الله عز وجل في عمله ففعله كما أمر الله فقد تقبل منه، لكن هو لا يجزم بالقبول لعدم جزمه بكمال الفعل كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ المؤمنون:٦٠ . قالت عائشة يا رسول الله: أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر ويخاف؟ فقال لا يا بنت الصديق، بل هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه [٢].

كما أن المؤمن المطلق هو القائم بالواجبات المستحق للجنة إذا مات على ذلك، وأن المفرط بترك المأمور أو فعل المحظور لا يطلق عليه أنه مؤمن؛ وأن المؤمن المطلق هو البر التقي ولي الله، فإذا قال أنا مؤمن قطعا كان كقوله أنا بر تقي ولي الله قطعا، وقد كان أحمد وغيره من السلف مع هذا يكرهون سؤال الرجل لغيره أمؤمن أنت؟ ويكرهون الجواب؛ لأن هذه بدعة أحدثها المرجئة ليحتجوا بها لقولهم؛ فإن الرجل يعلم من نفسه أنه ليس بكافر؛ بل يجد قلبه مصدقا بما جاء به الرسول ﷺ فيقول أنا مؤمن، فيثبت أن الإيمان هو التصديق لأنك تجزم بأنك مؤمن ولا تجزم بأنك فعلت كل ما أمرت به؛ فلما علم السلف مقصدهم صاروا يكرهون الجواب، أو يفصلون في الجواب؛ وهذا لأن لفظ الإيمان فيه

---

(١) السابق ٧/٤٤٧ بتصرف.

(٢) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنون ٥/٣٢٧ (٣١٧٥)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة (١٦٢).

إطلاق وتقييد، فكانوا يجيبون بالإيمان المقيد الذي لا يستلزم أنه شاهد فيه لنفسه بالكمال[١].

ولهذا كان الصحيح أنه يجوز أن يقال أنا مؤمن بلا استثناء، إذا أراد ذلك لكن ينبغي أن يقرن كلامه بما يبين أنه لم يرد الإيمان المطلق الكامل، ولهذا كان أحمد يكره أن يجيب على المطلق بلا استثناء يقدمه.

وقال المروذي قيل لأبي عبد الله نقول: نحن المؤمنون؟ فقال: نقول نحن المسلمون. وقال أيضا: قلت لأبي عبد الله نقول إنا مؤمنون؟ قال ولكن نقول: إنا مسلمون؛ ومع هذا فلم ينكر على من ترك الاستثناء إذا لم يكن قصده قصد المرجئة أن الإيمان مجرد القول، بل يكره تركه لما يعلم أن في قلبه إيمانا، وإن كان لا يجزم بكمال إيمانه؟[٢].

ومذهب السلف من أصحاب الحديث كابن مسعود وأصحابه والثوري وابن عيينة وأكثر علماء الكوفة ويحيى بن سعيد القطان فيما يرويه عن علماء أهل البصرة وأحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة أنهم كانوا يستثنون في الإيمان، وهذا متواتر عنهم لكن ليس في هؤلاء من قال: أنا أستثني لأجل أنني لا أعلم هل سأموت مؤمنا أم لا، أو لأن الإيمان إنما هو اسم لما يوافي به العبد ربه؛ بل صرح أئمة هؤلاء بأن الاستثناء إنما هو لأن الإيمان يتضمن فعل الواجبات، فلا يشهدون لأنفسهم بذلك كما لا يشهدون لها بالبر والتقوى؛ فإن ذلك مما لا يعلمونه، وهو تزكية لأنفسهم بلا علم؛ وأما الموافاة فما عُلم أن أحدا

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/٤٤٩ بتصرف.

(٢) مجموع الفتاوى ٧/٤٤٩ بتصرف.

من السلف علل بها الاستثناء، ولكن كثير من المتأخرين يعلل بها من أصحاب الحديث من أصحاب أحمد ومالك والشافعي وغيرهم؛ كما يعلل بها نظارهم كأبي الحسن الأشعري وأكثر أصحابه، لكن ليس هذا قول سلف أصحاب الحديث[1].

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (قال سليمانُ بن داودَ عليهما السلام: لأطُوفنَّ الليلةَ بمائةِ امرأةٍ، تَلدُ كل امرأةٍ غلاماً يُقاتل في سبيل الله، فقال له المَلَكُ: قُل إن شاء الله، فلم يقُل ونَسيَ، فأطافَ بِهِنَّ، ولم تَلدْ منهُن إلا امرأةٌ نِصفَ إنسان، قال النبيُّ ﷺ: لو قال إن شاء اللهُ لم يَحنَثْ، وكان أرجَى لحاجَتِهِ)[2].

ومعنى لأطوفن الليلة أي من بداية الليلة حتى تنتهي المدة اللازمة لتحقيق الغاية التي كان يسعى إليها سليمان عليه السلام، وهي الجهاد في سبيل الله بأولاده، وكانت تلك نيته ومراده، لكن تحقيق مراد العباد متوقف على مشيئة الله في العطاء، وخلقه سبحانه لسائر الأشياء، فلو قال العبد: إن شاء الله لربما تحقق مطلبه، وأعطاه الله ما يريد، ولو قالها سليمان: لجاهدوا فرسانا كما تمنى.



(١) السابق ٧/٤٣٩ بتصرف.

(٢) رواه البخاري في النكاح، باب قول الرجل لأطوفن الليلة على نسائي ٥/٢٠٠٧ (٤٩٤٤)، ومسلم في كتاب الأيمان، باب الاستثناء ٣/١٢٧٥ (١٦٥٤).

المطلب السادس والعشرون

التحذير من خطر التكفير بلا تفصيل وتفصيل نواقض الإسلام الاعتقادية والعملية



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا فيما سبق عن زيادة الإيمان ونقصانه وأثرها في الحكم بإيمان الإنسان وكفرانه والرد على الخوارج والمرجئة، وبينا أن الزيادة والنقصان في أركان الإيمان هي أساس الفهم السلفي الصحيح، وأن كل ركن من أركان الإيمان يقبل الزيادة والنقصان بتكامل النسب، فإن زاد الإيمان في ركن نقص في الآخر.

كما علمنا تقرير شيخ الإسلام ابن تيمية للسبب في ضلال المرجئة والخوارج، وكيف ساق ابن تيمية الأدلة النقلية التي تبطل مذهبهم، وعلمنا أن زيادة الإيمان الذي أمر الله ﷻ به عباده يكون فيهم من وجوه متعددة، وأنه لا يلزم من نفي الإيمان المطلق عن الإنسان خروجه عن الملة، وأن شعب الإيمان متلازمة في الانتفاء والثبوت.

كما علمنا أن الإيمان في درجاته متنوع كتنوع الألوان واختلاف درجات اللون الواحد من حيث الشدة والضعف، وأن شعب الإيمان قد تتلازم عند القوة ولا تتلازم عند الضعف، ثم تناولنا الحديث عن

جواز الاستثناء في الإيمان على ما يوافق أصول الكتاب والسنة، وبينا أن المرجئة يحرّمون الاستثناء في الإيمان لإخراجهم العمل من مسماه.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن التحذير من خطر التكفير بلا تفصيل، وتفصيل نواقض الإسلام الاعتقادية والعملية وتقسيماتها المبنية على الأصول القرآنية والنبوية.

- أصول التكفير مصدرها من المبتدعة وتكفيرهم من خالفهم.

ذكر ابن تيمية أن الطريقة التي سلكها أهل البدع الذين يجمعون بين الجهل والظلم، أنهم يبتدعون بدعة مخالفة للكتاب والسنة وإجماع الصحابة ﷺ ثم بعد ذلك يكفرون من خالفهم في بدعتهم كالخوارج المارقين الذين ابتدعوا ترك العمل بالسنة المخالفة حسب زعمهم للقرآن وابتدعوا التكفير بالذنوب وكفروا من خالفهم حتى كفروا عثمان بن عفان ﷺ وعلي بن أبي طالب ﷺ ومن والاهما من المهاجرين والأنصار وسائر المؤمنين، وقد نقل الأشعري في كتاب المقالات أن الخوارج مجمعة على تكفير علي ﷺ [1].

وكذلك الرافضة ابتدعوا تفضيل علي ﷺ على الثلاثة ﷺ وتقديمه في الإمامة والنص عليه، ودعوى العصمة له، وكفروا من خالفهم وهم جمهور الصحابة ﷺ وجمهور المؤمنين حتى كفروا أبا بكر وعمر وعثمان ﷺ ومن تولاهم، هذا هو الذي عليه أئمتهم.

وكذلك الجهمية ابتدعت نفي الصفات المتضمن في الحقيقة لنفي

---

(١) الرد على البكري ٢/٤٨٧ بتصرف.

الخالق، ولنفي صفاته وأفعاله وأسمائه، وأظهرت القول بأنه لا يرى، وأن كلامه مخلوق خلقه في غيره، لم يتكلم هو بنفسه وغير ذلك، ثم إنهم امتحنوا الناس فدعوهم إلى هذا، وجعلوا يكفرون من لم يوافقهم على ذلك.

وكذلك القدرية ابتدعت التكذيب بالقدر، وأنكرت مشيئة الله النافذة، وقدرته التامة، وخلقه لكل شيء، وكفروا أو منهم من كفر من خالفه، وكذلك الحلولية والمعطلة للذات والصفات يكفر كثير منهم من خالفهم، فالذين يقولون إنه بذاته في كل مكان، منهم من يكفر من خالفه، والذين يقولون إنه لا مباين للمخلوقات، ولا عال عليها، منهم من يكفر من خالفه، والذين يقولون ليس كلامه إلا معنى واحدا قائما بذاته، ومعنى التوراة والإنجيل والقرآن واحد، والقرآن العزيز ليس هو كلامه، بل كلام جبريل عليه السلام أو غيره، منهم من يكفر من خالفه، ونظائر هذا متعددة [1].

وأئمة السنة والجماعة وأهل العلم والإيمان فيهم العلم والعدل والرحمة، فيعلمون الحق الذي يكونون به موافقين للسنة سالمين من البدعة، ويعدلون على من خرج منها، ولو ظلمهم كما قال تعالى: كونوا قوامين لله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ المائدة:٨ . فيريدون لهم الخير والهدى والعلم، لا يقصدون الشر لهم ابتداء، بل إذا عاقبوهم وبينوا خطأهم

(١) السابق ٢/٤٨٩ بتصرف.

وجهلهم وظلمهم كان قصدهم بذلك بيان الحق ورحمة الخلق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فالمؤمنون أهل السنة يقاتلون في سبيل الله كالصديق ﷺ مع أهل الردة، وكعلي ابن أبي طالب ﷺ مع الخوارج المارقين ومع الغلاة والسبئية، فأعمالهم خالصة لله تعالى موافقة للسنة، أما من قاتلهم فإنه يقاتل في سبيل الطاغوت، وأعمالهم لا خالصة ولا صواب، بل بدعة واتباع الهوى، ولهذا يسمون أهل البدع وأهل الأهواء(١).

قال الفضيل بن عياض رحمه الله في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الملك:٢. قال: أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا؟ والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة(٢).

- **أهل السنة لا يكفرون من خالفهم وإن كان المخالف يكفرهم.**

ذكر ابن تيمية أن أهل العلم والسنة لا يكفرون من خالفهم، وإن كان ذلك المخالف يكفرهم؛ لأن الكفر حكم شرعي، فليس للإنسان أن يعاقب بمثله كمن كذب عليك، ليس لك أن تكذب عليه؛ لأن الكذب تجاوز حق الله تعالى، وكذلك التكفير تجاوز حق لله، فلا يكفر إلا من كفره الله ورسوله ﷺ.

---

(١) الرد على البكري ٢/٤٩٠ بتصرف.

(٢) السابق ٢/٤٩٢ بتصرف.

وأيضا فإن تكفير الشخص المعين وجواز قتله موقوف على أن تبلغه الحجة النبوية التي يكفر من خالفها، وإلا فليس كل من جهل شيئا من الدين يكفر. ثم قال ابن تيمية: (ولهذا كنت أقول للجهمية من الحلولية والنفاة الذين نفوا أن الله تعالى فوق العرش لما وقعت محنتهم: أنا لو وافقتكم كنت كافرا، لأني أعلم أن قولكم كفر، وأنتم عندي لا تكفرون لأنكم جهال، وكان هذا خطابا لعلمائهم وقضاتهم وشيوخهم وأمرائهم، وأصل جهلهم شبهات عقلية حصلت لرؤوسهم في قصور من معرفة المنقول الصحيح والمعقول الصريح الموافق له، وكان هذا خطابنا) [١].

ثم عقب في رده على البكري فقال: (فلهذا لم نقابل جهله وافتراءه بالتكفير بمثله، كما لو شهد شخص بالزور على شخص، أو قذفه بالفاحشة كذبا عليه، لم يكن له أن يشهد عليه بالزور، ولا أن يقذفه بالفاحشة، وقد كفانا ذلك شيخه وغيره من الناس فبينوا من ضلاله وجهله ما ذكروه وذموه وعابوه وتنقصوه به، كما هو معروف عن شيخه الجزري وغيره من أهل العلم) [٢].

قال ابن تيمية: (فمن أخطأ في بعض مسائل الاعتقاد من أهل الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر والعمل الصالح لم يكن أسوأ حالا من الرجل – أي الرجل الذي أمر أهله بحرقه بعد موته – فيغفر الله ﷻ خطأه، أو يعذبه إن كان منه تفريط في اتباع الحق على قدر دينه، وأما

---

(١) الرد على البكري ٢/٤٩٥.

(٢) السابق ٢/٤٩٥.

تكفير شخص علم إيمانه بمجرد الغلط في ذلك فعظيم.. وإذا كان تكفير المعين على سبيل الشتم كقتله فكيف يكون تكفيره على سبيل الاعتقاد، فإن ذلك أعظم من قتله، إذ كل كافر يباح قتله، وليس كل من أبيح قتله يكون كافرا، فقد يقتل الداعي إلى بدعة لإضلاله الناس وإفساده مع إمكان أن الله يغفر له في الآخرة لما معه من الإيمان) [١].

- الإمام أحمد وعامة الأئمة لم يكفروا شخصا بعينه إلا بضوابط محققة.

وذكر ابن تيمية أن أسباب التنازع في تكفير المعين تعارض الأدلة لديهم، فإنهم يرون أدلة توجب إلحاق أحكام الكفر بهم، ثم إنهم يرون من الأعيان الذين قالوا تلك المقالات من قام به من الإيمان ما يمتنع أن يكون كافرا فيتعارض عندهم الدليلان[٢].

وحقيقة الأمر أنهم أصابهم في ألفاظ العموم في كلام الأئمة ما أصاب الأولين في ألفاظ العموم في نصوص الشارع كلما رأوهم قالوا: من قال كذا فهو كافر، اعتقد المستمع أن هذا اللفظ شامل لكل من قاله، ولم يتدبروا أن التكفير له شروط وموانع، قد تنتفي في حق المعين، وأن تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع[٣].

يبين هذا أن الإمام أحمد وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات لم يكفروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه، فإن الإمام أحمد مثلا قد

(١) الاستقامة ١/١٦٧.

(٢) مجموع الفتاوى ١٢/٤٨٧ بتصرف.

(٣) السابق ١٢/٤٨٧ بتصرف.

باشر الجهمية الذين دعوه إلى خلق القرآن ونفي الصفات، وامتحنوه وسائر علماء وقته، وفتنوا المؤمنين والمؤمنات الذين لم يوافقوهم على التجهم بالضرب والحبس والقتل والعزل عن الولايات، وقطع الأرزاق ورد الشهادة وترك تخليصهم من أيدي العدو، بحيث كان كثير من أولي الأمر إذ ذاك من الجهمية من الولاة والقضاة وغيرهم يكفرون كل من لم يكن جهميا موافقا لهم على نفي الصفات، مثل القول بخلق القرآن، ويحكمون فيه بحكمهم في الكافر، فلا يولونه ولاية، ولا يفتكونه من عدو، ولا يعطونه شيئا من بيت المال، ولا يقبلون له شهادة، ولا فتيا ولا رواية، ويمتحنون الناس عند الولاية والشهادة والافتكاك من الأسر وغير ذلك، فمن أقر بخلق القرآن حكموا له بالإيمان، ومن لم يقر به لم يحكموا له بحكم أهل الإيمان، ومن كان داعيا إلى غير التجهم قتلوه أو ضربوه وحبسوه [1].

ومعلوم أن هذا من أغلظ التجهم، فإن الدعاء إلى المقالة أعظم من قولها، وإثابة قائلها وعقوبة تاركها أعظم من مجرد الدعاء إليها، والعقوبة بالقتل لقائلها أعظم من العقوبة بالضرب، ثم إن الإمام أحمد دعا للخليفة وغيره ممن ضربه وحبسه، واستغفر لهم، وحللهم مما فعلوه به من الظلم، والدعاء إلى القول الذي هو كفر، ولو كانوا مرتدين عن الإسلام لم يجز الاستغفار لهم؛ فإن الاستغفار للكفار لا يجوز بالكتاب والسنة والإجماع.

وهذه الأقوال والأعمال من الإمام أحمد ومن غيره من الأئمة

(١) مجموع الفتاوى ٤٨٩/١٢ بتصرف.

صريحة في أنهم لم يكفروا المعينين من الجهمية الذين كانوا يقولون القرآن مخلوق، وإن الله ﷻ لا يرى في الآخرة، وقد نقل عن أحمد ما يدل على أنه كفر به قوما معينين، فإما أن يذكر عنه في المسألة روايتان ففيه نظر، أو يحمل الأمر على التفصيل فيقال: من كفره بعينه؛ فلقيام الدليل على أنه وجدت فيه شروط التكفير وانتفت موانعه، ومن لم يكفره بعينه؛ فلانتفاء ذلك في حقه، هذا مع إطلاق قوله بالتكفير على سبيل العموم.

• الأدلة النقلية على أن إطلاق التكفير لا يلزم منه تكفير المعين.

والدليل على هذا الأصل الكتاب والسنة والإجماع والاعتبار، أما الكتاب فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾ الأحزاب:٥ . وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ البقرة:٢٨٦ [(١)].

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أن الله تعالى قال: قد فعلت لما دعا النبي ﷺ والمؤمنون بهذا الدعاء [(٢)].

وروى مسلم من حديث ابن عباس ﷺ أنه قال: (بيْنما جِبْرِيلُ قاعِدٌ عِنْد النّبِي ﷺ سمِع نقِيضًا مِنْ فوْقِهِ فرفع رأْسهُ فقال: هذا بابٌ مِن السّماءِ فُتِح الْيوْم، لمْ يُفْتحْ قطُّ إِلاّ الْيوْم، فنزل مِنْهُ ملكٌ فقال: هذا ملكٌ

---

(١) مجموع الفتاوى ١٢/٤٩٠.

(٢) مسلم في الإيمان، باب وإن تبدوا ما في أنفسكم ١/٨١ (٣٤٥).

نزل إلى الأرْضِ، لَمْ ينْزِلْ قطُّ إلاّ الْيوْم، فسلّم وقال: أبْشِرْ بِنُوريْنِ أُوتيتهُما لَمْ يُؤْتهُما نبيٌّ قبْلك، فاتِحةُ الْكِتابِ وخواتِيمُ سُورةِ الْبقرةِ لنْ تقْرأ بِحرْفٍ مِنْهُما إلاّ أُعْطِيتهُ) [1].

وإذا ثبت بالكتاب المفسر بالسنة أن الله ﷻ قد غفر لهذه الأمة الخطأ والنسيان، فهذا عام عموما محفوظا، وليس في الدلالة الشرعية ما يوجب أن الله ﷻ يعذب من هذه الأمة مخطئا على خطئه، وإن عذب المخطئ من غير هذه الأمة[2].

وأيضا قد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (أَسْرَفَ رَجُل عَلىَ نفْسِهِ، فَلما حَضَرَهُ المَوْتُ أَوْصَى بَنيهِ فَقَال: إذا أَنا مُت فَأَحْرِقُوني، ثم اسْحَقُوني، ثم اذرُوني فِي الريحِ فِي البَحْرِ، فَواللهِ لئِن قَدَرَ عَلي رَبي، لَيُعَذبُني عَذابا مَا عَذبَهُ أَحَدا، قَال: فَفَعَلوا ذلكَ بِهِ، فَقَال للأَرْضِ: أَد مَا أَخَذتِ، فَإذا هُوَ قَائِمٌ. فَقَال لهُ: مَا حَمَلكَ عَلىَ مَا صَنعْتَ؟ فَقَال: خَشْيَتُكَ يَا رَب! أَوْ قَال: مَخَافَتُكَ! فَغَفَرَ لهُ بِذلكَ) [3].

وهذا الحديث متواتر عن النبي ﷺ رواه أصحاب الحديث والأسانيد من حديث أبي سعيد وحذيفة وعقبة بن عمرو وغيرهم عن النبي ﷺ من وجوه متعددة قرر أهل الحديث أنها تفيدهم العلم اليقيني، وإن كان

---

(١) مسلم في صلاة المسافرين، باب فضل الفاتحة ٢/١٩٨ (١٩١٣).

(٢) السابق ١٢/٤٩١.

(٣) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب أم حسبت أن أصحاب الكهف ٣/١٢٨٢ (٣٢٩١)، ومسلم واللفظ له في كتاب التوبة، باب فى سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه ٤/٢١١٠ (٢٧٥٦).

غيرهم ممن لم يشركهم في أسباب العلم بالحديث لم يحصل له ذلك العلم اليقيني. فهذا الرجل كان قد وقع له الشك والجهل في قدرة الله تعالى على إعادة ابن آدم بعد ما أحرق وذرِّيَّ، وعلى أنه يعيد الميت ويحشره إذا فعل به ذلك، وهذان أصلان عظيمان منفيان من لازم قوله وفعله، أحدهما متعلق بالله تعالى وهو الإيمان بأنه على كل شيء قدير، والثاني متعلق باليوم الآخر، وهو الإيمان بأن الله يعيد هذا الميت ويجزيه على أعماله، ومع هذا لم يعذبه لأنه كان مؤمنا بالله ﷻ في الجملة، ومؤمنا باليوم الآخر في الجملة، فآمن بأن الله ﷻ يثيب ويعاقب بعد الموت، وقد عمل عملا صالحا، وهو خوفه من الله ﷻ أن يعاقبه على ذنوبه فغفر الله له بما كان منه من الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح (١).

وأيضا فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ إن الله يخرج من النار من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان. وفي رواية: مثقال دينار من خير، ثم يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان. وفي رواية من خير، ويخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، أو خير. وهذا وأمثاله من النصوص المستفيضة عن النبي ﷺ يدل أنه لا يخلد في النار من معه شيء من الإيمان والخير وإن كان قليلا، وأن الإيمان مما يتبعض ويتجزأ.

ومعلوم قطعا أن كثيرا من هؤلاء المخطئين معهم مقدار ما من الإيمان بالله ورسوله ﷺ، إذ الكلام فيمن يكون كذلك، وأيضا فإن السلف أخطأ كثير منهم في كثير من هذه المسائل، واتفقوا على عدم

---

(١) مجموع الفتاوى ٤٩١/١٢ بتصرف.

التكفير بذلك، مثل ما أنكر بعض الصحابة أن يكون الميت يسمع نداء الحي، وأنكر بعضهم أن يكون المعراج يقظة، وأنكر بعضهم رؤية محمد ﷺ ربه، وكذلك لبعضهم في قتال بعض، ولعن بعض، وإطلاق تكفير بعض أقوال معروفة.

وكان القاضي شريح ينكر قراءة من قرأ: بل عجبتُ، ويقول: إن الله لا يعجب؛ فبلغ ذلك إبراهيم النخعي فقال: إنما شريح شاعر يعجبه علمه، كان عبد الله بن مسعود أفقه منه فكان يقول: بل عجبتُ. فهذا قد أنكر قراءة ثابتة، وأنكر صفة دل عليها الكتاب والسنة واتفقت الأمة على أنه إمام من الأئمة.

وكذلك بعض السلف أنكر بعضهم حروف القرآن مثل إنكار بعضهم قوله: أفلم ييأس الذين آمنوا. وقال: إنما هي أو لم يتبين الذين آمنوا. وإنكار الآخر قراءة قوله: وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه. وقال: إنما هي: ووصى ربك. وبعضهم كان حذف المعوذتين، وهذا خطأ معلوم بالإجماع والنقل المتواتر، ومع هذا فلما لم يكن قد تواتر النقل عندهم بذلك، لم يكفروا، وإن كان يكفر بذلك من قامت عليه الحجة بالنقل المتواتر.

وأيضا فإن الكتاب والسنة قد دل على أن الله ﷻ لا يعذب أحدا إلا بعد إبلاغ الرسالة، فمن لم تبلغه جملة لم يعذبه رأسا، ومن بلغته جملة دون بعض التفصيل لم يعذبه إلا على إنكار ما قامت عليه الحجة الرسالية، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ النساء: ١٦٥.

وقوله: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠ ﴾الأنعام: ١٣٠ .

وقوله: ﴿ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧ ﴾فاطر: ٣٧ .

وقوله: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ٩ ﴾الملك: ٨/٩.

وقوله: ﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥ ﴾الإسراء: ١٥ .

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩ ﴾ القصص: ٥٩.

وقوله: ﴿ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ١٣٤ ﴾ طه: ١٣٤.

ونحو هذا في القرآن في مواضع متعددة، فمن كان قد آمن بالله ورسوله، ولم يعلم بعض ما جاء به الرسول ﷺ فلم يؤمن به تفصيلا؛ إما أنه لم يسمعه، أو سمعه من طريق لا يجب التصديق بها، أو اعتقد معنى آخر لنوع من التأويل الذي يعذر به، فهذا قد جعل فيه من الإيمان بالله وبرسوله ما يوجب أن يثيبه الله عليه، وما لم يؤمن به فلم

تقم عليه به الحجة التي يكفر مخالفها.

وأيضا فقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن من الخطأ في الدين ما لا يكفر مخالفه؛ بل ولا يفسق؛ بل ولا يأثم؛ مثل الخطأ في الفروع العملية؛ وإن كان بعض المتكلمة والمتفقهة يعتقد أن المخطئ فيها آثم وبعض المتكلمة والمتفقهة يعتقد أن كل مجتهد فيها مصيب فهذان القولان شاذان، ومع ذلك فلم يقل أحد بتكفير المجتهدين المتنازعين فيها، ومع ذلك فبعض هذه المسائل قد ثبت خطأ المنازع فيها بالنصوص والإجماع القديم مثل استحلال بعض السلف والخلف لبعض أنواع الربا، واستحلال آخرين لبعض أنواع الخمر، واستحلال آخرين للقتال في الفتنة[1].

وأهل السنة والجماعة متفقون على أن المعروفين بالخير كالصحابة المعروفين وغيرهم من أهل الجمل وصفين من الجانبين لا يفسق أحد منهم، فضلا عن أن يكفر، حتى عدى ذلك من عداه من الفقهاء إلى سائر أهل البغي، فإنهم مع إيجابهم لقتالهم منعوا أن يحكم بفسقهم لأجل التأويل، كما يقول هؤلاء الأئمة: إن شارب النبيذ المتنازع فيه متأولا لا يجلد ولا يفسق.

وقد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن من بلغته رسالة النبي ﷺ فلم يؤمن به فهو كافر، لا يقبل منه الاعتذار بالاجتهاد لظهور أدلة الرسالة وأعلام النبوة؛ ولأن العذر بالخطأ حكم شرعي، فكما أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر، والواجبات تنقسم إلى أركان

(١) مجموع الفتاوى ١٢/٤٩٥ بتصرف.

وواجبات ليست أركانا، فكذلك الخطأ ينقسم إلى مغفور وغير مغفور، والنصوص إنما أوجبت رفع المؤاخذة بالخطأ لهذه الأمة، وإذا كان كذلك فالمخطئ في بعض هذه المسائل، إما أن يلحق بالكفار من المشركين وأهل الكتاب مع مباينته لهم في عامة أصول الإيمان، وإما أن يلحق بالمخطئين في مسائل الإيجاب والتحريم مع أنها أيضا من أصول الإيمان، فإن الإيمان بوجوب الواجبات الظاهرة المتواترة، وتحريم المحرمات الظاهرة المتواترة؛ هو من أعظم أصول الإيمان وقواعد الدين، والجاحد لها كافر بالاتفاق، مع أن المجتهد في بعضها ليس بكافر بالاتفاق مع خطئه[1].

وعلى هذا مضى عمل الأمة قديما وحديثا في أن عامة المخطئين من هؤلاء تجري عليهم أحكام الإسلام التي تجري على غيرهم، هذا مع العلم بأن كثيرا من المبتدعة منافقون النفاق الأكبر، وأولئك كفار في الدرك الأسفل من النار، فما أكثر ما يوجد في الرافضة والجهمية ونحوهم من الزنادقة والمنافقين، بل أصل هذه البدع هو من المنافقين الزنادقة ممن يكون أصل زندقته عن الصابئين والمشركين، فهؤلاء كفار في الباطن، ومن علم حاله فهو كافر في الظاهر أيضا[2].

- من أقيم عليه الحد في الدنيا لا يلزم أن يكون معذبا في الآخرة.

وأصل الضلال والكفر والزندقة الأعراض عما جاء به الرسول ﷺ من الكتاب والحكمة، وابتغاء الهدى في خلاف ذلك، فمن كان هذا

(١) مجموع الفتاوى ١٢/٤٩٥ بتصرف.
(٢) السابق ١٢/٤٩٦ بتصرف.

أصله فهو بعد بلاغ الرسالة كافر لا ريب فيه، مثل من يرى أن الرسالة للعامة دون الخاصة كما يقوله قوم من المتفلسفة وغالية المتكلمة والمتصوفة، أو يرى أنه رسول إلى بعض الناس دون بعض كما يقوله كثير من اليهود والنصارى، فهذا الكلام يمهد لأصلين عظيمين حول التكفير:

أحدهما: أن العلم والإيمان والهدى فيما جاء به الرسول ﷺ، وأن خلاف ذلك كفر على الإطلاق فنفي الصفات كفر، والتكذيب بأن الله ﷻ يرى في الآخرة، أو أنه على العرش، أو أن القرآن كلامه، أو أنه كلم موسى عليه السلام، أو أنه اتخذ إبراهيم خليلا كفر، وكذلك ما كان في معنى ذلك، وهذا معنى كلام أئمة السنة وأهل الحديث.

والأصل الثاني: أن التكفير العام كالوعيد العام، يجب القول بإطلاقه وعمومه، وأما الحكم على المعين بأنه كافر، أو مشهود له بالنار، فهذا يقف على الدليل المعين، فإن الحكم يقف على ثبوت شروطه وانتفاء موانعه[1].

ومما ينبغي أن يعلم في هذا الموضع أن الشريعة قد تأمرنا بإقامة الحد على شخص في الدنيا؛ إما بقتل أو جلد أو غير ذلك ويكون في الآخرة غير معذب، مثل قتال البغاة والمتأولين مع بقائهم على العدالة، ومثل إقامة الحد على من تاب بعد القدرة عليه توبة صحيحة، فإنا نقيم الحد عليه مع ذلك، كما أقامه النبي ﷺ على ماعز بن مالك، وعلى الغامدية مع قوله: لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له. ومثل إقامة

(١) مجموع الفتاوى ١٢/٤٩٨.

الحد على من شرب النبيذ المتنازع فيه متأولا مع العلم بأنه باق على العدالة، بخلاف من لا تأويل له، فإنه لما شرب بعض الصحابة الخمر واعتقدوا أنها تحل للخاصة متأولين قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ المائدة:٩٣. اتفق الصحابة رضي الله عنهم مثل عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وغيرهما على أنهم إن أقروا بالتحريم جلدوا، وإن أصروا على الاستحلال قتلوا [1].

وكذلك نعلم أن خلقا لا يعاقبون في الدنيا مع أنهم كفار في الآخرة مثل أهل الذمة المقرين بالجزية على كفرهم، ومثل المنافقين المظهرين الإسلام، فإنهم تجري عليهم أحكام الإسلام وهم في الآخرة كافرون، كما دل عليه القرآن في آيات متعددة كقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ النساء:١٤٥.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ الحديد:١٣/١٥ .

وهذا لأن الجزاء في الحقيقة إنما هو في الدار الآخرة التي هي دار الثواب والعقاب، وأما الدنيا فإنما يشرع فيها من العقاب ما يدفع به

---

(١) مجموع الفتاوى ٤٩٩/١٢ بتصرف.

الظلم والعدوان كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ البقرة:١٩٣.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ الشورى:٤٢ . وهذا لأن المقصود بإرسال الرسل وإنزال الكتب هو إقامة القسط، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ الحديد:٢٥.

وإذا كان الأمر كذلك فعقوبة الدنيا غير مستلزمة لعقوبة الآخرة ولا بالعكس، ولهذا كان أكثر السلف يأمرون بقتل الداعي إلى البدعة الذي يضل الناس لأجل إفساده في الدين، سواء قالوا هو كافر أو ليس بكافر[1].

وإذا عرف هذا فتكفير المعين من هؤلاء الجهال وأمثالهم بحيث يحكم عليه بأنه من الكفار لا يجوز الإقدام عليه إلا بعد أن تقوم على أحدهم الحجة الرسالية التي يتبين بها أنهم مخالفون للرسل، وإن كانت هذه المقالة لا ريب أنها كفر.

وهكذا الكلام في تكفير جميع المعينين مع أن بعض هذه البدع أشد من بعض، وبعض المبتدعة يكون فيه من الإيمان ما ليس في بعض، فليس لأحد أن يكفر أحدا من المسلمين، وإن أخطأ وغلط حتى تقام

(١) مجموع الفتاوى ١٢/٥٠٠ بتصرف.

عليه الحجة وتبين له المحجة، ومن ثبت إيمانه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك؛ بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة(١).

• الكفر الأكبر والأصغر يتناول الكفر الاعتقادي والكفر العملي.

لا بد لكل من تناول موضوعات الكفر والإيمان من تحري وضوح الألفاظ والتحقيق فيها والاستبيان، وعدم استخدام اصطلاحات يمكن للشخص الواحد أن يحملها على عدة معان، فلا بد من بيان مراد المتكلم وفهم دلالة ألفاظه على معانيها مطابقة وتضمنا والتزاما، ورد كلامه إلى أصول الإيمان وضوابط الكفر وأنواعه.

ومما أحدث جدلا كبيرا ما تبناه كثيرون من تقسيم الكفر إلى كفر أكبر محصور في الكفر الاعتقادي فقط، وكفر أصغر محصور في الكفر العملي فقط، ولا شك أن تبني مثل هذا التقسيم أحدث خلالا وجدلا كبيرا بين كثير من طلاب العلم فضلا عن الدعاة، وهذا تقسيم موهم باطل لأن الكفر العملي المبني على انتفاء عمل الجوارح ويلازمه بالضرورة انتفاء عمل القلب، قد يكون كفرا أكبر، وقد يكون كفرا أصغر، بل انتفاء كل ركن من أركان الإيمان يوجب الركن المقابل من أركان الكفر وبنفس النسبة والمقدار المعاكس.

ولما كان الإيمان عند السلف الصالح له عدة أركان هي القول والعمل في الظاهر والباطن، أو بعبارة أخرى لما كانت أركان الإيمان عند السلف الصالح هي قول القلب وعمل القلب، وقول اللسان وعمل

---

(١) مجموع الفتاوى ١٢/٥٠٠، وانظر أيضا الرد على البكري ٢/٤٩٢ بتصرف.

الجوارح، فإن أصول الكفر كما تقدم تتعلق بكل ركن من هذه الأركان التي تقابلها، وهي كفر الإعراض عن العلم ويسمى كفر الجهل والتكذيب، وكفر الإعراض عن إخلاص القلب والحب عند وجود القول الظاهر أو العمل الظاهر ويسمى كفر النفاق، وكفر الإعراض عن شهادة الحق بعد وجود علم القلب ويسمى كفر الجحود والكتمان، وكفر الإعراض عن الانقياد والطاعة والخضوع عند وجود قول اللسان، ويسمى كفر العناد والاستكبار، وهذه الأربعة أيضا على نوعين، إما كفر أكبر ينفي الإيمان بكليته، أو كفر أصغر ينفي بعضه ولا يزول كله، وله حكم الكبائر.

ومن ثم فإن قول القائل بحصر الكفر الأكبر في الكفر الاعتقادي فقط والكفر الأصغر في الكفر العملي فقط لا بد أن يحدث لبسا وجدلا، فهل الاعتقاد الذي يؤدي انتفاءه إلى وجود الكفر الاعتقادي الذي لا يكون إلا كفرا أكبر، هل هذا الاعتقاد هو مجرد قول القلب؟ أو علم القلب؟ أو عمل القلب؟ أو تصديق العقل الذي في القلب لمقتضى العلم الذي حصله؟ أو استيقان القلب بصدق الخبر والحكم بعدم الضرر في الأمر التكليفي الوضعي أو الشرعي؟ أو هو مركب من علم القلب وتصديقه واستعداد القلب للعمل والانقياد والحب؟

وإذا تحققنا من إجابة مقنعة لمعنى الاعتقاد الذي يؤدي انتفاؤه إلى الكفر الاعتقادي والذي لا يكون إلا كفرا أكبر عند هؤلاء، فهل كل ما تعلق بانتفاء الاعتقاد الحق يكون كفرا أكبر فقط ولا يكون كفرا أصغر بحال من الأحوال؟ فهل من اعتقد أن المطر ينزل بنوء كذا وكذا

أو اعتقد أنه لو علق خرزة أو كفا ليسلم من العين والحسد، أو ما شابه ذلك الاعتقادات الشركية يكون خارجا من الملة؟

ثم ما المقصود بالكفر العملي الذي لا يكون إلا كفرا أصغر، هل المقصود انتفاء عمل الجوارح كله مع وجود عمل القلب؟ لو كان المراد هذا فإنه باطل؛ لأنه لا واقع له إلا في خيال المرجئة، الذين يقولون الإيمان قول القلب وقول اللسان دون عمل الجوارح، فمن المقرر في مذهب السلف أنه إذا انتفى عمل الجوارح كله انتفى معه عمل القلب كله، وقد تقدم أنه يمتنع انتفاء عمل الجوارح بالكلية مع وجود شيء من عمل القلب، فإن هذا لا يكون في الواقع مع سلامة القدرة وخلو الموانع، وإنما يتصور الذهن أشياء لا وجود لها.

ومن ثم فإن الذي يجعل الكفر العملي كفرا أصغر فقط، أو يجعل انتفاء عمل الجوارح بالكلية لا يخرج من الملة، ويزعم أنه يكفي قول اللسان دون العمل بالجوارح والأركان، فكلامه باطل مخالف لما عليه السلف الصالح وأدلة المنقول والمعقول، فمن المعلوم أن السجود للصنم أو الوثن والذبح له والطواف به من أعمال الجوارح، وهي أعمال كفر مخرجة من الملة عند أهل السنة والجماعة بإجماعهم، ولم يرد عن أحد منهم أن العمل لا يدخل في مسمى الإيمان، بحيث لو انتفى العمل كله يصبح كفره كفرا أصغر، بل جميعهم صرح بأن الإنسان إذا أصر على ترك العمل جميعه ولم ينفذ لله أمرا بعد العلم بأوامره من غير مانع أو جهل، فهو كافر كفرا أكبر، وليس كفرا أصغر.

وقد ذكر شيخ الاسلام ابن تيمية أنه لا فرق بين من يعتقد أن الله

ربه، وأن الله أمره بهذا الأمر ثم يقول إنه لا يطيعه، لأن أمره ليس بصواب ولا سداد، وبين من يعتقد أن محمدا رسول الله وأنه صادق واجب الاتباع في خبره وأمره، ثم يسبه أو يعيب أمره أو شيئا من أحواله، أو تنقصه انتقاصا لا يجوز أن يستحقه الرسول ﷺ، وذلك أن الإيمان قول وعمل، فمن اعتقد الوحدانية في الألوهية لله سبحانه وتعالى، والرسالة لعبده ورسوله ﷺ، ثم لم يتبع هذا الاعتقاد موجبه من الإجلال والإكرام الذي هو حال في القلب يظهر أثره على الجوارح، بل قارنه الاستخفاف والتسفيه والازدراء بالقول أو بالفعل كان وجود ذلك الاعتقاد كعدمه، وكان ذلك موجبا لفساد ذلك الاعتقاد، ومزيلا لما فيه من المنفعة والصلاح، إذ الاعتقادات الإيمانية تزكي النفوس وتصلحها، فمتى لم توجب زكاة النفس ولا صلاحها فما ذاك إلا لأنها لم ترسخ في القلب، ولم تصر صفة ونعتا للنفس ولا صلاحا [(١)].

وقال الشيخ حافظ الحكمي: (والمرتد هو الذي يكفر بعد إسلامه بكلام أو اعتقاد أو فعل أو شك، وهو قبل ذلك يتلفظ بالشهادتين ويصلي ويصوم، فإذا أتى بشيء مما ذكروه صار مرتدا مع كونه يتكلم بالشهادتين ويصلي ويصوم، ولا يمنعه تكلمه بالشهادتين وصلاته وصومه عن الحكم عليه بالردة، وهذا ظاهر بالأدلة من الكتاب والسنة والإجماع) [(٢)].

وقد زعم بعضهم أنه لا يكفر إلا من اعتقد الكفر، أما من تلفظ به

---

(١) الصارم المسلول ص٣٧٦ تصرف.

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل ٦٥٩/١.

أو عمل ما هو كفر صراحة فلا يكفر؛ إذ الكفر هو الاعتقاد فقط، وهذا هو مذهب المرجئة المذموم، وقد استدل هؤلاء بتقسيم بعض العلماء الكفر إلى كفر عملي وكفر اعتقادي، وأن الأول كفر أصغر والثاني كفر أكبر، دون تفريق بين الكفر العملي الذي يعنيه العلماء والكفر بالعمل أو الأعمال المكفرة .

ومن هنا نشأت عندهم شبهة أخرى وهي أن المرء لو عمل عملا كفريا، كالسجود لصنم أو صليب، أو قال قولا كفريا، كسب الله ورسوله، أو استهزأ بآيات الله لشهوة أو غرض دنيوي فإنه لا يكفر ما لم يعتقد؛ فعدوا ذلك مانعا من موانع التكفير، والذي عليه علماء أهل السنة والجماعة أن موانع التكفير أربعة: الجهل، والخطأ، والتأويل أو الشبهة، والإكراه، فمن وقع في كفر عملا أو قولا ثم أقيمت عليه الحجة ،وبين له أن هذا كفر يخرج من الملة فأصر على فعله طائعا غير مكره، متعمدا غير مخطىء ولا متأول فإنه يكفر، ولو كان الدافع لذلك الشهوة أو أي غرض دنيوي، وهذا ما عليه أهل الحق وعليه ظاهرين إلى قيام الساعة إن شاء الله.

قال الشيخ محمد بن عثيمين: (للحكم بتكفير المسلم شرطان، أحدهما أن يقوم الدليل على أن هذا الشيء مما يكفر، الثاني انطباق الحكم على من فعل ذلك بحيث يكون عالما بذلك قاصدا له، فإن كان جاهلا لم يكفر. لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥ ﴾ النساء:١١٥. وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ

لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ التوبة:١١٥. وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ الإسراء:١٥. لكن إن فرط بترك التعلم والتبين لم يعذر، مثل أن يبلغه أن عمله هذا كفر فلا يتثبت، ولا يبحث فإنه لا يكون معذورا حينئذ، وإن كان غير قاصد لعمل ما يكفّر لم يكفر بذلك، مثل أن يكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ومثل أن ينغلق فكره فلا يدري ما يقول لشدة فرح ونحوه، كقول صاحب البعير الذي أضلها، ثم اضطجع تحت شجرة ينتظر الموت فإذا بخطامها متعلقا بالشجرة فأخذه، وقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح. لكن من عمل شيئا مكفرا مازحا فإنه يكفر لأنه قصد ذلك كما نص عليه أهل العلم.. هذا العمل وهو الاستهزاء بالله أو رسوله، أو كتابه أو دينه، ولو كان على سبيل المزح، ولو كان على سبيل إضحاك القوم، فهذا كفر ونفاق، وهو نفس الذي وقع في عهد النبي ﷺ في الذين قالوا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء. يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القراء فنزلت فيهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ التوبة:٦٥) [(١)].

• نواقض الإسلام العشرة المنتشرة والمشتهرة هي بعض النواقض.

نواقض الإسلام هي ما يبطل الدين بالكلية، أو ما يخرج المسلم من إسلامه إلى الكفر والخلود في النار، وقد ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله عشرة نواقض للإسلام ظن كثيرون أنه حصر جميع النواقض التي تخرج من الملة فيها، وأصبح الحديث عنها بين طلاب

(١) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ١٢٥/٢.

العلم كأنها نواقض جامعة مانعة لكل أنواع الكفر الأكبر والشرك الأكبر، والأمر ليس كذلك بل اقتصر الشيخ رحمه الله على هذه النواقض العشر؛ إما لأنها من أهم النواقض، أو أن كثيرا من نواقض الإسلام ترجع إليها، كما أنه ينبغي مراعاة الحال في البيئة النجدية وقت قيام الدعوة الإصلاحية، وتركيز الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله على إصلاحها وتنقيتها مما انتشر فيها من أمور الشرك والجاهلية، فقد ركز الشيخ رحمه الله على عدة نواقض وقع المسلمون في عصره في كثير منها فسعى لبيانها وتفصيلها، لا أنه يتكلم عن النواقض وأصولها بصورة كلية شمولية ترد إليها جمع أنواع الكفر الأكبر أو الشرك المنافي للتوحيد.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: (اعلم أن من أعظم نواقض الإسلام عشرة:

الأول: الشرك في عبادة الله وحده لا شريك له، والدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ النساء:٤٨. ومنه الذبح لغير الله كمن يذبح للجن أو القباب. الثاني: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة كفر إجماعا. الثالث: من لم يكفر المشركين، أو شك في كفرهم، أو صحح مذهبهم كفر إجماعا. الرابع: من اعتقد أن غير هدى النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، كالذين يفضلون حكم الطاغوت على حكمه فهو كافر. الخامس: من أبغض شيئا مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به كفر إجماعا، والدليل قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ

أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾ محمد:٩.

السادس: من استهزأ بشيء من دين الله أو ثوابه أو عقابه كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ التوبة:٦٥/٦٦ .

السابع: السحر ومنه الصرف والعطف، فمن فعله، أو رضي به كفر والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ البقرة:١٠٢.

الثامن: مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين والدليل قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ المائدة:٥١. التاسع: من اعتقد أن بعض الناس لا يجب عليه اتباعه ﷺ وأنه يسعه الخروج من شريعته كما وسع الخضر الخروج من شريعة موسى عليهما السلام فهو كافر.

العاشر: الأعراض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ السجدة:٢٢. ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف إلا المكره، وكلها من أعظم ما يكون خطرا، ومن أكثر ما يكون وقوعا فينبغي للمسلم أن يحذرها ويخاف منها على نفسه نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه) (١).

(١) الرسائل الشخصية ١/١٢٥.

والملاحظ أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تكلم عن أول ناقض وهو الشرك وخص الشرك في عبادة الله من بين أنواه الشرك الأخرى، ولم يذكر بقية أنواع الشرك في النواقض كالشرك في الربوبية والشرك في الأسماء والصفات، وكذلك جعل من نواقض الإسلام من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة، وهذا من شرك العبادة أيضا، وهو داخل فيه إذ تعظيم المخلوق كتعظيم الخالق من شرك العبادة.

كما أنه ذكر بعض النواقض المترتبة على انتفاء قول القلب وتصديقه كالذي لا يكفر المشركين، أو يشك في كفرهم، أو يصحح مذهبهم، أو المترتبة على انتفاء علم القلب كالأعراض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به وهذا كفر الجهل والتكذيب.

وذكر أيضا بعض النواقض المترتبة على انتفاء بعض أعمال القلب كمن أبغض شيئا مما جاء به الرسول ﷺ، وذكر بعض النواقض المترتبة على انتفاء قول اللسان كمن استهزأ بشيء من دين الله ﷻ أو ثوابه أو عقابه كفر، وذكر بعض النواقض المترتبة على انتفاء عمل الجوارح كالسحر، وهذا يدل على أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يحصر نواقض الإسلام في هذه العشرة، وإنما ذكر نواقض صحيحة من ضمن النواقض القولية والعملية.

- انتفاء أي نوع من التوحيد من نواقض الإسلام القولية والعملية.

الفروق والحدود الفاصلة بين الإسلام والكفر بينها الفقهاء في أحكام المرتد بصورة دقيقة، فالردة هي الكفر بعد الإسلام، وتكون بالقول

والفعل، ظاهرا وباطنا، ولذلك فإن الأصول النقلية التي ترد إليها نواقض الإسلام القولية والعملية تتمثل في انتفاء أصول التوحيد والإيمان في الإنسان، ومردها إما إلى انتفاء التوحيد بالشرك، أو انتفاء الإيمان بالكفر.

والمشركون والكافرون هم الذين يكرهون دين الإسلام ونور الإيمان، ويصدق عليهم بعد ذلك جميع المعان، فهم مجرمون فاسقون ظالمون أو منافقون لكن جماع الوصف الذي إليه يردون هو الكفر أو الشرك، ولذلك جمع الله ﷻ هذه الوصفين الجامعين لمن يكره الإسلام ويأبى الإيمان في موضعين من كتابه: الأول في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ التوبة:٣٢/٣٣.

والثاني يؤكده وقد ورد في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ الصف:٨/٩.

أما الأصول القرآنية والنبوية التي يرد إليها جميع النواقض القولية والفعلية، فبيانها على النحو التالي:

١- الناقض الأول: هو التشبه بالخالق والشرك في الربوبية، كشرك فرعون والنمرود بن كنعان، ويكون بالقلب واللسان والجوارح، فالقلب يقوم به منازعة الله في العظمة والكبرياء، ويكون بانعدام الخضوع وقيام

الإباء والاستكبار والاستعلاء، واللسان يقوم به القول والادعاء كقول فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ النازعات:٢٤. وقول القائل: الأمر لي وليس لربكم، وأنا أقدر أن أفعل بكم ما أشاء، وربكم عاجز عن ذلك، إلى غير ذلك من العبارات التي تصدر ممن ينتسب إلى الإسلام، ويكون بالجوارح في بسط القدرة بالظلم والقهر والطغيان، ومحاربة أولياء الله وتعذيبهم وجبرهم على الكفر والعصيان.

وكل من أشرك في الربوبية شركا أكبر فقد خرج من الإسلام، لأن كل مخلوق سوى الله ﷻ إنما هو عبد من عباد الله، إما باضطرار أو باختيار، فالعبودية صفة لازمة لسائر المخلوقات، وهي عبودية حاجة وافتقار تقابل وصف التوحيد في الغنى والكمال الذي انفرد به الرب الواحد في ربوبية، فإن العبد إذا تعاظم وأراد أن يخرج عن وصف العبودية والحاجة الافتقار، فإنه لا محالة يطلب لذاته الاستغناء والعلو والاستكبار، فيقع في باب التشبه برب العزة والجلال، وعليه فإن كل من استغنى بماله، أو جاهه، أو ملكه، وبارز الله ﷻ بالعصيان لأمره، وكان مبغضا لأولياء الله وحزبه فإنه خرج عن حده وأشرك في الربوبية.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ القصص:٤.

وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ

نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾ العلق:٦/١٩ .

ومن ثم فإن الشرك في الربوبية من نواقض الإسلام القولية والفعلية، وهو شأن سائر الطواغيت التي تأبى العبودية لله وحده، ويقع في هذا الشرك كل من تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم والهيبة والنداء والخضوع والخوف والرجاء، وتعلقت به القلوب ورهبة وخوفا ورجاءا وخشية واستغاثة والتجاء، وشابه خصال فرعون والنمرود بعضها أو كلها، فذلك قد تشبه بالخالق سبحانه على قدر خصاله الفرعونية، ففرعون يعتبر مثلا أعلى لمن أشرك في الربوبية.

ومن أمثلة الشرك في الربوبية المناقض للإسلام والمبني على التشبه بالخالق شرك غلاة الصوفية القائلين بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود كالحلاج وابن الفارض وتلاميذ مدرسته وابن عربي وأتباعه، جميعهم زعم أن الذات البشرية أخذت خصائص الذات الإلهية في الحلول والاتحاد أو الوحدة والتجلي والتعيين.

٢- الناقض الثاني: هو تشبيه المخلوق بالخالق المؤدي للشرك الأكبر في العبادة، وهو كثير في المنتسبين للإسلام، ويكون بالقلب واللسان والجوارح، فشرك القلب كالشرك الأكبر في المحبة والخوف والرجاء والإرادة والنية وغير ذلك مما تقدم في مطالب الشر، وشرك اللسان كالاستغاثة والدعاء والاستعانة والتوسل والنداء، وطلب المدد من القباب والموتى من الأولياء، وغير ذلك مما يكون شركا أكبر، ومعلوم أنه من خصائص الإلهية إثبات الكمال المطلق في الأسماء والصفات والأفعال من جميع الوجوه، كمالا لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب

أن تكون العبادة كلها لله وحده، وكذلك التعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوكل والاستعانة، وغاية الذل مع غاية الحب، كل ذلك يجب عقلا وشرعا وفطرة أن يكون لله وحده، ويمنع عقلا وشرعا وفطرة أن يكون لغيره، فمن جعل شيئا من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا ند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره مع أنه كتب على نفسه الرحمة [1] .

قال الله تعالى: ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾الشعراء: ٩١/٩٨.

٣- الناقض الثالث: تشبيه الخالق بالمخلوق، وهو الشرك الأكبر المتعلق بالتشبيه والتعطيل، ويكون أيضا بالقلب واللسان والجوارح كاعتقاد تمثيل الصفات الإلهية بصفات الخالق كمن اتخذ للرحمن ولدا، ممثلا الخالق بالمخلوق في كونه يلد أو يولد، وكمن دعا إلى ذلك بالقول أو الكتابة والفعل، وكذلك الشرك في الأسماء والصفات، وهو شرك يهدم التوحيد وينافيه، والتوحيد في باب الصفات يقصد به إفراد الله سبحانه وتعالى بذاته وصفاته وأفعاله عن الأقيسة والقواعد والقوانين التي تحكم ذوات المخلوقين وصفاتهم وأفعالهم، والشرك في باب الصفات هو قياس الخالق بالمخلوق، قياس تمثيلي أو شمولي، فمن مثل الله بخلقه

(١) الجواب الكافي ص٩٣ بتصرف.

فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله نفسه به فقد كفر.

قال نعيم بن حماد شيخ البخاري: (من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت ما وردت به الآثار الصريحة والأخبار الصّحيحة على الوجه الذي يليق بجلاله، ونفى عن الله النقائص فقد سلك سبيل الهدى) [1].

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)﴾ يونس:٦٨/٧٠.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣)﴾ الصافات:١٥٨/١٦٣.

• من نواقض الإسلام القولية أو العملية انتفاء أي ركن من أركان الإيمان.

٤- الناقض الرابع: التكذيب بالحق أو الشك فيه وعدم التصديق اليقيني بخبر الله ورسوله ﷺ، وقد علمنا أن الخبر هو ما يحتمل التصدق أو التكذيب، وخبر الله يتطلب التصديق الذي يبلغ حد اليقين، واليقين شرط دخول الإنسان في الإسلام، كما أن التكذيب والشك ناقض

(١) سير أعلام النبلاء ٥/٦١٠.

للإسلام، فمن كان في قلبه ظن أو شك أو وهم فيما أخبر به ربه عن نفسه أو مَلائِكته وكُتبهِ ورُسُلهِ واليوْمِ الآخِرِ وتؤْمِنَ بالقَدرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ فقد انتفى إسلامه وخرج من الملة.

٥- الناقض الخامس: هو التولي والإعراض عن العلم برسالة الإسلام لا يرغب في العلم، ويؤثر البقاء على الإعراض والجهل، فيغلق قلبه وعقله، ويعطل نظره وفكره، كما فعل كسرى ملك الفرس حين مزق رسالة النبي ﷺ إليه دون تفكر أو استدلال، أو نظر أو سؤال واستفسار، فكفره كفر الجهل وإعراض ينقض دين الإسلام كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ النمل:٨٣/٨٥.

وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ يونس:٣٩ .

٦- الناقض السادس: هو النفاق الأكبر وهو تظاهر الإنسان بالإيمان والصدق في قول اللسان وفعل الجوارح، فلا يعمل بقلبه ويعقد النية على كره الإسلام وبغضه، فكفر النفاق ينشأ عن انتفاء عمل القلب مع الإقرار باللسان وانقياد الجوارح في ظاهر الإنسان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ النساء:١٤٢/١٤٣.

وقال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ التوبة:٥٤. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ النساء:١٤٥.

٧- الناقض السابع: جحود الحق والتوحيد وإيثار الشرك، وجحود الرسالة أو بعض ما جاء فيها، وتقديم الباطل على الحق والدفاع عنه بالباطل عن علم فهو ناقض للإسلام؛ وفيه شبه من كفر فرعون فإنه استيقن في الجنان بصدق بموسى وهارون عليهما السلام، وجحد باللسان أن يوافقهم فيما يقولون. قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ النمل:١٤.

وكذلك علماء السوء الذين يجحدون الحق ويحرفون الكلم عن مواضع كعلماء اليهود، فإنهم كانوا يعرفون النبي ﷺ كمعرفتهم لأبنائهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ البقرة:١٤٦.

وقال: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ آل عمران:٧٨.

وكذلك من سب دين الله أو استهزأ بشيء منه أو استهزأ بشيء ثوابه أو عقابه كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ التوبة:٦٥/٦٦

٨- الناقض الثامن: الإعراض بالجوارح عن الطاعة لله ورسوله واستكباره وإصراره على عدم تنفيذ أوامر الله وأحكامه، وهو كفر العناد والاستكبار، وهو مبني على علم القلب بالحق وإقرار اللسان وشهادته ظاهرا ألا إله إلا الله، وأنه لا معبود بحق سواه، وامتناع الجوارح من الطاعة والاستسلام وعدم الالتزام بما جاء عن الله من أحكام، ولازم ذلك خلو القلب من الإيمان وهذا الكفر متردد بين الكفر الأكبر والكفر الأصغر، فالكفر الأكبر ناقض من نواقض الإسلام، وصاحبه فيه شبه من كفرُ إبليس لعنه الله، قال تعالى: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ ص:٧٣/٧٥.

ويدخل في ذلك من لم يحكم بما أنزل الله وكان كفره كفرا أكبر كما تقدم وهو الذي لم يقبل الخضوع للشرع وتنفيذ الأحكام مع علمه وقدرته ووجود استطاعته، قال تعالى فيمن لم يقبل حكم الله وحكم رسوله ﷺ منهجا في حياته ولم يرض به: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ النساء:٦٥.

وكذلك الإصرار على ترك الصلاة عامدا بعد العلم بأحكامها، فقد خرج من الملة، فالكفر الوارد في ترك الصلاة بالكلية هو الكفر الأعظم لأن السجود لله ﷻ برهان الطاعة والإسلام والصدق في قبول الإنسان لتوحيد والعبودية ونفي الاستكبار ومنازعة الله في الربوبية.

وكذلك من أتي بعمل من أعمال الجوارح ينقض إسلامه كالسحر

ومنه الصرف والعطف، فمن فعله، أو رضى به كفر والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ البقرة:١٠٢.

٩- الناقض التاسع: مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين في استباحة حرماتهم وكشف عوراتهم موالاة للكافرين، قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ المائدة:٥١. وكذلك من لم يكفر المشركين، أو شك في كفرهم، أو صحح مذهبهم كفر إجماعا.

قال تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ المائدة:٨٠/٨١.

١٠- الناقض العاشر: من اعتقد أنه يسعه الخروج من شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عليه السلام وأنه يصل مع الله إلى حال تسقط عنه التكاليف الشرعية، أو اعتقد أن غير هدى النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، فهو كافر بالله العظيم وخارج عن الملة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ النساء:٦٠.

- **قول الطحاوي ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله.**

استدل البعض بقول الإمام الطحاوي: ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله. استدل به على اشتراط استحلال القلب للمعصية والكفر حتى يكفر بذلك، وكل ما وقع من قبيل الكفر يؤول عندهم إلى الكفر العملي الذي هو من قبيل المعاصي، والصواب أن يقال: ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بكل ذنب كما تفعله الخوارج.

ومعلوم أن تقسيم بعض العلماء الكفر إلى عملي واعتقادي لا يلزم منه كما تقدم أن الكفر المخرج من الملة لا يكون بالعمل إلا إذا كان مقيدا بالاعتقاد، وإن كان مراد العلماء الذين أطلقوا هذه العبارات قد أرادوا الرد على الخوارج الذين يستدلون ببعض النصوص الواردة في الكفر الأصغر على تكفير مرتكب الكبيرة.

وقد اتفق السلف على أن الكفر قد يكون بالقول والعمل، والأصوب الالتزام بتقسيم الكفر إلى ما هو أكبر وما هو أصغر، أو إلى كفر مخرج من الملة، وإلى كفر لا يخرج من الملة، ونحو ذلك من العبارات التي لا توهم والتي تتضمن الدلالة على أن الكفر قد يكون بالقول أو بالعمل.

وكلام الإمام الطحاوي كلام مجمل يحتمل وجوها لا بد من الاستفصال فيها فيمكن أن يفسر كلامه تفسيرا صحيحا على اعتبار أن أهل السنة والجماعة لا يكفرون بالذنب الذي هو في درجة الكبائر من فعل المحرمات وترك الفرائض والواجبات، فيكون المراد بالذنب هنا ما دون الكفر.

أما عبارة ما لم يستحل كشرط علق عليه عدم التكفير، فهي عبارة

موهمه وغير محكمة، فإن العبد قد يكفر بفعل الذنب وهو غير مستحل له، ولهذا ورد عند البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: (قلت يا رسول الله! أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: أن تدعو لله ندا وهو خلقك) [١]. فسماه ذنبا، فهذا القيد الذي ذكره الإمام الطحاوي قد يحدث لبسا عند الإطلاق.

والمقصود بالاستحلال استحلال القلب للمحرمات وترك الواجبات باعتقاده أنه لا ينبغي أن يكون ذلك الأمر حراما كمن يزعم في عصرنا في بعض المحرمات الشرعية المجمع على تحريمها أنها حلال وحرية، وأن اعتبارها محرما هو من باب التخلف والرجعية، كظهور المرأة شبه عارية في الألعاب الرياضية وبعض البرامج التلفزيونية، واستحلال الرقص والفحش وشرب الخمر والخلاعة النسائية في الأفلام والمسلسلات اليومية وجعله ذلك ابداعا وفنا ومهنة شريفة وحلال مباحا، ومثله أيضا اعتبار توريث المرأة لنصف الرجل والزواج من مثنى وثلاث ورباع أمورا لا تليق بهذا العصر وتنتقص من حقوق الإنسان.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾التوبة:٣٧.

وقد ورد عند البخاري من حديث أبي مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالاته ٦/٢٧٣٩ (٧٠٩٤)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده ١/٩٠(٨٦).

قال: (لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الْحِرَ وَالْحَرِيرَ وَالْخَمْرَ وَالْمَعَازِفَ) (١). وفي رواية ابن ماجة: (لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ، يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا، يُعْزَفُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ بِالْمَعَازِفِ، وَالْمُغَنِّيَاتِ، يَخْسِفُ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ، وَيَجْعَلُ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ) (٢).

ومن ثم فإن الاستحلال الذي ورد معناه في القرآن والسنة هو عدم تحريم ما حرم الله ورسوله، فلا يعتقده حراما مستوجبا العقوبة أو اللعن أو الكفارة، فإذا أقام شخص على ذنب أو كبيرة من الكبائر فلا يصح أن يقال إنه مستحل، إلا إذا أظهر أنه لا ينبغي أن تكون حراما وأنه لا يرى عدم التحريم.

- قول الطحاوي ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة.

قال الإمام الطحاوي رحمه الله: وَنَرَى الصلاة خَلْفَ كُلِّ بَر وَفَاجِرٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَة، وعلى مَنْ مَاتَ مِنْهُم (٣). وهو يرد بذلك على الخوارج الذين يكفرون بالذنوب ويخلدون مرتكب الكبيرة في النار، وكلامه يرد به أيضا على ما انتشر من أفكار جماعة التكفير الذين يزعمون أن الأصل في عامة البلاد الإسلامية هو الكفر حتى يتبين إسلام كل فرد على حدة، وكذلك يرد به أيضا على بعض المنتسبين للجماعة السلفية الذين يزعمون تكفير المسلمين الذين يلتحقون بالجيش والأمن والعاملين في العسكرية والجيوش النظامية التي تحمي أرض البلاد الإسلامية.

(١) البخاري في الأشربة، باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ٥/٢١٢٣ (٥٢٦٨).
(٢) انظر مشكاة المصابيح (٤٢٩٢).
(٣) شرح العقيدة الطحاوية ١/٣٦٥ .

وقد دل كلام الإمام الطحاوي رحمه الله على أنه يجوز للرجل أن يصلي خلف من لم يعلم منه بدعة ولا فسقا باتفاق الأئمة، وليس من شرط الائتمام أن يعلم المأموم اعتقاد إمامه ولا أن يمتحنه، فيقول: ماذا تعتقد؟ بل يصلي خلف المستور الحال، ولو صلى خلف مبتدع يدعو إلى بدعته أو فاسق ظاهر الفسق وهو الإمام الراتب الذي لا يمكنه الصلاة إلا خلفه، كإمام الجمعة والعيدين، والإمام في صلاة الحج بعرفة، ونحو ذلك فإن المأموم يصلي خلفه عند عامة السلف والخلف.

ومن ترك الجمعة والجماعة خلف الإمام الفاجر فهو مبتدع عند أكثر العلماء، والصحيح أنه يصليها ولا يعيدها، فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلف الأئمة الفجار ولا يعيدون، كما كان عبد الله بن عمر رضي الله عنه يصلي خلف الحجاج بن يوسف، وكذلك أنس بن مالك رضي الله عنه، وكذلك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغيره يصلون خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان يشرب الخمر حتى إنه صلى بهم الصبح مرة أربعا، ثم قال: أزيدكم ؟ فقال له ابن مسعود: ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة! وفي الصحيح أن عثمان بن عفان رضي الله عنه لما حصر صلى بالناس شخص، فسأل سائل عثمان: إنك إمام عامة، وهذا الذي صلى بالناس إمام فتنة؟ فقال: يا ابن أخي إن الصلاة من أحسن ما يعمل الناس، فإذا أحسنوا فأحسن معهم، وإذا أساؤوا فاجتنب إساءتهم(١).

والفاسق والمبتدع صلاته في نفسها صحيحة، فإذا صلى المأموم خلفه لم تبطل صلاته، لكن إنما كره من كره الصلاة خلفه، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، ومن ذلك أن من أظهر بدعة

(١) شرح العقيدة الطحاوية ١/٢٤٥.

وفجورا لا يُرتب إماما للمسلمين، فإنه يستحق التعزير حتى يتوب، فإن أمكن هجره حتى يتوب كان حسنا.

وإذا كان ترك الصلاة خلف المبتدع والفاسق والصلاة خلف غيره تؤثر في إنكار المنكر وزجره حتى يتوب أو يعزل، أو ينتهي الناس عن مثل ذنبه، فمثل هذا إذا تركت الصلاة خلفه كان في ذلك مصلحة شرعية، طالما أنه لم تفت المأموم جمعة ولا جماعة. وأما إذا كان ترك الصلاة خلف الفاسق سيفوت المأموم الجمعة والجماعة، فهنا لا يترك الصلاة خلفه إلا مبتدع مخالف للصحابة ﭫ.

وكذلك إذا كان الإمام قد رتبه ولاة الأمور فليس في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية، وهنا لا يترك الصلاة خلفه، بل الصلاة خلفه أفضل، فإذا أمكن الإنسان أن لا يقدم مظهرا للمنكر في الإمامة، وجب عليه ذلك، لكن إذا ولاه غيره، ولم يمكنه صرفه عن الإمامة، أو كان لا يتمكن من صرفه عن الإمامة إلا بشر أعظم ضررا من ضرر ما أظهر من المنكر فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير، ولا دفع أخف الضررين بحصول أعظمهما، فإن الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها بحسب الإمكان، فتفويت الجمع والجماعات أعظم فسادا من الإقتداء فيهما بالإمام الفاجر، لاسيما إذا كان التخلف عنها لا يدفع فجورا، فيبقى تعطيل المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة، وأما إذا أمكن فعل الجمعة والجماعة خلف البر فهذا أولى من فعلها خلف الفاجر، فإذا صلى خلف الفاجر من غير عذر، فهو موضع اجتهاد العلماء في قبولها أو إعادتها[1].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ١/٢٤٥.

المطلب السابع والعشرون

حقيقة الولاء والبراء وأحكام الهجر ولزوم الجماعة والطاعة في غير معصية الله



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا فيما سبق عن التحذير من خطر التكفير بلا تفصيل وتفصيل نواقض الإسلام الاعتقادية والعملية، وبينا أن أصول التكفير مصدرها من المبتدعة وتكفيرهم من خالفهم، وأن أهل السنة لا يكفرون من خالفهم، وإن كان المخالف يكفرهم، وعلمنا أن الإمام أحمد وعامة الأئمة لم يكفروا شخصا بعينه إلا بضوابط محققة.

كما بينا الأدلة النقلية على أن إطلاق التكفير لا يلزم منه تكفير المعين، وأن من أقيم عليه الحد في الدنيا لا يلزم أن يكون معذبا في الآخرة، وأن الكفر الأكبر والأصغر يتناول الكفر الاعتقادي والكفر العملي، ثم تحدثنا عن نواقض الإسلام العشرة المنتشرة والمشتهرة هي بعض النواقض، وأن انتفاء أحد أنواع التوحيد من نواقض الإسلام القولية والعملية، وكذلك فإن من نواقض الإسلام القولية أو العملية انتفاء أحد أركان الإيمان، ثم بينا حقيقة قول الطحاوي ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، وقوله ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث حقيقة الولاء والبراء وأحكام الهجر ولزوم الجماعة والطاعة في غير معصية الله.

- مفهوم الولاء والبراء في المعاني اللغوية والأصول القرآنية والنبوية

الولاء القرب، والولي في اللغة صيغة مبالغة من اسم الفاعل الوالي، فعله وَلِيَ يَلي وِلاية، والولي هو الذي يلي غيره بحيث يكون قريبا منه بلا فاصل، ويكون ذلك في المكان أو النسب أو النسبة، والولاء القرب، والمولى القريب الذي يلي الأمر، وهو اسم يطلق على الرَّب والمالك والسَّيِّد والمنْعم والمعْتق والنَّاصِر والمحِب والتابِع والجار وابن العَمّ والحليف والعَقِيد والصِّهْر والعَبْد والمنْعم عليه، والفرق بين الولي والمولى أن الولي هو من تولى أمرك وقام بتدبير حالك وحال غيرك وهذه من ولاية العموم، أما المولى فهو من تركن إليه، وتعتمد عليه، وتحتمي به عند الشدة والرخاء وفي السراء والضراء، وهذه من ولاية الخصوص، وجميع معاني الولاء تعود إلى معنى القرب والاتصال والمودة والنصرة [١].

والبراء مصدر برئت، والبرء تبرئة الشيء من الشيء من قوله: برأت من المرض، وبرئت من الدَّيْن أبرأ منه، والبارئ هو الذي خلا من العيب أو التهمة والمذمة وخلص منها وتنزه عن وصفه بالنقص، وأبرأ فلانا من حق له عليه أي خلصه منه، وبرئ المريض أي شفي من مرضه [٢].

---

(١) انظر لسان العرب ٤١١/٥، وكتاب العين ٣٦٥/٨، والغريب لابن سلام ١٤١/٣، والنهاية في غريب الحديث ٢٢٧/٥.

(٢) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١٥، جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير ١٧٧/٤، تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج ص٣٧.

والولاء والبراء عقيدة بالقلب تظهر آثارها بالضرورة على قول اللسان وعمل الجوارح في الإنسان، دلت عليها النصوص النقلية والدلالات العقلية والفطرية، وهذه العقيدة ترجع إلى معنى الحب والنصرة في الولاء، والبغض والعداء في البراء.

والولاء شرعا هو الحب والنصرة لله تعالى ولرسوله ﷺ ولدين الإسلام والمسلمين في كل مكان وزمان، والبراء هو ما يقابل الولاء وهو بغض الطواغيت، وكل ما عبد من دون الله، وبغض الشرك وجميع أنواع المشركين، وبغض الكفر بجميع أنواعه، وبغض جميع الكافرين، والمعاداة لكل من خالف الدين الحق.

هذا معنى الولاء والبراء في الكتاب والسنة وهو اعتقاد بالجنان لابد من ظهور أثره على الجوارح والأركان كباقي العقائد التي لا يصح تصور استقرارها في القلب دون أن تظهر أثرها على جوارح معتقدها، وعلى قدر قوة استقرارها في القلب وثبوتها تزداد دلائل ذلك في أفعال العبد الظاهرة، وعلى قدر ضعف استقرارها تنقص دلائلها في أفعال العبد الظاهرة، فإذا زال الولاء في ركن من أركان الإيمان بالكلية كالقلب قام البراء فيه على قدره المقابل، وزال معه الإيمان كله، ولم يبق للإيمان أثر على الجوارح؛ إلا في المنافق الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر.

• الأدلة النقلية على وجوب الولاء للمؤمنين والبراء من الكافرين.

أوجب الله الموالاة بين المؤمنين، وبين أن ذلك من لوازم الإيمان ونهى عن موالاة الكفار، وبين أن ذلك منتف في حق المؤمنين، وبين

حال المنافقين في موالاة الكافرين، فالمؤمنون أولياء الله، وبعضهم أولياء بعض؛ والكفار أعداء الله وأعداء المؤمنين، فأما الأدلة على موالاة المؤمنين في القرآن فكثيرة منها:

١- قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)﴾ المائدة:٥٥/٥٦.

٢- وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣)﴾ يونس:٦٢/٦٣.

٣- وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١)﴾ الممتحنة:١.

٤- وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣)﴾ الممتحنة:١٣.

٥- وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ المائدة:٤١. فذكر المنافقين والكفار المهادنين، وأخبر أنهم يسمعون لقوم آخرين لم يأتوك، وهو استماع المنافقين والكفار المهادنين

للكفار المعلنين، الذين لم يهادنوا، كما أن في المؤمنين من قد يكون سماعا للمنافقين كما قال: وفيكم سماعون لهم. وبعض الناس يظن أن المعنى سماعون لأجلهم بمنزلة الجاسوس؛ أي يسمعون ما يقول وينقلونه إليهم حتى قيل لبعضهم: أين في القرآن الحيطان لها آذان؟ قال في قوله: وفيكم سماعون لهم. وليس هذا معنى الآية؛ وإنما المعنى فيكم من يسمع لهم أي يستجيب لهم ويتبعهم، كما في قوله: سمع الله لمن حمده. استجاب الله لمن حمده، أي قبل منه. يقال: فلان يسمع لفلان أي يستجيب له ويطيعه [1].

وذلك أن المسموع إذا كان طلبا ففائدته وموجبه الاستجابة والقبول، وإذا كان المسموع خبرا ففائدته التصديق والاعتقاد فصار يدخل مقصوده وفائدته في مسماه نفيا وإثباتا، فيقال فلان يسمع لفلان أي يطيعه في أمره أو يصدقه في خبره، وفلان لا يسمع ما يقال له أي لا يصدق الخبر، ولا يطيع الأمر، كما بين الله السمع عن الكفار في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ البقرة:١٧١. وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ الأنبياء:٤٥.

وذلك لأن سمع الحق يوجب قبوله، وإيجاب الإحساس الحركة، وإيجاب علم القلب حركة القلب، فإن الشعور بالملائم يوجب الحركة إليه، والشعور بالمنافر يوجب النفرة عنه، فحيث انتفى موجب ذلك دل على انتفاء مبدئه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ

(١) مجموع الفتاوى ١٩٤/٢٨ بتصرف.

يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ ﴾الأنعام:٣٦ (١).

ولهذا جعل سمع الكفار بمنزلة سمع البهائم لأصوات الرعاة، أي يسمعون مجرد الأصوات سمع الحيوان، لا يسمعون ما فيها من تأليف الحروف المتضمنة للمعاني، ولا يسمعون السمع الذي لا بد أن يكون بالقلب مع الجسم؛ فقال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْ﴾ المائدة:٤١ . يقول: هم يستجيبون لقوم آخرين، وأولئك لم يأتوك، وأولئك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون لهؤلاء الذين أتوك إن أوتيتم هذا فخذوه، وإن لم تؤتوه فاحذروا كما ذكروا في سبب نزول الآية أنهم قالوا في حد الزنا وفي القتل اذهبوا إلى هذا النبي الأمي فإن حكم لكم بما تريدونه فاقبلوه وإن حكم بغيره فأنتم قد تركتم حكم التوراة، أفلا تتركون حكمه؟! فهذا هو استماع المتحاكمين من أولئك الذين لم يأتوه؛ ولو كانوا بمنزلة الجاسوس لم يخص ذلك بالسماع؛ بل يرون ويسمعون، وإن كانوا قد ينقلون إلى شياطينهم ما رأوه وسمعوه؛ لكن هذا من توابع كونهم يستجيبون لهم ويوالونهم (٢).

ومن جنس موالاة الكفار التي ذم الله ﷻ بها أهل الكتاب والمنافقين الإيمان ببعض ما هم عليه من الكفر، أو التحاكم إليهم دون كتاب الله كما قال تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/١٩٤ بتصرف.

(٢) السابق ٢٨/١٩٣ بتصرف.

بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ النساء:٥١ . وقد عرف أن سبب نزولها كان في شأن كعب بن الأشرف أحد رؤساء اليهود لما ذهب إلى المشركين ورجح دينهم على دين محمد وأصحابه. ونظير هذه الآية قول الله تعالى عن بعض أهل الكتاب: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾البقرة:١٠١/١٠٢. فأخبر أنهم اتبعوا السحر وتركوا كتاب الله كما يفعله كثير من اليهود وبعض المنتسبين إلى الإسلام من اتباعهم كتب السحرة أعداء إبراهيم وموسى من المتفلسفة ونحوهم، وهو كإيمانهم بالجبت والطاغوت؛ فإن الطاغوت هو الطاغي من الأعيان والجبت هو من الأعمال والأقوال كما قال عمر بن الخطاب: الجبت السحر والطاغوت الشيطان[(١)].

ومن ثم فإن من كان من هذه الأمة مواليا للكفار من المشركين أو أهل الكتاب ببعض أنواع الموالاة ونحوها، مثل إتيانه أهل الباطل واتباعهم في شيء من مقالهم وفعالهم الباطل كان له من الذم والعقاب والنفاق بحسب ذلك؛ وذلك مثل متابعتهم في آرائهم وأعمالهم؛ كنحو اليهود والنصارى وأفعالهم المخالفة للكتاب والسنة؛ ونحو أقوال المجوس والمشركين وأفعالهم المخالفة للكتاب والسنة، ومن تولى أمواتهم أو أحياءهم بالمحبة والتعظيم والموافقة فهو منهم[(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٩٣/٢٨ بتصرف.

(٢) السابق ١٩٣/٢٨ بتصرف.

• الهجر الشرعي يكون لترك المنكرات أو العقوبة عليها.

الهجر الشرعي نوعان: أحدهما بمعنى الترك للمنكرات، والثاني بمعنى العقوبة عليها، فالأول هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨)﴾ الأنعام:٦٨.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾ النساء:١٤٠.

وهذا يراد به أنه لا يشهد المنكرات لغير حاجة، مثل قوم يشربون الخمر يجلس عندهم، وقوم دعوا إلى وليمة فيها خمر وزمر لا يجيب دعوتهم وأمثال ذلك، بخلاف من حضر عندهم للإنكار عليهم أو حضر بغير اختياره، ولهذا يقال حاضر المنكر كفاعله.

وروى الطبراني من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل حليلته الحمام، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يشرب الخمر، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس بينه وبينها محرم) [(١)].

وهذا الهجر من جنس هجر الإنسان نفسه عن فعل المنكرات كما

---

(١) صحيح لغيره، انظر صحيح الترغيب والترهيب ١/٤١ (١٧٢).

قال ﷺ: المهاجر من هجر ما نهى الله عنه[1].

ومن هذا الباب الهجرة من دار الكفر والفسوق إلى دار الإسلام والإيمان، فإنه هجر للمقام بين الكافرين والمنافقين الذين لا يمكنونه من فعل ما أمر الله به، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥﴾ المدثر:٥.

النوع الثاني: من الهجر هو الهجر على وجه التأديب، وهو هجر من يظهر المنكرات، يهجر حتى يتوب منها كما هجر النبي ﷺ والمسلمون الثلاثة الذين خلفوا حتى أنزل الله توبتهم حين ظهر منهم ترك الجهاد المتعين عليهم بغير عذر، ولم يهجر من أظهر الخير وإن كان منافقا، فهنا الهجر هو بمنزلة التعزير، والتعزير يكون لمن ظهر منه ترك الواجبات وفعل المحرمات كتارك الصلاة والزكاة، والمظهر للمظالم والفواحش والداعي إلى البدع المخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة التي ظهر أنها بدع، وهذا حقيقة قول من قال من السلف والأئمة إن الدعاة إلى البدع لا تقبل شهادتهم، ولا يصلى خلفهم، ولا يؤخذ عنهم العلم ولا يناكحون، فهذه عقوبة لهم حتى ينتهوا؛ ولهذا يفرقون بين الداعية وغير الداعية؛ لأن الداعية أظهر المنكرات فاستحق العقوبة بخلاف الكاتم فإنه ليس شرا من المنافقين الذين كان النبي ﷺ يقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله مع علمه بحال كثير منهم.

ولهذا جاء في الحديث أن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها، ولكن إذا أعلنت فلم تنكر ضرت العامة وذلك لأن النبي ﷺ قال: إن

---

(١) صحيح انظر صحيح الجامع (٦٧١١).

الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه[1]. فالمنكرات الظاهرة يجب إنكارها؛ بخلاف الباطنة فإن عقوبتها على صاحبها خاصة[2].

وهذا الهجر يختلف باختلاف الهاجرين في قوتهم وضعفهم، وقلتهم وكثرتهم، فإن المقصود به زجر المهجور وتأديبه، ورجوع العامة عن مثل حاله، فإن كانت المصلحة في ذلك راجحة بحيث يفضي هجره إلى ضعف الشر وخفته كان مشروعا، وإن كان لا يرتدع المهجور ولا غيره بذلك بل يزيد الشر، والهاجر ضعيف بحيث يكون مفسدة ذلك راجحة على مصلحته لم يشرع الهجر؛ بل يكون التأليف لبعض الناس أنفع من الهجر، والهجر لبعض الناس أنفع من التأليف؛ ولهذا كان النبي ﷺ يتألف قوما ويهجر آخرين.

كما أن الثلاثة الذين خلفوا كانوا خيرا من أكثر المؤلفة قلوبهم، ولكن هؤلاء المؤلفة قلوبهم كانوا سادة مطاعين في عشائرهم فكانت المصلحة الدينية في تأليف قلوبهم، أما هؤلاء الثلاثة الذين خلفوا فكانوا مؤمنين، والمؤمنون سواهم كثير، فكان في هجرهم عز الدين وتطهيرهم من ذنوبهم، وهذا كما أن المشروع في العدو القتال تارة، والمهادنة تارة، وأخذ الجزية تارة، كل ذلك بحسب الأحوال والمصالح.

وجواب الأئمة كأحمد وغيره في هذا الباب مبني على هذا الأصل، ولهذا كان يفرق بين الأماكن التي كثرت فيها البدع كما كثر القدر في

---

(١) صحيح، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٢٣١٧).

(٢) مجموع الفتاوى ٢٨/٢٠٦ بتصرف.

البصرة، والتنجيم بخراسان، والتشيع بالكوفة، وبين ما ليس كذلك، ويفرق بين الأئمة المطاعين وغيرهم، وإذا عرف مقصود الشريعة سلك في حصوله أوصل الطرق إليه.

وإذا عرف هذا فالهجرة الشرعية هي من الأعمال التي أمر الله ﷻ بها ورسوله، فالطاعة لا بد أن تكون خالصة لله، وأن تكون موافقة لأمره فتكون خالصة لله ﷻ صوابا، فمن هجر لهوى نفسه أو هجر هجرا غير مأمور به كان خارجا عن هذا، وما أكثر ما تفعل النفوس ما تهواه وهي تظن أنها تفعله طاعة لله.

والهجر لأجل حظ الإنسان لا يجوز أكثر من ثلاث كما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث؛ يلتقيان فيصد هذا ويصد هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام[1]. فلم يرخص في هذا الهجر أكثر من ثلاث.

والهجر من باب العقوبات الشرعية فهو من جنس الجهاد في سبيل الله، وهذا يفعل لأجل أن تكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله، والمؤمن عليه أن يعادي في الله ويوالي في الله، فإن كان هناك مؤمن فعليه أن يواليه وإن ظلمه؛ فإن الظلم لا يقطع الموالاة الإيمانية، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾ الحجرات:٩/١٠. فجعلهم إخوة مع وجود القتال والبغي

---

(١) صحيح الأدب المفرد (١٦٧).

والأمر بالإصلاح بينهم، فليتدبر المؤمن الفرق بين هذين النوعين فما أكثر ما يلتبس أحدهما بالآخر، وليعلم أن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك؛ فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله، فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه، والإكرام لأوليائه والإهانة لأعدائه، والثواب لأوليائه والعقاب لأعدائه.

وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر وفجور وطاعة ومعصية وسنة وبدعة، استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعادات والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا كاللص الفقير تقطع يده لسرقته، ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته. هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة وخالفهم الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم عليه فلم يجعلوا الناس إلا مستحقا للثواب فقط، وإلا مستحقا للعقاب فقط، وأهل السنة يقولون إن الله يعذب بالنار من أهل الكبائر من يعذبه، ثم يخرجهم منها بشفاعة من يأذن له في الشفاعة بفضل رحمته، كما استفاضت بذلك السنة عن النبي ﷺ [1].

- **عقيدة الولاء والبراء وتأثيرها في أركان الإيمان قوة وضعفا.**

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/٢١٠ بتصرف.

رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ الأنفال:٢/٤.

ذكر ابن تيمية أن من أحوال القلب وأعماله ما يكون من لوازم الإيمان الثابتة فيه بحيث إذا كان الإنسان مؤمنا؛ لزم ذلك بغير قصد منه ولا تعمد له وإذا لم يوجد؛ دل على أن الإيمان الواجب لم يحصل في القلب، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ المجادلة:٢٢. فأخبر أنك لا تجد مؤمنا يواد المحادين لله ورسوله، فإن نفس الإيمان ينافي موادته كما ينفي أحد الضدين الآخر، فإذا وجد الإيمان انتفى ضده، وهو موالاة أعداء الله فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه؛ كان ذلك دليلا على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب.

ومثله قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ المائدة:٨٠/٨١.

فذكر جملة شرطية تقتضي أنه إذا وجد الشرط وجد المشروط بحرف لو التي تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط فقال: ﴿وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ

﴿٨١﴾ ﴾ المائدة: ٨١. فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب، ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء؛ ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه [(١)].

ومثله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ المائدة: ٥١. فإنه أخبر في تلك الآيات أن متوليهم لا يكون مؤمنا، وأخبر هنا أن متوليهم هو منهم؛ فالقرآن يصدق بعضه بعضا. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ الزمر: ٢٣. وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ﴾ النور: ٦٢. دليل على أن الذهاب المذكور بدون استئذانه لا يجوز، وأنه يجب أن لا يذهب حتى يستأذن، فمن ذهب ولم يستأذن كان قد ترك بعض ما يجب عليه من الإيمان؛ فلهذا نفى عنه الإيمان، فإن حرف إنما تدل على إثبات المذكور ونفي غيره[(٢)].

إن المحبة مستلزمة للجهاد، لأن المحب يحب ما يحب محبوبه ويبغض ما يبغض محبوبه ويوالي من يواليه ويعادي من يعاديه؛ ويرضى لرضاه، ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به، وينهى عما ينهى عنه، فهو موافق له

(١) مجموع الفتاوى ١٦/٧ بتصرف.
(٢) السابق ٥٨/١٠ بتصرف.

في ذلك. وهؤلاء هم الذين يرضى الرب لرضاهم، ويغضب لغضبهم، إذ هم إنما يرضون لرضاه ويغضبون لما يغضب له كما قال النبي ﷺ لأبي بكر في طائفة فيهم صهيب وبلال: لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك. فقال لهم: يا إخوتي هل أغضبتكم؟ قالوا: لا؛ يغفر الله لك يا أبا بكر. وكان قد مر بهم أبو سفيان بن حرب فقالوا: ما أخذت السيوف من عدو الله مأخذها، فقال لهم أبو بكر: أتقولون هذا لسيد قريش؟ وذكر أبو بكر ذلك للنبي ﷺ فقال له ما تقدم؛ لأن أولئك إنما قالوا ذلك غضبا لله لكمال ما عندهم من الموالاة لله ورسوله، والمعاداة لأعداء الله ورسوله[1].

ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح فيما يروي عن ربه: لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به؛ ويده التي يبطش بها؛ ورجله التي يمشي بها؛ فبي يسمع وبي يبصر: وبي يبطش وبي يمشي ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن. يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه[2]. فبين سبحانه أنه يتردد لأن التردد تعارض إرادتين وهو سبحانه يحب ما يحب عبده ويكره ما يكرهه وهو يكره الموت فهو يكرهه كما قال وأنا أكره مساءته؛ وهو سبحانه قد قضى بالموت فهو يريد أن

(١) صحيح، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٣١٩٤).
(٢) البخاري في الرقاق، باب التواضع ٥/٢٣٨٤ (٦١٣٧).

يموت فسمى ذلك ترددا، ثم بين أنه لا بد من وقوع ذلك، وهذا اتفاق واتحاد في المحبوب المرضي المأمور به والمبغض المكروه المنهي عنه. وقد يقال له اتحاد نوعي وصفي وليس ذلك اتحاد الذاتين؛ فإن ذلك محال ممتنع والقائل به كافر، وهو قول النصارى والغالية من الرافضة والنساك كالحلاجية ونحوهم وهو الاتحاد المقيد في شيء بعينه[1].

ومن المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة فلا بد أن يبغض أعداءه، ولا بد أن يحب ما يحبه من جهادهم. والمحب التام لا يؤثر فيه لوم اللائم وعذل العاذل، بل ذلك يغريه بملازمة المحبة. وهؤلاء هم أهل الملام المحمود، وهم الذين لا يخافون من يلومهم على ما يحب الله ويرضاه من جهاد أعدائه. فإن الملام على ذلك كثير. وأما الملام على فعل ما يكرهه الله أو ترك ما أحبه فهو لوم بحق، وليس من المحمود الصبر على هذا الملام بل الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل. وبهذا يحصل الفرق بين الملامية الذين يفعلون ما يحبه الله ورسوله ولا يخافون لومة لائم في ذلك، وبين الملامية الذين يفعلون ما يبغضه الله ورسوله ويصبرون على الملام في ذلك [2].

- عقيدة الولاء والبراء تحتم التعامل مع غير المسلمين بآداب الإسلام.

إذا كانت عقيدة الولاء والبراء تمثل محورا أساسيا في قوة الإيمان أو ضعفه، وتوجب البراءة من المشرك وكفره، إلا أن الله ﷻ أمر المسلمين بمنهج الوسطية والاعتدال في الأقوال والأفعال عند التعامل مع غير

---

(١) مجموع الفتاوى ٥٩/١٠ بتصرف.

(٢) السابق ٦٢/١٠ بتصرف.

المسلمين فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾المائدة: ٨.

ومن ثم فإن منطلق الولاء والبراء وسطيته السمحة ورحمة العامة التي بنيت على الأخذ بأيد الآخرين إلى الجنة وإطفاء النار التي تشتعل فيهم بإعراضهم عن التوحيد والإيمان، فعقيد الولاء والبراء لا تعارض حرص الإسلام على الأخذ بأيدي الآخرين إلى الجنان والبعد عن النيران، ومن مظاهر سماحة الإسلام وسلامة منهجه في دعوة الإنسان:

١- لا يجبر الإسلام أحدا من الكفار على الدخول فيه طالما وفّى بشروط المعاهدة مع المسلمين، قال الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ البقرة:٢٥٦. وكم من معاهدين عاشوا بين المسلمين آمنين مئات السنين منذ الفتوحات الإسلامية، وكان الفقير من أهل الكتاب يرزق من بيت مال المسلمين، ولا تؤخذ جزية أصلا من صبي ولا امرأة ولا مجنون ولا من شيخ فان ولا زمن ولا أعمى ولا مريض لا يرجى برؤه وإن كانوا جميعا أغنياء، ولا تؤخذ الجزية من الرهبان المنقطعين للعبادة، ولا تؤخذ من الفلاحين الذين لا يقاتلون.

٢- عند غلبة المسلمين وقوتهم جعل الإسلام لأهل الذمة حرية التنقل في أي البلاد شاءوا بلا استثناء إلا الحرم، ولهم سكنى أي بلد شاءوا من بلاد الإسلام أو غيرها ما عدا جزيرة العرب.

٣- أمر الله المسلمين بحفظ العهد الذي بينهم وبين الكفار إذا وفوا

هم بعهدهم وذمتهم كما قال تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ التوبة: ٤.

وروى أبو داود وصححه الشيخ الألباني من حديث أبي رافع ﷺ وكان قبطيا أنه قال: (بعثَتْنِي قريْشٌ إِلى رسول اللهِ ﷺ فلما رأيْت رسول اللهِ ﷺ ألقِي فِي قلبِي الإِسْلام فقلت: يا رسول اللهِ إِني واللهِ لا أرْجع إِليْهِمْ أبدا، فقال رسول اللهِ ﷺ: إِني لا أخِيس بالعهْدِ ولا أحْبِس البرد ولكِنِ ارْجعْ فإِنْ كان فِي نفْسِك الذي فِي نفْسِك الآن فارْجِعْ، قال فذهبْت ثم أتيْت النبي ﷺ فأسْلمْت) [١]. وهذا كان فِي ذلك الزمانِ فأما اليوْم فلا يصلْح.

قال ابن حزم: (واتفقوا أن الوفاء بالعهود التي نص القرآن على جوازها ووجوبها وذكرت بصفاتها وأسمائها وذكرت في السنة كذلك وأجمعت الأمة على وجوبها أو جوازها، فإن الوفاء بها فرض وإعطاؤها جائز) [٢].

٤- حرم الإسلام دماء أهل الذمة والمعاهدين إذا وفوا بذمتهم وعهدهم فقد ورد عند البخاري من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبي ﷺ قال: (من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاما)[٣]. وقال ابن حزم في مراتب الإجماع: (واتفقوا

(١) أخرجه أحمد ٨/٦ (٢٣٩٠٨) وانظر صحيح الجامع (٢٥١٠).
(٢) مراتب الإجماع لابن حزم ص١٢٣.
(٣) البخاري في أبواب الجزية، باب إثم من قتل معاهدا ١١٥٥/٣ (٢٩٩٥).

أن دم الذمي الذي لم ينقض شيئا من ذمته حرام) [1].

٥- الوصية بأهل الذمة وصيانة أعراضهم وأموالهم وحفظ كرامتهم، روى مسلم من حديث أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أَرْضًا يُذْكَرُ فِيهَا القِيرَاطُ. وفي رواية: سَتَفْتَحونَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا القِيراطُ، فَاسْتَوْصُوا بأَهْلِهَا خَيْرا؛ فَإِنَّ لَهُمْ ذمَّة وَرَحِما. وفي رواية: فإذا افتتحتموها، فأحسنوا إلى أهلها؛ فإن لهم ذمة ورحما، أَوْ قَال: ذمَّة وصِهْرا) [2].

ويقول القرافي: (إن عقد الذمة يوجب حقوقا علينا لهم؛ لأنهم في جوارنا وفي خفارتنا وذمة الله تعالى وذمة رسوله ودين الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء، أو غيبة في عرض أحدهم، أو نوع من أنواع الأذية، أو أعان على ذلك فقد ضيع ذمة الله تعالى وذمة رسوله وذمة دين الإسلام) [3].

٦- أن اختلاف الدين لا يلغي حق ذوي القربى قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ لقمان:١٥.

وروى البخاري من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنها قالت: (قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدهم، فاستفتيت رسول الله فقلت: يا رسول الله، قدمت علي أمي وهي

(١) مراتب الإجماع لابن حزم (١٣٨).
(٢) مسلم في فضائل الصحابة، باب الوصية بأهل مصر ١٩٠/٧ (٦٦٥٨).
(٣) الفروق للقرافي ١٤/٣.

راغبة، أفأصل أمي؟ قال: صلي أمك) [(١)].

٧- أمر الإسلام بالعدل وجعله فرضا واجبا على كل مسلم ولو كان ممن عادانا وقاتلنا من الكفار، لا يجوز لنا أن نخون من خاننا؛ لأن الخيانة ليست من العدل في شيء فالإسلام يؤكد على فرض العدل مع غير المسلمين وعدم التجاوز في العقاب المشروع، وهذا منهج الوسطية الذي لا يتعارض مع عقيدة الولاء والبراء، ومن ظن التعارض بينهما سيميل بلا شك إما إلى الإفراط أو التفريط في الولاء والبراء، فيجب أن نلتزم بمنهج الله في التعامل مع غير المسلمين .

وقد ذكر شهاب الدين القرافي أنه يجب أن نفرق بين الأمر بعدم موالاة الكفار والبراءة منهم، والأمر ببر أهل الذمة منهم والإحسان إليهم، فيتعين علينا إن كانوا غير محاربين لنا أن نبرهم بكل أمر لا يكون ظاهره يدل على مودة القلوب ولا تعظيم الكافر وشعائر الكفر، ولا تعارض بين عقيدة الولاء والبراء مع الرفق بضعيفهم، وسد خلة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وإكساء عاريهم، ولين القول لهم على سبيل اللطف لهم والرحمة، لا على سبيل الخوف والذلة، واحتمال أذيتهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفا منا بهم، لا خوفا وتعظيما، والدعاء لهم بالهداية، وأن يجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمورهم في دينهم ودنياهم، وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يعانوا على دفع الظلم عنهم، وإيصالهم لجميع حقوقهم، فإن ذلك من مكارم الأخلاق.

---

(١) البخاري في الهبة، باب الهدية للمشركين ٢/٩٢٤ (٢٤٧٧).

وجميع ما نفعله معهم من ذلك ينبغي أن يكون من هذا القبيل لا على وجه العزة والجلالة منا، ولا على وجه التعظيم لهم وتحقير أنفسنا بذلك الصنيع لهم، وينبغي لنا أن نستحضر في قلوبنا ما جبلوا عليه من بغضنا، وتكذيب نبينا، وأنهم لو قدروا علينا لاستأصلوا شأفتنا، واستولوا على دمائنا وأموالنا، وأنهم من أشد العصاة لربنا ومالكنا ﷻ، ثم يعاملهم بعد ذلك بما أمر به ربنا ﷻ وأمر به نبينا لا محبة فيهم، ولا تعظيما لهم ولا نظهر آثار تلك الأمور التي نستحضرها في قلوبنا من صفاتهم الذميمة [1].

• الغلو في الولاء والبراء مظاهره وخطورته وبراءة السلف منه.

إن الغلو منهج في الولاء والبراء لا يخص المسلمين وحدهم دون سواهم، بل هو منهج له أسبابه وعوامله التي توجد في المجتمع البشري بأكله؛ فأي مجتمع من المجتمعات أو أتباع مذهب أو دين من الديانات بغض النظر عن كونه حقا أو باطلا لا يخلو من وجود غلاة على أحد طرفي الدين، ولا يمكن أن يقال إن جميع أفراد المجتمع الواحد على درجة واحدة في كمال التصور الصحيح لجميع الأمور حتى يمكن أن ينجو جميع أفراده من الغلو، فمثل هذا المجتمع ليس له وجود في الخارج أو الواقع لأنه ينافي حقيقة الابتلاء التي خلق البشر من أجلها وتنوعت درجاتهم بعضها فوق بعضها، فهذا أكمل مجتمع بشري عرفته البشرية، وهو مجتمع السيادة النبوية في عصر خير القرون، لم يسلم من ظاهرة الغلو، والصحابة ﵃ قد نالهم من ويلات الغلو على يد الخوارج ما قتل

---

(١) الفروق للقرافي ١٦/٣ بتصرف.

فيه كثير منهم، ولم يكن هذا دليلا على خطأ في منهجهم التعليمي، ولا دليلا على خطأ في تعاليم الدين ذاته؛ والقصد بيان أن غلو المغالين لا يدل على غلو دين المسلمين الذي ارتضاه لهم رب العالمين.

أما الغلو في الولاء والبراء فله وجهان، أحدهما غلو إفراط، والثاني غلو تفريط، أما مظاهر غلو الإفراط فترجع إلى مظهرين أساسيين:

المظهر الأول: التكفير بالذنوب والمعاصي وبعض الأعمال الظاهرة التي تخالف موجبات الولاء والبراء، كما تقدم في قصة حاطب بن أبي بلتعة ﷺ عندما كاتب كفار مكة سرا يخبرهم بعزم رسول الله ﷺ أن يغزوهم وعلم النبي ﷺ بذلك، فأرسل من أخذ الكتاب ممن خرج ليصل به إلى كفار مكة ودعا حاطبا فقال له: يا حاطب ما هذا؟ قال: لا تعجل علي يا رسول الله، إني كنت امرأ ملصقا في قريش، وكان حاطب حليفا لهم ليس من أنفسهم، وكان ممن معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتي، ولم أفعله كفرا ولا ارتدادا عن ديني، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال النبي: صدق، فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق؟ فقال: إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. فلاشك أن ما وقع من حاطب ﷺ نصرة للكفار على المسلمين، وهو ما يسمى اليوم في العرف القانوني بالخيانة العظمى، ولكنه كبيرة من الكبائر التي لا تخرج عن الملة لما قام ويقوم به من أركان الإيمان.

قال ابن تيمية: (وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم أو حاجة، فيكون

ذنبا ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافرا كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة ﷺ لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي ﷺ وأنزل الله فيه: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة، وكما حصل لسعد بن عبادة لما انتصر لابن أبي في قصة الإفك، فقال لسعد بن معاذ كذبت والله؛ لا تقتله ولا تقدر على قتله؛ قالت عائشة: وكان قبل ذلك رجلا صالحا، ولكن احتملته الحمية. ولهذه الشبهة سمى عمر ﷺ حاطبا منافقا فقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق؟ فقال: إنه شهد بدرا، فكان عمر ﷺ متأولا في تسميته منافقا للشبهة التي فعلها، وكذلك قول أسيد بن حضير لسعد بن عبادة؛ كذبت لعمر الله لنقتلنه؛ إنما أنت منافقٌ تجادل عن المنافقين؛ هو من هذا الباب) (١).

المظهر الثاني: التطبيق الخاطئ للبراء من الكفار، وذلك كاستباحة دماء أو أموال أهل الكتاب بغير ما شرعه الله، أو معاملتهم بغلظة وعنف من دون سبب يسوغ ذلك؛ إلا ادعاء أن هذا هو مقتضى الولاء والبراء مع أن الرفق بهم والحكمة والموعظة الحسنة في دعوتهم هي المأمور بها طالما أنها لا تدل على علو الكافر على المسلم، ولاشك أن تلك الأعمال من استباحة الدماء والغلظة والعنف ليست من الولاء والبراء في شيء، بل تعارض ما أمرنا به الشارع من البر والإحسان بالكفار غير المحاربين ومن العدل مع المحاربين، فينبغي النظر إلى أدلة الكتاب والسنة بنظرة شمولية تجمع بين الولاء والبراء وحسن المعاملة لغير المسلمين بآداب

---

(١) مجموع الفتاوى ٧ /٥٢٣.

الإسلام وأخلاقه، كما ينبغي مراعاة أن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، وأن الواجب دفع أشد المفسدتين بأخفهما، لاسيما أن المسلمين اليوم يعيشون حالة استضعاف، وهم مستهدفون من غيرهم طمعا في ثرواتهم وخوفا من يقظتهم وعودتهم إلى سابق مجدهم، فحالهم يختلف عن حالة عزة الإسلام وأهله، فلا يصح أن نطالب المستضعف بما نطالب به العزيز القاهر لعدوه، فالغفلة عن هذا الواقع المؤلم أدت إلى ظاهرة الغلو في البراء وخروجها عن الحد الشرعي.

هذا ما يتعلق بغلو الإفراط، في الولاء والبراء، وأما غلو ما يتعلق بغلو التفريط فله مظهران:

المظهر الأول: مهاجمة عقيدة الولاء والبراء والمطالبة بإلغائها بحجة أنها تؤصل ثقافة الكراهية للغير، وتؤجج نار التطرف والغلو، وهؤلاء إن قصدوا أن الولاء والبراء الذي جاء به الإسلام وورد في الآيات الأحاديث النبوية وأجمعت عليه الأمة هو الذي يؤدي إلى التطرف فهذا طعن في الدين وكفر ظاهر مبين، وإن قصدوا الولاء والبراء المغلوط الذي هو مظهر من مظاهر غلو الإفراط فيه، فليس من الإنصاف أن يحمل خطأ المخطئين على المعتقد الصحيح الذي كان عليه الصحابة والتابعون والسلف الصالح، ولا أن نقابل غلوهم بغلو في الطرف الآخر، فالعلاقة بين الولاء والبراء والنفوس البشرية علاقة فطرية في نواز الإنسان النفسية حتى لو اختلفت الأديان والمذاهب، وعليه فإن ما يطمع فيه الطامعون من زوال هذا المعتقد بالكلية إنما هو طمع لفرض مستحيل لا يتحقق إلا بزوال البشرية، فلن يزول الولاء والبراء أبدا بلا استثناء أو قيد

في هذا الإطلاق.

المظهر الثاني: مهاجمة مظاهر الولاء والبراء الشرعية الصحيحة ومحاولة تذويبها بنشر سنن الغرب والشرق في الحياة وتقليدهم في سلوكياتهم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب أراد الناس أن يدخلوا خلفهم.

لقد كان لعقيدة الولاء والبراء في نصوص الكتاب والسنة موجبات النهي عن التشبه بالكفار، والأمر بمخالفتهم، ليبقى المجتمع المسلم متميزا في كيانه سليما معافا في بدنه، بعيد الشبه عن اليهود الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، فكيف يرضى مسلم لمجتمعه أن يذوب في المجتمعات الأخرى وأن ينخلع من أصول دينه وحضارته وتاريخه.

وهذا الصنف من غلاة التفريط قد وقعوا في أسر الهزيمة النفسية أمام الحضارة الغربية ودهستهم ضغوط واقعهم الذي وضعوا أنفسهم فيه والذي أصبحوا معه لا يرون ولا يسمعون ولا يأكلون ولا يشربون ولا يتنفسون إلا الحياة الغربية وحدها، اللهم إلا إن كانوا أو بعضهم قد فهموا الولاء والبراء خطأ من خطأ غلاة الإفراط، وهم بذلك كما سبق قد قابلوا الغلو بالغلو[١].

قال تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾المؤمنون: ٧١.

---

(١) مختصر من كتاب الولاء والبراء بين السماحة والغلو، للدكتور حاتم بن عارف بن ناصر الشريف ص ٤٦.

- حب الصحابة رضي الله عنهم إيمان وبغضهم نفاق وكفران .

الصحابي هو من لقي النبي ﷺ مسلما ومات على ذلك، والصحابة هم خير القرون، وصفوة هذه الأمة، وأفضلها نبيها ﷺ، ويجب علينا أن نتولاهم ونحبهم ونترضى عنهم، وننزلهم منازلهم، فإن محبتهم واجبة على كل مسلم، وحبهم دين وإيمان وقربى إلى الرحمن، وبغضهم كفر وطغيان، فهم حملة هذا الدين، فالطعن فيهم طعن في الدين كله؛ لأنه وصلنا عن طريقهم بعد أن تلقوه غضا طريا عن رسول الله ﷺ مشافهة، ونقلوه لنا بكل معاني الأمانة والإخلاص، ونشروا الدين في كافة ربوع الأرض في أقل من ربع قرن، وفتح الله على أيديهم بلاد الدنيا، فدخل الناس في دين الله أفواجا.

وقد دل الكتاب والسنة على وجوب موالاة الصحابة ومحبتهم، وأنها دليل صدق إيمان الرجل، فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢ ﴾ التوبة: ٧١/٧٢ .

وإذا كان أصحاب النبي ﷺ مقطوعا بإيمانهم، بل هم أفضل المؤمنين لتزكية الله ورسوله لهم، فإن موالاتهم ومحبتهم دليل إيمان من قامت به هذه الصفة.

روى البخاري من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (آية الإيمان

حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار) [(١)].

قال ابن تيمية: (إن من علم ما قامت به الأنصار من نصر الله ورسوله من أول الأمر، وكان محبا لله ولرسوله؛ أحبهم قطعا فيكون حبه لهم علامة الإيمان الذي في قلبه، ومن أبغضهم لم يكن في قلبه الإيمان الذي أوجبه الله عليه، وكذلك من لم يكن في قلبه بغض ما يبغضه الله ورسوله من المنكر الذي حرمه الله ورسوله من الكفر والفسوق والعصيان؛ لم يكن في قلبه الإيمان الذي أوجبه الله عليه، فإن لم يكن مبغضا لشيء من المحرمات أصلا؛ لم يكن معه إيمان أصلا.. وكذلك من لا يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه؛ لم يكن معه ما أوجبه الله عليه من الإيمان فحيث نفى الله الإيمان عن شخص؛ فلا يكون إلا لنقص ما يجب عليه من الإيمان، ويكون من المعرضين للوعيد ليس من المستحقين للوعد المطلق) [(٢)].

وروى البخاري من حديث أبي سعيد ﵁ أن النبي ﷺ قال: (لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالذي نَفْسِي بِيَدِهِ، لوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثل أُحُدٍ ذهَبا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نصِيفَهُ) [(٣)].

وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يتقربون إلى الله بمحبة أبي بكر وعمر، ويعدون ذلك من أفضل أعمالهم وأرجاها عند الله، كما روى البخاري من حديث أنس بن مالك ﵁ أن رجلا سأل النبي ﷺ عن

(١) البخاري في الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار ١/١٤ (١٧).

(٢) مجموع الفتاوى ٧/٤١.

(٣) البخاري في فضائل الصحابة، باب لو كنت متخذا خليلا ٣/ ١٣٤٣(٣٤٧٠).

الساعة فقال: متى الساعة؟ فقال النبي ﷺ: وماذا أعددت لها؟ قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله، فقال النبي ﷺ: أنت مع من أحببت، فقال أنس ﷺ: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ أنت مع من أحببت، قال أنس ﷺ: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم(١).

وكل مؤمن صادق وجب عليه اعتقاد فضل الصحابة وعدالتهم والكف عما شجر بينهم فقد أثنى الله تعالى عليهم ورضي عنهم ووعدهم الحسنى كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ التوبة: ١٠٠.

وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ الفتح: ١٨.

لقد دلت النصوص القرآنية على فضل الصحابة من المهاجرين والأنصار، والثناء عليهم وعلى أهل بدر، والثناء على أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا تحت الشجرة، والثناء على كل من حصل على شرف الصحبة، وقد وصف الله ﷻ الذين جاؤوا من بعدهم بأنهم يستغفرون لمن سبقهم من الصحابة، ويدعون الله تعالى ألا يجعل في قلوبهم غلا للذين آمنوا، كما تضمنت الآيات وغيرها الترضي عنهم، وبشارتهم بالجنة، وحصولهم على الفوز العظيم، ومدحهم وذكر بعض صفاتهم

---

(١) الموضع السابق، باب فضائل عمر ٣/ ١٣٤٩(٣٤٨٥).

من الحب والإيثار والكرم والجود وحب إخوانهم المسلمين، ونصرهم لدين الله، ونحو ذلك من الأوصاف العظيمة والذكر الحميد الجميل ما هم أهل له.

ولما كان أصحاب رسول الله ﷺ هم الصفوة المختارة من هذه الأمة بعد نبينا ﷺ فهم السابقون إلى الإسلام، وهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى، وهم الذين جاهدوا في الله حق جهاده وأبلوا بلاء حسنا في الذود عن حياض الإسلام حتى مكن الله لهذا الدين في الأرض على أيديهم، لما كان فضل الصحابة ﷺ كذلك؛ فإن من تنقصهم، أو سبهم، أو نال من أحد منهم، كما يفعل الشيعة علنا في فضائياتهم، وكما يطعن فيهم بعض كتاب الصحافة في صحفهم فهو مكذب لكلام الله ورسوله، وهو من شر الخليقة؛ لأن عمله هذا اعتداء على الدين كله، ومن كفرهم أو اعتقد ردتهم فهو أولى بالكفر والردة، وإنه مهما عمل أحد بعدهم من عمل فإنه لن يبلغ شيئا من فضلهم.

والواجب على المسلمين اعتقاد عدالتهم والترضي عنهم والكف عما شجر بينهم وعدم الخوض فيما جرى بينهم من خلاف وترك سرائرهم إلى الله تعالى، وخلاصة القول أن أهل السنة يوالون الصحابة كلهم وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها بالعدل والإنصاف، لا بالهوى والتعصب، فإن ذلك كله من البغي الذي هو مجاوزة الحد[1].

وما عليه اعتقاد أهل السنة والجماعة أن الصحابة الأربعة أبا بكر وعمر وعثمان وعليا ﷺ هم خير هذه الأمة بعد نبيِّها ﷺ، وهم الخلفاء

(١) ملخص من كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة ص٣٦٥.

الراشدون المهديّون على الترتيب، وهم مبشرون بالجنة، وفيهم كانت خلافة النبوة ثلاثين عاما مع خلافة الحسن بن علي ﷺ لقول النبي ﷺ: (الخلاَفة في أمتِي ثلاثونَ سنة ثمَ مُلك بَعْدَ ذلكَ) [١].

ويفضلون بقية العشرة المبشرين بالجنة الذين سماهم رسول الله ﷺ وهم طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأَبو عبيدة بن الجراح أَمين هذه الأُمَّة رضي الله عنهم أَجمعين، ثم أَهل بدر، ثمَّ أَهل الشجرة أَهل بيعة الرضوان، ثمَّ سائر الصحابة ﷺ، فمن أحبهم ووالاهم ودعا لهم ورعى حقهم وعرف فضلهم كان من المؤمنين الفائزين، ومن تبرأ منهم وأبغضهم وسبهم ولعنهم فهو من المكذبين الهالكين.

- **محبة أهل البيت من أصول الإيمان وعبادتهم شرك وكفر وخسران.**

من أصول الإيمان الولاء لأهل بيت النبي ﷺ ومحبتهم والصلاة والسلام عليهم، والبراء ممن أبغضهم أو ألههم وعبدهم من دون الله كما تفعل الشيعة في العراق وإيران وغيرها من البلدان من دعائهم والاستغاثة بعم والطواف بقبورهم وابتداع مناسك للحج إلى أضرحتهم وادعاء عصمتهم، فالمحبة الواجبة لهم هي المحبة الشرعية التي تعني عدم الغلو فيهم أو رفعهم إلى درجة العبودية وإخراجهم من وصف البشرية.

وآل البيت هم آل النبي ﷺ الذين حرمت عليهم الصدقة، وهم آل علي بن أبي طالب، وآل جعفر وآل العباس، وبنو الحارث بن عبد

---

(١) السلسلة الصحيحة (٤٥٩).

المطلب، وأزواج النبي ﷺ.

ومحبة أهل البيت من الإيمان استجابة لأمر النبي ﷺ بحبتهم والولاء لهم والحرص على ذكرهم بما يرضي الله ورسوله، فقد روى مسلم من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه أنه قال: (قام رَسُول الله ﷺ يَوما فينا خَطِيبا بمَاء يُدْعَى خُمًّا بَيْنَ مَكَّةَ وَالَمدِينَةِ، فَحَمِدَ الله، وَأثنَى عَليهِ، وَوعظَ وَذكَّرَ، ثمَّ قَال: أمَّا بَعدُ، ألاَ أيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّمَا أنَا بَشَرٌ يُوشِكَ أنْ يَأتِي رسول ربِّي فَأُجِيبَ، وَأنَا تارك فيكم ثقَلَيْنِ: أوَّلُهمَا كِتَابُ اللهِ، فِيهِ الهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذوا بِكتابِ الله، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ، فَحَث عَلَى كِتَابِ اللهِ، وَرَغَّبَ فِيهِ، ثمَّ قَال: وَأهْل بَيْتِي أُذكِّرُكُمُ الله في أهل بَيْتِي، أذكرُكُمُ الله في أهل بيتي، فَقَال لهُ حُصَيْنٌ: وَمَنْ أهْل بَيتهِ يَا زَيْدُ، أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أهْل بَيْتِهِ؟ قَال: نِسَاؤُهُ مِنْ أهْل بَيتهِ، وَلَكِنْ أهْل بيتِهِ مَنْ حُرِمَ الصَّدَقَةَ بَعدَهُ، قَال: وَمَنْ هُمْ ؟ قَال: هُمْ آل عَليّ وَآل عقيل وَآل جَعفَرَ وَآل عَبَّاسٍ. قَال: كُل هؤلاء حُرِمَ الصَّدَقَةَ ؟ قَال: نَعَمْ) (١).

ومن أهل بيت النبي ﷺ أزواجه رضي الله عنهن، وهن أمهات المؤمنين بنص القرآن، فمنهن خديجة بنت خويلد، وعائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وأم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، وسودة بنت زمعة بن قيس، وزينب بنت جحش، وميمونة بنت الحارث، وجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، وصفية بنت حيي بن أخطب، رضي الله عنهن جميعهن.

ويعتقد أهل السنة أنهن مطهرات مبرآت من كل سوء، وهن

---

(١) مسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل على ٧/ ١٢٢(٦٣٧٨).

زوجاته في الدنيا والآخرة ؛ ويرون أن أفضلهن خديجة بنت خويلد، وعائشة الصديقة بنت الصديق التي برأها الله في كتابه العزيز؛ فمن قذفها بما برأها الله منه فقد كفر بكلام الله وكذب به.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ۝١٢ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝١٣ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٤ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ۝١٥ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ۝١٦ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٧﴾ النور: ١١/١٧.

وروى البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (كَمَل مِنَ الرِّجَال كَثِيرٌ، ولَمْ يَكْمُل مِنَ النِّسَاءِ غَيْرُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ وَآسِيَةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَإِنَّ فَضْل عَائِشَةَ عَلى النِّسَاءِ كَفَضْل الثرِيدِ عَلى سَائِرِ الطَّعَامِ) (١).

وقال تعالى في بيان أن زوجات النبي ﷺ أمهاتنا: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٦﴾ الأحزاب:٦.

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء ١٢٥٢/٣ (٣٢٣٠).

وينبغي التنبة إلى أن الولاء لأهل البيت هو ولاء الإيمان والاستقامة قبل ولاء النسب، لأن كثيرا من الصوفية المبتدعة ومشركي الشيعة يبررون ابتداعهم وشركهم ومطالبة الناس بمحبتهم والولاء لهم بحجة انتسابهم إلى نسل علي بن أبي طالب ﷺ وأهل البيت، ومعلوم أن موقف أهل السنة والجماعة من أهل البيت موقف الاعتدال والإنصاف يتولون أهل الدين والاستقامة منهم، ويتبرؤون ممن خالف السنة، وانحرف عن الدين، ولو كان من أهل البيت، فإن كونه من أهل البيت ومن قرابة الرسول ﷺ لا ينفعه شيئا حتى يستقيم على دين الله .

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: (قَال رَسول اللهِ ﷺ حِينَ أنْزِل عَليْهِ: وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرِبِينَ، يَا مَعْشَرَ قرَيْشٍ اشْتَروا أَنْفسَكمْ مِنَ اللهِ لاَ أغْنِى عَنْكمْ مِنَ اللهِ شَيْئا، يَا بَنِي عَبْدِ المطلبِ لاَ أغْنِى عَنْكمْ مِنَ اللهِ شَيْئا، يَا عَباسَ بْنَ عَبْدِ المطلبِ لاَ أغْنِى عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئا، يَا صَفِية عَمةَ رَسول اللهِ لاَ أغْنِى عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئا، يَا فَاطِمَة بِنْتَ رَسول اللهِ سَلِينِي بِمَا شِئْتِ، لاَ أغْنِى عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئا) (١).

- **ما يجب لولاة الأمر من الطاعة في غير معصية وعدم الخروج عليهم.**

عقيدة أهل السنة والجماعة السمع والطاعة في غير معصية وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، قال الإمام الطحاوي: (ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يدا من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله ﷻ فريضة، ما لم

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب ٣/١٠١٢ (٢٦٠٢).

يأمروا بمعصية، وندعوا لهم بالصلاح والمعافاة)[١].

وذلك لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ النساء:٥٩.

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني)[٢].

روى مسلم من حديث أبي ذر ﷺ أنه قال: (إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن كان عبدا حبشيا مجدع الأطراف)[٣]. وعند البخاري: (ولو لحبشي كأن رأسه زبيبة)[٤].

وفي الصحيحين أيضا: (على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)[٥].

وفي الصحيح من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ أنه قال: (كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٢٥١.
(٢) البخاري في كتاب الأحكام ١٠٤/٨، ومسلم في كتاب الإمارة ١٤٦٥/٣.
(٣) رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ٤٤٨/١.
(٤) رواه البخاري في كتاب الأذان، باب إمامة المفتون والمبتدع /١٨٨ (٦٩٦).
(٥) البخاري في الجهاد ١١٥/٦ (٢٩٥٥) ومسلم في الإمارة ١٤٦٩/٣ (١٨٣٩).

الخير، فهل بعد هذا الخير شر؟ قال: نعم، فقلت: هل بعد ذلك الشر من خيرٍ؟ قال: نعم، وفيه دخن، قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يستنون بغير سنتي، ويهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر، فقلت: هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، فقلت: يا رسول الله، صفهم لنا؟ قال: نعم، قوم من جلدتنا، يتكلمون بألسنتنا، قلت: يا رسول الله، فما ترى إذا أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، فقلت: فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض على أصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك) [(١)].

وروى البخاري من حديث عبد الله بن عباس ﵄ أن رسول الله ﷺ قال: (من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبرا فمات، فميتته جاهلية)[(٢)].

وروى مسلم من حديث عوف بن مالك ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: (خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم، فقلنا: يا رسول الله، أفلا ننابذهم بالسيف عند ذلك؟ قال: لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من ولي عليه وال، فرآه

---

(١) البخاري في كتاب الفتن ٩٣/٨ (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

(٢) البخاري في كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ سترون بعدي أمورا تنكرونها ٥/١٣ (٧٠٥٤)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين ١٤٧٧/٣ (١٨٤٩).

يأتي شيئا من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعن يدا من طاعة) [(١)].

لقد دل الكتاب والسنة على وجوب طاعة أولي الأمر، ما لم يأمروا بمعصية، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾ النساء: ٥٩ . فتأمل كيف قال: وأطيعوا الرسول، ولم يقل: وأطيعوا أولي الأمر منكم؟ لأن أولي الأمر لا يفردون بالطاعة، بل يطاعون فيما هو طاعة لله ورسوله ﷺ. وأعاد الفعل مع الرسول للدلالة على أن من أطاع الرسول فقد أطاع الله، فإن الرسول ﷺ لا يأمر بغير طاعة الله، بل هو معصوم في ذلك، وأما ولي الأمر فقد يأمر بغير طاعة الله، فلا يطاع إلا فيما هو طاعة لله ورسوله.

وأما لزوم طاعتهم وإن جاروا فلأنه يترتب على الخروج من طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم، بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الأجور، فإن الله تعالى ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا، والجزاء من جنس العمل، فعلينا الاجتهاد بالاستغفار والتوبة وإصلاح العمل.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠ ﴾الشورى:٣٠. وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩ ﴾الأنعام:١٢٩. فإذا أراد الرعية أن يتخلصوا من ظلم

(١) مسلم في الإمارة، باب خيار الأئمة وشرارهم ٦/٢٤ (٤٩١١) .

الأمير الظالم فليتخلصوا هم أولا من الظلم[1].

- لزوم اتباع منهج أهل السنة والجماعة وتجنب الخلاف والفرقة.

قال الإمام الطحاوي: (ونتبع السنة والجماعة، ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة)[2].

والمقصود بالسنة سنة الدلالة وهي طريقة الرسول ﷺ في توحيد العبادة لله، والمقصود بالجماعة من كان على منهج الكتاب والسنة ولو كان وحده، فتلك جماعة المسلمين، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، فاتباعهم هدى، وخلافهم ضلال.

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ آل عمران: ٣١.

وقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ النساء: ١١٥.
والآيات في ذلك كثيرة.

وروى أبو داود وصححه الألباني من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه أنه قال: (وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودعٍ؟ فماذا تعهد إلينا؟ فقال: أوصيكم بالسمع والطاعة، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء

(١) مختصر من شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٢٥١ بتصرف.
(١) شرح الطحاوية لابن أبي العز ص ٣٥٥ .

الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة) [١].

وروى الترمذي وحسنه الألباني من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبي ﷺ قال: (إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة، يعني الأهواء، كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة). وفي رواية: (قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي) [٢]. فبين ﷺ أن عامة المختلفين هالكون من الجانبين إلا أهل السنة والجماعة[٣].

- القول في المهدي المنتظر وبطلان اعتقاد الرافضة وضلالهم فيه.

روى أبو داود وصححه الألباني من حديث ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: (لو لم يبق مِن الدُّنيا إِلاّ يومٌ لطوّل اللهُ ذلك اليوم حتّى يبعث فِيهِ رجُلا مِنِّى، أو مِن أهل بيتِي، يُواطِئُ اسمُهُ اسمِي، واسمُ أبِيهِ اسم أبِي، يملأُ الأرض قِسطا وعدلا، كما مُلئت ظُلما وجورا) [٤].

وروى أبو داود وصححه الألباني من حديث ﷺ أن النبي ﷺ قال: (لو لم يبق مِن الدّهرِ إِلاّ يومٌ، لبعث اللهُ رجُلا مِن أهل بيتِي يملأُها عدلا

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الإيمان ٥/٢٦ (٢٦٤١)، رواه أبو داود في السنة ٤/٢٠٠ (٤٦٠٧) وانظر صحيح ابن ماجة (٤٢) .

(٢) السلسلة الصحيحة (٢٠٤)، وصحيح الجامع الصغير (٢٦٤١) .

(٣) مختصر من شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٣٥٥ بتصرف.

(٤) أبو داود ٤/١٧٣ (٤٢٨٤)، وانظر السلسلة الصحيحة (١٥٢٩) .

كما مُلئت جورا)[1].

وروى ابن ماجة وصححه الألباني من حديث أم سلمة أن النبي قال: (المهدِيُ مِن عِترتِي مِن ولدِ فاطِمة)[2].

وروى أبو داود وحسنه الألباني من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: (المهدِيُ مِنِّى، أجلى الجبهةِ، أقنى الأنفِ، يملأُ الأرض قِسطا وعدلا، كما مُلئت جورا وظُلما، يملكُ سبع سِنِين)[3].

وروى الحاكم وصححه الألباني من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: (يخرج في آخر أمتي المهدي؛ يسقيه الله الغيث، وتخرج الأرض نباتها، ويعطي المال صحاحا، وتكثر الماشية، وتعظم الأمة، يعيش سبعا أو ثمانيا)[4].

لقد تواترت الأخبار واستفاضت وكثرت بكثرة رواتها عن المصطفى ﷺ بخروج المهدي، وأنه من أهل بيته، وأنه يملك سبع سنين، وأنه يملأ الأرض عدلا، وأنه يخرج مع عيسى عليه السلام فيساعده على قتل الدجال بباب لد وهي بلدة معروفة في فلسطين قريبة من بيت المقدس، وهي التي ببابها يدرك عيسى عليه السلام الدجال فيقتله، وأن المهدي يؤم هذه

---

(١) أبو داود ٤/١٧٤ (٤٢٨٥) وانظر صحيح الجامع (٥٣٠٥).

(٢) صحيح ابن ماجة (٤٠٨٦) وأبو داود ٤/١٧٤(٤٢٨٦) .

(٣) رواه أبو داود ٤/١٧٤، وانظر صحيح الجامع (٦٧٣٦)، ومعنى أجلى أي أصلع مقدمة الرأس، والأقنى الدقيق.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/٦٠١ (٨٦٧٣) وقال صحيح الإسناد، وانظر السلسلة الصحيحة ٢/٣٢٨ (٧١١) .

الأمة ويصلي عيسى خلفه[1].

قال ابن تيمية: (الأحاديث التي يحتج بها على خروج المهدي أحاديث صحيحة رواها أبو داود والترمذي وأحمد وغيرهم) [2].

ويقول الحافظ ابن كثير: (فصل في ذكر المهدي الذي يكون في آخر الزمان، وهو أحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين، وليس بالمنتظر الذي تزعم الروافض وترتجي ظهوره من سرداب في سامرا، فإن ذاك ما لا حقيقة له ولا عين ولا أثر.. وأما ما سنذكره فقد نطقت به الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ أنه في آخر الدهر، وأظن ظهوره يكون قبل نزول عيسى ابن مريم كما دلت على ذلك الأحاديث) [3].

قال السفاريني في شأن المهدي: (وقد كثرت بخروجه الروايات حتى بلغت حد التواتر المعنوي وشاع ذلك بين علماء السنة، حتى عد من معتقداتهم.. وقد روي عمن ذكر من الصحابة وغير من ذكر منهم ﷺ بروايات متعددة وعن التابعين من بعدهم ما يفيد بمجموعه العلم القطعي، فالإيمان بخروج المهدي واجب، كما هو مقرر عند أهل العلم، ومدون في عقائد أهل السنة والجماعة) [4].

وقد انقسم الناس في أمر المهدي إلى طرفين ووسط:

---

(١) انظر تهذيب التهذيب ٩/١٤٤ بتصرف، وما ذكرناه في هذه المفردة منقول مختصرا بتصرف من كتاب أشراط الساعة للشيخ عبد الله بن سليمان الغفيلي.

(٢) منهاج السنة النبوية ٤/٩٥.

(٣) النهاية في الفتن والملاحم ١/٤٩.

(٤) لوامع الأنوار البهية ٢/٨٤.

١–أما الطرف الأول: فهم الذين ينكرون خروج المهدي قديما وحديثا انطلاقا من اعتقادهم الفاسد في نفي الأمور الغيبية التي لا تدركها عقولهم ولا توافق أهواءهم ويقولون إن المهدي أسطورة وخرافة دخلت على أهل السنة من جهة الشيعة، ويقولون أيضا إن الأحاديث الواردة فيه بعضها باطل والبعض الآخر متناقض، وقد رد العلماء على هؤلاء وبينوا فساد قولهم ومخالفته لما ثبت في النصوص الصحيحة(١).

٢–وأما الطرف الثاني: فهم من يغالي في أمر المهدي من الطوائف الضالة حتى ادعت كل طائفة منهم أن زعيمهم هو المهدي المنتظر، وقد أشار ابن القيم إلى هؤلاء بقوله: (وأما الرافضة الإمامية فلهم قول رابع وهو أن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري المنتظر، من ولد الحسين بن علي لا من ولد الحسن، الحاضر في الأمصار، الغائب عن الأبصار، الذي يورث العصا، ويختم الفضا، دخل سرداب سامراء طفلا صغيرا من أكثر من خمسمائة سنة، فلم تره بعد ذلك عين، ولم يحس فيه بخبر ولا أثر، وهم ينتظرونه كل يوم! يقفون بالخيل على باب السرداب ويصيحون به أن يخرج إليهم: اخرج يا مولانا، اخرج يا مولانا، ثم يرجعون بالخيبة والحرمان، فهذا دأبهم ودأبه.. ولقد أصبح هؤلاء عارا على بني آدم، وضحكة يسخر منهم كل عاقل) (٢).

٣– أما المذهب الوسط: فهو معتقد أهل السنة والجماعة الذين يثبتون خروج المهدي على ما دلت عليه النصوص الثابتة التي ذكر فيها

---

(١) انظر عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر ص ٢١٠.

(٢) المنار المنيف ص١٥٢.

اسمه واسم أبيه ونسبه وصفاته وأنه خليفة راشد ومصلح يظهر في آخر الزمان يؤيده الله ويصلح به العباد والبلاد(١).

قال ابن القيم عند حديثه عن أقسام الناس في المهدي ومعتقد أهل السنة والجماعة: (أنه رجل من أهل بيت النبي ﷺ من ولد الحسن بن علي، يخرج في آخر الزمان، وقد امتلأت الأرض جورا وظلما، فيملؤها قسطا وعدلا، وأكثر الأحاديث على هذا تدل) (٢).

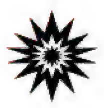


(١) المنار المنيف ص١٥٢.

(٢) السابق ص١٤٨.

المطلب الثامن والعشرون

التوبة إلى الله بداية الإيمان ونهايته وأول المنازل في توحيد العبودية وأوسطها وآخرها



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن حقيقة الولاء والبراء وأحكام الهجر ولزوم الجماعة والطاعة في غير معصية الله، وبينا مفهوم الولاء والبراء في المعاني اللغوية والأصول القرآنية والنبوية، والأدلة النقلية على وجوب الولاء للمؤمنين والبراء من الكافرين، وعلمنا أن الهجر الشرعي يكون لترك المنكرات أو العقوبة عليها، وتحدثنا عن عقيدة الولاء والبراء وتأثيرها في أركان الإيمان قوة وضعفا، وأن هذه العقيدة تحتم التعامل مع غير المسلمين بآداب الإسلام، وبينا مظاهر الغلو في الولاء والبراء وخطورته وبراءة السلف منه.

كما علمنا أن حب الصحابة ﷺ إيمان وبغضهم نفاق وكفران، وأن محبة أهل البيت من أصول الإيمان وعبادتهم شرك وكفر وخسران، وتحدثنا عما يجب لولاة الأمر من السمع والطاعة في غير معصية وعدم الخروج عليهم، كما بينا لزوم اتباع منهج أهل السنة والجماعة وتجنب الخلاف والفرقة، وبينا قول أهل السنة والجماعة في المهدي المنتظر وبطلان اعتقاد الرافضة وضلالهم فيه.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن التوبة إلى الله، وأنها بداية الإيمان ونهايته، وأول المنازل في توحيد العبودية وأوسطها وآخرها.

- **أصناف الناس في القرآن وأنواعهم في توحيد العبادة والإيمان.**

بين الله تعالى أن الإنسان في سباق مستمر لاكتساب أحسن العمل في ابتلاءات الحياة، وأن هذا السياق الذي يسير فيه مبني على حكمة الله في وجود الإنسان بين الحياة والموت، وبين التوحيد والشرك، وبين العبادة والعلو في الأرض وبين الإيمان والكفر.

قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ الملك:١/٢.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ الإنسان:٢/٣.

ولما كانت الحياة وسيلة لطلب الفوز بالحياة الباقية التي لا خسار فيها ولا بوار، كانت دوافع العمل عند أهل اليقين والإيمان التمسك بالحق الذي نزل على سيد الخلق ﷺ، وتعلق القلوب بمالك الملك، والاستعانة به في الثبات على الإيمان وتنفيذ الأمر، والسعي في طلب المزيد من الأجر، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٠﴾ فاطر:٢٩/٣٠.

وصف الذين يرجون تجارة لن تبور بأنهم يتلون كتاب الله ويتبعونه في أوامره فيمتثلونها، وفي نواهيه فيتركونها، وفي أخباره فيصدقونها ويعتقدونها، ولا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال، ويتلون أيضا

ألفاظه بدراسته ومعانيه بتتبعها واستخراجها، ثم خص من أحكام الاستجابة للتلاوة بعد ما عم الصلاة التي هي عماد الدين ونور المسلمين وميزان الإيمان، وعلامة صدق الإسلام ثم النفقة على الأقارب والمساكين واليتامى وغيرهم من الزكاة والكفارات والنذور والصدقات، سرا وعلانية في جميع الأوقات، فهذا وصف الصادقين الراغبين في النجاة الذين يرجون بذلك تجارة لن تبور ولن تكسد ولن تفسد، بل تجارة هي أجل التجارات وأعلاها وأفضلها، ألا وهي رضا ربهم، والفوز بجزيل ثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه، فحصل لهم ما رجوه من ربهم فوفاهم أجورهم وزادهم من فضله زيادة عن أجورهم فغفر لهم وشكر لهم [1].

ثم بين الله تعالى لنبيه أن ما يوحيه إليه للعمل به كمنهج للحياة هو الحق الذي أوحاه إلى سائر رسل الله، غير أن ما أوحاه إلى خاتم الأنبياء هو المهيمن على كل ما نزل من السماء، لأنه منهم معد للبقاء إلى قيام الساعة فكان موضوعا من قبل الخبير البصير.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾﴾ فاطر: ٣١.

وهو خطاب للبشير النذير في حياته، ولذلك ذكر استمرار نزول الوحي عليه بقوله: والذي أوحيا إليك من الكتاب. والآيات بعدها إخبار عما يحدث للناس بعد مماته وبعد اكتمال نزول الكتاب، ولذلك ذكر الكتاب بما يعبر عن اكتمال الوحي وانتهائه فقال: ثم أورثنا

(١) تفسير السعدي ١/٦٨٩ بتصرف.

الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا وهم أصناف الناس من أمته المخلدون في الجنة حسب مواقفهم الإيمانية، فقال تعالى: ﴿ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ فاطر: ٣٨/٢٩.

قسم أتباع محمد ﷺ إلى ثلاثة أصناف، منهم ظالم لنفسه بالمعاصي التي هي دون الكفر، ومنهم مقتصد مقتصر على ما يجب عليه، تارك للمحرم، ومنهم سابق بالخيرات مسارع فيها مجتهد فسبق غيره، وهو المؤدي للفرائض، المكثر من النوافل، التارك للمحرم والمكروه، فكلهم اصطفاه الله تعالى لوراثة هذا الكتاب وإن تفاوتت مراتبهم، وتميزت أحوالهم، فلكل منهم قسط من وراثته حتى الظالم لنفسه، فإن ما معه من أصل الإيمان وعلوم الإيمان وأعمال الإيمان من وراثة الكتاب، لأن المراد بوراثة الكتاب وراثة علمه وعمله، ودراسة ألفاظه واستخراج معانيه، كلهم يدخلون الجنة ابتداء أو انتهاء بمشيئة الله وإذنه وتوفيق الله ومعونته، فذلك هو الفضل الكبير، أي وراثة الكتاب الجليل لمن اصطفى تعالى من عباده، فجميع النعم بالنسبة إليه كالعدم، فأجل النعم على الإطلاق وأكبر الفضل وراثة هذا الكتاب.

ولذلك لما تم نعيمهم وكملت لذتهم قالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، فقد غفر لنا الزلات وشكر فقبل منا الحسنات وضاعفها، وأعطانا من فضله ما لم تبلغه أعمالنا ولا أمانينا، فبمغفرته نجوا من كل

مكروه ومرهوب، وبشكره وفضله حصل لهم كل مرغوب محبوب.

ثم ذكر الله تعالى الصنف الباقي من الناس وهم الذين كفروا بالنبي محمد ﷺ ورسالته، وأصروا على الإعراض ولم يستجيبوا لدعوته بعد أن سمعوا عنها فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ فاطر:٢٩/٣٨.

ورد الله سبحانه الأمر في وقوع ما أخبر عنه إلى علمه الذي سبق وجود العالم بالتقدير لوقوع المقادير، فهو عالم غيب السماوات والأرض علم ما كان وما هو كائن وما سيكون، وما لم يكن ولو كان كيف يكون فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ ﴾ فاطر:٣٨.

- صلاح الإنسانية في توحيد العبادة لله وتحقيق الإيمان والاستقامة.

لقد تناولنا الحديث بمنة الرحمن عن توحيد العبادة وحقيقة الإيمان انطلاقا من التصنيف القرآني السابق لأنواع الناس بعد موت النبي ﷺ وموقفهم من دعوته، وبينا أن أهل الجنة هم المقتصدون الذين يفعلون الواجبات وينتهون عن المحرمات، وكذلك السابقون بالخيرات الذين يزيدون فعل الواجبات والانتهاء عن المحرمات فعل المستحبات المندوبات وينتهون عن المكروهات وما اشتبه من المباحات، فهؤلاء هم أصحاب الدرجات في أعالي الجنات، وهم السائرون إلى الله حقا في منازل إياك نعبد وإياك نستعين.

وهذا هو طريق السالكين في منازل توحيد العبادة ومقامات اليقين، وهو طريق قرآني نبوي خالص في بيان حقيقة الدين كما علمه جبريل عليه السلام لسيد الأنبياء والمرسلين، وهو طريق مغاير للطريق البدعي أو طريق المبتدعين من الصوفية في تصنيفهم لمقامات السالكين إلى طريق للعابدين وآخر للمريدين وثالث للعارفين، لا مستند له غير مواجيد المغالين وأذواق الحلولين وفلسفات الاتحاديين المارقين .

وكذلك تحدثنا عن أصحاب الكبائر التي تقع من الظالمين لأنفسهم ممن أورثوا الكتاب والذين هم تحت المشيئة الإلهية، ففيهم من الإيمان مع بعض النقصان ما يوجب لهم دخول الجنة ابتداء برحمة الله، وإما يعذبون في النار بعدله وحكمته حتى يتطهروا من ذنوبهم وآثامهم، غير أنهم لا يخلدون فيها، بل يدخلون الجنة ولو بعد حين، كما وردت بذلك النصوص النقلية الصحيحة في شفاعة سيد الأنبياء والمرسلين.

أما الصنف الرابع من الناس الذين ذكرهم الله بعد موت النبي ﷺ فهم المشركون الكافرون المخلدون في العذاب ومن ثم تحدثنا عن الشرك وأنواعه وأسبابه وما تعلق منه بالقلب واللسان والجوارح سواء كان شركا أكبر أم شركا أصغر، وبينا أن أصحاب الشرك لا يمكن أن يكونوا أولياء لله أبدا، ولابد من بيان الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وأن هذا الفرقان والميزان هو التزام الصراط المستقيم، وقد تحدثنا عن أنواع الكفر والكافرين، وأنها تقابل أركان الإيمان وأنواع المؤمنين بحسب العمل وقوة الإيمان واليقين.

وهنا لا بد من تناول موضوع أرجئناه إلى هذا الموضع لأنه أساس الصلاح في الإنسانية جمعاء، وهو المرجع عند الخوف والرجاء وشدة

الابتلاء، وهو معين السعداء الأتقياء، ألا وهو التوبة لمن أراد النجاة في هذه الحياة، فمنزلة التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى الممات، وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به، واستصحبه معه ونزل به، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما أن حاجته إليها في البداية كذلك.

ومن ثم فإن باب التوبة هو الملجأ الذي لا مفر منه لمن أراد النجاة من الكافرين والمشركين والمنافقين والمجرمين والظالمين والفاسقين وأصحاب الكبائر المسرفين، وكذلك هو ملجأ المقتصدين والمقربين السابقين، فلا دخول إلى الجنان إلا من هذا الباب ولذلك جعلناه في آخر مطالب الكتاب.

قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ النور:٣١ . وهذه الآية في سورة مدنية خاطب الله ﷻ بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة لعل المشعرة بالترجي إيذانا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون جعلنا الله منهم.

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ الحجرات:١١ . قسم العباد إلى تائب وظالم، وما ثم قسم ثالث ألبتة، وأوقع اسم الظالم على من لم يتب، ولا أظلم منه لجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وآفات أعماله.

روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

(وَاللهِ إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً) [(١)].

وعند مسلم من حديث الأغرِّ الْمُزَنِيِّ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّة) [(٢)]. صلوات الله وسلامه على كان أعلم الخلق بالله، وحقوقه وعظمته، وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها.

- الخذلان أن يكلك الله إلى نفسك والتوفيق والتوبة إليه والاعتصام به.

لما كانت التوبة هي رجوع العبد إلى الله، ومفارقته لصراط المنحرفين الضالين، وذلك لا يحصل إلا بهداية الله إلى الصراط المستقيم، ولا تحصل هدايته إلا بإعانته وتوحيده، فقد بينتها فاتحة الكتاب أحسن بيان وانتظمتها أحسن انتظام، وتضمنتها أبلغ تضمن، فمن أعطى فاتحة الكتاب حقها علما وعملا علم أنه لا تصح له قراءتها على العبودية إلا بالتوبة النصوح، فإن الهداية التامة إلى الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب، ولا مع الإصرار عليها، فإن الأول جهل ينافي معرفة الهدى، والثاني غي ينافي قصد الهدى وإرادته، فلذلك لا تصح التوبة إلا بعد معرفة الذنب والاعتراف به، وطلب التخلص من سوء عواقبه أولا وآخرا، وهذا يتطلب الاعتصام بالله في طلب التمسك بهدايته الشرعية وطلب التوفيق إلى هدايته الكونية، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ آل عمران:١٠١ . فلو كملت عصمة العبد بالله

---

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة ٥/٢٣٢٤ (٥٩٤٨) .

(٢) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ٤/٢٠٧٥ (٢٧٠٢) .

لم يخذله أبدا [١].

وقال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٧٨﴾ الحج: ٧٨.

أي متى اعتصمتم به تولاكم ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد، وعداوتهما أضر من عداوة العدو الخارجي، فالنصر على هذا العدو أهم، والعبد إليه أحوج، وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله.

ولما كانت التوبة ترجع إلى اعتصامك بالله وعصمته لك، فإن حقيقة الخذلان أن يزيغ القلب فيقع الإنسان في العصيان، ويزيغه الله فيخلي بينه وبين الذنب بالخذلان، فالخذلان أن يكلك الله إلى نفسك، ويخلى بينك وبينها، والتوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ الصف: ٥.

إن الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها، والجهل بقدر من عصاه، والجهل بسوء عاقبتها، وعظم خطرها، ففرحه بها غطى عليه ذلك كله، وفرحه بها أشد ضررا عليه من مواقعتها، والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبدا، ولا يكمل بها فرحه، بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه، ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به، ومتى خلى قلبه من هذا الحزن، واشتدت غبطته وسروره، فليتهم إيمانه، وليبك على موت

(١) مدارج السالكين ١/١٧٩ بتصرف.

قلبه، فإنه لو كان حيا لأحزنه ارتكابه للذنب وغاظه وصعب عليه، وإذا لم يحس القلب بذلك فحيث لم يحس به فما لجرح بميت إيلام [١].

وقل من يهتدي إلى ذلك في النظر إلى الذنوب أو ينتبه لها، وهي موضع مخوف جدا يودي بالمذنب إلى هلاك إن لم يتدارك بثلاثة أشياء خوف من الموافاة على الذنب قبل التوبة، وندم على ما فاته من الله بمخالفة أمره، وتشمير للجد في استدراكه ما حدث له من نقصان الإيمان، فإن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

- شرائط التوبة ثلاثة الندم على الذنب والإقلاع والاعتذار.

وحقيقة التوبة هي الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على أن لا يعاوده في المستقبل، والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة، فإنه في ذلك الوقت يندم ويقلع ويعزم، فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خلق لها، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة، ولما كان متوقفا على تلك الثلاثة جعلت شرائط له [٢].

أما الندم فإنه لا تتحقق التوبة إلا به، إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به، وإصراره عليه، وأما الإقلاع فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب، وأما الاعتذار فلا تصح التوبة إلا بعد الاعتراف بالذنب وإظهار الضعف والمسكنة وغلبة العدو، وقوة سلطان النفس، وأنه لم يكن مني ما كان عن استهانة بحقك، ولا جهلا به، ولا إنكارا لإطلاعك، ولا استهانة بوعيدك، وإنما كان من غلبة الهوى، وضعف

---

(١) مدارج السالكين ١/١٨٠ بتصرف.

(٢) السابق ١/١٨١ بتصرف.

القوة عن مقاومة مرض الشهوة، وطمعا في مغفرتك واتكالا على عفوك، وحسن ظن بك، ورجاء لكرمك، وطمعا في سعة حلمك ورحمتك، وغرني بك الغرور، والنفس الأمارة بالسوء، وسترك المرخي علي، وأعانني جهلي، ولا سبيل إلى الاعتصام لي إلا بك، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك، اللهم لا براءة لي من ذنب فأعتذر، ولا قوة لي فأنتصر، ولكني مذنب مستغفر، اللهم لا عذر لي، وإنما هو محض حقك ومحض جنايتي، فإن عفوت وإلا فالحق لك، ومثل ذلك مما هو طلب يتضمن الاستعطاف والتذلل والافتقار والاعتراف بالعجز والإقرار بالعبودية، فهذا من تمام التوبة.

والله ﷻ لما كان من تمام عدله وإحسانه أنه أعذر إلى عباده، وأن لا يؤاخذ ظالمهم إلا بعد كمال الأعذار، وإقامة الحجة عليه، فهو أيضا يحب من عبده أن يعتذر إليه، وأن يتنصل إليه من ذنبه، فهذا هو الاعتذار المحمود النافع.

وأما الاعتذار بالقدر فهو مخاصمة لله، واحتجاج من العبد على الرب وحمل لذنبه على الأقدار، فلا بد من ميزان القرآن في النظر إلى أعمال الإنسان وعلاقتها بأفعال الملك الديان ومشيئته النافذة في الكون والإنسان، فإن العبد إذا أذنب فقال: يا رب هذا قضاؤك وأنت قدرت علي، وأنت حكمت علي، وأنت كتبت علي، فيقال له: وأنت عملت، وأنت كسبت، وأنت أردت وعزمت واجتهدت، وعاقبك الله عليه، وإذا قال: يا رب أنا ظلمت، وأنا أخطأت، وأنا اعتديت وأنا فعلت، فيقال له: والله قدرها عليك في علمه وكتبت في لوحه وأغفرها لعبده وتجاوز عن ذنبه، ومن أدرك ذلك أدرك العلة في احتجاج آدم على

موسى بالقدر، لأنه تاب من الذنب وندم واعترف فغفر الله له، روى البخاري من حديث أبى هريرةَ ﷺ أن النبي ﷺ قال: (احتجَ آدمُ وموسى، فقال له موسى: يا آدمُ أنتَ أبونا، خيبتنا وأخرجتَنا من الجنة قال له آدمُ: يا موسى اصطفاكَ اللهُ بكلامه وخطَّ لكَ بيده، أتلومني على أمر قدَّرهُ الله علي قبل أن يخلقَني بأربعين سنة؟ فحجَّ آدمُ موسى، فحجَّ آدمُ موسى، ثلاثا) [١] .

وإذا عمل العبد حسنة فمن بها على ربه فقال: يا رب أنا عملتها، وأنا تصدقت وأنا صليت وأنا أطعمت وأنا زكيت، فيقال له: والله أعانك ووفقك وسددك وهيأ الأسباب لك فالفضل لله أولا وآخرا. وإذا قال: يا رب أنت أعنتني ووفقتني وأنت مننت علي فيقال له: وأنت عملتها وأنت أردتها وأنت كسبتها، فالجنة والنعمة بسبب العمل وليست وزنا له مساويا يقابله، ومن أدرك ذلك علم ما حقيقة ما ثبت عند البخاري من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: (سَدِّدوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لا يدخل أحداً الجنةَ عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدَني الله بمغفرة ورحمة) [٢].

وعند مسلم من حديث أَبِي هُريرةَ ﷺ أن رسُول اللهِ ﷺ قال:

---

(١) رواه البخاري في القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله ٦/٢٤٣٩ (٦٢٤٠)، ومسلم في القدر، باب حجاج آدم وموسى ٤/٢٠٤٢ (٢٦٥٢).

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل ٥/٢٣٧٣ (٦١٠٢)، ومسلم في كتاب القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ٤/٢١٧١ (٢٨١٨).

(قَارِبُوا وَسَدِّدُوا، وَاعلمُوا أَنهُ لن ينجُوَ أَحدٌ مِنكُمْ بِعمَلِهِ، قَالوا: يا رسُول اللهِ وَلاَ أَنتَ؟ قَال: وَلاَ أَنا، إلاَّ أَن يتَغَمَّدَني اللهُ بِرحمَةٍ مِنهُ وَفَضْل) [(١)]. وجميع النصوص القرآنية تدل على أن الله ﷻ ينسب الفضل في وقوع الطاعة إلى نفسه، ويمنح الأجر فيها لعبده حتى لا يتعالى بقوته دون ربه، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ الأنفال:١٧.

- علامات التوبة المقبولة الصحيحة التي تظهر على التائب ولابد.

التوبة المقبولة الصحيحة التي تظهر على التائب لها علامات لابد منها، فمنها أن يكون بعد التوبة خيرا مما كان قبلها. ومنها أنه لا يزال الخوف مصاحبا له، لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل عن قبض روحه أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، فهناك يزول الخوف.

ومنها انخلاع قلبه وتقطعه ندما وخوفا وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها، ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه وهذا هو تقطعه، وهذا حقيقة التوبة لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه وخوفا من سوء عاقبته، فمن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرط حسرة وخوفا تقطع في الآخرة إذا حقت الحقائق وعاين ثواب المطيعين وعقاب العاصين فلا بد من تقطع القلب إما في

(١) رواه مسلم في كتاب القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ٤/٢١٧٠ (٢٨١٦).

الدنيا وإما في الآخرة.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضا كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء، ولا تكون لغير المذنب، لا تحصل بعمرة ولا حج ولا حب مجرد، وإنما هي أمر وراء هذا كله ينكسر فيه القلب بين يدي الرب كسرة تامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته طريحا ذليلا خاشعا بين يدي عفو ربه، كحال عبد جان آبق من سيده، فأخذ فأحضر بين يديه، ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بدا ولا عنه غناء، ولا منه مهربا، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته، هذا مع حبه لسيده وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده، وذله وعز سيده، فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع، ما أنفعها للعبد وما أجدى عائدتها عليه، وما أعظم جبره بها، وما أقر به بها من سيده، فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة، والخضوع والتذلل والإخبات والاستسلام له [1].

وما أحلى قوله في هذه الحال: أسألك بعزك إلا رحمتني هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة ليس لي سيد سواك، لا ملجأ ولا منجي منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته ورغم لك أنفه وفاضت لك عيناه، وذل لك قلبه، فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة، فمن لم يجد ذلك في قلبه، فليتهم توبته وليرجع إلى تصحيحها، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة، وما أسهلها باللسان والدعوى، وما عالج

(١) مدارج السالكين ١/١٨٦ بتصرف.

الصادق شيئا أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم(١).

ولذلك كانت توبة كعب بن مالك ﷺ توبة صادقة لأنها كانت بعد انكسار، كما ذكر الله شأنها فقال: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ التوبة:١١٨/ ١١٩.

روى البخاري من حديث كَعْبِ بْن مَالكٍ ﷺ حِين تَخلَفَ عَن غزوة تَبُوكَ، قَال كَعْبٌ ﷺ: (وَنهي رَسُول اللهِ ﷺ المُسْلمين عَن كَلامِنا، نحن الثلاثةُ مِن بَيْن مَن تَخلَفَ عَنهُ، فَاجْتَنبَنا الناسُ وَتَغيَّرُوا لنا، حتى تَنكَّرَتْ فِي نفسِي الأرْضُ، فَمَا هِيَ التِي أَعْرِفها، فَلبِثنا على ذلكَ خَمْسِين ليْلةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانا وَقعَدَا فِي بُيُوتِهما يَبْكِيَان، وَأَمَّا أَنا فَكُنتُ أَشَبَّ القَوْمِ وَأَجْلدَهُمْ، فَكُنتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلاةَ مَعَ المُسْلمِين، وَأَطُوفُ فِي الأَسْوَاق وَلا يُكلمُني أَحَدٌ، وَآتِي رَسُول اللهِ ﷺ فَأُسَلمُ عَليْهِ وَهُوَ فِي مَجْلسِهِ بَعْدَ الصَّلاةِ، فَأَقُول فِي نفْسِي هَل حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلامِ على أَمْ لا، ثمَّ أُصَلي قَرِيبًا مِنهُ فَأُسَارِقُهُ النظَرَ، فَإِذا أَقْبَلتُ على صَلاتِي أَقْبَل إلى، وَإِذا التَفتُّ نحْوَهُ أَعْرَضَ عَني، حتى إِذا طَال على ذلكَ مِن جَفْوَةِ الناسِ، مَشَيْتُ حتى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ، وَهُوَ ابْن عَمِّي وَأَحَبُّ الناسِ إلى فَسَلمْتُ عَليْهِ، فَوَاللهِ مَا رَدَّ على السَّلامَ. فَقُلتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنشُدُكَ بِاللهِ هَل تَعْلمُني أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولهُ؟

(٢) السابق ١/١٨٠ بتصرف.

فَسَكَتَ فَعُدْتُ لهُ فَنشَدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لهُ فَنشَدْتُهُ، فَقَال: اللهُ وَرَسُولهُ أَعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حتى تَسَوَّرْتُ الجِدَارَ.

قَال كعب: فَبَيْنا أَنا أَمْشِي بِسُوق المَدِينة، إِذا نبَطِيٌّ مِن أَنبَاطِ أَهْل الشَّأْم، مِمَّن قَدِمَ بِالطَّعَام يَبِيعُهُ بِالمَدِينةِ، يَقُول: مَن يَدُل على كَعْبِ بْن مَالكٍ، فَطَفِقَ الناسُ يُشِيرُون لهُ، حتى إذا جَاءَني دَفَعَ إِلى كِتَابًا مِن مَلكِ غَسَّان، فَإِذا فِيهِ أَمَّا بَعْدُ، فَإِنهُ قَدْ بَلغَنِي أَن صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلكَ اللهُ بِدَارِ هَوَان وَلا مَضْيَعَةٍ، فَالحَقْ بِنا نوَاسِكَ فَقُلتُ لمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذا أَيْضًا مِن البَلاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنور فَسَجَرْتُهُ بِهَا، حتى إِذا مَضَتْ أَرْبَعُون ليْلةً مِن الخَمْسِين، إِذا رَسُول رَسُول اللهِ ﷺ يَأْتِينِي، فَقَال إِن رَسُول اللهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَن تَعْتَزِل امْرَأَتَكَ، فَقُلتُ: أُطَلقُهَا أَمْ مَاذا أَفْعَل ؟ قَال: لا بَل اعْتَزِلهَا وَلا تَقْرَبْهَا؟ وَأَرْسَل إِلى صَاحِبَيَّ مِثل ذلكَ، فَقُلتُ لامْرَأَتِي: الحَقِي بِأَهْلكِ فَتَكُونِي عِندَهُمْ، حتى يَقْضِيَ اللهُ فِي هَذا الأَمْرِ.

قَال كَعْبٌ: فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلال بْن أُمَيَّةَ رَسُول اللهِ ﷺ، فَقَالتْ: يَا رَسُول اللهِ إِن هِلال بْن أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ، ليْسَ لهُ خَادِمٌ، فَهَل تَكْرَهُ أَن أَخْدُمَهُ؟ قَال: لا، وَلكِن لا يَقْرَبْكِ، قَالتْ: إِنهُ وَاللهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلى شَيْءٍ، وَاللهِ مَا زَال يَبْكِي مُنذ كَان مِن أَمْرِهِ مَا كَان إِلى يَوْمِهِ هَذا، فَقَال لي بَعْضُ أَهْلي لو اسْتَأْذنتَ رَسُول اللهِ ﷺ فِي امْرَأَتِك، كَمَا أَذن لامْرَأَةِ هِلال بْن أُمَيَّةَ أَن تَخْدُمَهُ، فَقُلتُ: وَاللهِ لا أَسْتَأْذن فِيهَا رَسُول اللهِ ﷺ، وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُول رَسُول اللهِ ﷺ إِذا اسْتَأْذنتُهُ فِيهَا وَأَنا رَجُل شَابٌّ، فَلبِثتُ بَعْدَ ذلكَ عَشْرَ ليَال، حتى كَمَلتْ لنا خَمْسُون ليْلةً، مِن حِين نهِيِ رَسُول اللهِ ﷺ عَن كَلامِنا .فَلمَّا صَليْتُ صَلاةَ الفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِين ليْلةً، وَأَنا على ظَهْرِ بَيْتٍ مِن بُيُوتِنا، فَبَيْنا أَنا جَالسٌ على الحَال التِي ذكَرَ

اللهُ، قَدْ ضَاقَتْ على نفْسِي وَضَاقَتْ على الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ، أَوْفي على جَبَل سَلع بِأَعلى صَوْتِهِ، يَا كَعْبُ بْن مَالكٍ أَبْشِرْ، قَال: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَن قَدْ جَاءَ فَرَجٌ.

وَآذن رَسُول اللهِ ﷺ بِتَوْبَةِ اللهِ عَلَيْنا، حِين صَلي صَلاةَ الفَجْر، فَذهَبَ الناسُ يُبَشِّرُوننا، وَذهَبَ قِبَل صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُون، وَرَكَضَ إلى رَجُل فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِن أَسْلمَ فَأَوْفي على الجَبَل، وَكَان الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِن الفَرَس، فَلمَّا جَاءَني الذي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُني، نزَعْتُ لهُ ثوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ، وَاللهِ مَا أَمْلكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذ، وَاسْتَعَرْتُ ثوْبَيْن فَلبِسْتُهُمَا، وَانطَلَقْتُ إلى رَسُول اللهِ ﷺ، فَيَتَلقَّاني الناسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنوني بِالتَّوْبَةِ، يَقُولون: لتَهْنكَ تَوْبَةُ اللهِ عَلَيْك) [1] .

- التوبة تتضمن العزم الجازم على فعل المأمور والإتيان به.

كثير من الناس إنما يفسر التوبة بالعزم على أن لا يعاود الذنب، وبالإقلاع عنه في الحال، وبالندم عليه في الماضي، وإن كان في حق آدمي فلا بد من أمر رابع وهو التحلل منه، وهذا الذي ذكروه بعض مسمى التوبة بل شرطها، وإلا فالتوبة في كلام الله ورسوله كما تتضمن ذلك تتضمن العزم على فعل المأمور والتزامه، فلا يكون بمجرد الإقلاع والعزم والندم تائبا حتى يوجد منه العزم الجازم على فعل المأمور والإتيان به، هذا حقيقة التوبة، وهي اسم لمجموع الأمرين، لكنها إذا قرنت بفعل المأمور كانت عبارة عما ذكروه، فإذا أفردت تضمنت الأمرين معا، وهي كلفظة التقوى التي تقتضى عند إفرادها فعل ما أمر الله به، وترك

---

(١) البخاري في المغازي، باب حديث كعب بن مالك ٤/١٦٠٣ (٤١٥٦) .

ما نهى الله عنه، وتقتضى عند اقترانها بفعل المأمور الانتهاء عن المحظور، فإن حقيقة التوبة الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب، وترك ما يكره، فهي رجوع من مكروه إلى محبوب، فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر. ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور بها فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣١﴾ النور: ٣١.

فكل تائب مفلح، ولا يكون مفلحا إلا من فعل ما أمر به، وترك ما نهي عنه، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١١﴾ الحجرات: ١١. وتارك المأمور ظالم كما أن فاعل المحظور ظالم، وزوال اسم الظلم عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين، فالناس قسمان، تائب وظالم ليس إلا، فالتائبون هم كما قال تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٢﴾ التوبة: ١١٢. فحفظ حدود الله جزء التوبة، والتوبة هي مجموع هذه الأمور، وإنما سمي تائبا لرجوعه إلى أمر الله من نهيه، وإلى طاعته من معصيته، فإذا التوبة هي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى التوبة، وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وإنما يحب الله من فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، فإذا التوبة هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهرا وباطنا إلى ما يحبه ظاهرا وباطنا.

ويدخل في مسماها الإسلام والإيمان والإحسان، وتتناول جميع المقامات، ولهذا كانت غاية كل مؤمن، وبداية الأمر وخاتمته، وهي

الغاية التي وجد لأجلها الخلق، والأمر والتوحيد جزء منها، بل هو جزاؤها الأعظم الذي عليه بناؤها، وأكثر الناس لا يعرفون قدر التوبة ولا حقيقتها، فضلا عن القيام بها علما وعملا وحالا، ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه، ولولا أن التوبة اسم جامع لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم، فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل التوبة وآثارها.

- **المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور ولا يجوز تأخيرها.**

ما تشتد الحاجة إليه في أحكام التوبة ولا يليق بالعبد جهله بها أن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور، ولا يجوز تأخيرها، فمتى أخرها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى، وهي توبته من تأخير التوبة، وقل أن تخطر هذه ببال التائب، بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر، وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة، ولا ينجي من هذا إلا توبة عامة مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم، فإن ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه، ولا ينفعه في عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكنا من العلم، فإنه عاص بترك العلم والعمل، فالمعصية في حقه أشد.

وعند البخاري من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبيﷺ كان يدعو بهذا الدعاء: (رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَاي وَعَمْدِي وَجَهْلِي وَهَزْلِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١).

هذا التعميم وهذا الشمول لتأتي التوبة على ما علمه العبد من ذنوبه، وما لم يعلمه.

والتوبة قد تتبعض كالمعصية، فيكون تائبا من وجه دون وجه، كالإيمان والإسلام في تبعضهما، فإن التوبة كما تتفاضل في كيفيتها كذلك تتفاضل في كميتها، ولو أتى العبد بفرض وترك فرضا آخر لاستحق العقوبة على ما تركه دون ما فعله، فهكذا إذا تاب من ذنب وأصر على آخر لأن التوبة فرض من الذنبين فقد أدى أحد الفرضين وترك الآخر، فلا يكون ما ترك موجبا لبطلان ما فعل، كمن ترك الحج وأتى بالصلاة والصيام والزكاة.

والتوبة لا تصح من ذنب مع الإصرار على آخر من نوعه، وأما التوبة من ذنب مع مباشرة آخر لا تعلق له به ولا هو من نوعه فتصح، كما إذا تاب من الربا، ولم يتب من شرب الخمر مثلا، فإن توبته من الربا صحيحة، وأما إذا تاب من ربا الفضل ولم يتب من ربا النسيئة وأصر عليه أو بالعكس، أو تاب من تناول الحشيشة وأصر على شرب الخمر أو بالعكس فهذا لا تصح توبته، وهو كمن يتوب عن الزنا بامرأة وهو مصر على الزنا بغيرها غير تائب منها، أو تاب من شرب عصير العنب المسكر، وهو مصر على شرب غيره من الأشربة المسكرة فهذا في الحقيقة لم يتب من الذنب، وإنما عدل عن نوع منه إلى نوع آخر، بخلاف من عدل عن معصية إلى معصية أخرى غيرها في الجنس، إما

---

(١) البخاري في الدعوات، باب قول النبي ﷺ: اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ٥/٢٣٥٠ (٦٠٣٥) .

لأن وزرها أخف، وإما لغلبة دواعي الطبع إليها وقهر سلطان شهوتها له، وإما لأن أسبابها حاضرة لديه عتيدة، لا يحتاج إلى استدعائها بخلاف معصية يحتاج إلى استدعاء أسبابها، وإما لاستحواذ قرنائه وخلطائه عليه فلا يدعونه يتوب منها، وله بينهم حظوة بها وجاه، فلا تطاوعه نفسه على إفساد جاهه بالتوبة، فمثل هذا إذا تاب من قتل النفس وسرقة أموال المعصومين، وأكل أموال اليتامى، ولم يتب من شرب الخمر والفاحشة صحت توبته مما تاب منه، ولم يؤاخذ به وبقي مؤاخذا بما هو مصر عليه.

- **أسباب رفع العقوبة عن العبد كما دلت عليها النصوص النقلية.**

قال ابن تيمية عن أصحاب النبيﷺ وموقف الناس منهم: (طائفة تغلو فيهم فتريد أن تجعلهم معصومين أو كالمعصومين، وطائفة تريد أن تسبهم وتذمهم بأمور إن كانت صدقا فهم مغفور لهم، أو هم غير مؤاخذين بها، فإنه ما ثم إلا ذنب أو خطأ في الاجتهاد، والخطأ قد رفع الله المؤاخذة به عن هذه الأمة، والذنب لمغفرته عدة أسباب كانت موجودة فيهم، وهما أصلان عام وخاص، أما العام فإن الشخص الواحد يجتمع فيه أسباب الثواب والعقاب عند عامة المسلمين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين، والنزاع في ذلك مع الخوارج والمعتزلة الذين يقولون ما ثم إلا مثاب في الآخرة أو معاقب، ومن دخل النار لم يخرج منها لا بشفاعة ولا غيرها، ويقولون إن الكبيرة تحبط جميع الحسنات، ولا يبقى مع صاحبها من الإيمان شيء، وقد ثبت بالنصوص المستفيضة عن النبي ﷺ إخراج قوم من النار بعد ما امتحشوا، وثبت أيضا شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر

من أمته، والآثار بذلك متواترة عند أهل العلم بالحديث أعظم من تواتر الآثار بنصاب السرقة ورجم الزاني المحصن ونصب الزكاة ووجوب الشفعة وميراث الجدة وأمثال ذلك)[1].

ثم بين أن هذا الأصل لا يحتاج إليه في مثل عثمان وأمثاله ممن شهد له بالجنة، وأن الله رضي عنه، وأنه لا يعاقبه في الآخرة، بل نشهد أن العشرة في الجنة، وأن أهل بيعة الرضوان في الجنة، وأن أهل بدر في الجنة، كما ثبت الخبر بذلك عن الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وقد دخل في الفتنة خلق من هؤلاء المشهود لهم بالجنة، والذي قتل عمار بن ياسر هو أبو الغادية، وقد قيل إنه من أهل بيعة الرضوان، ذكر ذلك ابن حزم فنحن نشهد لعمار بالجنة، ولقاتله إن كان من أهل بيعة الرضوان بالجنة، وأما عثمان وعلي وطلحة والزبير فهم أجل قدرا من غيرهم ولو كان منهم ما كان، فنحن لا نشهد أن الواحد من هؤلاء لا يذنب، بل الذي نشهد به أن الواحد من هؤلاء إذا أذنب فإن الله لا يعذبه في الآخرة ولا يدخله النار، بل يدخله الجنة بلا ريب، وعقوبة الآخرة تزول عنه، إما بتوبة منه، وأما بحسناته الكثيرة، وإما بمصائبه المكفرة، وإما بغير ذلك، فإن الذنوب مطلقا من جميع المؤمنين هي سبب العذاب، لكن العقوبة بها في الآخرة في جهنم تندفع بنحو عشرة أسباب:

السبب الأول: التوبة فإن التائب من الذنب، كمن لا ذنب له، والتوبة مقبولة من جميع الذنوب، الكفر والفسوق والعصيان، قال الله

---

(١) منهاج السنة النبوية ٦/١٢٦.

تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٨﴾ الأنفال:٣٨. وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾ التوبة:٥ . وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ۝١٠﴾ البروج:١٠. قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار ثم هو يدعوهم إلى التوبة.

والتوبة عامة لكل عبد مؤمن كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ۝٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ۝٧٣﴾ الأحزاب:٧٢/٧٣.

وقد أخبر الله في كتابه عن توبة أنبيائه ودعائهم بالتوبة والمأثور عن النبي ﷺ من ذلك فكثير مشهور، وأصحابه كانوا أفضل قرون الأمة، فهم أعرف القرون بالله وأشدهم له خشية، وكانوا أقوم الناس بالتوبة في حياته وبعد مماته، فمن ذكر ما عيب عليهم ولم يذكر توبتهم التي بها رفع الله درجتهم كان ظالما لهم، كما جرى من بعضهم يوم الحديبية وقد تابوا منه مع أنه كان قصدهم الخير، وكذلك قصة حاطب بن أبي بلتعة تاب منها، بل زانيهم كان يتوب توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له، كما تاب ماعز بن مالك وأتى إلى النبي ﷺ حتى طهره بإقامة الحد عليه، وكذلك الغامدية بعده، وكذلك كانوا زمن عمر وغيره، إذا شرب أحدهم الخمر أتى إلى أميره فقال طهرني وأقم على الحد، فهذا فعل من يأتي الكبيرة منهم

حين يعلمها حراما، فكيف إذا أتى أحدهم الصغيرة أو ذنبا تأول فيه، ثم تبين له خطؤه(١).

وكذلك عائشة رضي الله عنها ندمت على مسيرها إلى البصرة، وكانت إذا ذكرته تبكي حتى تبل خمارها، وكذلك طلحة ندم على ما ظن من تفريطه في نصر عثمان وعلي غير ذلك، والزبير ندم على مسيره يوم الجمل، وعلي بن أبي طالب ﷺ ندم على أمور فعلها من القتال وغيره، وكان يقول يا حسن يا حسن ما ظن أبوك أن الأمر يبلغ إلى هذا ود أبوك لو مات قبل هذا بعشرين سنة، وقد روى هذا عن علي ﷺ من وجهين أو ثلاثة، وتواترت الآثار بكراهته الأحوال في آخر الأمر، ورؤيته اختلاف الناس وتفرقهم وكثرة الشر الذي أوجب أنه لو استقبل من أمره ما استدبر ما فعل ما فعل (٢).

وبالجملة ليس علينا أن نعرف كل واحد تاب، ولكن نحن نعلم أن التوبة مشروعة لكل عبد، للأنبياء ولمن دونهم، وأن الله سبحانه يرفع عبده بالتوبة، وإذا ابتلاه بما يتوب منه فالمقصود كمال النهاية لا نقص البداية، فإنه تعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين، وهو يبدل بالتوبة السيئات حسنات، والذنب مع التوبة يوجب لصاحبه من العبودية والخشوع والتواضع والدعاء وغير ذلك ما لم يكن يحصل قبل ذلك، ولهذا قال طائفة من السلف إن العبد ليفعل الذنب فيدخل به الجنة، ويفعل الحسنة فيدخل بها النار، يفعل الذنب فلا يزال نصب عينيه إذا ذكره تاب إلى الله ودعاه وخشع له فيدخل به الجنة، ويفعل

---

(١) منهاج السنة النبوية ٦/١٣٠ بتصرف.

(١) السابق ٦/١٣٠ بتصرف.

الحسنة فيعجب بها فيدخل النار[(١)].

• من أسباب رفع العقوبة ومغفرة الذنب للعبد الاستغفار.

السبب الثاني: الاستغفار، فإن الاستغفار هو طلب المغفرة، وهو من جنس الدعاء والسؤال، وهو مقرون بالتوبة في الغالب ومأمور به، لكن قد يتوب الإنسان ولا يدعو، وقد يدعو ولا يتوب.

روى مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: (فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَل أنه قَالَ: أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَي رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَي رَبِّ اغْفِرْ لِي ذنبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ) [(٢)].

والتوبة تمحو جميع السيئات وليس شيء يغفر جميع الذنوب إلا التوبة، فإن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، وأما التوبة فإنه قال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ الزمر:٥٣.

وهذه لمن تاب، ولهذا قال لا تقنطوا من رحمة الله، بل توبوا إليه وقال بعدها: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا

(١) منهاج السنة النبوية ٦/١٣١ بتصرف.

(٢) مسلم في التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب ٤/٢١١٢ (٢٧٥٨).

﴿تُنصَرُونَ ۝٥٤﴾ الزمر:٥٤. وأما الاستغفار بدون التوبة، فهذا لا يستلزم المغفرة، ولكن هو سبب من الأسباب(١).

السبب الثالث: الأعمال الصالحة، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝١١٤﴾ هود: ١١٤.

روى البخاري من حديث سلمان الفارسي ﷺ أن النبي ﷺ قال: (لاَ يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُهْرٍ، وَيَدَّهِنُ مِنْ دُهْنِهِ، أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ ثُمَّ يَخْرُجُ فَلاَ يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ، ثُمَّ يُنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الإِمَامُ إِلاَّ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الأُخْرَى) (٢).

وروى مسلم من حديث أَبي هريرة ﷺ أن رسول اللهِ ﷺ كان يقول: (الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ) (٣). ومثل هذه النصوص كثير(٤).

وربما يقول قائل إذا كُفِّر عنى بالصلوات الخمس فأي شيء تكفر عني الجمعة، أو رمضان، وكذلك صوم يوم عرفة وعاشوراء؟ وبعض الناس يجيب عن هذا بأنه يكتب لهم درجات، إذا لم يوجد ما

(١) منهاج السنة النبوية ٦/١٣٣ بتصرف.
(٢) البخاري في الجمعة، باب الدهن للجمعة ١/٣٠١ (٨٤٣) .
(٣) مسلم في الطهارة، باب الصلوات الخمس ١/٢٠٩ (٢٣٣) .
(٤) منهاج السنة النبوية ٦/١٣٥ بتصرف.

تكفره من السيئات، والجواب المحقق أن يقال أن العمل الذي يمحو الله به الخطايا ويكفر به السيئات هو العمل المقبول، والله تعالى إنما يتقبل من المتقين، والناس لهم في هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ المائدة:٢٧. ثلاثة أقوال، طرفان ووسط، فالخوارج والمعتزلة يقولون لا يتقبل الله إلا ممن اتقى الكبائر، وعندهم صاحب الكبيرة لا يقبل منه حسنة بحال، والمرجئة يقولون من اتقى الشرك وقال لا إله إلا الله يتقبل منه ولو أتي بجميع الكبائر، والسلف والأئمة يقولون لا يتقبل إلا ممن اتقاه في ذلك العمل ففعله كما أمر به خالصا لوجه الله تعالى، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، فصاحب الكبائر إذا اتقى الله في عمل من الأعمال تقبل الله منه، ومن هو أفضل منه إذا لم يتق الله في عمل لم يتقبله منه، وإن تقبل منه عملا آخر.

ومن ثم فإن المحو والتكفير يقع بما يتقبل من الأعمال، وأكثر الناس يقصرون في الحسنات حتى في نفس صلاتهم، فالسعيد منهم من يكتب له نصفها، وهم يفعلون السيئات كثيرا، فلهذا يكفر بما يقبل من الصلوات الخمس شيء، وبما يقبل من الجمعة شيء، وبما يقبل من صيام رمضان شيء آخر، وكذلك سائر الأعمال، وليس كل حسنة تمحو كل سيئة، بل المحو يكون للصغائر تارة، ويكون للكبائر تارة باعتبار الموازنة، والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله، فيغفر الله له به الكبائر، كما في حديث البطاقة الذي ينشر لصاحبها على رؤوس الخلائق تسعة وتسعون سجلا كل سجل منها مد البصر، فتخرج له بطاقة قدر

الكف فيها شهادة أن لا إله إلا الله ويغفر له بها، فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق كما قالها هذا الشخص، وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون لا إله إلا الله، ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجح قول صاحب البطاقة، وإذا عرف أن الأعمال الظاهرة يعظم قدرها ويصغر قدرها بما في القلوب وما في القلوب يتفاضل لا يعرف مقادير ما في القلوب من الإيمان إلا الله عرف الإنسان أن ما قاله الرسول كله حق ولم يضرب بعضه ببعض[1].

- **الابتلاء والشفاعة والدعاء للمؤمنين من أسباب رفع العقوبة .**

السبب الرابع الدافع للعقاب: دعاء المؤمنين للمؤمن، مثل صلاتهم على جنازته فعن عائشة وأنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: (ما من ميت يصلي عليه أمةٌ من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون إلا شفعوا فيه) [2]. وعن ابن عباس قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا، لا يشركون بالله شيئا إلا شفعهم الله فيه) [3]. وهذا دعاءٌ له بعد الموت، فلا يجوز أن تحمل المغفرة على المؤمن التقي الذي اجتنب الكبائر وكفرت عنه الصغائر وحده، فإن ذلك مغفورٌ له عند المتنازعين، فعلم أن هذا الدعاء من أسباب المغفرة للميت[4].

السبب الخامس: ما يُعمل للميت من أعمال البر؟ كالصدقة

---

(١) منهاج السنة النبوية ١٣٧/٦ بتصرف.

(٢) مسلم كتاب الجنائز باب من صلى عليه شفعوا فيه ٩٠٣/١٥(٢٢٦٩).

(٣) انظر السلسلة الصحيحة (٢٢٦٧).

(٤) كتاب الإيمان الأوسط ٢١/١ بتصرف.

ونحوها فإن هذا ينتفع به بنصوص السنة الصحيحة الصريحة واتفاق الأئمة وكذلك العتق والحج، بل قد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: من مات وعليه صيامٌ صام عنه وليه. وثبت مثل ذلك في الصحيح من صوم النذر من وجوه أخرى، ولا يجوز أن يعارض هذا بقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ النجم: ٣٩. لوجهين:

أحدهما: أنه قد ثبت بالنصوص المتواترة وإجماع سلف الأمة أن المؤمن ينتفع بما ليس من سعيه كدعاء الملائكة واستغفارهم له، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ غافر: ٧.

ودعاء النبيين والمؤمنين واستغفارهم كما في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ التوبة:١٠٣.

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾ التوبة: ٩٩.

وقوله ﷻ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ محمد: ١٩. وكدعاء المصلين للميت ولمن زاروا قبره من المؤمنين. الثاني: أن الآية ليست في ظاهرها إلا أنه ليس له إلا سعيه، وهذا حق، فإنه لا يملك ولا يستحق

إلا سعي نفسه، وأما سعي غيره فلا يملكه ولا يستحقه؛ لكن هذا لا يمنع أن ينفعه الله ويرحمه به؛ كما أنه دائما يرحم عباده بأسباب خارجة عن مقدورهم، وهو سبحانه بحكمته ورحمته يرحم العباد بأسباب يفعلها العباد ليثيب أولئك على تلك الأسباب، فيرحم الجميع كما في الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال: (ما من رجل يدعو لأخيه بدعوة إلا وكل الله به ملكا كلما دعا لأخيه قال الملك الموكل به آمين ولك بمثل) [1]. وكما ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال: (من صلى على جنازة فله قيراطٌ؛ ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان؛ أصغرهما مثل أحد) [2]. فهو قد يرحم المصلي على الميت بدعائه له ويرحم الميت أيضا بدعاء هذا الحي له[3].

السبب السادس: شفاعة النبي ﷺ وغيره في أهل الذنوب يوم القيامة، كما قد تواترت عنه أحاديث الشفاعة مثل قوله ﷺ في الحديث الصحيح: شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي.

السبب السابع: المصائب التي يكفر الله بها الخطايا في الدنيا كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: ما يصيب المؤمن من وصب؛ ولا نصب؛ ولا هم؛ ولا حزن؛ ولا غم؛ ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه.

السبب الثامن: ما يحصل في القبر من الفتنة والضغطة والروعة،

---

(١) مجموع الفتاوى ١/١٣٢ بتصرف.

(٢) البخاري في الجنائز ، باب من انتظر حتى تدفن ١/٤٤٥(١٢١٦).

(٣) كتاب الإيمان الأوسط ١/٢٢ بتصرف.

فإن هذا مما يكفر به الخطايا.

السبب التاسع: أهوال يوم القيامة وكربها وشدائدها.

السبب العاشر: رحمة الله وعفوه ومغفرته بلا سبب من العباد.

وهذه الأسباب لا تفوت كلها من المؤمنين إلا القليل، فكيف بالصحابة رضوان الله عليهم الذين هم خير قرون الأمة؟ وهذا في الذنوب المحققة، فكيف بما يكذب عليهم؟ وكيف بما يجعل أيضا من سيئاتهم وهو من حسناتهم؟ كما أنه إذا ثبت أن الذم والعقاب قد يدفع عن أهل الذنوب بهذه الأسباب العشرة، فإنه يبطل قول القائلين من الخوارج والمعتزلة بأن عقوبات أهل الكبائر لا تندفع إلا بالتوبة فقط[1].

- هل يرجع التائب من الذب إلى ما كان عليه من الدرجة.

إذا تاب العبد من الذنب فهل يرجع إلى ما كان عليه قبل الذنب من الدرجة التي حطه عنها الذنب أو لا يرجع إليها؟ اختلف في ذلك فقالت طائفة يرجع إلى درجته لأن التوبة تجب الذنب بالكلية وتصيره كأن لم يكن والمقتضي لدرجته ما معه من الإيمان والعمل الصالح فعاد إليها بالتوبة، قالوا لأن التوبة حسنة عظيمة وعمل صالح فإذا كان ذنبه قد حطه عن درجته فحسنته بالتوبة رقته إليها، وهذا كمن سقط في بئر وله صاحب شفيق أدلى إليه حبلا تمسك به حتى رقي منه إلى موضعه، فهكذا التوبة والعمل الصالح مثل هذا القرين الصالح والأخ الشفيق، وقالت طائفة لا يعود إلى درجته وحاله، لأنه لم يكن في وقوف، وإنما

(١) انظر منهاج السنة النبوية ٦/١٣٧، والإيمان الأوسط ١/٢٢ بتصرف.

كان في وصعود، فبالذنب صار في نزول وهبوط، فإذا تاب نقص عليه ذلك القدر الذي كان مستعدا به للترقي، قالوا ومثل هذا مثل رجلين سائرين على طريق سيرا واحدا، ثم عرض لأحدهما ما رده على عقبه أو أوقفه، وصاحبه سائر فإذا استقال هذا رجوعه ووقفته وسار بإثر صاحبه لم يلحقه أبدا؛ لأنه كلما سار مرحلة تقدم ذاك أخرى قالوا والأول يسير بقوة أعماله وإيمانه، وكلما ازداد سيرا ازدادت قوته، وذلك الواقف الذي رجع قد ضعفت قوة سيره وإيمانه بالوقوف والرجوع.

ويذكر ابن القيم أنه سمع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يحكي هذا الخلاف ثم قال: والصحيح أن من التائبين من لا يعود إلى درجته، ومنهم من يعود إليها، ومنهم من يعود إلى أعلى منها، فيصير خيرا مما كان قبل الذنب، وكان داود بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة، وهذا بحسب حال التائب بعد توبته، وجده وعزمه وحذره وتشميره، فإن كان ذلك أعظم مما كان له قبل الذنب عاد خيرا مما كان وأعلى درجة، وإن كان مثله عاد إلى مثل حاله، وإن كان دونه لم يعد إلى درجته وكان منحطا عنها، وهذا الذي ذكره هو فصل النزاع في هذه المسألة ويتبين هذا بمثلين مضروبين:

المثل الأول: رجل مسافر سائر على الطريق بطمأنينة وأمن، فهو يعدو مرة ويمشي أخرى، ويستريح تارة وينام أخرى، فبينا هو كذلك إذ عرض له في سيره ظل ظليل وماء بارد ومقيل، وروضة مزهرة فدعته نفسه إلى النزول على تلك الأماكن، فنزل عليها فوثب عليه منها عدو فأخذه وقيده وكتفه ومنعه عن السير، فعاين الهلاك وظن أنه منقطع به

وأنه رزق الوحوش والسباع، وأنه قد حيل بينه وبين مقصده الذي يؤمه، فبينا هو على ذلك تتقاذفه الظنون إذ وقف على رأسه والده الشفيق القادر فحل كتافه وقيوده، وقال له اركب الطريق واحذر هذا العدو، فإنه على منازل الطريق لك بالمرصاد، واعلم أنك ما دمت حاذرا منه متيقظا له لا يقدر عليك، فإذا غفلت وثب عليك، وأنا متقدمك إلى المنزل وفرط لك فاتبعني على الأثر، فإن كان هذا السائر كيسا فطنا لبيبا حاضر الذهن والعقل استقبل سيره استقبالا آخر أقوى من الأول وأتم، واشتد حذره وتأهب لهذا العدو وأعد له عدته، فكان سيره الثاني أقوى من الأول وخيرا منه، ووصوله إلى المنزل أسرع، وإن غفل عن عدوه وعاد إلى مثل حاله الأول من غير زيادة ولا نقصان، ولا قوة حذر ولا استعداد، عاد كما كان وهو مُعرض لما تعرض له أولا، وإن أورثه ذلك توانيا في سيره وفتورا وتذكرا لطيب مقيله وحسن ذلك الروض وعذوبة مائه وتفيؤ ظلاله وسكونا بقلبه إليه لم يعد إلى مثل سيره ونقص عما كان.

المثل الثاني: رجل خرج من بيته يريد الصلاة في الصف الأول لا يلوي على شيء في طريقه فعرض له رجل من خلفه جذب ثوبه وأوقفه قليلا يريد تعويقه عن الصلاة فله معه حالان: أحدهما أن يشتغل به حتى تفوته الصلاة فهذه حال غير التائب الثاني: أن يجاذبه على نفسه ويتفلت منه لئلا تفوته الصلاة ثم له بعد هذا التفلت ثلاثة أحوال أحدها: أن يكون سيره قفزا أو وثوبا ليستدرك ما فاته بتلك الوقفة فربما استدركه وزاد عليه، أو يعود إلى مثل سيره أو تورثه تلك الوقفة فتورا وتهاونا فيفوته فضيلة الصف الأول أو فضيلة الجماعة وأول الوقت،

فهكذا حال التائبين السائرين سواء .

- مصطلح التوبة من التوبة وما يحمل في طياته من أنواع الضلال.

الغلو الصوفي أدى بالصوفية إلى ابتداعات ذوقية وغلو في وصف طريق السالكين فجعلوا للعابدين توبة، والمريدين توبة، وللعارفين توبة من التوبة، فقد كانوا في بداياتهم يلتزمون بمعاني القرآن واصطلاحاته ملتمسين لها من القرآن بعض آياته، أو بعض الأدلة من كلام النبي ﷺ، فكان يذكرون التوبة والمراقبة والتقوى والخوف والرجاء والتوحيد والإرادة والمحبة والخشوع والتواضع والقناعة والتوكل والشكر واليقين والصبر والرضا والعبودية والاستقامة والإخلاص والصدق، والحياء والذكر والجود والسخاء والغيرة والدعاء ومخالفة النفس وإصلاح عيوبها وترك الحسد والغيبة والنميمة والتباغض وغير ذلك من الألفاظ القرآنية والنبوية، ومن الملاحظ في طبيعة الألفاظ الدائرة بينهم عن أول ظهورهم أنها ألفاظ واصطلاحات قرآنية أو نبوية متماسكة مع معانيها الدلالية الواردة في الكتاب والسنة لا تنفك عنها إلى حد كبير، وهذه البدايات يطلقون عليها طريق العابدين .

ثم تطور أمر الغلو حتى رسموا في تراثهم طريقا آخر للمريدين، وثالثا للعارفين، ولم يجدوا في طريقة سيد الأنبياء والمرسلين كفاية لإشباع روح الصوفية فتكلموا بألفاظ كفرية أدت إلى الحلول والاتحاد، وفرقوا بين طريقة العامة، وطريقة الخاصة، وطريقة خاصة الخاصة، وعكسوا المصطلحات الإيمانية مدعين حسن النية وأنها يشاهدون حقيقة الربوبية وأن أعلى طريقة للصوفية هي نفي التوحيد واعتبار الذات الإنسانية ذاتا إلهية تجلت فيها الربوبية وتعينت، فلمن

الذكر إذا كان الذاكر والمذكور واحد، ولمن التوبة إذا كانت الوجود واحدا، فالتوبة الحقيقية عندهم أن تتوب من التوبة، قال ابن عربي:

فيحمدني وأحمده : ويعبـــدني وأعبـده
ففي حال أقـــربه : وفي الأعيان أجحده
فيعرفني وأنكـره : وأعـرفـه فأشـــهده [١] .

وقال محيي الدين بن عربي في هدم معاني الذكر الذي هو أساس أعمال الإيمان بزعم أنه ما نسي حتى يذكر والذاكر هو المذكور:

دع الذكر والتسبيح إن كنت عاشقا : فليس يديم الذكر إلا المنـــافق
إذا كان من تهواه في القلب حاضرا : وأنت تديم الذكر كنت منافقا
ألا بذكـــر الله تزداد الذنوب : وتنعكس البصــائر والقلوب
وترك الذكر أفضل كل شيء : فشمس الذات ليس لها غروب[٢] .

قال ابن القيم: (وأما التوبة من التوبة فهي من المجملات التي يراد بها حق وباطل، ويكون مراد المتكلم بها حقا فيطلقه من غير تمييز، فإن التوبة من أعظم الحسنات، والتوبة من الحسنات من أعظم السيئات، وأقبح الجنايات، بل هي كفر إن أخذت على ظاهرها، ولا فرق بين التوبة من التوبة، والتوبة من الإسلام والإيمان، فهل يسوغ أن يقال بالتوبة من الإيمان) [٣] .

---

(١) فصوص الحكم ٩٢.
(٢) وسائل السائل ص٢٥، وديوان ترجمان الأشواق ص٤:٥ ، وانظر أيضا كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ٤/١١٦.
(٣) مدارج السالكين ١/١٨٠بتصرف.

ثم بين أن مرادهم أن يتوب من رؤية مبادرته بالتوبة، فإنها إنما حصلت له بمنة الله ومشيئته، ولو خلّيَ ونفسه لم تسمح النفس بها ألبتة، فإذا رآها وشهد صدورها منه ووقوعها به، وغفل عن منه الله عليه تاب من هذه الرؤية، والغفلة ولكن هذه الرؤية والغفلة ليست هي التوبة، ولا جزءا منها ولا شرطا لها، بل هي جناية أخرى عرضت له بعد التوبة، فيتوب من هذه الجناية كما تاب من الجناية الأولى، فما تاب إلا من ذنب أولا وأخرا، فكيف يقال يتوب من التوبة؟ هذا كلام غير معقول ولا هو توبة صحيحة في نفسه، بل قد يكون في التوبة علة ونقص وآفة تمنع كمالها، وقد يشعر صاحبها بذلك وقد لا يشعر به، فيتوب من نقصان التوبة وعدم توفيتها حقها، وهذا أيضا ليس من التوبة، وإنما هو من عدم التوبة فإن القدر الموجود منها طاعة لا يُتاب منها، والقدر المفقود هو الذي يحتاج أن يتوب منه[1].



---

(١) المصدر السابق ٢٠٦/١ بتصرف.

المطلب التاسع والعشرون

وقفة إيمانية مع النظرة الأشعرية الصوفية الشيعية للطريقة السلفية وفهم الأصول القرآنية والنبوية



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن التوبة إلى الله، وأنها بداية الإيمان ونهايته، وأول المنازل في توحيد العبودية وأوسطها وآخرها، وبينا أصناف الناس في القرآن وأنواعهم في توحيد العبادة والإيمان، وأن صلاح الإنسانية يكمن في توحيد العبادة لله وتحقيق الإيمان والاستقامة، وبينا أن الخذلان أن يكلك الله إلى نفسك والتوفيق التوبة إليه والاعتصام به، وعلمنا أن شرائط التوبة ثلاثة الندم على الذنب والإقلاع والاعتذار، وأن علامات التوبة المقبولة الصحيحة التي تظهر على التائب ولابد.

وبينا أن التوبة تتضمن العزم الجازم على فعل المأمور، وأن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور ولا يجوز تأخيرها، ثم تحدثنا عن أسباب رفع العقوبة عن العبد كما دلت عليها النصوص النقلية، وأن من أسباب رفع العقوبة ومغفرة الذنب للعبد الاستغفار والابتلاء والشفاعة والدعاء للمؤمنين، وتناولنا الحديث عن التائب من الذنب وهل يرجع إلى ما كان عليه من الدرجة قبل وقوع الذنب؟ ثم احترزنا من مصطلح التوبة من التوبة وما يحمل في طياته من أنواع الضلال.

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن وقفة إيمانية مع النظرة الأشعرية الصوفية الشيعية للطريقة السلفية ومحاولة الالتقاء مع فهمهم للأصول القرآنية والنبوية.

- **الاختلاف بين المسلمين واقع بالإرادة الكونية محرم بالإرادة الشرعية.**

إن الاختلاف بين العباد فضلا عن الاختلاف بين المسلمين المنتسبين لدين خاتم الأنبياء والمرسلين واقع لا محالة بالإرادة الكونية القدرية الحتمية التي لا تتغير ولا تتبدل، لكنه محرم عليهم بالإرادة الشرعية التكليفية الدينية التي يتحمل المخالف فيها كامل المسئولية، فمن باب النظر إلى القدرة وأفعال الربوبية حدث الاختلاف بين البشرية، ومن باب النظر إلى الحكمة وتوحيد العبودية ووقوع الابتلاء وتحمل الجزاء والمسئولية التي تتعلق بالاختيارات البشرية كان النهي عن التفرق والتشرذم والاختلاف، والأمر بالاعتصام والوحدة والائتلاف.

وتلك مشيئة الله في خلقه، وما قضاه وقدره في ملكه، فالله ﷻ على عرشه في السماء يفعل ما يشاء، وبيده أحكام التدبير والقضاء، قضى بعدله أن تقوم الخلائق على حقيقة الابتلاء، ثم يتحول العالم بعد ذلك إلى دار الجزاء، يخلق الله ما يشاء، ولكن حكمته سبقت فيما تم به القضاء، ولذلك يذكرنا الله ﷻ في كثير من المواطن بتلك الحقيقة، وأنه سبحانه وتعالى قادر على أن يفعل ما يشاء، لولا ما دون في أم الكتاب من أحكام القضاء فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٩﴾ يونس:١٩. والمعنى لولا كلمة سبقت من ربك بإمهال العاصين

وعدم معاجلتهم بذنوبهم لقضي بينهم بأن ننجي المؤمنين، ونهلك الكافرين المكذبين على الفور، وصار هذا فارقا بينهم فيما فيه يختلفون، ولكنه أراد امتحانهم وابتلاء بعضهم ببعض تحقيقا لحكمته في تمييز الخبيث من الطيب والصادق من الكاذب(١).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ هود:١١٨/١١٩. فالله سبحانه وتعالى يخبر أنه لو شاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة على قلب رجل واحد في الالتزام بمنهج الإسلام، فإن مشيئته مطلقة وغير مقيدة ولا قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ولكن اقتضت قدرته أن لا يزالون مختلفين لتتم حكمته في المخالفين لصراط الله الذي أنزله للمؤمنين الموحدين، وليتميز به أهل الجنة الموقنين عن الكافرين والمشركين أصحاب الجحيم، فالمؤمنون أهل الحق هم المعنيون المختصون بالرحمة فيما استثنى.

وهكذا اقتضت حكمته ﷻ أنه خلقهم ليكون منهم السعداء والأشقياء، والفريق الذين هدى الله، والفريق الذين حقت عليهم الضلالة، ليتبين للعباد عدله وحكمته في مقابل مشيئته وقدرته، وليظهر ما كمن في الطباع البشرية من الخير والشر، وليقوم سوق الاجتهاد والجهاد والمجاهدة في العبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء.

---

(١) تفسير السعدي ٣٦٠/١ بتصرف.

ومن ثم فنحن نؤمن أن الله سبحانه أنه قادر على أن يكون الناس أمة واحدة كأمة الملائكة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولكنه سبحانه جعل لهم الحرية في الاتباع، وجعل لهم الاستطاعة والقدرة على الامتناع، فلا إكراه في الدين، وسوف يحاسبهم أجمعين كما قال رب العلمين: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ السجدة:١٣. فما خلقهم الله إلا ليعبدونه باستخلافهم في ملكه، وابتلائهم بأمره وشرعه، ثم يحاسبهم بعدله وفضله.

قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ الأنعام:١٣٣. وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ ﴾ إبراهيم/١٩.

ولذلك وجب على أهل الإيمان أن يسألوا ربهم الاعتصام بشرعه الذي أنزله طريقا للهدى، وأن يوفقهم إليه وأن يعينهم عليه، ولا بد لأهل التوحيد والإيمان أصحاب العقيدة الحق لا بد لهم عند دعوة المخالفين أو الحوار معهم أن يضعوا في أذهانهم هذه الحقيقة الإيمانية في فهم العلاقة بين معاني القدرة الإلهية ومعاني الحكمة الإلهية، أو العلاقة بين معاني توحيد الربوبية ومعاني توحيد العبودية، فلن يستجيب إلى الحق إلا من رغب بصدق في اتباع الرسول ﷺ وعمل بمقتضى أدلة المنقول، وطلب من ربه الهداية الاعتصام بحبله، طلبا خالصا من قلبه، ينم عن حبه وصدقه، فاللهم ارزقنا الهداية إلى ما تحب وترضى،

والاعتصام بهديك إلى يوم الرجعى.

- مشروعية النقد البناء لرد شبهات الباطل والدفاع عن الحق.

لقد دلت قواعد الشريعة العامة على وجوب التأكد من سلامة القول والتثبت منه، والبحث عن أحوال القائل عند ورود ما يتطلب ذلك فقال تعال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ الحجرات:٦.

أمر الله المؤمنين أن لا يقبلوا خبر الفاسق؛ لما يجر عليهم من مضرة نتيجة نقله لأخبار كاذبة، فعليهم أن يتبينوا من خبره حتى لا يندموا، وهذا معني النقد عند أهل العلم، وهو ضرورة التأكد مما ينسب إلى الناس من أخبار، والتأكد من صحتها وسلامتها، ونقدها على موازين ثابتة في مرجعيتها؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحي من حي عن بينة، فالنقد هو الذي يقوم على التأكد مما يضاف إلى الناس، وينقل عنهم رواية ودراية، لا بد من الاثنين معا.

أما الرواية فتكون بالاحتراز عن الخطأ في نقل ما يضاف إلى الناس من أقوال وأفعال وتمحيص الكلام، وإخراج ما فيه من الزيف والكذب وأما الدراية فتكون بمعرفة حال القائل أو الناقل جرحا وتعديلا وتحملا وأداء ، وكل ما يتعلق بكلامه مما له صلة بنقده.

وعلم النقد والجرح والتعديل نشأة مع رواية الحديث في الإسلام لأنه لا مناص من معرفة الأخبار والروايات الصحيحة وتمييزها من سقيمها معرفة تمكن العلماء من الحكم بصدقهم أو كذبهم وما المقبول

والمردود، لذلك سألوا عن حال الرواة وحياتهم العلمية، وتتبعوهم في جميع أحوالهم وسلوكياتهم العملية، وكانوا يبينون أحوال الرواة وينقدونهم حسبة لله، لا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا تستولي عليهم العواطف الشخصية، فليس في علماء الجرح والتعديل من يحابي في جرح رواة الحديث أو تعديلهم، فقد قصد الجميع خدمة الشريعة وحفظ مصادرها.

وقد أكد العلماء على ضرورة بيان أحوال الرواة، وأن ذلك ليس بغيبة، بل في ذلك حفظ الشريعة وصيانتها من الدخيل الزائف، فيجوز ذكر الشخص وما فيه من المساوئ حتى يحذره الناس، وهذا لا يعد من باب الغيبة، وإنما من باب النصيحة، بل كان غاية العلماء والمحدثين في هذا بيان الحق بكل أمانة وتجرد، ولولا ضرورة التأكد من أحوال الرواة؛ لما خاضوا في هذا الباب.

ولما كان أكثر الأحكام لا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة النقد والرواية، فقد كان كلام العلماء ونقدهم في الروايات وسيلة لا غاية، فلم يقصدوا الخوض في أعراض الناس، لهذا التزموا الاعتدال في بيان أحوالهم، ولم يتناولوا في ذكرها غير الجانب الذي يهمهم، وهو الجانب الديني، وقد تميز هذا المنهج في بيان أحوال الرواة ببعض القواعد الهامة التي تتضح فيما يلي:

١- الأمانة في الحكم: فكانوا يذكرون للراوي ما له وما عليه وفضائله ومساوئه، يقول محمد بن سيرين: ظلمت أخاك إذا ذكرت مساوئه ولم تذكر محاسنه.

٢- الدقة في إعطاء الأحكام: حيث ندرك من تتبع أقوال العلماء دقة بحثهم، ومعرفتهم بجميع التفاصيل الدقيقة لأحوال الراوي الذي يتكلمون فيه، وكل ما له صلة بنقده، ثم يصدرون الحكم المناسب فيه، قبولا أو ردا لكلامه وروايته بالإسناد إلى رسول الله ﷺ.

٣- التزام الأدب في النقد: فلم يخرج هؤلاء العلماء في نقدهم وأحكامهم عن آداب البحث العلمي الصحيح، وكانوا مع ذلك يأمرون طلابهم بالتزام الأدب في نقدهم، يقول المزني تلميذ الشافعي رحمهما الله تعالى: سمعني الشافعي يوما وأنا أقول: فلان كذاب، فقال لي: يا إبراهيم اكسي ألفاظك أحسنها، ولا تقل كذاب، ولكن قل حديثه ليس بشيء [(١)].

- وقفة إيمانية مع النظرة الأشعرية ولماذا يبغضون منهج السلفية؟

بصراحة ووضوح نقف وقفة إيمانية مع نظرة المتكلمين الأشعرية التي تتبناها بعض الجمعيات الشرعية وكثير من المؤسسات التعليمية في نظرتهم إلى المتمسكين بالطريقة السلفية، أو نظرتهم إلى المحبين لمنهج السلفيين الراغبين في التمسك به والسير على دربه، والمطالبين بالأدلة الواضحة على كل قول أو فعل من النصوص القرآنية والنبوية، ماذا يريدون الأشعرية من الطريقة التي تقوم على تصديق الخبر النبوي الصحيح، وتنفيذ الأمر التكليفي الشرعي الصريح؟ ولماذا يبغضون شيخ

---

(١) انظر تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير ٤٧/١، وانظر فيما سبق القواعد العلمية في النقد عند شيخ الإسلام ابن تيمية، لعبد الله بن محمد الحيالي ص٣٥ بتصرف.

الإسلام ابن تيمية ومن سار على نهجه حينما يطالبون برد جميع الأمور الاعتقادية والشرعية إلى الأصول القرآنية والنبوية؟ وهل سيزول هذا البغض ويحل محله الرضا والحب، وننال به الحظوة والقرب لو وافقناهم على منهجهم في تبني نهج المتكلمين الأشعرية؟

نعم سيحبنا علماء الأشعرية وأكابر الدعاة في بعض الجمعيات الشرعية، لو ترك المتبعون لنهج السلف المطالبة بالأدلة القرآنية أو الأدلة النبوية الصحيحة على قول الأشعرية في الأمور الغيبية، كقولهم بأن الله لا ينزل إلى السماء الدنيا على الرغم من علمهم بأن نبينا محمد ﷺ صرح بوضوح لا غموض فيه أن الله ﷻ ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل؟ كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (يَنْزِل رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالى كُل لَيْلةٍ إلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثلثُ الليْل الآخِرُ، يَقُول: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لهُ، مَنْ يَسْأَلنِي فأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لهُ) (١).

سوف يغضب منك المتكلم الأشعري وينظر إليك على أنك متعصب سلفي سطحي إن قلت كما قال الرسول ﷺ: ينزل ربنا إلى السماء الدنيا؟ ويحبك ويقربك إن قلت: الرسول ﷺ كلامه موهم، ولا يريد أن ربنا ﷻ ينزل إلى السماء الدنيا، وإنما يريد النبي ﷺ أن ملكا من السماء ينزل بالرحمة؟

---

(١) رواه البخاري في أبواب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ١/٣٨٤ (١٠٩٤) (٥٩٦٢)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه ١/٥٢١ (٧٥٨).

نعم سيحبنا علماء الأشعرية وأكابر الدعاة في بعض الجمعيات الشرعية، لو قلنا: لا يجوز أن يسأل سائل ويقول: أين الله؟ لأنه سؤال باطل وقول زور، وتشبيه وتجسيم، كما أن الجواب بأنه في السماء تحيز لله ﷻ في جهة، وحصر لله ﷻ في مكان، وكل من كان في مكان فهو محصور ،حتى ولو لم نصدق سؤال الرسول ﷺ للجارية أين الله؟ فوجب علينا حتى يرضوا عنا، وتتفق كلمة الأمة من وجهة نظرهم أن نعذر نبينا ﷺ في سؤاله، ونتجاوز عن خطئه في أقواله، وأن نبحث عن مخرج لكلامه المرفوض لدى الأشعرية، ولا بد من تأويل يليق بكلام الجارية في قولها بالجسمية، روى مسلم عن مُعَاوِيَة بنِ الحَكَم أنه ﷺ قال للجارية: (أَيْنَ اللهُ؟ قَالتْ: فِي السَّمَاءِ. قَال: مَنْ أنَا؟ قالتْ: أنتَ رَسُول الله، قَال: أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ) (١).

سوف يغضب منك المتكلم الأشعري إن قلت كما قال الرسول ﷺ: أين الله؟ ويحبك ويقربك إن قلت: هذا خطأ، وكلامه ﷺ له معنى خفي لا يعرفه عوام الصحابة والتابعين وتابع التابعين وسائر عوام المسلمين، وإنما المعنى معروف عند المتكلمين، وهو من الأسرار التي لا بد فيها من إلجام العوام عن علم الكلام، فلا يجوز أن يسأل عن الله بأين طلبا لمحبة الأشعرية والتقرب منهم؟ نعم سيغضب منك صاحب المذهب الأشعري لو قلت: إن الله استوى على عرشه في السماء كما أخبر عن نفسه فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾طه:٥. ويحبك لو زدت لاما في الاستواء وقلت: هو استيلاء وليس استواءً، مع أن الاستيلاء إنما يتحقق

(١) مسلم في كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة ١/٣٨١ (٥٣٧).

معناه عند المنع من الشيء والمنازعة عليه، فإذا وقع الظفر به قيل استولى عليه، فأي منع كان هناك حتى يوصف الله بالاستيلاء على العرش ؟!

سيحبك المتكلم الأشعري لو قلت: إن الله ﷻ لا يتكلم بصوت يسمع، وكلامه لا يوصف بجهر ولا سر، وإنما كلامه كلام نفسيّ، ومعنى إيحائيّ، يفهمه جبريل ﵇ ثم يُظهر الحرف والصوت للنبي ﷺ، لأن الصوت من صفات الحوادث، وسيتلون وجهه غضا لو قلت بقول النبيﷺ: إن الله ﷻ يتكلم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب، كما ورد عند البخاري أنه ﷺ قال: (يَحْشُرُ اللهُ الْعِبَادَ فَيُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ، أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ) [(١)].

سيحبك المتكلم الأشعري لو قلت: يجوز لله ﷻ كذا وكذا مما نرتضيه له بعقولنا، ولا يجوز لله ﷻ كذا وكذا مما نقبحه، ويستحيل في حقه كذا، ولا يستحيل كذا وكذا، ويجب في حق الله ﷻ القدم، والبقاء، والقيام بالنفس، والوحدانية، ونفي التركيب، وحلول الحوادث، وهي خمس صفات سلبية احفظها وحفظها لأبنائك في المؤسسات التعليمية. ولله سبع صفات نفسية فقط بلا زيادة، فهو بذاته مريد بإرادة، عالم بعلم، قادر بقدرة، حي بحياة، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلم بكلام لا يسمع، وقد ثبتت له هذه المعاني على ما جاء في النتائج العقلية التي اخترناها دينا للناس واعتقادا لأهل السنة.

كما أن يجب أن تعلم أن النصوص الخبرية الواردة في الآيات القرآنية

---

(١) رواه أحمد في المسند ٤٩٥/٣ (١٦٠٨٥)، والحاكم في المستدرك ٤٧٥/٢ (٣٦٣٨)، والبخاري تعليقا في كتاب التوحيد من صحيحه ٢٧١٩/٦.

وصحيح الأحاديث النبوية التي وردت في صفات الله هي نصوص موهمة للتشبيه والجسمية، وظاهرها أمور باطلة كفرية ومستحيلة على الذات الإلهية، وغير مراد لله ﷻ في كلامه أبدا، فيجب أن نبحث لها عن معان أخرى بديلة، لأن أغلبها من أخبار الآحاد التي لا تفيد اليقين في أمور الاعتقاد.

وكل نص أوهم التشبيه : أوله أو فوِّض ورم تنزيها

وسيحبك المتكلم الأشعري أيضا لو قلت: نصوص الصفات الخبرية لا نعلم معناها، ونفوض المعنى إلى الله، ويجب أن تؤمن بأن كلام الله في الصفات الخبرية مجهول وكلام بلا معنى [(١)].

وسيحبك المتكلم الأشعري ويقربك لو أخذت بكل أنواع الضعيف في الاستدلال على مشروعية الاحتفال بالموالد، والاجتماع عند القباب والمشاهد، وحلقات الطبل والوجد والرقص والذكر، فمحبة الأولياء من الإيمان، وخصوصا الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، والتوسل بالموتى ودعائهم والاستغاثة بالأولياء في قبورهم، فالتوسل طريق مشروع وغير ممنوع، ولا بأس باعتقاد صحة الأسماء المشهورة بلا استثناء والتي لم يسم الله ﷻ بها نفسه في كتابه ولا في سنة رسوله ﷺ طالما اشتهرت وانتشرت بين الناس على ألسنتهم، فالإجماع حقيقته ومعناه اشتهار الأشياء وانتشارها بين العامة.

وسيحبك الأشعري ويقربك لو وسعت على نفسك يا سلفي في

(١) شرح البيجوري على الجوهرة، طبعة المعاهد الأزهرية ص١٠٩.

الفتوى، فمعاملات البنوك الربوية حلال مصفى، وتغطية وجه المرأة بدعة عظمى، وعادة من عادات الجاهلية كختان الأنثى، فختان الأنثى حرام وظلم وإجرام، لا بد من الدعوة إلى منعه، بل نؤيد معاقبة فاعله، إن قلت بهذا فأنت محبوب مقرب، ومفكر مبدع، مرن عاقل راشد، ووسطي غير متطرف ولا متعصب ولا معاند، وسترقى إلى ما تصبوا إليه من المناصب، ولك في وكالة الأمر نصيب.

ونقول بمحبة ونية إيمانية لأصحاب النظرة الأشعرية والمتكلمين منهم بالفلسفة العقلية، ألا يكفينا وإياكم حتى نتفق أن نصدق خبر الله ورسوله ﷺ على مراد الله ورسوله ﷺ تصديقا على وجه اليقين، وأن ننفذ أمر الله ورسوله ﷺ على وجه الكمال في الامتثال؟

- **ماذا يريد مشايخ الطرق الصوفية من المتمسكين بالطريقة السلفية؟**

حال أصحاب الطرق الصوفية في كل مكان على الكرة الأرضية يقول لأصحاب الطريقة السلفية، لا بد لكي تجتمع الأمة الإسلامية ولكي نحبكم ونتفق معكم، لا بد ألا تنكروا علينا الاستغاثة بالموتى من الأولياء، ولا تنكروا علينا طلب الغوث والمدد من سيد الرسل والأنبياء ﷺ، ولا تنكروا قولنا: مدد يا نبي، يا نبي مدد، أو قولنا: نظرة لله يا أبا العباس المرسي، أو شيء لله يا سيد يا بدوي، أنا تحت ظلك وفي حماك يا عدوي، وأغثنا يا سيدي يا أبا الحسن الشاذلي، يا زينب، يا نفيسة، يا أم العواجز، أنا الذليل، أنا العليل، أنا الفقير، يا ابن الرفاعي أنا مستجير.

وقفت بالذل في أبواب عزمكم : مستشفعا من ذنوبي عندكم بكم
أعفر الخد ذلا في التراب عسى : أن ترحمـوني وترضوني عبيدكم

فإن رضيتم فيا عزى ويا شرفي : وإن أبيتم فمن أرجوه غيركم

أصحاب الطرق الصوفية سيحبون السلفيين في العالم بشرط ألا ينكروا علينا توسلاتنا وذكرنا ووجدنا وأذواقنا ورقصنا وتمايلنا وطبلنا وزمرنا واختلاطنا، فلا بد للسلفيين كي نتفق معهم أن يتمايلوا معنا، ويتحلقوا كما نتحلق في ساحات موالدنا، وخلوة مشايخا وطرقنا، بل ويجب عليهم أن يدافعوا عنا بأننا متبعون غير مبتدعين بل مقتفون لأصحاب نبينا ﷺ، بل حلقات ذكرنا هي المعنية بقول نبينا ﷺ: إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، ورياض الجنة حلقات الذكر، فهكذا يكون الأمر في تفسير السنة طلبا لوحدة الأمة، السنة وافقناها وما خالفناه أبدا، ولا تسمعوا لمن يزعم أننا نبتدع في دين الله، أو أن طلب المدد من غير الله شرك، بل هي واسطة ولاية المقربين من أمثالنا الفقراء المساكين.

وحتى تتفق الأمة لا بد أن تحمل كلام العارفين على المحمل السليم، فكلامهم له باطن لا يعلمه أصحاب الظاهر، فما أخطأ الحسين بن منصور الحلاج (ت:٣٠٩هـ) حين قال بأن التوحيد لا يكون توحيدا حقا إلا إذا كانت صيغته هي التي نطق بها الله ﷻ نفسه، بحيث تتلاشى أوصاف المخلوق ويتصف بأوصاف الخالق، فما كان فرعون أو إبليس إلا من أولياء الله الصالحين، أو كما قال الحلاج وهو خير العارفين: (حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك، بخلع أوصافك والاتصاف بأوصافه)[1].

أو كما قال الحلاج في كثير من نصوصه الشعرية نظما ونثرا:

---

(١) أخبار الحلاج نشرة ماسينيون ص٢٤.

سبحان من أظهر ناسوته : سـرا سني لاهـوته الثاقب
حتى بدأ في خلقه ظاهرا : في صورة الآكل والشارب [١] .

ولا بأس إذا رأى الحلاج أن فرعون وإبليس مثالان رائعان للثبات على الحق في اتحاد الخلق بالحق، كما قال: (فصاحبي وأستاذي إبليس وفرعون، فإبليس هدد بالنار وما رجع عن دعواه، وفرعون أغرق في اليم وما رجع عن دعواه، ولم يقر بالواسطة البتة) [٢].

ولكي تتفق الأمة وتجتمع الصوفية مع السلفية في محبة ووئام ينبغي على السلفيين ألا ينكروا على ابن بشيش في صلاته التي يقول فيها: (واقذف بي على الباطل فأدمغه، وزج بي في بحار الأحدية، وانشلني من أوحال التوحيد، وأغرقني في عين بحر الوحدة، حتى لا أري ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها)[٣].

بل إن مشايخ الطرق الصوفية سوف يحبوننا ويصفوننا بالتحقيق والتحقق والعمق والتعمق، والتدقيق والفتوحات والمعرفة العالية في العلم اللدني إذا لم ننكر على ابن الفارض، وهو يقول في تائيته:

وكل الجهات السِّتِّ نحوي مشيرةٌ.. بما تم من نسكٍ وحجٍّ وعمرة.
لهـا صلـواتي بالمقـام أقيمـها .. وأشهد فيـها أنـها لي صلت.
كلانا مصـل واحـدٌ ساجـدٌ إلى.. حقيقـته بالجمع في كل سجدة.
وما كان لي صلى سواي ولم تكن.. صلاتي لغيري في أداء كل ركعة.

---

(١) السابق ص١٣٠.
(٢) السابق ص٥١.
(٣) انظر دلائل الخيرات ص١٤٧، والنفحة العلية في أوراد الشاذلية ص١٦.

والصوفية سوف يحبوننا أكثر وأكثر إذا قلنا بوحدة الوجود، وأن الكل تجليات الذات وشهود حضرة الوجود، فالكل عابد وفي ذات الوقت الكل معبود، والكل حق بلا خلق والكل خلق بلا حق، كما قال محيي الدين بن عربي:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي : إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
لقد صار قلبي قابلا كل صورة : فمرعي لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف : وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أني توجهت : ركائبه فالدين ديني وإيماني[1].

ونقول بمحبة ونية إيمانية لأصحاب النظرة الصوفية: ألا يكفينا وإياكم أن نكون على طريقة الصحابة بلا ابتداع أو غلو أو حلول أو اتحاد للذات أو وحدة الوجود التي لا يعرفها أحد من أصحاب سيدنا رسول الله ﷺ، ألا يكفينا وإياكم قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥ ﴾ البينة:٥. وقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣ ﴾ لقمان:١٣ . وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨ ﴾ النساء:٤٨ .

- **ماذا يريد الشيعة الإمامية الاثنا عشرية من أصحاب الطريقة السلفية.**

أكثر من أربعين قناة فضائية للشيعة الاثنا عشرية مفتوحة على العالم

(١) الاتجاهات الحديثة في دراسة التصوف للدكتور الشرقاوي ص٧٣.

الإسلامي والمسلمين في الدول العربية تبثها الشيعة من العراق ولبنان وإيران، يشنعون في تلك القنوات على الطريقة السلفية، فماذا يريد الشيعة الإمامية الاثنا عشرية من أصحاب الطريقة السلفية لكي يتوافقوا ويتحابوا وتتحد كلمة الأمة؟

يريد الشيعة من السلفيين ليتوافقوا أجمعين في أمة واحدة، أن يتبرأ السلفيون من الأصنام الأربعة عند الشيعة أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية ﷺ، ومن عائشة وحفصة رضي الله عنهما، ومن جميع أتباعهم وأشياعهم، وأن نعتقد أنهم من شر ما خلق الله ﷻ على وجه الأرض، وأنه لا يتم الإيمان بالله ورسوله إلا بعد التبرؤ من هؤلاء.

سيحبك الشيعة إذا قلت بأن الأئمة اثنا عشر إمام، كلهم من أحفاد علي إلى المهدي المزعوم محمد بن الحسن العسكري، وأن الدنيا والآخرة بيد كل إمام منهم، فهو ما زال يتحكم فيها كيف يشاء، يضعها حيث يشاء، ويدفعها إلى من يشاء، بل كل الحوادث الكونية من رعدٍ وبرق وغير ذلك، فأمرها إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي يركب السحاب، وهو عين الله ﷻ في أرضه، ولسان الله ﷻ الناطق في خلقه، وأن الأئمة يعلمون متى يموتون، وأنهم لا يموتون إلا باختيار منهم، وأن الله ﷻ أعطاهم علم الأولين والآخرين، وعلم ما في أصلاب الرجال وأرحام النساء.

سيحبك الشيعة إذا قلت بأن أئمتهم ينزل عليهم الوحي بعد رسول الله ﷺ عن طريق جبريل عليه السلام، بل عن طريق ملك أعظم من جبريل وأفضل، وأن الأعمال تُعرض على الأئمة في كل يومٍ وليلةٍ، وأن أئمتهم

هم الواسطة بين الله وبين خلقه، وأنه لا يدخل الجنة إلا من عرفهم.

سيحبك حين تستغيث بأئمتهم في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى، وأن أئمتهم هم الشفاء الأكبر والدواء الأعظم لمن استشفى بهم، فإذا كان لك حاجة فاكتب رقعة على بركة الله، واطرحها على قبر من قبور الأئمة إن شئت، أو فشدها واختمها، واعجن طينا نظيفا واجعلها فيه، واطرحها في نهر جار، أو بئر عميقة، أو غدير ماء، فإنها تصل إلى السيد الإمام، وهو يتولى قضاء حاجتك بنفسه.

سيحبونك إذا اعتقدت أن زيارة مشاهد وقبور أئمتهم أعظم من الحج إلى بيت الله العتيق، بل إن زيارة قبر الحسين تعدل عشرين حجة، وأفضل من عشرين عمرة وحجة، وأن ما من ليلة تمضي إلا وجبرائيل وميكائيل يزورانه، وأن من زار قبر الحسين كان كمن زار الله ﷻ فوق عرشه، لأن الأئمة يعلمون ما يصيب الناس من البلايا قبل كونها، وأنهم يعلمون علم المنايا وما تكنه الضمائر، وعندهم جميع علوم الملائكة والأنبياء، وأنهم أعطوا ما أعطاه الله ﷻ الأنبياء، وأنهم أعلم من الأنبياء، وأن كل إمام يعلم جميع علم الإمام الذي قبله، وأنهم يظهرون بعد موتهم، وأن أسماءهم مكتوبة على العرش والكرسي واللوح وجباه الملائكة وباب الجنة وغيرها، وأنهم يقدرون على إحياء الموتى وإبراء الأكْمه والأبرص وجميع معجزات الأنبياء [1].

سيحبك الشيعة الإمامية إذا لعنت أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، كل صباح وكل مساء، فتردد دعاء صنمي قريش فتقول كما يقولون

(١) الاتجاهات الحديثة في دراسة التصوف للدكتور الشرقاوي ص٧٣.

كل يوم: (اللهم العن صنمي قريش وجبتيها، وطاغوتيها وإفكيها، وابنتيهما الذين خالفا أمرك، وأنكرا وحيك، وجحدا إنعامك، وعصيا رسولك، وقلبا دينك، وحرّفا كتابك، وعطلا أحكامك، وأبطلا فرائضك، وألحدا في آياتك، وعاديا أولياءك، ووواليا أعدائك، وخربا بلادك، وأفسدا عبادك، اللهم العنهما وأنصارهما فقد أخربا بيت النبوة، وردما بابه، ونقضا سقفه، والحقا سماءه بأرضه، وعاليه بسافله، وظاهره بباطنه، واستأصلا أهله، وأبادا أنصاره، وقتلا أطفاله، وأخليا منبره من وصيه ووارثه، وجحدا نبوته، وأشركا بربهما فعظِّم ذنبهما، وخلدهما في سقر، وما أدراك ما سقر، لا تبقي ولا تذر، اللهم العنهم بعدد كل منكر أتوه، وحق أخفوه، ومنبر علوه، ومنافق ولوه، ومؤمن أرجوه، وولي آذوه، وطريد آووه، وصادق طردوه، وكافر نصروه، وإمام قهروه، وفرض غيروه، وأثر أنكروه، وشر أضمروه، ودم أراقوه، وخبر بدلوه، وحكم قلبوه، وكفر أبدعوه، وكذب دلسوه، وإرث غصبوه، وفيء اقتطعوه) [1].

سيحبك الشيعة الإمامية إذا اعتقدت أن من قرأ هذا الدعاء مرة واحدة كتب الله ﷻ له سبعين ألف حسنة، ومحى عنه سبعين ألف سيئة، ورفع له سبعين ألف درجة، ويُقضى له سبعون ألف ألف حاجة ، وأن من يلعن أبا بكر وعمر في الصباح لم يُكتب عليه ذنب حتى يمسي، ومن لعنهما في المساء لم يكتب عليه ذنب حتى يصبح.

سيحبك الشيعة الإمامية إذا اعتقد أن إمامهم الحادي عشر الحسن

(١) بحار الأنوار للمجلسي ٨٥/٢٦٠.

العسكري قد وُلد له ولد، هو محمد بن الحسن إمامهم الثاني عشر، وأن هذا الولد قد دخل سردابا في دار أبيه بمدينة سُرَّ من رأى وعمره خمس سنوات، ولا يعلم مكان هذا الأمام إلا خاصته من الشيعة، وأنهم يجتمعون كل ليلة بعد صلاة المغرب أمام باب السرداب، ويهتفون باسمِه ويدعونه للخروج.

تلك بعض العقائد الشيعية والزندقة المجوسية التي تقرب أصحاب الطريقة السلفية من الشيعة الاثنا عشرية في العراق ولبنان وإيران وغيرها من البلدان، فهل يرضى بها الأشعرية والصوفية وكل من ينادي بالتقارب والالتقاء مع الشيعة الاثنا عشرية؟ اللهم إنا نبرأ إليك من كل مخالف لكتابك وسنة نبيك(١).

• القواعد العلمية التي يعتمد عليها ابن تيميه في تقويم الرجال.

شتان بين منهج شيخ الإسلام ومنهج المخالفين المنحرفين من الصوفية والمتكلمين الأشعرية وزنادقة الشيعة الاثنا عشرية، فشيخ الإسلام له قواعد وبنيت على نصوص القرآن والسنة الذين هما أصل الإسلام:

القاعدة الأولى: الكلام في الناس يجب أن يكون بعلم وعدل لا بجهل وظلم، والأصل في هذه القاعدة الشرعية قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ

---

(١) انظر المزيد عن اعتقادات الشيعة وأئمتهم وأصولهم في كتاب الفصول المهمة في أصول الأئمة للحر العاملي ص١٤٥، الكافي للكليني ١/٢٥٨، بحار الأنوار للمجلسي ٢٩/٩٤، فروع الكافي ص٥٩، بصائر الدرجات الكبرى للصفار ٨/٣٠، تفسير العياشي ٢/٢٤٣.

عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ المائدة:٨.

وهذه الآية الكريمة ترسم منهجا عظيما يجعل العدل من لوازم الإيمان ومقتضياته، وترسم منهاجا دقيقا يمثل جمع صور العدل مع القريب والبعيد، وينهي عن جميع صور الظلم مع كل أحد، والعدل به قامت السماوات والأرض، وهو نظام كل شيء، وأساس قيام المجتمعات الإنسانية.

قال ابن تيمية: (وأمور الناس إنما تستقيم في الدنيا مع العدل، الذي قد يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم، أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن لم تترك فيها، ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الإسلام والظلم، ذلك أن العدل نظام كل شيء، وإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم يكن صاحبها من أهل الدين، من خلاف، ومتى لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان صاحبها من الإيمان ما يجزي به في الآخرة) (١).

وقال أيضا: (والعدل مما اتفق أهل الأرض على مدحه وصحته والثناء على أهله وصحبتهم، والظلم مما اتفقوا على نبذه وذمه وتقبيحه وذم أهله وبغضهم، والعدل من المعروف الذي أمر الله به، وهو الحكم بما أنزل الله على محمد ﷺ، وهو أكمل أنواع العدل وأحسنها، والحكم

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/١٤٦ .

به واجب على النبي ﷺ وعلي من اتبعه، ومن لم يلتزم حكم الله ورسوله فهو كافر، وهذا واجب على الأمة في كل ما تنازعت فيه من الأمور الاعتقادية أو العلمية)[1].

وفي هذا العصر الذي ندر فيه وجود الإنصاف والعدل، يحتاج المسلم إلى الرجوع دائما إلى منهج أهل السنة والجماعة، الذي هو امتداد لم كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ علما وعملا، ليزن الأمور كلها بميزان قويم لا يتأرجح، حيث أصبحت الأهواء الشخصية، والخلفيات الحزبية هي التي تتحكم بالآراء وتقييم الناس في كثير من الأحيان، فتجد الإنسان يغض الطرف عن أخطاء من يحبه، وإن كانت كبيرة ولا يمكن السكوت عليها، وفي المقابل من ذلك تجده إذا أبغض أحدا لهوي نفسه جرده من جميع الفضائل والمحاسن، ولم يظهر إلا سيئاته وينس فضائله في الدين، وخدمته للإسلام، مهما كانت بينه وواضحة.

قال ابن تيمية رحمه الله في بيان سبب ظهور الفتن والاختلاف بين الناس: (فإن أكثرهم أصحاب المقالات الفاسدة قد صار لهم هوي في ذلك، أن ينتصر جاههم أو رياستهم، وما ينسب إليهم لا بقصد أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، بل ينصبون على من خالفهم وإن كان مجتهدا معذورا لا يغضب الله عليه، ويرضون عمن يوافقهم وإن يحمدوا من لم يحمده الله ورسوله، ولا يذموا من ذم الله ورسوله، وتصير موالاتهم ومعاداتهم على أهواء

(١) منهاج السنة النبوية ٥/٨٤ .

أنفسهم لا على دين الله ورسوله ﷺ)[1].

القاعدة الثانية: التجرد عن الهوى، لأنه من أعظم دواعي الهلاك المذموم، وسمي الهوى لأنه يهوي بالإنسان إلى الهاوية. وأضل ضلال ابن آدم هو إتباع الظن والهوى، قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ النجم:٢٣.

لقد حذر السلف ﵃ من مجالسة أهل الأهواء والبدع، وأمروا بهجرهم، وعدم الرواية عنه؛ لأنهم يعدون من قرب منهم، ومن جالسهم لا يسلم من الشر، فإما أن يتابعه على هواه، أو يدخل الشبهة في دينه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وصاحب الهوى يعميه الهوى فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك ولا يطلبه ولا يرضى لرضا الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضي إذا حصل ما يرضاه ويهواه، ويغضب إذا ما حصل ما يغضب له بهواه، ويكون منه شبهه دين، أن الذي يرضى له ويغضب له وأنه الحق وأنه الدين، وإذا قدر أن الذي معه هو الحق المحض دين الإسلام، ولم يكن مقصده أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، بل قصده الحمية لنفسه أو طائفته أو الرياء؛ ليعظم هو ويثني عليه، أو فعل ذلك شجاعة وطبعا، أو لغرض من الدنيا لم يكن لله ولم يكن مجاهدا في سبيل الله،

(١) منهاج السنة النبوية ٥/١٧٥.

فكيف إذا كان الذي يرى الحق والسنة هو كنظيره معه حق وباطل وسنة وبدعة، ومع خصمه حق وباطل وسنة وبدعة) [١].

ومتّبع الهوى لا بد أن يقوده هواه إلى الظلم والعدوان، بحسب القدرة والاستطاعة لمن خالفه ولم يوافقه، وربما يعادي من له علم ودعوة إلى الله، ويقف في وجهه صادا عن الحق، كما اليهود يفعلون ذلك، كما أن الرد على أهل البدع، وإن كان في نفسه صحيحا، ولكن إذا لم يقصده به الإنسان وجه الله ثم النصح لهم والإحسان لهم، فإن عمله مردود غير مقبول، وغيرهم لم يقصد هنا بيان الحق وهدي الخلق ورحمتهم والإحسان لهم لم يكن عمله صالحا. فوجب عند تقويم أي إنسان أن يقصد فيه بيان الحق، وأن يكون مصدر كلامه من العلم بالحق والهدي من الله، وأن يكون مخلصا لله متجردا له وغايته النصيحة لله ورسوله ولإخوانه المسلمون ثم عليه قبل أن يبدأ في تقويم أي رجل أو نقده أن يفتش في قلبه ويطهره من جميع أنواع الهوى وحب الظهور؛ لكي يكون حكمه منصفا بعيدا عن الجور والظلم المذموم[٢].

القاعدة الثالثة: الحق لا يعرف بالرجال، كما قال على بن أبي طالب ﷺ حيث قال: لا تعرف الحق بالرجال، بل اعرف الحق تعرف أهله. والعاقل ينظر دائما الحق، ثم ينظر بعد ذلك في القول نفسه، فإن كان حقا قبله ورضيه لنفسه سواء كان فاعله باطلا أو محقا، ويحرص على انتزاع الحق ولو من لسان إبليس، فإن الحكمة ضالة المؤمن ينشدها من

---

(١) منهاج السنة النبوية ٥/١٧٦.

(٢) انظر بتصرف القواعد العلمية في النقد عند ابن تيمية، لعبد الله الحيالي ص١٥.

كل أحد، فإن وجدها فهو أحق بها [١].

والتقليد هو قبول رأي من لا تقوم به الحجة بلا حجة، أو هو قبول قول القائل وأنت لا تعلم من أين قاله، وهو من الآفات المهلكة، والتي لها تأثير بالغ في تاريخ البشرية والفكر الإنساني، فهو يؤدي إلى تعطيل النصوص الشرعية والعمل بها، ويؤدي إلى إهمال العقل البشري والإعمال في ميدانه، فهو آفة مهلكة، حيث أن المقلد لا ينظر إلى المشكلة المتنازع فيها إلا من خلال مقلده، فالحق ما قاله شيخه ومقلده وزعيمه، وإن خالف الدليل الواضح ولو كان الدليل من الكتاب والسنة، والباطل عنده ما خالف قول شيخه ولو دل عليه دليل أنه خلاف الحق والصواب، ولسان حال المقلد يقول الحجة مع شيخي، ولهذا فهو يلوي أعناق النصوص ويطوعها لكي توافق رأيه واجتهاده، ويسخر فكره وعقله لكي يحلل أقوال شيخه وقائدة من أجل أن توافقه النصوص[٢].

قال ابن القيم في بيان أن التقليد مذموم محرم في دين الله: (اتخاذ أحوال رجل بعينه بمنزلة نصوص الشارع، ولا يلتفت إلى قول من سواه، بل ولا إلى نصوص الشرع إلا إذا وافقت نصوص قوله، فهذا والله هو الذي اجتمعت الأمة على أنه محرم في دين الله، ولم يظهر في الأمة إلا بعد انقراض القرون الفاضلة) [٣].

---

(١) السابق ص١٦ بتصرف.

(٢) السابق ص١٧ بتصرف.

(٣) إعلام الموقعين ٢/٢٣٦ .

وكثير من النزاعات والخلافات التي تحدث بين العلماء وطلاب العلم، وكذلك الاضطراب في تقويم الرجال سببه الرئيسي هو التعصب والتقليد لأقوال رجل بعينه، ومحاولة معرفة الحق بأقوالهم واتخاذ أقواله حجه في كل شيء؛ لهذا تري الصادقين من علماء الأمة ينهون طلابهم وتلاميذهم عند تقليدهم ومتابعتهم بغير برهان وحجة، وذلك لأن التقليد داء ينخر بجسم الأمة ويقضي على جانب كبير من نشاطها وفعاليتها في ميادين العلم والمعرفة ويخلد بها إلى الكسل والعجز[1].

قال ابن تيمية: (ولا يجب على أحد من المسلمين التزام مذهب بعينه غير الرسول في كل ما يوجبه ويخبر به، بل كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله ﷺ، واتباع شخص لمذهب بعينه، لعجزه عن معرفة الشرع من غير جهته إنما هو مما يسوغ، ليس هو ما يجب على كل أحد إذا أمكنه معرفة الشرع بغير ذلك الطريق، بل كل أحد كل عليه أن يتقي الله ما استطاع، ويطلب علم ما أمر الله به ورسوله، فيفعل المأمور ويترك المحظور) [2].

قال ابن تيميه: (وكذلك فيمن يبين له في مسألة من المسائل الحق الذي بعث الله رسوله ﷺ ثم عدل عنه، فهو من أهل الذم والعقاب، وأما من كان عاجزا عن معرفة حكم الله ورسوله، وقد اتبع فيها أحدا من أهل العلم والدين، ولم يتبين له أن قول غيره أرجح من قوله، فهو

---

(١) القواعد العلمية للحيالي ص١٧بتصرف.

(٢) إقامة الدليل على إبطال التحليل لابن تيمية ٢/٢٤٠.

محمود مثاب، ولا يذم على ذلك ولا يعاقب) [١].

القاعدة الرابعة: كل بن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، ولو نجا من الخطأ أحد لنجا منها أصحاب رسول الله ﷺ الكرام، وهم خير القرون على وجه الأرض، ومع ذلك لم يسلم أحد منهم من الخطأ والوقوع فيه .

قال شيخ الإسلام: (فأما الصديقون والشهداء والصالحون، فليسوا بمعصومين وهذا في الذنوب المحققة، وأما ما اجتهدوا فيه فتارة يصيبون وتارة يخطئون، فإذا اجتهدوا وأصابوا فلهم أجران، وإذا اجتهدوا وأخطئوا فلهم أجر على اجتهادهم وخطؤهم مغفور لهم، وبعض المبتدعة يري أن الخطأ والإثم والذنب أمران متلازمان، فإذا أخطأ المجتهد ولو بتأويل سائغ، فإنه آثم، ولكن أهل السنة والجماعة يرون أن المجتهد مأجور، والقول قد يكون مخالف للنص الصريح وفاعله معذور، لأن المخالفة بالتأويل لم يسلم فيها أحد من أهل العلم، يقول النبي ﷺ : إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب، فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ، فله أجر) [٢].

وقال أيضا: (جماع هذا أن هذه الأمور تعطى حقها من الكتاب والسنة في الخبر والأمر والنهي، ووجب اتباعه ولم يلتفت إلى من خالفه كائن من كان، ولم يجز اتباع أحد في خلاف ذلك، كما دل عليه الكتاب والسنة وإجماع الأمة من اتباع الرسول وطاعته، وأن الرجل

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٠/٢٢٥ .

(٢) الفتاوى الكبرى ٣/٤٥٣ .

الذي صدر منه ذلك يعطى عذره حيث عذرته الشريعة، بأن يكون مسلوب العقل، أو ساقط التمييز، أو مجتهدا، أو مخطأ اجتهادا قوليا أو عمليا أو مغلوبا على ذلك الفعل أو الترك، بحيث لا يمكنه رد ما هو فيه من الفعل المنكر بلا ذنب فعله، ولا يمكنه أداء ذلك الواجب بلا ذنب فعله، ويكون في هذا الباب نوعه محفوظا، بل لا يتبع ما خالف الكتاب والسنة، ولا يجعل ذلك شرعا ولا منهاجا، بل لا سبيل إلى الله ولا شرعه إلا بما جاء به الرسول ﷺ، وأما الأشخاص الذين خالفوا بعض ذلك على الوجوه المتقدمة فيعتذرون، ولا يذمون ولا يعاقبون، فإن كل أحد من الناس فيؤخذ من قوله وأفعاله ويترك إلا رسول الله ﷺ) [(١)].

لقد بين ابن تيميه من خلال ما سبق منهجا متميزا في نقد الرجال وجرحهم، يقوم أساسه على تمام التثبت والدقة المتناهية في النقل عنهم، مع تمام العدل والإنصاف في الحكم عليهم، فلم يكن من الذين تغلب عليهم العاطفة، ويدفعهم الحماس الفارغ، ولا يوجد اليوم منهج في النقد معشار هذا المنهج الدقيق الواضح الذي قدمه لنا شيخ الإسلام ابن تيميه، ويظهر لنا جليا مدي عدالة شيخ الإسلام ابن تيميه وإنصافه حتى مع من يعاونه ويكيدون له، بل حتى مع من حاولوا قتله ورموه بالتكفير والخروج عن الإسلام[(٢)].

قال ابن تيمية رحمه الله: (والله قد أمرنا ألا نقول إلا الحق، وألا نقول عليه إلا بعلم، وأمرنا بالعدل والقسط، فلا يجوز لنا إذا قال يهودي أو

(١) مجموع الفتاوى ٣٨٣/١٠.

(١) القواعد العلمية للحيالي ص٢٣ بتصرف.

نصراني فضلا عن الروافض قولا فيه حق أن نتركه، بل نرد ما فيه من باطل دون ما فيه من الحق) [(١)].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (وليس مما أمر الله به رسوله، ولا مما يرتضيه عاقل أن نقابل الحجج القوية بالمعاندة والجحد، بل قول الصدق والتزام العقل لازم عند جميع العقلاء، وأهل الإسلام أحق بذلك من غيرهم، إذ هم ولله الحمد أكمل الناس عقولا، وأتمهم إدراكا، وأصحهم دينا، وأشرفهم كتابا، وأفضلهم نبيا، وأحسنهم شريعة) [(٢)].

- رأي ابن تيمية في أبي الحسن الأشعري وابن حزم والغزالي.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في معرض نقده لأبي حسن الأشعري: (أبو حسن الأشعري نشأ في الاعتزال أربعين عاما يناظر عليه، ثم رجع وصرح بتضليل المعتزلة، وبالغ في الرد عليهم) [(٣)].

وقال أيضا: (ولهذا لما كان أبو الحسن الأشعري وأصحابه منتسبين إلى السنة والجماعة، وكان منتحلا للإمام أحمد ذاكرا أنه مقتد به متبعا لسبيله، وكان بين أعيان أصحابه من الموافقة لكثير من أصحاب الإمام أحمد ما هو معروف، حتى أن أبا بكر عبد العزيز يذكر من حجج أبي الحسن من كلامه مثل ما يذكر من حجج لأصحابه؛ لأنه كان عنده من أصحابه رأى أحمد رحمه الله) [(٤)].

---

(١) منهاج السنة النبوية ٢/١٩٩ .
(٢) درء تعارض العقل والنقل ٥/٧٠ .
(٢) مجموع الفتاوى ٤/٧٣.
(٣) السابق ٤/١٦٧ .

وقال أيضا عنه في موضع آخر: (والأشعري ابتلي بطائفتين طائفة تبغضه وطائفة تحبه، وكل منهما يكذب عليه، ويقول: إنه صنف هذه الكتب تقية، وإظهار لموافقة أهل الحديث والسنة من الحنبلية، وهذا كذب على الرجل، فإنه لم يوجد له قول باطن يخالف الأقوال التي أظهرها، ولا نقل ذلك عن خواص أصحابه، ولا يخرج عنه ما يناقض هذه الأقوال الموجودة في مصنفاته، فدعوى أحد في أنه كان يبطن خلاف ما يظهر دعوى مردودة عقلا وشرعا، بل من تدبر كلامه في هذا الباب تبين له قطعا أنه كان ينصر ما أظهره) (١).

ويقول عنه قبل رجوعه إلى مذهب أهل السنة والجماعة: (الأشعري وأمثاله برزخ بين السلف الجهمية، وأخذوا من هؤلاء كلاما صحيحا ومن هؤلاء أصولا عقلية ظنوها صحيحة، وهي فاسدة، فمن الناس من مال إليه من الجهة السلفية، ومن الناس من مال إليه من الجهة البدعية الجهمية كأبي المعالي، ومنهم من سلك مسلكهم كعامة أصحابه) (٢).

قال ابن تيميه في ابن حزم الظاهري: (وكذلك أبو محمد بن حزم فيما صنفه من الملل والنحل، وإنما يستحمد بموافقة السنة والحديث مثل ما ذكره في مسائل القدر والإرجاء ونحو ذلك، بخلاف ما انفرد به من قول في التفضيل بين الصحابة، وكذلك ما ذكره في باب الصفات، فإنه يستحمد فيه بموافقة السنة والحديث؛ لكونه يثبت الأحاديث الصحيحة، ويعظم السلف وأئمة الحديث، ويقول: إنه موافق للإمام

(١) مجموع الفتاوى ١٢/٢٠٤ .

(٢) مجموع الفتاوى ١٦/٤٧١ .

أحمد في مسألة القرآن الكريم وغيرها، ولا ريب أنه موافق له ولو في بعض ذلك. لكن الأشعري ونحوه أعظم موافقة للإمام أحمد بن حنبل، ومن قبله من الأئمة في القرآن الكريم والصفات، وإن كان أبو محمد ابن حزم في مسائل الإيمان والقدر أقوم من غيره، وأعلم بالحديث تعظيماً له ولأهله من غيره، ولكن قد خالط من أقوال الفلاسفة والمعتزلة في مسائل الصفات ما صدفه عن موافقة أهل الحديث في معاني مذهبهم من ذلك، فوافق هؤلاء في اللفظ وهؤلاء في المعني، وبمثل هذا صار يذمه من يذمه من الفقهاء والمتكلمين وعلماء الحديث باتباعه لظاهر لا باطن له، كما نفي من عبادات القلوب إلى ما في كلامه من الوقيعة في الأكابر والإسراف في نفس المعاني، ودعوى متابعة الظاهر، وإن كان له من الإيمان والدين والعلوم الواسعة الكثيرة ما لا يدافعه إلا مكابر، ويوجد في كتبه من كثرة الإطلاع على الأقوال والمعرفة بالأحوال، والتعظيم لدعائم الإسلام، ولجانب الرسالة ما لا يجتمع مثله لغيره) [(١)].

قال ابن تيميه في أبي حامد الغزالي: (ونجد أبا حامد الغزالي مع أنه له من العلم والفقه والنصوص والكلام والأصول وغير ذلك، مع الزهد والعبادة وحسن القصد، وتبحره في العلوم الإسلامية أكثر من أولئك يذكر في كتاب الأربعين ونحوه كتابه المضنون به على غير أهله، فإذا طلبت ذلك الكتاب، واعتقدت فيه أسرار الحقائق وغاية المطالب وجدته قول الصابئة المتفلسفة بعينه، قد غير عباراتهم وترتيباتهم، ومن لم يعلم حقائق مقالات أهل الملل يعتقد أن ذلك هو السر الذي كان بين النبي

(١) مجموع الفتاوى ٤/١٩ .

ﷺ وأبي بكر، وأنه هو الذي يطلع عليه المكاشفون الذين أدركوا الحقائق بنور إلهي، فإن أبا حامد كثيرا ما يميل في كتبه على ذلك النور الإلهي، وعلى ما يعتقد أنه يوجه الصوفية من إدراك الحقائق وكشفها لهم حتى يزنوا بذلك ما ورد من الشرع.

وسبب ذلك أنه كان قد علم بذكائه وصدق طلبه ما في طريق المتكلمين والمتفلسفة من الاضطراب، وأتاه الله إيمانا مجملا كما أخبر به عن نفسه، وصار يتشوق إلى تفصيل الجملة، فيجد في كلامه المشايخ الصوفية ما هو أقرب إلى الحق، وأولى بالتحقيق من كلامه الفلاسفة والمتكلمين والأمر كما وجده، ولكن لم يبلغه من الميراث النبوي الذي عند خاصة الأمة من العلوم والأحوال، وما وصل إليه السابقون الأولون من العلم والعبادة حتى نالوا من الكاشفات العلمية والمعاملات العباديه ما لم ينله أولئك، فصار يعتقد أن تفصيل تلك الجملة يحصل بمجرد تلك الطريق، حيث لم يجد عنده طريق غيرهما؛ لانسداد الطريقة الخاصة السنية النبوية عنه، بما كان عنده من قلة العلم بها، ومن الشبهات التي تقلدها من المتفلسفة والمتكلمين، حتى حالوا بها بينه وبين تلك الطريقة) [1].

ثم قال بعد ذلك عنه: (ولهذا كان الشيخ أبو عمرو بن الصلاح يقول فيما رأيته بخطه: أبو حامد كثر القول فيه، فأما هذه الكتب يعني المخالفة للحق فلا يلتفت إليها، وأما الرجل فيسكت عنه،

(١) مجموع الفتاوى ٤/٦٣ .

ويفوض أمره إلى الله، ومقصوده أنه لا يذكر بسوء؛ لأن عفو الله عن الناس والمخطئ وتوبة المذنب تأتي على كل ذنب، وذلك من أقرب الأشياء إلى هذه وأمثاله، ولأن مغفرة الله بالحسنات منه ومن غيره، وتكفيره الذنوب بالمصائب تأتي على محق الذنوب، فلا يقدم الإنسان على انتفاء ذلك في حق معين إلا ببصره، لاسيما مع كثرة الإحسان، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، والقصد الحسن وهو يميل إلى الفلسفة، ولكن أظهرها في قالب التصوف والعبارات الإسلامية، ولهذا فلقد رد عليه علماء المسلمين حتى أخص أصحابه أبو بكر بن العربي، فإنه قال: شيخنا أبو حامد دخل في بطن الفلاسفة ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر) [١].

- **لماذا لم نجد النقد الذاتي لدى الصوفية كما وجدناه عند ابن تيمية.**

قواعد النقد الذاتي التي التزمها ابن تيمية في نقد كل مخالفة تقع من أتباع الطريقة السلفية، لا نجدها عند الأشعرية الصوفية، فلا يلومون الشعراني مثلا في طبقاته على ما ذكره من تخريفاته واعتقاداته التي لا يمكن أن يتشرف مسلم بذكرها، ونجدهم يسكتون على الخرافات النبهاني في تراجمه للأولياء، بل يطبعونها ويرفعونها وينشرونها في كل مكان يجتمع فيه الصوفية وغيرهم.

ولو ضربنا أمثلة عملية لما ذكره يوسف النبهاني في بعض تراجم الصوفية لاستحى من ذكرها اللسان، وفر القلم هربا من البنان، لكن نذكرها حجة على الصوفية في أشهر كتبهم المنتشرة بين عامتهم

---

(١) مجموع الفتاوى ٤/١٦٤.

وخاصتهم، ليطهروا أنفسهم من هذه النجاسات الحسية والمعنوية، مع الاعتذار لإخواني الطلاب عن هذه القاذورات الصوفية.

ذكر يوسف النبهاني في كتاب جامع كرامات الأولياء، أن ولي الله إبراهيم الملقب بجيعانة رضي الله عنه كان من كراماته ﷺ أن امرأة أتته وسألته الدعاء، وأمرّت يدها على أطماره ـ أي على موضع عورة الولي ـ ثم أمرّتها على وجهها لتتبرك به، وهناك فقيهان روميان فقال أحدهما: يا حرمة تنجست يدك بما مرّت عليه، فنظر الشيخ إليه مغضبا، ثم جلس وغاط ثم نهض، فتقدم الفقيه المنكر وجعل يلعق غائطه، ورفيقه متمسك بأثوابه ويضمه ويقول: ويلك هذا غائط الشيخ!! إلى أن لعق جميع الغائط ببعض التراب، فلما نهض جعل يعاتبه فقال: والله ما لعقت إلا عسلا [(١)].

وذكر يوسف النبهاني أن ولي الله إبراهيم العريان رضي الله عنه كان يخطب الجمعة بالناس وهو عريان، فيحصل للناس بسط عظيم[(٢)]. وأن ولي الله عبد الكريم الدمشقي ﷺ سألوه: هل تستطيع أن تشرب كل ما في هذه البركة؟ قال: فأخذه حال عجيب، ووضع فمه في البركة، فصار يشرب والماء يخرج من إحليله أو ذكره، ولم يزل كذلك يدخل الماء من فمه ويخرجه من إحليله إلى أن فرَغت البركة، قال النبهاني: وهي من أعظم كرماته رضي الله عنه [(٣)].

---

(١) جامع كرامات الأولياء ١/٢٤٠ .

(٢) السابق ١/٢٤٦ .

(٣) السابق ٢/١٠٢ .

وذكر يوسف النبهاني أن ولي الله علي العمري رضي الله عنه من كراماته ما رواه الحاج إبراهيم، قال: دخلت الحمام مع شيخنا الشيخ على العمري ومعنا خادمه محمد الدبوسي، ولم يكن في الحمام غيرنا، قال: فرأيت من الشيخ كرامة من أعجب خوارق العادات وأغربها، وهي أنه أظهر الغضب على خادمه، وأراد أن يؤدبه، فأخذ إحليله أو ذكره بيديه الاثنتين من تحت إزاره بحيث طال طولا عجيبا، بحيث أنه رفعه على كتفه وهو زائد عنه، وصار يجلد به خادمه، والخادم يتلوى من شدة الألم، فعل ذلك مرات ثم تركه وعاد إحليله إلى ما كان عليه، قال الحاج إبراهيم: ففهمت أن الخادم عمل عملا يستحق التأديب، فأدبه الشيخ بهذه الصورة العجيبة، قال النبهاني: ولما حكى لي ذلك الحاج إبراهيم حكاه بحضور الشيخ الذي كان واقفا، فقال لي الشيخ: لا تصدقه، وأخذ يدي بالجبر عني ووضعها على موضع إحليله، فلم أحس بشيء مطلقا، حتى كأنه ليس برجل أبدا، فرحمه الله ورضي عنه، ما أكثر عجائبه وكراماته [(١)].

هذه بعض الأمثلة التي لم نجد صوفيا يشنع عليها في محاضراته أو يدعو إلى تنقية التراث الصوفي من خرافاته وتراهاته، أو يدعو كل صوفي إلى ترك ما يخالف الكتاب والسنة من ابتداعاته وشركياته.

- بعض الأمثلة العملية لتسامح شيخ الإسلام ابن تيمية مع خصومه.

ألف شيخ الإسلام ابن تيمية رسالة مختصرة بعنوان الاستغاثة، وهي رسالة علمية مدعمة بالأدلة الشرعية في حكم الاستغاثة بالمخلوق،

---

(١) جامع كرامات الأولياء ٢/٢٠٨ .

وكان الأليق بالعلماء الذين يختلفون معه أن يتصدوا لمثل هذه المسألة بالدليل العلمي والبرهان، بعيدا عن التكفير والحكم عليه بالزندقة والشتائم واللعان، لكن الشيخ الصوفي على البكري كان رده على هذه الرسالة أن حكم على شيخ الإسلام ابن تيمية بالكفر والزندقة والخروج عن ملة الإسلام! ولم يكتف الشيخ البكري الصوفي بمجرد تكفير ابن تيمية، بل بالغ في إيذاء ابن تيمية بالقول والعمل، فقد قام باستعداء العوام على الشيخ وحرض الجند وأصحاب الدولة على شيخ الإسلام وشهر به وبالغ في سبه.

وكان الشيخ البكري الصوفي من أشد الصوفية على شيخ الإسلام ابن تيمية، ففي محنة الشيخ مع الصوفية سنة٧٠٧هـ حول قضية الاستغاثة طالب بعضهم بتعزير شيخ الإسلام إلا أن الشيخ البكري طالب بقتله وسفك دمه! وفي سنة٧١١هـ تجمهر بعض العوام من الصوفية بزعامة الشيخ البكري وتابعوا شيخ الإسلام ابن تيمية حتى تفردوا به وضربوه، وفي حادثة أخرى تفرد البكري بابن تيمية ووثب عليه ونتش أطواقه وطيلسانه، وبالغ في إيذاء ابن تيمية.

وفي المقابل تجمع الناس وشاهدوا ما حل بشيخ الإسلام من أذية وتعدي فطلبوا الشيخ البكري فهرب، وُطلب أيضا من جهة الدولة فهرب واختفى، وثار بسبب ما فعله فتنة كبيرة، وحضر كثير من الجند ومن الناس إلى شيخ الإسلام ابن تيمية لأجل الانتصار له والانتقام من خصمه الذي كفره واعتدى عليه، وطالبوا أن يشير عليهم بما يراه مناسبا للانتقام من خصمه البكري الصوفي؛ فأجابهم شيخ الإسلام

قائلا: أنا ما أنتصر لنفسي!! فماج الناس والجند، وأكثروا عليه وألحوا في طلب الانتقام؛ فقال لهم: إما أن يكون الحق لي، أو لكم، أو لله، فإن كان الحق لي فهو في حل، وإن كان لكم فإن لم تسمعوا مني فلا تستفتوني وافعلوا ما شئتم، وإن كان الحق لله، فالله ﷻ يأخذ حقه كما يشاء ومتى يشاء.

ولما اشتد طلب الدولة للبكري وضاقت عليه الأرض بما رحبت، هرب وبحث عن مكان يتخفى فيه من عقاب السلطان، فلم يجد إلا بيت شيخ الإسلام ابن تيمية لما كان مقيما في مصر، فآواه وأكرمه حتى شفع فيه ابن تيمية عند السلطان وعفا عنه!! قابل ابن تيمية ظلم فالبكري وتكفيره والاعتداء والعدوان والبهتان، قابله بالعفو والكرم والإحسان، ولو كان المتجاوز سلفيا ووقع في يدي أشعري أو صوفي أو شيعي لما فعلوا ما فعله شيخ الإسلام ابن تيمية من العفو عند المقدرة.

لقد كان شيخ الإسلام رحمه الله من أكثر العلماء الجهابذة الذين تعرضوا لأذى الحساد من الأقران، ولكنه كان من ألطف الناس وأرحمهم بالخصوم الذين تسببوا في سجنه وطالبوا بقتله، وبعد أن وشى به بعض العلماء عند السلطان، وكذبوا عليه وألّبوا الحكام والأمراء عليه فسُجن وعذب، وتولى كِبر ذلك الجُرم الشيخ الصوفي نصر المنجي والأمير ركن الدين بيبرس تلميذ المنجي، وجماعة من الفقهاء والعلماء، الذين ناصروا بيبرس في انقلابه ضد السلطان ناصر بن قلاوون، ولكن شاء الله أن تزول أمارة بيبرس، ويضم السلطان ناصر بن قلاوون دمشق ومصر إلى حكمه، ولم يكن همّ السلطان إلا الإفراج عن شيخ الإسلام

المسجون ظلما وزورا في سجن بالإسكندرية في مصر، فأخرجه معززا مكرما مبجلا، فقام له السلطان تكريما واحتراما ووضع يده في يد ابن تيمية ودخلا على كبار علماء مصر والشام.

ثم اختلى السلطان ناصر قلاوون بشيخ الإسلام ابن تيمية وأخرج له فتوى العلماء الذي ساهموا في عزله وسجن ابن تيميه بقتله واستباحة دمه، ورغب السلطان أن يفتي ابن تيمية بقتلهم انتقاما له وللسلطان بسبب وقوفهم مع ركن الدين بيبرس ومبايعتهم له وإفتائهم بعزل السلطان ناصر قلاوون، وأخذ السلطان يحث ابن تيمية على إصدار فتوى بجواز قتل هؤلاء العلماء، ويذكره بأن هؤلاء العلماء هم الذين سجنوه وظلموه واضطهدوه، وأنها قد حانت الساعة للانتقام منهم، وأصر السلطان ناصر بن قلاوون على طلبه من شيخ الإسلام كي يستخرج منه فتوى بجواز قتلهم! فرفض ابن تيمية وقام بتعظيم هؤلاء العلماء والقضاة، وأنكر أن يُنال أحد منهم بسوء، وأخذ يمدحهم ويثني عليهم أمام السلطان، وشفع لهم بالعفو والصفح عنهم، ومنعه من قتلهم، وقال للسلطان: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم من العلماء الأفاضل، ومن آذاني فهو في حل، ومن آذى الله ورسوله ﷺ فالله ينتقم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي! وما زال ابن تيمية بالسلطان يقنعه أن يعفو عنهم حتى استجاب له السلطان فأصدر عفوه عنهم وخلى سبيلهم.

قال الشيخ علم الدين البرزالي: (لما دخل السلطان ناصر قلاوون إلى مصر يوم عيد الفطر لم يكن له دأب إلا طلب الشيخ تقي الدين بن تيمية من الإسكندرية؛ معززا، مكرما، مبجلا؛ فوجه إليه في ثاني يوم من

شوال؛ بعد وصوله بيوم أو يومين؛ فقدم الشيخ تقي الدين على السلطان يوم الجمعة؛ فأكرمه، وتلقاه، ومشى إليه في مجلس حافل في قضاة المصريين والشاميين، وأصلح بينه وبينهم، ونزل الشيخ إلى القاهرة، وسكن بالقرب من مشهد الحسين، والناس يترددون إليه، والأمراء، والجند، وكثير من الفقهاء والقضاة؛ منهم من يعتذر إليه، ويتنصل مما وقع منه؛ فقال الشيخ: أنا أحللتُ كل من أذاني.. إلى أن قال: وإن السلطان استفتى الشيخ في قتل بعض القضاة؛ بسبب ما كانوا يتكلمون فيه، وأخرج له فتاوى بعضهم بعزله أي الملك، وأنهم قاموا عليك؛ وآذوك أنت أيضا، وأخذ يحثّه بذلك على أن يفتيه في قتل بعضهم.. وإنما كان حنقه عليهم أي الملك على العلماء بسبب ما كانوا سعوا فيه من عزله، ومبايعة بيبرس الجاشنكير؛ ففهم الشيخ مراد السلطان؛ فأخذ في تعظيم القضاة والعلماء؛ وينكر أن ينال أحد منهم بسوء؛ وقال: إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم؛ فقال له أي الملك: إنهم قد آذوك؛ وأرادوا قتلك مرارا.. فقال الشيخ: من آذاني فهو في حل، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي؛ وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح) [1].

وكان من أشد المحرضين على قتل شيخ الإسلام ابن تيمية قاضي المالكية ابن مخلوف، قال: (ما رأيت كريما واسع الصدر مثل ابن تيمية فقد أثرنا الدولة ضده، ولكنه عفا عنا بعد المقدرة، حتى دافع عن أنفسنا وقام بحمايتنا، حرضنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر علينا

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٤/٦١ .

فصفح عنا وحاجج عنا)[1].

قال الشوكاني: (وقع للشيخ رحمه الله من أهل عصره قلاقل وزلازل، وامتحن مرة بعد أخرى في حياته وجرت فمن عديدة، والناس قسمان في شأنه، فبعض منهم مقصر به عن المقدار الذي يستحقه بل يرميه بالعظائم، وبعض منهم يبالغ في وصفه ويجاوز به الحد ويتعصب له كما يتعصب أهل القسم الأول عليه، وهذه قاعدة مطردة في كل عالم يتبحر في المعارف العلمية، ويفوق أهل عصره، ويدين بالكتاب والسنة فإنه لابد وأن يستنكر المقصرون، ويقع له معهم محنة، ثم يكون أمره الأعلى وقوله الأولى، ويصير له بتلك الزلازل لسان صدق في الآخرين ويكون لعلمه حظ ولا يكون لغيرة، وهكذا حال هذا الإمام، فإنه بعد موته عرف الناس مقدار، واتفقت الألسن بالثناء عليه، إلا من لا يعتد به، وطارت مصنفاته، واشتهرت مقالاته)[1].

- هل صحيح ما ذكره ابن بطوطة عن ابن تيمية في تجسيد النزول؟

استدل كثير من خصوم ابن تيمية للنيل منه بقصة ذكرها ابن بطوطة في رحلته المشهورة، حيث زعم أنه شاهد ابن تيمية على منبر الجامع بدمشق يعظ الناس ويشبه نزول الله إلى السماء الدنيا بنزوله هو من درجة المنبر! والحقيقة أن ما ذكره ابن بطوطة غفر الله له لا وزن في الميزان العلمي والبحثي، وقد قرر كبار الباحثين المختصين في تراث ابن بطوطة وابن تيمية بأن هذه القصة مختلقة ولا سند يدعهما أو

(١) العلو الذهبي ص ١٨٨، وسير أعلام النبلاء ١٨/٤٧٤.
(٢) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع لمحمد على الشوكاني ١/٥٨.

يصححها، والسبب في ذلك، ثبوت عدم دقة ابن بطوطة وأمانته في رحلة، فق تكلم كثير من العلماء عن رحلة ابن بطوطة، وتناولوها بالنقد والتحليل والدراسة، وخلصوا أنها مجرد مذكرات كتبها المؤلف، ولا تعد توثيقا أمينا يمكن الاعتماد عليه، فهذه الرحلة ليست من كتب التاريخ المعتبرة والمعتمدة، فضلا عن مؤلفها الذي لم يكن معروفا أنه من أهل الدراية والخبرة والعلم، وقد أثبت المحقق حسن السائح أن ابن بطوطة ربما سمع باسم عالم من علماء البلد التي زارها، فيذكر اسمه في رحلته ولو لم يتصل به اتصالا شخصيا، أو يقابله حقيقة، بل يستفيد مما سمعه ويضمنه رحلته وكأنه قابله أو شاهده، كما فعل في تونس حين ذكر علما من أعلامها وهو ابن الغماز، ومما يزيد الأمر وضوحا أن رحلة ابن بطوطة تضمنت أمورا يقطع العلم بكذبها، كما زعم إنه زار بعض الجزر والبلدان التي فيها نساء ذوات ثديٍ واحدة، وكذلك بعض العجائب والخرافات التي حكاها في رحلته يقطع الإنسان بأنها مختلقة ومجرد أساطير يتناقلها الناس، ويسجلها ابن بطوطة وكأنه شاهدها أو اتصل بها.

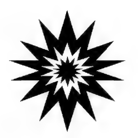
ومن يحقق ويدقق فيما نقله ابن بطوطة عن ابن تيمية يقطع بكذبه، وذلك لأن ابن بطوطة ذكر أنه حضر يوم الجمعة وابن تيمية يعظ الناس على منبر الجامع ونزل من درجة المنبر وهو يقول: إن الله ينزل إلى السماء الدنيا كنزولي هذا. وقد كذب ابن بطوطة غفر الله له، لأن الثابت الصحيح أنه لم يسمع من ابن تيمية ولم يجتمع به، إذا كان وصوله إلى دمشق يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المبارك عام ست

وعشرين وسبعمائة هجرية، وكان سجن ابن تيمية في قلعة دمشق أوائل شعبان من ذلك العام إلى أن توفاه الله تعالى ليلة الاثنين لعشرين من ذي القعدة عام ثمان وعشرين وسبعمائة هجرية، فكيف رآه ابن بطوطة يعظ على منبر الجامع وسمع منه؟! كما أن كل من ترجم لشيخ الإسلام ابن تيمية لم يذكر أبدا أنه كان يخطب أو يعظ على منبر الجمعة، ولو كان ذلك كذلك لذكره من ترجم له لأهميته، وإنما كان شيخ الإسلام يجلس على كرسي يعظ الناس، ويكون له مجلسا غاصا بأهله، كما أن حادثة مثل هذه لو صحت فإنها كانت أمام أعين الناس، وعلى منبر في مكان مشهور، ومن عالم مشهور ومحسود وله أعداء كثر، ويقول ما لا يسع الناس السكوت عنه، ثم ينفرد ابن بطوطة بنقل هذه الحادثة التي تتوافر جميع أسباب نقلها وتواترها فيها.

وكل من كان له إلمام بسيط بتراث شيخ الإسلام ابن تيمية يقطع جازما أن هذه القصة مختلقة، وليراجع من يشاء مجموع الفتاوى، أو درء التعارض ليعلم أن ابن تيمية يحارب كل من استخدم قياس التمثيل والشمول في باب الصفات من الممثلة والمعطلة، ولا يؤمن إلا بما آمن به سلف الأمة رضوان الله عليهم، بل خص ابن تيمية هذه المسألة بكتاب مستق، فليراجع من يشاء كتاب شرح حديث النزل لابن تيمية ليتعرف عن قرب على عقيدته في نزول الرب سبحانه، وصفاته تعالى.

إذا كان هناك من يستجيز الكذب والبهتان لينصر مذهبه، أو ليهزم خصمه، فإنه لا شك أنه بكذبه يظهر عوره دون أن يشعر، قال الدكتور علي المنتصر الكتاني الذي حقق كتاب رحلة ابن بطوطة عن هذه

القصة: (هذا محض افتراء على الشيخ رحمه الله، فإنه كان قد سجن بقلعة دمشق قبل مجيء ابن بطوطة إليها بأكثر من شهر، فقد اتفق المؤرخون أنه اعتقل بقلعة دمشق لآخر مرة في اليوم السادس من شعبان سنة ٧٢٦هـ ولم يخرج من السجن إلا ميتا، بينما ذكر المؤلف ابن بطوطة من كتابه أنه وصل دمشق في التاسع من رمضان) [(١)].



(١) رحلة ابن بطوطة ص١٠٢.

المطلب الثلاثون

أصول الإيمان عند السلف توافق الفطرة في نقائها وسلامتها ويقبلها العقل في منطقيتها وبساطتها



الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.

فقد تحدثنا في المطلب السابق عن وقفة إيمانية مع النظرة الأشعرية الصوفية الشيعية للطريقة السلفية في فهم الأصول القرآنية والنبوية، وبينا أن الاختلاف بين المسلمين واقع بالإرادة الكونية غير أنه محرم بالإرادة الشرعية، ثم تحدثنا عن مشروعية النقد البناء لرد شبهات الباطل والدفاع عن الحق، وتناولنا الحديث عن الوقفة الإيمانية مع النظرة الأشعرية ولماذا يبغضون منهج السلفية؟

ثم ماذا يريد أصحاب الطرق الصوفية من المتمسكين بالطريقة السلفية؟ وكذلك ماذا يريد الشيعة الإمامية الاثنا عشرية من أصحاب الطريقة السلفية، ولماذا يبغضون شيخ الإسلام ابن تيمية؟ ثم بينا القواعد العلمية التي يعتمد عليها ابن تيميه في تقويم الرجال، ورأي ابن تيمية في أبي الحسن الأشعري وابن حزم والغزالي.

ولماذا لم نجد النقد الذاتي لدى الصوفية كما وجدناه عند شيخ الإسلام ابن تيمية؟ ثم ضربنا بعض الأمثلة العملية لتسامح ابن تيمية مع

خصومه وعفوه عند المقدرة، ثم تحدثنا كذب المفترين على ابن تيمية في ادعائهم تجسيد نزول الله كنزوله من على المنبر، وهل صحيح ما ذكره ابن بطوطة في هذا الشأن؟

وفي هذا المطلب إن شاء الله نتحدث عن إجمال أصول الإيمان في القرآن والسنة، وأنها توافق الفطرة في نقائها وسلامتها، ويقبلها العقل في منطقيتها وبساطتها.

- منهج السلف في الإيمان هو الواقع العملي للقرآن والسنة.

ونحن في نهاية دورة منة الرحمن في توحيد العبادة وحقيقة الإيمان نعود إلى المرجع فيما بدأناه في دورة أصول العقيدة حيث علمنا أن حقيقة الإسلام في القرون الفاضلة قبل قيام الفرق والمذاهب كانت ممثلة في تصديق الصحابة ﭫ لخبر الله وتنفيذ أمره، فتصديق الخبر هو معنى الإيمان، وتنفيذ الأمر هو معنى الإسلام.

وهذا المنهج يعتبر منهجا إيمانيا فطريا مبنيا على الفهم الدقيق لحقيقة الإسلام والإيمان، فهم كانوا ﭫ يصدقون خبر الله ورسوله ﷺ تصديقا جازما ينفي الوهم والشك والظن، وكانوا ينفذون الأمر تنفيذا كاملا يقوم على الطاعة والإخلاص والحب، بحيث تنسجم فطرتهم النقية مع توجيه النصوص القرآنية والنبوية.

ذلك المبدأ أعني مبدأ تصديق الخبر وتنفيذ الأمر بعيدا عن الفلسفات العقلية والآراء الكلامية التي أحدثتها مختلف الفرق الإسلامية، هو غاية من جاء بعدهم، وسلك دربهم في مختلف العصور، مهما تنوعت كلماته، أو بدت اعتقاداته في توحيد الله ﻷ، والعمل بأحكامه.

لقد كان المسلم في عصر خير القرون عندما يشهد ألا إله إلا الله؛ فإنه يكون قد عقد في نفسه عقدا أن الله ﷻ هو المعبود الحق الذي يصدق في خبره دون تكذيب، والذي يطاع في أمره دون عصيان، وتلك حقيقة الإيمان التي نزل بها القرآن، وفهمها أصحاب اللسان، ليست مجرد كلمة ينطق بها اللسان لا شروط لها ولا أركان، بل شهادة فيها حكم وإعلام، وقضاء وإلزام، وفصل بين الكفر والإيمان، والشرك والإسلام، شهادة لها شروط سوف يلزم بها ويعمل بمقتضاها.

وقد بين ابن القيم رحمه الله أن أساس التوحيد والهداية التي منَّ الله ﷻ بها على عباده، يقوم على تصديق خبر الله ﷻ من غير اعتراض شبهة، وامتثال أمره من غير اعتراض شهوة، ثم يقول: (وعلى هذين الأصلين مدار الإيمان، وهما تصديق الخبر، وطاعة الأمر) [(١)].

ولما كان الصحابة ﭫ هم أهل الفصاحة واللسان، وقد خاطبهم الله ﷻ بنوعي الكلام في القرآن؛ فإن منهجهم في مسائل التوحيد والإيمان هو تصديق الخبر وتنفيذ الأمر، فلو أخبرهم الله ﷻ عن شيء صدقوه تصديقا جازما يبلغ حد اليقين، وهذا ما عرف لاحقا عند المتمسكين بمنهج السلف الصالح بتوحيد العلم والخبر، أو توحيد المعرفة والإثبات، أو توحيد الربوبية والأسماء والصفات، أو التوحيد في الوسيلة أو غير ذلك من مسميات واصطلاحات، تتنوع في دلالتها وتتكامل في بيان حقيقتها، ولا تتضارب في معانيها.

ولو أمر الرسول ﷺ أصحابه ﭫ بشيء نفذوه تنفيذا كاملا بالقلب

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/٤٠.

واللسان والجوارح، وهو ما عرف لاحقا بتوحيد العبادة، أو توحيد الإلوهية، أو توحيد القصد والطلب؛ أو توحيد الشرع والإرادة أو توحيد الغاية.

لقد كانت الغاية العظمى لكل من تناول التصنيف والتأليف في العقيدة والتوحيد من علماء السلف الصالح ومن سار على نهجهم حتى عصرنا هي أن يثبتوا لله ﷻ ما أثبته الله ﷻ لنفسه بتصديق خبره، وأن يطيعوا الله ﷻ فيما أمر به على لسان نبيه ﷺ، تلك غاية التوحيد العظمى وطريقة السلف المثلى التي جاهدوا فيها جميع المخالفين لإلزامهم بها.

وقد أجمع الصحابة ﷺ إجماعا سكوتيا دون مخالف، أن يصدقوا خبر ربهم وبلاغ نبيهم، وأن ينفذوا أمر معبودهم عن خضوع وتسليم، ومحبة وتعظيم، ولم يكن بينهم من دان بغير ذلك، ومن شك في ذلك فما قدرهم حق قدرهم، وما أدرك حقيقة إيمانهم وإسلامهم فرضي الله عن الصحابة أجمعين. وقد ذكر أبو بكر البيهقي (ت:٤٥٨هـ) أن حقيقة الإيمان والتوحيد تكمن في تصديق الخبر، وتنفيذ الأمر، لأن الخبر هو القول الذي يدخله الصدق والكذب، والأمر والنهي كل واحد منهما قول يتردد بين أن يطاع قائله وبين أن يعصي، فمن سمع خبرا واعتقد أنه حق وصدق به، فقد آمن به، ومن سمع أمرا أو نهيا فاعتقد الطاعة له، فكأنما آمن في نفسه به.. فالإيمان بالله ﷻ إثباته، والاعتراف بوجوده، والإيمان له، والقبول عنه، والطاعة له) [(١)].

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي ١/٣٥ .

- **أصول الإيمان مردها إلى الإيمان في حديث سفيان؟**

وقد كان إرشاد النبي ﷺ لأصحابه ﷺ يهدف إلى تأسيس عقيدة التسليم للوحي والإيمان به دون نزاع، وأن صلاحهم يكمن في التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. روى مسلم في صحيحه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي ﷺ أنه قال: (قُلت: يا رَسُول اللهِ، قُل لي فِي الإسْلاَمِ قَوْلاً لاَ أَسْأَل عَنْهُ أَحَدا بعْدكَ؟ وَفي حَديث أَبي أُسَامَةَ، غَيرَكَ، قَال: قُل آمَنْت باللهِ فَاسْتَقِمْ) [(١)].

وأصل الاستقامة الاعتدال على الطريق الذي رسمه النبي ﷺ لأصحابه في خط مستقيم، ولا يكون الاعتدال إلا بشمولية الإيمان بكل ما ورد عن الله ورسوله ﷺ من أخبار، والتسليم لكل ما جاء عنهما من تشريعات وأوامر؛ فإن التقصير في جانب سيؤدي إلى المبالغة أو الانحراف في جانب آخر، روى الإمام أحمد وصححه الشيخ الألباني من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: (خَطَّ لَنا رَسُول اللهِ ﷺ خَطّا ثمَّ قَال: هَذا سَبيل اللهِ، ثمَّ خَطَّ خُطُوطاً عَنْ يمينِهِ وَعَنْ شِمَالهِ، ثمَّ قَال: هَذهِ سُبل عَلى كُل سَبيل مِنْهَا شَيطَانٌ يدعُو إِليهِ، ثمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الأنعام:١٥٣) [(٢)].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (الكلام في باب التوحيد والصفات

---

(١) السابق، باب جامع أوصاف الإسلام ١/٦٥ (٣٨).

(٢) رواه أحمد في المسند ١/٤٣٥ (٤١٤٢)، والنسائي في سننه في كتاب التفسير، سورة الأنعام ٦/٣٤٣ (١١١٧٤)، وحسنه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح، كتاب الإيمان، باب الاعتصام بالكتاب والسنة (١٦٦).

هو من باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات، والكلام في الشرع والقدر هو من باب الطلب والإرادة الدائر بين الإرادة والمحبة، وبين الكراهة والبغض، نفيا وإثباتا.

والإنسان يجد في نفسه الفرق بين النفي والإثبات، والتصديق والتكذيب، وبين الحب والبغض، والحض والمنع، حتى إن الفرق بين هذا النوع وبين النوع الآخر، معروف عند العامة والخاصة، ومعروف عند أصناف المتكلمين في العلم، كما ذكر ذلك الفقهاء في كتاب الأيْمان، وكما ذكره المقسمون للكلام من أهل النظر والنحو والبيان، فذكروا أن الكلام نوعان، خبر وإنشاء، والخبر دائر بين النفي والإثبات، والإنشاء أمر أو نهى أو إباحة.

وإذا كان كذلك، فلا بد للعبد أن يثبت لله ﷻ ما يجب إثباته له من صفات الكمال، وينفى عنه ما يجب نفيه عنه مما يضاد هذه الحال، ولا بد له في أحكامه من أن يثبت خلقه وأمره، فيؤمن بخلقه المتضمن كمال قدرته وعموم مشيئته، ويثبت أمره المتضمن بيان ما يحبه ويرضاه من القول والعمل، ويؤمن بشرعه وقدره إيمانا خاليا من الزلل، وهذا يتضمن التوحيد في عبادته وحده لا شريك له، وهو التوحيد في القصد والإرادة والعمل والأول يتضمن التوحيد في العلم والقول، كما دل على ذلك سورة قل هو الله أحد، ودل على الآخر سورة قل يا أيها الكافرون، وهما سورتا الإخلاص، وبهما كان النبي ﷺ يقرأ بعد الفاتحة في ركعتي الفجر، وركعتي الطواف، وغير ذلك) (١).

---

(١) مقدمة الرسالة التدمرية ضمن مجموع الفتاوى ٣/٢٠.

وقد ظل أمر السلف الصالح في القرون الفاضلة على نهج الوسطية والاعتدال والشمولية، يسيرون بفضل الله على درب نبيهم، يلتزمون بالسنة لا يقصرون فيها، ولا يهونون منها، ويحذرون من البدعة وينبهون على خطورتها، وقد كان القرآن يتنزل على رسول الله ﷺ ثم يبلغه ويبينه لهم، وهم يتلقونه بالقبول، ويفهمونه ويؤمنون به، ولم يعرف عن أحد منهم أنه تردد أو استشكل شيئا من ذلك.

قال ابن عباس رضي الله عنه: (ما رأيت خيرا من أصحاب رسول الله ﷺ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة، حتى قبض ﷺ، كلهن في القرآن، يسألونك عن المحيض، ويسألونك عن الشهر الحرام، ويسألونك عن اليتامى، ما كانوا يسألونه إلا عما ينفعهم) [(١)].

وقد ظلت أمور العقيدة على هذا الحال، صافية نقية، وأبناء الأمة الإسلامية يؤدون حقيقة العبودية التي أرادها الله عز وجل منهم، يطبقون المناهج المثلى، والنظم العليا لقيادة الإنسان الذي استخلفه الله عز وجل في أرضه واستأمنه في ملكه، حتى ظهر أثر الحاقدين في التشويش على عقيدة المؤمنين، وبرز فكر الجاهلين الذين يقدمون آراءهم وأهواءهم على كل نص قرآني أو حديث نبوي، فكان من أبرزهم في التاريخ الإسلامي، عبد الله بن سبأ اليهودي، الذي أسهم في تفرق الأمة الإسلامية، وكان سببا مباشرا في ظهور الشيعة والخوارج، كأبرز فرقتين ضالتين بين الطوائف الإسلامية.

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري ٣/٤٠.

- تصديق الخبر وأصول الإيمان وتصنيفاته التي تتعلق به.

روى البخاري من حديث أَبي سَعِيد الخدري ﷺ أَنَّ رَجُلا أَتى النَّبي ﷺ فقَال: (أَخِي يشْتكِي بطْنَهُ؟ فقَال: اسْقِهِ عَسَلا، ثمَّ أَتى الثانيةَ فقَال: اسْقِهِ عَسَلا، ثمَّ أَتاهُ الثالثةَ، فقَال: اسْقِهِ عَسَلا، ثمَّ أَتاهُ فقَال: قَد فعَلت، فقَال: صَدقَ اللهُ، وكَذب بطْنُ أَخِيكَ اسْقِهِ عَسَلا، فَسقَاهُ فبرَأَ) [١] .

وفي رواية: (جَاءَ رَجُل إلى النَّبي ﷺ فقَال: إنَّ أَخِي اسْتطْلقَ بطْنُهُ فقَال: اسْقِهِ عَسَلا، فَسقَاهُ، فقَال: إنِّي سقَيته فلَمْ يزدهُ إلا اسْتطْلاقًا، فقَال: صَدقَ اللهُ وكَذب بطْنُ أَخِيكَ) [٢]. والرسول ﷺ يعني التصديق بقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ النحل:٦٩.

وعند ابن ماجة وصححه الشيخ الألباني من حديث أبي هُرَيرَة ﷺ أن النَّبي ﷺ قال: (إنَّ المَيت يصِيرُ إلى القَبر، فيجْلسُ الرَّجُل الصَّالحُ فِي قَبرهِ غَيرَ فَزِعٍ ولا مَشْعُوفٍ، ثمَّ يقَال لهُ: فِيمَ كُنْت؟ فيقُول: كُنْت فِي الإِسْلامِ، فيقَال لهُ: مَا هَذا الرَّجُل؟ فيقول: مُحَمَّد رَسُول اللهِ ﷺ، جَاءَنا بالبينَات مِنْ عِنْد اللهِ فَصدقْنَاهُ) [٣].

وقد كان رسول الله ﷺ يذكر في فضل أبي بكر وعمر رضي الله

---

(١) رواه البخاري في الطب، باب الدواء بالعسل ٥/٢١٥٢ (٥٣٦٠).

(٢) السابق، باب دواء المبطون ٥/٢١٦١ (٥٣٨٦) .

(٣) رواه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى ٢/١٤٢٦ (٤٢٦٨)، وصححه الألباني، انظر مشكاة المصابيح بتحقيق الألباني، كتاب الإيمان، باب إثبات عذاب القبر (١٣٩) .

عنهما أنهما يؤمنان بكل ما أخبر به النبي ﷺ ثقة منه فيهما، كما ورد في الصحيحين من حديث أبي هُرَيرَة ﷺ أنه قال: (صَلى رَسُول اللهِ ﷺ صَلاةَ الصُّبحِ، ثمَّ أَقْبل عَلى النَّاسِ فقَال: بينَا رَجُل يسُوقُ بقَرَةً، إذ رَكِبهَا فَضرَبهَا، فَقَالت: إنَّا لمْ نُخلقْ لهَذا، إنَّمَا خُلقْنَا للحَرْث. فَقَال النَّاسُ: سُبحَانَ اللهِ، بقَرَةٌ تَكَلمُ؟ .. إلى أن قَالَ ﷺ: فَإنِّي أُومِنُ بهَذا أَنَا وَأَبو بكْرٍ وَعُمَرُ، وَمَا هُمَا ثمَّ) [(١)].

لقد علمنا أن الإيمان في باب الأخبار له ستة أركان وردت في حديث عمر ين الخطاب ﷺ حيث قال النبي ﷺ لما سأله جبريل ﵇ عن الإيمان؟: (أَنْ تؤْمِنَ باللهِ وَمَلائِكتَهِ وَكُتبهِ وَرُسُلهِ وَاليوْمِ الآخرِ وَتؤْمِنَ بالقَدرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ، قَال جبريل: صَدقْت) [(٢)].

هذه ستة أركان للإيمان تتعلق بتصديق الأخبار، وما جاء في القرآن والسنة عن عالم الغيب، وهي تمثل توحيد العلم والخبر، أو المعرفة والإثبات، أو توحيد الربوبية والأسماء والصفات.

وقد أخبرنا الله في كثير من النصوص عن الأسماء والصفات التي عرفنا فيها بنفسه، وأبان لنا عن وصفه، وكل ذلك من الغيبيات التي تتطلب التصديق بشرط اليقين، وأخبرنا عن ملائكته وخلقتهم ووصفهم وفعلهم، ودورهم الذي يتعلق بالإنسان، وذلك يتطلب منا الإيمان بهم،

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم ٣/١٢٨٠ (٣٢٨٤)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق ٤/١٨٥٧ (٢٣٨٨) .

(٢) رواه مسلم في الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١/٣٦ (٨).

وكذلك أخبرنا عن كتبه ورسله، ما علمنا منهم وما لم نعلم، وليس لنا إلا الإيمان بهم والتصديق بوجودهم، وأخبرنا عن اليوم الأخر، وما فيه من أحوال وأهوال، وتلك الأخبار تتطلب التصديق أيضا، وأخبرنا عن القدر خيره وشره، وحلوه ومره، وأنه فعل الله للابتلاء وترتيب الجزاء، وهذه أخبار عن الله ﷻ تتطلب التصديق وعلم اليقين.

وبنظرة عميقة نجد أن الترتيب النبوي لأركان الإيمان اشتمل على دور الإنسان في الحياة، وارتباطه بتقدير الله ﷻ، فالمعنى الموضوع بين أركان الإيمان، أن تؤمن بالله الذي أنزل ملائكته بكتبه على رسله ليحذروا العباد من اليوم الآخر، فإذا انتهى الناس بعد العرض والحساب، واستقروا في الآخرة للثواب والعقاب، عندها يكون المصير مطابقا لسابق التقدير الذي دون في أم الكتاب، قبل أن يخلق الله السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. فأركان الإيمان في باب الأخبار أَنْ تؤْمِنَ باللهِ، ومَلائِكَتِه، وكُتُبهِ، ورُسُلهِ، واليوْمِ الآخِرِ، وتؤْمِنَ بالقَدرِ خَيرِهِ وَشَرِّه، ولا يكون الإيمان بهذه الأركان إلا باليقين الذي لا شك فيه، وهو التصديق الجازم الذي لا تكذيب فيه.

- **تنفيذ الأمر وأصول الإيمان وتصنيفاته التي تتعلق به.**

وكما صدق الصحابة ﷺ نبيهم في كل ما أخبرهم عن الله ﷻ، فآمنوا بتوحيد العلم والخبر، فإنهم أيضا أطاعوه في كل ما أمر، وكانوا يبايعونه على ذلك، روى الإمام البخاري في صحيحه من حديث جَرِيرِ بنِ عَبدِ اللهِ ﷺ أنه قال: (بايعْت النَّبي ﷺ على السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،

فَلقَّنَنِي فقال: فِيمَا اسْتطَعْت، وَالنُّصْحِ لكُل مُسْلمٍ) [١].

وروى البخاري من حديث عبادة بن الصامت ﷺ أنه قال: (بايعْنَا رَسُول اللهِ ﷺ عَلى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي العُسْرِ وَاليسْرِ وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ، وَعَلى أَثَرَةٍ عَلينَا، وَعَلى أَنْ لا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، وَعَلى أَنْ نَقُول بالحَقِّ أَينَمَا كُنَّا، لا نَخَافُ فِي اللهِ لوْمَةَ لائِمٍ) [٢].

وعند البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ في موقفه من طاعة الله ورسوله مع ما ألم به من الجوع وشدته، وقد أمره النبي ﷺ بدعوة أهل الصفة إلى قدح من اللبن، فقال ﷺ: (وَلَمْ يكُنْ مِنْ طَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رَسُولهِ ﷺ بد) [٣].

وروي الإمام مالك عَنِ ابن أَبِي مُليكَةَ أَنَّ عُمَرَ ﷺ مَرَّ بامْرَأَةٍ مَجْذومَةٍ وَهِي تطُوفُ بالبيت فَقَال لهَا: يا أَمَةَ اللهِ لا تؤْذي النَّاسَ، لوْ جَلسْت فِي بيتكِ فَجَلسَت؟ فَمَرَّ بهَا رَجُل بعْد ذلكَ فقَال لهَا: إنَّ الذي كَانَ قَد نَهَاكِ قَد مَات، فَاخرُجِي، فَقَالت: مَا كُنْت لأُطِيعَهُ حَيا، وَأَعْصِيه مَيتا [٤].

---

(١) البخاري في الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس ٦/٢٦٣٤ (٦٧٧٨)، ومسلم في الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة ١/٧٥ (٥٦).

(٢) البخاري في الأحكام، باب كيف يبايع الإمام الناس ٦/٢٦٣٣ (٦٧٧٤) ومسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ٣/١٤٧٠(١٧٠٩).

(٣) رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم من الدنيا ٥/٢٣٧٠ (٦٠٨٧).

(٤) رواه مالك في الموطأ، كتاب الحج، باب جامع الحج ١/٤٢٤ (٩٥٠).

وقد بين جعفر بن أبي طالب ﷺ لملك الحبشة موقف الصحابة ﷺ مما جاء به النبي ﷺ من التوحيد، سواء في باب الأخبار، أو في باب الأوامر فقال: فَصَدقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتبعْنَاهُ على مَا جَاءَ بِهِ (١).

وكما أن الإيمان له في باب الأخبار ستة أركان، كذلك له ثلاثة أركان في باب الأوامر، وهي ماهية الإيمان ومسماه، وهي تصديق بالجنان وقول باللسان وعمل بالجوارح والأركان، وهي تتعلق بتنفيذ الأمر وتحقيق المطلوب، والسعي في رضا المحبوب، وهذا توحيد العبودية لله ﷻ، أو توحيد القصد والطلب.

قال ابن القيم: (رحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة، من كملها كمل مراتب العبودية، وبيانها أن العبودية منقسمة على القلب واللسان والجوارح، وعلى كل منها عبودية تخصه، والأحكام التي للعبودية خمسة، واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح، وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح) (٢).

وهذا الكلام من أدق وأشمل ما قيل في توحيد العبودية، لأن أركان الإيمان الأساسية باعتبار تنفيذ أحكام العبودية عند السلف ثلاثة أركان، وهي تصديق بالجنان وقول باللسان وعمل بالأركان (٣).

قال العلامة ابن منده (ت:٣٩٥هـ): (الإيمان قول باللسان، واعتقاد

---

(١) رواه أحمد في المسند ٥/٢٩٠ (٢٢٥٥١)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في فقه السيرة ص١١٥.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/١٠٩.

(٣) انظر الاستذكار لابن عبد البر ٣/١٠٤، والجامع لأحكام القرآن ١٤/٢٨.

بالقلب، وعمل بالأركان، يزيد وينقص) [1].

وكل واحد من هذه الأركان يستقل بتنفيذ أحكام العبودية بأنواعها الخمسة التي تقدمت، وقد يشترك القلب مع اللسان فقط في تنفيذ حكم واحد، أو يشترك القلب مع الجوارح، أو يشترك القلب واللسان والجوارح جميعا في تحقيق أحكام العبودية.

والقصد أنه إذا تم هذا الإيمان بنوعيه المتعلقين بتصديق الخبر وتنفيذ الأمر، ظهر كمال الدين وصدق اليقين، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (اليقين الإيمان كله) [2].

من أجل ذلك أيضا كلف الله الإنسان بالتصديق الجازم لأركان الإيمان، وكل خبر ورد ذكره في القرآن، فقال الله تعالى في تقرير تلك المعان: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ البقرة:١/٥.

- البدع مردها إلى تقديم العقل في باب الخبر وباب الأمر.

عقيدة أهل السنة والجماعة كما أنها بنيت على تقديم النقل على العقل فإنها لا تحارب العقل، وقد علمنا أن الأحكام الشرعية التكليفية الممثلة في الواجب والمستحب والمحرم والمكروه، علمنا أن

---

(١) الإيمان لابن منده ١/٣٤١.

(٢) رواه الإمام البخاري معلقا في كتاب الإيمان ١/٧، ورواه البيهقي في شعب الإيمان ٧/١٢٣ (٩٧١٦).

السيادة والقيادة في هذه الأربعة للنقل أو للقرآن وصحيح السنة، فالنقل هنا هو الذي يحكم بحسن الأشياء وقبحها، والعقل تابع فيها للنقل يؤيده ويعضده، ولن يجد عاقل في فطرته ما يخالف الأحكام التكليفية أو يعارض الشريعة الإسلامية، أما إذا قُدم العقل على النقل في الواجب والمستحب، والمحرم والمكروه من الأحكام، فسوف تظهر البدعة في الإسلام، وسوف تتغير ملامح الشريعة، وتصبح ألعوبة في يد المبتدع.

وأما دور العقل في الحكم على الأشياء بالحسن والقبح، فهذا مقصور على المباح من الأحكام فقط، فالقيادة هنا للعقل الحكيم، والنقل يؤيده ويعضده، فقد ثبت عند مسلم من حديث رافع بن خديج ﷺ أن النبي ﷺ قال عن حادثة تأبير النخل لما تركوه استجابة له: (إنمَا أَنا بَشَرٌ، إذا أَمَرْتكُمْ بِشَيْءٍ مِن دِينكُمْ فَخُذوا بِهِ، وَإذا أَمَرْتكُمْ بِشَيْءٍ مِن رَأيٍ، فَإِنما أَنا بَشَرٌ) [١]. وفي رواية مسلم: (أَنتمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنيَاكُم) [٢].

وهنا ترك الرسول ﷺ الحكم بالحسن والقبح إلى عقولهم واجتهادهم وخبرتهم في الحياة، فالرأي الحكيم مقبول ومقدم في المباحات من أمور الدنيا، دون بقية الأحكام الشرعية، أو التكليفات الدينية.

قال ابن تيمية رحمه الله: (من تعبد بعبادة ليست واجبة ولا مستحبة، وهو يعتقدها واجبة أو مستحبة، فهو ضال مبتدع، بدعة سيئة لا بدعة حسنة باتفاق أئمة الدين، فإن الله لا يعبد إلا بما هو

---

(١) مسلم في الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا، ٤/١٨٣٥ (٦٢٧٦)

(٢) السابق حديث رقم (٦٢٧٧).

واجب أو مستحب)[١].

ومثال البدع المنتشرة بسبب التعبد بعبادة ليست واجبة ولا مستحبة قراءة الفاتحة عند زيارة القبر بدلا من التأسي بالسنة في الدعاء النبوي الذي ورد في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها، قال ﷺ: (السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِين، وَأَتاكُمْ مَا توعَدُون، غَدًا مُؤَجَّلون، وَإِنا إِن شَاءَ اللهُ بِكُمْ لاَحِقُون، اللهُمَّ اغفِرْ لأَهْل بَقِيعِ الغَرْقَدِ)[٢].

قال الإمام مالك رحمه الله: (مَن ابْتدَعَ في الإِسلام بدعة يَراها حَسَنة؛ فَقَدْ زَعَمَ أَن مُحمّدا ﷺ خان الرّسالةَ؛ لأَن اللهَ يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ المائدة:٣، فما لم يَكُن يَوْمَئذ دينا، فَلا يكُون اليَوْمَ دينا)[٣].

وأما بدع الاعتقادات فسببها تقديم العقل في باب الأخبار كبدعة المعتزلة في القول بخلق القرآن التي فرضها الخليفة المأمون بن هارون، وقتل فيها المئات من المسلمين، فلما أصر المعتزلة على نفي صفة الكلام عن الله بعقولهم الفاسدة، تبادر إلى الذهن سؤال هام وهو: إذا كان الله لا يتكلم، فهذا القرآن كلام من؟ ومن الذي تكلم به؟ فقالوا: تكلم به محمد ﷺ، ولما كان محمد ﷺ مخلوقا فكلامه مخلوق، وقد خلق الله محمدا ﷺ وخلق كلامه كما خلق سائر الأشياء، أما هو سبحانه فعندهم لا يتكلم، ولا يكلم أحدا من خلقه، وقد تخبط كثير منهم، فمرة ينسبونه إلى جبريل! ومرة ينسبونه إلى محمد ﷺ! ومرة يزعمون أن الله كان ولم

---

(١) مجموع الفتاوى ١/١٦٠.

(٢) رواه مسلم في الجنائز، باب ما يقال عند دخول القبور ٢/٦٦٩ (٩٧٤).

(٣) انظر الاعتصام للشاطبي ١/٤٩.

يكن عرب ولا كلام عربي، فالله خلق القرآن كما خلق العرب! وغير ذلك من ألوان التخبط في الأدلة والتضارب في القول، وقد أبطل علماء أهل السنة والجماعة بدعة الاعتزال العقلية، ووضعوا القواعد التي يردون بها على من قدم عقله في باب الصفات الخبرية وسائر الأمور الغيبية.

- تقرير شيخ الإسلام ابن تيمية لطريقة السلف في الإيمان.

تلك هي طريقة السلف الصالح في الإيمان والتي عرضناها ملخصة مجملة فيما سبق ترى فيها أصول الإيمان في القرآن والسنة توافق الفطرة في نقائها وسلامتها، ويقبلها العقل في منطقيتها وبساطتها، وقد التزمنا هذه الطريقة في مفردات الدورات العلمية التي مرت بنا في دورة أصول العقيدة في التعرف على منهج أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، وكل ما جاء في النقل الصحيح من أخبار عن الغيبيات.

وكذلك دورة منة القدير في التعرف على منهج أهل السنة والجماعة في توحيد الربوبية ومسائل الإيمان بالقضاء والقدر والحكمة والتدبير، وما يتبعها من أركان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ثم دورة منة الرحمن في التعرف على منهج أهل السنة والجماعة في توحيد العبادة، وإفراد الله بأحكام العبودية، وبيان أنواع الشرك في الإلوهية، وخطورته على الأمة الإسلامية، وحقيقة العمل وأركان الإيمان، وما يقابله من أنواع الكفر والعصيان.

وبهذا نستطيع أن نشعر بأن منطلق العقيدة السلفية منطلق يتفاعل مع فطرة الإنسان ويخاطب عقله ولبه، ويحرك مشاعره وحبه إلى مرضاة الله ﷻ وموافقة شرعه، والتأسي بنبيه ﷺ بحيث لا تنافر ولا نفور بين

العقل والفطرة، أو بين النقل والفطرة، أو بين العقل والنقل.

ولربما عبرنا في هذا المنهج المقرر بصورة عصرية عن منهج عالم مجاهد سعى لتأسيسه وبيانه منذ سبعة قرون، في وقت كانت الأمة تعيش في مستنقع فكري، جهمي اعتزالي أشعري صوفي شيعي إرجائي تكفيري جبري قدري كلامي ذوقي فلسفي، عالم مجاهد سعى إلى أن يرد المسلمين إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ من خلال بابين اثنين إليهما ترد أصول الإيمان، وهما تصديق الخبر وتنفيذ الطلب بصورة مباشرة لما ورد في القرآن والسنة، فتتوافق أصول الإيمان مع الفطرة في نقائها وسلامتها، ويقبلها العقل في منطقيتها وبساطتها، هذا العالم المجاهد هو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

لا أدعي أنني قرأت كل ما ورد في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية لكن منهج التوافق بين النقل والعقل، ومنهج الفطرة السليمة التي تتوافق مع النقل والعقل، وتقبل تقديم النقل على العقل عند التعارض لا بد أن يلتقي مع منهج السلف وإن لم نعرف صاحبه باسمه وذاته أو نعرف أين هو أو متى كان زمانه؟ ولكننا نشعر بوجوده، ويتوافق كلامنا مع كلامه وآراؤنا مع آرائه، ولذلك وقع تحت يدي نص لشيخ الإسلام ابن تيمية قرأته وأنا أكتب المطالب الختامية لدورة منة الرحمن فوجدت أن شيخ الإسلام كأنه يلخص لنا البداية والنهاية في أصول الإيمان عند أهل السنة والجماعة أنقله لطلاب العلم كما هو، وهم سوف يشعرون به وبتأثيره.

قال ابن تيمية: أما العلم بالدين وكشفه فالدين نوعان، أمور خبرية

اعتقادية، وأمور طلبية عملية، فالأول كالعلم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويدخل في ذلك أخبار الأنبياء وأممهم، ومراتبهم في الفضائل، وأحوال الملائكة وصفاتهم وأعمالهم، ويدخل في ذلك صفة الجنة والنار، وما في الأعمال من الثواب والعقاب، وأحوال الأولياء والصحابة، وفضائلهم ومراتبهم وغير ذلك، وقد يسمى هذا النوع أصول دين، ويسمى العقد الأكبر، ويسمى الجدال فيه بالعقل كلاما، ويسمى عقائد واعتقادات، ويسمى المسائل العلمية، والمسائل الخبرية ويسمى علم المكاشفة[١].

والثاني الأمور العملية الطلبية من أعمال الجوارح والقلب كالواجبات والمحرمات والمستحبات والمكروهات والمباحات، فإن الأمر والنهي قد يكون بالعلم والاعتقاد، فهو من جهة كونه علما واعتقادا، أو خبرا صادقا أو كاذبا يدخل في القسم الأول، ومن جهة كونه مأمورا به أو منهيا عنه يدخل في القسم الثاني، مثل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فهذه الشهادة من جهة كونها صادقة مطابقة لمخبرها فهي من القسم الأول، ومن جهة أنها فرض واجب، وأن صاحبها بها يصير مؤمنا يستحق الثواب، وبعدمها يصير كافرا يحل دمه وماله فهي من القسم الثاني.

وقد يتفق المسلمون على بعض الطرق الموصلة إلى القسمين كاتفاقهم على أن القرآن دليل فيهما في الجملة، وقد يتنازعون في بعض الطرق كتنازعهم في أن الأحكام العملية من الحسن والقبيح والوجوب

---

(١) مجموع الفتاوى ١١/٣٣٧.

والحظر، هل تعلم بالعقل كما تعلم بالسمع؟ أم لا تعلم إلا بالسمع؟ وأن السمع هل هو منشأ الأحكام؟ أو مظهر لها كما هو مظهر للحقائق الثابتة بنفسها؟

• ابن تيمية يقرر أن أهل البدع قدموا العقل فضلوا في الإيمان.

ويواصل ابن تيمية كلامه فيقول: وكذلك الاستدلال بالكتاب والسنة والإجماع على المسائل الكبار في القسم الأول، مثل مسائل الصفات والقدر وغيرهما مما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف، وأبى ذلك كثير من أهل البدع المتكلمين بما عندهم على أن السمع لا تثبت به تلك المسائل فإثباتها بالعقل، حتى يزعم كثير من القدرية والمعتزلة أنه لا يصح الاستدلال بالقرآن على حكمة الله وعدله، وأنه خالق كل شيء، وقادر على كل شيء، وتزعم الجهمية من هؤلاء، ومن اتبعهم من بعض الأشعرية وغيرهم أنه لا يصح الاستدلال بذلك على علم الله وقدرته وعبادته، وأنه مستو على العرش.

ويزعم قوم من غالية أهل البدع أنه لا يصح الاستدلال بالقرآن والحديث على المسائل القطعية مطلقا؛ بناء على أن الدلالة اللفظية لا تفيد اليقين بما زعموا، ويزعم كثير من أهل البدع أنه لا يستدل بالأحاديث المتلقاة بالقبول على مسائل الصفات والقدر ونحوهما مما يطلب فيه القطع واليقين[1].

ويزعم قوم من غالية المتكلمين أنه لا يستدل بالإجماع على شيء،

(١) مجموع الفتاوى ٣٣٨/١١.

ومنهم من يقول لا يصح الاستدلال به على الأمور العلمية لأنه ظني، وأنواع من هذه المقالات التي ليس هذا موضعها، فإن طرق العلم والظن وما يتوصل به إليهما من دليل، أو مشاهدة باطنة، أو ظاهرة عام أو خاص، فقد تنازع فيه بنو آدم تنازعا كثيرا.

وكذلك كثير من أهل الحديث والسنة قد ينفي حصول العلم لأحد بغير الطريق التي يعرفها حتى ينفي أكثر الدلالات العقلية من غير حجة على ذلك، وكذلك الأمور الكشفية التي للأولياء من أهل الكلام من ينكرها، ومن أصحابنا من يغلو فيها [(١)].

وخيار الأمور أوساطها، فالطريق العقلية والنقلية والكشفية والخبرية والنظرية طريقة أهل الحديث وأهل الكلام وأهل التصوف قد تجاذبها الناس نفيا وإثباتا، فمن الناس من ينكر منها ما لا يعرفه، ومن الناس من يغلو فيما يعرفه، فيرفعه فوق قدره، وينفي ما سواه، فالمتكلمة والمتفلسفة تعظم الطرق العقلية، وكثير منها فاسد متناقض، وهم أكثر خلق الله تناقضا واختلافا، وكل فريق يرد على الآخر فيما يدعيه قطعيا، وطائفة ممن تدعي السنة والحديث يحتجون فيها بأحاديث موضوعة وحكايات مصنوعة يعلم أنها كذب، وقد يحتجون بالضعيف في مقابلة القوي، وكثير من المتصوفة والفقراء يبني على منامات وأذواق وخيالات يعتقدها كشفا وهي خيالات غير مطابقة، وأوهام غير صادقة، إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا [(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوى ١١/٣٣٩.

(٢) السابق ١١/٣٤٠.

• الحكم على الأشياء بالحسن والقبح كما قرره ابن تيمية.

علمنا مما سبق أن علماء السلف الصالح جوزوا إعمال الفكر والعقل فيما يؤدى إلى إظهار الدين ونصرة المسلمين، والعمل بمقتضى القرآن والرد على المخالفين، الذين يقدمون آراءهم على كتاب رب العالمين، وسنة سيد الأنبياء والمرسلين وأن دور العقل في الإسلام يتعلق بفهمنا للأحكام الشرعية التكليفية، فالواجب والمستحب والمحرم والمكروه، هذه الأربعة السيادة والقيادة فيها للنقل أو للقرآن وصحيح السنة، فالنقل هو الذي يحكم هنا بحسن الأشياء وقبحها، والعقل تابع فيها للنقل، يؤيده ويعضده، بل يخضع له ولا يعارضه، ولن يجد عاقل في فطرته ما يخالف الأحكام التكليفية أو يعارض الشريعة الإسلامية.

أما إذا قُدم العقل على النقل في الواجب والمستحب، والمحرم والمكروه من الأحكام، فسوف تظهر البدعة في الإسلام، وسوف تتغير ملامح الشريعة، وتصبح ألعوبة في يد المبتدع، وإذا قدم العقل على النقل في باب الغيبيات والتعرف على توحيد الأسماء والصفات فسوف تظهر بدع الاعتقادات ويقع القول على الله بلا علم.

وأما دور العقل في الحكم على الأشياء بالحسن والقبح، فهذا مقصور على المباح من الأحكام فقط، فالقيادة هنا للعقل الحكيم والنقل يؤيده ويعضده، فالرأي الحكيم مقبول ومقدم في المباحات من أمور الدنيا دون بقية الأحكام الشرعية، أو التكليفات الدينية.

وقد عبر ابن تيمية عن هذه القضية وهو يدافع عن الطريقة السلفية

ويرد على المخالفين ويحقق مصطلح المصالح المرسلة الذي يقدم فيه العقل على النقل فقال: (والقول بالمصالح المرسلة يشرع من الدين ما لم يأذن به الله غالبا، وهي تشبه من بعض الوجوه مسألة الاستحسان والتحسين العقلي والرأي ونحو ذلك، فإن الاستحسان طلب الحسن والأحسن، كالاستخراج وهو رؤية الشيء حسنا كما أن الاستقباح رؤيته قبيحا، والحسن هو المصلحة فالاستحسان والاستصلاح متقاربان والتحسين العقلي قول بأن العقل يدرك الحسن لكن بين هذه فروق، والقول الجامع أن الشريعة لا تهمل مصلحة قط، بل الله تعالى قد أكمل لنا الدين وأتم النعمة، فما من شيء يقرب إلى الجنة إلا وقد حدثنا به النبي ﷺ، وتركنا على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعده إلا هالك، لكن ما اعتقده العقل مصلحة، وإن كان الشرع لم يرد به، فأحد الأمرين لازم له، إما أن الشرع دل عليه من حيث لم يعلم هذا الناظر، أو أنه ليس بمصلحة وإن اعتقده مصلحة؛ لأن المصلحة هي المنفعة الحاصلة أو الغالبة، وكثيرا ما يتوهم الناس أن الشيء ينفع في الدين والدنيا، ويكون فيه منفعة مرجوحة بالمضرة كما قال تعالى في الخمر والميسر: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ البقرة:٢١٩)[1].

وكثير مما ابتدعه الناس من العقائد والأعمال من بدع أهل الكلام وأهل التصوف وأهل الرأي وأهل الملك حسبوه منفعة أو مصلحة نافعا وحقا وصوابا ولم يكن كذلك، بل كثير من الخارجين عن الإسلام من اليهود والنصارى والمشركين والصابئين والمجوس يحسب كثير منهم أن

(١) مجموع الفتاوى ١١/٣٤٥.

ما هم عليه من الاعتقادات والمعاملات والعبادات مصلحة لهم في الدين والدنيا ومنفعة لهم، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ الكهف:١٠٣/١٠٤. وقد زين لهم سوء عملهم فرأوه حسنا، فإذا كان الإنسان يرى حسنا ما هو سيئ كان استحسانه أو استصلاحه قد يكون من هذا الباب[1].

وهذا بخلاف الذين جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا، فإن باب جحود الحق ومعاندته غير باب جهله والعمى عنه، والكفار فيهم هذا وفيهم هذا، وكذلك في أهل الأهواء من المسلمين القسمان، فإن الناس كما أنهم في باب الفتوى والحديث يخطئون تارة، ويتعمدون الكذب أخرى، فكذلك هم في أحوال الديانات، وكذلك في الأفعال قد يفعلون ما يعلمون أنه ظلم، وقد يعتقدون أنه ليس بظلم وهو ظلم، فإن الإنسان كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ الأحزاب:٧٢. فتارة يجهل، وتارة يظلم، ذلك في قوة علمه، وهذا في قوة عمله.

واعلم أن هذا الباب مشترك بين أهل العلم والقول، وبين أهل الإرادة والعمل، فذلك يقول: هذا جائز أو حسن بناء على ما رآه، وهذا يفعله من غير اعتقاد تحريمه، أو اعتقاد أنه خير له، كما يجد نفعا في مثل السماع المحدث سماع المكاء والتصدية والصفارة والأوتار وغير ذلك، وهذا يفعله لما يجده من لذته، وقد يفعله لما يجده

(١) السابق ٣٤٥/١١.

من منفعة دينه بزيادة أحواله الدينية كما يفعل مع القرآن [(١)].

وهذا يقول: هذا جائز لما يرى من تلك المصلحة والمنفعة، وهو نظير المقالات المبتدعة، وهذا يقول: هو حق لدلالة القياس العقلي عليه، وهذا يقول: يجوز ويجب اعتقادها وإدخالها في الدين إذا كانت كذلك، وكذلك سياسات ولاة الأمور من الولاة والقضاة وغير ذلك.

واعلم أنه لا يمكن العاقل أن يدفع عن نفسه أنه قد يميز بعقله بين الحق والباطل، والصدق والكذب، وبين النافع والضار، والمصلحة والمفسدة، ولا يمكن المؤمن أن يدفع عن إيمانه أن الشريعة جاءت بما هو الحق والصدق في المعتقدات وجاءت بما هو النافع والمصلحة في الأعمال التي تدخل فيها الاعتقادات، ولهذا لم يختلف الناس أن الحسن أو القبيح إذا فسر بالنافع والضار والملائم للإنسان والمنافي له واللذيذ والأليم، فإنه قد يعلم بالعقل هذا في الأفعال[(٢)].

- شعب الإيمان تتعلق بالجنان واللسان وعمل الجوارح والأركان.

روى مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة، أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان) [(٣)].

لما كان الإيمان على الإطلاق يدل بالمطابقة جميع شعب الإيمان

---

(١) مجموع الفتاوى ١١/٣٤٦.

(٢) مجموع الفتاوى ١١/٣٤٧.

(٣) السابق ١١/٣٤٧.

المتعلقة باعتقاد الجنان وقول اللسان وعمل الجوارح والأركان فإنه من الجدير بالذكر تفصيل تلك الشعب مرتبة على أركان الإيمان عند السلف الصالح:

أولا: شعب الإيمان المتعلقة بالقلب وتشمل الشعب القولية والعملية الباطنة في قلب الإنسان، فقد تتعلق بعلم القلب وقوله واعتقاده وأحكام العقل على ما يدركه من العلم، وقد تتعلق بنيته وعزمه ومنطقة كسبه التي تتضمن أعماله القلبية وبيانها كالتالي:

١- الايمان بأسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله.
٢- الايمان بالملائكة والجن.
٣- الايمان برسل الله وخاتمهم محمد ﷺ.
٤- الايمان بالقرآن وجميع الكتب المنزلة قبله.
٥- الايمان باليوم الآخر والبعث بعد الموت والحساب وتوابعه.
٦- الايمان بالجنة ودار الكافرين ومأواهم النار.
٧- الإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى.
٨- محبة الله ورسوله ﷺ ومحبة دينه والمحبة لله وفي الله.
٩- الخوف من الله تعالى والخشية منه.
١٠- الرجاء في الله.
١١- التوكل على الله قبل الأخذ بالأسباب.
١٢- الرضا بقضاء الله وقدره.
١٣- تعظيم النبي ﷺ وتوقيره.
١٤- تعظيم القرآن والسنة.

١٥- الوفاء بالعقود للمسلمين وغيرهم.
١٦- الشكر على نعم الله.
١٧- اعتصام المسلم بحبل الله وقبضه على دينه.
١٨- التورع عن الشبهات.
١٩- ترك الغل والحسد والحقد ونحوها.
٢٠- إخلاص العمل لله وترك الرياء.
٢١- الإنابة إلى الله والمحاسبة.
٢٢- التوبة والاستغفار من الذنب.
٢٣- الحياء شعبة من شعب الإيمان.
٢٤- الصبر على المصائب والبلايا.
٢٥- الصبر على الطاعة ومقاومة الشهوة.
٢٦- الزهد وقصر الأمل.
٢٧- ترك الكبر والتكبر والعجب.
٢٨- الحلم وترك الغضب.
٢٩- مودة أهل الإيمان ومقاربتهم.
٣٠- الغيرة وأن تنتهك حرمات الله.

ثانيا: شعب الإيمان المتعلقة باللسان وتشمل الشعب القولية الظاهرة على اللسان وهي مرتبطة بالنية الكائنة بقلب الإنسان، لكن اللسان هو الركن الأساسي فيها وبيانها كالتالي:

٣١- شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.
٣٢- طلب العلم وتعليمه ونشر العلم وعدم كتمانه.

٣٣- الاستعاذة بالله من شياطين الإنس والجن.
٣٤- الاستغاثة بالله والنداء والدعاء.
٣٥- الدعوة إلى الله على كتاب وسنة بفهم سلف الأمة.
٣٦- كثرة ذكر الله تعالى.
٣٧- حفظ اللسان عن الغيبة والنميمة وتحريم الوقيعة في الأعراض.
٣٨- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
٣٩- الإعراض عن اللغو وما لا فائدة فيه.
٤٠- الإعراض عن الشبهات المفضية لزلات اللسان.
٤١- إفشاء السلام بين المسلمين ورده.
٤٢- تشميت العاطس.
٤٣- الستر على التائبين من أصحاب الذنوب.
٤٤- الصدق في الحديث وترك الكذب.

ثالثا: شعب الإيمان المتعلقة بالجوارح والأركان وتشمل الشعب الفعلية الظاهرة على الجوارح وهي مرتبطة بالنية الكائنة بقلب الإنسان، وكذلك قد يشارك فيها اللسان غير أن الركن الأساسي فيها هو عمل الجوارح والأركان وبيانها كالتالي:

٤٥- الطهارة والوضوء.
٤٦- الصلوات الخمس فرضها ونفلها.
٤٧- الزكاة والصدقات.
٤٨- صيام رمضان وصيام النوافل.
٤٩- الاعتكاف في المساجد على السنة.

٥٠- الحج والعمرة وما فيهما من شعائر الله.
٥١- الجهاد في سبيل الله.
٥٢- المرابطة والحراسة في سبيل الله.
٥٣- الثبات للعدو وعدم الفرار من الزحف
٥٤- أداء الخمس من المغنم.
٥٥- العتق بوجه التقرب إلى الله.
٥٦- الكفارات الواجبة بالجنايات.
٥٧- أداء الأمان إلى أهلها.
٥٨- تحريم قتل النفوس والجنايات عليها.
٥٩- تحريم الفروج وما يجب فيها من التعفف.
٦٠- قبض اليد عن المال الحرام.
٦١- الأضحية في غير الحج.
٦٢- العقيقة للمولود.
٦٣- طاعة أولى الأمر في غير معصية الله.
٦٤- الحكم بين الناس بالعدل.
٦٥- التعاون على البر والتقوى.
٦٦- بر الوالدين والإحسان إليهما.
٦٧- صلة الأرحام وعدم الفجور في الخصام.
٦٨- حسن الخلق والتعامل بسمت الإسلام وآدابه.
٦٩- الإحسان إلى المملوك والخادم والعمال.
٧٠- حق السادة على المماليك.
٧١- حقوق الزوجة الأولاد.

٧٢- عيادة المريض.

٧٣- الصلاة على الميت واتباع الجنازة.

٧٤- مراعاة حقوق الجار من المسلمين وغيرهم.

٧٥- إكرام الضيف.

٧٦- الجود والسخاء وترك البخل.

٧٧- توقير الكبير ورحمة الصغير.

٧٨- إصلاح ذات البين الإصلاح بين الناس.

٧٩- إماطة الأذى عن الطريق[١].

ويلخص لنا ابن تيمية قضية الإيمان وشعبه فيقول: (اسم الإيمان يستعمل مطلقا ويستعمل مقيدا، وإذا استعمل مطلقا فجميع ما يحبه الله ورسوله من أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة يدخل في مسمى الإيمان عند عامة السلف والأئمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم الذين يجعلون الإيمان قولا وعملا، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ويدخلون جميع الطاعات فرضها ونفلها في مسماه) [٢].

ثم يبين أن الإيمان يدخل فيه ما قد يسمى مقاما وحالا مثل الصبر والشكر والخوف والرجاء والتوكل والرضا والخشية والإنابة والإخلاص والتوحيد وغير ذلك [٣].

ومن هذا ما خرج في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: الإيمان

---

(١) انظر المزيد عن شعب الإيمان في كتاب شعب الإيمان للبيهقي.

(٢) مجموع الفتاوى ٦٤٣/٧.

(٣) السابق ٦٤٤/٧ بتصرف.

بضعٌ وستون، أو بضعٌ وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبةٌ من الإيمان، فذكر أعلى شعب الإيمان وهو قول لا إله إلا الله، فإنه لا شيء أفضل منها.. وقد تظاهرت الدلائل على أن أحسن الحسنات هو التوحيد كما أن أسوأ السيئات هو الشرك وهو الذنب الذي لا يغفره الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ النساء:٤٨.

وتلك الحسنة التي لا بد من سعادة صاحبها؛ فمن مات يشهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة، وأما من مات يشرك بالله شيئا دخل النار، وذكر في الحديث أنها أعلا شعب الإيمان.. فأصل الإيمان في القلب وهو قول القلب وعمله وهو إقرارٌ بالتصديق والحب والانقياد، وما كان في القلب، فلا بد أن يظهر موجبه ومقتضاه على الجوارح، وإذا لم يعمل بموجبه ومقتضاه دل على عدمه أو ضعفه؛ ولهذا كانت الأعمال الظاهرة من موجب إيمان القلب ومقتضاه وهي تصديقٌ لما في القلب ودليلٌ عليه، وشاهدٌ له، وهي شعبةٌ من مجموع الإيمان المطلق وبعضٌ له؛ لكن ما في القلب هو الأصل لما على الجوارح.

ولا تنفع الأعمال الظاهرة بدون الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، بل علم القلب وعمله هو أصل الدين في الحقيقة، كما ورد عند البخاري من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (الحَلال بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى المُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلا وَإِنَّ لكُل

مَلكٍ حِمًى، أَلا إِنَّ حِمَى اللهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُهُ، وَإِذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلهُ أَلا وَهِيَ القَلْبُ) [١].

وخلاصة اعتقاد السلف الصالح في ماهية الإيمان وحقيقته عند الإطلاق أنه يدل بالمطابقة على القول والعمل على الإجمال، ويدل بالمطابقة عند التفصيل على قول القلب، وعمل القلب، وقول اللسان وعمل الجوارح، وكذلك لا بد من فهم التلازم الداخلي بين هذه الأركان التي دل عليها اسم الإيمان بالمطابقة، فعمل القلب يدل بالالتزام على عمل الجوارح، وعمل الجوارح يدل باللزوم على عمل القلب إن لم يكن منافقا، فإذا انتفى عمل الجوارح انتفاء كاملا دل يقينا على انتفاء عمل القلب انتفاء كاملا بشرط سلامة القدرة وانتفاء الموانع الأخرى، كأن يكون معذورا بجهله، وكذلك إذا انتفى بعض عمل الجوارح دل على انتفاء بعض أعمال القلب كل حسب درجته زيادة أو نقصا، إيمانا أو كفرا، فقد يجتمع في الرجل كفر وإيمان وشرك وتوحيد، والإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ولو كان جميع الناس على الإيمان المحض لكانوا ملائكة، ولو كانوا على الكفر المحض لكونا شياطين، ولكن الإنسان مبتلى بين كفر وإيمان، يزيد أحدهما فينقص الآخر، وينقص أحدهما فيزيد

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه ١/٢٨ (٥٢) ، ومسلم في كتاب المساقاة ، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ٣/١٢١٩ (١٥٩٩).

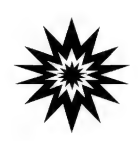
الآخر، وكل ذلك حكمة من الله ومنة على عباده، ليعمل الناس بما شرع الله لهم، فيوحدونه في العبادة بإياك نعبد، ويوحدونه في الاستعانة بإياك نستعين، فالحمد لله رب العالمين .

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ الفاتحة: ١/ ٧.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ البقرة: ٢٨٤/ ٢٨٦.







عقيدة أهل السنة والجماعة في توحيد العبادة وحقيقة الإيمان

اختبار الدورة الثالثة ١٤٣١هـ

الزمن: ساعتان

تخير أقرب الإجابات التي تتوافق مع الصواب على ما درست في دورة منة الرحمن، ثم ظلل باللون الأسود الدائرة التي تتوافق مع إجابتك في ورقة الإجابة؟

(الزمن المناسب لكل سؤال دقيقة).

(١)- يمكن القول: إن الإيمان في باب الأمر هو .

أ- توحيد العبادة لله.

ب- تنفيذ الطلب بالقلب واللسان والجوارح.

ج- تأويل الأمر.

د- كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٢)- قال ابن القيم: (رحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة) .

أ- هذه القواعد تتعلق كلها بالقلب لأنه أساس الصلاح في الإنسان.

ب- هذه القواعد تتعلق بالقلب واللسان عند الخوارج .

ج- هذه القواعد لا تتعلق بالقلب ولا باللسان ولا بالجوارح.

د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٣)- الفرق بين العبادة وتوحيد العبادة .

أ- أن العبادة لا تمنع الشرك بخلاف توحيد العبادة.

ب- أن توحيد العبادة هو توحيد العلم والخبر .

ج- أن العبادة هي أساس دعوة الرسل جميعا.

د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٤)- العبادة في قوله تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون).

أ- هي فقر الاضطرار.

ب- هي فقر الاختيار الذي ورد في قوله تعالى: (إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا) .

ج- هي توحيد الربوبية لله .

د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٥)-قول بعض الصوفية: (العبودية اضطرارا لا اختيار فيه) يقصد به.

أ- أن يجعل أحكام العبودية هي الأحكام الشرعية التكليفية الخمسة.

ب- أن يجعل أحكام العبودية محصورة في حكمين لازمين وهما الواجب والمباح .

ج- أن يجعل أحكام العبودية محصورة في حكمين وهما الواجب والمحرم.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٦)-الحكمة في تشبيه القرآن للمؤمن بالشجرة الطيبة وللكافر بالشجرة الخبيثة.

أ- زيادة الإيمان بالطاعة ونقصانه بالمعصية كما تروى الشجرة أو تهمل.

ب- أن الكلمة الطيبة تدل على أن ماهية الإيمان هو قول اللسان.

ج- أن الأصل في حقيقة الإيمان هو تصديق القلب وقول اللسان فقط.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٧)-العبادة في الإسلام لا تقبل عند الله إلا بشرطين هما:

أ- شهادة ألا إله إلا الله والمتابعة لرسول الله ﷺ .

ب- الإخلاص لله وشهادة أن محمدا ﷺ رسول الله .

ج- غاية الحب مع غاية الذل لله وحده.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٨)-يقسم أوائل الصوفية السالكين إلى ثلاثة أنواع

أ- أعلاهم العابدون ثم العارفون ثم المريدون .

ب- أعلاهم المريدون ثم العارفون ثم العابدون.

ج- أعلاهم المريدون ثم العابدون ثم العارفون.

د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٩)-مَن عَبَد الله لا يريد جنة ولا يخاف من نار فهو عند الصوفية.

أ- من علماء السلف الصالح العابدين الزاهدين.

ب- من المريدين السالكين.

ج- أعلى مقاما من العارفين المحققين .

د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(١٠)-قال البسطامي: (الجنة لا خطر لها عند المحبين وأهل المحبة محجوبون بمحبتهم).

أ- المحجوب بمحبته هو غاية ما يصل إليه الصوفي.

ب- المحجوب بمحبته هو غاية ما يصل إليه العابد.

ج- المحجوب بمحبته هو غاية ما يصل إليه العارف.

د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(١١)-قال الهروي: (ما وحد الواحد من واحد .. إذ كل من وحده جاحد) وكلامه

أ- يدل على غاية التحقيق في توحيد العبادة التي أمر الله بها.

ب- يدل على الفناء عن عبادة السوى.

ج- يدل على الفناء عن وجود السوى .

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(١٢)-المقامات الصوفية هي وصف طريق العابدين الزاهدين ومنها

أ- الخوف والرجاء.

ب- القبض والبسط.

ج- الهيبة والأنس .

د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(١٣)-التواجد والوجد والوجود عند الصوفية

أ- من مقامات العابدين.

ب- من أحوال المريدين.

ج- من أحوال العارفين المحققين .

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(١٤)-قسم القرآن الكريم أنواع السالكين ممن ورثوا الكتاب إلى

أ- المقتصدين أصحاب اليمين والمريدين المحبين.

ب- السابقين المقربين والمقتصدين أصحاب اليمين .

ج- العارفين المحققين والمريدين المحبين والعابدين الزاهدين.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(١٥)-من أحوال المريدين في الطريق الصوفي

أ- الغيبة والحضور.

ب- المحو والإثبات .

ج- التلوين والتمكين.

د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(١٦)–تقسيم التوحيد إلى توحيد للعامة وتوحيد للخاصة وتوحيد لخاصة الخاصة.

أ– هو ما دعا إليه ابن تيمية في تراثه العلمي.

ب– هو ما التزمه الهروي في منازل السائرين .

ج– هو ما التزمه المتكلمون الأشعرية في تقسيماتهم الكلامية.

د– الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(١٧)–الفناء الذي مدحه شيخ الإسلام ابن تيمية.

أ– هو الفناء في الهواء والماء.

ب– هو الفناء عن شهود السوى .

ج– هو الفناء عن وجود السوى.

د– الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(١٨)–قول ابن الفارض: (لها صلواتي بالمقام أقيمها.. وأشهد فيها أنها لي صلت).

أ– يعبر فيه عن عقيدته في وحدة الوجود.

ب– يعبر فيه عن عقيدته في الحلول والاتحاد.

ج– يعبر فيه عن عقيدة المريدين من الصوفية.

د– الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(١٩)– ورد في الصحيح: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

أ– الإحسان درجة ثالثة من درجات الدين بعد الإسلام والإيمان .

ب– الإحسان وصف لازم لدرجتي الإسلام والإيمان التي للمقتصدين والسابقين.

ج– الإحسان هو درجة العارفين في التقسيم الصوفي.

د– الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٢٠)–درجات السالكين في منهج السلف مرتبطة بأسباب محبة الله لهم.

أ– وهي الدرجات التي وردت في حديث الولاية (من عاد لي وليا..)

ب– وهي درجة المقتصدين ودرجة السابقين.

ج– وهي درجة أصحاب الفرائض وأصحاب النوافل والمندوبات.

د– الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٢١)–قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ﴾فاطر:٣٢.

أ– الظالمون لأنفسهم في الآية هم أصحاب الكبائر من المسلمين .

ب– الظالمون لأنفسهم في الآية فيهم من ولاية الله بقدر إيمانهم وتقواهم.

ج– الظالمون لأنفسهم في الآية سيدخلون الجنة ولو بعد حين من العذاب.

د– الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٢٢)–العلة في تقديم العبادة على الاستعانة في فاتحة الكتاب.

أ– من باب تقديم الوسائل على الغايات.

ب– الاستعانة المطلقة تتضمن العبادة من غير عكس.

ج– العبادة صدقته والاستعانة حقه وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته.

د– الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٢٣)–الإخلاص شرط من شروط لا إله إلا الله وهو .

أ– واجب مستحق لدرجة المقربين والسابقين.

ب– واجب مستحق لدرجة المقربين فقط.

ج– واجب مستحق لدرجة السابقين فقط.

د– الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٢٤)–من العلامات الدالة على قيام الإخلاص لله في القلب.

أ– دوام الاستقامة على الموافقة والطاعة.

ب– الجرأة في قول الحق والغيرة من الوقوع في الحرمة والشرك.

ج– صدق الحديث وعدم الغدر والوفاء بالوعد وانتفاء الحقد.

د– الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٢٥)–أعمال الجوارح الدالة على وجود المحبة لله في القلب.

أ– كثرة ذكر الله والاستماع لكلامه والاستمتاع بقراءته.

ب– شد الرحال إلى قبور الأولياء الصالحين.

ج– طاعة المحبوب على غير المتابعة.

د– الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٢٦)–اليقين من أعمال القلوب اللازمة لصحة التوحيد والعبادة، وهو متعلق بالخبر والأمر.

أ– اليقين في الخبر لا بد أن ينفي الوهم والشك والظن.

ب– اليقين في الأمر لا بد فيه من الانقياد والطاعة.

ج– اليقين يتردد بين ضعف اليقين وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين.

د– الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٢٧)–الصدق من أعمال القلوب اللازمة للمقتصدين والسابقين.

أ– وهو توافق قول الجنان مع قول اللسان وفعل الجنان مع حركة الأبدان.

ب– وهو تصديق القلب ومعرفته.

ج– وهو قول اللسان وعمل الجوارح في الطاعة.

د– الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٢٨)–كفر التولي والإعراض .

أ- يصدق على كل أنواع الكفر.

ب- لا يصدق إلا على نوع واحد من أنواع الكفر.

ج- يصدق على الكفر الأصغر دون الكفر الأكبر.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٢٩)-من أنواع الكفر المتعلقة بانتفاء تصديق الخبر .

أ- كفر التكذيب.

ب- كفر الشك.

ج- كفر التكذيب وكفر الشك.

د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٣٠)-من أنواع الكفر المتعلقة بانتفاء تنفيذ الأمر .

أ- كفر الجهل.

ب- كفر الجحود.

ج- كفر النفاق.

د- الإجابة كل ما ورد النقاط السابقة.

(٣١)-مصطلح تصديق القلب يقصد به عند السلف.

أ- العلم والمعرفة.

ب- حكم العقل على صدق الخبر والنفع والضرر في الطلب.

ج- اجتماع علم القلب وعمل القلب معا .

د- الإجابة كل ما ورد النقاط السابقة.

(٣٢)-قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ يونس:٦٢.

أ- الوصف المميز لأولياء الله الصالحين وقوع خوارق العادات لهم.

ب- الوصف المميز لأولياء الله الصالحين محبة الناس لهم .

ج- الوصف المميز لأولياء الله الصالحين بقاء ذكرهم بعد موتهم.
د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٣٣)-الحمار الذي يأتي به دراويش الطريقة الشناوية إلى قبر البدوي في طنطا كل عام.
أ- حمار مبارك لمباركة البدوي له .
ب- هذا الحمار من أولياء الله الصالحين عند الصوفية الشناوية.
ج- كل شعرة من هذا الحمار حجاب فعال لداء عضال.
د- كل ما ورد في النقاط السابقة من أمور الشرك بالله.

(٣٤)-انتفاء عمل القلب كركن من أركان الإيمان .
أ- يؤدي إلى كفر النفاق بشرط وجود عمل الجوارح أو قول اللسان .
ب- كفر الجحود بشرط وجود عمل الجوارح وعلم القلب.
ج- كفر الجهل والتكذيب إذا انتفت بقية الأركان.
د- كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٣٥)-من أولياء الله المعظمين عند الصوفية في بلاد الشام.
أ- ضريح عبد السلام الأسمر.
ب- سلطان المدينة محرز بن خلف.
ج- ضريح يحيى بن يونس الذي يزوج العوانس.
د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٣٦)-من زعم من الأولياء أنه يطلع على اللوح المحفوظ فهو
أ- من أولياء الله الصالحين المكاشفين عند الصوفية.
ب- لا يمكن أن يكون وليا من أولياء الله الصالحين عند السلف.

ج- كاذب لأن اللوح المحفوظ لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٣٧)-كفر أبي طالب عم النبي ﷺ يمكن أن يكون من

أ- كفر جحود لوجود علم القلب وانتفاء قول اللسان.

ب- كفر استكبار وعناد لانتفاء عمل القلب.

ج- كفر أصغر وهو كفر دون كفر.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٣٨)- قال أحد أولياء الصوفية المعظمين كذبا على ربه: (أطلعني الله على اللوح المحفوظ، فلولا التأدب مع جدي رسول الله لقلت: هذا سعيد وهذا شقي) .

أ- القائل هو أبو الحسن الشاذلي.

ب- القائل هو محي الدين بن عربي.

ج- القائل هو إبراهيم الدسوقي.

د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٣٩)-كتاب دلائل الخيرات .

أ- من كتب الأوراد المنتشرة عند أصحاب الحديث.

ب- كتاب فيه توسلات بدعية ودعوة إلى القول بوحدة الوجود.

ج- قراءته أفضل من قراءة القرآن سبعة آلاف مرة.

د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٤٠)-تزعم الصوفية أن أولياءهم يرون رسول الله ﷺ يقظة وزعمهم هذا.

أ- زعم صحيح لقوله النبي ﷺ: مَنْ رَآني في المَنَامِ فَسَيَرَانِي في اليَقَظَةِ.

ب- زعم كاذب لأن الحديث يدل على عموم الناس في كل وقت.

ج- الحديث من العام المخصوص بأهل عصره لأن جمعا كثيرا من السلف قد رأوه في المنام، ولم يذكر أحد منهم أنه رآه في اليقظة.

د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٤١)-دلالة الإيمان عند الإطلاق على علم القلب عند مرجئة الجهمية.

أ- دلالة مطابقة .

ب- دلالة تضمن.

ج- دلالة لزوم.

د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٤٢)-المقصود بمن مات على الإيمان المجمل.

أ- هو من نطق بالشهادتين ومات على نية تصديق الخبر وتنفيذ الأمر إذا علمهما .

ب- هو من نطق بالشهادتين وإن كان معرضا عن العلم جاهلا بالحق .

ج- هو من نطق الشهادتين وإن لم يفعل بجوارحه.

د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٤٣)-المجنون لا يكون من أولياء الله.

أ- لأنه معذور غير مسئول.

ب- لأن الولاية تقرب إلى الله بالفرائض والنوافل وهو لا يفعلها.

ج- لأنه سيبتلى باختبار خاص في الآخرة وعلم اختياره عند الله.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٤٤)-الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان التزام الصراط المستقيم.

أ- من شروط ولي الله أن يكون معصوما لا يخطئ.

ب- لا يجوز أن يشتبه على ولي الله بعض أمور الدين.

ج- لا يجوز أن يخفى على ولي بعض علم الشريعة.
د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٤٥)-الإيمان يدل بالمطابق على قول اللسان.
أ- عند الجهمية.
ب- عند المعتزلة.
ج- عند الكرامية.
د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٤٦)-هل يمكن للشيطان أن يتصور في صورة إنسان؟
أ- نعم يفتن الشيطان الكثير من العوام بمثل هذا التصور.
ب- نعم يفتن الشيطان بعض العابدين فيحسب تجسد الشيطان كرامة له.
ج- دلت نصوص النقل على إمكانية تجسد الشيطان في صورة إنسان أو حيوان.
د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٤٧)- إذا قصد الرجل الصلاة عند قبور الصالحين متبركا بالصلاة في تلك البقعة.
أ- كان فعله قربة إلى الله تعالى بمحبته لأولياء الله الصالحين .
ب- كان عين المحادة لله ولرسوله والمخالفة لدينه وابتداع دين لم يأذن به الله تعالى.
ج- كان مؤمنا في أعلى درجاته الإيمانية.
د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٤٨)-الإيمان عند السلف قول وعمل.
أ- يقصدون بالقول الظاهر منه والباطن وبالعمل الظاهر دون الباطن.
ب- يقصدون بالقول الظاهر منه دون الباطن وبالعمل الظاهر والباطن.

ج- يقصدون قول القلب وعمل القلب وقول اللسان وعمل الجوارح.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٤٩)-من الشرك الأكبر المتعلق بالجوارح.

أ- السجود للضريح ودعائه وطلب المدد منه.

ب- الطواف بالضريح والاستغاثة به.

ج- تعليق التمائم والحلف بغير الله.

د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٥٠)-من الشرك الأصغر المتعلق باللسان.

أ- قول القائل مطرنا بنوء كذا .

ب- الحلف بغير الله.

ج- شرك المبالغة في تسمية الملوك بالسمو والجلالة .

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٥١)-حديث الضرير ليس فيه حجة للتوسل إلى الله بالذات النبوية.

أ- لأن توسل الأعمى إنما كان بدعاء النبي ﷺ.

ب- أن الدعاء الذي علمه رسول الله إياه لا يدل على التوسل بالذات.

ج- الإجابة ما ورد في النقاط أ ، ب.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٥٢)-الإيمان المطلق عند مرجئة الفقهاء .

أ- يدل بالمطابقة على علم القلب.

ب- يدل بالتضمن على علم القلب وقول اللسان.

ج- يدل بالمطابقة على قول اللسان.

د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٥٣)–من شروط الشفاعة التي يقبلها الله تعالى في الآخرة .

أ– أن يكون المشفوع له موحدا مأذونا له بالشفاعة فيه.

ب– أن يكون الشافع موحدا مأذونا له بالشفاعة.

ج– الإذن بنوعية الشفاعة.

د– الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٥٤)–الخلاف بين السلف والخوارج .

أ– مرده إلى الخلل في انتفاء ركن من أركان الإيمان.

ب– مرده إلى القول أو عدم القول بزيادة الإيمان ونقصانه.

ج– مرده الشرك الأكبر.

د– الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٥٥)–دعوى الشعراني في قيام البدوي من قبره ليسوق الناس إلى مولده.

أ– يمكن اعتبارها من كرامات الأولياء.

ب– نوع من الكذب والاستخفاف بعقول العوام من الصوفية.

ج– يمكن اعتبارها نوعا من المبالغة المشروعة.

د– الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٥٦)–قال ابن عربي: (والمجمع عليه من أهل الطريق أن الأولياء على ست طبقات أمهات).

أ– وهم ٣٠٠ أخيار ٤٠ أبدال ٧ أبرار ٤ أوتاد ٣ نقباء ٢وزراء ١ غوث.

ب– وهم أقطاب، وأئمة، وأوتاد، وأبدال، ونقباء، ونجباء.

ج– وهم ٤ أقطاب ٤٠ أبدال ٢وزراء ١ خليفة.

د– الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٥٧)–السلف يعتقدون الزيادة والنقصان في أركان الإيمان .

أ– لأن النقل والعقل يدلان على ذلك.

ب- لأن أركان الإيمان بين نجدين متقابلين معروضين أمام إرادة الإنسان.

ج- لأنه الإنسان مبتلى بين درجة الملائكة ودرجة الشيطان.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٥٨)-الإيمان يدل بالتضمن عند السلف .

أ- على علم القلب وقول اللسان.

ب- على علم القلب وعمل القلب .

ج- عمل القلب وعمل الجوارح.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٥٩)-عمل الجوارح عند السلف .

أ- شرط في صحة الإيمان.

ب- شرط في كمال الإيمان .

ج- يدل على عمل القلب بدلالة اللزوم إن لم يكن منافقا.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٦٠)- قول القائل: (فإنا أعبدٌ حقا وإن الله مولانا وإنا عينه فاعلم إذا ما قلت إنسانا) .

أ- يدل على محبة الله التي أمر بها.

ب- يدل على مذهب الحلولية والاتحادية .

ج- يدل على مذهب وحدة الوجود.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٦١)- من الوجوه الدالة على زيادة الإيمان ونقصانه .

أ- أنه لا يجب في أول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله.

ب- أن لا يجب على كل عبد من الإيمان المفصل ما يجب على الآخر.

ج- أن الإنسان قد يكون مكذبا ومنكرا لأمور لا يعلم أن الرسول ﷺ أخبر بها أو أمر بها، ولو علم ذلك لم يكذب ولم ينكر.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٦٢)-قول الطحاوي: (ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه).

أ- يصح لو قيل: يخرج العبد من الإيمان بكفر الجحود وغيره.

ب- كلام الإمام الطحاوي يصح على اعتبار مذهبه في الإرجاء.

ج- يحدث لا محالة تعارضا بين المعقول والمنقول.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٦٣)-لا يكفر من أكره على كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان.

أ- بدليل ما حدث لعمار بن ياسر حين عذب حتى سب النبي ﷺ.

ب- بل يكفر لأن قول اللسان ركن من أركان الإيمان.

ج- بل يكفر لأن سب النبي ﷺ كفر مخرج من الملة .

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٦٤)-الذنوب التي لا تخرج عن الملة تنقسم إلى صغائر وكبائر.

أ- عند السلف لدلالة نص القرآن والسنة.

ب- لا تخلد صاحبها في النار عند المعتزلة .

ج- لا تخلد صاحبها في النار عند الخوارج.

د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٦٥)-معنى قول السلف لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار.

أ- أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف ما يلحقها بالصغائر.

ب- أن الصغيرة قد يقترن بها من الاستهانة ما يلحقها بالكبائر.

ج- أن التوبة والاستغفار يذهبان الكبائر والصغائر.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٦٦)-سب الدين أو سب الله أو سب رسوله ﷺ.

أ- لا يكفر الساب حتى يسأل عن قصده ونيته.
ب- يكفر باتفاق الفقهاء ولو كان مازحا لانتفاء قول اللسان.
ج- لا يكفر الساب إلا إذا كان جادا أو جاحدا.
د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٦٧)-تعريف الصغائر من الذنوب.
أ- هو ما دون الحدين والمراد بالحدين عقوبة الدنيا والآخرة.
ب- هي ما دون الشرك الأكبر.
ج- هي ما دون الكفر بالله المترتب على ترك العمل.
د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٦٨)-من أجناس المحرمات التي لا توبة للعبد إلا بالتخلص منها.
أ- الكفر وهو نوعان، كفر أكبر، وكفر أصغر.
ب- الشرك وهو نوعان أكبر وأصغر.
ج- النفاق وهو نوعان أكبر وأصغر.
د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٦٩)-هل يلزم من نفي الإيمان المطلق عن الإنسان خروجه عن الملة؟
أ- يلزم لأن الإيمان له أربعة أركان.
ب- لا يلزم لأن معه مطلق الإيمان.
ج- يلزم أن يكون في منزلة بين المنزلتين.
د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٧٠)-هل شعب الإيمان متلازمة في الانتفاء والثبوت أو غير متلازمة.
أ- متلازمة في الانتفاء والثبوت عند الخوارج.
ب- متلازمة في الانتفاء والثبوت عند المعتزلة.

ج- غير متلازمة في الانتفاء والثبوت عند السلف.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٧١)-من الكبائر المتعلقة بالقلب والكائنة في منطقة الكسب.

أ- الكبر والعجب والرياء وسوء الظن ومودة أعداء الله.

ب- حديث النفس الأمارة بالسوء.

ج- وسواس الشيطان بسب الدين.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٧٢)-المقصود بأن شعب الإيمان قد تتلازم عند القوة ولا تتلازم عند الضعف.

أ- أن القلب إذا قوي الإيمان فيه أوجب بغض أعداء الله وعدم مودتهم.

ب- أن ضعف الإيمان قد يوجد معه نوع مولاة لغير الله .

ج- أن زيادة الإيمان ترفع قوته ودرجته في جميع الأركان .

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٧٣)-موقف السلف من الاستثناء في الإيمان.

أ- جواز الاستثناء على اعتبار ما سيقع من أعمال الإيمان.

ب- تحريم الاستثناء في الإيمان لأن العمل غير داخل في مسماه .

ج- جواز الاستثناء فيما مضى من أعمال الإيمان خشية الاغترار .

د- الإجابة ما ورد في النقاط أ ، ج.

(٧٤)-عبوديات الجوارح جعلها ابن القيم على خمس وعشرين على اعتبار.

أ- أحكام التكليف في كل حاسة من الحواس الخمسة.

ب- على اعتبار تعلقها بالقلب .

ج- على اعتبار تعلقها باللسان .

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٧٥)-من أوجه الرد على من وصف المنهج السلفي بالتكفيري.

أ- أن أهل السنة لا يكفرون من خالفهم وإن كان المخالف يكفرهم.

ب- أن الإمام أحمد وعامة الأئمة لم يكفروا شخصا بعينه إلا بضوابط محققة.

ج- التكفير بغير ضوابط تجاوز لحق لله، فلا يكفر إلا من كفره الله ورسوله.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٧٦)-هل في حق اللسان كلام مباح متساوي الطرفين؟

أ- باعتبار القول فالكلام إما له وإما عليه.

ب- باعتباره جارحة تتبع أعمال الجوارح ففي حقه كلام مباح.

ج- ما ورد في أ ، ب.

د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٧٧)-تعتبر الكتابة والإشارة باليد والرأس .

أ- من أعمال الجوارح اللازمة لأركان الإيمان .

ب- من البدائل لقول اللسان وهي جزء من القول.

ج- من أعمال اللسان التابعة لعمل الجوارح.

د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٧٨)-تقسيم الكفر إلى كفر اعتقادي أكبر وكفر عملي أصغر تقسيم باطل.

أ- لأنه مخالف للأصول القرآنية والنبوية .

ب- لأنه تقسيم موهم فالسجود للصنم كفر أكبر وليس كفرا أصغر.

ج- تقسيم من ابتداع المرجئة وإن استعمله بعض المنتسبين للسلف.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٧٩)-يلزم للحكم بتكفير المسلم .

أ- أن يقوم الدليل على أن هذا الشيء مما يكفر.

ب- انطباق الحكم على القائل أو الفاعل المتعمد.

ج- ألا يكون معذورا بجهلة.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٨٠)-قول الإمام الطحاوي: (ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله) كلام موهم وفيه نظر.

أ- لأن الكفر قد يكون بالقول والعمل.

ب- لأن الأصوب الالتزام بتقسيم الكفر إلى أكبر وأصغر.

ج- لأنه قد يكفر العبد بفعل الذنب وهو غير مستحل له.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٨١)-أول ما يجب على المكلف.

أ- هو الشك الموجب لليقين.

ب- هو النظر أو القصد إلى النظر في الآيات الكونية.

ج- هو الشهادتان وتوحيد العبادة لله .

د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٨٢)-الصبر عند الهروي من أنكر الأشياء في طريق التوحيد، وكلامه باطل.

أ- لأنه ظن أن الصبر فيه دعوى الثبات وهي مصادمة للتجريد.

ب- لأن الصبر من آكد المنازل في طريق المحبة.

ج- لأن الله تعالى وصف خاصة أوليائه وأحبابه بالصبر.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٨٣)-لماذا كان الرضا بالله عند السلف أكمل من الرضا عند الصوفية؟

أ- لأنه الرضا عند السلف متعلق بالإلوهية.

ب- لأنه الرضا عند الصوفية متعلق بالربوبية.

ج- لأنه الرضا المتعلق بالإلوهية أكمل من الرضا المتعلق بالربوبية.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٨٤)- متى يعذر الجاهل بجهله؟

أ- الجاهل معذور بجهله على كل حال.

ب- الجاهل معذور بجهله إذا لم يكن الجهل من كسبه وسعيه.

ج- ما ورد في أ ، ب.

د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٨٥)-من الأدلة النقلية على وجوب الولاء للمؤمنين والبراء من الكافرين

أ- قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ﴾ الممتحنة:١٣.

ب- قوله: ﴿ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨ ﴾النساء:١٣٨.

ج- قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ المائدة:٢.

د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٨٦)-الوسطية في الولاء والبراء توجب.

أ- التعامل مع غير المسلمين بآداب الإسلام.

ب- دعوة غير المسلمين إلى الجنة وإطفاء نار الكفر والشرك.

ج- حرمة دماء أهل الذمة إذا وفوا بذمتهم.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٨٧)–من مظاهر الغلو في الولاء والبراء.

أ– التكفير بالذنوب والمعاصي كما تفعل الخوارج.

ب– استباحة دماء أو أموال أهل الكتاب بغير ما شرعه الله.

ج– ما ورد في أ ، ب.

د– الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٨٨)–هل يعذر بالجهل من وقع في الكفر تقليدا واتباعا؟

أ– لا يعذر.

ب– يعذر على كل حال.

ج– إذا عذر من وقع في الكفر متأولا رغم علمه واجتهاده، فعذر من يقلده من العوام الجهال من باب أولى.

د– الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٨٩)–حب الصحابة إيمان وبغضهم نفاق وكفران وعلة ذلك

أ– أن محبتهم أوجبها الله على المكلفين وطاعة الله من الإيمان.

ب– أن الصحابة تقاتلوا في معركة الجمل.

ج– ما ورد في أ ، ب.

د– الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٩٠)–تقسيم الدين إلى أصول لا يعذر بالجهل فيها وفروع يعذر فيها.

أ– تقسيم مبتدع لا دليل عليه ولا يعرف عن السلف.

ب– أن المجتهد المخطيء لا في الأصول ولا في الفروع.

ج– ما ورد في أ ، ب.

د– الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٩١)–خير هذه الأمة بعد نبيِّها ﷺ.

أ- الخلفاء الراشدون المهديّون على الترتيب.

ب- العشرة المبشرون بالجنة الذين سماهم رسول الله ﷺ.

ج- آل بيت النبي ﷺ الذين حرمت عليهم الصدقة في عصر النبوة.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٩٢)-السبب في شرك الربوبية.

أ- هو تشبيه المخلوق بالخالق.

ب- هو التشبيه بالخالق.

ج- هو تشبيه الخالق بالمخلوق.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٩٣)-ما يجب على المسلم نحو ولاة الأمر.

أ- السمع والطاعة في غير معصية الله.

ب- عدم الخروج عليهم وإن جاروا ما أقاموا في المسلمين الصلاة.

ج- ما ورد في أ ، ب.

د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٩٤)-أركان كفر العناد والاستكبار .

أ- انتفاء عمل الجوارح لأنه الركن المؤثر في وصف الكفر.

ب- وجود قول اللسان وقول القلب .

ج- انتفاء عمل القلب باللزوم.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٩٥)-السبب في شرك الأسماء والصفات.

أ- هو تشبيه المخلوق بالخالق.

ب- هو التشبيه بالخالق.

ج- استخدام قياس التمثيل والشمول في حق الخالق.
د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

(٩٦)-المهدي المنتظر الذي دلت عليه النصوص الصحيحة.
أ- هو مهدي الشيعة محمد بن الحسن العسكري.
ب- هو رجل من آل البيت يُواطِئُ اسمُهُ واسمُ أبيهِ اسم النبي وأبيه.
ج- ما ورد في أ ، ب.
د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٩٧)-المبادرة إلى التوبة من الذنب .
أ- فرض على التراخي.
ب- فرض على الفور ولا يجوز تأخيرها وإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى وهي توبته من تأخير التوبة.
ج- ما ورد في أ ، ب.
د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(٩٨)-مصطلح التوبة من التوبة.
أ- مستخدم عند العارفين من الصوفية.
ب- مصطلح باطل من ابتداعات الصوفية.
ج- مصطلح يحمل في طياته الكثير من أنواع الضلال.
د- الإجابة كل ما ورد النقاط السابقة.

(٩٩)- لزوم الجماعة والنهي عن التفرق والاختلاف.
أ- لا يمنع أن يكون الاختلاف بين المسلمين واقع بالإرادة الكونية.
ب- لزوم الجماعة يعني لزوم الحق ولو كان وحده.
ج- ما ورد في أ ، ب.

د- الإجابة ليست في النقاط السابقة.

(١٠٠)- أصول الإيمان عند السلف توافق الفطرة في نقائها وسلامتها ويقبلها العقل في منطقيتها وبساطتها.

أ- لأنها مبنية على تصديق الخبر وتنفيذ الطلب.

ب- لأنها مبنية على أن العقل الصريح لا يعارض النقل الصحيح.

ج- لأنها مبنية على أن الذي خلق العقل هو الذي أرسل إليه النقل ومن المحال أن يرسل إليه ما يفسده.

د- الإجابة كل ما ورد في النقاط السابقة.

انتهت الأسئلة

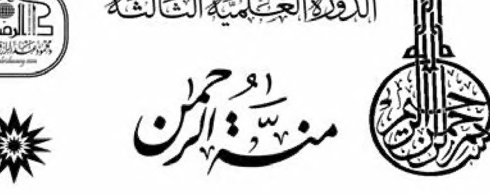
وفقكم الله إلى ما يحبه ويرضاه

وإلى التعرف على منهج أهل السنة والجماعة

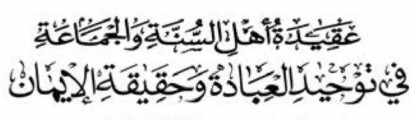
والعمل بمقتضاه

وكتبه

ا.د. محمود عبد الرازق الرضواني







اختبار الدورة الثالثة ١٤٣١هـ

الزمن: ساعتان

الاسم الرباعي : .... **الهاتف:** ....

العنوان البريدي : ....

يرجى استخدام قلم رصاص أسود اللون

(١)- أ○ ب○ ج○ د●
(٢)- أ○ ب○ ج○ د●
(٣)- أ● ب○ ج○ د○
(٤)- أ○ ب○ ج○ د●
(٥)- أ○ ب○ ج● د○
(٦)- أ● ب○ ج○ د○
(٧)- أ○ ب○ ج○ د●
(٨)- أ○ ب○ ج○ د●
(٩)- أ○ ب● ج○ د○
(١٠)- أ○ ب○ ج○ د●
(١١)- أ○ ب○ ج● د○
(١٢)- أ○ ب○ ج○ د●
(١٣)- أ○ ب● ج○ د○
(١٤)- أ○ ب● ج○ د○
(١٥)- أ○ ب○ ج○ د●
(١٦)- أ○ ب● ج○ د○
(١٧)- أ○ ب○ ج○ د●
(١٨)- أ○ ب● ج○ د○
(١٩)- أ○ ب● ج○ د○
(٢٠)- أ○ ب○ ج○ د●
(٢١)- أ○ ب○ ج○ د●
(٢٢)- أ○ ب○ ج○ د●
(٢٣)- أ● ب○ ج○ د○
(٢٤)- أ○ ب○ ج○ د●
(٢٥)- أ● ب○ ج○ د○
(٢٦)- أ○ ب○ ج○ د●
(٢٧)- أ● ب○ ج○ د○
(٢٨)- أ● ب○ ج○ د○
(٢٩)- أ○ ب○ ج● د○
(٣٠)- أ○ ب○ ج○ د●
(٣١)- أ○ ب○ ج● د○
(٣٢)- أ○ ب○ ج○ د●
(٣٣)- أ○ ب○ ج○ د●
(٣٤)- أ● ب○ ج○ د○
(٣٥)- أ○ ب○ ج○ د●
(٣٦)- أ○ ب○ ج○ د●
(٣٧)- أ● ب○ ج○ د○
(٣٨)- أ● ب○ ج○ د○
(٣٩)- أ○ ب● ج○ د○
(٤٠)- أ○ ب○ ج● د○
(٤١)- أ● ب○ ج○ د○
(٤٢)- أ● ب○ ج○ د○
(٤٣)- أ○ ب○ ج○ د●
(٤٤)- أ○ ب○ ج○ د●
(٤٥)- أ○ ب○ ج● د○
(٤٦)- أ○ ب○ ج○ د●
(٤٧)- أ○ ب● ج○ د○
(٤٨)- أ○ ب○ ج● د○
(٤٩)- أ○ ب○ ج○ د●
(٥٠)- أ○ ب○ ج○ د●
(٥١)- أ○ ب○ ج● د○
(٥٢)- أ○ ب○ ج○ د●
(٥٣)- أ○ ب○ ج○ د●
(٥٤)- أ○ ب● ج○ د○
(٥٥)- أ○ ب● ج○ د○
(٥٦)- أ○ ب● ج○ د○
(٥٧)- أ○ ب○ ج● د○
(٥٨)- أ○ ب○ ج○ د●
(٥٩)- أ○ ب○ ج● د○
(٦٠)- أ○ ب○ ج● د○
(٦١)- أ○ ب○ ج○ د●
(٦٢)- أ○ ب○ ج○ د●
(٦٣)- أ● ب○ ج○ د○
(٦٤)- أ● ب○ ج○ د○
(٦٥)- أ○ ب○ ج○ د●
(٦٦)- أ○ ب● ج○ د○
(٦٧)- أ● ب○ ج○ د○
(٦٨)- أ○ ب○ ج○ د●
(٦٩)- أ○ ب● ج○ د○
(٧٠)- أ○ ب○ ج○ د●
(٧١)- أ● ب○ ج○ د○
(٧٢)- أ○ ب○ ج○ د●
(٧٣)- أ○ ب○ ج○ د●
(٧٤)- أ● ب○ ج○ د○
(٧٥)- أ● ب○ ج○ د○
(٧٦)- أ○ ب○ ج● د○
(٧٧)- أ○ ب● ج○ د○
(٧٨)- أ○ ب○ ج○ د●
(٧٩)- أ○ ب○ ج○ د●
(٨٠)- أ○ ب○ ج○ د●
(٨١)- أ○ ب○ ج● د○
(٨٢)- أ○ ب○ ج○ د●
(٨٣)- أ○ ب○ ج○ د●
(٨٤)- أ○ ب● ج○ د○
(٨٥)- أ● ب○ ج○ د○
(٨٦)- أ○ ب○ ج○ د●
(٨٧)- أ○ ب○ ج● د○
(٨٨)- أ○ ب○ ج● د○
(٨٩)- أ● ب○ ج○ د○
(٩٠)- أ○ ب○ ج● د○
(٩١)- أ○ ب○ ج○ د●
(٩٢)- أ○ ب● ج○ د○
(٩٣)- أ○ ب○ ج● د○
(٩٤)- أ○ ب○ ج○ د●
(٩٥)- أ○ ب○ ج● د○
(٩٦)- أ○ ب● ج○ د○
(٩٧)- أ○ ب● ج○ د○
(٩٨)- أ○ ب○ ج○ د●
(٩٩)- أ○ ب○ ج● د○
(١٠٠)- أ○ ب○ ج○ د●

وفقكم الله إلى ما يحبه ويرضاه وإلى التعرف على منهج أهل السنة والجماعة والعمل بمقتضاه

أ.د/ محمود عبد الرازق الرضواني